

تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونٍ

المُسْتَمْتَعُ

وَيَوْلَانِ اللَّيْثِيَّةِ وَالْخَبْرِيَّ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ وَالسُّبْرِيَّ
وَمِنْ عَامِرِ هَمَّ مِنْ ذَوِي السَّائِةِ الْأَكْبَرِ

مُتَّالِفٌ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُونٍ

٧٣٢-٨٠٨ هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦ م

مراجعة الدكتور

سهيل زكار

ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس

الاستاذ خليل شحادة

طبعة مُسْتَكْمَلَةٌ وَمُقَارِنَةٌ مَعَ عِدَّةِ نَسَخٍ
وَمَخْطُوطَاتٍ وَمُذَيَّلَةٌ بِحَوَاشِيٍّ وَشُرُوحٍ وَتَمْتَّازُ
بِفَهَارِسٍ لِلْمَوْضُوعَاتِ وَالْأَعْلَامِ وَالْأَمَاكِنِ الْجُغْرَافِيَّةِ

الجزء السابع

دار الفكر

جميع حقوق إعادة الطبع محفوظة للناشر

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darlfikr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfikr.com.lb



حارة حريك - شارع عبد النور - برقيًا: فكيك - صرب: ١١/٧٠٦١

تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣

فاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٩٩٠٤



* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

الخبر عن زناة من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من العز
والظهور وما تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة

هذا الجيل في المغرب جيل قديم العهد معروف العين والأثر ، وهم لهذا العهد آخذون
من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض
وإيلاف الرحلتين ، وتخطف الناس من العمران والإبابة عن الانقياد للنصفة .
وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها ، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة^(١)
البربر . ومواطنهم في سائر مواطن البربر بأفريقية والمغرب ، فمنهم ببلاد النخيل ما بين
غدامس والسوس الأقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم كما
نذكره . ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي أفريقية ، وبجبل أوراس
بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلالين لهذا العهد ، وأذعنوا لحكمهم ، والأكثر منهم
بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال : وطن زناة . ومنهم
بالمغرب الأقصى أمم أخرى ، وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربين ، وكانت لهم
فيه دول أخرى في القديم ، ولم يزل الملك يتداول في شعوبهم حسبما نذكره بعد لكل
شعب منهم إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة أخرى : رطاناتهم .

* (الخبر عن نسبة زناته وذكر الخلاف الواقع فيه

وتعديد شعوبهم) *

أما نسبهم بين البربر فلا خلاف بين نسابتهم أنهم من ولد شانا وإليه نسبهم ، وأما شانا فقال أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة ، قال بعضهم : هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورمك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر^(١) . وقال أيضاً في كتاب الجمهرة ذكر لي يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد يعني حين وفد على قرطبة عن أبيه الثائر بأفريقية أيام الناصر قال : هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورساك بن ضري بن مقبو بن قروال بن يملا بن مادغيس بن رحيك^(٢) بن همرحق ابن كراد بن مازيغ بن هراك بن هرك بن برا بن بربر بن كنعان بن حام هذا ما ذكره ابن حزم . ويظهر منه أن مادغيس ليس نسبة إلى البربر وقد قدمنا ما في ذلك من الخلاف ، وهو أصح ما ينقل في هذا الآن ابن حزم موثوق ولا يعدل به غيره .

(ونقل) عن ابن أبي ريد وهو كبير زناته ويكون البربر على هذا من نسل برنس فقط ، والبر الذين هم بنو مادغيس الأبتري ليسوا من البربر ومنهم زناته وغيرهم كما قدمنا لكنهم إخوة البربر لرجوعهم كلهم إلى كنعان بن حام كما يظهر من هذا النسب .

(ونقل) عن أبي محمد بن قتيبة في نسب زناته هؤلاء أنهم من ولد جالوت في رواية أن

(١) ورد في جمهرة انساب العرب لابن حزم ص ٤٩٥ ان زناته هوشانا ابن يحيى بن صولات بن ورتناج بن ضري بن سَقْفُوبِ بن جُنْدُوَازِ بن يَمْلَا بن مادغيس بن هرك بن هرسق بن كراد بن مازيغ بن هراك بن هريك بن بدا بن بديان بن كنعان بن حام بن نوح النبي (صلى الله عليه وسلم) .

(٢) كذا في قبائل المغرب وفي نسخة أخرى من ابن خلدون زجيك وفي مراجع أخرى زجيك (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري) .

زناة هو جانا بن يحيى بن ضريس بن جالوت ، وجالوت هو ونور بن جرييل^(١) بن
جديلان بن جاد بن رديلان بن حصي بن باد بن رحيك بن مادغيس الأبتري بن قيس
بن عيلان .

(وفي) رواية أخرى عنه أن جالوت بن جالود بن بردنال^(٢) بن قحطان بن فارس ،
وفارس مشهور .

(وفي) رواية أخرى عنه أنه ابن هربال^(٣) بن بالود بن ديال بن برنس بن سفك ، وسفك
أبو البربر كلهم ، ونسابة الجليل نفسه من زناة يزعمون أنهم من حمير ، ثم من
التبابعة منهم^(٤) . وبعضهم يقول أنهم من العماقة ، ويزعمون أن جالوت جدّهم من
العماقة ، . والحقّ فيهم ما ذكره أبو محمد بن حزم أولاً وما بعد ذلك فليس شيء منه
بصحيح . فأما الرواية الأولى عن أبي محمد بن قتيبة فمختلطة وفيها أنساب متداخلة .
وأما نسب مادغيس إلى قيس عيلان فقد تقدّم في أول كتاب البربر عند ذكر أنسابهم
وأن أبناء قيس معروفون عند النسابة . وأما نسب جالوت إلى قيس فأمر بعيد عن
القياس ، ويشهد لذلك أن معدّ بن عدنان الخامس من آباء قيس إنما كان معاصراً
لبختنصر كما ذكرناه أول الكتاب . وأنه لما سلط على العرب أوحى الله إلى أرمياء
نبيّ بني إسرائيل أن يخلص معدّاً ويسير به إلى أرضه ، وبختنصر كان بعد داود بما
يناهز أربعائة وخمسين من السنين ، فإنه خرّب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان له
بمثل هذه المدّة .

فعدّ متأخّر عن داود بمثلها سواء ، فقيس الخامس من أبنائه متأخّر عن داود بأكثر
من ذلك ، فجالوت على ما ذكر أنه من أبناء قيس متأخّر عن داود بأضعاف ذلك
الزمن . وكيف يكون ذلك مع أن داود هو الذي قتل جالوت بنصّ القرآن ؟
(وأما) إدخاله جالوت في نسب البربر ، وأنه من ولد مادغيس أو سفك فخطأ ،

(١) وفي نسخة أخرى : هرييل .

(٢) وفي نسخة أخرى : بن ديال .

(٣) وفي نسخة أخرى : ابن هوبال .

(٤) يقول ابن حزم في الجمهرة : (وادعت طوائف منهم إلى اليمن ، إلى حمير ، وبعضهم إلى برّ بن قيس
عيلان وهذا باطل لا شك فيه . . وما علم النسابون لقيس عيلان ابناً اسمه برّ أصلاً . ولا كان لحمير طريق
إلى بلاد البربر ، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن) . ص ٤٩٥ .

وكذلك من نسبه إلى العماقة . والحق أن جالوت من بني فلسطين بن كسلوحيم بن
مصرأيم بن حام أحد شعوب حام بن نوح ، وهم إخوة القبط والبربر والحبشة
والنوبة كما ذكرناه في نسب أبناء حام . وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل
حروب كثيرة ، وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم ، ومن سائر أولاد كنعان
يضاهونهم فيها ، ودثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبها لهذا العهد ، ولم يبق إلا
البربر ، واختص إسم فلسطين بالوطن الذي كان لهم فاعتقد سامع إسم البربر مع ذكر
جالوت أنه منهم وليس كذلك .

(وأما) ما رأي نسبة زناتة أنهم من حمير فقد أنكره الحافظان أبو عمر بن عبد البر
وأبو محمد بن حزم وقالوا ما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في أكاذيب مؤرخي
اليمن ، وإنما حمل نسبة زناتة على الانتساب في حمير الترفع عن النسب البربري لما
يروونهم في هذا العهد خوفاً وعبيداً للجباية وعوامل الخراج ، وهذا وهم فقد كان في
شعوب البربر من هم مكافئون لزناتة في العصبية أو أشد منهم مثل هواره ومكناسة ،
وكان فيهم من غلب العرب على ملكهم مثل كتامة وصنهاجة ومن تلقف الملك من يد
صنهاجة مثل المصامدة ، كل هؤلاء كانوا أشد قوة وأكثر جمعاً من زناتة . فلما فنيت
أجيالهم أصبحوا مغلبين فنالهم ضر المغرم ، وصار إسم البربر مختصاً لهذا العهد بأهل
المغرم ، فأنف زناتة منه فراراً من الهزيمة .

وأعجبوا بالدخول في النسب العربي لصراحته وما فيه من المزية بتعدد الأنبياء ولا
سيما نسب مضر وأنهم من ولد اسمعيل بن ابراهيم بن نوح بن شيث بن آدم ، خمسة
من الأنبياء ليس للبربر إذا نسبوا إلى حام مثلها مع خروجهم عن نسب ابراهيم الذي
هو الأب الثالث للخليقة إذ الأكثر من أجيال العالم لهذا العهد من نسله . ولم يخرج
عنه لهذا العهد إلا الأقل مع ما في العربية أيضاً من عز التوحش ، والسلامة من
مذمومات الخلق بانفرادهم في البيداء . فأعجب زناتة نسبهم وزينه لهم نسبتهم ،
والحق بمعزل عنه ، وكونهم من البربر بعموم النسب لا ينافي شعارهم من الغلب
والعز ، فقد كان الكثير من شعوب البربر مثل ذلك وأعظم منه . وأيضاً فقد تميزت
الخليقة وتباينوا بغير واحد من الأوصاف ، والكل بنو آدم ونوح من بعده . وكذلك
تميزت العرب وتباينت شعوبها والكل لسام ولا سمعيل بعده .

(وأما) تعدد الأنبياء في النسب فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولا يضرك الاشتراك

مع الجيل^(١) في النسب العام إذا وقعت المباينة لهم في الأحوال التي ترفع عنهم ، مع أن المذلة للبربر إنما هي حادثة بالقلّة ودثور أجيالهم بالملك الذي حصل لهم ، ونفقوا في سبله وترفه كما تقدّم لك في الكتاب الأوّل من تأليفنا . وإلا فقد كان لهم من الكثرة والعزّ والملك والدولة ما هو معروف .

(وأما) أنّ جيل زنّاة من العمالقة الذين كانوا بالشام فقول مرجوح وبعيد عن الصواب لأن العمالقة الذين كانوا بالشام صنفان . عمالقة من ولد عيصوبن إسحق ، ولم تكن لهم كثرة ولا ملك ، ولا نقل أن أحداً منهم انتقل إلى المغرب بل كانوا لقلّتهم ودثور أجيالهم أخفى من الخفاء . والعمالقة الأخرى كانوا من أهل الملك والدولة بالشام قبل بني إسرائيل وكانت أريحاء دار ملكهم . وغلب عليهم بنو إسرائيل وابتزّوهم ملكهم بالشام والحجاز وأصبحوا حصائد سيوفهم ، فكيف يكون هذا الجيل من أولئك العمالقة الذين دثرت أجيالهم ؟ وهذا لو نقل لوقع به الاسترابة فكيف وهو لم ينقل ؟ هذا بعيد في العبادة والله أعلم بخلقه .

(وأما) شعوب زنّاة وبطونهم فكثير^(٢) ولنذكر المشاهير منها (فنقول) : اتفق نسّاب زنّاة على أن بطونهم كلها ترجع إلى ثلاثة من ولد جانا وهم : ورسيك وفرني والديرت^(٣) . هكذا في كتب أنساب زنّاة . (وذكر) أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة له من ولد ورسيك عند نيابتهم مسّارت ورغاي وواشروجن ، ومن واشروجن واريغن بن واشروجن . وقال أبو محمد بن حزم في ولد ورسيك أنهم مسّارت وناجرت وواسين^(٤) .

(وأما) فرني بن جانا فمن ولده عند نسّابة زنّاة يزمرتن ومرنجيصة ووركلة ونمالة

(١) وفي نسخة أخرى : مع أهل الجيل .

(٢) قوله : وأما شعوب الخ . بهامش ما نصّه من هنا إلى الشجرة الآتية أسماء بربرية لا يمكن ضبطها بل ولا النطق بها كما هي في لسانهم ولا يتعلق بها غرض مهم . اهـ . (كتبه حسن العطار) وتزيد بأن هذه الاسماء تختلف من مرجع إلى آخر من المراجع التي تناولت تاريخ البربر وهذا التحريف في الاسماء ليس له أي أهمية في سرد الحوادث التاريخية ولكن رأينا أن نشير إلى هذه الأسماء لاطلاع القارئ الكريم إلى هذا الاختلاف .

(٣) وفي نسخة ثانية : ورشيل وفريني والديدت . وفي جمهرة أنساب العرب ورسيج والديديت وفريني (ص ٤٩٦) .

(٤) وفي نسخة ثانية تاجرة وراسين وفي الجمهرة : بني تاجرة وبني واسين وفي النسخة الباريسية باجرة .

وسبرتره ، ولم يذكر أبو محمد بن حزم سبرتره وذكر الأربعة الباقية . (وأما) الدير
ابن جانا فمن ولده عند نسابة زناتة جداو^(١) بن الدير ، ولم يذكره ابن حزم . وإنما
قال عند ذكر الدير ومن شعوبه : بنوورسيك بن الدير وهم بطنان دمر بن
ورسيك وزاكيا بن وورسيك قال : ودمر لقب واسمه الغانا . قال : فمن ولد زاكيا بنو
مغراو وبنويفرن وبنو واسين . قال : وأمهم واسين مملوكة لأم مغراو وهم ثلاثهم بنو
يصلتن بن مسرا بن زاكيا . ويزيد نسابة زناتة في هؤلاء يرنيات بن يصلتن أختاً لمغراو
ويفرن وواسين ولم يذكره ابن حزم .

قال : ومن ولد دمر بنوورنيدي بن وانتن بن وارديرن بن دمر ، وذكر لبني دمر أفخاذاً
سبعة وهم عرازول ولقورة وزناتين^(٢) ، وهؤلاء الثلاثة مختصون بنسب دمر ، وبرزال
ويصدرين وصغمان ويظوفت ، هكذا ذكر أبو محمد بن حزم وزعم أنه من إماء
أبي بكر بن يكنى البرزالي الأباضي . وقال فيه : كان ناسكاً عالماً بأنسابهم ، وذكر
أن بني واسين وبني برزال كانوا أباضية وأن بني يفرن ومغراوة كانوا سنية . وعند نسابة
البربر مثل سابق بن سليمان المطاطي وهانيء بن يصدور^(٣) والكومي وكهلان بن أبي
لوا ، وهو مسطر في كتبهم أن بني وورسيك بن الدير بن جانا ثلاثة بطون وهم بنو
زاكيا وبنو دمر وأنشة بنو آنش ، وكلهم بنو وارديرن بن وورسيك ، فمن زاكيا بن
وارديرن أربعة بطون : مغراوة وبنويفرن وبنويرنيان وبنو واسين ، كلهم بنو يصلتن
ابن مسرا بن زاكيا ومن آنش بن وارديرن أربعة بطون : بنوبرنال وبنوصقعات وبنو
يصدورين وبنو يظوفت كلهم بنو آنش بن وارديرن ومن دمر ابن وارديرن ثلاثة
بطون : بنو تقورت وبنو عزرول وبنو ورتاتين كلهم بنو وتيد^(٤) بن دمر ، هذا الذي
ذكره نسابة البربر وهو خلاف ما ذكره ابن حزم . ويذكر نسابة زناتة آخرين من
شعوبهم ولا ينسبونهم مثل يحفش وهم أهل جبل قازاز قريب مكناسة وسنجاسن
وورسيغان وتحليلة وتيسات وواغمرت وتيفراض ووجديجن وبنو بلومو وبنو ومانى^(٥)
وبنو توجين على أن بني توجين ينتسبون في بني واسين نسباً ظاهراً صحيحاً بلا شك

(١) وفي نسخة أخرى : جراد .

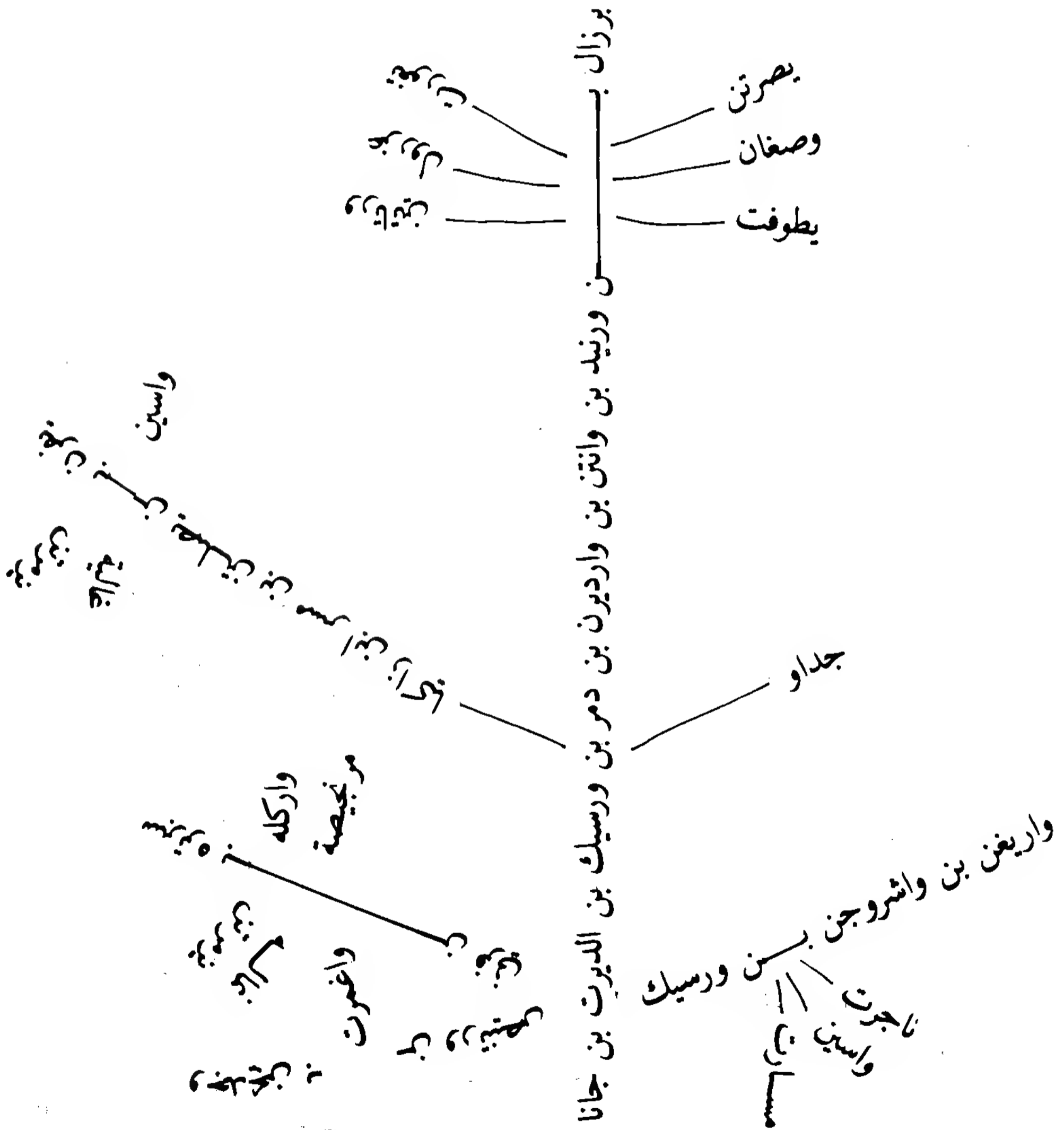
(٢) وفي نسخة أخرى : غرزول ولقورة وورتاتين .

(٣) وفي نسخة أخرى : صدور .

(٤) وفي نسخة أخرى : وريند بن دمر .

(٥) وفي نسخة أخرى : تيفرض ووجديجن وبنو يلومي وبنو ومانوا وبنو توجين .

على ما يذكر في أخبارهم . وبعضهم يقول في وجديجن وواغمرت بنو ورتنيص (١) أنهم من البرانس من بطون البربر على ما قدمناه . وذكر ابن عبد الحكم في كتابه فتح مصر خالد بن حميد الزناتي ، وقال فيه هو من شورة إحدى بطون زناته ، ولم نره لغيره . هذا ملخص الكلام في شعوب زناته وأنسابهم بما لا يوجد في كتاب . والله الهادي إلى مسالك التحقيق لا رب غيره .



(١) وفي النسخة البارسية : ورتيند وفي نسخة أخرى : ورتنيص .

* (فصل في تسمية زناة ومبنى هذه الكلمة) *

(أعلم) أن كثيراً من الناس يبحثون عن مبنى هذه الكلمة واشتقاقها على ما ليس معروفاً للعرب ولا لأهل الجليل أنفسهم فيقال : هو إسم وضعته العرب على هذا الجليل ، ويقال بل الجليل وضعوه لأنفسهم أو اصطلحوا عليه . ويقال : هو زانا بن جانا فيزيدون في النسب شيئاً لم تذكره النسابة . وقد يقال إنه مشتق ولا يعلم في لسان العرب أصل مستعمل من الأسماء يشتمل على حروفه المادية ، وربما يحاول بعض الجهلة اشتقاقه من لفظ الزنا ، ويعضده بحكاية خسيصة يدفعها الحق ، وهذه الأقوال كلها ذهاب^(١) إلى أن العرب وضعت لكل شيء إسماً ، وأن استعمالها إنما هو لأوضاعها التي من لغتها ارتجالاً واشتقاقاً . وهذا إنما هو في الأكثر وإلا فالعرب قد استعملت كثيراً من غير لغتها في مسماه إماً لكونه علماً فلا يغير مثل ابراهيم ويوسف واسحق من اللغة العبرانية ، وإما استعانة وتخفيفاً لتداوله بين الألسنة كاللجام والديباج والزنجبيل والنيروز والياسمين والآجر ، فتصير باستعمال العرب كأنها من أوضاعهم . ويسمونها المعربة وقد يغيرونها بعض التغيير في الحركات أو في الحروف ، وهو شائع لهم لأنه بمنزلة وضع جديد .

وقد يكون الحرف من الكلمة ليس من حروف لغتهم فيبدلونه بما يقرب منه في المخرج فإن مخارج الحروف كثيرة منضبطة وإنما نطقت العرب منها بالثمانية والعشرين حروف أبجد . وبين كل مخرجين منها حروف أكثر من واحد فمنها ما نطقت به الأمم ، ومنها ما لم تنطق به ، ومنها ما نطق به بعض العرب كما هو مذكور في كتب أهل اللسان . وإذا تقرّر ذلك فاعلم أن أصل هذه اللفظة التي هي زناة من صيغة جانا التي هي اسم أبي الجليل كله ، وهو جانا بن يحيى المذكور في نسبهم . وهم إذا أرادوا الجنس في التعميم الحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا جانات . وإذا أرادوا التعميم زادوا مع التاء نونا فصار جاناتن ، ونطقهم بهذه الجيم ليس من مخرج الجيم عند العرب بل ينطقون بها بين الجيم والشين وأميل إلى السين ، ويقرب للسمع منها بعض الصغير فأبدلوا زايا

(١) الصحيح أن يقول تذهب .

محضة لاتصال مخرج الزاي بالسین ، فصارت زانات لفظاً مفرداً دالاً على الجنس .
ثم الحقوا به هاء النسبة وحذفوا الألف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على الألسنة
والله أعلم .

* (فصل في أولية هذا الجيل وطبقاته) *

أما أولية هذا الجيل بأفريقية والمغرب فهي مساوية لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة لا
يعلم مبدأها إلا الله تعالى . ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يفرن
وجراوة وبني يرنيان ووجديجن وغمرة وبني ويجفش وواسين وبني تيغريست وبني
ميرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني برزال وبني ورنيد وبني زنداك
وغيرهم . وفي كل واحد من هذه الشعوب بطون متعددة . وكانت مواطن هذا الجيل
من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تلمسان ثم إلى وادي
مكوتة . وكانت الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن .
(ولما) ملك الإفرنجية بلاد البربر في ضواحيهم صاروا يؤدّون لهم طاعة معروفة ، وخراجاً
معروفاً مؤقتاً ، ويعسكرون معهم في حروبهم ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك حتى جاء
الله بالإسلام ، وزحف المسلمون إلى أفريقية ومملك الإفرنجية بها يومئذ جرجير ،
فظاهره زناتة والبربر على شأنه مع المسلمين وانفضوا جميعاً . وقتل جرجير وأصبحت
أموالهم مغانم ونسأؤهم سبايا ، وافتتحت سببلة . ثم عاود المسلمون غزو أفريقية
وافتحوا جلولاء وغيرها من الأمصار ، ورجع الإفرنجية الذين كانوا يملكونهم على
أعقابهم إلى مواطنهم وراء البحر . وظنّ البربر بأنفسهم مقاومة العرب فاجتمعوا
وتمسكوا بحصون الجبال واجتمعت زناتة إلى الكاهنة وقومها جراوة بجبل أوراس
حسبما نذكره ، فأثنى العرب فيهم واتبعوهم في الضواحي والجبال والقفار حتى دخلوا
في دين الإسلام طوعاً وكرهاً ، وانقادوا إلى إيالة مصر وتولّوا من أمرهم ما كان
الإفرنجية يتولونه حتى إذا انحلت بالمغرب عرى الملك العربي وأخرجهم من أفريقية
البربر من كتامة وغيرهم ، قدح هذا الجيل الزناتي زناد الملك فأورى لهم ، وتداول
فيهم الملك جيلاً بعد جيل في طبقتين حسبما نقصه عليك إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناتة وشأنهم مع المسلمين عند الفتح) *

كانت هذه الأمة من البربر بأفريقية والمغرب في قوة وكثرة وعديد وجموع ، وكانوا يعطون الإفرنجية بأمصارهم طاعة معروفة وملك الضواحي كلها لهم ، وعليهم مظاهرة الإفرنجية مها احتاجوا إليهم ولما أطلّ المسلمون في عساكرهم على أفريقية للفتح ظاهروا جرجير في زحفه إليهم حتى قتله المسلمون وانفضت جموعهم وافتقرت رياستهم ولم يكن بعدها بأفريقية موضع للقاء المسلمين يجمعهم لِمَا كانت غزواتهم لكل أمة من البربر في ناحيتها وموطنها مع من تحيز إليهم من قبل الإفرنجية .

(ولما) اشتغل المسلمون في حرب عليّ ومعاوية أغفلوا أمر أفريقية ثم ولّاه معاوية بعد عام الجامعة عقبه بن نافع الفهريّ فأنخن في المغرب في ولايته الثانية ، وبلغ إلى السوس وقتل بالزاب في مرجعه . واجتمعت البربر على كسيلة كبير أوربة ، وزحف إليه بعد ذلك زهير بن قيس البلويّ أيام عبد الملك بن مروان فهزمه وملك القيروان وأخرج المسلمين من أفريقية .

(وبعث) عبد الملك حسّان بن النعمان في عساكر المسلمين فهزموا البربر ، وقتلوا كسيلة واسترجعوا القيروان وقرطاجنة وأفريقية والإفرنجية والروم إلى صقلية والأندلس ، وافتقرت رئاسة البربر في شعوبهم . وكانت زناتة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعاً وبطوناً ، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس ، وهم ولد كراو بن الدير بن جانا^(١) . وكانت رياستهم للكاهنة دهبيا بنت^(٢) بن نيعان بن بارو^(٣) بن مصكسرى بن أفرد بن وصيلا بن جراو . وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها ، فاستبدت عليهم وعلى قومهم بهم ، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتبت إليها رياستهم .

قال هاني بن بكور الضريسي : ملكت عليهم خمساً وثلاثين سنة^(٤) وعاشت مائة

(١) كراد بن الديديت بن شانا (جمهرة انساب العرب) (ص ٤٩٨) .

(٢) بياض بالأصل وفي النسخة الباريسية : دهبيا بنت ثابتة وكذلك في نسخة أخرى دهبيا بنت ثابتة .

(٣) وفي نسخة أخرى : بن نيقان بن باورا .

(٤) وفي نسخة أخرى : خمساً وستين سنة .

وسبعا وعشرين سنة . وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبله جبل أوراس باغرائها برابرة تهودا عليه ، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها . فلما انقضى جمع البربر وقتل كسيلة رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس ، وقد ضوى إليها بنو يفرن ومن كان بأفريقية من قبائل زناتة وسائر البر ، فلقيتهم بالبسيط أمام جبلها ، وانهمزم المسلمون واتبعت آثارهم في جموعها حتى أخرجتهم من أفريقية ، وانتهى حسّان إلى برقة فأقام بها حتى جاءه المدد من عبد الملك ، فزحف إليهم سنة أربع وسبعين وفضّ جموعهم ، وأوقع بهم وقتل الكاهنة ، واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف .

وكان للكاهنة إبنان قد لحقا بحسّان وحسن إسلامها واستقامت طاعتها ، وعقد لها على قومها جراوة ومن انضوى إليهم بجبل أوراس . ثم افترق فلهم من بعد ذلك وانقرض أمرهم . وافترق جراوة أوزاعاً بين قبائل البربر ، وكان منهم قوم بسواحل مليلة ، وكان لهم آثار بين جيرانهم هناك . واليهم نزع ابن أبي العيش لما غلبه موسى ابن أبي العافية على سلطانه بثمسان أول المائة الرابعة حسبما نذكره . فترل عليهم وبنى القلعة بينهم إلى أن خربت من بعد ذلك . والفلّ منهم بذلك الوطن إلى الآن لهذا العهد مندرجون في بطونه (١) ومن إليهم من قبائل غمارة والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن مبتدا دول زناتة في الإسلام ومصير الملك اليهم
بالمغرب وأفريقية) *

لما فرغ شأن الردّة من أفريقية والمغرب وأذعن البربر لحكم الإسلام وملك العرب ، واستقلّ بالخلافة ورياسة العرب بنو أمية اقتعدوا كرسيّ الملك بدمشق ، واستولوا على سائر الأمم والأقطار ، وأثخنوا في القاصية من لدن الهند والصين في المشرق ، وفرغانة في الشمال ، والحبشة في الجنوب ، والبربر في المغرب ، وبلاد الجلالقة والإفرنجة في الأندلس . وضرب الإسلام بجرانه ، وألقت دولة العرب بكلّكلها على الأمم . ثم جدع بنو أمية أنوف بني هاشم مقاسمهم في نسب عبد مناف ، والمدّعين

(١) وفي نسخة أخرى : يطوفت .

استحقاق الأمر بالوصية . وتكرّر خروجهم عليهم ، فأثخنوا فيهم بالقتل والأسر ، حتى توغرت الصدور واستحكمت الأوتار وتعدّدت فرق الشيعة باختلافهم في مساق الخلافة من عليّ إلى من بعده من بني هاشم . فقوم ساقوها إلى آل العباس ، وقوم إلى آل الحسن ، وآخرون إلى آل الحسين ، فدعت شيعة آل العباس بخراسان وقام بها اليمنية فكانت الدولة العظيمة الحائزة للخلافة ونزلوا بغداد واستباحوا الأمويين قتلاً وسبياً . وخلص من جاليتهم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فجدّد بها دعوة الأمويين واقتطع ما وراء البحر عن ملك الهاشمين فلم تحقق لهم به راية . (ثم نفس) آل أبي طالب على آل العباس ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك ، فخرج المهدي محمد بن عبدالله المدعوّ بالنفس الزكية في بني أبي طالب على أبي جعفر المنصور ، وكان من أمرهم ما هو مذكور واستلحمتهم جيوش بني العباس في وقائع عديدة . وفرّ ادريس بن عبدالله أخو المهدي من بعض وقائعهم إلى المغرب الأقصى فأجاره البرابرة من أوربة ومقيلة وصدينة ، وقاموا بدعوته ودعوة بنيه من بعده ، ونالوا به الملك وغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط ، وبثوا دعوة إدريس وبنيه من أهله بعده في أهله من زناته مثل بني يفرن ومغراوة وقطعوه من ممالك بني العباس . واستمرّت دولتهم إلى حين انقراضها على يد العبّسيّين .

ولم يزل الطالبيون أثناء ذلك بالمشرق يتزعون إلى الخلافة ويبثون دعواتهم بالقاصية إلى أن دعا أبو عبدالله المحتسب بأفريقية إلى المهديّ ولد اسمعيل الإمام بن جعفر الصادق ، فقام برابرة كتامة ومن إليهم من صنهاجة وملكوا أفريقية من يد الأغالبة ، ورجع العرب إلى مركز ملكهم بالمشرق ، ولم يبق لهم في نواحي المغرب دولة ، ووضع العرب ما كان على كاهلهم من أمر المغرب ووطأة مضر بعد أن رسخت الملة فيهم ، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، واستيقنوا بوعد الصادق أنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . فلم تنسلخ الملة بانسلاخ الدولة ولا تقوّضت مباني الدين بتقويض معالم الملك ، وعداً من الله لن يخلفه في تمام أمره وإظهار دينه على الدين كلّه . فتناغى حينئذ البربر في طلب الملك والقيام بدعوة الأعياص من بني عبد مناف يسدّون منها حسداً في ارتقاء^(١) إلى أن ظفروا من ذلك بحظّ مثل كتامة بأفريقية ،

(١) وفي نسخة ثانية : يسترون منها حسواً في ارتقاء .

ومكناسة بالمغرب ، ونافسهم في ذلك زناتة ، وكانوا من أكثرهم جمعاً وأشدّهم قوّة فشمروا له حتى ضربوا معهم بسهم ، فكان لبني يفرن بالمغرب وأفريقية على يد صاحب الحمار ، ثم على يد يعلى بن محمد وبنيه ملك ضخّم . ثم كان لمغراوة على يد بني خزّر دولة أخرى تنازعوها مع بني يفرن وصنهاجة . ثم انقرضت تلك الأجيال وتجرّد الملك بالمغرب بعدهم في جيل آخر منهم ، فكان لبني مرين بالمغرب الأقصى ملك ، ولبني عبد الواد بالمغرب الأوسط ملك آخر تقاسمهم فيه بنو توجين والفّل من مغراوة حسبما نذكر ونستوفي شرحه ، ونجلب^(١) أيامهم وبطونهم على الطريقة التي سلكتها في أخبار البربر ، والله المعين سبحانه لا رب سواه ، ولا معبود إلا إياه .

* (الطبقة الأولى من زناتة ونبدأ منها بالخبر عن بني يفرن
وأنسابهم وشعوبهم وما كان لهم من الدول بأفريقية والمغرب) *

وبنو يفرن هؤلاء من شعوب زناتة وأوسع بطونهم ، وهم عند نسابة زناتة بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت^(٢) بن جانا وإخوته مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين ، والكلّ بنو يصلتين . ويفرن في لغة البربر هو القار^(٣) وبعض نسابتهم يقولون : إنّ يفرن هو ابن ورتنيد^(٤) بن جانا وإخوته مغراوة وغمرت ووجديجن . وبعضهم يقول يفرن بن مرّة بن ورسيك بن جانا ، وبعضهم يقول هو ابن جانا لصلبه والصحيح ما نقلناه عن أبي محمد بن حزم .
(وأما) شعوبهم فكثير ومن أشهرهم بنو واركوا ومرنجبصة . وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدّها شوكة ، وكان منهم بأفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب ، فلما كان الفتح غشى أفريقية ومن بها من البربر جنود الله المسلمون من العرب فتظامنوا لبأسهم حتى ضرب الدين بجرانه ، وحسن

(١) جلب جليلاً : اجتمع (قاموس) .

(٢) وفي جمهرة انساب العرب : الديدبث (ص ٤٩٦) .

(٣) وفي نسخة أخرى : الفار وفي النسخة الباريسية الغار .

(٤) وفي النسخة الباريسية : ويتص ، وفي نسخة أخرى : ويتتر ، وفي جمهرة انساب العرب ص ٤٩٨ : ورنيد .

إسلامهم . ولما فشا دين الخارجية في العرب وغلبهم الخلفاء بالمشرق واستلجموهم
 نزعوا إلى القاصية ، وصاروا يبتون بها دينهم في البربر فتلقته رؤساؤهم على اختلاف
 مذاهبه باختلاف رؤوس الخارجية في أحكامهم من أباضية وصُفْرِيَّة وغيرهما كما
 ذكرناه في بابه ، ففشا في البربر وضرب فيه يفرن هؤلَاء بسهم وانتحلوه وقاتلوا عليه .
 وكان أول من جمع لذلك منهم أبوقرّة من أهل المغرب الأوسط . ثم من بعده أبو
 يزيد صاحب الحمار وقومه بنواركوا ومرنجيصة . ثم كان لهم بالمغرب الأقصى من بعد
 الانسلاخ من الخارجية دولتان على يد يعلى بن محمد صالح وبنه حسبا نذكر ذلك
 مُفسِّراً إن شاء الله تعالى .

مرنجيصة بن يفرن بن يصلي بن مسرا بن زايكا بن ورسيك بن الليوث بن جانا
 واركوا
 مفران
 مفران
 مفران (خ)
 يفرن
 اجلجيج بن ورنيجيج
 (خ) يفرن

* (الخبر عن أبي قرّة وما كان لقومه من الملك بتلمسان ومبدأ ذلك ومصائره) *

كان من بني يفرن بالمغرب الأوسط بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني راشد المعروف بهم لهذا العهد ، وهم الذين اختطّوا تلمسان كما نذكره في أخبارها . وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس أبو قرّة ولا نعرف من نسبه أكثر من أنه منهم . ولما انتقض البرابرة بالمغرب الأقصى وقام ميسرة وقومه بدعوة الخارجية وقتله البرابرة قدّموا على أنفسهم مكانه خالد بن حميد من زناته ، فكان من حروبه مع كلثوم بن عياض وقتله إياه ما هو معروف . ورأس على زناته من بعده أبو قرّة هذا .

ولما استأثرت^(١) دولة بني أمية كثرت الخارجية في البربر ، وملك ورفجومة القيروان ، وهوارة وزناته طرابلس ومكناسة سجلماسة ، وابن رستم تاهرت . وقدم ابن الأشعث أفريقية من قبل أبي جعفر المنصور . وخافه البربر فحسم العلل وسكن الحروب . ثم انتقض بنو يفرن بنواحي تلمسان ودعوا إلى الخارجية ، وبايعوا أبا قرّة كبيرهم بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة ، وسرح إليهم ابن الأشعث الأغلب بن سودة التيمي فأنهى إلى الزاب وفرّ أبو قرّة إلى المغرب الأقصى ، ثم راجع موطنه بعد رجوع الأغلب .

(ولما انتقض) البرابرة على عمر بن حفص بن أبي صفرة الملقب هزار مرد عام خمسين ومائة وحاصروه بطبنة كان فيمن حاصره أبو قرّة اليفرنى في أربعين ألفاً صفرية من قومه وغيرهم حتى اشتدّ عليه الحصار ، وداخل أبا قرّة في الإفراج عنه على يد ابنه على أن يعطيه أربعين ألفاً ، ولابنه أربعة آلاف ، فارتحل بقومه وانفضّ البرابرة عن طبنة . ثم حاصروه بعد ذلك بالقيروان واجتمعوا عليه وأبو قرّة معهم بثلاثمائة وخمسين ألفاً ، الخيالة منها خمسة وثمانون ألفاً . وهلك عمر بن حفص في ذلك الحصار .

وقدم يزيد بن حاتم والياً على أفريقية ففضّ جموعهم وفرق كلمتهم ، ولحق أبو قرّة

(١) وفي نسخة أخرى . لما التأت .

وبنو يفرن أصحابه بمواطنهم من تلمسان بعد أن قتل صاحبه أبو حاتم الكندي رأس الخوارج ، واستلحم بني يفرن وتوغل يزيد بن حاتم في المغرب ونواحيه وأثنى في أهله إلى أن استكانوا واستقاموا . ولم يكن لبني يفرن من بعدها انتفاض حتى كان شأن أبي يزيد بأفريقية في بني واركوا ومر نجيسة منهم حسبا تذكره إن شاء الله تعالى الكريم . وبعض المؤرخين ينسب أبا قرّة هذا إلى مقيلة ، ولم أظفر بصحيح في ذلك ، والطرائق متساوية في الجانبين ، فإن نواحي تلمسان وإن كانت موطناً لبني يفرن فهي أيضاً موطن لمقيلة ، والقيلتان متجاورتان . لكن بنو يفرن كانوا أشد قوة وأكثر جمعاً ، ومقيلة أيضاً كانوا أشهر بالخارجية من بني يفرن لأنهم كانوا صُفْرِيَّة . وكثير من الناس يقولون : إن بني يفرن كانوا على مذهب أهل السنة كما ذكره ابن حزم وغيره والله أعلم .

* (الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الجمار من بني يفرن ومبدأ أمره مع الشيعة ومصائرهم) *

هذا الرجل من بني واركوا إخوة من نجيسة ، وكلهم من بطون بني يفرن ، وكنيته أبو يزيد ، واسمه مخلد بن كيداد لا يعلم من نسبه فيهم غير هذا . وقال أبو محمد بن حزم : ذكر لي أبو يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد أن اسمه مخلد بن كيداد (١) بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن ورنمت بن حونيفر (٢) بن سميران بن يفرن بن جانا وهو زناتة . قال : وقد أخبرني بعض البربر بأسماء زائدة بين يفرن وجانا ، اهـ . كلام ابن حزم . ونسبه ابن الرقيق أيضاً في بني واسين بن ورسيك بن جانا ، وقد تقدم نسبهم أول الفصل . وكان كيداد أبوه يختلف إلى بلاد السودان في التجارة ، فولد له أبو يزيد بكر كوا من بلادهم ، وأمّه أم ولد اسمها سيكة (٣) ورجع به إلى قيطون زناتة ببلاد قصطيلة . ونزل توزر متردداً بينها وبين تقيوس ، وتعلم القرآن وتأدّب ، وخالط النكارية قال إلى مذاهيم وأخذها عنهم ، ورأس فيها

(١) وفي النسخة الباريسية : كنداك .

(٢) وفي النسخة الباريسية : ورينت بن جوسفر وفي نسخة أخرى : حونفر .

(٣) وفي نسخة ثانية : سيكة .

ورحل إلى مشيختهم بهيرت ، وأخذ عن أبي عبيدة منهم أيام اعتقال عبيد الله المهدي بسجلماسة .

ومات أبوه كيداد وتركه على حال الخصاصة والفقر ، فكان أهل القيطون يصلونه بفضل أموالهم ، وكان يعلم حسيانهم القرآن ومذاهب النكارية . واشتهر عنه تكفير أهل الملة وسب علي صفاء وانتقل إلى تقيوس . وكان يختلف بينها وبين توزر ، وأخذ نفسه بالتغيير على الولاة ، وعي عنه اعتقاد الخروج عن السلطان فنذر الولاة بقصطيلة دمه ، فخرج إلى الحج سنة ثمان وثلاثمائة وأرهبه الطلب فرجع من نواحي طرابلس إلى تقيوس . ولما هلك عبدالله أوعز القائم إلى أهل قصطيلة في القبض عليه ، فلحق بالمشرق وقضى القرض وانصرف إلى موطنه ، ودخل توزر سنة خمس وعشرين وثلاثمائة مستترا . وسعى به ابن فرقان عند والي البلد فتقبض عليه واعتقله ، وأقبل سرخان^(١) زناقة إلى البلد ومعهم أبو عمار الأعمى رأس النكارية واسمه كما سبق عبد الحميد ، وكان ممن أخذ عنه أبو يزيد فتعرضوا للوالي في إطلاقه ، فتعلل عليهم بطلبه في الخراج ، فاجتمعوا إلى فضل ويزيد ابني أبي يزيد ، وعمدوا إلى السجن فقتلوا الحرس وأخرجوه ، فلحق ببلد بني واركلا ، وأقام بها سنة يختلف إلى جبل أوراس وإلى بني برزال في مواطنهم بالجبال قبله المسيلة ، وإلى بني زنداك من مغراوة إلى أن أجابوه ، فوصل إلى أوراس ومعه أبو عمار الأعمى في إثني عشر من الراحلة ، ونزلوا على النكارية بالنوالاث^(٢) واجتمع إليه القرابة وسائر الخوارج ، وأخذ له البيعة عليهم أبو عمار صاحبهم على قتال الشيعة وعلى استباحة الغنائم والسبي ، وعلى أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى ، وذلك سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة .

وترصدوا غيبة صاحب باغاية في بعض وجوهه فضربوا على بسيتها ، واستباح بعض القصور بها سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة وغسس بذلك أيدي البربر في الفتنة . ثم زحف بهم إلى باغاية واستولت عليه وعلى أصحابه الهزيمة فلحقوا بالجبل . وزحف إليهم صاحب باغية فانهزم ورجع إلى بلده ، فعاضده أبو يزيد وأوعز أبو القاسم القائم إلى كتابة في إنداد كنون صاحب باغاية ، فتلاحقت به العساكر فييتهم أبو يزيد وأصحابه

(١) سرعان زناقة : أي أوائلهم السابقون (قاموس) .

(٢) اسم موضع كلك يتردد إليه هؤلاء النكارية .

فقلّوهم ، وامتنعت عليه باغاية وكاتب أبو يزيد البربر الدين حول قسطليلة من بني واسين وغيرهم ، فحاصروا تَوَزَّر سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ورحل إلى تَبَسَّة فدخلها صلحاً ، ثم إلى بجاية كذلك ، ثم إلى مَرْمَاجَنَّة . كذلك ، وأهدوا له حماراً أشهب فلزم ركوبه حتى اشتر به . وبلغ خبره عساكر كتامة بالاربعين^(١) فانفضوا وملك الأربص وقتل إمام الصلاة بها . وبعث عسكراً إلى تبسة فملكوها وقتلوا عاملها . وبلغ الخبر القائم وهو بالمهدية فهاله . وسرح العساكر لضبط المدن والشغور ، وسرح مولاة بشرى الصقلي إلى باجة ، وعقد لميسور على الجيوش فعسكر بناحية المهديّة ، وسرح خليل بن اسحق إلى القيروان فعسكر بها . وزحف أبو يزيد إلى بشرى بباجة ، واشتدّت الحرب بينهم ، وركب أبو يزيد حماره وأمسك عصاه فاستمالت النكارية ، وخالفوا بشرى إلى معسكره فانهمز إلى تونس ، واقتحم أبو يزيد باجة واستباحها ، ودخل بشرى إلى تونس وارتدت البرابر من كل ناحية فأسلم تونس ولحق بسوسة . واستأمن أهل تونس إلى أبي يزيد فأمنهم وولى عليهم ، وانتهى إلى وادي مجردة^(٢) فعسكر بها . ووافته الحشود هنالك . ورعب الناس منه فأجفلوا إلى القيروان ، وكثرت الأراجيف وسرّب أبو يزيد جيوشه في نواحي أفريقية ، فشنوا الغارات وأكثروا السبي والقتل والأسر . ثم زحف إلى رقادة فانفض كتامة الذين كانوا بها ولحقوا بالمهدية . ونزل أبو يزيد رقادة في مائة ألف .

ثم زحف إلى القيروان فانحصر بها خليل بن إسحق ثم أخذه بعد مراوضة في الصلح ، وهمّ بقتله فأشار عليه أبو عمّار باستبقائه فلم يطعه وقتله . ودخلوا القيروان فاستباحوها ولقيه مشيخة الفقهاء فأمنهم بعد التقرير والعتب ، وعلى أن يقتلوا أولياء الشيعة ، وبعث رسله في وفد من أهل القيروان إلى الناصر الأموي صاحب قرطبة ملتزماً لطاعته والقيام لدعوته وطالباً لمده ، فرجعوا إليه بالقبول والوعد . ولم يزل يرّد ذلك سائر أيام الفتنة حتى أوفد ابنه أيوب في آخرها سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، فكان له اتصال بالناصر سائر أيامه . وزحف ميسور من المهديّة بالعساكر وفرّ عنه بنو كملان من هوّارة ولحقوا بأبي يزيد وحرّضوه على لقاء ميسور ، فزحف إليه واستوى اللقاء . واستمات أبو يزيد والنكارية فانهمز ميسور وقتله أبو كملان وبعث برأسه إلى القيروان ،

(١) وفي نسخة ثانية : الأربص وكذلك في معجم البلدان .

(٢) وفي نسخة ثانية : مجردة .

ثم إلى المغرب واستبيح معسكره .

وسرح أبو يزيد عساكره إلى مدينة سوسة فاقحموها عنوة وأكثروا من القتل والمثلة . وعظم القتل بضواحي أفريقية ، وختل القرى والمنازل ومن أفلته السيف أهلكه الجوع . واستخف أبو يزيد بالناس بعد قتل ميسور فلبس الحرير وركب الفاره . ونكر عليه أصحابه ذلك ، وكاتبه به رؤسائهم من البلاد ، والقائم خلال ذلك بالمهدية يخندق على نفسه ويستنفر كتامة وصنهاجة للحصار معه . وزحف أبو يزيد حتى نزل المهديّة وناوش عساكرها الحرب ، فلم يزل الظهور عليهم ، وملك زويله . ولما وقف بالمصلى قال القائم لأصحابه من ههنا يرجع ، واتصل حصاره للمهدية ، واجتمع إليه البربر من قابس وطرابلس ونفوسة .

وزحف إليهم ثلاث مرّات فانهزم في الثالثة ولم يقلع ، وكذلك في الرابعة ، واشتدّ الحصار على المهديّة ونزل الجوع بهم . واجتمعت كتامة بقسنطينة وعسكروا بها لامتداد القائم ، فسرح إليهم أبو يزيد يكوس^(١) المزاتي من ورفجومة ، فانفضّ معسكر كتامة من قسنطينة . وبنس القائم من مددهم وتفرقت عساكر أبي يزيد في الغارات والنهب فحفّ المعسكر ، ولم يبق به إلا هوّارة ورأس بني كملان^(٢) وكثرت مراسلات القائم للبربر .

وابستراب بهم أبو يزيد وهرب بعضهم إلى المهديّة ، ورحل آخرون إلى مواطنهم ، فأشار عليه أصحابه بالإفراج عن المهديّة فأسلموا معسكرهم ، ولحقوا بالقيروان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة . ودبر أهل القيروان في القبض عليه فلم يتهيأ لهم ، وعذله أبو عمّار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا فتاب وأقلع ، وعاود لبس الصوف والتقشف . وشاع خبر إجماله عن المهديّة فقتل النكارية في كل بلد ، وبعث عساكره فعاثوا في النواحي وأوقعوا بأهل الأمصار وخرّبوا كثيرا منها . وبعث ابنه أيوب إلى باجة فعسكر بها ينتظر وصول المدد من البربر وسائر النواحي فلم يفجأه إلا وصول عليّ بن حمدون الأندلسي صاحب المسيلة في حشد كتامة وزواودة ، وقد مرّ بقسنطينة والأربص وشقنبارية ، واستصحب منها العساكر فيّته أيوب وانفضّ معسكره ، وتردّى به فرسه في بعض الأوعار فهلك .

(١) وفي نسخة ثانية : زكوا .

(٢) وفي نسخة ثانية : هواره ورأس وبنو كملان . ٢١

ثم زحف أيوب في عسكره إلى تونس وقائدها حسن بن علي من دعاة الشيعة فانهزم ،
ثم أتت له الكربة ولحق حسن بن علي بلد كتامة فعسكر بهم على قسنطينة . وسرح
أبو يزيد جموع البربر لحربه . ثم اجتمعت لأبي يزيد حشود البربر من كل ناحية
وثابت إليه قوته . وارتحل إلى سوسة فحاصرها ونصب عليها المجانيق . وهلك القائم
سنة أربع وثلاثين وثلثمائة في شوال وصارت الخلافة لابنه إسماعيل المنصور فبعث بالمدد
إلى سوسة بعد أن اعترم على الخروج إليها بنفسه فنعاه أصحابه . ووصل المدد إلى
سوسة فقاتلوا أبا يزيد فانهزم ولحق بالقيروان ، فامتنعت عليه فاستخلص صاحبه أبا
عمار من أيديهم وارتحل عنهم .

وخرج المنصور من المهدية إلى سوسة ، ثم إلى القيروان فملكها وعفا عن أهلها وأمّنهم
وأحسن في مخلف أبي يزيد وعياله . وتوفى المدد إلى أبي يزيد ثلثة فاعترم على
حصار القيروان ، وزحف إلى عسكر المنصور بساحتها فبيتهم ، واشتدّ الحرب واستمات
الأولياء وافترقوا آخر نهارهم . وعاودوا الزحف مرّات ووصل المدد إلى المنصور من
الجهات حتى إذا كان منتصف المحرم كان الفتح ، وانهزم أبو يزيد وعظم القتل في
البربر ورحل المنصور في اتباعه فرّ^(١) ثم تبسة حتى انتهى إلى باغاية . ووفاه

بها كتاب محمد بن خزر بالطاعة والولاية والاستعداد للمظاهر ، فكتب إليه بترصد
أبي يزيد والقبض عليه ، ووعده في ذلك بعشرين حملا من المال . ثم رحل إلى
طبنة فوفاه بها جعفر بن علي عامل المسيلة بالهدايا والأموال . وبلغه أن أبا يزيد نزل
بسكرة وأنه كاتب محمد بن خزر يسأله النصرة ، فلم يجد عنده ما يرضيه ، فارتحل
المنصور إلى بسكرة ليلقاه أهلها . وفرّ أبو يزيد إلى بني برزال بجبل سالات ، ثم إلى
جبل كتامة وهو جبل عياض لهذا العهد . وارتحل المنصور في أثره إلى ومرة^(٢) وبيته أبو
يزيد هنالك فانهزم ولم يظفر وانحاز إلى جبل سالات . ثم لحق بالرمال ورجع عنه بنو
كملان ، وأمّنهم المنصور على يد محمد بن خزر .

وسار المنصور في التعمية حتى نزل جبل سالات ، وارتحل وراءه إلى الرمال . ثم رجع
ودخل بلاد صنهاجة ، وبلغه رجوع أبي يزيد إلى جبل كتامة فرجع إليه ، ونزل عليه
المنصور في كتامة وعجيسة وزواوة وحشد بني زنداك ومزاته ومكناسة ومكلاته .

(١) بياض بالأصيل وفي نسخة ثانية : فرّ بسبية ثم تبسة .

(٢) وفي نسخة أخرى : معة .

وتقدّم المنصور إليه فقاتلوا أبا يزيد وجمع النكارية فهزموهم واعتصموا بجبل كتامة ،
ورحل المنصور إلى المسيلة وانحصر أبو يزيد في قلعة الجبل ، وعسكر المنصور أزاءها
واشتدّ الحصار ، وزحف إليها مرّات ، ثم اقتحمها عليهم فاعتصم أبو يزيد بقصر في
ذروة القلعة فأحيط به واقتحم ، وقتل أبو عمّار الأعمى ويكموس المزاتي ونجا أبو يزيد
مثنخاً بالجراحة محمولاً بين ثلاثة من أصحابه فسقط في مهواة من الأوعار فوهن وسبق
من الغداة إلى المنصور فأمر بمداواته . ثم أحضره ووبّخه وأقام الحجّة عليه وتجاوى عن
دمه ، وبعثه إلى المهديّة وفرض له بها الجراية فجزاه خيراً . وحمل في القفص فمات
من جراحته سنة خمس وثلاثين وثلثمائة . وأمر به فسلخ وحشي جلده بالتبن وطيف به
في القيروان . وهرب الفلّ من أصحابه إلى ابنه فضل ، وكان مع معبد بن خزر
فأغاروا على ساقّة المنصور ، وكمن لهم زيري بن مناد أمير صنهاجة فأوقع بهم . ولم
يزل المنصور في اتباعه إلى أن نزل المسيلة وانقطع أثر معبد ، ووافاه بمعسكره هنالك
انتقاض حميد بن يصل عامل تيرت^(١) من أوليائهم ، وأنه ركب البحر من تنس إلى
العدوة فارتحل إلى تيرت وولّى عليها وعلى تنس . ثم قصد لواتة فهربوا إلى الرمال ،
ورجع إلى أفريقية سنة خمس وثلاثين وثلثمائة . ثم بلغه أن فضل بن أبي يزيد أغار
على جهات قسطيلة ، فرحل من سنته في طلبه وانتهى إلى قفصة ثم ارتحل إلى^(٢)
من أعمال الزاب ، وفتح حصن ماداس مما يليه . وهرب فضل في الرمال
فأعجزه ورجع إلى القيروان سنة ست وثلاثين . ومضى فضل إلى جبل أوراس ، ثم
سار منه إلى باغاية فحاصرها . وغدر به مايط^(٣) بن يعلى من أصحابه ، وجاء
برأسه إلى المنصور . وانقرض أمر أبي يزيد وبنيه وافتقرت جموعهم . واغتال عبدالله
ابن بكار من رؤساء مغراوة بعد ذلك أيوب بن أبي يزيد وجاء برأسه إلى المنصور
متقرباً إليه . وتبع المنصور قبائل بني يفرن بعدها إلى أن انقطع أثر الدعوة . والبقاء لله
تعالى وحده .

(١) تاهرت : معجم البلدان .

(٢) بياض بالأصل وفي النسخة الباريسية : مديلية وفي نسخة أخرى مبطة .

(٣) وفي نسخة ثانية : باطيط .

* (الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب الأوسط
والأقصى ومبادئ أمورهم ومصايرها) *

كان لبني يفرن من زناته بطون كثيرة وكانوا متفرقين بالمواطن ، فكان منهم بأفريقية بنو واركوا ومرنجيسة وغيرهم كما قدّمناه ، وكان منهم بنواحي تلمسان ما بينها وبين تاهرت أم كثير عددهم وهم الذين اختطّوا مدينة تلمسان كما نذكره بعد . ومنهم أبو قرّة المنتري بتلك الناحية لأوّل الدولة العبّاسيّة ، وهو الذي حاصر عمر بن حفص بطبنة كما تقدّم . ولما انقرض أمر أبي يزيد وأثنخ المنصور فيمن كان بأفريقية من بني يفرن أقام هؤلاء الذين كانوا بنواحي تلمسان على وفودهم . وكان رئيسهم لعهد أبي يزيد محمد بن صالح . ولما تولى المنصور محمد بن خزر وقومه مغراوة ، وكان بينه وبين بني يفرن هؤلاء فتنة هلك فيها محمد بن صالح على يد عبدالله بن بكار من بني يفرن ، كان متحيزاً إلى مغراوة . وولي أمره في بني يفرن من بعده ابنه يعلى فعظم صيته ، واختط مدينة إفكان (١) .

ولما خطب عبد الرحمن الناصر طاعة الأموية من زناته أهل العدو واستألف ملوكهم ، سارع يعلى لإجابته ، واجتمع عليها مع الخير بن محمد بن خزر وقومه مغراوة ، وأجلب على وهران فملكها سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة من يد محمد بن عون ، وكان ولّاه عليها صولات اللبيطي (٢) أحدر جالات كتامه سنة ثمان وتسعين ومائتين فدخلها يعلى عنوة على بنيه وخرّبها . وكان يعلى قد زحف مع الخير بن محمد إلى تاهرت وبرز إليه ميسور الخصي في شيعته من لمائة فهزمهم وملكوا تاهرت ، وتقبّض على ميسور وعبدالله بن بكار فبعث به الخير إلى يعلى بن محمد ليثأر به ، فلم يرضه كفوّاً لدمه ودفعه إلى من ثأر به من بني يفرن . واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر ما بين تاهرت إلى طنجة .

واستدعى من الناصر تولية رجال بيته على أمصار المغرب فعقد على فاس لمحمد بن

(١) إفكان : تقع بين معسكر وسيدي بلعباس من عمالة وهران على بعد ٢٥ كلم من الأولى ، تعرف اليوم بعين فكان ، وكانت تدعى في العهد الزناتي أفكان (قبائل المغرب ص ١٢٠) .

(٢) وفي نسخة أخرى : دواس بن صولات اللبيصي .

الخير بن محمد بن محمد بن عشيرة ونسك محمد لسنة من ولايته ، واستأذن في الجهاد والرباط بالأندلس فأجاز لذلك واستخلف على عمله ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد ابن عثمان بن سعيد ، وهو الذي اختطّ مأذنة القرويين سنة أربع وأربعين وثلثمائة كما ذكرناه ولم يزل سلطان يعلى بن محمد بالمغرب عظيماً إلى أن أغزى بعد المعز لدين الله كاتبه جوهر الصِّقْلِي من القيروان إلى المغرب سنة سبع وأربعين وثلثمائة فلما فصل جوهر بالجنود بادر أمير زناتة بالمغرب يعلى بن محمد اليفرنِي إلى لقائه والإذعان لطاعته والانحياش إليه ، ونبذ عهد الأموية ، وأعمل إلى لقيه الرحلة من بلده إيفكان وأعطاه يد الإنقياد وعهد البيعة عن قومه بني يفرن وزناتة ، فتقبّلها جوهر وأضمر الفتك به ، وتخيّر لذلك يوم فصوله من بلده ، وأسّر إلى بعض مستخلصيه من الاتباع فأوقعوا نفرة في أعقاب العسكر طار إليها الزعماء من كتامة وصنهاجة. وزناتة ، وتقبّض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهبة فغضّ بالرماح على أيدي رجالات كتامة وصنهاجة ، وذهب دمه هدراً في القبائل . وخرب جوهر مدينة إيفكان وفرت زناتة أمامه وكشف القناع في مطالبتهم .

(وقد ذكر) بعض المؤرخين أن يعلى إنّا لقي جوهرأ عند منصرفه من الغزاة بمدينة تاهرت ، وهناك كان فتكه به بناحية شلف ، ففرقت بعدها جماعة بني يفرن وذهب ملكهم فلم يجتمعوا إلا بعد حين على ابنه بدوي بالمغرب كما نذكره . ولحق الكثير منهم بالأندلس كما يأتي خبرهم في موضعه وانقرضت دولة بني يفرن هؤلاء إلى أن عادت بعد مدّة على يد يعلى بفاس . ثم استقرت آخرأ بسلا وتعاقب فيهم هنالك إلى آخرها كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلا من المغرب الأقصى وأولية ذلك وتصاريفه) *

لما أوقع جوهر الكاتب قائد المعز بيعل بن محمد أمير بني يفرن وملك المغرب سنة سبع وأربعين وثلثمائة كما ذكرناه وتفرقت جموع بني يفرن لحق ابنه بدوي بن يعلى بالمغرب الأقصى وأحسّ بجوهر من ورائه فأبعد المقر وأصحّر إلى أن رجع جوهر من المغرب . ويقال إن جوهرأ تقبّض عليه واحتمله أسيراً فاعتقل إلى أن فر من معتقله بعد حين ،

واجتمع عليه قومه من بني يفرن وكان جوهر عند منصرفه من المغرب ولي على
الأدارة المتحيزين إلى الريف وبلاد غمارة الحسن بن كنون شيخ بني محمد منهم
فتزل (١) وأجاز الحكم المستنصر لأول ولايته سنة خمس وثلاثمائة (٢) وزيره
محمد بن قاسم بن طملس في العساكر لتدويخ المغرب واقتلاع جرثومة الأدارة ،
فأجاز في العساكر وغلبهم على بلادهم وأزعجهم جميعاً عن المغرب إلى الأندلس سنة
خمس وستين وثلاثمائة كما ذكرناه . ومهد دعوة الأموية بالمغرب ، وأقبل الحكم مولاه
غالباً وردّه إلى الثغر لسدّه ، وعقد على المغرب ليحيى بن محمد بن هاشم التجيبي
صاحب الثغر الأعلى ، وكان أجازته مدداً لغالب في رجال العرب وجد الثغور حتى
إذا انغمس الحكم في علة الفالج وركدت ريح المروانية بالمغرب واحتاجت الدولة إلى
رجالها لسدّ الثغور ودفاع العدو ، استدعى يحيى بن محمد بن هاشم من العدو ،
وإداله الحاجب المصحفي جعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب والمسيلة النازع إليهم
من دعوة الشيعة ، وجمعوا بين الانتفاع به في العدو والراحة مما يتوقع منه على الدولة
ومن البرابرة في التياث الخلافة لما كانوا أصاروا إليه من النكبة ، وطوقوه من المحنة .
ولما كان اجتمع بقرطبة من جموع البرابرة فعقدوا له ولأخيه يحيى على المغرب وخلعوا
عليها وأمكنوهما من مال دثروكسي فاخرة للخلع على ملوك العدو ، فنهض جعفر إلى
المغرب سنة خمس وستين وثلاثمائة وضبطه .

واجتمع إليه ملوك زناتة مثل بدوي (٣) بن يعلى أمير بني يفرن وابن عمه لويخت بن
عبدالله بن بكار ، ومحمد بن الخير بن خزروا بن عمه بكساس بن سيد الناس ،
وزيري بن خزروزي ومقاتل ابنا عطية بن تبادها (٤) وخزرون بن محمد ولفول بن
سعيد أمير مغراوة ، واسماعيل بن البوري أمير مكناسة ، ومحمد ابن عمه عبدالله بن
مدين وخزرون بن محمد الازداجي ، وكان بدوي بن يعلى من أشدهم قوة وأحسنهم
طاعة . ولما هلك الحكم وولي مكانه هشام المؤيد ، وانفرد محمد بن أبي عامر
بجبابته اقتصر من العدو لأول قيامه على مدينة سبتة ، فصبطها بخند السلطان

(١) بياض بالأصل وفي إحدى النسخ : فتزل البصرة

(٢) حسب مجرى الأحداث : يجب أن تكون خمسين وثلاثمائة

(٣) وفي نسخة أخرى : يدر .

(٤) وفي نسخة أخرى : تبادل .

ورجال الدولة ، وقلدها الصنائع من أرباب السيوف والأقلام ، وعول في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة وتعهدهم بالجوائز والخلع ، وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من رغب في الإثبات في ديوان السلطان منهم ، فجددوا في ولاية الدولة وبث الدعوة

وفسد ما بين أمير العدو جعفر بن علي وأخيه يحيى واقتطع يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال . ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبه برغواطة في غزاته إياهم ، واستدعاه محمد بن أبي عامر لأول أمره لما رآه من استقامته إليه ، وشدّ أزره وتلوى عليه كراهية لما يلقى بالأندلس من الحكم . ثم أصلحه وتخلّى لأخيه عن عمل المغرب وأجاز البحر إلى ابن أبي عامر فحلّ منه بالمكان الأثير ، وتناغت زناتة في الترف إلى الدولة بقرب الطاعات ، فرحف خزرون بن فلفول سنة ست وستين وثلثمائة إلى مدينة سجلماسة فافتحمها ومعى دولة آل مدرار منها ، وعقد له المنصور عليها كما ذكرنا ذلك قبل .

وزحف عقب هذا الفتح بُلُكّين بن زيري قائد أفريقية للشيعة إلى المغرب سنة تسع وستين وثلثمائة زحفه المشهور وخرج محمد بن أبي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمدافعته بنفسه ، واحتمل من بيت المال مائة حمل ومن العساكر ما لا يحصى عدّه . وأجاز جعفر بن علي بن حمدون إلى سبتة ، وانضمت إليه ملوك زناتة ورجع بُلُكّين عنهم إلى غزو برغواطة إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة كما ذكرناه .

ورجع جعفر إلى مكانه من ابن أبي عامر ، لم يسمح بمقامه عنه ، ووصل حسن بن كنون خلال ذلك من القاهرة بكتاب العزيز نزار بن معدّ إلى بلكّين صاحب أفريقية في إعانتة إلى ملك المغرب وإمداده بالمال والعساكر ، فأمضاه بلكّين لسبيله ، وأعطاه مالا ووعدّه بإصغافه ونهض إلى المغرب فوجد طاعة الروانية قد استحكت فيه . وهلك بلكّين أثر ذلك وشغل ابنه المنصور عن شأنه فدعا لحسن بن كنون إلى نفسه ، وأنفذ أبو محمد بن أبي عامر ابن عمه محمد بن عبدالله ويلقب عسكلاجة لحربه سنة خمس وسبعين وثلثمائة وجاء أثره إلى الجزيرة كما يشارف القصة ، وأحيط بالحسن بن كنون فسأل الأمان وعقد له مقارعه عمر وعسكلاجة ، وأشخصه إلى الحضرة فلم يمض ابن أبي عامر أمامه ، ورأى أن لا ذمّة له لكثرة نكته فبعث من ثقاته من أتاه برأسه ، وانقرض أمر الأدارسة وانمحي أثرهم فأغضب عمر وعسكلاجة لذلك .

واستراح إلى الجند بأقوال نمت عنه إلى المنصور فاستدعاه من العدو وألحقه بمقتوله ابن كنون .

وعقد على العدو للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، واكثف عدده ، وأطلق في المال يده ، ونفذ إلى عمله سنة ست وسبعين وثلثمائة فضبط المغرب أحسن ضبط وهابته البرابرة ، ونزل فاس من العدو ، فغز سلطانه وكثر جمعه ، وانضم إليه ملوك النواحي حتى حذر ابن أبي عامر مغبة استقلاله ، واستدعاه ليلو صحة طاعته ، فأسرع للحاق به ، فصاعف تكرمته وأعادته إلى عمله ، وكان بدوي بن يعلى هذا من بين ملوك زناتة كثير الاضطراب على الأموية والمراوغة لهم بالطاعة . وكان لمنصور بن أبي عامر يضرب بينه وبين قرينه زيري بن عطية ويقرن كلاً منهما بمناغاة صاحبه في الاستقامة ، وكان إلى زيري أميل وبطاعته أوثق ، لخلوصه وصدق طويته وانحياشه فكان يرجو أن يتمكن من قياد بدوي بن يعلى بمناغاته ، فاستدعى بزيري بن عطية إلى الحضرة سنة سبع^(١) وسبعين وثلثمائة فبادر إلى القدوم عليه وتلقاه وأكبر موصله وأحسن مقامه ومنقلبه وأعظم جائزته ، وسام بدوي مثلها فامتنع ، وقال لرسوله : قل لابن أبي عامر متى عهد حمر الوحش تنقاد للبطارة . وأرسل عنانه في العيث والفساد ونهض إليه صاحب المغرب الوزير حسن بن عبد الودود في عساكره وجموعه من جند الأندلس وملوك العدو مظاهراً عليه لعدو زيري بن عطية ، وجمع لهم بدوي ولقيهم سنة إحدى وثمانين وثلثمائة فكان الظهور له .

وانهزم عسكر السلطان وجموع مغراوة ، واستلحموا وجرح الوزير حسن بن عبد الودود جراحات كان فيها لليال مهلكة . وطار الخبر إلى ابن أبي عامر فاغتم لذلك وكتب إلى زيري بضبط فاس ومكاتبة أصحاب حسن ، وعقد له على المغرب كما نستوفي ذكره عند ذكر دولتهم . وغالبه بدوي عليها مرة بعد أخرى ونزع أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي عن قومه ، ولحق بسواحل تلمسان ناقضاً لطاعة الشيعة ، وخارجاً على أخيه المنصور بن بلكين صاحب القيروان . وخاطب ابن أبي عامر من وراء البحر وأوفد عليه ابن أخيه ووجه قومه فسرب إليه الأموال والصلاة بفاس مع

(١) وفي نسخة أخرى : سنة تسع وسبعين .

زيري حسبما نذكره ، وجمع أيديهما على مدافعة بدوي ، فساء أمره فيها جميعاً إلى أن راجع أبو البهار ولاية منصور ابن أخيه كما نذكره بعد . وحاربه زيري فكان له الظهور عليه ولحق أبو البهار بسبته ، ثم عاد إلى قومه .

واستفحل زيري من بعد ذلك ، وكانت بينه وبين بدوي وقعة اكتسح زيري من ماله ومعسكره مالا كفو له ، وسبى حرمه . واستلحم من قومه زهاء ثلاثة آلاف فارس . وخرج إلى الصحراء شريداً سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة . وهلك هناك فولي أمره في قومه حبّوس ابن أخيه زيري بن يعلى ، ووثب به ابن عمه أبو يداس بن دوتاس فقتله طمعاً في الرياسة من بعده ، واختلف عليه قومه فأخفق أمره وعبر البحر إلى الأندلس في جمع عظيم من قومه . وولي أمر بني يفرن من بعده حمامة بن زيري بن يعلى أخو حبّوس المذكور ، فاستقام عليه أمر بني يفرن وقد مرّ ذكره في خبر بدوي غير مرّة ، وأنه كانت الحرب بينه وبين زيري بن عطية سجلاً ، وكانا يتعاقبان ملك فاس بتناول الغلب . وأنه لما وفد زيري على المنصور خالفه بدوي إلى فاس فملكها ، وقتل بها خلقاً من مغراوة ، وأنه لما رجع زيري اعتصم بدوي بفاس فنازله زيري وهلك من مغراوة وبني يفرن في ذلك الحصار خلق . ثم اقتحمها زيري عليهم عنوة فقتله وبعث برأسه إلى سدة الخلافة بقرطبة سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة والله أعلم .

(ولما) اجتمع بنو يفرن على حمامة تحيّر بهم إلى ناحية شالة من المغرب فملكها وما إليها من تاذلاً ، واقتطعها من زيري ، ولم يزل عميد بني يفرن في تلك العمالة ، والحرب بينه وبين زيري ومغراوة متصلة ، وكانت بينه وبين المنصور صاحب القيروان مهاداة ، فأهدى إليه وهو محاصر لعمه حماد بالقلعة سنة ست وأربعمئة ، وأوفد بهديته أخاه زاوي بن زيري فلقيه بالطبول والبنود . ولما هلك حمامة قام بأمر بني يفرن من بعده أخوه الأمير أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى فاستبدّ بملكهم ، وكان مستقيماً في دينه مولعاً بالجهاد ، فانصرف إلى جهاد برغواطة وسالم مغراوة وأعرض عن فتنهم . (ولما) كانت سنة أربع وعشرين وأربعمئة تجددت العداوة بين هذين الحيين بني يفرن ومغراوة ، وثار الإحن القديمة ، وزحف أبو الكمال صاحب شالة وتادلا وما إلى ذلك في جموع يفرن . وبرز إليه حمامة بن المعز في قبائل مغراوة ، ودارت بينهم حروب شديدة وانكشفت مغراوة وفرّ حمامة إلى وجدة ، واستولى الأمير أبو الكمال تميم وقومه على فاس وغلبوا مغراوة على عمل المغرب . واكتسح تميم اليهود بمدينة فاس ،

واصطلم نعمهم واستباح حرمهم . ثم احتشد حمّامة من وجدة سائر قبائل مغراوة وزنّانة وبعث الحاشدين في قياطينهم لجميع بلاد المغرب الأوسط ، ووصل إلى تنس صريخاً لزعمائهم . وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم ، وزحف إلى فاس سنة تسع وعشرين وأربعمائة فأفرج عنها أبو الكمال تميم ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة ، وأقام بمكان عمله وموطن إمارته منها إلى أن هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة ووليّ ابنه حمّاد إلى أن هلك سنة تسع وأربعين وأربعمائة . ووليّ بعده ابنه يوسف إلى أن توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، فوليّ بعده عمّه محمد ابن الأمير أبي تميم إلى أن هلك في حروب لمتونة حين غلبوهم على المغرب أجمع حسبما نذكره ، والملك لله يؤتبه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

(وأما) أبو يداس بن دوناس قاتل حبوس بن زيري بن يعلى بن محمد فإنه لما اختلف عليه بنو يفرن وأخفق أمره في اجتماعهم له ، أجاز البحر إلى الأندلس سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة فرفعه إخوانه أبو قرّة وأبو زيد وعطاف ، فحلّ كلّهم من المنصور محلّ التكرمة والإيثار ونظمه في جملة الرؤساء والأمراء واسنى له الجراية والأقطاع ، وأثبت رجاله في الديوان ، ومن أجاز من قومه فبعد صيته وعلا في الدولة كعبه .

(ولما) افتقرت الجماعة وانتثر سلك الخلافة كان له في حروب البربر مع جند الأندلس آثار بعيدة وأخبار غريبة ، ولما ملك المستعين قرطبة سنة أربعمائة واجتمع إليه من كان بالأندلس من البرابرة لحق المهدي بالثغور واستجاش طاغية الجلالقة ، فزحف معه إلى غرناطة وخرج المستعين في جموعه من البرابرة إلى الساحل واتبعهم المهدي في جموعه فتواقفوا بوادي أبرة^(١) فكانت بين الفريقين جولة عظم بلاء البرابرة ، وطار لأبي يداس فيما ذكر ، وانهمزم المهدي والطاغية وجموعهم بعد أن تضايقت المعركة وأصاب أبا يداس بن دوناس جراحة كان فيها مهلكه ، ودفن هناك . وكان لابنه خلوف وحافده تميم بن خلوف من رجالات زنّانة بالأندلس شجاعة ورياسة ، وكان يحيى بن عبد الرحمن ابن أخيه عطاف من رجالاتهم ، وكان له اختصاص ببني حمّود ، ثم بالقاسم منهم ، ولأه على قرطبة أيام خلافته والبقاء لله وحده .

(١) وفي النسخة الباريسية : أبرة .

* (الخبر عن أبي نور بن أبي قرّة وما كان له من الملك
بالأندلس أيام الطوائف) *

هذا الرجل اسمه أبو نور بن أبي قرّة بن أبي يفرن من رجالات البربر الذين استظهر
بهم قومهم أيام الفتنة ، تغلب على رندة أزمان تلك الفتنة ، وأخرج منها عامر بن
فتوح من موالي الأموية سنة خمس وأربعمئة فملكها واستحدث بها لنفسه سلطاناً . ولما
استفحل أمر ابن عبّاد بأشبيلية وأسف إلى تملك ما جاوره من الأعمال والثغور ،
نشأت الفتنة بينه وبين أبي نور هذا . واختلف حاله معه في الولاية والانحراف ،
وسجل له سنة ثلاث وأربعين وأربعمئة برنده وأعمالها فيمن سجل له من البربر .
واستدعاه بعدها سنة خمسين وأربعمئة لبعض ولأئمه وكاده بكتاب أوقفه عليه على
لسان جارية بقصره تشكو إليه ما نال منها ابنه من المحرم ، فانطلق إلى بلده وقتل ابنه .
وشعر بالمكيدة فمات أسفاً ووليّ ابنه الآخر أبو نصر إلى سنة سبع وخمسين وأربعمئة
فغدر به بعض جنده ، وخرج هارلاً فسقط من السور ومات . وتسلم المعتمد رنده
من بعد ذلك ويقال إنّ ذلك كان عند كائنة الحمام سنة خمس وأربعين وأربعمئة وأنّ
أبا نور هلك فيها . ولما بلغ الخبر ابنه أبا نصر وقع ما وقع والله أعلم .

* (الخبر عن مرنجبصة من بطون بني يفرن وشرح أحوالهم) *

كان هذا البطن من بني يفرن بضواحي أفريقية وكانت لهم كثرة وقوة . ولما خرج أبو
يزيد على الشيعة وكان من أحوالهم بنو واركوا ظاهره على أمره بما كان له معهم من
العصية . ثم انقرض أمره وأخذتهم دولة الشيعة وأولياؤهم صنهاجة وولاتهم على
أفريقية بالسطوة والقهر ، وانزال العقوبات بالأنفس والأموال إلى أن تلاشوا وأصبحوا
في عداد القبائل الغارمة . وبقيت منهم أحياء نزلوا ما بين القيروان وتونس أهل شاء
وبقر وخيام يظعنون في نواحيها ، ويتحلون الفلح في معاشهم ، وملك الموحدون
أفريقية وهم بهذا الحال ، وضربت عليهم المغارم والضرائب والعسكرة مع السلطان في
غزواته بعدة مفروضة يحضرون بها متى استقروا .

(ولما تغلب) الكعوب من بني سُليْم على ضواحي أفريقية وأخرجوا منها الزواودة من الرياح أعداء الدولة لذلك العهد ، واستظهر بهم السلطان عليهم ، اتخذوا أفريقية وطناً من قابس إلى باجة . ثم اشتدّت ولايتهم للدولة وعظم الاستظهار بهم وأقطعهم ملك الدولة ما شاؤهُ من الأعمال والخراج فكان في أقطاعهم خراج مرنجيصة هؤلاء . ولما كانت وقعة بنو مزين على القيروان وكان بعدها في الفترة ما كان من طغيان الفتنة التي اعتزّ فيها العرب على السلطان والدولة ، كان لهؤلاء الكعوب المتغلبين مدد قوي من أحياء مرنجيصة هؤلاء من الخيل للحملان ، والخيالة للاستظهار بأعدادهم في الحروب فصاروا لهم لحمة وخولاً ، وتملكوهم تملك العبيد ، حتى إذا اذهب الله بحمى الفتنة وأقام مائل الخلافة والدولة وصارت تراث هذا الملك الحفصي إلى الأحق به مولانا السلطان أبي العباس أحمد ، فانقشع الجوأضياء الأفق ودفع المتغلبين من العرب عن أعماله ، وقبض أيديهم عن رعاياه وأصار مرنجيصة هؤلاء من صفاياه بعد إنزال العقوبة بهم على لياذهم بالعرب وظعنهم معهم ، فراجعوا الحق وأخلصوا في الانحياس ورجعوا إلى ما ألفوه من الغرامة وقوانين الخراج ، وهم على ذلك لهذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها .

* (الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الدول بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه) *

هؤلاء القبائل من مغراوة كانوا أوسع بطون زناتة وأهل الباس والغلب منهم ، ونسبهم إلى مغراو بن يصلتين بن مسر بن زاكيا بن ورسيك بن ألديرت بن جانا إخوة بني يفرن وبني يرنبان ، وقد تقدّم الخلاف في نسبهم عند ذكر بني يفرن ، ولما شعوبهم وبطونهم فكثير مثل بني يلس^(١) وبني زنداك وبني رواو^(٢) ورترمير وبني أبي سعيد وبني ورميغان والأغواط وبني ريغة وغيرهم ممن لم يحضرنى أسماؤهم . وكانت مُحلاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديولة^(٣) وما إليها

(١) وفي نسخة أخرى : بني يليث .

(٢) وفي نسخة أخرى : بني وراق .

(٣) وفي نسخة أخرى : جبل مديونة .

ولهم مع إخوانهم بني يفرن اجتماع وافتراق ومناغاة في أحوال البدو. وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام فأقره لهم وحسن إسلامهم .
وهاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة ، ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلقاه برأ وقبولاً لهجرته ، وعقد له على قومه ووطنه . وانصرف إلى بلاده محبباً محبوباً مغتبطاً بالدين مظاهراً لقبائل مُضَر ، فلم يزل هذا دأبه . وقيل إنه تقبض عليه أسيراً لأول الفتح في بعض حروب العرب مع البربر قبل أن يدينوا بالدين فأشخصوه إلى عثمان لمكانه من قومه فمنّ عليه وأسلم فحسن إسلامه ، وعقد له على عمله فاخصّ صولات هذا وسائر الأحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية ، وكانوا خاصة لهم دون قريش ، وظاهروا دعوة مروانية بالأندلس رعيّاً لهذا الولاء على ما تراه بعد في أخبارهم .

ولما هلك صولات قام بأمره في مغراوة وسائر زناتة من بعده ابنه حفص وكان من أعظم ملوكهم ، ثم لما هلك قام بأمره ابنه خزر وعندما تقلص ظلّ الخلافة عن المغرب الأقصى بعض الشيء ، وأظلت فتنة ميسرة الحقيير ومظفره^(١) فاعتزّ خزر وقومه على أمر المضرية بالقيروان ، واستفحل ملكهم وعظم شأن سلطانهم على البدو من زناتة بالمغرب الأوسط . ثم انتقض أمر بني أمية بالمشرق فكانت الفتنة بالمغرب فازدادوا اعتزازاً وعتوّاً ، وهلك خلال ذلك خزر وقام بملكه ابنه محمد وخلص إلى المغرب إدريس الأكبر بن عبدالله بن حسن بن الحسن سنة سبعين ومائة في خلافة الهادي . وقام برابرة المغرب من أوربة ومدينة ومغيلة بأمره ، واستوثق له الملك واقتطع المغرب عن طاعة بني العباس سائر الأيام .

ثم نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة فتلقاه محمد بن خزر هذا وألقى إليه المقادة ، وبابح له عن قومه وأمكنه من تلمسان بعد أن غلب عليها بني يفرن أهلها . وانتظم لإدريس بن إدريس الأمر وغلب على جميع أعمال أبيه ، وملك تلمسان وقام بنو خزر هؤلاء بدعوته كما كانوا لأبيه . وكان قد نزل تلمسان لعهد إدريس الأكبر أخوه سليمان بن عبدالله بن حسن بن الحسن القادم إليه من المشرق ، وسجّل له بولاية تلمسان من سجل ابنه إدريس لمحمد ابن عمّه سليمان من بعده ،

(١) وفي نسخة أخرى : مطخرة .

فكانت ولاية تلمسان وأمصارها في عقبه ، واقتسموا ولاية ثغورها الساحلية فكانت تلمسان لولد إدريس بن محمد بن سليمان ، وأرشكول لولد عيسى بن محمد ، وتنس لولد ابراهيم بن محمد ، وسائر الضواحي من أعمال تلمسان لبني يفرن ومغراوة . ولم يزل الملك بضواحي المغرب الأوسط لمحمد بن خزر كما قلناه إلى أن كانت دولة الشيعة واستوثق لهم ملك أفريقية . وسرح عبيدالله المهدي إلى المغرب عروبة بن يوسف الكتامي في عساكر كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين ، فدوخ المغرب الأدنى ورجع . ثم سرح بعده مصالة بن حبّوس إلى المغرب في عساكر كتامة ، فاستولى على أعمال الأدارسة واقتضى طاعتهم لعبيدالله . وعقد على فاس ليحيى بن إدريس بن عمر آخر ملوك الأدارسة . وخلع نفسه ودان بطاعتهم ، وعقد له مصالة على فاس ، وعقد لموسى بن أبي العالية أمير مكناسة وصاحب تازة^(١) ، واستولى على ضواحي المغرب ، وقفل إلى القيروان . وانتقض عمر بن خزر من أعقاب محمد بن خزر الداعية لإدريس الأكبر ، وحمل زناته وأهل المغرب الأوسط على البرابرة من الشيعة وسرح عبيدالله المهدي مصالة قائد المغرب في عساكر كتامة سنة تسع وثلاثمائة ، ولقيه محمد ابن خزر في جموع مغراوة وسائر زناته ففلّ عساكر مصالة وخلص إليه فقتله ، وسرح عبيد الله ابنه أبا القاسم في العساكر إلى المغرب سنة عشر وثلاثمائة ، وعقد له على حرب محمد بن خزر وقومه ، فأجفلوا إلى الصحراء ، واتبع آثارهم إلى ملوية فلحقوا بسجلاسة وعطف أبو القاسم على المغرب فدوخ أقطاره وجال في نواحيه وجدّد لابن أبي العافية على عمله ورجع ولم يلق كيداً .

(ثم إنّ الناصر) صاحب قرطبة سمّاه أمل في ملك العدو ، فخاطب ملوك الأدارسة وزناته ، وبعث إليهم خالصته محمد بن عبيدالله بن أبي عيسى سنة ستة عشر وثلاثمائة فبادر محمد بن خزر إلى إجابته وطرد أولياء الشيعة من الزاب . وملك شلب وتنس من أيديهم ، وملك وهران وولّى عليها ابنه المنير^(٢) ، وبثّ دعوة الأموية في أعمال المغرب الأوسط ما عدا تاهرت . وبدأ في القيام بدعوة الأموية إدريس بن ابراهيم

(١) تازة : مدينة متوسطة من أقدم المدن المغربية ، تقع وسط قبيلة غياثة في منتصف الطريق بين مكناس ووجدة في موقع جبلي ممتاز بين الأطلس المتوسط وجبال الريف في ممر استراتيجي عظيم بين الغرب الشرقي وسهول فاس (كتاب المغرب ص ٧٤) .

(٢) وفي نسخة ثانية : الخير .

بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول . ثم فتح الناصر سبته سنة سبع عشرة
وثلاثمائة من يد الأدارسة وأجار موسى بن أبي العالية على طاعته ، واتصلت يده
بمحمد بن خزر وتظاهروا على الشيعة وخالف فلفول بن خزر أخاه محمد إلى طاعة
الشيعة ، وعقد له عبدالله على مغراوة .

وزحف إلى المغرب حميد بن يَصَل (١) سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة في عساكر كتامة
إلى عبدالله على تاهرت فأنهى إلى فاس وأجفلت أمامه طواعن زناته ومكناسة ودوخ
المغرب . وزحف من بعده ميسور الخصي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فحاصر فاس
وامتنعت عليه ورجع . ثم انتقض حميد بن يصل سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وتحيز إلى
محمد بن خزر . ثم أجاز إلى الناصر وولاه على المغرب الأوسط . ثم شغل الشيعة بفتنة
أبي يزيد وعظمت آثار محمد بن خزر وقومه من مغراوة ، وزحفوا إلى تاهرت مع
حميد بن يصل قائد الأموية سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . وزحف معه الخير بن محمد
وأخوه حمزة وعمه عبدالله بن خزر ، ومعهم يعلى بن محمد في قومه بني يفرن ،
وأخذوا تاهرت عنوة وقتلوا عبدالله بن بكار ، وأسروا قائدها ميسور الخصي بعد أن
قتل حمزة بن محمد بن خزر في حروبها .

وكان محمد بن خزر وقومه زحفوا قبل ذلك إلى بسكرة ففتحوا وقتلوا زيدان
الخصي . ولما خرج إسماعيل من حصار أبي يزيد وزحف إلى المغرب في اتباعه خشية
محمد بن خزر على نفسه لما سلف منه في نقض دعوتهم وقتل أتباعهم ، فبعث إليه
بطاعة معروفة وأوعز إليه إسماعيل بطلب أبي يزيد ووعدته في ذلك بعشرين حملاً من
المال . وكان أخوه معبد بن خزر في موالة أبي يزيد إلى أن هلك . وتقبض إسماعيل
بعد ذلك على علي معبد سنة أربعين وثلاثمائة وقتله ، ونصب رأسه بالقيروان . ولم يزل
محمد بن خزر وابنه الخير متغلباً على المغرب الأوسط ، ومقاسماً فيها ليعلى بن محمد .
ووفد فتوح بن الخير سنة أربعين وثلاثمائة على الناصر مع مشيخة تاهرت ووهران
فأجازهم وصرفهم إلى أعمالهم .

ثم حدثت الفتنة بين مغراوة وصنهاجة وشغل محمد بن الخير وابنه خزر بحروبهم ،
وتغلب يعلى بن محمد على وهران وخرّبها وعقد الناصر لمحمد بن يصل على تلمسان

(١) هو حميد بن يصلين الكتامي وقد زحف في عشرين ألف فارس (قبائل المغرب ١٢٠) .

وأعمالها ، وليعلى بن محمد على المغرب وأعماله ، فراجع محمد بن خزر طاعة الشيعة من أجل قرية يعلى بن محمد . ووفد على المعز بعد مهلك أبيه إسماعيل سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة فأولاه تكربة وتم على طاعتهم إلى أن حضر مع جوهر في غزاته إلى المغرب بأعوام سبع أو ثمان وأربعين وثلثمائة ثم وفد على المعز بعد ذلك سنة خمسين وثلثمائة ، وهلك بالقيروان ، وقد نيف على المائة من السنين . وهلك الناصر المرواني عامئذ على حين انتشرت دعوة الشيعة بالمغرب وانقبض أولياء الأموية إلى أعمال سبتة وطنجة فقام بعده ابنه الحكم المستنصر ، واستأنف مخاطبة ملوك العدو فأجابه محمد بن الخير ابن محمد بن خزر بما كان من أبيه الخير وجدّه محمد في ولاية الناصر ، والولاية التي لبني أمية على آل خزر بوصية عثمان بن عفان لصولات بن وزمار جدّهم كما ذكرناه . فأتحن في الشيعة ودوخ بلادهم . ورماه معدّ بقريته^(١) زيري بن مناد أمير صنهاجة فعقد له على حرب زناته وسوّغه ما غلب عليه من أعمالهم ، وجمعوا للحرب سنة ستين ومائتين فلقى بلكين بن زيري جموعهم بدسياسة من بعض أولياء محمد بن الخير قبل أن يستكمل تعبيتهم ، فأبلى منهم ثباتاً وصبراً واشتدّت الحرب بينهم وانهمزمت زناته ، حتى إذا رأى محمد بن الخير أن قد أحيط به انتبذ إلى ناحية من العسكر وذبح نفسه . واستمرت الهزيمة على قومه ووجد منهم في المعركة سبعة عشر أميراً سوى الأتباع . وتحيز كلّ إلى فريقه .

وولى بعد محمد في مغراوة ابنه الخير وأغرى بلكين بن زيري الخليفة معدّ وجندل بن جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب بموالة محمد^(٢) ابن الخير فاستراب جعفر وبعث عنه معدّ لولاية أفريقية حتى اعترم على الرحيل إلى القاهرة ، فاشتدّت استرابته ولحق بالخير بن محمد وقومه . وزحفوا إلى صنهاجة فأتاحت لهم الكرة وأصيب زيري بن مناد كبير العصابة ، وبعثوا برأسه إلى قرطبة في وفد من وجوه بني خزر مع يحيى بن عليّ أخي جعفر . ثم استراب بعدها جعفر من زناته ولحق بأخيه يحيى ، ونزلوا على الحكم وعقد معه لبلكين بن زيري على حرب زناته وأمدّه بالأموال والعساكر ، وسوّغه ما تغلّب عليه من أعمالهم ، فنهض إلى المغرب سنة إحدى وستين ومائتين وأوغر بالبرابرة منهم وتقرى أعمال طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة

(١) وفي نسخة ثانية : قرية .

(٢) وفي نسخة ثانية : حمد بن الخير .

وأجفلت زناته أمامه . وتقدّم إلى تاهرت فمحا من المغرب الأوسط آثار زناته ، ولحق بالمغرب الأقصى .

واتبع بلكين آثار الخير بن محمد وقومه إلى سجلماسة ، فأوقع بهم وتقبض عليهم ، فقتله صبراً وفضّ جموعهم ، ودوّخ المغرب وانكف راجعاً ، ومرّ بالمغرب الأوسط فالتحم بوادي زناته ومن إليهم من المصاصين (١) ورفع الأمان على كل من ركب فرساً أو أنتج خيلاً من سائر البربر . ونذر دماءهم فأقفر المغرب الأوسط من زناته وصار إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى إلى أن كان من رجوع بني يعلى بن محمد إلى تلمسان وملكهم إياها ، ثم هلك بنو خزر بسجلماسة وطرابلس ، وملك بني زيري ابن عطية بفاس ما نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى .

الخيزر بن محمد بن محمد بن الخير بن محمد بن خلف - حفنزه
عطية بن عبد الله
سعيد
بنو خزر من أعقاب محمد بن خزر بن حفص بن صولات بن وزمار

(١) وفي نسخة ثانية : الخصاصين .

* (الخبر عن آل زيري بن عطية ملوك فاس وأعمالها من الطبقة الأولى من مغراوة وما كان لهم بالمغرب الأقصى من الملك والدولة ومبادئ ذلك وتصاريفه) *

كان زيري هذا أمير آل خَزْرِيّ وقتَه ، ووارث ملكهم البدوي ، وهو الذي مهد الدولة بفاس والمغرب الأقصى وأورثها بنيه إلى عهد لمتونة حسبنا نستوفي في شرحه . وإسمه زيري بن عطية بن عبد الرحمن بن خَزْرُوْجِدَّه عبد الله أخو محمد داعية الناصر الذي هلك بالقيروان كما ذكرناه . وكانوا أربعة إخوة محمد ومعبد الذي قتله إسماعيل ولفول الذي خالف محمداً إلى ولاية الشيعة وعبد الله هذا وكان يعرف بأمه وإسمها تبدلت . وقد قيل إنَّ عبد الله هذا هو ابن محمد بن خزر ، وأخوه حمزة بن محمد الهالك في حربه مع ميسور عند فتح تاهرت . ولما هلك الخير بن محمد كما قلناه بيد بلكين سنة إحدى وستين وثلاثمائة وارتحلت زناته إلى ما وراء ملوية من المغرب الأقصى ، وصار المغرب الأوسط كله لصنهاجة ، واجتمع مغراوة إلى بقية آل خَزْرُوْجِدَّه وأمرؤهم يومئذ محمد بن خير المذكور ومقاتل وزيري إبننا مقاتل بن عطية بن عبد الله وخَزْرُوْجِدَّه بن لفلول .

ثم كان ما ذكرناه من ولاية بلكين بن زيري على أفريقية ، وزحف إلى المغرب الأقصى زحفه المشهور سنة تسع وستين وثلاثمائة وأجفلت أمامه ملوك زناته من بني خزروبني محمد بن صالح ، وانحازوا جميعاً إلى سبته . وأجاز محمد بن الخير البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريخاً ، فخرج المنصور في عساكره إلى الجزيرة ممدداً لهم بنفسه . وعقد لجعفر بن علي على حرب بلكين ، وأجازه البحر وأمدّه بمائة حمل من المال ، فاجتمعت إليه ملوك زناته وضربوا مصافهم بساحة سبته . وأطلّ عليهم بلكين من جبل تطاون^(١) فرأى ما لا قبل له به فارتحل عنهم ، وأشغل نفسه بجهاد برغواطة إلى أن هلك منصرفاً من المغرب سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة كما ذكرناه . وعاد جعفر بن علي إلى مكانه من الحضرة ، وسأله المنصور في حمل الرياسة وبقي

(١) تطوان : قبائل المغرب / ١٤٠ . وفي نسخة أخرى تيطاوين .

المغرب غفلاً من الولاية ، واقتصر المنصور على ضبط سببته ووكل إلى ملوك زناتة دفاع صنهاجة وسائر أولياء الشيعة . وقام يبلو طاعتهم إلى أن قام بالمغرب الحسن بن كنون من الأدارسة ، بعثه العزيز تزار من مِصْرَ لاسترجاع ملكه بالمغرب ، وأمدّه بلكين بعسكر من صنهاجة وهلك على تفيئة ذلك بلكين ، ودعا الحسن إلى أمره بالمغرب ، وانضم إليه بدوي^(١) بن يعلى بن محمد اليفرنى وأخوه زيري وابن عمه أبو يداس فيمن إليهم من بني يفرن ، فسرح المنصور لحره ابن عمّه أبا الحكم عمرو بن عبدالله بن أبي عامر الملقب عسكلاجه ، وبعثه بالعساكر والأموال فأجاز البحر وانحاش إليه ملوك آل خزر محمد بن الخير ، ومقاتل وزيري إبنا عطية ، وخزرون بن فلفول في جميع مغراوة ، وظاهروه على شأنه .

وزحف بهم أبو الحكم بن أبي عامر إلى الحسن بن كنون حتى الجؤه إلى الطاعة ، وسأل الأمان على نفسه فعقد له عمرو بن أبي عامر ماضيه من ذلك ، وأمكن به من قياده ، وأشخصه إلى الحضرة فكان من قتله وإخفار ذمة أبي الحكم بن أبي عامر وقتله بعده ما تقدّم حسبنا ذكرنا ذلك من قبل .

وكان مقاتل وزيري إبنا عطية من بين ملوك زناتة أشدّ الناس انخياشاً للمنصور قياماً بطاعة المروانية . وكان بدوي بن يعلى وقومه بنو يفرن منحرفين عن طاعتهم . ولما انصرف أبو الحكم بن أبي عامر من المغرب عقد المنصور عليه للوزير حسن بن أحمد ابن عبد الودود السلمي وأطلق يده في انتقاء الرجال والأموال فأنفذه إلى عمله سنة ست وسبعين وثلاثمائة وأوصاه بملوك مغراوة من زناتة ، واستبلغ بمقاتل وزيري من بنينهم لحسن انخياشهم وطاعتهم ، وأغراه ببدوي بن يعلى المضطرب الطاعة الشديد المراوغة ، فنقد لعمله ونزل بفاس ، وضبط أعمال المغرب ، واجتمعت إليه ملوك زناتة .

وهلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة واستقلّ برياسة الطواعن البدو من مغراوة إخوة زيري بن عطية ، وحسنت محالته لابن عبد الودود صاحب المغرب وانخياشه بقومه إليه . واستدعاه المنصور من محله بفاس سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة إشادةً بتكريمه وأغراه ببدوي بن يعلى بمنافسته في الحظ وإيثار الطاعة فبادر

(١) يدوبن يعلى اليفرنى : /قبائل المغرب/ ١٢١ .

إلى إجابته بعد ان استخلف على المغرب. ابنه المعز ، وأنزله بتلمسان ثغر المغرب وولّى على عدوة القرويين من فاس علي بن محمود بن أبي عليّ قشوش ، وعلى عدوة الأندلسيين عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة . وقدّم بين يديه هدية إلى المنصور ، ووفد عليه فاستقبله بالجيوش والعُدّة واجتفل للقاءه ، وأوسع نزله وجرايته ونوّه بإسمه في الوزارة وأقطع رزقها . وأثبت رجاله في الديوان ووصله بقيمة هديته وأسنى فيها : وأعظم جائزته وجائزة وفده وعجّل تسريحه إلى عمله ففعل إلى إمارته من المغرب . ونمي عنه خلاف ما احتسب فيه من غمط^(١) المعروف وإنكار الصنيع ، والاستنكاف من لقب الوزارة الذي نوّه به ، حتى أنه قال لبعض حشمه ، وقد دعاه بالوزير : وزير من يالكع^(٢) فما والله إلا أمير ابن أمير ، وأعجبا من ابن أبي عامر ومخرقته^(٣) ، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله ، وإن له منا ليوماً ، والله لقد تأجرتني فيما أهديت إليه حطا للقيم ، ثم غالطني بما بذله تنبيهاً للكرم ، إلا أن يحتسب بشمن الوزارة التي حطني بها عن رتبتي .

ونمي ذلك إلى ابن أبي عامر فصرّ عليها أذنه وزاد في اصطناعه ، وبعث بدوي بن يعلى اليفرني قريعه في ملك زناته يدعوه إلى الوفاة فأساء إجابته وقال : متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد للبيطرة . وأخذ في إفساد السابلة والاجلاب على الأحياء والعيث في العمالة ، فأوعز المنصور إلى عامله بالمغرب الوزير حسن بن عبد الودود بنبذ العهد إليه ، ومظاهرة عدوّه زيري بن عطية عليه ، فجمعوا له سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ولقوه فكانت الدائرة عليهم ، وتحرم العسكر وأثبت^(٤) الوزير ابن عبد الودود جراحة كان فيها حتفه . وبلغ الخبر إلى المنصور فشقّ عليه وأهمه شأن المغرب ، وعقد عليه لوقته لزيري بن عطية ، وكتب إليه بعهدده وأمر بضبط المغرب ومكانفة^(٥) جند السلطان وأصحاب حسن بن عبد الودود ، فاطلع بأعبائه وأحسن الغناء في عمله .

(١) غمط : احتقره وازدرى به .

(٢) بمعنى أحمق .

(٣) لعله بنوي خرقه : أي حمقه وسوء تصرفه .

(٤) وفي نسخة أخرى : أثبت . ويقال طعنه فثبت فيه الرمح أي أنفذه ، وضربوه حتى اثبتوه : أي اثنوه (القاموس) .

(٥) بمعنى المحافظة على جند السلطان وفي نسخة أخرى : مكاتبه .

واستفحل شأن بدوي بن يعلى وبني يفرن ، واستغلظوا على زيري بن عطية وأصلوه نار الفتنة ، وكانت حروبهم سجلاً ، وسُمت الرعايا بفاس كثرة تعاقبهم عليها وانتراؤهم على عملها . وبعث الله لزيري بن عطية ومغراوة مدداً من أبي البهار بن زيري بن مناد بما كان انتقض على ابن أخيه منصور بن بلكين صاحب القيروان وأفريقية ، ونزع عن دعوة الشيعة إلى الرواية . واقتفى أثره في ذلك خلوف بن أبي بكر صاحب تاهرت وأخوه عطية لصهر كان بينهما وبين زيري ، فاقسموا^(١) أعمال المغرب الأوسط ما بين الزاب وأنشريس^(٢) ووهران ، وخطبوا في سائر منابرها باسم هشام المؤيد ، وخطب أبو البهار من وراء البحر محمد بن أبي عامر ، وأوفد عليه أبا بكر بن أخيه حبوس بن زيري في طائفة من أهل بيته ووجوه قومه ، فاستقبلوا بالجيش ولقاه رحباً وتسهيلاً ، وأعظم موصله وأسنى جوائز وفده وصلاتهم ، وأنفذ معه إلى عمه أبي البهار بخمسمائة قطعة من صنوف الثياب الخز والعبيد ، وما قيمته عشرة آلاف درهم من الآنية والحلي ، وبخمسة وعشرين ألفاً من الدنانير ، ودعاه إلى مظاهرة زيري بن عطية على بدوي بن يعلى ، وقسم بينهما أعمال المغرب شق الأبلمة حتى لقد اقتسما مدينة فاس عدوة بعد عدوة ، فلم يرع ذلك بدوي ولا وزعه عن شأنه من الفتنة والاجلاب على البدو والحاضرة ، وشق عصا الجماعة . وانتقض خلوف بن أبي بكر على المنصور لوقته ، وراجع ولاية المنصور بن بلكين .

ومرض أبو البهار في المظاهرة عليه للوصلة التي بينهما ، وقعد عما قام له زيري بن عطية من حرب خلوف بن أبي بكر ، وأوقع به زيري في رمضان سنة إحدى وثمانين وثلثمائة واستلحمه وكثيراً من أوليائه ، واستولى على عسكره ، وانحاش إليه عامة أصحابه . وفر عطية شريداً إلى الصحراء ، ثم نهض على أثرها لبدوي بن يعلى وقومه فكانت بينهم لقاءات انكشف فيها أصحاب بدوي واستلحم منهم زهاء ثلاثة آلاف ، واكتسح معسكره وسبيت حرمة التي كانت منهن أمه وأخته ، وتخيّر سائر أصحابه إلى فئة زيري وخرج شريداً إلى الصحراء إلى أن اغتاله ابن عمه أبو يداس بن دوناس كما ذكرناه ، وورد خبر الفتحين متعاقبين على المنصور فعظم موقعها لديه . وقد قيل إن مقتل بدوي إنما كان عند إياب زيري من الوفاة ، وذلك أنه لما استقدمه المنصور

(١) وفي نسخة أخرى : فاقطعوا .

(٢) جبال ونشريس : قبائل المغرب/١٢١ .

ووفد عليه كما ذكرناه ، خالفه بدوي إلى فاس فملكها وقتل من مغراوة خلقاً واستمكن بها أمره . فلما رجع زيري من وفادته امتنع بها بدوي فنازله زيري وطال الحصار وهلك من الفريقين خلق . ثم اقتحمها عليه عنوة وبعث برأسه إلى سدة الخلافة بقرطبة . إلا أن راوي هذا الخبر يجعل وفادة زيري على المنصور وقتله لبدوي سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة^(١) فالله أعلم أي ذلك كان .

(ثم إن زيري) فسد ما بينه وبين أبي البهار الصنهاجي وتزاحفا فأوقع به زيري وانهمز أبو البهار إلى سببته موريا بالعبور إلى المنصور فبادر بكتابه عيسى بن سعيد بن القطاع في قطعة من الجند إلى تلقيه فحاد عن لقائه . وصاعد إلى قلعة جراوة ، وقد قدم الرسل إلى ابن أخيه المنصور صاحب القيروان مستميلاً إلى أن التحم ذات بينهما . ثم تحيز إليه وعاد إلى مكانه من عمله ، وخلع ما تمسك به من طاعة الأموية وراجع طاعة الشيعة فجمع المنصور لزيري بن عطية أعمال المغرب . واستكفى به في سد الثغر وعول عليه من بين ملوك المغرب في الذب عن الدعوة ، وعهد إليه بمناجزة أبي البهار وزحف إليه زيري في أمم عديدة من قبائل زناتة وحشود البربر وفرأمامه ، ولحق بالقيروان . واستولى زيري على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار . وملك ما بين السوس الأقصى والزاب فاتسع ملكه وانبسط سلطانه واشتدت شوكته ، وكتب بالفتح إلى المنصور بمائتين من الخيل وخمسين جملاً من المهاري السبق ، وألف درقة من جلود اللمط وأحمال من قسي الزان وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره ، وألف حمل من التمر وأحمال من ثياب الصوف الرفيعة كثيرة ، فجدد له عهده على المغرب سنة إحدى وثمانين وثلثمائة وأنزل أحياءه بأنحاء فاس في قباطينهم .

واستفحل أمر زيري بالمغرب ودفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا ، واختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة وأنزلها عساكره وحشمه ، واستعمل عليها ذويه ، ونقل إليها ذخيرته ، وأعدّها معتصماً ، وكانت ثغراً للعماليتين المغرب الأقصى والأوسط .

(تم فسد) ما بينه وبين المنصور بما نمي عنه من التألف لهشام باستبداد المنصور عليه

(١) كذا في قبائل المغرب سنة ٣٨٣هـ . /ص ١٢١ .

فسامه المنصور الهضيمة . وأبى منها ، وبعث كاتبه ابن القطاع في العساكر ، فاستعصى عليه وأمكنه صاحب قلعة حجر النسر منها ، فأشخصه إلى الحضرة . وأحسن إليه المنصور وسماه الناصح ، وكشف زيري وجهه في عداوة ابن أبي عامر والإغراء به والتشجيع لهشام المؤيد والامتعاض له من هضيمته وحجره ، فسخطه عند ابن أبي عامر وقطع عنه رزق الوزارة ، ومحي اسمه من ديوانه ونادى بالبراءة منه .

وعقد لواضح مولاة على المغرب وعلى حرب زيري بن عطية ، وانتقى له الحماية من سائر الطبقات ، وأزاح عنهم وأمكنه من الأموال للنفقات وأحمال السلاح والكسي ، وأصبحه طائفة من ملوك العدو كانوا بالحضرة ، منهم : محمد بن الخير ابن محمد بن الخير وزيري بن حمر و ابن عمها بكساس بن سيد الناس . ومن بني يفرن أبو بخت^(١) بن عبدالله بن بكار . ومن مكناسة اسماعيل بن البوري ومحمد بن عبدالله بن مدين ، ومن أزداجة خزرُونَ بن محمد وأمدّه بوجوه الجند . وفصل من الحضرة سنة سبع وثمانين وثلثمائة وسار في التعبئة وأجاز البحر إلى طنجة فعسكر بوادي رداث^(٢) وزحف زيري بن عطية في قومه ، فعسكر إزاءه وتواقفا ثلاثة أشهر ، واتهم واضح رجالات بني مرزال بالادهان فأشخصهم إلى الحضرة وأغرى بهم المنصور فوبخهم وتنصلوا فصفح عنهم ، وبعثهم في غير ذلك الوجه . ثم تناول واضح حصن أصيلا ونكور فضبطها واتصلت الوقائع بينه وبين زيري ، وبيت واضح معسكر زيري بنواحي أصيلا وهم غارون^(٣) فأوقع بهم وخرج ابن أبي عامر من الحضرة لاستشراف أحوال واضح وإمداده ، فسار في التعبئة واحتل بالجزيرة عند فرضة المجاز ، ثم بعث عن ابنه المظفر من مكان استخلافه بالزاهرة ، وأجاز إلى العدو واستكمل معه أكابر أهل الخدمة وجلة القواد . وقفل المنصور إلى قرطبة واستراع^(٤) خبر عبد الملك بالمغرب ورجع إليه عامة أصحاب زيري من ملوك البربر وتناولهم من إحسانه وبرّه ما لم يعهدوا مثله .

وزحف عبد الملك إلى طنجة واجتمع مع واضح ، وتلوم هناك مزيجاً لعلل العسكر ، فلما

(١) وفي نسخة اخرى : ابو نوبخت .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة اخرى : وادي ركاب .

(٣) بمعنى (مغيرون) .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة اخرى : استداع بمعنى ذاع وهذه من التعابير التي يستعملها ابن خلدون .

استتم تدبيره زحف في جمع لا كفاء له . فلقبه زيري بوادي منى من أحواز طَنْجَة في شوال سنة ثمان وثمانين وثلثمائة فدارت بينهم حروب شديدة . وهم^(١) فيها أصحاب عهد الملك وثبت هو . وبينما هم في حومة الحرب إذ طعن زيري بعض المؤثرين من أتباعه اهتبل الغرة في ذلك الموقف فطعنه ثلاثاً في نحره أشواه بها ، ومَرَّ يشتد نحو المظفر ، وبشره فاستكذبه لثبوت رايته ثم سقط إليه الصحيح فشده عليهم فاستوت الهزيمة وأُتخِن فيه بالقتل ، واستولى على ما كان في عسكرهم مما يذهب فيه الوصف . ولحق زيري بفاس جريحاً في قلة ، فامتنع عليه أهلها ودافعوه بحرمه ، فاحتملهن وفرّ أمام العساكر إلى الصحراء ، وأسلم جميع أعماله . وطير عبد الملك بالفتح إلى أبيه فعظم موقعه عنده وأعلن بالشكر لله والدعاء وبث الصدقات وأعتق الموالي ، وكتب إلى ابنه عبد الملك بعهدة على المغرب فأصلح نواحيه وسد ثغوره ، وبعث العمال في جهاته : فأنفذ محمد بن الحسن بن عبد الودود في جند كئيف إلى تادلا^(٢) واستعمل حميد بن يصل المكناسي^(٣) على سجلماسة فخرج كل لوجهه ، واقتضوا الطاعة وحملوا إليه الخراج ، وأقفل المنصور ابنه عبد الملك في جمادى من سنة تسع وثمانين وثلثمائة وعقد على المغرب لواضح فضبطه واستقام على تدبيره . ثم عزله في رمضان من سنته بعبيدالله ابن أخيه يحيى ، ثم ولى عليه من بعده اسمعيل بن البوري ، ثم من بعده أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي إلى أن هلك المنصور .

وأعاد المظفر بن المعز بن زيري من متبذه بالمغرب الأوسط لولاية أبيه بالمغرب فنزل فاس ، وكان من خبر زيري أنه لما استقل من نكبته وهزيمة عبد الملك إياه ، واجتمع إليه بالصحراء فل مغراوة ، وبلغه اضطراب صنهاجة واختلافهم على باديس بن المنصور بعد مهلك أبيه ، وأنه خرج عليه بعد عمومته مع ماكسن بن زيري ، فصرف وجهه حينئذ إلى أعمال صنهاجة ينتهز فيها الفرصة . واقتحم المغرب الأوسط ونازل تاهرت وحاصر بها يطوفت بن بلكين . وخرج باديس من القيروان صريخاً له . فلما مر بطبنة امتنع عليه فلفول بن خزرُون وخالفه إلى أفريقية فشغل بحربه . وكان

(١) هم بالشبيء : عزم عليه وقصد فعله ولم يعمله .

(٢) تادلا : مركز فلاحي عسكري يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٥٠٠ م على الضفة اليمنى لوادي ام الربيع

يقع وسط ناحية اشتهرت بتربية الاغنام ويجودة الاصناف (كتاب الغرب/٧٢) .

(٣) هو حميد بن يصلتين الكتامي (قبائل الغرب ١٢٠) .

أبو سعيد بن خزر بن لحق بأفريقية وولاه المنصور على طبنة كما نذكره ، فلما انتقض سار إليه باديس ودفع حمّاد بن بلكين في عساكر صنهاجة إلى مدافعة زيري بن عطية فالتقيا بوادي میناس قرب تاهرت ، فكانت الدبرة على صنهاجة ، واحتوى زيري على معسكرهم واستلحم ألوفاً منهم . وفتح مدينة تاهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة ، وأقام الدعوة فيها كلها للمؤيد هشام ولحاجبه المنصور من بعده . ثم اتبع آثار صنهاجة إلى أشير قاعدة ملكهم ، فأناخ عليها واستأمن إليه زاوي بن زيري ومن معه من أكابر أهل بيته المنازعين لباديس فأعطاه منه ما سأل ، وكتب إلى المنصور بذلك يسترضيه ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة إن أعيد إلى الولاية ، ويستأذنه في قدوم زاوي وأخيه خلّال ، فأذن لها وقدما سنة تسعين وثلاثمائة ، وسأل أخوهما أبو البهار مثل ذلك ، وأنفذ رسله يذكر تقديمه فسوّفه المنصور لما سبق من نكته . واعتلّ زيري بن عطية وهو بمكانه من حصار أشير فأفرج عنها . وهلك في منصرفه سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة واجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المغزّ بن زيري فبايعوه ، وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة ثم استجدى للمنصور واعتلق بالدعوة العامرية وصلحت حاله عندهم ، وهلك المنصور خلال ذلك ورغب المغز من ابنه عبد الملك المظفر أن يعيده إلى عمله على مال يحمله إليه وعلى أن يكون ولده معنصر رهينة بقرطبة فأجابته إلى ذلك وكتب له عهده وأنفذ به وزيره أبا علي بن خديم^(١) (ونسخته) : بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله من الحاجب المظفر سيف الدولة دولة الامام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة مدنيي فاس وكافة أهل المغرب سلّمهم الله أمّا بعد أصلح الله شأنكم وسلّم أنفسكم وأديانكم ، فالحمد لله علام الغيوب وغفار الذنوب ومقلب القلوب ذي البطش الشديد المبديء المعيد الفعال لما يريد ، لا رادّ لامره ، ولا معقب لحكمه ، بل له الملك والأمر ، وبيده الخير والشرّ ، إياه نعبد وإياه نستعين ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وصلى الله على سيدنا محمد سيّد المرسلين وعلى آله الطيبين ، وجميع الأنبياء والمرسلين والسلام عليكم أجمعين .

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : علي بن جدم .

وإن المعز بن زيري بن عطية أكرمه الله تابع رسله لدينا وكتبه متنصلاً من هنات دفعته إليها ضرورات ، ومستغفراً من سيآت حطتها من توبته حسنات ، والتوبة محاء الذنب ، والاستغفار منقذ من العيب^(١) . وإذا أذن الله بشيء يسره ، وعسى أن تكرهوا شيئاً ولكم فيه خير . وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة ، ولزوم الجادة ، واعتقاد الاستقامة وحسن المعونة وخفة المؤنة ، فولّيناه ما قبلكم ، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم ، وأن يرفع أعمال الجور عنكم . وأن يعمر سبلكم ، وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم إلا في حدود الله تبارك وتعالى . وأشهدنا الله عليه بذلك وكفى بالله شهيداً . وقد وجهنا الوزير أبا علي بن خديم أكرمه الله وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا ليأخذ بشأنه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك ، وأمرناه بإشراككم فيه ونحن بأمركم معتنون وأحوالكم مطالعون ، وأن يقضي على الأعلى للأدنى ، ولا يرتضي فيكم بشيء من الأدنى فثقوا بذلك وأسكنوا إليه ولحمض القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدوداً ظهره بنا ، معقوداً سلطانه بسلطاننا ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فذلك طبنا به إذ ولّيناه ، وأملنا فيه إذ قلّدناه ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، لا إله إلا هو ، وتبلغوا منا سلاماً طيباً جزيلاً ورحمة الله وبركاته كتب في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثلاثمائة .

(ولما وصل) إلى المعز بن زيري عهد المظفر بولايته على المغرب ما عدا كورة سجلماسة ، فإن واضحاً مولى المنصور عهد في ولايته على المغرب بها لوأندين بن خزرّون بن فلفول حسباً نذكره ، فلم تدخل في ولاية المعز هذه . فلما وصله عهد المظفر ضمّ نشره^(٢) وثاب إليه نشاطه ، وبث عمّاله في جميع كور المغرب وجبي خراجها ، ولم تزل ولايته متسقة ، وطاعة رعاياه منتظمة .

(ولما) افترق أمر الجماعة بالأندلس واختلّ رسم الخلافة وصار الأمر فيها طوائف استحدثت المعز في التغلب على سجلماسة وانتراعها من أيدي بني وأندين بن خزرّون فأجمع لذلك ، ونهض إليه سنة سبع وأربعمئة وبرزوا إليه في جموعهم فهزموه ، ورجع إلى فاس في فلّ من قومه وأقام على الاضطراب من أمره إلى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعمئة وولي من بعده ابن عمه حمّامة بن المعز بن عطية ، وليس كما يزعم

(١) وفي نسخة ثانية : العتب .

(٢) النشر : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

بعض المؤرخين انه ابنه وإنما هو اتفاق في الأسماء أوجب هذا الغلط ، فاستولى حمامة هذا على عملهم واستفحل ملكه ، وقصده الامراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء ثم نازعه الأمر أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى اليفرنى سنة أربع وعشرين وأربعمائة من بني يدوي بن يعلى المتغلبين على نواحي سلا ، وزحف إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زناتة .

وبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم فكانت بينهم حروب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة . ومات من مغراوة أمم واستولى تميم على فاس وأمال المغرب ، ولما دخل فاس استباح يهود وسبى حرمهم واصطلم نعمتهم ، ولحق حمامة بوجدة فامتد من هنالك من قبائل مغراوة من أنجاد مديونة وملوية . وزحف إلى فاس فدخلها سنة تسع وعشرين وأربعمائة وتحيز تميم إلى موضع إمارته من سلا وأقام حمامة في سلطان المغرب . وزحف إليه سنة ثلاثين وأربعمائة القائد ابن حماد صاحب القلعة في جموع صنهاجة ، وخرج إليه مجمعا حربه ، وبث القائد عطاءه في زناتة وأستعبدتهم^(١) على صاحبهم حمامة ، فأقصر عن لقائه ولاذ منه بالسلم والطاعة ، رجع القائد عنه ورجع هو إلى فاس . وهلك سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة فولي بعده ابنه دوناس ويكنى أبا العطاف ، واستولى على فاس وسائر عمل أبيه ، وخرج عليه لأول أمره حماد ابن عمه معنصر بن المعز فكانت له معه حروب ووقائع ، وكثرت جموع حماد فغلب دوناس على الضواحي وأحجره بمدينة فاس وخذق دوناس على نفسه الخندق المعروف بسياج حماد ، وقطع حماد جرية الوادي عن عدوة القرويين إلى أن هلك محاصراً لها سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فاستقامت دولة دوناس ، وانفسحت أيامه ، وكثر العمران ببلده ، واحتفل في تشييد المصانع وأدار السور على أرباضها ، وبني بها الحمامات والفضادق فاستبحر عمرانها ورحل التجار إليها بالبضائع ، وهلك دوناس سنة إحدى وخمسين وأربعمائة فولي بعده ابنه الفتوح ونزل بعدوة الأندلس ونازعه الأمر أخوه الأصغر عجيسة وامتنع بعدوة القرويين ، وافترق أمره بافتراقها وكانت الحرب بينهما سجالاتاً ، ومحالها بين المدينتين حيث يفضي باب النقرة بعدوة القرويين لهذا العهد ، وشيّد الفتوح باب عدوة الأندلس وهو مسمى به إلى الآن ، واختط عجيسة

(١) وفي نسخة ثانية : واستفصرهم .

باب الجيسة وهو أيضا مسمى به وإنما حذفت عينه لكثرة الاستعمال ^(١) وأقاموا على ذلك إلى أن غدر الفتوح بعجيسة أخيه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ويته فظفر به وقتله ، ودهم المغرب أثر ذلك على ما دهمه من أمر المرابطين من لتونة ، وخشي الفتوح مغبة أحوالهم فأفرج عن فاس .

وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد إلى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة على عادتهم في غزوه ، ودخل فاس واحتل من أكابرهم وأشرفهم رهناً على الطاعة ، وقفل إلى قلعته . وولى على المغرب بعد الفتوح معنصر بن حماد بن معنصر ^(٢) ، وشغل بحروب لتونة . وكانت له عليهم الواقعة المشهورة سنة خمس وخمسين وأربعمائة ولحق بضرية ^(٣) وملك يوسف بن تاشفين والمرابطون ، فاس وخلف عليها عامله وارتحل إلى غمارة فخالفه معنصر إلى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لتونة ، ومثل بهم بالحرق والصلب . ثم زحف إلى مهدي ابن يوسف الكزناني ^(٤) صاحب مدينة مكناسة ، وقد كان دخل في دعوة المرابطين فهزمه وقتله وبعث برأسه إلى سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبتة . وقد بلغ الخبر إلى يوسف بن تاشفين فسرح عساكر المرابطين لحصار فاس فأخذوا بمخنفها ، وقطعوا المرافق عنها حتى اشتد بأهلها الحصار ومستمهم الجهد . وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدبرة عليه ، وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة وباع أهل فاس من بعده لابنه تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء . وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة حتى إذا كان سنة إثنين وستين وأربعمائة وفرغ من فتح غمارة صمد إلى فاس فحاصرها أياماً ، ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبنو يفرن ومكناسة وقبائل زنانة . وهلك تميم في جملتهم حتى أعوزت مواراتهم فرادى ، فالتحذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات . وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان ، وأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين العدوتين وصيرهما مصراً ، وأدار عليها سوراً واحداً ، وانقرض أمر مغراوة من فاس والبقاء لله سبحانه وتعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : لكثرة الدوران في استعمالهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : بن منصور .

(٣) وفي نسخة ثانية : ولحق بصدية .

(٤) وفي نسخة ثانية : الكزناني .

— أولاه القديد بن حماد صاحب القلعة

بن معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن زيري بن عطية بن عبدالله بن خزر

المتنصر —

— منصور بن مصال

الفتوح بن دوناس حمامة بن المعز —

عجيسة

* (الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة الاولى من
مغراوة وأولية ملكهم ومصائره) *

كان خزرون بن فلفول من أمراء مغراوة وأعيان بني خزر ، ولما غلبهم بلكين بن زيري على المغرب الأوسط تحيزوا إلى المغرب الأقصى وراء ملوية . وكان بنو خزر يدينون بالدعوة المروانية كما ذكرناه . وكان المنصور بن أبي عامر القائم بدولة المؤيد قد اقتصر لأول حجابته من أحوال العدو على ضبط سبته برجال الدولة ووجوه القواد وطبقات العسكر ، ودفع ما وراءها إلى أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة . وعول في ضبط كوره وسداد ثغوره عليهم وتعهدهم بالعطاء وأفاض فيهم الإحسان فازدلفوا إليه بوجوه التقربات وأسباب الوصائل . وكان خزرُونَ بن فلفول هذا زحف يومئذ إلى سجلماسة وبها المعتر من أعقاب آل مدرار ، فانترى بها أخوه المتنصر بعد قفول جوهَر

إلى المغرب وظفر بأمرهم الشاكر لله محمد بن الفتح ، فوثب المنتصر من أعقابهم بعده على سجلماسة وتملكها . ثم وثب به أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة فقتله وقام بأمر سجلماسة ، وأعاد بها ملك بني مدرار وتلقب المعتر بالله فرحف إليه خزرون ابن فلقول سنة سبع وستين وثلثمائة في جموع مغراوة وبرز إليه المعتر فهزمه خزرون واستولى على مدينة سجلماسة ومحا دولة آل مدرار والخوارج منها آخر الدهر ، وأقام الدعوة بها للمؤيد هشام ، فكانت أول دولة أقيمت للمروانيين بذلك الصقع ، ووجد للمعتر مالا وسلاحا فاحتقنها وكتب بالفتح إلى هشام وأنفذ رأس المعتر فنصب بباب سدته ونسب الأثر في ذلك الفتح لصحابة محمد بن أبي عامر ويؤمن طائره ، وعقد لخزرون على سجلماسة وأعمالها ، وجاءه عهد الخليفة بذلك فضبطها وقام بأمرها إلى أن هلك ، فولي أمر سجلماسة من بعده ابنه وانودين .

ثم كان زحف زيري بن مناد إلى المغرب الأقصى سنة تسع وستين وثلثمائة وفرت زناته أمامه إلى سبتة . وملك أعمال المغرب وولى عليها من قبله وحاصر سبتة . ثم أفرج عنها وشغل بجهاد برغواطة ، وبلغه أن وانودين بن خزرون أغار على نواحي سجلماسة ، وأنه دخلها عنوة وأخذ عامله وما كان معه من الأموال والذخيرة ، فدخل إليها سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وفصل عنها فهلك في طريقه ، ورجع وانودين بن خزون إلى سجلماسة . وفي أثناء ذلك كان استيلاء زيري بن عطية بن عبدالله بن خزر على المغرب وملك فاس بعهد هشام . ثم انتقض على المنصور آخرأ وأجاز ابنه عبد الملك في العساكر إلى العدو سنة ثمان وثمانين وأربعمائة فغلب عليها بني خزر ونزل فاس ، وبث العمال في سائر نواحي المغرب لسد الثغور وجباية الخراج ، وعقد فيما عقد على سجلماسة لحميد بن يصل المكناسي^(١) النازع إليهم من أولياء الشيعة فعقد له على سجلماسة حين فر عنها بنو خزرون فملكها وأقام فيها الدعوة . ولما قفل عبد الملك إلى العدو وأعاد واضحا إلى عمله بفاس ، استأمن إليه كثير من بني خزر كان منهم وانودين بن خزر بن صاحب سجلماسة وابن عمه فلقول بن سعيد فأمّتهم ، ثم رجع وانودين إلى علمه بسجلماسة بعد أن تضامن أمرها وانودين وفلقول بن سعيد على مال مفروض ، وعدة من الخيل والدرق^(٢) يحملان إليه ذلك كل سنة . وأعطيا في ذلك

(١) حميد بن يصلين الكتامي وقد مر معنا من قبل .

(٢) الدرقة : ج درقة وهي الترس من الجلد ليس فيه خشب ولا عقب .

أبناءهما رهناً ففقد لهما واضح بذلك ، واستقل وانودين بعد ذلك بملك سجلماسة منذ أول سنة تسعين وأربعمائة مقيماً فيها للدعوة المروانية . ورجع المغرب إلى ولاية المغرب بعهد المظفر بن أبي عامر سنة ست وتسعين وأربعمائة واستثنى عليه فيها أمر سجلماسة لمكان وانودين بها . ولما انتثر سلك الخلافة بقرطبة ، وكان أمر الجماعة والطوائف واستبدت أمراء الأمصار والثغور وولاية الأعمال بما في أيديهم ، استبدت وانودين هذا بأعمال سجلماسة وتغلب على عمل درعة واستضافه إليه .

ونهب المغز بن زيري صاحب فاس سنة سبع وأربعمائة مع جموع من مغراوة يحاول انتزاع هذه الأعمال من يد وانودين ، فبرز إليه في جموعه وهزمه ، وكان ذلك سبباً في اضطراب أمر المغز إلى أن هلك ، واستفحل ملك وانودين واستولى على صبرون^(١) من أعمال فاس وعلى جميع قصور ملوية ، وولى عليها من أهل بيته . ثم هلك وولي أمره من بعده ابنه مسعود بن وانودين ، ولم أقف على تاريخ ولايته ومهلك أبيه .

(ولمّا) ظهر عبدالله بن ياسين واجتمع إليه المرابطون من لتونة ومسوفة وسائر المتلثمين ، وافتتحوا أمرهم بغزو درعة سنة خمس وأربعين وأربعمائة فأغاروا على إبل كانت هناك في حمى لمسعود بن وانودين وقتل كما ذكرناه في أخبار لتونة . ثم عاودوا الغزو إلى سجلماسة فدخلوها من العام المقبل مدخلوها ، وقتلوا من كان بها من فل مغراوة . ثم تبعوا من بعد ذلك أعمال المغرب وبلاد سوس وجبال المصامدة ، وافتتحوا صفروي سنة خمس وخمسين وأربعمائة وقتلوا من كان بها من أولاد وانودين وبقية مغراوة . ثم افتتحوا حصون ملوية سنة ثلاث وستين وأربعمائة وانقرض أمر بني وانودين كأن لم يكن ، والبقاء لله وحده وكل شيء هالك إلا وجهه ، سبحانه وتعالى لا ربّ سواه ، ولا معبود إلاّ آياه ، وهو على كل شيء قدير .

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : صفروي .

قتله عبدالله بن ياسين والمرابطون

ملك سجلماسة من يد المعتز بن محمد بن
مدرار وعقد له عليها هشام المؤيد

مسعود بن وانودين بن خزرون بن فلفول بن خزر

فلفول بن سعيد —

* (الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون بن فلفول من
الطبقة الأولى وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم) *

كان مغراوة وبنو خزر ملوكهم قد تحيَّزوا إلى المغرب الأقصى أمام بلكين ، ثم اتبعهم
سنة تسع وستين وثلثمائة في زحفه المشهور ، وأحجرهم بساحل^(١) سبتة حتى بعثوا
صريخهم إلى المنصور . وجاءهم إلى الجزيرة مشارفاً لأحوالهم وأمدَّهم بجعفر بن
يحيى ومن كان معه من ملوك البربر وزناتة ، فامتنعوا على بلكين ، ورجع عنهم
فتقرى أعمال المغرب ، وهلك في منصرفه سنة إثنين وسبعين وثلثمائة ورجع أحياء
مغراوة وبنو يفرن إلى مكانهم منه . وبعث المنصور الوزير حسن بن عبد الودود عاملاً

(١) وفي نسخة أخرى : بساحة .

على المغرب ، وقدم سنة ست وسبعين وثلاثمائة واختص مقاتلاً وزيراً إبنى عطية بن عبد الله بن خزر بمزيد التكرمة ، ولحق نظراؤهما من أهل بيتها الغيرة من ذلك ، فترع سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر إلى صنهاجة سنة سبع وسبعين وتلتائه منحرفاً عن طاعة الأموية . ووافى المنصور بن بلكين بأشير منصرفه من إحدى غزواته ، فتلقاه بالقبول والمساهمة ، وبالغ في تكريمته^(١) وعقد له على عمل طبنة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وخرج للقاءه ، واحتفل في تكريمته ونزله . وأدركه الموت بالقيروان فهلك لسته . ووفد إليه فلفول من مكان عمله ، فعقد له على عمل أبيه وخلع عليه ، وزف إليه ابنته ، وسوغه ثلاثين حملاً من المال ، وثلاثين تختاً من الثياب ، وقرب إليه مراكب بسروج مثقلة وأعطاه عشرة من البنود مذهباً ، وانصرف إلى عمله .

وهلك المنصور بن بلكين سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وولي ابنه باديس فعقد لفلفول على عمله بطبنة ، ولما انتقض زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر ، وسرح إليه ابنه المظفر كما قلناه ، فغلبه على أعمال المغرب . ولحق زيري بالقفر ، ثم عاج على المغرب الأوسط ، ونازل ثغور صنهاجة ، وحاصر تيهرت ، وبها يطوفت بن بلكين . وزحف إليه حماد بن بلكين من أشير في العساكر من تُلُكَّانة ، ومعه محمد بن أبي العرب قائد باديس ، بعثه في عساكر صنهاجة من القيروان مدداً ليطوفت . وأوغر إلى فلفول وهو بأشير أن يكون معهم . ولقيهم زيري بن عطية ففض جمعهم ، واستولى على معسكرهم ، واضطربت أفريقية فتنة وتنكرت صنهاجة لمن كان بجهاتها من قبائل زناتة . وخرج باديس بن المنصور من رقادة في العساكر إلى المغرب . ولما مر بطبنة استقدم فلفول بن سعيد بن خزرون ليستظهر به على حربه ، فاستراب واعتذر عن الوصول . وسأل تجديد العهد إلى مقدم السلطان فأسعف . ثم اشتدت استرابتة ومن كان معه من مغراوة فارتحلوا عن طبنة وتركوها . ولما أبعده باديس رجع فلفول إلى طبنة فعاث في نواحيها ، ثم فعل في تيجس^(٢) كذلك ، ثم حاصر باغاية . وانتهى باديس

(١) بياض بالأصل وفي نسخة ثانية : واستبلغ في ترك الأحن .

(٢) مدينة قديمة عتيقة كانت تسكنها قبيلة ورغوسة من القبائل البربرية ولعلها تيجيساس التي وصفها موليراس بأنها مدينة صغيرة جميلة ومرسى بحري وأنها محاطة بالحدائق الغناء (قبائل المغرب/ص ٣٠٧) (المغرب المجهول ج ٢/٢٥٦) .

إلى أشير وفرّ زيري بن عطية إلى صحراء المغرب ورجع على باديس بعد أن ولى على تاهرت وأشير عمّه يطوفت بن بلكين وانتهى إلى المسيلة فبلغه خروج عمومته ما كسن وزاوي وغرم ومغنين فخاف أبو البهار إحن زيري ولحق بهم من معسكره ، وبعث باديس في أثرهم عمّه حمّاد بن بلكين ، ورحل هو إلى فلفول بن سعيد بعد أن كان سرح عساكره إليه ، وهو محاصر باغاية ، فهزمهم وقتل قائدهم أبارعيل (١) . ثم بلغه وصول باديس فأفرج عنها ، واتبعه باديس إلى مرمّاجنة ، فتراحفوا وقد اجتمع لفلفول من قبائل زنّانة والبربر أمم ، فلم يثبتوا للقاء وانكشفوا عنه . وانهمز إلى جبل الحيناش ، ونزل القيّطون بما فيه . وكتب باديس بالفتح إلى القيروان ، وقد كان الارجاف أخذ منهم المأخذ ، وفرّ كثير منهم إلى المهديّة وشرعوا في عمل الدروب بما كانوا يتوقعون من فلفول بن سعيد حين قتل أبا رعبيل ، وهزم جيوش صنهاجة ، وكانت الواقعة آخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وانصرف باديس إلى القيروان ، ثم بلغه ان أولاد زيري اجتمعوا مع فلفول بن سعيد وعاقدوه ، ونزلوا جميعاً فحصروا تبسة فخرج باديس من القيروان إليهم ، فافترقوا ولحق العمومة بزيري بن عطية ما خلا ما كسن وابنه حسنا (٢) ، فإنها أقاما مع فلفول . ورجع باديس في أثره سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وانتهى إلى بسكرة ففرّ فلفول إلى الرمال . وكان زيري بن عطية محاصراً لأشير أثناء هذه الفتنة ، فأفرج عنها ، ورجع عنها أبو البهار إلى باديس ، وقفل معه إلى القيروان وتقدّم فلفول بن سعيد إلى نواحي قابس وطرابلس فاجتمع إليه من هنالك من زنّانة ، وملك طرابلس على ما ذكره .

(وذلك) أن طرابلس كانت من أعمال مصر وكان العامل عليها بعد رحيل معدّ إلى القاهرة عبدالله بن يخلف الكتامي . ولما هلك معدّ رغب بلكين من نزال العزيز إضافتها إلى عمله ، فأسعهفها بها ، وولى عليها تمصولة بن بكار من خواصّ مواليه . نقله إليها من ولاية بونة ، فلم يزل عليها إلى أن أرسل إلى الحاكم (٣) بمصر يرغب الكون في حضرته ، وأن يتسلّم منه عمل طرابلس . وكان برّجوان الصيقلّي يستبد على

(١) وفي نسخة ثانية : أبا زعيل .

(٢) وفي نسخة ثانية : محسن .

(٣) وفي نسخة ثانية : فأقام عليها عشرين سنة إلى أيام باديس ، فتنكرت له الأحوال عما عهد ، وبعث الى الحاكم .

الدولة ، وكان يغصّ بمكان يأنس الصِّقليّ منها ، فأبعده عن الحضرة لولاية برقه
ثم لما تابعت رغبة تمصولة صاحب طرابلس ، أشار برجوان ببعث يأنس إليها ،
فعقد له الحاكم عليها ، وأمره بالنهوض إلى عملها فوصلها سنة تسعين وثلثمائة ولحق
تمصولة بمصر وبلغ الخبر إلى باديس ، فسرح القائد جعفر بن حبيب في العساكر
ليصدّه عنها . وزحف إليه يأنس فكانت عليه الهزيمة وقتل . ولحق فتوح بن علي من
قواده بطرابلس ، فامتنع بها ونازله جعفر بن حبيب وأقام عليها مدّة . وبينما هو محاصر
له إذ وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يذكر أن فلفول بن سعيد نزل على
قابس ، وأنه قاصد إلى طرابلس ، فرحل جعفر عن البلد إلى ناحية الجبل ، وجاء
فلفول بن سعيد فنزل بمكانه ، وضافت الحال بجعفر وأصحابه فارتحلوا مصممين
على المناجزة وقاصدين قابس ، فتخلى فلفول عن طريقهم وانصرفوا إلى قابس .
وقدم فلفول مدينة طرابلس فتلقاه أهلها ، ونزل له فتوح بن علي عن إمارتها فملكها ،
وأوطنها من يومئذ وذلك سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وبعث بطاعته إلى الحاكم فسرح
الحاكم يحيى بن علي بن حمدون ، وعقد له على أعمال طرابلس وقابس ، فوصل
إلى طرابلس ، وارتحل معه فلفول وفتوح بن علي بن غفيرانان في عساكر زناتة إلى
حصار قابس ، فحاصروها مدّة ورجعوا إلى طرابلس . ثم رجع يحيى بن علي إلى
مِصرَ واستبدّ فلفول بعمل طرابلس ، وطالت الفتنة بينه وبين باديس ، ويش من
صريخ مصر فبعث بطاعته إلى المهدي محمد بن عبد الجبار بقرطبة ، وأوفد إليه رسله
في الصريخ والمدد ، وهلك فلفول قبل رجوعهم إليه سنة أربعمائة ، واجتمعت زناتة
إلى أخيه ورّوا بن سعيد .

وزحف باديس إلى طرابلس وأجفل ورّوا ومن معه من زناتة عنها ، ولحق بياديس من
كان بها من الجند ، فلقوه في طريقه ، وتمادى إلى طرابلس فدخلها ونزل قصر
فلفول ، وبعث إليه ورّوا بن سعيد يسأل الأمان له ولقومه ، فبعث إليه محمد بن
حسن من صنائعه ، فاستقدم وفدهم بأمانه فوصلهم ، وولّى ورّوا على نفزاوة والنعم
ابن كنون على قسطنطينية وشرط عليهم أن يرحلوا بقومهم عن أعمال طرابلس ، فرجعوا إلى
أصحابهم . وارتحل باديس إلى القيروان ، وولّى على طرابلس محمد بن الحسن . ونزل
ورّوا بنفزاوة والنعم بقسطنطينية .

(ثم انتقض) ورّوا سنة إحدى وأربعمائة ، ولحق بسجبال ايدمر فتعاقدوا على

الخلاف ، واستضاف النعيم بن كنون نفاوة إلى عمله . ورجع خزرون بن سعيد عن أخيه وروا إلى السلطان باديس ، وقدم عليه بالقيروان سنة اثنتين وأربعمائة فتقبله ووصله ، وولاه عمل أخيه نفاوة ، وولى بني مجلية من قومه على قفصه ، وصارت مدن الماء كلها لزناة ، وزحف وروا بن سعيد فيمن معه من زناة إلى طرابلس ، وبرز إليه عاملها محمد بن حسن فتواقعوا ودارت بينهم حروب شديدة انهزم فيها وروا ، وهلك الكثير من قومه . ثم راجع حصارها وضيق على أهلها فبعث باديس إلى خزرون وأخيه وإلى النعيم بن كنون وأمراء الجريد من زناة بأن يخرجوا لحرب صاحبهم ، فخرجوا إليه وتواقعوا بعبرة^(١) ما بين قابس وطرابلس ، ثم اتفقوا ولحق أصحاب خزرون بأخيه وروا . ورجع خزرون إلى عمله واتهمه السلطان بالمداهنة في شأن أخيه وروا . فاستقدمه من نفاوة فاستراب وأظهر الخلاف وسرح السلطان إليه فتوح بن أحمد في العساكر فأجفل عن عمله ، واتبعه النعيم وسائر زناة ، ولحقوا جميعاً بوروا بن سعيد سنة أربع وأربعمائة وتظاهروا على الخلاف ونصبوا الحرب على مدينة طرابلس .

واشتد فساد زناة فقتل السلطان من كان عنده من رهن زناة ، واتفق وصول مقاتل ابن سعيد نازعاً عن أخيه وروا في طائفة من أبنائه وأخواله^(٢) فقتلوا معهم جميعاً ، وشغل السلطان بحرب عمه حماد . ولما غلبه بشلب سته وانصرف إلى القيروان بعث إليه وروا بطاعته ، ثم كان مهلك وروا سنة خمس وأربعمائة وانقسم قومه على ابنه خليفة وأخيه خزرون بن سعيد ، واختلفت كلمتهم ودس حسن بن محمد عامل طرابلس في التصريف^(٣) بينهم . ثم صار أكثر زناة إلى خليفة ، وناجز عمه خزرون الحرب فغلبه على القيطون وضبط زناة ، وقام فيهم بأمر أبيه وبعث بطاعته إلى السلطان باديس بمكانه من حصار القلعة فتقبلها . ثم هلك باديس وولي ابنه المعز سنة ست وأربعمائة وانتفض خليفة بن وروا عليه ، وكان أخوه حماد بن وروا يضرب على أعمال طرابلس وقابس ، ويواصل عليه الغارة والنهب إلى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة فانتفض عبدالله بن حسن صاحب طرابلس على السلطان وأمكنه من طرابلس . وكان

(١) وفي نسخة ثانية : بصيرة .

(٢) وفي نسخة ثانية : أخوانه .

(٣) وفي نسخة ثانية : التضريب .

سبب ذلك أن المغز بن باديس لأول ولايته استقدم محمد بن حسن من عمله ، واستخلف عليه أخاه عبدالله بن حسن وقدم على المغز وفوض إليه أمر^(١) مملكته ، وأقام على ذلك سبعاً ، وتمكنت حاله عند السلطان ، وكثرت السعاية فيه فنكبه وقتله ، وبلغ الخبر إلى أخيه فانتقض كما قلناه ، وامكن خليفة بن وروا وقومه من مدينة طرابلس ، فقتلوا الصنهاجين واستولوا عليها . ونزل خليفة بقصر عبدالله وأخرجه عنه ، واستصفى أمواله وحرمه . واتصل ملك خليفة بن وروا وقومه بني خزرون بطرابلس . ونخاطب الخليفة بالقاهرة الظاهر بن الحكم سنة سبع عشرة وأربعمئة بالطاعة وضمان السابلة وتشجيع الرفاق ، ويحفظ عهده على طرابلس فأجابه إلى ذلك ، وانتظم في عمله . وأوفد في هذه السنة أخاه حمّاداً على المغز بهديته فتقبلها وكافاه عليها .

(هذا آخر ما حدث به) ابن الرقيق من أخبارهم ، ونقل ابن حمّاد وغيره أن المغز زحف أعوام ثلاثين وأربعمئة إلى زناتة بجبهات طرابلس ، فبرزوا إليه وهزموه . وقتلوا عبدالله بن حمّاد وسبوا أخته أم العلوبنت باديس ، ومنوا عليها بعد حين وأطلقوها إلى أخيها . ثم زحف إليهم ثانية فهزموه . ثم أتاحت له الكرة عليهم فغلبهم وأذعنوا لسلطانه ، وأتقوه بالمهادنة ، فاستقام أمرهم على ذلك . وكان خزرون بن سعيد لما غلبه خليفة بن وروا على إمارة زناتة لحق بمصر ، فأقام فيها بدار الخلافة ونشأ بنوه بها ، وكان منهم المتصر بن خزرون وأخوه سعيد . ولما وقعت الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر وغلبهم الترك وأجلوهم عنها ، لحق المتصر وسعيد بطرابلس وأقاما في نواحيها . ثم ولي سعيد أمر طرابلس ولم يزل والياً عليها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمئة . (وقال أبو محمد) التيجاني في رحلته عند ذكر طرابلس : ولما قتلت زغبة سعيد بن خزرون سنة تسع وعشرين وأربعمئة قدم خليفة بن خزرون من القيطنون بقومه إلى ولايتها ، فأمكنه منها رئيس الشورى وبها يومئذ من الفقهاء أبو الحسن بن المتصر المشتهر بعلم الفرائض ، وبأيع له ، وقام بها خزرون إلى سنة ثلاثين وأربعمئة بعدها فقام المتصر بن خزرون في ربيع الأول منها ، ومعه عساكر زناتة ، ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس مختفياً ، وملكها المتصر بن خزرون ، وأوقع بابن المتصر ونفاه ،

(١) وفي نسخة ثانية : تدبير .

واتصلت بها إمارته انتهى ما نقله التيجاني .

(وهذا الخبر) مشكل من جهة أن زغبة من العرب الهلالين وإنما جاؤا إلى أفريقية من مصر بعد الأربعين من تلك المائة ، فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة تسع وعشرين وأربعمائة إلا إن كان تقدّم بعض أحيائهم إلى أفريقية من قبل ذلك .
فقد كان بنو مرة بركة ، بعثهم الحاكم مع يحيى بن علي بن حمدون . إلا أن ذلك لم ينقله أحد .

ولم تزل طرابلس بأيدي بني خزرون الزناتيين ولما وصل العرب الهلاليون وغلبوا المعز بن باديس على أعمال أفريقية واقتسموها كانت قابس وطرابلس في قسمة زغبة ، والبلد لبني خزرون . ثم استولى بنو سليم على الضاحية وغلبوا عليها زغبة ورحلوه عن تلك المواطن . ولم تزل البلد لبني خزرون . وزحف المنتصر بن خزرون مع بني عدي من قبائل هلال مجلباً على بني حماد حتى نزل المسيلة ونزل أشير . ثم خرج إليهم الناصر ، ففرّ أمامه إلى الصحراء ، ورجع إلى القلعة ، فرجعوا إلى الاحلاف على أعماله ، فراسله الناصر على الصلح وأقطعه ضواحي الزاب وريغة ، وأوعز إلى عروس بن سندي رئيس بسكرة لعهدده أن يمكّره ، فلما وصل المنتصر إلى بسكرة أنزله عروس ثم قتله غيلة أعوام ستين وأربعمائة ، وولي طرابلس آخر من بني خزرون لم يحضرنى اسمه واختلّ ملك صنهاجة واتصل فيهم ملك تلك الأعمال إلى سنة أربعين وخمسمائة .

ثم نزل بطرابلس ونواحيها في هذا العام مجاعة ، وأصابهم منه شدة هلك فيها الناس ، وفرّوا عنها وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها ، فوجّه إليها رجار طاغية صقلية أسطولاً لحصارها بعد استيلائه على المهديّة وصفاقس واستقرار ولايته فيها ، ووقع بين أهل طرابلس الخلاف فغلب عليهم جرجي بن ميخايل قائد الأسطول وملكها ، وأخرج منها بني خزرون وولّى على البلد شيخهم أبا يحيى بن مطروح التميمي ، فانقرض أمر بني خزرون منها . وبقي منهم من بقي بالضاحية إلى أن افتتح الموحدون أفريقية آخر الدولة الصنهاجية . والملك لله وحده يؤتية من يشاء من عباده سبحانه لا إله غيره .

خزرون بن خليفة بن وروا بن سعيد بن خزرون بن فلقول بن خزر

سعيد بن خزرون — — — — —

مكبره
—
زرهطلي

التصير
—

الخبر عن بني يعلى ملوك تلمسان من آل خزر من أهل
الطبقة الاولى والامام ببعض دولهم ومصاثرها

قد ذكرنا في أخبار محمد بن خزر وبنيه أن محمد بن الخير الذي قتل نفسه في معركة
بلكين كان من ولده الخير ويعلى . وأنها اللذان ثارا منه بأبيهما زيري فقتلوه واتبعهم
بلكين من بعد ذلك وأجلاهم إلى المغرب الأقصى حتى قتل منهم محمد صبيرا أعوام
ستين وثلاثمائة بنواحي سجلماسة قبل وصول معد إلى القاهرة ، وولاية بلكين على أفريقية
وقام بأمر زناته بعد الخير ابنه محمد ، وعمه يعلى بن محمد . وتكررت إجازة محمد بن
الخير هذا وعمه يعلى إلى المنصور بن أبي عامر كما ذكرنا ذلك من قبل . وغلبهم إينا
عطية بن عبدالله بن خزر وهما مقاتل وزيري على رياسة مغراوة . وهلك مقاتل
واختص المنصور زيري بن عطية باثرته ، وولاه على المغرب كما ذكرناه ، وقارن ذلك
مهلك بلكين وانتفاض أبي البهار بن زيري صاحب المغرب الأوسط على باديس ،

فكان من شأنه مع زيري ويدوي^(١) بن يعلى ما قدّمناه . ثم استقلّ زيري وغلبهم جميعاً على المغرب ، ثم انتقض على المنصور فأجاز إليه ابنه المظفر وأخرج زنّاة من المغرب الأوسط ، فتوغّل زيري في المغرب الأوسط ونازل أمصاره وانتهى إلى المسيلة وأشير . وكان سعيد بن خزون قد نزع إلى زنّاة وملك طبنة . واجتمع زنّاة بأفريقية عليه وعلى ابنه فلفول من بعده . وانتقض فلفول على باديس عند زحف زيري إلى المسيلة وأشير ، وشغل باديس ثم ابنه المنصور على المغرب الأوسط بحروب فلفول وقومه ، ودفعوا إليه حمّاد بن بلكين فكانت بينه وبين زنّاة حروب سجال ، وهلك زيري بن عطية واستقلّ المعزّ وابنه بملك المغرب سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وغلب صنهاجة على تلمسان وما إليها ، واختط مدينة وجدة كما ذكرنا ذلك كله من قبل . ونزل يعلى بن محمد مدينة تلمسان فكانت خالصة له ، وبقي ملكها وسائر ضواحيها في عقبه . ثم هلك حمّاد بعد استبداده ببلاد صنهاجة على آل بلكين وشغل بنوه بحرب بني باديس ، فاستوسق ملك بني يعلى خلال ذلك بتلمسان ، واختلفت أيامهم مع آل حمّاد سلماً وحرباً . ولما دخل العرب الهلاليون أفريقية وغلبوا المعزّ وقومه عليها واقتسموا سائر أعمالها ، ثم تخطوا إلى أعمال بني حمّاد فأحجروهم بالقلعة . وغلبوهم على الضواحي فرجعوا إلى استئلافهم واستخلصوا الأثبج منهم وزغبة . فاستظهروا بهم على زنّاة المغرب الأوسط وأنزلوهم بالزاب ، وأقطعوهم الكثير من أعماله . فكانت بينهم وبين بني يعلى أمراء تلمسان حروب ووقائع . وكان زغب أقرب إليهم بالمواطن . وكان أمير تلمسان لعهدهم بختي من ولد يعلى . وكان وزيره وقائد حروبه أبو سعيد ابن خليفة بن^(٢) اليفرني ، فكان كثيراً ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال عرب الأثبج وزغبة ، ويحتشد من إليها من زنّاة من أهل المغرب الأوسط مثل مغراوة وبني يفرن وبني يلومو وبني عبد الواد وتوجين وبني مرين ، وهلك في بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعيد أعوام خمسين وأربعمائة .

(ثم ملك) المرابطون أعمال المغرب الأقصى بعد مهلك يحيى^(٣) وولاية ابنه العباس ابن يحيى بتلمسان . وسرح يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بن^(٤) في عساكر

(١) هو يدو بن يعلى كما في قبائل المغرب وفي أماكن من بعض نسخ ابن خلدون وقد مرّ معنا من قبل .

(٢) بياض بالأصل وفي نسخة أخرى أبو سعدي مكان أبو سعيد .

(٣) وفي نسخة ثانية : بختي .

(٤) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد اسم والد هذا القائد في المراجع التي بين أيدينا .

لمتونة لحرب من بقي بتلمسان من مغراوة ، ومن لحق بهم من فلّ بني زيري وقومهم ،
 فدوّخ المغرب الأوسط وظفر بمعلي بن العباس بن بختي ، وبرز لمدافعتهم ، فهزّمه
 وقتله وانكفّ راجعاً إلى المغرب . ثم نهض يوسف بن تاشفين بنفسه في جموع المرابطين
 سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة فافتتح تلمسان واستلحم بني يعلى ومن كان بها من مغراوة
 وقتل العباس بن بختي أميرها من بني يعلى . ثم افتتح وهران وتنس وملك جبل
 وانشريس وشلف إلى الجزائر وانكفّ راجعاً وقد محى أثر مغراوة من المغرب الأوسط
 وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي في عسكر من المرابطين بتلمسان ، واختطّ مدينة
 تاكرارت بمكان معكسره وهو اسم المحلة بلسان البربر ، وهي التي صارت اليوم مع
 تلمسان القديمة التي تسمى أكادير بلداً واحداً ، وانقرض أمر مغراوة من جميع
 المغرب كان لم يكن والبقاء لله وحده سبحانه .

معلي بن العباس بن بختي بن (١)

بن يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر

* (الخبر عن أمراء اغيات من مغراوة) *

لم أقف على أسماء هؤلاء إلا أنهم أمراء بأغيات آخر دولة بني زيري بفاس ، وبني يعلى
 اليفرني بسلا وتادلا في جوار المصامدة وبرّ غواطة . وكان لقوط بن يوسف بن علي
 آخرهم في سني الخمسين وأربعمائة ، وكانت امرأته زينب بنت اسحق النفاوية من
 إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة . ولما غلب المرابطون على أغيات سنة
 تسع وأربعين وأربعمائة فرّ لقوط هذا إلى تادلا سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، وقتل
 الأمير محمد واستلحم بني يفرن ، فكان فيمن استلحم وخلفه أبو بكر بن عمر أمير
 المرابطين على زينب بنت اسحق حتى اذا ارتحل إلى الصحراء سنة ثلاث وخمسين
 وأربعمائة واستعمل ابن عمّه يوسف بن تاشفين على المغرب ، نزل له عن زوجه زينب
 هذه فكان لها رياسة أمره وسلطانة ، وما أشارت إليه عند مرجع أبي بكر من
 الصحراء في إظهار الاستبداد حتى تجافى عن منازعته ، وخلص ليوسف بن تاشفين

(١) بياض في جميع النسخ ولم نجد والد نجتي هذا في المراجع التي بين أيدينا .

ملكه كما ذكرناه في أخبارهم . ولم نقف من لقوط بن يوسف وقومه على غير هذا الذي كتبناه ، والله وليّ العون سبحانه .

الخبر عن بني سنجاس وريغة والاغواط وبني ورا من قبائل مغراوة من أهل الطبقة الاولى وتصاريف أحوالهم

هذه البطون الأربعة من بطون مغراوة وقد زعم بعض الناس أنهم من بطون زناتة غير مغراوة . أخبرني بذلك الثقة عن ابراهيم بن عبدالله التمر وغني^(١) قال وهو نسابة زناتة لعهدده : ولم تزل هذه البطون الأربعة من أوسع بطون مغراوة . (فأما) بنو سنجاس فلهم مواطن في كل عمل من أفريقية والمغربين ، فمنهم قبلة المغرب الأوسط بجبل راشد وجبل كريكرة^(٢) ويعمل الزاب ويعمل شلف ، ومن بطونهم بنو عيار^(٣) ببلاد شلف أيضاً ، وبنو عيار بأعمال قسنطينة . وكان بنو سنجاس هؤلاء من أوسع القبائل وأكثرهم عدداً ، وكان لهم في فتنه زناتة وصنهاجة آثار بأفريقية والمغرب ، وأكثرها في إفساد السبيل والعيث في المدن ، ونازلوا قفصة سنة أربع عشرة وخمسمائة بعد أن عاثوا بجهات القصر ، وقتلوا من وجدوا هنالك من عسكر تلكاتة^(٤) . وخرجت إليهم حامية قفصة فأثنوا فيهم ، ثم كثر فسادهم ، وسرح السلطان قائده محمد بن أبي العرب في العساكر إلى بلاد الجريد فشردهم عنها وأصلح السابلة . ثم عادوا إلى مثلها سنة خمس عشرة وخمسمائة فأوقع بهم قائد بلاد الجريد وأثن فيهم بالقتل ، وحمل رؤوسهم إلى القيروان فعظم الفتح فيهم ، ولم تزل الدولة تتبعهم بالقتل والاثخان إلى أن كسروا^(٥) من شوكتهم .

وجاء العرب الهلاليون وغلبوا على الضواحي كل من كان بها من صنهاجة وزناتة ، وتخيّر فلهم إلى الحصون والمعازل ، وضربت عليهم المغارم إلا ما كان ببلاد المغرب

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : التيمزوغتي .

(٢) وفي النسخة الباريسية : كركرة .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : عيار وفي نسخة ثانية عئان .

(٤) وفي نسخة ثانية : ملكاتة .

(٥) وفي نسخة ثانية : خضدوا .

القفر مثل جبل راشد ، فإنهم لبعدهم عن منازل الملك لا يعطون مغرمًا ، إلا أنه غلب عليهم هنالك العمور من بطون الهلاليين ، ونزلوا معهم . وملكوا عليهم أمرهم وصاروا لهم فينه ومن بني سنجاس من نزل الزاب ، وهم لهذا العهد أهل مغارم لمن غلب على ثغورهم من مشايخهم ، وأما من نزل منهم ببلاد شلف ونواحي قسنطينة فهم لهذا العهد أهل مغارم للدول . وكان دينهم جميعاً الخارجية على سنن زناتة في الطبقة الأولى ، ومن بقي منهم اليوم بالزاب فعلى ذلك . ومن بني سنجاس هؤلاء بأرض المشيل^(١) من جبل بني راشد ووطنوا جبلاً في جوار غمرة وصاروا عند تغلب الهلاليين في ملكهم يقبضون الأتاوة منهم . ونزل منهم لهذا العهد الصحاري من بطون عروة من زغبة ، وغلبوهم على أمرهم وأصاروهم خولاً .

(وأما بنوريغة) فكانوا أحياء متعددة ولما افترق أمر زناتة تحيز منهم إلى جبل عياض وما إليه من البسيط إلى نقاوس وأقاموا في قياطينهم ، فمن كان بجبل عياض منهم أهل مغارم لأمراء عياض يقبضونها للدولة الغالبة ببجاية ، وأما من كان ببسيط نقاوس فهم في أقطاع العرب لهذا العهد . ونزل أيضاً الكثير منهم ما بين قصور الزاب وواركلا ، فاخطوا قصوراً^(٢) كثيرة في عدوة واد ينحدر من المغرب إلى المشرق يشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة ، والأطم قد رفّ عليها الشجر ونضدت حفافها النخيل ، وانساحت خلالها المياه ، وزهت ينابيعها الصحراء ، وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء ، وبهم تعرف لهذا العهد ، وهم أكثرها . ومن بني سنجاس وبني يفرن وغيرهم من قبائل زناتة . وتفرقت جماعتهم للتنازع في الرياسة فاستقلت كل طائفة منهم بقصور منها أو بواحد . ولقد كانت فيما يقال أكثر من هذا العدد أضعافاً وإن ابن غانية المسوفي حين كان يجلب على بلاد أفريقية والمغرب في فنتته مع الموحدنين خرب عمرانها ، واجتث شجرها ، وغور مياهها ، ويشهد لذلك آثار العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المنقعر ، وكان هذا العمل يرجع في أول الدولة الحفصية لعامل الزاب ، وكان من الموحدنين ، ونزل بسكرة ما بينها وبين مغرة ، وكان من أعماله قصور واركلا أيضاً . ولما فتك المنتصر بمشيخة الزواودة كما قلناه في أخباره ، وقتلوا بعد ذلك عامل الزاب ابن عتوا من مشيخة

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : المشتل .

(٢) وفي نسخة ثانية : قرى .

الموحدين ، وغلبوا على ضواحي الزاب وواركلا . وأقطعتهم إياها الدول بعد ذلك فصارت في أقطاعهم . ثم عقد صاحب بجاية بعد ذلك على العمل كله لمنصور بن مزني واستقر في عقبه . فربما يسمون بعض الأحيان أهل تلك القصور المغرم للسلطان بما كان من الأمر القديم ، ويعسكروا عليهم في ذلك كتائب من رجالة الزاب وخبالة العرب ، ويبرز عليها بأمر الزواودة . ثم يقاسمهم فيها يمتريه منهم . وأكبر هذه الأمصار يسمي تُقَرَّت ، مصر مستبحر العمران بدوي الأحوال ، كثير المياه والنخل ، ورياسته في بني يوسف بن عبدالله كانت لعبيدالله بن يوسف ، ثم لابنه داود ، ثم لأخيه يوسف بن عبيدالله . وتغلب على واركلا من يد أبي بكر بن موسى أزمان حدائته ، وأضافها إلى عمله . ثم هلك وصار أمر تُقَرَّت لأخيه مسعود بن عبيدالله ، ثم لابنه حسن بن مسعود ، ثم لابنه أحمد بن حسن شيخها لهذا العهد . وبنو يوسف بن عبدالله هؤلاء من ريغة ، ويقال إنهم من سنجاس ، وفي أهل تلك الأمصار من مذاهب الخوارج وفرقهم كثير ، وأكثرهم على دين الغزابية^(١) ومنهم النكارية ، وأقاموا على انتحال هذه الخارجية لبعدهم عن منال الأحكام . ثم بعد مدينة تُقَرَّت بلد تماسين وهي دونها في العمران والخطة ورياسته لبني ابراهيم بن^(٢) من ريغة وسائر أمصارهم كذلك ، كل مصر منها مستبد بأمره وحرب لجاره .

(وأما لقواط) وهم فخذ من مغراوة أيضا فهم في نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد ، ولهم هنالك قصر مشهور بهم ، فيه فريق من أعقابهم على سغب من العيش لتوغله في القفر ، وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب ، وبينهم وبين الدوسن أقصى عمل الزاب مزحلتان ، وتختلف قصودهم إليهم لتحصيل المرافق منهم . والله يخلق ما يشاء ويختار .

وأما بنو ورا) فهم فخذ من مغراوة أيضا ، ويقال من زناة وهم متشعبون ومفترقون بنواحي المغرب : منهم بناحية مراکش والسوس ومنهم ببلاد شلف ومنهم بناحية قسنطينة ولم يزالوا على حالهم منذ انقراض زناة الأولين ، وهم لهذا العهد أهل مغارم وعسكرة مع الدول ، وأكثر الذين كانوا بمراكش قد انتقل رؤسائهم إلى ناحية شلف نقلهم يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين في أول هذه المائة الثامنة ، لما

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : الغزابة وفي نسخة ثانية : القرابة .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم والده في المراجع التي بين أيدينا .

ارتاب بأمرهم في تلك الناحية ، وخشي من إفسادهم وعيبتهم ، فنقلهم في عسكر الى موطن شلف لحمايته ، فترلوا به . ولما ارتحل بنومرين من بعد مهلك يوسف بن يعقوب أقاموا ببلاد شلف فأعقابهم بها لهذا العهد ، وأحوالهم جميعاً في كل قطر متقاربة في المغرب والعسكرة مع السلطان ولله الخلق والأمر جميعاً . سبحانه لا إله إلا هو الملك العظيم .

* (الخبر عن بني يرنيان اخوة مغراوة وتصاريف أحوالهم) *

قد ذكرنا بني يرنيان هؤلاء ، وأنهم إخوة مغراوة وبني يفرن ، والكل ولد يصلتين . ونسبهم جميعاً إلى جانا مذكور هنالك ، وهم مبثوثون كثيراً بين زناتة في المواطن . وأما الجمهور منهم فموطنهم بملوية من المغرب الأقصى ما بين سجلماسة وكرسيف ، كانوا هناك مجاورين لمكناسة في مواطنهم ، واختلطوا حفا في وادي ملوية قصوراً كثيرة متقاربة الخطة ، ونزلوها وتعددت بطونهم وأفخاذهم في تلك الجهات . ومنهم بنو وطاط متوطنون لهذا العهد بالجبال المطلّة على وادي ملوية من جهة القبلة ، ما بينه وبين تازي وفاس ، وبهم تعرف تلك القصور لهذا العهد ، وكان لبني يرنيان هؤلاء صولة واعتزاز ، وأجاز الحكيم بن المستنصر منهم ، والمنصور بن أبي عامر من بعده فيمن أجازوه من زناتة في المائة الرابعة ، وكانوا من أفحل جند الأندلس وأشدّهم شوكة . وبقي أهل المواطن منهم في مواطنهم مع مكناسة أيام ملكهم ، ويجمعهم معهم عصبية يحيى . ثم كانوا مع مغراوة أيضاً أيام ملكهم المغرب الأقصى ولما ملك لمتونة والموحدون من بعدهم لحق الطواعن منهم بالقفر ، فاختلطوا بأحياء بني مرين الموالين لتلول المغرب من زناتة ، أقاموا معهم في أحيائهم ، وبقي من عجز عن الظعن منهم بمواطنهم : مثل بني وطاط وغيرهم ، ففرضت عليهم المغارم والجبايات . ولما دخل بنومرين للمغرب ساهموا في اقتسام أعماله ، وأقطعوهم البلد الطيب من ضواحي سلا والمعمورة ، زيادة إلى وطنهم الأول بملوية ، وأترلوهم بنواحي سلا بعد أن كان منهم انحراف عنهم في سبيل المدافعة عن أوطانهم الأولى . ثم

اصطلحوا^(١) ورعى لهم بنو عبد الحق سابقتهم معهم فاصطفوهم للوزارة والتقدم في الحرب ، ودفعوهم الى المهات وخلطوهم بأنفسهم . وكان من أكابر رجالاتهم لعهد السلطان أبي يعقوب وأخيه أبي سعيد الوزير ابراهيم بن عيسى ، استخلصوه للوزارة مرة بعد أخرى ، واستعمله السلطان أبو سعيد على وزارة ابنه أبي علي ، ثم لوزارته . واستعمل ابنه السلطان أبو الحسن أبناء ابراهيم هذا في أكابر الخدام فعقد لمسعود بن ابراهيم على أعمال السوس عندما فتحها أعوام الثلاثين والسبعائة ، ثم عزله بأخيه حسون ، وعقد لحسون على بلاد الجريد من أفريقية عند فتحه إياها سنة ثمان وأربعين وسبعائة وكان فيها مهلكة . ونظم أخاهما موسى في طبقة الوزارة ، ثم أفرد به أيام نكبته وإلحاقه بجبل هنتاة ، واستعمله السلطان أبو عنان بعد في العظيمات ، وعقد له على أعمال سدويكش بنواحي قسنطينة . ورشح ابنه محمد السَّبَّيع لوزارته إلى أن هلك ، وتقلبت بهم الأيام بعده . وقلد عبد الحميد^(٢) المعروف بحلى ابن السلطان أبي علي وزارته محمد بن السَّبَّيع بعد هذا أيام حصاره لدار ملكهم سنة اثنتين وستين [وسبعائة كما نذكره في أخبارهم ، فلم يقدر لهم الظفر . ثم رجع السَّبَّيع بعدها إلى محله من دار السلطان وطبقة الوزارة ، وما زال يتصرف في الخدم الجليلة والأعمال الواسعة ما بين سجلماسة ومراكش وأعمال تازى وتادلا وغمارة ، وهو على ذلك لهذا العهد . والله وراث الأرض ومن عليها سبحانه لا إله غيره .

* (الخبر عن وجديجن وأوغمرت من قبائل زناتة ومبادئ أحوالهم وتصاريفهم) *

قد تقدم أن هذين البطين من بطون زناتة من ولد ورتنيص بن جانا ، وكان لهم عدد وقوة ، ومواطنهم مفترقة في بلاد زناتة . فأما وجديجن فكان جمهورهم بالمغرب الأوسط ، ومواطنهم منه منداس ما بين بني يفرن من جانب المغرب ، ولواتة من جانب القبلة في السرسو ، ومطاطة في جانب الشرق في وانشريس ، وكان أميرهم

(١) وفي نسخة ثانية : ثم اصطلحوا .

(٢) وفي نسخة ثانية : عبد الحليم .

لعهد يحيى بن محمد اليفرنى رجلاً منهم اسمه عَنان ، وكان بينهم وبين لواتة المواطنين بالسرسو فتنة متصلة ، يذكر أنها بسبب امرأة من وجديجن نكحت في لواتة وتلا ، جامعها نساء قيطونهم فغيرنها بالفقر ، فكسبت بذلك إلى عَنان تدمره^(١) ، فغضب واستجاش بأهل عصبته من زناة وجيرانه ، فرحف معه يعلى في بني يفرن وكلام بن حياتي^(٢) في مغيلة وخرابة في مطاطة ، ودارت الحرب بينهم وبين لواتة ملياً . ثم غلبوا لواتة على بلاد السرسو وانتهوا بهم إلى كدية العابد من آخرها وهلك عَنان شيخ وجديجن في بعض تلك الوقائع بملاكوا من جهات السرسو . ثم لجأت زناة إلى جبل كريكرة قبله السرسو ، وكان يسكنه أحياء من مغراوة يعرف شيخهم لذلك العهد علام ريبب لشيخهم عمر بن تامصا الهالك قبله ، ومعنى تامصا بلسان البربر الغول . ولما لجأت لواتة إليه غدر بهم وأغزى قومه ، فوضعوا أيديهم فيهم قتلاً وسلباً فلاذوا بالفرار ولحقوا بجبل معود^(٣) وجبل دراك فاستقروا هناك آخر الدهر . وورثت وجديجن مواطنهم بمنداس إلى أن غلبهم عليها بنو يلومين^(٤) ، وبنو ومانوكل من جهته ، ثم غلب الآخريين عليها بنو عبد الواد ، وبنو توجين إلى هذا العهد . والله وارث الأرض ومن عليها .

(وأما أوغمرت^(٥)) ويسمى لهذا العهد غمرت ، وهم إخوة وجديجن من ولد ورتنيص بن جانا كما قلناه . فكانوا من أوفر القبائل عدداً ، ومواطنهم متفرقة ، وجمهورهم بالجبال إلى قبله بلاد صنهاجة من المشتل إلى اللوسن وكان لهم مع أبي يزيد صاحب الحمار في الشيعة آثار ، وأوقع بهم اسمعيل القائم عند ظهوره على أبي يزيد وأثنخ فيهم ، وكذلك بلكن وصنهاجة من بعده . ولما افترق أمر صنهاجة لحماد وبنيه كانوا شيعاً لهم على بني بلكن . وترزع عن حماد أيام فتنته ابن أبي جلى من مشيختهم ، وكان مختصاً بهم ، إلى باديس ، فوصله وحمل أصحابه ، وعقد له على طينة وأعمالها . حتى إذا جاء العرب الهلاليون وغلبوهم على الضواحي اعتصموا بتلك الجبال قبله المسيلة وبلاد صنهاجة ، وقعدوا بها عن الظعن ، وتركوا القيطون إلى

(١) ذمّره : هدده ، وذمّره على الأمر : حضه مع لوم ليجدّ فيه .

(٢) وفي نسخة ثانية : كلام بن حيّان .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة بولاق : العود ، وفي نسخة أخرى : يعود .

(٤) وفي نسخة أخرى : يلومي .

(٥) وفي نسخة أخرى : واغمرت .

سكنى المدن . ولما تغلب الزواودة على ضواحي الزاب وما إليها ، أقطعتهم الدولة مغارم هذه الجبال التي لغمرت . وهم لهذا العهد في سهان أولاد يحيى بن علي بن سباع من بطونهم وكان في القديم من غمرت هؤلاء كاهن زناتة موسى بن صالح مشهور عندهم حتى الآن ، ويتناقلون بينهم كلماته برطانتهم على طريق الرجز ، فيها أخبار بالحدثان فيما يكون لهذا الجيل الزناتي من الملك والدولة ، والتغلب على الأحياء والقبائل والبلدان . شهد كثير من الواقعات على وفقها بصحتها ، حتى لقد نقلوا من بعض كلماته ما معناه باللسان العربي أن تلمسان مآها الخراب ، وتصير دورها فدناً حتى يثير أرضها حرّاث أسود بثور أسود أعور . وذكر الثقات أنهم عاينوا ذلك بعد انتشار كلماته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سنة ستين وسبعمائة ، وأفرط الخلاف بين هذا الجيل الزناتي في التشيع له والحمل عليه ، فمنهم من يزعم أنه نبي أو وليّ ، وآخرون يقولون كاهن شيطان ، ولم تقفنا الأخبار الصحيحة على الجلي من أمره . والله سبحانه وتعالى أعلم لا ربّ غيره .

* (الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة والمصر المنسوب إليهم
بصحراء افريقية وتصاريف أحوالهم) *

بنو واركلا هؤلاء إحدى بطون زناتة كما تقدّم ، من ولد فربي (١) بن جانا ، وقد مرّ ذكرهم . وأنّ أخوتهم الديرية ومرنجيصة وسبرترة ونمالة (٢) والمعروفون لهذا العهد ، منهم بنو واركلا وكانت فثهم قليلة ، وكانت مواطنهم قبلة الزاب ، واختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثمان مراحل من بسكرة في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب ، بنوها قصوراً متقابلة متقاربة الخطة . ثم استبحر عمرانها فأتلفت وصارت مصرّاً واحداً . وكان معهم هناك جماعة من بني زنداك من مغراوة ، وإليهم كان هرب أبي زيد النكاري (٣) عند فراره من الاعتقال سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وكان مقامه بينهم سنة يختلف إلى بني برزال قبلة المسيلة بسالات ، وإلى

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى فربي .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : يزمترن ومنجصة وغالته .

(٣) وفي نسخة ثانية : ابن أبي يزيد النكاري .

قبائل البربر بجبل أوراس ، يدعوهم جميعاً إلى مذهب النكارية ، إلى أن ارتحل إلى أوراس ، واستبحر عمران هذا المصر واعتصم به بنو واركلا ههؤلاء ، والكثير من ظواعن زناته عند غلب الهلالين إياهم على الضواحي ، واختصاص الأثبج بضواحي القلعة والزاب وما إليها .

ولما استبد الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بملك أفريقية وجمال في نواحيها في اتباع بن غانية ، مرّ بهذا المصر فأعجبه وكلف بالزيادة في تمصيره ، فاخطت مسجده العتيق ومأذنته المرتفعة ، وكتب عليها اسمه وتاريخ وضعه نقشاً في الحجر . وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر^(١) من الزاب إلى المقازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان يسكنها التجار الداخلون لها بالبضائع وسكانه لهذا العهد من بني واركلا وأعقاب إخوانهم من بني يفرن ومغراوة ، ويعرف رئيسه باسم السلطان ، شهرة غير نكيرة بينهم ، ورياسته هذه الأعصار مخصوصه ببني أبي عبدل^(٢) ، ويزعمون أنهم من بني واكين إحدى بيوت بني واركلا ، وهو لهذا العهد أبو بكر بن موسى بن سليمان من بني أبي عبدل ، ورياستهم متصلة في عمود هذا النسب وعلى عشرين مرحلة من هذا في القبلة منحرفاً إلى المغرب بيسير بلد تكرت^(٣) قاعدة وطن المثلثين وركاب الحجاج من السودان اختطه المثلثون من صنهاجة وهم سكانه لهذا العهد ، وصاحبه أمير من بيوتاتهم يعرفونه باسم السلطان ، وبينه وبين أمير الزاب مراسلة ومهاداة . (ولقد) قدمت على بسكرة سنة أربع وخمسين أيام السلطان أبي عنان في بعض الأغراض السلطانية ولقيت رسول صاحب تكرت عند يوسف بن مزني أمير بسكرة ، وأخبرني عن استبحار هذا المصر في العمارة ومرور السابلة ، وقال لي : اجتاز بنا هذا العام سفر من تجار المشرق إلى بلد مالي كانت ركابهم إثني عشر ألف راحلة . وذكر لي غيره أن ذلك هو الشأن في كل سنة . وهذا البلد في طاعة سلطان مالي من السودان كما في سائر تلك البلاد الصحراوية المعروفة بالمثلثين^(٤) لهذا العهد ، والله غالب على أمره سبحانه .

(١) بمعنى المسافرين .
(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أبي غبول .
(٣) وفي نسخة ثانية : تكدت .
(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : باطلستين .

* (الخبر عن دمر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالاندلس
وأولية ذلك ومصاثره) *

بنو دمر هؤلاء من زناتة وقد تقدم أنهم من ولد ورسيك بن الديرت بن جانا ،
وشعوبهم كثيرة ، وكانت مواطنهم بأفريقية في نواحي طرابلس وجبالها وكان منهم
آخرون ظواعن من عرب أفريقية . ومن بطون بني دمر هؤلاء بنو ورغمة ، وهم لهذا
العهد مع قومهم بجبال طرابلس . ومن بطونهم أيضاً بطن متسع كثير الشعوب وهم :
بنو ورنيدين بن وانتن بن واردة بن دمر ، وأن من شعوبهم بني ورتاتين وبني عزرول
وبني تغورت ، وربما يقال إن هؤلاء الشعوب لا ينتسبون إلى بني ورنيدين كما تقدم ،
وبقايا بني ورنيدين لهذا العهد بالجبل المطل على تلمسان ، بعد أن كانوا في البسيط
قبلته ، فزاحمهم بنو راشد حين أجلوهم من بلادهم بالصحراء إلى التل ، وغلبوهم
على تلك البسائط فإتزاحوا إلى الجبل المعروف بهم لهذا العهد ، وهو المطل على
تلمسان وكان قد أجاز إلى الأندلس من بني دمر هؤلاء أعيان ورجالات حرب فيمن
أجاز إليها من زناتة وسائر البربر ، أيام أخذهم بدعوة المنتصر^(١) فضمهم السلطان إلى
عسكره ، واستظهر بهم المنصور بن أبي عامر من بعد ذلك على شأنه ، وقوى بهم
المستعين أديم دولته ، ولما اعصوب البربر على المستعين وبني حمود من بعده وغالبوا
جنود الأندلس من العرب ، وكانت الفتنة الطويلة بينهم التي نثرت سلك الخلافة
وفرقت شمل الجماعة ، واقتسموا خطط الملك وولايات الأعمال ، وكان من رجالاتهم
نوح الدمري ، وكان من عطاء أصحاب المنصور ، وولاه المستعين أعمال مورور^(٢)
وأركش فاستبد بها سنة أربع في غمار الفتنة ، وأقام بها سلطاناً لنفسه إلى أن هلك سنة
ثلاث وثلاثين ، فولى ابنه أبا مناد محمد بن نوح وتلقب بالحاجب عز الدولة لقبين في
قرن شأن ملوك الطوائف . وكانت بينه وبين ابن عباد شأن غرب الأندلس . خطوط
ومر المعتضد في بعض أسفاره بخصن أركش ، وتطوف به مختفياً فقبض عليه بعض
أصحاب ابن نوح ، وساقه إليه ، فخلّى سبيله وأولاه كرامة احتسبها عنده يداً ،

(١) وفي نسخة ثانية : بدعوة الحكم المنتصر .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : مودور وفي نسخة ثانية : مدور .

وذلك سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة ، فانطلق إلى دار ملكه ورجع بعدها إلى ولاية
الملوك الذين حوله من البربر . وأسجل لابن نوح هذا على عملي أركش ومورور
فيمن أسجل له منهم ، فصاروا إلى مخالسته إلى أن استدعاهم سنة خمس وأربعين
وثلثمائة بعدها إلى صنع ودعا إليه الجفلى من أهل أعماله ، واختصه بدخول حمام أعدّه
لهم استبلاغاً في تكريمهم . وتخلّف ابن نوح عنده من بينهم ، فلما حصلوا داخل الحمام
أطبقه عليهم ، وسدّ المنافس للهوى دونهم إلى أن هلكوا . ونجا منهم ابن نوح لسالفة
يده ، وطير في الحين من تسلّم معاقلمهم وحصونهم ، فانتظمهم في أعماله . وكان منها
رندة^(١) وشريش وسائر أعمالها ، وهلك من بعد ذلك الحاجب أبو مناد بن نوح
سنة^(٢) ، ووليّ ابنه أبو عبدالله ، ولم يزل المعتضد يضايقه إلى أن انخلع سنة
ثمان وخمسين وثلثمائة ، فانتظمها في أعماله وسار إليه محمد بن أبي مناد إلى أن هلك
سنة ثمان وستين وانقرض ملك بني نوح والبقاء لله وحده سبحانه .
أبو عبدالله بن الحاجب أبي مناد بن نوح الدمري .

* (الخبر عن بني برزال إحدى بطون دمر وما كان لهم من
الحال بقرمونة وأعمالها من الأندلس أيام الطوائف وأولية ذلك
ومصائره) *

قد تقدّم لنا أنّ بني برزال هؤلاء من ولد ورنيدين^(٣) بن وانتن بن وارديرن بن دمر ،
كما ذكره ابن حزم ، وأنّ إخوتهم بنو يصدرين وبنو صمغان^(٤) وبنو بطوفت . وكان
بنو برزال هؤلاء بأفريقية ، وكانت مواطنهم منها جبل سالات وما إليها من أعمال
المسيلة . وكان لهم ظهور ووفور عدد ، وكانوا نكارية من فرق الخوارج . ولما قرأ أبو
زيد أمام اسمعيل المنصور ، وبلغه أنّ محمد بن خزر يترصد له ، أجمع الاعتصام
بسالات وصعد إليه ، وأرهقته عساكر المنصور فانتقل عنه إلى كتامة . وكان من أمره

(١) وفي نسخة أخرى : وفدة .

(٢) بياض في الأصل ولم نستطع تحديد سنة مهلكه في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) وفي نسخة ثانية : ورنيد .

(٤) وفي نسخة ثانية : بنو صغار .

ما قدّمناه . ثم استقام بنو برزال على طاعة الشيعة وموالاته جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب ، حتى صاروا له شيعاً .

(ولما انتقض) جعفر بن معد سنة ستين وثلثمائة كان بنو برزال هؤلاء في جملته من أهل خصوصيته ، فأجازوا معه البحر إلى الأندلس أيام الحكم المستنصر ، فاستخدمهم ونظمهم في طبقات جنده إلى من كان به من قبائل زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بالدعوة الأموية ، ومحاربتهم عليها للادارسة ، فاستقروا جميعاً بالأندلس . وكان لبني برزال من بينهم ظهور وغنى مشهور .

(ولما أراد) المنصور بن أبي عامر الاستبداد على خليفته هشام ، وتوقع النكير من رجالات الدولة وموالي الحكم ، استكثر بني برزال وغيرهم من البربر وأفاض فيهم الإحسان ، فاعتر أمره واشتدّ أزره حتى أسقط رجال الدولة ومحي رسومها ، وأثبت أركان سلطانه . ثم قتل صاحبهم جعفر بن يحيى كما ذكرناه خشية عصبية بهم . واستألمهم من بعده فأصبحوا له عصبية . وكان يستعملهم في الولايات النبية والأعمال الرفيعة . وكان من أعيان بني برزال هؤلاء اسحق بن ^(١) فولاه قرمونة وأعمالها ، فلم يزل عليها أيام بني عامر وجدّد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة ووليها من بعده ابنه عبدالله .

(ولما انقرض) ملك بني حمّود من قرطبة ودفع أهلها القاسم المأمون عنهم سنة أربع عشرة وأربعمائة أراد اللحاق بأشبيلية ، وبها نائبه محمد بن أبي زيري من وجوه البربر ، بقرمونة عبدالله بن اسحق البرزالي فدخلها القاضي ابن عبّاد في خلع طاعة القاسم ، وصدّه عن العملين فأجابا إلى ذلك . ثم دس للقاسم بالتحذير من عبدالله بن اسحق فعدل القاسم عنها جميعاً إلى شريش ، واستبدّ كل منهم بعمله . ثم هلك عبدالله من بعد ذلك ، وولي ابنه محمد سنة ^(٢) وكانت بينه وبين المعتمد بن عبّاد حرب ، وظاهر عليه يحيى بن علي بن حمود في منازل أشبيلية سنة ثمان عشرة وأربعمائة ثم اتفق مع ابن عبّاد بعدها وظاهره على عبدالله الأفطس . وكانت بينهما حرب كانت الدائرة فيها على ابن الأفطس . وحصل ابنه المظفر قائد العسكر في قبضة محمد بن عبدالله بن اسحق إلى أن منّ عليه ذلك وأطلقه . ثم كانت الفتنة بين محمد

(١) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة والد اسحق هذا في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة سنة ولايته في المراجع التي بين أيدينا .

ابن اسحق وبين المعتضد وأغار اسمعيل بن المعتضد على قرمونة في بعض الأيام بعد أن كمن الكمائن من الخيالة والرجل ، وركب إليه محمد في قومه فأستطرد له اسمعيل إلى أن بلغوا الكمائن فثاروا بهم وقتلوا محمداً البرزالي وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وولي ابنه العزيز بن محمد وتلقب بالمستظهر مناغياً لملوك الطوائف لعهدده . ولم يزل المعتضد يستولى على غرب الأندلس شيئاً فشيئاً إلى أن ضايقه في عمل قرمونة ، واقتطع منه أسجده والمورو^(١) ثم انخلع له العزيز عن قرمونة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ونظّمها المعتضد في مملكه ، وانقرض ملك بني برزال من الأندلس ثم انقرض من بعد ذلك حيم من جبل سالات ، وأصبحوا في الغابرين . والبقاء لله وحده سبحانه .

العزيز محمد بن عبدالله بن اسحق البرزالي

* (الخبر عن بني وماتوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من زناة وما كان لهم من الملك والدولة بأعمال المغرب الأوسط ومبدأ ذلك وتصاريفه) *

هاتان القبيلتان من قبائل زناة ومن توابع الطبقة الأولى ، ولم نقف على نسبها إلى جانا ، إلا أن نسأبتهم متفقون على أن يلومي وورتاجن الذي هو أبو مريم أخوان ، وأن مديون أخوهما للأم ، ذكر ذلك غير واحد من نسأبتهم . وبنو مريم لهذا العهد يعرفون لهم هذا النسب ، ويوجبون لهم العصبية له .

وكانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناة وأشدّهم شوكة ، ومواطنهم جميعاً بالمغرب الأوسط . وبنو وماتوا منهم إلى جهة المشرق عن وادي ميناك ومرات وما إليها من أسافل شلف وبنو يلومي بالعدوة الغربية منه بالجعبات والبطحاء وسيد^(٢) وسيرات وجبل هواره وبني راشد .

(وكان لمغراوة) وبني يفرن التقدّم عليهم في الكثرة والقوة . ولما غلب بلكن بن زيوري

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أسيجة والمدور .

(٢) وفي نسخة ثانية : سيك .

مغراوة وبني يفرن على المغرب الأوسط ، وأزاحهم إلى المغرب الأقصى بقيت هاتان القبيلتان بمواطنهما ، واستعملهم صنهاجة في حروبهم ، حتى اذا تقلص ملك صنهاجة عن المغرب الأوسط واعتروا عليهم . واختصّ الناصر بن علناس صاحب القلعة ومختط بجاية بني وماتوا هؤلاء بالولاية ، فكانوا شيعاً لقومه دون يلومي . وكانت رئاسة بني وماتوا في بيت منهم يعرفون ببني ماخوخ . وأصهر المنصور بن الناصر إلى ماخوخ منهم في أخته ، فزوّجها إليه فكان لهم بذلك مزيد ولاية في الدولة .

ولمّا ملك المرابطون تلمسان أعوام سبعين وأربعمائة وأنزل يوسف بن تاشفين بها عامه محمد بن تينعر المسوفي ، ودوّخ أعمال المنصور وملك أمصارها إلى أن نازل الجزائر . وهلك فولي أخوه تاشفين على عمله ، فغزا أشير وافتتحها وخرّبها وكان لهذين الحيين في مظهرته وإمداده أحقد عليهم المنصور بعدها وأغرى بني وماتوا في عساكر صنهاجة ، وجمّع له ماخوخ فهزّمه وأتبعه منهزماً إلى بجاية ، وقتل لمدخله إلى قصره قتله زوجته أخت ماخوخ تشفياً وضغنا . ثم نهض إلى تلمسان في العساكر واحتشد العرب من الأثبج ورياح وزغبة ومن لحق به من زناتة وكانت الغزاة المشهورة سنة ست وثمانين وأربعمائة أبقى فيها ابن تينعر المسوفي بعد استمكانه من البلد كما ذكرناه في أخبار صنهاجة . ثم هلك المنصور وولي ابنه العزيز ، وراجع ماخوخ ولايته وأصهر إليه العزيز أيضاً في ابنته فزوّجها إياه . واعتز البدو في نواحي المغرب الأوسط ، واشتعلت نار الفتنة بين هذين الحيين من بني وماتوا وبني يلومي فكانت بينهم حروب ومشاهد . وهلك ماخوخ وقام بأمره في قومه بنوه تاشفين وعلي وأبو بكر ، وكان أحياء زناتة الثانية من بني عبد الواد وتوجين وبني راشد وبني ورسفان من مغراوة مدداً للفريقين ، وربّما مادّ بنومرين إخوانهم بني يلومي لقرب مواطنهم منهم ، إلا أن زناتة الثانية لذلك العهد مغلوبون لهذين الحيين ، وأمرهم تبع لهم إلى أن ظهر أمر الموحدين . وزحف عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط في اتباع تاشفين بن علي ، وتقدّم أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن زيد من بني وماتوا إلى طاعته ، ولحقوه بمكانه من أرض الريف ، فسرح معهم عسكر الموحدين لنظر يوسف بن وأندين وابن يغمور ، فأثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد ، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي بن يغمور ، فأثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد ، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي ابن يوسف ، فأمدّهم بالعساكر ونزلوا منداس . واجتمع لبني يلومي بنو ورسفان من

مغراوة وبني توجين من بني بادين وبنو عبد الواد منهم أيضاً ، وشيخهم حمامة بن مظهر ، وبنو يكناسن من بني مرين وأوقعوا ببني وماتوا وقتلوا أبا بكر في ستمائة منهم واستنفذوا غنائمهم . وتحصن الموحدون وقلّ بني ومانوا بجبل سيرات ، ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخاً بعبد المؤمن . وجاء في جملة حتى نزل تاشفين بن علي بتلمسان . ولما ارتحل في أثره إلى وهْران كما قدّمناه سرح الشيخ أبو حفص في عساكر الموحدين إلى بلاد زَنّاتة فنزلوا منداس وسط بلادهم ، وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا لطاعته ودخلوا في الدعوة . ووفد على عبد المؤمن بمكانه من حصار وهْران مقدمهم سيّد الناس بن أمير الناس شيخ بني يلومي وحمامة بن مظهر شيخ بني عبد الواد . وعطية الخير شيخ بني توجين وغيرهم ، فتلقاهم بالقبول .

ثم انتقضت زَنّاتة بعدها وامتنع بنو يلومي بحصنهم الجعبات ومعهم شيخهم سيّد الناس ومدرج^(١) إينا سيّد الناس . فحاصرتهم عساكر الموحدين وغلبوهم عليها وأشخصوهم إلى المغرب . ونزل سيّد الناس بمراكش ، وبها كان مهلكه أيام عبد المؤمن . وهلك بعد ذلك بنو ماخوخ .

(ولما) أخذ أمير هذين الحيين في الانتقاض جاذب بنو يلومي في تلك الأعمال بنو توجين ، وشاجروهم في أحواله ثم واقعوهم الحرب في جوانبه وتولّى ذلك فيهم عطية الخير شيخ بني توجين ، وصلى بناها معه منهم بنو منكوش^(٢) من قومه حتى غلبوهم على مواطنهم وأذلّوهم وأصاروهم جيراناً لهم في قياطينهم . واستعلى بنو عبد الواد وتوجين على هذين الحيين وغيرهم بولايتهم للموحدين ومخالطتهم إياهم ، فذهب شأنهم وافترق قيطونهم أوزاعاً في زَنّاتة الوارثين أوطانهم من عبد الواد وتوجين والبقاء لله سبحانه . (ومن بطون بني وماتوا هؤلاء بنو يامدس^(٣)) وقد يزعم زاعمون أنهم من مغراوة ومواطنهم متصلة قبلة المغرب الأقصى والأوسط وراء العرق المحيط بعمرانها المذكور قبل . واختطوا في المواطن القصور والأطم ، واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعنان وسائر الفواكه ، فمنها على ثلاثة مراحل قبلة سجلماسة ، ويسمى وطن توات ، وفيه قصور متعدّدة تناهز المائتين ، آخذة من المشرق إلى المغرب وآخرها

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة بولاق : بدرج وفي نسخة أخرى : مضرج .

(٢) وفي نسخة ثانية : بنو منكرس .

(٣) وفي نسخة ثانية : ومن بطون بني ومانوا هؤلاء قبائل بني يالدس .

من جانب المشرق يسمّى تمنطيت ، وهو بلد مستجر في العمران ، وهو محط ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد ، ومن بلد مالي إليه ، وبينه وبين ثغر بلاد مالي المسمّى غار ، المفازة المجهلة لا يهتدي فيها للسبل ، ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخبير^(١) من المثلثين الظواعن بذلك القفز ، يستأجره التجار على الدرية بهم فيها بأوفر الشروط ، وكانت بلد بودي^(٢) وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من بادية السوس هي الركاب إلى والاتن الثغر الآخر من أعمال مالي . ثم أهملت لما صارت الأعراب بادية السوس يغيرون على سابقتها ويعترضون رفاقها ، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت .

ومن هذه القصور قبلة تلمسان ، وعلى عشر مراحل منها قصور تيكارين^(٣) وهي كثيرة تقارب المائة في بسيط وادٍ منحدر من المغرب إلى المشرق ، واستبحرت في العمران وغصت بالساكن . وأكثر سكان هذه القصور الغربية في الصحراء بنو يامدس هؤلاء ومعهم من سائر قبائل البربر مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين ، وهم أهل عدد وعدة وبعد عن هضمة الأحكام وذلّ المغارم ، وفيهم الرجالة والخيالة وأكثر معاشهم من بلح النخل^(٤) ، وفيهم التجار إلى بلاد السودان وضواحيهم كلّها مشتاة للعرب ، ومختصه بعبيدالله من المعقل ، عينتها لهم قسمة الرحلة . وربما شاركهم بنو عامر بن زغبة في تيكرارين فتصل إليها ناجعتهم بعض السنين .

وأما عبيدالله فلا بدّ لهم في كل سنة من رحلة الشتاء إلى قصورتوات وبلد تمنطيت ، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجار من الأمصار والتلول حتى يحطوا بتمنطيت . ثم يبدرون منها إلى بلاد السودان . وفي هذه البلاد الصحراوية غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب ، وذلك أنّ البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة ، فتنتحت بالمعاول والفؤس إلى أن يرقّ جرمها ، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها على الماء ،

(١) وفي نسخة ثانية : المخريث .

(٢) وفي النسخة الباريسية : هودي .

(٣) وفي نسخة ثانية : تيكورارين .

(٤) وفي نسخة ثانية : من فلح النخل .

فينبث صاعداً فيعمّ البئر ثم يجري على وجه الأرض وادياً ، ويزعمون أنّ الماء ربّياً
أعجل بسرّعه عن كل شيء . وهذه الغربية موجودة في قصورتوات وتكرارين
وواركلا وريغ . والعالم أبو العجائب والله الخلاق والعليم . وهذا آخر الكلام في الطبقة
الأولى من زناة فلترجع إلى أخبار الطبقة الثانية . وهم الذين اتصلت دولتهم إلى هذا
العهد .

* (أخبار الطبقة الثانية من زناة وذكر أنسابهم وشعوبهم
وأوليتهم ومصائر ذلك) *

قد تقدّم لنا في أضعاف الكلام قبل انقراض الملك من الطبقة من زناة ما كان على يد
صنهاجة والمرابطين من بعدهم ، وأنّ عصبية أجيالهم افتقرت بانقراض ملكهم
ودولهم ، وبقي منهم بطون لم يمارسوا الملك ، ولا أخلقهم ترفه ، فأقاموا في قباطينهم
بأطراف المغربين يتتبعون جانبي القفر والتلّ ، ويعطون الدول حق الطاعة . وغلبوا
على بقايا الأجيال الأولى من زناة بعد أن كانوا مغلوبين لهم فأصبحت لهم السورة
والعزة وصارت الحاجة من الدول إلى مظاهرتهم ومسالتهم ، حتى انقرضت دولة
الموحدين فتطاولوا إلى الملك وضربوا فيه مع أهلهم بسهم . وكانت لهم دول نذكرها
إن شاء الله تعالى . وكان أكثر هذه الطبقة من بني واسين بن بصلتن إخوة مغراوة وبني
يفرن ، ويقال إنهم من بني وانت بن ورسيك بن جانا إخوة مسارة وتاجرت ، وقد
تقدّم ذكر هذه الأنساب . وكان من بني واسين هؤلاء ببلد قسطيلية . وذكر ابن
الرقيق أنّ أبا يزيد النكاري لما ظهر بجبل أوراس كتب إليهم بمكانهم حول توزر
يأمرهم بحصارها فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . وربما كان منهم ببلد الحامة
لهذا العهد ، ويعرفون ببني ورتاجن إحدى بطونهم . وأمّا جمهورهم فلم يزالوا بالمغرب
الأقصى بين ملوية إلى جبل راشد .

(وذكر موسى) بن أبي العافية في كتابه إلى الناصر الأموي يعرفه بحربه مع ميسور
مولى أبي القاسم الشيعي ، ومن صار إليه من قبائل زناة ، فذكر فيمن ذكر ملوية ،
وسار من قبائل بني واسين وبني يفرن وبني يرناتن وبني ورنمت^(١) ومطاطة ، فذكر

(١) وفي نسخة أخرى : بني ورتاسن وبني ورنمت ، وبني يزناسن في قبائل المغرب/١٣٧ .

منهم بني واسين لأن تلك المواطن من مواطنهم قبل الملك .
 (وفي هذه الطبقة منهم بطون) : فمنهم بنو مرين ، وهم أكثرهم عدداً وأقوامهم
 سلطاناً وملكاً وأعظمهم دولة . (ومنهم) : بنو عبد الواد تلوهم في الكثرة والقوة ،
 وبنو توجين من بعدهم كذلك هؤلاء أهل الملك من هذه الطبقة . وفيها غير أهل
 الملك بنو راشد إخوة بني يادين كما نذكره ، وفيها أهل الملك أيضاً من غير نسبهم بقية
 من مغراوة بمواطنهم الأولى من وادي شلف نبضت فيهم عروق الملك بعد انقراض
 جيلهم الأول ، فتجاذبوا حبله مع أهل هذا الجبل وكانت لهم في مواطنهم دولة كما
 نذكره .

(ومن أهل هذه الطبقة) كثير من بطونهم ليس لهم ملك نذكرهم الآن عند تفصيل
 شعوبهم . وذلك أن أحياءهم جميعاً تشعبت من زرجيك بن واسين فكان منهم بنو
 يادين بن محمد ، وبنو مرين بن ورتاجن ، فأما بنو ورتاجن فهم من ولد ورتاجن بن
 ماخوخ بن جريح^(١) بن فاتن بن بدر بن يخفت بن عبدالله ورتنيد بن المعز بن
 ابراهيم بن زحيك . (وأما بنو مرين) بن ورتاجن فتعددت أفخاذهم وبطونهم كما
 نذكر بعد ، حتى كثروا سائر شعوب بني ورتاجن ، وصار بنو ورتاجن معدودين في
 جملة أفخاذهم وشعوبهم . (وأما بنو يادين) بن محمد فمن ولد زرجيك ولا أذكر
 الآن كيف يتصل نسبهم به . وتشعبوا إلى شعوب كثيرة ، فكان منهم : بنو عبد الواد
 وبنو توجين وبنو مصاب وبنو زردال^(٢) يجمعهم كلهم نسب يادين بن محمد . وفي
 محمد هذا يجتمع يادين وبنو راشد ، ثم يجتمع محمد مع ورتاجن في زرجيك^(٣) بن
 واسين ، وكانوا كلهم معروفين بين زناتة الأولى ببني واسين قبل أن تعظم هذه البطون
 والأفخاذ ، وتشعب مع الأيام . وبأرض أفريقية وصحراء برقة وبلاد الزاب منهم
 طوائف من بقايا زناتة الأولى قبل انسياحهم إلى المغرب ، فمنهم بقصور غدامس على
 عشرة مراحل قبل سرت ، وكانت مختطة منذ عهد الإسلام ، وهي خطة مشتملة
 على قصور وآطام عديدة ، وبعضها لبني ورتاجن وبعضها لبني واطاس من أحياء بني
 مرين ، يزعمون أن أوليتهم اختطوها ، وهي لهذا العهد قد استبحرت في العماره ،

(١) وفي نسخة أخرى : بن وجديج .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زردان وفي نسخة ثانية : ازردال .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زحيك وفي نسخة ثانية : زجيك .

واتسعت في التمدن بما صارت محطاً لركاب الحاج من السودان ، وقفل التجار إلى مصر والاسكندرية عند اراحتهم من قطع المفازة ذات الرمال المعترضة أمام طريقهم دون الأرياف والتلويح ، وباباً لولوج تلك المفازة والحاج والتاجر في مرجعهم ومنهم ببلد الحامة^(١) غربي قابس أمة عظيمة من بني ورتاجن . وفرت منهم حاميتها ، واشتدت شوكتها ورحل إليها التاجر بالبضائع لنفاق أسواقها ، وتبحر عمرانها ، وامتنعت لهذا العهد على من يرومها ممن يجاورها ، فهم لا يؤدون خراجاً ولا يسامون بمغرم ، حتى كأنهم لا يعرفونه عزة جناب ، وفضل بأس ومنعة . ويزعمون أن سلفهم من بني ورتاجن اختطوها ، ورياستهم في بيت منهم يعرفون ببني وشاح ، ولربما طال على رؤسائهم عهد الخلافة ووطأة الدولة فيتناولون إلى التي تنكر على السوق من اتخاذ الآلة ، ويبرزون في زي السلطان أيام الزينة تهاوناً بشعار الملك ، ونسياناً لمألوف الانقياد شأن جيرانهم رؤساء توزر ونقطة . وسابق الغاية في هذه الضحكة هو يملول مقدم توزر .

(ومن بني واسين) هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل قيطري في القبلة لما دون الرمال على ثلاث مراحل من قصور بني ريغة في المغرب ، وهذا الاسم للقوم الذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني يادين^(٢) حسبنا ذكرناهم الآن . وضعوها في أرض حرة على أحكام^(٣) وضراب ممتنعة في قننها . وبينها وبين الأرض المحجرة المعروفة بالجمادة في سمت العرق متوسطة فيه قبالة تلك البلاد على فراسخ في ناحية القبلة ، وسكانها لهذا العهد شعوب بني يادين من بني عبد الواد وبني توجيز ومصاب وبني زردال فيمن انضاف إليهم من شعوب زناتة ، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب ، وحالها في المباني والاغتراس وتفرق الجماعات بتفرق الرياسة شبيهة بحال بني ريغة والزاب . ومنهم يجبل أوراس بأفريقية طائفة من بني عبد الواد موطنوه منذ العهد القديم لأول الفتح ، معروفون بين ساكنيه .

(وقد ذكر) بعض الأخباريين أن بني عبد الواد حضروا مع عقبة بن نافع في فتح المغرب عند ايغاله في ديار المغرب ، وانتهائه إلى البحر المحيط بالسوس في ولايته

(١) وفي نسخة ثانية : ومنهم ببلاد الحمة .

(٢) وفي نسخة ثانية : بني يادين .

(٣) وفي نسخة ثانية : آكام .

الثانية . وهي الغزاة التي هلك فيها في منصرفه منها ، وأنهم أبلوا البلاء الحسن فدعا لهم وأذن في رجوعهم قبل استتمام الغزاة . ولما تحيَّزت زناته أمام كتامة وصنهاجة اجتمع شعوب بني واسين هؤلاء كلهم ما بين ملوية كما ذكرناه . وتشعبت أحيائهم وبتوطنهم ، وانبسطوا في صحراء المغرب الأقصى والأوسط إلى بلاد الزاب وما إليها من صحارى أفريقية إذ لم يكن للعرب في تلك المجالات كلها مذهب ولا مسلك إلى المائة الخامسة كما سبق ذكره . ولم يزالوا بتلك البلاد مشتملين لبوس العز مشمرين للأنفة ، وكانت مكاسبهم^(١) الأنعام والماشية ، وابتغاؤهم الرزق من تحييف السابلة ، وفي ظل الرماح المشرعة ، وكانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل ومنافسة الأمم والدول ومغالبة الملوك أيام ووقائع ، نلم بها ولم تعظم العناية باستيعابها ، فنأتي به . والسبب في ذلك أن اللسان العربي كان غالباً لغلبة دولة العرب وظهور الملة العربية ، فالكتاب والخط بلغة الدولة ولسان الملك ، واللسان العجمي منستر بجناحه مندرج في غماده ، ولم يكن لهذا الجيل من زناته في الأحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد أيامهم وتدوين أخبارهم ، ولم تكن مخالطة بينهم وبين أهل الأرياف والحضر ، حتى يشهدوا آثارهم لإبعادهم في القفار كما رأيت في مواطنهم ، وتوحشهم عن الانقياد ، فبقوا غفلاً إلى أن درس منها الكثير ، ولم يصل إلينا بعد ملكهم إلا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكة ، ويتقراه في شعابه ويشيره من مكانه ، وأقاموا بتلك القفار إلى أن تسنموا منها هضبات الملك على ما تصفه .

(١) وفي نسخة ثانية : وكان جل مكاسبهم .

* (الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت
تصاريف أحوالهم الى أن غلبوا على الملك والدول) *

وذلك أن أهل هذه الطبقة من بني واسين وشعوبهم التي سميناها كانوا تبعاً لزناتة الأولى . ولما انزاحت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة وصنهاجة ، خرج بنو واسين هؤلاء إلى القفر ما بين ملوية وصا ، فكانوا يرجعون إلى ملك المغرب لذلك العهد . مكناسة أولاً ثم مغراوة من بعدهم . ثم حسر تيار بني صنهاجة عن المغرب وتقلص ملكهم ، بعض الشيء وصاروا إلى الاستجاشة على القاصية بقبائل زناتة ، فأومضت بروقهم ، ورفت في ممالك زناتة منابهم كما قدمناه . واقتسم أعمالها بنو ومانو وبنو يلومي ناحيتين ، وكانت ملوك صنهاجة أهل القلعة اذا عسكروا للغرب يستنفرونهم لغزوه ، ويجمعون حشدهم للتوغل فيه ، وكان بنو واسين هؤلاء ومن تشعب معهم من القبائل الشهيرة الذكر مثل بني مرين وبني عبد الواد وبني توجين ومصاب قد ملكوا القفر ما بين ملوية وأرض الزاب ، وامتنعت عليهم المغربان ممن ملكها من زناتة الذين ذكرناهم .

(وكان) أهل الرياسة بتلك الأرياف والضواحي من زناتة مثل بني ومانو وبني يلومي بالمغرب الأوسط ، وبني يفرن ومغراوة بتلمسان يستجيشون بني واسين هؤلاء وشعوبهم ، ويستظهرون بجموعهم على من زاحمهم أو نازعهم من ملوك صنهاجة وزناتة وغيرهم ، يحاجون^(١) بهم عن مواطنهم لذلك ، ويقرضونهم القرض الحسن من المال والسلاح والحبوب المعوزة لديهم بالقفار ، فيتأثلون منهم ويرتاشون . وعظمت حاجة بني حماد إليهم في ذلك عندما عصفت بهم ريح العرب الضوالع من بني هلال بن عامر ، وصرعوا دولة المغرّ وصنهاجة بالقَيْرَوَان والمهدية والايواء عن مدّهم^(٢) ، وزحفوا إلى المغرب الأوسط فدافعوا بني حماد عن حوزته وأوعزوا إلى زناتة بمدافعهم أيضاً ، فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين وبني راشد . وعقدوا

(١) وفي نسخة ثانية : يحاجئون بهم من مواطنهم لذلك .

(٢) وفي نسخة ثانية : والانواء من حدهم .

على حرب الهلاليين لوزيرهم أبي سعدى خليفة بن^(١) اليفرني ، فكان له مقامات في حروبهم ودفاعهم عن ضواحي الزاب وما إليه من بلاد أفريقية والمغرب الأوسط إلى أن هلك في بعض أيامه معهم ، وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزاب وما إليه من بلاد أفريقية ، وانشمر بنو واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية فيكيك . ثم إلى سجلماسة ولاذوا ببني ومانوا وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط ، وتفتتوا ظلهم واقتسموا ذلك القفر بالمواطن ، فكان لبني مرين الناحية الغربية منها قبلة المغرب الأقصى بتيكورارين ودبروا إلى ملوية وسجلماسة ، وبعثوا عن بني يلومي إلا في الأحايين وعند الصريخ ، وكان لبني يادين منها الناحية الشرقية قبلة المغرب الأوسط ما بين فيكيك ومديونة إلى جبل راشد ومصاب . وكان بينهم وبين بني مرين فتن متصلة باتصال أيامهم في تلك المواضع^(٢) بسيل القبائل الجحيران في مواطنهم ، وكان الغلب في حروبهم أكثر ما يكون لبني يادين لما كانت شعوبهم أكثر وعددهم أوفر ، فإنهم كانوا أربعة : شعوب بني عبد الواد وبني توجين وبني زردال وبني مصاب ، كان معهم شعب آخر وهم إخوانهم بنو راشد ، لأننا قدّمنا أن راشداً أخو يادين . وكان موطن بني راشد الجبل المشهور بهم بالصحراء ، ولم يزالوا على هذه الحال إلى أن ظهر أمر الموحدين ، فكان لبني عبد الواد وتوجين ومغراوة من المظاهرة لبني يلومي على الموحدين ما هو مذكور في أخبارهم .

ثم غلب الموحدون على المغرب الأوسط وقبائله من زناتة فأطاعوا وانقادوا ، وتخيّر بنو عبد الواد وبني توجين إلى الموحدين وازدلفوا إليهم بالمحاض النصيحة ومشايعة الدعوة ، وكان التقدم لبني عبد الواد دون الشعوب الأخرى ، وأمضوا النصيحة للموحدين فاصطنعواهم دون بني مرين كما نذكر في أخبارهم وترك^(٣) الموحدون ضواحي المغرب الأوسط كما كانت لبني يلومي وبني ومانوا فملكوها . وتفرد بنو مرين بعد دخول بني يادين إلى المغرب الأوسط بتلك الصحراء ، لما اختار الله لهم

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد اسم والده في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة أخرى : المواطن .

(٣) وفي نسخة أخرى : واقطعهم .

من وفور قسمهم في الملك ، واستيلائهم على سلطان المغرب الذي غلبوا به الدول ، واشتملوا الأقطار ونظموا المشارق إلى المغرب ، واقتعدوا كراسي الدول المسامته لهم بأجمعها ما بين السوس الأقصى إلى أفريقية . والملك لله يؤتبه من يشاء من عباده . فأخذ بنو مرين وبنو عبد الواد من شعوب بني واسين بحظ من الملك أعادوا فيه لزناثة دولةً وسلطاناً في الأرض ، واقتادوا الأمم برسن الغلب ، وناغاهم في ذلك الملك البدوي إخوانهم بنو توجين ، وكان في هذه الطبقة الثانية بقية أخرى مما ترك آل خزر من قبائل مغراوة الأولى ، كانوا موطنين بقرار عزهم ومنشأ جيلهم بوادي شلف ، فجادبوا هؤلاء القبائل حبل الملك وناغوه في أطوار الرياسة ، واستطالوا بمن وصل جناحهم من هذه العشائر فتطاولوا إلى مقاسمتهم في الماء^(١) ومساهمتهم في الأمر ، وما زال بنو عبد الواد في الغص من عنانهم وجدع أنوف عصبيتهم حتى أوهنوا من بأسهم ، وخصت الدولة العبد الوادية ثم المرينية بسمة الملك المخلفة من جناح تطاولهم ، وتمحض ذلك كله عن استبداد بني مرين واستتباعهم لجميع هؤلاء العصائب كما نذكر لك الآن دولهم واحدة بعد أخرى ، ومصائر هؤلاء القبائل الأربعة التي هي رؤوس هذه الطبقة الثانية من زناثة . والملك لله يؤتبه من يشاء والعاقبة للمتقين .

(ولنبداً منها بذكر مغراوة) بقية الطبقة الأولى وما كان لرؤسائهم أولاد منديل من الملك في هذه الطبقة الثانية ، كما ستراه إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن أولاد منديل من الطبقة الثانية وما أعادوا لقومهم مغراوة من الملك بموطنهم الأول من شلب وما إليه من نواحي المغرب الأوسط) *

لما ذهب الملك من مغراوة بانقراض ملوكهم آل خزر ، واضمحلت دولتهم بتلمسان وسجلماسة وفاس وطرابلس ، وبقيت قبائل مغراوة متفرقة في مواطنها الأولى بنواحي المغربين وأفريقية بالصحراء والتلول ، والكثير منهم بعنصرهم ومركزهم الأول بوطن

(١) وفي نسخة أخرى : الملك .

شلف وما إليه ، فكان به بنو ورسيفان وبنو يرنا وبنو ينلت^(١) . ويقال إنهم من وترمار وبنو سعيد وبنو زحاك^(٢) وبنو سنجاس ، وربما يقال إنهم من زناة وليسوا من مغراوة ، وكان بنو خزرون الملوك بطرابلس لما انقرض أمرهم ، وافترقوا في البلاد ، ولحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون بجبل أوراس فراراً من أهل بيته هنالك الذين استولوا على الأمر وجدّه خزرون بن خليفة السادس من ملوكهم بطرابلس ، فأقام بينهم أعواماً . ثم ارتحل عنهم فترل على بقايا قومه مغراوة بشلف من بني ورسيفان وبني ورتزمين وبني بوسعيد وغيرهم ، فتلقوهم بالمبرة والكرامة ، وأوجبوا له حق البيت الذي ينسب إليه فيهم ، وأصهر إليهم فأنكحوه وكثر ولده وعرفوا بينهم ببني محمد ، ثم بالخزريّة نسبة إلى سلفه الأول . وكان من ولده الملقّب أبو ناس بن عبد الصمد بن ورجيع بن عبد الصمد . وكان متحلاً للعبادة والخيرية ، وأصهر إليه بعض ولد ماخوخ ملوك بني وماتوا بابتته ، فأنكحه إياها ، فعظم أمره عندهم بقومه ونسبه وصهره . وجاءت دولة الموحدين على أثر ذلك فرمقوه بعين التجلّة لما كان عليه من طرق الخير ، فأقطعوه بوادي شلف وأقام على ذلك . وكان له من الولد ورجيع وهو كبيرهم ، وغربي ولغريات^(٣) وماكور ، ومن بنت ماخوخ عبد الرحمن ، وكان أجّلهم شأناً عنده وعند قومه عبد الرحمن هذا ، لما يوجبون له بولادة ماخوخ لأمه ، ويتفرسون فيه أنّ له ولعقبه ملكاً .

وزعموا أنه لما ولد خرجت به أمه إلى الصحراء فألقته إلى شجرة وذهبت في بعض حاجاتها ، فأطاف به يعسوب من النحل متواقعين عليه ، وبصرت به على البعد فجاءت تعدو لما أدركها من الشفقة ، فقال لها بعض العارفين : خفني عنك فوالله ليكوننّ لهذا شأن . ونشأ عبد الرحمن هذا في جوّ هذه التجلّة مدلاً بنسبه وبأسه ، وكثرت عشيرته من بني أبيه ، واعصوب عليه قبائل مغراوة ، فكان له بذلك شوكة . وفي دولة الموحدين تقدمة ، لما كان يوجب لهم على نفسه من الانحياش والمخالطة والتقدّم في مذاهب الطاعة . وكان السادة منهم يميرون به غزواتهم إلى أفريقية ذاهبين وجائين^(٤) ، فينزلون منه خير نزل ، وينقلبون بحمده والشكر لمذهبه ،

(١) وفي النسخة الباريسية : بنو وترمار وبنو ينلت وفي نسخة ثانية : بنو وترمان وبنو ايليت .

(٢) وفي نسخة ثانية : زحاك .

(٣) وفي نسخة ثانية : عزيز ويغريان .

(٤) وفي نسخة ثانية : راجعين .

فيزيد خلفاؤهم اغتباطاً به . وأدرك بعض السادة وهو بأرض قومه الخبر بمهلك الخليفة بمراكش ، فخلف الذخيرة والظهر ، وأسلمها لعبد الرحمن هذا ، ونجا بدمائه بعد أن صحبه إلى تخوم وطنه ، فكانت له بها ثروة أكسبته قوة وكثرة فاستركب من قومه ، واستكثر من عصابته وعشيرته . وهلك خلال ذلك وقد فشل ربيع بني عبد المؤمن وضعف أمر الخليفة بمراكش .

(وكان له من الولد) منديل وتميم ، وكان أكبرهما منديل ، فقام بأمر قومه على حين عصفت رياح الفتنة ، وسما لمنديل أمل في التغلب على ما يليه ، فاستأسد في عرينه وحامى عن أشباله . ثم فسح خطوته إلى ما جاوره من البلاد فملك جبل وانشريس والمرية وما إلى ذلك واختط قصبه مرات . وكان بسيط متيجه لهذا العهد في العمران أهلاً بالقرى والأمصار .

(ونقل الأخباريون) أن أهل متيجه لذلك العهد يجمعون في ثلاثين مصراً فجاس خلالها وأوطأ الغارات ساحتها وخرّب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها . وهو في ذلك يومهم التمسك بطاعة الموحدين ، وأنه سلم لمن سالمهم حرب لمن عاداهم . وكان ابن غانية منذ غلبه الموحدون عن أفريقية قد أراحوه إلى قابس وما إليها ، فنزل الشيخ أبو محمد بن أبي حفص بتونس ودفعه إلى أفريقية إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستائة فطمع يحيى بن غانية في استرجاع أمره وسبق إلى الثغور والأمصار يعث فيها ويخرّبها ، ثم تجاوز أفريقية إلى بلاد زناتة وشنّ عليها الغارات واكتسح البسائط ، وتكررت الوقائع بينه وبينهم ، فجمع له منديل بن عبد الرحمن ولقيه بمتيجه ، وكانت الدبرة عليه وانفضت عنه مغراوة ، فقتله ابن غانية صبراً سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين وستائة وتغلب على الجزائر أثر نكبته ، فصلب شلوه بها وصيره مثلاً للآخرين . وقام بأمره في قومه بنوه ، وكان منجبا فكان لهم العدد والشرف ، وكانوا يرجعون في أمرهم إلى كبيرهم العباس ، فتقلد^(١) مذاهب أبيه واقتصر على بلاد متيجه . ثم غلبهم بنو توجين على جبل وانشريس وضواحي المرية وما إلى ذلك . وانقبضوا إلى مركزهم الأول شلف ، وأقاموا فيها ملكاً بدوياً لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط . واستولى على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال

(١) وفي نسخة ثانية : فتقبل مذاهب أبيه واقتصر على بلاد متيجه .

مقيمين فيها للدعوة الحفصية واختطوا قرية مازونة .

(ولما استوسق) الملك بتلمسان ليغمراسن بن زيان ، واستفحل سلطانه بها وعقد له عليها ولأخيه من قبله عبد المؤمن ، سما على التغلب على أعمال المغرب الأوسط ، وزاحم بني توجين وبني مندبل هؤلاء بمكناسة فلفتوا وجوههم جميعاً إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حفص مدبل الدولة بأفريقية من بني عبد المؤمن ، وبعثوا إليه الصريخ على يغمراسن ، فاحتشد لهم جميع الموحدين والعرب ، وغزا تلمسان وافتتحها كما ذكرناه .

ولما قفل إلى الحضرة عقد في مرجعه لأمرأة زناتة كل على قومه ووطنه ، فعقد للعباس ابن مندبل على مغراوة ، ولعبد القوي على توجين ولاولاد حورة^(١) على ملكيش ، وسوّغ لهم اتخاذ الآلة فاتخذوها بمشهد منه . وعقد العباس السلم مع يغمراسن ، ووفد عليه بتلمسان فلقاه مبرة وتكريماً ، وذهب عنه بعدها مغاضباً . يقال إنه تحدّث بمجلسه يوماً فزعم أنه رأى فارساً واحداً يقاتل مائتين من الفرسان ، فنكر ذلك من سمعه من بني عبد الواد وعرضوا بتكذيبه ، فخرج العباس لها مغاضباً حتى أتى بقومه ، وأتى يغمراسن مصداق قوله ، فانه كان يعني بذلك الفارس نفسه .

وهلك العباس لخمس وعشرين سنة بعد أبيه سنة سبع وأربعين وستمائة وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن مندبل وصلحت الحال بينه وبين يغمراسن وصاروا إلى الاتفاق والمهادنة ، ونفر معه بقومه مغراوة إلى غزو المغرب سنة كلومان^(٢) وهي سنة سبع وأربعين وستمائة ، هزمهم فيها يعقوب بن عبد الحق فرجعوا إلى أوطانهم وعادوا شأنهم في العداوة . وانتقض عليهم أهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية .

(وكان من خبر) هذا الانتقاض أن أبا العباس أحمد الملياني كان كبير وقته علماً وديناً ورواية ، وكان عالي السند في الحديث فرحل إليه الأعلام ، وأخذ عنه الأئمة وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة ، فانتهد إليه رياسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه . ونشأ ابنه أبو عليّ في جوّ هذه العناية وكان جموحاً للرياسة طامحاً للاستبداد ، وهو مع ذلك خلوص المغارم . فلما هلك أبوه جرى في شأو رياسته طلقاً ، ثم رأى ما بين مغراوة وبني عبد الواد من الفتنة ، فحدّثه نفسه بالاستبداد ببلده ، فجمع لها

(١) وفي النسخة الباريسية : حتورة وفي نسخة ثانية : حورة .

(٢) وفي نسخة أخرى : كلدمان .

جراميزه ، وقطع الدعاء للخليفة المستنصر سنة تسع وخمسين وستائة ، وبلغ الخبر الى تونس فسرح الخليفة أخاه في عسكر من الموحدين في جملته «دون الديك بن هرززة»^(١) من آل أدفونش ملوك الجلالقة ، كان نازعاً إليه عن أبيه في طائفة من قومه ، فنازلوا مليانة أياماً . وداخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن ابن الملياني ، فسرب إليهم جنوداً بالليل واقتحموها من بعض المداخل ، وفر أبو علي الملياني تحت الليل . وخرج من بعض قنوات البلد ، فلاحق بأحياء العرب ، ونزل على يعقوب بن موسى بن العطاف من بطون زغبة ، فأجاره إلى أن لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق ، فكان من أمره ما ذكرناه في أخبارهم . وانصرف عسكر الموحدين والأمير أبو حفص إلى الحضرة ، وعقد لمحمد بن منديل على مليانة ، فأقام بها الدعوة الحفصية على سنن قومه . ثم هلك محمد بن منديل سنة إثنين وستين وستائة لخمس عشرة من ولايته ، قتله أخواه ثابت وعابد بمترل ظواعنهم بالخيس^(٢) من بسيط بلادهم ، وقتل معه عطية ابن أخيه منيف وتولى عابد وشاركه ثابت في الأمر ، واجتمع إليه قومه وتقطع ما بين أولاد منديل وخشنت صدورهم . واستغلظ يغمراسن بن زيان عليهم ، وداخله عمر بن منديل في أن يمكّنه من مليانة ، ويشدّ عضده على رئاسة قومه ، فشارطه على ذلك وأمكنه من أزمة البلد سنة ثمان وستين وستائة ونادى بعزل ثابت ومؤازرة عمر على الأمر فتمّ لها ما أحكاماه من أمرهما في مغراوة . واستمكن بها يغمراسن من قيادة قومه . ثم تناحى أولاد منديل في الازدلاف إلى يغمراسن بمثلها نكاية لعمر ، فاتفق ثابت وعابد أولاد منديل أن يحكاماه من تونس^(٣) فأمكناه منها سنة إثنين وسبعين وستائة على إثني عشر ألفاً من الذهب .

واستمرت ولاية عمر إلى أن هلك سنة ست وسبعين وستائة ، فاستقل ثابت بن منديل برئاسة مغراوة ، وأجاز عابد أخوه إلى الأندلس للرباط والجهاد مع صاحببئه زيّان بن محمد بن عبد القوي وعبد الملك بن يغمراسن فحوّل زناته واسترجع ثابت بلاد تونس ومليانة من يد يغمراسن ، ونبذ إليه العهد ، ثم استغلظ يغمراسن عليهم واستردّ تونس سنة إحدى وثمانين وستائة بين يدي مهلكه .

(١) وفي نسخة اخرى : دون الريبك بن هراندة .

(٢) وفي نسخة اخرى : بالخميس .

(٣) وفي نسخة ثانية : في تنس .

(ولما) هلك يغمراسن وقام بالأمر بعده ابنه عثمان انتقضت عليه تونس ، ثم ردّد الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخرأ على ما بأيديهم ، وملك المرية بمداخلة بني لمدية أهلها سنة سبع وثمانين وستائة وغلب ثابت بن منديل على مازونة ، فاستولى عليها ثم نزل له عن تونس أيضاً فملكها . ولم يزل عثمان مراغماً لهم إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين وستائة فاستولى على أمصارهم وضواحيهم ، وأخرجهم عنها وأجأهم إلى الجبال . ودخل ثابت بن منديل إلى برشك مما نعاً دونها ، فزحف إليهم عثمان وحاصره بها حتى إذا استيقن أنه محاط به^(١) ، ركب البحر إلى المغرب ، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين صريحاً سنة أربع وتسعين وستائة فأكرمه ووعدته بالنصرة من عدوه ، وأقام بفاس وكانت بينه وبين ابن الأشهب من رجالات بني عسكر صحبة ومداخلة ، فجاءه بعض الأيام إلى منزله ، ودخل عليه من غير استئذان وكان ابن الأشهب ثملاً ، فسطا به وقتله وثار السلطان به منه ، وانفجع لموته . وكان ثابت بن منديل قد أقام ابنه محمد الأمير في قومه ، وولاه عليهم لعهدده واستبدّ بملك مغراوة دونه .

(ولما انصرف) أبوه ثابت إلى قومه أقام هو في إمارته على مغراوة . وهلك قريباً من مهلك أبيه ، فقام بأمرهم من بعده شقيقه عليّ ، ونازعه الأمر أخواه رحمون ومنيف ، فقتله منيف ونكر ذلك قومها وأبوا من إمارتها عليهم ، فلحقا بعثمان بن يغمراسن فأجازهما إلى الأندلس .

(وكان) أخوهما معمر بن ثابت قائداً على الغزاة بالجزيرة^(٢) فترل لمنيف عنها ، فكانت أول ولاية وليها بالأندلس . ولحق بهم أخوهم عبد المؤمن فكانوا جميعاً هنالك ومن أعقاب عبد المؤمن يعقوب بن زيان بن عبد المؤمن ، ومن أعقاب منيف^(٣) بن عمر بن منيف وجماعة منهم لهذا العهد بالأندلس .

(ولما هلك) ثابت بن منديل سنة أربع وتسعين وستائة كما قلناه ، كفل السلطان ولده وأهله ، وكان فيهم حافده راشد بن محمد ، فأصهر إليه في أخته فأنكحه إياها . ونهض إلى تلمسان سنة ثمان وتسعين وستائة فأناخ عليها ، واختطّ مدينته لحصارها

(١) وفي نسخة ثانية : انه محيط به .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بالبقيرة ، وفي نسخة ثانية بالبقيرة .

(٣) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم ابن عمر هذا في المراجع التي بين أيدينا .

وسرح عساكره في نواحيها ، وعقد على مغراوة وشلف لعمر بن يعز بن (١) بن مندبل ، وبعث معه جيشاً ففتح مليانة وتونس ومازونة سنة تسع وتسعين وستائة ووجد راشد في نفسه إذ لم يوله على قومه ، وكان يرى أنه الأحق لنسبه وظهره ، فترع عن السلطان ولحق بجبال متيجة ودسّ إلى أوليائه من مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة ، فأجد (٢) السير ولحق بهم ، فافترق أمر مغراوة ، وداخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وبيت عمر بن ويعز بن بأزمور (٣) من ضواحي بلادهم فقتله ، واجتمع عليه قومه وسرح السلطان إليه الكتائب من بني عسكر لنظر الحسن بن علي بن أبي الطلاق ، ومن بني ورتاجن لنظر علي بن محمد الخير ، ومن بني توجين لنظر أبي بكر بن ابراهيم بن عبد القوي . ومن الجند لنظر علي بن حسان الصبحي من صنائعه ، وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن مندبل ، وزحفوا إلى مازونة وقد ضبطها راشد ، وخلف عليها علياً وحمو إبن عمه يحيى بن ثابت . ولحق هو ببني بوسعيد مطلقاً عليهم وأناخت العساكر على مازونة ، ووالوا عليها الحصار سنين حتى أجهدوهم . وبعث علي بن يحيى أخاه حمو إلى السلطان من غير عهد فتقبض عليه . ثم اضطره الجهد إلى مركب الغرور فخرج إليهم ملقياً بيده سنة ثلاث وسبعائة وأشخصوه إلى السلطان فعفا عنه واستبقاه ، واحتسبها تأنيساً واستمالة لراشد ثم سرح العساكر إلى قاصية الشرق لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب ، فنازل راشد بن محمد في معقل بني بوسعيد ، وطال حصاره إياه ، وأمكنته الغرة بعض الأيام في العساكر ، وقد تعلقوا بأوعار البلد زاحفين إليه فهزمهم . وهلك في تلك الواقعة خلق من بني مرين وعساكر السلطان ، وذلك سنة أربع وسبعائة . وبلغ الخبر إلى السلطان فأحفظه ذلك عليهم ، وأمر بابن عمه علي بن يحيى وأخيه حمو ومن معهم من قومهم ، فقتلوا رشقاً بالسهم واستلحمهم .

(١) كذا في النسخة الباريسية ويعز بن وفي نسخة ثانية : ويعز بن .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : فأغذ .

(٣) سماها ياقوت في معجم البلدان أزمورة بثلاث ضمات وكذلك ابن حوقل . وأزمور مدينة صغيرة على شاطئ المحيط الأطلنطي بين الدار البيضاء والجديدة على ضفة وادي أم الربيع ، تعتبر مركزاً مهماً لقبائل الحوزية وشتوكه بدكاله . ويرجع تاريخها إلى العصور القديمة حيث عرفها الفينيقيون . (تقع المدينة على بعد ٢ كلم من الشاطئ و ١٧ كلم من الجديدة و ٨٠ كلم من البيضاء) . (المعجم التاريخي ٣ - كتاب المغرب/ ٤٢) .

ثم سرح أخاه أبا يحيى بن يعقوب ثانية سنة أربع وسبعمئة فاستولى على بلاد مفاوة ،
ولحق راشد بجبال صنهاجة من متيجة ، ومعه عمه منيف بن ثابت ومن اجتمع إليهم
من قومهم ، فنازلهم أبو يحيى بن يعقوب . وراسل راشد يوسف بن يعقوب فانعقدت
بينهما السلم ، ورجعت العساكر عنهم . وأجاز منيف بن ثابت معه بنيه وعشيرته إلى
الأندلس ، فاستقروا هنالك آخر الأيام .

(ولمّا هلك) يوسف بن يعقوب بمناخه على تلمسان آخر سنة ست وسبعمئة انعقدت
السلم بين حافده أبي ثابت وبين أبي زيّان بن عثمان سلطان بني عبد الواد على أن
يخلي له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من أمصارهم وأعمالهم وثغورهم ، وبعثوا في
حاميتهم وعمّاهم وأسلموها لعمّال أبي زيّان . وكان راشد قد طمع في استرجاع
بلادهم ، وزحف إلى مليانة فأحاط بها . فلما نزل عنها بنو مرين لأبي زيّان وصارت
مليانة وتونس له ، أخفق سعي راشد وأفرج عن البلد . ثم كان مهلك أبي زيّان
قريباً ، وولّى أخوه أبو حمّو موسى بن عثمان واستولى على المغرب الأوسط فهلك
تافريكت^(١) سنة سبع وسبعمئة وملك بعدها مليانة والمرية ، ثم ملك تونس وعقد
عليها لمولاه مسامح ، وقارن ذلك حركة صاحب بجاية السلطان أبي البقاء خالد
ابن مولانا الأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي اسحق إلى متيجة لاسترجاع الجزائر
من يد ابن علان الثائر بها عليهم ، فلقية هنالك راشد بن محمد وصار في جملته
وظاهره على شأنه . ولقاه السلطان تكربة وبراً ، وعقد له ولقومه حلفاً مع صنهاجة
أولياء الدولة والمتغلبين على ضاحية بجاية وجبال زواوة ، فاتصلت يد راشد بيد
زعيمهم يعقوب بن خلوف أحد زعماء الدولة .

ولما نهض السلطان للاستيثار بملك الحضرة بتونس ، استعمل يعقوب بن خلوف على
بجاية وعسكر معه راشد بقومه ، وأبلى في الحروب بين يديه وأغنى في مظاهرة أوليائه
حتى إذا ملك حضرتهم واستولى على تراث سلفهم ، أسف حاجب الدولة راشد هذا
وقومه بامضاء الحكم في بعض حشمه ، وتعرّض للحراية في السابلة ، فتقبض عليه
ورفع إلى سدّة السلطان فأمضى فيه حكم الله . وذهب راشد مغاضباً ولحق بوليّه ابن
خلوف ومضطربه من زواوة . وكان يعقوب بن خلوف قد هلك وولّى السلطان مكانه

(١) وفي نسخة أخرى : تافركينت .

ابنه عبد الرحمن ، فلم يرع حق أبيه في إكرام صديقه راشد . وتشاجر معه في بعض الأيام مشاجرة نكر عبد الرحمن فيها ملاحاة راشد له ، وأنف منها ، وأدلّ فيها راشد بمكانه من الدولة وبيأس قومه ، فلدغه بالقول وتناوله عبد الرحمن وحشمه وخزاً بالرماح إلى أن أقعصوه^(١) وانذعر جمع مغراوة ولحقوا بالثغور القاصية ، وأقفر منهم شلف وما إليه كأن لم يكونوا به فأجاز منهم بنو منيف وبنو يعزن إلى الأندلس للمرابطة بثغور المسلمين ، فكانت منهم عصابة موطنّة هناك أعقابهم لهذا العهد . وأقام في جوار الموحّدين فلّ آخر من أوساط قومهم كانوا شوكة في عساكر الدولة إلى أن انقرضوا ولحق علي بن راشد بعمته في قصر بني يعقوب بن عبد الحق فكفلته ، وصار أولاد منديل عُصباً إلى وطن بني مرين فتولّوهم وأحسنوا جوارهم ، وأصهروا إليهم سائر الدولة ، إلى أن تغلب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط ومحا دولة آل زيّان ، وجمع كلمة زناتة ، وانتظم مع بلادهم بلاد أفريقية وعمل الموحّدين وكانت نكبته على القيروان سنة تسع وأربعين وسبعائة كما شرحناه قبل . فانتقضت العمالات والأطراف وانترى أعياص الملك بمواطنهم الأولى ، فتوثّب عليّ بن راشد بن محمد ابن ثابت بن منديل على بلاد شلف وتملكها وتغلب على أمصارها مليانة وتنس وبرشك وشرشال ، وأعاد ما كان لسلفه بها من الملك على طريقتهم البدوية ، وأرهفوا حدّهم لمن طالبهم من القبائل .

وخلص السلطان أبو الحسن من ورطته إلى أفريقية ، ثم من ورطة البحر من مرسى الجزائر إلى بجاية يحاول استرجاع ملكه المفرّق ، فبعث إلى عليّ بن راشد وذكره ذمّهم فتذكر وحنّ ، واشترط لنفسه التجافي له عن ملك قومه بشلف عليّ أن يظاهاه عليّ بن عبد الواد فأبى السلطان أبو الحسن من اشتراط ذلك له ، فتحيّز عنه إلى فينة بني عبد الواد الناجمين بتلمسان كما ذكرناه قبل ، وظاهرهم عليه وبرز إليهم السلطان أبو الحسن من الجزائر والتقى الجمعان بشربونة^(٢) سنة إحدى وخمسين وسبعائة فاختلف مصافّ السلطان أبي الحسن وانهمز جمعه ، وهلك ابنه الناصر ، طاح دمه في مغراوة وهؤلاء . وخرج إلى الصحراء ولحق منها بالمغرب الأقصى كما نذكره بعد . وتناول الناجمون بتلمسان من آل يغمراسن الى انتظام بلاد مغراوة في ملكهم كما كان

(١) قال الجوهري : يقال ضربه فاقعصه أي قتله مكانه .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : شربونة وفي نسخة ثانية : شذبونة .

لسلفهم ، فهض إليهم بعساكر بني عبد الواد رديف سلطانهم وأخوه أبو ثابت الزعيم ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، فأوطأ قومه بلاد مغراوة سنة إثنين وخمسين وسبعمئة وقلّ جمعهم وغلبهم على الضاحية والأمصار . وأحجر عليّ بن راشد بتنس في شردمة من قومه ، وأناخ بعساكره عليه وطال الحصار ووقع الغلب ولما رأى علي بن رشد أن قد أحيط به دخل إلى زاوية من زوايا قصره انتبذ فيها عن الناس وذبح نفسه بحدّ حسامه ، وصار مثلاً وحديثاً للآخرين . واقتحم البلد لحينه ، واستلحم من عثر عليه من مغراوة ، ونجا الآخرون إلى أطراف الأرض ، ولحقوا بأهل الدول فاستركبوا واستلحقوا وصاروا جنداً للدول وحشماً وأتباعاً ، وانقرض أمرهم من بلاد شلف .

ثم كانت لبني مرين الكرة الثانية إلى تلمسان ، وغلبوا آل زيّان ومحو آثارهم . ثم فاء ظلهم بملك السلطان أبي عنان ، وحسر تيارهم ، وجدّد الناجمون من آل يغمراسن دولة ثانية بمكان عملهم على يد أبي حمو الأخير ابن موسى بن يوسف كما نذكره في أخبارهم . ثم كانت لبني مرين الكرة الثالثة إلى بلاد تلمسان ، ونهض السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن إليها فدخلها فاتح سنة إثنين وسبعين وسبعمئة وسرح عساكره في اتباع أبي حمو الناجم بها من آل يغمراسن حين قرّ أمامه في قومه وأشياعه من العرب كما يأتي ذلك كله . ولما انتهت العساكر إلى البطحاء تلوموا هنالك أياماً لإزاحة علبهم . وكان في جملتهم صبيّ من ولد عليّ بن راشد الذبيح اسمه حمزة ، رُبِّيَ يتيماً في حجر دولتهم لدمام الصهر الذي لقومه فيهم ، فكفلته نعمهم وكنفه جوهم ، حتى شبّ واستوى وسخط رزقه في ديوانهم وحاله بين ولدانهم ، واعترض بعض الأيام قائد الجيوش الوزير أبا بكر بن غازي شاكياً ، فجبّه وأساء رده ، فركب الليل ولحق بمعقل بني بوسعيد من بلاد شلف فأجاروه ومنعوه ، ونادى بدعوة قومه فأجابوه ، وسرح إليه السلطان وزيره عبد العزيز عمر بن مسعود بن منديل بن حمّامة كبير يترعين^(١) في جيش كثيف من بني مرين والجند فنزل بساحة ذلك الجبل حولاً كريتاً^(٢) فحاصروهم ينال منهم وينالون منه ، وامتنعوا عليه واتهم السلطان وزيره بالمداهنة ، وسعى به منافسوه ، فتقبّض عليه ، وسرّ وزيره الآخر أبا بكر بن غازي ، فهض يجرّ العساكر الضخمة والجيوش الكثيفة إلى أن نزل

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : تيريين .

(٢) قال الجوهري : سنة كريت أي سنة تامة .

بهم وصبحهم القتال ، فخذف الله في قلوبهم الرعب وأنزلهم من معقلهم . وفر حمزة بن عليّ في فلّ من قومه ، فنزل ببلاد حصين المتقضين كانوا على الدولة مع أبي زيّان بن أبي سعيد الناجم من آل يغمراسن حسبما نذكره . وأتى بنو أبي سعيد طاعتهم ، وأخلصوا الضمائر في مغبتها فحسن موقعهم وبدأ حمزة في الرجوع إليهم فأغذّ السير في لمة من قومه ، حتى إذا ألمّ بهم نكروه لمكان ما اعتقلوا به من جبل الطاعة ، فتساهل إلى البسائط وقصد تيمروغت^(١) يظنّ بها غرة ينتهزها ، فبرز إليه حاميتها ففلّوا حدّة وردّوه على عقبه ، وتسبقوا في اتباعه إلى أن تقبّضوا عليه ، وقادوه إلى الوزير ابن غازي بن الكاس . فأوعز إليه السلطان بقتله مع جملة أصحابه ، فضربت أعناقهم ، وبعث بها إلى سدة السلطان وصلب أشلائهم على خشب مسندة نصبها لهم ظاهر مليانة ، ومحيّ أثر مغراوة ، وانقرض أمرهم وأصبحوا خولاً للأمرء ، وجنداً في الدول ، وأوزاعاً في الأقطار كما كانوا قبل هذه الدولة الأخيرة لهم . والبقاء لله وحده ، وكل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون لا ربّ غيره ولا معبود سواه وهو على كل شيء قدير .

(١) كذا في النسخة الباريسية ، وفي نسخة أخرى : تيمزوغت .

حمزة بن علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل بن عبد الرحمن بن عبد الصمد بن ور جيع بن عبد الصمد بن محمد بن خزرون

عمر

— | كزينة بن منديل عطية بن جندب

— | هجر بن عبد القوي بن زيان بن يعقوب بن يعقوب

— | كزينة بن منديل بن عبد الرحمن بن عبد الصمد بن ور جيع بن عبد الصمد بن محمد بن خزرون

— | كزينة بن منديل عمر بن عمرو

— | كزينة بن منديل عمرو بن عمرو

— | كزينة بن منديل عمرو بن عمرو

علي بن حارون —
حمزة بن يحيى —
عابدة —

— | كزينة بن منديل عمرو بن عمرو

— | كزينة بن منديل عمرو بن عمرو

الخبر عن بني عبد الواد من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم بتلمسان وبلاد المغرب الأوسط من الملك والسلطان وكيف كان مبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم

قد تقدم لنا في أول هذه الطبقة الثانية من زناتة ذكر بني عبد الواد هؤلاء وأنهم من ولد يادين بن محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد ، وأن نسبهم يرتفع إلى رزجيك بن واسين بن ورسيك بن جانا ، وذكرنا كيف كانت حالهم قبل الملك في مواطنهم تلك . وكان إخوانهم بمصاب وجبل راشد وفيكيك وملوية . ووصفنا من حال فنتهم مع بني مرين إخوانهم المجتمعين معهم بالنسب في رزجيك بن واسين . ولم يزل بنو عبد الواد هؤلاء بمواطنهم تلك وبنو راشد بنو زردال ومصاب منجدين إليهم بالنسب والحلف ، وبنو توجين منابذين لهم أكثر أزمانهم . ولم يزلوا جميعاً متغلبين على ضاحية المغرب الأوسط عامة الأزمان ، وكانوا تبعاً فيه لبني ومانوا وبني يلومي حين كان لهم التغلب فيهم . وربما يقال : كان شيخهم لذلك العهد يعرف بيوسف بن تكفا ، حتى إذا نزل عبد المؤمن والموحّدون نواحي تلمسان ، وسارت عساكرهم إلى بلاد زناتة تحت راية الشيخ أبي حفص ، فأوقعوا بهم كما ذكرناه ، وحسنت بعد ذلك طاعة بني عبد الواد وانحياشهم إلى الموحّدين . وكانت بطونهم وشعوبهم كثيرة أظهرها فيما يذكرون ستة : بنو ياتكين وبنو ولّوا وبنو ورسطف ومصوصة وبنو تومرت وبنو القاسم . ويقولون بلسانهم آيت القاسم وايت حرف الإضافة النسبية عندهم . ويزعم بنو القاسم هؤلاء أنهم من أولاد القاسم بن إدريس . وربما قالوا في هذا القاسم إنه ابن محمد بن إدريس ، أو ابن محمد بن عبد الله ، أو ابن محمد بن القاسم وكلهم من أعقاب إدريس ، زعماء لا مستند له إلا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه ، مع أن البادية بعدهاء عن معرفة هذه الأنساب . والله أعلم بصحة ذلك .

(وقد قال يغمراسن) بن زيّان أبو ملوكهم لهذا العهد لما رفع نسبه إلى إدريس كما يذكرون فقال برطانتهم ما معناه : إن كان هذا صحيحاً فينفعنا عند الله . وأما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا . ولم تزل رياسة بني عبد الواد في بني القاسم لشدة شوكتهم واعتزاز

عصبيتهم ، وكانوا بطوناً كثيرة فمنهم : بنو يكمّين^(١) بن القاسم . وكان منهم ويعزن ابن مسعود بن يكمّين وأخواه يكمّين وعمر ، وكان أيضاً منهم أغدوي^(٢) بن يكمّين الأكبر ، ويقال الأصغر . ومنهم أيضاً عبد الحق بن منغفاد من ولد ويعزن ، وكانت الرياسة عليهم لعهد عبد المؤمن لعبد الحق بن منغفاد وأغدوي بن يكمّين وعبد الحق ابن منغفاد هو الذي استنقذ الغنائم من يدي بني مرين ، وقتل المخضب المسوّف حين بعثه عبد المؤمن مع الموحّدين لذلك ، والمؤرّخون يقولون : عبد الحق بن معاد بميم وعين مهملة مفتوحتين وألف بعدها دال ، وهو غلط ، وليس هذا اللفظ بهذا الضبط من لغة زناتة ، وإنما هو تصحيف منغفاد بميم ونون مفتوحتين وعين بعدهما معجمة ساكنة وفاء مفتوحة ، والله أعلم .

(ومن بطون) بني القاسم أيضاً : بنو مطهر بن يمل بن يزكين^(٣) بن القاسم وكان حامة ابن مطهر من شيوخهم لعهد عبد المؤمن ، وأبلى في حروب زناتة مع الموحّدين ، ثم حسنت طاعته وانحياشه . (ومن بطون) بني القاسم أيضاً : بنو عليّ ، وإليهم انتهت رياستهم وهم أشدّ عصبيّة وأكثر جمعا ، وهم أربعة أفخاذ : بنو طاع الله ، وبنو دلول وبنو كمين^(٤) وبنو معطي بن جوهر ، والأربعة بنو عليّ . ونصاب الرياسة في بني طاع الله لبني محمد بن زكراز^(٥) بن تيدوكسن بن طاع الله ، هذا ملخص الكلام في نسبهم .

(ولما) ملك الموحّدون بلاد المغرب الأوسط وأبلوا من طاعتهم وانحياشهم ما كان سبباً لاستخلاصهم ، فأقطعوهم عامّة بلاد بني ومانوا ، وأقاموا بتلك المواطن ، وحدثت الفتنة بين بني طاع الله وبني كمين إلى أن قتل كندوز بن^(٦) من بني كمين زيّان بن ثابت كبير بني محمد بن زكراز^(٧) وشيخهم وقام بأمرهم بعده جابر ابن عمه يوسف بن محمد ، فثار كندوز بزّيّان ابن عمه وقتله في بعض أيامهم وحروبهم .

(١) وفي نسخة ثانية : مكنيمن .

(٢) وفي نسخة ثانية : أغدوي .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : يزكن وفي نسخة ثانية بني مزكن .

(٤) وفي نسخة ثانية : بنو كمي .

(٥) وفي نسخة ثانية : ابن زكران .

(٦) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة والد كندوز هذا في المراجع التي بين أيدينا .

(٧) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زكدان وفي نسخة ثانية : زكدار وفي أخرى أيضاً : زكداز

ويقال قتله غيلة ، وبعث برأسه ورؤوس أصحابه إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت ، فنصبت عليها القدور أثاراً في شفاية لنفوسهم من شأن أبيه زيان .

وافترق بنو كمين ، وفرّ بهم كبيرهم عبدالله بن كندوز ، فلحقوا بتونس . ونزل على الأمير أبي زكريا كما نذكره بعد . واستبدّ جابر بن يوسف بن محمد برياسة بني عبد الواد . وأقام هذا الحيّ من بني عبد الواد بضواحي المغرب الأوسط ، حتى إذا فشل ربيع بني عبد المؤمن ، وانترى يحيى بن غانية على جهات قابس وطرابلس ، وردّد الغزو والغارات على بسائط أفريقية والمغرب الأوسط فاكسحها وعات فيها . وكبس الأمصار فأقتحمها بالغارة وإفساد السابلة وانتساف الزرع ، وحطم النعم إلى أن خربت ، وعفا رسمها لسني الثلاثين من المائة السابعة . وكانت تلمسان نزلاً للحامية ومناخاً للسيد من القرابة الذي يضمّ نشرها ، ويذبّ عن أنحائها وكان المأمون قد استعمل على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد ، وكان مغفلاً ضعيف التدبير . وغلب عليه الحسن بن حيون من مشيخة قومه كومية ، وكان عاملاً على الوطن . وكانت في نفسه ضغائن من بني عبد الواد جرّها ما كان حدث لهم من التغلب على الضاحية وأهلها ، فأغرى السيد أبا سعيد بجماعة مشيخة منهم وفدوا عليه فتقبّض عليهم واعتقلهم . وكان في حامية تلمسان لمة من بقايا لمتونة تجافت الدولة عنهم ، وأثبتهم عبد المؤمن في الديوان وجعلهم مع الحامية . وكان زعيمهم لذلك العهد ابراهيم بن اسمعيل بن علان ، فشفع عندهم في المشيخة المعتقلين من بني عبد الواد فردّوه ، فغضب وحمى أنفه وأجمع الانتفاض والقيام بدعوة ابن غانية ، فجدّد ملك المرابطين من قومه بقاصية المشرق ، فاغتال الحسن بن حيون لحينه ، وتقبّض على السيد أبي سعيد وأطلق المشيخة من بني عبد الواد ، ونقض طاعة المأمون وذلك سنة أربع وعشرين وسبعائة فطير الخبر إلى ابن غانية فأجدّ إليه السير . ثم بدا له في أمر بني عبد الواد ، ورأى أنّ ملاك أمره في خضد شكوتهم^(١) وقصّ جناحهم ، فحدث نفسه بالفتك بمشيتهم ، ومكر بهم في دعوة وأعدهم لها ، وفطن لتدبيره ذلك جابر بن يوسف شيخ بني عبد الواد ، فواعده اللقاء والمؤازرة ، وطوى له على النث^(٢) ، وخرج ابراهيم بن علان إلى لقائه ففتك به جابر . وبادر إلى البلد فناهى بدعوة المأمون

(١) خضد الشجر : قطع شوكة : (قاموس) .

(٢) النث : نثا الخبر : أفشاه (قاموس) .

وطاعته ، وكشف لأهلها القناع عن مكر ابن علان بهم ، وما أوقعهم فيه من ورطة ابن غانية ، فحمدوا رأيه وشكروا جابراً على صنيعه ، وجددوا البيعة للمأمون . واجتمع إلى جابر في أمره هنا كافة بني عبد الواد وأحلافهم من بني راشد ، وبعث إلى المأمون بطاعته واعتماله في القيام بدعوته فخطبه بالشكر ، وكتب له بالعهد على تلمسان وسائر بلاد زناتة على رسم السادات الذين كانوا يلون ذلك من القرابة ، فاضطلع بأمر المغرب الأوسط .

(وكانت) هذه الولاية ركوباً إلى صهوة الملك الذي اقتعدوه من بعد . ثم انتقض عليه أهل اربونة^(١) بعد ذلك فنازلهم وهلك في حصارها بسهم غرب سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه الحسن وجدد له المأمون عهده بالولاية ، ثم ضعف عن الأمر وتخلّى عنه لسته أشهر من ولايته . ودفع إليه عمّه عثمان بن يوسف ، وكان سيء الملكة كثير العسف والجور فثارت به الرعايا بتلمسان وأخرجوه سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وارتضوا لمكانه ابن عمه زكراز^(٢) بن زيّان بن ثابت الملقّب بأبي عزة فاستدعوه لها ، وولّوه على أنفسهم وبلدهم ، وسلّموا له أمرهم وكان مضطرباً بأمر زناتة ومستبداً برياستهم ومستولياً على سائر الضواحي ، فنفس بنو مطهر عليه وعلى قومه بني عليّ إخوانهم ما آتاهم الله من الملك ، وأكرمهم الله به من السلطان وحسدوا زكراز وسلفه فيما صار لهم من الملك ، فشاقوه ودعوا إلى الخروج عليه ، واتبعهم بنو راشد أحلافهم منذ عهد الصحراء ، وجمع لهم أبو عزة سائر قبائل بني عبد الواد ، فكانت بينه وبينهم حرب سجال هلك في بعض أيامها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة وقام بالأمر بعده أخوه يغمراسن بن زيّان ، فوقع التسليم والرضى به وسائر القبائل ، ودان له بالطاعة جميع الأمصار . وكتب له الخليفة الرشيد بالعهد على عمله وكان له ذلك سلماً إلى الملك الذي أورثه بنيه سائر الأيام . والملك لله يؤتية من يشاء .

(١) وفي نسخة ثانية : ندرومه وهو الصحيح كما في قبائل المغرب/٤٢٦ .

(٢) وفي نسخة ثانية : زكران .

يفعمراسن —

زكراز بن زيان بن ثابت بن محمد بن زكراز بن تيدوكس بن طاع الله

— يوسف بن جابر بن الحسن
عنان —

دلول —

معطى بن جوهر —

— خميس بن كندور بن عبدالله

— بن علي بن القاسم بن عبد الواد

— صبيحة بن علي بن مطهر بن يهوح
— مطهر بن يهوح

عمر —

منغفاد بن ويعزن بن مسعود بن سيمكس —

— بكيتية

— واعجوى

بنو ورضطف —

مصوه وللدا —

— بن كميته بن

— بن

عبد الحق بن

الخبر عن تلمسان وما تآدى إلينا من أحوالها من الفتح إلى أن تأثّل بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم

هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط ، وأم بلاد زناتة اختطّها بنو يفرن بما كانت في مواطنهم ، ولم نقف على أخبارها فيما قبل ذلك . وما يزعم بعض العامة من ساكنها أنها أزليّة البناء ، وأنّ الجدار الذي ذكر في القرآن في قصّة الخضر وموسى عليهما السلام هو بناحية أكادير منها ، فأمر بعيد عن التحصيل لأنّ موسى عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب ، وبنو إسرائيل لم يبلغ ملكهم لأفريقية ، فضلاً عمّا وراءها . وإنما هي من مقالات التشيع المجهول عليه أهل العالم في تفضيل ما ينسب إليهم أو ينسبون إليه من بلد أو أرض أو أعلم أو صناعة . ولم أقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق بأنّ أبا المهاجر الذي وليّ أفريقية بين ولايتي عُقبّة بن نافع الأولى والثانية ، توغلّ في ديار المغرب ووصل إلى تلمسان ، وبه سمّيت عيون أبي المهاجر قريباً منها . وذكرها الطبري عند ذكر أبي قرّة وإجلاله مع أبي حاتم والخوارج على عمر بن حفص . ثم قال : فأفرجوا عنه وانصرف أبو قرّة إلى مواطنه بنواحي تلمسان . وذكرها ابن الرقيق أيضاً في أخبار إبراهيم بن الأغلب قبل استبداده بأفريقية ، وأنه توغلّ في غزوه إلى المغرب ونزلها ، واسمها في لغة زناتة مركّب من كلمتين : تلم سان^(١) ومعناها تجمع إثنين يعنون البرّ والبحر .

(ولما خلص) إدريس الأكبر بن عبدالله بن الحسن إلى المغرب الأقصى واستولى عليه ، نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة فتلّقاه محمد بن خزر بن صولات أمير زناتة وتلمسان ، فدخل في طاعته وحمل عليها مغراوة وبني يفرن وأمكته من تلمسان فملكها ، واختطّ مسجدها^(٢) وصعد منبره وأقام بها شهراً وانكفاً راجعاً إلى المغرب . وجاء على أثره من المشرق أخوه سليمان بن عبدالله فنزلها وولاه أمرها . ثم هلك إدريس وضعف أمرهم . ولما بويع لابنه إدريس من بعده واجتمع إليه برابرة

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخ أخرى : تلم سين وتلم سن وتم سين وهذا كله تحريف .

(٢) ابرز ابن مرزوق اتفاق الرحالين . واجماع المتجولين على أنهم لم يرو ثانياً لجامع تلمسان (المعجم التاريخي/٢٠) .

المغرب نهض إلى تلمسان سنة تسع وتسعين ومائة ، فجدّد مسجدها وأصلح منبرها ، وأقام بها ثلاث سنين دوّخ فيها بلاد زنّانة . واستوسقت له طاعتهم . وعقد عليها لبني محمد ابن عمه سليمان .

(ولما هلك إدريس) الأصغر واقتسم بنوه أعمال المَغْرِبِيِّين بإشارة أمّه كثره ، كانت تلمسان في سهان عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان وأعمالها لبني أبيه محمد بن سليمان . فلما انقرضت دولة الأدارسة من المغرب ، وولي أمره موسى بن أبي العافية بدعوة الشيعة ، نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة ومائتين وغلب عليها أميرها لذلك العهد الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان ، ففرّ عنها إلى مليلة ، وبنى حصناً لامتناعه بناحية نكور ، فحاصره مدّة ، ثم عقد له سلماً على حصنه .

ولما تغلب الشيعة على المغرب الأوسط أخرجوا أعقاب محمد بن سليمان من سائر أعمال تلمسان ، فأخذوا بدعوة بني أمية من وراء البحر وأجازوا إليهم . وتغلب يعلى بن محمد اليفرني على بلاد زنّانة والمغرب الأوسط ، فعقد له الناصر الأموي عليها وعلى تلمسان أعوام أربعين وثلثمائة . ولما هلك يعلى وأقام بأمر زنّانة بعده محمد بن الخير بن محمد بن خزر داعية الحكم المستنصر فملك تلمسان أعوام ستين وثلثمائة . وهلك في حروب صنهاجة وغلبوهم على بلادهم ، وانجلوا إلى المغرب الأقصى ودخلت تلمسان في عمالة صنهاجة إلى أن انقسمت دولتهم ، وافترق أمرهم . واستقلّ بإمارة زنّانة وولاية المغرب زيري بن عطية ، وطرده المنصور عن المغرب أعوام^(١) ، فصار إلى بلاد صنهاجة وأجلب عليها ، ونازل معاقلمهم وأمصارهم مثل تلمسان وهرارة^(٢) وتنس وأشير والمسيلة . ثم عقد المظفر بعد حين لابنه المغزّ بن زيري على أعمال المغرب سنة ست وتسعين وثلثمائة فاستعمل على تلمسان ابنه يعلى بن زيري واستقرت ولايتها في عقبه إلى أن انقرض أمرهم على يد لمتونة . وعقد يوسف بن تاشفين عليها لمحمد بن تينعمّر المسوفي وأخيه تاشفين من بعده ، واستحكمت الفتنة بينه وبين المنصور بن الناصر صاحب القلعة من ملوك بني حمّاد ، ونهض إلى تلمسان وأخذ بمخنقتها ، وكاد أن يغلب عليها كما ذكرنا ذلك كله في مواضعه .

(١) بياض بالاصل ولم نستطع معرفة هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة ثانية : وهدان .

(ولما غلب) عبد المؤمن لمتونة وقتل تاشفين بن علي بوهران خربها وخرب تلمسان بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها ، وذلك أعوام أربعين من المائة السادسة . ثم راجع رأيه فيها وندب الناس إلى عمرانها ، وجمع الأيدي على رم ما تثلم من أسوارها ، وعقد عليها لسليمان بن واندين من مشايخ هنتاة وآخر^(١) بين الموحدين بين هذا الحي من بني عبد الواد بما أبلى من طاعتهم وانحياشهم . ثم عقد عليها لابنه السيد أبي حفص ، ولم يزل آل عبد المؤمن بعد ذلك يستعملون عليها من قرابتهم وأهل بيتهم ويرجعون إليه أمر المغرب كله وزناته أجمع إهتماماً بأمرها واستعظماً لعملها .

وكان هؤلاء الأحياء من زناته بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو راشد غلبوا على ضواحي تلمسان والمغرب الأوسط وملكوها . وتقلبوا في بساطتها ، واحتازوا باقطاع الدولة الكثير من أرضها والطيب من بلادها والوافر للجباية من قبائلها ، فاذا خرجوا إلى مشاتهم بالصحراء خلفوا أتباعهم وحاشيتهم بالتلول لاعتماد أرضهم وازدراع فدنهم وجباية الخراج من رعاياهم . وكان بنو عبد الواد من ذلك فيها بين البطحاء وملوية ، ساحله وريفه وصحراءه . وصرف ولاية الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم بشأنها إلى تحصينها وتشيد أسوارها ، وحشد الناس إلى عمرانها والتناخي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها ، والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطة الدور . وكان من أعظمهم إهتماماً بذلك وأوسعهم فيه نظراً السيد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري ووليا سنة ست وخمسين وستمائة على عهد أبيه يوسف ابن عبد المؤمن . واتصلت أيام ولايته فيها ، فشيّد بناءها وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها ، ووليا من بعد السيد أبو الحسن ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن ، وتقبل فيها مذهبه .

(ولما كان) من أمر بني غانية وخروجهم من ميورقة سنة إحدى وثمانين ما قدّمناه وكبسوا بجاية فلكوها ، وتخطّوا إلى الجزائر ومليانة فغلبوا عليها ، تلافى السيد أبو الحسن أمره بانعام النظر في تشيد أسوارها والاستبلاغ في تحصينها وسدّ فروجها ، واعماق الحفائر نطاقاً عليها ، حتى صيرها من أعز معاقل المغرب وأحصن أمصاره ، وتقبل ولايتها هذا المذهب من بعده في المعتصم بها . (واتفق من الغرائب) . أن أخاه

(١) وفي نسخة ثانية : وآخى .

السيد أبا زيد هو الذي دفع لحرب بني غانية فكان لها في رقع الخرق والمدافعة عن الدولة آثار. وكان ابن غانية قد اجتمع إليه ذؤبان العرب من الهلالين بأفريقية ، وخالفهم زغبة إحدى بطونهم إلى الموحدين ، وتحيزوا إلى زناتة المغرب الأوسط ، وكان مفزعهم جميعاً ومرجع نقضهم وإبرامهم إلى العامل بتلمسان من السادة في مثواهم وحامي حقيقتهم . وكان ابن غانية كثيراً ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زناتة ويطرقها معه من ناعق الفتنة إلى أن خرب كثيراً من أمصارها مثل تاهرت وغيرها ، فأصبحت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ، وأمّ هؤلاء الأحياء من زناتة والمغرب الكافية لهم المهية في حجرها مهادنومهم لما خربت المدينتان اللتان كانتا من قبل قواعد في الدول السالفة والعصور الماضية ، وهما أرشكول بسيف البحر وتاهرت فيما بين الريف والصحراء من قبلة البطحاء وكان خراب هاتين المدينتين فيما خرب من أمصار المغرب الأوسط فتنة ابن غانية وباجلاب هؤلاء الأحياء من زناتة وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف والعيث والنهب ، وتخطف الناس من السابلة وتخرب العمران ومغالبتهم حاميتها من عساكر الموحدين ، مثل : قصر عجيسة وزرقة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجمعبات ، ولم يزل عمران تلمسان يترايد وخطتها تتسع الصروح بها بالآجر والفهر^(١) تعلق وتشاد إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها داراً لملكهم ، وكرسيّاً لسلطانهم ، فاخطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه ، فأصبحت أعظم أمصار المغرب . ورحل إليها الناس من القاصية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع ، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام . وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلفية . والله وارث الأرض ومن عليها

* (الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك والدولة بتلمسان وما إليها وكيف مهد الأمر لقومه وأصاره تراثاً لبنيه) *

كان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشدّ هذا الحيّ بأساً ، وأعظمهم في

(١) الفهر : حجر رقيق تسحق به الادوية ، وفي نسخة ثانية القرميد .

النفوس مهابةً وإجلالاً وأعرفهم بمصالح قبيله ، وأقوامهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة ، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده . وكان مرموقاً بعين التجلّة مؤملاً للأمر عند المشيخة وتعظمه من أمره عند الخاصّة ، ويفزع إليه في نوائبها العامّة . فلما ولي هذا الأمر بعد أخيه أبي عزة زكرا بن زيّان سنة ثلاث وثلاثين قام به أحسن قيام ، واضطلع بأعبائه وظهر على بني مطهر وبني راشد الخارجين على أخيه ، وأصارهم في جملته وتحت سلطانه . وأحسن السيرة في الرعيّة ، واستمال عشيرته وقومه وأحلافهم من زغبة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار ، واتخذ الآلة ورتّب الجنود والمسالح ، واستلحق العساكر من الروم والغزّ راحة وناشئة . وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتّاب ، وبعث في الأعمال ولبس شارة الملك والسلطان ، واقتعد الكرسي ومحا آثار الدولة المؤمّنية ، وعطلّ من الأمر والنهي دستها ، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلاّ الدعاء على منابره للخليفة بمراكش ، وتقلّد^(١) العهد من يده تأنيساً للكافة ومرضاة للأكفّاء من قومه . ووفد عليه لأول دولته ابن وضّاح إثر الموحدين ، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس ، فأثره وقرب مجلسه وأكرم نزله ، وأحلّه من الخلّة والشورى بمكان اصطفاه له . ووفد في جملته أبو بكر بن خطّاب المبايع لأخيه بمرسية ، وكان مرسلأً بليغاً ، وكاتباً مجيداً ، وشاعراً محسناً ، فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوّل وحفظ . ولم يزل يغمراسن محامياً عن غيله محارباً لعدوّه . وكانت له مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلهم آل أبي حفص مواطن في التمرس به ومنازلة بلده ، نحن ذاكروها كذلك . وبينه وبين أقتاله بني مرين قبل ملكهم المغرب وبعد ملكه وقائع متعدّدة . وله على زناة الشرف من توجين ومغراوة في فلّ جموعهم وانتساف بلادهم وتخريب أوطانهم أيام مذكورة وآثار معروفة ، نشير إلى جميعها إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ودخول

يغمراسن في دعوته) *

لما استقلّ يغمراسن بن زيّان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط ، وظفر بالسلطان وعلا

(١) وفي نسخة ثانية : وتناول .

كعبه على سائر أحياء زناته ، نفسوا عليه ما آتاه الله من العز ، وكرمه به من الملك ، فنبذوه العهد وشاقوه الطاعة ، وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة ، فشمّر لحربهم ونازلهم في ديارهم وأحجرهم في أمصارهم ومعتصماتهم من شواحق الجبال وتمنع الأمصار . وكانت له عليهم أيام مشهورة ووقائع معروفة . وكان متولي كبر هذه المشاقة عبد القوي بن عباس شيخ بني توجين أقاتلهم من بني يادين ، والعباس بن منديل بن عبد الرحمن وإخوته أمراء مغراوة . وكان المولى الأمير أبو زكريا بن أبي حفص منذ استقلّ بأمر أفريقية واقتطعها من الإيالة المؤمنية سنة خمس وعشرين وستائة كما ذكرناه متطاولاً إلى إحتياز المغرب والاستيلاء على كرسيّ الدعوة بمراكش ، وكان يرى أنّ بمظاهرة زناته له على شأنه يتمّ له ما يسمو إليه من ذلك ، فكان يداخل أمراء زناته فيرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحيان من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة . وكان يغمراسن منذ تقلّد طاعة بني عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لولّيتهم وحرباً على عدوّهم . وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البرّ والخلوص ، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة ، وعاوده الاتحاف بأنواع الألفاظ والهدايا عام سبع وثلاثين وستائة تقمنا لمسراته ، وميلاً إليه عن جانب أقتال بني مرين المحليين على المغرب والدولة . وأحفظ الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد صاحب أفريقية ما كان من اتصال يغمراسن بالرشيد ، وهو من جواره بالمحلّ القريب ، واستكره ذلك . وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القويّ بن عباس ، وولد منديل بن محمد صريخين على يغمراسن وسهّلوا له أمره وسوّلوا له الاستيلاء على تلمسان ، وجمع كلمة زناته واعتدّا ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك الموحدّين وانتظامه في أمره ، وسلّموا لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه ، وباباً للولوج على أهله ، فحركه املاؤهم وهزه إلى النعرة صريخهم ، وأهّبّ بالموحدّين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان ، واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في عمله من بني سلّيم ورياح بظعنهم فأهطعوا لداعيه ، ونهض سنة تسع وثلاثين وستائة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة ، وسرّح أمام حركته عبد القويّ بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد منْ بأوطانهم من أحياء زناته ، وأتباعهم وذوئبان قبائلهم ، وأحياء زغبة أحلافهم من العرب ، وضرب لهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم . ولما نزل زاغر قبلة تيطري منتهى مجالات رياح وبني سلّيم في المغرب ، وافته هنالك أحياء زغبة

من بني عامر وسويد ، وارتحلوا معه حتى نازل تلمسان ، فجمع عساكر الموحدين وحشد زناتة وظعن المغرب ، بعد أن قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة والأعدار والبراءة والدعاء والطاعة فرجعهم بالخيبة .

(ولما حلت) عساكر الموحدين بساحة البلد وبرز يغمراسن وجموعه نصحتهم ناشبة السلطان بالنبل ، فانكشفوا ولاذوا بالجدران ، وعجزوا عن حماية الأسوار ، فاستمكنت المقاتلة من الصعود . ورأى يغمراسن أن قد أحيط بالبلد فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتقاً على ذويه وخاصته ، واعترضه عساكر الموحدين فصمد نحوهم وجندل بعض أبطالهم ، فافرجوا له ، ولحق بالصحراء . وانسلت الجيوش إلى البلد من كل حدب ، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان ، واكتساح الأموال . ولما تجلّى عشاء تلك الهبة وحسر تيار الصدمة ، وخمدت ناز الحرب ، راجع الموحدون بصائرهم ، وأمن الأمير نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط ، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة المؤمن والمدافعة عنها . واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرأ أمراء زناتة منه ضعفاً عن مقاومة يغمراسن ، وعلماً بأنه الفحل الذي لا يجده أنفه ، ولا يطرق غيبه ، ولا يصد عن فريسته ، وسرح يغمراسن الغارات في نواحي العسكر فاخطفوا الناس من حوله ، وأطلوا من المراقب عليه . وخاطب يغمراسن خلال ذلك الأمير أبا زكريا راغباً في القيام بدعوته بتلمسان ، فراجع بالاسعاف واتصال اليد على صاحب مراکش ، وسوّغه على ذلك جباية اقتطعها له ، وأطلق أيدي العمّال ليغمراسن على جبايتها . ووفدت أمّه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم وصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها ومنقلبيها ، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله وفي أثناء طريقه وسّوس إليه بعض الحاشية باستبداد يغمراسن عليه ، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة ، فأجابهم وقلد عبد القوي بن عطية التوجيني ، والعبّاس بن منديل المغراوي ، وعلي بن منصور الملكيشي^(١) على قومهم ووطنهم ، وعهد إليهم بذلك ، وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريتهم ، فاتخذوها بحضرته وبمشهد من ملك الموحدين ، وأقاموا مراسمها ببابه ، وأغذّ السير لتونس قرير العين بامتداد ملكه ،

(١) وفي نسخة ثانية : الملكيشي .

وبلوغ وطره ، والإشراف على أذعان المغرب لطاعته وانقياده وحكمه ، وإدالة عبد المؤمن فيه بدعوته . ودخل يغمراسن بن زيان ووفى للأمير أبي زكريا بعهدده ، وأقام بها الدعوة له على سائر منابره ، وصرف إلى مشاقبه من زناته وجوه عزائمه ، فأذاق عبد القويّ وأولاد عباس وأولاد مندبل نكال الحرب ، وسامهم سوء العذاب والفتنة ، وجاس خلال ديارهم وتوغّل في بلادهم وغلبهم على الكثير من ممالكهم ، وشردّ عن الأمصار والقواعد ولاتهم وأشياعهم ودعاتهم ، ورفع عن الرعيّة ما نالهم من عدوانهم وسوء ملكتهم وثقيل عسفهم وجورهم . ولم يزل على تلك الحال إلى أن كان من حركة صاحب مراکش بسبب أخذ يغمراسن بالدعوة الحفصيّة ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نهوض السعيد صاحب مراکش ومنازلته
يغمراسن بجبل تامزردكت ومهلكه هنالك) *

لما انقضت دولة بني عبد المؤمن . وانترى الثوار والدعاة بقاصية أعمالهم . وقطعوها عن ممالكهم ، فاقتطع ابن هود ما وراء البحر من جزيرة الأندلس واستبدّ بها ، وورّى بالدعاء للمستنصر بن الظاهر خليفة بغداد من العباسيين لعهدده ، ودعا الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بأفريقية لنفسه ، وسما إلى جمع كلمة زناته والتغلب على كرسي الدعوة بمراكش ، فنازل تلمسان وغلب سنة أربعين وستائة وقارن ذلك ولاية السعيد علي بن المأمون إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكان شهماً حازماً يقظاً بعيد الهمة ، فنظر في أعطاف دولته ، وفاوض الملاء في تثقيف أطرافها وتقويم مائلها ، وأثار حفائظهم ما وقع من بني مرين في ضواحي المغرب . ثم في أمصاره وأستيلائهم على مكناسة ، وإقامتهم الدعوة الحفصيّة فيها كما نذكره . فجهّز الملوك والعساكر وأزاح عليهم ، واستنفر عرب المغرب وما يليه^(١) ، واحتشد كافة المصامدة . ونهض من مراکش آخر سنة خمس وأربعين وستائة يريد القاصية ، ويشردّ بني مرين عن الأمصار الدانية . واعترض العساكر والحشود بوادي بهت ،

(١) وفي نسخة ثانية : وقبائله .

وأغذ السير إلى تازي ، فوصلته هناك طاعة بني مرين كما نذكره . ونفر معه عسكرٌ منهم ، ونهض إلى تلمسان وما وراءها ونجا يغمراسن بن زيّان وبنو عبد الواد بأهلهم وأولادهم إلى قلعة تامز ردكت قبله وجدة ، فاعتصموا بها .

ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤدياً للطاعة ثابتاً في مذاهب الخدمة ، ومتولياً من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعو إليه ويصرفه في سبيله ، ومعتذراً عن وصول يغمراسن ، فلجّ الخليفة في شأنه ولم يعذره . وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه ، وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الملأ^(١) ورجعوا عبدونا لإستقدامه ، فتناقل خشية على نفسه . واعتمد السعيد الجبل في عساكره وأناخ بها في ساحة^(٢) وأخذ بمخنتهم ثلاثاً ، ولرابعها ركب مهجراً على حين غفلة من الناس في قافلة ليتطوف على المعتصم ، ويتقرى مكامنه ، فبصر به فارس من القوم يعرف بيوسف بن عبد المؤمن الشيطان ، كان أسفل الجبل للاحتراس وقريباً منه يغمراسن بن زيّان وابن عمّه يعقوب بن جابر فانقضوا عليه من بعض الشعاب ، وطعنه يوسف فأكبه عن فرسه ، وقتل يعقوب بن جابر وزيره يحيى بن عطوش . ثم استلحموا لوقتهم مواليه ناصحاً من العلوج وعنبراً من الخصيان ، وقائد جند النصارى أخو القمط ، ووليداً يافعاً من ولد السعيد .

(وينقال) إنما كان ذلك يوم عبى العساكر وصعد الجبل للقتال ، وتقدّم أمام الناس فأقتطعه بعض الشعاب المتوغرة في طريقه ، فتوائب به هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه ، وذلك في صفر سنة ست وأربعين وستائة . ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر فأجفلوا ، وبادر يغمراسن إلى السعيد وهو صريع بالأرض فنزل إليه وحيّاه وفدّاه وأقسم له على البراءة من هلكته ، والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فاض وانتهب المعسكر بجملته ، وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخبية والغازات . واختصّ يغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه ، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه ، منها مصحف عثمان بن عفّان رضي الله عنه يزعمون أنه أخذ المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته ، وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد

(١) وفي نسخة ثانية : الجلة .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة اسم هذه الساحة في المراجع التي بين أيدينا .

رحمن الداخل ، ثم صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس ، ثم إلى خزائن الموحدين من خزائن لمتونة ، وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيّان حين غلبهم إياهم على تلمسان ، واقتحامها عنوة على ملكها منهم عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن فريسة السلطان أبي الحسن ، مقتحمها غالباً سنة سبع وثلاثين وسبعمئة كما نذكره . ومنها العقد المنتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر ، المشتمل على مئين متعدّدة من حصائه يسمى بالثعبان ، و صار في خزائن بني مرين بعد ذلك الغلاب فيما اشتملوا عليه من ذخيرتهم إلى أن تلف في البحر عند غزو الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمرسى بجاية مرجعه من تونس حسبما نذكره بعد إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه مما يستخلصه الملوك لخزائهم ويعنون به من ذخائرهم . ولما سكنت النفرة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة ، فجهّز ورفع على الأعواد إلى مدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين عفا الله عنه . ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاغزونت الشهيرة الذكر ، بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع ، وأصبحهنّ جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمهنّ وألحقوهنّ بدرعة من تخوم طاعتهم ، فكان له بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعى حقوق الملك ورجع إلى تلمسان . وقد خضدت شوكة بني عبد المؤمن وأمّهم على سلطانه والله أعلم .

* (الخبر عما كان بينه وبين بني مرين من الاحداث

سائر أيامه) *

قد ذكرنا ما كان بين هذين الحيين من المناغاة والمنافسة منذ الآماد المتطاولة بما كانت مجالات الفريقين بالصحراء متجاورة ، وكان التخم بين الفريقين واديا إلى فيكيك . وكان بنو عبد المؤمن عند فشل الدولة وتغلّب بني مرين على ضاحية المغرب يستجيشون بني عبد الواد مع عساكر الموحدين على بني مرين فيجوسون خلال المغرب ما بين تازى إلى فاس إلى القصر في سبيل المظاهرة للموحدين والطاعة لهم . وسندكر أخبار بني مرين كثيراً من ذلك . فلما هلك السعيد وأسف بنو مرين إلى ملك المغرب

، بيغمراسن أمل في مزاحمتهم . وكان أهل فاس بعد تغلب أبو يحيى بن عبد الحق عليهم قد نعموا على قومه سوء السيرة ، وتمشّت رجالاتهم في اللياذ بطاعة الخليفة المرتضى ففعلوا فعلتهم في الفتك بعامل أبي يحيى بن عبد الحق ، والرجوع إلى طاعة الخليفة . وأعدّ أبو يحيى المسير إلى منازلهم ، فحاصرهم شهوراً وفي أثناء هذا الحصار اتصلت المخاطبة بين الخليفة المرتضى ويغمراسن بن زيان في الأخذ بحجزة أبي يحيى بن عبد الحق بفاس ، فأجاب يغمراسن داعيه ، واستنفر لها إخوانه من زناتة فنفر معه عبد القوي بن عطية بقومه من توجين وكافة القبائل من زناتة والمغرب ، ونهضوا جميعاً إلى المغرب . وبلغ خبرهم إلى أبي يحيى بن عبد الحق بمكانه من حصار فاس ، فجهز كتابه عليها ونهض للقائهم في بقية العساكر ، والتقى الجمعان بایسلي من ناحية وجدة ، وكانت هناك الواقعة المشهورة بذلك المكان انكشف فيها جموع يغمراسن ، وهلك منهم يغمراسن وغيره ، ورجعوا في فلهم إلى تلمسان ، واتصلت بعد ذلك بينهم الحروب والفتنات سائر أيامه ، وربما تخللتها المهادنات قليلاً . وكان بينه وبين يعقوب بن عبد الحق ذمة مواصلة أوجب له رعيها ، وكثيراً ما كان يثني عليه أخوه أبو يحيى من أجلها . ونهض أبو يحيى بن عبد الحق سنة خمس وخمسين وستمئة إلى قتاله وبرز إليه يغمراسن ، وتزاحف جموعهم بأبي سليط ، فانهزم يغمراسن واعترم أبو يحيى على اتباعه ، فردّه أخوه يعقوب بن عبد الحق . (ولما) قفل إلى المغرب صمد يغمراسن إلى سجلماسة ، لمداخلة كانت بينه وبين المنبات من عرب المعقل ، أهل مجالاتها وذئاب فلاتها ، حدثته نفسه باهتبال الغرة في سجلماسة من أجلها ، وكانت قد صارت إلى إيالة أبي يحيى بن عبد الحق منذ ثلاث كما ذكرناه في أخبارهم . ونذر بذلك أبو يحيى ، فسابق إليها يغمراسن بمن حضره من قومه فثقفها وسدّ فرجها . ووصل يغمراسن عقيب ذلك بعساكره ، وأناح بها وامتنعت عليه فأفرج عنها قافلاً إلى تلمسان . وهلك أبو يحيى بن عبد الحق إثر ذلك منقلبه إلى فاس ، فاستنفر يغمراسن أوليائه من زناتة وأحياء زغبة ، ونهض إلى المغرب سنة سبع وخمسين وستمئة وانتهى إلى كلدامان . ولقيه يعقوب بن عبد الحق في قومه فأوقع به . وولّى يغمراسن منهزماً ، ومرّ في طريقه بتافرسيت فانتسفها وعاث في نواحيها . ثم تداعوا للسلم ووضع أوزار الحرب ، وبعث يعقوب بن عبد الحق ابنه أبا مالك بذلك ، فتولّى عقده وإبرامه . ثم كان التقاؤهما سنة تسع وخمسين وستمئة

بواجر^(١) قبالة بني يزناسن ، واستحكم عقد الوفاق بينها بذلك ، واتصلت المهادنة إلى أن كان بينهما ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن كائنة النصارى وإيقاع يغمراسن بهم) *

كان يغمراسن بن زيان بعد مهلك السعيد وانفضاض عساكر الموحدين قد استخدم طائفة من جند النصارى الذين كانوا في جملته مستكثراً بهم معتداً بمكانهم مباهياً بهم في المواقف والمشاهد . وناولهم طرفاً من حبل عنايته ، فاعتزوا به واستفحل أمرهم بتلمسان حتى إذا كان سنة إثنتين وخمسين وستائة بعد مرجعه من بلاد توجين في إحدى حركاته إليها ، كانت قصة غدرهم الشنعاء التي أحسن الله في دفاعها عن المسلمين . وذلك أنه ركب في بعض أيامه لاعتراض الجنود بباب القرمادين^(٢) من أبواب تلمسان . وبينما هو واقف في موكبه عند قائلة الضحا عدا عليه قائدهم ، وبادر النصارى إلى محمد بن زيان أخي يغمراسن فقتلوه ، وأشار له بالنجوى فبرز من الصف لاسراره وأمكنه من أذنه ، فتنكبته النصراني^(٣) وقد خالطه روعة أحس منها يغمراسن بمكره فأنحاص منه ، وركض النصراني أمامه يطلب النجاة ، وتبين الغدر ، وثار بهم الدهماء من الحامية والرعايا ، فأحيط بهم من كل جانب وتناولتهم أيدي الهلاك بكل مهلك قعصاً بالرماح وهبلاً بالسيوف وشدخاً بالعصي والحجارة حتى استلحموا ، وكان يوماً مشهوداً . ولم يستخدم من بعدها جند النصارى بتلمسان حذراً من غائلتهم . ويقال إن محمد بن زيان هو الذي داخل القائد في الفتك بأخيه يغمراسن ، وأنه إنما قتله عندما لم يتم لهم الأمر تبرئاً من مداخلته ، فلم يمهل غاشي الهبة للتثبت في شأنها والله أعلم .

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بواجر .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : المرمادين وفي نسخة ثانية القرمادين وأخرى : الترمادين .

(٣) الضمير هنا يعود إلى قائدهم .

* (الخبر عن تغلب يغمراسن على سجلماسة ثم مصيرها بعد

الى إيالة بني مرين) *

كان عرب المعقل منذ دخول العرب الهلاليين إلى صحراء المغرب الأقصى أحلافاً وشيعاً لزناة ، وأكثر انحياسهم إلى بني مرين إلا ذوي عبيدالله منهم لما كانت مجالاتهم لصق مجالات بني عبد الواد ومشاركة لها . ولما استفحل شأن بني عبد الواد بين يدي ملكهم زاحموهم عنها بالمناكب ، ونبذوا إليهم العهد واستخلصوا دونهم المنبات من ذوي منصور أقتلهم ، فكانوا حلفاء وشيعة ليغمراسن ولقومه . وكانت سجلماسة في مجالاتهم ومنقلب رحلتهم ، وكانت قد صارت إلى ملك بني مرين ، ثم استبد بها القطراني ، ثم ثاروا به ورجعوا إلى طاعة المرتضى . وتولى كبر ذلك علي بن عمر كما ذكرناه في أخبار بني مرين . ثم تغلب المنبات على سجلماسة وقتلوا عاملها علي بن عمر سنة اثنتين وستين وستمائة وآثروا يغمراسن بملكها ، ودخل أهل البلد في القيام بدعوته وحملوهم عليها . فجاءوا بيغمراسن فنهض إليها في قومه ، وأمكنوه من قيادها فضبطها ، وعقد عليها لولده يحيى . وأنزل معه ابن أخته حنينة ، واسمه عبد الملك ابن محمد بن علي بن قاسم بن درم^(١) من ولد محمد ، وأنزل معها يغمراسن بن حمادة فيمن معهم من عشائريهم وحشمهم فأقام ابنه يحيى أميراً عليها إلى أن غلب يعقوب ابن عبد الحق الموحد بن علي دار خلافتهم . وإطاعته طنجة وعامة بلاد المغرب ، فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من طاعة يغمراسن وزحف إليها في العساكر والحشود من زناة والعرب والبربر ، ونصب عليها آلات الحصار إلى أن سقط جانب من سورها فاقتحموها منه عنوة في صفر سنة ثلاث وسبعين وستمائة واستباحوها وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمادة ومن معهم من بني عبد الواد أمراء المنبات ، وصارت إلى طاعة بني مرين آخر الأيام : والملك بيد الله يؤتبه من يشاء من عباده .

(١) وفي نسخة ثانية : درع .

* (الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبد الحق) *

قد ذكرنا ما كان من شأن بني عبد المؤمن عند فشل دولتهم ، واستطالة بني مرين عليهم في الاستظهار ببني عبد الواد واتصال اليد بهم في الأخذ بحجزة عدوهم من بني مرين عليهم . ولما هلك المرتضى وولى أبو دبوس سنة خمس وستين وستائة وحمي وطيس فنتته مع يعقوب بن عبد الحق ، فراسل يغمراسن في مدافعته ، وأكد العهد وأسنى الهدية ، وأجلب إليه يغمراسن وشن الغارات على ثغور المغرب وأضررها ناراً . وكان يعقوب بن عبد الحق محاصراً لمراكش فأفرج عنها ورجع إلى المغرب . واحتشد جموعه ، ونهض إلى لقائه وتراحف الفريقان بوادي تلاغ ، وقد استكمل كل تعبته ، وكانت الواقعة على يغمراسن استبيحت فيها حرمة واستلحم قومه ، وهلك ابنه أبو حفص عمر أعزّ ولده عليه في أتراب له من عشيرته مثل : ابن أخته عبد الملك بن حنينة ، وابن يحيى بن مكى ، وعمر بن ابراهيم بن هشام ، ورجع عنه يعقوب بن عبد الحق إلى مراكش حتى انقضى شأنه في التغلب عليها ، ومعى أثر بني عبد المؤمن منها ، ونزع لمحاربة بني عبد الواد وحشد كافة أهل المغرب من المصامدة والجموع والقبائل ، ونهض إلى بني عبد الواد سنة سبعين وستائة فبرز إليه يغمراسن في قومه وأوليائه من مغراوة والعرب ، وتراحفوا بايسلى من نواحي وجدة ، فكانت الدبرة على يغمراسن انكشفت جموعه ، وقتل ابنه فارس ، ونجا بأهله بعد أن أضرم معسكره ناراً تفادياً من معرة اكتساحه ، ونجا إلى تلمسان فأنحجر بها ، وهدم يعقوب بن عبد الحق وجدة ، ثم نازله بتلمسان ، واجتمع إليه هنالك بنو توجين مع أميرهم محمد ابن عبد القوي ، وصل يده بيد السلطان على يغمراسن وقومه ، وحاصروا تلمسان أياماً فامتنعت عليهم ، وأفرجوا عنها . وولى كل إلى عمله ومكان ملكه حسبما نذكره في أخبارهم . وانعقدت بينهما المهادنة من بعد ذلك وفرغ يعقوب بن عبد الحق للجهاد ، ويغمراسن لمغالبة توجين ومغراوة على بلادهم إلى أن كان من شأنهم ما نذكره والله أعلم .

* (الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وما
كان بينهم من الأحداث) *

كانت مغراوة في مواطنهم الأولى من نواحي شلف قد سالمتهم الدول عند تلاشي ملكهم ، وساموهم الجباية فرضوا بها مثل : بني ورسفين وبني يلنث وبني ورتزمير ، وكان فيهم سلطان لبني مندبل بن عبد الرحمن من أعقاب آل خزر ملوكهم الأولى منذ عهد الفتح وما بعده على ما ذكرناه في خبرهم . فلما انثر عقد الخلافة بمراكش وتشظت عصاها وكثر الثوار والخوارج بالجهات ، استقل مندبل بن عبد الرحمن وبنوه بتلك الناحية وملكوا مليانة وتنس وشرشال وما إليها ، وتناولوا إلى متيعة فتغلبوا عليها . ثم مدّوا أيديهم إلى جبل وانشريش وما إليه ، فتناولوا الكثير من بلاده ثم أزاحهم عنها بنو عطية الحيو وقومه من بني توجين المجاورون لهم في مواطنهم بأعالي شلف شرقي أرض السوس^(١) . وكان ذلك لأول دخول أحياء زناتة الناجعة بأرض القبلة إلى التلول ، فتغلب بنو عبد الواد على نواحي تلمسان إلى وادي صا . وتغلب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلد المريّة إلى جبل وانشريس ، إلى مرات الجعبات ، وصار التخيم لملك بني عبد الواد سبك والبطحاء ، فمن قبلها مواطن بني توجين ومن شرقها مواطن مغراوة . وكانت الفتنة بين بني عبد الواد وبين هذين الحيين من أول دخولهم إلى التلول .

(وكان المولى) الأمير أبو زكريا بن أبي حفص يستظهر بهذين الحيين على بني عبد الواد ويراغمهم بهم ، حتى كان من فتح تلمسان ما قدّمناه ، وأبس جميعهم شارة الملك على ما ذكرناه ونذكره في أخبارهم ، فزاحموا يغمراسن بعدها بالمناكب وصرف هو إليهم وجه النعمة والحروب . ولم يزل الشأن ذلك حتى انقرض ملك هذين الحيين لعهد ابنه عثمان بن يغمراسن وعلى يده ، ثم على يد بني مرين من بعدهم كما يأتي ذكره .

(ولما رجع) يغمراسن بن زيّان من لقاء بني مرين بايسلي من نواحي وجدّة التي كانت سنة سبع وأربعين وستائة ، وكان معه فيها عبد القوي بن عطية بقومه من بني

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : السرسو .

توجين ، وهلك مرجعه منها ، أنفذ^(١) يغمراسن العهد لابنه محمد الأمير بعده ، وزحف إلى بلاده فجاس خلالها ، ونازل حصونها فامتنت عليه . وأحسن محمد بن عبد القوي في دفاعه ، ثم زحف ثانية سنة خمسين وستائة إليهم فنازل حصن تافر كينت من حصونهم . وكان به علي بن أبي زيّان حافد محمد بن عبد القوي فامتنع به في طائفة من قومه . ورحل يغمراسن كظيماً ، ولم يزل يغمراسن بعدها يثير الغارات على بلادهم ، ويجمع الكتائب على حصونهم . وكان بتافر كينت صنيعه من صنائع بني عبد القوي ونسبه في صنهاجة أهل ضاحية بجاية ، اختصّ بهذا الحصن ورسخت قدمه فيه ، واعتزّ بكثرة ماله وولده فأحسن الدفاع عنه ، وكان له مع يغمراسن في الامتناع عليه أخبار مذكورة حتى سطا به بنو محمد بن عبد القوي حين شرهوا إلى نعمته ، وأنفوا من استبداده فأتلفوا نفسه وتخطفوا نعمته ، فكان حتف ذلك الحصن في حتفه كما يأتي ذكره .

(وعند) ما شبت نار الفتنة بين يغمراسن ومحمد بن عبد القوي وصل محمد يده يعقوب بن عبد الحق . فلما نازل يعقوب تلمسان سنة سبعين وستائة بعد أن هدم وجدة ، وهزم يغمراسن بايسلي ، جاءه محمد بن عبد القوي بقومه من بني توجين ، وأقام معه على حصارها ورحلوا بعد الامتناع عليهم ، فرجع محمد إلى مكانه . ثم عاود يعقوب بن عبد الحق منازلة تلمسان سنة ثمانين وستائة بعد إيقاعه بيغمراسن في خرزوزة ، فلقبه محمد بن عبد القوي بالقصبات واتصلت أيديهم على تخريب بلاد يغمراسن ملياً ، ونازلوا تلمسان أياماً ثم افترقوا ورجع كل إلى بلده .

(ولما) خلص يغمراسن بن زيّان من حصاره زحف إلى بلادهم وأوطأ عسكره أرضهم ، فغلب على الضاحية وخرّب عمرانها إلى أن تملكها بعده ابنه عثمان كما نذكره .

(وأما) خبره مع مغراوة فكان عماد رأيه فيهم التغريب^(٢) بين بني منديل بن عبد الرحمن للمنافسة التي كانت بينهم في رياسة قومهم . ولما رجع من واقعة تلاغ سنة ست وستين وستائة وهي الواقعة التي هلك فيها ولده عمر زحف بعدها إلى بلاد مغراوة ، فتوغّل فيها وتجاوزها إلى من وراءهم من مليكش والثعالبة ، وأمكته عمر

(١) وفي نسخة ثانية : فنبذ .

(٢) وفي نسخة ثانية : التضريب .

من مليانة سنة ثمان وستين وستائة على شرط المؤازرة ، والمظاهرة على إخوته ، فملكها يغمراسن يومئذ وصار الكثير من مغراوة إلى ولايته ، وزحفوا معه إلى المغرب سنة سبعين وستائة ثم زحف بعدها إلى بلادهم سنة اثنتين وسبعين وستائة فتجافى له ثابت ابن مندبل عن تنس بعد أن أثنى في بلادهم ورجع عنها ، فاسترجعها ثابت ، ثم نزل له عنها ثانياً سنة إحدى وثمانين وستائة بين يدي مهلكه عندما تم له الغلب عليهم والإثخان في بلادهم إلى أن كان الاستيلاء عليها لابنه عثمان على ما ذكره إن شاء الله .

* (الخبر عن انتزاع الزعيم بن مكن ببلد مستغانم) *

كان بنو مكن هؤلاء من علية القرابة من بني زيان يشاركونهم في نسب محمد بن زكراة ابن تيدوكس^(١) بن طاع الله ، وكان لمحمد هذا أربعة من الولد كبيرهم يوسف ومن ولده جابر بن يوسف أول ملوكهم وثابت بن محمد ومن ولده زيان بن ثابت أبو الملوك من بني عبد الواد ، ودرع بن محمد ومن ولده عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم ابن درع المشتهر بأمه حنينة أخت يغمراسن بن زيان ومكن بن محمد . وكان له من الولد يحيى وعمرس ، وكان من ولد يحيى الزعيم وعلي ، وكان يغمراسن بن زيان كثيراً ما يستعمل قرابته في الممالك ويوليهم على العمالات ، وكان قد استوحش من يحيى بن مكن وابنه الزعيم وغربهما إلى الأندلس ، فأجازا من هنالك إلى يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستائة ولقياه بطنجة في إحدى حركات جهاده . وزحف يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان عامئذ وهما في جملته فأدركتها النغرة على قومها وآثرا مفارقة السلطان إليهم ، فأذن لهم في الانطلاق ولحقا بيغمراسن بن زيان حتى إذا كانت الواقعة عليه بخرزوزة سنة ثمانين كما قدّمناه ، وزحف بعدها إلى بلاد مغراوة وتجافى له ثابت بن مندبل عن مليانة وانكفّ راجعاً إلى تلمسان ، استعمل على ثغر مستغانم الزعيم بن يحيى بن مكن . فلما وصل إلى تلمسان انتقض عليه . ودعا إلى الخلاف ومالاً عدوه من مغراوة على المظاهرة عليه ، فصمد إليه يغمراسن وحجزه بها حتى لاذ منه بالسلم على شرط الإجازة إلى العدو ، فعقد له وأجازه . ثم أثره أباه

(١) وفي نسخة أخرى : زكدان بن تيدوكس وفي شجرة النسب تيدوكس وكذلك في النسخة الباريسية .

يحيى واستقر بالأندلس إلى أن هلك يحيى سنة اثنتين وتسعين وستائة ووفد الزعيم بعد ذلك على يوسف بن يعقوب وسخطه لبعض النزعات ، فاعتقله وفر من محبسه . ولم يزل الاغتراب مطوحاً به إلى أن هلك والبقاء لله وحده . ونشأ ابنه الناصر بالأندلس فكانت مثواه وموقف جهاده إلى أن هلك .

(وأماً) أخوه عليّ بن يحيى فأقام بتلمسان وكان من ولده داود بن علي كبير مشيخة بني عبد الواد صاحب شورا هم وكان منهم أيضاً ابراهيم بن عليّ عقد له أبو حمو الأوسط على ابنته ، فكان منها ولد ذكر ، وكان لداود ابن اسمه يحيى بن داود استعمله أبو سعيد بن عبد الرحمن في دولتهم الثانية على وزارته فكان من شأنه ما نذكره في أخبارهم والأمر لله .

* (الخبر عن شأن يغمراسن في معاقده مع ابن الأحمر والطاغية على فتنة يعقوب بن عبد الحق والاختد بحجزته) *

كان يعقوب بن عبد الحق لما أجاز إلى الجهاد وأوقع بالعدو وخرب حصونهم ، ونازل أشبيلية وقرطبة ، وزلزل قواعد كفرهم . ثم أجاز ثانية ، وتوغّل في دار الحرب وأثنى فيها ، وتخلّى له ابن اشقيلولة عن مالقة فملكها . وكان سلطان الأندلس يومئذ الأمير محمد المدعو بالفقيه ثاني ملوك بني الأحمر ملكهم ، هو الذي استدعى يعقوب بن عبد الحق للجهاد بما عهد له أبو الشيخ بذلك . فلما استفحل أمر يعقوب بالأندلس وتعاقب الثوار إلى اللياذ به خشيه ابن الأحمر على نفسه ، وتوقع منه مثل فعل يوسف بن تاشفين بابن عبّاد ، فاعتمل في أسباب الخلاص مما توهم وداخل الطاغية في اتصال اليد والمظاهرة عليه ، وكانت عالقة لعمر يحيى بن علي^(١) ، استعمله عليها يعقوب بن عبد الحق حين ملكها من يد أشقيلولة ، فاستأله ابن الأحمر وخاطبه مقارنة وعداً وأداله بشلوبانية من مالقة طعمة خالصة له فتخلّى عن مالقة إليها . وأرسل الطاغية أساطيله في البحر لمنع الزقاق من إجازة السلطان وعساكره ، وراسلوا يغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجزه يعقوب وشنّ الغارات على ثغوره ليكون

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : بن محلي .

ذلك شاغلاً له عنهم . فبادر يغمراسن باجابتهم وترددت الرسل إليه من الطاغية ومنه إلى الطاغية كما نذكره . وبث السرايا والبعوث في نواحي المغرب ، فشغل يعقوب عن شأن الجهاد حتى لقد سأله المهادنة وأن يفرغ لجهاد العدو فأبى عليه . وكان ذلك مما دعا يعقوب إلى الصمود إليه ومواقفته بخرزوزة كما ذكرناه . ولم يزل شأنهم ذلك مع يعقوب بن عبد الحق وأيديهم متصلة عليه من كل جهة ، وهو ينتهز الفرص في كل واحد منهم متى أمكنه حتى هلك وهلكوا . والله وارث الأرض ومن عليها سبحانه .

* (الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني أبي حفص الذي كان يقيم بتلمسان دعوتهم ويأخذ قومه بطاعتهم) *

كان زناتة يدينون بطاعة خلفاء الموحدين من بني عبد المؤمن أيام كونهم بالقفار ، وبعد دخولهم إلى التلول . فلما فشل أمر بني عبد المؤمن ودعا الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بأفريقية لنفسه ، ونصب كرسي الخلاف للموحدين بتونس انصرفت إليه الوجوه من سائر الآفاق بالعدوتين ، وأملوه الكرة ، وأوفد زناتة عليه رسلهم من كل حي بالطاعة ، ولاذ مغراوة وبنو توجين بظل دعوته ودخلوا في طاعته ، واستنهضوه لتلمسان ، فنهض إليها وافتتحها سنة أربعين وستائة ورجع إليها يغمراسن واستعمله عليها وعلى سائر ممالكها ، فلم يزل مقيماً لدعوته واتبع أثره بنو مرين في إقامة الدعوة له فما غلبوا عليه من بلاد المغرب ، وبعثوا إليه بيعة مكناسة وتازى والقصر كما نذكره في أخبارهم إلى ما دانوا به ولابنه المستنصر من بعده من خطاب التمويل والإشارة بالطاعة والانقياد حتى غلبوا على مراکش ، وخطبوا باسم المستنصر على منابرها حيناً من الدهر . ثم تبين لهم بعد تناول تلك القاصية عليه ، فعطلوا منابرهم من أسماء أولئك وأقطعوهم جانب الوداد والموالاة . ثم سمو إلى اللقب والتفنن في الشارة الملوكية كما تقتضيه طبيعة الدول ، وأما يغمراسن وبنوه فلم يزالوا آخذين بدعوتهم واحداً بعد واحد متجافين عن اللقب أدباً معهم ، مجددين البيعة لكل من يتجدد قيامه بالخلافة ، منهم يوفدون بها كبار أبنائهم وأولى الرأي من قومهم ولم يزل الشأن ذلك . ولما هلك الأمير أبو زكريا وقام ابنه محمد المستنصر بالأمر من بعده ، وخرج عليه أخوه

الأمير أبو إسحق في أحياء الزواودة من رياح ، ثم غلبهم المستنصر جميعاً . ولحق
الأمير أبو إسحق بتلمسان في أهله فأكرم يغمراسن نزلهم وأجاز إلى الأندلس للمرابطة
بها ، والجهاد حتى إذا هلك المستنصر سنة سبع وسبعين وستائة واتصل به خبر مهلكه
ورأى انه أحق بالأمر فأجاز البحر من حينه ونزل بمرسى هني^(١) سنة سبع وسبعين
وستائة ولقاه يغمراسن مبرّة وتوقيراً ، واحتفل لقدمه وأركب الناس لتلقيه ، وأتاه
ببيعته على عادته مع سلفه ، ووعدته النصره على عدوه والمؤازرة على أمره . وأصهر إليه
يغمراسن في إحدى بناته المقصود *التي* أيام الخلافة بابنه عثمان ولي عهده . وأسعفه
وأجمل في ذلك وعده . وانتقض محمد بن أبي هلال عامل بجاية على الواثق ،
وخلع طاعته ودعا للأمير أبي إسحق واستحثه للقدوم ، فأغذّ إليه السير من تلمسان
وكان من شأنه ما قدّمناه في أخباره فلما كانت سنة إحدى وثمانين وستائة وزحف
يغمراسن إلى بلاد مغراوة ، وغلبهم على الضواحي والأمصار ، بعث من هنالك ابنه
ابراهيم وتسميه زناته برهوم ، ويكنى أبا عامر أوفده في رجال من قومه على الخليفة
أبي إسحق لإحكام الصهر بينهما ، فترلوا منه على خير نزل من اسناء الجراية ،
ومضاعفة الكرامة والمبرّة ، وظهر من آثاره في حروب ابن أبي عمارة ما مدّ الأعناق
إليه وقصّر الشيم الزناتية على بيته . ثم انقلب آخراً بظيعيته محبوباً محبوباً ، وابتنى بها
عثمان حين وصولها وأصبحت عقيلة قصره ، فكان ذلك مفخراً لدولته وذكرأ له
ولقومه . ولحق الأمير أبو زكريا ابن الأمير أبي إسحق بتلمسان بعد خلوصه من مهلك
قومه في واقعة الدعيّ ابن أبي عمارة عليهم بمرما جنة سنة اثنتين وثمانين وستائة فترل
من عثمان بن يغمراسن صهره خير نزل برأ واحتفاء وتكريماً وملاطفة . وسرّبت إليه
أخته من القصر أنواع التحف والانس ، ولحق به أولياؤهم من صنائع دولتهم وكبيرهم
أبو الحسن محمد بن الفقيه المحدث أبي بكر بن سيّد الناس البعمرّيّ ، فتفيؤا من
كرامة الدولة بهم ظلاً وارفاً واستنهضوه إلى ثراث ملكه . وفاوض أبا مثنوا عثمان بن
يغمراسن في ذلك ، فنكره لما كان قد أخذه بدعوة الحضرة . أوفد عليه رجال دولته
بالببيعة على العادة في ذلك ، فحدّث الأمير أبو زكريا نفسه بالفرار عنه . ولحق بداود
ابن هلال بن عطاف أمير البدو من بني عامر إحدى بطون زغبة ، فأجاره وأبلغه مأمنه

(١) وفي نسخة ثانية : هنين .

بجى الزواودة أمراء البدو بعمل الموحدين . ونزل منهم على عطية بن سليمان بن سباع كما قدمناه ، واستولى على بجاية سنة أربع وثمانين وستائة بعد خطوب ذكرناها ، واقتطعها عن ملك عمه صاحب الدولة بتونس أبي حفص ، ووفى لداود بن عطاف وأقطعه بوطن بجاية عملاً كبيراً أفرده لجبايته ، كان فيه ايقداران بالخميس من وادي بجاية . واشتغل الأمير أبو زكريا بمملكة بونة وقسنطينة وبجاية والجزائر والزاب وما وراءها وكان هذا الصهر وصلة له مع عثمان بن يغمراسن وبنيه .

(ولما نازل) يوسف بن يعقوب تلمسان سنة ثمان وتسعين وستائة ، وبعث الأمير أبو زكريا المدد من جيوشه إلى عثمان بن يغمراسن ، وبلغ الخبر بذلك إلى يوسف بن يعقوب ، فبعث أخاه أبا يحيى في العساكر لاعتراضهم ، والتقوا بجبل الزاب ، فكانت الدبرة على عسكر الموحدين واستلحموا هناك . وتسمى المعركة لهذا العهد بمرسى الرؤوس . واستحكمت من أجل ذلك صاغية الخليفة بتونس إلى بني مرين ، وأوفد عليهم مشيخة من الموحدين يدعوهم إلى حصار بجاية ، وبعث معهم الهدية الفاخرة وبلغ خبرهم إلى عثمان بن يغمراسن من وراء جدرانه فتنكر لها وأسقط ذكر الخليفة من منابره ، ومجاه من عمله ، فنسي لهذا العهد . والله مالك الأمر سبحانه .

* (الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان وما كان في دولته من الاحداث) *

كان السلطان يغمراسن قد خرج من تلمسان سنة إحدى وثمانين وستائة واستعمل عليها ابنه عثمان ، وتوغل في بلاد مغراوة وملك ضواحيهم . ونزل له ثابت بن منديل عن مدينة تنس ، فتناولها من يده . ثم بلغه الخبر بإقبال ابنه أبي عامر برهوم من تونس بابنة السلطان أبي إسحق عرس ابنه عثمان ، فتلوم هنالك إلى أن لحقه بظاهر مليانة ، فارتحل إلى تلمسان وأصابه الوجع في طريقه . وعندما أحل سريرته اشتد به وجعه فهلك هنالك آخر ذي القعدة من سنته ، والبقاء لله وحده . فحمله ابنه أبو عامر على أعواد وواراه في خدر مورياً لمرضه إلى أن تجاوز بلاد مغراوة إلى سيك . ثم أغد السير إلى تلمسان ، فلقبه أخوه عثمان بن يغمراسن ولي عهد أبيه في قومه ، فبايعه الناس وأعطوه صفقة أيمانهم . ثم دخل تلمسان فبايعه العامة والخاصة ، وخاطب

لحينه الخليفة بتونس أبا اسحق وبعث إليه ببيعته ، فراجعه بالقبول وعقد له على عمله على الرسم . ثم خاطب يعقوب بن عبد الحق يخطب منه السلم ، لما كان أبوه يغمراسن أوصاه به .

(حدثنا) شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي قال : سمعت من السلطان أبي حمّو موسى بن عثمان ، وكان قهرماناً بداره ، قال : أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان (ودادا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم) فقال له : يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش ، لا طاقة لنا بلقائهم اذا جمعوا الوفور مددهم ، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها . فأياك واعتماد لقائهم ، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك ، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك ، وتكافىء حشد العدو بحشدك . ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلاً لذخيرتك . فعلقت وصية الشيخ بقلبه ، وعقدا عليها ضمائرهم ، وجنح إلى السلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك . وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على يعقوب بن عبد الحق بمكانه من العدو الأندلسية في إجازته الرابعة إليها فخاض إليه البحر ووصله بأركش ، فلقاه براً وكرامة ، وعقد له على السلم ما أحب وانكفّ راجعاً إلى أخيه ، فطابت نفسه وفرغ لإفتتاح البلاد الشرقية ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وغلبه على معاقلهم والكثير من أعمالهم) *

لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق صرف وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلاد توجين ومغراوة وما وراءها من أعمال الموحدين ، فتغلب أولاً على ضواحي بني توجين ومغراوة وما وراءها ، ودوّخ قاصيتها ، وسار إلى بلاد مغراوة كذلك ، ثم إلى متيجة فانتسب نعمها وخطم زرعها . ثم تجاوزها إلى بجاية فحاصرها كما نذكره بعد . وامتنعت عليه فانكفّ راجعاً ومرّ في طريقه بمازونة ، فحاصرها وأطاعته ، وذلك سنة ست وثمانين وستمائة ونزل له ثابت بن منديل أمير مغراوة عن

تس فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في إيالته . ثم عطف في سته على بلاد توجين فاكسح حبوبها واحتكرها بمازونة استعداداً لما يتوقع من حصار مغراوة إياها . ثم دلف إلى تافر كنيث فحاصرها وأخذ بمخنقتها . وداخل قائدها غالباً الخصي من موالي بني محمد بن عبد القوي ، كان مولى سيّد الناس منهم ، فنزل له غالب عنها واستولى عليها ، وانكفاً إلى تلمسان . ثم نهض إلى بني توجين سنة سبع وثمانين وستائة فغلبهم على وانشريس مثنى ملكهم ومنبت عزهم ، وفرّ أمامه أميرهم مولى بني زرارة من ولد محمد بن عبد القوي . وأخذ الحلف منهم فلحق بضواحي المرية في الأعشار وأولاد عزيز من قومه . واتبع عثمان بن يغمراسن آثارهم وشردهم من تلك القاصية ، وهلك مولى زرارة في مغرة . وكان عثمان قبل ذلك قد دوخ بلاد بني يدللتين من بني توجين ، ونازل رؤساءهم أولاد سلامة بالقلعة المنسوبة إليهم مرّات فامتنعوا عليه ، ثم أعطوه أيديهم على الطاعة ومفارقة قومهم بني توجين إلى سلطان بني يغمراسن ، فنبذوا العهد إلى بني محمد بن عبد القوي أمراءهم منذ العهد الأوّل . ووصلوا أيديهم بعثمان وألزموا رعاياهم وعمالمهم المغارم له إلى أن ملك وانشريس من بعدها كما نذكر ذلك في أخبارهم . وصارت بلاد توجين كلها من عمله ، واستعمل الحشم بجبل وانشريس . ثم نهض بعدها إلى المرية وبها أولاد عزيز من توجين فنازلها ، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بلمدية وإليهم ينسب ، فأمكنه منها سنة ثمان وثمانين وستائة وبقيت في إيالته سبعة أشهر ثم انتقضت عليه ورجعت إلى ولاية أولاد عزيز^(١) وصالحوه عليها ، وأعطوه من الطاعة ما كانوا يعطونه محمد بن عبد القوي وبنيه . فاستقام أمره في بني توجين ودانت له سائر أعمالهم . ثم خرج سنة تسع وثمانين وستائة إلى بلاد مغراوة لما كانوا عليه لبني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان ، فدوّخها وأنزل ابنه أبا حمّو بشلف^(٢) مركز عملهم ، فأقام به وقفل هو إلى الحضرة . وتحيز فلّ مغراوة إلى نواحي متيجة ، وعليهم ثابت بن منديل أميرهم ، فلم يزالوا به . ونهض عثمان إليهم سنة ثلاث وتسعين وستائة بعدها فأنجزوا بمدينة برشك ، وحاصروهم بها أربعين يوماً ثم افتتحها . وخاض ثابت البحر إلى المغرب فنزل على يوسف بن يعقوب كما ذكرناه ونذكره . واستولى عثمان على سائر عمل مغراوة كما

(١) وفي نسخة ثانية : وزحف إلى إيالة أولاد عزيز .

(٢) وفي النسخة الباريسية : شلب وفي قبائل الغرب : شلف .

استولى على عمل بني توجين ، فانتظم بلاد المغرب الأوسط كلها وبلاد زناتة الأولى .
ثم اشغل بفتنة بني مرين كما نذكر بعد إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن منازلة بجاية وما دعا إليها) *

قد ذكرنا أن المولى أبا زكريا الأوسط ابن المولى أبي اسحق بن أبي حفص لحق بتلمسان عند فراره من بجاية أمام شيعة الدعي ابن أبي عمارة ، ونزل على عثمان بن يغمراسن خير نزل . ثم هلك الدعي ابن أبي عمارة واستقل عمه الأمير أبو حفص بالخلافة ، وبعث إليه عثمان بن يغمراسن بطاعته على العادة ، وأوفد عليه وجوه قومه ، ودس الكثير من أهل بجاية إلى الأمير أبي زكريا يستحثونه للقدوم ، ويعدونه إسلام البلد إليه . وفاوض عثمان بن يغمراسن في ذلك فأبى عليه وفاء بحق البيعة لعمه الخليفة بالحضرة فطوى عنه الخبر وتردد في النقص أياماً . ثم لحق بأحياء زغبة في مجالاتهم بالقفر ، ونزل على داود بن هلال بن عطاف وطلب عثمان بن يغمراسن إسلامه فأبى عليه وارتحل معه إلى أعمال بجاية ، ونزلوا على أحياء الزواودة كما قدمناه ثم استولى المولى أبو زكريا بعد ذلك على بجاية في خبر طويل ذكرناه في أخباره . واستحكمت القطيعة بينه وبين عثمان ، وكانت سبباً لاستحكام الموالاة بين عثمان وبين الخليفة بتونس . فلما زحف إليه عثمان سنة ست وثمانين وستمئة وتوغّل في قاصية المشرق ، أعمل الرحلة إلى عمل بجاية ، ودوّخ سائر أقطارها . ثم نازها بعد ذلك يروم كيدها بالاعمال في مرضاة خليفته بتونس ، ويسر بذلك حسواً في ارتقاء ، فأناخ عليها بعساكره سبعاً ، ثم أفرج عنها منقلباً إلى المغرب الأوسط ، فكان من فتح تافركنيت ومازونة ما قدمناه .

* (الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وشأن تلمسان في الحصار الطويل) *

لما هلك يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين على السلم المنعقد بينه وبين بني عبد الواد لشغله بالجهاد ، وقام بالأمر من بعده في قومه ابنه يوسف كبير ولده على حين

اتبعهم أنفسهم شأن الجهاد . واسفهم يغمراسن وابنه بمالأة الطاغية وابن الأحمر
 فعقد يوسف بن يعقوب السلم مع الطاغية لحينه ، ونزل لابن الأحمر عن ثغور
 الأندلس التي كانت لهم ، وفرغ لحرب بني عبد الواد ، واستتب له ذلك لأربع من
 مهلك أبيه ، دلف إلى تلمسان سنة تسع وثمانين وستائة ولاذ منه عثمان بالأسوار فنازلها
 صباحاً ، وقطع شجرها ونصب عليها المخانيق والآلات ثم أحس بامتناعها
 فأفرج عنها وانكفاً راجعاً . وتقبل عثمان بن يغمراسن مذهب أبيه في مداخلة ابن
 الأحمر والطاغية ، وأوفد رسله عليها فلم يغن ذلك عنه شيئاً . وكان مغراوة قد لحقوا
 بيوسف بن يعقوب بتلمسان فنالوا منه أعظم النيل . فلما أفرجوا عن تلمسان نهض
 عثمان إلى بلادهم فدوخوا وغلبهم عليها ، وأنزل ابنه أبا حمّوبها كما قدّمناه . فلما كانت
 سنة خمس وتسعين وستائة نهض يوسف بن يعقوب إلى حركته الثانية فنازل ندرومة ،
 ثم ارتحل عنها إلى ناحية وهران وأطاعه جبل كيدره وتاسكدلت رباط عبد الحميد
 ابن الفقيه أبي زيد اليرناسي^(١) ثم كرّ راجعاً إلى المغرب . وخرج عثمان بن يغمراسن
 فأثن في تلك الجبال لطاعتهم عدوّه واعتراضهم جنده ، واستباح رباط تاسكدلت .
 ثم أغزاه يعقوب بن يوسف ثلاثة سنة ست وتسعين وستائة ثم رجع إلى المغرب . ثم
 أغزاه رابعة سنة سبع وتسعين وستائة فتأثّل^(٢) تلمسان وأحاط بها معسكره وشرعوا في
 البناء . ثم أفرج عنها لثلاثة أشهر ، ومرّ في طريقه بوجدة ، فأمر بتجديد بنائها
 وجمع الفعلة عليها . واستعمل أخاه أبا يحيى بن يعقوب على ذلك ، وأقام لشأنه ،
 ولحق يوسف بالمغرب . وكان بنو توجين قد نازلوا تلمسان مع يوسف بن يعقوب ،
 وتولّى كبر ذلك منهم أولاد سلامة أمراء بني يد للتين ، وأصحاب القلعة المنسوبة
 إليهم . فلما أفرج عنها خرج إليهم عثمان بن يغمراسن فدوخوا بلادهم وحاصروهم بالقلعة
 ونال منهم أضعاف ما نالوا منه ، وطال مغيبه في بلادهم ، فخالفه أبو يحيى بن
 يعقوب إلى ندرومة فاقتحمها عنوة بعسكره بمداخلة من قائدها زكريا بن يخلف بن
 المطغرى صاحب توقت^(٣) . فاستولى بنو مرين على ندرومة وتوقت ، وجاء يوسف بن
 يعقوب على أثرها فوافاهم ودلفوا جميعاً إلى تلمسان . وبلغ الخبر إلى عثمان بمكانه من

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : اليرناسي .

(٢) وفي نسخة ثانية : فنازل .

(٣) وفي نسخة ثانية : ثاوت .

حصار القلعة فطوى المراحل إلى تلمسان ، فسبق إليها يوسف بن يعقوب بعض يوم .
ثم أشرفت طلائع بني مرين عشي ذلك اليوم ، فأناخوا بها في شعبان سنة ثمان وتسعين
وستمئة وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها . وضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجاً
من الأسوار محيطاً بها ، وفتح فيه أبواباً مداخل الحربها ، واجتط لنزله إلى جانب
الأسوار مدينة سيمّاها المنصورة . وأقام على ذلك سنين يغاديا القتال ويراوحها . وسرح
عسكره لافتتاح المغرب الأوسط وثغوره ، فملك بلاد مغراوة وبلاد توجين كما ذكرناه
في أخباره وجثم هو بمكانه من حصار تلمسان لا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته
إلى أن هلك عثمان وهلك هو من بعده كما نذكره . وإلى الله المصير سبحانه وتعالى لا
رب غيره .

* (الخبر عن مهلك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي زيان
وانتهاء الحصار من بعده إلى غايته) *

لما أناخ يوسف بن يعقوب بعساكره على تلمسان ، انحجز بها عثمان وقومه واستسلموا ،
والحصار أخذ بمخنقهم . وهلك عثمان لخامسة السنين من حصارهم سنة ثلاث
وسبعمئة ، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو زيان محمد .
(أخبرني) شيخنا العلامة محمد بن ابراهيم الايلي ، وكان في صباه قهرمان دارهم
قال : هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس ، وكان قد أعدّ لشربه لبناً ، فلما أخذ منه
الديماس وعطش ، دعا بالقدح فشرب اللبن ونام فلم يكن بأوشك أن
فاضت نفسه . وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم تفادياً من معرفة غلب
عدوهم إياهم . قال : وجاء الخادم إلى قعيذة بيته زوجه بنت السلطان أبي اسحق
ابن الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب تونس ، وخبرها الخبر
فجاءت ووقعت عليه واسترجعت وخيّمبت على الأبواب بسدادها . ثم بعثت إلى أبيه
محمد أبي زيان وموسى أبي حمو فعزتها عن أبيهما . وأحضرا مشيخة بني عبد الواد
وعرضوا لهم بمرض السلطان فقال أحدهم مستفهماً عن الشأن ومترجماً عن القوم :
السلطان معنا آنفاً ، ولم يمتدّ الزمن لوقوع المرض ، فإن يكن هلك فخبّرنا ، فقال له
أبوحمو : وإذا هلك فما أنت صانع ؟ فقال : إنما نخشى من مخالفتك ، وإلا فسلطاننا

أخوك الأكبر أبو زيان . فقام أبو حمو من مكانه وأكبّ على يد أخيه يقبلها ، وأعطاه صفقة يمينه واقتدى به المشيخة ، فانعقدت بيعته لوقته واشتمل بنو عبد الواد على سلطانهم واجتمعوا إليه ، وبرزوا إلى قتال عدوهم على العادة فكان عثمان لم يمت . (وبلغ الخبر) إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم فتفجّع له ، وعجب من صرامة قومه من بعده . واستمرّ حصاره إياهم إلى ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله ، نالهم فيها من الجهد ما لم ينله أمة من الأمم ، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس ، وخرّبوا السقف للوقود ، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد . وعجز وجدهم عنه فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به ، مقداره اثنا عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب العين . وثمان الشخص الواحد من البقر ستين مثقالاً ، ومن الضان سبعة مثاقيل ونصفاً ، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمان المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم ، تكون عشر المثقال والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكي بثلاثين درهماً ، والهرّ الداجن بمثقال ونصف ، والكلب بمثله والفار بعشرة دراهم . والحية بمثله ، والدجاجة بثلاثين درهماً ، والبيض واحدة بستة دراهم ، والعصافير كذلك . والأوقية من الزيت باثني عشر درهماً ، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ، ومن الفول بمثلها ، ومن الملح بعشرة ، ومن الحطب كذلك . والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال . ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً ، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهماً ، والخيار بثلاثة أثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهماً ، والحبة من التين والإجاص بدرهمين . واستهلك الناس أموالهم وموجودهم ، وضائق أحوالهم .

واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها ، واتسعت خطة مدينة المنصور المشيدة عليها . ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق ، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة ، وخطب الملوك سلمه ووده ، ووفدت عليه رسل الموحدين وهداياهم من تونس وبجاية ، وكذلك رسل صاحب مصر والشام وهديتهم ، واعتزوا على الكفاء له كما يأتي في أخباره وهلك الجند حامية بني يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج بهم للاستماتة ، فكيف الله لهم الصنيع

الغريب . ونفس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصي من العبيد ، فأسخطته بعض النزعات الملوكية فاعتمده في كسر بيته ومخدع نومه ، وطعنه بخنجر قطع أمعاءه ، وأدرك فسيق إلى وزرائه فزقوه أشلاء . ولم يبق شيء من بقايا عهدهم كما ذكرناه والأمر لله وحده . وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وساكني مدينتهم كأنما نشروا من الأجداث . وكتبوا لها في سكتهم ما أقرب فرج الله استغراباً لحادثتها .

(وحدثني) شيخنا محمد بن ابراهيم الآيلي قال : جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره ، واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهرام والمطامير المختومة ؟ فقال له : إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمانها . وبينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حمو فأخبروه فوجم لها ، وجلسوا سكوتاً لا ينطقون . وإذا بالخادم دعد قهرمانة القصر من وصائف بنت السلطان أبي اسحق وحظية أبيهم خرجت من القصر إليهم ، فوقفت وحيثهم تحيتها وقالت : تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء ، وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لآتهمكم ، ولم يبق إلا فواق بكيفة لمصارعكم . فأريحونا من معرة السبي ، وأريحوا فينا أنفسكم وقربوا إلى مهالكنا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم . فالتفت أبو حمو إلى أخيه وكان من الشفقة بمكان وقال : قد صدقتك الخبر فما تنظر بهن ؟ فقال : يا موسى أرجثني ثلاثاً لعل الله يجعل بعد عسر يسراً ، ولا تشاورني بعدها فيهن ، بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن وتعال إلي نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستमित ، ويقضي الله ما يشاء . فغضب أبو حمو وأنكر الأرجاء في ذلك ، وقال : إنما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا ، وقام عنه مغضباً وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء . قال ابن حجاف : وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متأخراً ولا متقدماً إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرسى الباب يشير إلي أن اذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين لسيدة القصر ، فلم أطق رجع جوابه إلا بإشارة وانته السلطان من خفيف إشارتنا فرعاً ، فأذنته واستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له : إن يوسف بن يعقوب هلك الساعة ، وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم ، فاستبشر السلطان واستدعى أخاه وقومه حتى أبلغ الرسول رسالته

بمسمع منهم ، وكانت إحدى المغربات في الأيام (١) .

(وكان من خبر هذه الرسالة) أن يعقوب بن يوسف لما هلك تطاول للأمر الأعياص من إخوته وولده وحفدته ، وتخيّر أبو ثابت حافده إلى بني ورتاجن لخولة كانت له فيهم ، فاستجاش بهم واعصوبوا عليه وبعث إلى أولاد عثمان بن يغمراسن أن يعطوه الآلة ويكونوا مفرعاً له ومأمناً إن أخفق مسعاه على أنه إن تمّ أمره قوّض عنهم معسكر بني مرين فعاقدوه عليها . ووفّي لهم لما تمّ أمره ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان يوسف بن يعقوب استولى عليها من بلادهم ، وجاء بجميع الكتائب التي أنزلها في ثغورهم وقفلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط كلّها إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار إلى حين مهلكه) *

كان من أوّل ما افتتح به السلطان أبو زيان أمره بعد الخروج من هون الحصار وتناوله الأعمال من يد بني مرين ، أن نهض من تلمسان ومعه أخوه أبو حمو آخردني الحجّة من سنة ست وسبعمائة ، فقصد بلاد مغراوة وشرّد من كان هنالك منهم في طاعة بني مرين ، واحتاز الثغور من يد عمّاهم . ودوّخ قاصيتها . ثم عقد عليها المسامح مولاه ، ورجع عنها ، فنهض إلى السرسو ، وكان العرب قد تملكوه أيام الحصار ، وغلبوا زناته عليه من سويد والديالم ومن إليهم من بني يعقوب بن عامر فأجفلوا أمامه . واتبعوا آثارهم إلى أن أوقع بهم وانكفأ راجعاً ومّرّ ببلاد بني توجين ، فاقتضى طاعة من كان بقي بالجبل من بني عبد القوي والحشم فأطاعوه ، ورياستهم يومئذ لمحمد بن عطية الأصمّ من بني عبد القوي . وقفل إلى تلمسان لتسعة أشهر من خروجه ، وقد ثقف أطراف ملكه ، ومسح أعطاف دولته . فنظر في إصلاح قصوره ورياضه ، ورمّ ما تثلم من بلده ، وأصابه المرض خلال ذلك فاشتدّ وجعه سبعاً ، ثم هلك أخريات شوال من سنة سبع وسبعمائة والبقاء لله وحده .

(١) وفي نسخة ثانية : إحدى المقربات في الأنام .

* « الخبر عن محو الدعوة الحفصية من منابر تلمسان » *

كانت الدعوة الحفصية بأفريقية قد انقسمت بين أعياصهم في تونس وبجاية وأعمالها ، وكان التخيم بينهما بلد عجيسة ووشتاتة . وكان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص ابن الأمير أبي زكريا الأول منهم ، وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضرة . فكانت بيعة بني زيان له والدعاء على منابرههم باسمه ، وكانت لهم مع المولى الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه ، وكانت الوحشة قد اعترضت ذلك عندما نزل عثمان بجاية كما قدّمناه . ثم تراجعوا إلى وصلتهم واستمروا عليها إلى أن نازل يوسف بن يعقوب تلمسان ، والبيعة يومئذ للخليفة بتونس السلطان أبي عصيدة بن الواثق ، والدعوة على منابر تلمسان باسمه ، وهو حاقده عليهم ولايتهم للأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغر ، فلما نزل يوسف بن يعقوب بأعلى تلمسان وبعث عساكره في قاصية الشرق استجاش عثمان بن يغمراسن بصاحب بجاية ، فسرح عسكرياً من الموحدّين لمدافعهم عن تلك القاصية ، والتقوا معهم بجبل الزاب فانكشف الموحدّون بعد معترك صعب واستلحمهم بنومرين ، ويسمى المعترك لهذا العهد بمرسي الرؤوس لكثرة ما تساقط في ذلك المجال من الرؤوس . واستحكمت المنافرة بين يوسف بن يعقوب وصاحب بجاية فأوفد الخليفة بتونس على يوسف بن يعقوب مشيخة من الموحدّين تجديداً لوصلة سلفهم مع سلفه واغراء بصاحب بجاية وعمله ، فجاء موقع ذلك من عثمان بن يغمراسن وأحفظه ممالأة^(١) خليفته لعدوه ، فعطلّ منابره من ذكره ، وأخرج قومه وإيالته عن دعوته ، وكان ذلك آخر المائة السابعة . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن دولة أبي حمو الاوسط وما كان فيها

من الاحداث) *

لما هلك الأمير أبو زيان قام بالأمر بعده أخوه أبو حمو في أخريات سنة سبع كما

(١) وفي نسخة ثانية : موالاة الخليفة لعدوه .

قدّمناه ، وكان صارماً يقظاً حازماً داهيةً ، قويّ الشكيمة صعب العريكة ، شرس الاخلاق مفرط الدهاء^(١) والحدة . وهو أول ملوك زناتة ، رتب مراسم الملك وهذب قواعده ، وأرهف في ذلك لأهل ملكه حدّه ، وقلب لهم مجنّ بأسه حتى ذلّوا لعزّ ملكه وتادّبوا بآداب السلطان .

(سمعت) عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية يقول ويعنيه : موسى بن عثمان هو معلّم السياسة الملوكية لزناتة ، وإنما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان ، فحدّد حدودها ، وهذب مراسمها ونقل عنه ذلك أمثاله وأنظاره ، فتقبّلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه انتهى كلامه .

(ولما استقلّ) بالأمر افتتح شأنه بعقد السلم مع سلطان بني مرين لأول دولته فأوفد كبراء دولته على السلطان أبي ثابت ، وعقد له السلم كما رضي . ثم صرف وجهه إلى بني توجين ومغراوة ، فردّد إليهم العساكر حتى دوّخ بلادهم وذللّ صعايبهم ، وشردّ محمد بن عطية الأصمّ عن نواحي وانشريس ، وراشد بن محمد عن نواحي شلف ، وكان قد لحق بها بعد مهلك يوسف بن يعقوب فأزاحه عنها ، واستولى على العمليين ، واستعمل عليهما ، وقفل إلى تلمسان ، ثم خرج سنة عشر وسبعمائة في عساكره إلى بلاد بني توجين ، ونزل تافر كينت وسط بلادهم فشرّد الفلّ من أعقاب محمد بن عبد القوي عن وانشريس ، واحتاز رياستهم في بني توجين دونهم . وأدام منهم بالحشم وبني تيغزين^(٢) . وعقد لكبيرهم يحيى بن عطية على رياسة قومه في جبل وانشريس ، وعقد ليوسف بن حسن من أولاد عزيز على المدينة وأعمالها ، وعقد لسعد من بني سلامة على قومه من بني يد لتين إحدى بطون بني توجين وأهل الناحية الغربية من عملهم . وأخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والحباية ، واستعمال عليهم جميعاً من صنائعه قائده يوسف بن حيون الهوّاري ، وأذن له في اتخاذ الآلة . وعقد لمولاه مسامح على بلاد مغراوة وأذن له أيضاً في اتخاذ الآلة . وعقد لمحمد بن عمه يوسف على مليانة ، وأنزله بها وقفل إلى تلمسان . والله أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : مفرط الذكاء

(٢) وفي نسخة ثانية : بني تيغزين .

* (الخبر عن استئزال زيرم بن حماد من ثغر برشك وما
كان قبله (١)) *

كان هذا الغمر من مشيخة هذا القصر لوفور عشيرته من مكلاته داخله وخارجه ،
واسمه زيري بالياء ، فتصرفت فيه العامة وصار زيرم بالميم . ولما غلب يغمراسن على
بلاد مغراوة دخل أهل هذا القصر في طاعته . حتى اذا هلك حدثت هذا الغمر نفسه
بالانتزاع والاستبداد بملك برشك ما بين مغراوة وبني عبد الواد ، ومدافعة بعضهم
ببعض . فاعتزم على ذلك وأمضاه وضبط برشك لنفسه سنة ثلاث وثمانين وسمائة
ونهمض إليه عثمان بن يغمراسن سنة أربع وثمانين وسمائة بعدها ، ونازله فامتنع . ثم
زحف سنة ثلاث وتسعين إلى مغراوة ، فلجأ ثابت بن منديل إلى برشك وحاصره
عثمان بها أربعين يوماً . ثم ركب البحر إلى المغرب كما قلناه . وأخذ زيري بعدها بطاعة
عثمان بن يغمراسن دافعه بها ، وانتقض عليه ، مرجعه إلى تلمسان ، وشغل بنوزيان
بعدها بما دهمهم من شأن الحصار ، فاستبد زيري هذا ببرشك واستفحل شأنه بها .
واتقى بني مرين عند غلبهم على بلاد (٢) مغراوة وتردد عساكرهم فيها باخلاص
الطاعة والانقياد ، فلما انقشع إيالة بني مرين بمهلك يوسف بن يعقوب ، وخرج بنو
يغمراسن من الحصار رجع إلى ديدنه من التمريض في الطاعة ، ومناولة طرفها على
البعد حتى اذا غلب أبو حمّو على بلاد مغراوة وتجاوزت طاعته هذا المصر إلى ما
وراءه ، خشيه زيري على نفسه ، وخطب منه الأمان على أن ينزل له عن المصر ،
فبعث إليه رئيس الفتيا بدولته أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الإمام ، كان أبوه من
أهل برشك ، وكان زيري قد قتله لأول ثورته غيلة . وفرّ ابنه عبد الرحمن هذا وأخوه
عيسى ، ولحقا بتونس فقرا بها ، ورجعا إلى الجزائر فأوطناها . ثم انتقلا إلى مليانة
واستعملها بنو مرين في خطة القضاء بمليانة . ثم وفدا بعد مهلك يوسف بن يعقوب
على أبي زيان وأبي حموم عمّال بني مرين وقوادهم بمليانة ، وكان فيهم منديل بن
محمد الكناني صاحب أشغالهم المذكور في أخبارهم . وكانا يقرآن ولده محمداً فأشادا

(١) وفي نسخة ثانية : وما كان من قتله .

(٢) وفي نسخة ثانية : أعمال .

عند أبي زيان وأبي حو بمكانها من العلم ، ووقع ذلك من أبي حمو أبلغ المواقع حتى اذا استقلّ بالأمر ابنتى المدرسة بناحية المطهر من تلمسان لطلبة العلم . وابتنى لها دارين على جانبها وجعل لها التدريس فيها في إيوانين معدّين لذلك . واختصّها بالفتيا والشورى ، فكانت لها في دولته قدم عليّة فلما خطب زيري هذا الأمان من أبي حمو وأن يبعث إليه من يأمن معه في الوصول إلى بابه ، بعث إليه أبا زيد عبد الرحمن الأكبر منها ، فنهض لذلك بعد أن استأذنه في أن يثار منه بأبيه إن قدر عليه ، فأذن له . فلما احتلّ برشك أقام بها أياماً يغاديه فيها زيري ويراوحه بمكان نزله ، وهو يعمل الحيلة في اغتياله حتى اذا أمكنته فقتله في بعض تلك الأيام سنة ثمان وسبعائة ، وصار أمر برشك إلى السلطان أبي حمو وانمحي منه أثر المشيخة والاستبداد والأمور بيد الله سبحانه .

* (الخبر عن طاعة الجزائر واستتزال ابن علان منها
وذكر أوليته) *

كانت مدينة الجزائر هذه من أعمال صنهاجة ، ومختطها بلكين بن زيري ونزلها بنوه من بعده . ثم صارت للموحّدين وانتظمها بنو عبد المؤمن في أمصار المغربين وأفريقية ، ولما استبدّ بنو أبي حفص بأمر الموحدّين وبلغت دولتهم بلاد زناتة . وكانت تلمسان ثغراً لهم ، واستعملوا عليها يغمراسن وبنيه من بعده ، وعلى ضواحي مغراوة بني منديل بن عبد الرحمن ، وعلى وانشرس وما إليها من عمل توجين محمد بن عبد القوي وبنيه . وبقي ما وراء هذه الأعمال إلى الحضرة لولاية الموحدّين أهل دولته ، فكان العامل على الجزائر من الموحدّين أهل الحضرة .

وفي سنة أربع وستين وستائة انتقضوا على المستنصر ومكثوا في ذلك الانتقاض سبعا . ثم أوعز إلى أبي هلال صاحب بجاية بالنهوض إليها في سنة إحدى وسبعين وستائة فحاصرها أشهراً وأفرج عنها . ثم عاودها بالحصار سنة أربع وسبعين وستائة أبو الحسن ابن ياسين بعساكر الموحدّين فاقتحمها عليهم عنوة واستباحها . وتقبّض على مشيختها فلم يزالوا معتقلين إلى أن هلك المستنصر . ولما انقسم أمر بني أبي حفص واستقل الأمير أوزكريا الأوسط بالثغور الغربية وأبوه ، بعثوا إليه بالبيعة ، وولّى عليهم ابن أكمازير ،

وكانت ولايتها^(١) من قبل ، فلم يزل هو والياً عليها إلى أن أسنّ وهرم . كان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصاً به ، ومنتصباً في أوامره ونواهيته ، ومصدراً لإمارته وحصل له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه . فلما هلك ابن أكمازير حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاع بمديته ، فبعث عن أهل الشوكة من نظائره ليله هلاك أميره . وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد ، واتخذ الآلة واستركب واستلحق من الغرباء والثعالبه عرب متيعة ، واستكثر من الرجال والرماة . ونازلته عساكر بجاية مراراً فامتنع عليهم . وغلب مليكش على جباية الكثير من بلاد متيعة ، ونازله أبو يحيى بن يعقوب بعساكر بني مرين عند استيلائهم على البلاد الشرقية ، وتوغلهم في القاصية ، فأخذ بمخنقتها وضيق عليها ، ومرّ بابن علان القاضي أبو العباس الغماري رسول الأمير خالد إلى يوسف بن يعقوب ، فأودعه الطاعة للسلطان والضراعة إليه في الإبقاء ، فأبلغ ذلك عنه وشفع له ، فأوعز إلى أبيه يحيى بمسالمة^(٢) . ثم نازله الأمير خالد بعد ذلك فامتنع عليه وأقام على ذلك أربع عشرة سنة وعيون الخطوب تحدده^(٣) ، والأيام تستجمع لحربه . فلما غلب السلطان أبو حمو على بلاد توجين واستعمل يوسف بن حيون الهواري على وانشريس ، ومولاه مساحاً على بلاد مغراوة ، ورجع إلى تلمسان . ثم نهض سنة إثنى عشرة وسبعمئة إلى بلاد شلف فترل بها ، وقدم مولاه مساحاً في العساكر فدوّخ متيعة من سائر نواحيها ، وترس بالجزائر ، وضيق حصارها حتى مسهم الجهد وسأل ابن علان النزول على أن يشترط لنفسه ، فتقبل السلطان اشتراطه ، وملك السلطان أبو حمو الجزائر وانتظمها في أعماله . وارتحل ابن علان في جملة مسامح ، ولحقوا بالسلطان بمكانه من شلف فانكفاً إلى تلمسان وابن علان في ركابه ، فأسكنه هنالك ووفى له بشرطه إلى أن هلك والنقاء لله سبحانه .

* (الخبر عن حركة صاحب المغرب الى تلمسان وأولية ذلك) *

لما خرج عبد الحق بن عثمان من أعياص الملك على السلطان أبي الربيع بفاس ،

(١) بياض بالأصل وفي نسخة أخرى : لبطة ، وفي ثانية : ليطة .

(٢) وفي نسخة ثانية : بمصالحته .

(٣) وفي نسخة ثانية : تحرزه .

وبايع له الحسن بن علي بن أبي الطلاق صاحب بني مرين بمداخلة الوزير رحوا بن يعقوب كما قدمناه في أخبارهم . وملكوا تازي ، زحف إليهم السلطان أبو الربيع فبعثوا وفدهم إلى السلطان أبي حمو صريخاً . ثم أعجلهم أبو الربيع وأجهضهم على تازي ، فلاحقوا بالسلطان أبي حمو ودعوه إلى المظاهرة على المغرب ليكونوا رداءً له دون قومهم . وهلك السلطان أبو الربيع خلال ذلك واستقل بملك المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، فطالب السلطان أبا حمو باسلام أولئك النازعين إليه ، فأبى من إسلامهم وإخفار زمته فيهم وأجازهم البحر إلى العدو ، فأغضى له السلطان أبو سعيد عنها ، وعقد له السلم . ثم استراب يعيش بن يعقوب بن عبد الحق بمكانه عند أخيه السلطان أبي سعيد لما سعى فيه عنده ، فترع عنه إلى تلمسان وأجاره السلطان أبو حمو على أخيه فأحفظه ذلك ، ونهض إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعمائة وعقد لابنه الأمير أبي علي وبعثه في مقدمته ، وسار هو في الساقة . ودخل أعمال تلمسان على هذه التعبية فاكسح بسائطها ، ونازل وجدة فقاتلها وضيق عليها . ثم تخطاها إلى تلمسان فترل بساحتها وانحجر موسى بن عثمان من وراء أسوارها ، وغلب على ضواحيها ورعاياها ، وسار السلطان أبو سعيد في عساكره يتقرى شعارها ويلاذها بالحطم والانتساف والعيث . فلما أحيط به وثقلت وطأة السلطان عليه وحذر المغبة منه ألطف الحيلة في خطاب الوزراء الذين كان يسرب أمواله فيهم ويخادعهم من نضائح سلطانهم حتى اقتضى مراجعتهم في جاره يعيش بن يعقوب وإدالته من أخته . ثم بعث خطوطهم بذلك إلى السلطان أبي سعيد فامتلاء قلبه منها خشية ورهبة ، واستراب بالخاصة والأولياء ونهض إلى المغرب على تعبيته . ثم كان خروج ابنه عمر عليه بعد مرجعه ، وشغلوا عن تلمسان وأهلها برهة من الدهر حتى جاء أمر الله في ذلك عند وقته ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن مبدأ حصار بجاية وشرح الداعية إليه) *

لما رجع السلطان أبو سعيد إلى المغرب وشغل عن تلمسان ، فرع أبو حمو لأهل

القاصية من عمله . وكان راشد بن محمد بن ثابت بن مندبيل قد جاء من بلاد زواوة أثناء هذه الغمرة ، فاحتل بوطن شلف واجتمع إليه أوشاب قومه ، وحين تجلت الغمرة عن السلطان أبي حمو نهض إليه بعد أن استعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان ، وجمع له الجموع ففرّ أمامه ناجياً إلى مثنوى اغترابه ببجاية . وأقام بنو سعيد بمعاقلهم من جبال شلف على دعوته ، فاحتل السلطان أبو حمو بوادي تمل^(١) فخيم به . وجمع أهل أعماله لحصار بني أبي سعيد شيعة راشد بن محمد ، واتخذ هنالك قصره المعروف باسمه . وسرح العساكر لتدويخ القاصية ولحق به هنالك الحاجب ابن أبي^(٢) حين مرجعه من الحج سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، فأغراه بملك بجاية ورغبه فيه . وكان قد تاب له طمع منذ رسالة السلطان مولانا أبي يحيى إليه . وذلك أنه لما انتقض على أخيه خالد ودعا لنفسه بقسنطينة ، ونهض إلى بجاية فانهزم عنها كما قدمنا في أخباره . وأوفد على السلطان أبي حمو بعض رجال دولته مغرباً له بابن خلوف وبجاية ثم بعث إليه ابن خلوف أيضاً يسأله المظاهرة والمدد فأطمعه ذلك في ملك بجاية .

(ولما هلك) ابن خلوف كما قدّمناه ، لحق به كاتبه عبدالله بن هلال ، فأغراه واستحثه ، وشغله عن ذلك شأن الجزائر . فلما استولى على الجزائر ، بعث مولاه مسامحاً في عسكر مع ابن أبي حي ، فبلغوا إلى جبل الزاب وهلك ابن أبي حي ورجع مسامح . ثم شغله عن شأنها زحف ، وفرغ من أمر عدوّه ، ونزل بلد شلف كما ذكرناه آنفاً ولحق به عثمان بن سباع بن يحيى بن سباع بن سهل أمير الزواودة ، يستحثه لملك الثغور الغربية من عمل الموحدّين ، فاهتر لذلك وجمع له الجموع ، وعقد لمسعود ابن عمه أبي عامر برهوم على عسكر وأمره بحصار بجاية ، وعقد لمحمد ابن عمّه يوسف قائد مليانة على عسكر ، ولولاه مسامح على عسكر آخر ، وسرحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد . وعقد لموسى بن عليّ الكردي على عسكر ضخّم ، وسرحه مع العرب من الزواودة وزغبة على طريق الصحراء . فانطلقوا إلى وجههم ذلك ، وفعلوا الأفاعيل كلّ فيما يليه وتوغّلوا في البلاد الشرقية ، حتى انتهوا إلى بلاد بونة . ثم انقلبوا من هنالك ومروا في طريقهم بقسنطينة ، ونازلوها أياماً .

(١) وفي نسخة ثانية : نهل .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة الاسم الكامل لهذا الحاجب في المراجع التي بين أيدينا .

وصعدوا جبل ابن ثابت المطلّ عليها فاستباحوه . ثم مروا ببني باورار فاستباحوها وأضرموها ، واكتسحوا سائر ما مروا عليه . وحدثت بينهم المناكرة حسداً ومنافسةً ، فافترقوا ولحقوا بالسلطان ولحق مسعود بن برهوم محاصراً لبجاية وبني حصناً بأصفون لمقامه . وكان يسرح الجيوش لقتالها فتجول في ساحتها ، ثم تراجع إلى الحصن . ولم يزل كذلك حتى بلغه خبر خروج محمد بن يوسف فأجفل عنها على ما نذكره الآن فلم يرجعوا لحصارها إلا بعد مدّة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني توجين
وحروب السلطان معه) *

لما رجع محمد بن يوسف من قاصية الشرق كما قدّمناه ، وسابقه إلى السلطان موسى بن علي الكرديّ ، وجوانحه تلتهب غيظاً وحقداً عليه . وسعى به عند السلطان فعزله عن مليانة ، فوجم لها وسأله زيارة ابنه الأمير أبي تاشفين بتلمسان ، وهو ابن أخته فأذن له . وأوعز إلى ابنه بالقبض عليه ، فأبى من ذلك ، وأراد هو الرجوع إلى معسكر السلطان فحلى سبيله . ولما وصل إليه تنكّر له وحجبه ، فاستراب وملاء قلبه الرعب ، وفرّ من المعسكر ولحق بالمرية^(١) ، ونزل على يوسف بن حسن بن عزيز عاملها للسلطان من بني توجين . فيقال انه أوثقه اعتقالاً حتى غلبه قومه على بغيته من الخروج معه ، لما كان السلطان أبو حمو يوسفهم به من نزاعته ، فأخذ له البيعة على قومه ومن إليهم من العرب . وزحفوا إلى السلطان بمعسكره من نهل ، فلقبهم في عساكره ، فكانت الدبرة على السلطان ، ولحق بتلمسان وغلب محمد بن يوسف على بني توجين ومغراوة ونزل مليانة . وخرج السلطان من تلمسان لأيام من دخولها ، وقد جمع الجموع وأزاح العلل وأوعز إلى مسعود بن برهوم بمكانه من حصار بجاية بالوصول إليه بالعساكر ، ليأخذ بحجزتهم من ورائهم ، وخرج محمد بن يوسف على مليانة لاعتراضه ، واستعمل على مليانة يوسف بن حسن بن عزيز ، فلقبه ببلاد مليكش وانهمز محمد بن يوسف . ولحاً إلى جبل مرصالة^(٢) وحاصره بها مسعود بن

(١) وفي نسخة ثانية : بالمدينة .

(٢) وفي نسخة ثانية : موصاية .

برهوم أياماً ، ثم أفرج عنه . ولحق بالسلطان فنازلوا جميعاً مليانة . وافتتحها السلطان عنوة وجيء بيوسف بن حسن أسيراً من مكنه ببعض المسارب فعفا عنه وأطلقه ، ثم زحف إلى المرية فملكها وأخذ الرهن من أهل تلك النواحي ، وقفل إلى تلمسان . واستطال محمد بن يوسف على النواحي ففشت دعوته في تلك القاصية . وخاطب مولانا السلطان أبا يحيى بالطاعة فبعث إليه بالهدية والآلة ، وسوّغه سهام يغمراسن ابن زيّان بأفريقية ، ووعدّه بالمظاهرة وغلب سائر بلاد بني توجين . وبايع له بنو تيغرين أهل جبل وانشريس ، فاستولى عليه . ثم نهض السلطان إلى الشرق سنة سبع عشرة وسبعمئة وملك المرية واستعمل عليها يوسف بن حسن لمدافعة محمد بن يوسف ، واستبغ في أخذ الرهن منه ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب ، حتى من قومه بني عبد الواد . ورجع إلى تلمسان وأنزله بالقصبة وهي الغور الفسيح الخطّة تماثل بعض الأمصار العظيمة ، اتخذها للرهن . وكان يبالغ في ذلك حتى يأخذ الرهن المتعدّدة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرھط . وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور والمشیخة والسوقه فملاء تلك القصبة من أبناءهم وإخوانهم ، وشحنها بالأمم بعد الأمم ، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء . واختط لهم المساجد فجمعوا بها لصلاة الجمعة ، ونفقت بها الأسواق والصنائع وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكى في العصور عن سجن . ولم يزل محمد بن يوسف بمكان خروجه من بلاد توجين إلى أن هلك السلطان ، والبقاء لله .

* (الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية ابنه أبي تاشفين

من بعده) *

كان السلطان أبو حمو قد اصطفى ابن عمه برهوم وتبناه من بين عشيرته وأولي قرباه لمكان صرامته ودهائه ، واختصاص أبيه برهوم المكنى أبا عامر بعثمان بن يغمراسن شقيقه من بين إخوته^(١) ، فكان يؤثره على بنيه ويفاوضه في شؤونه ، ويصله إلى خلواته . وكان دفع إلى ابنه عبد الرحمن أبا تاشفين أتراباً له من العلوجين^(٢) يقومون

(١) وفي نسخة ثانية : من بين سائر الاخوة .

(٢) وفي نسخة ثانية : المعلوجي .

بخدمته في مربه ومنتشه ، كان منهم : هلال المعروف بالقطاني (١) ، ومسامح
المسمى بالصغير ، وفرج بن عبدالله وظافر ومهدي وعلي بن تاكرت وفرج الملقب
شقورة ، وكان الصقهم وأعلقهم بنفسه تلاد له منهم يسمى هلالاً ، وكان أبو حمو
أبوه كثيراً ما يقرعه ويوبخه إرهاباً في اكتساب الخلال ، وربما يقذع في تفريره لما
كان عفا الله عنه فحاشاً فيحفظه لذلك . وكان مع ذلك شديد السطوة متجاوزاً
بالعقاب وحدوده في الزجر والأدب ، فكان أولئك العلوجين تحت رهب منه ،
وكانوا يغرون لذلك مولاهم أبا تاشفين بأبيه ، ويبعثون غيرته لما يذكرون له من
اصطفاء ابن أبي عامر دونه . وقارن ذلك أن مسعود بن أبي عامر أبلي في لقاء محمد
ابن يوسف الخارج على أبي حمو البلاء الحسن عندما رجع من حصار بجاية ،
فاستحمد له السلطان ذلك ، وعير ابنه عبد الرحمن بمكان ابن عمه هذا من النجابة
والصرامة يستجد له بذلك خلالاً ويفريه بالكمال . وكان عمه أبو عامر ابراهيم بن
يغمراسن ثري بما نال من جوائز الملوك في وفاداته ، وما أقطع له أبوه وأخوه سائر
أيامها .

ولما هلك سنة ست وتسعين وستمائة أوصى أخاه عثمان بولده فضمهم إليه ، ووضع
تراثهم بموضع ماله ، حتى يأنس منهم الرشد في أحوالهم ، حتى اذا كانت غزاة ابنه
أبي سرحان هذه ، وعلا فيها ذكره وبعده صيته ، رأى السلطان أبو حمو أن يدفع
إليه تراث أبيه لاستجماع خلاله ، فاحتمل إليه من المودع . ونمي الخبر إلى ولده أبي
تاشفين وباطنته السوء من العلوجين ، فحسبوه مال الدولة قد حمل إليه لبعده عهدهم
بما وقع في تراث أبي عامر أبيه ، واتهموا السلطان بايثاره بولاية العهد دون ابنه ،
فأغروا أبا تاشفين بالتوثب على الأمر وحملوه على الفتك بمشورته مسعود بن أبي
عامر ، واعتقال السلطان أبي حمو ليطم له الاستبداد . وتحينوا لذلك قائلة الهاجرة
عند منصرف السلطان من مجلسه ، وقد اجتمع إليه ببعض حجر القصر خاصته من
البطانة وفيهم مسعود بن أبي عامر والوزراء من بني الملاح . وكان بنو الملاح هؤلاء قد
استخصمهم السلطان بحجابته سائر أيامه ، وكان مسمى الحجابة عنده قهرمة الدار
والنظر في الدخل والخرج ، وهم أهل بيت من قرطبة كانوا يحترفون فيها بسكة الدنانير

(١) وفي نسخة ثانية : القطلاني .

والدراهم ، وربما دفعوا إلى النظر في ذلك ثقة بأماناتهم ، نزل أولهم بتلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى. وزادوا إليها الفلاحة وتحلوا بخدمة عثمان بن يغمراسن وابنه ، وكان لهم في دولة أبي حمو مزيد حظوة وعناية ، فولّى على حجابته منهم لأوّل دولته محمد بن ميمون بن الملاح . ثم ابنه محمد الأشقر من بعده . ثم ابنه ابراهيم بن محمد من بعدهما ، واشترك معه من قرابته علي بن عبدالله بن الملاح ، فكانا يتوليان مهمه بداره ويحضران خلوته مع خاصته ، فحضروا يومئذ مع السلطان بعد انفضاض مجلسه كما قلناه ، ومعه من القرابة مسعود القليل وحاموش بن عبد الملك بن حنينة . ومن الموالي معروف الكبير ابن أبي الفتوح بن عنتر من ولد نصر بن عليّ أمير بني يزيد^(١) بن توجين ، وكان السلطان قد استوزره .

(فلما علم) أبو تاشفين باجتماعهم هجم ببطانته عليهم وغلبوا الحاجب عليّ بابه حتى ولجوه متسايلين بعد أن استمسكوا من اغلاقه ، حتى إذا توسّطوا الدار اعتوروا السلطان بأسيافهم فقتلوه . وحام أبو تاشفين عنها ، فلم يفرجوا عليه ولاذ أبو سرحان منهم ببعض زوايا الدار ، واستمكن من غلقها دونهم ، فكسروا الباب وقتلوه ، واستلحموا من كان هنالك من البطانة ، فلم يفلت إلا الأقل . وهلك الوزراء بنو الملاح واستبيحت منازلهم . وطاف الهاتف بسكك المدينة بأنّ أبا سرحان غدر بالسلطان ، وأنّ ابنه أبا تاشفين ثأر منه ، فلم يخف على الناس الشأن . وكان موسى ابن عليّ الكرديّ قائد العساكر قد سمع الصيحة فركب إلى القصر ، فوجده مغلقاً دونه ، فظنّ الظنون فخشى استيلاء مسعود على الأمر فبعث إلى العباس بن يغمراسن كبير القرابة ، فأحضره عند باب القصر حتى إذا مرّ بهم الهاتف واستيقن مهلك أبي سرحان ، ردّ العباس على عقبه إلى منزله . ودخل إلى السلطان أبي تاشفين ، وقد أدركه الدهش من الواقعة فثبته ونشطه فحفه ، وأجلسه بمجلس أبيه وتولى له عقد البيعة على قومه خاصة وعلى الناس عامّة ، وذلك آخر جمادى الأولى من تلك السنة . وجهز السلطان إلى مدفنه بمقبرة سلفه من القصر القديم ، وأصبح مثلاً في الآخرين والبقاء لله .

وأشخص السلطان لأوّل ولايته سائر القرابة الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن ،

(١) وفي نسخة اخرى : يزنانن .

وأجازهم إلى العدو حذراً من مغبة ترشيحهم ، وما يتوقع من الفتن على الدولة من قبلهم وقلد حجابته مولاه هلالاً فاضطلع بأعبائها ، واستبد بالعدو والحل والابرام والنقض صدراً من دولته ، إلى أن نكبه حسبا نذكره . وعقد ليحيى بن موسى السنوسي من صنائع دولتهم على شلف وسائر أعمال مغراوة ، وعقد لمحمد بن سلامة بن عليّ على عمله من بلاد بني يدلتن من توجين ، وعزل أخاه سعداً ، فلحق بالمغرب . وعقد لموسى بن عليّ الكردي على قاصية المشرق ، وجعل إليه حصار بجاية ، وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين ، فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك أربى عليه ، فاحتفلت القصور والمصانع في الحسن ما شاءت ، واتسعت أخباره على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين لمحمد بن يوسف بجبل وانشريس واستيلاؤه عليه

كان محمد بن يوسف بعد مرجع السلطان أبي حمو كما ذكرناه قد تغلب على جبل وانشريس ونواحيه واجتمع إليه الفلّ من مغراوة فاستفحل أمره ، واشتدّت في تلك النواحي شوكته . وأهمّ أبا تاشفين أمره فاعترم على النهوض إليه ، وجمع لذلك وأزاح العلل . وخرج من تلمسان سنة تسع عشرة وسبعمائة واحتشد سائر القبائل من زناتة والعرب ، وأناخ على وانشريس وقد اجتمع به بنو توجين ومغراوة مع محمد بن يوسف . وكان تيغرين من بني توجين بطانة ابن عبد القويّ يرجعون في رياستهم إلى عمر بن عثمان بن عطية حسبا نذكره . وكان قد استخلص سواه من بني توجين دونه فأسفه بذلك ، وداخل السلطان أبا تاشفين وواعده أن يتحرّك^(١) عنه ، فاقترح السلطان عليهم الجبل وانحجزوا جميعاً إلى حصن توكال ، فخالفهم عمر بن عثمان في قومه إلى السلطان بعد أن حاصرهم ثمانياً ، فتخرّم الجمع واختلّ الأمر وانفضّ الناس فاقترح الحصن ، وتقبّض على محمد بن يوسف وجيء به إلى السلطان أسيراً وهو في مركبه فعدّد عليه ، ثم وخزه برمحه ، وتناوله الموالي برماحهم فأقعصوه ، وحمل رأسه

(١) وفي نسخة ثانية : ان ينحرف عنه .

على القناة إلى تلمسان ، فنصب بشرفات البلد ، وعقد لعمر بن عثمان على جبل
وانشريس وأعمال بني عبد القوي ، ولسعيد العربي من مواليه على عمل المرية .
وزحف إلى الشرق فأغار على أحياء رياح وهم بوادي الجنان حيث الثنية المفضية من
بلاد حمزة إلى القبلة ، وصبح أحياءهم فاكتسح أموالهم ومضى في وجهه إلى
بجاية ، فعرس بساحتها ثلاثاً وبها يومئذ الحاجب يعقوب بن عمر فامتنعت عليه ،
فظهر له وجه المعذرة لأوليائهم في استحسانها لهم . وقفل إلى تلمسان إلى أن كان من
أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدين التي كان فيها
حتفه وذهاب سلطانه وانقراض الامر عن قومه برهة من الدهر

لما رجع السلطان أبو تاشفين من حصار بجاية سنة تسع عشرة وسبعائة اعتمل في ترديد
البعوث إلى قاصية الشرق ، والإلحاح بالغزو إلى بلاد الموحدين ، فأغزاها جيوشه سنة
عشرين وسبعائة فدوخوا ضواحي بجاية وقفلوا . ثم غزاهم ثانية سنة إحدى وعشرين
وسبعائة وعليهم موسى بن عليّ الكردي فانهى إلى قسنطينة وحاصرها فامتنعت عليه
فأفرج عنها ، وابتنى حصن بكر لأول مضيق الوادي ، وادي بجاية ، وأنزل به
العساكر لنظر يحيى بن موسى قائد شلف وقفل إلى تلمسان . ثم نهض موسى بن عليّ
ثالثة سنة إثنين وعشرين وسبعائة فدوخوا نواحي بجاية ونازلها أياماً وامتنعت عليه فأفرج
عنها . ووفد سنة ثلاث وعشرين وسبعائة على السلطان حمزة بن عمر بن أبي الليل
كبير البدو بأفريقية صريحاً على صاحب أفريقية مولانا السلطان أبي يحيى ، فبعث
معهم العساكر من زناتة وعامتهم من بني توجين وبني راشد ، وأمر عليهم القواد
وجعلهم لنظر قائده موسى بن عليّ الكردي ، ففصلوا إلى أفريقية ، وخرج السلطان
للقائهم ، فانهزموا بنواحي مرماجنة ، وتخطفتهم الأيدي فاستلحموا ، وقتل مسامح
مولاه ، ورجع موسى بن عليّ ، فاتهمه السلطان بالادهان وكان من نكته ما نذكره
في أخباره وسرح العساكر سنة أربع وعشرين وسبعائة فدوخت نواحي بجاية ، ولقيهم
ابن سيّد الناس فهزموهم ، ونجا إلى البلد .

ووفد على السلطان سنة خمس وعشرين وسبعائة مشيخة سلّيم حمزة بن عمر بن

أبي الليل وطالب بن مهلهل ، الغملان المتزاحمان في رئاسة الكعوب . ومحمد بن مسكين من بني القوس كبراء حكيم ، فاستحثوه للحركة واستصرخوه على أفريقية ، وبعث معهم العساكر لنظر قائده موسى بن علي ونصب لهم ابراهيم بن أبي بكر الشهيد من أعيان الحفصيين . وخرج مولانا السلطان أبو يحيى من تونس للقائهم وخشيهم على قسنطينة فسابقهم إليها ، فأقام موسى بن علي بعساكره على قسنطينة ، وتقدم ابراهيم بن أبي بكر الشهيد في أحياء سليم إلى تونس فملكها كما ذكرناه في أخبارهم . وامتنعت قسنطينة على موسى بن علي فأقلع^(١) عنها لخمس عشرة ليلة من حصارها وعاد إلى تلمسان . ثم أغزاه السلطان سنة ست وعشرين وسبعمئة في الجيوش وعهد إليه بتدويخ الضاحية ومحاصرة الثغور ، فنازل قسنطينة وأفسد نواحيها . ثم رجع إلى بجاية فحاصرها ، ثم عزم على الإقلاع ورأى أن حصن بكر غير صالح لتجهيز الكتائب إليها لبعده ، وارتاد للبناء عليها ما هو أقرب منه ، فاخترت بمكان سوق الخميس بوادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب لها على بجاية ، وجمع الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر ، فتمت لأربعين يوماً وسموها تامززدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجبل قبله وجدة ، وأنزل بها عساكر تناهز ثلاثة آلاف ، وأوعز السلطان إلى جميع عماله ببلاد المغرب الأوسط بنقل الحبوب إليها حيث كانت ، والأدم وسائر المرافق حتى الملح ، وأخذ الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم . فثقلت وطأتهم على بجاية واشتد حصارها وغلت أسعارها .

(وبعث) مولانا السلطان أبو يحيى جيوشه وقواده سنة سبع وعشرين وسبعمئة فسلخوا إلى بجاية على جبل بني عبد الجبار ، وخرج بهم قائدها أبو عبدالله بن سيد الناس إلى ذلك الحصن . وقد كان موسى بن علي عند بلوغ خبرهم إليه استنفر الجنود من ورائه ، وبعث إلى القواد قبله بالبراز فالتقى الجمعان بضاحية تامززدكت ، فانكشف ابن سيد الناس ومات ظافر الكبير مقدم الموالي من العلوجين بباب السلطان واستبيح معسكرهم . ولما سخط السلطان قائده موسى بن علي ونكبه كما نذكره في أخباره أغزى يحيى بن موسى السنوسي في العساكر إلى أفريقية ومعه القواد ، فعاثوا في

(١) وفي نسخة ثانية : فأفرج عنها .

نواحي قُسْنُطِينَةَ وانتهوا إلى بلد بونة ورجعوا . وفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة بعدها
وفد حمزة بن عمر على السلطان أبي تاشفين صريحاً ، ووفد معه أو بعده عبد الحق
ابن عثمان ، فحلّ الشول من بني مرين . وكان قد نزل على مولانا السلطان أبي يحيى
منذ سنين ، فسخط بعض أحواله ولحق بتلمسان ، فبعث السلطان معهم جميع قواده
بجيوشه لنظر يحيى بن موسى . ونصب عليهم محمد بن أبي بكر بن عمران من
أعيان الحفصيين ، ولقيهم مولانا السلطان أبو يحيى بالدياس^(١) من نواحي بلاد
هوّارة ، وانخزل عنه أحياء العرب من أولاد مهلهل الذين كانوا معه ، وانكشفت
جموعه واستولى على طعائنه بما فيها من الحرم ، وعلى ولديه أحمد وعمر ، فبعثوا بهم
إلى تلمسان ، ولحق مولانا المنصور أبو يحيى بقُسْنُطِينَةَ وقد أصابه بعض الجراحة في
حومة الحرب ، وسار يحيى بن موسى وابن أبي عمران إلى تونس ، واستولوا عليها
ورجع يحيى بن موسى عنهم بجموع زناتة لأربعين يوماً من دخولها ، فقفل إلى تلمسان
وبلغ الخبر إلى مولانا السلطان أبي يحيى بقفول زناتة عنهم ، فنهض إلى تونس
وأجهض عنها ابن أبي عمران بعد أن كان أوفد من بجاية ابنه أبا زكريا يحيى ومعه
محمد بن تافراكين من مشيخة الموحدين صريحاً على أبي تاشفين ، فكان ذلك
داعية إلى انتفاض ملكه كما نذكره بعد . وداخل السلطان أبا تاشفين بعض أهل
بجاية ، ودلّوه على عورتها ، واستقدموه فنهض إليها وحذر بذلك الحاجب ابن سيّد
الناس فسابقه إليها ، ودخل يوم نزوله عليها ، وقتل من اتهمه بالمداخلة فانحسم الداء .
وأقلع السلطان أبو تاشفين عنها ، وولّى عيسى بن مزروع من مشيخة بني عبد الواد على
الجيش الذي بتامز يزدكت ، وأوعز إليه ببناء حصن أقرب إلى بجاية من تامز يزدكت
فبناه بالياقونه من أعلى واد قبالة بجاية . فأخذ بمخنقها واشتدّ الحصار إلى أن أخذ
السلطان أبو الحسن بحجزتهم ، فأجفلوا جميعاً إلى تلمسان ، ونفس مخنق الحصار عن
بجاية . ونهض مولانا السلطان أبو يحيى بجيوشه من تونس إلى تامز يزدكت سنة اثنتين
وثلاثين وسبعمائة فخرّبها في ساعة من نهار كأن لم تغن بالأمس ، حسبنا ذكرنا ذلك
في أخباره . والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : الرياس .

* (الخبر عن معاودة الفتنة بين بني مرين وحصارهم تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين ومصائر ذلك) *

كان السلطان أبو تاشفين قد عقد السلم لأول دولته مع السلطان أبي سعيد ملك المغرب ، فلما انتقض عليه ابنه أبو علي سنة اثنتين وعشرين وسبعمئة بعد المهادنة الطويلة من لدن استبداده بسجلاسة ، بعث ابنه القعقاع إلى أبي تاشفين في الأخذ بحجزه أبيه عنه ، ونهض هو إلى مراکش فدخلها . وزحف إليه السلطان أبو سعيد فبعث أبو تاشفين قائده موسى بن علي في العساكر إلى نواحي تازي ، فاستباح عمل كارث ، واكتسح زروعه وقفل . واعتدّها عليه السلطان أبو سعيد ، وبعث أبو تاشفين وزيره داود بن علي بن مكن رسولاً إلى السلطان أبي علي بسجلاسة ، فرجع عنه مغاضباً وجنح أبو تاشفين بعدها إلى التمسك بسلم السلطان أبي سعيد ، فعقد لهم ذلك وأقاموا عليها مدة . فلما نفر ابن مولانا السلطان أبي يحيى على السلطان أبي سعيد ملك المغرب ، وانعقد الصهر بينهم كما ذكرناه في أخبارهم ، وهلك السلطان أبو سعيد ، نهض السلطان أبو الحسن إلى تلمسان بعد أن قدم رسله إلى السلطان أبي تاشفين في أن يقلع بجيوشه عن حصار بجاية ، ويتجافى للموحدين عن عمل تنس^(١) فأبى وأساء الرد ، وأسمع الرسل بمجلسه هجر القول . وأفرغ لهم الموالي في الشتم لمرسالهم بمسمع من أبي تاشفين ، فأحفظ ذلك السلطان أبو الحسن ونهض في جيوشه سنة اثنتين وثلاثين إلى تلمسان فتخطاها إلى تاسالت وضرب بها معسكره ، وأطال المقام وبعث المدد إلى بجاية مع الحسن البطوي من صنائعه ، وركبوا في أساطيله من سواحل وهران ووافاهم مولانا السلطان أبو يحيى ببجاية وقد جمع لحرب بني عبد الواد وهدم تامز يزدكت وجاء لموعد السلطان أبي الحسن معه أن يجتمعا بعساكرهما لحصار تلمسان ، فهض من بجاية إلى تامز يزدكت وقد أجفل منها عساكر بني عبد الواد وتركوها قفراً^(٢) . ولحقت بها عساكر الموحدين ، فعاثوا فيها تخريباً ونهباً . وألصقت جدرانها بالأرض وتنفس منقح بجاية من الحصار ، وانكمش بنو عبد الواد

(١) وفي نسخة ثانية : تدلس .

(٢) وفي نسخة ثانية : قواء .

إلى ما وراء نخومهم .

وفي خلال ذلك انتقض أبو عليّ ابن السلطان أبي سعيد على أخيه ، وضمد من مقره بسجلاسة إلى درعة ، وفتك بالعامل وأقام فيها دعوته كما نذكر ذلك بعد . وطار الخبر إلى السلطان أبي الحسن بمحلته بتاسالت ، فنهض^(١) راجعاً إلى المغرب لحسم دائه ، وراجع السلطان أبو تاشفين عزّه وانبسطت عساكره في ضواحي عمله ، وكتب الكتاب وبعث بها مدداً للسلطان أبي عليّ . ثم استنفر قبائل زناتة وزحف إلى نخوم المغرب سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة ليأخذ بحجزه السلطان أبي الحسن عن أخيه ، وانتهى إلى الثغر من تاوريرت ولقيه هناك تاشفين ابن السلطان أبي الحسن في كتيبة جهّزها أبوه معه هنالك لسدّ الثغور ، ومعه منديل بن حمّامة شيخ بني تيريفين من بني مرين في قومه . فلما برزوا إليه انكشف ورجع إلى تلمسان . ولما تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه وقتله سنة أربع وثلاثين وسبعمئة جمع لغزو تلمسان وحصارها ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعمئة وقد استنفذ وسعه في الاحتفال لذلك واضطربت بها عساكره وضرب عليها سياج الأسوار وسرادقات الحفائر أطيفت^(٢) عليهم ، حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم . وسرح كتائبه إلى القاصية من كل جهة ، فتغلب على الضواحي وافتتح الأمصار جميعاً ، وخرّب وجدة كما يأتي ذكر ذلك كله . وألحّ عليها بالقتال يغاديا ويراوحها ، ونصب المجانيق وانحجز بها مع السلطان أبي تاشفين زعماء زناتة من بني توجين وبني عبد الواد وكان عليهم في بعض أيامها اليوم المشهور الذي استلحمت فيه أبطالهم وهلك أمراؤهم . وذلك أنّ السلطان أبا الحسن كان يباكرهم في الاسحار فيطوف من وراء أسواره التي ضربها عليهم شوطاً يرتب المقاتلة ويثقف الأطراف ويسدّ الفروج ويصلح الخلل ، وأبو تاشفين يبعث العيون في ارتصاد فرصه فيه ، وأطاف في بعض الأيام منتبذاً عن الحملة فكمنوا له حتى اذا سلك ما بين الجبل والبلد انقضوا عليه يحسبونها فرصة قد وجدوها ، وضايقوه حتى كاد السرعان من الناس أن يصلوا إليه ، وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحداناً ، وركب ابناه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك جناحاً عسكريه ، وعقاباً جحافله وتهاوت إليهم صقور بني مرين من كل جوّ ، فانكشفت عساكر البلد ورجعوا

(١) وفي نسخة ثانية : فنكص .

(٢) وفي نسخة ثانية : اطبقت .

القهقري ، ثم ولّوا الأدبار منهزمين لا يلوي أحدٌ منهم على أحد ، واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه ، فكان الهالك يومئذ بالردم أكثر من الهالك بالقتل . وهلك من بني توجين يومئذ كبير الحشم وعامل جبل وانشريس ، ومحمد بن سلامة بن علي أمير بني يَدْلُتِن وصاحب قلعة تاوغزوت^(١) وما إليها من عملهم ، وهما ما هما في زناة إلى أشباههما وأمثال استلحموا في هذه الواقعة فحط^(٢) هذا اليوم جناح الدولة وحطم منها ، واستمرت منازل السلطان أبي الحسن إياها إلى آخر رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمئة فاقتحمها يوم السابع والعشرين منه غلاباً . ولحاً السلطان أبو تاشفين إلى باب قصره في لمة من أصحابه ، ومعه ولداه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن عليّ وعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من أعياص بني مرين ، وهو الذي لحق بهم من تونس كما ذكرناه ، وسيأتي ذكره وخبره . ومعه يومئذ ابنا أخيه أبو زيّان وأبو ثابت فمانعوا دون القصر مستميتين إلى أن استلحموا ورفعت رؤسهم على عصي الرماح ، فطيف بها ، وغصت سكك البلد من خارجها وداخلها بالعساكر ، وكظت أبوابها بالزحام ، حتى لقد كبّ الناس على أذقانهم وتواقفوا فوطثوا بالحوافر وتراكمت أشلائهم ما بين البابين حتى ضاق المذهب ما بين السقف ومسلك الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهياً واكتساحاً ، وخلص السلطان إلى المسجد الجامع ، واستدعى رؤساء الفتيا والشورى أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى ابني الإمام ، قدمها من أعماله لمكان معتقده في أهل العلم ، فحضره ورفعوا إليه أمر الناس وما نالهم من معرة العسكر ووعظوه فأجاب ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك ، فسكن الاضطراب وأقصر العيث . وانتظم السلطان أبو الحسن أمصار المغرب الأوسط وعمله إلى سائر أعماله . وتاخم الموحدون بثغوره وطمس رسم الملك لآل زيّان ومعامله ، واستتبع زناة عصباً تحت لوائه من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وأقطعهم ببلاد المغرب سهاماً أداهم بها من تراثهم من أعمال تلمسان ، فانقرض ملك آل يغمراسن برهة من الدهر إلى أن أعاده منهم أعياص سموا إليه بعد حين عند نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان كما نذكره ، فأومض بارقه ، وهبّت ريحه ، والله يؤتي ملكه من يشاء .

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : تاوعزوت .

(٢) وفي نسخة ثانية : في هذه الوقائع . فقض هذا اليوم .

* (الخبر عن رجال دولته وهم موسى بن علي ويحيى بن موسى ومولاه هلال وأوليتهم ومصاير أمورهم واختصاصهم بالذکر لما صار من شهرتهم وارتفاع صيتهم) *

فأما موسى بن علي الحاجب الهالك مع السلطان ، فأصله من قبيلة الكرد من أعاجم المشرق ، وقد أشرنا إلى الخلاف في نسبهم بين الأمم . وذكر المسعودي منهم أصنافاً سماهم في كتابه من الشاهجان والبرسان والكيكان إلى آخرين منهم ، وأن مواطنهم ببلاد أذربيجان والشام والموصل ، وأن منهم نصارى على رأي اليعقوبية وخوارج على رأي البراءة من عثمان وعلي انتهى كلامه .

(وكان) منهم طوائف بجبل شهرزور من عراق العجم وعامتهم يتقلبون في الرحلة . ويتجمعون لسائماتهم مواقع الغيث ، ويتخذون الخيام لسكناهم من اللبود ، وجل مكاسبهم الشاء والبقر من الأنعام ، وكانت لهم عزة وامتناع بالكثرة ورياسات ببغداد أيام تغلب الأعاجم على الدولة واستبدادهم بالرياسة . ولما طمس ملك بني العباس وغلب التتر على بغداد سنة ست وخمسين وستائة ، وقتل ملكهم هلاون آخر خلفاء العباسيين ، وهو المستعصم . ثم ساروا في ممالك العراق وأعماله ، فاستولوا عليها وعبر الكثير من الكرد نهر الفرات فراراً أمام التتر لما كانوا يدينون بدين الجوسية وصاروا في إيالة الترك ، فاستنكف أشرافهم وبيوتاتهم من المقام تحت سلطانهم . وجاز منهم إلى المغرب عشيرتان تعرفان ببني لوين وبني باير^(١) فيمن إليهم من الأتباع ودخلوا المغرب لآخر دولة الموحدين ونزلوا على المرتضى بمراكش فأحسن تلقيهم وأكرم مثوهم ، وأسنى لهم الجراية والأقطاع وأحلهم بالمحل الرفيع من الدولة .

(ولما انتفض) أمر الموحدين بحدثان ووصولهم صاروا إلى ملكة بني مرين ، ولحق بعضهم بيغمراسن بن زيان ، ونزع المستنصر إلى أفريقية يومئذ بيت من بني باير لا أعرفهم ، كان منهم محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار ، صاحب مولانا السلطان أبي يحيى وآخرون غيره منهم ركان^(٢) من أشهر من بقي في إيالة بني مرين منهم . ثم

(١) وفي نسخة ثانية : بني تابير .

(٢) وفي نسخة ثانية : وكان .

من بني بابير علي بن حسن بن صاف وأخوه سلمان ، ومن بني لوين الخضر بن محمد ،
ثم بنو حمّور ، ثم بنو بوضة . وكانت رياسة بني بابير لسلمان وعليّ ، ورياسة لوين
لخضر بن محمد . وكادت تكون الفتنة بينهم كما كانت في مواطنهم الاولى ، فاذا
اتعدوا للحرب توافت إليهم أشياعهم من تلمسان ، وكان نضالهم بالسهام وكانت
القيسيّ سلاحهم . وكان من أشهر الوقائع بينهم وقيعه بفاس سنة أربع وسبعين
وستائة ، جمع لها خضر رئيس بني لوين وسلمان وعليّ رئيسا بني بابير ، واقتتلوا خارج
باب الفتوح . وتركهم يعقوب بن عبد الحق لشأنهم من الفتنة حياء منهم ، فلم يعرض
لهم . وكان مهلك سلمان منهم بعد ذلك مرابطاً بثغر طريف عام تسعين وستائة ، وكان
لعليّ بن حسن ابنه موسى اصطفاه السلطان يوسف بن يعقوب ، وكشف له الحجاب
عن داره ، وربى بين حرمة فتمكّنت له دالة سخط بسببها بعض الأحوال مما لم
يرضه ، فذهب مغاضباً ودخل إلى تلمسان أيام كان يوسف بن يعقوب محاصراً لها ،
فتلقاه عثمان بن يغمراسن من التكرمة والترحيب بما يناسب محلّه من قومه ومترلته من
اصطناع السلطان . وأشار يوسف بن يعقوب على أبيه باستمالته فلقبه في حومة القتال
وحادثه واعتذر له بكرامة القوم إياه ، فحضّه على الوفاء لهم ، ورجع إلى السلطان
فخبّره الخبر فلم ينكر عليه . وأقام هو بتلمسان وهلك أبوه عليّ بالمغرب سنة سبع
وسبعائة .

ولما هلك عثمان بن يغمراسن بن زيّان زاده بنوه اصطناعاً ومداخلةً ، وخلطوه
بأنفسهم وعقدوا له على العساكر لمحاربة أعدائهم . وولّوه الأعمال الجليلة والرتب
الرفيعة من الوزارة والحجابة . ولما هلك السلطان أبو حمو وقام بأمره ابنه أبو تاشفين ،
وكان هو الذي تولّى له أخذ البيعة على الناس ، وغصّ بمكانه مولاه هلال فلما استبدّ
عليه وكان كثيراً ما ينافس موسى بن علي ويناقشه ، فخشيه على نفسه ، وأجمع على
إجازة البحر للمرابطة بالأندلس ، فبادره هلال وتقبّض عليه وغرّبه إلى العدو ونزل
بغرناطة ، وانتظم في الغزاة المجاهدين وأمسك عن جرایة السلطان فلم يمدّ إليها يوماً
مقامه ، وكانت من أنزه ما جاء به وتحدّث به الناس فأغربوا ، واتقدت لها جوانح
هلال حسداً وعداوةً ، فأغرى سلطانه فخطب ابن الأحمر في استقدامه ، فأسلمه
إليه . واستعمله السلطان في حروبه على قاصيته حتى كان من نهوضه بالعساكر إلى
أفريقية للقاء مولانا السلطان أبي يحيى سنة سبع وعشرين وسبعائة . وكانت الدبرة

عليه واستلحمت زناته ، ورجع في الفلّ فأغرى هلال السلطان وألقى في نفسه التهمة به . ونمي ذلك إليه فلحق بالعرب الزواودة ، وعقد مكانه على محاصرة بجاية ليحيى ابن موسى صاحب شلف ، ونزل هو على سليمان ويحيى بن علي بن سبّاع بن يحيى من أمراء الزواودة في أحيائهم^(١) فلقوه مبرة وتعظيماً ، وأقام بين أحيائهم مدّة ، ثم استقدمه السلطان ورجع إلى محلّه من مجلسه . ثم تقبّض عليه لأشهر ، وأشخصه إلى الجزائر فاعتقله بها وضيق عليه محبسه ذهاباً مع أغراض منافسة هلال ، حتى إذا أسخط هلالاً استدعاه من محبسه أضيق ما كان ، فانطلق إليه . فلما تقبّض على هلال قلّد موسى بن عليّ حجابته ، فلم يزل مقيماً لرسمها إلى يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان ، فهلك مع أبي تاشفين وبنيه في ساحة قصرهم كما قلناه . وانقضى أمره والبقاء لله .

وانتظم بنوه بعد مهلكه في جملة السلطان أبي الحسن وكان كبيرهم سعيد قد خلص من بين القتلى في تلك الملحمة بباب القصر بعد هدوء من الليل مشخناً بالجراح ، وكانت حياته بعدها تعدّ من الغرائب ، ودخل في عفو السلطان إلى أن عادت دولة بني عبد الواد ، فكان له في سوقها نفاق حسبما نذكره والله غالب على أمره .
(وأما يحيى بن موسى) فأصله من بني سنّوس إحدى بطون كومية ، ولهم ولاء في بني كمين^(٢) بالاصطناع والتربية . ولما فصل بنو كمين إلى المغرب قعدوا عنهم واتصلوا ببني يغمراسن واصطنعوه ، ونشأ يحيى بن موسى في خدمة عثمان وبنيه واصطناعهم . (ولما كان) الحصار ولآه أبو حمو مهمة من التطواف بالليل على الحرس بمقاعدهم من الأسوار ، وقسم القوات على المقاتلة بالمقدار ، وضبط الأبواب والتقدّم في حومة الميدان^(٣) ، وكان له أعوان على ذلك من خدّامه قد لزموا الكون معه في البكر والآصال . والليل والنهار ، وكان يحيى هذا منهم فعرفوا له خدمته وذهبوا إلى اصطناعه وكان من أوّل ترشيحه ترديد أبي يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم : فيما يدور بينهم من المضاربة ، فكان يجليّ في ذلك ويوفي من عرض مرسله^(٤) ، ولما خرجوا من الحصار أربوا به على رتب الاصطناع والتنويه .

(١) وفي نسخة ثانية : المذكورين في أخبارهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : بني كمي .

(٣) وفي نسخة ثانية : في حومة القتال .

(٤) وفي نسخة ثانية : ويؤتي غرض مرسله .

(ولما ملك أبو تاشفين) استعمله بشلف مستبدًا بها وأذن له في اتخاذ الآلة . ثم لما عزل موسى بن علي عن حرب الموحدين وقاصية الشرق عزله به ، وكانت المرية وتنس من عمله . فلما نازل السلطان أبو الحسن تلمسان راسله بالطاعة والكون معه ، فتقبله وجاء به ^(١) من مكان عمله ، فقدم عليه بمخيمه على تلمسان ، فاخصه باقباله ورفع مجلسه من بساط ، ولم يزل عنده بتلك الحال إلى أن هلك بعد افتتاح تلمسان والله مصرف الأقدار .

(وأما هلال) فأصله من سبي النصارى القطلونيين أهداه السلطان ابن الأحمر الى عثمان بن يغمراسن ، وصار إلى السلطان أبي حمو فأعطاه إلى ولده أبي تاشفين فيما أعطاه من الموالي المعلوجين ، ونشأ عنده وتربى ، وكان مختصًا عنده بالراحة والدالة ، وتولى كبر تلك الفعلة التي فعلوا بالسلطان أبي حمو . ولما ولي بعده ابنه أبو تاشفين ولآه على حجابته ، وكان مهيباً فظاً غليظاً ، ففقد مقعد الفصل ببابه وأرف للناس سطوه ^(٢) ، وزحزح المرشحين عن رتب الماثلة إلى التعلق بأهدابه ، فاستولى على الأمر واستبد على السلطان . ثم حذر مغبة الملك وسوء العواقب ، فاستأذن السلطان في الحج وركب إليه من هُنَيْن بعض السفن اشتراها بهاله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة ، وأقام كاتبه الحاج محمد بن حوارة ^(٣) بباب السلطان على رسم النيابة عنه ، وأقلع سنة أربع وعشرين وسبعمائة فنزل بالاسكندرية وصحب الحاج من مصرفي جملة الأمير عليهم ، ولقي في طريقه سلطان السودان من آل منسى موسى ، واستحكمت بينهما المودة . ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان . فلم يجد مكانه من السلطان ولم يزل من بعد ذلك يتنكر له وهو يسايسه بالمداراة والاستجداء إلى أن سخطه ، فتقبض عليه سنة تسع وعشرين وسبعمائة وأودعه سجنه ، فلم يزل معتقلاً إلى أن هلك من وجع أصابه قبيل فتح تلمسان ، ومهلك السلطان بأيام ، فكانت آية عجباً في تقارب مهلكها واقتران سعادتها ونحوسها . وقد كان السلطان أبو الحسن يتبع الموالي الذين شهدوا مقتل السلطان أبي حمو ، وأفلت هلال هذا من عقابه بموته . والله بالغ حكمه .

(١) وفي نسخة ثانية : وجأجا .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأرهب الناس سطوته .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : حوته .

الخبر عن انتزاع عثمان بن جرار على ملك تلمسان بعد نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان وعود الملك بذلك لبني زيان

كان بنو جرار هؤلاء من فضائل نيدوكسن^(١) بن طاع الله وهم بنو جرار بن يعلى بن نيدوكسن ، وكان بنو محمد بن زكراز يفضون إليهم من أول الأمر ، حتى صار الملك إليهم واستبدوا به ، فجزّوا على جميع الفصائل من عشائهم ذيل الاحتقار . ونشأ عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار هذا من بينهم مرموقاً بعين التجلّة والرياسة ، وسعى عند السلطان أبي تاشفين بأن في نفسه تطاولاً للرياسة فاعتقله مدّة . وفرّ من محبسه فلاحق بملك المغرب السلطان سعيد فأثر محله وأكرم منزله ، واستقرّ بمثواه فنسك وزهد . واستأذن السلطان عند تغلّبه على تلمسان في الحج بالناس فأذن له . وكان قائد الركب من المغرب إلى مكة سائر أيامه حتى استولى السلطان أبو الحسن على أعمال الموحدّين ، وحشد أهل المغرب من زناتة والعرب لدخول أفريقية اندرج عثمان هذا في جملته ، واستأذنه قبيل القيروان في الرجوع إلى المغرب فأذن له ولحق بتلمسان فترل على أميرها من ولد الأمير أبي عنان ، كان قد عقد له على عملها ، ورشّحه لولاية العهد بولايتها ، فازدلف إليه بما بثّه من الخبر عن أحوال أبيه ، وتلطّف فيما أودع سمعه من تورّط أبيه في مهالك أفريقية ، وإيأاسه من خلاصه ، ووعدّه بمصير الأمر إليه على السنة الخبراء والكهّان . وكان يظنّ فيه أنّ لديه من ذلك علماً ، وعلى تفيئة ذلك كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان . وظهر مصداق ظنّه وإصابة قياسه فأغراه بالتوثّب على ملك أبيه بتلمسان ، والبدار إلى فاس لغلب منصور ابن أخيه أبي مالك عليها ، كان استعمله جدّه أبو الحسن هنالك وأراه آية سلطانه وشواهد ملكه ، وتحيل عليه في إشاعة مهلك السلطان أبي الحسن والقائه على الألسنة حتى أوهم صدقه . وتصدّى الأمير أبو عنان للأمر ، وتسايل إليه الفلّ من عساكر بني مرين ، فاستلحق وبث العطاء وأعلن بابا لدعاء نفسه في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمئة وعسكر خارج تلمسان للنهوض إلى المغرب كما نذكره في أخبارهم ولما فصل دعا عثمان لنفسه وانتزى على كرسيه واتخذ الآلة وأعاد من ملك بني عبد الواد رسماً لم

(١) كذا في النسخة الباريسية نيدوكسن وفي نسخة أخرى : تيدوكسن .

يكن لآل جرار ، واستبدَّ أشهراً قلائل إلى أن خلص إليه من آل زيان من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن من طمس معلمه ، وخسف به وبداره ، وأعاد أمر بني عبد الواد في نصابه حسبما ذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من آل يغمراسن وما فيها من الأحداث) *

كان الأمير أبو يحيى جدّهما من أكبر ولد يغمراسن بن زيان ، وكان ولي عهده بعد مهلك أخيه عمر الأكبر . ولما تغلب يغمراسن على سجلماسة سنة إحدى وستين وستمائة استعمله عليها ، فأقام بها حولاً وولد له هناك ابنه عبد الرحمن . ثم رجع إلى تلمسان فهلك بها ونشأ عبد الرحمن بسجلماسة ، ولحق بتلمسان بعد أمه^(١) ، فأقام مع بني أبيه إلى أن غصّ السلطان بمكانه وغرّبه إلى الأندلس ، فكث بها حيناً ، وهلك في مرابطته بثغر قرمونة في بعض أيام الجهاد . وكان له بنون أربعة يوسف وعثمان والزعيم وإبراهيم ، فرجعوا إلى تلمسان وأوطنوها أعواماً حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن على ملكهم ، وأضاف إلى دولته دولتهم نقلهم من تلمسان إلى المغرب في جملة أعيانهم . ثم سألوا إذنه في المرابطة بثغور الأندلس التي في عمله ، فأذن لهم وفرض لهم العطاء وأنزلهم بالجزيرة فكانت لهم بالجهاد مواقف مذكورة ومواطن معروفة . ولما استنفر السلطان أبو الحسن زناته لغزو أفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعائة كانوا في جملته مع قومهم بني عبد الواد وفي رايتهم ، ومكانهم معلوم بينهم . فلما اضطرب أمر السلطان أبي الحسن وتآلب عليه الكعوب من بني سلّيم أعراب أفريقية ، وواضعوه الحرب بالقيروان ، كان بنو عبد الواد أول النازعين عنه إليهم . فكانت النكبة وانحجز بالقيروان وانطلقت أيدي الأعراب على الضواحي وانتقض المغرب من سائر أعماله ، أذنوا لبني عبد الواد في اللحاق بقطرهم ومكان عملهم ، فمروا بتونس وأقاموا بها أياماً ، وخلص الملاء منهم نجياً في شأن أمرهم ومن يقدّمون عليهم فأصفقوا بعد الشورى على عثمان بن عبد الرحمن واجتمعوا إليه لعهدده بهم يومئذ ، وقد خرجوا به

(١) وفي نسخة ثانية : بعد أبيه .

إلى الصحراء وأجلسوه بباب مصلى العيد من تونس على درقة . ثم ازدحموا عليه بحيث توارى شخصه عن الناس ، يسلمون عليه بالإمارة ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة حتى استهلوا^(١) جميعاً . ثم انطلقوا به إلى رحاهم . واجتمع مغراوة أيضاً إلى أميرهم عليّ بن راشد بن محمد بن ثابت بن مندبل الذي ذكرناه من قبل ، وتعاهدوا على الصحابة إلى أعمالهم والمهادنة آخر الأيام واستثثار كل بسطانه وتراث سلفه ، وارتحلوا على تفيئة ذلك إلى المغرب . وشنت البوادي عليهم الغارات في كل وجه ، فلم يظفروا منهم بقلامة ظفر : مثل ونيفن ونونة وأهل جبل بني ثابت . ولما مروا ببجاية وكان بها قل من مغراوة وتوجين ، نزلوا بها منذ غلبوا على أعمالهم ، وصاروا في جند السلطان فارتحلوا معهم . واعترضهم بجبل الزاب برابرة زواوة ، فأوقعوا بهم وظهر من نجدتهم وبلائهم في الحروب ما هو معروف لأوليم . ثم لحقوا بشلف فتلقتهم قبائل مغراوة ، وبايعوا لسلطانهم عليّ بن راشد فاستوسق ملكه .

وانصرف بنو عبد الواد والأميران أبو سعيد وأبو ثابت بعد أن أحكموا العقد^(٢) وأبرموا الوثاق مع عليّ بن راشد وقومه . وكان في طريقهم بالبطحاء أحياء سويد ومن معهم من أحلافهم قد نزلوا هناك مع شيخهم وترمار بن عريف ، منهزمهم من تاسالت أمام جيوش السلطان أبي عنان فأجفلوا من هنالك ، ونزل بنو عبد الواد مكانهم ، وكان في جملتهم جماعة من بني جرار بن نيدوكسن كبيرهم عمران بن موسى ، ففرّ ابن عثمان بن يحيى بن جرار إلى تلمسان فعقد له على حرب أبي سعيد وأصحابه ، فنزل الجند الذين خرجوا معه إلى السلطان أبي سعيد . وانقلب هو إلى تلمسان والقوم في أثره ، فأدرك بطريقه وقتل . ومّر السلطان إلى البلد فثارت العامة بعثمان بن جرار فاستأمن لنفسه من السلطان فأمنه ودخل إلى قصر الملك آخر جمادى الأخيرة من سنة تسع وأربعين وستائة فاقتعد أريكته وأصدر أوامره واستوزر واستكتب ، وعقد لأخيه أبي ثابت الزعيم على ما وراء بابه من متون^(٣) ملكها ، وعلى القبيل والحروب ، واقتصر هو على ألقاب الملك وأسمائه ولزم الدعة . وتقبّض لأول دخوله على عثمان بن يحيى بن جرار فأودعه المطبق إلى أن مات في رمضان من سنته ، ويقال قتيلاً . وكان

(١) وفي نسخة ثانية : حتى استكملوا جميعاً .

(٢) وفي نسخة ثانية : العهد .

(٣) وفي نسخة ثانية : شؤون .

من أول غزوات السلطان أبي ثابت غزاته إلى كومية ، وذلك أن كبيرهم ابراهيم بن عبد الملك كان شيخاً عليهم منذ حين من الدهر ، وكان يتسب في بني عابد ، وهم قوم عبد المؤمن بن عليّ من بطون كومية . فلما وقع الهرج بتلمسان حسب أنه لا ينجلي غمامه^(١) وحدّثه نفسه بالانتزاع فدعا لنفسه ، وأضرّم بلاد كومية وما إليها من السواحل ناراً وفتنة . فجمع له السلطان أبو ثابت ونهض إلى كومية فاستباحهم قتلاً وسبياً واقتحم هُنَيْن ، ثم ندرومة بعدها . وتقبّض على ابراهيم بن عبد الملك الخارج فجاء به معتقلاً إلى تلمسان وأودعه السجن ، فلم يزل به إلى أن قتل بعد أشهر . وكانت أمصار المغرب الأوسط وثغوره لم تزل على طاعة السلطان أبي الحسن والقيام بدعوته ، وبها حاميته وعمّاله وأقر بها إلى تلمسان مدينة وهران ، كان بها القائد عبد بن سعيد بن جانا من صنائع بني مرين ، وقد ضبطها وثقفها وملاها أقواتاً ورجلاً وسلاحاً ، وملاً مرساها أساطيل ، فكان أول ما قدّموه من أعمالهم النهوض إليه فنهض السلطان أبو ثابت بعد أن جمع قبائل زناتة والعرب ونزل على وهران وحاصرها أياماً . وكان في قلوب بني راشد أحلافهم مرض فدخلوا قائد البلد في الانقضاض على السلطان أبي ثابت ووعدوه الوفاء بذلك عند المناجزة ، فبرز وناجزهم الحرب فانهزم بنو راشد وجروا الهزيمة على من معهم وقتل محمد بن يوسف بن عنان بن فارس أخي يغمراسن بن زيان من أكابر القرابة ، وانتهب المعسكر ونجا السلطان أبو ثابت إلى تلمسان إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن السلطان أبي الحسن وفتح وهران بعدها) *

كان السلطان أبو الحسن بعد وقعة القيروان قد لحق بتونس ، فأقام بها والعرب محاصرون له ينصبون الأعياص من الموحدّين لطلب تونس واحداً بعد آخر كما ذكرناه في أخبارهم . وبينما هو مؤتمل الكربة ووصول المدد من المغرب الأقصى إذ بلغه الخبر بانتشار السكك أجمع ، وبانتقاض ابنه وحافده ، ثم استيلاء بني عنان على المغرب

(١) وفي نسخة ثانية : لا تتجلى غيابه .

كله ، ورجوع بني عبد الواد ومغراوة وتوجين إلى ملكهم بالمغرب الأوسط ووفد عليه يعقوب بن علي أمير الزواودة ، فاتفق مع عريف بن يحيى ، أمير سويد وكبير مجلس السلطان ، على أن يغرياه ببعث ابنه الناصر إلى المغرب الأوسط . للدعوة التي كانت قائمة بأمصاره في الجزائر ووهران وجبل وانشريس ، وكان به نصر بن عمر بن عثمان ابن عطية قائماً بدعوته ، وأن يكون عريف بن يحيى في جملة الناصر لمكانه من السلطان ومكان قومه من الولاية . وكان ذلك من عريف تفادياً من المقام بتونس فأجاب إليه السلطان وبعثهم جميعاً ، ولحق الناصر ببلاد حصين فأعطوه الطاعة وارتحلوا معه ، ولقيه الف والديالم وسويد فاجتمعوا إليه وتآلبوا معه ، وارتحلوا يريدون منداس . وبينما الأمير أبو ثابت يريد معاودة الغزو إلى وهران إذ فجأه الخبر بذلك ، فطير به إلى السلطان أبي عنان وجاءه العسكر من بني مرين مدداً صحبة أبي زيان ابن أخيه أبي سعيد ، كان مستقراً^(١) بالمغرب منذ نهوضهم إلى القيروان وبعث عنه أبوه فجاء مع المدد من العساكر والمال ، وهض أبو ثابت من تلمسان أول المحرم سنة خمسين وسبعائة وبعث إلى مغراوة بالخبر ففقدوا عن مناصرته ، ولحق ببلاد العطاف فلقبه الناصر هنالك في جموعه بوادي ورك آخر شهر ربيع الأول ، فانكشفت جموع العرب وانهموا ، ولحق الناصر بالزاب فتزل على أبي مزني بسكرة إلى أن أصحبه من رجالات سليم من أوصله إلى أبيه بتونس . ولحق عريف بن يحيى بالمغرب الأقصى ، واحتل عند السلطان أبي عنان بمكانه من مجلسهم ، فحصل على البغية ورجع العرب كلهم إلى طاعة أبي ثابت وخدمته ، واستراب بصغير بن عامر بن ابراهيم فتقبض عليه وأشخصه معتقلاً مع البريد إلى تلمسان ، فاعتقل بها إلى أن أطلق بعد حين . وقفل أبو ثابت إلى تلمسان فتلوم بها أياماً ، ثم نهض إلى وهران في جمادى من سته ، فحاصرها أياماً ، ثم افتتحها عنوة وعفا عن علي بن جانا^(٢) القائم بعد مهلك أخيه عبوا وعلى من معه ، وأطلق سبيلهم واستولى على ضواحي وهران وما إليها ، ورجع إلى تلمسان وقد استحكمت العداوة بينه وبين مغراوة ، وكان قد استجرها ما قدمناه من قعودهم عن نصره ، فنهض إليهم في شوال

(١) وفي نسخة ثانية : مستقراً .

(٢) وفي نسخة ثانية : علي بن أجانا .

من سنته والتقوا في عدوة وادي زهير^(١) فاقتلوا ملياً . ثم انكشفت مغراوة ولحقوا بمعاقلهم واستولى أبو ثابت على معسكرهم وملك مازونة ، وبعث ببيعتها إلى أخيه السلطان أبي سعيد . وكان على أثر ذلك وصول السلطان أبي الحسن من تونس ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من الحروب ولحوقه بعد الهزيمة بالمغرب

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان طال مقامه بتونس وحصار العرب إياه ، واستدعاه أهل المغرب الأقصى وانتقض عليه أهل الجريد وبايعوا للفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، فأجمع الرحلة إلى المغرب وركب السفن من تونس أيام الفطر من سنة خمسين وسبعائة فعصفت به الرياح وأدركه الغرق ، فغرق أسطوله على ساحل بجاية ونجا بدمائه إلى بعض الجزائر هنالك ، حتى لحقه أسطول من أساطيله ، فنجا فيه إلى الجزائر وبها حمو بن يحيى بن العسري قائده وصنيعة أبيه ، فنزل عليه . وبادر إليه أهل ضاحيتها من مليكش والثعالبة ، فاستخدمهم وبث فيهم العطاء . واتصل خبره بونزمار بن عريف وهو في أحياء سويد ، فوفد عليه في مشيخة من قومه ، ووفد معه نصر بن عمر بن عثمان صاحب جبل وانشريس من بني تيغرين ، وعدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي الثائر بنواحي المرية من ولد عبد القوي ، فأعطوه الطاعة واستحثوه للخروج معهم ، فردّهم للحشد ، فجمعوا من إليهم من قبائل العرب وزناتة . وبينما الأمير أبو ثابت ببلاد مغراوة محاصراً لهم في معاقلهم إذ بلغه الخبر بذلك في ربيع سنة إحدى وخمسين وسبعائة فعقد السلم معهم ورجع إلى قتال هؤلاء ، فأخذ على منداس وخرج إلى السرسو قبلة وانشريس . وأجفل أمامه ونزمار وجموع العرب الذين معه ، ولحق به هنالك مدد السلطان أبي عنان قائدهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطى ، فاتبع آثار العرب وشردهم . ولحقت أحياء حصين بمعاقلهم من جبل تيطرى ، ثم عطف على المرية ففتحها وعقد

(١) وفي نسخة ثانية : وادي رهيو .

عليها لعمر بن موسى الجلولي من صنائعهم . ثم نهض إلى حصين فاقتحم عليهم الجبل فلاذوا بالطاعة وأعطوا أبناءهم رهناً عليها ، فتجاوزهم إلى وطاء حمزة فدوخوا ، واستخدم قبائلها من العرب والبربر ، والسلطان أثناء ذلك مقيم بالجزائر . ثم قفل أبو ثابت إلى تلمسان وقد كان استراب بيحيى بن رحو وعسكره من بني مرين . وأنهم داخلوا السلطان أبا الحسن وبعث فيه إلى السلطان أبي عنان ، فأداله بعيسى بن سلمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب فبعثه قائداً على الحصنة المرينية ، فتقبض على يحيى بن رحو ولحقوا مع أبي ثابت بتلمسان . ثم أجاز إلى المغرب وأوعز السلطان أبو الحسن إلى ابنه الناصر مع أوليائه من زناته والعرب فاستولى على المرية وقتل عثمان بن موسى الجلولي . ثم تقدم إلى مليانة فملكها ، وإلى تيمزوغت كذلك . وجاء على أثره السلطان أبو الحسن أبوه ، وقد اجتمعت إليه الجموع من زغبة ومن زناته ومن عرب أفريقية سليم ورياح مثل : محمد بن طالب بن مهلهل ، ورجال من عشيرته ، وعمر بن علي بن أحمد الزواودي ، وأخيه أبي دينار ، ورجالات من قومها . وزحف على هذه التعبئة وابنه الناصر أمامه ، فأجفل عليه بن راشد وقومه مغراوة عن بلادهم إلى البطحاء ، وطير الخبر إلى أبي ثابت فوافاه في قومه وحشوده ، وزحفوا جميعاً إلى السلطان أبي الحسن وقومه ، فالتقى الجمعان بتيمغزين من شلف . وصابروا ملياً ، ثم انكشف السلطان أبو الحسن وقومه ، وطعن ولده الناصر بعض فرسان مغراوة وهلك آخر يومه . وقتل محمد بن علي بن العربي قائد أساطيله وابن البواق والقبائلي كاتباه . واستبيح معسكره وما فيه من متاع وحرم ، وخلص بناته إلى وانشريس ، وبعث بهن أبو ثابت إلى السلطان أبي عنان بعد استيلائه على الجبل . وخلص السلطان أبو الحسن إلى أحياء سويد ، بالصحراء فنجا به ونزمار بن عريف إلى سجلماسة كما يأتي ذكره في أخباره ، ودوخ أبو ثابت بلاد بني توجين وقفل إلى تلمسان والله تعالى أعلم .

الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت على بلادهم
ثم على الجزائر ومقتل علي بن راشد بتنس على أثر ذلك

كان بين هذين الحيين من عبد الواد ومغراوة فتن قديمة سائر أيامهم ، قد ذكرنا الكثير

منها في أخبارهم . وكان بنو عبد الواد قد غلبوهم على أوطانهم حتى قتل راشد بن محمد في جلالة أمامهم بين زواوة . ولما اجتمعوا بعد نكبة القيروان على أميرهم علي بن راشد وجاؤه من أفريقية إلى أوطانهم مع بني عبد الواد ، ولم يطيعوهم حينئذ أن يغلبوهم رجعوا حينئذ إلى توثيق العهد وتأكيده العقد^(١) فأبرموه وقاموا على المواعدة والتظاهر على عدوهم ، وعروق الفتنة تنبسط من كل منهم^(٢) . ولما جاء الناصر من أفريقية وزحف إليه أبو ثابت ، قعد عنه علي بن راشد وقومه ، فاعتدّها عليهم وأسرها في نفسه . ثم اجتمع بعد ذلك للقاء السلطان أبي الحسن حتى انهزم ومضى إلى المغرب . فلما رأى أبو ثابت أنه قد كفى عدوّه الأكبر وفرغ إلى عدوّه الأصغر نظر في الانتقاض عليهم . فبينما هو يروم أسباب ذلك إذ بلغه الخبر أن بعض رجالات بني كمين^(٣) من مغراوة جاء إلى تلمسان فاغتالوه فحمى له أنفه وأجمع لحربهم . وخرج من تلمسان فاتحة إثنيتين وخمسين وسبعائة وبعث في أحياء زغبة من بني عامر وسويد ، فجاؤه بفارسهم وراجلهم وطمعائهم ، وزحف إلى مغراوة فخافوا من لقائه ، وتحصنوا بالجبل المطل على تنس ، فحاصروهم فيه أياماً اتصلت فيها الحروب وتعددت الوقائع . ثم ارتحل عنهم فجال في نواحي البلد ، ودوخ أقطارها ، وأطاعته مليانة والمرية وبرشك وشرشال . ثم تقدّم بجموعه إلى الجزائر فأحاط بها وفيها فلّ بني مرين وعبدالله بن السلطان أبي الحسن ، تركه هناك صغيراً في كفالة علي بن سعيد ابن جانا ، فغلبهم على البلد وأشخصهم في البحر إلى المغرب ، وأطاعته الثعالب ومليكش وقبائل حُصَيْن . وعقد على الجزائر لسعيد بن موسى بن علي الكردي ، ورجع إلى مغراوة فحاصروهم بمعقلهم الأوّل بعد أن انصرفت العرب إلى مشاتها ، فاشتدّ الحصار على مغراوة وأصاب مواشيهم العطش ، فانحطت دفعة واحدة من الجبل تطلب المورد فأصابهم الدهش . ونجا ساعتئذ علي بن راشد إلى تنس ، فأحاط به أبو ثابت أياماً . ثم اقتحمها عليه غالباً منتصف شعبان من سنته ، فاستعجل المنية وتحامل على نفسه فذبح نفسه ، وافترقت مغراوة من بعده وصارت أوزاعاً في القبائل

(١) وفي نسخة بولاق المصرية : توثيق العقد وتأكيده العهد .

(٢) وفي نسخة أخرى : تنبض في كل منهم

(٣) وفي نسخة أخرى : بني كمي .

وقفل أبو ثابت إلى تلمسان إلى أن كان من حركة السلطان أبي عنان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي عنان على تلمسان وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية

لما لحق السلطان أبو الحسن بالمغرب ، وكان من شأنه مع ابنه أبي عنان إلى أن هلك بجبل هنتاة على ما ذكره في أخبارهم . فاستوسق ملك المغرب للسلطان أبي عنان وفرغ لعدوه وسما لاسترجاع الممالك التي ابتزها أبوه وانترعها ممن توثب عليه ، وكان قد بعث إليه عليّ بن راشد من مكان امتناعه من جبل تنس يسأل منه الشفاعة ، ونذر بذلك أبو سعيد وأخوه ، فخرج أبو ثابت وحشد القبائل من زناتة والعرب منتصفاً في ذي القعدة ، ونزل بوادي شلف . واجتمع الناس إليه وواصلته هناك بيعة تدلس في ربيع من سنة ثلاث وخمسين وسبعائة . غلب عليها الموحدون جانا الخراساني (١) من صنائعه ، وبلغه من مكانه ذلك زحف السلطان أبي عنان فرجع إلى تلمسان ، ثم خرج إلى المغرب . وجاء على أثره أخوه السلطان أبو سعيد في العساكر من زناتة ومعه بنو عامر من زغبة والفل من سويد ، إذ كان جمهورهم قد لحقوا بالمغرب لمكان عريف بن يحيى وابنه من ولاية بني مرين ، فرحفوا على هذه التعبئة وزحف السلطان أبو عنان في أمم المغرب من زناتة والعرب المعقل والمصامدة وسائر طبقات الجنود والحشد ، وانتهوا جميعاً إلى انكاد من بسيط وجدة ، فكان اللقاء هنالك آخر ربيع الثاني من سنة ثلاث وخمسين وسبعائة واجتمع بنو عبد الواد على صدمة العساكر وقت القائلة ، وبعد ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم ، فأعجلوهم عن ترتيب المصاف . وركب السلطان أبو الحسن لتلافي الأمر ، فاجتمع إليه أوشاب من الناس وانفض (٢) سائر المعسكر ثم زحف إليهم فيمن حضره وصدقوهم القتال ، فاختل مصافهم ومنحوا أكتافهم وخاضوا بحر الظلماء . واتبع بنو مرين آثارهم وتقبض على أبي سعيد ليلتشد مقيداً أسيراً إلى السلطان أبي

(١) وفي نسخة أخرى : غلب عليها الموحدون جابر الخراساني .

(٢) وفي نسخة بولاق المصرية : وانتفض .

عنان ، فأحضره بمشهد الملاء ووبخه . ثم نقل إلى محبسه وقتل لتاسعة من ليالي اعتقاله . وارتحل السلطان أبو عنان إلى تلمسان ، ونجا الزعيم أبو ثابت بمن معه من فل بنى عبد الواد ومن خلص إليه منهم ذاهباً إلى بجاية ليجد في إيالة الموحدين وليجة من عدوه ، فبيته زواوة في طريقه وألذ عن أصحابه وأرجل عن فرسه^(١) وذهب راجلاً عارياً ومعه رفقاء من قومه منهم أبو زيان محمد ابن أخيه السلطان أبي سعيد ، وأبو حمو وموسى ابن أخيه يوسف ابن أخيه ، ووزيرهم يحيى بن داود بن فكن^(٢) وكان السلطان أبو عنان أوعز إلى صاحب بجاية يومئذ المولى أبي عبيد الله حافد مولانا السلطان أبي بكر بأن يأخذ عليهم الطرق ، ويذكي في طلبهم العيون ، فعثر عليهم بساحة البلد وتقبض على الأمير أبي ثابت الزعيم وابن أخيه محمد بن أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود وأدخلوا إلى بجاية . ثم خرج صاحبها الأمير أبو عبد الله إلى لقاء السلطان أبي عنان ، واقتادهم في قبضة أسره فلقبه بمعسكره من ظاهر المرية^(٣) ، فأكرم وفادته وشكر صنيعه ، وانكفاً راجعاً إلى تلمسان فدخلها في يوم مشهود . وحمل يومئذ أبو ثابت ووزيره يحيى على جملين يتهاديان بهما بين سماطي ذلك المحمل ، فكان شأنهما عجباً . ثم سيقا ثاني يومها إلى مصرعها بصحراء البلد ، فقتلا قعصاً بالرماح وانقرض ملك آل زيان ، وذهب ما أعاده لهم بنو عبد الرحمن هؤلاء من الدولة بتلمسان إلى أن كانت لهم الكرة الثالثة على يد أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن المتوليها لهذا العهد على ما سنذكره ونستوفي من أخباره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن دولة السلطان أبي حمو الأخير مدبل الدولة
بتلمسان في الكرة الثالثة لقومه وشرح ما كان فيها من
الأحداث لهذا العهد

كان يوسف بن عبد الرحمن هذا في إيالة أخيه السلطان أبي سعيد بتلمسان هو

(١) وفي نسخة بولاق المصرية : فبيته زواوة في طريقه ، وأبعد عن صحبه وأرجل عن فرسه .

(٢) وفي نسخة ثانية : مكن .

(٣) وفي نسخة ثانية : المدية .

أخوه^(١) أبو حمو موسى ، وكان متكاسلاً عن طلب الظهور ، متجافياً عن التهاك في طلب الغزّ جانحاً إلى السكون ومذاهب أهل الخير ، حتى إذا عصفت بدولتهم رياح بني مرين ، وتغلّب السلطان أبو عنان عليهم وابتزهم ما كان بيدهم من الملك ، وخلص ابنه أبو حمو موسى مع عمه أبي ثابت إلى الشرق ، وقذفت النوى بيوسف مع أشرف قومه إلى المغرب فاستقرّ به . ولما تقبّض على أبي ثابت بوطن بجاية أغفل أمر أبي حمو من بينهم ونبت عنه العيون ، فنجا إلى تونس ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، فأكرم نزله وأحلّه بمكان أعياص الملك من مجلس سلطانه ، ووفّر جرايته ، ونظم معه آخرين من فل قومه ، وأوعز السلطان أبو عنان إليه بإزعاجهم عن قرارهم في دولته ، فحمى لها أنفه وأبى عن الهزيمة لسلطانه ، فأغرى ذلك أبا عنان بمطالبتة ، وكانت حركته إلى بلاد أفريقية ومنابذة العرب من رياح وسلّم لعهدده ونقضهم لطاعته كما نستوفي أخباره .

ولما كانت سنة تسع وخمسين وسبعائة قبل مهلكه اجتمع أمر الزواودة من رياح إلى الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى بن يوسف بالعرب من زغبة ، وأنهم ركابه لذلك ليحلب على نواحي تلمسان ، ويجعل السلطان أبي عنان شغلاً عنهم . وسألوه أن يجهّز عليه بعض آلة السلطان . ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة في هذا الشأن ، وكان يومئذ في أحياء يعقوب بن عليّ وجواره ، فأصلح الموحدون شأنه بما قدروا عليه ودفعوه إلى مصاحبة صغير وقومه من بني عامر ، وارتحل معهم من الزواودة عثمان بن سباع ومن أحلافهم بنو سعيد دغار بن عيسى بن رحاب وقومه ونهضوا بجموعهم يريدون تلمسان وأخذوا على القفر ولقيهم أثناء طريقهم الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان فقويت عزائمهم على ارتجاع ملكهم ، ورجع عنهم صولة بن يعقوب . وأغذّ السير إلى تلمسان وبها الكتائب المجهّزة من بني مرين ، واتصل خبر أبي حمو بالوزير الحسن بن عمر القائم بالدولة من بعد مهلك السلطان أبي عنان ، والمتغلّب على ولده السعيد من بعده ، فجهّز المدد إلى تلمسان من الحامية والأموال ، ونهض أولياء الدولة من أولاد عريف بن يحيى أمراء البدو من المغرب في قومهم من سويد ومن إليهم من العرب لموافقة

١٠ وفي نسخة ثانية : هو وولده أبو حمو .

السلطان أبي حمو وأشباعه ، فانفضّ جمعهم وغلبوا على تلك المواطن واحتل
السلطان أبو حمو وجموعه بساحة تلمسان ، وأناخوا ركابهم عليها ، ونازلوها ثلاثاً ،
ثم اقتحموها في صبيحة الرابع ، وخرج ابن السلطان أبي عنان الذي كان أميراً عليها
في لمة من قومه ، فقتل على صغير بن عامر أمير القوم ، فأحسن تجلّته وأصبحه من
عشيرته إلى حضرة أخيه^(١) ، ودخل السلطان أبو حمو تلمسان لثمان خلون من الربيع
الأول سنة ستين وسبعمائة واحتلّ منها بقصر ملكه ، واقتعد أريكته ، وبويع بيعة
الخلافة ، ورجع إلى النظر في تمهيد قواعد ملكه واخراج بني مرين من أمصار
مملكته . والله أعلم .

* (الخبر عن اجفال أبي حمو عن تلمسان أمام عساكر
المغرب ثم عوده إليها) *

كان القائم بأمر المغرب بعد السلطان أبي عنان وزيره الحسن بن عمر كافل ابنه
السعيد الذي أخذ له البيعة على الناس ، فاستبدّ عليه وملك أمره ، وجرى على
سياسة السلطان الهالك واقتفى أثره في الممالك الدانية والقاصية في الحماية والنظر لهم
وعليهم . ولما اتصل به خبر تلمسان وتغلّب أبي حمو عليها قام في ركائبه وشاور الملائم في
النهوض إليه ، فأشاروا عليه بالعودة وتسريح الجنود والعساكر ، فسرح لها ابن عمّه
مسعود بن رحو بن علي بن عيسى بن ماساي بن فودود^(٢) وحكمه في اختيار الرجال
واستجادة السلاح وبذل الأموال واتخاذ الآلة ، فزحف إلى تلمسان واتصل الخبر
بالسلطان أبي حمو وأشباعه من بني عامر ، فأفرج عنها ولحق بالصحراء . ودخل
الوزير مسعود بن رحو تلمسان وخالفه السلطان أبي حمو إلى المغرب ، فقتل بسيف
أنكاد . وسرح إليهم الوزير مسعود بن رحو ابن عمه عامر بن عبد بن ماساي في
عسكر من كتائبه ووجوه قومه ، فأوقع بهم العرب وأبو حمو ومن معهم واستباحوهم .
وطار الخبر إلى تلمسان واختلفت أهواء من كان بها من بني مرين ، وبدا ما كان في
قلوبهم من المرض لتغلّب الحسن بن عمر على سلطانهم ، ودولتهم فتحيزوا زرافات

(١) وفي نسخة ثانية : ابيه .

(٢) وفي نسخة ثانية : فردود .

لمبايعة بعض الأعياص من آل عبد الحق . وفطن الوزير مسعود بن رحو لما دبّروه ، وكان في قلبه مرض من ذلك فاغتنمها وباع لمنصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق كبير الأعياص المنفرد بالتجلة . وارتحل به وبقومه من بني مرين إلى المغرب ، وتجافى عن تلمسان وشأنها واعترضه عرب المعقل في طريقهم إلى المغرب ، فأوقع بهم بنو مرين وصمّموا لصليهم ، ورجع السلطان أبو حمّو إلى تلمسان ، واستقرّ بحضرته ودار ملكه ، ولحق به عبدالله بن مسلم فاستوزره وأسام إليه فاشتدّ به أزره وغلب على دولته كما نذكره إلى أن هلك ، والبقاء لله وحده .

الخبر عن مقدم عبدالله بن مسلم من مكان عمله بدرعة ونزوله من اية بني مرين إلى أبي حمّو وتقليده إياه الوزارة وذكر أوليته ومصاير أموره

كان عبدالله بن مسلم من وجوه بني زردال من بني بادين إخوة بني عبد الواد وتوجين ومصاب ، إلا أن بني زردال أندرجوا في بني عبد الواد لقتلهم واختلطوا بنسبهم ، ونشأ عبدالله بن مسلم في كفالة موسى بن علي لعهد السلطان أبي تاشفين مشهوراً بالبسالة والإقدام ، طار له بها ذكر وحسن بلاؤه في حصار تلمسان . ولما تغلب السلطان أبو الحسن على بني عبد الواد وابترهم ملكهم استخدمهم ، وكان ينتقي أولي الشجاعة والإقدام منهم ، فيرمي بهم ثغور المغرب ، ولما اعترض بنو عبد الواد ومرّ به عبدالله هذا ذكر له شأنه ونعت بيأسه ، فبعثه إلى درعة واستوصى عامله به ، فكان له عنه غناء في مواقفه مع خوارج العرب وبلاء حسن ، جذب ذلك بضبعه ، ورقى عند السلطان منزله ، وعرفه على قومه .

ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان ومرج أمر المغرب ، وتوثب أبو عئان على الأمر ، ويوع بتلمسان واستجمع حافده منصور بن أبي مالك عبد الواحد لمدافعته ، وحشد حامية الثغور للقاءه ، وانفضت جموعه بتأزى وخلص إلى البلد الحديد ونازله ، وكان عبدالله بن مسلم في جملته . ولما نازله السلطان أبو عئان واتصلت الحرب بينهم أياماً ، كان له فيها ذكر . ولما رأى أنه أحيط بهم ، سابق لناس إلى السلطان أبي عئان فرأى سابقيته وقلده عمل درعة ، فاضطلع بها مدة

خلافته وتأكدت له أيام ولايته مع عرب المعقل وصلة وعهد ضرب بهما في مواخاتهم
بسهم . وكان السلطان أبو عنان عند خروج أخيه أبي الفضل عليه لحقه بجبل ابن
حميدي من معقل درعة ، أوغز إليه بأن يعمل الحيلة في القبض عليه ، فدخل ابن
حميدي ووعدته وبذل له فأجاب وأسلمه . وقاده عبدالله بن مسلم أسيراً إلى أخيه
السلطان أبي عنان فقتله . ولما استولى السلطان أبو سالم رفيق أبي الفضل في منوى
اغترابها بالأندلس على بلاد المغرب من بعد مهلك السلطان أبي عنان ، وما كان
أثره من الخطوب ، وذلك آخر سنة ستين وسبعائة خشيته ابن مسلم على نفسه ،
ففارق ولايته ومكان عمله ودخل أولاد حسين أمراء المعقل في النجاة به إلى تلمسان
فأجابوه ، ولحق بالسلطان أبي حموي ثروة من المال وعصبة من العشيرة وأولياء من
العرب ، فسرّ بمقدمه وقلده لحينه وزارته وشدّ به أواخي سلطانه ، وفوض إليه تدبير
ملكه ، فاستقام أمره وجمع القلوب على طاعته وجاء بالمعقل من مواطنهم الغربية ،
فأقبلوا عليه وعكفوا على خدمته . وأقطعهم مواطن تلمسان وأخى بينهم وبين زغبة ،
فعلا كعبه واستفحل أمره ، واستقامت رياسته إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء
الله تعالى والله تعالى أعلم .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان ورجوعه الى
المغرب بعد أن ولي عليها أبو زيان حافد السلطان أبي تاشفين
وما آل أمره

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحا أثر الخوارج على الدولة ، سما إلى
امتداد ظلّه إلى أقصى تخوم زناته كما كان لأبيه وأخيه ، وحركه إلى ذلك ما كان من
فرار عبدالله بن مسلم إلى تلمسان بحيلة^(١) عمله ، فأجمع أمره على النهوض إلى
تلمسان وعسكر بظاهر فاس منتصف إحدى وستين وسبعائة وبعث في الحشود فتوافت
ببابه واكتملت . ثم ارتحل إليها ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو وزيره عبدالله
ابن مسلم فنادوا في العرب من زغبة والمعقل كافة فأجابوهم إلا شردمة قليلة من

(١) وفي نسخة ثانية : بجباية .

الأحلاف ، وخرجوا بهم إلى الصحراء ونازل حللهم بعسكره . ولما دخل السلطان أبو سالم وبنو مرين تلمسان خالفوهم إلى المغرب فنازلوا وطاط وبلاد مَلَوِيَّة وكرسيف ، وحطّموا زروعها وانتسفوا أقاتها وخرّبوا عمرانها . وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من صنعهم ، فأهمّه أمر المغرب وأجلاب المفسدين عليه . وكان في جملته من آل يغمراسن محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين ويكنى بأبي زيّان ، ويعرف بالفتّر^(١) ومعناه العظيم الرأس فدفعه للأمر وأعطاه الآلة وكتب له كتيبة من توجين ومغراوة كانوا في جملته ، ودفع إليه أعطياتهم وأنزله بقصر أبيه بتلمسان وانكفأ راجعاً إلى حضرته ، فأجفلت العرب والسلطان أبو حمو أمامه وخالفوه إلى تلمسان فأجفل عنها أبو زيّان وتخيّر إلى بني مرين بأمصار الشرق من البطحاء ومليانة ووهران وأولياتهم من بني توجين وسويد من قبائل زغبة ودخل السلطان أبو حمو ووزيره عبدالله بن مسلم إلى تلمسان ، وكان مقير^(٢) بن عامر هلك في مذهبهم ذلك . ثم خرجوا فيمن إليهم من كافة عرب المعقل وزغبة في أتباع أبي زيّان ونازلوه بجبل وانشريس فيمن معه إلى أن غلبوا عليه وانقضّ جمعه ، ولحق بمكانه من إيالة بني مرين بفاس . ورجع السلطان أبو حمو إلى معاقل وطنه يستنقدها من ملكة بني مرين ، فافتتح كثيرها وغلب على مليانة والبطحاء . ثم نهض إلى وهران ونازلها أياما واقتحمها غلاباً ، واستلحم بها من بني مرين عدداً . ثم غلب على المرية والجزائر ، وأزعج عنها بني مرين فلحقوا بأوطانهم . وبعث رسله إلى السلطان أبي سالم فعقد معه المهادنة^(٣) ووضعوا أوزار الحرب . ثم كان مهلك السلطان أبي سالم سنة اثنتين وستين وسبعائة ، وقام بالأمر من بعده عمر بن عبدالله بن علي من أبناء وزرائهم مبايعاً لولد السلطان أبي الحسن واحداً بعد آخر كما نذكره عند ذكر أخبارهم إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله

كان أبو زيّان هذا ، وهو محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد

(١) وفي نسخة أخرى : القبي وفي نسخة ثانية الفتى .

(٢) وفي نسخة أخرى : صغير .

(٣) وفي نسخة أخرى : السلم .

الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، لما تقبض عليه مع عمه أبي ثابت ووزيرهم يحيى بن داود بجاية من أعمال الموحديين ، وسيقوا إلى السلطان أبي عنان ، فقتل أبا ثابت ووزيره واستبقى محمداً هذا وأودعه السجن سائر أيامه ، حتى إذا هلك واستوسق أمر المغرب لأخيه أبي سالم من بعد خطوب وأهوال يأتي ذكرها ، امتنّ عليه السلطان أبو سالم وأطلقه من الاعتقال ونظمه بمجلس ملكه في مراتب الأعياص وأعدّه لمزاحمة ابن عمه . وجرت بينه وبين السلطان أبي حموسة اثنتين وستين وسبعمائة بين يدي مهلكه نكراء بعد مرجعه من تلمسان ، ومرجع أبي زيّان حافد السلطان أبي تاشفين من بعده ، تحقق السعي فيما نصبه له ، فسا له أمل في أبي زيّان هذا أن يستأثر بملك أبيه ، ورأى أن يحسن الصنيع فيه فيكون فيئة له ، فأعطاه الآلة ونصبه للملك ، وبعثه إلى وطن تلمسان ، وأتى إلى تازي ولحقه هنالك الخبر بمهلك السلطان أبي سالم . ثم كانت فتن وأحداث نذكرها في محلّها وأجلب عبد الحلیم ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق على فاس ، واجتمع إليه بنو مرين ونازلوا البلد الجديد . ثم انفضّ جمعهم ولحق عبد الحلیم بتازي كما نذكره في موضعه إن شاء الله تعالى . ورجا من السلطان أبي حمو المظاهرة على أمره فراسله في ذلك واشترط عليه كبح ابن عمه أبي زيّان فاعتقله مرضاة له ، ثم ارتحل إلى سجلماسة كما نذكره بعد ونازله في طريقه أولاد حسين من المعقل بحلهم وأجياهم فاستغفل أبو زيّان ذات يوم الموكلين به ، ووثب على فرس قائم حذاءه وركضه من معسكر عبد الحلیم إلى حلة أولاد حسين مستجيراً بهم ، فأجاروه . ولحق بني عامر على حين غفلة ، وجفوة كانت بين السلطان أبي حمو وبين خالد بن عامر أميرهم ذهب لها مغاضباً ، فأجلب به على تلمسان . وسرح إليهم السلطان أبو حمو عسكرياً فشردهم عن تلمسان . ثم بذل المال لخالد بن عامر على أن يقصيه إلى بلاد رباح ، ففعل وأوصله إلى الزواودة فأقام فيهم . ثم دعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد وصاحب وطن حمزة وبني حسن وما إليه ، ونصبه للأمر مشاققة^(١) وعناداً للسلطان أبي حمو . ونهض إليه الوزير عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد وحشود العرب وزناتة فأيقن أبو الليل بالغلب

(١) وفي نسخة ثانية : مشافهة .

وبذل له الوزير المال وشرط له التجافي عن وطنه على أن يرجع عن طاعة أبي زيّان ففعل ، وانصرف إلى بجاية ونزل بها على المولى أبي اسحق ابن مولانا السلطان أبي يحيى أكرم نزل ، ثم وقعت المراسلة بينه وبين السلطان أبي حمو وتمت المهادنة وانعقد السلم على إقصاء أبي زيّان عن بجاية المتاخمة لوطنه ، فارتحل إلى حضرة تونس . وتلقاه الحاجب أبو محمد بن تافراكين ، قيوم دولة الحفصيين لذلك العهد من المبرّة والترحيب واسناء الجراية له ، وترفيح المنزلة بما لم يعهد لمثله من الأعياص . ثم لم تزل حاله على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم أبي زيّان حافد السلطان أبي تاشفين ثانية من المغرب الى تلمسان لطلب ملكها وما كان من أحواله

كان العرب من سويد إحدى بطون زغبة فيئة لبني مرين وشيعة من عهد عريف بن يحيى مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان ، فكانوا عند بني عبد الواد في عداد عدوهم من بني مرين مع طاغية^(١) الدولة لبني عامر أقاتهم ، فكانوا منابذين لبني عبد الواد آخر الأيام ، وكان كبيرهم ونزمار بن عريف أوطن كرسيف في جوار بني مرين ، مذ مهلك السلطان أبي عنان ، وكان مرموقاً بعين التجلّة يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى قوله . وأهمه شأن إخوانه في موطنهم ومع أقاتهم بني عامر ، فاعترم على نقض الدولة من قواعدها ، وحمل صاحب المغرب عمر بن عبدالله على أن يسرح محمد بن عثمان حافد أبي تاشفين لمعاودة الطلب لملكه ، ووافق ذلك نفرة استحكمت بين السلطان أبي حمو وأحمد بن رحو بن غانم كبير أولاد حسن من المعقل بعد أن كانوا فيئة له ولوزيره عبدالله بن مسلم ، فاغتنمها عمر بن عبدالله وخرج أبو زيّان محمد بن عثمان سنة خمس وستين وسبعمائة فتزل في حلال المعقل بملوية . ثم نهضوا به إلى وطن تلمسان وارتاب السلطان أبو حمو بخالد بن عمر أمير بني عامر فتقبض عليه وأودعه المطبق^(٢) ، ثم سرح وزيره عبدالله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد

(١) وفي نسخة ثانية : صاغية .

(٢) سجن تحت الأرض .

والعرب ، فأحسن دفاعهم وانفضت جموعهم ورحلهم إلى ناحية الشرق ، وهو في اتباعهم إلى أن نزلوا المسيلة من وطن رياح ، وصاروا في جوار الزواودة . ثم نزل بالوزير عبدالله بن مسلم داء الطاعون الذي عاود أهل العمران عامئذ من بعدما أهلكهم سنة تسع وأربعين وسبعمئة قبلها ، فانكفأ به ولده وعشيرته راجعين ، وهلك في طريقه وأرسلوا شلوه إلى تلمسان فدفن بها . وخرج السلطان أبو حمو إلى مدافعة عدوه وقد فت مهلك عبدالله في عضده . ولما انتهى إلى البطحاء وعسكر بها ، ناجزته جموع السلطان أبي زيان الحرب وأطلت راياته على المعسكر فدخلهم الرعب وانفضوا ، وأعجلهم الأمر عن أبينتهم وأزوادهم ، فتركوها وانفضوا وتسأل أبو حمو يبغي النجاة إلى تلمسان واضطرب أبو زيان فسطاطه بمكان معسكره ، وسابقه أحمد بن رحو أمير المعقل إلى منجاته فلحقه بسبك وكر إليه السلطان أبو حمو فيمن معه من خاصته ، وصدقوه الدفاع فكبا به فرسه وقطع رأسه . ولحق السلطان أبو حمو بحضرته وارتحل أبو زيان والعرب في اتباعه إلى أن نزلوه بتلمسان أياماً . وحدثت المنافسة بين أهل المعقل وزغبة ، واسف زغبة استبداد المعقل عليهم وانفراد أولاد حسين برأي السلطان دونهم ، فاغتنمها أبو حمو وأطلق أميرهم عامر بن خالد من محبسه ، وأخذ عليه الموثق من الله ليخذلن الناس عنه ما استطاع ، وليرجعن بقومه عن طاعة أبي زيان وليفرقن جموعه ، فوفى له بذلك العهد ونفس عليه المخنق وتفرقت أحزابهم ورجع أبو زيان إلى مكانه من إيالة بني مرين واستقام أمر السلطان أبي حمو وصلحت دولته بعد الالتياث ، إلى أن كان من أمره ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي حمو على ثغور المغرب) *

كان ونزمار بن عريف متولي كبر هذه الفتن على أبي حمو ، وبعث الأعياص عليه واحداً بعد واحد ، لما كان بينهم من العداوة المتصلة كما قدمناه . وكان منزله كرسيف من ثغور المغرب . وكان جاره محمد بن زكراز^(١) كبير بني علي من بني ونكاسن

(١) وفي نسخة ثانية : زكدان .

الموطنين بجبل دبدو ، وكانت أيديهما عليه واحدة فلما سكن غرب الثوار عنه وأزاحهم عن وطنه إلى المغرب ، وانعقد سلمه معهم ، رأى أن يعثور هذين الأميرين في ثغورهما ، فاعتمل الحركة إلى المغرب فاتح سنة ست وستين وسبعائة ونهى إلى دبدو وكرسيف ، وأجفل ونزمار وامتنع بمعقل الجبال ، فانتهب أبو حمّو الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي . وقصد محمد بن زكراز أيضاً في معقل دبدو فامتنع بحصنه الذي اتخذه هناك ، وعاج عليه أبو حمّو بركابه ، وجاس خلال وطنه ، وشمل بالتخريب والعيث نواحي بلده ، وانكفاً راجعاً إلى حضرته ، وقد عظمت في تخوم بني مرين وثغورهم نكايته ، وثقلت عليهم وطأته ، وانعقدت بينها بعد بدء المهادنة والسلم . فانصرفت عزائمها إلى بلاد أفريقية ، فكانت حركته إلى بجاية من العام المقبل ونكبتة عليها كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي حمّو إلى بجاية
ونكبتة عليها) *

كان صاحب بجاية المولى الأمير أبو عبدالله لما استولى عليها وعادت إليه العودة الثانية سنة خمس وستين وسبعائة كما ذكرناه في أخباره ، زحف إلى تدلس ، فغلب عليها بني عبد الواد ، وأنزل بها عامله وحاميته . ثم أظلم الجوّ بينه وبين صاحب قسنطينة السلطان أبي العباس ابن عمّه الأمير أبي عبدالله لما جرّته بينهما المتاخمة في العمالات ، فنشأت بينهما فتن وحروب شغل بها عن حماية تدلس ، وألحت عليها عسكر بني عبد الواد بالحصار . وأحيط بها فأوفد رسله على السلطان أبي حمّو صاحب تلمسان في المهادنة على النزول له عن تدلس ، فتسلّمها أبو حمّو وأنزل بها حاميته . وعقد معه السلم وأصهر إليه في ابنته فأجابه ، وزفّها إليه فتلقّاها قبله زواوة بآخر عملهم من حدود بجاية . وفرغ صاحب بجاية لشأنه ، وكان أثناء الفتنة معه قد بعث إلى تونس عن أبي زيان ابن عمّه السلطان أبي سعيد لينزله بتدلس ، ويشغل به السلطان أبا حمّو عن فتنته .

وكان من خبر أبي زيان هذا أنه أقام بتونس بعد مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه إلى أن دسّ إليه مرضى القلوب من مشيخة بني عبد الواد

بتلمسان بالإجلاب على السلطان أبي حمو. ووعده عن أنفسهم الجنوح معه ، فصغى إليها واعتدّها وارتمل يريد تخوم تلمسان وعمل بجاية . ومرّ بقسطنطينة فتجافى عن الدخول إليها ، وتنكر لصاحبها ، وبلغ خبره السلطان أبا العباس صاحبها يومئذ فأجمع أمره على صدّه عن وجهه ، وحبسه بقسطنطينة واتصلت الفتنة بينه وبين ابن عمه صاحب بجاية ، وكان شديد الوطأة على أهل بلده مرهف الحدّ لهم بالعقاب الشديد ، حتى لقد ضرب أعناق خمسين منهم قبل أن يبلغ ستين في ملكه ، فاستحكمت النفرة وساءت الملكة ، وعضل الداء وفرغ أهل البلد إلى مداخلة السلطان أبي العباس باستنفاذهم من ملكة العسف والهلاك ، بما كان أتيح له من الظهور على أميرهم ، فنهض إليها آخر سنة سبع وستين وسبعمئة وبرز الأمير أبو عبدالله للقاءه وعسكر بنا مروا^(١) الجبل المطل على تاكرت^(٢) وصبحه السلطان أبو العباس بمعسكره هنالك ، فاستولى عليه وركض هو فرسه ناجياً بنفسه . ومرّت الخيل^(٣) تعادي في أثره حتى أدركوه ، فأحاطوا به وقتلوه قعصاً بالرماح عفا الله عنه . وأجاز السلطان أبو العباس إلى البلد فدخلها منتصف يوم العشرين من شعبان ، ولاذ الناس به من دهش الواقعة وتمسّكوا بدعوته ، وآتوه طاعتهم ، فأنجحت القيامة واستقام الأمر ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو فأظهر الامتعاظ لمهلكه والقيام بثأره وسير من ذلك حشوده في ارتقاء ونهض يجرّ الأمم إلى بسجاية من العرب وزناته والحشد حتى أناخ بها وملأت مخيماته^(٤) الجهات بساحتها ، وجنح السلطان إلى مبارزته ، فتمهّد به أهل البلد ولاذوا بمقامه فأسعفهم وطير البريد إلى قسطنطينة ، فأطلق أبا زيّان من الاعتقال وسوّغه الملابس والمراكب والآلة ، وزحف به مولاة بشير في عسكر إلى أن نزل حذاء معسكر أبي حمو واضطربوا محلهم بسفح جبل بني عبد الجبار وشنوا الغارات على معسكر أبي حمو صباحاً ومساءً لما كان نمي إليهم من مرض قلوب جنده والعرب الذين معه . وبدا للسلطان أبي حمو ما لم يحتسب من امتناعها ، وكان تقدّم إليه بعض سماسرة الفتن بوعد على لسان المشيخة من أهل البلد أطمعه فيها ، ووثق بأن ذلك يغنيه عن الاستعداد ، فاستبق إليها وأغفل الحزم فيما دونها ، فلما امتنعت عليه

(١) وفي نسخة ثانية : بليزو .

(٢) وفي نسخة ثانية : تاكرت .

(٣) وفي نسخة ثانية : الجنود .

(٤) وفي نسخة ثانية : وملاً بخيامه .

انطبق الجوّ على معسكره وفسدت السابلة على العير للميرة ، واستجم الزبون في احياء معسكره بظهور العدو المساهم في الملك . وتفادت رجالات العرب من سوء المغبة وسطوة السلطان ، فتمشوا بينهم في الانفضاض وتحينوا لذلك وقت المناوشة ، وكان السلطان لما كذبه وعد المشيخة أجمع قتلهم ، واضطرب الفساطيط مضايقة للأسوار ، متسمة وعرّاً من الجبل لم يرضه أهل الرأي . وخرج رجل الجبل على حين غفلة فجاولوا من كان بتلك الأخبية من المقاتلة فانهمزوا أمامهم وتركوها بأيديهم فزقوها بالسيوف . وعان العرب على البعد انتهاب الفساطيط فأجفلوا وانفضّ المعسكر بأجمعه . وحمل السلطان أبو حمو أثقاله للرحلة فأجهضوه عنها فتركها ، وانتهب مخلفه أجمع . وتصايح الناس بهم من كل حدب ، وضاق المسالك من ورائهم وأمامهم ، وكظّت بزحامهم ، وتواقعوا لجنوبهم ، فهلك الكثير منهم وكانت من غرائب الوقعات ، تحدث الناس بها زماناً وسيقت حظاياها إلى بجاية ، واستأثر الأمير أبو زيان منهنّ بحظيته الشهيرة ابنة يحيى الزابي ، ينسب إلى عبد المؤمن بن علي . وكان أصهر فيها إلى أبيها أيام تقلبه في سبيل الاغتراب ببلاد الموحدين كما سبق ، وكانت أعلق بقلبه من سواها ، فخرجت في مغانم الأمير أبي زيان . وتخرج عن مواقعها حتى أوجده أهل الفتيا السبيل إلى ذلك لحنث زعموا وقع من السلطان أبي حمو في نسائه . وخلص السلطان أبو حمو من هوة ذلك العصب بعد غصّة الريق ، ونجا إلى الجزائر لا يكاد يردّ النفس من شناعة ذلك الهول . ثم خرج منها ولحق بتلمسان ، واقتعد سرير ملكه واشتدّت شوكة أبي زيان ابن عمّه ، وتغلب على القاصية واجتمعت إليه العرب ، وكثرت تابعه . وزاحم السلطان أبا حمو بتلك الناحية الشرقية سنين تباعاً نذكر الآن أخبارها ، إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من

بلاد حصين وتغلبه على المرية والجزائر ومليانة وما كان

من الحروب معه) *

لما انهزم السلطان أبو حمو بساحة بجاية عشيّ يومه من أوائل ذي الحجة ، خاتم سنة سبع وستين وسبعائة قرع الأمير أبو زيان طبوله واتبع أثره ، وانتهى إلى بلاد حصين

من زغبة . وكانوا سائمين من الهزيمة والعسف اذا كانت الدول تجريهم بحرى الرعايا المعبّدة في المغرب ، وتعذل بهم عن سبيل إخوانهم من زغبة أمامهم ووراءهم لبغية الغزو فبايعوه على الموت الأحمر ووقفوا بمعتصم^(١) من جبل تيطري إلى أن دهمتهم عساكر السلطان . ثم أجلبوا على المريّة^(٢) وكان بها عسكر ضخّم للسلطان أبي حمولنظر وزرائه : عمران بن موسى بن يوسف ، وموسى بن برغوث ، ووادفل ابن عيوب بن حمّاد ، ونازلوهم أياماً ثم غلبوهم على البلد . وملكها الأمير أبو زيان ومنّ على الوزراء ومشیخة بني عبد الواد وترك سبيلهم إلى سلطانهم ، وسلك سبيلهم الثعالبية في التجافي عن ذلّ المغرب ، فأعطوه يد الطاعة والانقياد للأمير أبي زيّان ، وكانت في نفوس أهل الجزائر نفرة من جور العمّال عليهم ، فاستألم بها سالم بن ابراهيم بن نصر أمير الثعالبية إلى طاعة الأمير أبي زيّان . ثم دعا أبو زيّان أهل مليانة إلى مثلها فأجابوه . واعتمل السلطان أبو حمولنظره في الحركة الحاسمة لدائهم^(٣) ، فبعث في العرب وبذل المال ، وأقطع البلاد على أشطاط منهم في الطلب . وتحرك إلى بلاد توجين ونزل قلعة بني سلامة سنة ثمان وستين وسبعائة يحاول طاعة أبي بكر بن عريف أمير سويد . فلم يلبث عنه خالد بن عامر ولحق بأبي بكر بن عريف ، واجتمعا على الخلاف عليه ونقض طاعته . وشنوا الغارة على معسكره ، فاضطرب وأجفلوا وانتهبت محلاته وأثقاله ، ورجع إلى تلمسان . ثم نهض إلى مليانة فافتتحها ، وبعث إلى رياح على حين صاغية^(٤) إليه من يعقوب بن علي بن أحمد وعثمان بن يوسف بن سليمان بن علي أميرى الزواودة لما كان وقع بينهما وبين السلطان مولانا أبي العباس من النفرة ، فاستنظره للحركة على الأمير أبي زيّان وبعدها إلى بجاية . وضمّنوا له طاعة البدو من رياح ، وبعثوا إليه رهنهم على ذلك فردّها وثوقاً بهم ، ونهض من تلمسان وقد اجتمع إليه الكثير من عرب زغبة . ولم يزل أولاد عريف بن يحيى وخالد بن عامر في أحيائها منحرفين عنه بالصحراء . وصمّم إليهم فاجفلوا أمامه ، وقصد المخالفين من حصين والأمير أبا زيّان إلى معتصمهم بجبل تيطري .

(١) وفي نسخة ثانية : ووثقوا بمعتصمهم .

(٢) المريّة : مدينة كبيرة من بلاد الأندلس وليست هي المقصودة في بحثنا هذا والمقصود المدينة وهي بلدة من بلاد توجين في المغرب الأوسط .

(٣) وفي نسخة بولاق المصرية : لرأيهم .

(٤) وفي نسخة ثانية : على حين طاعتهم إليه .

وأغذَّ إليه السير يعقوب بن علي وعثمان بن يوسف بمن معهم من جموع رياح حتى
نزلوا بالقلعة حذاهم. وبدر أولاد عريف وخالد بن عامر إلى الزواودة ليشرّدوهم
عن البلاد قبل أن تتصل يد السلطان بيدهم ، فصبحوهم يوم الخميس أخريات ذي
القعدة من سنة تسع وستين وسبعائة ودارت بينهم حرب شديدة ، وأجفلت الزواودة
أولاً ، ثم كان الظهور لهم آخرأ . وقتل في المعركة من زغبة عدد ، ويشوا من صدّهم
عما جاؤا إليه ، فانعطفوا إلى حُصَيْنَ والأمير أبي زيّان ، وصعدوا إليهم بناجعتهم ،
وصاروا لهم مدداً على السلطان أبي حمّو ، وشنّوا الغارة على معسكره ، فصمدوا نحوه
وصدقوه القتال ، فاختلّ مصافه ، وانهزمت عساكره ، ونجا بنفسه إلى تلمسان على
طريق الصحراء . وأجفل الزواودة إلى وطنهم ، وتحيز كافة العرب من زغبة إلى الأمير
أبي زيّان ، واتبع آثار المنهزمين ، ونزل بسيرات . وخرج السلطان أبو حمّو في قومه
ومن بقي معه من بني عامر . وتقدّم خالد إلى مصادمته فقله السلطان وأجفل القوم من
ورائه . ثم تلطف في مراسلته وبذل المال له وأوسع له في الاشتراط فتزع إليه والتبس
بخدمته ، ورجع الأمير أبو زيّان إلى أوليائه من حصين متمسكاً بولاية أولاد عريف .
ثم نزع محمد بن عريف إلى طاعة السلطان ، وضمن له العدول بأخيه عن مذاهب
الخلاف عليه ، وطال سعيه في ذلك فاتهمه السلطان وحمله خالد بن عامر عدوّه على
نكبته ، فتقبّض عليه وأودعه السجن . واستحكمت نفرة أخيه أبي بكر ، ونهض
السلطان بقومه وكافة بني عامر إليه سنة سبعين وسبعائة واستغلظ أمر أبي بكر
فجمع الحرث بن أبي مالك ومن وراءهم من حصين ، واعتصموا بالجبال من دراك
وتيطري ، ونزل السلطان بجموعه لعود بلاد الديالة من الحرث ، فانتسفها والتعمها وحطّم
زروعها ونهب مداثرها . وامتنع عليه أبو بكر ومن معه من الحرث وحصين والأمير
أبي زيّان بينهم ، فارتحل عنهم وعطف على بلاد أولاد عريف وقومهم من سويد
فلاها عيثاً ، وخرّب قلعة ابن سلامة لما كانت أحسن أوطانهم . ورجع عليهم إلى
تلمسان وهو يرى ان كان قد شفا نفسه في أولاد عريف ، وغلبهم على أوطانهم ،
ورجع عليهم منزلة عدوّهم ، فكان من لحاق أبي بكر بالمغرب وحركة بني مرين ما
نذكره .

* (الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز على تلمسان واستيلائه عليها ونكبة أبي حمو وبني عامر بالدوس من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من تطري الى أحياء رياح) *

لما تقبض أبو حمو على محمد بن عريف وفرق شمل قومه سويد ، وعات في بلادهم أجمع ، رأى أخيه الأكبر الصريح بملك المغرب . فارتحل إليه بناجته من بني مالك أجمع من أحياء سويد والديالم والعطاف حتى احتل بسائط ملوية من تخوم المغرب . وسار إلى أخيه الأكبر ونزمار بمقره من قصر مرادة الذي اختطه بارجاع وادي ملوية في ظل دولة بني مرين وتحت جوارهم لما كان ملاك أمرهم بيده ، ومصادرهم عن آرائه خطة ورثها عن أبيه عريف بن يحيى مع السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وابنه أبي عنان . فتقبل ملوك المغرب مذاهب سلفهم فيه ، وتيمنوا برأيه واستأمنوا إلى نصيحته . فلما قدم عليه أخوه أبو بكر مستحفياً بملك المغرب ، وأخبر باعتقال أخيه الآخر محمد ، قدح عزائمهم ، وأوفد أخاه أبا بكر ومشيخة قومهم من بني مالك على السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن منصرفه من افتتاح جبل هنتاة ، وظفر بعامر بن محمد بن علي النازع إلى الشقاق في معتصمه ، فلقوه في طريقه ولقاهم مبرة وتكرمة واستصرخوه لاستنقاذ أخيم فأجاب صريخهم ، ورغبوه في ملك تلمسان وما وراءها ، فوافق صاغيته لذلك بما كان في نفسه من الموجدة على السلطان أبي حمو لقبوله كل من يتزع إليه من عربان المَعْقِلِ أشياع الدولة وبدوها ، وما كان بعث إليه في ذلك ، وصرف عن استماعه ، فاعترم على الحركة إلى تلمسان ، وألقى زمامه بيد ونزمار وعسكر بساحة فاس . وبعث الحاشدين في الثغور والنواحي من المغرب ، فتواقف الحاشدون ببابه ، وارتحل بعد قضاء النسك من الأضحى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة واتصل الخبر بالسلطان أبي حمو وكان معسكراً بالبطحاء ، فانكفاً راجعاً إلى تلمسان ، وبعث في أوليائه عبيدالله والأحلاف من عرب المعقل ، فصموا عن إجابته ونزعوا إلى ملك المغرب ، فأجمع رأيه إلى التحيز إلى بني عامر وأجفل غرة المحرم سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة واحتل السلطان عبد العزيز تلمسان في يوم عاشوراء بعدها . وأشار ونزمار بن عريف بتسريح العساكر في اتباعه ، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن

غازي بن السكّاء^(١) حتى انتهى إلى البطحاء . ثم لحق به هنالك ونزمار وقد حشد العرب كافة ، وأغذّ السير في اتباع السلطان أبي حمو وبني عامر ، وكانوا قد أبعدها المذهب ، ونزلوا على الزواودة وسرح إليهم السلطان يومئذ عبد العزيز يحملهم على طاعته ، والعدول بهم عن صحابة بني عامر وسلطانهم . وسرح فرج بن عيسى بن عريف إلى حصين لاقتضاء طاعتهم واستدعاء أبي زيان إلى حضرته ، ونبذهم عهده ، وانتهيا جميعاً إلى أبي زيان مقدمة أوليائه^(٢) ، ولحق بأولاد يحيى بن عليّ ابن سبّاع من الزواودة ، وانتهيت أنا إليهم فخفظت عليهم الشأن في جواره لما كانت مرضاة السلطان ، وحذرتهم شأن أبي حمو وبني عامر ، وأوفدت مشيختهم على ونزمار والوزير أبي بكر بن غازي فدلوها على طريقه ، فأغذوا السير ويبتوهم بمترهم على الدوس آخر عمل الزاب من جانب المغرب ففضوا جموعهم ، وانتهبوا جميع معسكر السلطان أبي حمو بأموالهم وأمتعته وظهره . ولحق فلهم بمصاب ورجعت العساكر من هنالك ، فسلكت على قصور بني عامر بالصحراء قبله جبل راشد التي منها ربا ولون ساعون^(٣) إليها فأنتهبوها وخرّبوها وعاثوا فيها وانكفوا راجعين إلى تلمسان . وفرّق السلطان عمّاله في بلاد المغرب الأوسط من وهران ومليانة والجزائر والمرية وجبل وانشريس . واستوسق به ملكه ونزع عنه عدوّه ، ولم يبق به يومئذ إلاّ ضرمة من نار الفتنة ببلاد مغراوة بوعد من ولد عليّ بن راشد ، سخط خالد في الديوان ولحق بجبل بني سعيد . واعتصم به فجهّز السلطان الكتاب لحصاره ، وسرح وزيره عمر بن مسعود لذلك كما ذكرناه في أخبار مغراوة . واحتقر شأنه . وأوفدت أنا عليه يومئذ مشيخة الزواودة ، فأوسعهم حياءً وكرامةً ، وصدروا مملوءة حقائبهم خالصة قلوبهم منطلقة بالشكر ألسنتهم . واستمرّ الحال إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : بن الكاس .

(٢) وفي نسخة ثانية : ففارقه أولياؤه .

(٣) وفي نسخة أخرى : التي منها ربا ولون سمعون ، وفي نسخة ثانية : التي منها ربا بن سمعون .

* (الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان
إلى تيطري واجلاب أبي حمو على تلمسان ثم انهزامها
وتشريدتهما على سائر النواحي) *

كان بنو عامر من زغبة شيعة خالصة لبني عبد الواد من أول أمرهم ، وخلص سويد
لبني مرين كما قدمناه ، فكان من شأن عريف وبنيه عند السلطان أبي الحسن وبنيه ما
هو معروف . فلما استبيحت أحيائهم بالدوس مع أبي حمو ، ذهبوا في القفر إشفاقاً
ويأساً من قبول بني مرين عليهم لما كان ونزمار بن عريف وإخوانه من الدولة ، فحدبوا
على سلطانهم أبي حمو يتقلبون معه في القفار . ثم نزع إليهم رحو بن منصور فيمن
أطاعه من قومه عبيد الله من المعقل ، وأجلبوا على وجدة فاضطرم النفاق على الدولة
ناراً ، وخشي حصين مغبة أمرهم من السلطان بما تسموا به من الشقاق والعناد ، فدوا
أيديهم إلى سلطانهم أبي زيان ، وأوفد مشيختهم لاستدعائه من حلة أولاد يحيى بن
علي فاحتل بينهم وأجلبوا به على المرية فملكوا نواحيها ، وامتنع عليهم مصرها ، واستمر
الحال على ذلك واضطرب المغرب الأوسط على السلطان ، وانتقضت به طاعته
وسرح الجيوش والعساكر إلى قتال مغراوة وحصين ، فأجمع أبو حمو وبنو عامر على
قصده بتلمسان حتى إذا احتلوا قريباً منها دس السلطان عبد العزيز بعض شيعته إلى
خالد بن عامر وزغبة في المال والحظ منه ، وكان أبو حمو قد آسفه بمخالطة بعض
عشيرته وتعقب رأيه برأي من لم يسم إلى خطته . ولم يرتض كفاءته فجنح إلى ملك
المغرب ، ونزع يده من عهد أبي حمو ، وسرح السلطان عبد العزيز عسكره إلى خالد
فأوقع بأبي حمو ومن كان من العرب عبيد الله وبنو عامر ، وانتهب معسكره وأمواله ،
واحتقتب حرمه وحظاياها إلى قصر السلطان ، وتقبض على مولاه عطية ، فمن عليه
السلطان وأصاره في حاشيته ووزرائه ، وأصفت زغبة على خدمة ملك المغرب وافق
هذا الفتح عند السلطان فتح بلاد مغراوة ، وتغلب وزيره أبو بكر بن غازي على جبل
بني سعيد ، وتقبض على حمزة بن علي بن راشد في لمة من أصحابه ، فضرب
أعناقهم وبعث بها إلى سدة السلطان ، وصلب أشلاءهم بساحة مليانة معظم الفتح
واكمل الظهور . وأوعز السلطان إلى وزيره أبي بكر بن غازي بالنهوض إلى

حُصَيْن ، فنهض إليهم وخاطبني وأنا مقيم ببسكرة في دعايته بأن احتشد أوليائه من الزواودة ورياح ، والتقى الوزير والعساكر على حصن تيطري ، فنازلناه شهراً . ثم انفض جمعهم وقرؤا من حصنهم ، وتمزقوا كل ممزق ، وذهب أبو زيان على وجهه ، فلحق ببلد واركلا قبلة الزاب لبعدها عن منال الجيوش والعساكر ، فأجاروه وأكرموا نزله . وضرب الوزير على قبائل حُصَيْن والثعالبة المغارم الثقيلة ، فأعطوها عن يد وجهضهم باقتضائها ، ودوخ قاصية الثغور ورجع إلى تلمسان عالي الكعب عزيز السلطان ظاهر اليد . وقعد له السلطان بمجلسه يوم وصوله قعوداً فخماً ، وصل فيه إليه ، وأوصل من صحبه من وفود العرب والقبائل فقسّم فيهم برّه وعنايته وقبوله على شاكلته . واقتضى من أمراء العرب زغبة أبناءهم الأعزة رهناً على الطاعة ، وسرحهم لغزو أبي حمّو بمتبذّه من تيكورارين فانطلقوا لذلك ، وهلك السلطان عبد العزيز لليال قلائل من مقدم وزيره ، وعساكره أواخر شهر ربيع الآخر من سنة أربع وسبعين وسبعمائة لمرض مزمن كان يتفادى بالكتان والصبر من ظهوره . وانكفأ بنو مرين راجعين إلى ممالكهم بالمغرب بعد أن بايعوا لولده دراجاً حاسياً ، ولقبوه بالسعيد وجعلوا أمره إلى الوزير أبي بكر بن غازي ، فملك أمرهم عليهم واستمرت حاله كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن عود السلطان أبي حمو الاخير الى تلمسان الكرة
الثالثة لبني عبد الواد في الملك) *

لما هلك السلطان عبد العزيز ورجع بنو مرين إلى المغرب ، نصبوا من أعياص بني يغمراسن لمدافة أبي حمو من بعدهم عن تلمسان ، ابراهيم بن السلطان أبي تاشفين ، كان ناشئاً بدولتهم مذ هلك^(١) أبوه . وتسَلَّل من جملتهم عطية بن موسى مولى السلطان أبي حمو وخالفهم إلى البلد غداة رحيلهم ، فقام بدعوة مولاه ودافع ابراهيم بن تاشفين عن مرامه ، وبلغ الخبر أولياء السلطان أبي حمو من عرب المعقل أولاد يغمور بن عبيدالله ، فطُيروا إليه النحيب على حين غلب عليه اليأس . وأجمع الرحلة إلى بلاد السودان لما بلغه من اجتماع العرب للحركة عليه كما قلناه ، فأغذ السير

(١) وفي نسخة ثانية : منذ مهلك أبيه .

من مطرح اغترابه . وسابقه ابنه ولي عهده في قومه عبد الرحمن أبو تاشفين مع
ظهريهم عبدالله بن صغير فدخلوا البلد ، وتلاههم السلطان لرابعة دخولهم ، وعاود
سلطانه واقتعد أريكته ، وكانت إحدى الغرائب وتقبض ساعتئذ على وزرائه ،
اتهمهم بمداخلة خالد بن عامر فيما نقض من عهده وظاهر عليه عدوه ، فأودعهم
السجن وذبحهم ليومهم حنقاً عليهم . واستحكم لها نفرة خالد وعشيرته ، وحصلت
ولاية أولاد عريف بن يحيى لمنافرة بني عامر إياه ، واقبال السلطان عبد العزيز عليه ،
ووثق بمكان ونزمار كبيرهم في تسكين عادية ملوك المغرب عليه^(١) . ورجع إلى تمهيد
وطنه ، وكان بنو مرين عند انفضاضهم إلى مغربهم قد نصبوا من اقتال مغراوة ، ثم
بني منديل علي بن هرون بن ثابت بن منديل وبعثوه إلى شلف مزاحمة للسلطان أبي
حمو ، ونقضاً لأطراف ملكه . وأجلب أبو زيان ابن عمه على بلاد حصين ، فكان
من خبره معها ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الى
بلاد حصين ثم خروجه عنها) *

كان الأمير أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد ، لما هلك السلطان عبد العزيز وبلغه
الخبر بمنجاته من واركلا ، نهض منها إلى التلول ، واسف إلى الناحية التي كان منترباً
بها مساهماً لأبي حمو فيها ، فاقتطعت لدعوته كما كانت ، ورجع أهلها إلى ما عرفوا
من طاعته ، فنهض السلطان أبو حمو لتمهيد نواحيه وتثقيف أطراف ملكه ، ودفع
الخوارج عن ممالكة ، وظهره على ذلك أمير البدو من زغبة أبو بكر ومحمد ابنا
عريف بن يحيى ، دس إليهما بذلك كبيرهما ونزمار ، وأخذهما بمناصحة السلطان
ومخالصته ، فركبا من ذلك أوضح طريق وأسهل مركب . ونبذ السلطان العهد إلى
خالد وعشيرته ، فضاقت عليهم الأرض ولحقوا بالمغرب لسابقة نزوعهم إلى السلطان
عبد العزيز . وابتدأ السلطان بما يليه ، فأزعج بمظاهرتها علي بن هرون عن أرض
شلف سنة خمس وسبعين وسبعمئة بعد حروب هلك في بعضها أخوه رحمون بن

(١) وفي نسخة ثانية : تسكين عادية ملوك العرب عنه .

هرون . وخلص إلى بجاية ، فركب منها السفن إلى المغرب ، ثم تخطى السلطان أبو حمو إلى ما وراء شلف . وسفر محمد بن عريف بينه وبين ابن عمه بعد أن نزع إليه الكثير من أوليائه حصين والثعالب بما بذل لهم من الأموال ، وبما سثموا من طول الفتنة ، فشارطه على الخروج من وطنه إلى جيرانهم من رياح على أتاوة وتحمل إليه ، فقبل ووضع أوزار الحرب ، وفارق مكان ثورته ، وكان لمحمد بن عريف فيها أثر محمود ، واستألف سالم بن ابراهيم كبير الثعالب المتغلب على بسيط متيجة وبلد الجزائر ، بعد أن كان خباً في الفتنة ، وأوضع فاقترضى له من السلطان عهده من الأمان والولاية على قومه وعمله . وقلد السلطان أبناءه ثغور أعماله . فأنزل ابنه بالجزائر لنظر سالم بن ابراهيم من تحت استبداده ، وابنه أبا زيّان بالمدينة ، وانقلب السلطان إلى حضرته بتلمسان بعد أن دوّخ قاصيته ، وثقف أطراف عمله ، وأصلح قلوب أوليائه واستألف شيعة عدوه ، فكان فتحاً لا كفاء له من بعد ما خلع من ربيعة الملك ، ونزع من شرع^(١) السلطان وانتبذ من قومه وممالكه إلى قاصية الأرض ، ونزل في جوار من لا ينفذ أمره ولا يقوم بطاعته . والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويدلّ من يشاء .

* (الخبر عن اجلاب عبدالله بن صغير

وانتقاض أبي بكر بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان

ورجوع أبي بكر الى الطاعة) *

كانت خالد بن عامر وابن أخيه عبدالله بن صغير وسائر إخوانهم من ولد عامر بن ابراهيم قد لحقوا بالمغرب صرخى بيني مرين لما وقع بينهم وبين أبي حمو من الفعلة التي فعل خالد معه . ويش عبدالله بن صغير من صريخهم بما عقد ونزمار بن عريف من السلم بين صاحب المغرب وصاحب تلمسان ، فخاض القفر بمن معه من قومه ولحق بوطن زغبة ، وأجلب على جبل راشد وبه العمور أحلاف سويد من بني هلال . فاعترضتهم سويد ودارت بينهم حرب شديدة ، كان الظهور فيها لسويد عليهم . وفي خلال ذلك فسد ما بين السلطان وبين أبي بكر بن عريف بسبب صاحب جبل

(١) وفي نسخة ثانية : من لبوس .

وانشريس يوسف بن عمر^(١) بن عثمان ، أراداه السلطان على التزول عن عمله ، فغضب له أبو بكر لقديم الصداقة بين سلفها ، ووصل يده بعبدالله بن صغير بعد الواقعة . ودعاه إلى بيعة أبي زيان فأجابه وأوفدوا رجالاتهم عليه بمكانه من مجالات رياح ، فوصلوه معهم ونصبوه للأمر ، وتخيّر محمد بن عريف إلى السلطان في جموع سويد . ونهض السلطان من تلمسان سنة سبع وسبعين وسبعمئة فيمن معه من قبائل بني عبد الواد وعرب المعقل وزغبة ، ودس إلى أولياء أبي زيان يرغبهم في المواعد . وحكم أبا بكر في الاشتراط عليه ففأى إلى الطاعة والمخالصة . ورجع أبو زيان إلى مكانه من حلال الزواودة ، وأغذ السلطان السير إلى حضرته فتملى أريكته ، وحدث بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب
والحرب التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين
هلك فيها عبدالله بن صغير واخوانه) *

لما بلغ خالد بن عامر بمكانه من المغرب خبر عبدالله ابن أخيه صغير ، قفل من المغرب يشأ من مظاهرة بني مرين فخفق السعي في صريخه بهم لما كانوا عليه من افتراق الأمر كما ذكرناه قبل . ووصل معه ساسي بن سليم في قومه بني يعقوب ، وتظاهر الحيان على العيث في بلاد أبي حمو . واجتمع إليهم أبناء الفتنة من كل أوب ، فأجلبوا على الأطراف وشنوا الغارة في البلاد ، وجمع أولاد عريف لحربهم قومهم من سويد وأحلافهم من العطاف ، وبعثوا بالصريخ إلى السلطان فسير لحرب عدوه وعدوهم ابنه أبا تاشفين وليّ عهده في قومه ، وبرز لذلك في العساكر والجنود . ولما انتهى إلى بلاد هوارة ، واضطرب عسكره بها ، أعجله صريخ أوليائه عن مناخ الركاب ، فاستعجل الرحلة ولحق بأوليائه أولاد عريف ومن معهم من أشياع الدولة من زغبة . وأغذوا السير إلى واد هناك شرقي القلعة ، فتلاقى^(٢) الجمعان وتواقفوا للقاء سائر

(١) وفي نسخة ثانية : يوسف بن عاجر .

(٢) وفي نسخة ثانية : فترأى .

يومهم . واستنصاؤا بإضرام النيران مخافة البيات ، وأصبحوا على التعبية . وتمشت
الرجالات في مواضعة الحرب ، فأعجبهم مناقشة القوم ، وتزاحفت الصفوف ، وأعلم
الكمة ، وكشفت الحرب عن ساقها ، وحمي الوطيس ، وهبت الريح المبشرة ،
فخفقت لها رايات الأمير وهدرت طبوله ، ودارت رحي الحرب وصمدت إليها
كتائب العرب ، فبرىء^(١) فيها الأبطال منهم وانكشفوا ، وأجلت المعركة عن عبد الله
ابن صغير صريعاً ، فأمر أبو تاشفين فاحتر رأسه وطير به البريد إلى أبيه . ثم عثرت
المواكب بأخيه ملوك بن صغير مع العباس ابن عمه موسى بن عامر ، ومحمد بن زيان
من وجوه عشيرتهم متواقعين بجنودهم متضاجعين في مراقدهم كأنما أقعدوا للردى ،
فوطأتهم سنابك الخيل وغشيم قتام المراكب . وأطلقت العساكر أعنتها في اتباع
القوم فاستاقوا نعمهم وأموالهم . وكثرت يومئذ الأنفال ، وغشيم الليل فتستروا
بجناحه . ولحقهم فلهم جبل راشد ، وأطرب أبو تاشفين أباه بمشهى ظهوره وأملاه
السرور بما صنع الله على يده ، وما كان له ولقومه من الأثر في مظاهرة أوليائه . وطار
له بها ذكر على الأيام ، ورجع إلى أبيه بالحضرة مملوء الحقايب بالأنفال والجوانح
بالسرور والأيام بالذكر عنه وعن قومه ، ومضى خالد لوجهه في فل من قومه . ولحق
بجبل راشد إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن انتقاض سالم بن ابراهيم ومظاهرتة خالد بن عامر
على الخلاف وبيعتهما للأمير أبي زيان ثم مهلك خالد ومراجعة
سالم الطاعة وخروج أبي زيان الى بلاد الجريد) *

كان سالم بن ابراهيم هذا كبير الثعالب المتغلبين على حصن متيجة منذ انقراض
مليكش ، وكانت الرياسة فيهم لأهل نيته حسباً ذكرناه في أخبارهم عند ذكر
المعقل . ولما كانت فتنة أبي زيان بعد نكبة أبي حمو على بجاية ، وهبت ريح العرب
واستغلظ أمرهم ، وكان سالم هذا أول من غمس يده في تلك الفتنة ، ومكر بعلي بن
غالب من بيوتات الجزائر ، كان مغرباً عنها منذ تغلب بني مرين على المغرب الأوسط

(١) وفي نسخة ثانية : فتردى .

ايام بني عثمان^(١) ولحق بها عندما أظلم الجوّ بالفتنة ، واستبادت نفرة أهل الجزائر عن أبي حمو ، فأظهر بها الاستبداد واجتمع بها إليه الأوثاب والطغام . ونكره سالم أمير الضاحية أطمعه في الاستيلاء على الجزائر ، فدخل في شأنه الملاء من أهل المدينة ، وحذّره منه أنه يروم الدعوة للسلطان أبي حمو ، فاستشاطوا نفرة وثاروا به ، حتى إذا رأى سالم أنه قد أحيط به خلّصه من أيديهم وأخرجه إلى حيّه . وأبلغه^(٢) هنالك . وحول دعوة الجزائر إلى الأمير أبي زيّان تحت استبداده ، حتى إذا كان من أمر بني مرين وحلول السلطان عبد العزيز بتلمسان كما قدّمناه ، أقام دعوتهم في الجزائر إلى حين مهلكه ورجوع أبي حمو إلى تلمسان . وأقبل جيش أبي زيّان إلى تطري ، فأقام سالم هذا دعوته في أحيائه وفي بلد الجزائر ، خشية على نفسه من السلطان أبي حمو ، لما كان يعتمد عليه في الادالة من أمره بالجزائر بأمر ابن عمّه . ولما كان من خروج أبي زيّان إلى أحياء رباح على يد محمد بن عريف ما قدّمناه . واقتضى سالم عهده من السلطان ، وولي سالم على الجزائر ، أقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الاعمال واستضافة جبايتها لنفسه ، وأوعز السلطان إلى سائر عمّاله باستيفاء جبايتها ، فاستراب وبقي في أمره على المداهنة .

وحدث إثر ذلك فتنة خالد بن عامر ، فتربّص دواثرها رجاء أن يكون الغلب له ، فيشغل السلطان عنه . ثم بدا له ما لم يحتسب ، وكان الغلب للسلطان ولأوليائه . وكان قد حدثت بينه وبين بني عريف عداوة خشي أن يحمل السلطان على النهوض إليه ، فبادر إلى الإنتفاض على أبي حمو ، واستقدم الأمير أبو زيّان فقدم عليه وجأجأ بخالد بن عامر من المخالفين معه من العرب ، فوصلوا إليه أول سنة ثمان وسبعين وسبعائة ، وعقد بينهم حلفاً مؤكداً ، وأقام الدعوة للأمير أبي زيّان بالجزائر . ثم زحفوا إلى حصار مليانة وبها حامية السلطان فامتنعت عليهم ، ورجعوا إلى الجزائر فهلك خالد بن عامر على فراشه ودفن بها ، وولي أمر قومه من بعده المسعود ابن أخيه صغير ، ونهض إليهم السلطان أبو حمو من تلمسان في قومه وأوليائه من العرب ، فامتنعوا يجبال حصّين وناوشتهم جيوش السلطان القتال بأسافل الجبل فغلبوهم عليها ، وانفضت الناجعة عنهم من الديالم والعطاف وبني عامر ، فلهقوا بالقفر .

(١) وفي نسخة ثانية : ايام أبي عنان .

(٢) وفي نسخة ثانية : واتلفه هنالك .

ورأى سالم أصحابه أن قد أحيط بهم فلاذ بالطاعة ، وحمل عليها أصحابه . وعقد لهم السلطان من ذلك ما أرادوه على أن يفارقوا الأمير أبا زيان ففعلوا . وارتحل عنهم فلحق ببلاد المغرب ريغ ، ثم أجازها إلى نَفْطَة من بلاد الجريد ، ثم إلى تَوَزْر ، فنزل على مقدمها يحيى بن يملول ، فأكرم نزله وأوسع قراره إلى أن كان من أمره ما نذكر .

ورجع السلطان أبو حمو إلى تلمسان وفي نفسه من سالم حرارة لكثرة اضطرابه ومراجعته الفتن ، حتى توسط فصل الشتاء ، وأبعدت العرب في مشاتها ، فنهض من تلمسان في جيوش زناته ، وأغذ السير فصبح بحصن متيجة بالغايرة الشعواء . وأجفلت الثعالبه فلحقوا برؤوس الجبال وامتنع سالم بجبل بني خليل . وبعثوا ابنه وأولياءه إلى الجزائر فامتنعوا بها وحاصروه أياماً . ثم غلبوه على مكانه . فانتقل إلى بني ميسرة من جبال صنهاجة . وخلف أهله ومناعه ، وصار الكثير من الثعالبه إلى الطاعة ، وابتهلوا بأمان السلطان وعهده إلى فحص متيجة ، وبعث هو أخاه ثانياً إلى السلطان بانتقاضه العهد^(١) ، ونزل من رأس ذلك الشاهق إلى ابنه أبي تاشفين فأوصله إلى السلطان إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان ، فأخفر عهده وذمة ابنه ، وتقبض عليه صبيحة ليلته . وبعث قائده إلى الجزائر فاستولى عليها وأقام دعوته بها ، وأوفد عليه مشيختها فتقبض عليهم ، وعقد على الجزائر لوزيره موسى بن مرعوت^(٢) ، ورجع إلى تلمسان ف قضى بها عيد النحر ، ثم أخرج سالم بن ابراهيم من محبسه إلى خارج البلد ، وقتل قعصاً بالرماح ، ونصب شلوه وأصبح مثلاً للآخرين ، ولله البقاء . وعهد السلطان لابنه المنتصر على مليانة وأعمالها ، ولابنه أبي زيان على وهران . وراسله ابن يملول صاحب توزر ، وصهره ابن قرى صاحب بسكرة وأولياؤهما من الكعوب والزواودة لما أهمهم أمر السلطان أبي العباس ، وخافوه على أمصارهم فراسلوا أبا حمو يضمنون له مسالمة أبي زيان على أن يوفي لهم بما اشترط له من المال ، وعلى أن يشب نار الفتنة من قبله على بلاد الموحدنين ليشغل السلطان أبا العباس عنهم على حين عجزه^(٣) وضعف الدولة عنه . فأوهمهم من نفسه القدرة وأطمعهم في ذلك .

(١) وفي نسخة ثانية العبارة مختلفة تماماً : وبعث هو أخاه ثابتاً إلى السلطان ، فاقضى له العهد .

(٢) وفي نسخة ثانية : موسى بن برعوت وقد مر معنا من قبل في غير هذا المكان .

(٣) الضمير هنا يعود إلى أبي حمو .

وما زال يراجعهم ويراجعونه بالمقاربة والوعد إلى أن أحيط بابن يملول ، واستولى السلطان على بلده فلحق بيسكرة وهلك بها لسنة من خروجه آخر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وبقي ابن مزني من بعده متعللاً بتلك الأمانى الكاذبة إلى أن ظهر أمره وتبين عجزه ، فراجع طاعة السلطان أبي العباس واستقام على الموادعة ، ولحق الأمير أبو زيّان بحضرة السلطان بتونس فترل بها أكرم نزل مؤملاً منه المظاهرة على عدوّه . والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد على ما شرحناه مراراً من تغلب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار . وتقلّص ظلّ الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكرها بسيف البحر ، وتضاؤل قدرتها على قدرتهم ، وإعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الأموال . وإقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار ، والقنوع بالتغريب بينهم وإغراء بعضهم ببعض والله وليّ الأمور .

* (قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم
من التنافس) *

كان لهذا السلطان أبي حمّو جماعة من الولد كبيرهم أبو تاشفين عبد الرحمن . ثم بعده أربعة لأم واحدة ، كان تزوّجها بميمنة من أعمال قسنطينة أيام جولته في بلاد الموحدين ، كبيرهم المتصر . ثم أبو زيّان محمد ، عمر ويلقب عميرا ، ثم بعد ولد كثير من أبناء علات . وكان أبو تاشفين وليّ عهده ، وقد رفعه على الباقيين وأشركه في رأيه^(١) ، وأوجب له الحق على وزراء دولته ، فكان لذلك رديفه في ملكه ومظهر سلطانه . وكان مع ذلك يتعاهد أولئك الإخوة الأشقاء بجنوه ، ويقسم لهم من ترشيحه والنجاء في خلوته ، فتغصّ أبو تاشفين منهم ، فلما استفحل أمر السلطان وانمحت من دولته آثار الخوارج^(٢) ، أعمل نظره في قسمة الأعمال بين ولده وترشيحهم للإمارة والبعد بهم عن أخيمهم أبي تاشفين ، أن يصيبهم بمكروه عند ايناس الغيرة منهم ، فولّى المتصر كبيرهم على مليانة وأعمالها ، وأنفذه إليها ومعه أخوه عمر الأصغر في كفالتة ، وولّى أخاها الأوسط أبا زيّان على المرية وما إليها من بلاد

(١) وفي نسخة ثانية : اشركه في أمره .

(٢) وفي نسخة ثانية : آثار الخلاف .

حصين . وولى ابنه يوسف ابن الزاوية على تدلس وما إليها من آخر أعماله . واستقر أمرهم على ذلك . ثم كان من انتفاض سالم الثعلبي بالجزائر ما قدّمناه ، فمني إلى السلطان أن ابنه أبا زيّان داخله في الخلاف ، فلما فرغ من أمر سالم كما مرّ وطرده أبا زيّان ابن عمه عن أعماله إلى الجريد ، أعمل نظره في نقل ابنه أبي زيّان من المرية إلى ولاية وهْران وأعمالها بعداً له عن العرب المحليين في الفتن ، وأنزل معه بعض وزرائه عيناً عليه ، وأقام والياً عليها والله أعلم .

* (وثبة أبي تاشفين بيحيى بن خلدون كاتب أبيه) *

كان أوّل شيء حدث من منافسة أبي تاشفين لإخوته ، أن السلطان لما ولى ابنه أبا زيّان على وهْران وأعمالها طلبه أبو تاشفين في ولايتها لنفسه فأسعه ظاهراً ، وعهد إلى كاتبه يحيى بن خلدون بماطلته في كتابها حتى يرى المخلص من ذلك ، فأقام الكاتب يطاوله . وكان في الدولة لثيم من سفلة الشرط يدعى بموسى بن يخلف ، صحبهم أيام الاغتراب بتيكورارين أيام ملك تلمسان عليهم السلطان عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن كما مرّ . وخلال وجه السلطان أبي حمو وإبنه ، فتقرّب إليه بخدمته ورعاها له . فلما رجع السلطان إلى تلمسان بعد مهلك عبد العزيز قدّمه وآثره واستخلصه ، فكان من أخلص بطانته . وكان أبو تاشفين أيضاً استخلصه وجعله عيناً على أبيه . وكان هو أيضاً يغص بابن خلدون كاتب السلطان ، ويغار من تقدّمه عنده ويغري به أبا تاشفين جهده ، فدسّ إليه أثناء هذه المطاولة أن الكاتب ابن خلدون إنما مطله بالكتاب خدمة لأبي زيّان أخيه وإيثاراً له عليه ، فاستشاط له أبو تاشفين ، وترصد له منصرفه من القصر إلى بيته بعد التراويح في إحدى ليالي رمضان سنة ثمانين وسبعائة في رهط من الأوغاد ، كان يطوف بهم في سكك المدينة ، ويطرق معهم بيوت أهل السرّ والحشمة في سبيل الفساد ، فعرضوا له وطعنوه بالخناجر حتى سقط عن دابته ميتاً . وغدا الخبر على السلطان صبيحة تلك الليلة فقام في ركائبه وبثّ الطلب عن أولئك الرهط في جوانب المدينة . ثم بلغه أن ابنه أبا تاشفين صاحب الفعلة ، فأغضى وطوى عليها جونحه ، وأقطع أبا تاشفين مدينة وهْران كما وعده . وبعث ابنه أبا زيّان

على بلاد حُصَيْنَ والمرية كما كان . ثم طلب أبو تاشفين من أبيه أن تكون الجزائر خالصة له فأقطعه إياها ، وأنزل بها من إخوته يوسف ابن الزاوية بما كان شيعة له من بينهم وفيئة في صحبته ومخالصته ، فأقام والياً عليها ، والله أعلم .

* (حركة أبي حمو على ثغور المغرب الأوسط ودخول ابنه أبي تاشفين الى جهات مكناسة) *

كان أبو العباس بن السلطان أبي سالم ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد نهض في عساكره سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة^(١) الى مراكش ، وبها الأمير عبد الرحمن بن يفلوس ابن السلطان أبي عليّ مقاسمه في نسبه وملكه . وكان قد سوغ له مراكش وأعمالها عند ما أجلب معه على البلد الجريد سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما في أخبارهم . واستقرّ الأمير عبد الرحمن بمراكش . ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أحمد ، ونهض إليه من فاس فحاصره أولاً وثانياً يفرج فيها عنه . ثم نهض إليه سنة أربع وثمانين وسبعمائة فحاصره وأخذ بمخنقه وأطال حصاره . وكان يوسف بن علي بن غانم أمير المعقل من العرب منتقياً على السلطان وقد بعث السلطان العساكر الى أحيائه ، فهزموه وخرّبوا بيوته وبساتينه بسجلماسة ورجعوا . وأقام هو بصحرائه منتقياً . فلما جهد الحصار الأمير عبد الرحمن بمراكش ، بعث أبا العشائر ابن عمّه منصور بن السلطان أبي عليّ الى يوسف بن علي بن غانم ، ليجلب به على فاس وبلاد المغرب ، فيأخذ بحجزة السلطان عنه وينفس من مخنقه ، فسار يوسف بن علي مع أبي العشائر الى السلطان أبي حمو بتلمسان يستنجده على هذا الغرض لقدرة عليه دون العرب ، بما له من العساكر والأبهة ، فأنجده على ذلك . وقدم ابنه أبا تاشفين معهم ، وخرج هو في أثرهم ، فساروا الى المغرب . ونزل يوسف بن علي بقومه قريباً من مكناسة ، ومعه الأميران أبو العشائر وأبو تاشفين . وجاء أبو حمو من خلفهم فحصر تازي سبعاً ، وخرّب قصر تازروت المعدّ هنالك لتزل السلطان . وكان السلطان قد استخلف على فاس في مغيبه علي بن مهدي العسكري من عمّال

(١) وفي نسخة ثانية : إحدى وثمانين .

دولته ووجوه قبيله ، وكان هنالك عرب المنبأة^(١) من المعقل قد أخذوا الميرة ، فأهاب بهم ونزمار بن عريف ولي الدولة من عرب سويد ، وهو نازل بقصر مرادة من جوار^(٢) تازى ، فاستألفهم لمدافة أبي حمو وابنه . وخرج بهم علي بن مهدي . ثم وصل الخبر باستيلاء السلطان على مراکش منتصف خمس وثمانين وسبعمئة فأجفل أبو تاشفين وأبو العشائر ومن معها من العرب ، واتبعهم علي بن مهدي بمن معه من المنبأة . وأجفل أبو حمو على تازى ومرّ بمرادة على قصر ونزمار فهدمه وعاث فيه ، وانكفاً راجعاً إلى تلمسان . وفارق ابنه أبو تاشفين أصحابه أبا العشائر والعرب ولحق بأبيه إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (نهوض السلطان أبي العباس صاحب المغرب إلى تلمسان واستيلاؤه عليها واعتصام أبي حمو بجبل تاجموت^(٣)) *

لما استولى السلطان أبو العباس على مراکش كما قلناه ، رجع إلى دار ملكه بفاس وقد آسفه السلطان أبو حمو باجلا به على وطنه هو وابنه أبو تاشفين مع العرب أيام مغيبه بمراكش ، فأجمع الرحلة إلى تلمسان ، وخرج في عساكره . وراجع يوسف بن علي الطاعة ورحل معه في جموعه . وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو فتردد بين الحصار بتلمسان أو مفارقتها . وكان بينه وبين ابن الأحمر صاحب الأندلس مواصلة ، ولا بن الأحمر دالة على السلطان أبي العباس كما مرّ . فكان يحفظ له الشأن في قصد تلمسان ويلبثه عنها فيعطيه المقادة في ذلك ، فيعلل هو السلطان أبا حمو بأن السلطان أبا العباس لا يصل إليه . ثم أجمع السلطان أبو العباس أمره ، ونهض على حين غفلة مغزاً إلى تلمسان . وتقدّم الخبر إلى أبي حمو فأجمع مفارقة تلمسان بعد أن أظهر لأولياته وأهل دولته أنه على الحصار . ثم خرج حين غشية الليل إلى معسكره بالصفيف ، وافتقده أهل بلده من صبيحتهم ، فتبادر أكثرهم إليه متعلقين بأذياله خوفاً من معرفة العدو ، ثم ارتحل يطوي المراحل إلى البطحاء ، ودخل السلطان أبو

(١) وفي نسخة ثانية : المنبات .

(٢) وفي نسخة ثانية : من أحواز .

(٣) وفي نسخة ثانية : بخصن تاجموت .

العباس تلمسان واستولى عليها ، وجَهَّز العساكر لاتباع أبي حمو وقومه ، فأجفل من البطحاء ولحق بتاحجموت فاعتصم بمقلها ولحق به ابنه المنتصر من مليانة بما كان معه من الذخيرة ، فاستمدَّ بها وأقام هناك عازماً على الامتناع والله تعالى أعلم .

* (رجوع السلطان أبي العباس الى المغرب واختلال دولته
ورجوع السلطان أبي حمو الى ملكه بتلمسان) *

كان السلطان أبو العباس لما استولى على مملكة تلمسان ، طيَّر كتبه ورسله بفتحها إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس ، ويعتذر إليه من مخالفة رأيه في الحركة إليها . وقد كان ابن الأحمر آسفه ذلك إلى ما انتظم إليه من التزعجات الملوكية التي يؤسف بها بعضهم بعضاً ، وهو يطوي جوانحه عليها ، واطلع على فساد طاقة السلطان أبي العباس في أهل دولته وفقد^(١) ضمائرهم له ، فأزعج لوقته موسى ابن السلطان أبي عنان من أعياص ملكهم ، كان عنده بالأندلس ، وجَهَّزه بما يحتاج إليه وبعث في خدمته مسعود بن رحو بن ماسالي^(٢) وزيرهم المشهور ، وأركبه السفن إلى سبتة ، فنزلوا بساحتها أول ربيع سنة ست وثمانين وسبعمائة واستولوا عليها . ثم تقدموا إلى فاس فنازلوا دار الملك أياماً وبها محمد بن حسن كاتب محمد بن عنان القائم بدولة السلطان أبي العباس والمستبدَّ عليه ، واشتدوا في حصارها وتوافت إليهم الأمداد والحشود فداخله الخور والتي بيده ، وداخل السلطان موسى إلى دار الملك تاسع عشر ربيع الأول من السنة ، وجلس على أريكته ، وآتاه الناس طاعتهم . وطار الخبر إلى السلطان أبي العباس بتلمسان وقد تجهَّز لاتباع أبي حمو ، ونزل على مرحلة من تلمسان بعد أن أغراه ونزمار بن عريف أمير سويد بتخريب قصور الملك بتلمسان ، وكانت لا يعبر عن حسنها ، اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين ، واستدعى لها الصناع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبدأوة دولتهم يومئذ بتلمسان ، فبعث إليهما السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس ، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعياء على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله ،

(١) وفي نسخة ثانية : ونغل .

(٢) وفي نسخة ثانية : ماساي .

فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاماً بزعمه من أبي حمو ، وأخذاً بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب قصر الملك بتازي ، وتخريب قصره هو بمرادة ، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر . وبينما هو في ذلك وهو يروم السفر لاتباع أبي حمو ، إذ جاءه الخبر بأن السلطان موسى ابن عمه السلطان أبي عنان قد استولى على دار ملكهم بفاس ، واقتعد أريكتهم ، فكرر راجعاً إلى المغرب لا يلوي على شيء ، وترك تلمسان لشأنها ، وكان من أمره ما يأتي ذكره في أخبارهم ، وطار الخبر إلى السلطان أبي حمو بمكانه من تاحجموت ، فاغذ السير إلى تلمسان ودخلها ، وعاد إلى ملكه بها ، وتفجع لتلك القصور بما ذهب من رونق حسنها ، وراجع دولته بني عبد الواد وسلطانهم بتلمسان والله سبحانه وتعالى أعلم .

* (تجدد المنافسة بين أولاد السلطان أبي حمو ومجاهرة أبي تاشفين بذلك لهم ولأبيه) *

كان التنافس بين هؤلاء الأولاد خفياً على الناس بما كان السلطان أبوهم يؤمل بينهم ويداري بعضهم عن بعض . فلما خرجوا أمام بني مزين وعادوا إلى تلمسان صار تنافسهم إلى العداوة . واتهم أبو تاشفين أباه بمالأة إخوته عليه ، فشمّر لعقوقه وعداوته ! وشعر السلطان بذلك فأعمل الحركة إلى ناحية البطحاء مورياً بإصلاح العرب ، ومعتزماً على لقاء ابنه المنتصر بمليانة جناحه ، ويتخطى إلى الجزائر فيجعلها دار ملكه بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين وحالفه على المناصحة . واطلع موسى بن يخلف على خبيثة السلطان بذلك ، فدس بها إلى أبي تاشفين على عادته ، فطار به الأسف كل مطار وأغذ السير من تلمسان فيمن معه من العسكر ، وصبح أباه بأسافل البطحاء قبل أن يتصل بالمنتصر ، وكشف القناع عن التكبر والتسخط على ما بلغه ، فحلف له السلطان على ذلك وأرضاه بالرجوع معه إلى تلمسان فرجعاً جميعاً .

* (خلع السلطان أبي حمو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالملك واعتقاله إياه) *

ولما رجع السلطان من البطحاء وبطل ما كان يؤمله من الاتصال بالمنتصر ، دس إليه

مع خالصة من أهل دولته يعرف بعلي بن عبد الرحمن بن الكليب بأحمال من المال يودعها إلى أن يجد السبيل لحاجة نفسه . وكتب له بولاية الجزائر ليقم بها حتى يخلص إليه . واطلع موسى على ذلك فأطلع أبا تاشفين على الخبر ، فبعث في أثره من حاشيته من اغتال ابن الكليب وجاء إليه بالمال والكتب ، فاطلع منها على حقيقة أمرهم وأنهم متربصون به ، فاستشاط وجاهر أباه وغدا عليه بالقصر ، فأوقفه على الكتاب وبالغ في عذله . وتخيّر موسى بن يخلف إلى أبي تاشفين ، وهجر باب السلطان وأغرى به ابنه فغدا على أبيه بالقصر بعد أيام وخلعه ، وأسكنه بعض حجر القصر ، ووكل به ، واستخلص ما كان معه من الأموال والذخيرة . ثم بعث به إلى قصبة وهَران فاعتقله بها ، واعتقل من حضر بتلمسان من إخوته ، وذلك آخر ثمان وثمانين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى المنتصر بمليانة وأبي زيان وعُمَيْر ، فلحقوا بقبائل حُصَيْن واستدّموا بهم ، فأذمّوهم وأنزلوهم عندهم بجبل تيطري . وجمع أبو تاشفين العساكر واستألف العرب من سويد وبني عامر ، وخرج في طلب المنتصر وإخوته ، ومرّ بمليانة فلكها . ثم تقدّم إلى جبل تيطري وأقام في حصارهم به ، وهم ممتنعون عليه . والله تعالى أعلم .

* (خروج السلطان أبي حمو من الاعتقال ثم القبض عليه
وتغريبه إلى المشرق) *

لما طال مقام أبي تاشفين على تيطري لحصار إخوته ، ارتاب بأمر أبيه وطول مغيبه عنه . وشاور أصحابه في شأنه ، فأشاروا بقتله واتفقوا على ذلك ، فبعث أبو تاشفين ابنه أبا زيان في لمة من حاشيته فيهم ابن الوزير عمران بن موسى ، وعبدالله ابن الخراساني ، فقتلوا من كان معتقلاً بتلمسان من أبناء السلطان ، وتقدّموا إلى وهَران وسمع أبو حمو بقدمهم ، فأوجس الخيفة منهم واطلع من جدران القصبة ينادي بالصريخ في أهل البلد ، فتبادروا إليه من كل جهة ، وتدلّى لهم بجبل وصله من عمامته التي كان متعمماً بها ، فشالوه حتى استقرّ بالأرض واجتمعوا إليه . وكان الرهط الذين جاؤا والقتلة بباب القصر ، وقد أغلقه دونهم . فلما سمعوا الهيعة واستيقنوا الأمر ، طلبوا

النجاة بدمائهم . واجتمع أهل البلد على السلطان ، وتولى كبر ذلك خطيهم ،
وجددوا له البيعة وارتحل من حينه إلى تلمسان ، فدخلها أوائل تسع وثمانين وسبعائة
وهي يومئذ عورة بما كان بنو مرين هدموا من أسوارها وأزالوا حصنها . وبعث فيمن
كان مخلفاً بأحياء بني عامر من أكابرهم ووجوههم ، فقدموا عليه . وطار الخبر إلى
أبي تاشفين بمكانه من حصار تطري ، فانكفاً راجعاً إلى تلمسان فيمن معه من
العساكر والعرب ، وبادره قبل أن يستكمل أمره فأحيط به . ونجا إلى مأذنة الجامع
فاعتصم بها ، ودخل أبو تاشفين القصر ، وبعث في طلبه . وأخبر بمكانه فجاء إليه
بنفسه واستتره من المأذنة ، وأدركته الرقة ، فجهش بالبكاء وقبل يده ، وغدا به إلى
القصر واعتقله ببعض الحجر هنالك ، ورغب إليه أبوه في تسريحه إلى المشرق لقضاء
فرضه ، فشارط بعض تجار النصارى المترددين إلى تلمسان من القيطلان على حمله
إلى الإسكندرية ، وأركبه السفن معهم بأهله من فرضة وهران ذاهباً لطيبة موثقاً
به ، وأقبل أبو تاشفين على القيام بدولته ، والله تعالى أعلم .

* (نزول السلطان أبي حمو ببجاية من السفين واستيلاؤه على
تلمسان ولحاق أبي تاشفين بالمغرب) *

لما ركب السلطان أبو حمو السفين ذاهباً إلى الإسكندرية ، وفارق أعمال تلمسان
وحاذى بجاية ، داخل صاحب السفينة في أن ينزله ببجاية ، فأسعهف بذلك . فخرج
من الطارمة التي كان بها معتقلاً ، وصار الموكلون به في طاعته . وبعث إلى محمد بن
أبي مهدي قائم الأسطول ببجاية المستبد على أميرها من ولد السلطان أبي العباس بن
أبي حفص . وكان محمد خالصة المستنصر بن أبي حمو من ناحية دولتهم . قد
خلص إلى بجاية من تطري بعدما تنفس لحصار عنهم فبعثه ابن أبي مهدي إلى
السلطان أبي حمو بالإجابة إلى ما سأل . وأنزله ببجاية آخر تسع وثمانين وسبعائة
وأسكنه بستان الملك المسمى بالرفيع ، وطير بالخبر إلى السلطان بتونس ، فشكر له ما
آتاه من ذلك ، وأمره بالاستبلاغ في تكريمه ، وأن يخرج عساكر بجاية في خدمته إلى
حدود عمله متى احتاج إليها . ثم خرج السلطان أبو حمو من بجاية ونزل متيجة
واستنفر طوائف العرب من كل ناحية فاجتمعوا إليه ونهض يريد تلمسان واعصوب

بنو عبد الواد على أبي تاشفين بما بذل فيهم من العطاء وقسم من الأموال ،
فنابدوا السلطان أبا حمّو واستصعب عليه أمرهم . وخرج إلى الصحراء وخلف ابنه أبا
زيّان في جبال شلف مقيماً لدعوته . وبلغ إلى تاسة^(١) من ناحية المغرب . وبلغ الخبر
إلى أبي تاشفين فبعث عسكرياً إلى شلف مع ابنه أبي زيّان ووزيره محمد بن عبد الله
ابن مسلم ، فتواقفوا مع أبي زيّان ابن السلطان أبي حمّو فهزمهم . وقتل أبو زيّان بن
أبي تاشفين ووزيره ابن مسلم ، وجماعة من بني عبد الواد . وكان أبو تاشفين لما بلغه
وصول أبيه إلى تاسة ، سار إليه من تلمسان في جموعه ، فأجفل أبو حمّو إلى وادي
صا^(٢) واستجاش بالأحلاف من عرب المعقل هنالك ، فجاؤا لنصره ، ورعوا زمامه
فترها ، وأقام أبو تاشفين قبائله وبلغه هنالك هزيمة ابنه ومقتله ، فولّى منهزماً إلى
تلمسان وأبو حمّو في اتباعه . ثم سرح أبو تاشفين مولاة سعادة في طائفة من العسكر
لمحاولة العرب في التخلي عن أبي حمّو ، فانتز فيه الفرصة وهزمه وقبض عليه ، وبلغ
الخبر إلى أبي تاشفين بتلمسان ، وكان يؤمل النجاح عند سعادة فيما توجه فيه ،
فأخفق سعيه ، وانفض عنه بنو عبد الواد والعرب الذين معه ، وخرج هارباً من
تلمسان مع أوليائه من سويد إلى مشاتهم بالصحراء . ودخل السلطان أبو حمّو
تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعائة وقدم عليه أبنائه فأقاموا معه بتلمسان ، فطرق
المتصر ابنه المرض فهلك بها لأيام من دخوله تلمسان ، واستقر الأمر على ذلك ،
والله أعلم .

* (نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مرين ومقتل السلطان
أبي حمّو) *

لما خرج أبو تاشفين من تلمسان أمام أبيه ، واتصل بأحياء سويد ، أجمعوا رأيهم على
الاستنجاد بصاحب المغرب ، فوفد أبو تاشفين ومعه محمد بن عريف شيخ سويد على
السلطان أبي العباس صاحب فاس ، وسلطان بني مرين صريخين على شأنهما ،
فقبل وفادتهما ووعدهما بالنصر من عدوّهما . وأقام أبو تاشفين عنده ينتظر إنجاز وعده ،

(١) وفي نسخة أخرى : تامة .

(٢) ويدعى وادي (زا) وهو إلى يمين وادي ملوية . ونطقه عند أهل المغرب بين الصاد والزاي .

وكان بين أبي حمو وابن الأحمر صاحب الأندلس وشيخة ودّ وعقيدة وصلة ، ولا ابن الأحمر دالة وتحكم في دولة أبي العباس صاحب المغرب بما سلف من مظاهرته على أمره منذ أول دولته ، فبعث أبو حمو في الدفاع عنه من إجازة أبي تاشفين من المغرب إليه ، فلم يجبه صاحب المغرب وفاء بدمته وعلله بالعودة عن نصره . وألح عليه ابن الأحمر في ذلك ، فتعلل بالمعاذير . وكان أبو تاشفين قد عقد لأول قدومه مع وزير الدولة محمد بن يوسف بن علاّل حلفاً اعتقد الوفاء به ، فكان هواه في إنجاده ونصره من عدوه ، فلم يزل يفتل لسلطانه في الذروة والغارب ، ويلوي عن ابن الأحمر المواعيد حتى أجابه السلطان إلى غرضه .

وسرح ابنه الأمير أبا فارس والوزير محمد بن يوسف بن علاّل في العساكر لمصارخة أبي تاشفين . وفصلوا عن فاس أواخر إحدى وتسعين وسبعائة وانتهوا إلى تازي . وبلغ خبرهم إلى السلطان أبي حمو فخرج من تلمسان وجمع أشياعه من بني عامر والخراج^(١) بن عبيدالله وقطع جبل بني ورنيد المظل على تلمسان ، وأقام بالغيران من جهاته . وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فقدم إلى تلمسان فجدد المكر والخديعة وشيطان الفتنة والشر موسى بن يخلف ، فاستولى عليها وأقام دعوة أبي تاشفين فيها ، فطير الخبر إلى أبي حمو ابنه عمير ، فصبحه بها لليلة من مسيرة ، فأسلمه أهل البلد . وتقبض عليه ، وجاء به أسيراً إلى أبيه بمكانه من الغيران ، فوبّخه أبو حمو على فعالة . ثم أذاقه أليم عقابه ونكاله ، وأمر به فقتل أشنع قتلة . وجاءت العيون إلى أبي فارس ابن صاحب المغرب ووزيره ابن علاّل بمكان أبي حمو واغرابه بالغيران ، فنهض الوزير ابن علاّل في عساكر بني مرين لغزوه ، وسار أمامهم سليمان بن ناجي من الأحلاف إحدى بطون المعقل ، يدل بهم طريق القفر حتى صبحوه ومن معه من أحياء الخراج في مكان مقامتهم بالغيران . وناولوهم القتال فلم يطيقوهم لكثرتهم ، وولّوا منهزمين ، وكبا بالسلطان أبي حمو فرسه فسقط وأدركه بعض فرسانهم وعرفه فقتله قعصاً بالرماح ، وجاؤا برأسه إلى الوزير ابن علاّل وأبي تاشفين ، وجيء بابنه عمير أسيراً . وهم أبو تاشفين أخوه بقتله فمنعوه أياماً ، ثم أمكنوه منه فقتله ، ودخل أبو تاشفين تلمسان أواخر إحدى وتسعين وسبعائة وخيم الوزير وعساكر بني مرين

(١) وفي نسخة أخرى : الجراج .

بظاهر البلد حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال . ثم قفلوا إلى المغرب وأقام هو بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابرهم ، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة كما اشترط على نفسه إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (مسير أبي زيان بن أبي حمو لحصار تلمسان ثم اجفاله عنها ولحاقه بصاحب المغرب) *

كان السلطان أبو حمو قد ولى على الجزائر ابنه أبا زيان لما عاد إلى ملكه بتلمسان ، وأخرج منها أبا تاشفين . فلما قتل أبو حمو بالغيران كما قلناه ، وخرج أبو زيان من الجزائر ناجياً إلى أحياء حصين يؤمل الكثرة بهم والأخذ بثأر أبيه وأخيه ، فاشتملوا عليه وأجابوا صريخه . ثم وفد عليه أمراء بني عامر من زغبة يدعونه لملكه ، فسار إليهم وقام بدعوته وطاعته شيخهم المسعود بن صغير ، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعائة فحاصروها أياماً ، وسرب أبو تاشفين المال في العرب ، فافترقوا على أبي زيان ، وخرج إليه أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة . ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل ، وعاود حصار تلمسان في شوال ، وبعث أبو تاشفين ابنه صريخاً إلى المغرب ، فجاءه بمدد من العسكر . ولما انتهى إلى تاوريرت أفرج أبو زيان عن تلمسان ، وأجفل إلى الصحراء . ثم أجمع رأيه على الوفاة إلى صاحب المغرب فوفد عليه صريخاً ، فتلقاه وبرّ مقدمه ، ووعدته النصر من عدوه ، وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين والله تعالى أعلم .

* (وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان) *

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، ومؤدياً للضريبة التي فرضها عليه منذ أول ملكه ، وأخوه الأمير أبو زيان مقيم عند صاحب المغرب ينتظر وعده في النصر عليه

حتى تغير السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض الترخات الملوكية ، فأجاب داعي أبي زيان وجهزه بالعساكر لملك تلمسان ، فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعائة وانتهى إلى تازي وكان أبو تاشفين قد طرقة مرض أزمى به . ثم هلك منه في رمضان من السنة . وكان القائم بدولته أحمد بن الغز من صنائعهم ، وكان يمت إليه بخولة ، فولّى بعده مكانه صبياً من أبنائه وقام بكفالاته ، وكان يوسف بن أبي حمّو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين ، فلما بلغه الخبر أغذّ السير مع العرب ، ودخل تلمسان فقتل أحمد بن الغز والصبى المكفول ابن أخيه تاشفين . فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب ، خرج إلى تازي وبعث من هناك ابنه أبا فارس في العساكر ، ورد أبا زيان بن أبي حمّو إلى فاس ووكل به . وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها ، وأقام فيها دعوة أبيه ، وتقدّم وزير أبيه صالح بن حمّو إلى مليانة فملكها ، وما بعدها من الجزائر وتدلّس إلى حدود بجاية . واعتصم يوسف ابن الزابية بمحصن تاحموت . وأقام الوزير صالح يحاصره ، وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط ، والله غالب على أمره .

* (وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمّو على تلمسان والمغرب الأوسط) *

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازي ، وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها ، وأقام هو بتازي يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدّم لفتح البلاد الشرقية . وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حجّ سنة ثلاث وتسعين وسبعائة واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق ، وتقدّمت إلى السلطان فئة وأخبرته بمحلّه من قومه ، فأكرم تلقّيه وحمله بعد قضاء حجة هدية إلى صاحب المغرب ، يطوقه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك . فلما قدم بها يوسف على السلطان أبي العباس عظم موقعها ، وجلس في مجلس جعله لعرضها والمباهاة بها ، وشرع في المكافأة عنها بتخيّر الجياد والبضائع والثياب ، حتى استكمل من ذلك ما رضىه ، واعتزم على انفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول . وأنه يرسله من تازي أيام مقامته هناك ، فطرقة هنالك مرض كان فيه حتفه في محرم

سنة ست وتسعين وسبعائة واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه بتازي ، وولّوه مكانه ، ورجعوا به إلى فاس ، وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال ، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها ، وقائماً بعد السلطان أبي فارس فيها ، فسار إليها وملكها ، وكان أخوه يوسف بن الزاوية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والاجلاب عليها ، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه ، فأجابوه إلى ذلك وأسلموه إلى ثقات أبي زيان ، وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم ، فبادروا بقتله ، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان فسكنت أحواله ، وذهبت الفتنة بذهابه ، واستقامت أمور دولته ، وهم على ذلك لهذا العهد والله غالب على أمره .

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية ، (وبقى) علينا خبر الرهط الذين تحيَّزوا منهم إلى بني مرين منذ أول الدولة ، وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي ، وخبر بني كندور أمراءهم بمراكش ، فلنرجع إلى ذكر أخبارهم ، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

يوسف بن السلطان أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن زكرار بن يندوكس بن طاع الأ
 أبو تاشفين -
 عمر -

أبو زيان محمد بن عثمان -
 أبو ثابت -

أبو تاشفين بن أبي حمو موسى بن عثمان -
 فارس -
 زكرار -

يوسف بن محمد

الحسن بن جابر بن يوسف -
 عبد الملك بن محمد بن قاسم بن درع -

عثمان بن يحيى بن محمد بن أحمد بن يعلى -

عمر بن عمرو بن
 الناصر -
 راشد بن هشام بن كيتية

يوسف بن محمد

* (الخبر عن بني كميّ احد بطون بني القاسم بن عبد الواد
وكيف نزعوا الى بني مرين وما صار لهم بنواحي مراکش وأرض
السوس من الرياسة) *

قد تقدّم لنا أوّل الكلام في بني عبد الواد أنّ بني كمي هؤلاء من شعوب القاسم ،
وأَنهم بنو كمي بن يمل بن يزكن بن القاسم إخوة طاع الله وبني دلول وبني معطي
دلول . وبني معطي بن جوهر بن علي^(١) . وذكرنا ما كان بين طاع الله وبين إخوانهم
بني كمي من الفتنة ، وكيف قتل كندوز بن عبدالله كبير بني كمي زيّان بن ثابت بن
محمد كبير بني طاع الله ، وأنّ جابر بن يوسف بن محمد القائم بالأمر من بعده ثار منهم
بزيّان ، وقتل كندوزاً غيلة أو حرباً ، وبعث برأسه إلى يغمراسن بن زيّان فنصب
عليها أهل . بيته القدور شفاية لنفوسهم . واستمرّ الغلب بعدها على بني كمي ،
فلحقوا بحضرة تونس وكبيرهم إذ ذاك عبدالله بن كندوز . ونزلوا على الأمير أبي
زكريا حتى كان من استيلائه على تلمسان ما قدّمنا ذكره . وطمع عبدالله في
الاستبداد بتلمسان ، فلم يتفق ذلك . ولما هلك مولانا الأمير أبو زكريا ، وولي ابنه
المنتصر ، أقام عبدالله صدرأً من دولته . ثم ارتحل هو وقومه إلى المغرب ونزل على
يعقوب بن عبد الحق قبل فتح مراکش ، فاهتزّ يعقوب لقدمه وأحلّه بالمكان الرفيع
من دولته . وأنزل قومه بجهات مراکش ، وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهاتهم .
وجعل السلطان انتجاع إبله وراحلته في أحيائهم . وقدم على رعايتها حسان بن أبي
سعيد الصيحي وأخاه موسى ، وصلا في لفيفه من بلاد المشرق ، وكانا عارفين برعاية
الإبل والقيام عليها ، وأقاموا يتقلّبون في تلك البلاد ، ويتعدّون في نجعتها إلى أرض
السوس . وأوفد يعقوب بن عبد الحق عبدالله بن كندوز هذا على المنتصر صاحب
أفريقية سنة خمس وستين وستمائة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدّمناه . والتحم بنو
كمي ببني مرين وأصبحوا إحدى بطونهم . وهلك عبدالله بن كندوز ، وصارت
رياستهم من بعده لابنه عمر بن عبدالله . فلما نهض يوسف بن يعقوب بن عبد الحق

(١) وفي نسخة أخرى : وبني دلوك وبني موطي بن جوهر بن علي .

إلى المغرب الأوسط وشغل بحصار تلمسان ، وتحدثت الناس بما نزل بعبد الواد من بني مرين ، أخذت بني كمي الحمية وامتعضوا لقومهم ، وأجمعوا الخلاف والخروج على السلطان . ولحقوا بجاجة^(١) سنة ثلاث وسبعمائة ، واستولوا على بلاد السوس ، فخرج إليهم أخو السلطان الأمير براكش يعيش بن يعقوب ، فناجزوه الحرب بتادارت وغلبوه ، واستمرّوا على خلافهم . ثم عاود محاربتهم بتامطولت سنة أربع وسبعمائة بعدها ، فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصّت جناحهم . وقتل عمر بن عبد الله وجماعة من كبارهم ، وفرّوا أمامه إلى الصحراء ، ولحقوا بتلمسان وهدم يعيش بن يعقوب تارودنت قاعدة أرض السوس ، وأقام بنو كندوز بعدها بتلمسان نحواً من ستة أشهر . ثم توجّسوا الغدر من ولد عثمان بن يغمراسن فرجعوا إلى مراکش . واتبعهم عساكر السلطان وأبلى منهم في القتال عنهم محمد بن أبي بكر بن حمّامة بن كندوز ، وخلصوا إلى منجاتهم مشرّدين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان يوسف بن يعقوب . وراجعوا طاعة الملوك بالمغرب ففعلوا لهم عما سلف من هذه الجزيرة وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية ، فأحضوا النصيحة والمخالصة . وكان أميرهم من بعد عمر ابنه محمد ، وأقام في إمارتهم سنين^(٢) ثم ابنه موسى بن محمد من بعده كذلك . واستخلصه السلطان أبو الحسن أيام الفتنة بينه وبين أخيه أبي عليّ ، لعهد أبيهما السلطان أبي سعيد ومن بعده ، فكانت له في المدافعة عن نواحي مراکش آثار وأيام . ثم هلك موسى بن محمد فولّى السلطان أبو الحسن مكانه ابنه يعقوب بن موسى . ولما غلب على تلمسان وأصار بني عبد الواد في خوله وجنوده ، تمشت رجالاتهم وساموا أشجانهم حتى إذا كانت واقعة القيروان وتواقف السلطان وبني سُليّم داخلهم يعقوب بن موسى في أن ينخزل عن السلطان إليهم ببني عبد الواد ومن إليهم من مغراوة وتوجين ، وأوعدهم لذلك ، ثم مشى في قومه وكافة بني عبد الواد فأجابوه إلى ذلك . ولحقوا جميعاً ببني سُليّم ، فجزّوا بذلك الهزيمة على السلطان وكانت نكبة القيروان المشهورة . ولحقوا^(٣) بعدها بتلمسان ، وولّوا أمرهم في

(١) وفي نسخة أخرى : ولحقوا بالحاجة . ولم يذكر صاحب معجم البلدان هذه ولا تلك وإنما ذكر حاجة :

موضع في قول لبيد : فذكرها مناهل أجنات بجاجة ، لا تترج بالدوالي .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : ستين .

(٣) الضمير يعود إلى بني عبد الواد .

بني يغمراسن . وهلك يعقوب بن موسى بأفريقية ، ولحق أخوه رحو بالمغرب . وكان
السلطان أبو عنان قد استعمل على جماعتهم وعملهم عبو بن يوسف بن محمد . وهو
ابن عمهم دنيا ، فأقام فيهم كذلك حتى هلك ، فولي من بعده ابنه محمد بن عبو
وهم على ذلك لهذا العهد ، يعسكرون للأمير بمراكش ، ويتولون من خدمة السلطان
هنالك ما لهم فيه الغناء والكفاية . فكانتهم بمغزل عن بني عبد الواد لاستحكام
العداوة بمقتل زيان بن ثابت . والله وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، لا
رب غيره ولا معبود سواه .

يعقوب بن موسى بن محمد بن عمر بن عبدالله بن كندوز
رحو —
— يوسف بن عبو بن محمد بن
محمد بن أبي بكر بن حمامة —

* (الخبر عن بني راشد بن محمد بن يادين وذكر أوليتهم
وتصاريف أحوالهم) *

وإنما قدّمنا ذكرهم قبل استتمام بطون بني يادين لأنهم لم يزالوا أحلاقاً لبني عبد الواد
ومن جملتهم ، فكانت أخبارهم من أخبارهم ، وأمّا راشد أبوهم فهو أخو يادين .
واختصّ بنوه كما قلنا ببني عبد الواد ، وكانت مواطنهم بالصحراء بالجبل المعروف
براشد اسم أبيهم . وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبلة تاسالت وبنو ورنيد من
بطون دمر قبلة تلمسان الى قصر سعيد . وكان جبل هواره موطناً لبني يلوما الذين كان
لهم الملك كما قدّمنا . ولما اضمحل أمر بني يلوما وذهبت دولتهم ، زحف بنو راشد
هؤلاء من بطونهم بجبل راشد إلى بسائط مديونة وبني ورنيد ، فشنوا عليهم الغارات ،
وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم وألجؤهم إلى الأوعار ، فاستوطن بنو
ورنيد الجبل المطل على تلمسان ، واستوطن مديونة جبل تاسالت . وملك بنو راشد
بسائطهم القبلية . ثم استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد ، وهو بلد بني يفرن
الذين كانوا ملوك تلمسان لأول الاسلام ، وكان منهم أبو قرّة الصفري كما قدّمناه .
وكان منهم بعد ذلك يعلى بن محمد الأمير الذي قتله جوهر الصقلي قائد الشيعة كما
ذكرناه في أخبارهم . ويعلى هذا هو الذي اختط بهذا الجبل مدينة ايفكان التي
هدمها جوهر يوم قتله . فلما ملك بنو راشد هذا الجبل استوطنوه وصار حصناً لهم ،
ومحالاتهم في ساحة القبلة إلى أن غلبهم العرب عليها لهذا العهد ، وألجؤهم إلى الجبل .
وكان غلب بني راشد على هذه الأوطان بين دخول بني عبد الواد إلى المغرب
الأوسط ، وكانوا شيعة لهم وأحلاقاً في فنتهم مع بني توجين وبني مرين ، وكانت
رياستهم في بيت منهم يعرفون ببني عمران ، وكان القائم بها لأول دخولهم ابراهيم بن
عمران واستبدّ عليه إخوه وترمار^(١) وقام بأمرهم إلى أن هلك ، فولى ابنه مقاتل بن
وترمار وقتل عمه ابراهيم وافترقت رياسة بني عمران من يومئذ بين بني ابراهيم وبني
وترمار إلا أن رياسة بني ابراهيم أظهر ، فولى بعد ابراهيم بن عمران ابنه وترمار وكان
معاصراً ليغمراسن بن زيّان وطال عمره ، ولما هلك لتسعين من المائة السابعة ولي

(١) هكذا في الجدول المرفق وترمار وفي نسخة أخرى : وترمار .

أمرهم غانم ابن أخيه محمد بن ابراهيم . ثم كان فيهم من موسى بن يحيى بن وترمار ، لا أدري معاقباً لغانم أو توسطها أحد . ولما زحف بنو مرين إلى تلمسان آخر زحفهم ، صار بنو راشد هؤلاء إلى طاعة السلطان أبي الحسن ، وشيخهم لذلك العهد أبو يحيى موسى بن عبد الرحمن بن وترمار بن ابراهيم . وانحصر بتلمسان بنو عمه كرجون بن وترمار وانقرض أمر بني عبد الواد وأشياعهم . ونقل بنو مرين رؤوس زناتة أجمع إلى المغرب الأقصى ، فكان بنو وترمار هؤلاء ممن صار إلى المغرب وأوطنوه إلى أن صار الأمر لبني عبد الواد الكرة الثالثة على يد أبي حمو الأخير موسى بن يوسف . وكان شيخ بني راشد لعهد ابن أبي يحيى بن موسى المذكور أقبل إليهم من المغرب من إيالة بني مرين ، فاتهمه أبو حمو بمداخلتهم ، فتقبض عليه واعتقله مدة بوهران . وفر من معتقله فلاحق بالمغرب وارتحل بين أحيائهم مدة . ثم رجع إلى الطاعة واقتضى العهد من السلطان أبي حمو ، وولاه على قومه . ثم تقبض عليه واعتقله إلى أن قتله بمحبسه سنة ثمان وستين وسبعائة ، وانقرض أمر بني وترمار بن ابراهيم ، وأما بنو وترمار بن عمران فقام بأمرهم بعد مقاتل بن وترمار أخوه أبو زركن^(١) بن وترمار ، ثم ابنه يوسف بن أبي زركن ، ثم آخرون من بعدهم لم تحضرنى أسماؤهم إلى أن غلب عليهم بنو وترمار بن ابراهيم . وقد ذهبت لهذا العهد رياسة أولاد عمران جميعاً ، وصار بنو راشد هؤلاء خولا للسلطان وجباية ، وبقيتهم يجبلهم على الحال التي ذكرناها ، والله وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

(١) وفي نسخة ثانية : تورزكن .

زيان بن أبي يحيى بن موسى بن عبد الرحمن — بن وترمار بن إبراهيم بن عمران

موسى بن يحيى —

كرجون —

مقاتل —

مقاتل

يوسف بن زركن — بن وترمار

* (الخبر عن بني توجين من شعوب بني يادين من أهل هذه الطبقة الثالثة من زناتة وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك ومصايره) *

كان هذا الحي من أعظم أحياء بني يادين وأوفرهم عدداً . وكانت مواطنهم حفافي وادي شلف قبلة جبل وانشريس من أرض السرسو ، وهو المسمى لهذا العهد نهر صا^(١) وكان بأرض السرسو بجهة الغرب منه بطون من لواتة ، وغلبهم عليها بنو وجديجن

(١) وفي نسخة ثانية : نهر واصل وأما صاحب معجم البلدان فقد ذكر صا : بالقصر كورة بمصر . وصا مسماة بصا بن مصر بن بصر بن حام بن نوح .

ومطاطة . ثم صارت أرض السرسو لبني توجين هؤلاء واستضافوها الى مواطنهم الأولى وصارت مواطنهم ما بين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة . وكانت لهم رئاسة أيام صنهاجة لعطية بن دافلتن ، وابن عمه لقمان بن المعتز كما ذكره ابن الرقيق . ولما كانت فتنة حماد بن بلكين مع عمه باديس ، ونهض إليه باديس من القيروان حتى احتل بوادي شلف ، تحيز إليه بنو توجين هؤلاء ، وكان لهم في حروب حماد آثار مذكورة . وكان لقمان بن المعتز أظهر من عطية بن دافلتن ، وكان قومهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف . وأوفد لقمان ابنه بدرأ على باديس قبل اللقاء طاعة له وانحياشاً . فلما انهزم حماد رعى لهم باديس انحياشهم إليه ، وسوغ لهم ما غنموه ، وعقد للقمان على قومه ومواطنه ، وعلى ما يفتح من البلاد بدعوته . ثم انفرد برياستهم بعد حين بنو دافلتن . ويقال إنه دافلتن بن أبي بكر بن الغلب . وكانت رياستهم لعهد الموحدين لعطية بن مناد بن العباس بن دافلتن ، وكان يلقب عطية الحيو . وكانت بينهم لعهد وبين بني عبد الواد حروب ، كان متولي كبرها من بني عبد الواد شيخهم لذلك العهدا عدوى بن يكنيجن^(١) بن القاسم ، فلم تزل تلك الفتنة بينهم إلى أن غلبهم بنو عبد الواد آخرأ على مواطنهم كما نذكره . ولما هلك عطية الحيو قام بأمرهم أبو العباس ، وكانت له آثار في الإجلاب على ضواحي المغرب الأوسط . ونقض طاعة الموحدين إلى أن هلك سنة سبع وستمائة ، دس عامل تلمسان يومئذ أبو زيد بن لوحان^(٢) من اغتاله فقتله . وقام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوي ، فانفرد برياستهم وتوارثها عقبه من بعده كما نذكره . وكان من أشهر بطون بني توجين هؤلاء يومئذ بنو يدللتن وبنو قمري^(٣) وبنو مادون وبنو زنداك وبنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت ، ويجمع هؤلاء الستة بنو مدن . ثم بنو تيغرين وبنو يرناتن وبنو منكوش ، ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو سرغين^(٤) ، ونسب بني زنداك دخيل فيهم ، وإنما هم من بطون مغراوة . وبنو منكوش هؤلاء منهم عبد القوي بن العباس ابن عطية الحيو ، هكذا رأيت نسبه لبعض مؤرخي زناة المنكوشي . وكانت رئاسة بني

(١) وفي نسخة ثانية : يكنمن .

(٢) وفي نسخة ثانية : بوجان .

(٣) وفي نسخة ثانية : نمزي .

(٤) وفي نسخة ثانية : رسوغين .

توجين جميعاً عند انقراض أمر بني عبد المؤمن لعبد القويّ بن العباس بن عطية الحيو ، وأحياؤهم جميعاً بتلك المجالات القبلية .

فلما وهن أمر بني عبد المؤمن وتغلب مغراوة على بسائط متيجة ، ثم على جبل وانشريس ، نازعهم عبد القوي هذا وقومه أمر وانشريس ، وغالبوهم إلى أن غلبوهم عليه ، واستقرّ في ملكهم وأوطنه بنو تيغرين وبنو منكوش من أحيائهم . ثم تغلبوا على منداس وأوطنها أحياء بني مدن جميعاً . وكان الظهور منهم لبني يدلتن ، ورياسة بني يدلتن لبني سلامة . وبقي بنو يرناتن من بطونهم بمواطنهم الأولى قبله وانشريس . وكان من أحلاف بني عطية الحيو بنو تيغرين منهم خاصة ، وأولاد عزيز بن يعقوب ، ويعرفون جميعاً بالوزراء^(١) ولما تغلبوا على الأوطان والتلول ، وأزاحوا مغراوة عن المدية ووانشريس وتافركينت ، واستأثروا بملكها وملك الأوطان عن غربها مثل : منداس والجعبات وتاوغزوت ، ورئيسهم لذلك العهد عبد القويّ بن العباس ، والكل لأمره . فصار له ملك بدوي ولم يفارق فيه سكنى الخيام ولا أبعاد النجعة ولا ائتلاف الرحلتين . ينتابون في مشاتهم إلى مصاب والزاب ، وينزلون في المصايف بلادهم هذه من التل ولم يزل هذا شأن عبد القوي وابنه محمدا ، إلى أن تنازع بنوه الأمر من بعده ، وقتل بعضهم بعضاً . وتغلب بنو عبد الواد على عامّة أوطانهم وأحيائهم ، واستبدّ عليهم بنو يرناتن وبنو يدلتن فصاروا إلى بني عبد الواد . وبقي أعقابهم بجبل وانشريس إلى أن انقضوا على ما نذكره بعد .

وكان عبد القويّ لما غلب مغراوة على جبل وانشريس ، اختطّ حصن مرات ، بعد أن كان مندبل المغراوي شرع في اختطاطه ، فبنى منه القصبه ولم يكمله ، فأكمّله محمد بن عبد القوي من بعده . ولما استبدّ بنو أبي حفص بأمر أفريقية ، وصارت لهم خلافة الموحّدين نهض الأمير أبو زكريا إلى المغرب الأوسط ، ودخلت في طاعته قبائل صنهاجة ، وفرت زناتة أمامه . وردّد إليهم الغزو فأصاب منهم . وتقبّض في بعض غزواته على عبد القوي بن العباس أمير بني توجين فاعتقله بالحضرة . ثم منّ عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه ، فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر . ونهض الأمير أبو زكريا بعدها إلى تلمسان ، فكان عبد القوي وقومه في جملته حتى إذا ملك

(١) وفي نسخة ثانية : بالحشم .

تلمسان ، ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القويّ هذا على قومه ووطنه ، وأذن له في اتخاذ الآلة ، فكانت أول مراسم الملك لبني توجين هؤلاء . وكانت حالهم مع بني عبد الواد تختلف في السلم والحروب . ولما هلك السعيد على يد يغمراسن وقومه كما ذكرناه ، استنفر يغمراسن ساثر أحياء زناتة لغزو المغرب ، ومسابقة بني مرين إليه ، فنفر معه عبد القوي في قومه سنة سبع وأربعين وستائة وانتهوا إلى تازي ، واعترضهم أبو يحيى بن عبد الحق أمير بني مرين في قومه ، فنكصوا واتبعهم إلى انكاد فكان اللقاء ، وانكشفت جموع بني يادين وكانت الهزيمة التي ذكرناها في أخبار بني عبد الواد . وهلك عبد القوي مرجعه منها في سنته بالموضع المعروف باحمون^(١) من مواطنهم . وتصدّى للقيام بعده بأمرهم ابنه يوسف ، فكث في تلك الإمارة أسبوعاً ، ثم قتله على جدث أبيه أخوه محمد بن عبد القويّ ، وولي عهد أبيه سابع مواراته . وفرّ ابنه صالح بن يوسف إلى بلاد صنهاجة بجبال المدية ، فأقام بها هو وبنوه . واستقلّ محمد برياسة بني توجين ، واستغلظ ملكه ، وكان الفحل الذي لا يقرع أنفه . ونازعه يغمراسن أمره ونهض إلى حربه سنة تسع وأربعين وستائة وعمد إلى حصن تافركينت فنازله ، وبه يومئذ حافده عليّ بن زيان بن محمد في عصابة من قومه ، فحاصره أياماً وامتنعت عليه فارتحل عنها ، ثم تواضعوا أوزار الحرب ودعاه يغمراسن إلى مثل ما دعا إليه أباه من غزو بني مرين في بلادهم فأجاب . ونهضوا سنة سبع وخمسين وستائة ومعهم مغراوة فانتهوا إلى كلدمان ما بين تازي وأرض الريف . ولقيهم يعقوب بن عبد الحق في جموعه فانكشفوا ورجعوا منهزمين إلى بلادهم كما ذكرناه . وكانت بينه وبين يغمراسن بعد ذلك فتن وحروب ، فنازله فيها بجبل وانشريس مرّات ، وجاس خلال وطنه . ولم يقع بعدها بينهما مراجعة لاستبداد يغمراسن بالملك ، وسمّوه إلى التغلب على زناتة أجمع وبلادهم ، وكانوا جميعاً منحاشين إلى الدولة^(٢) الحفصية . وكان محمد بن عبد القوي كثير الطاعة للسلطان المستنصر .

(ولما نزل) النصارى الإفرنجية بساحل تونس سنة ثمان وستين وستائة وطمعوا في ملك الحضرة ، بعث المستنصر إلى ملوك زناتة بالصريخ فصرفوا وجوههم إليه ، وخفّ من بينهم محمد بن عبد القويّ في قومه ومن احتشد من أهل وطنه ، ونزل على السلطان

(١) وفي نسخة ثانية : ماحنون ، وفي نسخة أخرى : ماحيون .

(٢) وفي نسخة ثانية : الدعوة الحفصية .

بتونس وأبلى في جهاد العدو أحسن البلاء ، وكانت له في أيامه معهم مقام مذكرة ، ومواقف مشهورة ، وعند الله محتسبة معدودة . ولما ارتحل العدو عن الحضرة وأخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف إلى وطنه ، أسنى السلطان جائزته ، وعمّ بالإحسان وجوه قومه وعساكره ، وأقطع بلاد مغراوة وأوماش من وطن الزاب ، وأحسن منقلبه . ولم يزل بعد ذلك معتقلاً بطاعته مستظهاً على عدوه بالانحياش إليه . ولما استغلظ بنو مرين على يغمراسن بعد استيلائهم على أمصار المغرب واستبدادهم بملكه ، وصل محمد يده بهم في الاستظهار على يغمراسن ، وأوفد ابنه زيّان بن محمد عليهم .

ولما نهض يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان سنة سبعين وستائة وأوقع بيغمراسن في الواقعة التي هلك فيها ابنه فارس . نهض محمد بن عبد القوي للقائه ومرّ في طريقه بالبطحاء ، وهي يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها . ولقي يعقوب بن عبد الحق في ساحة تلمسان مباهياً بآلته فأكرم يعقوب وفادته وبرّ مقدمه . ونازلوها أياماً فامتنعت عليهم ، وأجمعوا على الإفراج وتأذن لهم يعقوب بن عبد الحق متلوماً عليها إلى أن يلحق محمد وقومه ببلادهم ، حذراً عليهم من غائلة يغمراسن ففعل ، وملاً حقائبهم بالتحافه ، وجنّب لهم مائة من الجياد العتاق بالمراكب الثقيلة ، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب ، وعمّمهم بالصلات والخلع الفاخرة ، واستكثر لهم من السلاح والغازات والأخبية والحملان وارتحلوا ، ولحق محمد بن عبد القوي بمكانه من جبل وانشريس ، واتصلت حروبه مع يغمراسن ، وكثر اجلابه على وطنه وعيته في بلاده . وهو مع ذلك مقيم على موالة يعقوب واتحافه بالعتاق من الخيل والمستجاد من الطرف . حتى أن يعقوب إذا اشترط على يغمراسن في مهادنته جعل سلمهم من سلمه ، وحربهم من حربهم ، وبسببهم كان نهوض يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستائة لما اشترط عليه ذلك ، ولجّ في قبوله ، فنهض إليه وأوقع به بخرزوزة . ثم أناخ عليه بتلمسان ، ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي فلقية بالقصاب^(١) ، وعاثوا في نواحي تلمسان نهياً وتخريباً . ثم أذن يعقوب لمحمد وقومه في الانطلاق إلى بلادهم ، وتلوم هو بمكانه من ضواحي تلمسان مدة منجاتهم إلى مكانهم من وانشريس حذراً عليهم من اعتراض

(١) وهي القصبات : مدينة بالمغرب من بلاد البربر : معجم البلدان .

يغمراسن . ولم يزل شأنها ذلك إلى أن هلك يغمراسن بسد لونة^(١) من بلاد مغراوة خاتمة إحدى وثمانين وستائة وفي خلال ذلك استغاض بنو مرين على بني عبد الواد ، واستوسق لمحمد هذا ملكه ، فتغلب على أوطان صنهاجة بجمال المدية ، وأخرج الثعالب من جبل تطري بعد أن غدر بمشيختهم وقتلهم ، فانزاحوا عنه إلى بسائط متيجة وأوطنوها . واستولى محمد على حصن المدية وهو المسمى بأهله لَمْدِيَّة (بفتح اللام والميم وكسر الدال وتشديد الياء بعدها وهاء النسب في آخرها) . وهم بطن من بطون صنهاجة وكان المختط لها بلكين بن زيري . ولما استولى محمد عليها وعلى ضواحيها انزل أولاد عزيز بن يعقوب من حشمه بها ، وجعلها لهم موطناً وولاية . وفر بنو صالح ابن أخيه يوسف بن عبد القوي من مكانهم بين صنهاجة منذ مقتل أبيه يوسف كما ذكرناه . ولحقوا ببلاد الموحدين بأفريقية ، فلقوهم مبرّة وتكريماً . وأقطعوا لهم بضواحي قسنطينة ، وكانوا يقولون عليهم أيام حروبهم وفي مواطن قتالهم . وكان من أظهرهم عمر بن صالح وابناه صالح ويحيى بن عمر ، وحافده يحيى بن صالح بن عمر في آخرين مشاهير .

وأعقابهم لهذا العهد بنواحي قسنطينة وفي إيالة الملوك من آل أبي حفص ، يعسكرون معهم في غزواتهم ويبلون في حروبهم ، ويقومون بوظائف خدمتهم . وكان الوالي من أولاد عزيز على المدية حسن بن يعقوب ، وبنوه من بعده يوسف وعليّ ، وكانت مواطنهم ما بين المدية وموطنهم الأول ماخون . وكان بنو يدلتن أيضاً من بني توجين قد استولوا على حصن الجعبات وقلعة تاوغزوت . ونزل القلعة كبيرهم سلامة بن علي مقيماً على طاعة محمد بن عبد القوي وقومه ، فاتصل ملك محمد بن عبد القوي في ضواحي المغرب الأوسط ما بين مواطن بني راشد إلى جبال صنهاجة بنواحي المدية ، وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله إلى أرض الزاب . وكان يبعد للرحلة في مشناه فيترل الروسن ومغرة^(٢) والمسيلة . ولم يزل دأبه ذلك . ولما هلك يغمراسن سنة إحدى وثمانين وستائة كما ذكرناه استجدت الفتنة بين عثمان ابنه وبين محمد بن عبد القوي على أثر ذلك سنة أربع وثمانين وستائة وولي من بعده ابنه سيّد الناس ، فلم تطل مدة ملكه . وقتله أخوه موسى لسنة أو نحوها من بعده مهلك أبيه . وقام موسى بن

(١) وفي نسخة أخرى : شذبوية ولم يذكرها ياقوت الحموي في معجمه .

(٢) وفي نسخة ثانية : الدوسن والمقرة .

محمد في إمارة بني توجين نحواً من عامين . وكان أهل مرات من أشدّ أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة ، فحدثته نفسه أن يستلحم مشيختهم ويريح نفسه من محاذرتهم ، فأجمع لذلك ونزلها ، ونذروا بشأنه ورأيه فيهم فاستماتوا جميعاً وثاروا به فقاتلهم . ثم انهزم مشخناً بالجراحة وألجأوه إلى مهاوي الحصن فتردى منها وهلك . وولي من بعده عمر ابن أخيه اسمعيل بن محمد مدّة أربعة أعوام ، ثم غدر به أولاد عمّه زيان بن محمد فقتلوه وولّوا كبيرهم ابراهيم بن زيان وكان حسن الولاية عليهم ، يقال : ما ولي بعد محمد فيهم مثله . وفي خلال هذه الولايات استغلظ عليهم بنو عبد الواد واشتدّت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم بعد مهلك أبيهم محمد ، فنهض إليهم سنة ست وثمانين وستائة وحاصرهم بجبل وانشريس وعاث في أوطانهم ونقل زروعها إلى مازونة حين غلب عليها مغراوة . ثم نازل حصن تافركينت وملكها بمداخلة القائد بها غالب الخصيّ مولى سيّد الناس بن محمد ، وقفل إلى تلمسان . ثم نهض إلى أولاد سلامة بقلعة تاوغزوت ، وامتنعوا عليه مراراً ، ثم أعطوه اليد على الطاعة ومفارقة بني محمد بن عبد القوي فنبذوا لهم العهد ، وصاروا إلى إيالة عثمان بن يغمراسن . وفرضوا لهم المغارم على بني يدلتن . وسلك عثمان بن يغمراسن مسلك التضريب بين قبائل بني توجين وتحريضهم على ابراهيم بن زيان أميرهم ، فعدا عليه زكرار^(١) بن أعجمي شيخ بني مادون وقتله بالبطحاء في إحدى غزواته لسبعة أشهر من ملكه . وولي بعده موسى بن زرارة بن محمد بن عبد القوي ، بايع له بنو تيغرين واختلف ساثر بني توجين فأقام بعض سنة . وعثمان بن يغمراسن في خلال هذا يستألف بني توجين شعباً فشعباً إلى أن نهض إلى جبل وانشريس فملكه . وفرّ أمامه موسى بن زرارة إلى نواحي المدية وهلك في مفرّه ذلك . ثم نهض عثمان إلى المدية سنة ثمان وثمانين وستائة بعدها فملكها بمداخلة المدية من قبائل صنهاجة ، غدروا بأولاد عزيز وأمكنوه منها . ثم انتقضوا عليه لسبعة أشهر ورجعوا إلى إيالة أولاد عزيز ، فصالحوا عثمان بن يوسف على الأتاوة والطاعة كما كانوا مع محمد بن عبد القوي وبنيه ، فملك عثمان بن يغمراسن عامّة بلاد توجين . ثم شغل بما دهمه من مطالبة بني مرين أيام يوسف بن يعقوب ، فولّى على بني توجين من بني محمد بن عبد القوي أبو بكر بن ابراهيم بن محمد مدّة

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زكدان .

عامين ، أخاف فيها الناس وأساء السيرة . ثم هلك فنصب بنو تيغرين بعده أخاه عطية المعروف بالأصم ، وخالفهم أولاد عزيز وجميع قبائل توجين فبايعوا ليوسف ابن زيان بن محمد . وزحفوا إلى جبل وانشريس فحاصروا به عطية وبني تيغرين عاماً أوزيد . وكان يحيى بن عطية كبير بني تيغرين هو الذي تولى البيعة لعطية الأصم . فلما اشتد بهم الحصار واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان ورغبه في ملك جبل وانشريس فبعث معه الجيوش لنظر أخيه أبي سرحان ، ثم أخيه أبي يحيى . وكان نهوض أبي يحيى سنة إحدى وسبعمائة ، فتوغل في ناحية الشرق ، ولما رجع صمد إلى جبل وانشريس ، فهدم حصونه ، وقفل ونهض ثانية إلى بلاد بني توجين فشردهم عنها ، وأطاعه أهل تافركينت ، ثم انتهى إلى المدينة فافتتحها صلحاً ، واختط قصبها ورجع إلى أخيه يوسف بن يعقوب ، فانتقض أهل تافركينت بعد صدوره عنهم . ثم راجع بنو عبد القوي بصائرهم في التمسك بالطاعة . ووفدوا على يوسف بن يعقوب فتقبل طاعتهم وأعادهم إلى بلادهم ، وأقطعهم . وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي ، وجعل وزارته ليحيى بن عطية فغلبه على دولته ، واستقام ملكه . وهلك خلال ذلك فعقد يوسف بن بن يعقوب مكانه لمحمد بن عطية الأصم ، واستقام على طاعته وقتاً ، ثم انتقض بين يدي مهلكه سنة ست وسبعمائة وحمل قومه على الخلاف . ولما هلك يوسف بن يعقوب وتجافى بنو مرين من بعدها لبني يغمراسن عن جميع الأمصار التي تملكوها بالمغرب الأوسط ، استمكن بنو يغمراسن منها ودفعوا المتغلبين عنها . ولحق الفل من أولاد عبد القوي ببلاد الموحدين ، فحلوا من دولتهم محل الإيثار والتكرمة . وكان للعباس بن محمد بن عبد القوي مع الملك من آل أبي حفص مقام الخلة والمصافاة إلى أن هلك ، وبقي عقبه في جند السلطان . ولما خلا الجوّ من هؤلاء المرشحين تغلب على جبل وانشريس من بعدهم كبير بني تيغرين أحمد بن محمد من أعقاب يعلى بن محمد سلطان بني يفرن . فأقام يحيى بن عطية هذا في رياستهم أياماً ، ثم هلك ، وقام بأمره من بعده أخوه عثمان بن عطية . ثم هلك وولي من بعده ابنه عمر بن عثمان ، واستقل مع قومه بجبل وانشريس ، واستقل أولاد عزيز بالمدينة ونواحيها ورياستهم ليوسف وعليّ ابني حسن ابن يعقوب ، والكل في طاعة أبي حمو سلطان بني عبد الواد لما غلبهم على أمرهم ،

وانتزع الرياسة من بني عبد القوي^(١) أمراهم إلى أن خرج على السلطان أبي حمو ابن عمه يوسف بن يغمراسن ، ولحق بأولاد عزيز فبايعوه وداخلوا في كشانة عمر بن عثمان كبير بني تيغرين وصاحب جبل وانشريس ، فأجابهم وأصفق معهم سائر الأعرار ويكوشة^(٢) وبنو يرناتن . وزحفوا مع محمد بن يوسف إلى السلطان أبي حمو في عسكره بتهل ففضّوه ، وكان من شأن فتته معهم ما ذكرناه في أخبار بني عبد الواد إلى أن هلك السلطان أبو حمو وولي ابنه أبو تاشفين ، فنهض إليهم في العساكر ، وكان عمر بن عثمان قد لحقته الغيرة من مخالصة محمد بن يوسف لأولاد عزيز دون قومه ، فداخل السلطان أبا تاشفين في الإنحراف عنه ، فلما نزل بالجبل ، ولحق محمد بن يوسف بحصن توكال ليمتنع له ، نزع عنه عمر بن عثمان ولحق بأبي تاشفين ودلّه على مكامن الحصن ، فدلف إليه أبو تاشفين وأخذ بمخنقه . وافترق عن محمد بن يوسف أولياؤه وأشياعه فتقبّض عليه ، وقيد أسيراً إلى السلطان أبي تاشفين فقتل بين يديه قعصاً بالرماح سنة تسع عشرة وسبعمائة وبعث برأسه إلى تلمسان ، وصلب شلوه بالحصن الذي امتنع فيه أيام انتزاعه . ورجع أمر وانشريس إلى عمر بن عثمان هذا ، وحصلت ولايته لأبي تاشفين إلى أن هلك بتلمسان في بعض أيامهم مع بني مرين ، أعوام نازها السلطان أبو الحسن كما ذكرنا في أخبار الحصار .

ثم لما تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن ابنه نصر بن عمر على الجبل ، وكان خيرَ والٍ وفاء بالذمة والطاعة^(٣) وخلصاً في الولاية ، وصدقاً في الانحياش ، وإحساناً للمملكة ، وتوفيراً للجباية . ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان ، وتناول الأعياص من زناتة إلى استرجاع ملكهم ، انتزى بضواحي المدينة من آل عبد القوي عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي ، وناغى الخوارج في دعوتهم ، واشتمل عليه بنو عزيز هؤلاء وبنو يرناتن جيرانهم ، وزحف إلى جبل وانشريس لينال مع الحشم من يلي أمرهم والمداخلين لعدوّهم في قطع دابرهم ، وكبيرهم يومئذ نصر بن عمر بن عثمان . وبايع نصر المسعود ابن أبي زيد بن خالد بن محمد بن عبد القوي من أعقابهم ، ثم خلص إليهم من

(١) وفي نسخة ثانية : من بني عبد الواد .

(٢) وفي نسخة ثانية : منكوشة .

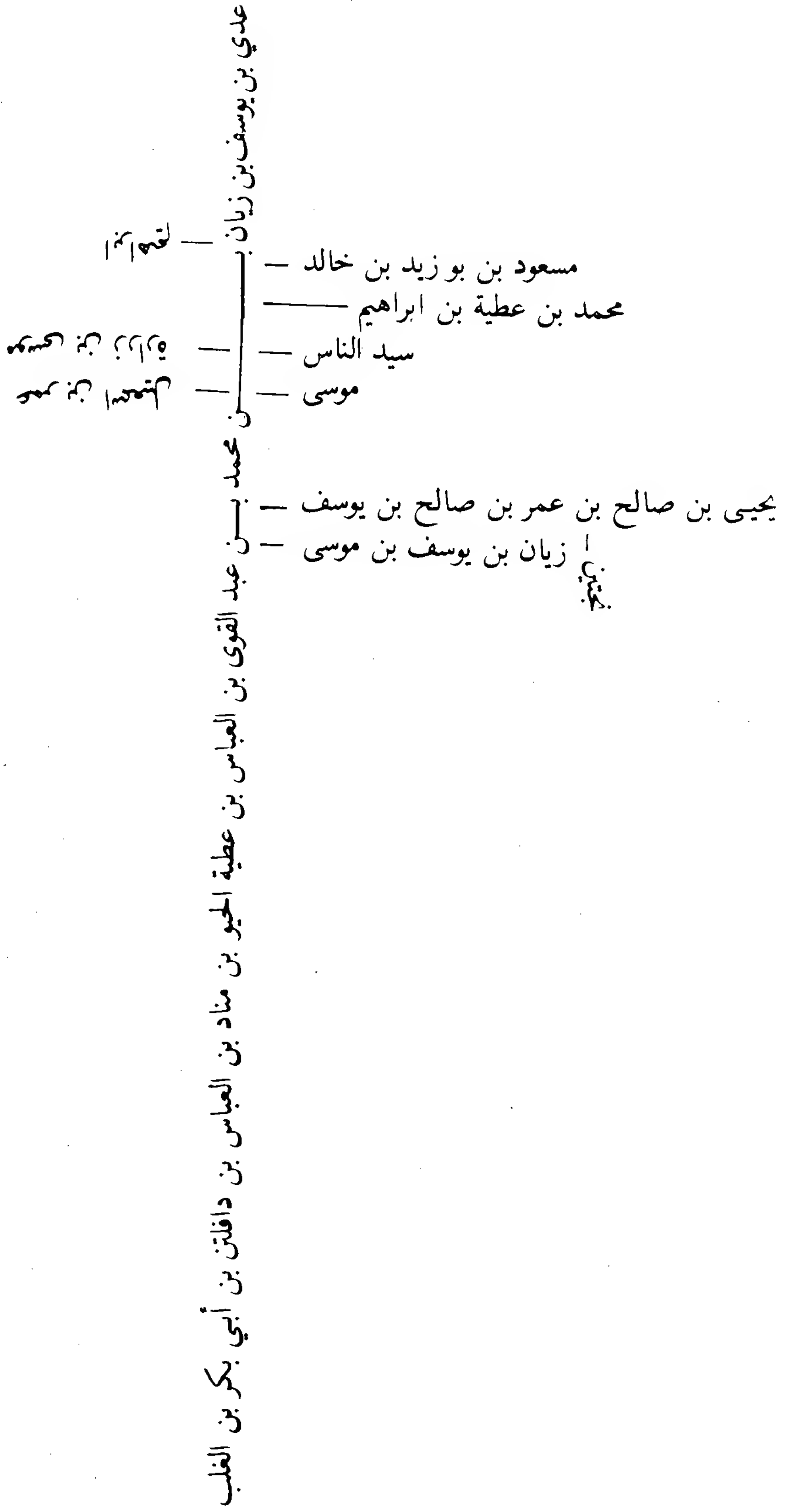
(٣) وفي نسخة ثانية : وفاء بأزمة الطاعة .

جملة عدي بن يوسف حذراً على نفسه من أصحابه . وقاتلهم عدي وقومه فامتنعوا عليه ، ودارت بينهم حروب كانت العاقبة فيها والظهور لنصر بن عمر وقومه . ثم دخل عدي في جملة السلطان أبي الحسن لما خلع من تونس إلى الجزائر ، وبقي مسعود بينهم وملكه أبو سعيد بن عبد الرحمن لما ملك تلمسان هو وقومه . فلم يزل هنالك إلى أن غلبهم السلطان أبو عنان ، فسار في جملة بعد أن قرأ إلى زواوة . واستنزل منها ونقله إلى فاس ، وانقضى ملكهم ودولتهم ، وانقطع أثر بني محمد بن عبد القوي . وأقام نصر بن عمر في ولاية جبل وانشريس وعقد له السلطان أبو عنان عليه سائر دولته . ولم يزل قائماً بدعوة بني مرين من بعده إلى أن غلبهم السلطان أبو حمو الأخير ، وهو ابن موسى بن يوسف على الأمر ، فأعطاه نصر الطاعة . ثم اضطرت نار الفتنة بين العرب وبين بني عبد الواد أعوام سبعين وسبعائة ، وقاموا بدعوة أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو ، فأنحاش نصر بن عمر إليهم ، وأخذ بدعوة الأمير أبي زيان حيناً . ثم هلك أيام تلك الفتنة وقام بأمرهم من بعده أخوه يوسف بن عمر متقبلاً مذهبهم . وهو لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعائة صاحب جبل وانشريس ، وحاله مع أبي حمو مختلف في الطاعة والخلاف ، والله مالك الأمور ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

فللوا

محمد بن عيسى بن موسى بن محمد

عمر



* (الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت رؤساء
بني يدلتن من بطون توجين من هذه الطبقة الثانية
وأوليتهم ومصايرهم) *

كان بنو يدلتن هؤلاء من شعوب بني توجين وأشدّهم شوكة وأوفرهم عدداً ، وكان
لهم ظهور من بين سائر تلك البطون . وكان بنو عبد القويّ ملوك بني توجين يعرفون لهم
ذلك ، ويوجبون لهم حقّه . ولما دخلوا إلى التلول بعد انقراض بني يلومي وبني ومانوا
نزل بنو قاضي وبنو مادون بأرض منداس ، فأوطنوها . وجاء بنو يدلتن على أثرهم ،
فأوطنوا الجعبات وتاوغزوت ورياستهم يومئذ لنصر بن سلطان بن عيسى . ثم هلك
فقام بأمرهم ابنه مناد بن نصر ، ثم أخوه عليّ بن نصر من بعده ثم ابنه ابراهيم بن
عليّ من بعده . ثم هلك وقام بأمرهم أخوه سلامة بن عليّ بن عليّ حين استفحل ملك
عبد القويّ وبنيه ، فاستفحل أمره هو في قومه واختطّ القلعة بتاوغزوت المنسوبة إليه
وإلى بنيه ، وكانت من قبل رباطاً لبعض المنقطعين من عرب سويد . ويزعم بنو
سلامة هؤلاء أنهم دخلاء في نسب توجين ، وأنهم من العرب من بني سُلَيْم بن
منصور . وجاء جدّهم عيسى أو سلطان نازعاً عن قومه لدم أصابه فيهم ، فخلطه
شيخ بني يدلتن من بني توجين بنسبه ، وكفل بنيه من بعده فكانت له سبباً في رياسته
على بني يدلتن وبنيه من بعده .

ولما هلك سلامة بن عليّ قام بأمرهم من بعده ابنه يغمراسن بن سلامة ، على حين
استغلظ بنو عبد الواد على بني توجين من بعد مهلك محمد بن عبد القوي سلطانهم
الأكبر . فكان عثمان بن يغمراسن يتردّد إلى بلادهم بالغزو ، ويطيل فيها العيث .
ونازل في بعض غزواته قلعتهم هذه ، وبها يغمراسن فامتنع عليه . وخالفه يوسف بن
يعقوب وبنو مريّن إلى تلمسان ، فأجفل على القلعة وسابق بني مريّن إلى دار ملكه .
واتبعه يغمراسن بن سلامة مغيراً في أعقابه ، ففكر عليه بالمكان المعروف بتليوان .
ودارت بينهم هناك حروب هلك فيها يغمراسن بن سلامة ، وقام بالأمر من بعده أخو
محمد بن سلامة ، فأذعن لطاعة عثمان بن يغمراسن ، وخالف بنو عبد القوي وجعل
الأتاوة على قومه ووطنه للملك بني عبد الواد ، فلم تزل عليهم للملك تلمسان . ولحق

اخوه سعد بالمغرب ، وجاء في جملة السلطان يوسف بن يعقوب في غزوته التي حاصر فيها تلمسان حصاره الطويل ، فرعى لسعد بن سلامة هجرته إليه وولاه على بني يدلتن والقلعة . وفر أخوه محمد بن سلامة فلاحق بجبل راشد وأقام هنالك الى أن هلك يوسف بن يعقوب ورجع أمر المغرب الأوسط لبني عبد الواد فوضعوا الأتاوة على بني توجين وأصاروهم الى الجباية . ولم يزل سعد على ولايته الى أن هلك أبو حمو وولي تاشفين ، فسخط سعداً وبعث عن أخيه محمد من جبل راشد ، فولاه مكانه .

ولحق سعد بالمغرب ، وجاء في جملة السلطان أبي الحسن ، ودخل أخوه محمد مع أبي تاشفين فأنحصر بتلمسان ، وولي سعد بن سلامة مكانه . ثم هلك محمد في بعض أيام الحصار وحروبه . ولما انقرض أمر بني عبد الواد رغب سعد من السلطان تخلية سبيله لقضاء فرضه ، فحجّ وهلك مرجعه من الحج في طريقه . وعهد إلى السلطان أبي الحسن واستوصاه ببنيه على لسان ولية عريف بن يحيى كبير بني سويد . فولّى السلطان أبو الحسن ابنه سليمان بن سعد على بني يدلتن والقلعة ، وانتقض أمر السلطان أبي الحسن وعاد الأمر إلى أبي سعيد وأبي ثابت ابني عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، فكانت بينه وبينهم ولاية انحراف . وكان أولياؤهم من العرب بني سويد من زغبة لما كانوا جيرانهم في مواطنهم من ناحية القبلة ، فطمع وترمار بن عريف شيخهم في التغلب على وطن بني يدلتن ، ومانعه دونه سليمان هذا ، وبالغ في دفاعه إلى أن ملك السلطان أبو عتّان بلاد المغرب الأوسط ، ورعى لوترما وإبنة عريف حق انحياشهم إليه وهجرتهم إلى قومه ، فأقطع وترمار بن عريف القلعة وما إليها وجباية بني يدلتن أجمع . وألحق سليمان بن سعد بن سلامة في جنده ووجوه عسكره إلى أن هلك السلطان ، وعاد الأمر لبني عبد الواد على يد أبي حمو الأخير ، فولّى سليمان على القلعة وعلى قومه . واستغلظ أمر العرب عليه فاستراب سليمان هذا ونذر بالشر منه ، فلاحق بأولاد عريف ، ثم راجع الطاعة فتقبّض عليه واغتاله ، وذهب دمه هدرأ . ثم غلبه العرب على عامّة المغرب الأوسط ، وأقطع القلعة وبني يدلتن لأولاد عريف استئلافاً لهم . ثم أقطعهم بني مادون ثم منداس ، فأصبحت بطون بني توجين كلّها خولاً لسويد وعبدأ لجبايتهم إلا جبل وانشريس فإنه لم يزل لبني تيغرين والوالي عليهم يوسف بن عمر منهم كما قلناه . ونظّم أبو حمو أولاد سلامة في جنده وأثبتهم في ديوانه وأقطعهم القصبات من نواحي تلمسان في عطايتهم .

وهم على ذلك لهذا العهد . والله الخلق والأمر ، لا ربّ سواه ولا معبود إلاّ إيّاه ، له الحكم وإليه ترجعون ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم .

يغمراسن — سليمان بن سعد بن سلامة بن علي بن نصر بن سلطان بن عيسى
— بسم —
يغمراسن — —
— لقمه —
— ٢٦٤ —

الخبر عن بني يرناتن إحدى بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم من التقلب والامارة وذكر أوليتهم ومصايرهم

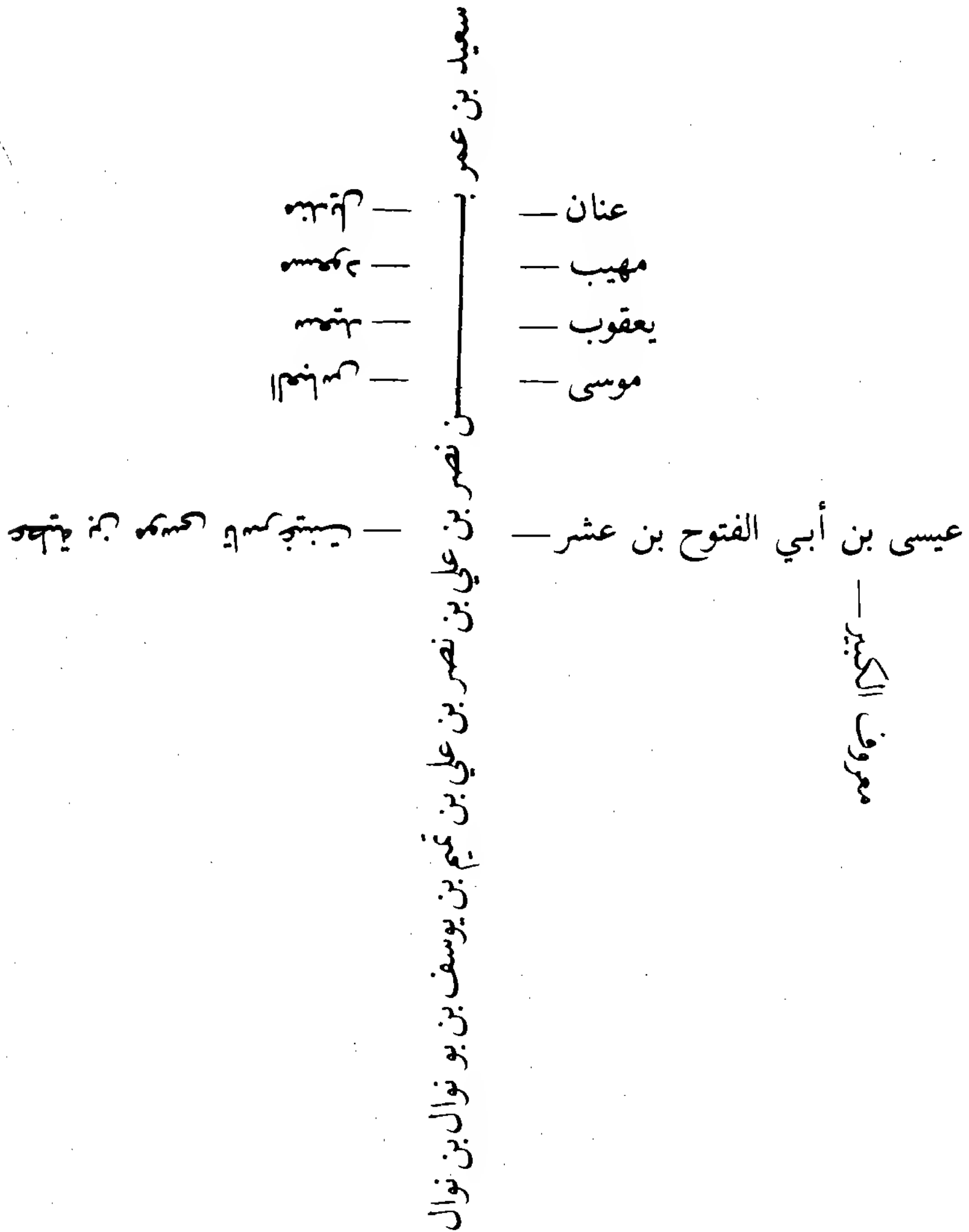
كان بنو يرناتن هؤلاء من أوفر قبائل بني توجين وأعزهم جانباً وأكبرهم صيتاً . ولما دخل بنو توجين إلى تلّول المغرب الأوسط ، أقاموا بمواطنهم الأولى ما بين واضون وزمّنة^(١) . ثم يعودون من القبلة يجولون جانبي نهر واصل من أعلى وادي شلف .

(١) وفي نسخة ثانية : رينه .

وكانت رياستهم في نصر بن علي بن تميم بن يوسف بن بنو نوال ، وكان شيخهم مهيب ابن نصر منهم ، وكان عبد القوي بن العباس وابنه محمد أمراء بني توجين يختصونهم بالإثرة والتجلة لمكانهم من قومهم ، وما يؤنسون من عظيم عنائهم . وكان محمد بن عبد القوي في سلطانه يؤثر عليهم من الحشم أولاد عزيز ، وكان واليهم لعهدده وعهد بنه عبوبن حسن بن عزيز . وقد كان أصهر مهيب بن نصر إلى عبد القوي في ابته ، فأنكحه إياها وولدت له نصر بن مهيب ، فشرفت خولته لمحمد بن عبد القوي وعلا كعبه في إمارته . ثم ولي بعده ابنه علي بن نصر ، وكان له من الولد نصر وعنتر وآخرون يعرفون بأمتهم ، واسمها تاسرغينت . وولي بعده ابنه نصر بن علي فغطال أمد إمارته في قومه . واختلف بنو عبد القوي وغلبهم بنو عبد الواد على ما بأيديهم ، فصرفت ملوك زناتة وجه العناية إليه ، فبعد صيته وعرف بنوه من بعده بشهرته ، وكان ولوداً فيقال : إنه خلف ثلاثة عشر من البنين ، ما منهم إلا صاحب حرب أو مقنب . ومن مشاهيرهم عمر الذي قتله السلطان أبو الحسن بمرات حين سعى به أنه داخل في اغتياله ، ففر وأدرك فقتل بمرات . ومنهم مندبل الذي قتله بنو تيغرين أيام ولوا علي ابن الناصر وقتلوا معه عبوبن حسن بن عزيز ، ومنهم عنان ومات قتيلاً في حصار تلمسان أيام أبي تاشفين ، ومنهم مسعود ومهيب وسعدو وداود وموسى ويعقوب والعباس ويوسف في آخرين معروفين عندهم . هذا شأن أولاد نصر بن علي بن نصر ابن مهيب .

وأما ولد عنتر أخيه فكان منهم أبو الفتوح بن عنتر . ثم من ولده عيسى بن أبي الفتوح ، فكان رئيساً على بني أبيه ، وكانت إحدى وصائفهم سقطت بدار عثمان بن يغمراسن ، وادّعت الحمل من سيدها أبي الفتوح ، وجاءت بأخ لعيسى يسمى معروفاً ، رُبي بدارهم . واستوزره أبو حمو وابنه من بعده ، وبلغ المبالغ في دولتهم وكان يدعى معروفاً الكبير . وخلق به أيام رياسته في دولة أبي حمو الأول أخوه عيسى ابن أبي الفتوح مغاضباً لقومه ، فسعى له في الولاية على بني راشد وجباية أوطانهم ، وأنزله بلد سعيدة ، فكانت له بها إمارة ، وكان له من الولد أبو بكر وعبو وطاهر ووترمار ، وعندما غلب بنو مرين على بني عبد الواد ولأهم السلطان أبو الحسن على بني يرناتن متداولين وأما ولد تاسرغينت من بني علي بن نصر بن مهيب ، فلم يكن لهم ذكر في رياسة قومهم ، إلا أن بعض وصائفهم سقطت أيضاً إلى دار أبي تاشفين

فولدت غلاماً يعرف بعطية بن موسى نشأ في دارهم ينسب إلى بني تاسرغينت هؤلاء .
وتناولته النجاة في خدمتهم ، فولّوه الأعمال النبوية ، وهو لهذا العهد عامل أبي حمو
الأخير على شلف وما إليها . وقد غلب العرب لهذا العهد على وطن بني يرناتن ،
وملكوا عليهم يعود ماحنون . وبقيت صبابتهم بجبل ورنيد^(١) . وعليهم لهذا العهد
سعيد بن عمر من ولد نصر بن علي بن نصر بن مهيب ، يعطون المغرم للسلطان
ويصانعون العرب بالأتاوة . ويبد الله تصاريف الأمور سبحانه لا رب غيره .



(١) وفي نسخة ثانية : جبل وريثة .

الخبر عن بني مرين وأنسابهم وشعوبهم وما تأثلوا بالمغرب من السلطان والدولة التي استعملت سائر زناته وانتظمت كراسي الملك بالعدوتين وأولية ذلك ومصايره

قد ذكرنا أن بني مرين هؤلاء من شعوب بني واسين ، وذكرنا نسب واسين في زناته ، وذكرنا أنهم بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يدر بن يخفت ابن عبدالله بن ورتنيص بن المعز بن ابراهيم بن سجيك بن واسين ، وأنهم إخوة بني يلومي ومديونة . وربما يشهد بذلك جوار مواطنهم قبل الملك ما بين صا^(١) وملوية . وذكرنا كيف اقتسموا الضاحية والقفر مع إخوانهم بني بادين^(٢) بن محمد ، وكيف اتصلت فنتهم معهم سائر أيامهم . وكان الغلب أولاً لبني بادين بن محمد لكثرة عددهم ؛ فإنهم كما ذكرنا خمسة بطون : بنو عبد الواد وتوجين ومصاب ، وبنو زردال وإخوانهم بنو راشد بن محمد . وكانوا أهل تلول المغرب الأوسط دونهم . وبقي هذا الحى من بني مرين بمجالات القفر من فيكيك إلى سجلماسة إلى ملوية . وربما يتخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب . ويذكر نسابهم أن الرياسة فيهم قبل تلك العصور كانت لمحمد بن ورزين^(٣) بن فكوس بن كوماط بن مرين ، وأنه كان لمحمد إخوة آخرون يعرفون بأهمهم تنالفت . وكان بنو عمه ونكاسن بن فكوس . وكان لمحمد من الولد سبعة : شقيقان وهما حمامة وعسكر . وأبناء علات أمهات أولاد ، وهم سنكمان وسكميان وسكم ووراغ وقزونت^(٤) وتسمى هذه الخمسة في لسانهم تيريفين ، ومعناه عندهم الجماعة .

يزعمون أن محمداً لما هلك قام بأمره في قومه ابنه حمامة ، وكان الأكبر . ثم من بعده أخوه عسكر ، وكان له من الولد ثلاثة : نكوم وأبويكني ، ويلقب المخضب ، وعلي ويلقب لاعدر . ولما هلك قام برياسته فيهم ابنه المخضب ؛ فلم يزل أميراً عليهم إلى أن كان أمر الموحددين . وزحف عبد المؤمن إلى تاشفين بن علي بن يوسف ؛ فحاصره

(١) كذا ، وهو وادي (زا) . (وقد مر معنا من قبل ولم نجد له ذكر في معجم البلدان) .

(٢) وفي نسخة ثانية : بني يادين .

(٣) كذا ، وفي نسخة : ورزير .

(٤) كذا ، وفي نسخة : فرونت .

بتلمسان . وسرح الشيخ أبا حفص في العساكر لحرب زناتة بالمغرب الأوسط ، وجمع له بنو بادين كلهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة ؛ ففضّ الموحدون جموعهم واستلحموا أكثرهم . ثم راجع بنو يلومي وبنو بادين طاعتهم ، وأخلص بنو عبد الواد في خدمتهم ونصيححتهم . ولحق بنو مرين بالقفر ؛ فلما غلب عبد المؤمن على وهران واستولى على أموال لتونة وبعث ذخيرتهم بتلك الغنائم إلى جبل تينملل حيث داره ، ومن أين كان منبعث الدعوة . وبلغ الخبر إلى بني مرين بمكانهم من الزاب ، وشيخهم يومئذ المخضّب بن عسكر ، فأجمع اعتراضها بقومه . ولحق العير بوادي تلاغ ؛ فاحتازها من أيدي الموحدين . واستنفر عبد المؤمن لاستنقاذها أولياءه من زناتة ، وسرحهم مع الموحدين لذلك ؛ فأبلى بنو عبد الواد فيها بلاءً حسناً . وكان اللقاء في فحص مسون ، وانكشف بنو مرين ، وقتل المخضّب بن عسكر ، واكتسح بنو عبد الواد حلهم ، وذلك سنة أربعين وخمسمائة . فلحق بنو مرين بعدها بصحرائهم ومحالات قفرهم ، وقام بأمرهم من بعد المخضّب أبو بكر ابن عمّه حمّامة ابن محمد إلى أن هلك ، فقام بأمره ابنه محيو ؛ ولم يزل مطاعاً فيهم إلى أن استنفرهم المنصور لغزاة الأركة ، فشهدوها وأبلوا البلاء الحسن . وأصاب محيو يومئذ جراحة انتقضت عليه مرجعه منها ؛ فهلك بصحراء الزاب سنة إحدى وتسعين وخمسمائة . وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده ، وبقائها في عقبه ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن إمارة عبد الحق بن محيو المستقرة في بنيه وإمارة
ابنه عثمان من بعده ثم أخيه محمد بن عبد الحق بعدهما وما
كان فيها من الأحداث

لما هلك محيو بن أبي بكر بن حمارة من جراحته كما قلناه ، وكان له من الولد عبد
الحق ووسناف ويحياتن . وكان عبد الحق أكبرهم ؛ فقام بأمر بني مرين ، وكان خير
أمير عليهم قياماً بمصالحهم وتعفوفاً عما في أيديهم ، وتقويماً لهم على الجادة ونظراً في
العواقب ، واستمرت أيامهم . ولما هلك الناصر رابع خلفاء الموحدين بالمغرب سنة
عشر وستماية مرجعه من غزاة العقاب ، وقام بأمر الموحدين من بعده ابنه يوسف
المستنصر ، نصبه الموحدون للأمر غلاماً لم يبلغ الحلم . وشغلته أحوال الصبا وحنونه
عن القيام بالسياسة وتدبير الملك ؛ فأضاع الحزم وأغفل الأمور . وتواكل الموحدون بما
أرخص لهم من طيل الدالة عليه . ونفس عن منقهم من قبضة الاستبداد والقهر ؛
فضاعت الثغور وضعفت الحامية . وتهاونوا بأمرهم ، وفشلت ريجهم . وكان هذا
الحي لذلك العهد بمجالات القفار ، من فيكيك الى صا وملوية كما قدمناه من
شأنهم . وكانوا يطرقون في صعودهم إلى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحدين وما
قبلها جهات كرسيف إلى وطاق ، ويأنسون بمن هنالك من بقايا زناة الأولى : مثل
مكناسة بجبال تازى ، وبني يرنيان من مغراوة المواطنين قصور وطاق من أعالي
ملوية . فيتقلبون بتلك الجهات عام المربع والمصيف ، وينحدرون إلى مشاتهم بما
امتاروه من الحبوب لأقواتهم . فلما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها
الفرصة ، وتخطوا إليها القفر ، ودخلوا ثناياه ، وتفرقوا في جهاته ؛
وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه ، واكتسحوا بالغاارة والنهب عامة
بساتنهم . ولحأت الرعايا إلى معتصماتهم ومعاملهم ، وكثر شاكيم . واطلم الجوينهم
وبين السلطان والدولة ، فأذنوهم بالحرب وأجمعوا لغزوهم وقطع دابرهم . وأغرى
الخليفة المستنصر عظيم الموحدين أبا علي بن وانودين بجميع العساكر والحشود من
مراكش ، وسرحه إلى السيد أبي ابراهيم ابن أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن
بمكانه من إمارة فاس . وأوعز إليه أن يخرج لغزوبني مرين ، وأمره أن يشخن ولا

يستبقى . واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية ، فتركوا أثقاه بحصن تازوطا ، وصمدوا إليهم . والتقى الجمعان بوادي نكور ، فكان الظهور لبني مرين والدبرة على الموحدين . وامتلات الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم ، ورجعوا إلى تازي وفاس عراة يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشغلة . يوارون به سوءاتهم لكثرة الخصب عامثد ، واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلاً . حتى لقد سميت الواقعة يومئذ بعام المشغلة .

وصمد بنو مرين بعدها إلى تازي ، فقلوا حاميتها أخرى . ثم اختلفت بنو محمد رؤساؤهم وانتبذ عنهم من عشائرتهم بنو عسكر بن محمد ، لمنافسة وجدوها في أنفسهم من استقلال بني عمهم حامة بن محمد بالرياسة دونهم ، بعد أن كان أومض عندهم منها في عسكر ، وابنه المخضب إيماض من أخلف بارقه . فحالفوا عبد الحق أميرهم وقومه إلى مظاهرة أولياء الموحدين ، وحامية المغرب من قبائل رياح المواطنين بالهبط وأزغار لحديث عهدهم بالتوحش والغزمنذ إنزال المنصور إياهم بذلك القطر من أفريقية ، فتحيزوا إليهم وكاثروهم على قومهم .

وصمدوا جميعاً للقاء بني مرين سنة أربع عشرة وستائة ، ودارت بينهم حرب تولى الصبر مقامها . وهلك فيها أميرهم عبد الحق وكبير بنيه إدريس . وتذامر لمهلكها بنو مرين . وجلّى في تلك الحومة حامة بن يصليتن من بني عسكر ، والأمير ابن محيو السلمي . فانكشفت رياح آخرأ ، وقتل منهم أبطال . وولى بنو مرين عليهم بعد مهلك عبد الحق ابنه عثمان تلو إدريس ، وشهرته بينهم أدغال ، ومعناه برطانتهم الأعور . وكان لعبد الحق من الولد عشرة ، تسعة ذكور وأختهم ورتطليم : فإدريس وعبدالله ورحو لامرأة من بني علي إسمها سوط النساء ، وعثمان ومحمد لامرأة من بني ونكاسن إسمها النوار بنت تصاليت ، وأبوبكر لامرأة من بني تنالفت وهي تاغزونت بنت أبي بكر بن حفص ، وزيان لامرأة من بني ورتاجن ، وأبو عياد لامرأة من بني وللوى إحدى بطون عبد الواد وإسمها أم الفرج ، ويعقوب لأم اليمن بنت محلي من بطوية . وكان أكبرهم إدريس الهالك مع أبيه عبد الحق ، فقام بأمر بني مرين من بعد عبد الحق ابنه عثمان ؛ بايعه لوقته حامة بن يصليتن ولمير بن محيو ومن إليهما من مشيخة قومها . واتبعوا منهزمة رياح وأثخنوا فيهم . وثار عثمان بأبيه وأخيه حتى شفا نفسه منهم ولاذوا بالسلم ، فسالمهم على أتاوة يؤدونها إليه وإلى قومه كل سنة . ثم

استشرى من بعد ذلك داء بني مرين واعضل خطيهم ، وكثر الثوار بالمغرب ، وامتنع عامة الرعايا عن المغرم ، وفسدت السابلة . وأعتصم الأمراء والعمّال من السلطان فمن دونه بالأمصار والمدن ، وغلبوا أولئك على الضاحية . وتقلّص ظل الحكّام عن البدو جملة . وافتقد بنو مرين الحامية دون الوطن والدفاع ؛ فمدوا إلى البلاد يداً . وسار بهم أميرهم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه ، ويضع المغارم على أهله حتى دخل أكثرهم في أمره ؛ فبايعه من الطواغن الشاوية والقبائل الآهلة : هوارة وزكارة ، ثم تسول ومكناسة ، ثم بطوية وقشتالة ، ثم سدراتة وهلولة ومديونة . ففرض عليهم الخراج وألزمهم المغارم ، وفرّق فيهم العمّال . ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس وتازي ومكناسة وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها إليه على رأس كل حول ، على أن يكفّ الغارة عنهم ويصلح سابلتهم . ثم غزا طواغن زناتة سنة عشرين وستمائة ، وأثنخ فيهم حتى اذعنوا ، وقبض أيديهم عمّا امتدت إليه من الفساد والنهب . وعطف بعدها على رياح أهل أزغار والهبط وأثاربه بأبيه ؛ فأثنخ فيهم وأبادهم . ولم يزل دأبه ذلك إلى أن هلك باغتيال علجة سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وقام بأمر بني مرين من بعده أخوه محمد بن عبد الحق ؛ فتقبّل سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم والوضائع من طواعنه وبدوه وسائر رعاياه . وبعث الرشيد أبا محمد بن وانودين لحربهم . وعقد له على مكناسة ، فدخلها وأجحف بأهلها في المغارم . ثم نزل بنو مرين بمتيجة وغيرها من ضواحيها ؛ فنادى في عساكره وخرج إليهم ؛ فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين . وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائداً من الروم ، واختلفا ضربتين هلك العليج بإحداهما ، وانجرح محمد في وجهه بالأخرى . واندمل جرحه ؛ فصار أثر في وجهه لقب من أجله أبا ضربة . ثم شدّ بنو مرين على الموحدّين ؛ فانكشفوا ورجع ابن وانودين إلى مكناسة مفلولاً . وبقي بنو عبد المؤمن أثناء ذلك في مرض من الأيام ، وتناقل عن الحماية . ثم أومضت دولتهم آخرأ إيباض الخمود . وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستمائة ، وولي أخوه علي وتلقّب بالسعيد ، وبايعه أهل المغرب ، انصرفت عزائمهم إلى غزوي بني مرين ، وقطع أطاعهم عما سميت إليه من تملك الوطن ؛ فأغزى عسكر الموحدّين لقتالهم ، ومعهم قبائل العرب والمصامدة

وجموع الروم . فهضوا سنة إثنين وأربعين وستائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفاً فيما زعموا . وزحف إليهم بنو مرين بوادي ياباش ؛ وصبر الفريقان ، وهلك الأمير محمد بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الروم . وانكشفت بنو مرين واتبعهم الموحدون ، ودخلوا تحت الليل ؛ فلحقوا بجبال غياثة من نواحي تازي واعتصموا بها أياماً . ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء ؛ وولّوا عليهم أبا يحيى بن عبد الحق ؛ فقام بأمرهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن دولة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق مدبل الأمر لقومه
بني مرين وفتح الامصار ومقيم الرسوم الملوكية
من الآلة وغيرها لمن بعده من امراءهم

لما ولي أبو يحيى بن عبد الحق أمر بني مرين سنة إثنين وأربعين وستائة ، كان من أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه ، أن قسّم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين عشائر بني مرين . وأنزل كلاً منهم في ناحية تسوّغها سائر الأيام طعمة . فاستركبوا الرجل أتباعهم ، واستلحقوا من غاشيتهم ، وتوفّرت عساكرهم . ثم نبضت نار المنافسة بين أحيائهم ، وخالف بنو عسكر جماعتهم ، وصاروا إلى الموحدين ؛ فحرّضوهم على أبي يحيى بن عبد الحق وبني حمّامة وأغروهم بهم . وبعثوا الصريخ إلى يغمراسن بن زيان ، فوصل في قومه إلى فاس . واجتمعوا جميعاً إلى قائد الموحدين . وأعطوا الرهن على صدق البلاء في الأمير أبي يحيى وأتباعه . وصمدوا إليه حتى انتهوا إلى ورغة ، ثم إلى كرت^(١) . وأعجزهم فانكفّوا راجعين إلى فاس . ونذر يغمراسن بغدر الموحدين ؛ فخرج في قومه مع أوليائه بني عسكر . وعارضهم الأمير أبو يحيى بوادي سبو ؛ فلم يطق حربهم . ورجع عنهم عسكر الموحدين بما صرخ في معسكرهم من موت الخليفة السعيد . ثم بعثوا إليهم لملاطفتهم في الفيئة إلى الطاعة ومذاهب الخدمة ، القائد عنبر الخصيّ مولى الخليفة في حصّة من الروم والناشبة ؛ فتقبّض عليهم بنو عسكر وتمسّكوا بهم في رهنهم . وقتلوا كافة النصارى ؛ فأطلق أبناءهم ولحق

هي كُرت : مدينة في أقصى بلاد المغرب قرب بلاد السودان وربما قبلت بالثاء . (معجم البلدان) .

يغمراسن وقومه بتلمسان . ثم رجع بنو عسكر إلى ولاية أميرهم أبي يحيى . واجتمع بنو مرين لشأنهم وتملكوا الأعمال . ثم مدوا عينهم إلى تملك الأمصار ؛ فنزل أبو يحيى يحملته جبل زرهون . ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب أفريقية ، لما كان يومئذ على دعوته وفي ولايته ؛ فحاصرها وضيق عليها بقطع المرافق وترديد الغارات ومعاودة الحرب ؛ إلى أن أذعنوا لطاعته ، فافتتحها صلحاً بمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن بن أبي العافية .

وبعثوا بيعتهم إلى الأمير أبي زكرياء ، وكانت من إنشاء أبي المطرف بن عميرة ، كان قاضياً فيهم يومئذ ؛ فأقطع السلطان ليعقوب ثلث جبايتها ، ثم أحس الأمير أبو يحيى بن عبد الحق من نفسه الاستبداد ، ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة . وبلغ الخبر إلى السعيد بتغلبه على مكناسة وصرفها إلى دعوة ابن أبي حفص ؛ فوجم لها وفاوض الملائم من أهل دولته في أمره ، وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئاً فشيئاً : فابن أبي حفص اقتطع أفريقية . ثم يغمراسن بن زيّان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الأوسط ، وأقاموا فيها دعوة ابن أبي حفص ، وأطمعوه في الحركة إلى مراکش بمظاهرتهم . وابن هود اقتطع عدوة الأندلس ، وأقام فيها دعوة بني العباس ، وابن الأحمر في الجانب الآخر مقيم لدعوة ابن أبي حفص . وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب ، ثم سموا إلى تملك الأمصار . ثم افتتح أميرهم أبو يحيى مكناسة وأظهر فيها دعوة ابن أبي حفص ، وجاهر بالاستبداد . ويوشك إن رضينا هذه الدنيّة ، وأغضينا عن هذه الوقعات ، أن يختل الأمر أو تنقرض الدعوة . فتدامروا وامتعضوا وتداعوا للصمود إليهم ؛ فجهّز السعيد عساكره . واحتشد عرب المغرب وقبائله ، واستنفر الموحدين والمصامدة ، ونهض من مراکش سنة خمس وأربعين وستائة يريد مكناسة : وبني مرين أولاً ، ثم تلمسان ويغمراسن ثانياً ، ثم أفريقية وابن أبي حفص آخراً . واعترض العساكر والحشود بوادي بهت . ووصل الأمير أبو يحيى إلى معسكره متوارياً عنهم عيناً لقومه ، حتى صدقهم كنه الخبر . وعلم أن لا طاقة له بهم ؛ فأفرج عن البلاد . وتناذر بنو مرين بذلك من أماكنهم ؛ فتلاحقوا به واجتمعوا إليه بتازوطا من بلاد الريف . ونزل سعيد مكناسة ، ولاذ أهلها بالطاعة ، وسألوا العفو عن الجريرة . واستشفعوا بالمصاحف ، برز بها الأولاد على رؤوسهم ، وانتظموا مع النساء في صعيد حاسرات منكسرات الطرف من

الخشوع ووجوم الذنب والتوسّل . فعفا عنهم وتقبّل فيهم ، وارتحل إلى تازى في اتباع بني مرين . وأجمع بنو أوطاس الفتك بأبي يحيى بن عبد الحق غيرة ومناسفة ، ودس إليه بذلك مهيب من مشيختهم ؛ فترحّل عنهم إلى بلاد بني يزناسن ، ونزل بعين الصفا .

ثم راجع نظره في مسألة الموحدّين والفيئة إلى أمرهم ومظاهرتهم على عدوّهم يَغْمَرَسِين وقومه من بني عبد الواد ، ليكون فيها شفاء نفسه منهم ؛ فأوفد مشيخة قومه عليه بتازى ؛ فأدوا طاعته وقيته ؛ فتقبّلها وصفح لهم عن الجرائر التي أتوها . وسألوه أن يستكفي بالأمير أبي يحيى في أمر تلمسان ويغمراسن ، على أن يمده بالعساكر راحة وناشبة ؛ فاتهمهم الموحدون وحذروا منهم غائلة العَصَبِيَّة ، فأمرهم السعيد بالعسكرة معه ؛ فأمده الأمير أبو يحيى بخمسمائة من قبائل بني مرين . وعقد عليهم لابن عمه أبي عياد بن يحيى بن أبي بكر بن حمّامة ، وخرجوا تحت رايات السلطان . ونهض من تازى يريد تلمسان وما وراءها ، وكان من خبر مهلكه على جبل تامزردكت بيد بني عبد الواد ما ذكرناه في أخبارهم .

ولما هلك وانقضت عساكره متسابقين إلى مراکش ، وجمهورهم مجتمعون إلى عبدالله ابن الخليفة السعيد ولي عهده ، وتحت رايات أبيه . وطار الخبر بذلك إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق ، وهو بجهات بني يزناسن . وقد خلص إليه هنالك ابن عمه أبو عياد . وبعث بني مرين من تيار تلك الصدمة ، فانتزح الفرصة وأرصد لعسكر الموحدّين وقلّهم بكر سيف ؛ فأوقع بهم وامتلات أيدي بني مرين من أسلابهم ، وانتزعوا الآلة من أيديهم . وأصار إليه كتيبة الروم والناشبة من الغزو ، واتخذ الموكب الملوكي . وهلك الأمير عبدالله بن السعيد في جوانب تلك الملحمة ، ويشوا للموحدّين بعدها من الكرّة . ونهض الأمير أبو يحيى وقومه إلى بلاد المغرب مسابقين إليه يَغْمَرَسِين بن زيّان بما كان ملوك الموحدّين ، أوجدوهم السبيل إلى ذلك باستجاشة على بني مرين أيام فتنهم معهم ؛ فكانوا يبيحونه حرم المغرب ويوطئونه عساكر قومه ما بين تازى إلى فاس ، إلى القصر مع عساكر الموحدّين ؛ فكان ليغمراسن وقومه بذلك طمع فيها لولا ما كبّحهم فأس بني مرين وجدّع من أنوفهم .

وكان أول ما بدأ به أبو يحيى بن عبد الحق أعمال وطاق ؛ فافتتح حصونهم بملوية

ودوخ جبلهم . ثم رحل إلى فاس ، وقد أجمع أمره على انتزاعها من ملكة بني عبد المؤمن ، وإقامة الدعوة لابن أبي حفص بها وبسائر نواحيها . والعامل بها يومئذ السيد أبو العباس ؛ فأناخ عليها بركابه . وتلطف في مداخلة أهلها ، وضمن لهم جميل النظر وحميد السياسة . وكف الأيدي عنهم ، والحماية لهم بحسن المغبة ، وصالح العائدة ؛ فأجابوه ووثقوا بعهدده وعنايته . وآووا إلى ظلّه وركنوا إلى طاعته ، وانتحال الدعوة الحفصية بأمره . ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأساً من صريخهم وكثرتهم . وحضر أبو محمد القشتالي ، وأشهده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم ، وحسن الملكة والكفالة . وتقبل مذاهب العدل فيهم ؛ فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة . وكانت البيعة بالرابطة خارج باب الفتوح . ودخل إلى قصبة فاس لشهرين إثنين من مهلك السعيد ، فاتح ست وأربعين وستماية . وأخرج السيد أبا العباس من القصبة ، وبعث معه خمسين فارساً أجازوه أم ربيع ورجعوا . ثم نهض إلى منازلة تازي ، وبها السيد أبو علي ، فنازلها أربعة أشهر . ثم نزلوا على حكمه ، فقتلهم ومنّ على آخرين منهم . وسدّ ثغرها ، وثقف أطرافها ، وأقطع رباط تازي وحصون ملوية لأخيه يعقوب بن عبد الحق . ورجع إلى فاس ، فوفد عليه بها مشيخة أهل مكناسة ، وجددوا بيعتهم وعاودوا طاعتهم . ولحق بهم على أثرهم أهل سلا ورباط الفتح ، فتملك الأمير أبو يحيى هذه البلاد الأربعة أمتهات أمصار المغرب . واستولى على نواحيها إلى وادي أم ربيع ، فأقام فيها دعوة ابن أبي حفص ، وبعث بها إليه . واستبدّ بنومرين بملك المغرب الأقصى ، وبنو عبد الواد بملك المغرب الأوسط ، وبنو أبي حفص بأفريقية . وخمد ذبال آل عبد المؤمن ، وركدت ريجهم ، وأذنت بالانقراض دولتهم ، وأشرف على الفناء أمرهم . وإلى الله عاقبة الأمور .

الخبر عن انتفاض أهل فاس على أبي يحيى بن عبد الحق
وظفره بهم بعد إيقاعه بيغمراسن وقومه بايسلي

لما ملك الأمر أبو يحيى بن عبد الحق بمدينة فاس سنة ست وأربعين وستماية ، استولى على بلاد المغرب بعد مهلك السعيد . وقام بأمر الموحدين بمراكش أبو حفص عمر

لمرتضى ابن السيد أبي ابراهيم إسحاق الذي كان قائد عسكر الموحدين في حربهم مع بني مرين عام المشغلة ، ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . كان السعيد تركه والياً بقصبة رباط الفتح من سلا ؛ فاستدعاه الموحدون وباعوه بيعة الخلافة . وقام بأمرهم ؛ فلما تغلب الأمير أبو يحيى على بلاد المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرناه ؛ خرج إلى بلاد فازاز والمعدن لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها . واستعمل على فاس مولاة السعود بن خرباش ، من جماعة الحشم أخلاف بني مرين وصنائعهم . وكان الأمير أبي يحيى استبقى بها من كان فيها من عسكر الموحدين من غير عيصهم في السبيل التي كانوا عليها من الخدمة . وكان فيهم طائفة من الروم ، استخدمهم إلى نظر قائدهم شأنه ، وكانوا من حصّة السعود هنالك . ووقعت بينهم وبين شيع الموحدين من أهل البلد مداخلة ، وفتكوا بالسعود عاملهم وقلبوا الدعوة للمرتضى الخليفة بمراكش سكيت الحلبة ومخلف المضار . وكان المتولي لكبر تلك الثورة ابن حشّار المشرف وأخوه وابن أبي طاهر^(١) وإبته ، اجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغيّلي ، زعيم فئة الشورى بينهم يومئذٍ وتوامروا فيها . وأغروا قائد الروم بقتل السعود ، وعدوا عليه بمقعد حكمه من القصبّة ، وهاجوه ببعض المحاورات فغضب . ووثب عليه الرومي ؛ فقتله وطاف برأسه الهاتف بسكك المدينة في شوال سنة سبع وأربعين وستائة . وانتهبت داره ، واستبيحت حرمة . ونصبوا قائد الروم لضبط البلد ، وبعثوا بيعتهم إلى المرتضى . واتصل الخبر بالأمير أبي يحيى ، وهو منازل بلد فازاز ؛ فأفرج عنها . وأغذّ السير إلى فاس ؛ فأناخ بعساكره عليها . وشمر لحصارها ، وقطع السابلة عنها . وبعثوا إلى المرتضى بالصریح ، فلم يرجع إليهم قولاً ؛ ولا ملك لهم ضرراً ولا نفعاً ؛ ولا وجه لما نزل بهم وجهاً . حاشا إنه استجاش بالأمير أبي يحيى يغمّراسن بن زيان على أمره ، وأغراه بعدوه ، وأمله لكشف هذه النازلة عن الحاش إلى طاعته .

وتعلّقت أطماع يغمّراسن بطروق بلاد المغرب ؛ فاحتشد لحركته . ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي يحيى عن فاس ، وإجابة صريح الخليفة لذلك . وبلغ الأمير أبا يحيى خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته البلد ؛ فجمّر الكتاب عليها .

(١) كذا ، في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : طاو .

صمد إليه قبل وصوله من تخوم بلاده ، والتقى الجمعان بايسلى من بسائط وجدة ، فتزاحف القوم وأبلوا . وكانوا ملحمة عظيمة ، هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد ابراهيم بن هشام من بني عبد الواد . ثم انكشف بنو عبد الواد ، وهلك يغمراسن بن تاشفين من أكابر مشيختهم ، ونجا يغمراسن بن زيّان إلى تلمسان . وانكفاً الأمير أبو يحيى إلى معسكره للأخذ بمخفق فاس ، فسقط في أيدي أهلها ، ولم يجدوا وليجة من دون طاعته ، فسألوا الأمان ، وبذله لهم على غرم ما تلف له من المال بداره يوم الثورة ؛ وقدره مائة ألف دينار ، فتحملوها . وأمكنوه من قياد البلد ، فدخلها في جمادى من سنة ثمان وأربعين وستائة . وطالبهم بالمال ، فعجزوا ونقضوا شرطه ، فحق عليهم القول . وتقبّض على القاضي أبي عبد الرحمن وابن أبي طاووس وابنه ، وابن حشار وأخيه المتولين كبر الفعلة فقتلهم ، ورفع على الشرفات رؤوسهم . وأخذ الباقيين بغرم المال طوعاً أو كرهاً ؛ فكان ذلك مما عبّد رعية فاس وقادهم لأحكام بني مرين . وضرب الرهب على قلوبهم لهذا العهد ؛ فخشعت منهم الأصوات وانقادت الهمم ؛ ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة . والله مالك الأرض ومن عليها .

الخبر عن تغلب الأمير أبي يحيى على مدينة سلا وارتجاعها من يده وهزيمة المرتضى بعدها

لما كمل للأمير أبي يحيى فتح مدينة فاس ، واستوسق أمر بني مرين بها ، رجع إلى ما كان فيه من منازل بلاد فازاز فافتتحها . ودوّخ أوطان زناتة ، واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين فيها . ثم تخطّى إلى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستائة ؛ فملكها وتاخم الموحدّين بثغرها . واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله ابن عبد الحق ، وعقد له على ذلك الثغر ، وضمّ إليه الأعمال . وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى ، فأهمّه الشأن . وأحضر الملا من الموحدّين وفاوضهم ، واعتزم على حرب بني مرين . وسرح العساكر سنة خمسين وستائة ؛ فأحاطت بسلا ؛ فافتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى . وعقد عليها لأبي عبد الله بن أبي يعلو من مشيخة الموحدّين . وكان المرتضى قد صمد بنفسه سنة تسع وأربعين وستائة إلى محاربة بني

مرين في جموع الموحدين وعساكر الدولة ، صمد بنو مرين للقاءه . والتقى الجمعان بايملولين ؛ ففضوا جموعه ؛ وكانت الدبرة عليه والظهور لهم . ثم كان بعدها فتح سلا ، وغلب الموحدين عليها . وأجمع المرتضى بعدها على احتشاد أهل سلطانه ، ومعاودة الخروج بنفسه إلى غزوهم لما خشي من امتداد أمرهم . وتقلص ملك الموحدين ؛ فعسكر خارج حضرته سنة ثلاث وخمسين وستائة وبعث الحاشرين في الجهات ؛ فاجتمع إليه أمم الموحدين والعرب والمصامدة . وأغذ السير تلقاءهم ، حتى إذا انتهى إلى جبال بهلولة من نواحي فاس ، وصمد إليه الأمير أبو يحيى في عساكر بني مرين ، ومن اجتمع إليهم من دونهم . والتقى الجمعان هنالك . وصدقهم بنو مرين القتال ؛ فاقتل مصاف السلطان ؛ وانزمت عساكره وأسلمه قومه . ورجع إلى مراکش مفلولاً . واستولى القوم على معسكره واستباحوا سرادقه وفساطيطه ، وانتهبوا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة ، واستاقوا سائر الكراع والظهر ، وامتلات أيديهم من الغنائم . واعتز أمرهم ، وانبسط سلطانهم ، وكان يوماً له ما بعده . وأغرى أثر هذه الحركة عساكر بني مرين تادلاً^(١) واستباح بني جابر حاميتها من جشم بيلد أبي نفيس ، واستلحم أبطالهم ، وألان من حدتهم ، وخضد من شوكتهم . وفي أثناء هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق ، وهو ابن أخي الأمير أبي يحيى . شعر منه بفساد الدخلة والاجتماع للتوثب به ؛ فدس لابنه أبي حديد مفتاح بقتله ؛ بجهات مكناسة سنة إحدى وخمسين وستائة . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك

(من الاحداث) *

لما يش بنو عبد المؤمن من غلبهم بني مرين على ما صار في أيديهم من بلاد المغرب وعادوا إلى مدافعهم عن صمامة الدولة التي تحملت إياها شفافهم لو أطاقوا المدافعة عنها وملك بنو مرين عامة بلاد التلول ، اعترم الأمير أبو يحيى بعدها على الحركة إلى بلاد القبلة ففتح سجلماسة ودرعة وما إليها سنة ثلاث وخمسين وستائة وافتتحها بمداخلة من ابن القطراني ، غدر بعامل الموحدين فتقبض عليه ، وأمكن منها الأمير

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، وفي معجم البلدان : تادلة .

أبا يحيى فملكها ، وما إليها من درعة سائر بلاد القبلة . وعقد لابنه أبي حديد . وبلغ الخبر إلى المرتضى فسرح العساكر سنة أربع وخمسين وستائة لاستنقاذها ، وعقد عليهم لابن عطوش ، ففرّ راجعاً إلى مراکش ، ثم نهض سنة خمس وخمسين وستائة إلى محاربة يغمراس وبنيه بأبي سليط ، فأوقع بهم واعتزم على اتباعه ، فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراس فرجع . ولما انتهى إلى المقرمدة هذه ، بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة من بعض أهلها أطمعته في ملكها ، فأغذّ السير إليها بجموعه ، ودخلها ولصبيحة دخوله وصل يغمراسن لشأنه ، فلما علم بمكان أبي يحيى من البلد سقط في يده ويش من غلابه ، ودارت بينهم حرب تكافؤا فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي يحيى ، وانقلب يغمراسن إلى بلده ، وعقد الأمير أبو يحيى على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن ، واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وداود بن يوسف ، وانكفأ راجعاً إلى فاس . والله تعالى أعلم .

الخبر عن مهلك أبي يحيى وما كان اثر ذلك من الاحداث التي تمحضت عن استبداد أخيه يعقوب بن عبد الحق بالأمر

لما رجع الأمير أبو يحيى من حرب يغمراسن بسجلماسة ، أقام أياماً بفاس . ثم نهض إلى سجلماسة متفقداً لثغورها ، فانقلب منها عليلاً . وهلك حتف أنفه على سرير ملكه في رجب سنة ست وخمسين وستائة أمضى ما كان عزمياً ، وأطول إلى تناول الملك يداً . اختطفته المنون عن شأنه ودفن بمقبرة باب الفتوح من فاس ، ضجيعاً للمولى أبي محمد الفشتالي كما عهد لأهل بيته . وتصدّى للقيام بأمره ابنه عمر واشتمل عليه عامة قومه . ومالت المشيخة وأهل الحل والعقد إلى عمّه يعقوب بن عبد الحق ، وكان غائباً عن مهلك أخيه بتازي ، فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر . وأحس عمر بصاغية الناس إليه ، وحرّضه أتباعه على الفتك بعمه (١) ، فاعتصم بالقصبة ، وسعى الناس في إصلاح ذات بينهما ، فتفادى يعقوب عن الأمر ، ودفعه لابن أخيه ، على أن تكون له بلاد تازي وبطوية وملوية ، ولما لحق

(١) وفي نسخة ثانية : به .

بتأزي واجتمع إليه كافة بني مرين ، عدلوه فيما كان منه فاستلأم ، وحملوه على العودة في الأمر ، ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والمؤازرة فأجاب ، وبايعوه وصمد إلى فاس ، وبرز عمر للقاءه فأنتهى إلى المسجدين ، ولما تراءى الجمعان خذ له جنوده وأسلموه ، فرجع إلى فاس مغلولاً ، ووجه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الأمر ، فأجابه إلى ذلك ، ودخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستائة وتمشت طاعته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وسجلماسة وقصر كتامة . واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتولاها أياماً ، ثم اغتاله من عشيره عمر وابراهيم ابنا عمه عثمان بن عبد الحق والعباس ابن عمه محمد بن عبد الحق فقتلوه وثأروا منه بدم كانوا يعتدونه عليه . وهلك لعام أو بعد عام من إمارته ، فكفى يعقوب شأنه واستقام سلطانه ، وذهب التنازع والمشاق عن أمره . وكان يغمراسن بعد مهلك قرنه الأمير أبي يحيى سماله أمل في الاجلاب على المغرب ، فجمع لذلك قومه واستجاش بني توجين ومغراوة وأظمعمهم في غيل الأسود ونهضوا إلى المغرب حتى انتهوا الى كلدامان وصمد السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى لقائهم فغلبهم ورجعوا الى تفيثته^(١) ، ومرّ يغمراسن ببلاد بطوية فأحرق وانتسف واستباح وأعظم فيها النكاية . ورجع السلطان إلى فاس وتقبل مذهب أخيه الأمير أبي يحيى في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره . وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي النصارى ، فكان له بها أثر جميل وذكر خالد ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن فجأة العدو مدينة سلا واستنقاذها
من أيديهم) *

كان يعقوب بن عبد الله^(٢) قد استعمله عمه الأمير أبو يحيى على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه . ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتغلب في جهاتها مراصداً لأهلها وحاميتها . ولما بويع عمه يعقوب بن عبد الحق اسقته بعض الأحوال ، فذهب

(١) وفي نسخة ثانية : ورجعوا على تعيبة .

(٢) وفي نسخة ثانية : بن عبد الحق .

مغاضباً حتى نزل غبولة ، وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدها ذريعة لما أسر في نفسه ، فتمت له الحيلة ، وركب عاملها ابن يعلو البحر فاراً إلى أزمور . وخلف أمواله وحرمه فتملك يعقوب بن عبدالله البلد وجاهر بالخلع ، وصرف إلى منازعة عمه السلطان أبي يوسف وجوه العزم ، وداخل تجار الحرب في الامداد بالسلاح . فتماروا في ذلك وكثر سفر المترددين بينهم ، حتى كثروا أهلها وأسملوا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند شغل الناس بعيدهم . وثاروا بسلا ، وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال ، وضبطوا البلد وامتنع يعقوب بن عبدالله برباط الفتح ، وطار الصريخ إلى السلطان أبي يوسف ، وكان بتازي مستشرفاً لأحوال يغمراسن ، فنادي في قومه ، وطار بأجنحة الخيول ووصلها ليوم وليلة ، وتلاحقت به أمداد المسلمين من أهل الديوان والمطوعة . ونازلها أربع عشرة ليلة ، ثم اقتحمها عليهم عنوة ، وأثنخ فيهم بالقتل . ثم رمّ بالبناء ما كان مثلاً بسورها الغربي حيث أمكنت منه الفرصة في البلد وتناول البناء فيه بيده والله لا يضيع عمل عامل .

وخشي يعقوب بن عبدالله بادرة السلطان ، فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه . ثم نهض إلى بلاد تامسنا وأنفى ، فملكها وضبطها ولحق يعقوب بن عبدالله بحصن علودان من جبال غمارة ، فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنزلته . وسار إلى لقاء يغمراسن لقاء المهادنة ، فلقبه بجو حرمان^(١) وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب ، ورجع السلطان إلى المغرب فخرج عليه أبناء أخيه أولاد إدريس . ولحقوا بقصر كتامة . شايعوا يعقوب ابن عمهم عبدالله على رأيه . واجتمعوا إلى أكبرهم محمد بن إدريس فيمن إليهم من العشير والصنائع ، فنهض إليهم واعتصموا بجبال غمارة ، ثم استترهم واسترضاهم وعقد لعامر ابن إدريس سنة ستين وستمائة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أوزيدون من المطوعة من بني مرين ، وأغزاهم إلى العدو لجهاد العدو وحملهم ، وفرض لهم . وشفع بها عمله في واقعة سلا وهو أول جيش أجاز من بني مرين ، فكان لهم في الجهاد والمرابطة مقامات محمودة وذكر خالد تقبل سلفهم فيها خلفهم من بعدهم حسبما نذكره . وأقام يعقوب بن عبدالله خارجاً بالنواحي مثقلاً في الجهات إلى أن قتله طلحة بن علي

(١) وفي نسخة ثانية : فلقبه بوادي حرمان .

بساقيه غبولة من ناحية سلا سنة ثمان وستين وستائة فكفى السلطان شأنه . وكان المرتضى مذ توالى عليهم الوقائع واستمر الظهور لبني مرين المنحجر في جدرانته وتواري بالأسوار عن عدوه ، فلم يسم إلى لقاء زحف ولا حدث نفسه بشهود حرب ، واستأسد بنو مرين على الدولة وشرهوا إلى التهام البقية ، وأسفوا إلى منازلة مراکش دار الخلافة ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن منازلة السلطان أبي يوسف حضرة مراکش دار
الخلافة وعنصر الدولة وما كان أثر ذلك من نزوع أبي دبوس
إليه وكيف نصبه للامر وكان مهلك المرتضى على يده
ثم انتقض عليه

لما فرغ السلطان من شأن الخوارج عليه من عشيره ، استجمع لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم ، ورأى أنه أوهن لدولتهم وأقوى لأمره عليهم . وبعث قومه واحتشد أهل ممالكه ، واستكمل تعبته وسار حتى انتهى إلى ايكليز^(١) واعترم على ذلك سنة ستين وستائة وشارف دار الخلافة . ثم نزل بقعرها وأخذ بمخنقتها . وعقد المرتضى لحربهم للسيد أبي العلاء إدريس المكنى بأبي دبوس ابن السيد أبي عبدالله ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن ، فعبى كتابه ورتب مصافه ، وبرز لمدافعهم ظاهر الحضرة ، فكانت بينهم حروب بعد العهد بمثلها ، استشهد فيها الأمير عبدالله بن يعقوب بن عبد الحق ، وكانوا يسمونه برطانتهم المعجوب^(٢) فقت مهلكه في عضدهم ، وارتحلوا عنها إلى أعمالهم ، واعترضهم عساكر الموحدين بوادي أم الربيع ، وعليهم يحيى بن عبدالله بن وانودين ، فاقتلوا في بطن الوادي وانهمزمت عساكر الموحدين . وكان في مسيل الوادي كدي تحسر عنها غمر الماء تبدو كأنها أرجل ، فسميت الواقعة بها أم الرجلين . ثم سعى سياسة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمه وقائد حربه السيد أبي دبوس بطلبه الأمر لنفسه ، وشعر بالسعاية فخشي

(١) وفي نسخة اخرى : ايكليز .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة اخرى : ايعجوب .

بادرة المرتضى ولحق بالسلطان أبي يوسف مدخله إلى فاس من منازلته آخر سنة
إحدى وستين وستمائة نازعاً إليه ، فأقام عنده ملياً . ثم سأل منه الإعانة على أمره
بعسكر يمدّه وآلة يتخذها لملكه ، ومال يصرفه في ضروراته على أن يشركه في القسمة
والفتح والسلطان ، فأمدّه بخمسة آلاف من بني مرين ، وبالكفاية من المال
والمستجد من الآلة وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته ومن سواهم أن يكونوا
يداً معه . وسار في الكتائب حتى شارف الحضرة ، ودس إلى أشياعه ومن يداخله من
الموحدّين في أمره ، فثاروا بالمرتضى وأخفضوه^(١) عنها ، فلحق بأزمور مستجيشاً
بصهره ابن عطوش . ودخل أبو دبوس الحضرة في المحرم فاتح خمس وستين وستمائة
وتقبض ابن عطوش عامل أزمور على المرتضى واقتاده أسيراً إلى أبي دبوس ، فبعث
مولاه مزاحماً فاحتر رأسه في طريقه ، واستقلّ بالخلافة صباه آل عبد المؤمن . ثم
بعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة ، فاستنكف ، وعثا ونقض العهد وأساء
الخطاب ، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب ، فخام عن اللقاء
وانحجز بمراكش . ونازله السلطان أياماً تباعاً ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزرع
وينسف الأقوات . وعجز أبو دبوس عن دفاعه ، فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان
ليفث في عضده ويشغله عما وراءه ، ويأخذ بحجزته عن التهامه على ما نذكر لو أمهلته
الأيام ، وانفسح له الأجل .

الخبر عن وقعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد
الحق ويغمراسن بن زيان باغراء أبي دبوس وتضريبه

لما نازل السلطان أبو يوسف حضرة مراكش وقعد على ترائبه للتوثب عليها ، لم يجد أبو
دبوس وليجة من دون قصده إلا استجاشته بيغمراسن وقومه عليه ، ليأخذوا بحجزته
عنه ، ويشغلوه من ورائه . فبعث إليه الصريخ في كشف بلواه ومدافعة عدوّه . وأكد
العهد وأسنى الهدية ، فشمّر يغمراسن لاستنقاذه وجذب عدوّه من ورائه ، وشنّ
الغارات على ثغور المغرب وأضرم ناراً فأهاج عليه وعلى قومه من السلطان يعقوب ليثاً
عادياً ، وأرهب منه عزماً ماضياً ، وأفرج يعقوب على مراكش بعزم النهوض إلى

(١) وفي نسخة ثانية : اجهضوه .

تلمسان ، ونزل بفاس ، فتلوم بها أياماً حتى أخذ أهبة الحرب ، وأكمل استعدادها ورحل فاتح ست وستين وستائة وسلك على كرسيف ، ثم على تافرطا ، وتراحف الفريقان بوادي تلاغ ، وعبى كل منهم كتابه ورتب مصافه ، وبرز النساء سافرات الوجوه على سبيل التحريض لحسن وسعد بن ويرغين^(١) ولما فاء الفىء ومال النهار ، وكثرت حشود المغرب وجموع بني عبد الواد ومن إليهم ، انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم . وهلك أبو حفص عمر كبير ولد يغمراسن وولي عهده في جماعة من عشيرة ، ذكرناهم في أخباره . وأخذ يغمراسن بأعقاب قومه ، فكان لهم رداءً إلى أن خلصوا من المعترك ووصلوا إلى بلادهم في جمادى من سنتهم ، وعاد السلطان أبو يوسف إلى مكانه من حصار مراکش والله أعلم .

الخبر عن السفارة والمهاداة التي وقعت بين السلطان يعقوب ابن عبد الحق وبين المستنصر الخليفة بتونس لن آل ابي حفص

كان الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص منذ دعا لنفسه بتونس سنة خمس وعشرين وستائة طموحاً إلى ملك مراکش مقر الدعوة ومنبعث الدولة وأصل الخلافة . وكان يؤمل لذلك زناتة ، وإلا فمادونه من خضد شوكة آل عبد المؤمن ، وتقليم أظافر بأسهم ، وردّهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه ، وتغلب على تلمسان سنة أربعين وستائة ودخل يغمراسن بن زيان في دعوته وصار فيئته له وتبعه على عدوه كما ذكرناه ، فوصل به جناحة للمدافعة . وناغاه بنو مرين في مراسلة ابن أبي حفص ومخاطبته ، والتخفيض عليه فيما يهمنه من شأن عدوه ، وحمل ما يفتحون من بلاد المغرب على البيعة له والطاعة مثل : فاس ومكناسة والقصر . وكان هو يلاطفهم بالتحف والهدايا ، ويربهم البر في الكتاب والخطاب والمعاملة والتكريم للوفد غير سبيل آل عبد المؤمن ، فكانوا يفتحون بذلك إلى مراسلته ، وإيفاد قرابته عليه . وولي ابنه المستنصر بعده سنة سبع وأربعين وستائة فتقبل مذاهب أبيه وأوفي عليه بالإيعاز إليهم بمنازلة مراکش ، وضمان الانفاق عليهم فيها ، فكان يبت لذلك أحمالاً

(١) وفي نسخة ثانية : على سبيل التحريض ، يحيين ويعدين ويرغين .

من المال والسلاح وأعداداً وافرة من الخيل بمراكبها للحملان ، ولم يزل ذلك دأب
معهم . ولما فعل أبو دُبُوس فعلته في نقض العهد واستجمع السلطان لمنازلته ، قدم بين
يدي عمله مراسلة الخليفة المستنصر يخبره الخبر ويتلطف له في استئصال المدد ، فأوفد
عليه ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق ، وأصحابه عبد الله بن كندوز لعبد الواد
كبير بني كمي ، وقريع يغمراسن الذي ثار يغمراسن من أبيه كندوز بأبيه زيان كما
ذكرناه في أخبارهم . وكان خلص إليه من حضرة المستنصر فلقاه مبرّة وتكريماً ،
وأوفد معهم الكاتب أبا عبد الله محمد الكناني من صنائع دولة آل عبد المؤمن ، كان
نزع إلى أخيه الأمير أبي يحيى لما رأى من اختلال الدولة ، وأنزله مكناسة وآثره
بالصحة والخلّة ، فجمع له يعقوب بن عبد الحق في هذا الوفد من الأشراف من
يحسن الرياسة ، ويعرب عما في ضمائر الناس ، ويدله على شرف مرسله . فوفدوا على
المستنصر سنة خمس وستين وستائة وأدّوا رسالتهم وحركوا له جوار المظاهرة على صاحب
مراكش وكبح عنانه ، فحنّ واهتر سروراً من أعوده ، ولقاهم مبرّة التكريم واحسان
التزل ، وردّ الأمير عامر بن إدريس وعبد الله بن كندوز لوقتها . وتمسك بالكناني من
بينهم لمصاحبة وفده ، فطال مقامه عنده إلى أن كان من فتح مراكش ما نذكره .
ثم أوفد المستنصر على السلطان يعقوب بن عبد الحق آخر سنة تسع وستين وستائة
بعدها شيخ الجماعة من الموحّدين لعهد أبي زكريا يحيى بن صالح الهتاني مع جماعة
من مشيخة الموحّدين في مرافقة محمد الكناني ، وبعث معهم إلى السلطان هدية سنّية
يلاطفه بها ويتأخفه ، انتخب فيها من الجياد والسلاح وأصناف الثياب الغريبة العمل
ما انتقاه . ووفق رضاه وهمته على الاستكثار منه ، فحسن موقعها وتحذّث وانقلب
وفده أحسن منقلب بعد أن تلطّف محمد الكناني في ذكر الخليفة المستنصر على منبر
مراكش ، فتم له ، وشهد له وفد الموحّدين فعظم سرورهم وانقلبوا محبورين
مسرورين ، واتصلت بعد ذلك مهاداة المستنصر ليعقوب بن عبد الحق إلى أن
هلك ، وحذا ابنه الواثق من بعده على سنه ، فبعث إليه سنة سبع وسبعين وستائة
هدية حافلة ، بعث بها القاضي أبا العباس الغماري قاضي بجاية فعظم موقعها ، وكان
لأبي العباس الغماري بالمغرب ذكر تحدّث به الناس والله أعلم .

* (الخبر عن فتح مراکش ومهلك أبي دبوس وانقراض دولة
الموحدين من المغرب) *

لما رجع السلطان أبو يوسف من حرب يغمراسن ورأى أن قد كفى عدوه وكف غربه
وردّ من كيده وكيد أبي دبوس صريخه ، صرف حينئذ عزائمهم إلى غزو مراکش ،
والعودة إلى مضايقتها كما كان لأول أمره ، ونهض لغزاته من فاس في شعبان من
سنته . ولما جاوزوا أمّ الربيع ، بثّ السرايا وسرّح الغارات ، وأطلق الأيدي والأعنة
للنهب والعيث ، فحطّموا زروعها وانتسفوا آثارها ، وتقرى نواحيها كذلك بقية عامة .
ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا ، فأثنخ فيهم واستباحهم . ثم نزل وادي
العبيد ، ثم غزا بلاد صنهاجة ، ولم يزل ينقل ركابه بأنحاء البلاد المراكشية وأحوازها
حتى حضرت صدور بني عبد المؤمن وقومه ، وأغزاهم أولياء الدولة من عرب جشم
بنهوض الخليفة لمدافة عدوه ، فجمع لذلك وبرز في جيوش ضخمة وجموع
وافرة ، واستجرّه أبو يوسف بالفرار أمامه ليعبد عن مدد الصريخ ، فيستمكن منه
حتى نزل عفو . ثم كرّ إليه والتحم القتال فاقتل مصافه وفرت عساكره . وانهمز يريد
مراكش فأدركوه دون أمه . واعتاقه أجله ، فطعن في مفرّه وخرّ صريعاً لليدين وللنم
واجتر رأسه . وهلك بمهلكه وزيره عمران وكاتبه عليّ بن عبد الله المغيلي . وارتحل
السلطان أبو يوسف إلى مراکش وفرّ من كان بها من الموحدين ، فلاحقوا بجبل
تينملل ، وبايعوا اسحق أخا المرتضى ، فبقي ذبالة هنالك سنين . ثم تقبّض عليه سنة
أربع وسبعين وستائة ، وسيق إلى السلطان هو وأبو سعيد ابن عمّه السيد أبي الربيع
والقبائلي وأولاده فقتلوا جميعاً . وانقرض أمر بني عبد المؤمن . والله وارث الأرض
ومن عليها .

وخرج الملاء وأهل الشورى من الحضرة إلى السلطان فأمنهم ووصلهم . ودخل
مراكش في بروز فخم فاتح سنة ثمان وستين وستائة وورث ملك آل عبد المؤمن
وتولاه . واستوسق أمره بالمغرب ، وتطامن الناس لبأسه ، وسكنوا الظلّ سلطانه . وأقام
بمراكش إلى رمضان من سنته ، وأغزى ابنه الأمير أبا مالك إلى بلاد السوس
فافتتحها وأوغل في ديارها ودوّخ أقطارها ، ثم خرج بنفسه إلى بلاد درعة فأوقع بهم

الوقية المشهورة التي خضدت من شوكتهم ، ورجع لشهرين من غزاته ، ثم أجمع الرحلة إلى داره بفاس فعقد على مراکش وأعمالها لمحمد بن علي بن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خولته ، وكان من طبقة الوزراء حسبما يأتي التعريف به وبعشيرته ، وأنزله بقصبة مراکش ، وجعل المسالح في أعمالها لنظره ، وعهد إليه بتدويخ الأقطار ومحو آثار بني عبد المؤمن ، وفصل إلى حضرته في شوال وأراح بسلا ، فكان من خبر عهده لابنه ما نذكره ان شاء الله تعالى .

الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك وما كان عقب ذلك
من

خروج القرابة عليه أولاد أخيه إدريس واجازتهم الى الاندلس

لما تلوم السلطان بسلا منصرفه من رباط الفتح وأراح بها ركائبه عرض له طائف من المرض ووعك وعاكاً شديداً . فلما أبل جمع قومه وعهد لابنه فيهم أبي مالك عبد الواحد كبير ولده ، لما علم من أهليته لذلك . وأخذ له البيعة عليهم ، فأعطوها طواعية ، وأسف القرابة من ولد أخويه عبدالله وإدريس لأُمَّها سوط النساء ، ووجدوا في أنفسهم لما يرون أن عبدالله وإدريس أكابر ولد عبد الحق ، ولها التقدم على من بعدهما من ولده ، وأنها أحق بالأمر ، فرجعت هنت إلى أذناها^(١) ، ونفسوا عن ابن السلطان لما أخذ له من البيعة والعهد . ونزعوا عنه إلى جبل علودان من جبال غمارة عشّ خلفهم . ومدرج فنتهم ، وذلك سنة تسع وستين وستائة ورياستهم يومئذ لمحمد بن إدريس وموسى بن رحو بن عبدالله ، وخرج معهم ولد أبي عياد بن عبد الحق وأغزاهم السلطان ولده أبا يعقوب يوسف في خمسة آلاف من عسكره ، فأحاط بهم وأخذ بمخنقهم ، ولحق به أخوه أبو مالك في عسكره ، ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان . ثم خرج في أثرهم السلطان أبو يوسف واجتمع معسكرهم بتافركا ونازلوهم ثلاثاً . وهلك في حروبهم مندبيل بن ورتظلم . ولما رأوا أن أحيط بهم سألوا الأمان ، فبذله وأنزلهم . واستل سخائهم ومسح ما في صدورهم ، ووصل بهم إلى

(١) وفي نسخة ثانية : فعادت هيف الى أديانها .

حضرتة . وسألوا منه الاذن في اللحاق بتلمسان حياءً من كبر ما ارتكبهوه ، فأذن لهم ، وأجازوا البحر إلى الأندلس ، وخالفهم عامر بن إدريس لما أنس من صاغية السلطان إليه ، فتخلف عنهم بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد الى قومه بعد منازلة السلطان بتلمسان كما نذكره الآن .

واحتلّ بنو إدريس وعبدالله وابن عمهم أبو عياد باندلس على حين أقفر من الحامية جوها ، واستأسد العدو على ثغرها . وغلبت شفاهم فاحتلّوها أسوداً ضارية ، وسيوفاً ماضية ، معوّدين لقاء الأبطال وقراع الحتوف والنزال . مستغلّطين بخشونة البداوة وصرامة الغز ورسالة التوحّش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا شجى في صدره دون الوطن الذي كان طعمه له في ظنّه ، وارتدّوه على عقبه ، ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم . وزاحموا أمير الأندلس في رياستها بمنكب ، فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدو من أعياصهم وقبائلهم ومن سواهم من أم البرابرة ، وتناقلوه وساهموا في الجباية لفرط العطاء والديوان ، فبذله لهم واستمدّوا على العدو^(١) وحسن أثرهم فيها كما نذكره بعد في أخبار القراية . ثم أعمل السلطان نظره في غزو تلمسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف الى تلمسان وواقعيته على يغمراسن وقومه بايسيلي

لما غلب السلطان أبو يوسف على بني عبد المؤمن وفتح مراکش واستولى على ملكهم سنة ثمان وستين وستمائة وعاد إلى فاس كما ذكرناه ، تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد ، وما أسفوا به من تخذيل عزائمهم ومحادثته^(٢) عن قصده . ورأى أن واقعة تلاغ لم تشف صدره ، ولا أطفأت نار موجدته ، فأجمع أمره على غزوهم . واقتدر بما صار إليه من الملك والسلطان على حشد أهل المغرب لحربهم وقطع دابرتهم ، فعسكر بفاس ، وسرح ولده ووّلي عهده أبا مالك إلى مراکش في

(١) وفي نسخة ثانية : واستمروا على ذلك لهذا العهد .

(٢) وفي نسخة اخرى : مجاذبته .

خواصه ووزرائه حاشدين في مدائنها وضواحيها وقبائل العرب والمصامدة وبني ورا
وغمرة وصنهاجة ، وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة ، وحامية الأمصار من جند الروم
وناشبة الغزو فاستكثر من أعدادهم واستوفى حشدهم . واحتفل السلطان بحركته
وارتحل عن فاس سنة سبعين وستائة وتلوم بملوية إلى أن لحقته الحشود وتوافت إليه
أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سُفْيَان والخُلُط والعاصم ، وبنو
جابر ومن معهم من الأثبج ، وقبائل ذوي حسان والشبانان من المعقل أهل السوس
الأقصى ، وقبائل رياح أهل أزغار والهبط . فاعترض هنالك عساكر وعبي
مواكبه ، فيقال بلغت ثلاثين ألفاً . وارتحل يريد تلمسان ، ولما انتهى إلى أنكاد^(١)
واقفه رسل ابن الأحمر هنالك ووفد المسلمين بالأندلس صريخاً على العدو يستجيشون
باخوانهم المسلمين ويسألونهم الإعانة ، فتحرّكت همته للجهاد ونصر المسلمين من
عدوهم . ونظر في صرف الشواغل عن ذلك ، وجنح إلى السلم مع يغمراسن ،
وصوّب الملاء في ذلك رأيه لما كانوا عليه من إيثار الجهاد . وانتدب جماعة من المشيخة
إلى السعى في صلاح ذات بينهما ، وانكفاً من غرب عدوتها .

وساروا إلى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهفته واستعدّ للقاء . واحتشد
زناة أهل ممالكة بالشرق من بني عبد الواد وبني راشد ومغراوة وأحلافهم من العرب
زغبة . فلجّ في ذلك واستكبر وصم عن إسعافهم . وزحف في جموعه ، والتقى
الجمعان بوادي ايسيلي من بسائط وجدة ، والسلطان أبو يوسف قد عبى كتابه ،
ورتب مصافه وجعل ولديه الأميرين أبا مالك وأبا يعقوب في الجناحين ، وسار في
القلب ، فدارت بينهم حرب شديدة أنجحت عن هلاك فارس بن يغمراسن ، وجماعة
من بني عبد الواد . وكاثرهم حشود المغرب الأقصى وقبائله ، وعساكر الموحدين
والبلاذ المراكشية ، فولوا الأدبار . وهلك عامّة عسكر الروم لثباتهم بثبات السلطان
فطحنهم رحى الحرب . وتقبّض على قائدهم بيرنيس . ونجا يغمراسن بن زيان في فله
مدافعاً دون أهله إلى تلمسان . ومرّ بفساطيطه ، فأضرّمها ناراً ، وانتهب معسكره ،
واستبيحت حرمة . وأقام السلطان أبو يوسف على وجدة حتى خرّبها وأصرع بالتراب

(١) أنكاد : مدينة قرب تلمسان من بلاد البربر من أرض المغرب ، كانت لعليّ بن أحمد قديماً ، ذات سور
من تراب في غاية الارتفاع والعرض ، وواديها يشقها نصفين ، منها إلى تاهرت بالعرض مشرقاً ثلاث
مراحل (معجم البلدان) .

أسوارها ، وألصق بالرغام جدرانها . ثم نهض إلى تلمسان فحاصرها أياماً وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث ، وشن الغارات على البسائط ، فاكسحها سبياً ونسفها نسفاً .

وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي ، وكان من عليه وزرائه وحماة ميدانه له في ذلك أخبار مذكورة . وكان مهلكه في شوال من هذه السنة . ووصله بمثواه من حصارها محمد بن عبد القوي أمير بني توجين ، ومستصرخه علي بن عبد الواد لما نال منه يغمراسن من طبخ القهر وذل الغلب والتحفيف في كافة قبيلة مباحياً بآلته ، فأكرم السلطان أبو يوسف وفادته واستركب الناس للقاءه وبرور مقدمه . واتخاذ رتبة السلاح لمباهاته ، وأقام محاصراً لتلمسان معه أياماً حتى وقع اليأس وامتنع البلد ، واشتد شوكة حاميته ثم أجمع السلطان أبو يوسف على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي وقومه بالقفول قبل قفوله ، وان يغذوا السير إلى بلادهم . وملاء حقائبهم باتحافه وجنب لهم من المائة من المقربات بمراكبها ، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب . وعمهم بالخلع مع الصلات والخلع الفاخرة . واستكثر لهم من السلاح والغازات والفساطيط ، وحملهم على الظهر ، وارتحلوا وتلوم السلطان أياماً لمنجاتهم إلى مقرهم من جبل وانشريس حذراً من غائلة يغمراسن من انتهاز الفرصة فيهم . ثم دخل إلى فاس ودخلها مفتتح إحدى وسبعين وستائة وهلك ولده الأمير أبو مالك وليّ عهده لأيام من مقدمه ، فأسف لمهلكه . ثم تغزى بالصبر الحميل عن فقده ، ورجع إلى حاله في افتتاح بلاد المغرب . وكان في غزوته هذه ملك حصن تاونت ، وهو معقل مطغرة ، وشحنه بالأقوات لما رآه ثغراً مجاوراً لعدوه . وأسلمه لنظر هرون ابن شيخ مطغرة . ثم ملك حصن مليلة بساحل الريف مرجعه من غزاته هذه . وأقام هرون بحصن تاونت ، ودعا لنفسه . ولم يزل يغمراسن يردّد الغزو إليه حتى فر من الحصن واستلمه سنة خمس وسبعين وستائة ولحق بالسلطان أبي يوسف كما ذكرناه في أخباره ، عند ذكر قبيلة مطغرة وكان من شأنه ما ذكرناه .

الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة اهل سبتة

وفرض الاتاوة عليهم وما قارن ذلك من الاحداث

كانت هاتان المدينتان سبتة وطنجة من أول دولة الموحدين من أعظم عمالاتهم وأكبر

ممالكهم بما كانت ثغر العدو ومرفاً الأساطيل ، وداراً لإنشاء الآلات التجرية (١) ،
وفرضة الجواز إلى الجهاد . فكانت ولايتها مختصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن .
وقد ذكرنا أن الرشيد كان عقد علي أعمالها لأبي علي بن خلاص من أهل بلنسية ،
وأنه بعد استفحال الأمير أبي زكريا بأفريقية ومهلك الرشيد ، صرف الدعوة إليه سنة
أربعين وستائة وبعث إليه بالمال والبيعة مع ابنه أبي القاسم . وولى علي طنجة يوسف
ابن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني المعروف بابن الأمير قائداً على الرجل
الأندلسيين ، وضابطاً للقصة . وعقد الأمير أبو زكريا على سبته لأبي يحيى بن أبي
زكريا ، ابن عمه أبي يحيى الشهيد ابن الشيخ أبي حفص فترل بها واستراب أبو علي
ابن خلاص من العواقب عند مهلك ابنه الوافد على السلطان غريقاً في البحر ، فرحل
بجملته إلى تونس في السفن ، وأراح ببجاية ، فكان فيها هلاكه سنة ست وأربعين
وستائة ويقال هلك في سفينته ودفن ببجاية ، ولما هلك الأمير أبو زكريا سنة سبع
وأربعين وستائة بعدها انتقض أهل سبته على ابنه المستنصر وطردهوا ابن الشهيد ،
وقتلوا العمال الذين كانوا معه ، وصرفوا الدعوة للمرتضى . وتولى ذلك حجفون (٢)
الزنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي كبير المشيخة بسبته ، وأعظمهم تجلة ، نشأ في
حجر أبيه الفقيه الصالح أبي العباس أحمد مكنوفاً بالجلالة مغدواً بالعلم والدين ، لما
كان له فيها قدم إلى أن هلك ، فأوجب أهل البلد لابنه ما عرفوه من حقه وحق أبيه
من قبله ، وكانوا يفرعون إليه في المهمات ويسلمون له في الشورى ، فأغرى الزنداحي
بهذه الفعلة ففعلها وعقد المرتضى لأبي القاسم العزفي على سبته مستقلاً من غير
إشراف أحد من السادة ، ولا من الموحدنين . واكتفى بغنائه في ذلك الثغر وعقد
لحجفون الزنداحي على قيادة الأساطيل بالمغرب ، فورثها عنه بنوه إلى أن زاحمهم
العزفي بمناكب رياسته ، فقوضوا عن سبته فمنهم من نزل بمالقة على ابن الأحمر ومنهم
من نزل ببجاية على أبي حفص ، ولهم في الدولتين آثار تشهد برياستهم . واستقل
الفقيه أبو القاسم العزفي برياسة سبته ، وأورثها بنيه من بعده على ما ذكره بعد .
وكانت طنجة تالية سبته في سائر الأحوال وتبعاً لها ، فاتبع ابن الأمير صاحبها إمارة

(١) وفي نسخة ثانية : البحرية .

(٢) وفي نسخة أخرى : حجفون الزنداحي وفي نسخة ثانية : حجفون الزنداحي .

الفقيه أبي القاسم . ثم انتقض عليه لسنة واستبدَّ وخطب لابن أبي حفص ، ثم للعباسي ، ثم لنفسه ، وسلك فيها مسلك العزفي في سبته ، ولبثوا كذلك ما شاء الله ، حتى اذا ملك بنو مرين المغرب وانبثوا في شعابه ، ومدّوا اليد في ممالكه فتناولوها ، ونزلوا معاقله وحصونه فافتحوها ، وهلك الأمير أبو يحيى عبد الحق وابنه عمر من بعده . وتخيّر بنوه في ذويهم وأتباعهم وحشمهم إلى ناحية طنجة وأصيلا ، فأوطنوا ضاحيتها وأفسدوا سابقتها وضيقوا على ساكنها ، واكتسحوا ما حوالها ، وشارطهم ابن الأمير على خراج معلوم على أن يكفوا الأذى ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة . فاتصلت يده بيدهم ، وتردّدوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم . ثم مكروا وأضمروا الغدر ودخلوا في بعض أيامهم متأبطين السلاح ، وفتكوا بابن الأمير غيلة ، فثارت بهم العامة حينهم واستلحموا في مصرع واحد سنة خمس وستين وستائة واجتمعوا إلى ولده وبقيت في ملكته خمسة أشهر . ثم استولى عليها العزفي فهض إليها بعساكره من الرجل برّاً وبحراً ، واستولى عليها ، وفرّ ابن الأمير ولحق بتونس ونزل على المستنصر واستقرت طنجة في إيالة العزفي فضبطها وقام بأمرها ، وولّى عليها من قبله . وأشرك الملاء من أشرافها في الشورى . ونازلها الأمير أبو مالك سنة ست وستين وستائة فامتنعت عليه وأقامت على ذلك ستاً ، حتى اذا انتظم السلطان أبو يوسف ببلاد المغرب في ملكته ، واستولى على حضرة مراکش ومحا دولة بني عبد المؤمن ، وفرغ من أمر عدوه يغمراسن ، وهم بتلك الناحية واستضافة عملها ، فأجمع الحركة إليها ونازل طنجة مفتح سنة إثنين وسبعين بما كانت في البسيط من دون سبته ، وأقام عليها أياماً . ثم اعترم على الإفراج عنها ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، وافترق بينهم . وتنادى في بعض الناشية من السور بشعاب بني مرين ، فبادر سرعان أناس إلى تسوّر حيطانها فملكوها عليهم ، وقتلوا أهل البلد ظلام ليلتهم ، ثم دخلوا البلد من صبيحتها عنوة ، ونادى منادي السلطان في الناس بالأمان والعفو عن أهل البلد ، فسكن روعهم ومهد وفرغ من شأن طنجة . ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب في عساكر ضخمة لمنازلة العزفي في سبته وارغامه على الطاعة ، فنازلها أياماً ، ثم لاذ بالطاعة على المنعة . واشترط على نفسه خراجاً يؤديه كل سنة ، فتقبل السلطان منه ، وأفرجت عساكره عنهم ، وقفل إلى حضرته . وصرف نظره إلى فتح سجلماسة وإزعاج بني عبد الواد المتغلبين عليها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها عنوة على بني عبد الواد والمنبات من عرب المعقل

قد ذكرنا ما كان من تغلب الأمير أبي يحيى بن عبد الحق على سجلماسة وبلاد
درعة ، وأنه عقد عليها وعلى سائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن ، وأنزل معه ابنه
مفتاحا المكنى بأبي حديد في مشيخته لحياطتها . وأن المرتضى سرح وزيره ابن
عطوش سنة أربع وخمسين وستائة في العساكر لارتجاعها ، فنهض الأمير أبو يحيى
إليه وشرده عنها ورجعه على عقبه . وأن يغمراسن بن زيان من بعد واقعة أبي سليط
سنة خمس وخمسين وستائة ، قصد لها لعورة دلّ عليها ، وغرة أمل إصابتها ، فسابقه
إليها الأمير أبو يحيى ومالقه من دونها ورجع عنها خائب المسعى مفلول الحامية . وكان
الأمير أبو يحيى من بعد أن عقد عليها ليوسف بن يزكاسن عقد عليها من بعده لسنة
ونصف من ولايته ليحيى بن أبي مندبل كبير بني عسكرياً قتالهم ، ومقاسمهم نسب
محمد بن وطيس^(١) ثم عقد عليها لشهرين لمحمد بن عمران ابن عبلة من بني يرنيان
صنائع دولتهم . واستعمل معه على الجباية أبا طالب الحبشي^(٢) وجعل مسلحة الجند
بها لنظر أبي يحيى القطراني ، وملكه قيادتهم . وأقاموا على ذلك سنتين إثنين .
ولما هلك الأمير أبو يحيى وشغل السلطان أبو يوسف بحرب يغمراسن ومنازلة
مراكش ، سما للقطراني أمل في الاستبداد بها ، وداخل في ذلك بعض أهل الفتن
وظاهره يوسف بن الغزي^(٣) وفتكوا بعمار الورد غزاني شيخ الجماعة بالبلد . واثمروا
بمحمد بن عمران بن عبلة ، فخرج ولحق بالسلطان ، واستبد القطراني بها . ثم ثار
به أهل البلد سنة ثمان وخمسين وستائة لسنة ونصف من لدن استبداده وقتلوه .
وصرفوا بيعتهم إلى الخليفة المرتضى بمراكش . وتولى كبر ذلك القاضي ابن حجّاج
وعلي بن عمر ، فعقد له المرتضى عليها وأقام بها أميراً . ونازلتهم عساكر بني مرين
والسلطان أبو يوسف سنة ستين وستائة ونصب عليها آلات الحصار فأحرقوها وامتنعوا ،

(١) وفي نسخة ثانية : ورصيص .

(٢) وفي نسخة ثانية : أبا طالب بن الحبشي .

(٣) وفي نسخة أخرى : يوسف بن فرج الغزي .

وأفرج عنهم . وأقام عليّ بن عمر في سلطانه ذلك ثلاث سنين ، ثم هلك . وكان الأمير يغمراسن بن زيان منذ غلب الموحدون على تلمسان والمغرب الأوسط ، وصار في ملكته ، تحيّر إليه من عرب المعقل قبيل المنبات من ذوي منصور ، بها كانت بمحالات المعقل مجاورة لمحالات بني يادين في القفر . وإنما ارتحلوا عنها من بعد ما جأجأ يغمراسن من بني عامر بمجالاتهم من مصاب ببلاد بني يزيد ، فزاحموا المعقل بالمناكب عن مجالاتهم ببلاد فيكيك وصا . ورحلوه إلى ملوية وما وراءها من بلاد سجلماسة ، فلكوا تلك المحالات .

ونبذ يغمراسن العهد إلى ذوي عبيد الله منهم واستخلص المنبات هؤلاء ، فكانوا له حلفاء وشيعة ولقومه ودعوته خالصة . وكانت سجلماسة في مجالاتهم منقلب ظعنهم وناجعتهم ، ولهم فيها طاعة معروفة . فلما هلك عليّ بن عمر آثروا يغمراسن بملكها ، فحملوا أهل البلد على القيام بطاعته ، وخاطبوه وجأجؤا به ، فغشها بعساكره وملكها وضبطها . وعقد عليها لعبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد بن زكرازي بن يندوكس^(١) ويعرف بابن حنينة نسبة إلى أم أبيه أخت يغمراسن ومعه يغمراسن بن حمارة . وأنزل معها ولده الأمير يحيى لإقامة الرسم الملوكي . ثم أداله بأخيه من السنة الأخرى ، وكذا كان شأنه في كل سنة . ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته ، وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم ، ومحا رسمهم ، وافتتح طنجة وطوع سبتة مرفأ الجواز إلى العدو ، وثغر المغرب ، سما أمله إلى بلاد القبلة فوجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وأداله دعوته فيها من دعوتهم ، فنهض إليها في العساكر والحشود في رجب من سنة إثنين وسبعين وستمائة فنازلها وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع ، من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ، ونصب عليها آلات الحصار من المغانيق والعرادات ، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة تردّ الأفعال إلى قدرة باريها . فأقام عليها حولاً كريماً يغاديهما القتال ويراوحها ، إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليها ، فبادروا إلى اقتحام البلد ، فدخلوها عنوة من

(١) وفي نسخة أخرى : زكدان بن تيدوكس .

تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين وستمائة فقتلوا المقاتلة والحامية وسبوا الذرية^(١) ، وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حماسة ، ومن كان معهم من بني عبد الواد وأمراء المنبات ، وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان أبي يوسف ، وتمشت طاعته في أقطاره . فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته ، ولا جماعة تتحيز إلى غير فيثته ولا أمل ينصرف إلى سواه ، ولما كملت له نعم الله في استيساق ملكه وتمهيد أمره ، انصرف أمله إلى الغزو وإيثار طاعة الله بجهاد أعدائه ، واستنقاذ المستضعفين من وراء البحر من عباده على ما نذكره إن شاء الله تعالى . ولما انكفاً راجعاً من سجلماسة ، قصد مراکش من حيث جاء ، ثم وقف إلى سلا فأراح بها أياماً ونظر في شؤونها ، وسدّ ثغورها . وبلغه الخبر بوفادة أبي طالب صاحب سبته الفقيه أبي القاسم العزفي على فاس ، فأغذّ السير إلى حضرته ، وأكرم وفادته وأحسن منقلبه إلى أبيه مملوء الحقائق بيرة ، رطب اللسان بشكره . ثم شرع في إجازة ولده كما نذكره الآن إن شاء الله تعالى .

الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف على النصارى وقتل زعيمهم ذننة وما قارن ذلك

كانت عدوة الأندلس منذ أول الفتح ثغراً للمسلمين ، فيه جهادهم ورباطهم ومدارج شهادتهم وسبيل سعادتهم . وكانت مواطنهم فيه على مثل الرضف ، وبين الظفر والنباب من اسود الكفر لتوفر أمهم جوارها^(٢) وإحاطتهم بها من جميع جهاتها ، وحجز البحر بينهم وبين إخوانهم المسلمين وقد كان عمر بن عبد العزيز رأى أن يخرج المسلمين منها لانقطاعهم عن قومهم وأهل دينهم ، وبعدهم عن الصريخ . وشاور في ذلك كبار التابعين وأشرف العرب فأروه رأياً . واعتزم عليه لولا ما عاقه من المنية وعلى ذلك ، فكان للإسلام فيه اعتزاز على من جاورهم من أهل الكفر ، بطول دولة العرب من قريش ومضر واليمن . وكانت نهاية عزهم وسورة غلبهم أيام بني أمية

(١) وفي نسخة ثانية : سبوا الرعية .

(٢) وفي نسخة ثانية : لتوفر أمهم في جوارها .

بها ، الطائفة الذكر الباسطة جناحها على العدوتين منذ ثلاث مئات من السنين أو ما يقاربها .

حتى انتثر سلكها بعد المائة الرابعة من الهجرة ، وافترقت الجماعة طوائف وفشلت ریح المسلمين وراء البحر بفناء دولة العرب . واعتز البربر بالمغرب واستفحل شأنهم وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان مفترقاً بالمغرب من كلمة الإسلام . وتمسكوا بالسنة وتشوقوا إلى الجهاد ، واستدعاهم إخوانهم من وراء البحر للمدافعة عنهم ، فأجازوا إليهم وأبلوا في جهاد العدو أحسن البلاء ، وأوقعوا بالطاغية ابن أدفوش يوم الزلافة وغيرها . وفتحوا حصوناً واسترجعوا أخرى واستزلوا الثوار ملوك الطوائف ، وجمعوا الكلمة بالعدوتين . وجاء على أثرهم الموحدون سالكين أحسن مذاهيبهم ، فكان لهم في الجهاد آثار على الطاغية أيام ، منها يوم الأرك ليعقوب بن المنصور وغيره من الأيام ، حتى إذا فشلت ریح الموحدين وافترقت كلمتهم وتنازع الأمر سادة بني عبد المؤمن الأمراء بالأندلس ، وتحاربوا على الخلافة واستجاشوا بالطاغية وأمكنوه من كثير من حصون المسلمين طعمة على الاستظهار ، فخشي أهل الأندلس على أنفسهم وثاروا بالموحدين وأخرجوهم وتولى ذلك ابن هود بمرسية وشرق الأندلس ، وعم بدعوته سائر أقطارها ، وأقام الدعوة فيها للعباسيين ، وخاطبهم ببغداد كما ذكرناه في أخبارهم . واستوفينا كلاهما وضعناه في مكانه . ثم انحجز ابن هود على الغربية^(١) لبعدها عنه ، وفقده للعصابة المتناولة لها ، وأنه لم تكن صنعته في الملك مستحكمة وتكالب الطاغية على الأندلس من كل جهة ، وكثر اختلاف المسلمين بينهم . وشغل بنو عبد المؤمن بما دهمهم من المغرب من شأن بني مرين وزناتة . فتلافى محمد بن يوسف بن الأحمر أمر الغربية ، وثار بحصنه أرجونة وكان شجاعاً قدماً ثبتاً في الحروب ، فتلقف الكرة من يد ابن هود خلع الدعوة العباسية ، ودعا للأمير أبي زكريا بن أبي حفص سنة تسع وعشرين وستائة فلم يزل في فتنة ابن هود يجاذبه الحبل ويقارعه على عمالات الأندلس واحدة بعد أخرى إلى أن هلك ابن هود سنة خمس وثلاثين وستائة .

وتكالب العدو خلال ذلك على جزيرة الأندلس من كل جانب ووفر له ابن هود

(١) وفي نسخة ثانية : ثم عجز ابن هود عن الغربية .

الجزية وبلغ بها أربعمئة ألف من الدنانير في كل سنة . ونزل له على اثنتين (٢) من حصون المسلمين . وخشي ابن الأحمر أن يستغلظ عليه بالطاغية فجنح هو إليه وتمسك بعروته ، ونفر في جملته إلى منازل أشبيلية نكاية لأهلها . ولما هلك الأمير أبو زكريا نبذ الدعوة الحفصية ، واستبد لنفسه ، وتسمى بأمير المسلمين ، ونازعه بالشرق أعقاب ابن هود وبني مردنيش ، ودعاه الأمر إلى التزول للطاغية من بلاد الفرنتيرة ، فترل عليها بأسرها . وكانت هذه المدة من سنة إثنين وعشرين إلى سنة سبعين ، فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين واستبيح حياهم ، والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحروب ، ووضعوا ومداراة في السلم . واستولى طواغيت الكفر على أمصارها وقواعدها فملك ابن أدفوش قرطبة سنة ست وثلاثين ، وجيان سنة أربع وأربعين ، وأشبيلية سنة ست وأربعين .

وتملك قط برشلونة مدينة بلنسية سنة سبع وثلاثين إلى ما بينها من الحصون والمعقل التي لا تعد ولا تحصى ، وانقرض أمر الثوار بالشرق وتفرد ابن الأحمر بغرب الأندلس ، وضاق نطاقه على الممانعة دون البسائط الفصح من الفرنتيرة وما قاربها ، ورأى أن التمسك بها مع قلة العدد وضعف الشوكة مما يوهن أمره ويطمع فيه عدوه ، فعقد السلم مع الطاغية على التزول عنها أجمع . ولحقا بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوعاره من عدوهم . واختار لتزله مدينة غرناطة ، وابتنى بها لسكانه حصن الحمراء حسبما شرحنا ذلك كله في مواضعه . وفي أثناء هذا كله لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر والملا من أهل الأندلس يقدون على أمير المسلمين أبي يوسف للإعانة ونصر الملة ، واستنقاذ الحرم والولدان من أنياب العدو فلا يجد مفرعا إلى ذلك بما كان فيه من مجاذبة الجبل مع الموحدين ، ثم مع يغمراسن . ثم شغله بفتح بلاد المغرب وتدويخ أقطاره إلى أن هلك السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن الأحمر المعروف بالشيخ ، وأبي دبوس ، لقبين كانا له على حين استكمال أمير المسلمين فتح المغرب وفراغه من شأن عدوه سنة إحدى وسبعين وستمئة على أن بني مرين كانوا يؤثرون الجهاد ويسمون إليه وفي نفوسهم جنوح إليه وصاغية .

ولما استوحش بنو إدريس بن عبد الحق وخرجوا سنة إحدى وستين وستمئة على

(١) وفي نسخة ثانية : ثلاثين .

السلطان يعقوب بن عبد الحق واسترضاهم واستصلحهم انتدب الكثير منهم للغزو وإجازة البحر لصريح المسلمين بالأندلس ، واجتمع إليهم من مطوعة بني مرين عسكر ضخيم من الغزاة ثلاثة آلاف أو يزيدون وعقد السلطان على ذلك العسكر لعامر بن إدريس فوصلوا إلى الأندلس فكان لهم فيها ذكر ونكاية في العدو ، وكان الشيخ ابن الأحمر عهد إلى ولده القائم بالأمر بعده محمد ، الشهير بالفقيه ، لانتحاله طلب العلم أيام أبيه . وأوصاه أن يتمسك بعروة أمير المسلمين ويخطب نصره ، ويدرأ به ويقدمه عن نفسه وعن المسلمين تكالب الطاغية . فبادر لذلك حين مواراة أبيه وأوفد مشيخة الأندلس كافة عليه ، ولقيه وفدهم منصرفاً من فتح سجلماسة خاتم الفتوح بالثغور المغربية وملاذ الغز ومقاد الملك . وتبادروا للإسلام^(١) وألقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين ، وثقل وطأته ، فحياً وفدهم ورؤوساءهم ، وبادر لإجابة داعي الله واستئثار الجنة . وكان أمير المسلمين منذ أول أمره مؤثراً أعمال الجهاد كلفاً به مختاراً له حتى أعطي الخيار سائر آماله ، حتى لقد كان اعترم على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي يحيى وطلب إذنه في ذلك عندما ملكوا مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستمائة فلم يأذن له وفصل إلى الغزو في حشمه وذويه ومن أطاعه من عشيرته . وأوعز الأمير أبو يحيى لصاحب الأمر بسبته لذلك العهد أبي علي بن خلاص بأن يمنعه الإجازة ، ويقطع عنه أسبابها . ولما انتهى إلى قصر الجواز ، ثنى عزمه عن ذلك الولي يعقوب بن هرون الخبري ، ووعده بالجهاد أميراً مستنفراً للمسلمين ظاهراً على العدو ، فكان في نفسه من ذلك شغل وإليه صاغية .

فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزائمهم وذكروا همته ، فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير . ونهض من فاس شهر شوال من سنة ثلاث وسبعين وستمائة إلى فرضة المجاز من طنجة . وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عليهم واستوفى أعطياتهم وعقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية . واستدعى من الغد صاحب سبته في السفن لأجازتهم فوافاه بقصر الجواز عشرون من الأساطيل ، فأجاز العسكر ونزل بطريف ، وأراح ثلاثاً ، ودخل دار الحرب وتوغل فيها ، وأجلب على ثغورها وبساطها . وامتلات أيديهم من المغانم وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار ، حتى نزل

(١) وفي نسخة أخرى : وتنادوا للإسلام بالنار .

بساحة شريس ، فخام حاميتها عن اللقاء وانحجروا في البلد ، وقفل عنها إلى الجزيرة وقد امتلأت أيديهم من الأموال وحقائبهم من السبي وركائبهم من الكراع والسلاح . ورأى أهل الأندلس قد ثاروا بعام العقاب حتى جاءت بعدها الطاعة الكبرى على أهل الكفر ، واتصل الخبر بأمير المسلمين فاعترم على الغزو بنفسه ، وخشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن في الفتنة ، فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والمواذعة . ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكرم موصله وموصل قومه . وبادر إلى الإجابة والألفة ، وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان لعقد السلم . وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة الإسلام ، وعظم موقع هذا السلم من أمير المسلمين لما كان في نفسه من الصاغية إلى الجهاد ، وإيثاره مبرورات الأعمال . وبث الصدقات يشكر الله على ما منحه من التفرغ لذلك . ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع ، ودعا المسلمين إلى الجهاد . وخاطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البرابرة وأهل المغرب من المرتزقة والمطوعة . وأهاب بهم وشرع في إجازة البحر ، فأجازته من فرضة طنجة لصفر من سنة أربع وسبعين وستائة واحتل بساحة طريف . وكان لما استصرخه السلطان ابن الأحمر وأوفد عليه مشايخ الأندلس اشترط عليه النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره ، فتجافى له عن رندة وطريف . ولما احتل بطنجة بادر إليه ابن هشام الثائر بالجزيرة الخضراء ، وأجاز البحر إليه . ولقيه بظاهر طنجة فأدى له طاعته وأمكنه من قياد بلده . وكان الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو اسحق صهر السلطان ابن الأحمر تبعاً له في أمره ومؤازراً له على شأنه كله . وأبوهما أبو الحسن هو الذي تولى كبر الثورة على ابن هود ومداخلة أهل أشبيلية في الفتك بابن الباجي . فلما استوت قدمه في ملكه وغلب الثوار على أمره فسد ما بينها بعد أن كان وليّ أبا محمد على مقاله وأبا اسحق على وادي آش^(١) ، فامتنع أبو محمد بن أشقيلولة بمالقة واستأثر بها وبغريبتها دونه . ومع ذلك فكانوا على

(١) آش : بالفتح والشين مخففة ، وربما مدت همزته : مدينة الأشات بالأندلس من كورة البيرة وتعرف بوادي آش ، والغالب على شجرها الشاهبلوط ، وتنحدر إليها أنهار من جبال الثلج ، بينها وبين غرناطة أربعون ميلاً ، وهي بين غرناطة وبيجانة (معجم البلدان) .

الصاغية فيئة ولحمة . ولما أحس أبو محمد بإجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق ، قدم إليه الوفد من أهل مالقة بيعتهم وصرىخهم ، وانحاش إلى جانب السلطان وولايته ، وأمضه المخالصة والنصيحة . فلما احتل السلطان بناحية طريف ملأت كتائبه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة وتسبق السلطان ابن الأحمر ، وهو الفقيه أبو محمد ابن الشيخ أبي دبوس صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة والغربية ، وأخوه أبو اسحق صاحب وادي آش إلى لقاء السلطان وتناغوا في برور مقدمه والإذعان له ، ففاوضها في أمور الجهاد ، وأرجعها لحينه إلى بلديها . وانصرف ابن الأحمر مغاضباً لبعض الترععات أحفظته وأغذ السير إلى الفرنتيرة ، وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على خمسة آلاف من عسكره . وسرح كتائبه في البسائط وخلال المعامل تنسف الزرع وتحطم الغروس وتحرب العمران وتنتهب الأموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبي النساء والذرية ، حتى انتهى إلى المدور وتالسة^(١) وأبدة^(٢) واقتحم حصن بلمة عنوة . وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها . وقفل والأرض تموج سبياً إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب . وجاء النذير باتباع العدو وآثارهم لاستنقاذ أسراهم وارتجاع أموالهم . وأن زعيم الروم وعظيمهم ذننه^(٣) خرج في طلبهم بأثم بلاد النصرانية من المحتلم فما فوقه . فقدّم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفاً من الفرسان أمامها ، وسار يقتفيا ، حتى إذا طلّت رايات العدو من ورائهم كان الزحف ، ورتب المصاف وحرّض وذكر . وراجعت زناته بصاثرها وعزائمها وتحركت هممها ، وأبلى في طاعة ربّها والذبّ عن دينها . وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقفها . ولم يكن إلاّ كلاًّ ولا ، حتى هبت زريح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية ، وقتل الزعيم ذننه والكثير من جموع الكفر . ومنح الله المسلمين اكتافهم ، واستمرّ القتل فيهم . وأحصي القتلى في المعركة فكانوا ستة آلاف ، واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم الله بالشهادة وآثرهم بما عنده . ونصر الله حزبه

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : بايسة .

(٢) أبدة : بالضم ثم الفتح والتشديد : اسم مدينة بالأندلس من كورة جيّان تعرف بأبدة العرب ، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وتمّمها ابنه محمد . (معجم البلدان) .

(٣) وفي نسخة أخرى دتنه ، وكذا في نفع الطيب ج ١ ص ٤٤٩ وقد ذكر أيضاً ذونته ودونته .

وأعزّ أوليائه ونصر دينه . وبدا للعدو ما لم يحتسبه بمحاربة هذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة . وبعث أمير المسلمين برأس الزعيم ذننه إلى ابن الأحمر فردّه زعموا سراً إلى قومه بعد أن طيّبه وأكرمه ، ولايةً أخلصها لهم ، مداراةً وانحرافاً عن أمير المسلمين ، ظهرت شواهد عليه بعد حين كما نذكره ، وقفل أمير المسلمين من غزاته إلى الجزيرة منتصف ربيع من سنته ، فقسّم في المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوّهم وسبائهم وأسراهم وكراعهم ، بعد الاستئثار بالخمسة لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه . ويقال : كان مبلغ الغنائم في هذه الغزاة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفاً ، ومن الأسارى سبعة آلاف وثمان مائة وثلاثين ، ومن الكراع أربعة عشر ألفاً وستمائة ، وأمّا الغنم فأتسعت عن الحصر كثرة ، حتى لقد زعموا بيعت الشاة في الجزيرة بدرهم واحد ، وكذلك السلاح . وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياماً ثم خرج لجمادى غازياً إلى أشيلية فجاس خلالها وتقرّى نواحيها وأقطارها ، وأثنى بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها . وارتحل إلى شريش فأذاقها وبال العيث والاكساح . ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته ، ونظر في اختطاط مدينة بفرضة الحجاز من العدو لتزل عسكره متبداً عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم . وتخيّر لها مكاناً لصق الجزيرة ، فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية وجعل ذلك لنظر من يثق به من ذويه^(١) . ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر ، واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على بادس مرفأ الجواز ببلاد غمارة . وتولى ذلك ابراهيم بن عيسى كبير بني وسناف بن محيو . ثم رحل إلى فاس فدخلها في شعبان ، وصرف النظر إلى أحوال دولته ، واختطاط البلد الجديد لتزله ونزل حاشيته ، واستترال الثوار عليه بالمغرب على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن اختطاط البلد الجديد بفاس وما كان على بقية ذلك من الأحداث) *

لما قفل السلطان أمير المسلمين من غزاة الجهادية ، وتمّ صنع الله لديه في ظهور

(١) وفي نسخة ثانية : دونه .

الإسلام على يديه ، واعتزاز أهل الأندلس بفيثته ، راح بالمغرب إلى نعمة أخرى من ظهور أوليائه وحسم أدواء الفساد في دولته ، شفعت مواهب السعادة ، واجملت^(١) عوائد الصنع ، وذلك أن صباغة بني عبد المؤمن وفلهم ، لما قرؤا من مراکش عند الفتح لحقوا بجبل تينملل جرثومة أمرهم ، ومنبعث دعوتهم . وملاحد خلفائهم ، وحضرة سلفهم ، ودار إمامهم ، ومسجد مهديهم . كانوا يعكفون عليه متيمين بطيره ، ملتسقين بركة زيارته ، ويقدمون ذلك أمام غزواتهم قرية بين يدي أعمالهم يعتدونها من صالح مساعيمهم . فلما خلص الفلّ إليه اعتصموا بمعقله وآووا إلى ركونه ، ونصبوا للقيام بأمرهم عيصاً من أعياص خلفاء بني عبد المؤمن ضعيف المنبه^(٢) خاسر الصفقة من مواهب الحظ ، وهو اسحق أخو المرتضى . وبايعوه سنة تسع وستين وستائة يرجون منه رجوع الكرة ، وأدالة الدولة ، وكان المتولى لكبر ذلك وزير دولتهم ابن عطوش .

ولما عقد السلطان يعقوب بن عبد الحق لمحمد بن علي بن محلي على أعمال مراکش ، لم يقدم عملاً على محاربتهم ، وتخذيل الناس عنهم ، واستمالة أشياعهم . وجمعوا له سنة أربع وسبعين وستائة على غرة ظنوها ، فأوقع بهم وقلّ من غربهم . ثم صمد إلى الجبل لشهر ربيع من سته فافتضّ عذرتة وفضّ ختامه ، واقتحمه عليهم عنوة بعد مطاولة التزال والحرب . وهلك الوزير ابن عطوش في جوانب الملحمة ، وتقبض على خليفته المستضعف . وابن عمّه أبي سعيد ابن السيّد أبي الربيع ومن معها من الأولياء . وجنّبوا إلى مصارعهم بباب الشريعة بمراكش ، فضربت أعناقهم وصلبت أشلائهم . وكان فيمن قتل منهم كاتبه القبائلي وأولاده ، وعائت العساكر في جبل تينما^(٣) واكتسحت أمواله . وبعثت قبور خلفاء بني عبد المؤمن . واستخرج شلو يوسف وابنه يعقوب المنصور ، فقطعت رؤوسهم . وتولى كبر ذلك أبو علي الملياني النازع إلى السلطان أبي يوسف من مليانة عش غوايته ومواطن انتزائه كما قدّمناه وكان السلطان أقطعه بلاد أغوات إكراماً لوفادته ، فحضر هذه الغزاة في جملة العساكر

(١) وفي نسخة ثانية : وأكملت .

(٢) وفي نسخة ثانية : ضعيف المنية .

(٣) تين ملل : جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البرابرة ، بين أولها ومراكش ، سرير ملك بني عبد المؤمن ، نحو ثلاثة فراسخ ، بها كان أول خروج محمد بن تومرت المسمّى بالمهدي الذي أقام الدولة .

رأى ان قد شفى نفسه بإخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم ، والعيث بأشلائهم لما
نقم منه الموحدون . وأزعجوه من قراره ، فنكرها السلطان لجلاله . وتجاوز عنها
للملياني تأنيساً لقربته وجواره ، وعدّها من هناته .

ولما وصل أمير المسلمين إلى حضرته من غزاة الجهاد ، ترادفت عليه أخبار هذه
الملحمة ، وقطع دابر بني عبد المؤمن ، فتظاهر السرور لديه ، وارتفعت إلى الله كلمات
الشكر طيبة منه . ولما سكن غرب الثوار ، وتمهد أمر المغرب ، ورأى أمير المسلمين أنّ
أمره قد استفحل ، وملكه قد استوسق ، واتسع نطاق دولته ، وعظمت غاشيته وكثر
وافده ، رأى أن يخطط بلداً يتميز بسكناه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين
سرير ملكه . فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس ، بساحة الوادي المخترق وسطها من
أعلاه ، وشرع في تأسيسها لثالث من شوال في سنة أربع وسبعين وستائة هذه .
وجمع الأيدي عليها ، وحشد الصناع والفعلة لبنائها . وأحضر لها الخزي والمعدلين
لحركات الكواكب ، فاعتموا في الطوالع النجومية مما يرضون أثره ، ورصدوا أوانه .
وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطان وأبو عبدالله بن الحباك ، المقدمان في
الصناعة ، فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم وكما رضي . ونزلها بحاشيته ، وذويه
سنة أربع وسبعين وستائة كما ذكرناه . واختطوا بها الدور والمنازل ، وأجرى فيها المياه
إلى قصوره ، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام . ثم أوعز بعد
ذلك ببناء قسبة مدينة مكناسة ، فشرع في بنائها من سته ، وكان لحين إجازته البحر
قافلاً من غزاته لحق طلحة بن محلي بجبل أزرو^(١) نازعاً إلى قبائل زناتة من صنهاجة ،
فاغذ إليه السلطان بعساكره وأناخ عليه . واستنزله لشهر على ما سأل من الأمان
والرتبة . وحسم الداء من خروجه . واستوزر صنيعته فتح الله السدراتي ، وأجرى له
رزق الوزارة على عوائدهم . ثم بعث إلى يغمراسن كفاء هديته التي اتحفه بها بين يدي
غزاته . وكان شغله عنها أمر الجهاد ، فبعث له فسطاطاً رائقاً كان صنع له
بمراكش ، وحكمت موهبة بالذهب والفضة ، وثلاثين من البغال الفارهة ذكوراً
وإناثاً بمراكبها الفارسية من السروج ، والنسوانية من الولايا ، وأحمالاً من الأديم
المعروف دباغة بالشركسي ، إلى غير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب وينافسون فيه .

(١) وفي نسخة ثانية : أزور .

وفي سنة خمس وسبعين وستائة من بعدها أهدى له محمد بن عبد القوي أمير بني توجين ، وصاحب جبل وانشريش أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ، ورأى أنها على قلّة عددها أحفل هدية . وفي نفسه اثناء هذا كله من الجهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائر أعماله حسبما نذكر .

* (الخبر عن إجازة أمير المسلمين ثانية وما كان فيها

من الغزوات) *

لما قفل أمير المسلمين من غزاته الأولى ، واستنزل الخوارج وثقف الثغور ، وهادى الملوك واختط المدينة لتزله كما ذكرنا ذلك كله . ثم خرج فاتح سنة ست وسبعين وستائة إلى جهة مراکش لسدّ ثغوره ، وتثقيف أطرافه . وتوغّل في أرض السوس ، وبعث وزيره فتح اللّهم السدراتي بالعساكر فجاس خلاله ، ثم انكفأ راجعاً . وخاطب قبائل المغرب كافة بالنفير إلى الجهاد ، فتباطؤوا واستمرّ على تحريضهم ، ونهض إلى رباط الفتح وتلوم بها في انتظار الغزاة فثبطوا ، فخفّ هو واحتل بطريف آخر محرم . ثم ارتحل إلى الجزيرة ، ثم إلى رندة . ووافاه هنالك الرئيسان أبو اسحق بن أشقيلولة صاحب قمارش ، وأبو محمد صاحب مالقة للغزو معه . وارتحلوا إلى منازل أشيلية فعرسوا عليها يوم المولد النبوي . وكان بها ملك الجلالقة ابن أدفونش ، فخام عن اللقاء وبرز إلى ساحة البلد محامياً عن أهلها . ورتّب أمير المسلمين مصافه وجعل ولده الأمير أبا يعقوب في المقدّمة ، وزحف في التعبئة فأحجروا العدو في البلد ، واقتحموا أثرهم الوادي وأثخنوا فيهم . وباتت العساكر ليلتهم يجادون في متون الخيل وقد أضرموا النيران بساحتها . وارتحل من الغد إلى أرض الشرط ، وبثّ سرايا والغوازي في سائر النواحي . وأناخ بجمهور العسكر عليها ، فلم يزل يتقرّى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها . ودخل حصن قطيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة ، وأثخن في القتل والسبي . ثم ارتحل بالغنائم والأثقال^(١) إلى الجزيرة لسرار شهره ، فأراح وقسم الغنائم في المجاهدين . ثم خرج غازياً إلى شريش منتصف ربيع الآخر

(١) وفي نسخة ثانية : تم قفل بالغنائم والأنفال .

فنازلها وأذاقها نكال الحرب . وأقفر نواحيها ، وقطع أشجارها وأباد خضراءها وحرقت ديارها ، ونسف آثارها ، وأثنخ فيها بالقتل والأسر . وبعث ولده الأمير أبي يعقوب في سرية من مسعكره للغوار على اشيلية وحصون الواد^(١) ، فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطه وشلوقة وغليانة والقناطير^(٢) . ثم صبح إشيلية بمقاره فاكسحها وانفكأ إلى أمير المسلمين ، فقفلوا جميعاً إلى الجزيرة . وأراح وقسم في المجاهدين غنائمهم . ثم ندب إلى غزوة قرطبة ، ورغبهم في عمرانها وثروة مساكنها ، وخطب بلادها ، فانعطفوا إلى إجابته ، وخطب ابن الأحمر يستنفره . وخرج لأول جمادى من الجزيرة ، ووافاهم ابن الأحمر بناحية أرشدونة ، فأكرم وصوله وشكر حفوفه إلى الجهاد وبقاره . ونازلوا حصن بني بشير فدخلته عنوة ، وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ، ونفلت الأموال وخرّب الحصن . ثم بثّ سرايا والغارات في البسائط فاكسحها وامتلات الأيدي وأثرى العسكر . وتقرّوا المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها ، وانحجرت حامية العدو من وراء الأسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها ، فنسفوا آثارها وخرّبوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها . وتردّدوا على جهاتها ، ودخل حصن بركونة عنوة ، ثم أرجونة كذلك ، وقدم بعثاً إلى حيانة^(٣) قاسمها حظها من الخسف والدمار . وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانها . واتلاف بلده . فجنح إلى السلم وخطبه من أمير المسلمين ، فدفعه إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكريماً لمشهدته ووفاء بحقه ، وأجابهم ابن الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة ، فانعقد السلم . وقفل أمير المسلمين من غزاته وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلّها ، فاحتوى عليها . ودخل أمير المسلمين إلى الجزيرة في أول رجب من عامئذ ، فأراح ونظر في ترتيب المسالح على الثغور ، وتملك مالقة كما نذكره .

(١) وفي نسخة ثانية : حصون الوادي .

(٢) وفي نسخة ثانية : القناطير .

(٣) حيانة : لا وجود لحيانة وإنما حيانية وهي في أرض دمشق والمقصود جيان كما في نسخة أخرى .

* (الخبر عن تملك السلطان مدينة مالقة من يد
ابن اشقيلولة) *

كان بنو اشقيلولة هؤلاء من رؤساء الأندلس المؤمنين لمدافعة العدو ، وكانوا نظراء لابن الأحمر في الرياسة ، وهما أبو محمد عبدالله وأبو اسحق ابراهيم ابنا أبي الحسن بن أشقيلولة . وكان أبو محمد منهم صهراً له على ابنته فكانوا له بذلك خاصة فأشركهم في أمره واعتضد بعصابتهم وبأبيهم من قبل على مقاومة ابن هود وسائر الثوار حتى إذا استمكن من فرصته واستوى على كرسية استبدّ دونهم وأنزلهم الى مقامات الوزراء . وعقد لأبي محمد صهره على ابنته على مدينة مالقة والغريّة ، وعقد لأبي الحسن صهره على أخته على وادي آش وما إليها ، وعقد لابنه أبي اسحق ابراهيم بن عليّ على قمارش وما إلى ذلك . ووجدوا في أنفسهم ، واستمرّ الحال على ذلك . ولما هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستائة وولي ابنه الفقيه محمد ، سموا إلى منازعته . وأوفد أبو محمد صاحب مالقة ابنه أبا سعيد على السلطان يعقوب بن عبد الحق ، وهو منازل طنجة . ووفد معه أبو محمد إلى السلطان بطاعته وبيعته أهل مالقة سنة ثلاث وسبعين وستائة وعقد له عليها . ونزع ابنه أبو سعيد فرج إلى دار الحرب ، ثم رجع لسنته فقتل بمالقة . ولما أجاز السلطان إلى الأندلس إجازته الأولى سنة أربع وسبعين وستائة تلقاه أبو محمد بالجزيرة مع ابن الأحمر وفاوضها السلطان في أمر الجهاد وردّهما إلى أعمالهما . ولما أجاز إجازته الثانية سنة ست وسبعين وستائة لقبه بالجزيرة الرئيسان ابنا أشقيلولة : أبو محمد صاحب مالقة ، وأخوه أبو إسحق صاحب وادي آش وقمارش ، فشهدا معه الغزاة . ولما قفل اعتلّ أبو محمد صاحب مالقة ، ثم هلك غرة جمادى من سنته فلهق ابنه محمد بالسلطان آخر شهر رمضان . وهو متلوم بالجزيرة ، منصرفه عن الغزوة كما ذكرناه ، فترل له عن البلد ودعاه إلى احتيازها ، فعقد عليها لابنه أبي زيّان منديل ، فسار إليها في بعث ، وكان ابن أشقيلولة حين فصوله إلى لقاء السلطان ، أمر ابن عمّه محمد الأزرق بن أبي الحجّاج يوسف بن الزرقاء باخلاء منازل السلطان بالقصبة واعدادها ، فتمّ ذلك لثلاث ليال ، واضطرب الأمير أبو زيّان معسكره بخارجها ، وأنفذ محمد بن عمران بن عيلة في

رهب من رجال بني مرين إلى القصبة فترها وملك أمر البلد . وكان السلطان ابن الأحمر لما بلغه وفاة أبي محمد بن أشقيلولة سما أمه إلى الاستيلاء على مالقة وأن ابن أخته شيعة له . وبعث لذلك وزيره أبا سلطان عزيز الداني ، فوافى معسكر الأمير أبي زيان بساحتها . ورجا أن يتجافى عنها لسلطانه ، فأعرض عن ذلك وتجهّم له . ودخل إليها لثلاث بقين من رمضان . وانقلب الداني عنها بخفي حنين ، ولما قضى السلطان بالجزيرة صومه ونسكه ، خرج إلى مالقة فوافاها سادس شوال ، وبرز إليه أهلها في يوم مشهود ، واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سروراً بمقدم السلطان ، ودخولهم في إيالته . وأقام فيهم إلى خاتم سنته . ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلي من صنائع دولتهم . وأنزل معه المسالحو زيان بن أبي عياد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطال بني مرين . واستوصاه بمحمد بن أشقيلولة وارتحل إلى الجزيرة . ثم أجاز إلى المغرب سنة سبع وسبعين وستائة وقد اهترت الدنيا لقدمه وامتلات القلوب سروراً بما كيفه الله من نصر المسلمين بالعدوة ، وعلو راية السلطان على كل راية . وعظمت لذلك موجدة ابن الأحمر ، ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن تظاهر ابن الأحمر والطاغية على منع السلطان أبي يوسف من إجازة ابن الأحمر واصفاق يغمراسن بن زيان معهم من وراء البحر على الأخذ بحجزته عنهم وواقعة السلطان على يغمراسن بخرزوزة

لما أجاز أمير المسلمين إلى العدو إجازته الأولى ، ولقي العدو بأستجة ، وقتل الله ذننه بأيدي عسكره . وصنع له من الظهور والعز ما لا كفاء له ، ارتاب ابن الأحمر بمكانه ، فبدا له ما لم يكن يحتسب ، وظنّ بأمر المسلمين الظنون ، واعترض ذكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس . وأكد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه وانقيادهم لأمره ، فشرق بمكانه وحذر غوائله . وتكدر الجوبينها وأجاز الإجازة الثانية ، فانقبض ابن الأحمر عن لقائه ، ودارت بينها مخاطبات شعريّة في معنى العتاب على السنة كتابها نسردها الآن ،

(فن ذلك قصيدة كتبها إليه ابن الأحمر سنة أربع وسبعين وستمائة بعد واقعة ذننه واعتزاه على الرجوع إلى المغرب ، فخاطبه بها ليلة الإقامة بالجزيرة حذراً من غائلة العدو ، وينحرف فيها منحى الاستعطاف وهي من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط :

من مُتَّهِمٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ مِنْ مُنْجِدٍ
بِإِجَابَةٍ وَإِنَابَةٍ أَوْ مُسْتَعِدِّ
بِالْعُدْوَتَيْنِ مِنْ أَمْرٍ مُسْتَرْشِدٍ
يَخْشَى الْمَصِيرَ إِلَى الْجَحِيمِ الْمَوْقِدِ
أَجِبِ الْهُدَى تَسْعِدُ بِهِ وَتُوَيْدِ
إِنَّ الْهُدَى هُوَ النِّجَاةُ لِمَنْ هُدِيَ
أَلَدِيكَ عِلْمٌ أَنْ تَعِيشَ إِلَى غَدِ
إِنْ لَمْ يَحِنْ لَكَ نَقْدُهُ فَكَيْفَ قَدِ
لَمْ تَسْتَعِدَّ لِطَوْلِهِ فَاسْتَعِدِّ
زَادَ لِكُلِّ مُسَافِرٍ فَتَرُودِ
خُذْ مِنْهُ زَادَكَ لِارْتِحَالِكَ تُسْعِدِ
مِنْهُ لِمَا يُرْضِي إِلَهَكَ وَاغْتَدِي
وَجْهًا لِلْقِيَامَةِ اللَّهُ غَيْرُ مُسَوِّدِ
مَحْتِ الدَّمْعِ خَطِيئَةَ الْمُتَعَمِّدِ
أَوْ يَقْتَدِي بِنِيَّةٍ أَوْ يَهْتَدِي
مُسْتَكْبِرٍ قَدْ كَانَ لَمْ يَتَشَهَّدِ
فَكِلَاهُمَا يَبْغِي الْفِدَاءَ فَمَا فُدِي
فِيهِمْ تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا فِي مَلْحَدِ
وَلَدَاهُ وَدَا أَنَّهُ لَمْ يُوَلَّدِ
يَبْكِي لِآخِرٍ فِي الْكُبُولِ مُقْبِلِ
مَا بَيْنَ حَدِي ذَابِلٍ وَمُهَنْدِ
وَرَثِي لَهُمْ مِنْ قَلْبِهِ كَالْجَلْمَدِ
مَا دَهَانَا مِنْ رَدِي أَوْ مِنْ رَدِي

هل من مُعِينِي فِي الْهَوَى أَوْ مُنْجِدِي
هَذَا الْهَوَى دَاعٍ فَهَلْ مِنْ مُسْعِفِ
هَذَا سَبِيلُ الرُّشْدِ قَدْ وَضَحَتْ فَهَلْ
يَرْجُو النِّجَاةَ بِجَنَّةِ الْفَرْدُوسِ أَوْ
يَا أَمِلِ النَّصْرَ الْعَزِيزَ عَلَى الْعِدَا
سِرِّ النِّجَاةِ إِلَى النِّجَاةِ مَشِيرَا
يَا مَنْ يَقُولُ غَدًا أَتُوبُ وَلَا غَدُ
لَا تَغْتَرِّزْ بِنَسِيئَةِ الْأَجْلِ الَّذِي
سَفَرٌ عَلَيْكَ طَوِيلَةٌ أَيَّامُهُ
أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ
هَذَا الْجِهَادِ رَيْسُ أَعْمَالِ التُّقَى
هَذَا الرِّبَاطُ بِأَرْضِ أُنْدَلُسٍ فَرِحُ
سَوْدَتِ وَجْهِكَ بِالْمَعَاصِي فَالْتِمِسُ
وَامْحُ الْخَطَايَا بِالدَّمْعِ فَرَبَا
مَنْ ذَا يَتُوبُ لِرَبِّهِ مِنْ ذَنْبِهِ
وَتَعَرَّضَتْ مِنْهُمْ بِكُلِّ مُعَانِدِ
كَمْ مِنْ أُسِيرٍ عِنْدَهُمْ وَأَسِيرَةٍ
كَمْ مِنْ عَقِيلَةٍ مَعْشَرٍ مَعْقُولَةٍ
كَمْ مِنْ وِلْدٍ بَيْنَهُمْ قَدُودٍ مِنْ
كَمْ مِنْ تَقِيٍّ فِي السَّلَاسِلِ مَوْثِقِ
وَشَهِيدٍ مُغْتَرِكٍ تَوَزَّعَهُ الرَّدَى
ضَجَّتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ لِحَالِهِمْ
أَفَلَا تَذُوبُ قُلُوبِكُمْ إِخْوَانِنَا

من حُرْمَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَتَوَدِّدٍ
 وَسِيُوفِكُمْ لِلثَّارِ لَمْ تَتَقَلَّدِ
 خَمَدَاتٍ وَكَانَتْ قَبْلُ ذَا تَتَوَقَّدِ
 هَلْ يَقْطَعُ الْهِنْدِيُّ غَيْرَ مَجْرَدِ
 وَأَحَقُّ مِنْ فِي صَرْخَةٍ بِهِمْ ابْتَدِي
 جَبْرِيلُ حَقًّا فِي الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ
 فِي الْمَغْرِبِ الْأَدْنَى لَنَا وَالْأَبْعَدِ
 مِنْهُ إِلَى الْفَرَضِ الْأَحَقِّ الْأَوْكَدِ
 حَسَنًا تَفُوزُوا بِالْحَسَنِ الْعُخْرَدِ
 وَالْحَوْرُ قَاعِدَةٌ لَكُمْ بِالْمَرْصَدِ
 مِنْهُ الْحَصُولُ عَلَى النِّعَمِ السَّرْمَدِ
 صِدْقٌ فَتُورُوا لِاتِّجَارِ الْمَوْعِدِ
 شَكْوَى الْعَدِيمِ إِلَى الْغَنِيِّ الْأَوْجَدِ
 فِيهَا وَشَمْلُ الْكُفْرِ غَيْرَ مُبَدَّدِ
 تَأْسُونَ لِلدِّينِ الْغَرِيبِ الْمُفْرَدِ
 وَطَرِيقِ هَذَا الْعُذْرِ غَيْرَ مَهْمَدِ
 وَتَرْكُتُمُوهُمْ لِلْعَدْوِ الْمُعْتَدِي؟
 لَكَفَى الْحَيَاءُ مِنْ وَجْهِ ذَاكَ السَّيِّدِ
 وَسَلُّوا الشَّفَاعَةَ مِنْهُ يَوْمَ الْمَشْهَدِ
 مِنْ حَوْضِهِ فِي الْحَشْرِ أَعْذِبَ مَوْرِدِ

أَفَلَا تَرَاعُونَ الْأَذِمَّةَ بَيْنَنَا
 أَكْثَرًا يَعْثُ الرُّومُ فِي إِخْوَانِكُمْ
 يَا حَسْرَتِي لِحِمَّةِ الْإِسْلَامِ قَدْ
 أَيْنَ الْعَزَائِمُ مَا لَهَا لَا تَقْتَضِي (١)
 أَبْنِي مَرِينَ أَنْتُمْ جِيرَانُنَا
 فَالْحَارُ كَانَ بِهِ يُوصِي الْمُصْطَفَى
 أَبْنِي مَرِينَ وَالْقَبَائِلُ كُلُّهَا
 كُتِبَ الْجِهَادُ عَلَيْكُمْ فَبَادِرُوا
 وَارْضُوا بِأَحَدِي الْحُسَيْنِيِّنَ وَأَقْرَضُوا
 هَذَا الْجَنَانَ تَفْتَحُ أَبْوَابُهَا
 هَلْ مِنْ بَايَعِ (٢) مِنْ رَبِّهِ مِنْ مُشْتَرٍ
 لِلَّهِ فِي نَصْرِ الْخَلِيفَةِ (٣) مَوْعِدٌ
 هَذَا الثُّغُورُ بِكُمْ إِلَيْكُمْ تَشْتَكِي
 مَا بِالْ شَمْلِ الْمُسْلِمِينَ مُبَدَّدٌ
 أَنْتُمْ جِيُوشُ اللَّهِ مَلَأُ فُضَائِهِ
 مَاذَا اعْتَذَرْتُمْ غَدًا لِنَبِيِّكُمْ
 إِنْ قَالِ لِمَ فَرَطْتُمْ فِي أُمَّتِي؟
 تَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْعُقُوبَةَ لَمْ تُخَفْ
 إِخْوَانَنَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا
 وَاسْعُوا لِنَصْرَةِ دِينِهِ يُسْقِيكُمْ

وصدر جوابها من نظم عبد العزيز شاعر السلطان يعقوب بن عبد الحق بما نصه :
 ليك لا تخش اعتداء المعتدي الخ وكذلك أجاب عنها أيضاً مالك بن المرحل
 بقوله :

(١) وفي نسخة ثانية : لا تنقضي .

(٢) وفي نسخة ثانية : من بائع .

(٣) وفي نسخة ثانية : الخليفة .

شَهِدَ الإِلهَ وَأَنْتَ يَا أَرْضُ أَشْهَدِي الخ فَأَجَابَهَا أَبُو عمرو بن المرابط كاتب ابر
الأحمر بقوله :

قل للبغاة وللعداة الحُسَدِ الخ ولما أجاز السلطان يعقوب بن عبد الحق الإجازة الثانية
سنة ست وسبعين وستائة كما نذكره ، صار ابن الأحمر إلى الاستعتاب والرضا ولقي
يعقوب بن عبد الحق فأنشد كاتبه أبو عمرو بن المرابط يوم اجتماعها قوله * بشرى
لحزب الله والإيمان الخ ولما انقضى المجلس أمر السلطان شاعره عبد العزيز بمساجلة
قصيدته ، وأنشدها ثاني المجلس بحضرة ابن الأحمر ونصّها * اليوم كن في غبطة
وأمان * الخ ثم كان أثناء ذلك ما وقع من استيلاء السلطان يعقوب بن عبد الحق على
مدينة مالقة والغريّة ، جلّ عمله بعد مهلك صاحبها أبي محمد عبدالله بن أشقيلولة ،
فبرم لذلك وخيل عليه ، ففرغ إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده بيده ، وان يعود
إلى مكان أبيه من ولايته ليدافع به السلطان وقومه عن أرضه ، ويأمن معه من زوال
سلطانه ، لما كانت كلمة الإسلام حجراً دونه . فاهتبل الطاغية غرّتها ، ونكث عهد
أمير المسلمين ، ونقض السلم ، ونبذ إليه العهد . واغزى أساطيله الجزيرة الخضراء
حيث مسالح السلطان وعساكره . وأرست بالزقاق حيث فراض الجواز. هنا وانقطع
المسلمون من جنود السلطان وقومه وراء البحر ويشوا من صريخه . وانتبذ عمر ابن
يحيى بن محلى عن قومه بمكان إمارته مالقة ، وكان بنو محلى هؤلاء من كبار قومهم
بَطَوِيَّة وكانوا حلفاء لبني حمّامة بن محمد منذ دخولهم المغرب . وأصهر عبد الحق أبو
الأملّك إلى أبيهم محلى في ابته أم اليُمن ، فكان من ولدها السلطان يعقوب بن عبد
الحق . وكانت امرأة صالحة خرجت إلى الحجّ سنة ثلاث وأربعين وستائة فقضت
فريضة الله عليها وعادت إلى المغرب رابعة من السنين سنة سبع وأربعين وستائة ثم
خرجت ثانية سنة اثنتين وخمسين وستائة فتطوّعت بحجة أخرى وهلكت بمصر
منصرفها من تلك السنة سنة ثلاث وخمسين وستائة فكان لبني محلى أبيها مكان من
الدولة ودالة على السلطان لخولتهم ووشايح قرابتهم وغنائهم في قومهم ولما استولى
السلطان على حضرة الموحّدين مراکش ، عقد لمحمد بن علي بن محلى على جميع
أعمالها ، فكانت له بالاضطلاع بها مقاما محمودة . واتصلت ولايته عليها من لدن سنة
ثمان وستين إلى سنة سبع وثمانين وستائة ثم كان مهلكه أيام يوسف بن يعقوب كما
نذكر . ولما نزع محمد بن أشقيلولة إلى السلطان بالجزيرة سنة ست وسبعين وستائة

متجافياً له عن ولاية مالقة بعد وفاة أبيه الرئيس أبي محمد ، واستولى السلطان عليها ، واعترم على الإجازة كما قدّمناه ، وعقد على مالقة والغربية وسائر ثغورها وأعمالها لعمر بن يحيى بن محلى . وكان أخوه طلحة بن يحيى ذا بأس وصرامة وقوة شكيمة ، واعتراز على السلطان بمكان الخوثة ، وهو الذي قتل يعقوب بن عبد الحق بغبولة سنة ثمان وستين وستائة كما قلناه ، وظاهر فتح الله الهدراي^(١) مولى السلطان ووزيره على قتال أبي العلاء بن أبي طلحة بن أبي قريش ، عامل المغرب بكدية العرايش بظاهر فاس سنة اثنتين وستين وستائة ونزع سنة أربع وسبعين وستائة إلى جبل آزروا عند مرجع السلطان من إجازته الأولى ، فاستتزله ورجّعه إلى مجلسه من جملته . ثم نزع من الجزيرة إلى غرناطة سنة ست وسبعين وستائة عند مرجع السلطان من أمر مالقة ، وأجاز البحر إلى بلاد الريف . ثم رجع إلى القبلة وأقام بين بني توجين . ثم أجازا إلى الأندلس سنة سبع وسبعين وستائة عندما أضرم نار هذه الفتنة بين هذا السلطان وبين ابن الأحمر والطاغية ، واحتل أسطول النصارى بالزقاق ، وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر . وأحس أخوه عمر صاحب مالقة باظلام الجوّ بينه وبين السلطان بما كان من أمر أخيه طلحة من قبل فلاطفه ابن الأحمر عند استقراره بغرناطة في مداخلة أخيه عمر في التزول عن مالقة ، والاعتياض عنها بشلوبانية^(٢) والمنكب طعمة . ونخاطبه في ذلك أخوه طلحة فأجاب وخرج ابن الأحمر بعساكره إلى مالقة ، وتقبّض عمر بن محلى على زيّان بن بو عياد قائد بني مرين ومحمد بن أشقيلولة . وأمکن ابن الأحمر من البلد فدخلها آخر رمضان من سنته .

وأنزل ابن محلى بشلوبانية واحتمل ذخيرته وما كان السلطان ائتمنه عليه من المال والعدد الجهادية . واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية على منع أمير المسلمين من الإجازة ، وراسلوا يغمراسن بن زيّان من وراء البحر وراسلهم في أمشاقة السلطان وإفساد ثغوره وإئزال العوائق به المانعة من حركته ، والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الجهاد . وأسنوا فيما بينها الاتحاف والمهاداة . وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين

(١) وفي نسخة ثانية : السدراني وقد مرّ معنا من قبل السدراني .

(٢) هي شلوبينية حصن بالأندلس من أعمال كورة البيرة على شاطئ البحر كثير الموز وقصب السكر والشاه بلوط (معجم البلدان) .

من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف ، وبعث إليه ابن الأحمر صحبة ابن مروان التجاني كفاء ذلك عشرة آلاف دينار ، فلم يرض بالمال في هديته وردّه . وأصفت أيديهم جميعاً على السلطان ، ورأوا أن قد بلغوا في إحكام أمرهم وسدّ مذهبهم إليهم ، واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش . كان صمد إليها مرجعه من الغزو في شهر المحرم فاتح سبع وسبعين وستائة لما كان من عيث العرب جشم بتامسنا وإفسادهم السابلة . فنقف أطرافها وحسم أدواءها . ولما بلغه خبر ابن محلي ومالقة ومنازلة الطاغية للجزيرة ، نهض لثالثة من شوال يريد طنجة . ولما انتهى إلى تامسنا ، وافاه الخبر بتزول الطاغية على الجزيرة ، وإحاطة عساكره بها سادس شوال ، بعد أن كانت أساطيله مُنارلتها منذ ربيع ، وأنه مشرف على التهامها . وبعثوا إليه يستعدونه فاعتزم على الرحيل .

ثم اتصل به الخبر بخروج مسعود بن كانون أمير سفيان من جشم ببلاد نفيس من المصامدة خامس ذي القعدة . وأنّ الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم . ففكر إليه راجعاً وقدم بين يديه حافده تاشفين بن أبي مالك ، ووزيره يحيى حازم ، وجاء على ساقتهم وفرّوا أمام جيوشه ، وانتهب معسكرهم وحلّهم ، وامتباح عرب الحرث ابن سفيان . ولحق مسعود بمعقل السكسيوي ، ونازله السلطان بعساكره أياماً . وسرح ابنه الأمير أبا زيّان مندبل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها ، فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه خاتم سنته . واتصل بالسلطان ما نال أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وأعواز الأقوات ، وأنهم قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر ، فأهمه ذلك وأعمل النظر فيه ، وعقد لولي عهده ابنه الأمير أبي يعقوب من مراكش على الغزو إليها . وأغزى الأساطيل في البحر إلى جهاد عدوهم ، فوصل إلى طنجة لصفر من سنة ثمان وسبعين وستائة وأوعز إلى البلاد البحرية لاعداد الأساطيل بسببته وطمّنة وسلا ، وقسم الأعطيات وتوفرت همم المسلمين على الجهاد ، وصدقت عزائمهم على الموت . وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبته لما بلغه خطاب أمير المسلمين في ذلك البلاء الحسن ، وقام فيه المقام المحمود . واستقرّ كافة أهل بلده فركبوا البحر أجمعين من المحتلم فما فوقه .

ورأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين في الجزيرة ، وإشراف الطاغية على أخذها ، فندم في ممالاته ونبد عهده ، وأعدّ أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة مدداً

للمسلمين . واجتمعت الأساطيل بمرفاً سبعة تناهز السبعين ، قد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زبي وأحسن قوّة وأكمل عدة وأوفر عدد ، وعقد عليهم الأمير أبو يعقوب رايته ، وأقلعوا عن طنجة ثامن ربيع الأوّل . وانتشرت قلوبهم في البحر فأجازوه ، وباتوا ليلة المولد الكريم بمرقى الجبل ، وصبحوا العدوّة وأساطيلهم تناهز أربعائة ، فتظاهروا في دروعهم وأسبغوا من شكّتهم ، وأخلصوا لله عزائمهم ، وصدقوا مع الله نياتهم ، وتنادوا بالجنّة شعارهم . ووعظ وذكر خطبائهم ، والتحم القتال ونزل الصبر . ولم يكن إلا كلاًّولا حتى نضحوا العدوّ بالنبل ، فأنكشفوا وتساقطوا في العباب . فاستلحمهم السيف وغشيم اليم ، وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرقى الجزيرة وفرضتها عنوة ، فاختل معسكر الطاغية . وداخلهم الرعب من إجازة الأمير أبي يعقوب ومن معه من الحامية ، فأفرج لحينه عن البلد ، وانتشرت النساء والصبيان بساحته ، وغلبت المقاتلة كثيراً من العسكر على مخلفهم ، فغنموا من الحنطة والأدم والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياماً ، حتى وصلت الميرة من النواحي . وأجاز الأمير أبو يعقوب من حينه فأرهب العدوّ في كل ناحية ، وصدّه عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الأحمر ، فرأى أن يعقد مع الطاغية سلماً ، ويصل به لمنازلة غرناطة يداً . وأجابه إلى ذلك الطاغية رهبة من بأسه ، وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة . وبعث أساقفته لعقد ذلك فأجازهم الأمير أبو يعقوب إلى أبيه أمير المسلمين فغضب لها ، ونكر على ابنه . وزوى عنه وجه رضاه ، ورجعهم إلى طاغيتهم مخفي السعي . وأجاز أبو يعقوب ابن السلطان إلى أبيه ومعه وفد أهل الجزيرة ، فلقوا السلطان بمكانه من بلاد السوس . وولى عليهم ابنه أبا زيّان فتزل بالجزيرة ، وأحكم العقدة مع الطاغية ، ونازل المريّة^(١) من طاعة ابن الأحمر براً وبحراً فامتنعت عليه . وانضوى إليه أهل الحصون الغربية بطاعتهم حذراً من الطاغية فتقبلهم . ثم جاءه المدد من المغرب ، ونازل رندة فامتنعت . والطاغية أثناء ذلك يحوسّ خلال الأندلس . ونازل ابن الأحمر بغرناطة مع بني أشقيلولة وابن الدليل . ثم راجع ابن الأحمر مسالمة بني مرين ، وبعث لأبي زيّان ابن السلطان بالصلح ، واجتمع معه بأحواز مريّة كما نذكر بعد .

(١) وفي نسخة أخرى : مرتلة وفي نسخة ثانية : مديلة .

ولما ارتحل السلطان من معسكره إلى جبل السكسيوي يريد السوس ، ثم أغزى العساكر ورجع من طريقه إلى مراكش حتى إذا انقضت غزاة البربر رجع إلى فاس ، وبعث خطابه إلى الآفاق مستنفرًا للجهاد . وفصل في رجب من سنة ثمان وسبعين وستائة حتى انتهى إلى طنجة وعان ما اختلّ من أحوال المسلمين في تلك الفترة ، وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية ، وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية ومن فيها . وظهره على ابن الأحمر منافسوه في رياسته بنو أشقيلولة ، فاستجره الرئيس أبو الحسن بن أبي إسحق صاحب وادي آش ، ونازل معه غرناطة سنة تسع وسبعين وستائة خمسة عشر يوماً ثم أفرجوا ، ولقيتهم عساكر غرناطة من زناتة بعد ذلك من سنتهم .^(١) طلحة بن محلي وتاشفين بن معطى كبير تيريغين بحصن المسلى ، فأظهرهم الله عليهم . وهلك من النصاري ما يناهز سبعمائة من فرسانهم . واستشهد فيها من أعياص بني مرين عثمان بن محمد بن عبد الحق . واستجر الطاغية سنة ثمانين وستائة بعدها الرئيس أبو محمد عبدالله أخو صاحب وادي آش إلى منازل غرناطة ، فنازلها الطاغية وأقام عليها أياماً . ثم ارتحل وقد اعتز عليهم ، وأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الأحمر من خسف الطاغية ، فراسله في المودعة واتفاق الكلمة وشرط عليه النزول عن مالقة ، فرجع السلطان إلى إزالة العوائق عن شأنه من الجهاد ، وكان من أعظمها فتنة يغمراسن . واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية ابن أخي أدفونش من الاتصال والاصفاق في تجديد الصلح والاتفاق ، فلجّ وكشف الوجه في العناد وأعلن بها وقع بينه وبين أهل العدو مسلمهم وكافرهم من الوصلة ، وأنه معترم على طي^(٢) بلاد المغرب . فصرف أمير المسلمين عزمه إلى غزويغمراسن . وقفل إلى فاس لثلاثة أشهر من نزوله طنجة ، فدخلها آخر شوال وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجّة عليه ، والتجأ بمسألة بني توجين والتجافي عنهم لموالاتهم أمير المسلمين . فقام يغمراسن في ركائبه وقعد ولج في طغيانه . وارتحل أمير المسلمين من فاس سنة تسع وسبعين وستائة وقدم ابنه أبا يعقوب في العساكر وأدركه بتازي . ولما انتهى إلى ملوية تلّوم في انتظار

(١) وفي نسخة أخرى : وعليهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : وصلي .

العساكر ثم ارتحل إلى تاسة ثم تاقيا^(١) وصمد إليه يغمراسن بحشود زناتة والعرب بحلهم وكافة ناجعتهم ، والتقت عيون القوم ، فكانت بينهم حرب . وركب على آثارهما العسكران والتحم القتال ، وكان الزحف بخرزوزة من ملعب تيفني^(٢) ، ورتب أمير المسلمين مصافه وجعل كتيبته وكتيبة ابنه الأمير أبي يعقوب جناحين للعسكر . واشتد القتال سائر النهار ، وانكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم ، وانتهب جميع مخلفهم وما كان في معسكرهم من المتاع والكراع والسلاح والفساطيط ، وبات عسكر أمير المسلمين ليلتهم في سهوات خيلهم ، واتبعوا من الغد آثار عدوهم . واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن ، وامتلات أيدي بني مرين من نعمهم وشائهم . ودخلوا بلاد يغمراسن وزناتة . ووفاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين ، لقيه بناحية القصبات ، وعاثوا جميعاً في بلاده نهياً وتخريباً ثم أذن لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمخنق تلمسان متلوماً لوصول محمد بن عبد القوي وقومه إلى منجاتهم من جبل ونشريس حذراً عليهم من عائلة يغمراسن . ثم أفرج عنها وقفل إلى المغرب ودخل فاس شهر رمضان من سنة ثمانين وستائة ثم نهض إلى مراکش فاحتل بها فاتح إحدى وثمانين وستائة بعدها ، وسرح ابنه الأمير أبا يعقوب إلى السوس لتدويخ أقطاره ، ووفاه بمراكش صريخ الطاغية على ابنه شانجة الخارج عليه ، فاغتم الفرصة في فساد بينهم لقضاء أربه من الجهاد ، وارتحل مبادراً بالاجازة إلى الأندلس . والله تعالى أعلم .

الخبر عن اجازة السلطان أبي يوسف صريخا للطاغية لخروج ابنه شانجة عليه وافتراق كلمة النصرانية وما كان في هذه الأخبار من الغزوات

لما رجع السلطان من غزاة تلمسان إلى فاس ، وارتحل إلى مراکش وافاه بها وفد الطاغية من بطارقتة وزعماء دولته ، وقواميس ملته صريخاً على ابنه شانجة . خرج عليه في طائفة من النصارى وغلبوه على أمره ، فانتصر أمير المسلمين ودعاه لحربهم

(١) كذا في النسخة الباريسية ونسخة أخرى ، وفي نسخة ثانية : ثم ارتحل الى نامه ثم إلى تافنا .

(٢) وفي نسخة ثانية : منقي .

وأمله لاسترجاع ملكه من أيديهم ، فأجاب أمير المسلمين داعية رجاء للكرة بافتراقهم ، وارتحل حتى انتهى إلى قصر الحجاز ، وأوعز إلى الناس بالنفير إلى الجهاد ، وأجاز إلى الخضراء فاحتل به الربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين وستمائة واجتمعت عليه مسالح الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عباد^(١) ، فوافاه بها الطاغية ذليلاً لغز الإسلام مؤملاً صريح السلطان ، فأكبر وفادته وأكرم موصله وعظم قدره وأمدّه لنفقاته بمائة ألف من مال المسلمين استرهن فيها التاج الذخيرة عند سلفه ، وبقي بدارهم فخراً للأعقاب لهذا العهد . ودخل معه دار الحرب غازياً حتى ينازل قرطبة ، وبها شانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفة ، فقاتلها أياماً ثم أفرج عنها . وتنقل في جهاتها ونواحيها وارتحل إلى طليطلة فعاث في جهاتها ، لوخرّب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر ، فامتلات أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها . وقفل إلى الجزيرة فاحتلّ بها لشعبان من سنته ، وكان عمر بن محلي نزع إلى طاعة السلطان فهمّ به ابن الأحمر ، ونبذ إليه عهده . وارتجع المنكب من يده ونازله بعساكره فاتح هذه السنة ، فجهّز السلطان إليه لوصوله الجزيرة أسطوله . وأفرج ابن الأحمر عنه ، فبادر إلى السلطان بطاعته ، ووصل بيعة شلوبانية فأبقاه فيها بدعوته . ثم راجع طاعة ابن الأحمر في شوال من سنته ، فتقبل فيئته وأعاضه عنها بالمنكب^(٢) إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن شأن السلم مع ابن الأحمر وتجافي السلطان له عن مالقة ثم تجدد الغزو بعد ذلك

لما اتصلت يد السلطان بيد الطاغية ، خشي ابن الأحمر غائلته ، فجنح إلى موالة شانجة الخارج عن أبيه . ووصل يده بيده ، وأكد له العقد على نفسه وأضمرت له الأندلس ناراً وفتنة . ولم تغن شانجة عن ابن الأحمر شيئاً ورجع السلطان من غزاته مع الطاغية ، وقد ظهر على ابنه فأجمع على منازلة مالقة ، ونهض إليها من الجزيرة فاتح إثنين وثمانين وستمائة فتغلب على الحصون الغربية كلها . ثم أسعف إلى مالقة

(١) وفي نسخة أخرى : عباد .

(٢) المنكب : كان حصناً قوياً ، وهو اليوم فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز مطريل في مديرية غرناطة .

فأناخ عليها بعساكره . وضاق النطاق على ابن الأحمر وبدا له سوء المغبة في شأن مالقة ومداخلة ابن محلي في الغدر بها ، وأعمل نظره في الخلاص من ورطتها . ولم ير لها إلا ولي عهد السلطان ابنه أبا يوسف ، فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخاً لرفع هذا الخرق ، وجمع كلمة المسلمين على عدوهم ، فأجابه واغتم المثوبة في مسعاه . وأجاز لشهر صفر ، فوافى أمير المسلمين بمعسكره على مالقة . ورغب منه السلم لابن الأحمر عن شأن مالقة والتجافي له عنها ، فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله في جهاد عدوه وإعلاء كلمته . وانعقد السلم وأنبسط أمل ابن الأحمر ، وتجددت عزائم المسلمين ، وقفل السلطان إلى الجزيرة وبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا . ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج من الجزيرة غازياً غرة ربيع الثاني من سنة إثنين وثمانين وستمائة حتى انتهى إلى قرطبة ، فأثخن وغنم وخرّب العمران وافتتح الحصون . ثم ارتحل نحو البرت وخلف معسكره بظاهر بياسة^(١) وأخذ السير في أرض قفر ليلتين انتهى إلى البرت من نواحي طليطلة^(٢) ، فسرح الخيل في البسائط حتى تقرى جميع ما فيها . ولم يتته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم ، وأثخن في القتل ، وقفل على غير طريقه فأثخن وخرّب وانتهى إلى أبدّة . ووقف بساحتها والعدو منحجزون ، ثم رجع إلى معسكره بساسة وأراح ثلاثاً ينسف آثارها ويقتلع أشجارها . وقفل إلى الجزيرة فاحتل بها شهر رجب وقسم الغنائم ونقل من الخمس . وولى على الجزيرة حافده عيسى ابن الأمير أبي مالك ابنه ، فهلك شهيداً بالمعترك لشهرين من ولايته ، وأجاز السلطان غرة شعبان إلى المغرب ، ومعه ابنه أبو زيّان منديل ، وأراح بطنجة ثلاثاً . وأخذ السير إلى فاس فاحتل بها آخر شعبان ، ولما قضى صيامه ونسكه ، ارتحل إلى مراکش لتمهيدها . وتفقد أحوالها . وقسم من نظره لنواحي سلا وأزدرد^(٣) فأقام برباط الفتح شهرين إثنين ، واحتل مراکش فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية ابن أدفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج عليه ، فتحرّكت إلى الجهاد عزائمهم وسرح الأمير أبا يعقوب وليّ عهده

(١) بياسة : بينها وبين جيان عشرون ميلاً وتطل على النهر الكبير ، استولى عليها الروم سنة ٦٣٢ هجرية .

(٢) طليطلة : كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طارق بن زياد ، وهي مشرفة على ما يليها من الأندلس إلى الجنوب ، وكانت من أولى المدن التي انتزعت من يد العرب إذ استولى عليها الفونش السادس عام ٤٧٨ هـ وجر ذلك إلى معركة الزلاقة .

(٣) وفي نسخة ثانية : أزور .

بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب ، وكفّ عاديتهم ، ومحو آثار الخوارج المنتزعين على الدولة ، فأجفلوا أمامه ، واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس ، فهلك أكثر العرب في تلك القفار مسغبة وعطشاً ، وقفل لما بلغه من اعتلال أمير المؤمنين ، ووصل إلى مراكش وقد أبلّ ، وقد اعترم على الجهاد والغزو وشكر الله ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف الرابعة ومحاصرة شريش وما تحلل ذلك من الغزوات

لما اعترم أمير المسلمين على الإجازة واعترض جنوده وحاشيته ، وأزاح عنهم ، وبعث في قبائل المغرب بالنفير ، ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستائة واحتل رباط الفتح منتصف شعبان ففضى به صومه ونسكه ، ثم ارتحل إلى قصر مصمودة وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتقة والمطوعة خاتم سنته . ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين وستائة بعدها واحتل بظاھرھا^(١) . ثم سار منها إلى الخضراء وأراح أياماً . ثم خرج غازياً حتى انتهى إلى وادلك^(٢) ، وسرح الخيول في بلاد العدو وبسائطها يحرق وينسف . فلما خرّب بلاد النصرانية ودمّر أرضهم قصد مدينة شريش^(٣) ، فترل بساحتها وأناخ عليها ، وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها ، وبعث المسالحي التي كانت بالثغور ، فتوافت لديه . ولحقه حافده عمر بن أبي مالك بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرساناً ورجالاً ، ووافته حصّة العزفي من سبته غزاة ناشبة تناهز خمسمائة من الرجل . وأوعز إلى وليّ عهده الأمير أبي يعقوب باستنفار من بقي بالعدوة من المسلمين إلى الجهاد ، وعقد لحافده الآخر منصور بن عبد الواحد على الف فارس من الغزاة . وأعطاه الراية

(١) وفي نسخة ثانية : واحتل بطريق .

(٢) وفي نسخة ثانية : وادي لك وفي نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٩ وادي لك .

(٣) شريش : قال الحجاري : ان مدينة شريش بنت أشيلية — تقع إلى الجنوب الشرقي من بطليوس وتشتهر اليوم بالنبيذ الجيد — وواديها ابن واديها . وهي مدينة جليلة ضخمة الأسواق ، لأهلها هم ، وظرف في اللباس واطهار الرفاهية وتخلّق بالآداب . ولا تكاد ترى فيها إلا عاشقاً ومعشوقاً . تشتهر بالمجنبات وهي نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجبتها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤) .

وسرّحه لغزو إشبيلية لآخر صفر من سنته ، فغنموا ومرّوا بقرمونة^(١) في منصرفهم فاستباحوها وأثنوا بالقتل والأسر ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم . وبعث وزيره محمد بن عطوا^(٢) ومحمد بن عمران بن عبلة عيوناً ، فوافوا حصن القناطر وروطه ، واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور ، فعقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان لثالثة من ربيع وأعطاه الراية ، وسرّحه إلى بسائط وادلكّ ، فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد أن أثنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار ، وأبادوا عمرانها . ثم سرّح ثامن ربيع عسكرياً للإغارة على حصن أركش ، ووافوه على غرة فاكسحوا أموالهم . ثم عقد تاسع ربيع لابنه أبي معروف على ألف من الفرسان . وسرّحه لغزو إشبيلية فساروا حتى توقف عليها . وانحجرت منه حاميتها ، فخرّب عمرانها وحرّق زروعها وقطع شجرها . وامتلات أيدي عسكريه سبياً وأموالاً ، ورجع إلى معسكر السلطان مملوء الحقائب . ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع لغزو حصن كان بالقرب من معسكره ، وسرّح الرجل من الناشبة والفعلة بالآلات . وأمدّه بالرجل من المصامدة . وغزاة سبته فاقتموه عنوة على أهله ، وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية ، وأرغموا خده بالتراب .

ولسبع عشرة من الشهر ركب السلطان إلى حصن سقوط قريباً من معسكره ، فخرّبه وحرّقه بالنار ، واستباحه . وقتل المقاتلة وسبى أهله . ولعشرين من شهره وصل وليّ عهده ، الأمير أبو يعقوب من العدو بنفير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة ، وعساكر موفورة ، وركب أمير المسلمين للقائهم وبرور مقدمهم . واعترض العساكر الموافية يومئذ فكانت ثلاثة عشر ألفاً من المصامدة ، وثمانية آلاف من برابرة المغرب متطوعون كلّهم بالجهاد ، فعقد السلطان له على خمسة آلاف من المرتزة وألفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفاً من الرجل والفين من الناشبة وسرّحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها ، فعبى كتابه ونهض لوجهه . وبث الغارات بين يديه ، فأثنوا وسبوا وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الأموال . وعاج على الشرق والغابة من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتحم من حصونها عدة ، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين

(١) قرمونة : مدينة الى الشمال الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٥ كلم وكانت كورة واسعة تضم عدة مدن وحصون .

(٢) وفي نسخة ثانية : محمد بن عتو .

ظاهراً عزيزاً غانماً . ولسادس ربيع الثاني وصل الأمير أبو زيّان مندبيل بن طريف بعسكر وافر من المسلمين فعقد له غداة وصوله وأمدّه بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادي الكبير ، فأغار على قرمونة . وطمعت حاميتها في المدافعة فبرزوا له وصدقهم القتال فانكشفوا حتى احجزوهم في البلد . ثم أحاطوا ببرج كان قريباً من البلد ، فقاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة ، ولم يزل يتقرّى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية ، فأغار واقتحم برجاً كان هنالك عيناً على المسلمين ، وأضرمه ناراً . وامتلات أيدي عساكره ، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين .

ولثلاث عشرة من ربيع الثاني عقد للأمير أبي يعقوب لمنازلة جزيرة كيوتر^(١) ، فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة . وفي ثاني جمادى عقد لطلحة بن يحيى بن محلى ، وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين وستائة خرج إلى الحجّ ، فقضي فرضه ورجع ، ومرّ في طريقه بتونس واتهمه الدعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة إثنين وثمانين ، ثم سرّحه ولحق بقومه بالمغرب . ثم أجاز الأندلس غازياً في ركاب السلطان ، فعقد له في هذه الغزاة على مائتين من الفرسان وسرّحه إلى إشبيلية ليكون رتبة^(٢) للمعسكر وبعث معه لذلك عيوناً من اليهود والمعاهدين من النصارى ، يتعرّفون له أخبار الطاغية شانجة وأمير المسلمين أثناء ذلك يغادي شريش ويراوحها بالقتال والتخريب ، ونسف الآثار ، وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو ، فلا يخلو يوماً عن تجهيز عسكر أو اغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية ، حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية ، وخرّب بسائط إشبيلية وليلة^(٣) وقرمونة واستجة وجبال الشرق وجميع بسائط الفرنتيرة . وأبلى في هذه الغزوات عياد العاصمي من شيوخ جشم ، وخضر الغزي أمير الأكراد بلاءً عظيماً . وكان لهم فيها ذكر . وكذلك غزاة سبته وسائر المجاهدين والعرب من جشم وغيرهم . فلما دمرها تدميراً ونسفها تخريباً واكتسحها غارةً ونهباً ، وزحم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر ، اعتزم على القفول وأفرج عن شريش لآخر رجب ، ووفاه مدد غرناطة من عساكر الغزاة وقائدهم يعلى بن أبي عياد بن عبد الحق بوادي بردة ،

(١) وفي نسخة ثانية : جزيرة كيوتر .

(٢) بمعنى قائداً وفي نسخة ثانية : ربيبة وليس لها أي معنى حسب مقتضى السياق .

(٣) وفي نسخة ثانية : لبله كما في نفع الطيب ١٤١/١ .

فلقاهم مبرّة ، وتكريماً وانقلبوا إلى أهلهم . واتصل به أنّ العدو أوعز إلى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز أمير المسلمين إلى جميع سواحله من سبته وطنجة والمنكب وجزيرة وطيف وبلاد الريف ورباط الفتح . واستدعى أساطيله فتوافت منها ستة وثلاثون أسطولاً متكاملة في عدتها وعديدها ، فأحجمت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها . واحتلّ بالجزيرة غرة رمضان . واستيقن الطاغية شانجة وأهل ملته أنّ بلادهم قد فئت وأرضهم خربت وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية ، فجنحوا إلى السلم وضرعوا إلى أمير المسلمين في كفّ عاديته عنهم على ما يذكر ووصل إلى السلطان بمكانه من منازل شريش عمر بن أبي يحيى بن محلي نازعاً إلى طاعته ، فاتهمه لما سبق من تلاعبه وأمر أخاه طلحة فنكبه . واحتمل إلى طريف فاعتقل بها ، وسار طلحة إلى المنكب فاستصفى أموال أخيه عمر وذخائره وسار إلى السلطان . وأقرّ ثانية أخاه موسى على عمله بالمنكب ، وأمدّه بعسكر من الرجل . ثم أطلق عمر لليال من اعتقاله . وأجاز طلحة وعمر في ركاب السلطان . ونزع منصور بن أبي مالك حافد السلطان إلى غرناطة ، ثم لحق منها بالمنكب وأقام مع موسى بن أبي يحيى بن محلي ، فأقره السلطان ورضي بمقامه والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد السلم ومهلك السلطان على تفيئة ذلك) *

لما نزل ببلاد النصرانية بلاد ابن أدفونش من أمير المسلمين ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبي نسائهم وإبادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم ، زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم من أمير المسلمين ، فاجتمعوا إلى طاغيتهم شانجة ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وألم النكال . وحملوه على الضراعة لأمر المسلمين في السلم وإيفاد الملاء من كبار النصرانية عليه في ذلك . وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة ، وتحل قريباً من دارهم فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهزيمة لدينه . وأوفد على أمير المسلمين من بطارقتهم وشمامستهم وأساقفهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والإبقاء ووضع أوزار الحرب ، فردّهم أمير المسلمين

اعتزازاً عليهم . ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه . فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن من صاغيتهم إليه وذللهم لعز الاسلام . وأجابهم إلى ما سألوه واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه ، والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ، ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده ، وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة . وبعث لعمه عبد الحق ابن الترجان باشرط ذلك وأحكام عقده . فاستبلغ وأكد في الوفاء . ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه دون أمير المسلمين على قومه ، ومدافعتهم عنهم ، فأحضرهم بمشهد ابن الترجان وأسمعهم ما عقد أمير المسلمين على قومه وأهل ملته . وقال لهم إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم والحرب ، وهذا أمير المسلمين ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا . ولما رأى عبد الحق صاغيته إلى مرضاة السلطان وسوس إليه بالوفادة لتمكن الألفة وتستحكم العقدة ، وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة وتمكين الألفة ، فصغى إلى وفاته . وسأل لقي الأمير أبي يعقوب ولي عهده من قبل ليطمئن عليه ، فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش . وباتا بمعسكر المسلمين هنالك . ثم ارتحلا من الغد للقاء أمير المسلمين وقد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه وإظهار شعار الإسلام أبهته ، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية .

ولقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يلقي بها مثله من عطاء الملل . وقدم الطاغية بين يديه هدية أتخف بها أمير المسلمين وابنه من ظرف بلاده ، كان فيها زوج من الحيوان الوحشي المسمى بالفيل ، وحجارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الظرف . فقبلها السلطان وابنه وقابلوه بكفائها ومضاعفتها ، وكمل عقد السلم ، وتقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الاسلام عنه . وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضا والمسرة وسأل منه أمير المسلمين أن يبعث من كتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام ، فاستكثر من أصنافها في ثلاثة عشر حملاً بعث بها إليه ، فوقفها السلطان بالمدرسة التي أسسها بفاس لطلب العلم .

وقفل أمير المسلمين إلى الجزيرة لليلتين بقيتا لرمضان ، ففضى صومه ونسكه . وجعل من قيام ليله جزءاً لمحاضرة أهل العلم . وأعد الشعراء كلمات أنشدوها يوم الفطر بمشهد

الملا في مجلس أمير المسلمين . وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة عزوز
المكناسي . ذكر فيها سير أمير المسلمين وغزواته على نسق .
ثم أعمل أمير المسلمين نظره في الثغور فرتب بها المسالحي وعقد عليها لابنه الأمير أبي
زيان منديل ، وأنزله بركوان مقربة مالقة ، واستوصاه بأن لا يحدث في بلاد ابن
الأحمر حدثاً . وعقد لعياد بن أبي عياض العاصمي على مسلحة أخرى ، وأنزله
بأصطبونة . وأجاز ابنه الأمير أبا يعقوب لتفقد أحوال المغرب ومباشرة أموره ، فأجاز
في أسطول القائد محمد بن القاسم الرنداحي قائد سبته . وأوعز إليه بالبناء على قبر أبيه
أبي الملوك عبد الحق ، ولقيه إدريس بتافرطست ، فاختم هنالك رباطاً وبني على
قبورهم أسمنة من الرخام ، ونقشها بالكتابة ، ورتب عليها قراء لتلاوة القرآن ، ووقف
على ذلك ضياعاً وفدناً . وهلك خلال ذلك وزيره يحيى بن أبي منديل العسكري
لمنتصف رمضان . ثم اعتل بعد ذلك أمير المسلمين لشهر ذي الحجة واشتد وجعه
وهلك لآخر محرم سنة خمس وثمانين وستمائة والله أعلم .

* (الخبر عن دولة السلطان وما كان فيها من الاحداث وشأن
الخوارج لأول دولته) *

لما اعتل أمير المسلمين أبو يوسف بالجزيرة ، مرضه نساؤه ، وطيرن الخبر إلى ولي العهد
الأمير أبي يعقوب وهو بمكانه من المغرب ، فأغذ السير ، وقضى أمير المسلمين قبل
وصوله ، فأخذ له البيعة على الناس وزراء أبيه وعظماء قومه ، وأجاز إليهم البحر ،
فجددوا بيعته غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها على الكافة . وانعقد أمر
السلطان يومئذ ففرق الأموال وأجزل الصلوات ، وسرح السجون ورفع عن الناس
الأخذ بزكاة الفطر ، ووكلهم فيها إلى أمانتهم . وقبض أيدي العمال عن الظلم
والاعتداء والجور على الرعايا ، ورفع المكوس ومحارسم الرتب ، وصرف اعتناؤه إلى
إصلاح السابلة . وكان أول شيء أحدث من أمره إلى أن بعث ابن الأحمر وضرب
موعداً للقائه ، فبدر إليه ولقيه بظاهر مربالة^(١) لأول ربيع . ولقاه مبرة وتكريماً

(١) وفي نفع الطيب ج ٥ ص ٨٥ : مربلة .

وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت لمملكته ما عدا الجزيرة وطريف .
وتفرقا من مكانها على أكمل حالات المصافاة والوصلة ، ورجع السلطان إلى الجزيرة
ووفاه بها وفد الطاغية شانجة مجددين عقد السلم الذي عقد له أمير المسلمين عفا الله
عنه فأجابهم . ولما تمهد أمر الأندلس ومرّ عن النظر فيها ، عهد لأخيه أبي عطية
العبّاس على الثغور الغربية والإمارة عليها . وعقد لعلي بن يوسف بن يزكاسن على
مساحها ، وأمدّه بثلاثة آلاف من عساكره . وأجاز إلى المغرب فاحتلّ بقصر مصمودة
سابع ربيع الثاني . ثم ارتحل إلى فاس ، واحتلّ بها لإثنتي عشرة خلت من جمادى ،
ولحين استقراره بدار ملكه ، خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في إخوته
وبنيه وذويهم ، ولحق بجبل ورغة^(١) . ودعا لنفسه ، وسرح إليه السلطان أخاه أبا
معروف ، فبدا له في النزوع إليهم ، ولحق بهم . فأغزاهم السلطان عساكره وردّد
إليهم البعوث والكتائب ، وتلطّف في استئزال أخيه ، فنزل عن الخلاف وعاد إلى
حسن طاعته . وفرّ أولاد إدريس إلى تلمسان ، وتقبّض عليهم أثناء طريقهم ، وسرح
السلطان أخاه أبا زيّان إلى تازي ، وأوعز إليه بقتلهم بمليي خارج
تازي لرجب من سنة خمس وثمانين وستائة ورهب الأعياص عند ذلك
من بادرة السلطان ففرقوا ولحق بغرناطة أولاد أبي العلاء إدريس بن
عبد الحق ، وأولاد يحيى بن عبد الحق ، وأولاد عثمان بن يزول .
ورجع أولاد أبي يحيى إلى السلطان بعد اقتضاء عهده وأمانه . وهلك
أخوه محمد بن يعقوب بن عبد الحق لشعبان من سنته . وهلك عمر ابن أخيه أبي
مالك بطنجة . ثم خرج على السلطان عمر بن عثمان بن يوسف العسكري بقلعة
قندلاوة ، ونبد الطاعة وأذن بالحرب . وأوعز السلطان إلى بني عسكر ومن إليهم من
القبائل المجاورين لها ، فاحتشدوا له ونازلوه . ثم نهض بركابه وعساكره إلى منازلته ،
واحتل بسدورة^(٢) ، وخافه عمر على نفسه ، وأيقن أنه أحيط به ، فسأل الأمان .
وبذله السلطان على شريطة اللحاق بتلمسان ، فبعث من يوثق به من الخيرة فنزل .
فوفّى له السلطان بعهده ، ولحق بتلمسان بأهله وولده .
ثم ارتحل السلطان في رمضان من سنته إلى مراکش لتمهيد أنحائها ، وتثقيف أطرافها ،

(١) وفي نسخة ثانية : جبل درعة .

(٢) وفي نسخة ثانية : ببندورة .

واحتل بها في شوال ، واعتمل النظر في مصالحها ، ونزع خلال ذلك طلحة بن محلي البطوي إلى بني حسان من المعقل ، وخرج على السلطان ودعا لنفسه . وعقد السلطان لمنصور ابن أخيه أبي مالك على العساكر ، وعهد له بولاية السوس وسرحه لاستتزال الخوارج ، ومحو آثار الفساد . وارتاب بمكان أخيه عمر فغربه إلى غرناطة ، فقتله أولاد أبي العلاء يوم وصوله إليها ، فسار الأمير منصور في الجيوش والكتائب ، وغزا عرب المعقل وأثنخ فيهم . وقتل طلحة بن محلي في بعض حروبهم لثلاث عشرة في جمادى سنة ست وثمانين وستمائة وبعث برأسه إلى سدة السلطان فعلق بتازى . ثم نهض في رمضان لغزو المعقل بصحراء درعة لما أضروا العمران وأفسدوا السابلة . وسار إليهم في اثني عشر ألفاً من الفرسان ، ومرّ على بلاد هسكورة معترضاً جبل درن . وأدركهم بالقفر نواجع ، فأثنخ فيهم بالقتل والسبي . واستكثروا من رؤسهم فعلقت بشرافات مراكش وسجلماسة وفاس . وعاد من غزوه إلى مراكش آخر شوال ، فنكب محمد بن علي بن محلي عاملها القديم الولاية عليها من لدن غلب الموحدين ، لما وقع من الارتباب بأولاد محلي لما آتاهم كبيرهم طلحة ، فنكب غرة المحرم من سنة سبع وثمانين وستمائة . وهلك في محبسه لشهر صفر بعده . وهلك على ذلك المزوار قاسم بن عتو^(١) . وعقد السلطان على مراكش وأعمالها محمد بن عطا الجاناني من موالي دولتهم ولاء الحلف . وترك معه ابنه أبا عامر . ثم ارتحل إلى حضرة فاس ، فاحتل بها منتصف ربيع ، ووافته بها عرسه بنت موسى بن رحو بن عبدالله بن عبد الحق من غرناطة في وفد من وزراء ابن الأحمر وأهل دولته ، فأعرس بها وكان بعث إلى أبيها من قبل في الاصحار بها . ووافته معها رسل ابن الأحمر يسألونه التجاني عن وادي آش ، فأسغفهم بها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن دخول وادي آش في طاعة السلطان ثم رجوعها

الى طاعة ابن الأحمر) *

كان أبو الحسن بن أشقيلولة ظهير السلطان ابن الأحمر على ملكه ، ومعينه على شأنه ، وكان له في الدولة بذلك مكان . ولما هلك خلف من الولد أبا محمد عبدالله وأبا

(١) وفي نسخة ثانية : قاسم بن عتو .

اسحق ابراهيم ، فعقد ابن الأحمر لأبي محمد على مالقة ولأبي اسحق على قمارش ووادي آش . ولما هلك السلطان ابن الأحمر حدثت مغاضبات ومنافسات بينهما وبينه ، وتآدى ذلك إلى الفتنة كما قلناه ودخل أبو محمد في طاعة السلطان أبي يوسف . ثم هلك فلحق ابنه محمد بالسلطان ، ونزل له عن البلد سنة ست وسبعين وستائة ثم هلك أبو اسحق سنة اثنتين وثمانين وستائة وغلب ابن الأحمر على حصن قمارش وصار إليه . وكان الرئيس أبو اسحق قد عقد لابنه أبي الحسن على وادي آش وحصونها ، واتصلت الفتنة بينه وبين ابن الأحمر ، وظاهر أبو الحسن عليه الطاغية وأجلب أخوه أبو محمد معه على غرناطة هو وابن الدليل . وطال أمر الفتنة بينهما وبين ابن الأحمر . ثم انعقد السلم بين المسلمين والنصارى ، وخشي أبو محمد بن أشقيلولة على نفسه عادية ابن الأحمر ، فتقدم بطاعة صاحب المغرب ، وأقام دعوته بوادي آش سنة ست وثمانين وستائة فلم يعرض لها ابن الأحمر حتى اذا وقعت المواصلتة بينه وبين ابن السلطان أبي يعقوب ، وكان شأن هذا الصهر على يده ، بعث رسله إلى السلطان يسأله التجافي عن وادي آش ، فتجافى له عنها وبعث إلى أبي الحسن بن أشقيلولة بذلك فتركها . وارتحل إليه سنة سبع وثمانين وستائة ولقيه بسلا ، فأعطاه القصر الكبير وأعماله طعمة سوّغه إياها . ثم نزل لابنه آخر دولتهم . واستمكن ابن الأحمر من وادي آش وحصونها ، ولم يبق له بالأندلس منازع من قرابته . والله يوثي ملكه من يشاء ، والله أعلم .

* (الخبر عن خروج الامير أبي عامر ونزوعه الى مراکش ثم
فيئته الى الطاعة) *

لما احتل السلطان بفاس وأقام بها خرج عليه ابنه أبو عامر ، ولحق بمراكش ، ودعا لنفسه أخريات شوال من سنة سبع وثمانين وستائة وساعده على الخلاف والانتزاع عاملها محمد بن عطو . وخرج السلطان في أثره إلى مراکش ، فبرز إلى لقاءه ، فكانت الدائرة عليهم وحاصروهم السلطان بمراكش أياماً . ثم خلص أبو عامر إلى بيت المال فاستصفى ما فيه وقتل المشرف ابن أبي البركات ، ولحق بجبال المصامدة ، ودخل السلطان من غده إلى البلد يوم عرفة ، فعفا وسكن ونهض منصور ابن أخيه

لامير ابو مالك من السوس إلى حاجة فدوّخ انحاءها . ثم سرح إليه المدد من
مراكش ، فأوقعوا بوكنة^(١) من برابرة السوس ، وقتل منهم ما يناهز أربعين من
سرواتهم . وكان فيمن قتل منهم شيخهم حيون^(٢) بن ابراهيم . ثم إن ابنه أبا عامر
ضاق ذرعه بسخط أبيه وإجلابه في الخلاف ، فلحق بتلمسان ومعه وزيره ابن عطو
فاتح سنة ثمان وثمانين وستائة فأواهم عثمان بن يغمراسن ، ومهد لهم المكان ولبثوا
عنده أياماً . ثم عطف السلطان على ابنه رحم لما عطفت ابنته عليه ، فرضي عنه وأعادته
إلى مكانه ، وطالب عثمان بن يغمراسن أن يسلم إليه ابن عطو الناجم في النفاق مع
ابنه ، فأبى من إضاعة جواره وإخفار ذمته ، وأغلظ له الرسول في القول فسطا به
واعتقله ، فثارت من السلطان الحفائظ الكامنة ، وتحركت الأحن القديمة ،
والتزلات المتوارثة . واعتزم على غزو تلمسان والله أعلم .

* (الخبر عن تجدد الفتنة مع عثمان بن يغمراسن وغزو السلطان
مدينة تلمسان ومنازلته اياها) *

كانت الفتنة بين هذين الحيين قديمة من لدن مجالاتهم بالقفر من حمراء ملوية إلى
صا ، إلى فيكيك ، ولما انتقلوا إلى التلول وتغلبوا على الضواحي بالمغرب الأقصى
والأوسط ، لم تزل فتنتهم متصلة وأيام حروبهم فيها مذكورة . وكانت دولة الموحدين
عند اختلالها والتمياها تستنصر منهم بالتضريب بينهم والفتنة ، فتأكدت لذلك أحوالها
واتصلت أيامها . وكان بين يغمراسن بن زيّان وأبي يحيى بن عبد الحق فيها وقائع
ومشاهد ، نقلنا منها بعضاً من كل . واستظهر الموحدون بيغمراسن عليه في بعضها .
وكان الغلب أكثر ما يكون لأبي يحيى بن عبد الحق لوفور قبيلة . إلا أن يغمراسن
كان يتصدى لمقاومته في سائر وقائعه . ولما طمس أثر بني عبد المؤمن واستولى يعقوب
ابن عبد الحق على ملكهم ، وصارت في جملته عساكرهم ، وتضاعف عليه ،
وأسف على ملك يغمراسن ملكه . وجمع له فأوقع به في تلاغ الواقعة المعروفة . ثم
أوقع به ثانية وثالثة . ولما استوت قدم يعقوب بن عبد الحق في ملكه ، واستكمل فتح

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : زكنة .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخ أخرى : حيون — حبور — حنون .

المغرب وسائر أمصاره ، وكبح يغمراسن عن التطاول إلى مقاومته ، وأوهن قواه بفلّ جموعه ومنازلته في داره ، ومظاهرة أقتاله من زناته بني توجين ومغراوة عليه . فانصرف بعد ذلك إلى الجهاد ، فكان له فيه شغل عمّا سواه كما نقلناه في أخباره . ولما انصرف ارتاب ابن الأحمر بمكان السلطان يعقوب بن عبد الحق من الأندلس ، وحذّره على ملكه ، وتظاهر مع الطاغية على منعه من الإجازة إلى عدوتهم ، ثم خشوا أن لا يستقلوا بمدافعتهم ، فراسلوا يغمراسن في الأخذ بحجزته . وأجابهم إليها وجرد عزائمها ، واتصلت أيديهم في التظاهر عليه . ثم فسد ما بين ابن الأحمر والطاغية ولم يكن له بدّ من ولاية يعقوب بن عبد الحق ، فتولى^(١) بواسطة ابنه يوسف بن يعقوب كما ذكرناه وأطلعوه على خبائ يغمراسن في مظاهرتهم ، فأغزاه سنة تسع وسبعين وستائة وهزمه بخرزونة^(٢) . ونازله بتلمسان ووطأ عدوّه من بني توجين بساحته كما ذكرناه . ثم انصرف إلى شأنه من الجهاد ، وهلك يغمراسن بن زيّان على تفيئة ذلك سنة إحدى وثمانين وستائة ، وأوصى ابنه عثمان ولي عهده ، زعموا أن لا يحدث نفسه بمقاومة بني مرين ومساماتهم في الغلب ، وأن لا يبرز إلى لقاءهم بالصحراء ، وأن يلوذ منهم بالجدران متى سماوا إليه . وألقى إليه ، زعموا أن بني مرين بعد تغلبهم على مراکش ، وانضياف سلطان الموحدين إلى سلطانهم ، ازدادت قوتهم وتضاعف غلبهم . وقال له زعموا فيما أوصاه . ولا يغرّك أني رجعت إليهم بعدها ، وبرزت إلى لقاءهم ، فإني أنفت أن أرجع عن مقاومتهم بعد اعتيادها ، وأترك مبارزتهم وقد عرفها الناس . وأنت لا يضرك العجز عن مبارزتهم والنكول عن لقاءهم ، فليس لك في ذلك مقام معلوم ، ولا عادة سالفة ، واجهد جهدك في التغلب على أفريقية ورائك ، فإن فعلت كانت المناهضة . وهذه الوصاة زعموا هي التي حملت عثمان وبنيه من بعده على طلب ملك أفريقية ، ومنازلة بجاية وحربهم مع الموحدين . ولما هلك يغمراسن ذهب ابنه إلى مسالة بني مرين ، فبعث أخاه محمداً إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق ، وأجاز البحر إليه بالأندلس . ووافاه بأركش في إجازته الرابعة سنة أربع وثمانين وستائة فعقد له ما جاء إليه من السلم والمهادنة ، ورجّعه إلى أخيه وقومه ممتكاً كرامةً وسروراً . وهلك يعقوب بن عبد الحق أثر ذلك سنة خمس وثمانين

(١) وفي نسخة ثانية : فتولاه .

(٢) وفي نسخة ثانية : خرزونة .

وستأته وقام بالأمر إبنه يوسف بن يعقوب . وانترى الخوارج عليه بكل جهة ، فشر لهم واستترهم وحسم أدواءهم . ثم خرج عليه ابنه آخرأ كما ذكرناه بمالأة وزير السلطان محمد بن عطفو . ثم فاء إلى طاعة أبيه ورضي عنه ، وأعادته إلى مكانه من حضرته . وطالب عثمان بن يغمراسن كما ذكرناه في ابن عطفو المنتري عليه مع ابنه ، فأبى عثمان من تسليمه وتحركت حفيظة السلطان واعتزم على غزوهم ، فارتحل من مراكش لصفر من سنة سبع وثمانين^(١) وعقد عليها لإبنه الأمير أبي عبد الرحمن . ثم نهض لغزاته من فاس آخر ربيع من سنته في عساكره وجنوده ، وحشد القبائل وكافة أهل المغرب ، وسار حتى نزل تلمسان فأنحجز عثمان وقومه بها ، ولاذوا منه بجدرانها . فسار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب العمران ويحطم الزرع . ثم نزل بذراع الصابون بساحتها . ثم انتقل منه إلى تامة^(٢) وحاصرها أربعين يوماً ، وقطع أشجارها ، وأباد تخضراءها . ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعاً إلى المغرب . وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بني يرناتن ، ونسك الأضحى وقربانه بتازي ، وتلبث بها ، ومنها كان فصوله للغزو عند انتقاض الطاغية كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض الطاغية واجازة السلطان لغزوه) *

لما رجع السلطان من غزو تلمسان وافاه الخبر بأن الطاغية شانجة انتقض ونبذ العهد ، وتجاوز التخوم وأغار على الثغور ، فأوعز إلى قائد المسالحي علي بن يوسف بن يزكاسن بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش . وشن الغارات على بلاد الطاغية ، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستائة وجاس خلالها ، وتوغل في أقطارها ، وأبلغ في النكاية . وفصل السلطان من تازي غازياً على أثره في جمادى ، واحتل قصر مصمودة ، واستنفر أهل المغرب وقبائله . ونفروا وشرع في إجازتهم البحر . وبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزاً دون الإجازة ، فأوعز السلطان إلى قواد أساطيله بالسواحل فأغزاهم . والتقت الأساطيل ببحر الزقاق في شعبان فاقتلوا وانكشف

(١) وفي نسخة ثانية : تسع وثمانين .

(٢) وفي نسخة ثانية : تامة .

المسلمون ومحصهم الله . ثم أغزاهم ثانية ونحامت أساطيل العدو عن اللقاء ، وصاعدوا عن الزقاق . وملكته أساطيل السلطان فأجاز أخريات رمضان واحتل بطريف . ثم دخل دار الحرب غازياً ، فنازل حصن بجزر ثلاثة أشهر ، وضيق عليهم . وبث السرايا في أرض العدو ، وردد الغارات على شريش وإشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ في النكاية والإثخان . وقضى من الجهاد وطراً ، وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن العسكر ، فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة . ثم أجاز إلى المغرب فاتح إحدى وتسعين وستائة فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه كما نذكره إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن انتقاض ابن الأحمر ومظاهرته للطاغية على طريف أعادها الله للمسلمين) *

لما قفل السلطان من غزاة فاتح إحدى وتسعين وستائة كذا ذكرناه ، وقد أبلغ في نكاية العدو وأثنى في بلاده ، فأهم الطاغية أمره ، وثقلت عليه وطأته ، والتمس الوليعة من دونه . وحذر ابن الأحمر غائلته ، ورأى أن مغبة حاله الاستيلاء على الأندلس وغلبه على أمره ، ففاوض الطاغية وخلصوا نجياً . وتحدثوا أن استمكانه من الإجازة إليهم إنما هو لقرب مسافة بحر الزقاق ، وانتظام ثغور المسلمين حفافيه لتصرف شوانيمهم وسفنهم متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل وأن أم تلك الثغور طريف ، وأنهم إذا استمكنوا منها كانت ربيثة لهم على بحر الزقاق . وكان أسطولهم بمرقاها بمرصد الأساطيل صاحب المغرب الخائضين لجة ذلك البحر ، فاعترم الطاغية على منازلة طريف . وزعم له ابن الأحمر بمظاهرته على ذلك ، وشرط له المدد والميرة لأقوات العسكر أيام منازلها ، على أن تكون له إن خلصت . وتعاونوا على ذلك وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف . وألح عليها بالقتال ونصب الآلات وانقطع عنها المدد والميرة . واحتلت أساطيله ببحر الزقاق ، فحالفوا دون الصريخ من السلطان وإخوانهم المسلمين . وضرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريباً منه ، وسرّب إليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الأقوات ، وبعث عسكرياً لمنازلة حصن أصطبونة ، وتغلب عليه بعد مدة من الحصار . واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب

أهل طريف الجهد ، ونال منهم الحصار ، فراسلوا الطاغية في الصلح والتزول عن البلد ، فصالحهم واستترهم سنة إحدى وتسعين وستمائة ووفى لهم بعهده . واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية عنها لما عقدوا عليه ، فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضاً منها ، ففسد ذات بينهما ، ورجع ابن الأحمر إلى تمسكه بالسلطان واستعانت به لأهل ملته على الطاغية . وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسمعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودّة وتقرير المعذرة عن شأن طريف . فوافقوه بمكانه من منازل تازوفا كما يذكر بعد . فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وستمائة بأسعاف غرضه من المواخاة واتصال اليد . وهلك خلال ذلك قائد المسالحي بالأندلس علي بن يزكاسن في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وستمائة وعقد السلطان لابنه ولي عهده ، الأمير أبي عامر على ثغور الأندلس التي في طاعته ، وعهد له بالنظر في مصالحها . وأنفذه إلى قصر المجاز بعسكره فوفاه هنالك السلطان ابن الأحمر كما يذكر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن وفادة ابن الأحمر على السلطان

والتقائها بطنجة) *

لما رجعت الرسل إلى ابن الأحمر ، وقد كرّمت وفادتهم وقضيت حاجتهم ، وأحكمت في المواخاة مقاصدهم ، وقع ذلك من ابن الأحمر أجمل موقع ، وطار سروراً من أعواده . وأجمع الرحلة إلى السلطان لإحكام الودّ والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف وشأنها ، واستعدادهم لإغاثة المسلمين ونصرهم من عدوّهم . فاعترم على ذلك وأجاز البحر ذا القعدة سنة اثنتين وتسعين وستمائة واحتل بنيونش من ساحة سبتة . ثم ارتحل إلى طنجة ، وقدم بين يدي نجواه هدية سنّية أتخف بها السلطان ، كان من أحفلها وأحسنها موقعاً لديه فيما زعموا المصحف الكبير ، أحد مصاحف عثمان ابن عفان أحد الأربعة المنبئة إلى الآفاق ، المختص هذا منها بالمغرب ، كما نقله السلف . كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ، فتلقاه الأمير أبو عامر هنالك ، وأخوه الأمير

أبو عبد الرحمن ابنا السلطان واحتفلا في مبرّته . ثم جاء السلطان على أثرهما من حضرته لتلقّيه وبرور مقدمه ، ووافاه بطنجة ، وبلغ في تكرمته وبرّ وفادته ما يكرم به مثله . وبسط ابن الأحمر العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان عن العذل وأعرض عنه وقبل منه . وبرّ واحتفى ووصل وأجزل ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغريّة وعشرين حصناً من ثغور الأندلس كانت من قبل لطاعة صاحب المغرب ونزل عساكره . وعاد ابن الأحمر إلى الأندلس خاتم إثنين وتسعين وستائة محبواً محبوراً . وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف وعقد على حربها ومنازلتها لوزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن الخرباش الجشمي ، فنازلها مدّة ، وامتنعت فأفرج عنها . وصرف السلطان همته إلى غزو تلمسان وحصارها . كما يذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتزاع الوزير الوساطي بحصن تازوطا من جهات الريف واستئصال السلطان اياه) *

كان بنو الوزير هؤلاء رؤساء بني واطاس من قبل بني مرين ، ويرون أن نسبهم دخيل في بني مرين . وأنهم من أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين لحقوا بالبدو ونزلوا على بني واطاس ، ورسخت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم . ولم يزل السرو متربعا بين أعينهم لذلك ، والرياسة شامخة بأنوفهم . وكانوا يرومون الفتك بالأمراء من أولاد عبد الحق ، فلم يطيقوه . ولما احتلّ السعيد بتازي غازياً إلى تلمسان كما ذكرناه ، ولحق ببلدهم الأمير أبو يحيى بن عبد الحق ائتمروا في الفتك به . ونذر بشأنهم فارتحل ، ففرّوا إلى غبولة وعين الصفا من بلاد بني يزناسن ، وهناك بلغه خبر مهلك السعيد . وكانت بلاد الريف لبني واطاس من لدن دخول بني مرين المغرب واقتسامهم لأعماله فكانت ضواحيها لتزلمهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم . وكان حصن تازوطاها من أمنع المعاقل بالمغرب وكان الملوك من أولاد عبد الحق يعتنون بشأنه ، وينزلونه من أوليائهم من يثقون بغنائه واطلاعه ، ليكون آخذاً بناصية هؤلاء الرهط . وشجا في صدورهم عمّا يسمون إليه . وكان السلطان قد عقد عليه لمنصور ابن أخيه الأمير أبي مالك بعد مهلك ابنه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق . وكان عمر بن يحيى ابن الوزير وأخوه

عامر رئيسين على بني واطاس لذلك العهد ، فاستوهنوا أمر السلطان بعد مهلك أبيه ، وحدثوا أنفسهم بالانتراء بتازوطة والاستبداد بتلك الناحية ، فوثب عمر منهم بمنصور ابن أخي السلطان شهر شوال من سنة إحدى وتسعين وستائة وفتك برجاله وذويه وأزعجه عنها ، وغلبه على مال الجباية الذي كان بقصره ، فاستصفاه واستأثر به . واستبدّ وشحن الحصن برجاله وحاشيته ووجوه قومه . ووصل منصور إلى السلطان وهلك لليال من منجاته أسفاً لما أصابه . وسرح السلطان وزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرباش بالعساكر لمنازلته فأناخ عليه . ثم نهض السلطان على أثره ووافاه واضطرب معسكره بساحته . وخالف عامر أخاه عمر إلى السلطان بقومه حذراً من مغبة الأمر ، وأشفق عمر لشدة الحصار ويش من الخلاص ، وظن أن قد أحيط به ودس إلى أخيه عامر ، فاستأذن السلطان في مداخلته في الدخول على الحصن فأذن له . واحتمل ذخيرته وفر إلى تلمسان . وبدا لعامر في رأيه عندما خلع إلى الحصن وخلاله من أخيه عمر الجوّ . وحذر غائلة السلطان وخشي أن يثار منه بابن أخيه ، فامتنع بالحصن . ثم ندم وسقط في يده ، وفي خلال ذلك كان وصول وفد الأندلس ، وأرسوا أساطيلهم بمرسى غساسة ، فبعث إليهم عامر أن يشفعوا له عند السلطان لوجهتهم لديه ، فتقبلت شفاعتهم على شريطة إجازته إلى الأندلس ، وكره ذلك وقدم بين يديه بعض حاشيته إلى الأسطول مكرراً بهم ، وخاض الليل إلى تلمسان ، وتقبض السلطان على ولده وقتل . وأسلم أهل الاسطول من كان من حاشيته لديهم ، وتجاؤا عن إجازتهم على السلطان لما مكر بهم عامر فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذرياتهم^(١) وتملك السلطان حصن تازوطة وأنزل به عمّاله ، ومسلحته وقفل إلى حضرته بفاس آخر جمادى من سنة اثنتين وتسعين وستائة والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان الى بلاد الريف
وجهاً غمارة) *

كان الأمير أبو عامر بعد إجازة ابن الأحمر إلى السلطان أبيه ورضاه عنه ، وتأكيده

(١) وهي نسخة ثانية : ذويهم .

مؤاخاته وإغراء وزيره بمنازلة طريف ، واستتراله أولاد الوزير المنتزين بحصن تازو
رجع من قصر مصمودة إلى بلاد الريف بإيعاز أبيه إليه بذلك لتسكين أحوالها . وكان
أولاد الأمير أبي يحيى بن عبد الحق قد نزعوا إلى تلمسان لسعاية فيهم ، وقرت في
صدر السلطان ، فأقاموا بها أياماً ، ثم استعطفوا السلطان واسترضوه ، فرضي وأذن
لهم في الرجوع في محلهم من قومهم ودولتهم . وبلغ الخبر الأمير أبا عامر وهو بمعسكره
من الريف ، فأجمع على اغتيالهم في طريقهم فظن أنه يرضي بذلك أباه .
واعترضهم بوادي القطف من ملوية سنة خمس وتسعين وستائة فاستلحمهم وانتهى
الخبر إلى السلطان فقام في ركائبه وقعد ، وتبرأ إلى ابنه^(١) من إخفار ذمته . ومن صنع
ابنه . وسخطه وأقصاه ، فذهب مغاضباً ولحق ببلاد الريف . ثم صعد إلى جبل
غمارة ، فلم يزل طريداً بينهم . ونازلته عساكر أبيه لنظر ميمون بن وردار^(٢)
الجشمي ، ثم لنظر يرزيكن بن المولاة تاميمونت . وأوقع بهم مراراً آخرها بيزيكن
سنة سبع وتسعين وستائة ، وذكر الربجي^(٣) مؤرخ دولتهم أن خروجه بجبل غمارة كان
سنة أربع وتسعين وستائة وقتله لأولاد الأمير أبي يحيى كان سنة خمس وتسعين
وستائة بعدها أغزاهم^(٤) من مئوى انترائه ، وقتلهم كما ذكرناه والله أعلم . ولم يزل
هذا دأبه إلى أن هلك ببني سعيد من جبال غمارة سنة ثمان وتسعين وستائة ونقل شلوه
إلى فاس فووري بباب الفتوح ملحد قومهم هنالك . وأعقب ولدين نقلها السلطان
جدهما ، فكانا الخليفتين من بعده ملي ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن حصار تلمسان الكبير وما تخلل ذلك

من الاحداث) *

كان عثمان بن يغمراسن بعد إفراج السلطان سنة تسع وثمانين وستائة وانتقاض الطاغية

(١) وفي نسخة ثانية : إلى الله .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : وردان .

(٣) وفي نسخة ثانية : الزليخي .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : أغرابهم من مئوى انترائه .

وابن الأحمر عليه كما قلناه ، صرف إلى ولايتها وجه تدبيره وأوفد على الطاغية ابن بريدي من صنائع دولته سنة اثنتين وتسعين وستائة ووجه الطاغية مع الريك ريكسن رسول من كبار قومه . ثم عاد إليه الحاج مسعود من حاشيته ، ووصل يده بيده يظن ذلك دافعاً عنه . واعتدتها السلطان عليه وطوى له على النث . حتى اذا فرغ من شأن الأندلس وهلك الطاغية شانجة سنة ثلاث وتسعين وستائة لإحدى عشرة من سني ملكه ، وارتحل السلطان إلى طنجة لمشاركة أحوال الأندلس سنة أربع وتسعين وستائة فأجاز إليه السلطان ابن الأحمر ولقيه بطنجة ، وأحكم معه المؤاخاة . ولما استيقن سكون أحوالها ، نزل لابن الأحمر عن جميع الثغور التي بها الطاغية ، وأجمع غزو تلمسان ، ولحق به بين يدي ذلك ثابت بن منديل المغراوي صريخاً على ابن يغمراسن ومستجيشاً بقومه فتقبله وأجاره .

وكان أصاب الناس أعوام اثنتين وتسعين وستائة قحط ، ونالهم سنة وهنوا لها . ثم أن الله رحم خلقه وأدر نعمته ، وأعاد الناس إلى ما عهدوه من سبوغ نعمهم وخصب عيشتهم . ووفد عليه سنة أربع وتسعين وستائة ثابت بن منديل أمير مغراوة مستصرخاً به من عثمان بن يغمراسن ، فبعث من كبار قومه موسى بن أبي حمو إلى تلمسان شغيعاً في ثابت بن منديل فردّه عثمان أقبح ردّ وأساء في إجابته ، فعاود الرسالة إليهم في شأنه ، فلم يزداهم إلا إصراراً^(١) فاعتزم على غزو بلادهم واستعدّ لذلك ، ونهض سنة أربع وتسعين وستائة حتى انتهى إلى بلاد تاوريرت ، وكانت تحماً لعمل بني مرين وبني عبد الواد في جانبها عامل السلطان أبي يعقوب ، وفي جانبها الآخر عامل عثمان بن يغمراسن . فطرد السلطان عامل ابن يغمراسن وتميز بها ، واختطّ الحصن الذي هنالك لهذا العهد . تولاه بنفسه يغادي الفعلة ويراوحهم ، وأكمل بناءه في شهر رمضان من سته . واتخذة ثغراً للملكه ، وأنزل بني عسكر لحياطته وسدّ فروجه . وعقد عليهم لأخيه أبي يحيى بن يعقوب ، وانكفاً راجعاً إلى الحضرة .

ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين وستائة غازياً إلى تلمسان ، ومرّ بوجدة ، فهدم أسوارها وتغلب على مسيفة والزغاوة^(٢) . وانتهى إلى ندرومة ، ونازلها أربعين يوماً ورمها بالمنجنيق . وضيق عليها وامتنعت عليه فأفرج عنها ثاني الفطر . ثم أغزى

(١) وفي نسخة ثانية : فلم تزداهم إلا ضراراً .

(٢) وفي نسخة ثانية : الزغارة .

تلمسان سنة ست وتسعين وستائة وبرز لمدافته عثمان بن يغمراسن ، فهزمه وحجزه بتلمسان ، ونزل بساحتها وقتل خلقاً من أهلها ، ونازلها أياماً . ثم أقلع عنها وقفل إلى المغرب وقضى منسك الأضحى من سته بتازى . فأعرس هنالك لحافدة أبي ثابت ابن مندبل ، كان أصهر فيها إلى جدّها قبل مهلكه سنة ست وتسعين وستائة قتيلاً ببخيرة الزيتون من ظاهر فاس . قتله بعض بني ورتاجن في دم كان لهم في قومه ، فثار السلطان به من قاتله وأعرس بحافدته . وأوعز ببناء القصر بتازى ، وقفل إلى فاس فاتح سنة سبع وتسعين وستائة . ثم ارتحل إلى مكناسة وانكفاً إلى فاس . ثم نهض جهادى غازياً لتلمسان ومرّ بوجدة فأوعز ببنائها وتحصين أسوارها ، واتخذ بها قصبه وداراً لسكناه ومسجداً وأغزى إلى تلمسان ، ونزل بساحتها ، وأحاطت عساكره إحاطة الهالة بها ، ونصب عليها القوس البعيدة الترع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار ازدلف إليه الصناع والمهندسون بعملها ، وكانت توقر على أحد عشر بغلاً . ثم لما امتنعت عليه تلمسان أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستائة ومرّ بوجدة ، فأنزل بها الكتاب من بني عسكر لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت ، وأوعز إليهم بترديد الغزاة على أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها. وضاعت أحوالهم ويشوا من صريخ صاحبهم ، فأوفدوا على الأمير أبي يحيى وفداً منهم يسألون الأمان بمن وراءهم من قومهم ، على أن يمكّنوه من قياد بلدهم ، ويدينوا بطاعة السلطان ، فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم ، ودخل البلد بعساكره ، واتبعهم أهل تاوونت وأوفد مشيختهم جميعاً على السلطان آخر جهادى ، فقدموا عليه لحضرته وأدوا طاعتهم ، فقبلها . ورجبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوّه وعدوّهم ابن يغمراسن ، ووصفوا من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ، ما استنهض السلطان لذلك على ما يذكر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك

(من الأحداث) *

لما توفرت عزائم السلطان عن النهوض إلى تلمسان ، ومطاوله حصارها إلى أن يظفر بها ويقومها ، واستيقن أنه لا مدافع له عن ذلك ، نهض من فاس شهر رجب من سنة

ثمان وتسعين وستائة بعد أن استكمل حشده . ونادى في قومه ، واعترض عساكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عنهم . وارتجل في التعبئة واحتل بساحة تلمسان ثاني شعبان وأناخ عليها وضرب معسكره بفنائها . وحجز عثمان بن يغمراسن وحاميتها من قومه ، وأدار الأسوار سياجاً على عمرانها كله ، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى .

ورتب المسالح على أبوابها وفرجها ، وسرح عساكره لمحاصرتها فاقتحموها^(١) وآتوا طاعتهم ، وأوفد مشيختهم وسط شعبان . ثم سرح عساكره لمحاصرة وهران وتقرى البسائط ومنازلة الأمصار ، فأخذت مازونة في جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين وستائة وتنس في شعبان بعده ، وتالموت^(٢) والقصبات وتامزردكت في رمضان منه ، وفيه كان فتح مدينة وهران . وسارت عساكره في الجهات إلى أن بلغت بجاية كما نذكره . وأخذ الرعب بقلوب الأمم بالنواحي ، وتغلب على ضواحي مفاوة وتوجين ، وسارت فيها عساكره ودوّختها كتائبه ، واقتحمت أمصارها مثل مليانة ومستغانم وشرشال والبطحاء ووانشريس والمرية^(٣) وتافركنت ، وأطاعه زيري المنتري ببرشك . وأتى بيعته ، وابن علان المنتري بالجزائر . وأزعج الناكثين منهم عن طاعته ، واستألف أهل الطاعة^(٤) كما نذكره . وحذره الموحدون من ورائهم بأفريقية ملوك بجاية وملوك تونس ، فدّوا إليه يد المواصلة ولاطفوه بالمناخفة والمهاداة كما نذكره ، وخاطب صاحب الديار المصرية ملك الترك وهاداه وراجعه كما نذكره ، ووفد عليه شرفاء مكة بني أبي نمي كما نذكره . وهو في خلال ذلك مستجمع للمطاولة بالحصار والتضييق ، متجافٍ عن القتال إلا في بعض الأيام ، ولم تبلغ أربعة أو خمسة ينزل شديد العقاب والسطوة بمن يميها ويأخذ بالمرصاد على من يتسلل بالأقوات إليها . قد جعل سرداق الأسوار المحيطة ملاكاً لأمره في ذلك ، فلا يخلص إليهم الطيف ولا يكاد يصل إليهم العيث مدة مقامه عليها ، إلى أن هلك بعد مائة شهر كما نذكره . واختطّ بمكان فسطاط المعسكر قصراً لسكناه ، واتخذ به مسجداً لمصلّاه وأدار عليها السور ، وأمر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحبية

(١) وفي نسخة ثانية : وسرح عساكره الى هنين فاقتحمها .

(٢) وفي نسخة ثانية : تالموت .

(٣) وفي نسخة ثانية : المدية .

(٤) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخ أخرى : أهل الطاعة . وأهل الصاغية وأهل الطاغية .

والقصور الأنيقة ، واتخذوا البساتين وأجروا المياه . ثم أمر بإدارة السور سياجاً على ذلك سنة إثنين وسبعمائة ، وصيرها مصراً ، فكانت من أعظم الأمصار والمدن وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق ، واحتفال بناء وتشيد منعة . وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان ، وابتنى مسجداً جامعاً ، وشيد له مأذنة رفيعة ، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها ، وسماها المنصورة ، واستبحر عمرانها ونفقت أسواقها^(١) ، ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت إحدى مدائن المغرب . وخرّبها آل يغمراسن عند مهلكه ، وارتحال كتابه عنها ، بعد أن كان بنو عبد الواد أشرفوا على الهلاك ، وأذنوا بالانفراض كما نذكره ، فتداركهم من لطف الله ما شأنه أن يتدارك المتورطين في المهالك ، والله غالب على أمره .

* (الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تخلل ذلك
من الأحداث) *

لما أناخ السلطان على تلمسان وتغلب على ضواحي بني عبد الواد ، وافتتح أمصارهم ، سما إلى التغلب على ممالك مغراوة وبني توجين . وكان ثابت بن منديل قد وفد على السلطان بمقر ملكه من فاس سنة أربع وتسعين وستمائة وأصهر إليه في حافدته ، فعقد له عليها . وهلك ثابت بمكان وفادته من دولتهم ، وأعرس السلطان بحافدته سنة ست وتسعين وستمائة كما ذكرنا ذلك من قبل ، فلما تغلب السلطان على مال بني عبد الواد جهّز عساكره إلى بلاد مغراوة ، وعقد عليها لعلي بن محمد من عطاء بني ورتاجن ، فتغلبوا على الضواحي وشرّدوا مغراوة إلى رؤوس المعقل . واعتصم راشد بن محمد بن ثابت بن منديل صهر السلطان بمليانة فنازلوه بها . ثم استرلوه على الأمان تسع وتسعين وستمائة فأوفدوه على السلطان ، فلقاه مبرّة وتكرمة ، وخلطه بجملته (لمكان) صهره معه . ثم افتتحوا مدينة تدلس^(٢) ومازونة وشرشال . وأعطى زيري بن حمّاد المنتري على برشك من بلادهم يد الطاعة . وأوفد على السلطان للبيعة ، واستولوا على ضواحي شلف كلّها . ولاذت مغراوة بطاعة السلطان .

(١) وفي نسخة ثانية : وهالت اسواقها .

(٢) وفي نسخة ثانية : تنس .

وعقد عليهم وعلى جميع بلادهم لعمر بن ويفرن بن منديل فآسف ذلك راشد بن
 محمد لما كان يراه لنفسه من الاختصاص . ولما كانت أخته حظية السلطان
 وكريمته ، ونافس عمر بن ويفرن في إمارة قومه ، فلاحق بجبال متيجة ، وأجلب على
 من هنالك من عمال السلطان وعساكره وانحاش إليه مرضى القلوب من قومه ،
 فاعصوبوا عليه . وداخلوا أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وملكوه أمرهم في ربيع
 من المائة السابعة . ثم بيت عمر بن ويفرن بمعسكره من أزمور ، فقتله واستباح
 المعسكر . وبلغ الخبر إلى السلطان ، فسرح العساكر من بني مرين وعقد لعلي بن
 الحسن بن أبي الطلاق على قومه من بني عسكر ، ولعلي بن محمد الخيري على قومه
 من بني ورتاجن ، وجعل الأمر شورى بينهما ، وأشرك معها علياً الحساني من صنائع
 دولته ، وأبا بكر بن ابراهيم بن عبد القوي من أعياص بني توجين . وعقد على مغراوة
 محمد بن عمر بن منديل ، وأشركه معهم ، وزحفوا إلى راشد . ولما أحس بالعساكر
 لجأ إلى معقل بني بوسعيد فيمن معه من شيعة مغراوة . وأنزل بما زونة علياً وحموي بني
 عمه يحيى بن ثابت ، واستوصاهم بضبط البلد ، وأنه مشرف عليهم من الجبل .
 وجاءت عساكر السلطان إلى بلاد مغراوة فتغلبوا على البساط وأناخوا بمازونة ، وضربوا
 معسكرهم بساحتها ، وأخذوا بمخنقتها ، واهتبل علي وقومه غرة في معسكر بني مرين
 فيئتهم سنة إحدى وسبعائة . وانفض المعسكر وتقبض على علي بن محمد الخيري ، ثم
 امتنعوا عليه وعاد المعسكر إلى مكانهم من حصارهم ، وجهدهم حالهم فنزل إليهم
 حموي بن يحيى على حكم السلطان . وأنفذوه إليه فتقبض عليه . ثم نزل علي ثانية من
 غير عهد ، فأشخصوه إلى السلطان فلقاه مبررة وتكريماً ، تأنيساً الراشد المتري بمعقله .
 واقتحمت على أهلها عنوة سنة ثلاث وسبعائة فمات منهم عالم واحتملت رؤوسهم إلى
 سدة السلطان ، رؤسهم إلى سدة السلطان ، فرميت في حفائر البلد المحصور إرهاباً لهم
 وتحذيراً ، ولما عقد السلطان لأخيه أبي يحيى على بلاد الشرق وسرّحه لتدويخ
 التخوم ، نازل راشد بمعقله من بني بوسعيد ، فبيت راشد معسكرهم إحدى لياليه ،
 فانفضوا وقتل طائفة من بني مرين . ووجد السلطان لها فأمر بقتل علي وحموي بني عمه
 يحيى ، ومن كان معتقلاً معها من قومها . ورفعوا على الجذوع وأثبتوهم بالسهام ،
 ونزل راشد بعدها عن معقله ولحق بمتيجة ، وانحاش إليه منيف بن ثابت ، وأوشاب
 من مغراوة وتحيز الآخرون إلى أميرهم محمد بن عمر بن منديل الذي عقد له السلطان

عليهم . ثم تأشبت على راشد ومنيف خوارج الثعالبه ومليكش ، وصمد إليهم الأمير
ابويحيى في عساكره ثانية ، ونازلهم بمعاقلهم ورجبوا في السلم ، فبذله السلطان لهم ،
وأجاز منيف بن ثابت إلى الأندلس فيمن إليه من بنيه وعشيرته ، فاستقروا بها آخر
الأيام . ولحق راشد ببلاد الموحدين ووفد محمد بن مندبل سنة خمس وسبعمئة على
السلطان ، فأوسعه حباً وتكريماً . وتمهدت بلاد مغراوة واستبدت بملكها السلطان ،
وصرف إليها العمال ، ولم يزل كذلك إلى أن هلك سنة ست وسبعمئة والله تعالى
أعلم .

* (الخبر عن افتتاح بلاد توجين وما تخلل ذلك) *

لما نازل يوسف بن يعقوب تلمسان وأحاط بها ، وتغلب على بني عبد الواد ، وسما إلى
تملك بلاد توجين . وكان عثمان بن يغمراسن قد غلبهم على مواطنهم ، وملك جبل
وانشريس وتصرف في بني عبد القوي بالولاية والعزل وأخذ الأتاوة سنة إحدى
وسبعمئة ، وأوعز إليه السلطان ببناء البطحاء التي هدمها محمد بن عبد القوي ، فبناها
وتوغل في قاصية المشرق ، ثم انكفاً راجعاً إلى حضرة أخيه وعطف على بلاد بني
توجين سنة إثنين وسبعمئة وفر بنو عبد القوي إلى ضواحيهم بالقفر ، ودخل إلى جبل
وانشريس وهدم حصونهم به ، ورجع إلى الحضرة . ثم بادر أهل تافر كينت سنة
ثلاث وسبعمئة بإيتاء طاعتهم^(١) . وانتقضوا طاعتهم بعدها . ثم بعث أهل المرية
بطاعتهم السلطان ، فتقبلها وأوعز ببناء قصبتها . وراجع بنو عبد القوي بعد ذلك
بصائرهم فدخلوا في طاعة السلطان ، ووفدوا عليه بمكانه من المنصورة مدينته المحيطة
على تلمسان سنة ثلاث وسبعمئة فتقبل طاعتهم ورعى سابقتهم ، وأعادهم إلى
بلادهم وأقطعهم ، وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي ، وأوعز ببناء قصبة
المريّة سنة أربع وكملت سنة خمس وسبعمئة وهلك علي بن الناصر خلال ذلك ،
فعمد عليهم محمد بن عطية الأصم كما ذكرناه . فاستمر على الطاعة ، ثم انتقض سنة
ست وسبعمئة وحمل قومه على الخلاف ، وانتبذوا عن الوطن إلى أن هلك يوسف بن
يعقوب كما نذكره إن شاء الله تعالى ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : باتيان الطاعة .

* (الخبر عن مراسلة الموحدين ملوك افريقية بتونس وبجاية
لزناتة وأحوالهم معهم) *

كان لبني أبي حفص ملوك أفريقية مع زناتة هؤلاء أهل المغرب من بني مرين وبني عبد الواد سوابق مذكورة ، فكان لهم على يغمراسن وبنيه طاعة معروفة يؤدون بيعتها ويخطبون على منابرهم بدعوتها مذ تغلب الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد على تلمسان . وعقده عليها ليغمراسن ، واستمر حالهم على ذلك . وكانت لهم أيضاً مع بني مرين ولاية وسابقة بما كان بنو مرين مذ أول أمرهم يخاطبون الأمير أبا زكريا ، ويبعثون له بيعة البلاد التي يتغلبون عليها ، مثل مكناسة والقصر ومراكش آخرأ . ثم صارت مخالسته من لدن عهد المستنصر ويعقوب بن عبد الحق . وكانوا يتحفونهم بالمال والهدايا في سبيل المدد على صاحب مراكش ، وقد ذكرنا السفارة التي وقعت بينهما سنة خمس وستين وستائة وأن يعقوب أوفد عامر بن إدريس وعبدالله بن كندوز ومحمد الكناني ، وأوفد عليه المستنصر سنة سبع وستين وستائة بعدها كبير الموحدين يحيى بن صالح الهنتاتي في وفد من مشيخة الموحدين ، ومعهم هدية سنية . ثم أوفد الواثق ابنه سنة تسع وسبعين قاضي بجاية المذكور أبا العباس أحمد الغماري ، وأسنى الهدية معه . ولم يزل الشأن بينهم هذا إلى أن افترق أمر آل أبي حفص . وطار الأمير أبو زكريا بابن الأمير أبي اسحق بن يحيى بن عبد الواحد من عشه بتلمسان في وكر عثمان بن يغمراسن ، وأسف إلى بجاية فاستولى عليها سنة ثلاث وثمانين وستائة ، واستضاف إليها قسنطينة وبونة ، وصيرهما عملاً للملكه ، ونصب لها كرسيًا لأمره ، وأسف عثمان بن يغمراسن لفراره من بلده لما كان عليه من التمسك بدعوة عمه أبي حفص صاحب تونس ، فشق ذلك عليه ونكره ، واستمرت الحال على ذلك . ولما نزل السلطان يوسف بن يعقوب بمخفق تلمسان وأرسي قواعد ملكه بساحتها ، وسرح عساكره لالتهام الأمصار والجهات ، وتوجس الموحدون الخيفة منه على أوطانهم . وكان الأمير أبو زكريا في جهات تدلس محامياً عن حوزته وعمله . ووصله هنالك راشد بن محمد نازعاً عن السلطان أبي يعقوب . ثم طلعت العساكر على تلك الجهات في اتباعه ، فزحف إليه عسكر الموحدين سنة تسع وتسعين وستائة بناحية

جبل الزاب ، ففضوا جمعه وأوقعوا به واستلحموا جنوده ، واستمرّ القتل فيهم ، وبقيت عظامهم ماثلة بمصارعهم سنين .

ورجع الأمير أبو زكريا إلى بجاية فأنحصر بها وهلك على تفيثة ذلك على رأس المائة السابعة . وقارن ذلك مغاضبة بينه وبين أمير الزواودة لعهد عثمان بن سبّاع بن يحيى ابن دُرَيْد بن مسعود البلط ، فوفد على السلطان أخريات إحدى وسبعمائة ، ورغبه في ملك بجاية . واستمدّه للسير إليها ، فأوعز إلى أخيه الأمير أبي يحيى بمكانه من منزلة مغراوة ومليكش والثعالبة ، بأن ينهض إلى أعمال الموحدّين . وسار عثمان بن سبّاع وقومه بين يدي العساكر يتقصّون الطريق إلى أن تجاوز الأمير أبو يحيى بعساكره بجاية ، واحتل بتاكرات من أوطان سدويكش من أعمال بجاية . وأطلّ على بلاد سدويكش وانكفاً راجعاً ، فأوطأ عساكره ساحة بجاية وبها الأمير خالد بن يحيى ، وناشبهم القتال بعض أيام ، جلا فيها أولياء السلطان أبي البقاء عن أنفسهم وسلطانهم . وأمر بروض السلطان المسمّى بالبديع فخرّبه ، وكان من آتق الرياض وأحفلها . وقفل إلى مكانه من تدويخ البلاد ، وأعرض عن أعمال الموحدّين . وكان صاحب تونس لذلك العهد محمد بن المستنصر الملقّب بأبي عصيدة بن يحيى الوائق ، فأوفد على السلطان شيخ الموحدّين بدولته محمد بن أكمازير عاقداً أسباب الولاية ، ومحكماً مذاهب الوصلة ، ومقرّراً سوابق السلف . فوفد في مشيخة من قومه لشعبان سنة ثلاث وسبعمائة . وناغاه الأمير أبو البقاء خالد صاحب بجاية ، وأوفد مشيخة من أهل دولته كذلك . وبرّ السلطان وفادتهم وأحسن منقلبهم .

ثم عاد ابن أكمازير سنة أربع وسبعمائة ، ومعه شيخ الموحدّين وصاحب السلطان أبو عبدالله بن يزريكن في وفد من عطاء الموحدّين ، وأوفد صاحب بجاية حاجبه أبا محمد الرخامي ، وشيخ الموحدّين بدولته عياد بن سعيد بن عثيمين . ووفدوا جميعاً على السلطان ثالث جمادى ، فأحسن السلطان في تكريمهم ما شاء ، ووصلهم إلى نفسه بمساكن داره واراهم أريكة^(١) ملكه وأطافهم قصوره ورياضه بعد أن فرشت ونمّقت ، فملأ قلوبهم جلالاً وعظمةً ، ثم بعثهم إلى المغرب ليطوفوا على قصور الملك بفاس ومراكش ، ويشاهدوا آثار سلفهم ، وأوعز إلى عمّال المغرب بالاستبلاغ في

(١) وفي نسخة ثانية : أبهة .

تكرمهم واتحافهم ، فانتهوا من ذلك إلى الغاية ، وانقلبوا إلى حضرته آخر جمادى ،
وانصرفوا إلى ملكهم^(١) بالحديث عن شأن رسالتهم وكرامة وفدهم .
ثم أعاد ملوكهم مراسلة السلطان سنة خمس وسبعمئة بعدها ، فوفد أبو عبدالله بن
أكمازير من تونس وعبّاد بن سعيد من بجاية . وأوفد السلطان على صاحب تونس مع
رسوله صاحب الفتيا بحضرته الفقيه أبا الحسن التونسي^(٢) وعليّ بن يحيى البركشي
رسولين يسألان المدد بأسطوله ، فقبضوا رسالتهم وانقلبوا سنة خمس وسبعمئة . ووصل
بخبها أبو عبدالله المزدوري من مشيخة الموحدين ، واقرن بذلك وصول حسّون بن
محمد بن حسّون المكناسي من صنائع السلطان . كما أوفده مع ابن عثيمين على مراسلة
الأمير أبي البقاء خالد صاحب بجاية في طلب الأسطول أيضاً ، فرجعوه بالمعاذير .
وأوفدوا معه عبدالله بن عبد الحق بن سليمان فتلقاهم السلطان بالمبرة ، وأوعز إلى عامله
بوهران أن يستبلغ في تكريم عمرة الأسطول ، فجرى في ذلك على مذهبه وانقلبوا
جميعاً أحسن منقلب . وغنى السلطان عن أسطولهم لفوات وقت الحاجة إليه من
منازلة بلاد السواحل إذ كان قد تملكها أيام مما طلبتهم ببيعتهم . واتصل الخبر بصاحب
تلمسان الأمير أبي زيان بن عثمان المبايع أيام الحصار عند مهلك أبيه عثمان بن
يغمراسن آخر سنة ثلاث وسبعمئة فبلغه صنيع الموحدين في موالة عدوه السلطان
يوسف بن يعقوب ومظاهرتة بأساطيلهم عليه ، فأسفهم ذلك وأخرسوا منابرهم عما
كانت تنطق به من الدعاء من عهد يغمراسن ، فلم يراجعوا دعوتهم من بعد ، وهلك
السلطان على نفيته ذلك ، والبقاء لله وحده .

الخبر عن مراسلة ملوك المشرق الاقصى ومهاداتهم ووقادة أمراء الترك على السلطان وما تخلل ذلك

لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بمالكة وأعماله ، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب
الضواحي والقفار ، وصلحت السابلة ومشت الرفاق إلى الآفاق ، واستجد أهل
المغرب عزماً في قضاء فرضهم ، ورجبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفر إلى

(١) وفي نسخة ثانية : ملوكهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : التونسي .

مكة ، فقد كان عهدهم يمثلها الفساد السابلة واستهجان الدول . فبينما السلطان في ذلك آمل اذ داخله لحرم الله وروضه نبيه صلى الله عليه وسلم شوق ، فأمر بانتساخ مصحف رائق الصنعة ، كسبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن ، واستوسع في جرمه وعمل غشاءه من بديع الصنعة ، واستكثر فيه من معالق الذهب المنظم بخرزات الدرّ والياقوت ، وجعلت منها حصاة وسط المعلق تفوق الحصيات مقداراً وشكلاً وحسناً ، واستكثر من الأصونة عليه ووقفه على الحرم الشريف ، وبعث به مع الحاج سنة ثلاث وسبعمئة وعني بشأن هذا الركب ، فسرح معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة من الأبطال ، وقلد القضاء عليهم محمد بن رغبوش من أعلام أهل المغرب ، وخاطب صاحب الديار المصرية واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته ، وأتحفه بهدية من طرف بلاده استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة ، يقال إن المطايا كانت منها أربعمئة حدثني بذلك من لقيته إلى ما يناسب ذلك من طرف المغرب وما عونه . ونهج بها السبيل للحاج من أهل المغرب ، فأجمعوا الحج سنة أربع وسبعمئة بعدها وعقد السلطان على دلالتهم لأبي زيد الغفاري ، وفصلوا من تلمسان لشهر ربيع الأول .

وفي شهر ربيع الآخر بعده كان مقدم الحاج الأولين حملة المصحف ووفد معهم على السلطان الشريف لبيدة بن أبي نمي نازعا عن سلطان الترك لما كان تقبض على اخويه حميضة ورميثة اثر مهلك أبيهم أبي نمي صاحب مكة سنة إحدى وسبعمئة ، فاستبلغ السلطان في تكريمه وسرّحه إلى المغرب ليجول في أقطاره ، ويطوف على معالم الملك وقصوره ، وأوعز إلى العمّال بتكريمه واتحافه على شاكلته . ورجع إلى حضرة السلطان سنة خمس وسبعمئة وفصل منها إلى المشرق ، وصحبه من أعلام المغرب أبو عبدالله موري^(١) حاجاً ، ولشعبان من سنة خمس وسبعمئة وصل أبو زيد الغفاري دليل ركب الحاج الآخرين ، ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان ، لما اسفهم صاحب مصر بالتقبض على إخوانهم ، وكان شأنهم ذلك متى غاظهم السلطان . فقد سبق في أخبار المستنصر بن أبي حفص مثلها ، وأهدوا إلى السلطان ثوباً من كسوة البيت شغف به ، واتخذ منه ثوباً للباسه في الجمع والأعياد يستبطنه بين ثيابه تبركاً

(١) وفي نسخة ثانية : أبو عبدالله فوزي .

به ، ولما وصلت هدية السلطان إلى صاحب مصر لعهدده الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى حسن موقعها لديه ، وذهب إلى المكافأة ، فجمع من طرف بلاده من الثياب والحيوان ما يستغرب جنسه وشكله ، من نوع الفيل والزرافة ، وأوفد بها من عطاء دولته الأمير اليلبي^(١) وفصل من القاهرة أخريات سنة خمس وسبعائة ووصلت إلى تونس في ربيع من سنة ست وسبعائة بعدها . ثم كان وصولها إلى سدة السلطان بالمنصورة من البلد الحديد في جادى الآخرة ، واهتر السلطان لقدمها وأركب الناس إلى لقاءها ، واحتفل للقاء هذا الأمير اليلبي ومن معه من أمراء الترك ، وبر وفادتهم ، واستبلغ في تكريمهم نزلاً وقرى ، وبعثهم إلى المغرب على العادة في مبرة أمثالهم ، وهلك السلطان خلال ذلك وتقبل أبو ثابت سنة من بعده في تكريمهم ، فأحسن منقلبهم وملاء حقائبهم صلة ، وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنة سبع وسبعائة ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان وسبعائة اعترضهم الأعراب بالقفر فانتهبوهم وخلصوا إلى مصر بجريعة الزمن^(٢) . فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سافراً ولا لفتوا إليه وجهاً . وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً ، وكان الناس لعهددهم ذلك يتهمون أن الذين نهبوهم أعراب حصين بدسيسة من صاحب تلمسان أبي حمولعهددهم ، منافسة لصاحب المغرب لما بينهم من العداوات والأحن القديمة .

(أخبرني) شيخنا محمد بن ابراهيم الأبلبي قال : حضرت بين يدي السلطان وقد وصله بعض الحاج من أهل بلده مستصحباً كتاب الملك الناصر بالعتاب عن شأن هؤلاء الأمراء ، وما أصابهم في طريقهم من بلاده ، وأهدى له مع ذلك كوبين من دهن البلسان المختص ببلدهم ، وخمسة مماليك من الترك رماة بخمسة أقواس من قسي الغز المؤنقة الصنعة من العرى والعقب ، فاستقل السلطان هديته تلك بالنسبة إلى ما أهدوا إلى ملك المغرب ، ثم استدعى القاضي محمد بن هدية ، وكان يكتب عنه فقال له : اكتب الآن إلى الملك الناصر كما أقول لك ، ولا تحرف كلمة عن موضعها إلا ما تقتضيه صناعة الإعراب ، وقل له : أمّا عتابك عن شأن الرسل وما أصابهم

(١) وفي نسخة اخرى : التليلي .

(٢) وفي نسخة اخرى : بجريعة الذفن .

في طريقهم فقد حضروا عندي وأبنت لهم الاستعجال حذراً مما أصابهم ، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من غوائل الأعراب ، فكان جوابهم أننا جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف مغترين بشأنهم يحسبون أن أمره نافذ في أعراب قلاتنا^(١) . وأما الهدية فتردّ عليك ، أما دهن البلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت وحسبنا به دهنًا . وأما المالك الرماة فقد افتتحنا بهم إشبيلية وصرفناهم إليك لتستفتح بهم بغداد والسلام . قال لي شيخنا وكان الناس إذ ذاك لا يشكّون أن انتهاهم كان باذن منه . وكان هذا الكتاب دليلاً على ما في نفسه . وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون .

الخبر عن انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس سعيد على سبته وخروج عثمان بن العلاء في غمارة

لما أحكم السلطان عقد المهادنة والولاية مع السلطان ابن الأحمر المعروف بالفقيه ، عند إجازته إليه بطنجة سنة اثنتين وتسعين وستائة كما ذكرناه ، وفرغ لعدوه تمسك ابن الأحمر بولايته تلك إلى أن هلك سنة إحدى وسبعمائة في شهر شعبان منه . وقام بالأمر الأندلسي من بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع . واستبدّ عليه كاتبه أبو عبدالله بن الحكيم من مشايخ رندة ، كان اصطفاه لكتابته أيام أبيه . فاقصطع بأموره وغلب عليه . وكان هذا السلطان المخلوع ضير البصر ويقال إنه ابن الحكيم ، فغلب عليه واستبدّ إلى أن قتلها أخوه أبو الجيوش نصر سنة ثمان وسبعمائة كما نذكره ، وكان من أول آرائه عند استيلائه على الأمر من بعد أبيه المبادرة إلى إحكام ولاية السلطان ، واتصال يده بيده ، فأوفد إليه لحين ولايته وزير أبيه السلطان أبي عزيز الداني ، ووزيره الكاتب أبو عبدالله بن الحكيم ، فوصلا إلى^(٢) السلطان بمعسكره من حصار تلمسان وتلقاهما بالقبول والمبرة ، وجدّدت له أحكام الودّ والولاية ، وانقلبا إلى مرسلها خير منقلب . وتقدّم السلطان إليهم في المدد برجل الأندلس وناشبتهم المعودين منازل الحصون والمناغرة بالرباط ، فتبادروا إلى إسعافه ، وبعثوا حصّتهم لحين مرجعهم إلى سلطانهم ، فوصلت سنة اثنتين وسبعمائة . وكانت لهم نكاية في العدو وأثر

(١) وفي نسخة اخرى : في اعراب قبائلنا .

(٢) وفي نسخة ثانية : فوفدوا على السلطان .

البلد المخروب. ثم بدا لمحمد بن الأحمر المخلوع في ولاية السلطان لمنافسات جرت إلى ذلك. وبعث إلى أدفونش هرائدة بن شانجة، وأحكم له عقد السلم ولاطفة في الولاية، فانعقد ذلك بينهما سنة ثلاث وسبعمئة واتصل خبره بالسلطان فسخطه ورجع إليهم حصتهم آخر سنة ثلاث وسبعمئة، واتصل خبره بالسلطان لسنة من مقدمهم بعد أن أبلوا وأثخنوا، وطوى لهم على النث واعتمل ابن الأحمر وشيعته في الاستعداد لمدافة السلطان والارصاد لسطوته بهم. وأوعز إلى صاحب مالقة ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن اسمعيل بن محمد بن نصر، وليه من دون القرابة بما كان له من الصهر على أخته، والمضطلع له بثغر الغربية، فأوعز إليه بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان والقبض على ابن العزفي، والرجوع إلى ولاية ابن الأحمر. وكان أهل سبتة منذ هلك ابراهيم الفقيه أبو القاسم العزفي سنة سبع وسبعين وستمئة قام بأمرهم ولده أبو حاتم. وكان أبو طالب رديفاً له في الأمر إلا أنه استبد عليه بصاغيته إلى الرياسة، وإيثار أبي حاتم للخموم مع إيجابه حق أخيه الأكبر، واجابته الداعي من دون دفع^(١) إليه فاستقام أمرهما مدة. وكان من سياستها من أول أمرهما، الأخذ بدعوة السلطان فيما لنظرهما، والعمل بطاعته والتجافي عن السكني بقصور الملك والتخرج من أبهة السلطان لمكانهم، فأنزلوا بالقصبة عبدالله بن مخلص قائداً من البيوتات اصطنعوه وجعلوا إليه أحكام البلد، وضبط الحامية له فاضطلع بذلك سنين. ثم اسفه يحيى بن أبي طالب ببعض التزغات الرياسية وحجر عليه الأحكام في ذويه. ثم أغرى به أباه وطالبه، بحساب الخرج لعطاء الحامية وغفلوا عما وراءها من التظن فيه والريبة به ثقة بمكانه واستنامة إليه. وهم مع ذلك على أولهم في موالة السلطان والأخذ بدعوته والوفود عليه في أوقاته. ولما فسدت ولاية ابن الأحمر للسلطان وعقد على محاولة سبتة وجد السبيل إلى ذلك بما طوى صاحب الأحكام بالقصبة على النث، فداخله الرئيس أبو سعيد صاحب الثغر بمالقة جاره بسبتة، ووعد الغدري بني العزفي وأن يصحبهم في أساطيله، فشرع الرئيس أبو سعيد في إنشاء الأساطيل البحرية، واستنفر الناس للمثاغرة، وأن العدو لمالقة بالمرصاد، وشحنها بالفرسان والرجل والناشبة والأقوات، وأخفى وجه قصده عن الناس، حتى إذا

(١) وفي نسخة ثانية: متى روفع إليه.

فلعت أساطيله بيت سبتة لسبع وعشرين من شوال سنة خمس وسبعائة وأرسي بساحتها الموعد صاحب القصبة ، فأدخله إلى حصنه فلكه ، ونشر راياته بأسوارها ، وسرّب جيوشه إلى البلد فتسايلاوا وركب إلى دور بني العزفي فتقبّض عليهم ، وعلى والدهم وحاشيتهم . وطير الخبر إلى السلطان بغرناطة ، فوصل الوزير أبو عبدالله بن الحكيم ، ونادى في الناس بالأمان ، وبسط المعدلة ، وأركب ابن العزفي السفن إلى مالقة . ثم أجازوا غرناطة وقدموا على ابن الأحمر ، فأجل قدومهم وأركب الناس إلى لقائهم ، وجلس لهم جلوساً فخماً حتى أدوا بيعتهم وقضوا وفادتهم ، وأنزلوا بالقصور وأجريت عليهم سنية الأرزاق . واستقروا بالأندلس إلى أن صاروا بعد إلى المغرب كما نذكر واستبدّ الرئيس أبو سعيد بأمر سبتة وثقف أطرافها وسدّ ثغورها ، وأقام دعوة ابن عمه صاحب الأندلس بأنحائها . وكان عثمان بن أبي العلاء بن عبدالله بن عبد الحق من أعياص الملك المريني أجاز معه البحر إليها أميراً على الغزاة بمالقة ، وقائداً لعصبتهم تحت لوائه . فوّه بنصبه للملك بالمغرب . وخاطب قبائل غمارة في ذلك ، فوقفوا بين الإقدام والإحجام واتصل ذلك كله بالسلطان وهو بمعسكره من حصار تلمسان ، فاستشاط لها غيظاً وحمي أنفه نفرةً ، واستنفره الصريح ، فبعث ابنه الأمير أبا سالم لسدّ تلك الفرجة ، وجمع إليه العساكر وتقدّم إليه باحتشاد قبائل الريف وبلاد تازي ، فأغذّ السير إليها وأحاطت عساكره بها ، فحاصرها مدّة . ثم بيته عثمان بن أبي العلاء فاختلّ معسكره ، وأفرج عنها منهزماً ، فسخطه السلطان وذوى عنه وجهه رضاه ، وسار عثمان بن أبي العلاء في نواحي سبتة ، وبلاد غمارة ، وتغلّب على تكيساس ، وانتهى إلى قصر ابن عبد الكريم في آخر سنة ست وسبعائة لسنة من استيلائهم على سبتة ، مقيماً رسم السلطان منادياً بالدعاء لنفسه ، فاعتزم السلطان على النهوض إليه من أمر تلمسان ، لما كانت على شفا هلكة ومحايينة انفضاض ، لولا عوائق الأقدار بمهلكه ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتفاض بني كمي من بني عبد الواد وخروجهم بأرض السوس) *

كان هؤلاء الرهط من بني عبد الواد من بطون بني علي من شعب أبي القاسم ،

وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كندوز بن^(١) بن كمي ولما استقل زيان برياسة أولاد علي بن ثابت بن محمد من أولاد طاع الله ، ونفس عليه كندوز هذا ما آتاه الله من الرياسة ، وجاذبه حبها ، واحتقر زيان شأنه فلم يحفل به . ثم تأشب عليه أخلاط من قومه وواضعه الحرب^(٢) . وهلك زيان بيد كندوز ، وقام بأمر أولاد علي جابر بن يوسف بن محمد . ثم تناقلت الرياسة فيهم إلى أن عادت لولد ثابت بن محمد ، واستقل بها أبو عزة زكرار^(٣) بن زيان ولم تطل أيامه . والتحم بين أولاد كمي وبين أولاد طاع الله ، وتناسوا الإحن ، وصارت رياسة طاع الله لولد يغمراسن بن زيان ، واستتبعوا قبائل عبد الواد كافة ، واعتمل يغمراسن في الثار بأبيه زيان من قاتله كندوز ، فاغتاله بيته ، دعاه لمأدبة جميع لها بني أبيه ، حتى إذا اطمأن المجلس تعاوروه بأسيافهم واحترّوا رأسه ، وبعثوا به إلى أمهم ، فنصبت عليه القدر ثالث أثافيا تشفياً منه وحفيظة . وطالب يغمراسن بقية بني كندوز ففرّوا أمام مطالبته ، وأبعدوا المذهب ولحقوا بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص ، فأقاموا بسدته أحوالاً ، وكانوا يرجعون في رياستهم لعبدالله بن كندوز ، ثم تذكروا عهد البداوة وحنّوا إلى عشير زناتة ، فراجعوا المغرب ولحقوا ببني مرين أقتاهم . ونزل عبدالله بن كندوز على يعقوب بن عبد الحق خير نزل ، فلقاه من البر والترحيب بماء صدره وأكد اغتباطه ، وأقطعه بناحية مراکش الكفاية له ولقومه ، وأنزلهم هنالك . وجعل انتجاع إبله وراحلته لحسان بن أبي سعيد الصبيحي وأخيه موسى من ذويهم وحاشيتهم ، وألطف منزلة عبدالله ورفع مكانه بمجلسه ، واكتفى به في كثير من أموره ، وأوفده على المستنصر صاحب أفريقية سنة خمس وستين وستمائة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدّمناه . واستقرّ بنو كندوز هؤلاء بالمغرب الأقصى ، واستمرت الأيام على ذلك ، وصاروا من جملة قبائل بني مرين وفي عدادهم . وهلك عبدالله بن كندوز وصارت رياستهم لعمر ابنه من بعده .

ولما لفت السلطان يوسف بن يعقوب عزائمهم إلى بني عبد الواد ونازل تلمسان ، وطاول حصارها ، واستطال بنو مرين وذووهم على بني عبد الواد ، وأحسّوا بهم أخذتهم

(١) بياض بالأصل ولم نجد في المراجع التي بين أيدينا أي ذكر لوالد كندوز هذا .

(٢) وفي نسخة ثانية : ناشب عليه أخلاط من قومهم . وواضعهم الحرب .

(٣) وفي نسخة ثانية : زكدان .

العزة بالإثم ، وأدركتهم النعرة ، فأجمع بنو كندوز هؤلاء الخلاف والخروج على السلطان ولحقوا بحاجة سنة ثلاث وسبعمئة . واحتفل الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب لغزوهم سنة أربع وسبعمئة ، فناجزوه الحرب بتادرت ، واستمروا على خلافهم . ثم قاتلهم يعيش وعساكره ثانية بتامطريت سنة أربع وسبعمئة فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصت جناحهم وأوهت من رياستهم^(١) . وقتل جماعة من بني عبد الواد بأزغار وتاكا^(٢) ، وأثنى يعيش بن يعقوب في بلاد السوس ، وهدم تارودانت قاعدة أرضها وأمّ قراها ، كان بها عبد الرحمن بن الحسن بن يدر من بقية الأمراء على السوس من قبل بني عبد المؤمن ، وقد مرّ ذكرهم . وكانت بينه وبين عرب المعقل من الشبانات وبني حسان منذ انقضت دولة الموحّدين حرب سجال هلك في بعضها عمه عليّ بن يدر سنة ثمان وستين وستمئة وصارت إمارته بعد حين إلى عبد الرحمن هذا ، ولم يزلوا في حربه إلى أن تملك السوس يعيش بن يعقوب ، وهدم تارودانت قاعدة أرضها . ثم راجع عبد الرحمن أمره وبني بلده تارودانت هذه سنة ست بعدها . ويزعم بنو يدر هؤلاء أنهم مستقرون بذلك القصر من لدن عهد الطوالع من العرب ، وأنهم لم يزلوا أمراء به تعقد لهم ولايته كابراً عن كابر ، ولقد أدركت على عهد السلطان أبي عنان وأخيه أبي سالم من بعده شيخاً كبيراً من ولد عبد الرحمن ، فحدّثني بمثل ذلك ، وأنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، والله أعلم . ولم يزل بنو كندوز مشرّدين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان ، وراجعوا طاعة الملوك من بني مرين من بعده وعفوا لهم عما سلف من هذه الجريمة ، وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية ، فأحضوا النصيحة والمخالصة إلى هذا العهد كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مهلك المشيخة من المصامدة بتلبيس
أبي الملياني) *

قد ذكرنا شأن أبي علي الملياني وأوليته في أخبار مغراوة الثانية ، وما كان من ثورته

(١) وفي نسخة ثانية : وأوهنت بأسهم

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : بارعارن بامكا .

بمليانة وانتزاهه عليها . ثم إزعاج العسكر إياه منها ولحاقه يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ، وما أحله من مراتب التكرمة والمبرة . وأقطعه بلد أغوات طعمة ، فاستقر بها ، وما كان منه في العبث بأشلاء الموحدين ونبش أجدائهم ، وموجدة السلطان والناس عليه لذلك . وأرصد له المصامدة الغوائل لما كان منه في ذلك ، ولما هلك يعقوب بن عبد الحق استعمله يوسف بن يعقوب على جباية المصامدة ، فلم يضطلع بها وسعى به مشيختهم عند السلطان أنه احتجز المال لنفسه ، وحاسبوه فصدقوه السعاية ، فاعتقله السلطان وأقصاه ، وهلك سنة ست وثمانين وستائة واصطنع السلطان أحمد ابن أخيه واستعمله في كتابته ، وأقام على ذلك بيابه وفي جملته . وكان السلطان سخط على مشيخة المصامدة علي بن محمد كبير هنتاة ، وعبد الكريم بن عيسى كبير كدميوة ، وأوعز إلى ابنه الأمير علي بمراكش باعتقالها ، فاعتقلها فيمن لها من الولد والجاشية . وأحسن بذلك أحمد بن الملياني فاستعجل الثأر . وكانت العلامة السلطانية على الكتاب في الدولة لم تختص بكاتب واحد ، بل كل منهم يضع العلامة بخطه على كتابه إذا أكمله ، لِمَا كانوا كلهم ثقاتاً أمناء ، وكانوا عند السلطان كأسنان المشط . فكتب أحمد بن الملياني إلى ابن السلطان الأمير بمراكش سنة سبع وتسعين وستائة كتاباً عن أمر أبيه ، يأمره فيه بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين . ووضع عليها العلامة التي تنفذ بها الأوامر ، وختم الكتاب . وبعث به مع البريد ونجا بنفسه إلى البلد الجديد . وعجب الناس بشأنه . ولما وصل الكتاب إلى ابن السلطان بمراكش أخرج أولئك الرهط المعتقلين من المصامدة إلى مصارعهم ، وقتل علي بن محمد وولده ، وعبد الكريم بن عيسى وولده عيسى ، وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز . وطير الأمير وزيره إلى أبيه بالخبر فقتله لحينه حنقاً عليه ، وأنفذ البريد باعتقال ابنه ، وجرد علي ابن الملياني ففقد ولحق بتلمسان . ونزل على آل زيّان . ثم لحق من بعدها بالأندلس عند إفراج السلطان عنها في تلك السنة كما ذكرناه . وبها هلك . واقتصر السلطان من يومئذ في علامته على من يختاره من صنائعه ويثق بأمانته . وجعلها لذلك العهد لعبدالله بن أبي مدين خالصته المضطلع بأمر مملكته ، فاخصت من بعده لهذا العهد ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن رياسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم) *

كان السلطان يعقوب^(١) في صباه مؤثراً للذاته ومستتراً بها عن أبيه يعقوب بن عبد الحق لمكانه من الدين والوقار. وكان يشرب الخمر ويعاقر بها الندمان. وكان خليفة بن رقاصة من اليهود المعاهدين بفاس قهرماناً لداره على عادة الأمراء في مثله من المعاهدين، فكان يزدلف إليه بوجوه الخدم ومذاهبها، فاستعمله هذا الأمير في اعتصارها والقيام على شؤونها، فكانت له بذلك خلوة منه أوجبت له الحظّ عنده، حتى إذا هلك يعقوب بن عبد الحق واستقلّ ابنه يوسف بأعباء ملكه، واتصلت خلواته في معاقره الندمان، وانفرد ابن وقاصة بخلوته ذلك مع ما كان من القهرمة، عظمت رياسته وعلا كعبه في الدولة. وتلقى الخاصة الأوامر منه، فصار له الوجه بينهم وعظم قدره بعظم الدولة.

(أخبرني) شيخى الأبلّي قال : وكان لخليفة هذا أخ يسمى ابراهيم ، وابن عم يسمى خليفة ، لقبوه بالصغيرة لمكانه هو من هذا الإسم . وكان له صهر يعرفون ببني السبتي ، كبيرهم موسى ، وكان رديفه في قهرمته ، فلم يفق السلطان من نشوة صباه وملهاه حتى وجدهم على حال استتبعوا فيها العلية من القبيل والوزراء والشرفاء والعلماء . وأوجده السبيل عليهم ، فسطا بهم سطوة واحدة واعتقلوا في شعبان من سنة إحدى وسبعمئة بمعسكره من حصار تلمسان . وقتل خليفة الكبير وأخوه ابراهيم وموسى بن السبتي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثل بهم ، وأتت النكبة على حاشيتهم وذويهم وأقاربهم ، فلم تبق منهم باقية . واستبقى منهم خليفة الأصغر احتقاراً لشأنه ، حتى كان من قتله بعدما نذكر ، وعبث بسائرهم ، وطهرت الدولة من رجسهم ، وأزيل منها معرة رياستهم ، والأمور بيد الله سبحانه .

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب) *

كان في جملة السلطان وحاشيته مولى من العبيد الخصيان من موالي ابن الملياني يسمى

(١) حسب مقتضى السياق السلطان يوسف .

سعادة ، صار إلى السلطان من لدن استعماله إياه بمراكش ، وكان على ثبج من الجهل والغباوة . بمكان ، وكان السلطان يخلط الخصيان بأهله ويكشف لهم الحجاب عن ذوات محارمه ، ولما كانت واقعة الغز مولاة ، واتهم بمداخلة بعض الحرم ، وقتل بالظنة ، واستراب السلطان بكثير من حاشيته الملابس لداره ، اعتقل جملة من الخصيان كان فيهم عنبر الكبير عريفهم . وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وسوّلت لهذا الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان ، فعمد إليه وهو في بعض الحجر من قصره ، وآذنه فأذن له فألفاه مستلقياً على فراشه مختضباً بالحناء ، فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هارباً . وانطلق بعض الأولياء في أثره ، فأدرك من العشي بناحية تاسالة فتقبّض عليه ، وسيق إلى القصر فقتله العبيد والحاشية . وصابر السلطان ميتته إلى آخر النهار ، ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمئة وقبر هنالك . ثم نقل بعدما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة ، فدفن بها مع سلفه والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت) *

واستلحامه المرشحين وما تخلل ذلك من الاحداث

كان الأمير أبو عامر ابن السلطان أبي يعقوب وولي عهده لما هلك طريداً ببلاد بني سعيد بغمارة والريف سنة ثمان وتسعين وستمئة كما ذكرنا ، خلف ولديه عامراً وسليمان في كفالة السلطان جدّهما ، فكان لهما بعينه حلاوة وفي قلبه لوعة ، لمكان حبه لأبيهما واغترابه عنه ، فحذب عليهما وآثرهما من نفسه بمكان . وكان الأمير أبو ثابت عامر أصغر قومه ، إقداماً وشجاعةً وجراءةً ، وكانت له في بني ورتاجن خولة . فلحين مهلك السلطان عرضوا له ودعوه للبيعة فبايعوه ، وحضر لها الأمير أبو يحيى بن يعقوب عمّ أبيه ، عز بمجتمعهم^(١) اتفاقاً ، وحملوه على الطاعة ، وكان أقرب للأمر منه لو حضره رجال ، فأعطى القيادة في المساعدة ، وطوى على النث . وبادر الحاشية والوزراء بالبلد الحديد عند مهلك السلطان ، فبايعوا ابنه الأمير أبا سالم . وكاد أمر بني

(١) وفي نسخة ثانية : عز بمجتمعهم .

مرين أن يفترق وكلمتهم أن تفسد ، فبعث الأمير أبو ثابت لحينه إلى تلمسان للأمير أبي زيان وأبي حموي بني عثمان بن يغمراسن . وعقد لها حلفاً على الإفراج عنهم . ثم أمره أن يمدّه بالآلة ويرفعها له كسر البيت إن كان غير ما أمل . وحضر للعقد أبو حمو فأحكه ومال أكثر بني مرين وأهل الحل والعقد إلى الأمير أبي ثابت . وتفرد بيعة أبي سالم البطانة والوزراء والحاشية والأجناد ومن إليهم ، وكان بالبلد الحديد مسكنه ، وأشاروا عليه بالمناجزة فخرج وقد عبى كتابه ، فوقف وتيبب^(١) وخام عن اللقاء ووعدهم الإقدام بالغداة ، وكرّ راجعاً إلى قصره ، فيشوا منه ، وتسللوا إذاً إلى الأمير أبي ثابت ، وهو بمرقب من الجبل مطل عليهم حتى إذا انحجر أبو سالم بالبلد ، انحاش إليه الحملة دفعة واحدة . فلما استوفت القبائل والعساكر لديه ، زحف إلى البلد الحديد مشى السلطان وسياج قصوره ومخنت عزمه ، وانتهى إلى ساحتها مغتتماً الفرصة . وخرج إليه أبو زيد^(٢) يخلف بن عمران الفودودي ، فأرجل عن فرسه بأمر أبي يحيى ، وقتل بين يديه قعصاً بالرماح . وكان قريب عهد بالوزارة ، استوزره السلطان قبيل مهلكه في شعبان من سنة ست وسبعائة .

وفرّ أبو سالم إلى جهة المغرب وصحبه من عشيره من أولاد رحو بن عبدالله بن عبد الحق العباسي وعيسى وعلي إبن رحو وابن أخيه جمال الدين بن موسى . وأتبعهم الأمير أبو ثابت شزيمة من عسكره أدركوهم بندرومة ، فتقبضوا عليهم ونفذ أمر السلطان بقتل أبي سالم وجمال الدين ، واستبقى الآخرين . وأمر باحراق باب البلد لفتحها العسكر ، فأطلّ عليهم قهرمان دارهم عبدالله بن أبي مدين الكاتب ، وأخبره بفرار أبي سالم ، وباتفاق الناس على طاعته . ورغب إليه في المسألة ليلتهم حتى ينفجر الصباح خشية على دارهم من معرة العساكر وهجومها ففعل . وأمره الأمير أبو يحيى باعتقال أبي الحجّاج بن اشقيلولة ، فاعتقله لقديم من العداوة كانت بينهما ، ثم أمر بقتله ، وانفاذ رأسه فقتل . وأمر السلطان ليلتشد بإضرام النيران حتى إذا أضاء الظلام وبات راكباً ، ودخل القصر لصبحه فواري جده بعد أن صلى عليه . وغصّ بمكان الأمير أبي يحيى لما تعدّد فيه الترشيح وفاوض في شأنه كبير القرابة يومئذ

(١) وفي نسخة ثانية : وبهت .

(٢) وفي نسخة ثانية : الوزير .

عبد الحق بن عثمان ابن الأمير أبي يفرن^(١) ، محمد بن عبد الحق ومن حضره من الوزراء مثل ابراهيم بن عبد الجليل الونكاسي و ابراهيم بن عيسى اليرنياني وغيرهما من الخاصة ، فأشاروا بقتله ، ونميت عنه كلمات في معنى التربص بالسلطان ودولته ، وابتغاء العصابة لأمره . وركب الأمير أبو يحيى إلى القصر ثالث البيعة ، فأخذ السلطان بيده ودخل معه إلى الحرم لغزائهن عن أخيه السلطان . ثم خرج على الخاصة وتخلّف عنه السلطان وقد دسّ إلى عبد الحق بن عثمان أن يتقبّض عليه ففعل . ثم برز السلطان إليهم وهو موثق فأمر بالإجهاز عليه ، ولم يمهل ، وألحق به يومئذ وزيره عيسى بن موسى الفودودي ، وفشا الخبر بمهلك هؤلاء الرهط ، فرهب منه القرابة ، وفرّ يعيش بن يعقوب أخو السلطان وابنه عثمان المعروف بأمة قضينت^(٢) ومسعود بن الأمير أبي مالك ، والعبّاس بن رحوبن عبدالله بن عبد الحق ولحقوا جميعاً بعثمان بن أبي العلاء بمكانه من غمارة ، وخلا الجو من المرشحين ، واستبدّ السلطان بملك قومه ، وأمن غوائل المنازعين .

ولما تمّ له الأمر واستوسق أمر الملك ، وفيّ لبني عثمان بن يغمراسن بالإفراج عنهم ، ونزل لهم عن جميع البلاد التي صارت إلى طاعته من بلاد المغرب الأوسط من أعمالهم ، وأعمال بني توجين ومغراوة . ودعاه إلى بدار المغرب ، ما كان من اختلال عثمان بن أبي العلاء بن عبدالله بن عبد الحق بسبته ، ودعائه لنفسه بين يدي مهلك السلطان ، وخروجه إلى بلاد غمارة ، واستيلائه على قصر كتامة ، فاعتزم على الرحلة إلى المغرب وفوض الأمر في الرحلة بأهل المدينة الجديدة للوزير ابراهيم بن عبد السلام لما كانت حينئذ غاصّة بالساكن مستبحرة في الاعتمار ، ممتلئة من الخرثي^(٣) والآلة ، فأحسن السياسة في أمرهم وضرب لهم الآجال والمواعيد إلى أن استوقوا الرحلة ، وتركوها قواء ، خرّبها بنو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين إلى المغرب ، وتحينوا لذلك فترات الفتن ، فطمسوا معالمها طمساً ونسفوها نسفاً . وقُدّم السلطان بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد الحق انعجون^(٤) في العساكر

(١) وفي نسخة ثانية : ابي معرّف .

(٢) وفي نسخة ثانية : قضيب .

(٣) وفي نسخة بولاق المصرية : من الخزائن .

(٤) وفي نسخة بولاق المصرية : اتعجوب .

والجنود ، وعقد له على حرب ابن أبي العلاء . وتلوم بالبلد الحديد لموافاة المسالح التي كانت بثغور المشرق ، ولما نزل عنها جميعاً لبني عثمان بن يغمراسن ارتحل غرة ذي الحجة ، ودخل فاس فاتح سبع وسبعائة والله أعلم .

* (الخبر عن انتزاع يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلب السلطان عليه) *

لما فصل أبو ثابت عن معسكرهم بتلمسان إلى المغرب ، قدم بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد الحق انعجون ابن السلطان أبي يوسف في العساكر والجنود ، وعقد له على حرب عثمان بن أبي العلاء كما ذكرناه . وعقد على بلاد مراكش ونواحيها لابن عمه الآخر يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق ، وعهد له بالنظر في أحوالها ، فسار إليها واحتل بها . ثم حدثته نفسه بالانتزاع ، فقتل الوالي بمراكش ، واستركب واستلحق ، واتخذ الآلة ، وجاهر بالخلعان . وتقبض على والي البلد فقتله بالسوط في جمادى سنة سبع وسبعائة ، ودعا لنفسه . واتصل الخبر بالسلطان لأول قدومه ، فسرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود الجشمي ، ويعقوب بن أصناك ، في خمسة آلاف من عساكره ، ودفعهم إلى حربه . وخرج في أثرهم بكتائبه . وبرز يوسف بن أبي عياد ، وأجازوا أم الربيع فانهزم أمام الوزير وعساكره واتبعه الوزير ففر إلى أغمات . ثم قرأ إلى جبال هسكورة ، ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من أغمات ، تدلى من سورها ، ودخل الوزير يوسف إلى مراكش . ثم خرج إثره ولحقه ، فكانت بينهما جولة ، وقتل منهم خلق ، ولحق بهسكورة . ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعائة وأمر بقتل أوربة المداخلة كانوا له في انتزاعه فاستلحموا . ولما لحق يوسف بن أبي عياد بجبال هسكورة ، ونزل على مخلوف بن عبو ، وتدمم بجواره ، فلم يحره على السلطان . وتقبض عليه ، واقتاده إلى مراكش مع ثمانية من أصحابه تولوا كبر ذلك الأمر ، فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثل بهم السلطان بالسياط . وبعث برأس يوسف إلى فاس ، فنصب بسورها وأثنى القتل فيمن سواهم ممن داخله في الانتزاع ، فاستلحم منهم أمم بمراكش وأغمات . وسخط خلال ذلك وزيره ابراهيم بن عبد الجليل

فاعتقله واعتقل عشيره من بني دولين ومن بني ونكاسن ، وقتل الحسن بن دوير
منهم ، ثم عفا عنهم . وخرج منتصف شعبان إلى منازل السكسيوي وتدويخ جهات
مراكش ، فتلقاه السكسيوي بطاعته المعروفة . وأسنى الهدية فتقبل طاعته وخدمته .
ثم سرح قائده يعقوب بن آصناد في اتباع زكنة حتى توغل في بلاد السوس ففرّوا أمامه
إلى الرمال . وانقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان . وانكفأ السلطان بعساكره
إلى مراكش ، فاحتل بها غرة رمضان . ثم قفل إلى فاس بعد أن قتل جماعة من شيوخ
بني ورا . وجعل طريقه في بلاد صنهاجة ، وسار في بلاد تامسنا ، وتلقاه عرب جشم
من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم ، فاستصحبهم إلى آفئ وتقبض على
ستين من أشياخهم ، فاستلحم منهم عشرين ممن نمي عنهم افساد السابلة . ودخل
رباط الفتح أخريات رمضان فقتل هنالك من الأعراب أمة ممن يؤثر عنه الخرابة . ثم
ارتحل منتصف شوال الغز ورياح أهل أزغار والهبط . واثار بالإحزن القديمة ، فأثنى
فيهم بالقتل والسبي وقفل إلى فاس ، فاحتل بها منتصف ذي القعدة . وفجأه الخبر
بهزيمة عبد الحق بن عثمان ، واستلحام الروم من عساكره ، ومهلك عبد الواحد
الفودودي من رجالات دولته . وأن عثمان بن أبي العلاء قد استفحل أمره يجهات
غمارة ، فأجمع لغزوه ، والله أعلم

* (الخبر عن غزاة السلطان لمدافة عثمان بن أبي العلاء ببلاد
الهبط ومهلكه بطنجة بعد ظهوره) *

لما ملك الرئيس أبو سعيد فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر سبته سنة خمس
وسبعمائة ، وأقام بها الدعوة لابن عمه المخلوع محمد بن محمد الفقيه ابن محمد الشيخ
ابن يوسف بن نصر كما ذكرناه ، وأجاز معه رئيس الغزاة المجاهدين بمحل إمارته من
مالقة عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبدالله بن عبد الحق من أعياص هذا البيت ،
كان مرشحاً للملك فيهم . واستقدمه معه ليفرق به الكلمة في المغرب بفتنة الدولة
مدافعة عن سبته لما كان هاج السلطان قومه فأخذها^(١) واستقام ملكها . وطمع

(١) وفي نسخة بولاق المصرية : لما كانوا اهاجوا السلطان وقدمه بأخذها .

عثمان في ملك المغرب بامدادهم ومظاهرتهم ، وسوّلت له نفسه ذلك ، فخرج سبته وولّى على جيش الغزاة بعده عمر ابن عمّه رحو بن عبدالله . ونجم هو ببلاد غمارة ، فدعا لنفسه وإجابته القبائل منهم . واحتلّ بحصن علودان من أمنع معاقلهم ، وبابعوه على الموت . ثم نهض إلى أصيلا والعريش فغلب عليها . واتصل ذلك كلّه بالسلطان الهالك أبي يعقوب فلم يحركه استهانة بأمرهم . وبعث ابنه أبا سالم بالعساكر ، فنازل سبته أياماً . ثم أقلع عنها . وبعث بعده أخاه يعيش بن يعقوب وأنزله طنجة ، وجمّر معه الكتائب وجعلها ثغراً . وزحف إليه عثمان بن أبي العلاء فتأخّر عن طنجة إلى القصر . ثم اتبعه فخرج إليه أهل القصر فرساناً ورجالاً ورماة مع يعيش ، فوصلوا إلى وادي وراء ، ثم انهزموا إلى البلد . ومات عمر بن ياسين ، ونزل عثمان عليهم القصر يوماً ، ثم دخله من غده . ثم كان مهلك السلطان ، وفرّ يعيش بن يعقوب خيفة من أبي ثابت ، فلحق بعثمان بن أبي العلاء واستقام أمره بتلك الجهات برهة . وكان السلطان أبو ثابت لما احتل بالمغرب شغله ما كان من انتراء يوسف بن أبي عياد بمراكش كما قدّمناه ، فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء مكان عمّه يعيش بن يعقوب لعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من رجال بيته ، فزحف إليه . ونهض عثمان إلى لقائه منتصف ذي الحجة سنة سبع وسبعمئة فهزمه واستلحم من كان معه من جند الروم . وهلك في تلك الوقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات السلطان المرشّحين ردفاء الوزارة . وسار عثمان إلى قصر كتامة فتزله ، واستولى على جهاته . وعلى تفيئة ذلك كان رجوع السلطان من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحا أثر النفاق ، فاعتزم على الحركة إلى بلاد غمارة يمحومنها أثر دعوة ابن أبي العلاء التي كادت تلج عليه ممالكه بالمغرب ، ويردّه على عقبه ويستخلص سبته من يد ابن الأحمر لما صارت ركاباً لمن يروم الانتراء والخروج من القرابة والأعياص المستنفرين وراء البحر غزاة في سبيل الله ، فنهض من فاس منتصف ذي الحجة من سنة سبع وسبعمئة ولما انتهى إلى قصر كتامة تلوم به ثلاثاً حتى توافت عساكره وحشوده ، وكمل اعتراضها وفرّ عثمان بن أبي العلاء أمامه ، وارتحل السلطان في اتباعه فنازل حصن علودان واقتحمه عنوة . واستلحم به زهاء أربعمئة . ثم نازل بلد الدمنة ، واقتحمها وأثنى فيها قتلاً وسبياً لتمسّكهم بطاعة ابن أبي العلاء ومظاهرتهم له . ثم كبس القصر واستباحه . ثم ارتحل إلى طنجة واحتلّ بها غرة ثمان

وسبعمائة وانحجر ابن أبي العلاء بسبته مع أوليائه وسرح السلطان عساكره ، ففرقت
نواحي سبته بالاكتساح والغارة . وأمر باختطاط بلد تيطاوين لتزول معسكره والأخذ
بمخنق سبته . وأوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إليهم في شأن التزول
عن البلد . وفي خلال ذلك اعتل السلطان فرض وقضى أياماً قلائل وهلك في ثامن
صفر من سنته ، ودفن بظاهر طنجة . ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة
فووري هنالك . رحمة الله عليه وعليهم .

* (الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع وما كان فيها
من الاحداث) *

لما ملك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي ابن السلطان أبي يعقوب
المعروف بأمه رزيكة ، وخلص الملا من بني مرين أهل الحل والعقد إلى أخيه أبي
الربيع فبايعوه . وتقبض على عمه علي بن رزيكة المستام للإمرة ، فاعتقله بطنجة إلى
أن هلك بها سنة عشر وسبعمائة لجمادى . وبث العطاء في الناس وأجزل وارتحل نحو
فاس . واتبه عثمان بن أبي العلاء في جيش كثيف ، وبيته وقد نذر به العسكر
فأيقظوا ليلتهم ووافاهم على الظهر بساحة علودان ، فناجزهم الحرب . وكانت الدائرة
على عثمان وقومه . وتقبض على ولده وكثير من عساكره . وأثنى أولياء السلطان فيهم
بالقتل والسبي ، وكان الظهور الذي لا كفاء له . ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر إلى
الأندلس ، وقد أحكم عقدة الصلح . وقد كان ابن الأحمر جاء للقاء السلطان أبي
ثابت ، ووصل إلى الجزيرة الخضراء فأدركه خبر مهلكه ، فتوقف عن الجواز ، وأجاز
ابن أبي الصبر بأحكام المؤاخاة . واجتاز عثمان بن أبي العلاء إلى العدو فيمن معه
من القرابة . فلحق بغرناطة . وأغذ السلطان السير إلى حضرته ، فدخل فاس آخر
ربيع من سنة ثمان وسبعمائة واستقامت الأمور وتمهد الملك ، وعقد السلم مع صاحب
تلمسان موسى بن عثمان بن يغمراسن ، وأقام وادعاً بحضرته . وكانت أيامه خير أيام ،
هدنةً وسكوناً وترفاً لأهل الدولة . وفي أيامه تغالى الناس في أثمان العقار ، فبلغت
قيمتها فوق المعتاد . حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين .
تنافس الناس في البناء فعالوا الصروح ، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام

وزخرفوها بالزليج والنقوش . وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره . وأكل الطيب واقتناء الحلى من الذهب والفضة . واستبحر العمران ، وظهرت الزينة والترف ، والسلطان وادع بداره متملى أريكته إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن مقتل عبدالله بن أبي مدين) *

كان أبو شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان من قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير ، وكان متحلاً للدين ومشتهراً به . ولما أجلب بنو مرين على المغرب وجالوا في بسائطه ، وتغلبوا على ضواحيه ، سحب البر منهم البر والقاجر من أهله مثله . وكان بنو عبد الحق قد تحيزوا لأبي شعيب هذا فيمن تحيزوه للصحابة من أهل الدين ، فكان إمام صلاتهم . وكان يعقوب بن عبد الحق أشدهم صحابة له ، وأوفاهم به ذماماً فاتصل به حبله ، واتصلت^(١) صحابته ، وعظم في الدولة قدره وانبسط بين الناس جاه ولده وأقاربه وحاشيته . وربى بنو شعيب هذا عبدالله ومحمد المعروف بالحاج ، وأبو القاسم ومن بعدهم من إخوتهم بقصر كتامة في جو ذلك الجاه . وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستخلصهم يوسف بن عبد الحق لخدمته ، واستعملهم على مختصاته . ثم ترقى بهم في رتب خدمته وأخصائه ، درجة بعد أخرى إلى أن هلك أبوهم أبو مدين شعيب سنة سبع وتسعين وستائة وكان المقدم منهم عند السلطان عبدالله ، فاربي^(١) على ثنيات العز والوزارة والخلة والولاية . وتقدم لحظوته في مجلسه كل حظوة ، واختصه بوضع علامته على الرسائل والأوامر الصادرة عنه ، وجعل إليه حسابان الخراج والضرب على أيدي العمال ، وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم . واستخلصه لمناجاة الخلوات والافضاء بذات الصدور ، فوقف ببابه الإشراف من الخاصة والقبيل والقراية والولد ، وسودوه وخطبوا نائله . وكان عبدالله قد استعمل مع ذلك أخاه محمداً على جباية المصامدة بمراكش ، وهناً أبا القاسم

(١) وفي نسخة ثانية : استمرت .

(٢) وفي نسخة ثانية : فأوفى .

الدعة بفاس ، فأقام بها متملياً راحتة عريضاً جاهه ، طاعماً كاسياً ، تسرب إليه أموال العمّال في سبيل الاتحاف ، وتقف ببابه صدور الركائب إلى أن هلك السلطان أبو يوسف . ويقال إن له خائنة في دمه مع سعاية الملياني . ولما ولي من بعده أخوه أبو الربيع فتقبل فيه مذاهب سلفه . وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا ، باشر نكبتهم لمكانه من إصدار الأوامر . ويزعمون أن له فيهم سعاية . وكان خليفة الأصغر منهم قد استبقى كما ذكرناه ، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة بداره في بعض المهن ، وبأشراً^(١) الخدم حتى اتصل بمباشرة السلطان ، فجعل غايته السعاية بعبدالله بن أبي مدين . وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع بأنه لا تؤمن بوائقه مع حرم ذويه ، وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس ، فدس إلى السلطان أن عبدالله بن أبي مدين يعرض باتهام السلطان في ابنته ، وأن صدره وغر بذلك ، وأنه مترصد بالدولة . وكان يخشى العائلة بما كان عليه من مداخلة القبيل ، ولما كان داعيته من دواعي آل يعقوب ، فتعجل السلطان دفع غائلته واستدعاه صبيحة زفاف ابنته ، زعموا عن زوجها فاستحثه قائد الروم من داره بفاس . ونذر بالشر ، فلم يغنه النذر ، ومرّ في طريقه إلى دار السلطان بمقبرة أبي يحيى بن العربي ، فطعنه القائد هنالك من ورائه طعنة أكبته على ذقنه . واحتر رأسه وألقاه بين يدي السلطان . ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجده بين يديه ، فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسرةً واسفاً ، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي ، فوقفه على براءة كان ابن أبي مدين بعثها للسلطان معه بالتنصّل والحلف ، فتيقظ وعلم مكر اليهودي به ، فندم وفتك لحينه بخليفة بن وقاصة وذويه من اليهود المتصدّين للخدمة ، وسطا بهم سطوة الهلكة ، فأصبحوا مثلاً للآخرين ، والله أعلم .

* (الخبر عن ثورة أهل سبته بالأندلسيين ومراجعتهم طاعة

السلطان) *

لما قفل السلطان أبو الربيع من غزاة سبته بعد أن شرّد عثمان بن أبي العلاء وأحجره

(١) وفي نسخة ثانية : ولابس .

بسبته ، وأجاز منها إلى العدو ومن كان معه من القرابة كما قلناه ، بلغه الخبر بضجر أهل سبته ، ومرض قلوبهم من ولاية الأندلسيين وسوء ملكتهم . ودس إليه بعض أشياعه بالبلد بمثل ذلك ، فأغزى صنيعته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخا وزيره في عساكر ضخمة من بني مرين . وسائر الطبقات من الجند . وأوعز إليه بالتقدم إلى سبته ومنازلتها ، فأغذ إليها السير ونزل بساحتها ، ولما أحس به أهل البلد تمشت رجالاتهم^(١) وتنادوا بشعارهم ، وثاروا على من كان بينهم من قواد ابن الأحمر وعماله وأخرجوا منها حاميته وجنوده . واقتحمها العساكر واحتل بقصبتها تاشفين بن يعقوب عاشر صفر من سنة تسع وسبعمائة . وطير الفوائق بالخبر إلى السلطان فعم السرور وعظم شأن الفرخ . وتقبض على قائد القصبه أبي زكريا يحيى بن مليلة ، وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة ، وعلى قائد الحروب بها من الأعياص عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق . كان صاحب الأندلس عقد له مكان ابن عمه عثمان بن أبي العلاء عند إجازته البحر إلى الجهاد كما ذكرناه . وكتب إلى السلطان بالفتح ، وأوفد عليه الملا من مشيخة أهل سبته وأهل الشورى . وبلغ الخبر إلى ابن الأحمر فارتاع لذلك وخشي عادية السلطان ، وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة . وقد كان الطاغية في تلك الأيام نازل الجزيرة الخضراء ، وأقلع عنها على الصلح بعد أن أذاقها من الحصار شدة ، وبعد أن نازل جبل الفتح ، فتغلب عليه وملكه . وانهمز زعيم من زعمائه يعرف بالفنش بريس ، هزمه أبو يحيى بن عبد الله بن أبي العلاء صاحب الجيش بمالقة ، لقيه وهو يحوس خلال البلاد بعد تملك الجبل ، فهزم النصارى وقتلوا أبرح قتل . وأهم المسلمين شأن الجبل فبادر السلطان أبو الجيوش . بانفاذ رسله راغبين في السلم خاطبين للولاية . وتبرع بالتزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ، ترغيباً للسلطان في الجهاد ، فتقبل منه السلطان وعقد له الصلح على ما رغب ، وأصهر إليه في أخته ، فأنكحه إياها . وبعث بالمدد للجهاد ، أموالاً وخيولاً وجنائب مع عثمان بن عيسى اليرنياني . واتصلت بينها الولاية إلى مهلك السلطان والبقاء لله وحده .

(١) وفي نسخة أخرى : بهشت . وتبهش القوم : اجتمعوا (قاموس) .

* (الخبر عن بيعة عبد الحق بن عثمان بمالأة الوزير والمشيخة
وظهور السلطان عليهم ثم مهلكه باثر ذلك) *

كانت رسل ابن الأحمر خلال هذه المهادة والمكاتبات تختلف إلى باب السلطان ،
ووصل منهم في بعض أحيائها خلف من مترفيهم ، فجاهر بالكباثر ، فكشف صفحة
وجهه في معاقرة الخمر والإدمان عليه . وكان السلطان منذ شهر جمادى الأولى سنة
تسع وسبعائة قد عزل القاضي بفاس أبا غالب المغيلي ، وعهد بأحكام القضاء لشيخ
الفتيا المذكور بها أبي الحسن الملقب بالصغير . وكان على نهج^(١) من تغيير المنكرات
والتعسف فيها ، حتى لقد كان مطاوعاً في ذلك وسواس النسك الأعجمي ،
ومتجاوزاً به الحدود المتعارفة بين أهل الشريعة في سائر الأمصار . وأحضر عنده ذات
يوم هذا الرسول ثملاً ، وحضر العدول فاستروحوه ، ثم أمضى حكم الله فيه ، وأقام
عليه الحد . وأضرمته هذه الموجدة ، فاضطرم غيظاً وتعرض للوزير رحو بن يعقوب
الوطاسي منصرفه من دار السلطان في موكبه ، وكشف عن ظهر يريه السياط وينعي
عليهم سوء هذا المرتكب مع الرسل . فبرم لذلك الوزير وأدرسته الحفيظة ، وسرح
وزعته^(٢) وحشمه في إحضار القاضي على أسوأ الحالات من التنكيل والتلّ لذقنه ،
فمضوا لتلك الوجهة ، واعتصم القاضي بالمسجد الجامع ، ونادى المسلمين ، فثارت
العامّة فيهم ، ومرج أمر الناس . واتصل الخبر بالسلطان فتلافاه بالبعث في أولئك
النفر من وزعة الوزير ، وضرب أعناقهم ، وجعلهم عظة لمن وراءهم ، فأسرّها
الوزير في نفسه ، وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد
شيخ بني مرين ، والمسلم له في شوارهم . وقائد الروم غنصالة المنفرد برياسة العسكر
وشوكته ، وكان لهم بالوزير اختصاص آثروه له على سلطانه ، فدعاهم لبيعة^(٣) عبد
الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الأعياص ، وخلع طاعة
السلطان فأجابوه وبايعوا له ، وتمّ أمرهم نجياً . ثم خرج عاشر جمادى من سنة عشر

(١) وفي نسخة أخرى : ثبج .

(٢) الوزعة : ج وازع وهو الذي يدير أمر الجيوش (قاموس) .

(٣) وفي نسخة ثانية : فدعاهم إلى بيعة .

وسبعائة إلى ظاهر البلد الحديد بمكان الرمكة ، وجأهروا بالخلعان وأقاموا الآلة وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملاء . وعسكروا بالعدوة القصوى من سبّو تخم بلاد العسكر ، وأزاء نبدورة من معاقل الحسن بن علي زعيم تلك الثورة . ثم ارتحلوا من الغد إلى تازى وخرج السلطان في أثرهم فعسكر بسبّو وتلّوم لاعتراض العساكر ، وإزاحة العلل ، واحتل القوم برباط تازى ، وأوفدوا على موسى بن عثمان بن يغمراسن سلطان بني عبد الواد يدعونه إلى المظاهرة واتصال اليد ، والمدد بالعساكر والأموال جنوحاً إلى التي هي آثر لديه من تفريق كلمة عدوّه ، فتناقل عن ذلك لمكان السلم الذي عقد له السلطان مذ أول الدولة ، وليستبين سبيل القوم . وقدّم السلطان بين يديه يوسف بن عيسى الجشمي ، وعمر بن موسى الفودودي في جموع كتيبة من بني مرين . وسار في ساقتهم ، فانكشف القوم عن تازى ولحقوا بتلمسان صرخاً . وحمد السلطان مغبة تناقله عن نصرهم ووجد بها الحجة عليهم ، إذ غاية مظاهرته إياهم أن يملكهم تازى ، وقد انكشفوا عنها فيسوا من صريخه . وأجاز عبد الحق بن عثمان ورحو بن يعقوب إلى الأندلس ، فأقام رحو بها إلى أن قتله أولاد ابن أبي العلاء ، ورجع الحسن بن علي إلى مكانه من قبيله ومحلّه من مجلس السلطان بعد أن اقتضى عهده بالأمان على ذلك . ولما احتلّ السلطان بتازى حسم الداء ومحا أثر الشقاق ، وأثخن في حاشية الخوارج وذويهم بالقتل والسبي . ثم اعتلّ أثناء ذلك وهلك لليال من اعتلاله سلخ جمادى الأخيرة من سنة عشر وسبعائة ووري بصحن الجامع الأعظم من تازى ، وبويع السلطان أبو سعيد ، كما نذكره إن شاء الله .

* (الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد وما كان فيها
من الأحداث) *

لما هلك السلطان أبو الربيع بتازى تطاول للأمر عمّه عثمان ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمّه قضيت^(١) . واستام المنصب وأسدى في ذلك وألحم . وحضر الوزراء والمشیخة بالقصر بعد هده من الليل ، واثاروا شيخ القرابة يومئذ وكبير الأعياص

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية : قضيب .

المرشحين ، وسرّبت إليهم الأموال . وجاءهم عثمان ابن السلطان أبي يعقوب مستاماً ، فزجروه واستدعوا السلطان أبا سعيد ، فحضر وبايعوه ليلتذ وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة . وسرح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن إلى فاس ، فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمئة . ودخل القصر واطلع على أمواله وذخيرته ، وفي غد ليلته أخذت البيعة للسلطان بظاهر تازي على بني مزين ، وسائر زناتة والعرب والقبائل والعساكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء . فقام بالأمر واستوسق له الملك . وفرّق الأعطيات وأسنى الجوائز ، وتفقد الدواوين ورفع الظلمات ، وحطّ المغارم والمكوس . وسرح أهل السجون ، ورفع عن أهل فاس وظيفة الرباع^(١) وارتحل لعشرين من رجب إلى حضرته ، فاحتل بفاس . وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب . ثم خرج لذي القعدة بعدها إلى رباط الفتح لتفقد الأحوال والنظر في أحوال الرعايا ، واهتم بالجهاد ، وأنشأ الأساطيل للغزو في سبيل الله . ولما قضى منسك الأضحى بعده ، رجع إلى حضرته بفاس . ثم عقد سنة إحدى عشرة وسبعمئة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس : الجزيرة ورندة وما إليها من الحصون . ثم نهض من الحصون سنة ثلاث عشرة وسبعمئة إلى مراکش لما كان بها من اختلال الأحوال ، وخروج عدي بن هنو الهسكوري ، ونقضه للطاعة ، فنازله وحاصره مدة ، واقتحم حصنه عنوة عليه ، وحمله إلى دار ملكه عنوة ، فأودعه المطبق . ثم رجع إلى غزو تلمسان ، والله أعلم .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي سعيد الى تلمسان أولى
حركاته إليها) *

لما خرج عبد الحق بن عثمان على السلطان أبي الربيع ، وتغلب على تازي بمظاهرة الحسن بن علي بن أبي الطلاق كبير بني عسكر ، واختلف رسلهم إلى أبي حمو موسى بن عثمان سلطان بني عبد الواد ، اسف ذلك بني مزين وحرك من

(١) يعني أنه رفع عنهم ضريبة الربع التي كانوا يدفعونها للحاكم .

إحهم^(١) ، ولما لحق الخارجون على الدولة بالسلطان أبي حمو وأقبل عليهم أضرم ذلك حقد بني مرين . وولى السلطان أبو سعيد الأمر وفي أنفسهم من بني عبد الواد غصة . فلما استوسق أمر السلطان ، ودوخ الجهات المراكشية ، وعقد على البلاد الأندلسية وفرغ من شأن المغرب ، اعترم على غزوتلمسان فنهض إليه سنة أربع عشرة وسبعائة ولما انتهى إلى وادي ملوية قدّم إبنه أبا الحسن وأبا عليّ في عسكرين عظيمين في الجناحين ، وسار في ساقتهما ، ودخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية ، فاكسح نواحيها واصطلم نعمها . ونازل وجدة ، فقاتلها قتالاً شديداً وامتنعت عليه ثم نهض إلى تلمسان فترل بالملعب من ساحتها . وانحجر موسى بن عثمان من وراء أسوارها ، وغلب على معاقلها ورعاياها وسائر ضواحيها ، فحطمها حطماً ، ونسف جهاتها نسفاً ، ودوخ جبال بني يرناسن وفتح معاقلها وأثنخ فيها وانتهى إلى وجدة . وكان معه في معسكره أخوه يعيش بن يعقوب ، وقد أدركته بعض استرابة بأمره ففرّ إلى تلمسان ، ونزل على أبي حمو ورجع السلطان على تعيينه إلى تازي ، فأقام بها . وبعث ابنه الأمير أبا عليّ إلى فاس فكان من خروجه على أبيه ما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي وما كان بينه وبين أبيه
من الواقعات) *

كان للسلطان أبي سعيد إثنان من الولد أكبرهما لأتمته الحبشية ، وهو عليّ ، والأصغر لمملوكة من سبي النصارى وهو عمر . وكان هذا الأصغر آثرهما لديه ، وأعلقها بقلبه منذ نشأ ، فكان عليه حذباً وبه مشغوفاً . ولما استولى على ملك المغرب ، رشحه بولاية عهده ، وهو شاب لم يطرّ شاربه . ووضع له ألقاب الإمارة ، وصير معه المجلساء والخاصة والكتاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه . وعقد على وزارته لبراهيم بن عيسى اليرنياني من صنائع دولتهم وكبار المرشحين بها . ولما رآه أخوه الأكبر أبو الحسن صاغية أبيه إليه ، وكان شديد البرور بوالديه ، انحاش إليه وصار في جملته ، وخلط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه واستمرت حال الأمير أبي عليّ على هذا ، وخاطبه الملوك من

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية : وحرك مزاجهم .

النواحي وخطبهم ، وهادوه وعقد الرايات ، واثبت في الديوان ومحا وزاد في العطاء ونقص ، وكاد أن يستبدّ . ولما قفل السلطان أبو سعيد من غزاته إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعائة أقام بتازي وبعث ولديه إلى فاس ، فلما استقرّ الأمير أبو عليّ بفاس حدّثته نفسه بالاستبداد على أبيه ، وخلعه وراوضه المداخلون له في المكر بالسلطان حتى يتقبّض عليه ، فأبى وركب الخلاف وجاهر بالخلعان ودعا لنفسه ، فأطاعه الناس لما كان السلطان جعل إليه من أمرهم . وعسكر بساحة البلد الحديد يريد غزو السلطان ، فبرز من تازي بعسكره يقدم رجلاً ويؤخر أخرى .

ثم بدا للأمير أبي عليّ في شأن وزيره ، وحدّثته نفسه بالتقبّض عليه استرابة به لما كان بلغه من المكاتبة بينه وبين السلطان ، فبعث لذلك عمر بن يخلف الفردودي ، وتفطن الوزير لما حاوله من المكر ، فتقبّض عليه ونزع إلى السلطان أبي سعيد فتقبّله ورضي عنه . وارتحل إلى لقاء ابنه ، ولما تراءى الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازي ، واختل مصاف السلطان وانهمز عسكره وأفلت بعد أن أصابته جراحه في يده وهن لها ، ولحق بتازي قليلاً جريحاً . ولحق به ابنه الأمير أبو الحسن نازعاً إليه من جملة أخيه أبي علي بعد المحنة وفاء لحق أبيه ، فاستبشر السلطان بالظهور والفتح ، وحمد المغبة ، وأناخ الأمير أبو علي بعساكره على تازي ، وسعى الخواص بين السلطان وابنه في الصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازي وجهاتها ، فتمّ ذلك بينهما وانعقد . وشهد الملامن مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار ، واستحكّم عقده وانكفاً الأمير أبو عليّ إلى حضرة فاس مملّكاً . وتوافت إليه بيعات الأمصار بالمغرب ووفودهم ، واستوسق أمره .

ثم اعتلّ على أثر ذلك واشتدّ وجعه ، وصار إلى حال الموت وخشي الناس على أنفسهم تلاشي الأمر بمهلكه ، فسابلوا إلى السلطان بتازي ، ثم نزع على الأمير أبي عليّ وزيره أبو بكر بن النوار^(١) وكاتبه منديل بن محمد الكتاني ، وسائر خواصه ، ولحقوا بالسلطان وحملوه على تلافى الأمر ، فنهض من تازي واجتمع إليه كافة بني مرين والجنّد . وعسكر على البلد الحديد وأقام محاصراً لها ، وابتنى داراً لسكناه وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الأمر .

(١) وفي النسخة المصرية : أبو بكر بن النوان .

وتفرد أبو عليّ بطائفة من النصارى المستخدمين بدولتهم ، كان قائدهم يمتّ إليه بخوولة ، وضبط البلد مدة مرضه حتى اذا أفاق وتبين اختلال أمره ، بعث إلى أبيه في الصفيح والرضى ، وان ينزل له عما انتزى عليه من الأمر على أن يقطعه سجالمة وما إليها ، ويسوغه ما احتمال من المال والذخيرة من دراهم ، فأجابه لذلك ، وانعقد بينهما سنة خمس عشرة وسبعائة وخرج الأمير أبو عليّ بخاصته وحشمه ، وعسكر بالزيتون من ظاهر البلد . ووفى له السلطان بما اشترط وارتحل إلى سجلماسة ، ودخل السلطان إلى البلد الجديد ونزل بقصره ، وأصلح شؤون ملكه ، وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره ، وفوض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال . وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتّاب ، ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لأخيه . ووفدت إليه بيعات الأمصار بالمغرب ، ورجعوا إلى طاعته .

ونزل الأمير أبو عليّ بسجلماسة فأقام بها ملكاً ، ودوّن الدواوين ، واستلحق واستركب ، وفرض العطاء واستخدم ظواغن العرب من المعقل ، وافتتح معاقل الصحراء وقصور تاورت^(١) وتيكورارين وتمنطيت ، وغزا بلاد السوس فافتتحها وتغلب على ضواحيها ، وأثنى في أعرابها من ذوي حسن والشبانات وزكنة ، حتى استقاموا على طاعته .

وبيت عبد الرحمن بن يدر أمير الأنصار بالسوس في تارودانت مقرّه ، فافتتحها عليه عنوة وقتله ، واصطلم نعمته وأباد سلطانه . وأقام لبني مرين في بلاد القبلة ملكاً وسلطاناً ، وانتقض على السلطان سنة عشرين وسبعائة وتغلب على درعة ، وسما إلى طلب مراکش ، فعقد السلطان على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن ، وجعله إليه ، وأغزاه ونهض على أثره ، واعتل^(٢) بمراكش ، وثقف أطرافها وحسم عللها . وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم ، وقفل بعساكره إلى الحضرة . ثم نهض الأمير أبو عليّ سنة إثنين وعشرين وسبعائة بجموعه من سجلماسة وأغدّ السير إلى مراکش ، فاختلفت عساكره بها قبل أن يجتمع لكندوز أمره . فتقبّض عليه وضرب عنقه ورفع على القناة وملك مراکش وسائر ضواحيها . وبلغ الخبر إلى السلطان ، فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد . وأزاح العلل ، واستوفى

(١) وفي النسخة المصرية : توات .

(٢) وفي النسخة المصرية : فاحتلوا .

الأعطيات ، وقدّم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن ولي عهده الغالب على أمره في
عساكره وجموعه . وجاء في ساقته ، وسار على هذه التعبية . ولما انتهى إلى بويو^(١)
من وادي ملوية نذروا بالبيات من أبي علي وجنوده ، فحذروهم وأيقظوا ليلتهم .
وبيّتهم بمعسكرهم ذلك ، فكانت الدبرة عليه . وقلّ عسكره . وارتحلوا من الغد في
أثره . وسلك على جبال درن ، وافترقت جنوده في أوعاره ، ولحقهم من معراتها
شناعات ، حتى ترجل الأمير أبو عليّ عن فرسه ، وسعى على قدميه ، وخلص من
ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ، ولحق بسجلماسة ، ومهد السلطان نواحي
مراكش ، وعقد عليها لموسى بن علي بن محمد الهنتاتي ، فعظم غناؤه في ذلك
واضطلاعه وامتدّت أيام ولايته وارتحل السلطان إلى سجلماسة ، فدافعه الأمير أبو علي
بالخضوع في الصفح والرضا والعودة إلى السلم ، فأجابه السلطان لما كان شغفه من
حبّه ، فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب . ورجع إلى الحضرة وأقام الأمير أبو علي
بمكانه من ملك القبلة إلى أن هلك السلطان ، وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن
كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نكبة منديل الكتاني ومقتله) *

كان أبوه محمد بن محمد الكتاني^(٢) من عليّة الكتاب بدولة الموحّدين ، ونزع من
مراكش عندما انحل نظام بني عبد المؤمن وانفض جمعهم إلى مكناسة ، فأوطنها في
إيالة بني مرين . واتصل بالسلطان يعقوب بن عبد الحق فصحبه فيمن كان يثائر على
صحابته من أعلام المغرب . وسفر عنه إلى الملوك كما ذكرناه في سفارته إلى المستنصر
سنة خمس وستين وستائة وملك السلطان يعقوب بن عبد الحق فازداد الكتاني عند
إبنة يوسف بن يعقوب حظوة ومكانه إلى أن سخطه ونكبه سنة سبع وستين وستائة
وأقصاه من يومئذ وملك في حال سخطته . وبقي من بعده ابنه منديل هذا في جملة
السلطان أبي يعقوب متبرماً بمقام عبدالله بن أبي مدين المستولي على قهرمة دار

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية توتو وفي نسخة أخرى نونو .

(٢) وفي النسخة المصرية : الكتاني .

السلطان ومخالصته في خلواته مفضياً لذلك . متوقفاً النكبة في أكثر أيامه مضطربة له بالحسد جوائحه ، مع ما كان عليه من القيام على حسابان الديوان عرف فيه بسبقه وتشابه صديقه وعدوه . ولما تغلب السلطان على ضواحي شلف ومغراوة واستعمل على حسابان الجباية ، وجعل إليه ديوان العسكر هنالك ، وإلى نظره اعتراضهم وتمحيصهم ، فنزل على مليانة مع من كان هنالك من الأمراء مثل علي بن محمد الخيري والحسن بن علي بن أبي الطلاق العسكري إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب ، ورجع أبو ثابت البلاد إلى أبي زيّان وأخيه أبي حمّو فخفّ عليهما ، وحلا بعيونهما ، واستبلغا في تكريمه وانصرف إلى مغربه . وكان معسكر السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان قد صحب أخاه أبا سعيد عثمان بن يعقوب في حال خموله ، وتأكدت بينهما الخلة التي رعاها له السلطان أبو سعيد . فلما ولي أمر المغرب متّ بذلك إليه ، فعرفه له واختصّه وخالصه ، وجعل إليه وضع علامته وحسابان جبايته ، ومستخلص أحواله ، والمفاوضة بذات صدره . ورفع مجلسه في بسائطه ، وقدمه على خاصته . وكان كثير الطاعة للأمير أبي علي ابنه المتغلب على أبيه قبل أول أمره (١) . ولما استبدّ وخلع أباه انحاش مندبل هذا إليه . ثم نزع عنه حين تبين اختلال أمره ، وكان الأمير أبو الحسن يحقد عليه ولاية أخيه أبي عليّ لما كان بينهما من المنافسة . وكان كثيراً ما يوغر صدره بإيجاب حق عمر عليه ، وامتهانه في خدمته . وطوى له على النث حتى اذا انقرد بمجلس أبيه وفصل عمر إلى سجالسة أحكم السعاية فيه والحاح (٢) في الهلكة التي أحكم (٣) السلطان عليها أذناً واعية ، حتى تأذن الله بإهلاكه . وكان مندبل هذا كثيراً ما يفضب السلطان في المحاوراة والخطاب دالة عليه وكبراً ، فاعتدّ عليه من ذلك كلمات وأحوالاً ، وسخطه سنة ثمان عشرة وسبعائة واذن لابنه الأمير أبي الحسن في نكبته ، فاعتقله واستصفى أمواله ، وطوى ديوانه وامتحنه أياماً ، ثم قتله بمحبسه خنقاً ، ويقال جوعاً . وذهب مثلاً في الغابرين ، والله خير الوارثين .

(١) وفي النسخة المصرية : المتغلب على أبيه أول مرة .

(٢) وفي النسخة المصرية : الآلاء .

(٣) وفي النسخة المصرية : صرّ .

* (الخبر عن انتفاض العزفي بسبته ومنازلته ثم مصيرها الى طاعة السلطان بعد مهلكه) *

كان بنو العزفي لما تغلب عليهم الرئيس أبو سعيد ونقلهم إلى غرناطة سنة خمس وسبعمئة استقروا بها في إيالة المخلوع ثالث ملوك بني الأحمر ، حتى اذا استولى السلطان أبو الربيع على سبته سنة تسع وسبعمئة أذنوه في الإجازة إلى المغرب ، فأجازوا إلى فاس ، فاستقروا بها . وكان يحيى وعبد الرحمن ابنا أبي طالب من سراتهم وكبارهم ، وكانوا يغشون مجالس أهل العلم ، لِمَا كانوا عليه من انتحال الطلب^(١) . وكان أبو سعيد أيام إمارة بني أبيه يجالس بالمسجد الجامع القرويين شيخ الفتيا أبا الحسن الصغير . وكان يحيى بن أبي طالب يلازمه ، فاتصل به وصارت له وسيلة يحتسبها عنده . فلَمَّا ولى الأمر واستقلَّ به ، رعى لهم زمام صحابتهم ، ووفى لهم مقاصدهم . وعقد ليحيى على سبته ، ورجعهم إلى مقرِّ إمارتهم منها ومحل رياستهم ، فارتحلوا إليها سنة عشر وسبعمئة وأقاموا دعوة السلطان أبي سعيد والترموا طاعته . ثم تغلب الأمير أبو علي على أمر أبيه ، واستبدَّ عليه فعقد على سبته لأبي زكريا حيّون بن أبي العلاء القرشي ، وعزل يحيى بن أبي طالب عنها . واستقدمه إلى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمّه حاتم ، واستقروا في جملة السلطان . وهلك أبو طالب بفاس خلال ذلك حتى اذا كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه ما قدّمناه ، لحق يحيى بن أبي طالب وأخوه بالسلطان نازعين من جملة الأمير أبي علي . فلما اعتلَّ بالبلد الحديد ونازله السلطان بها فحينئذ عقد السلطان ليحيى بن أبي طالب على سبته ، وبعثه إليها ليقم دعوته بتلك الجهات . وتمسك بابنه محمد رهنا على طاعته ، فاستقلَّ بإمارتها ، وأقام دعوة السلطان وطاعته بها . وأخذ بيعته على الناس ، واتصل ذلك سنتين^(٢) . وهلك عمّه أبو حاتم هنالك بعد مرجعه معه من المغرب سنة ست عشرة وسبعمئة . ثم انتفض على طاعة السلطان ونبذ طاعة الأمراء ، ورجع إلى حال سلفه من أمر الشورى في البلد . واستقدم من الأندلس عبد الحق بن

(١) وفي النسخة المصرية : الطب .

(٢) وفي نسخة ثانية : سنين .

عثمان فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرق الكلمة به ، ويوهن بياسه عزائم السلطان
 في مطالبته . وجهاز السلطان إليه العساكر من بني مرين وعقد على حربه للوزير ابراهيم
 بن عيسى ، فزحف إليه وحاصره ، وتعلل عليهم بطلب ابنه ، فبعث به السلطان إلى
 وزيره ابراهيم ليعطي طاعته ، فيسلمه ، وجاءه الخبر من عيون كانت بالعسكر وأن
 ابنه كائن بفسطاط الوزير بساحة البحر ، بحيث تتأتى الفرصة في أخذه ، فبيت
 المعسكر ، وهجم عبد الحق بن عثمان بحشمه وذويه على فسطاط الوزير ، فاحتمله إلى
 أبيه وركبت العساكر للهيعة ، فلم يقفوا على خبر حتى تفقد الوزير ابن العزفي .
 واتهموا قائدهم ابراهيم بن عيسى الوزير بمالأة العدو على ذلك ، فاجتمعت مشيختهم
 وتقبضوا عليه ، وحملوه إلى السلطان ابتلاءً للطاعة واستبصاراً في نصيح السلطان ،
 فشكر لهم وأطلق وزيره لابتلاء نصيحته . ورغب يحيى بن العزفي بعدها في رضی
 السلطان وولايته . ونهض السلطان سنة تسع عشرة وسبعمئة إلى طنجة لاختبار
 طاعته ، فعقد له على سبته واشترط هو على نفسه الوفاء لجباية السلطان ، وأسنى
 هديته في كل سنة . واستمرت الحال على ذلك إلى أن هلك يحيى العزفي سنة عشرين
 وسبعمئة . وقام بالأمر بعده ابنه محمد إلى نظر عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي
 القاسم شيخ قرابتهم . وكان قائد الأساطيل بسبته وولي النظر فيها بعد أن نزع القائد
 يحيى الرنداحي إلى الأندلس ، واختلف الغوغاء بسبته ، وانتهز السلطان الفرصة
 فأجمع على النهوض إليها سنة ثمان وعشرين وسبعمئة وبادروا بايتاء طاعتهم . وعجز
 محمد ابن يحيى عن المناهضة ، وظنّها محمد بن عيسى من نفسه ، فتعرض للأمر في
 أوغاد من اللقيف ، فاجتمعوا إليه ودافعهم الملاء عن ذلك ، وحملوهم على الطاعة ،
 واقتادوا بني العزفي إلى السلطان فانقادوا ، واحتل السلطان بقصبة سبته ، وثقف
 جهاتها ورمّ مثلما وأصلح خللها . واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه في
 أعمالها ، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله الصدراتي على حاميته ، وعقد لأبي القاسم
 بن أبي مدين على جبايتها والنظر في مبانها ، وإخراج الأموال للنفقات فيها . وأسنى
 جوائز الملاء من مشيختها ، ووفّر أقطاعاتهم وجراياتهم . وأوعز ببناء البلد المسمى أفراك
 على سبته ، فشرعوا في بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمئة وانكفأ راجعاً إلى حضرته ،
 والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة) *

كان بنو عبد المهيمن من بيوتات سبّتة ، ونسبهم في حضرموت . وكانوا أهل تجلة ووقار ، متحلين للعلم . وكان أبو محمد قاضياً بسبّتة أيام أبي طالب وأبي حاتم ، وكان له معهم صهر . ونشأ ابنه عبد المهيمن هذا في حجر الطلب والجلالة ، وقرأ صناعة العريّة على الاستاذ الغافقي وحذق فيها . ولما نزلت بهم نكبة الرئيس أبي سعيد سنة خمس وسبعمئة واحتملوا إلى غرناطة ، احتمل فيهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه . وقرأ عبد المهيمن بغرناطة على مشيختها ، وازداد علماً وبصراً باللسان والحديث . واستكتب بدار السلطان محمد المخلوع ، واختصّ بوزيره المتغلب على دولته محمد بن الحكيم الرُنديّ فيمن اختص به من رؤساء بني العزفي . ثم رجع بعد نكبة ابن الحكيم إلى سبّتة ، وكتب عن قائدها ابن مسلمة مدّة . ولما استخلص بنو مريّن سبّتة سنة تسع وسبعمئة اقتصر على الكتابة ، وأقام متحلاً مذاهب سلفه في انتحال العلم ونزول المرؤة . ولما استولى السلطان أبو سعيد على المغرب واستقل بولاية العهد ، وتغلب على الأمر ابنه أبو علي ، وكان محباً للعلم مولعاً بأهله متحلاً لفنونه . وكانت دولته خلواً من صناعة التراسل مذ عهد الموحدين للبداءة الموجودة في أولهم^(١) . وحصل للأمير أبي عليّ بعض البصر بالبلاغة واللسان تفتن به لشأن ذلك ، وخلو دولتهم من الكتاب المرسلين ، وأنهم إنما يحكمون الخطّ الذي حذقوا فيه . ورأى الأصابع تشير إلى عبد المهيمن في رياسة تلك الصناعة ، فولع به . وكان كثير الوفاة مع أهل بلده أوقات وفادتهم ، فيختصه الأمير أبو عليّ بمزيد برّه وكرامته ، ويرفع مجلسه ، ويخطبه للكتابة وهو يمتنع عليه . حتى اذا أمضى عزيمته في ذلك أوعز إلى عامله بسبّتة سنة اثنتي عشرة وسبعمئة أن يشخصه إلى بابهم فقلده كتابته وعلامته حتى اذا خرج أبو عليّ على أبيه تحيز عبد المهيمن إلى الأمير أبي الحسن ، فلما صولح أبو عليّ على النزول عن البلد الجديد وكتب شرطه على السلطان كان من جملتها كون عبد المهيمن معه ، وأمضى له السلطان ذلك وأنف الأمير أبو

(١) وفي طبعة بولاق : الموجدة في دولتهم .

الحسن منها ، فأقسم ليقتلته إن عمل بذلك ، فرجع عبد المهيمن أمره إلى السلطان ولاذبه ، وألقى نفسه بين يديه ، فرق لشكواه وأمره باعتزالها معاً والرجوع إلى خدمته . وأنزله بمعسكره وأقام على ذلك ، واختصه منديل الكتاني كبير الدولة وزعيم الخاصة ، وأنكحه ابنته ، ولما نكب منديل جعل السلطان علامته لأبي القاسم بن أبي مدين ، وكان غفلاً خلواً من الآداب ، فكان يرجع إلى عبد السلطان علامته لأبي القاسم بن أبي مدين ، وكان غفلاً خلواً من الآداب ، فكان يرجع إلى عبد المهيمن في قراءة الكتب وإصلاحها ، وإنشائها حتى عرف السلطان له ذلك ، فاقصر عليه وجعل وضع العلامة إليه سنة ثمان عشرة وسبعمئة فاضطلع بها ورسخت قدمه في مجلس السلطان ، وارتفع صيته . واستمر على ذلك أيام السلطان وابنه أبي الحسن من بعده إلى أن هلك بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمئة والله سبحانه وتعالى خير الوارثين .

* (الخبر عن صريخ أهل الاندلس ومهلك بطرة
على غرناطة) *

كان الطاغية شانجة بن أدفونش قد تكالب على أهل الاندلس من بعد أبيه هراندة الهالك سنة اثنتين وثمانين وستمئة . ومنذ غلب على طريف شغل السلطان يوسف بن يعقوب بعده ببني يغمراسن ، ثم تشاغل حفدته من بعده بأمرهم وتقاصرت مددهم ، وهلك شانجة سنة ثلاث وسبعين^(١) وولى ابنه هراندة ونازل الجزيرة الخضراء فرضة الجهاد لبني مرين حولاً كاملاً ، ونازلت أساطيله جبل الفتح واشتد الحصار على المسلمين . وراسل هراندة بن أدفونش صاحب برشلونة أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم ، ويأخذ بحجزتهم ، فنازل ألمرية وحاصرها الحصار المشهور سنة تسع وسبعمئة ونصب عليها الآلات . وكان منها برج العود المشهور بطول الأسوار بمقدار ثلاث قامات ، وتحمل المسلمون على إحراقه فأحرق . وحفر العدو تحت الأرض مسرباً بمقدار ما يسير فيه عشرون راكباً . وتفطن المسلمون واحتفر قبالتهم مثله إلى أن نفذ بعضهم

(١) الصحيح ثلاث وتسعين وستمئة .

لبعض ، واقتلوا من تحت الأرض وعقد ابن الأحمر لعثمان بن أبي العلاء زعيم الأعياص على عسكر بعثه مدداً لأهل المريّة ، فلقية جمع من النصارى كان الطاغية يعنهم لحصار مرشانة^(١) ، فهزمهم عثمان واستلحمهم ، ونزل قريباً من معسكر الطاغية وألح بمغاداتهم ومراوحتهم الى أن رغبوا إليه في السلم وأفرج عن البلد. وتغلب الطاغية ، خلال ذلك على جبل الفتح ، وأقامت عساكره على سمانّة^(٢) واسطبونة^(٣) ، وزحف العباس بن رحو بن عبدالله وعثمان بن أبي العلاء في العساكر لاغاة البلدين ، فأوقع عثمان بعسكر اسطبونة ، وقتل قائدهم ألفنش بيرش^(٤) في نحو ثلاثة آلاف فارس واستلحموا . ثم زحف عثمان لاغاة العباس وكان دخل عوجين فحاصرتهم جموع النصارى به ، فانفضوا الخبر زحفه ، وبلغ الخبر إلى الطاغية بمكانه من ظاهر الجزيرة بفتكة عثمان في قومه ، فسرح جموع النصرانية ، ولقيهم عثمان فأوقع بهم ، وقتل زعماءهم . وارتحل الطاغية يريد لقاءهم فخالف أهل البلد إلى معسكره ، وانتهبوا محلاته وفساطيطه ، وأتيحت للمسلمين عليهم الكرة ، وامتلات الأيدي من غنائمهم وأسراهم . ثم هلك الطاغية أثر هذه الهزائم سنة اثني عشرة وسبعائة وهو هراندة بن شانجة . وولي بعده ابنه الهنشة طفلاً صغيراً ، جعلوه لنظر عمّه دون بطرة ابن شانجة ، وزعيم النصرانية جوان فكفلاه . واستقام أمرهم على ذلك ، وشغل السلطان أبو سعيد ملك المغرب بشأن ابنه وخروجه ، فاهتبل النصرانية الغرة في الأندلس وزحفوا إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعائة وأناخوا عليها بعسكرهم وأمهم . وبعث أهل الأندلس صريخهم إلى السلطان واعتذر لهم بمكان أبي العلاء من دولتهم ، ومحلّه من رياستهم ، وأنه مرشح للأمر في قومه بني مرين ، يخشى معه تفريق الكلمة . وشرط عليهم أن يدفعوه إليه برمته حتى يتم أمر الجهاد ، ويعيده إليهم حوطة على المسلمين . ولم يمكنهم ذلك لمكان عثمان بن أبي العلاء لصرامته وعصابته

(١) مرشانة : مدينة من أعمال قرمونة بالاندلس (معجم البلدان) .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي طبعة بولاق شمانة وفي نسخة أخرى : سمانّة وفي معجم البلدان ذكر سمانّة وهو اسم موضع ولم يزد على ذلك .

(٣) اسطبونة : لم يذكرها صاحب معجم البلدان ولعلها اسطبة المذكورة في نفع الطيب ج ١ ص ١٦٥ وتبعد عن قرطبة ٣٦ ميلاً .

(٤) وفي نسخة ثانية : ألفنس بترس .

من قومه ، فأخفق سعيهم واستلحموا . وأطالت أمم النصرانية بفرناطة ، وطمعوا في التهامها . ثم إن الله نفس مخنقهم ، ودافع قدرته عنهم ، وكيف لعثمان بن أبي العلاء وعصبته واقعة فيهم كانت أغرب الوقائع . صمدوا إلى موقف الطاغية يحمليهم ، وكانوا زهاء مائتين أو أكثر ، وصابروهم حتى خالطوهم في مراكزهم ، فصرعوا بطرة وجوان ، وولوهم الأدبار . واعترضتهم من ورائهم مسارب الماء للشرب من شقيل^(١) فتطارحوا فيها . وهلك أكثرهم ، واكتسحت أموالهم ، وأغز الله دينه ، وأهلك عدوه . ونصب رأس بطرة بسور البلد عبرة لمن يذكر ، وهو باق هنالك لهذا العهد . والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن صهر الموحدين والحركة الى تلمسان على اثره وما تخلل ذلك من الاحداث) *

لما انفرج الحصار عن ولد يغمراسن بن زيّان أحد ملوك بني عبد الواد سنة ست وسبعائة وتجاوى أبو ثابت عن بلادهم ، ونزل لهم عما كان بنو مزين ملكوه منها بسيوفهم . واستقل أبو حمو بملك بني عبد الواد على رأس الحول منها ، صرف نظره واهتمامه إلى بلاد المشرق ، فتغلب على بلاد مغراوة ، ثم على بلاد بني توجين ، ومحا منها أثر سلطانهم . ولحق أعياصهم من ولد عبد القوي بن عطية ولد منديل بن عبد الرحمن بالموحدين بني أبي حفص مع من تبعهم من رؤوس قبائلهم ، وصاروا في جملة عساكرهم . واستلحق مولانا السلطان أبو يحيى وحاجبه يعقوب بن عمر منهم جنداً كثيراً أثبتهم في الديوان ، وغالب بهم الخوارج والمنازعين للدولة . ثم زحف أبو حمو إلى الجزائر وغلب ابن علان عليها سنة^(٢) ونقله إلى تلمسان ووفى له . وفر بنو منصور أمراء ملكيش أهل بسيط متيجة من صنهاجة ، فلحقوا بالموحدين واصطنعواهم . وتملك قاصية المغرب الأوسط وتاخم عمل الموحدين بعمله . ثم تغلب على تدلس سنة إثنتي عشرة وسبعائة وتجنى على مولانا السلطان أبي يحيى بما وقع بينهم من المراسلة أيام انترى ابن مخلوف بيجاية كما ذكرناه في أخباره . فحث عزائمهم

(١) وفي نسخة ثانية : شليل .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

لمترلتها وطلب بلاد الموحدين ، وأوطأ عساكره أرضهم ، ونازل أمصارهم بجاية
وقُسْطَينَة . واختص بجاية بشوكته من ذلك ، وجَهَز العساكر مع مسعود ابن عمه
أبي عامر ابراهيم لمضايقتها . وكان خلال ذلك ما قدّمناه من خروج محمد بن يوسف
ابن يغمراسن عليه سنة (١) وقيام بني توجين بأمره ، واقتطاع جبل وانشريس
من عمالة ملكه .

واستمرت الحال على ذلك حتى هلك السلطان أبو حمّو سنة ثمان عشرة وسبعائة وقام
بأمرهم ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن فصنع له في ابن عمه محمد بن يوسف . ونهض
إليه بعساكر بني عبد الواد حتى نازله بمعتصمه من جبل وانشريس وداخله عمر بن
عثمان كبير بني تيفرين في المكربه ، فتقبّض عليه وقتله سنة تسع عشرة وسبعائة وارتحل
إلى بجاية حتى احتل بساحتها ، وامتنع عليه الحاجب ابن عمر فأقام يوماً أو بعضه . ثم
انكفاً راجعاً إلى تلمسان ، وردد البعوث إلى أوطان بجاية ، وابتنى الحصون لتجمير
الكتائب ، فابتنى بوادي بجاية من أعلاه حصن بكر ، ثم حصن تامر يزدكت . ثم
اختط بتيكلات على مرحلة منها بلداً سماها تامر يزدكت على اسم المعقل الذي كان
لأولهم بالجبل قبالة وجدّة . وامتنع يغمراسن به على السعيد كما قدّمناه ، فاخطأ بلد
تيكلات هذه ، وشحنها بالأقوات والعساكر ، وصيرها ثغراً للملكه ، وأنزل بها جنده .
وعقد عليها لموسى بن علي الكردي كبير دولته ، ودولة أبيه (٢) . واستحّنه أمراء
الکعوب من بني سُلَيْمٍ لملك أفريقية حين مغاضبتهم لمولانا السلطان أبي يحيى
اللحياني ، وأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أبي عمران ، وأبي اسحق بن أبي
يحيى الشهيد ، مرّة بعد أخرى كما ذكرناه في أخبارهم جميعاً . وكانت حروبهم
سجالاً إلى أن كان بين جيوش زناته والموحدين الزحف المشهور بالرياش من نواحي
مرماجنة سنة تسع وعشرين وسبعائة زحفت فيه إلى السلطان أبي يحيى عساكر
زناته مع حمزة بن عمر أمير بني كعب . ومن إليه من البدو ، وعليهم يحيى بن موسى
من صنائع دولة آل يغمراسن . وقد نصبوا للملك محمد بن أبي عمران بن أبي
حفص ، ومعهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني عبد الحق في بنيه وذويه . وكان
نزع إليهم من عند الموحدين كما ذكرناه ، فاختل مصاف مولانا السلطان أبي يحيى

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة ثانية : لموسى بن علي العزفي كبير دولته ودولة ابنه .

وانهزم ، واستولوا على فساطيطه بما فيها من الذخيرة والحرم ، وانتهبوا معسكره وتقبضوا على ولديه المولين أحمد وعمر ، وأشخصوهما إلى تلمسان . وأصيب السلطان في بدنه بجراحات أوهته ، وخلص إلى بونة ناجياً برمقه . وركب السفين منها إلى بجاية ، فأقام بها يد مل جراحه ، واستولت زناتة على تونس . ودخلها محمد بن أبي عمران وسمّوه باسم السلطان ومقادته في يد يحيى بن موسى أمير زناتة . واعتزم مولانا السلطان أبو يحيى على الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد صريخاً على آل يغمراسن . وأشار حاجبه محمد بن سيّد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي زكريا صاحب الثغر استنكافاً له عن مثلها ، فتقبّل إشارته وأركب ابنه البحر لذلك . وبعث إليه معه أبا محمد عبدالله بن تاشفين من مشيخة الموحدّين نافضاً أمامه طرف المقاصد والمحاورات ، ونزلوا بغساسة من سواحل المغرب ، وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرتة ، وأبلغوه صريخ مولانا السلطان أبي يحيى ، فأهترّ لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن ، وقال لابنه الأمير في ذلك المحفل : يا بني لقد قصدك أكبر أقوامنا وموصلك ، ووالله لأبذلنّ في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ، ولأسيرنّ بعساكري إلى تلمسان فأنزلها مع أيبك ، فانصرفوا إلى منازلهم مسرورين . وكان فيما شرطه عليهم السلطان أبو سعيد مسير مولانا السلطان أبي يحيى بعساكره إلى منازلة تلمسان معه فقبلوا . ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمائة ولما انتهوا إلى وادي ملوية وعسكر بضره ، جاءهم الخبر اليقين باستيلاء السلطان أبي يحيى على حضرة تونس وإجهاضه زناتة وسلطانهم عنها . فاستدعى مولانا السلطان الأمير أبا زكريا يحيى ابنه ووزيره أبا محمد عبدالله بن تافراكين وأمرهم بالإنصراف إلى صاحبهم وأسنى جوائزهم وحاجاتهم^(١) . وركبوا أساطيلهم من غساسة وأرسل معهم للخطبة الصهر ابراهيم بن أبي حاتم الغزفي والقاضي بحضرتة أبي عبدالله بن عبد الرزاق ، وانكفاً على عقبه راجعاً إلى حضرتة . ولما انعقد الصهر بين الأمير أبي الحسن ، والسلطان أبي يحيى في ابنته شقيقة الأمير يحيى ، زفّها إليهم في أساطيله مع مشيخة من الموحدّين ، كبيرهم أبو القاسم بن عبّو^(٢) . ووصلوا بها إلى مرسى غساسة سنة إحدى وثلاثين بين يدي مهلك السلطان أبي سعيد ، فقاموا لها على أقدام البرّ

(١) وفي النسخة المصرية : وحياءهم .

(٢) وفي النسخة المصرية : بن عقّور .

والتكرمة ، وبعثوا الظهر إلى غساسة لركوبها وحمل أثقالها ، وصيغت حكمت الذهب والفضة ومدت ولايا الحرير المفضاة بالذهب ، واحتفل لوافدها وأعراسها غاية الاحتفال بما لم يسمع مثله في دولتهم . وتولت قهارمة الدار من عجز النساء ما يتولاه مثلهم من ذلك فطم الصنيع ، وتحدثت الناس به . وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها ، والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد عفا الله عنه وولاية السلطان أبي الحسن وما تخلل ذلك من الاحداث) *

كان السلطان لما بلغه وصول العروس بنت مولانا السلطان أبي يحيى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة واهتزت الدولة لقدمها عليهم تعظيماً لحق أبيها وقومها واحتفاء بها ، ارتحل السلطان أبو سعيد إلى تازى ليشارف أحوالها بنفسه احتفاء^(١) في تكرمها وسروراً بعرس ابنه . واعتل هنالك ومرض حتى اذا أشفى على الهلكة ، ارتحل به ولي العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة ، وحمله في فراشه على أكتاف الحاشية والخول ، حتى نزل بسبو ، ثم أدخله كذلك ليلاً إلى داره . وأدركته المنية في طريقه ، فقضى رحمة الله عليه ، فوضعوه بمكانه من البيت . واستدعى الصالحين لمواراته ، فووري لشهر ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة والبقاء لله وحده ، وكل شيء هالك إلا وجهه .

ولما هلك السلطان أبو سعيد اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة لولي عهده الأمير أبي الحسن ، وعقدوا له على أنفسهم ، وآتوه طاعتهم وبيعتهم . وأمر بنقل معسكره من سبو ، وأضرب بالزيتون من ساحة فاس . ولما ووري السلطان ، خرج إلى معسكره بالتعبية ، واجتمع إليه الناس على طبقاتهم لاداء البيعة ، وجلس بنفسطاطه ، وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس المزوار عبو بن قاسم رئيس الوزعة^(٢) ، والمتصرفين وحاجب الباب القديم الولاية بذلك في دارهم منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب . وزفت إليه يومئذ عروسه بنت السلطان أبي يحيى ،

(١) وفي النسخة المصرية : استبلاغاً .

(٢) ج وازع وهو الذي يتولى أمر الجيوش . (قاموس) .

فأعرس بها بمكانه من المعسكر ، وأجمع أمره علي الانتقام لأبيها من عدوه . وبدأ باستكشاف حال أخيه أبي علي ، وكان السلطان أبوهما يستوصيه به لما كان له بقلبه من العلاقة . وكان ولي العهد هذا يؤثر لرضاه جهده ، فاعتزم على الحركة إلى سجلماسة لمشاركة أحواله ، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن إلى سجلماسة وانكفائه عنها إلى تلمسان بعد الصلح مع أخيه والاتفاق) *

لما هلك السلطان أبو سعيد وكملت بيعة السلطان أبي الحسن ، وكان كثيراً ما يستوصيه بأخيه أبي علي لما كان كلفاً به شفوفاً عليه ، فأراد مشاركة أحواله قبل النهوض إلى تلمسان ، فارتحل من معسكره بالزيتون قاصداً سجلماسة ، وتلقته في طريقه وفود الأمير أبي علي أخيه مؤدياً حقه ، موجباً مبرته ، مهنتاً له بما آتاه الله من الملك ، متجافياً عن المنازعة فيه ، قانعاً من تراث أبيه بما حصل في يده ، طالباً العقد له بذلك من أخيه . فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل ، وعقد له على سجلماسة وما إليها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيهما . وشهد الملائم من القبيل وسائر زناتة والعرب ، وانكفاً راجعاً إلى تلمسان لإجابة صريخ الموحدين ، وأغذ السير إليها . ولما انتهى إلى تلمسان تنكب عنها متجاوزاً إلى جهة المشرق لوعده مولانا السلطان أبي يحيى بالتزول معه على تلمسان ، كما كان عليه وفاقهم ومشارطتهم مع الأمير أبي زكريا الرسول إليهم . فاحتل بتاسالت في شعبان من سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة وتلوم بها وأوعز إلى أساطيله بمراسي المغرب فأغزاها إلى سواحل تلمسان . وجهز لمولانا السلطان أبي يحيى مدداً من عسكره أركبهم الأساطيل من سواحل وهران ، وعقد عليهم لمحمد البطوي من صنائع دولته . ونزلوا بجاية ، ووافوا بها مولانا السلطان أبا يحيى فصاروا في جملته . ونهضوا معه إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد المحمرة بها الكتاب لحصار بجاية ، وبها يومئذ ابن هزرع من قوادهم ، وأجفل من كان بها من العسكر قبل وصوله إليهم ، فلحقوا بآخر عملهم من المغرب الأوسط . وأناخ مولانا السلطان أبو يحيى عليها بعساكر من الموحدين والعرب والبربر وسائر الحشود ، فخرّبوا عمرانها وانتهبوا ما كان من الأقوات مخترناً بها ، وكان بجزاً لا يدرك ساحله ، لِمَا كان

السلطان أبو حمو من لدن اختطها قد أوعز إلى العمّال بسائر البلاد الشرقية ، من عمل البطحاء أن ينقلوا أعشار الحبوب إليها وسائر الأقوات . وتقبّل ابنه السلطان أبو تاشفين مذهبه في ذلك . ولم يزل دأبهم إلى حين حلّت بها هذه الفاقة فانتهب الناس من تلك الأقوات ما لا كفاء له . وأضرعوا مختطّها بالأرض فنسفوها نسفاً ، وذروها قاعاً صنفصفاً . والسلطان أبو الحسن خلال ذلك متشوّفٌ لأحوالهم منتظرٌ قدوم مولانا السلطان أبي يحيى عليه لمنازلة تلمسان ، حتى وافاه الخبر بانتقاض أخيه كما نذكره ، فانكفاً راجعاً ، واتصل الخبر بمولانا السلطان أبي يحيى فقفل إلى حضرته . وحمل البطوي معه وأسنى جائزته وجوائز عسكره ، وانصرفوا إلى السلطان مرسلهم في سفنهم من ساعتها . وانقبض عنان السلطان أبي تاشفين عن غزو بلاد الموحدّين إلى أن انقرض أمره ، والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن انتقاض الامير أبي علي ونهوض السلطان أبي الحسن اليه وظفره به) *

لما توغل السلطان أبو الحسن في غزاة تلمسان وتجاوزها إلى تاسالت لوعده مولانا السلطان أبي يحيى ، دس أبو تاشفين إلى الأمير أبي علي في اتصال اليد والاتفاق على السلطان أبي الحسن ، وأن يأخذ كل واحد منها بحجزته عن صاحبه متى همّ به ، وانعقد بينهما على ذلك . وانتقض الأمير أبو علي على أخيه السلطان أبي الحسن ، ونهض من سجلماسة إلى درعة فقتل بها عامل السلطان ، واستعمل عليه من ذويه ، وسرح العسكر إلى بلاد مراكش . واتصل الخبر بالسلطان وهو بمعسكره بتاسالت ، فأحفظه شأنه ، وأجمع على الانتقام منه ، فانكفاً راجعاً إلى الحضرة . وأنزل بثغرتا وريرت تخم عمله معسكراً ، وعقد عليه لابنه تاشفين ، وجعله إلى نظر وزيره منديل بن حمّامة بن تيريغين ، وأغذّ السير إلى سجلماسة ، فنزل عليها وأحاطت عساكره بها ، وأخذ بمخنقتها وحشد الفعلة والصنّاع لعمل الآلات لحصارها ، والبناء ساحتها . وأقام يغاديا القتال ويراوحها حولاً كريئاً . ونهض أبو تاشفين في عساكره وقومه إلى ثغر المغرب ليوطئه عساكره ، وبعث في نواحيه يجاذب السلطان عن مكانه من حصاره . ولما انتهى إلى تاوريرت برز إليه ابن السلطان في وزرائه وعساكره ،

وزحفوا إليه في التعبئة ، فاختل مصافه وانهمزم ولم يلق أحداً ، وعاد إلى منحجره وبادر إلى إمداد الأمير أبي علي بعسكره ، فعقد على حصّة من جنده وبعث بهم إليه ، فتسرّبوا إلى البلد زرافات ووحداً حتى استكملوا عنده ، وطاولهم السلطان الحصار وأنزل بهم أنواع الحرب والنكال حتى تغلب عليهم ، واقتحم البلد عنوة ، وتقبّض على الأمير أبي علي عند باب قصره . وسبق إلى السلطان فأمهله واعتقله ، واستولى على ملكه . وعقد على سجلماسة واستعمل عليها ، ورحل منكفئاً إلى الحضرة ، فاحتل بها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واعتقل أخاه في إحدى حجر القصر إلى أن قتله لأشهر من اعتقاله خنقاً بمحبسه . وعدد له هذا الفتح بفتح الجبل واسترجاعه من يد العدوّ ودمره الله بأيدي عسكره ، وتحت راية ابنه أبي مالك ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن منازلة جبل الفتح واستئثار الامير أبي مالك
والمسلمين به) *

لما هلك السلطان أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش ، قام بالأمر بعده ابنه محمد طفلاً صغيراً لنظر وزيره محمد بن المحروق من بيوت الأندلس وصنائع الدولة . واستبدّ عليه . فلما شب وناهر أنف من الاستبداد عليه ، وأغراه المعلوجي من حشمة بالوزير ، فاغتاله وقتله سنة تسع وعشرين وسبعمائة وشمر للاستبداد وشدّ أواخي الملك . وكان الطاغية قد أخذ جبل الفتح سنة تسع ، وجاورت النصرانية به ثغور الفرضة ، وكان شجى في صدرها ، وأهمّ المسلمين شأنه . وشغل عنهم صاحب المغرب بما كان فيه من فتنة ابنه ، فرجعوا الجزيرة وحصونها إلى ابن الأحمر منذ سنة إثنتي عشرة وسبعمائة لأوّل المائة الثامنة . واستغلظ الطاغية عليهم بعد ذلك فرجعوا الجزيرة إلى صاحب المغرب سنة تسع وعشرين وسبعمائة وولّى عليها السلطان أبو سعيد من أهل دولته سلطان بن مهلهل من عرب الخلط أخواله . وأسفّ الطاغية إلى حصونها عند مهلك السلطان أبي سعيد فملك أكثرها ، ومنع البحر من الإجازة . وقارن ذلك استبداد صاحب الأندلس ، وقتله لوزيره ابن المحروق . وأهمّه شأن الطاغية ، فبادر لإجازة البحر . ووفد على

السلطان أبي الحسن بدار ملكه من فاس سنة إثنين وثلاثين وسبعمائة فأكبر موصله وأركب الناس للقاءه ، وأنزله برؤض المصارّة لصق داره ، واستبلغ في تكريمه . وفاوضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر ، وما أهمّهم من عدوهم ، وشكا إليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدر الثغور ، فأشكاه السلطان . وعامل الله في أسباب الجهاد ، وكان مشغولاً به متقبلاً مذهب جدّه يعقوب فيه . وعقد لابنه الأمير أبي مالك على خمسة آلاف من بني مرين ، وأنفذه مع السلطان محمد بن إسماعيل لمنازلة الجبل ، فاحتل بالجزيرة ، وتتابع إليه الأسطول بالمدد . وأرسل ابن الأحمر حاشرين في الأندلس ، فتسايلوا إليه ، وأضربوا معسكرهم جميعاً بساحة الجبل . وأبلوا في حربه ومنازلته البلاء الحسن ، إلى أن تغلبوا عليه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة ، ونقلهم الله من كان به من النصرانية بما معهم ، ووفاه الطاغية بأمر الكفر لثالثه فتحه ، وقد شحنه المسلمون بالأقوات ، نقلوها من الجزيرة على خيولهم . وباشروا نقلها الأمير أبو مالك وابن الأحمر ، فنقلها الناس عامّة . وتميّز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلي من وزراء أبيه . ووصل الطاغية بعد ثلاث فأناخ عليه . وبرز أبو مالك بعساكره ، فترز بجذائه^(١) وبعث إلى الأمير أبي عبدالله صاحب الأندلس . فوصل بجشد المسلمين بعد أن دوخ أرض النصرانية . وخرج فترز بازاء عسكر الطاغية ، وتحصن العدو في محلتهم . وقاموا كذلك عادية لقرب العهد بارتجاعه ، وخفة ما به من الحامية والسلاح ، فبادر السلطان ابن الأحمر إلى لقاء الطاغية . وسبق الناس إلى فسطاطه عجلأً باثماً نفسه من الله في رضى المسلمين ، وسدّ فرجتهم ، فتلقاه الطاغية راجلاً حاسراً إحتظاماً لموصله ، وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل ، وأتحفه بذخائر مما لديه ، وارتمل لفوره . وأخذ الأمير أبو مالك في تثقيف أطراف الثغر ، وسدّ فروجه ، وأنزل الحامية به ، ونقل الأقوات إليه ، وكان فتحاً طوّق دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر إلى آخر الأيام . ثم رجع بعدها إلى شأنه من منازلة تلمسان ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي النسخة المصرية : قبائه .

* (الخبر عن حصار تلمسان وتغلب السلطان أبي الحسن عليها وانقراض أمر بني عبد الواد بمهلك أبي تاشفين) *

لما تغلب السلطان على أخيه وحسم علة انتزائه ومنازعته وسد ثغور المغرب ، وعظمت لديه نعمة الله بظهور عسكره على النصرانية ، وارتجاع جبل الفتح من أيديهم بعد أن أقام في ملكة الطاغية نحواً من عشرين سنة . فرغ لعدوه وأجمع على غزو تلمسان . ووفد عليه رسل السلطان أبي يحيى في سبيل التهئة بالفتح والأخذ بحجزة أبي تاشفين على الثغور . وأوفد السلطان إلى أبي تاشفين شفعاء في أن يتخلى عن عمل الموحدين جملة ، ويتراجع لهم عن تدلس ، ويرجع إلى تخوم عمله منذ أول الأمر ، ولو عامثاً ليعلم الناس جاه السلطان عند الملوك ، ويقدروه حق قدره ، واستنكف أبو تاشفين مع ذلك وأغلظ للرسول في القول ، وأفحش بمجلسه بعض السفهاء من العبيد في الرد عليهم والنيل من مرسلهم ، فانقلبوا إليه بما أحفظه ، فانبعث عزائم السلطان للصمود إليهم . وعسكر بساحة البلد الجديد ، وبعث وزراءه إلى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والعساكر . ثم تعجل فاعترض جنوده وأزاح عنهم وعبى مواكبه ، وسار في التعية . وفصل بمعسكره من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعائة وسار يجر الشوك والمدر من أم المغرب وجنوده . ومرّ بوجدة ، فجمّر الكتائب لحصارها . ثم مرّ بند رومة فقاتلها بعض يوم واقتحمها ، فقتل حاميتها واستولى عليها آخر سنة خمس وثلاثين وسبعائة ثم سار على تعبته حتى أناخ على تلمسان ، وبلغه الخبر بتغلب عساكره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعائة فأوعز إليه بتخريب أسوارها ، فأضرعوها بالأرض .

وتوافت إليه إمداد النواحي وجهاتها وحشودها ، وربض على فريسته . ووفدت إليه قبائل مغراوة وبني توجين فآتوه طاعتهم . ثم سرح عساكره إلى الجهات فتغلب على وهران وهنّين ، ثم على مليانة وتنس والجزائر كذلك سنة ست وثلاثين وسبعائة ونزع إليه يحيى بن موسى صاحب القاصية الشرقية من عمله ، والمتاخم كان لعمل الموحدين ، والقائم بحصار بجاية بعد نكبة موسى بن علي فلقاه مبرة وتكريماً ، ورفع بساطه ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه . وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى

ابن سليمان العسكري كبير بني عسكر بن محمد وشيخ بني مرين ، وصاحب شورا هم بمجلس السلطان ، والمخصوص بصهر من السلطان . عقد له على ابنته فسار في الألوية والجنود وطوع ضاحية الشرق وقبائله ، وافتتح أمصاره حتى انتهى إلى المريّة^(١) . ونظّم البلاد في طاعة السلطان ، وأحشد مقاتلتها إلى معسكره فلاحقوا له وكاثروا جنوده . واستعمل السلطان على وانشرش وعمل الحشم من بني توجين . وعقد لسعد بن سلامة بن علي بن علي بن يددلتن . وجعل الوالي بالقلعة إلى نظره . وكان خلص إليه بالمغرب قبل فصوله نازعاً عن أبي تاشفين لمكان أخيه قريعه محمد من الدولة .

واستعمل السلطان أيضاً على شلف وسائر أعمال المغرب الأوسط . واختط السلطان بغربي^(٢) تلمسان البلد الجديد لسكناه ، ونزل عساكره وسماه المنصورية^(٣) . وأدار على البلد المخروب سياجاً من السور ونطاقاً من الخندق . ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه وشيّد قبالة كل برج من أبراج البلد برجاً على ساقه خندقه ينضح رماته بالنبل رماتهم ، ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيّد برجاً آخر أقرب منه ، وترتفع شرفاته فوق خندقهم . ولم يزل يتقرب بوضع الأبراج من حدّ إلى ما بعده ، حتى اختطها من قرب على ساقه خندقهم . وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعيالها ، ورتب المجانيق إلى رجمها ودكها ، فنالت من ذلك فوق الغاية . واشتدّ الحرب وضاق نطاق الحصار . وكان السلطان يصحبهم كل يوم بالبكور والتطواف على البلد من جميع جهاته لتفقد المقاتلة في مراكرهم ، وربما ينفرد في طوافه بعض الأيام عن حاشيته ، فاهتبلوا الأمر بحسبونه غرة . وصفوا جيوشهم من وراء السور مما يلي الجبل المطل على البلد ، حتى إذا حاذاه السلطان في تطوافه فتحوا أبوابهم ، وأرسلوا عليه عقبان جنودهم ، واضطروه إلى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره ، وكاد أن ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير سويد . ووصل الصائح إلى المعسكر فركب الأميران ابناه : ابو عبد الرحمن وأبو مالك ، في جموع بني مرين ، وتهاوت فرسان المعسكر من كلّ جانب ، فشمّر جنود بني عبد الواد إلى مراكرهم . ثم دفعوهم عنها ، وحملوهم على

(١) وفي نسخة ثانية : المدية .

(٢) وفي نسخة ثانية : بقرب تلمسان .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية المنصورة .

هوة الخندق فتطارحوا فيه وترادفوا وهلك بالكظيظ أكثر من هلك بالقتل . واستلحم في ذلك اليوم زعماء ملتهم^(١) مثل عمر بن عثمان كبير الحشم من بني توجين ، ومحمد بن سلامة بن عليّ كبير بني يدللتن منهم أيضاً وغيرهم . وكان يوماً له ما بعده . واعتز بنو مرين عليهم من يومئذ . ونذر بنو عبد الواد بالتغلب عليهم ، واتصلت الحرب مدة عامين . ثم اقتحمها السلطان غالباً لسبع وعشرين من رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة . ووقف أبو تاشفين بساحة قصره مع خاصته ، وقاتل هنالك حتى قتل إبنه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن عليّ ووليّه عبد الحق بن عثمان من أعياص عبد الحق . نزع إليه من جملة الموحدّين كما أشرنا إليه ونستوفي خبره . فهلك هو وإبنه وابن أخيه ، وأثخنت السلطان أبا تاشفين الجراحة ووهن لها ، فتقبّض عليه . واختبئه^(٢) بعض الفرسان إلى السلطان فلقية الأمير أبو عبد الرحمن صالي تلك الحروب وأورد غمرتها بنفسه ، فاعترضه وقد غضّ الطرف بموكبه ، فأمر به في الحين فقتل ، واحترّ رأسه ، وسخط ذلك السلطان من فعله لحرصه على توييخه وتقريعه ، وذهب مثلاً في الغابرين . واقتحم السلطان بكافة عساكره ، وتواقع الناس بباب كشوط^(٣) لجنوبهم من كظيظ الزحام ، فهلك منهم أمم .

وانطلقت أيدي النهب على البلد فلحقت الكثير من أهله معرّات في أموالهم وحرّمهم . وخلص السلطان إلى المسجد الجامع مع لمة من خواصه وحاشيته . واستدعى شيوخ الفتيا بالبلد أبو زيد وأبو موسى إبن الإمام ، وفاء بحق العلم وأهله ، فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكره بما نال الناس من النهب ، فركب لذلك بنفسه وسكن وأوزع جنوده وأشياعه من الرعيّة ، وقبض أيديهم عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الحديد . وقد كمل الفتح وعزّ النصر ، وشهد ذلك اليوم أبو محمد بن تافراكين ، وافاه رسولاً عن مولانا السلطان أبي يحيى مجدّداً للعهد ، فأعجله السلطان إلى مرسله بالخبر وسابق السابقين . ودخل تونس لسبع عشرة ليلة من نوبة الفتح ، فعظم السرور عند السلطان أبي يحيى بمهلك عدوّه والانتقام منه بشاره ، واعتدّها بمساعيه . ورفع السلطان أبو الحسن القتل عن بني عبد الواد أعدائهم ، وشفى نفسه

(١) وفي نسخة ثانية : ملاحمهم .

(٢) اختبئ الشيء : اخذه في خبنة ثيابه (قاموس) .

(٣) وفي نسخة ثانية : كشوك .

بقتل سلطانهم ، وعفا عنهم وأثبتهم في الديوان ، وفرض لهم العطاء ، واستبعمهم على راياتهم ومراكزهم ، . وجمع كلمة بني واسين من بني مَرِين وبني عبد الواد وتوجين ، وسائر زناتة وأنزلهم ببلاد المغرب وسدّ بكل طائفة منهم ثغراً من أعماله ، وساروا عصباً تحت لوائه ، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة ، وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين ، واندرجوا في جملته ، واتسع نطاق ملكه . وأصبح ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مَرِين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب . والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

* (الخبر عن نكبة الأمير عبد الرحمن بمتيجة وتقبض السلطان عليه ثم مهلكه آخر) *

قد قدّمنا ما كان من اشتراط السلطان أبي سعيد على الموحدّين منازلهم تلمسان مع عساكره ، وتلوم السلطان أبي الحسن بتاسالت لانتظار مولانا السلطان أبي يحيى . ولما نازل تلمسان بعساكره المرّة الثانية ، لم يطالبهم بذلك . وكان أبو محمد بن تافراكين يتردّد إليه وهو بمعسكره من حصار تلمسان مؤدياً حقه مستخبراً مآل عدوهم . فلما تغلب على تلمسان أسرّ إليه سفيره أبو محمد بن تافراكين بأنّ سلطانه قادم عليه للقاءه وتهنئته بالظفر بعدوّه . وتشوّف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعنى به ، وارتحل من تلمسان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، وعسكر ببسيط بمتيجة منتظراً وفادة مولانا السلطان أبي يحيى عليه . وتكاسل السلطان عنها لما أراه سيفه المتحكّم في دولته محمد بن الحكيم من حذر مغبتها ، وقال له : إنّ لقاء سلطانين لا يتفق إلاّ في يوم على أحدهما ، فكره ذلك السلطان وتقاعد عنه : وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظار الموعد الذي ألقى إليه أبو محمد بن تافراكين ، واعتل لأشهر من مقامه ومرض بفسطاطه . وتحدّث أهل المعسكر بمهلكه . وكان إبننا الأمير أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهده منذ أيام جدّهما أبي سعيد . وكان السلطان قد جعل لها من أوّل دولته ألقاب الإمارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتّاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء . واستلحاق الفرسان والإنفراد بالعساكر ، فكانا من ذلك على ثبج . وجعل لها مع ذلك الجلوس لمقعد فصله ،

مناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانية ، فكانا لذلك رديفين له في سلطانه .
ولما اشتدّ وجع السلطان تمثت سيطرة الفتن بين هذين الأميرين وحزب أهل المعسكر
لها أحزاباً ، وبث كل واحد منها المال وحمل على المقربات . وصارت شيعاً
وانقسموا فرقاً . وهم الأمير أبو عبد الرحمن بالتوثب على الأمر قبل أن يتبين حال
السلطان باغراء وزرائه وبطانته بذلك . وتفطن خاصة السلطان لها ، فأخبروه الخبر
وحضوه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفقم الأمر ويتسع الخرق ، فبرز إلى فسطاط
جلوسه وتسامع أهل المعسكر به ، فازدحموا على مجلسه وتقيل يده . وتقبض على
أهل الظنة من العساكر ، فأودعهم السجن وسخط على الأميرين . ورحل الناس من
معسكرهما ، فردّهما إلى معسكره . ثم رجع إلى فسطاطه فارتاب الأميران لذلك
ووجها ، وطفئت نار فتنتهما وسكن سعي المفسدين عندهما وانتبد الناس عنهما .
فاشتدّت روعة الأمير أبي عبد الرحمن ، وركب من فساطيطه وخاض الليل ،
وأصبح بحلة أولاد علي^(١) أمراء زغبة الموطنين بأرض حمزة ، فتقبض عليه أميرهم
موسى بن أبي الفضل . وردّه إلى أبيه ، فاعتقله بوجدة ، وربّ العيون لحراسته من
حشمه إلى أن قتل بعد ذلك سنة اثنتين وأربعين وسبعائة . وثب بالسجان فقتله . وأنفذ
السلطان حاجبه علان بن محمد ففضى عليه . ولحق وزيره زيّان بن عمر الوطاسي
بالموحدين فأجاروه . ورضي السلطان صبيحة نزوع أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي
مالك ، وعقد له على ثغور عمله بالأندلس ، وصرفه إليها ، وانكفاً إلى تلمسان .
والله أعلم .

* (الخبر عن خروج ابن هيدور وتلبسيه بابي

عبد الرحمن) *

لما تقبض السلطان على ابنه عبد الرحمن وأودعه السجن ، تفرّق خدمة وحشمه
واندعروا في الجهات . وهمل جازر من مطبخه ، كان يعرف بابن هيدور ، كان شبيهاً
له في الصورة ، فلحق ببني عامر من زغبة ، وكانوا لذلك العهد منحرفين عن

(١) وفي نسخة ثانية : اولاد زغلي .

الطاعة ، خوارج على الدولة لِمَا كان السلطان وأبوه اختصا عريف بن يحيى أمير بني
سويد أقتلهم ، منذ نزع إليهم عن أبي تاشفين . فركبوا سنن الخلاف ولبسوا جلدة
النفاق ، وانتبدوا بالقفار . ورياستهم لذلك العهد لصغير بن عامر وإخوته . وعقد
السلطان على حربهم لُونزَمَار ابن وليه عريف . وكان سيّد البدويومثد ، فجمع لهم
وشمر لطلبهم ، وأبعدوا أمامه في المذاهب ، وأوقع بهم مراراً . ولحق بهم هذا
الجازر ، وانتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن وأنه أبو عبد الرحمن ابنه النازع عنه ،
فشبه لهم وباعوه وأجلبوا به على نواحي المرية^(١) . وبرز إليهم قائدها مجاهد بن^(٢)
من صنائع الدولة ، ففضوا جمعه وانهمز أمامهم . ثم جمع لهم ونزمار وقرؤا
عن تلك النواحي وافترق جمعهم . ونبذوا لذلك الجازر عهده ، فلحق بيني يرناتن
من زاووة ، ونزل على سيّدتهم شمسي فقامت بأمره . وحمل بنوها من بني عبد
الصمد قومهم على طاعته . وشاع في الناس خبره فمن مصدق ومن مكذب حتى
تبينت ووقفوا على كذبه في انتسابه ، فنبذوا عهده ولحق بالزاوودة أمراء رياح ، ونزل
على سيّدهم يعقوب بن علي ، وانتسب له في مثل ذلك ، فأجاره إن صدق نسبه .
وأوعز السلطان إلى السلطان أبي يحيى صاحب أفريقية في شأنه ، فبعث إلى يعقوب
وأشخصه إلى السلطان مع ذويه ، فلحق به بمكانه من سبته فامتحنه السلطان وقطعه
من خلاف وانحسم داؤه . وبقي بالمغرب تحت جراية من الدولة إلى أن هلك سنة ثمان
وثمانين وسبعمائة^(٣) والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن شأن الجهاد واغزاء السلطان ابنه الأمير ابا

مالك واستشهاده) *

لما فرغ السلطان من أمر عدوّه وما تبع من ذلك من الأحوال ، صرف اعترامه إلى
الجهاد لما كان كلفاً به . وكان الطاغية منذ شغل بني مرين عن الجهاد منذ عهد
يعقوب بن عبد الحق قد اعترضوا على المسلمين بالعدوة . ونازلوا معاقلمهم ،

(١) وفي نسخة ثانية المدية .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع معرفة والد مجاهد هذا في المراجع التي بين أيدينا .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : ثمان وستين .

وتغلبوا على الكثير منها ، وارتجعوا الجبل ونازلوا السلطان أبا الوليد في عقر داره بفرناطة . ووضعوا عليه الجزية فتقبلها وأسفوا إلى التهام المسلمين بالأندلس . فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وعلت على الأيدي يده ، وانفسح نطاق ملكه ، دعتة نفسه إلى الجهاد . وأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور من عمله بالعدوة سنة أربعين وسبعمائة بالدخول إلى دار الحرب . وجهز إليه العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء ، فشخص غازياً في الحفل ، وتوغّل في بلاد الطاغية واكتسحها ، وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدره من أرضهم وأناخ بها . واتصل به الخبر بأن النصارى جمعوا له ، وأغذّوا السير في اتباعه . وأشار عليه الملاء بالخروج من أرضهم وإجازة الوادي الذي كان تحملاً بين أرض الإسلام ودار الحرب . وأن يصير إلى مدن المسلمين فيمتنع بها ، فلج في إبايته وصمّم على التعريس . وكان قرماً ثبناً إلا أنه غير بصير بالحروب لمكان سنه ، فصباحهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يركبوا وخاطبهم في ابايتهم . وأدرك الأمير أبو مالك بالأرض قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه ، واحتوا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ، ورجعوا على أعقابهم . واتصل الخبر بالسلطان فتفجّع لهلاك ابنه ، واسترحم له ، واحتسب عند الله أجره وفي سبيله قتله . وشرع في إجازة العساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل .

* (الخبر عن واقعة الملند والظفر به وظهور اساطيل المسلمين

على اسطول النصارى) *

لما بلغ الخبر إلى السلطان باستشهاد ابنه ، أخرج وزاره إلى السواحل لتجهيز الأساطيل . وفتح ديوان العطاء ، واعترض الجنود وأزاح عنهم . واستنفر أهل المغرب وارتحل إلى سبتة لياشر أحوال الجهاد . وتسامعت أم النصرانية بذلك ، فاستعدتوا للدفاع . وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة . واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي العدو . وبعث إلى الموحدنين بتجهيز أسطولهم إليه ، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية من صنائع دولتهم ، ووافى ستة

في ستة عشر من أساطيل أفريقية ، كان من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة
وبجاية . وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة . وعقد السلطان عليها
لمحمد بن عليّ العزفي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها ، وأمره بمناجزة أسطول
النصارى بالزقاق . وقد اكتمل عديدهم وعدتهم ، فاستلأموا وتظاهروا في السلاح .
وزحفوا إلى أسطول النصارى وتواقفوا ملياً . ثم قربوا الأساطيل بعضها إلى بعض
وقرنوها للمصاف ، فلم يمض إلا كلا ولا^(١) حتى هبت ريح النصر ، وأظفر الله
المسلمين بعدوهم ، وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هرباً بالسيوف ، وطعنوا
بالرمح ، وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم المَلْنَد واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى
مرسى سبتة ، فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤسهم في جوانب البلد .
ونظمت أصفاد الأسرى بدار الانشاء . وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة ،
وأُنشِدت الشعراء بين يديه ، وكان يوماً من أعز الأيام ، والمِنَّة لله .

* (الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين) *

لما ظفر المسلمون بأسطول النصارى وخضدوا شوكتهم عن ممانعة الجواز ، شرع السلطان
في إجازة العساكر الغزاة من المطوعة والمرتزة ، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة
من العدو إلى العدو . ولما استكمل إجازة العساكر أجاز هو في أسطوله مع خاصته
وحشمه آخر سنة أربعين وسبعائة ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها ،
واضطرب معسكره بفنائها ، وبدأ بمنازلتها . ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج ابن
السلطان أبي الوليد بعسكر الأندلس من غزاة زناتة وحامية الثغور ورجل البدو ،
فمسكروا حذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً ، وأنزلوا بهم أنواع القتال ،
ونصبوا عليها الآلات . وجهز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن
المعسكر ، وطال ثوائهم^(٢) بمكانهم من حصار البلد ، ففנית أزودتهم وافتقدوا
العلوفات ، فوهن الظهر واختلت أحوال المعسكر . واحتشد الطاغية أم النصرانية

(١) وفي نسخة ثانية : ولم يكن إلا كلا ولا .

(٢) بمعنى مقامهم .

وظاهره البرتقال صاحب أشبونة ، وغرب الأندلس ، فجاء معه في قومه . وزحف إليهم لسته أشهر من نزولهم . ولما قرب معسكرهم سرب إلى طريف جيشاً من النصارى أكنه بها ، فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس الذي أرصد لهم . وأحسوا بهم آخر ليلتهم ، فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته . وزحف الطاغية من الغد في جموعه ، وعبى السلطان مواكب المسلمين صفوفاً ، وتراحفوا ولما نشب الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر ، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم . ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهنّ وخلصوا إلى حظايا السلطان : عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب ، وفاطمة بنت مولانا السلطان أبي يحيى ملك أفريقية ، وغيرهما من حظاياهنّ واستلبوهنّ . وانتهبوا سائر الفساطيط وأضرموا المعسكر ناراً وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختلّ مصافهم وارتدّوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان ضمم في طائفة من قومه وذويته حتى خالطهم في صفوفهم ، فأحاطوا به وتقبضوا عليه ، وولّى السلطان متحيزاً إلى فئة المسلمين ، واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية إلى فسطاط السلطان من المحلة وأنكر قتل النساء والولدان ، ووقف منه لمنتهى أثره ، وانكفاً راجعاً إلى بلاده ، ولحق ابن الأحمر بغرناطة ، وخلص السلطان إلى الجزيرة ، ثم إلى الجبل . ثم ركب السفين إلى سبتة في ليله ومحصّ الله المسلمين وأجزل ثوابهم . وأرجأ لهم الكرة على عدوهم .

* (الخبر عن منازلة الطاغية الجزيرة ، ثم تغلبه عليها بعد أن غلب على القلعة من ثغور ابن الأحمر) *

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالاندلس ، وطمع في التهامهم ، وجمع عساكر النصرانية ، ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة . وعلى مرحلة منها وجمع الآلات والأيدي على حصارها ، واشتدّ منقها وأصابهم الجهد من العطش ، فنزّلوا على حكمه سنة إثنين وأربعين وسبعمئة وأدال الله الطيب منها بالخبيث ، وانصرف إلى بلده . وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجه

الكرة وبعث في الأمصار للاستنفار ، وأخرج قواده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى اكتمل له منها عدد . ثم ارتحل إلى سبته لمشارفتها ، وقدم عساكره إلى العدو مع وزيره عسكر بن تاحضريت . وبعث على الجزيرة محمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير ، وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن ابراهيم اليرنياني من المرشحين للوزارة ببابه ، وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافته . وتلاقت الأساطيل ومحّص الله المسلمين واستشهد منهم أعاد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوه دون المسلمين وأقبل الطاغية من إشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز . وأمل أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف ، وحشد الفعلة والصناع للآلات ، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار . واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاوله . وجاء السلطان أبو الحجاج بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة . وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبته ليسرّب عليها المدد من الفرسان والمال والزرع في أحيين الفعلة من أساطيلهم ، وتحت جناح الليل ، فلم يغنهم ذلك ، واشتدّ عليهم الحصار وأصابهم الجهد . وأجاز إليه السلطان أبو الحجاج يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية ، بعد إذن الطاغية له في الإجازة مكرراً به . وترصد له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غصّ الريق ، وضافت أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان . وسألوا من الطاغية الأمان على أن يتزلوا عن البلد فبذله وخرجوا فوقى لهم . وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمئة فأنزلهم السلطان ببلادته على خير نزل ، ولقاهم من المبرة والكرامة ما أعاضهم مما فاتهم ، وخلع عليهم وحملهم وأجازهم بما تحدت به الناس . وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة على تقصيره في المدافعة ، مع تمكنه منها بما كان لديه من العساكر . وانكفأ السلطان إلى حضرته موقناً بظهور أمر الله ، وإنجاز وعده في رجوع الكرة وعلو الدين . والله متمّ نوره ولو كره الكافرون .

* (الخبر عن شفاعة صاحب تونس في اولاد أبي العلاء ووصولهم الى السلطان) *

كان عثمان بن أبي العلاء من أعياص آل عبد الحق ، شيخ الغزاة المجاهدين من زناتة والبربر بالأندلس . وكان له فيها مقام معلوم في حماية الثغور ومدافعة العدو ، وغزو دار الحرب ، ومساهمة صاحب الأندلس الجهاد كما نستوفي أخباره . وكان السلطان أبو سعيد لما استصرخ بأهل الأندلس اعتذر بمكانه بينهم . واشترط عليهم أن يمكّنوه من قيادته حتى يقضي نوبة الجهاد ، فلم يسعفه بذلك . ولما هلك عثمان بن أبي العلاء ، قام بالأمر من بعده في مراسم الجهاد بنوه وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كبيرهم أبي ثابت عامر . وقويت عصببتهم بالموالي والأبناء ، وغلبت على يد السلطان يَدُهُمْ ، واستبدوا عليه في أكثر الأحوال ، واستنكف لها ، وكان ذلك مما دعاه إلى القدوم على السلطان أبي الحسن . وارتاب بنو أبي العلاء في إجازته إليه ، واتهموه على أنفسهم ، وأسعدهم إلى منازلة جبل الفتح على كره . فلما تغلب المسلمون عليه ، وقضى ابن الأحمر من مدافعة الطاغية عنه بالرغبة ما قضى كما ذكرناه ، واعتزم على القبول إلى حضرته ، أجمعوا الفتك به في طريقه . وداخلوا في ذلك مولاه ابن المعلوجي لما أسفهم به من إرهاف حدّه والتضييق عليهم في جاههم ، فبرموا وطووا على البث^(١) ، حتى اذا وجدوا من أبي العلاء صاغية إلى ذلك ، خفوا إلى إجابتها . ونذربهم محمد بن الأحمر فبعث عن السفن تعرضه في طريقه^(٢) وساحل إليهم ، وتسبقوا لشأنهم قبل فوته ، فأدركوه دون حصن أصطبونة . وعتبوه فاستعتب ، وأغلظوا له في القول ، وقتلوا مولاه عاصماً صاحب ديوان العطاء تجنياً عليه . ونكر ذلك السلطان فتناولوه بالرماح قعصاً وطعنأ حتى أقعصوه . ورجعوا إلى المعسكر فاستدعوا من كان داخلهم من الموالي . وجاؤا بأخيه أبي الحجّاج يوسف بن أبي الوليد ، فبايعوا له وأصفقوا على تقديمه . وسرح لحينه قائده ابن عزون ، فاستولى له على دار ملكه ، وتمّ أمره وحجبه رضوان مولى أبيهم ، واستبدّ عليه ، وسكن بين

(١) وفي نسخة ثانية : على النث .

(٢) وفي نسخة ثانية : فبعث على السفين يعرضه في طريقه .

جنيبه من بني أبي العلاء وقتلهم لأخيه داء دخيل ، حتى إذا سما السلطان أبو الحسن إلى الجهاد ، وأجاز المدد إلى ثغور عمله بالأندلس ، وعقد لابنه الأمير أبي مالك ، أسر إليهم في شأن بني أبي العلاء بما كان أبوه السلطان أبو سعيد اشترط عليهم في مثلها . ووافق منه داعية لذلك فتقبض عليهم أبو الحجاج وأودعهم المطبق أجمع . ثم أشخصهم في السفين إلى مراسي أفريقية ، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى . وبعث فيهم السلطان أبو الحسن إليه فاعتقلهم ، ثم أوعز إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكر بن بكر في إشخاصهم إلى حضرته ، فتوقف عنها . وأبى من إخفار ذمتهم ووسوس إليه وزيره أبو محمد بن تافراكين بأن مقصد السلطان فيهم غير ما ظنوا به من الشر . ورغب بيعتهم إليه والمبالغة في الشفاعة فيهم ، علماً بأن شفاعته لا ترد فأجابه لذلك ، وجنبوهم إليه مع ابن بكر بن بكر . واتبعهم أبو محمد بن تافراكين بكتاب الشفاعة فيهم من السلطان . وقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين وسبعائة فتلقاهم بالبر والترحيب إكراماً لشفيعهم . وأنزلهم بمعسكره وجنب لهم المقربات بالمرابك الثقيلة ، وضرب لهم الفساطيط ، وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم أعلى رتب العطاء وصاروا في جملة . ولما احتل بسبته لمشاركة أحوال الجزيرة ، سعى عنده فيهم بأن كثيراً من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوئب على الملك ، فتقبض عليهم وأودعهم في السجن بمكناسة ، إلى أن كان من خبرهم مع ابنه أبي عنان ما نذكره إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

* (الخبر عن هدية السلطان إلى المشرق وبعثه بنسخ المصحف

من خطه إلى الحرمين والقدس) *

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في ولاية ملوك المشرق ، والكلف بالمعاهد الشريفة تقبله من سلفه . وضاعفه لديه متن ديانته . ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى ، وتغلب على المغرب الأوسط ، وصار أهل النواحي تحت ريقه منه ، واستطال بجناح سلطانه ، خاطب لحينه صاحب مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر ، وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم . وكان فرانقه^(١) في ذلك

(١) الفرائق : البريد وربما سماه دليل الجيش فرانقا ، فارسي معرب (قاموس) .

فارس بن ميمون بن وردار . وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودّة بين السلف . وأجمع السلطان على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف قرابة إلى الله تعالى ، وابتغاء للمثوبة ، فانتسخها وجمع الوراقين لمعاينة تذهيبها وتنميقها ، والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها . وصنع لها وعاء مؤلفاً من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب ونظم الجواهر والياقوت واتخذ له اصونه الجلد المحكّمة الصنعة وغشي بصفائح الذهب ، ونظم بالجواهر والياقوت ، واتخذت له أصونّة الجلد المحكّمة الصناعة ، المرقوم أديمها بخطوط الذهب من فوقها غلاف الحرير والديباغ وأغشية الكتان . وأخرج من خزائنه أموالاً عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها ، وأوفد على الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام ، خواص مجلسه وكبار أهل دولته ، مثل عريف بن يحيى أمير زغبة ، والسابق المقدّم في بساطه على كل خالصة عطية بن مهلهل بن يحيى كبير الخولة . وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة ببابه وصاحب دولته عبّو بن قاسم المزوار^(١) ، واحتفل في الهدية للمزوار للسلطان صاحب مصر احتفالاً تحدّث الناس به دهرأ . ووقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين هذا الرسول ووعيته وأنسيته . وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها خمسمائة من عتاق الخيل المقرّبات ، بسروج الذهب والفضة ولحمها ، خالصاً ومغشي ومموهاً ، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وما عونه وأسلحته ، ومن نسج الصوف المحكّم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم ، وأزراً معلّمة وغير معلّمة . ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوّناً وغير ملوّن ، وساذجاً ومنمّقاً . ومن الدرق المحلوبة من بلاد الصحراء المحكّمة بالدباغ المتعارف ، وتنسب إلى اللمط . ومن خرثي المغرب وما عونه وما يستظرف صناعته بالمشرق ، حتى لقد كان فيها مكيل من حصي الجواهر والياقوت . واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ركابه ذلك ، فأذن لها واستبلغ في تكريمها . واستوصى بها وافده وسلطان مصر في كتابه . وفصلوا من تلمسان سنة^(٢) وأدّوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم ،

(١) وفي نسخة ثانية : وعريف الوزعة بدولته ، وصاحب الباب عبّو بن قاسم المزوار .

(٢) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

فتقبلها وحسن لديه موقعها . وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً ، تحدث به الناس دهراً ، ولقاهم في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم ، ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبهم . وأسنى هدية السلطان من فساطيطهم الغربية الشكل والصنعة بالمغرب ، ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب ، ورجعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكريمهم ووصلتهم . وبقي حديث هذه الهدية مذكوراً بين الناس لهذا العهد .

ثم انتسخ السلطان نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول ، ووقفها على القراءة بالمدينة ، وبعث بها من تحيره لذلك العهد من أهل دولته . سنة (١) واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعائة وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل ، فخاطبه السلطان وأتحفه وعزاه عن أبيه ، وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل بن عبدالله بن أبي مدين ففضى من وفادته ما حمل . وكان شأنه عجباً في إظهار أبهة سلطانه ، والانفاق على المستضعفين من الحاج في طريقه ، واتحاف رجال الدولة التركية بدات يده والتعفف عما في أيديهم . ثم شرع بعد استيلائه على أفريقية كما نذكره في كتاب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس ، فلم يقدر أتمامها ، وهلك قبل فراغه من نسخها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن هدية السلطان الى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب) *

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر يتناول به إلى مناغات الملوك الأعظم واقتفاء سنهم في مهادة الأقتال والأمصار^(٢) ، وإيفاد الرسل على ملوك النواحي القاصية والتخوم البعيدة . وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهد مجاوراً لملكه بالمغرب على مائة مرحلة في القفر من ثغور ممالكة القبليّة . ولما غلب بني عبد الواد على تلمسان وابتزهم ملكهم ، واستولى على ممالك المغرب الأوسط ، وتحدث الناس

(١) بياض بالأصل ولم نستطع تحديد هذه السنة في المراجع التي بين أيدينا .

(٢) وفي نسخة ثانية : الانظار .

بشأن أبي تاشفين وحصاره ومقتله ، وما كان للسلطان في ذلك من سورة التغلب وآية
الغز وإهانة العدو وشاعت أخبار ذلك في الآفاق . وسما سلطان مالي منسا موسى
المتقدم ذكره في أخبارهم إلى مخاطبته . فأوفد عليه فرانقين من أهل مملكته مع ترجان
من المثلثين المجاورين لمالكهم من صنهاجة ، فوفدوا على السلطان في التهئة بالغلب
والظفر بالعدو ، فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم . ونزع إلى طريقته في
الفخر ، فأتحف طرفاً من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره وأسناها ، وعين رجالاً
من أهل دولته ، كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه
عبر الخصي . وأوفدهم بها على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى ، لمهلك أبيه
قبل مرجع وفده . وأوعز إلى أعراب الفلاة من المعقل بالسير معهم ذاهبين وجاءين ،
فشمّر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جار الله من المعقل ، وصحبهم في طريقهم
امثالاً لأمر السلطان . وتوغل ذلك الركاب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول
المشقة ، فأحسن مبرّتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم . وعادوا إلى
مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظّمون سلطانه ، ويوجبون حقّه ، ويؤدّون طاعته من
خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به ، فأدّوا
رسالتهم وبلغ السلطان أرباً من اعترازه على الملوك وخضوعهم لسلطانه ، وقضاء حقّ
الشكر لله في صنعه .

* (الخبر عن اصهار السلطان الى صاحب تونس) *

لما هلكت ابنة السلطان أبي يحيى بطريف فيمن هلك من حظايا السلطان أبي
الحسن بفساطيطه ، بقي في نفسه منها شيء حيناً إلى ما شغفته به من خلالها وعزة
سلطانها ، وقيامها على بيتها ، وظفرها في تصرفها^(١) ، والاستمتاع بأصول الترف
ولذاذة العيش في عشيرتها ، فسما أمله إلى الاعتياض عنها ببعض أخواتها . وأوفد في
خطبتها وليه عريف بن يحيى أمير زغبة ، وكاتب الجباية والعساكر بدولته أبا الفضل
ابن عبد الله بن أبي مدين ، وفقه الفتوى بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان

(١) وفي نسخة ثانية : تصرفاتها .

السطي ، ومولاه عنبر الخصي ، فوفدوا يوم مثنى من سنة ست وأربعين وسبعائة وأنزلوا منزل البر ، واستبلغ في تكريمهم ودس الحاجب أبو عبدالله بن تافراكين إلى سلطانه غرض وفادتهم ، فأبى من ذلك صوتاً لحرمة عن جولة الأقطار وتحكم الرجال ، واستعظماً لمثل هذا العرس . ولم يزل حاجبه ابن تافراكين يخفض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع الأذمة السابقة بينها من الصهر والمخالصة إلى أن أجاب وأسعف . وجعل ذلك إليه فانعقد الصهر بينهما وأخذ الحاجب في شوار العروس ، وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال ثواء الرسل إلى أن استكمل وارتحلوا من تونس لربيع من سنة تسع (١) وأربعين وسبعائة وأوعز مولانا السلطان أبو يحيى إلى ابنه الفضل صاحب بونة وشقيق هذا العروس أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياماً بحقه ، وبعث من بابه مشيخة من الموحدين مقدمهم عبد الواحد بن محمد بن أكمازير ، صحبوا ركبها إليه . ووفدوا جميعاً على السلطان واتصل الخبر أثناء طريقهم بمهلك مولانا السلطان أبي يحيى عفا الله عنه ، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عندما وصلوا إليه ، واستبلغ في تكريمهم وأجمل موعد أخيها الفضل بسلطانه ومظاهرتة على تراث أبيه فأطمأنت به الدار إلى أن سار في جملة السلطان وتحت ألويته إلى أفريقية كما نذكر إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن حركة السلطان إلى أفريقية واستيلائه عليها) *

كان السلطان أبو الحسن قد امتدت عينه إلى ملك أفريقية لولا مكان السلطان أبي يحيى من ولايته وصهره ، وأقام يتحين لها الأوقات ، ولما بعث إليه في الصهر وأشيع بتلمسان أن الموحدين ردوا خطبته ، نهض من المنصورة بتلمسان وأغذ السير إلى فاس ففتح ديوان العطاء ، وأزاح علل العسكر ، وعقد على المغرب الأقصى لحافده منصور ابن الأمير أبي مالك ، وفوض إلى الحسن بن سليمان بن يرزيكن في أحكام الشرطة ، وعقد له على الضاحية ، وارتحل إلى تلمسان مضمراً الحركة إلى أفريقية حتى إذا جاء الخبر اليقين بالإسعاف والزفاف سكن عزمه (٢) وهدأ طائرته . فلما هلك السلطان أبو

(١) وفي نسخة ثانية : سنة سبع .

(٢) وفي نسخة ثانية : سكن غربه .

يحيى في رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، وكان من قيام ابنه عمر بالأمر ، ونزوع الحاجب أبي محمد بن تافراكين في رمضان منها ما ذكرناه ، تحركت عزائم السلطان لذلك . ورغبه ابن تافراكين في ملك الموحدين ، فرغب وجاء على أثره الخبر بما كان من قتل عمر لأخيه أحمد وليّ العهد ، وكان يستظهر على عهده بكتاب أبيه ، وما أودعه السلطان بحاشيته من الوفاق على ذلك بخطه ، واقتضاه منه حاجبه أبو القاسم بن عتّو في سفارته إليه ، فامتعض السلطان لما أضاع عمر من عهد أبيه ، وهدر من دم أخيه . وارتكب مذاهب العقوق فيهم ، وخرق السباج الذي فرضه بخطه عليهم ، فأجمع الحركة إلى أفريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر نازعاً إليه ومستغذاً مسيره ، ففتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير إلى أفريقية ، وأزاح عنهم . وكان صاحب بجاية المولى أبو عبدالله حافد مولانا الأمير أبي يحيى ، وقد على السلطان أبي الحسن إثر مهلك جدّه بقرب المآب^(١) بسفارة أبيه إليه ، ويطلب الإقرار على عمله . فلما استيأس منه واستيقن حركته بنفسه إلى أفريقية ، طلب الرجوع إلى مكانه فأسعف وفصل إلى بجاية .

ولما قضى السلطان منسك الأضحى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة عقد لابنه الأمير أبي عنان على المغرب الأوسط ، وعهد إليه بالنظر في أموره كافة ، وجعل إليه جبايته ، وارتحل يريد أفريقية . وسار في جملته هو وخالد بن حمزة أمير البدو . ولما احتل بوهْران ووافاه هنالك وفد قسطلية وبلاد الجريد ، يقدمهم أحمد بن مكّي أمير حرب^(٢) ورديف أخيه عبد الملك في إمارته ، ويحيى بن محمد بن يملول أمير توزر سقط إليها بعد خروج الأمير أبي عمر العباس ولي العهد عنها ، ومهلكه بتونس ، وأحمد بن عامر بن العابد رئيس نفطة ، رجعا إليها كذلك بعد مهلك وليّ العهد ، فلقبه هؤلاء الرؤساء بوهْران في ملائمن وجوه بلادهم ، فآتوه بيعتهم وقضوا حق طاعته . وتناقل محمد بن ثابت أمير طرابلس عن اللحاق به ، فبعث بيعته معهم ، فأكرم وفدهم وعقد لهم على أمصارهم ، وصرفهم إلى أعمالهم . وتمسك بأحمد بن مكّي لصحابة ركابه ، وفي جملته ، وأغذّ السير . ولما احتل ببني حسن من أعمال بجاية ، وافاه بها منصور بن فضل بن مزني أمير بسكرة وبلاد الزاب في وفد من أهل

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي النسخة المصرية : المتات وفي نسخة ثانية : المتاب وفي أخرى المتاب .

(٢) وفي نسخة أخرى : أمير جربة .

وطنه ، ويعقوب بن علي بن أحمد سيّد الزواودة وأمير البدو بضاحية بجاية وقسنطينة ،
 فتلقاهم بالمبرة والاحتفاء والزمهم ساقته . وسرح بين يديه قائده حمو بن يحيى
 العسكري^(١) من صنائع أبيه ، فلما عسكر بساحة بجاية أبو عبدالله وأبي عليه أهل
 البلد رهبة من السلطان ورغبة فيه ، وانفضوا من حوله ، ولحقت مشيختهم من
 القضاة وأهل الفتيا والشورى بمجلس السلطان . وسابقهم إليه حاجبه فارح مولى ابن
 سيد الناس ، فأدى طاعته ورجّعه إليه للخروج للقاء ركابه . وارتحل حتى اذا أطلت
 راياته على البلد ، بادر المولى أبو عبدالله ولقيه بساحة البلد ، واعتذر من تخلفه فتقبل
 عذره وأحله من البرّ والتكرمة محل الولد العزيز . وأقطعه عمل كومية من نواحي
 هُنين ، وأسنى جرايته بتلمسان وأصحبه إلى ابنه أبي عنان صاحب المغرب الأوسط
 واستوصاه به . ودخل بجاية فرفع عنهم الظلامات وخطّ عنهم الربع من المغارم . ونظر
 في أحوال ثغورها فثقفها وسدّ فروجها . وعقد عليها لمحمد بن النوار^(٢) من طبقة
 الوزراء والمرشحين لها ، وأنزل معه حامية من بني مرين . وكاتب الخراج ببابه بركات
 بن حسّون بن البوّاق ، وارتحل مغدًا لسيره حتى احتل بقسنطينة . وتلقاه أميرها أبو زيد
 حافد مولانا السلطان أبي يحيى وأخواه أبو العباس أحمد وأبو يحيى زكريا وسائر
 إخوتهم ، فأتوه ببيعتهم ونزلوا له عن عملهم . وأداهم السلطان منه بندرومة من عمل
 تلمسان ، عقد للمولى أبي زيد على إمارتها ، وجعل له إسوة إخوته في أقطاع
 جبايتها ، ودخل البلد وعقد عليها لمحمد بن العباس ، وأنزل معه العباس بن عمر في
 قومه من بني عسكر . وأمضى أقطاعات الزواودة ووفاه هنالك عمر بن حمزة سيّد
 الكعوب لعهدده وأمير البدو مستحثًا لركابه . وأخبره برحيل السلطان عمر ابن مولانا
 السلطان أبي يحيى من تونس فيمن اجتمع إليه من أولاد مهلهل أقتاهم من الكعوب
 موجهاً إلى ناحية قابس . وأشار على السلطان بتسريح العساكر لاعتراضه قبل أن
 يخلص إلى طرابلس ، فسرح معه حمّو بن يحيى العسكري قائده في عسكر من بني
 مرين والجند . وارتحلوا في اتباع السلطان أبي حفص ، وتلّوم السلطان أبو الحسن
 بقسنطينة ، واعترض عساكره بسطح الجعاب منها . وصرف يوسف بن مزني إلى
 عمله بالزاب ، بعد أن خلع عليه وحمله .

(١) وفي نسخة أخرى : العشري .

(٢) وفي نسخة ثانية : بن النوار .

ثم عقد للمولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى على مكان عمله ببونة ، وملاً
حقائبه جائزة وخلعاً نفيسةً وسرّحه ، ثم ارتحل على أثرهم وأوعز حمّو بن يحيى مع
الناجعة من أولاد أبي الليل ، ولحقوا بالأمير أبي حفص بمباركة من ناحية قابس ،
فأوقعوا به وتردّى عن فرسه في حومة القتال هو ومولاه ظافر السنان القائم بدولته من
المعلوجي ، فتقبّض عليها وسيقا إلى أبي حمّو فاعتقلها إلى الليل ، ثم ذبحها وأنفذ
برؤسها إلى السلطان . ولحق الفلّ بقابس ، فتقبّض عبد الملك بن مكّي على أبي
القاسم بن عتّو صاحب الأمير أبي حفص وشيخ الموحدين ، وعلى صخر بن موسى
شيخ بني سكين من سدويكش فيمن تقبّض عليه من ذلك الفلّ ، وأشخصهم
مقرنين في الأصفاد إلى السلطان . وسرّح السلطان عساكره إلى تونس ، وعقد عليهم
ليحيى بن سليمان صهره من بني عسكر على إبتته ، وأنفذ معه أحمد بن مكّي فاحتلوا
بتونس ، واستولوا عليها . وانطلق ابن مكّي إلى مكان عمله من هنالك لما عقد له
السلطان عليه وسرّحه إليه بعد أن خلع عليه وعلى حاشيته وحملهم . ونزل السلطان
بناحية باجة ، فوافاه هنالك البريد برأس الأمير أبي حفص . وعظم الفتح .

ثم ارتحل إلى تونس واحتلّ بها يوم الأربعاء الثامن لجمادى الآخرة من سنة ثمان .
وتلقاه وفد تونس وملؤها من شيوخ الشورى وأرباب الفتيا ، فأتوا طاعتهم وانقلبوا
مسرورين بملكهم . ثم عبّى يوم السبت إلى دخولها مواكبه ، وصفّ جنوده سباطين
من معسكره بسيجوم إلى باب البلد يناهز ثلاثة أميال أو أربعة . وركب بنو مرين إلى
مراكهم في جموعهم وتحت راياتهم . وركب السلطان من فسطاطه وراكبه من على
يمينه وليّه عريف بن يحيى أمير زغبة ، وويليه أبو محمد عبدالله بن تافراكين ومن على
يساره الأمير أبو عبدالله محمد أخو مولانا السلطان أبي يحيى ، وويليه الأمير أبو عبدالله
ابن أخيه خالد ، كانا معتقلين بقسنطينة مع ولدهما منذ خروج أخيه الأمير أبي فارس
فأطلقهم السلطان أبو الحسن وصحبوه إلى تونس ، فكانوا طرازاً في ذلك الموكب
فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم . وهدرت طبوله ، وخفقت راياته ،
وكانت يومئذ مائة . وجاء والمواكب تجتمع عليه صفّاً صفّاً إلى أن وصل إلى البلد ،
وقد ماجت الأرض بالجيوش ، وكان يوماً لم يُر مثله فيما عقلناه . ودخل السلطان إلى
القصر وخلع على أبي محمد بن تافراكين كسوته وقرب إليه فرسه بسرجه ولحامه .
وطعم الناس بين يديه وانتشروا . ودخل السلطان مع أبي محمد بن تافراكين إلى حُجْر

القصر ومساكن الخلفاء ، فطاف عليها ودخل منه إلى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطاوية ، فطاف على بساتينه وجوائزه ، وأفضى منه إلى معسكره وأنزل يحيى ابن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها . ووصل إليه فلّ الأمير أبي حفص والأسرى بقابس مقرنين في أصفادهم ، فأودعهم السجن بعد أن قطع أبا القاسم بن عتو وصخر بن موسى من خلاف ، لفتيا الفقهاء بحرايتهم^(١) . وارتحل من الغد إلى القيروان فجال في نواحيها . ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيدين ، وزار أجداد العلماء والصالحين .

ثم سار إلى المهديّة ووقف على ساحل البحر ، ونظر في عاقبة الدير كانوا من قبل أشدّ قوّة وآثاراً في الأرض ، واعتبر بأحوالهم . ومزّ في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير ، وانكفاً راجعاً إلى تونس ، واحتل بها غرة رمضان وأنزل المسالح على ثغور أفريقية ، وأقطع بني مرين البلاد والضواحي ، وأمضى أقطاعات الموحدّين للعرب . واستعمل على الجهات وسكن القصر وقد عظم الفتح وعظمت في الاستيلاء على الممالك والدول المنّة . واتصلت ممالكه ما بين مسراته والسوس الأقصى من هذه العدوّة ، وإلى رُنْدَة من عدوة الأندلس . والملك لله يؤتیه من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين * ودفع إليه الشعراء بتونس يهنّونه بالفتح ، وكان سابقهم في تلك النوبة أبو القاسم الرحوي من ناشئة أهل الأدب فرفع إليه قوله :

أجَابَكَ شَرْقٌ إِذْ دَعَوْتَ وَمَغْرِبٌ
وَنَادَاكَ مِصْرٌ وَالْعِرَاقُ وَشَامٌ
وَحَيَّتَكَ أَوْ كَادَتْ تُحَيِّي مَنَابِرُ
فَسَارِعَ مِنَّا كُلُّ دَانٍ وَشَاسِعُ
وَتَأَقَّتْ لَكَ الْأَرْوَاحُ حُبًّا وَرَغْبَةً
فِي الْبَلَدَةِ الْبَيْضَاءِ مَعَشَرُ
وَوَافَتَكَ مِنْ ذَاتِ النَّخِيلِ وَفُودُهَا
وَلَمْ تَتَلَكَّأْ عَنِ إِبَاءِ بَجَايَةِ
تَابَتْ فَلَمَّا أَنْ أَطَلَّتْ عَسَاكِرُ
فَمَكَّةٌ هَشَّتْ لِلِقَاءِ وَيَثْرُبُ
بِدَاراً ، فَصَدَعُ الدِّينِ عِنْدَكَ يُشْعَبُ
عَلَيْهَا دُعَاةُ الْحَقِّ بِاسْمِكَ تَخْطُبُ
إِلَى طَاعَةٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تُحْسَبُ
وَأَنْتَ عَلَى الْأَمَالِ تَنَأَى وَتَقْرُبُ
وَأَنْتَ بِأَفْقِ النَّاصِرِيَّةِ تَرْقُبُ
فَلَقَاهُمْ أَهْلُ لَدِيكَ وَمَرْحَبُ
وَلَكِنْ تُرَاضِ الصَّعْبَ حِينًا وَتُرَكِبُ
تَرَى الشُّهْبَ مِنْهَا تُسْتَبَاحُ وَتُنْهَبُ

(١) وفي نسخة ثانية : بحرايتهم .

تَبَادَرَ مِنْهُمْ مُذْعِنٌ وَمُسْلِمٌ
 وَمَا تَوْنَسَ إِلَّا بِمَضْرٍ مَرُوعٌ
 وَمَا أَهْلُهَا إِلَّا بُغَاثٌ لِصَائِدٍ
 وَقَدْ كُنْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ كِهْفَ زَعِيمِهِمْ
 فَكُلُّ يَرَى أَنَّ الزَّمَانَ أَدَالَهُ
 وَكَذَلِكَ إِبْنُ طَائِعٍ وَإِنِ اعْتَلَّتْ
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ عَدْلِكَ يَنْتَمِي
 تَسَامَيْتَ فِي مُلْكٍ وَنَسْكَ بِحُظَّةٍ
 إِذَا لَدَّ لِلْأَمْلاكَ خَمْرٌ مَدَامَةٌ
 وَإِنْ أَدَّ مَنْ الْقَوْمُ الصَّبُوحَ فَإِنَّمَا
 وَإِنْ حَمَدُوا الشَّرْبَ الْغَبُوقِ فَإِنَّمَا
 وَإِنْ خَشِنْتَ أَخْلَاقَهُمْ وَتَحَجَّبُوا
 لَقَدْ كَرُمْتَ مِنْكَ السَّجَايَا فَأَصْبَحَتْ
 كَمَا شَيْدَتْ بَيْتًا فِي ذَوَابَةِ مَعْشَرٍ
 هُمُ التَّارِكُو قَلْبَ الْقَسَاوِرِ خَضَعًا
 هُمُ النَّاسُ وَالْأَمْلاكَ تَحْتَ جَوَارِهِمْ
 هُمُ الْمَالِكُو الْمَلِكِ الْعَظِيمِ فِيهِمْ (٣)
 لَقَدْ أَصْبَحَتْ بَغْدَادٌ تَحْسِدُ بِأَسْهَمِ
 تَجَلَّتْ بَيْتِ (٥) الْمَجْدِ مِنْهُمْ كَوَاكِبُ
 فَاللَّهُ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ بَغْرِيَّةٌ (٦)
 لَقَدْ قَامَ عِيدُ الْحَقِّ لِلْحَقِّ طَالِبًا
 وَأَعْقَبَ يَعْقُوبِيًّا يَوْمَ سَيْلَانَهُ

وَأَذَعَنَ مِنْهُمْ شَاغِبٌ وَمُؤَلَّبٌ
 وَفِي حَرَمٍ أُمْسَتْ لِسَيْدِكَ تَسْرِبُ
 وَبِالْعَزِّ مِنْهَا اسْتَنْصَرُوا وَتَعَقَّبُوا
 فَهَا أَنْتَ كِهْفٌ لِلْجَمِيعِ وَمَهْرَبٌ
 بِكُمْ فَأَجَابَ الْعَيْشُ وَالْعَيْشُ مَخْصَبٌ
 بِهِ السَّنُّ أَحْوَالًا وَأَنْتَ لِسَهْ أَبُ
 إِلَى الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَيُنْسَبُ
 حَذِيثًا مِحْرَابٌ لِيَدِيهَا وَمَرْكَبٌ
 فَلِذَلِكَ الْقُرْآنُ يُتْلَى وَيُكْتَبُ
 عَلَى رَكَعَاتٍ بِالضُّحَى أَنْتَ تَدَابُ
 شَرَابِكَ بِسَائِلِ الْمَسَاءِ ذِكْرٌ مُرْتَبٌ
 فَهَا أَنْتَ فَظٌّ بَلٍ ، وَلَا مُتَحَجِّبٌ (١)
 إِذَا مَا أَمَرَ الدَّهْرُ تَحَلُّو وَتَعَذَّبُ
 يَزِيدُهُمْ قَحْطَانٌ فَخْرًا وَيَغْرِبُ
 وَعَنْ شَأْوِهِمْ كَفَّتْ عَيْبٌ وَأَغْلَبُ
 هُمُ الْعُظْمُ الْأَرْضِ الْعَظِيمَةُ مَغْرِبٌ (٢)
 عَلَى كَاهِلِ السَّبْعِ الشِّدَادِ مُطَنَّبٌ
 وَحَلَّةٌ وَدَّتْ أَنْ تَكُونَ مَنَاسِبٌ (٤)
 لَقَدْ حَلَّ مِنْهَا شَارِقٌ وَمُغْرَبٌ
 يَرُومُ بِنَاهَا الْأَعْجَمِيُّ فَيَعْرَبُ
 فَاْفَاتَهُ مِنْهُ الَّذِي قَامَ يَطْلَبُ
 فَلَمْ يُخْطِهِ وَهُوَ السَّيْلُ الْمُنْجَبُ (٧)

(١) وفي نسخة ثانية : فما انت فظ لا ولا متحجب .

(٢) وفي نسخة ثانية : تغرب .

(٣) وفي نسخة ثانية : ودستهم .

(٤) وفي نسخة ثانية : ودجلة ودَّت ان يكون بها سب .

(٥) وفي نسخة ثانية : تجلت سماء .

(٦) وفي نسخة ثانية : « ثلثة يعربية يروم ثباها » .

(٧) وفي نسخة ثانية : المَلْحَبُ .

وخلفَ عثماناً فلله صارمٌ
 فكُم في سبيلِ اللهِ شَنَّ إغارةً
 ولمَّا أرادَ اللهُ إتمامَ مِنَّةِ
 أتى بكَ للدينِ الحنيفيِّ آيةً
 فجئتَ بما يَرْضَى به اللهُ سالكاً
 وقُمتَ بأمرِ اللهِ حَقَّ قِيَامِهِ
 وأصبحَ أهلُ اللهِ أهلاً وشيعةً
 وحلَّ بأهلِ الفتكِ ما حلَّ عزمهمُ
 وجاهدتَ في الرحمنِ حقَّ جهادِهِ
 وأنقذتَ من أيدي الإغارةِ أُمَّةً
 فأصبحتِ الدنيا عروساً يزفُّها
 فلا مِصْرُ إلا قد تمَّنَّاكَ أهلهُ
 وما الأرضُ إلا منزلٌ أنتَ رَبُّهُ
 تملكَّتْ شطرَ الأرضِ كسباً وشطرها
 يجيشُ على الألواحِ والماءِ يمتطي
 وجيشٌ من الإحسانِ والعدلِ والتقى
 فلا مركبٌ إلا يزِينُ راكباً
 ولا رمحٌ إلا وهو أهيفُ خاطرُ
 فكُم كاتبِ خِطْبِهِ ودواتِهِ
 يمرُّ على الأبطالِ وهو كأنه
 وكُم كاتبِ لا يُنكِرُ الطعنَ رُمحُهُ
 له من عجيبِ السحرِ بالقولِ أضربُ
 فهما هو في الأقوالِ واشِ محبُّ

به بَانَ للإسلامِ شرعٌ ومذهبٌ
 لِمَا شادَ أهلُ الكفرِ أمستَ تُخربُ
 تقلدها منَّا مطيعٌ ومُذنبُ
 تعرَّى بها عن لامعِ الحقِّ غِيهَبُ
 سبيلاً إلى رضوانه بكَ يذهبُ
 يناضلُ عنه منك نضلُ مدرَّبُ
 لَكُم ولهمُ مِنْكُم مكانٌ ومنصبُ
 وقامَ لديهمُ واعظٌ مترقَّبُ (١)
 فراهبُ أهلِ الكُفْرِ بأسكَ يَرهبُ
 وأولى جهادِ كانَ بَلُّ هو أوجبُ
 لامرك من جاري المقاديرِ (٢) مغربُ
 ولا أرضٌ إلا بأذكارِكَ تُخصبُ
 وما حلَّها إلا الودودُ المُرَجَّبُ
 وراثاً (٣) فطاب الكَلُّ إرثاً ومكسبُ (٣)
 وجيشٌ على الضمرِ السوابقِ يركبُ
 وذلكَ لَعَمْرُ اللهِ أغلى وأغلبُ
 ولا راكبٌ إلا بهِ ازدانَ مركبُ
 ولا سيفٌ إلا وهو أبيضُ فأضبُ (٤)
 ولم يقرَّ خطأً يغتدى وهو يكتبُ (٥)
 هزبرٌ وأبطالُ الفوارسِ رَبِّربُ
 خبيرٌ بأيامِ الأعرابِ مَعربُ
 وفي هامةِ القومِ المضاربِ مَضربُ
 وهما هو في الأمثالِ ثاوٍ مُجربُ

(١) وفي نسخة ثانية : ومثوب .

(٢) وفي نسخة ثانية : التقادير .

(٣) وفي نسخة ثانية : تراثاً فطاب الملك إرثاً ومكسب .

(٤) وفي نسخة ثانية : مقضب .

(٥) ولم يقر خطأً لا ، ولا هو يكتب .

ومن صاحب بُرداً من العلم والتقى
له صبغة في العلم جاءت بأصبع
فيا عسكرياً قد ضمّ أعلامَ عالم
هم الفئة العلياء والمعشر الذي
لك الفضل في الدنيا على كل قاطن
ويا مالكا^(٢) عدلاً رضى متورعاً
شرعت من الإحسان فينا شريعة
وأسميت أهل النسك إذ كنت منهم
وأعليت قدر العلم إذ كنت عالماً
فمدحك محتوم على كل قائل
فله كم تعطي وتمطي وتجتبي
فلا برحت كفاك في الأرض مزنة
ولا زلت في علياء مجدك راقياً
توافى على أقصى أمانيك آمناً

عليه ذيول الداودية تسحب
وشهبان فهم لم يشمهن أشهب
به طاب في الدنيا لنا متقلب
إذا حلّ شعباً^(١) فهو للحق مشعب
ومرتجل أنى يحيى ويذهب
مناقبه العلياء تتلى وتكتب
تساوى بهاناء ومن يتقرب
فمنك أخو التقوى قريب مقرب
فقيهاً وفي طلابه لك مارب
ومن ذا الذي يخصي الرمال ويحسب
فللبخر من كفيك قد صغ منسب
يطيب بها للخلق مرعى ومشرب
وشانك المدحوض ينكى وينكب
فلا ير يستغصى ولا يتعصب

الخبر عن واقعة العرب مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما تخللها من الأحداث

كان هؤلاء الكعوب من بني سُلَيْمِ رؤساء البدو بأفريقية ، وكان لهم اعتزاز على الدولة لا يعرفون غيره مذ أولها بل وما قبله ، إذ كان سُلَيْمِ هؤلاء منذ تغلب العرب من مضر على الدول والممالك أول الإسلام انتبدوا إلى الضواحي والقفار ، وأعطوا من صدقاتهم عن عزة ، وارتاب الخلفاء بهم لذلك حتى لقد أوصى المنصور ابنه المهدي أن لا يستعين بأحد منهم كما ذكر الطبري . فلما انثالت الدولة العباسية واستبد الموالى من العجم عليهم ، اعتر بنو سُلَيْمِ هؤلاء بالقفر من أرض نجد ، وأجلبوا على الحاج بالحرمين ، ونالهم منهم معرات ، ولما انقسم ملك الإسلام بين العباسية والشيعة

(١) وفي نسخة ثانية : صعباً .

(٢) وفي نسخة ثانية : يا ملكاً .

واختطوا القاهرة ، نفقت لهم أسواق الفتنة والتعزز ، وساموا الدولتين بالهضيمة وقطع السابلة . ثم أغراهم العبيديون بالمغرب وأجازوا إلى برقة على أثر الهلالين فخرّبوا عمرانها وأجروا في خلائها ، حتى إذا خرج ابن غانية على الموحدّين وانترى بالشغور الشرقية طرابلس وقابس ، واجتمع معه قراقش الغزيّ مولى بني أيوب ملوك مصر والشام ، وانضاف إليهم أفريق العرب من بني سُليم هؤلاء وغيرهم ، أجلبوا معه على الضواحي والأمصار ، وصاروا في جملتهم من ناعق فنتهم . ولما هلك قراقش وابن غانية واستبدّ آل أبي حفص بأفريقية وأعزّ الزواودة على الأمير أبي زكريا يحيى ابن عبد الواحد بن أبي حفص ، استظهر عليهم ببني سُليم هؤلاء ، وزاحمهم بطواعنهم وأقطعهم بأفريقية ونقلهم عن مجالاتهم بطرابلس وأنزلهم بالقيروان ، فكان لهم من الدولة مكان وعليها اعتزاز ، ولما افترق سلطان بني أبي حفص ، واستبدّ الكعوب برياسة البدو ، وضربوا بين أعياصها وسعوا في شقاقها ، وأصابت منهم وأصابوا منها ، وكان بين مولانا الأمير أبي يحيى وبين حمزة بن عمر أخي الأمير منازعة وقتن وحرب سجال أعانه عليها ما كان من زحف بني عبد الواد إلى أفريقية وطمعهم في تملك ثغورها ، فكان يستجرّ جيوشهم لذلك ، وينصب الأعياص من بني أبي حفص يزاحم بهم ، ثم غلبه مولانا السلطان أبو بكر آخراً واستجرّه إلى الطاعة ما كان من قطع كلمة الزبون^(١) عن مولانا السلطان أبي يحيى ، وهلاك عدّوه من آل يغمراسن ، بسيف وليّه وظهيره السلطان أبي الحسن ، فأذعن وسكن غرب اعتزازه . وحمل بني سُليم على إعطاء صدقاتهم ، فأعطوها بالكرامة . ثم هلك باغتيال الدولة له فيما يزعمون ، وقام بالأمر بنوه ولم يعرفوا عواقب الأمور ولا أبلوا باعتساف الدولة ، ولم يعهدوا ولا سمعوا لسلفهم غير الاعتزاز فحدثتهم أنفسهم بالفتنة والاعتزاز على قائد الدولة . وحاربوه فغلبوه ، وأجلبوا على السلطان في ملكه ، ونازلوه بعقر داره سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ولما سامهم الأمير ابن مولانا السلطان أبي يحيى الهضيمة بعد مهلك أبيه ، نزعوا إلى أخيه وليّ العهد ، فجاء إلى تونس وملكها سبعاً . ثم اقتحم عليه أخوه الأمير أبو حفص فقتله . وتقبّض يوم اقتحامه البلد

(١) الزبون : دفع الشيء عن الشيء ، وجرب زبون . تزبن الناس ، أي تصدعهم وتدفعهم ، على التشبيه بالناقة التي تزبن ولدها عن ضرعها وتزبن الحالب أي تدفعه بثفانتها وقال الجوهري : أما الزبون للغبي والحريف فليس من كلام أهل البادية (لسان العرب) .

على أبي الهول بن حمزة أخيه ، فقتله صبياً بباب داره بالقصبة ، فأسفهم بها .
وتزعموا إلى السلطان أبي الحسن ورغبوه في ملك أفريقية واستعدّوه إليها .
ولما تغلب السلطان على الوطن وكانت حاله في الاعتزاز على من في طاعته غير
حال الموحدين وملكته للبدو غير ملكتهم ، وحين رأى اعتزازهم على الدولة وكثرة ما
أقطعهم من الضواحي والأمصار ، نكره وأداهم من الأمصار التي أقطعهم الموحدون
بأعطيات فرضها لهم في الديوان . واستكثر جبايتهم ، فنقصهم الكثير منها وشكا إليه
الرعية من البدو وما ينالونهم به من الظلمات والجور بفرض الاتاوة التي يسمونها
الخفارة ، فقبض أيديهم عنها وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها ، فارتابوا لذلك ،
وفسدت نياتهم وثقلت وطأة الدولة عليهم فترصدوا لها . وتسامع ذؤبانهم وبوادهم
بذلك ، فأغاروا على قباطين^(١) بني مرين ومسالحهم بثغور أفريقية وفروجها ،
واستاقوا أموالهم ، وكثر شاكيهم^(٢) وأظلم الجحوم منهم بينهم وبين السلطان والدولة .
ووفد عليه بتونس بعد مرجعه من المهديّة وفد من مشيختهم ، كان فيهم خالد بن
حمزة مستحبة^(٣) إلى أفريقية ، وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله بن مسكين ، وابن
عمه خليفة بن بوزيد من أولاد القوس ، فأنزهم السلطان وأكرمهم .
ثم رفع إليه الأمير عبد الرحمن ابن السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني كان
في جملته ، وكان من خبره أنه رجع من المشرق بعد مهلك أبيه بمصر كما قدّمناه سنة
إثنتين وثلاثين وسبعمائة فدعا لنفسه بجهات طرابلس . وتابعه أعراب ذباب ، وباع
له عبد الملك بن مكّي صاحب قابس . ونهض معه إلى تونس في غيبة السلطان
لتخريب تامر يزدكت كما ذكرناه ، فملكها أياما وأحس بمرجع السلطان فأجفل
عنها . ولحق عبد الواحد بن اللحياني إلى تلمسان ، إلى أن دلف إليها السلطان أبو
الحسن بعساكره ، ففارقهم وخرج إليه ، فأحلّه محل التكرمة والمبرة واستقرّ في جملته
إلى أن ملك تونس . ورفع إليه عند مقدم هذا الوفد أنّهم دسّوا إليه مع بعض
حشمه ، وطلبوه في الخروج معهم لينصبوه للأمر بأفريقية وتبرأ إلى السلطان من

(١) القيطون : المخدع ، أعجمي ، وقيل : بلغة أهل مصر وبربر : قال ابن بري : القيطون بيت في بيت
(لسان العرب) .

(٢) وفي نسخة ثانية : : كثر شكاتهم .

(٣) كذا في النسخة الباريسية ولا معنى لها هنا وفي نسخة ثانية : مستحبه .

ذلك ، فأحضروا بالقصر ووبخهم الحاجب علال بن محمد بن المصمود ، وأمر بهم ، فسحبوا إلى السجن .

وفتح السلطان ديوان العطاء وعسكر بسيجوم من ساحة البلد بعد قضائه منسك الفطر من سنته . وبعث في المسالح والعساكر فتوافت إليه واتصل الخبر بأولاد أبي الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وعسكرة السلطان لهم ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتفاقدوا على الموت ، وبعثوا إلى أقاتهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد . وكانوا بعد مهلك سلطانهم أبي حفص قد لحقوا بالقفر وانتبذوا عن أفريقية فراراً من مطالبة السلطان بما كانوا شيعة لعدوهم . فأخذ السير إليهم أبو الليل بن حمزة متطارحاً عليهم بنفسه في الاجتماع على الخروج على السلطان ، فأجابوه وارتحلوا معه . وتوافت أحياء بني كعب وحكيم جميعاً بتوزر من بلاد الجريد ، فهدروا الدماء بينهم وتدمروا وتبايعوا على الموت ، واتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر ، فدلهم بعض سامة الفتن على رجل من أعقاب أبي دبوس فريسة بني مرين من خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش ، عندما استولى عليها . وكان من خبره أن أباه عثمان بن إدريس بن أبي دبوس لحق بمهلك أبيه بالأندلس ، وصحب هنالك مرغم بن صابر شيخ بني ذباب وهو أسير ببرشلونة . فلما انطلق من أسره صحبه إلى وطن ذباب بعد أن عقد قص برشلونة بينها حلفاً ، وأمدّهما باسطول على مال الترماء له . ونزل بضواحي طرابلس وجبال البربر بها ، ودعا لنفسه هنالك وقام بدعوته كافة العرب من ذباب ، وقاتل طرابلس ، فامتنعت عليه . ثم بايعه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب بأفريقية ، وأجلب به على تونس ، فلم يتم أمره لرسوخ دعوة الحفصيين بأفريقية وانقطاع أمر بني عبد المؤمن منها ، وآثارهم منذ الأحوال العديدة والآماد المتقدمة فنتسي أمرهم .

وهلك عثمان بن إدريس هذا بجربة ، ثم ابنه عبد السلام بعده ، وترك من الولد ثلاثة : أصغرهم أحمد ، وكان صناع اليدين . ولحقوا بتونس بعدما طوّحت بهم طوائع الاغتراب ، وظنوا أن قد تنوسي شأن أبيهم ، فتقبّض عليهم مولانا السلطان أبو يحيى وأودعهم السجن إلى أن غرّبهم إلى الاسكندرية سنة أربع وأربعين وسبعائة ورجع أحمد إلى أفريقية ، واحتل بتوزر محترفاً بالخياطة يتعيش منها ، فاستدعاه بنو كعب هؤلاء حين اتفقت أهواؤهم ومن اتبعهم من أحلافهم أولاد القوس ، وسائر

شعوب علاق . وخرج إليهم من توزر فنصبوه للأمر وجمعوا له شيئاً . من الفساطيط والآلة والكسوة الفاخرة والمقربات . وأقاموا له رسم السلطان ، وعسكروا عليه بحلّهم وقيامتهم ، وارتحلوا لمناجزة السلطان ، ولما قضى منسك الأضحى من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ارتحل من ساحة تونس يريدهم ، فوافاهم في الفرح بين بسيط تونس وبسيط القيروان المسمى بالثنية ، فأجفلوا أمامه وصدقوه القتال منهزمين ، وهو في اتباعهم إلى أن احتلّ بالقيروان ، ورأوا أن لا ملجأ منه ، فتذامروا واتفقوا على الاستماتة ، ودسّ إليهم من عسكر السلطان بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين فغلبوا بني مرين ، ووعدوهم بالمناجزة صبيحة يومهم ليتحيزوا إليهم براياتهم ، وصبحوا معسكر السلطان ، وركب إليهم في الآلة والتعبية ، فاختلّ المصاف ، وتحيز إليهم الكثير ، ونجا السلطان إلى القيروان فدخلها في الفلّ من عساكره ثامن المحرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وتدافعت ساقات العرب في أثره وتسبقوا إلى المعسكر ، فانتهبوه ودخلوا فسطاط السلطان ، فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمة ، وأحاطوا بالقيروان ، وأحاطت^(١) حلّهم بها سياجاً ، وتعاوت ذئابهم بأطراف البقاع ، وأجلب ناعق الفتنة من كل مكان . وبلغ الخبر إلى تونس فاستحصن بالقصبة أولياء السلطان وحرمة ، ونزع ابن تافراكين من جملة السلطان بالقيروان إليهم ، فعقدوا له على حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبّوس ودفعوه إلى محاربة من كان بالقصبة بتونس ، وأغذّ إليها السير واجتمع إليه أشياخ الموحدّين وزعانف الفوغاء والجند ، وأحاطوا بالقصبة ، وعاودها^(٢) القتال ، ونصب المنجنيق لحصارها . ووصل سلطانه أحمد على أثره ، فامتنت عليهم ، ولم يغنوا فيها غناء ، وافترق أمر الكعوب وخالف بعضهم بعضاً إلى السلطان ، وتساقتوا إليه ، فتنفّس منحنق الحصار عن القيروان ، واختلفت إليه رسل أولاد مهلهل ، وأحسن بهم أولاد أبي الليل بن حمزة بنفسه ، وعاهد السلطان على الإفراج ، ولم يفوا بعهده . وداخل السلطان أولاد مهلهل في الخروج إلى سوسة ، فعاهدوه على ذلك . وأوعز أسطوله بمرساها وخرج معهم ليلاً على تعبئة ، فلحق بسوسة وبلغ الخبر إلى ابن تافراكين بمكانه من حصار القصبة ، فركب السفين ليلاً إلى الإسكندرية . وارتاب سلطانهم ابن أبي دبّوس ، لما وقف

(١) وفي نسخة ثانية : وأحدقت .

(٢) وفي نسخة ثانية : وغادها .

على خبره فانفضّ جمعهم وأفرجوا عن القصبه . وركب السلطان أسطوله من
سوسة ، ونزل بتونس آخر جمادى واعتمل في اصلاح أسوارها وإدارة الخندق عليها ،
وأقام لها من الامتناع والتحصين رسماً ثبت له من بعده ، ودفع به في نحر عدوه .
واستقلّ من نكبة القيروان وعثرتها ، وخلص من هوتها والله يفعل ما يشاء .
ولحق أولاد أبي الليل وسلطانهم أحمد بن أبي دبّوس بتونس ، فأحاطوا بالسلطان
واستبلغوا في حصاره ، وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان ، فعول عليهم ثم راجع
بنو حمزة رأيهم في طاعة السلطان فدخل كبيرهم عمر إليه في شعبان ، وتقبّضوا على
سلطانهم أحمد بن أبي دبّوس وقادوه إلى السلطان استبلاغاً في الطاعة ، واحاضاً
للولاية فتقبّل فيثهم ، وأودع ابن أبي دبّوس السجن ، وأصهر إلى عمر بابنه أبي
الفضل ، فعقد له على بنته ، واختلفت أحوالهم في الطاعة والانحراف إلى أن كان ما
نذكر . والله غالب على أمره .

* (الخبر عن انتقاض الثغور الغربية ورجوعها إلى

دعوة الموحدين) *

كان المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، لما قدم على السلطان أبي الحسن
بتلمسان في زفاف شقيقته سنة سبع وأربعين وسبعائة بعدما اتصل به في طريقه مهلك
أبيه ، أوسع له السلطان كنفه ، ومهد له جانب كرامته وبرّه ، وغمز له بوعد في
المظاهرة على ملك أبيه تعزى به عن فقدته . وارتحل السلطان إلى أفريقية . والمولى
الفضل يرجو أن يجعل سلطانها إليه ، حتى إذا استولى السلطان على الثغرين بجاية
وقسنطينة ، وارتحل إلى تونس ، عقد له على مكان إمارته أيام أبيه ببونة ، فصرفه
إليه ، فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى على البث^(١) حتى اذا كانت نكبة السلطان
بالقيروان ، سما إلى التوثب على ملك سلفه . وكان أهل قسنطينة وبجاية قد برموا من
الدولة ، واستنقلوا وطأة الإيالة لما اعتادوا من الملك الرفيق^(٢) ، فأشربوا إلى الثورة

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى البث . ونثّ الخبر أفشاه . وبثّ الخبر اذاعه ونشره .

والأصح البث بمعنى أشدّ الحزن أو الحزن الشديد (قاموس) وقد مرّت معنا هذه الكلمة في مواضع
كثيرة من هذا الكتاب .

(٢) وفي نسخة ثانية : لما اعتادوا من الملكة الرقيقة

عندما بلغهم خبر النكبة . وقد كان توافي بقسنطينة ركاب من المغرب في طوائف من الوفود والعساكر ، وكان فيهم ابن صغير من أبناء السلطان ، عقد له على عسكر من أهل المغرب ، وأوعز إليه باللحاق بتونس ، وفيهم عمال المغرب قدموا عند رأس الحول بجبايتهم وحساباتهم ، وفيهم أيضاً وفد من زعماء النصارى بعثهم الطاغية ابن أدفونش مع تاشفين ابن السلطان لما أطلقه من الأسر بعدما عقد السلم والمهادنة ، وكان أسيراً عندهم من لدن واقعة طريف كما ذكرناه . وكان أصابه مس من الجنون . فلما خلصت الولاية بين السلطان والطاغية ، وعظم عنه الاتحاف والمهاداة ، وبلغه خبر السلطان وتملكه أفريقية ، أطلق ابنه تاشفين وبعث معه هؤلاء الزعماء للتهنئة ، وفيهم أيضاً وفد من أهل مالي ملوك السودان بالمغرب ، أوفدهم ملكهم منسا سليمان للتهنئة بسلطان أفريقية . وكان معهم أيضاً يوسف بن مزني عامل الزاب وأميره ، قدم بجباية عمله . واتصل به خبر الركاب بقسنطينة فلاحق بهم مؤثراً صحاباتهم إلى سدة السلطان . وتوافت هؤلاء الوفود جميعاً بقسنطينة ، واعصوبوا على ولد السلطان . فلما وصل خبر النكبة اشرب الغوغاء من أهل البلد إلى الثورة ، وتحلّت شفاهم إلى ما بأيديهم من أموال الجباية وأحوال الثورة ، فنقموا عليهم سوء الملكة ، ودسّ مشيختهم إلى المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى بمكانه من بونة ، وقد كشف القناع في الانتزاع على عمله والدعاء لنفسه ، فخطبوه للأمر ، واستحثّوه للقدوم ، فأغذّ السير . وتسامع بخبره أولياء السلطان ، فخشي ابن مزني على نفسه ، وخرج إلى معسكره بحلّة أولاد يعقوب ابن علي أمير الزواودة ، ولحق ابن السلطان وأولياؤه إلى القصبة . ومكر بهم أهل البلد في الدفاع دونهم حتى إذا أطلت رايات المولى الفضل وثبوا بهم ، وحجزوهم إلى القصبة وأحاطوا بها حتى استزلوهم على أمان عقدهم لهم . ولحقوا بحلة يعقوب ، فعسكروا بها بعد أن نقض أهل البلاد عهدهم في ذات يدهم ، فاستصفوه وأشار عليهم ابن مزني باللحاق ببسكرة لتكون ركابهم إلى السلطان ، فارتحلوا جميعاً في جوار يعقوب لما له في تلك الضواحي ، حتى لحقوا ببسكرة ، ونزلوا منها على ابن مزني خير نزل ، وكفاهم كل شيء يهيمهم على طبقاتهم ومقاماتهم ، وعناية السلطان بمن كان وافداً منهم ، حتى سار بهم يعقوب بن علي إلى السلطان وأوفدهم عليه في رجب من سنة . واتصل الخبر بأهل بجاية بالفعلة التي فعل أهل قسنطينة ، فساجلوهم في الثورة . وكنسوا منازل أولياء السلطان وعماله ،

فاستباحوها واستلبوهم وأخرجوهم من بين ظهرانيهم عراة ، فلحقوا بالمغرب وطبروا
الخبر إلى المولى الفضل ، واستحثوه للقدوم ، فقدم عليهم وعقد على قسنطينة وبونة
لمن استكفى به من خاصته ورجالات دولته ، واحتل بجاية لشهر ربيع من سنته .
وأعاد ملك سلفه . واستوسق أمره بهذه الثغور إلى أن كان من خبره مع السلطان بعد
خروجه من بجاية ما نذكره ان شاء الله .

الخبر عن انتزاع أولاد السلطان بالمغرب الأوسط والأقصى ثم استقلال أبي عنان بملك المغرب

لما اتصل خبر النكبة بالقيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان ، وكان صاحب تلمسان
والمغرب الأوسط ، وتساقط إليه الفل من عسكر أبيه عراة زرافات ووحداناً ،
وأرجف الناس بمهلك السلطان بالقيروان ، فتناول الأمير أبو عنان للاستئثار
بسلطان أبيه دون الأبناء ، لما كان له من الإيثار عند أبيه لصيانتة وعفافه ، واستظهاره
القرآن ، فكان محلاً بعين أبيه لأمثالها . وكان عثمان بن يحيى بن جرار من مشيخة بني
عبد الواد وأولاد يندوكسن^(١) بن طاع الله منهم ، وكان له محل من الدولة كما ذكرناه
عند أخباره ، وكان السلطان أذن له في الرجوع إلى المغرب ، فرجع من معسكره
بالمهدية ، ونزل بزاوية العباد من تلمسان ، وكان مسمتاً وقوراً ، جُهينة خبر ممتعاً في
حديثه ، وكان مرجماً فيه الوقوف على الحدثان . وكان الأمير أبو عنان متشوقاً إلى خبر
أبيه ، ففرع إلى عثمان بن جرار في تعرفها . واستدعاه وأنس به ، وكان في قلبه مرض
من السلطان ، فأودع إذن الأمير أبي عنان ما أراد من الأمان بتورط السلطان في
المهلكة ، وبشره بمصير الأمر إليه ، فصادف منه إذناً واعية . واشتمل عليه ابن
جرار من بعدها . ورد الخبر بنكبة السلطان فأغراه ابن جرار بالتوثب على الملك ،
وسؤل له الاستئثار به من دون إخوانه يقيناً بمهلك السلطان . ثم أوهمه الصدق
بارجاف الناس بموت السلطان ، فاعتزم وشحد عزمته في ذلك ما اتصل به من
حافد السلطان منصور ابن الأمير أبي مالك صاحب فاس وأعمال المغرب من الانتزاع
على عمله ، وأنه فتح ديوان العطاء واستلحق واستركب لغيبة بني مرين عن

(١) وفي نسخة ثانية : تيدوكسن .

بلادهم ، وخلاء جوه من عساكرهم ، وأظهر العسكر والحشد لاستنقاذ السلطان من هوة القيروان يسدّ منها حسواً في ارتقاء ، وتفطن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن عامل القصبة بفاس ، وصاحب الشرطة بالضواحي ، فاستأذنه باللحاق بالسلطان ، فأذن له راحة من مكانه . وأصبحه عمال المصامدة ونواحي مراكش ليستقدمهم على السلطان بجباياتهم ، فلحق بالأمير أبي عنان على حين أمضى عزمته على التوثب والدعاء لنفسه ، فقبض أموالهم وأخرج ما كان بموضع السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة ، وجاهر بالدعاء لنفسه ، وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة فبايعه الملا . وقرأ كتاب بيعتهم على الإشهاد ، ثم بايعه العامة ، وانفض المجلس وقد عقد سلطانه ورست قواعد ملكه . وركب في التعبية والآلة حتى نزل بقبة الملعب . وطعم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن يرزيكن ، ثم لفارس بن ميثون بن ورداد وجعله رديفاً له وتبعاً . ورفع مكان ابن جرار عليهم . واختصّ لولايته ومناجاة خلوته كاتبه أبا عبدالله محمد بن محمد بن أبي عمر^(١) وسنذكر خبره . ثم فتح الديوان واستركب من تساقط إليه من فلّ أبيه ، وخلع عليهم ودفع إليهم أعطياتهم وأزاح عنهم . وبينما هو يريد الرحلة إلى المغرب بلغه أن ونزمار بن عريف وليّ السلطان ، وخالسته عريف بن يحيى ، وكان أمير زغبة لعهدده ومقدماً على سائر البدو ، وبلغه أنه قد جمع له يريد حربه ، وغلبه على ما صار إليه من الانتزاع والثورة على أبيه . وأنه قصد تلمسان بجموعه من العرب وزناتة المغرب الأوسط ، فعقد للحسن بن سليمان وزيره على حربه وأعطاه الآلة وسرّحه للقائه ، وسرّح معه من حضر من بني عامر أقتال سويد ، وارتحل في عسكره حتى احتلّ تسالة ، وناجزه ونزمار الحرب ، ففلّت جموعه ومنحوا أكتافهم ، واتبع الوزير عسكرهم^(٢) ، واكتسح أموالهم وحلّهم ، وعاد إلى سلطانه بالفتح والغنائم . وارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب ، وعقد على تلمسان لعثمان بن جرّار وأنزله بالقصر القديم منها ، حتى كان من أمره مع عثمان بن عبد الرحمن ما ذكرناه في أخبارهم . ولما انتهى إلى وادي الزيتون وشى إليه بالوزير الحسن بن سليمان أنه مضمرّ الفتك به بتازي تزلفاً إلى السلطان ووفاء بطاعته ، وأنه داخل في ذلك الحافد منصوراً صاحب

(١) وفي نسخة ثانية : ابا عبدالله بن محمد ابن القاضي عبدالله بن أبي عمر .

(٢) وفي نسخة ثانية : واتبع الوزير وعسكره آثارهم .

أعمال المغرب ، بما كان يظهر من طاعة جدّه ، فارتاب الأمير أبو عنان به واستظهر واشي
على ذلك بكتابه . فلما قرأه تقبّض عليه ، وقتله بالمساء خنقاً ، وأغذ السير إلى المغرب .
وبلغ الخبر منصور بن أبي مالك صاحب فاس فرحف للقاءه ، والتقى الجمعان
بناحية تازى وبوادي أبي الاجراف ، فاختلف مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق
بفاس . وانحجر بالبلد الحديد وارتحل الأمير أبو عنان في أثره ، وتسايل الناس على
طبقاتهم إليه ، وآتوه الطاعة وأناخ بعساكره على البلد الحديد في ربيع الآخر سنة تسع
وأربعين ، وأخذ بمخنقتها وجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها ، ولحين
نزوله على البلد الحديد أوعز إلى الوالي بمكانه ، أن يطلق أولاد أبي العلاء المعتقلين
بالقصبية ، فأطلقهم ولحقوا به فأقاموا معه على حصار البلد الحديد ، وطال تمرسه بها
إلى أن ضاقت أحوالهم واختلفت أهواؤهم ، ونزع إليه أهل الشوكة منهم . ونزع إليهم
عثمان بن إدريس بن أبي العلاء فيمن إليه من الحاشية بإذنه له في ذلك سرا يمكن
إليه^(١) ، فدرس إليه وواعدوه الثورة بالبلد ، فثار بها واقتحمها الأمير أبو عنان
عليهم ، ونزل منصور بن أبي مالك على حكمه ، فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه ،
واستولى على دار الملك وسائر أعمال المغرب وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنئة بالبيعة .
وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان والانقياد لقائدهم عبدالله بن علي بن سعيد من
طبقة الوزراء حيناً ، ثم توثبوا به وعقدوا على أنفسهم للأمير أبي عنان ، وقادوا
عاملهم إليه . وتولى كبر الثورة فيهم زعيمهم الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن
رافع من بيت أبي الشريف من آل الحسين^(٢) ، كانوا انتقلوا إليها من صقلية ،
واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب ، واجتمع إليه قومه من بني مرين للأمر ،
وأقام مع السلطان بتونس وفاءً بحقه ، وحصن جناح أبيه عن الكرة على الكعوب
الناكثين لعهدده ، الناكبين عن طاعته ، فأقام بتونس يرجو الأيام ، ويؤمل الكرة .
والأطراف تنتفض والخوارج تتجدد إلى أن ارتحل إلى المغرب بعد اليأس ، كما نذكره
إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : يمكنه منهم .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة أخرى : آل الحسن .

الخبر عن انتفاض النواحي وانتزاع بني عبد الواد بتلمسان ومغراوة بشلف وتوجين بالمرية

لما كانت نكبة السلطان بالقيروان وانتثر ملك زناته ، وانتقضت قواعد سلطانهم ، اجتمع كل قوم منهم لابرام أمرهم والنظر في شأن جماعتهم ، وكانوا جميعاً نزعوا إلى الكعوب الخارجين على السلطان ، وبنزوعهم تمت الدبرة عليه . ولحقوا بتونس مع الحاجب أبي محمد بن تافراكين ليلحقوا منها بأعمالهم . وكان في جملة السلطان جماعة من أعيانهم منهم عثمان وإخوته الزعيم ويوسف وإبراهيم أبناء عبد الرحمن بن يحيى ابن يغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد ، صار في إيالة السلطان منذ فتح تلمسان وإنزالهم بالجزيرة للرباط . ثم رجعوا بعد استثثار الطاغية بها من مكانهم من دولته ، وساروا إلى القيروان تحت لوائه ومنهم علي بن راشد بن محمد بن منديل . وقد ذكرنا أخبار أبيه وأنه ربي في إيالة السلطان وجو الدولة يتيماً ، وكفلته نعمتها منذ نشأته حتى كأنه لا يعرف سواها ، فاجتمع بنو عبد الواد بتونس وعقدوا على أنفسهم لعثمان ابن عبد الرحمن لما كان كبير إخوته ، وأتوه ببيعتهم شرقي المصلى العتيق المطل على سيجوم من ساحة البلد ، لعهد بهم يومئذ . وقد وضعوا له درقة بالأرض من اللمط أجلسوه عليها ، ثم ازدحموا مكبين على يده يقبلونها للبيعة . ثم اجتمع من بعدهم مغراوة إلى علي بن راشد وبايعوه وحفوا به . وتعاهد بنو عبد الواد ومغراوة على الألفة وانتظام الكلمة وهدر الدماء . وارتحلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط ، فنزل علي بن راشد قومه بموضع عملهم من ضواحي شلف ، وتغلبوا على أمصاره وافتتحوا تدلس^(١) وأخرجوا منها أولياء السلطان وعسكره ، وقتلوا القاضي بهازونة سرحان ، كان مقيماً بها لدعوة السلطان ، ثم سولت له نفسه التوثب والانتزاع ، فدعا لنفسه ، وقتله علي بن راشد وقومه .

وأجاز عبد الرحمن وقومه من بني عبد الواد إلى محل ملكهم بتلمسان ، فألفوا عثمان ابن جرار قد انترى بها بعد منصرف الأمير أبي عنان ودعا لنفسه ، فتجهّم له الناس لتوثبه على المنصب الذي ليس لأبيه ، واستمسك بالبلد أياماً يؤمل نزوع قومه إليه . ثم

(١) وفي نسخة ثانية : تنس

زحف إليه بنو عبد الواد وسلطانهم فصدقوه الزحف ، وثارَت به الغوغاء ، وكسروا أبواب البلد ، وخرجوا إلى السلطان فأدخلوه القصر ، واحتلَّ به في جمادى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وتسابق الناس إلى مجلسه مثنى وفرادى ، وبايعوه البيعة العامة . ثم تفقد ابن جرار ، ثم أغرى به البحث ، فعثر عليه ببعض زوايا القصر ، واحتمل إلى المطبق فأودع به إلى أن سرب إليه الماء فمات غريقاً في هوته . وساهم السلطان أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت الزعيم في سلطانه ، وأشركه في أمره ، وأردفه في ملكه ، وجعل إليه أمر الحرب والضواحي والبدوكلها . واستوزر قريبه يحيى بن داود بن مكن ، من ولد محمد بن يندوكس بن طاع الله ، واستوسق ملكهم ، وأوفدوا مشيختهم على الأمير أبي عنان صاحب المغرب ، وسلطان بني مرين ، فعقدوا معه السلم والمهادنة ، واشترطوا له عن أنفسهم دفاع السلطان إليه . وزحفوا إلى وهْران من ثغور أعمالهم ، ونازلوا بها أولياء السلطان وعساكره ، وعاملها يومئذ عبد الله بن أجانا^(١) من صنائع السلطان أبي الحسن إلى أن غلبوه عليها ، واستزلوه صلحاً لأشهر من حصارها .

واستمسك أهل الجزائر بطاعة السلطان ، واعتصموا بها ، وعقد عليها لقائده محمد ابن يحيى بن العسكري^(٢) من صنائع أبيه ، بعثه إليهم من تونس بعد نكبة القيروان . ونجم بالمدينة علي^(٣) بن يوسف بن زيّان بن محمد بن عبد القوي داعياً لنفسه ، وطالباً سلطان سلفه ، وامتنع عليه معقل ملكهم بجبل وانشريش لمكان ولد عمر بن عثمان وقومهم من بني تيغرين في رياسته ، وانحاش إليه أولاد عزيز من بني توجين أهل ضاحية المدينة فقاموا بأمره ، واعصوبوا عليه ، وكانت بينه وبين أبناء عمر بن عثمان بوانشريش حرب سجال إلى أن هلك ، وخلص أمر بني توجين لابناء عمر بن عثمان ، وهم على مذهبهم من طاعة السلطان وتمسكهم بدعوته ، وهو مقيم خلال هذا بتونس إلى أن أزمع الرحلة ، واحتل بالجزائر كما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : عبّو بن جانا .

(٢) وفي نسخة ثانية : محمد بن يحيى العشري .

(٣) وفي نسخة ثانية : عدي .

* (الخبر عن رجوع الثغور الغربية لأمرأء الموحدين
ببجاية وقسنطينة) *

لما توثب الأمير أبو عنان على ملك أبيه وبويج بتلمسان ، وكانت للأمير أبي عبدالله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية لديه خلة ومصافاة ، من لدن بعثه إليه السلطان أبوه من بجاية . وأنزله بتلمسان فدعا له السابقة وآثره بالإمارة ، وعقد له على محل إمارته من بجاية ، وأمدّه بما يرضيه من المال والسلاح . ودفعه إليها ليكون حجراً دون السلطان بتونس ، وضمن له هذا الأمير صدّه عن الخلوص إليه ، وسدّ المذاهب دونه . وأوعز أبو عنان إلى أساطيله بوهران ، فركبها الأمير إلى تدلس ودخلها . ونزل إليه صنهاجة أهل ضاحية بجاية ، عن عمّه الأمير أبي العباس الفضل . واعصوبوا عليه ، وقاموا بأمره لتقديم نعمته وسالف إمارة أبيه . ولما ارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب ، رحل في جملة الأمير أبو زيد عبد الرحمن ابن الأمير أبي عبدالله صاحب قسنطينة ومعه إخوته ، فاخصّصهم يومئذ بتغريبه وخلطهم بنفسه . فلما غلب الأمير أبو عنان منصور ابن أخيه أبي مالك على البلد الجديد ، واستولى على المغرب . رأى أن يبعث ملوك الموحدين إلى بلادهم ، ويدفع في صدر أبيه بمكانهم . فسرح الأمير أبا زيد وإخوته ، وكان منهم السلطان أبو العباس الذي جبر الله به الصدع . ونظم الشمل ، فوصلوا إلى موطن ملكهم ومحل إمارتهم . وكان مولاهم نبيل حاجب أبيهم قد تقدّم إلى بجاية ، ولحق بالأمير أبي عبدالله من حصارها . ثم تقدّم إلى قسنطينة وبها مولى من موالي السلطان المتغلب عليها ، وهو الأمير أبو العباس الفضل . فلحين إطلاله على جهاتها وشعور أهلها بمكانه . لفتحت منهم عزائر المودة . وذكروا جميع الإيالة . وأجمعوا التوثب بوالهم . واحتلّ نبيل بظاهر قسنطينة . فشرهت العامة إلى إمارته . والقيام بدعوة مواليه . وتوثب أشياعهم على أولياء عمّهم . فأخرجوهم . واستولى القائد نبيل على قسنطينة وأعمالها ، وأقام دعوة الأمير أبي زيد وإخوته كما كانت أول مرة بها : وجاؤا من المغرب إلى مراكز إمارتهم . ودعوتهم بها قائمة . ورايتهم على أنحائها خافقة . فاحتلوا بها حلول الآساد

بعرانينها^(١) والكواكب بأفاقها ، ونهض الأمير أبو عبدالله محمد فيمن اجتمع إليه من البطانة والأولياء ، إلى محاصرة بلد بجاية ، فأحجر عمه بالبلد ، وأخذ بمخنتها أياماً ، ثم أفرج عنها ، ثم رجع إلى مكانه من حصارها . ودس إليه بعض أشياعه بالبلد ، وسرّب إليه المال في الغوغاء ، فواعدوه فتح أبواب الربض في إحدى ليالي رمضان سنة تسع وأربعين وسبعائة واقتحم البلد وملاء الفضاء بهدير طبوله ، فهبّ الناس من مراقدهم فزعين وقد ولج الأمير وقومه البلد . ونجا الأمير الفضل إلى شعاب الجبل وكواريه المطلّ على القصبية راجلاً حافياً ، فاختمى به إلى أن عثر عليه ضحى النهار ، وسيق إلى ابن أخيه ، فحنّ عليه وأركبه السفين إلى محل إمارته من بونة . وخلص ملك بجاية للأمير أبي عبدالله هذا واقتعد سرير آبائه بها ، وكتبوا للأمير أبي عنان بالفتح ، وتجديد المخالصة والموالاتة ، والعمل عن مدافعة أبيه من جهاته ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان ووليه عريف بن يحيى من تونس الى المغرب الأوسط

لما بلغ السلطان خبر ما وقع بالمغرب من انتقاض أطرافه ، وتغلّب الأعياص من قومه وسواهم على أعماله ، ووصل إليه يعقوب بن علي أمير الزواودة بولده وعماله ووفده ، نظر في تلافي أمره بتسريح ولده الناصر إلى المغرب الأوسط لارتجاع ملكه ، ومحو آثار الخوارج من أعمالهم . فنهض مع يعقوب بن علي وأصحابه وليه عريف بن يحيى أمير زغبة ليستظهر به على ملك المغرب ، وقدمها طليعة بين يديه ، وسار الناصر إلى بسكرة ، واضطرب معسكره بها ، ثم فصل من بلاد رياح إلى بلاد زغبة ، واجتمع إليه أوليائهم من العرب ومن زناتة من بني توجين أهل وانشريش وغيرهم . وزحف إليهم الزعيم أبو ثابت من تلمسان في قومه من بني عبد الواد وغيرهم للمدافعة . والتقى الجمعان بوادي وركّ فانفضت جموع الناصر وانذعروا ، ورجع على عقبه إلى بسكرة وخلص عريف بن يحيى إلى قومه سويد ، ثم قطع القفر إلى المغرب الأقصى . ولحق

(١) العرائن ج عرنين وهو السيد الشريف والصحيح ان يقول عرائنها : جمع عرين وهو مأوى الاسد (قاموس)

بالأمير أبي عنان فتزل منه بالطف محل ، ورجع الناصر إلى بسكرة ، وارتحل مع أوليائهم أولاد مهلهل لمدافعة أولاد أبي الليل وسلطانهم المولى الفضل عن تونس كما ذكرناه . وأحسوا به ، فنهض إليهم ، وفرّوا أمامه ، إلى أن خلاص الناصر إلى بسكرة ثانية ، واتخذها مثوى إلى أن لحق بأبيه بالجزائر عند رحلته من تونس إليها كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن إلى المغرب وتغلب المولى الفضل على تونس وما دعا إلى ذلك من الأحوال

لما خلاص المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى من نكبة بجاية ، وامتن عليه ابن أخيه ، فلاحق بمحل إمارته من بونة . ووافته بها مشيخة أولاد أبي الليل ، أوفدهم عليه بنو حمزة بن عمر يستحثونه لملك أفريقية ، يرغبونه فيه ، فأجاب داعيتهم ونهض إليهم بعد قضاء نسك الفطر من سنة تسع وأربعين ، ونزل محلهم وأوجفوا بخيلهم وركابهم على ضواحي أفريقية ، وجبوا ، وصمدوا إلى تونس فنازلوها وأخذوا بمخنقتها أياماً ، ثم أخذ بحجزتهم عنها شيعة السلطان وأولياؤه من أولاد مهلهل وابنه الناصر عند قفوله من المغرب الأوسط مفلولاً فرحلوهم وشرّدوهم . ثم رجعوا إلى مكانهم من حصارها ، ثم انفضوا عنها . وتخيّر خالد بن حمزة إلى شيعة السلطان أبي الحسن مع أولاد مهلهل وقومه ، فاعتزوا به وذهب عمر بن حمزة إلى المشرق لقضاء فرضه ، وأجفل أبو الليل أخوه مع المولى الفضل إلى القفر حتى كان من دخول أهل الجريد في طاعته ما نذكره إن شاء الله تعالى . وكان السلطان لما خلاص من القيروان إلى تونس ، وفد إليه أحمد بن مكّي مهنياً ومفاوضاً في شأن الثغر وما مني به من انتقاض الأطراف وفساد الرعية . وتدارك السلطان أمره عند فواته بالتولية على أهل القطر من جنسهم استئلاً للكافة . واستبقاءً لطاعتهم . فعقد على عمل قابس وجربة والحامة^(١) ، وما إليها لعبد الواحد ابن السلطان زكريا بن أحمد اللحياني ، وأنفذه مع أحمد بن مكّي إلى عمله ، فهلك بجربة لليال من مقدمه في الطاعون

(١) وفي نسخة أخرى : الحمة وهي أصح ، وهي مدينة بافريقية من عمل قسطنطينية من نواحي بلاد الجريد (معجم البلدان) .

الحارث عامث .

وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر ونفطة وسائر بلاد الجريد ، بعد أن كان استخلصه بعد مفرّ أبي محمد بن تافراكين قريعه ، وما أضمر^(١) من سوء دخلته ، فنزل بتوزر وجمع أهل الجريد على الولاية والمخالصة ، ولما نازل المولى أبو العباس الفضل تونس مرتين ، وشرد أولاد مهلهل وامتنعت عليه ، عمد إلى الجريد سنة خمس وأربعين وسبعمائة يحاول فيه ملكاً ، وخطب أبا القاسم بن عتو يذكره عهده وعهد سلفه وحقوقهم ، فتذكر وحنّ ، ونظر إلى ما ناله به السلطان من المثلة في أطرافه . واستثار كما من حقه ، فأنحرف وحمل الناس على طاعة المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، فسارعوا إلى الإجابة وبايعه أهل توزر وقفصة ونفطة والحامة ، ثم دعا ابن مكين إلى طاعته فأجاب إليها وبايعه أهل قابس وجربة أيضاً . وانتهى الخبر إلى السلطان باستيلاء المولى الفضل على أمصار أفريقية ، وأنه ناهض إلى تونس ، فأهمّه الشأن وخشي على أمره ، وكانت بطانته يوسوسون إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه ، فأجابهم إليها وشحن أساطيله بالأقوات ، وأزاح علل المسافرين . ولما قضى منسك الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر أيام استفحال فصل الشتاء ، وعقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين أولاد حمزة من الصهر ، وتفادياً بمكانه من معرة الغوغاء وثورتهم . وأقلع من مرسى تونس ، ولخمس دخل مرسى بجاية ، وقد احتاجوا إلى الماء فمنعهم صاحب بجاية من الورود ، وأوعز إلى سائر سواحلهم بمنعهم ، فزحفوا إلى الساحل وقاتلوا من صدّهم عن الماء إلى أن غلبوهم واستقوا وأقلعوا ، وعصفت بهم الرياح ليلتئذ وجاءهم الموج من كل مكان ، وألقاهم اليمّ بالساحل بعد أن تكسرت الأجفان ، وغرق الكثير من بطانته وعامة الناس ، وقذف الموج بالسلطان فألقاه إلى الجزيرة قرب الساحل من بلاد زواوة مع بعض حشمه عراة ، فكثوا ليلتهم وصبحهم جفن من الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف ، فقرّبوا إليه حين رأوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا إليه فاخطفه أولياؤه من أهل الجفن قبل أن يصل إليه البربر ،

(١) وفي نسخة أخرى : وما ظهر .

وقذفوا به إلى الجزائر فنزل بها ، ولأم صدعه . وخلع على من وصل من فلّ الأساطيل
ومن خرج إليه من أوليائه ، ولحق به ابنه الناصر من بسكرة ، واتصل بالمولى الفضل
خبر رحيله من تونس وهو ببلاد الجريد ، فأغذ السير إلى تونس ، ونزل بها على ابنه
ومن كان بها من مخلف أوليائه ، فغلبوهم عليها . واتصل أهل البلد بهم وأحاطوا يوم
منى بالقصبة . واستنزلوا ابن السلطان أبا الفضل الأمير بالقصبة على الأمان ، فخرج
إلى بيت أبي الليل بن حمزة ، وأنفذ معه من أبلغه إلى مأمنه ، فلحق بأبيه بالجزائر
وبادر إلى السلطان عليّ بن يوسف المنتزى بالمدينة من بني عبد القوي ، فصار في
جملته ، وخرج له عن الأمر ، وزعم أنه إنما كان قائماً بدعوته ، فتقبل منه وأقره على
عمله .

ووفد عليه أولياؤه من العرب سويد والحريث والحصين ومن إليهم ممن اجتمع إلى وليه
ونزمار بن عريف المتمسك بطاعته . ووفد عليه أيضاً علي بن راشد أمير مغراوة ،
وأغراه بني عبد الواد^(١) ، واشترط عليه إقراره بوطنه وعمله إذا تم أمره ، فأبى من
قبول الاشتراط ظناً بعهدده عن النكت ، فترع عنه وصار إلى مظاهرة بني عبد الواد
عليه . وبعث أبو سعيد عثمان صاحب تلمسان إلى الأمير أبي عنان في المدد ، فبعث
إليه بعسكر من بني مرين عقد عليهم ليحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي من
تيريفغن ، وزحف الزعيم أبو ثابت إلى حرب السلطان أبي الحسن فيمن اجتمع له من
عسكر بني مرين ومغراوة . وخرج السلطان من الجزائر وعسكر بمتيجة ، واحتشد
ونزمار سائر العرب بحلهم ، ووافاه بهم ، وارتحلوا إلى شلف ، ولما التقى الجمعان
بشدبونة صدقه مغراوة الحملة وصابروهم ابنه الناصر وطعن في الجحولة فهلك واختل
مصاف السلطان واستبيح معسكره ، وانتهب فساطيطه ، وخلص مع وليه ونزمار بن
عريف وقومه بعد أن استبيحت حلهم ، فخرجوا إلى جبل وانشرش ، ثم لحقوا
بجبل راشد ، ورجع القوم عن اتباعهم ، وانكفؤا إلى الجزائر فتغلبوا عليها ،
وأخرجوا من كان بها من أولياء السلطان ومحو آثار دعوته من المغرب الأوسط جملة .
والأمر بيد الله يؤتية من يشاء .

(١) وفي نسخة ثانية : وأغراه ببني عبد الواد .

الخبر عن استيلاء السلطان على سجلماسة ثم فراره عنها امام ابنه
إلى مراکش واستيلائه عليها وما تحلل ذلك

لما انقضت جموع السلطان بشدبونة وقلّ عساكره ، وهلك الناصر ابنه ، خلص إلى
الصحراء مع وليّه ونزمار ولحق بحلل قومه سويد وأوطانهم قبله جبل وانشريش ،
وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزّه ودار ملكه . وارتحل معه وليّه
ونزمار بالنازعة^(١) من قومه ، وخرجوا إلى جبل راشد . ثم أبعدوا المذاهب وقطعوا
المفاوز إلى سجلماسة في القفر . فلما أطلوا عليها وعان أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت
الفراش ، وخرج إليه العذارى من وراء ستورهنّ صاغية إليه ، وإيثاراً لإياله . وفرّ
العامل بسجلماسة إلى منجاته . وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد سجلماسة ،
ارتحل إليها في قومه وكافة عساكره بعد أن أزاح عنهم وأفاض عطاءه فيهم ، وكان
بني مرين نفرة عن السلطان وحذر من غائلته لجنايتهم بالتخاذل في المواقف ، والفرار
عنه في الشدائد ، ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهالك ، فكانوا لذلك
مجمعين على منابذته ، ومخلصين في مناصحة ابنه منازعة ، فما لبث السلطان أن جاءه
الخبر بوصولهم إليه في العساكر الضخمة ، مغذّين السير إلى دفاعه ، وعلم من حاله
أنه لا يطيق دفاعهم ، وأجفل عنه ونزمار وليّه في قومه سويد . وكان من خبره أن
عريف بن يحيى كان نزع إلى الأمير أبي عنان وأحلّه بمحلة المعهود من تشريفهم
وولايته ، حتى إذا بلغه الخبر بمناصحة ونزمار للسلطان ومظاهرتة وقصده المغرب
معه بناجعتة ، زوى عنه وجه رضاه بعض الشيء ، وأقسم له لئن لم تفارق السلطان
لأوقعن بك وبابنك عشر^(٢) وكان معه في جملة الأمير أبي عنان ، وأمره بأن يكتب
له بذلك ، فأثر ونزمار رضى أبيه . وعلم أنّ غناءه عن السلطان في وطن المغرب
قليل ، فأجفل عنه ولحق بالزاب وانتبذ عن قومه ، وألقى عصاه بسكرة ، فكان
ثواؤه بها إلى أن لحق بالأمير أبي عنان على ما نذكره .

ولما أجفل السلطان عن سجلماسة ، دخل الأمير أبو عنان إليها وثقف أطرافها وسدّ

(١) وفي نسخة ثانية : بالناجعة .

(٢) وفي نسخة ثانية : عنتر

فروجها ، وعقد عليها ليحياتن بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن ، وبلغه قصد السلطان إلى مراکش ، فاعتزم على الرحلة إليها وأبى عليه قومه ، فرجع بهم إلى فاس إلى أن كان من خبرهم مع السلطان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن استيلاء السلطان على مراکش ثم انهزامه أمام الأمير
أبي عنان ومهلكه بجبل هنتاة عفا الله عنه

لما أجفل السلطان عن سجالسة سنة إحدى وخمسين وسبعائة بين يدي الأمير أبي عنان وعسكر بني مرين ، قصد مراکش ، وركب إليها الأوعار من جبال المصامدة . ولما شارفها تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ، ونسلوا من كل حذب . ولحق عامل مراکش بالأمير أبي عنان ونزع إلى السلطان صاحب ديوان الجباية أبو محمد^(١) بن محمد بن أبي مدين بما كان في المودع من مال الجباية ، فاخصه واستكتبه وجعل إليه علامته ، واستركب واستلحق وجبى الأموال ، وبث العطاء ، ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة . وثاب له بمراكش ملك أمل معه أن يستولي على سلطانه ، ويرتجع فارط أمره من يد مبتره . وكان الأمير أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها ، وشرع في العطاء وإزاحة العلل ، وتقبض على كاتب الجباية يحيى بن حمزة بن شعيب بن محمد بن أبي مدين ، اتهمه بمالأة بني مرين في الإمالة عليه عن اللحاق بمراكش من سجالسة . وأثار حقه في ذلك ما كان من نزوع عمه أبي المجد إلى السلطان بأموال الجباية ، ووسوس إليه في السعاية به كاتبه وخالسته أبو عبدالله محمد بن أبي محمد بن أبي عمر^(٢) لما بينها من المنافسة ، فتقبض عليه وامتنحه ، ثم قطع لسانه وهلك في ذلك الامتحان ، وارتحل الأمير أبو عنان وجموع بني مرين إلى مراکش ، وبرز السلطان إلى لقائهم ومدافعتهم ، وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم ربيع ، وتربص كل بصاحبه إجازة الوادي . ثم أجازه السلطان أبو الحسن وأصبحوا جميعاً في التعية ،

(١) وفي نسخة ثانية : ابو المجد .

(٢) وفي نسخة ثانية : ابو عبدالله محمد بن محمد بن أبي عمرو .

والتقى الجمعان بامرغوست^(١) في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وسبعمئة فاقتتل مصاف السلطان وانهزم عسكره ، ولحق به أبطال بني مرين فرجعوا عنه حياءً وهيبةً . وكبا به فرسه يومئذ في مفره ، فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله . واعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الزواودة ، ورديف أخيه يعقوب ، كان هاجر مع السلطان من الجزائر ، ولم يزل في جملة إلى يومئذ . فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه رداءً له . وتقبض على حاجبه علال بن محمد ، فصار في يد الأمير أبي عنان وأودعه السجن إلى أن امتن عليه بعد مهلك أبيه .

وخلص السلطان إلى جبل هنتاة ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي ، فقتل عليه وأجاره واجتمع إليه الملائم من قومه هنتاة ومن انضاف إليهم من المصامدة ، وتدامروا وتعاهدوا على الدفاع عنه ، وباعوه على الموت ، وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش ، وأنزل عساكره على جبل هنتاة ، ورتب المسالح لحصاره وحربه ، وطال عليه ثواؤه ، وطلب السلطان من ابنه الإبقاء ، وبعث في حاجبه محمد بن أبي عمر فحضر عنده ، وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان والتمس له الرضى منه ، فرضي عنه ، وكتب له بولاية عهده . وأوعز إليه بأن يبعث له مالا وكسى ، فسرح الحاجب ابن أبي عمر باخراجها من المودع بدار ملكهم ، واعتل السلطان خلال ذلك ، ففرضه أولياؤه وخاصته ، وافتصد لإخراج الدم ، ثم باشر الماء لفصده للطهارة ، فورم وهلك ليلال قريبة عفا الله عنه ، لثلاث وعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعمئة وبعث أولياؤه الخبر إلى ابنه بمعسكره من ساحة مراكش ، ورفعوه على أعواده إليه فتلقاها حافياً حاسراً ، وقبل أعواده وبكى ، واسترجع ورضي عن أولياؤه وخاصته ، وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته ، ووارى أباه بمراكش إلى أن نقله إلى مقبرة سلفهم بشالة في طريقه إلى فاس وتلقى أبا دينار ابن علي بن أحمد بالقبول والكرامة ، وأحلّه محل الرحب والسعة ، وأسنى جائزته ، ونخلع عليه وحمّله . وانصرف من فاس إلى قومه يستحثهم للقاء السلطان أبي عنان بتلمسان لما كان أجمع على الحركة إليها بعد مهلك أبيه ، ورعى لعبد العزيز بن محمد أمير هنتاة إجارته للسلطان واستماتته دونه ، فعقد له على قومه وأحلّه بالمحل الرفيع من دولته ومجلسه ، واستبلغ في تكريمه ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية . تامدغوست .

الخبر عن حركة السلطان أبي عنان إلى تلمسان وإيقاعه بيني عبد الواد بانكاد ومهلك سلطانهم سعيد

لما هلك السلطان أبو الحسن وانقضى شأن الحصار ارتحل السلطان أبو عنان إلى فاس ونقل شلو أبيه إلى مقبرتهم بشالة فدفنه مع من هنالك من سلفه . وأغذ السير إلى فاس وقد استبد بالأمر ، وختت الدولة عن المنازع ، فاحتل بفاس وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه . ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء وأزاح العلل ، وعسكر بساحة البلد الحديد ، واعترض العساكر وارتحل يريد تلمسان ، واتصل الخبر بأبي سعيد وأخيه ، فجمعوا قومهم ومن إليهم من الأشياع والأحزاب من زناتة والعرب ، وارتحلوا إلى لقائه ، ونزل السلطان بعساكره وادي ملوية ، وتلوم به أياماً لا اعتراض الحشود والعرب . ثم رحل على التعبية حتى اذا احتل ببسيط أنكاد وتراءى الجمعان ، انفضّ سرعان المعسكر ولحقوا بالعرب^(١) وركب السلطان في التعبية وخاض بحر القتال ، وقد أظلم الجوّ به حتى اذا خلص إليهم من غمره ، وخالطهم في صفوفهم ، ولوا الأدبار ، ومنحوهم الأكتاف ، واتبع بنو مريم آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوه واستباحوهم قتلاً وسبياً ، وصفدوهم أسرى ، وغشيم الليل وهم متسايلون في أثرهم ، وتقبّض على أبي سعيد سلطانهم ، فسيق إلى السلطان فأمر باعتقاله ، وأطلق أيدي بني مريم من الغد على حلل العرب من المعقل ، فاستباحوهم واكتسحوا أموالهم جزاءً بما شرهوا إليه من النهب في المحلّة في هيئة ذلك المجال . ثم ارتحل على تعبيته إلى تلمسان فاحتلّ بها لربيع من سنته ، واستوت في ملكها قدمه ، وأحضر أبا سعيد فقرّعه ووبّخه وأراه أعماله حسرة عليها ، وأحضر الفقهاء وأرباب الفتيا ، فأفتوا بحرابته وقتله . فأمضى حكم الله فيه ، فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله ، وجعله مثلاً للآخرين . وخلص أخوه الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق ، فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : بالمغرب .

الخبر عن شأن أبي ثابت وإيقاع بني مرين به بوادي شلف وتقبض الموحدين عليه بجاية

لما أوقع السلطان ببني عبد الواد بأنكاد ، وتقبض على أبي سعيد سلطانهم ، خلص أبو ثابت أخوه في فلّ منهم ، ومرّ بتلمسان ، فاحتمل حرمهم ومخلفهم ، وأجفل إلى الشرق ، فاحتل بشلف من بلاد مغراوة وعسكر هنالك . واجتمع إليه أوشاب من زناتة ، وحدث نفسه باللقاء ، ووعدّها بالصبر والثبات ، وسرح السلطان وزيره فارس بن ميمون بن ودرار في عساكر بني مرين والجند ، فأخذ السير إليهم وارتحل من تلمسان على أثره ، ولما تراءى الجمعان صدق الفريقان المحاولة ، وخاضوا النهر بالقراع . ثم صدق بنو مرين الحملة واجتازوا النهر إليهم ، فانكشفوا واتبعوا آثارهم واستلحموهم ، واستباحوا معسكرهم واستاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم ، وارتحلوا في اتباعهم ، وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان ، ومرّ أبو ثابت بالجزائر طارقاً ، وأجاز إلى قاصية المشرق ، فاعترضهم قبائل زواوة وأرجلوهم عن خيلهم ، وانتهبوا أسلابهم ، ومرّوا حفاة عراة ، واحتل الوزير بالجزائر ، واستولى عليها واقتضى بيعة السلطان منهم فآتوها ، واحتل الوزير بالمدينة وأوعز إلى أمير بجاية المولى أبي عبدالله حافد مولانا الأمير أبي يحيى مع وليّه ونزمار وخالسته يعقوب بن علي بالتقبض على أبي ثابت وأشياعه فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمرصاد ، وعثر بعض الحشم على أبي ثابت وأبي زيّان ابن أخيه أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود ، فرفعوهم إلى الأمير ببجاية ، فاعتقلهم وارتحل للقاء السلطان بالمدينة وبعثهم مع مقدّمته ، وجاء على أثرهم ونزل على السلطان بمعسكره من المدينة خير نزل ، بعد أن تلقاه بالمبرّة والاحتفاء ، وركب للقاءه ، ونزل عن فرسه للسلطان ، فنزل السلطان برّاً له ، وأودع أبا ثابت السجن . وتوافت إليه وفود الزواودة بمكانه من المدينة ، فأكرم وفدهم وأسنى أعطياتهم من الخلع والحملان والذهب ، وانقلبوا خير منقلب ، ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل الزاب ووفدهم ، فأكرمهم ووصلهم . وفرغ السلطان من شأن المغرب الأوسط ، وبثّ العمّال في نواحيه ، وثقف أطرافه ، وسما إلى ملك أفريقية كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن تملك السلطان أبي عنان بجاية وانتقال صاحبها
الى المغرب) *

لما وصل السلطان أبو عبدالله محمد ابن الأمير أبي زكريا يحيى صاحب بجاية إلى السلطان بمكانه من المدينة في شعبان من سنته ، وأقبل السلطان عليه ، وبوّأه كنف ترحيبه وكرامته ، خلص الأمير به نجياً ، وشكا إليه ما يلقاه من أهل عمله من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد ، وما يتبع ذلك من زبون الحامية واستبداد البطانة . وكان السلطان متشوقاً لمثلها ، فأشار عليه بالتزول عنها ، وأن يديله عنها بما شاء من بلاده ، فسارع إلى قبول إشارته ، ودس إليه مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يشهد بذلك على رؤوس الملاء ، ففعل ، ونقم عليه بطانته ذلك ، وفر بعضهم من معسكره ، فلحق بافريقية ، ومنهم علي ابن القائد محمد بن الحكيم . وأمره السلطان أن يكتب بخطه إلى عامله على البلد بالتزول عنها وتمكين عمال السلطان منها ففعل وعقد السلطان عليها لعمر بن علي الوطاسي من أولاد الوزير الذي ذكرنا خبر انتزاعهم بتازوفا من قبل ، ولما قضى السلطان حاجته من المغرب الأوسط واستولى على بجاية ، انكفاً راجعاً إلى تلمسان لشهود الفطر بها ، ودخلها في يوم مشهود ، وحمل أبا ثابت ووزيره يحيى بن داود على جملين يخطوان بهما في ذلك المحفل بين السماطين ، فكانا عبرة لمن حضر وسيقا من الغد إلى مصارعهما ، فقتلا قعصاً بالرماح ، وأنزل السلطان المولى الأمير أبا عبدالله صاحب بجاية خير نزل ، وفرش له في مجلسه تكريمة له إلى أن كان من توثب صنهاجة وأهل بجاية بعمر بن علي ما نحن ذاكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن ثورة أهل بجاية ونهوض الحاجب اليها
في العساكر) *

كان صنهاجة هؤلاء من أعقاب ملكانة^(١) ملوك القلعة وبجاية ، نزل أولوهم بوادي

(١) وفي نسخة ثانية : تكلاته .

بجاية بين القبائل من برابرتها الكتامين في مواطن بني وريا كل منذ أول دولة
الموحدين ، وأقطعوهم على العسكرة معهم ، ولما ضعفت جنود الموحدين وقلّ
عددهم انفردوا بالعسكرة مع السلطان ، وصار لهم بذلك اعتزاز وزبون على الدولة .
وكان الأمير أبو عبد الله هذا قد أصاب منهم لأوّل أمره ، وقتل محمد بن تميم من أكابر
مشيختهم ، وكان صاحبه فارح مولى ابن سيّد الناس عريفا عليه من عهد أبيه الأمير
أبي زكريا ، وكان مستبداً على المولى أبي عبد الله ، فلما نزل عن إمارته للسلطان أبي
عنان سخط ذلك ونقمه عليه ، وأسرها في نفسه ولم يبد لها لكماله ، وسرّحه أميره مع
عمر بن علي الوطاسي لينقل حرمه ومتاعه وماعون داره ، فوصل إليها وشكا إليه
الصنهاجيون مغبة أمرهم في ثقل الوطاة وسوء الملكة فأشكاهم ودعاهم إلى الثورة ببني
مرين ، والقيام بدعوة الموحدين للمولى أبي زيّان صاحب قسنطينة ، فأجابوه
وتواعدوا بالفتك بعمر بن علي بمجلسه من القصبة . وتولى كبرها منصور بن الحاج من
مشيختهم ، وباكره بداره على عادة الأمراء ، ولما أكبّ عليه ليثم أطرافه طعنه
بخنجره ، وفرّ إلى بيته جريماً فولحوا عليه واستلحموه . وثارت الغوغاء من أهل البلد
في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .

وركب الحاجب فارح وهتف الهاتف بدعوة المولى أبي زيد صاحب قسنطينة ، وطبروا
بالخبر واستدعوه ، فتناقل عن إجابتهم ، وبعث مولى ابن المعلوجي للقيام بأمرهم .
وبلغ الخبر إلى السلطان فاتهم المولى أبا عبد الله بمداخلة حاجبة ، فاعتقله بداره .
واعتقل وفداً من ملاء بجاية كان ببابه ، وثبت آراء المشيخة من أهل بجاية ، وتمشت
رجلاتهم وأولو الرأي والشورى منهم في الفتك بصنهاجة والعلاج ، وداخلهم القائد
هلال مولى ابن سيّد الناس من المعلوجي ، وعلي بن محمد بن أमित حاجب الأمير
أبي زكريا يحيى ، ومحمد ابن الحاجب أبي عبد الله بن سيّد الناس وتواعدوا للفتك
بفارح يوم وصول النائب من قبل صاحب قسنطينة ، فجهروا بالنكير على الحاجب ،
ودعوه إلى المسجد ليؤامروه . ونذر بأمرهم فاعتدّ دار شيخ الفتيا أحمد بن إدريس
فاقتحموا عليه الدار ، وباشره مولاة محمد بن سيّد الناس ، فطعنه وأشواه ، ورمي
بشلوه من سقف الدار ، وقطع رأسه ، فبعثوا به إلى السلطان ، وفرّ منصور بن الحاج
وقومه صنهاجة من البلد ، وكان بالمرسي أحمد بن سعيد القرموني من خاصّة
السلطان ، جاء في السفن لبعض حاجاته من تونس ، ووافى مرسي بجاية يومئذ فأنزله

واعصرو صبوا عليه ، وتنادوا بدعوة السلطان وطاعته ، فأشار عليهم أحمد القرموني أن يبعثوا إلى قائد تدلس من مشيخة بني مرين يحياتن^(١) بن عمر بن عبد المؤمن الونكاسي ، فاستدعوه ووصل إليهم في جملة^(٢) من العسكر ، وبعثوا بأخبارهم إلى السلطان وانتظروا . فلما بلغ الخبر إلى السلطان أمر حاجبه محمد بن أبي عمر بالهوض إلى بجاية ، فعسكر بساحة تلمسان . وانتقى له السلطان من قومه وجنوده خمسة آلاف فارس أزاح عنهم ، واستوفى أعطياتهم وسرحه فنهض من تلمسان بعد قضاء منسك الأضحى ، وأخذ السير إلى بجاية ، ولما نزل ببني حسن جمع له بمسكرهم من تيكلات ، وخرج إليه المشيخة والوزراء ، فتقبض على القائد هلال وأشخصه إلى السلطان ودخل البلد على التعبية ، واحتل بقصبتها لمحرم فاتح أربع وخمسين وسبعمئة وسكن الناس وخلع على المشيخة ، واختص علي بن ألميت^(٣) ومحمد بن سيد الناس ، واستظهر بهم على أمره ، وتقبض على جماعة من الغوغاء وعلى من تحت أيديهم ممن يتهم بالمداخلة في الثورة^(٤) يناهزون مائتين ، واعتقلهم وأركبهم السفن إلى المغرب ، فودع الناس وسكنوا وتوافت وفود الزواودة من كل جهة ، فأجزل صلاتهم واقتضى الطاعة منهم^(٥) . ووصل عامل الزاب يوسف ، وسد فوجه وارتحل إلى تلمسان أول جمادى لشهرين من مدخله ، وأخذ السير بمن معه من العرب والوفود ، وكنت يومئذ في جملتهم ، وقد خلع عليّ وحملني وأجزل صلتي ، وضرب لي الفساطيط ، فوفدت في ركابه ، وقدم تلمسان لأول جمادى الأخيرة ، فجلس السلطان للوفد واعترض ما جنب له من الجياد والهدية ، وكان يوماً مشهوداً . ثم أسنى السلطان جوائز الوفد ، واختص يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد من البر والصلة ، وخصوا بجاه من الكرامة ، وأمرهم في شأن أفريقية ومنازلة قسنطينة . ورجع معهم الحاجب ابن أبي عمر على كره منه لما نذره من أخباره ، وانصرفوا إلى مواطنهم لأول شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعمئة وانقلبت معه بعد

(١) وفي نسخة ثانية : يحيى .

(٢) وفي نسخة ثانية : في لمة .

(٣) وفي نسخة ثانية : المنت .

(٤) وفي نسخة ثانية : التوثب .

(٥) وفي نسخة ثانية : واقتضى على الطاعة رهنهم .

إسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان ، والوعد الحميل بتجديد ما إلى قوم
ببلده من الأقطاع والله أعلم .

الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو وما عقد له السلطان على ثغر بجاية وعلى منازلة قسنطينة ونهوضه لذلك

سلف هذا الرجل من أهل المهديّة من أجواد العرب من بني تميم بأفريقية ، وانتقل
جدّه عليّ إلى تونس باستدعاء السلطان المستنصر ، وكان فقيهاً عارفاً بالفتيا
والأحكام ، وقلّده القضاء بالحضرة واستعمله على كتب علامته في الرسائل والأوامر
الكبرى والصغرى ، فاضطلع بذلك ، وهلك على حالة من التجلّة والمنصب ، وقلّد
ابنه عبدالله من بعده العلامتين أيام أبي حفص عمر ابن الأمير أبي زكريا كما كان
لأبيه ، فاضطلع لذلك وكان أخوه أحمد بن علي مستنّاً^(١) وقوراً متحلاً للعلم .
ونشأ ابنه محمد وقرأ بتونس ، وتفقه على مشيختها . ولما التأت أمورهم وتلاشت
أحوالهم ، خرج محمد بن أحمد بن علي مبتغياً للرزق والمعاش ، وطوّحت
به الطوائح إلى بلد القلّ . وكان متحلاً للطلب^(٢) والكتابة ، فاستعمل شاهداً
بمرسى القلّ أيام رياسة الحاجب ابن أبي عمرو^(٣) ، وكانت له صحبة مع حسن بن
محمد السبتي المتحل بنسب الشرف . وكانا رفيقين في مطارح اغترابهما ، فسعى له في
مرافقة الشهرة ، فأسعفا واتصلا بابن أبي عمرو فحمد مذاهبيهما ، ولما نزع الشريف
عبد الوهاب زعيم تدلس إلى طاعة الموحّدين أيام التياث أبي حمّو بخروج محمد بن
يوسف عليه ، واعتلال الدولة ، ودخل في أمر ابن أبي عمرو وجملته ، فبعث محمد
ابن أبي عمرو هذا وصاحبه إلى تدلس ، واستعمل حسن الشريف في القضاء ،
ومحمد بن أبي عمرو في شهادة الديوان . فلما برئت الدولة من مرضها ، واستفحل أمر
أبي حمّو وتغلّب على تدلس ، وصار رئيس الفتيا من الإمام لاقتضاء طاعتها ،
وانفاذ أهلها على السلطان في الوفد ، واستقرّا بتلمسان يومئذ واستعملا في خطة

(١) وفي نسخة ثانية : مسمّاً ، واستعملت هنا بمعنى مُرضِعاً .

(٢) أي لطلب العلم . وريّاً تكون محرفة عن (الطب) .

(٣) وفي نسخة ثانية : الحاجب ابن عمر .

حصاء متعاقبين أيام بني عبد الواد وأيام السلطان أبي الحسن . وتعصّب علي بن أبي عمرو أيام قضائه جماعة من مشيخة البلد ، وسعوا به إلى السلطان أبي الحسن ، وتظلموا فأشكاهم على علم براءته ، واختصّه بتأديب ولده فارس هذا وتعليمه ، فأفرغ وسعه في ذلك وربّي ولده محمداً هذا الحاجب مع السلطان أبي غنان توأماً وخليلاً وألقى عليه محبته حتى إذا خلص له الملك رفع رتبة محمد بن أبي عمرو هذا ، ورقاه من منزلة إلى أخرى حتى إذا أربى به على سائر المراتب ، وجعل إليه العلامة والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر ألقاب دولته ، وخصوصيات داره ، فانصرفت إليه الوجوه ، ووقفت ببابه الأشراف من الأعياص والقبائل والشرفاء والعلماء ، وسرّب إليه العمّال أموال الجباية ترفلاً ، وطال أمره واستيلاؤه على السلطان ونفس عليه رجال الدولة ووزراؤها ما آتاه الله من الحظ ، حتى إذا خلا لهم وجه السلطان منه عند نهوضه إلى بجاية ، حامت أغراض السعاية على مكانه فقرطست وألقى السلطان أذنه إلى استماعها . فلما رجع من بجاية ، وكانت له الدالة على السلطان ، وجدّ عليه في قبول الألاقي . ولقيه مغاضباً فتنكّر له السلطان ، ثم تجنّى بطلب الغيبة عن الدولة ، ويعقد له على بجاية متوهماً أن السلطان ضنين به ، فبادر السلطان إلى إسعافه ، وبداله ما لم يحتسب من الأعراض عنه . ورجع إلى الرغبة في الإقالة فلم يسعف . وعقد له على حرب قسنطينة وحكّمه في المال والجيش ، وارتحل في شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعائة واحتل ببجاية آخرها وأشتى بها .

ونصب الموحدون تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المعتقل عندهم من لدن عهد المولى الفضل واعتقاله إيّاه ، فنصّبوه للأمر لتفريق كلمة بني مرين وجمعوا له الآلة والفساطيط ، وقام بأمره ميمون بن علي لمنافسته مع أخيه يعقوب ، وسمع بخبره يعقوب ، فأغذّ السير بحاله من بلاد الزاب ، وفرّق جمعهم وردّهم على أعقابهم ، وأحجزهم بالبلد . ولما انصرم الشتاء وقضى منسك الأضحى ، عسكر بساحة البلد ، واعترض العساكر وأزاح عنهم ، وفرّق أعطياتهم ، وارتحل إلى منازل قسنطينة ، واجتمع إليه الزواودة بحلهم ، وجمع المولى أبو زيد صاحب قسنطينة من كان على دعوته من أحياء بونة وميمون بن علي بن أحمد وشيعته من الزواودة ، وعقد عليهم لحاجبه نبيل وسرّحه للقاء ابن أبي عمرو وعساكره ، فأوقع بهم الحاجب

لجمادى من سنة خمس وخمسين وسبعائة واكتسح أموالهم ونازل قسنطينة حتى تفادوا منه بتمكينه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنسوب للأمر ، فاقتادوه إليه وأشخصه إلى أخيه السلطان . وأوفد المولى أبو زيد ابنه على السلطان أبي عنان ، فتقبل وفادته وشكر مراجعته ، وانكفاً الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية ، وأقام بها إلى أن هلك في المحرم سنة ست وخمسين وسبعائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد ، وتفجعوا لمهلكه ، وبعث السلطان دوابه لارتحال عياله وولده ، ونقل شلوه إلى مقبرة أبيه بتلمسان . وسرح ابنه أبا زيّان في عساكر بني مرين لمواراته بها . وعقد على بجاية لعبدالله بن علي بن سعيد وزيره ، فنهض إليها في شهر ربيع من سنة ست وخمسين وسبعائة واستقرّ بها وتقبل ما حمده الناس من مذاهب الحاجب وسيرته فيها على ما نذكره ، وجّهز العساكر إلى حصار قسنطينة إلى أن كان من فتحها ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى .

الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن بجبل السكسيوي ومكر عامل درعة به ومهلكه

كان السلطان أبو عنان بعد مهلك أبيه لحق به في جملة أخواه أبو الفضل محمد وأبو سالم ابراهيم ، وتدبر في ترشيحها وحذر عليها مغبته ، فأشخصها إلى الأندلس ، واستقرّ بها في إيالة أبي الحجّاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد . ثم ندم على ما أتاه من ذلك ، فلما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط ، ورأى أن قد استفحل أمره واعتزّ بسلطانه ، أوعز إلى أبي الحجّاج أن يشخصها إليه ليكون مقامها لديه أحوط للكلمة من أن يعتمد على تفريقها سمسرة الفتن . وخشي أبو الحجّاج عليها غائلته فأبى من إسلامها إليه ، وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته وجوار المسلمين المجاهدين ، فأحفظ السلطان كلمته ، وأوعز إلى حاجبه محمد بن أبي عمرو بأن يخاطبه في ذلك بالتوبيخ واللائمة ، فكتب له كتاباً قرّعه فيه وقفني عليه الحاجب ببجاية أيام كوني معه ، فقضيت عجباً من فصوله وأغراضه ، ولما قرأه أبو الحجّاج دسّ إلى كبيرهما أبي الفضل باللحاق بالطاغية ، وكانت بينهما ولاية ومخالصة منذ مهلك أبيه الهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعائة ، فترع إليه أبو

الفضل وأجاره ، وجهز به أسطولاً إلى مراسي المغرب . وأنزله بساحة السوس ، فلاحق بالسكسيوي عبدالله ودعا لنفسه . وبلغ الخبر إلى السلطان بين مقدم حاجبه ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة فجهّز عساكره إلى المغرب ، وعقد على حرب السكسيوي لوزيره فارس بن ميمون بن وردار وسرّحه إليه ، فنهض من تلمسان لربيع سنة أربع وخمسين وسبعمائة وأغذّ السير إلى السكسيوي ونزل بمخنقه ، وأحاط به ، واختطّ مدينة لمسكره وتجهّز كتائبه بسفح جبله ، سماها القاهرة . واستبدّ الحصار على السكسيوي وأرسل إلى الوزير في الرجوع إلى طاعته المعروفة ، وأن يبنذ العهد إلى أبي الفضل ، ففارقه وانتقل إلى جبال المصامدة . ودخل الوزير فارس إلى أرض السوس فدوّخ أقطارها ، ومهدّ الحال^(١) ، وسارت الألوية والجيوش في جهاته ، ورتّب المسالح في ثغوره وأمصاره مثل ايغري وفوريان وتارودانت ، وثقف أطرافه وسدّ فروجه . وسار أبو الفضل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى صناكة ، وألقى بنفسه على ابن حميدي منهم مما يلي بلاد درعة ، فأجاره وقام بأمره . ونازله عامل درعة يومئذ عبدالله بن مسلم الزردالي من مشيخة دولة بني عبد الواد ، كان اصطنعه السلطان أبو الحسن منذ تغلبه عليهم ، وفتحته لتلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاستقرّ في دولتهم ، ومن جملة صنائعهم ، فأخذ بمخنق ابن حميدي وأرهبه بوصول العساكر والوزراء إليه ، وداخله في التقبّض على أبي الفضل ، وأن يبذل له في ذلك ما أحبّ من المال ، فأجاب ولاطف عبدالله بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعدّه من نفسه الدخول في الأمر ، وطلب لقاءه ، فركب إليه أبو الفضل . ولما استمكن منه عبدالله بن مسلم تقبّض عليه ، ودفع لابن الحميدي ما اشترط له من المال ، وأشخصه معتقلاً إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعمائة فأودعه السجن ، وكتب بالفتح إلى القاصية . ثم قتله لليال من اعتقاله خنقاً بمحبسه . وانقضى أمر الخوارج ، وتمهدت الدولة إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : ومهدّ الخاء .

* (الخبر عن انتفاض عيسى بن الحسن بجبل
الفتح ومهلكه) *

كان عيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق هذا من مشيخة بني مرين ، وكان صاحب شورا هم لعهدده ، وقد كنا قصصنا من أخبار أبيه الحسن عند ذكر دولة أبي الربيع . وكان السلطان أبو الحسن قد عقد له على ثغور عمله بالاندلس ، وأنزله بجبل الفتح عندما أكمل بناءه وجعل إليه النظر في مسالح الثغور وتفريق العطاء على مسالحها ، فطال عهد ولايته ورسخ فيها قدمه ، وكان السلطان أبو الحسن يبعث عنه في الشورى متى عنت . وحضره عند سفره إلى افريقية وأشار عليه بالاقصاء عنها ، وأراه ان قبائل بني مرين لا تفي اعدادهم بمسالح الثغور إذا رتبت شرقاً وغرباً وعدوة البحر وأن افريقية تحتاج من ذلك إلى أوفر الأعداد وأشد الشوكة ، لتغلب العرب عليها ، وبعد عهدهم بالانقياد ، فأعرض السلطان عن نصيحته لما كان شره إلى تملكها ، وصرفه إلى مكان عمله بالثغور الأندلسية . ولما كانت نكبة القيروان وانترى الأبناء بفاس وتلمسان ، أجاز البحر لحسم الداء ونزل بغساسة ثم انتقل إلى وطنه بتازي وجمع قومه بني عسكر ، وألقى السلطان أبا عنان قد هزم عساكر ابن أخيه وأخذ بمخنقه ، فأجاب عليه وبيته بمعسكره من ساحة البلد الجديد وعقد السلطان أبو عنان على حربه لصنيعته سعيد بن موسى العجيسي ، وأنزله بثغر بلاد بني عسكر على وادي بوحلوا . وتوافقا كذلك أياماً حتى تغلب السلطان أبو عنان على البلد الجديد ، ثم أرسل عيسى بن الحسن في الرجوع إلى طاعته وأبطأ عنه صريح السلطان أبي الحسن بأفريقية فراجع واشترط عليه ، فتقبل وسار إليه فتلقاه السلطان وامتلاء سروراً بمقدمه ، وأنزله بصدوره^(١) وجعل الشورى إليه في مجلسه ، واستمرت على ذلك حاله .

ولما تمكنت حال ابن أبي عمرو بعد مهلك السلطان أبي الحسن انفراد بخلة السلطان ومناجاته ، وحجبه عن الخاصة والبطانة ، أحفظه ذلك ولم ييدها . واستأذن السلطان في الحج ، فأذن له وقضى فرضه ، ورجع إلى محله من بساط السلطان سنة

(١) وفي نسخة ثانية : وأنزله قصوره .

ست وخمسين وسبعمائة ولقي ابن أبي عمرو بجباية ، وتطارح عليه في ان يصلح حاله عند سلطانه ، فوعده في ذلك ، ولما وفد على السلطان وجده قد استبد في الشورى ، وتنكر للخاصة والجلساء ، فاستأذنه في الرجوع إلى محله من الثغر لإقامة رسم الجهاد فأذن له . وأجاز البحر إلى جبل الفتح من سنته ، وكان صاحب ديوان العطاء بالجبل يحيى الفرقاجي ، وكان مستظهماً على العمال ، وكان ابنه أبو يحيى قدم برم بمكانه . فلما وصل عيسى إلى الجبل اتبعه السلطان بأعطيات المسالحي مع مسعود بن كندوس^(١) من صنائع دولته ، فسرب الفرقاجي إلى الضرب على يده شأنه مع ابنه أيام مغيبه ، وأنف عيسى من ذلك فتقبض عليه ، وأودعه المطبق ، ورد ابن كندوس على عقبه ، وأركبه السفين من ليلته إلى سبته ، وجاهر بالخلعان ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان فقلق لذلك ، وقام في ركائبه وقعد ، وأوعز بتجهيز الأساطيل ، وظن أنه قد تدبر من الطاغية وابن الأحمر . وبعث أحمد بن الخطيب قائد البحر بطنجة عيناً على شأنهم ، فوصل إلى مرسى الجبل . وكان عيسى بن الحسن لما جاهر بالخلعان تمشت رجالات الثغر وعرفاء الرجل من غمارة الغزاة الموطنون بالجبل ، وتحذثوا في شأنه ، وامتنعوا من الخروج على السلطان ، وتآمروا في اسلامه بمرته . وخلابه سليمان بن داود من عرفاء العسكر^(٢) ، كان من خواصه وأهل شوره ، وكان عيسى قد مكن قومه عند السلطان واستعمله على رنده ، فلما جاهر عيسى بالخلعان ، وركب ظهر الغدر ، خالفه سليمان هذا إلى طاعة السلطان ، وأنفذ كتبه وطاعته ، واشتبه عليه الأمر فندم اذ لم يكن بني أمره على أساس من الرأي ، فلما احتل أسطول أحمد بن الخطيب بمرسى الجبل ، خرج إليه وناشده الله والعهد أن يبلغ السلطان طاعته ، والبراءة مما صنع أهل الجبل ، ونسبها إليهم . فعند ذلك خشى غمارة على أنفسهم ، فثاروا به ، ولجأ إلى الحصن فاقتحموه عليه وشدوه وابنه وثاقاً ، وألقوه في أسطول ابن الخطيب ، وأنزله بسبته وطير للسلطان بالخبر ، فخلع عليه وأمر خاصته فخلعوا عليه . وبعث عمر ابن وزيره عبدالله بن علي وعمر بن العجوز قائد جند النصاري ، فأحضرهما بدار السلطان يوم منى من سنة ست وخمسين وسبعمائة وجلس لها السلطان ووقفاً بين يديه وتنصلاً واعتذاراً ، فلم يقبل منها وأودعها السجن وشد

(١) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : ابن كندوز

(٢) وفي نسخة ثانية : سليمان بن داود بن اعراب العسكري .

وثاقها ، حتى قضي منسك الأضحى . ولما كان ختم سنته أمر بها فجنبا إلى مصارعها
وقتل عيسى قعصاً بالرماح ، وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف ، وأبى من مداواة
قطعه ، فلم يزل يتخبط في دمه إلى أن هلك لثالثة^(١) قطعه ، وأصبحت مثلاً في
الآخرين ، وعقد على جبل الفتح وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود إلى أن كان
من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نهوض السلطان الى فتح قسنطينة وفتحها ثم فتح
تونس عقبها) *

لما هلك الحاجب محمد بن أبي عمرو ، عقد السلطان على ثغور بجاية وما وراءها من
بلاد أفريقية لوزيره عبدالله بن علي بن سعيد ، وسرّحه إليها وأطلق يده في الجباية
والعطاء . وكانت جبال ضواحي قسنطينة قد تملكها السلطان لما كانت الزواودة متغلبة
عليها . وكان عامّة أهل ذلك الوطن قبائل سدويكش ، وعقد السلطان عليهم لموسى
ابن ابراهيم بن عيسى ، وأنزله بتاوريرت آخر عمل بجاية في أقاربه وولده وصنائه .
ولما نزل ابن أبي عمرو بجاية وأخذ بمخترق قسنطينة ، ثم ارتحل عنها على ما عقد من
السلم مع المولى الأمير أبي زيد ، أنزل موسى بن ابراهيم بميلة ، فاستقرّ بها . ولما ولي
الوزير عبدالله بن علي أمر أفريقية ، أوعز إليه السلطان بمنازلة قسنطينة ، فنزلها سنة
سبع وخمسين وسبعائة وأخذ بمخترقها ، ونصب المنجنيق عليها ، واشتدّ الحصار
بأهلها ، وكادوا أن يلقوا باليد لولا ما بلغ العسكر من الإرجاف بمهلك السلطان
فأفرجوا عنها ، ولحق المولى أبو زيد ببونة ، وأسلم البلد إلى أخيه مولانا الأمير أبي
العبّاس أيده الله تعالى ، عندما وصل إليه من أفريقية ، كان بها مع العرب طالباً
ملكهم بتونس ، ومحلباً بهم على ابن تافراكين منذ نازلوا تونس سنة ثلاث وخمسين
وسبعائة كما مرّ ، فلما رجع الآن إلى قسنطينة مع خالد بن حمزة ، داخل المولى أبا
زيد في خروجه إلى حصار تونس ، وإقامة مولانا أبي العبّاس بقسنطينة ، فأجاب
لذلك وخرج معه ، ودخل مولانا أبو العبّاس إلى قسنطينة ، ودعا لنفسه ، وضبط
قسنطينة وكان مدلاً بياسه وإقدامه ، وداخله بعض المنحرفين من بني مرين من أولاد

(١) وفي نسخة ثانية : لثانية

بو سعيد وسدويكش في تبيت موسى بن ابراهيم بمعسكره من ميله ، فبيتوه وانتهبوا
معسكره وقتلوا اولاده وخلص إلى تاوريرت ، ثم إلى بجاية ، ولحق بمولانا السلطان
مفلولاً . ونكر السلطان على وزيره عبدالله بن علي ما وقع بموسى بن ابراهيم ، وأنه
قصر في إمداده ، فسرح شعيب بن ميمون وتقبض عليه ، وأشخصه إلى السلطان
معتقلاً ، وعقد على بجاية مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود من صنائع دولته ،
وفي خلال ذلك راسل المولى أبو زيد الحاجب أبا محمد عبدالله بن تافراكين المتغلب
على عمه ابراهيم في النزول لهم عن بونه ، والقدوم عليهم بتونس ، فقبلوه وأحلوه محل
ولي العهد ، واستعملوا على بونه من صنائعهم ، ولما بلغ خبر موسى بن ابراهيم إلى
السلطان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعائة اعترم على الحركة إلى أفريقية ،
واضطرب معسكره بساحة البلد الجديد ، وبعث في الحشد إلى مراکش . وأوغز إلى
بني مرين بأخذ الأهبة للسفر ، وجلس للعطاء والاعتراض من لدن وصول الخبر إليه
إلى شهر ربيع من سنة ثمان وخمسين وسبعائة . ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته
وزيره فارس بن ميمون في العساكر ، وسار في ساقته على التعبئة إلى أن احتل
بجاية ، وتلوم لإزاحة العلل . ونازل الوزير قسنطينة . ثم جاء السلطان على أثره ولما
أطلت راياته ، وماجت الأرض بعساكره ، دعر أهل البلد ، وألقوا بأيديهم إلى
الإذعان ، وانفضوا من حول سلطانهم مهطعين إلى السلطان ، وتخيّر صاحب البلد في
خاصته إلى القصبه . ووصل أخوه المولى الفضل فطلب الأمان ، فبذله السلطان لهم
وخرجوا ، وأنزلهم بمعسكره أياماً ، ثم بعث بالسلطان في الاسطول إلى سبتة فاعتقله
بها إلى أن كان من أمره ما نذكره بعد .

وعقد على قسنطينة لمنصور ابن الحاج خلوف الباباني^(١) من مشيخة بني مرين وأهل
الشورى منهم ، وأنزله بالقصبه في شعبان من سنته ، ووصل إليه بمعسكره من ساحة
قسنطينة بيعة يحيى بن يملول صاحب توزر ، وبيعة علي بن الخلف صاحب نفطة .
ووفد ابن مكى مجدداً طاعته . ووصل إليه أولاد مهلهل أمراء الكعوب وأقتال بني أبي
الليل يستحثونه لملك تونس ، فسرح معهم العساكر وعقد عليهم ليحيى بن رحو بن
تاشفين ، وبعث أسطوله في البحر مدداً لهم ، وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف

(١) وفي نسخة ثانية : الياباني

الأبكم ، وساروا إلى تونس وأخرج الحاجب أبا محمد بن تافرا كين سلطانه أبو اسحق ابن مولانا السلطان أبي يحيى مع أولاد أبي الليل ، وجَهَز معه العساكر لما أحسّ بقدوم عساكر السلطان . ووصل الأسطول إلى مرسى تونس فقاتلهم يوماً أو بعض يوم ، وركب الليل إلى المهديّة فتحصّن بها . ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعائة وأقاموا بها دعوته . واحتل يحيى بن رحو بالقصبة ، وأنفذ الأوامر ، وكتبوا إلى السلطان بالفتح . ونظر السلطان بعد ذلك في أحوال ذلك ، وقبض أيدي العرب من رياح عن الأتاوة التي يسمونها الخفارة فارتابوا ، وطالبهم بالرهن فأجمعوا على الخلاف . فأرهب لهم حدّه ، وتبيّن يعقوب ابن علي أميرهم مكره ، فخرج معهم ولحقوا جميعاً بالزاب ، وارتحل في أثرهم . وسار يوسف بن مزني عامل الزاب ببعض الطريق أمامه حتى نزل ببسكرة . ثم ارتحل إلى طولقة^(١) فتقبّض على مقدّمها عبد الرحمن بن أحمد بإشارة ابن مزني ، وخرّب حصون يعقوب بن علي ، وأجفلوا إلى القفر أمامه . ورجع عنهم . وحمل له ابن مزني جباية الزاب بعد أن ردّ عامّة معسكره بالقرى من الأدم والحنطة والحملان والعلوفة ثلاث ليال نفذت في ذلك ، وكافأه السلطان على صنيعه ، فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسنى جوائزهم ورجع إلى قسنطينة ، واعتزم على الرحلة إلى تونس . وضاق ذرع العساكر بشأن النفقات والأبعاد في المذهب ، وارتكاب الخطر في دخول افريقية ، فتمشّت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان . وداخلوا الوزير فارس بن ميمون فوافقهم على ذلك وأذن المشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا ، وأنهى إلى السلطان أنّهم تأمروا في قتله . ونصب إدريس بن أبي عثمان بن أبي العلاء للأمر ، فأسرّها في نفسه ولم يبدها لهم . ورأى قلّة من معه من العساكر ، وعلم بانفضاضهم ، فكّر راجعاً إلى المغرب بعد أن ارتحل عن قسنطينة مرحلتين إلى الشرق ، وأغذ السير إلى فاس ، واحتل بها غرة ذي الحجة من سنته . وتقبّض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون ، اتهمه بمداخلة بني مرين في شأنه ، وقتله رابع أيام التشريق قعصاً بالرماح ، وتقبّض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع منهم السجن ، وبلغ إلى الجهات خبر رجوعه من قسنطينة إلى

(١) مدينة بالمغرب من ناحية الزاب الكبير من صقع الجريد (معجم البلدان) .

المغرب فارتحل أبو محمد بن تافراكين من المهديّة إلى تونس ، ولما أطلّ عليها ثار شيعته بالبلد على من كان بها من عساكر السلطان ، وخلصوا إلى السفين ، فنجوا إلى المغرب ، وجاء على أثرهم يحيى بن رحوّ بمن معه من العساكر من أولاد مهلهل ، كان بناحية الجريد لاقتضاء جبايته ، واجتمعوا جميعاً بباب السلطان ، وأرجأ حركته إلى العام^(١) القابل ، فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر إلى أفريقية) *

لما رجع السلطان من أفريقية ولم يستم فتحها ، بقي في نفسه منها شيء . وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الزواودة المخالفين ، فأهمّه شأنهم ، واستدعى سليمان بن داود من مكانه بثغور الأندلس ، وعقد له على وزارته ، وسرّحه في العساكر إلى أفريقية ، فارتحل إليها في ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمئة وكان يعقوب بن علي لما كشف وجهه في الخلاف ، أقام السلطان مكانه أخاه ميمون بن علي منازعه ، وقدمه على أولاد محمد من الزواودة ، وأحله بمكانه من رياسة البدو والضواحي ، ونزع إليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومهم ، وتمسك بطاعة السلطان طوائف من أولاد سبّاع بن يحيى وكبيرهم يومئذ عثمان بن يوسف بن سليمان ، فأنحاشوا جميعاً للوزير ونزلوا على معسكره بجلهم . وارتحل السلطان في أثره حتى احتل بتلمسان فأقام بها لمشاركة أحواله منها ، واحتل الوزير سليمان بوطن قسنطينة . وأغذّ السير إلى عمال الزاب يوسف بن مزني بأن تكون يده معه ، وأن يؤامره في أحوال الزواودة لرسوخه في معرفتها ، فارتحل إليه من بسكرة ، ونازلوا جبل أوراس واقتضوا جبايته ومغارمه . وشرّدوا المخالفين من الزواودة عن العيث في الوطن ، فتمّ غرضهم من ذلك . وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان أفريقية من آخر مجالات رياح ، وانكفأ راجعاً إلى المغرب . ووافى السلطان بتلمسان ، ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة ، فوصلهم السلطان

(١) وفي نسخة ثانية : إلى اليوم القابل .

وخلع عليهم وحملهم ، وفرض لهم العطاء بالزباب وكتب لهم به ، وانقلبوا إلى أهلهم ، ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني ، أوفده أبوه بهدية السلطان من الخيل والرقيق والرزق^(١) فتقبلها السلطان وأكرم وفادته وأنزله ، واستصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته ، وليستبلغ في الاحتفاء به ، واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعائة والله أعلم .

الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان ونصب السعيد للأمر باستبداد الوزير حسن بن عمر في ذلك

لما وصل السلطان إلى دار ملكه بفاس ، احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى اذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض ، وأعجله طائف الوجع عن الجلوس يوم العيد على العادة ، فدخل إلى قصره ولزم فراشه ، واستبد به وجعه ، وأطاف به النساء يمرضنه . وكان ابنه أبو زيان ولي عهده ، وكان وزيره يحيى بن موسى القفولي^(٢) من صنائع دولتهم وأبناء وزراءهم ، قد عقد له السلطان على وزارته واستوصاه به ، فتعجل الأمر ، وداخل رؤوس بني مرين في الانحياش إلى أميرهم والفتك بالوزير الحسن بن عمر وداخله في ذلك عمر بن ميمون لعداوة بينهما وبين الوزير فخشيها الحسن بن عمر على نفسه . وفاوض عليه أهل المجلس بذات صدره ، وكانت نفرتهم عن ولي العهد مستحكمة لما أبلوا من سوء خلته وشر ملكته ، فاتفقوا على تحويل الأمر عنه . ثم نمي إليهم أن السلطان مشرف على الهلكة لا محالة ، وأنه موقع بهم من قبل مهلكه ، فأجمعوا أمرهم على الفتك به والبيعة لأخيه السعيد طفلاً خماسياً ، وباكروا دار السلطان فتقبضوا على وزيره موسى بن عيسى وعمر بن ميمون فقتلوهما ، وأجلسوا السعيد للبيعة . وأوعز وزيره مسعود بن رحوبن ماسي بالتقبض على أبي زيان من نواحي القصر ، فدخل إليه وتلطف في إخراجه من بين الحرم . وقاده إلى أخيه فبايع وتل إلى بعض حجر القصر ، فأنلف فيها مهجته . واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين لذي الحجة من سنة تسع

(١) وفي نسخة ثانية : الدرر .

(٢) وفي نسخة ثانية : العقولي .

وخمسين وسبعائة والسلطان أثناء ذلك على فراشه يجود بنفسه . وارتقب الناس دفنه يوم الأربعاء والخميس بعده ، فلم يدفن فارتابوا ، وفشا الكلام وارتاب الجماعة ، فأدخل الوزير زعموا إليه بمكانه من بيته من غطه حتى أتلفه . ودفن يوم السبت ، وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للأمر ، وأغلق عليه بابه ، وتفرد بالأمر والنهي دونه . ولحق عبد الرحمن ابن السلطان أبي عنان بجبل الكاي يوم بيعة أخيه ، وكان أسنّ منه وإنما آثروه لمكان ابن عمّه مسعود بن ماسي من وزارته ، فبعثوا إليه من لاطفه واستنزله على الأمان ، وجاء به إلى أخيه فاعتقله الحسن بالقصبة من فاس . وبعث على أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور ، فجاء المعتصم من سجلماسة ، وامتنع المعتمد بمراكش ، وكان بها في كفالة عامر بن محمد الهنتاتي استوصاه به السلطان وجعله هنالك لنظره ، فمنعه من الوصول ، وخرج به من مراكش إلى معقله من جبل هنتاتة ، وجهز الوزير العساكر لمحاربتة ، ولم يزل هنالك إلى أن استنزله عمّه السلطان أبو سالم عند استيلائه على ملك المغرب ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن تجهيز العساكر الى مراكش ونهوض الوزير سليمان بن داود لمحاربة عامر بن محمد

كان عامر بن محمد بن علي شيخ هنتاتة من قبائل المصامدة . وكان السلطان يعقوب قد استعمل أباه محمد بن علي على جبايتهم ، والسلطان أبو سعيد استعمل عمّه موسى بن علي وربّي عامر هذا في كفالة الدولة ، وسار في جملة السلطان إلى أفريقية ، وولاه السلطان أحكام الشرطة بتونس . ولما ركب البحر إلى المغرب أركب حرمه وحظاياها في السفن ، وجعلهم إلى نظر عامر بن محمد . وأجازوا البحر إلى الأندلس فنزلوا المرية وبلغهم غرق السلطان أبي الحسن وعسكره ، فأقام بهم بمكانه من المرية ، ودعى للسلطان أبي عنان ، فلم يجب داعية وفاء بيعة أبيه ، حتى اذا هلك السلطان أبو الحسن بدارهم بالجبل ، ورعى لهم السلطان أبو عنان إجارتهم لأبيه ، حين لفظته البلاد وتحاماه الناس ، أجمع أمره على الوفاة عليه ، فوفد بمن معه من الحرم . وأكرم السلطان أبو عنان وفادته وأحسن نزله ، ثم عقد له على جباية المصامدة سنة أربع وخمسين وسبعائة وبعثه لها من تلمسان ، فاضطلع بهذه الولاية وأحسن

الغناء فيها ، والكفاية عليها ، حتى كان السلطان أبو عنان يقول : وددت لو أصبت رجلاً يكفيني ناحية المشرق من سلطاني كما كفاني عامر بن محمد ناحية المغرب ، وأتورع ، ونافسه الوزراء في مقامه ذلك عند السلطان ورتبته . وانفرد الحسن بن عمر آخر الأمر بوزارة السلطان ، واشتدّت منافسته وانتهت إلى العداوة والسعاية .

وكان السلطان بين يدي مهلكه ولّى أبناءه الأصاغر على أعمال ملكه ، فعقد لابنه محمد المعتمد على مراكش ، واستوزر له ، وجعله إلى نظر عامر واستوصاه به . فلما هلك السلطان واستقل الحسن بن عمر بالأمر ونصّب السعيد للملك ، استقدم الأبناء من الجهات ، فبعث عن المعتمد من مراكش فأبى عليه عامر من الوفاة عليهم ، وصعد به إلى معقله من جبل هنتاة ، وبلغ الحسن بن عمر خبره ، فجهّز إليه العساكر وأزاح عنهم ، وعقد على حربه للوزير سليمان بن داود مساهمه في القيام بالأمر ، وسرّحه في المحرم سنة ستين وسبعائة ، فأخذ السير إلى مراكش واستولى عليها ، وصعد إلى الجبل فأحاط به ، وضيق على عامر وطاول منازلته . وأشرف على اقتحام معقله إلى أن بلغه خبر افتراق بني مرين ، وخروج منصور بن سليمان من أعياص الملك على الدولة ، وأنه منازل للبلد الحديد ، فانفضّ العسكر من حوله وتسايقوا إلى منصور بن سليمان ، فلاحق به الوزير سليمان بن داود وتنفس الحصار عن عامر ، إلى أن استولى السلطان أبو سالم على ملك المغرب في شعبان من سنة ستين وسبعائة واستقدم عامراً والمعتمد ابن أخيه من مكانهم بالجبل ، فقدم عليه وأسلمه إليه كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان وتجهيز
العساكر لمدافعته ، ثم تغلبه وما تخلل ذلك من الأحداث

كان ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن هؤلاء أربعة كما ذكرناه في أخبارهم ، وكان يوسف كبيرهم ، وكان سكوتاً منتحلاً لطرق الخير لا يريد علواً في الأرض ، ولما هلك أخوه عثمان بتلمسان ، عقد له على هُنين^(١) ، وكان ابنه يوسف بن موسى^(٢)

(١) وفي نسخة ثانية : تنس .

(٢) وفي نسخة ثانية : وكان ابنه موسى .

متقبلاً مذهبه في السكوت والدعة ومحاربة أهل الشرّ ، ولما تغلب السلطان أبو عنان عليهم سنة ثلاث وخمسين وسبعائة وفرّ أبو ثابت إلى قاصية المشرق ، واستلبهم^(١) قبائل زواوة وأرجلهم عن خيلهم سعوا على أقدامهم ، وانتبذ أبو ثابت وأبوزيان ابن أخيه أبي سعيد وموسى ابن أخيه يوسف ووزيرهم يحيى بن داود ناحية عن قومهم ، وسلكوا غير طريقهم ، وتقبّض على أبي ثابت ويحيى بن داود محمد بن عثمان ، وخلص موسى إلى تونس ، فترّل على الحاجب محمد بن تافراكين وسلطانة خير نزل ، وأجارهم مع فلّ من قومه خلصوا إليهم وأسنوا جراتهم . وبعث السلطان أبو عنان فيهم إلى ابن تافراكين فأبى من إسلامهم وجاهر بإجارتهم على السلطان .

ولما استولت عساكر السلطان على تونس ، وأجفل عنها سلطانها أبو اسحق ابراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، خرج موسى بن يوسف هذا في جملته ، ولما رجع السلطان إلى المغرب صمد المولى أبو اسحق ابراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى ، وابن أخيه المولى أبي زيد صاحب قسنطينة مع يعقوب بن علي وقومه من الزواودة إلى منازل قسنطينة وارتجاعها ، وسار في جملتهم موسى بن يوسف هذا فيمن كان عنده من زناة قومه . وكان بنو عامر من زغبة خارجين على السلطان أبي عنان منذ غلبه بنو عبد الواد على تلمسان . وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن ابراهيم ، لحق بأفريقية في قومه ونزلوا على يعقوب بن علي ، وجاوروه بحلّهم وطمعهم ، فلما أفرجوا عن قسنطينة بعد امتناعها ، واعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب الأوسط ، دعوا موسى بن يوسف هذا إلى الرحلة معهم لينصّبوه للأمر ، ويجلبوا به على تلمسان ، فخلّى الموحدون سبيله ، وأعانوه بما اقتدروا عليه لوقتهم ، وعلى حال سفرهم من آلة وفسطاط . وارتحل مع بني عامر ، وارتحل مع صولة بن يعقوب بن علي ، وزيان بن عثمان بن سبّاع من أمراء الزواودة ، وصغار^(٢) بن عيسى في حلل من بني سعيد إحدى بطون رياح . وأغدّوا السير إلى المغرب للعيث في نواحيه . وجمع لهم أقتالهم من سويد أولياء السلطان والدولة ، والتقوا بقبلة تلمسان ، فانهزمت سويد وهلك عثمان بن ونزمار كبيرهم ، وكان مهلك السلطان في خلال ذلك .

وكان السلطان حين استعمل الابناء على الجهات ، عقد لمحمد المهدي من اولاده على

(١) وفي نسخة ثانية : واهتلبهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : دغار .

تلمسان . ولما اتصل الخبر بوفاة السلطان بالمغرب ، أغذوا السير إلى تلمسان ، وملكوا ضواحيها ، وجهّز الحسن بن عمر لها عسكرياً عقد عليه وعلى الحامية الذين بها لسعيد ابن موسى العجيسي من صنائع السلطان . وسرّحه إليها ، وسار في جملته أحمد بن مزني فاصلاً إلى عمله بعد أن وصله وخلع عليه وحمله ، وسار سعيد بن موسى في العساكر إلى تلمسان ، واحتل بها في صفر من سنة ستين وسبعائة وزحف إليه جموع بني عامر وسلطانهم أبو حمّو موسى بن يوسف ، فغلبوهم على الضاحية وأحجزوهم بالبلد . ثم ناجزوهم الحرب أياماً ، واقتحموها عليهم ليلال خلون من ربيع ، واستباحوا من كان بها من العسكر ، وامتلاءت أيديهم من أسلابهم ونهابهم . وخلص سعيد بن موسى بابن السلطان إلى حلة صغير بن عامر فأجاره ومن جاء على أثره من قومه ، وأوفد برجالاً من بني عامر ينصبون^(١) له الطريق أمامه إلى أن أبلغوه مأمّنه من دار ملكهم ، واستولى أبو حمّو على ملك تلمسان ، واستأثر بالهدية التي ألقى بمودعها ، كان السلطان انتقاها وبعث بها إلى صاحب برشلونة بطرة بن القنط وبعث إليه فيه بفرس أدهم من مقرباته بمركب ولحام مذهبن ثقيلين . فاتخذ أبو حمّو ذلك الفرس لركوبه ، وصرف الهدية في مصارفه ووجوه مذاهبه . والله غالب على أمره .

الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماسي إلى تلمسان وتغلبه عليها ثم انتقاضه ونصبه سليمان بن منصور للامر

لما بلغ الوزير الحسن بن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمّو عليها ، جمع مشيخة بني مرين وأمرهم بالنهوض إليها ، فأبوا عليه من النهوض بنفسه ، وأشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه مسيرهم كافة ، ففتح ديوان العطاء وقرق الأموال وأسنى الصلوات وأزاح العلل ، وعسكر بساحة البلد الجديد . ثم عقد عليهم لمسعود بن رحو بن ماسي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في الألوية والعساكر . وكان في جملته منصور بن سليمان بن منصور بن أبي مالك بن يعقوب بن عبد الحق ، وكان الناس يرجفون بأن

(١) وفي نسخة ثانية : ينفضون : نفّض المكان واستنفضه إذا نظر جميع ما فيه حتى يعرفه . وعن الليث : النفضة ، بالتحريك ، الجماعة يبعثون في الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف (لسان العرب) .

سلطان المغرب صائر إليه بعد مهلك أبي عنان . وشاع ذلك على ألسنة الناس وذاع وتحدث به السُّمَّر والندمان ، وخشي منصور على نفسه لذلك ، فجاء إلى الوزير الحسن وشكا إليه ذلك ، فأنهره أن يختلج بفكره هذا الوسواس انتهاراً خلا من وجه السياسة ، فانزجر واقتصر . ولقد شهدت هذا الموطن ، ورحمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه . ورحل الوزير مسعود في التعبئة وأفرج أبو حمّو عن تلمسان ، ودخلها مسعود في ربيع الثاني واستولى عليها . وخرج أبو حمّو إلى الصحراء ، وقد اجتمعت عليه جموع العرب من زغبة والمقل . ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بانكاد بحلهم وظواعنهم ، وجهاز إليهم مسعود بن رحو عسكرياً من جنوده انتقى فيه مشيخة بني مرين وأمراءهم ، وعقد عليهم لعامر ابن عمّه عبّو بن ماسي^(١) ، وسرّحهم فرحفوا إليه بساحة وجدة ، وصدقهم العرب الحملة ، فانكشفوا واستبيح معسكرهم ، واستلبت مشيختهم ، وأرجلوا عن خيلهم ، ودخلوا إلى وجدة عراة . وبلغ الخبر إلى بني مرين بتلمسان ، وكان في قلوبهم مرض من استبداد الوزير عليهم وحجره لسلطانهم ، فكانوا يتربصون بالدولة . فلما بلغ الخبر وحاص الناس لها حيصة الحمر ، خلص بعضهم نجياً بساحة البلد ، واتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيّان ابن السلطان أبي يعقوب فبايعوه .

وانتهى الخبر إلى الوزير مسعود بن رحو ، وكان متحياً السلطان منصور بن سليمان فاستدعاه وأكرهه على البيعة ، وبايعه معه الرئيس الأكبر من بني الأحمر ، وقائد جند النصارى القهردور^(٢) ، وتسايل إليه الناس ، وتسامع الملائم من بني مرين بالخبر ، فتهاووا إليه من كل جانب . وذهب يعيش بن أبي زيّان لوجهه ، فركب البحر وخلص إلى الأندلس ، وانعقد الأمر لمنصور بن سليمان . واحتمل بني مرين على كلمته ، وارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب . واعترضهم جموع العرب في طريقهم فأوقعوا بهم ، وامتلات أيديهم من أسلابهم وظهرهم . وأغدوا السير إلى المغرب ، واحتلوا بسبوا في منتصف جمادى الأخيرة ، وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر فاضطرب معسكره بساحة البلد . وأخرج السلطان في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه . ولما غشيم الليل انفض عنه الملائم إلى السلطان منصور بن سليمان ، فأوقد

(١) وفي نسخة ثانية : ماساي .

(٢) وفي نسخة ثانية : القمندوز .

الشموع وأذكى النيران حوالي الفسطاط ، وجمع الموالي والجند وأركب السلطار ودخل إلى قصره ، وانحجز بالبلد الحديد ، وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعبئة حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين لجمادى الأخيرة ، واضطرب معسكره بها ، وغدا عليها بالقتال وشدّ عليها الحملات ، وامتنعت يومها . ثم جمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار . واجتمعت إليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة ، ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مُحجّرة بمراكش لحصار عامر مع الوزير سليمان بن داود فاستوزره ، وأطلق عبدالله بن علي وزير السلطان أبي عنان من معتقله بسبته ، فخلص منه خلوص الأبريز بعد السبك . وأمر منصور بن سليمان بتسريح السجن ، فخرج من كان بها من دغار بجاية وقسنطينة ، وكانوا معتقلين من لدن استيلاء السلطان أبي عنان على بلادهم . وانطلقوا إلى مواطنهم ، وأقام على البلد الحديد يغاديا القتال ويراوحها ونزع عنه إلى الوزير الحسن بن عمر طائفة من بني مرين . ولحق آخرون ببلادهم ، وانتقضوا عليه ينتظرون مآل أمره . ولبث على هذه الحال إلى غرة شعبان ، فكان من قدوم السلطان أبي سالم لملك سلفه بالمغرب ، واستيلائه عليه ، ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن نزول المولى أبي سالم بجبال غمارة واستيلائه على ملك المغرب ومقتل منصور بن سليمان

كان السلطان أبو سالم بعد مهلك أبيه واستقراره بالأندلس ، وخروج أبي الفضل بالسوس لطلب الأمر ، ثم ظفر السلطان أبي عنان به ومهلكه كما ذكرناه ، قد تورّع وسكن وسالمه السلطان . ثم لما هلك سلطان الأندلس أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعائة يوم الفطر بمصلى العيد طعنه أسود مدسوس كان ينسب إلى أخيه محمد من بعض إماء قصرهم . ونصّبوا للأمر ابنه محمداً وحجبه مولاه رضوان^(١) . واستبدّ عليه . وكان للسلطان أبي عنان اعتراض كما ذكرناه ، وكان يؤمّل ملك الأندلس . وأوعز إليهم عندما طرّقه طائف المرض سنة سبع وخمسين وسبعائة أن

(١) وفي نسخة ثانية : روضان .

يبعثوا إليه طبيب دارهم ابراهيم بن زرور الذمّي ، وامتنع من ذلك اليهودي ، واعتذر وردّوه فتنكّر لهم السلطان ، ولما وصل إلى فاس من فتح قسنطينة وأفريقية تقبّض على وزيره والمشيخة من قبله ، تجنّباً عليهم إذ لم يبادروا السلطان بنفسه أو حاجبه للتهنئة^(١) . وأظلم الجوّ بينهم ، واعتزم على النهوض إليهم وكانوا منحاشين بالجملة إلى الطاغية بطرّة بن أدفونش صاحب قشتالة ، منذ مهلك أبيه الهنّشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ثم استبدّ رضوان على الدولة بعد مهلك أبي الحجاج ، فكانت له صاغية إليه ، ظاهرها النظر للمسلمين بمسألة عدوّهم . وكان السلطان أبو عنان يعتدّ ذلك عليهم ، وعلم أنه لا بدّ أن يمدّهم بأساطيله ويدافعوه عن الإجازة إليهم . وكان بين الطاغية بطرّة وبين قص برشلونة فتنة هلك فيها أهل ملّتهم ، فصرف السلطان قصده إلى قص برشلونة وخاطبه في اتصال اليد على ابن أدفونش ، واجتمع أسطول المسلمين وأسطول النصارى القمص بالزقاق ، وضربوا لذلك الموعد وأتحفه السلطان بهديّة سنّية من متاع المغرب وماعونه ، ومركب ذهبيّ صنيع ، ومقرب من جياده وأنفذهها إليه ، فبلغت تلمسان ، وهلك قبل وصولها إلى محلها ، ولما هلك السلطان أبو عنان أمّل أخوه المولى أبو سالم ملك أخيه ، وطمع في مظاهرة أهل الأندلس له على ذلك لما كان بينهم وبين أخيه ، واستدعاه أشياخ من أهل المغرب ، ووصل البعض منهم إليه بمكانه من غرناطة ، وطلب الاذن من رضوان في الإجازة ، فأبى عليه ، فأحفظه ذلك . ونزع إلى ملك قشتالة متطارحاً بنفسه عليه أن يجهّز له الأسطول للإجازة إلى المغرب ، فاشترط عليه وتقبّل شرطه . وأجازته في أسطوله إلى مراكش ، فامتنع عامر من قبوله لما كان فيه من التضييق والحصار بحضرة سليمان بن داود كما ذكرناه . فانكفاً راجعاً على عقبه . فلما حاذى طنجة وبلاد غمارة وألقى بنفسه إليهم ، ونزل من الصفيحة من بلادهم . واشتملت عليه قبائلهم ، وتسايلوا إليه من كل جانب وبايعوه على الموت .

وملك سبّعة وطنجة ، وبها يومئذ السلطان أبو العباس بن أبي حفص صاحب قسنطينة لحق بها بعد الخروج من اعتقاله بسبّعة كما ذكرناه ، فاخصّصه المولى أبو سالم

(١) وفي نسخة ثانية : ابراهيم بن زرور الذمي ، وامتنع من ذلك اليهودي ، واعتذر واعتذر ، فنكرهم السلطان قبله ، ولما وصل إلى فاس من فتح قسنطينة وأفريقية وتقبّض على وزيره والمشيخة من قبله ، تجنّباً عليهم ، إن لم يبادر السلطان بنفسه وحاجبه للتهنئة .

بالصحة والخلة ، والبواء^(١) في اغترابه ذلك ، إلى أن استولى على ملكه ، وألفى بطنجة الحسن بن يوسف الورتاجني ، وكاتب ديوان الجند أبا الحسن بن علي بن السعد ، والشريف أبا القاسم التلمساني . فكان منصور بن سليمان ارتاب بهم واتهمهم بمدخلة الوزير الحسن بن عمر بمكانه من البلد الجديد ، فصرفهم من معسكره إلى الأندلس ، فوافوا الأمير^(٢) أبا سالم عند استيلائه على طنجة ، فصاروا إلى إيالته ، واستوزر الحسن بن يوسف ، واستكتب لعلامته أبا الحسن علي بن السعد ، واختص الشريف بالمجالسة والمراكمة . ثم قام أهل الثغور الأندلسية بدعوته ، وأجاز يحيى بن عمر صاحب جبل الفتح بمن كان معه من العسكر ، وطالت حصاة المولى أبي سالم واتسع معسكره ، وبلغ الخبر إلى الثائر على البلد الجديد منصور بن سليمان ، فجهز عسكراً لدفاعه وعقد عليه لأخويه عيسى وطلحة ، وأنزلها قصر كتامة ، وقاتلوه فهزموه ، واعتصم بالجبل وبادر الحسن بن عمر من وراء الجدران فبعث طاعته إليه ، ووعدته بالتمكين من دار ملكه . وداخل بعض أشياع المولى أبي سالم مسعود بن رحو بن ماسي وزير منصور في النزوع إلى السلطان ، وكان قد ارتاب بمنصور وابنه علي ، فترع وانفض الناس من حول منصور ، وتخاذل أشياعه من بني مرين ، ولحق بياديس من سواحل المغرب . ومشى أهل العسكر بأجمعهم في ساقاتهم ومواكبهم على التعبئة ، فلاحقوا بالسلطان أبي سالم واستعدوه إلى دار ملكه ، فأغذ السير وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الأمر لتسعة أشهر من خلافته ، وأسلمه عمه وخرج إليه فبايعه .

ودخل السلطان إلى البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعائة واستولى على ملك المغرب ، وتوافت وفود النواحي بالبيعات ، وعقد للحسن بن عمر على مراکش ، وجهزه إليها بالعساكر ريبة بمكانه . واستوزر مسعود بن رحو بن ماسي والحسن بن يوسف الورتاجني ، واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق ، وجعل إلى مؤلف هذا الكتاب توقيعه وكتابة سره . وكنت نزعته إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرايس لما رأيت من اختلال أحواله ، ومصير الأمر إلى السلطان ، فأقبل عليّ وأنزلني بمحل التنويه ،

(١) وفي نسخة ثانية : وألفه .

(٢) وفي نسخة ثانية : المولى .

واستخلصني لكتابته . واستوسق أمره بالمغرب وتقبّض شيعة السلطان بباديس على منصور بن سليمان وابنه عليّ وقادوهم مصفّدين إلى سدّته ، وأحضرهم ووبّخهم ، وجنبوا إلى مصارعهم ، فقتلوا قعصاً بالرماح آخر شعبان من سنته . وجمع الأبناء والقراة المرشّحين من ولد أبيه ، وأشخصهم إلى رندة من ثغورهم بالأندلس ، ووكل بهم من يجرسهم ، ونزع محمد ابن أخيه أبو عبد الرحمن منهم إلى غرناطة . ثم لحق منها بالطاغية ، واستقرّ لديه حتى كان من تملكه المغرب ما نقصه إن شاء الله تعالى . وهلك الباقون غرقاً بالبحر بإيعاز السلطان بذلك بعد مدّة من سلطانه ، أركبهم السفن إلى المشرق ، ثم غرقهم . وخلص الملك من الخوارج والمنازعين ، واستوسق له الأمر ، والله غالب على أمره . واحتفل السلطان في كرامة مولانا السلطان أبي العباس ، وأشاد ببره وأوعز باتخاذ دار عامر بن فتح الله وزير أبيه لتزله ، ومهد له المجلس لضيق أريكته ، ووعدته بالمظاهرة على ملكه إلى أن بعثه من تلمسان عند استيلائه عليها ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان) *

لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعائة ونصّب ابنه محمد للأمر ، واستبدّ عليه رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشّح ابنه الأصغر اسمعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته . فلما عدلوا بالأمر عنه حجّبه ببعض قصورهم ، وقد كان له صهر من ابن عمّه محمد بن اسمعيل ابن الرئيس أبي سعيد في شقيقته فكان يدعوهُ سرّاً إلى القيام بأمره متى أمكنته فرصة في الدولة ، فخرج السلطان إلى بعض منتزهاته برياضه ، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين من رمضان من سنة ستين وسبعائة في بعض أوشاب ، جمعهم من الطغّام لثورته . وعمد إلى دار الحاجب رضوان فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمة وبناته ، وقربوا إلى اسمعيل فرسه فادخلوه القصر وأعلنوا بيعته ، وقرعوا طبوهم بسور الحمراء ، وفرّ السلطان من مكانه بمنزله إلى وادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان ، واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم ، فامتعض لمهلك رضوان ، وخلع السلطان رعيّاً لِمَا سلف له في جوارهم ، وأزعج

لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقلاله ، فوصل إلى الأندلس وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب ، وأطلق اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبدالله بن الخطيب ، كانوا اعتقاله لأول أمرهم لما كان رديفاً للحاجب رضوان وركناً لدولة المخلوع . فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه ، فأطلقوه . ولحق الرسول أبو القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب ، وأجاز لذي القعدة من سته . وقدم على السلطان بفاس وأجلّ قدومه ، وركب للقائه ، ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل ترتيبه^(١) ، وغصّ بالمشيخة والعلية . ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائقة يستصرخه لسلطانه ، ويستحثه لمظاهرة على أمره . واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ، ونصّ القصيدة :

وَهَلْ أَعْشَبَ الْوَادِي وَنَمَّ بِهِ الزَّهْرُ
عَفَتْ أَيَّهَا إِلَّا التَّوَهُّمُ وَالذِّكْرُ
بَأَكْنَافِهَا وَالْعَيْشُ فَيَنَانُ مُخْضَرُ
فَهَا أَنَاذَا مَالِي جَنَاحٌ وَلَا وَكْرُ
وَلَا نَسَخَ الْوَصْلَ الْهِنِيَّ لَهَا هَجْرُ
وَلذَاتُهَا دَابَّاءُ تَرُورٌ وَتَرُورُ
مَدَى طَالَ حَتَّى يَوْمَهُ عِنْدَنَا شَهْرُ
ضِرَامٌ لَهُ فِي كُلِّ جَانِحَةٍ جَمْرُ
وَلِلْبَيْنِ أَشْجَانٌ يَضِيقُ لَهَا الصَّدْرُ
فَعَادَ أَجَاغًا بَعْدَنَا ذَلِكَ النَّهْرُ
وَأَنَسَهَا الْحَادِي وَأَوْحَشَهَا الزَّجْرُ
بِإِنجَازِ وَعْدِ اللَّهِ قَدْ ذَهَبَ الْعُسْرُ
وَإِنْ يُخْذَلُ الْأَقْوَامُ لَمْ يُخْذَلِ الصَّبْرُ
نَقَابًا تَسْوَى عِنْدَهُ الْحُلُو وَالْمُرُّ^(٢)

سَلَا هَلْ لَدِيهَا مِنْ مُحَبَّرَةٍ ذِكْرُ
وَهَلْ بَاكِرِ الْوَسْمِيِّ دَارًا عَلَى الْلَوِي
بِلَادِي الَّتِي عَاطَيْتُ مَشْمُولَةَ الْهُوِي
وَجَوِي الَّذِي رَبَّى جَنَاحِي وَكُرُهُ
نَبَتْ بِي لَا عَنْ جَفْوَةٍ وَقَلَالَةٍ
وَلَكِنَّهَا الدُّنْيَا قَلِيلٌ مَتَاعُهَا
فَمَنْ لِي بِنَيْلِ الْقُرْبِ مِنْهَا وَدُونَا
وَلِلَّهِ عَيْنَا مِنْ رَأْنَا وَلِلْأَسَى
وَقَدْ بَدَّدَتْ دُرَّ الدَّمُوعِ يَدُ النَّوَى
بَكِينَا عَلَى النَّهْرِ السَّرُورِ عَشِيَّةُ
أَقُولُ لِأَظْعَانِي وَقَدْ غَاهَا السُّرَى
رُوَيْدُكَ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرُ فَأَبْشِرِي
وَإِنْ تَجْبُنِ الْأَيَّامُ لَمْ تَجْبُنِ النَّهْيُ
وَإِنْ عَرَّكَتْ مَنِي الْخَطُوبُ مُجْرَبًا

(١) وفي نسخة ثانية : بزيتته .

(٢) وفي نسخة ثانية : نفاقاً تساوي عنده الحلو والمر .

فَقَدْ عَجَمْتَ عوداً صليماً مقوماً (١)
 إذا أنت بالبيضاء قد زرت منزلي
 زجرنا بإبراهيم ملء (٢) هومنا
 بمتخب من آل يعقوب كلما
 تناقلت الركبان طيب حديثه
 ندى لوحواه البحر لذ مذاقه
 وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى
 أطاعته حتى العضم في قنن الربا
 قصدناك يا مولى الملوك على النوى
 كففنا بك الأيام عن غلوائها
 وعدنا بذاك المسجد فانصرف الردى
 ولما اتينا البحر نرهب موجاه
 خلافتك العظمى ومن لم يدن بها
 ووصفك يهدي المدح قصد صوابه
 دعتك قلوب المسلمين وأخلصت
 ومُدت إلى الله الأكف ضراعة
 والبسهما النعمى ببيعتك التي
 فأصبح نغر الثغر يبسم ضاحكاً
 وأمنت بالسلم البلاد وأهلها
 وقد كان مولانا أبوك مُصرحاً
 وقد كنت حقاً بالخلافة بعده (٦)

وعزماً كما تمضي المهندة البتر
 فلا اللحم حل ما جنيت (٢) ولا الظهر
 فلما رأينا وجهه صدق الزجر
 دجا الخطب لم يكذب لعزمتيه فخر
 فلما رآته صدق الخبر الخبر
 ولم يتعقب مده أبداً جزر
 وترفل في أذياله الفتية (٤) البكر
 وهشت إلى تأميله الأنجم الزهر
 لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
 وقد رأينا منها التعسف والكبر
 ولذنا بذاك الغر فانهزم الشر
 ذكرنا بذاك الغر فاحتقر البحر (٥)
 فإيمانه لغو وعرفانه نكر
 إذا ضل في أوصاف من دونك الشعر
 وقد طاب منها السر لله والجهر
 فقال لهن الله قد قضى الأمر
 لها الطائر الميمون والمحتد الحر
 وقد كان مما نابه ليس يفتر
 فلا ضيمة تعدو ولا روعة تغرو
 بأنك في أولاده الولد البر
 على الفور لكن كل شيء له قدر

(١) وفي نسخة ثانية : فقد عجمت عدداً صليماً على النوى .

(٢) وفي نسخة ثانية : ما حيت .

(٣) وفي نسخة ثانية : برء .

(٤) وفي نسخة ثانية : البتكة .

(٥) وفي نسخة ثانية : ولما اتينا البحر يرهب موجه ذكرنا بذاك الغمر ما احتقر البحر

(٦) وفي نسخة ثانية : وكنت حقيقاً بالخلافة بعده .

فَأَوْحَشْتَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ أَهْلَهَا (١)
 وَرَدَّ عَلَيْكَ اللَّهُ حَقَّكَ إِذْ قَضَى
 وَقَادَ إِلَيْكَ الْمَلِكَ رِفْقًا بِخَلْقِهِ
 وَزَادَكَ بِالتَّمْحِصِ عِزًّا وَرَفَعَةً
 وَأَنْتَ الَّذِي تُدْعَى إِذَا دَهَمَ الرَّدَى
 وَأَنْتَ إِذَا جَارَ الزَّمَانُ بِحُكْمِهِ
 وَهَذَا ابْنُ نَصْرٍ قَدْ أَتَى وَجَنَاحَهُ
 غَرِيبٌ يُرْجَى مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
 فَعُدْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) لِبَيْعَةِ
 وَمِثْلِكَ مَنْ يَرعى الدَّخِيلَ وَمَنْ دَعَا
 وَخُذْ يَا إِمَامَ الْحَقِّ لِلْحَقِّ ثَأْرَهُ
 وَأَنْتَ لَهَا يَا نَاصِرَ الْحَقِّ فَلْتَقُمْ
 فَإِنْ قِيلَ مَا لَ مَا لَكَ الدُّرُّ وَافِرٌ
 يَكْفُ بِكَ الْعَادِي وَيَحْيَا بِكَ الْهُدَى
 أَعِدَّهُ إِلَى أَوْطَانِهِ عَنْكَ ثَانِيًا
 وَعَاجِلُ قُلُوبِ النَّاسِ فِيهِ بِجَبْرِهَا
 وَهُمْ يَرْقُبُونَ الْفِعْلَ مِنْكَ وَصَفَقَةً
 مَرَامِكَ سَهْلٌ لَا يُوَدُّكَ كَفْلُهُ
 وَمَا الْعَمْرُ إِلَّا زِينَةٌ مُسْتَعَارَةٌ
 وَمَنْ بَاعَ مَا يَفْنَى بِيَاقٍ مُخَلَّدٍ
 وَمِنْ دُونِ مَا تَبْقِيهِ يَا مَالِكَ الْعَلَى
 وَرَادٌ وَشَقْرٌ وَاضِحَاتٌ شِيَاثُهَا
 وَشُهْبٌ إِذَا مَا ضُمِرَتْ يَوْمَ غَارَةِ

أَقَامَتْ زَمَانًا لَا يَلُوحُ بِهَا الْبَدْرُ
 بَأَنَّ تَشْمَلَ النُّعْمَى وَيَنْسَدِلُ السُّتْرُ
 وَقَدْ عَدِمُوا رُكْنَ الْأَمَانَةِ وَاضْطَرُّوا
 وَأَجْرًا وَلَوْلَا السَّبْكُ مَا عُرِفَ التَّبْرُ
 وَأَنْتَ الَّذِي تُرْجَى إِذَا أَخْلَفَ الْقَطْرُ
 لَكَ النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ وَالنَّهْيُ وَالْأَمْرُ
 كَسِيرٌ وَمِنْ عُلْبِكَ يَلْتَمَسُ النَّصْرُ
 فَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْفَخْرَ قَدْ جَاءَكَ الْفَخْرُ
 مُوْتَقَّةً قَدْ حَلَّ عُقْدَتَهَا الْغَدْرُ
 بِأَلْ مَرِينِ جَاءَهُ الْعِزُّ وَالنَّصْرُ
 فِي ضِمْنِ مَا تَأْتِي بِهِ الْعِزُّ وَالْأَجْرُ
 بِحَقِّ مَا زَيْدٌ يُرْجَى وَلَا عَمْرُو
 وَإِنْ قِيلَ جَيْشٌ عِنْدَكَ الْعَسْكَرُ الْحَرُّ (٣)
 وَيَبْنِي بِكَ الْإِسْلَامُ مَا هَدَمَ الْكُفْرُ
 وَقَلْدُهُ نُعْمَاكَ الَّتِي مَالَهَا حَضْرُ
 فَقَدْ صَدَّهُمْ عَنْهُ التَّغْلِبُ وَالْقَهْرُ
 تَحَاوَلَا يُمْنَاكَ مَا بَعْدَهَا خُسْرُ
 سِوَى أَنَّهُ عَرَضٌ لَهُ فِي الْعَلَى حَظْرٌ (٤)
 تُرْدُ وَلَكِنَّ الشَّنَاءَ هُوَ الْعُمْرُ
 فَقَدْ أَنْجَحَ الْمَسْعَى وَقَدْ رُبِحَ التَّجْرُ
 جِيَادُ الْمَذَاكِي وَالْمَحْجَلَةُ الْفَرُّ
 فَأَجْسَامُهَا تَبْرٌ وَأَرَاجِلُهَا دُرٌّ
 مُطَهَّمَةٌ غَارَتْ بِهَا الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ

(١) وفي نسخة ثانية : هالة .

(٢) وفي نسخة ثانية : المسلمين .

(٣) وفي نسخة ثانية : البحر .

(٤) وفي نسخة ثانية : سوى عرض ما ان له في العلى خطر .

وأسدُّ رجـالٌ من مرين أعزة عليهم من الماذي كل مفاضة هم القوم إن هبوا لكشف ميلة إذا سئلوا أعطوا ، وإن نوزعوا سَطوا وإن سمعوا العواء وافوا بأنفس وإن مُدحوا هزوا ارتياحاً كأنهم وتبسم ما بين الوشيج ثورهم أمولاي غاضت فكرتي وتبدلت ولولا حنان منك داركتني به فأوجدت مني فائتاً أي فائت بدأت بفضل لم أكن لعظمه وطوقني النعمى المضعفة (٣) التي وأنت بتتميم الصنائع كافل جزاك الذي أسنى مقامك رحمة إذا نحن أثينا عليك بمدحة ولكننا نأتي بما نستطيعه

عمائمها بيض وأمالها سمر تدافع في أعطافها اللجج الخضر فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعرو وإن وعدوا أوفوا وإن عاهدوا بروا كرام على هاماتها في الوري البر (١) نشاوى تشئت لم معاطفهم خمر وما بين قضيب الدوح يتسم الرزق طباعي ، فلا طبع يقيني (٢) ولا فكر وأحييتني لم يبق عين ولا أثر وأنشرت ميتاً ضم أشلاءه قبر بأهل فحل اللطف وانشرح الصدر يقل عليها مني الحمد والشكر إلى أن يعود العز والجاه والوقر تفك بها العاني وينفس (٤) مضطر فهيات يحصى الرمل أو يحصر القطر ومن بذل الجهود حق له العذر

ثم انقضى المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نرله ، وقد فرشت له القصور وقربت له الجياد بالمراكب المذهبة ، وبعث إليه بالكسا الفاخرة ، ورتب الجرايات له ولواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع ، وانحفظ عليه رسم سلطانه في الركب والرجل ، ولم يفقد من القاب ملكه إلا الأداة أدباً مع السلطان ، واستقر في حملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس ، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين وسبعائة ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : وان سمعوا العوراء فروا بانفس حرام على هاماتها في الوغي الغر

(٢) وفي نسخة ثانية : بعين .

(٣) وفي نسخة ثانية : المضاعفة .

(٤) وفي نسخة ثانية : وينعش .

* (الخبر عن انتفاض الحسن بن عمر وخروجه بتادلا وتغلب
السلطان عليه ومهلكه) *

لما فصل الوزير الحسن بن عمر إلى مراکش واستقر بها ، تأثّل له بها سلطان
ورياسة ، نفسها أهل مجلس السلطان^(١) وسعوا في تنكّر السلطان له ، حتى أظلم الجوّ
بينهما ، وشعر الوزير بذلك فارتاب بمكانه ، وخشي بادرة السلطان على نفسه ،
وخرج من مراکش في شهر صفر من سنة إحدى وستين وسبعمائة فلاحق بتادلاً منحرفاً
عن الطاعة ، مرتباً أمره ، وتلقاه بنو جابر من جشم ، واعصوبوا عليه وأجاروه .
وجّه السلطان عساكره إلى حربه ، وعقد عليها لوزيره الحسن بن يوسف وسرّحه إليه
فاحتل بتادلا ، ولحق الحسن بن عمر بالجبل ، واعتصم به مع الحسين بن علي
الورديني كبيرهم . وأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنتهم ، وداخل الوزير بعض
أهل الجبل من صناكة في الثورة بهم ، وسرّب إليهم المال فثاروا بهم ، وانفض
جمعهم ، وتقبّض على الحسن بن عمر ، وقاده برمته إلى عسكر السلطان فاعتقله
الوزير ، وانكفاً راجعاً إلى الحضرة . وقدم بها على السلطان في يوم مشهود ،
واستركب السلطان فيه العسكر وجلس ببرج الذهب مقعده في ساحة البلد لاعتراض
عساكره . وحمل السلطان الحسن بن عمر على جمل طيف به بين أهل ذلك
المحشر ، وقرب إلى مجلس السلطان فأومأ إلى تقبيل الأرض فوق جملة ، وركب
السلطان إلى قصره ، وانفضّ الجمع وقد شهروا وصاروا عبرة من عبر الدنيا . ودخل
السلطان قصره فافتعد أريكته واستدعى خاصته وجلساءه ، وأحضره فويّخه وقرّر
عليه مرتكبه ، فتلوى بالمعاذير وفرغ إلى الإنكار . وحضرتُ هذا المجلس يومئذ فيمن
حضره من العلية والخاصة ، فكان مقاماً تسيل فيه العيون رحمة وعبرة . ثم أمر به
السلطان فسحب على وجهه ، وנתفت لحيته وضرب بالعصي ، وتلّ إلى محبسه ، وقتل
لليلة من اعتقاله فعضاً بالرماح بساحة البلد ، ونصب شلوه بسور البلد عن باب
المهروق ، وأصبح مثلاً في الآخرين .

(١) وفي نسخة ثانية : نفسها عليه الوزراء بمجلس السلطان .

* (الخبر عن وفد السودان وهديتهم وأغرابهم فيها بالزرافة) *

كان السلطان أبو الحسن لما أهدى إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى هديته المذكورة في خبره ، اعتمل في مكافأته وجمع لمهادات من طرف أرضه وغرائب بلاده ، وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك ، ووصلت الهدية إلى أقصى تخومهم من الأرس (١) . وهلك منسا سليمان قبل وصولها . واختلف أهل مالي وافترق أمرهم (٢) . وتوائب ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضاً ، وشغلوا بالفتنة حتى قام فيهم منسا زاطة (٣) واستوسق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه ، وأخبر بشأن الهدية وأخبر أنها بوالاتن فأمر بإنفاذها إلى ملك المغرب ، وضم إليها حيوان الزرافة الغريب الشكل ، العظيم الهيكل ، المختلف الشبه بالحيوانات . وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبعائة وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض . ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء ، فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الإزدحام على الزرافة إعجاباً بخلفتها وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ، ووصف الحال . وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة ، والعدر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتوائبهم على الأمر ، وتعظيم سلطانهم وما صار إليه . والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالترع في أوتار قسيهم عادة معروفة لهم . وحيوا السلطان يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم . ثم ركب السلطان وانفض ذلك الجمع وقد طار به الذكر . واستقر ذلك الوفد في إيالة السلطان وتحت جرايته ، وهلك السلطان قبل انصرافهم ، فوصلهم القائم بالأمر من بعده ، وانصرفوا إلى مراکش وأجازوا منها إلى ذوي حسان عرب المَعْقِل من السوس المتصلين ببلادهم . ولحقوا من هنالك بسلطانهم ، والأمر لله وحده .

(١) وفي نسخة ثانية : إلى أقصى تخومهم من والاتن .

(٢) وفي نسخة ثانية : ملكهم .

(٣) وفي نسخة ثانية : منساجاطه .

الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وايقار أبي زيان حافد أبي تاشفين بملكها وما كان من ذلك من صرف أمراء الموحدين إلى بلادهم

لما استقل السلطان بملك المغرب سنة ستين وسبعائة كما ذكرناه ، وكان العامل على
درعة عبدالله بن مسلم الزردالي من أخلاف بني عبد الواد وشيعة أبي زيان^(١) ،
اصطنعه السلطان أبو الحسن عند تغلبه على تلمسان . واستعمله أبو عنان بعد ذلك
على بلاد درعة كما ذكرناه . وتأتي له^(٢) المكر بأبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن
حين خروجه على أخيه السلطان أبي عنان بجبل ابن حميدي ، فارتاب عند
استقلال المولى أبي سالم بالأمر . وخشي بادرته لما رآه من حقه عليه بسبب أخيه
أبي الفضل ، لِمَا كان بينهما من لحة الاغتراب ، فداخل بطانة له من عرب
المعقل ، واحتمل ذخائره وأمواله وأهله وقطع القفر إلى تلمسان ، ولحق بالسلطان أبي
حمو آخر سنة ستين وسبعائة فترل منه خير نزل ، وعقد له حين وصوله على وزارته ،
وباهى به وبمكانه ، وفوض إليه في التدبير والحل والعقد ، فشر عن ساعده في
الخدمة ، وجأجأ بعرب المعقل من مواطنهم رغبة في ولايته وايقاراً لمكانته من
الدولة ، ورهبة من سلطان المغرب لما كانوا ارتكبوه من موافقة بني مرين مرة بعد
أخرى ، فاستقروا بتلمسان وانحاشوا جميعاً إلى بني عبد الواد ، وبعث السلطان أبو سالم
إلى أبي حمو في شأن عاملهم عبدالله بن مسلم ، فلم يرجع له جواباً عنه ، وحضر
عليه ولاية المعقل أهل وطنه ، فلجّ في شأنهم فأجمع السلطان أمره على النهوض
إليهم . واضطرب معسكره بساحة البلد وفتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالنفير إلى
تلمسان . وأزاح العلل .

وبعث الحاشدين من وزرائه إلى مراکش فتوافت حشود الجهات ببابه ، وفصل من
فاس في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعائة وجمع أبو حمو من في إيالته وعلى
التشييع لدولته من زناتة والعرب من بني عامر والمعقل كافة ، ما عدا العارنة ، كان

(١) وفي نسخة ثانية : آل زيان .

(٢) وفي نسخة ثانية : وتولى .

أميرهم الزبير بن طلحة متحيزاً إلى السلطان . وأجفلوا عن تلمسان وخرجوا إلى الصحراء . ودخل السلطان إلى تلمسان ثالث رجب ، وخالفه أبو حمو وأشباعه إلى المغرب ، فزلوا كرسيف بلد ونزمار بن عريف ، وخرّبوه واكتسحوا ما وجدوا فيه حقداً على ونزمار وقومه بولاية بني مرين . وتخطوا إلى وطاط ، فعاثوا في نواحيه ، وانقلبوا إلى أنكاد ، وبلغ السلطان خبرهم فتلافى أمر المغرب . وعقد على تلمسان لحافد من حفدة السلطان أبي تاشفين ، كان ربّي في حجرهم وتحت كفالة نعمتهم ، وهو أبو زيان محمد بن عثمان ، وشهرته بالفتى ، وأنزله بالقصر القديم من تلمسان وعسكر عليه زناتة الشرق كلهم ، واستوزر له ابن عمّه عمر بن محمد بن ابراهيم بن مكّي^(١) ومن أبناء وزراءهم سعيد بن موسى بن علي ، وأعطاه عشرة أحمال من المال دنانير ودرهم ، ودفع إليه الآلة . وذكر حينئذ لمولانا السلطان أبي العباس سوابقه وإيلافه في المنزل الخشن ، فترل له عن محل إمارته قسنطينة . وصرف أيضاً المولى أبا عبدالله صاحب بجاية لاسترجاع بلده بجاية ، فعقد لها بذلك وحملها . وخلع عليها وأعطاهما حملين من المال .

وكانت بجاية لذلك العهد قد تغلب عليها عمّهم المولى أبو اسحق ابراهيم صاحب تونس ، فكتب إلى عاملهم على قسنطينة منصور بن الحاج خلوف أن يتزل عن بلدة مولانا السلطان أبي العباس أحمد ، ويمكنه منها ، وودّع هؤلاء الأمراء وانكفاً راجعاً إلى حضرته لسدّ ثغور المغرب ، وحسم داء العدو ، فدخل فاس في شعبان من سنته . ولم يلبث أن رجع أبو زيان على أثره بعد أن أجفل عن تلمسان ولحق بوانشريش . وتغلب عليه أبو حمو وفضّ جموعه ، فلحق بالسلطان واستقلّ أبو حمو بملك تلمسان ، وبعث في السلم إلى السلطان فعقد له من ذلك ما رضيه كما ذكرناه .

الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم واستيلاء عمر بن عبدالله على ملك المغرب ونصبه للملوك واحداً بعد واحد إلى أن هلك

كان السلطان قد غلب على هواه الخطيب أبو عبدالله بن مرزوق وكان من خبره أ

(١) وفي نسخة : بن مكن .

سلفه من أهل رباط الشيخ أبي مدين كان جدّه قيماً على خدمة قبره ومسجده واتصل القيام على هذا الرباط في عقبه ، وكان جدّه الثالث محمد معروفاً بالولاية ، ولما مات دفنه يغمراسن بالقصر القديم ليجاوره بجدته تبركاً به ، وكان ابنه أحمد أبو محمد هذا قد ارتحل إلى المشرق ، وجاور الحرمين إلى أن هلك وربى ابنه محمد بالمشرق ما بين الحجاز ومصر . وقفل إلى المغرب بعد أن أسرّ أشياء^(١) في الطلب وتفقه على أولاد الإمام ، ولما ابنتى السلطان أبو الحسن مسجد العباد ولآه الخطابة به ، وسمعه يخطب على المنبر وقد أحسن في ذكره والدعاء له ، فحلا بعينه واستخلصه لنفسه وأحله محل القرب من نفسه^(٢) ، وجعله خطيباً حيث يصلي من مساجد المغرب ، وسفر عنه إلى الملوك ، ولما كانت نكبة القيروان خلص إلى المغرب واستقرّ برباط العباد بجبل سلفه ، بعد أحوال أضربنا عن ذكرها اختصاراً .

ولما خلص السلطان إلى الجزائر داخله أبو سعيد صاحب تلمسان في السفارة عنه إلى السلطان أبي الحسن وصلاح ما بينهما فسار لذلك ونقمه أبو ثابت وبنو عبد الواد ونكروه على سلطانهم . وسرّحوا صغير بن عامر في اتباعه ، فتقبّض عليه وأودعوه المطبق . ثم اشخصوه بعد حين إلى الأندلس فاتصل بأبي الحجاج صاحب غرناطة . وولاه خطابته لما اشتهر به من إجادة الخطبة للملوك بزعمهم . وألف السلطان أبا سالم في مثنوى اغترابها من غرناطة ، وشاركه عند أبي الحجاج في مهمّاته . ولما نزل بجبال غمارة داخل بني مرين والوزراء في القيام بدعوته . وكان له في ذلك مقام محمود . فرعى السلطان وسائله وبوآته^(٣) القديمة والحادثة إلى مقامه عند أبيه ، فلما استوسق له ملك المغرب استخصه بولايته وألقى عليه محبته وعنايته ، وكان مؤامره ونجى خلوته والغالب على هواه ، فانصرفت إليه الوجوه وخضعت له الرقاب ووطىء عقبه^(٤) الأشراف والوزراء ، وعطف على بابة القواد والأمراء وصار زمام الدولة بيده . وكان يتجافى عن ذلك أكثر أوقاته حذراً من سوء المغبة ، ويزجر من يتعرّض

(١) وفي نسخة أخرى : بعدان شدا شيئاً .

(٢) وفي نسخة أخرى : من مجلسه .

(٣) وفي نسخة ثانية : وولاته .

(٤) وفي نسخة ثانية : عتبه .

له في الشكاية ويردهم إلى أصحاب المراتب والخطط بياب السلطان ، وهم يعلمون أنه قد ضرب على أيديهم ، فنقموا ذلك وسخطوا الدولة من أجله . ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه : ونفسَ عليه الوزراء ما ثبت له عند السلطان من الحظ ، فتربصوا بالدولة ، وشمل هذا الداء الخاصة والعامة . وكان عمر بن عبد الله ابن علي لما هلك أبوه الوزير عبد الله بن علي في جمادى سنة ستين وسبعائة عند استيلاء السلطان على ملكه ، تحلّت شفاه أهل الدولة على تراثه . وكان مثيراً فاستجار منهم بابن مرزوق ، وسأهمه في تراث أبيه بعد أن حملوا السلطان على النيل منه ، والإهانة له ، فأجاره منهم . ورفع عند السلطان رتبته وحمله على الإصهار إليه في أخته ، وقلده السلطان أمانة البلد الجديد دار ملكه متى عنت له الرحلة عنها . وأصهر عمر إلى وزير الدولة مسعود بن ماسي تسكيناً لروعته^(١) واستخلاصاً لمودته ، وسفر عن السلطان إلى صاحب تلمسان في شعبان من سنة إثنين وستين وسبعائة ونمي عنه أنه داخل صاحب تلمسان في بعض المكر فهمّ بنكبته وقتله ، ودافع عنه ابن مرزوق وخلص من عقابه ، وطوى على البث وتربص بالدولة . وأعيد إلى مكانه من الأمانة على دار الملك أول ذي القعدة مرجعه من تلمسان لما كان السلطان قد تحوّل عنها إلى القصبة بفاس ، واختطّ إيواناً فخماً لجلوسه بها ، لضيق قصوره بها^(٢) . فلما استولى عمر على دار الملك حدثته نفسه بالتوثّب وسوّل له ذلك ما اطلع عليه من مرض القلوب والنكير على الدولة ، لمكان ابن مرزوق من السلطان فداخل قائد الجند غريسة ابن انطول^(٣) وتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة سنة إثنين وستين وسبعائة وخلصوا إلى تاشفين الموسوس ابن السلطان أبي الحسن بمكانه من البلد الجديد ، فخلعوا عليه وألبسوه شارة الملك ، وقربوا له مركبه وأخرجوه إلى أريكة السلطان فأقعدهه عليها . وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة له ، وجأهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى مودع المال ، ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب ، وماج أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض ،

(١) وفي نسخة ثانية : لغربه .

(٢) وفي النسخة الجزائرية كلمتان زائدتان (متغنياً الابردين) وفي نسخة أخرى : لصق قصوره . وفي النسخة الباريسية الكلمتان غير واضحتين وهما محرفتان .

(٣) وفي نسخة ثانية : انطون .

واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء ، وانتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلع والعدّة . وأضرموا النار في بيوتها سترأ على ما ضاع منها ، وأصبح السلطان بمكانه من القصبّة ، فركب واجتمع إليه من حضر من الأولياء والقبائل ، وغدا على البلد الحديد وطاف بها يروم منها منفذاً ، فاستعصب واضطرب معسكره بكديّة العرائس لحصارها ، ونادى في الناس بالاجتماع إليه . ونزل عند قائلة الهاجرة بفسطاطة ، فتسائل الناس عنه إلى البلد الحديد فوجأ بعد فوج بمرأى منه إلى أن سار إليها أهل مجلسه وخاصته ، فطلب النجاة بنفسه وركب في لمة من الفرسان مع وزرائه : مسعود بن رحو وسليمان بن داود ومقدّم الموالي والجندي ببابه سليمان بن نصار^(١) ، وأذن لابن مرزوق في الدخول إلى داره ، ومضى على وجهه . ولما غشيم الليل انفضوا عنه ، ورجع الوزير إلى دار الملك فتقبّض عليهما عمر بن عبدالله ومساهمه غريسة بن أنطول واعتقلاهما متفرقين ، وأشخص علي بن مهدي بن يرزيجن في طلب السلطان ، فعثر عليه نائماً في بعض المحاشر بوادي ورغة ، وقد نزع عنه لباسه اختفاء بشخصه ، وتوارى على العيون بمكانه ، فتقبّض عليه وحمله على بغل ، وطير الخبر إلى عمر بن عبدالله فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن وردار^(٢) ، وفتح الله بن عامر ابن فتح الله . وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه ، فلقياه بخندق القصب إزاء كديّة العرائس ، فأمر بعض جنود النصاري أن يتولى ذبحه وحمل رأسه في مخلّاة ، فوضعه بين يدي الوزير والمشیخة . واستقلّ عمر بالأمر ونصب الموسوس تاشفين يمّوه به على الناس ، وذوات الأمور إلى غاياتها ولكل أجل كتاب .

الخبر عن الفتك بابن أنطول قائد العسكر من النصاري ثم خروج يحيى بن رحو وبني مرين عن الطاعة

لما تقبّض عمر بن عبدالله على الوزير ، كان معتقل سليمان بن داود بدار غريسة قائد

(١) وفي نسخة ثانية : سليمان بن نصار .

(٢) وفي نسخة ثانية : الجاشر : « قال الاصمعي : بنو فلان جسر إذا كانوا يبيتون مكانهم لا يأوون إلى

بيوتهم . وابل جسر : تذهب حيث شاءت وكذلك الحمر . واصبحوا جسراً إذا كانوا يبيتون وكانهم لا

يرجعون إلى أهلهم » وكلمة مجاشر عامية بمعنى المراعي ، مأخوذة من معنى جسر (لسان العرب) .

(٣) وفي نسخة ثانية : بن داود .

النصارى . ومعتقل ابن ماسي بداره ضناً به عن الامتهان لمكان صهره . ولما كان يؤمل منه من الاستظهار على أمره بعصابته من الأبناء والأخوة والقراة . وكان غريسة بن أنطول صديقاً لسليمان بن ونصار . فلما رجع عن السلطان ليلة انفضاضهم . نزل عليه وكان يعاقره الخمر . فأتاه سحراً وتفاوضاً في اعتقال عمرو^(١) وإقامة معتقله سليمان بن داود في الوزارة لما هو عليه من السن ورسوخ القدم في الأمر . ونمي إلى عمر الخبر . فارتاب وكان خلواً من العصابة ففرغ إلى قائد المركب السلطاني من الرجل الأندلسيين يومئذ ابراهيم البطروجي^(٢) . فبأته أمره وبايعه على الاستماتة دونه . ثم استقل عصابتهم ففرغ إلى يحيى بن رحو شيخ بني مرين وصاحب شورا هم فشكا إليه . فأشكاه ووعدته الفتك بابن أنطول وأصحابه . وانبرم عقد ابن أنطول وسليمان ابن ونصار على شأنهم وغدوا إلى القصر . وداخل ابن أنطول طائفة من النصارى للاستظهار بهم . ولما توافقت بنو مرين بمجلس السلطان على عاداتهم وطعموا . دعا عمر بن عبدالله القائد ابن أنطول بين يدي يحيى بن رحو وقد أحضر البطروجي رجل الأندلسيين . فسأله تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى وضمن به عن الإهانة حتى سأل مثلها من ابن ماسي صاحبه . فأمر عمر بالتقبض عليه . فكشّر في وجوه الرجال واخترط سكينه للمدافعة . فتواثبت بنو مرين وقتلوه لحينه . واستلحموا من وجد بالدار من جند النصارى عند دخولهم^(٣) . وفرّوا إلى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار البلد الجديد .

وأرجف الغوغاء بالمدينة أنّ ابن أنطول غدر بالوزير فقتل جند النصارى حيث وجدوا من سكك المدينة . وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من به من الجند . وركب بنو مرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء . وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم . وقتل النصارى كثيراً من المجان كانوا يعاقدون الخمر بالملاح . واستبدّ عمر بالدار واعتقل سليمان بن ونصار إلى الليل . وبعث من قتله بمحبسه . وحول سليمان بن داود إلى بعض الدور بدار الملك واعتقله بها . واستولى على أمره ورجع في الشورى إلى

(١) وفي نسخة ثانية : فبأته شجوه وتفاوض في غتيال عمر .

(٢) وفي نسخة ثانية : البطروجي .

(٣) وفي نسخة ثانية : بعد جنة .

يحيى بن رحو ، واعصو صب بنو مزين عليه ، واعتز على الأمراء والدولة ، وكان عدو
الخاصة السلطان أبي سالم حريصاً على قتلهم ، وكان عمر يريد استبقاءهم لِمَا أمله
في ابن ماسي ، فخشنت صدورهم عليه ، ودبروا في شأنه . وخاطب هو عامر بن
محمد في اتصال اليد واقتسام ملك المغرب ، وبعث إليه بأبي الفضل ابن السلطان
أبي سالم ، اعتدّه عنده وليجة لخلاصه من ربة الحصار الذي هم به مشيخة بني
مزين . وكان أبو الفضل هذا بالقصبة تحت الرقة والأرصاد ، فتفقد من مكانه .
وأغلظ المشيخة في العتب لعمر في ذلك ، فلم يستعتب ، ونبذ إليهم العهد وامتنع
بالبلد الحديد ، ومنعهم من الدخول إليه فاعصو صبوا على كبيرهم يحيى بن رحو
وعسكروا بباب الفتوح ، وجأجؤاً^(١) بعبد الحلیم ابن السلطان أبي علي وكان من
خبرهم معه ما نذكره . وأطلق عمر بن عبد الله مسعود بن ماسي من محبسه وسرحه
إلى مراکش ، وأوعده في الاجلاب عليهم إن حاصروه كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن وصول عبد الحلیم ابن السلطان من تلمسان
وحصار البلد الحديد) *

كان السلطان أبو الحسن لما قتل أخاه السلطان أبا علي وقضى الحق الذي له في
ذمته^(٢) عمل بالحق الذي عليه في ولده وحرمة ، فكفلهم وغذاهم بنعمته ،
وساواهم بولده في كافة شؤونهم ، وأنكح ابنته تاحضريت العزيزة عليه علياً منهم
المكنى بأبي سلوس^(٣) ونزع عنه وهو بالقيروان أيام النكبة ولحق بالعرب . وأجلب
معهم على السلطان بالقيروان وتونس . ثم انصرف من أفريقية ولحق بتلمسان ونزل
على سلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن فبؤاه كرامته . ثم شرع في الإجازة إلى
الأندلس ، وبعث فيه السلطان أبو عنان قبل فصوله ، فاشخصوه إليه فاعتقله . ثم
أحضره ووبّخه على مرتكبه مع السلطان أبي الحسن وجحده حقه . ثم قتله لليلتين
من شهر إحدى وخمسين وسبعائة ، ولما هلك السلطان أبو الحسن ولحقت جملته من

(١) وفي نسخة ثانية : وجأؤوا .

(٢) وفي نسخة ثانية : في دمه .

(٣) وفي نسخة ثانية : بأبي يفلوسن .

الخاصة والأبناء بالسلطان أبي عنان ، وأشخص إخوته إلى الأندلس ، وأشخص معهم ولد الأمير أبي علي هؤلاء عبد الحلیم وعبد المؤمن والمنصور والناصر وسعيد ابن أخيهم أبي زيّان ، فاستقرّوا بالأندلس في جوار ابن الأحمر . ثم طلب أبو عنان إشخاصهم بعد ، كما طلب إشخاص أخيه ، فأجارهم ابن الأحمر جميعاً وامتنع من إسلامهم إليه . وكان من المغاضبة لذلك ما قدّمناه .

ولما اعتقل السلطان أبو سالم الأبناء المرشّحين برندة ، كما قدّمناه ، نزع منهم عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن إلى غرناطة فلحق بأعماله . وكان السلطان أبو سالم بمكانهم مستريباً بشأنهم حتى لقد قتل محمد بن أبي يفلوسن ابن أخته تاحضريت وهو في حجرها وحجره ، استرابه بما نمي عنه . ولما أجاز أبو عبدالله المخلوع ابن أبي الحجّاج ، إلى المغرب ونزل عليه وصار إلى إيالته ، ورأى أن قد ملك أمره في هؤلاء المرشّحين بغرناطة ، وأرسل الرئيس محمد بن اسمعيل عند توثبه على الأمراء واستلحامه أبناء السلطان أبي الحجّاج ، فراسله في اعتقالهم ثم فسد ما بين الرئيس والطاغية ، وأخذ منه كثيراً من حصون المسلمين . وبعث إلى السلطان أبي سالم في أن يخلي سبيل المخلوع إليه ، فامتنع وفاء للرئيس . ثم دافع الطاغية عن ثغوره بإسعاف طلبته ، فجهّز المخلوع وملاً حقائبه صلة وأعطاه الآلة ، وأوعز إلى أسطوله بسبته فجهّز وبعث علال بن محمد ثقة أبيه^(١) فأركبه الأسطول وركب معه إلى الطاغية . وخلص الخبر إلى الرئيس بمكانه من ملك غرناطة ، وكان أبو حمّو صاحب تلمسان يرأسه في أولاد أبي علي ، وأن يجيزهم إليه ليجدهم زبوناً على السلطان أبي سالم ، فبادر لحينه وأطلقهم من مكان اعتقالهم ، وأركب عبد الحلیم وعبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيها علي أبي يفلوسن . في الأسطول ، وأجازهم إلى مرسى هُنَيْن بين يدي مهلك السلطان أبي سالم ، فترلوا من صاحب تلمسان بأعزّ جوار . ونصّب عبد الحلیم منهم لملك المغرب .

وكان محمد السبيع بن موسى بن ابراهيم نزع عن عمر ولحق بتلمسان ، فتوافى معهم وأخبرهم بمهلك السلطان وبابيع له وأغراه بالرحلة^(٢) إلى المغرب ثم تتابعت وفود بني مرين بمثلها ، فسرحه أبو حمّو وأعطاه الآلة ، واستوزر له محمد السبيع وارتحل معه

(١) وفي نسخة ثانية : ثقة إليه .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأغراه بالدخلة .

يغذ السير . ولقي في طريقه محمد بن زكراز من أولاد علي من شيوخ بني ونكاس أهل دبدوا وثر المغرب منذ دخول بني مرين إليه ، فبايعه وحمل قومه على طاعته ، وأخذ السير وكان يحيى بن رحو والمشیخة لما نبذ عمر بن عبدالله إليهم العهد ، وعسكروا بباب الفتوح ، أوفدوا مشيخة منهم على تلمسان لاستقدام السلطان عبد الحلیم ، فوافوه بتازي ورجعوا معه ، وتلقته جماعة بني مرين بسبوا ، ونزلوا على البلد الحديد يوم السبت سابع محرم من سنة ثلاث وستين وسبعمائة واضطرب معسكرهم بكديّة العرائس ، وغادوا البلد القتال وراوحوها سبعة أيام ، وتتابعت وفودهم وبيعات الأمصار توافيهم والحشود تتسائل إليهم ثم إن عمر بن عبدالله برز من السبت القابل في مقدّمة السلطان أبي عمر بمن معه من جند المسلمين والنصارى ، راحة وناشبة . ووكل بالسلطان من جاء به في الساقة على التعبية المحكمة . وناشبهم الحرب فدلّفوا إليه فاستطرد لهم ليتمكّن الناشبة من عقربهم من الأسوار حتى فشت فيهم الجراحات . ثم صمّم نحوهم وانفرج القلب وانفضت الجموع وزحف السلطان في الساقة فاندعروا في الجهات . وافترق بنو مرين إلى مواطنهم ولحق يحيى بن رحو بمراكش مع مبارك بن ابراهيم شيخ الخلط ، ولحق عبد الحلیم وإخوته بتازي بعد أن شهد لهم أهل المقام بصدق الجلال وحسن البلاء في ذلك المجال وصابر عمر بن عبدالله قدوم محمد بن أبي عبد الرحمن كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم الأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن وبيعته بالبلد
الحديد في كفالة عمر بن عبدالله

لما نبذ بنو مرين عهدهم واعصوبوا عليه ، ونكروا ما جاء به من البيعة لأبي عمر مع فقدة العقل الذي هو شرط الخلافة شرعاً وعادة ، ونقموا عليه ، اتهم نفسه في نظره ، وفرع إلى التماس المرشحين ، فوقع نظره على حافد السلطان أبي الحسن محمد ابن الأمير أبي عبدالله النازع لأوّل دولة السلطان أبي سالم من رندة إلى الطاغية . وكان قد نزل منه بخير مثنوى ، فبعث إليه مولاة عتيقا الخصي ، ثم تلاه بعثمان بن الياسمين ، ثم تلاهما بالرئيس الأبكم من بني الأحمر في كل ذلك يستحثّ قدومه ، ونخاطب المخلوع ابن الأحمر وهو في جوار الطاغية كما قدّمناه قريب عهد بجواره ،

فخاطبه في استحثائه واستخلاصه من يد الطاغية . وكان المخلوع يرتاد لنفسه متراً
من ثغور المسلمين لما فسد بينه وبين الطاغية ورام التزوع عن إيالته ، فاشترط على
الوزير عمر التزول له عن رندة فتقبل شرطه ، وبعث إليه الكتاب بالتزول عنها بعد أن
وضع الملاً عليه خطوطهم من بني مرين والخاصة والشرفاء والفقهاء ، فسار ابن
الأحمر إلى الطاغية . وسأله تسريح محمد هذا إلى ملكه ، وأن قبيله دعوه إلى ذلك ،
فسرحه بعد أن شرط عليه ، وكتب الكتاب بقبوله وفصل من إشبيلية في شهر المحرم
فاتح ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبته وبها سعيد بن عثمان من قرابة عمر بن عبد الله .
أرصده لقدمه فطير بالخبر إليه فخلع أبا عمر من الملك لعام من بيعته ، وأنزله بداره
مع حرمة . وبعث إلى السلطان أبي زيّان محمد بالبيعة والآلة والفساطيط . ثم جهّز
عسكراً للقائه فتلقوه بطنجة . وأغذ السير إلى الحضرة فنزل منتصف شهر صفر بكدية
العرائس . واضطرب معسكره بها ، وتلقاه الوزير يومئذ وبايعه وأخرج فسطاطه ،
فاضطربه بمعسكره وتلّوم السلطان هنالك ثلاثاً . ثم دخل في الرابع إلى قصره واقتعد
أريكته وتودّع ملكه وعمر مستبدّ عليه لا يكل إليه أمراً ولا نهياً . واستطال عند ذلك
المنازعون أولاد أبي علي كما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحلیم واخوته إلى سجلماسة بعد الواقعة عليهم بمكناسة

لما سمع عبد الحلیم بقدوم محمد بن أبي عبد الرحمن من سبته إلى فاس وهو بمكانه
من تازي ، سرح أخاه عبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيه إلى اعتراضه ، فانتهوا إلى
مكناسة وخاموا عن لقائه ، فلما دخل إلى البلد الجديد أجلبوا بالفارة على النواحي وكثر
العيث . وأجمع الوزير عمر على الخروج إليهم بالعساكر ، فبرز بالتعبية والآلة ،
وبات بوادي النجاء . ثم أصبح على تعبته وأغذ السير إلى مكناسة ، فرحف إليه عبد
المؤمن وابن أخيه عبد الرحمن في جموعهما فجاولها القتال ساعة ، ثم صمم إليهم
فدفعهم عن مكناسة . وانكشفوا فلحقوا بأخيهم السلطان عبد الحلیم بتازي ، ونزل
الوزير عمر بساحة مكناسة ، وأوفد بالفتح على السلطان ، وكنت وافده إليه يومئذ ،
فعمّت البشرية واتصل السرور . وتنهى السلطان بملكه وتودّع من يومئذ سلطانه . ولما

وصل عبد المؤمن إلى أخيه عبد الحلیم بتازی مفلولاً انتقض معسكره ونزعوا عنه إلى فاس ، وذهب لوجهه هو وإخوته مع وزيرهم السبيع بن محمد ومن كان معهم من عرب المَعْقِل ، فلحقوا بسجلماسة . وكان أهلها قد دخلوا في بيعتهم ودانوا بطاعتهم فاستعزوا بها . وجدّوا رسم الملك والسلطان إلى أن كان من خروجهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماسي من مراکش وما كان من وزارة ابن ماسي واستبداد عامر بمراكش

كان السلطان أبو سالم لما استقلّ بملك المغرب ، استعمل على جباية المصامدة وولاية مراكش محمد بن أبي العلاء بن أبي طلحة من أبناء العمّال ، وكان مطلعاً بها . وناقش الكبير من ذوي عامر فأحفظه ذلك وربما تكرّرت سعايته في عامر عند السلطان ولم يقبل . ولما بلغ إلى عامر مهلك السلطان أبي سالم وقيام عمر بالأمر ، وكانت بينهما خلة بيت محمد ابن أبي العلاء فتقبّض عليه وامتحنه وقتله ، واستقلّ بأمر مراكش وبعث إليه الوزير عمر بأبي الفضل بن السلطان أبي سالم يعتدّه لما يقع من حصار بني مرين إياه أن يجلب به عامر عليهم ويستنقضه كما ذكرناه . ثم سرح مسعود بن ماسي كما ذكرناه ، ولما أحاط بنو مرين بالبلد الحديد جمع عامر من إليه من الجند والحشود وزحف بأبي الفضل بن السلطان أبي سالم إلى أنفى ، ونزل بوادي أم ربيع ، ولما انفضّ جمعهم من على البلد الحديد ، لحق به يحيى بن رحو ، وكان له صديقاً ملاطفاً ، فتكرّر له توفية لعمر بن عبد الله وصاحبه مسعود ، وبعثه إلى الجبل ولم يشهد الجمع ، فذهب مغاضباً . ولحق بسجلماسة بالسلطان عبد الحلیم وهلك في بعض حروبه مع العرب . ولما انفضّ عبد المؤمن وأجفل عبد الحلیم من تازي ولحقوا بسجلماسة ، واستوسق الأمر لعمر بن عبد الله وفرغ من شأن المنازعين ومضايقتهم له ، رجع إلى ما كان يؤمّله من الاستظهار على أمره بمسعود بن ماسي وإخوته وأقاربه لمكان الصهر الذي بينهما ، فاستقدمه للوزارة مرضاة لبني مرين لما كانوا عليه من استمالتهم لجميع المذاهب والاعضاء عمّا نالوه به من النكاية . وكان عامر بن محمد مجعاً القدوم على السلطان فقدم في صحابته ونزلا من الدولة بخير

منزل ، وعقد السلطان لمسعود بن رحو على وزارته بإشارة الوزير عمر فاضطلع بها ،
ودفعه عمر إليها استمالة إليه وثقة بمكانه واستظهاراً بعصابته . وعقد مع عامر بن
محمد الحلف على مقاسمة المغرب من لحم وأدم رفيع^(١) وجعل إمارة مراکش لأبي
الفضل ابن السلطان أبي سالم اسعافاً بغرض عامر بن محمد في ذلك وأصهر عامر
إليهم في بنت مولانا السلطان أبي يحيى المتوفي عنها السلطان أبو عنان^(٢) ، فحملوا
أولياءها على العقد عليها وانكفاً راجعاً إلى مكان عمله بمراكش يجرّ الدنيا وراءه عزا
وثروة وتابعا لجمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمئة وصرف عمر عزيمته إلى تشريد عبد
الحليم وأخيه من سجلماسة ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبد الله الى سجلماسة) *

لما احتلّ عبد الحليم وإخوته بسجلماسة ، اجتمع إليهم عرب المَعْقِل كافة بجلهم .
واقترضوا خراج البلد فوزعوه فيهم ، وانتضوا على الطاعة رهنهم . وأقطعهم جنات
المختص^(٣) بأسرها واعصوبوا عليه . واستحثه يحيى بن رحو ومن هنالك من
مشيخة بني مرين إلى النهوض للمغرب ، فأجمع أمره على ذلك . وتدبّر الوزير عمر
أمره وخشي أن يضطرم جمره ، فأجمع إليه الحركة . ونادى في الناس بالعطاء
والرحلة فاجتمعوا إليه وبثّ العطاء فيهم . واعترض العساكر وأزاح العلل وارتحل من
ظاهر فاس في شعبان من سنة ثلاث وستين وسبعمئة وارتحل معه ظهيره مسعود بن
ماسي وبرز السلطان عبد الحليم إلى لقاءهم . ولما تراءت الفئتان بتاغزوطت عند فرج
الجبل المفضي من تلول المغرب الى الصحراء ، هموا باللقاء . ثم تواقفوا أياماً
وتمشّت بينهم رجالات العرب في الصلح والتجاني لعبد الحليم عن سجلماسة
تراث أبيه ، فعقد بينها وافترقا . ورجع كل واحد منها إلى عمله ومكانه من
سلطانه . ودخل عمر والوزير مسعود إلى البلد الجديد في رمضان من سنته ، وتلقاهما
سلطانها بأنواع المبرّة والكرامة . ونزع الوزير محمد بن السبيع عن السلطان عبد الحليم

(١) وفي نسخة أخرى : تخم وادي أم ربيع وهذا أصح حسب مقتضى السياق .

(٢) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : ابو الحسن .

(٣) كذا في النسخة الباريسية وفي نسخة ثانية : جهات المختص .

إلى الوزير عمر وسلطانه فتقبل وحل محل التكرمة والردافة للوزارة واستقر كل بمكانه .
وتوادعوا أمرهم إلى ما كان من خلع عبد المؤمن لأخيه عبد الحلیم ، ما ذكره إن
شاء الله تعالى .

* (الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحلیم
إلى المشرق) *

لما رجع عبد الحلیم بعد عقد السلم مع الوزير عمر إلى سجالمة واستقر بها وكان عرب
المعقل من ذوي منصور فريقين : الأحلاف وأولاد حسين . وكانت سجالمة وطناً
للأحلاف وفي مجالاتهم منذ أول أمرهم ودخولهم المغرب . وكان من أولاد حسين في
ممالأة الوزير عمر ما قدمناه ، فكانت صاغية السلطان عبد الحلیم إلى الأحلاف
بسبب ذلك أكثر ، فأسف ذلك أولاد حسين على الأحلاف وتجددت لذلك الفتنة
وتزاحفوا . وأخرج السلطان عبد الحلیم أخاه عبد المؤمن لرقع ما بينهما من الخرق
ولأمته ، فلما قدم على أولاد حسين دعوه إلى البيعة والقيام بأمره فأبى فأكرهوه عليها
وبايعوه . وزحفوا إلى سجالمة في صفر من سنة أربع وستين وستائة وبرز عبد الحلیم
إليهم في أوليائه من الأحلاف وتواقفوا ملياً وعقلوا رواحلهم وانكشف الأحلاف
وانهزموا . وهلك يحيى بن رحو كبير المشيخة من بني مرين يومئذ في حربهم . وتغلبوا
على سجالمة ، ودخل إليها عبد المؤمن وتخلّى له أخوه عبد الحلیم عن الأمر وخرج إلى
المشرق لقضاء فرضه ، فودّعه وزوّده بما أرادوا وارتمل إلى الحج وقطع المفازة إلى بلد
مالي من السودان . وصحب منها ركاب الحج إلى مصر ، ونزل على أميرها المتغلب
على سلطانها يومئذ ، وهو مليغا الخاصكي^(١) وأنهى خبره إليه وعرف بمكانه ،
فاستبلغ في تكريمه بما يناسب بيته وسلطانه . وقضى حجه وانصرف إلى المغرب ،
فهلك بقرب الإسكندرية سنة ست وستين وسبعائة واستقل عبد المؤمن ، بأمر
سجالمة حتى كان من نهوض العسكر إليه ما ذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة أخرى : يُلبغا الخاصكي .

* (الخبر عن نهوض ابن ماسي بالعساكر الى سجلماسة
واستيلائه عليها ولحاق عبد المؤمن بمراكش) *

لما افرقت كلمة اولاد السلطان ابي عنان وخلع عبد المؤمن أخاه تطاول الوزير عمر
إلى التغلب عليهم . ونزع إليه الأحلاف عدو أولاد حسين وشيعة عبد الحلیم المخلوع ،
فجهز العساكر وبث العطاء وأزاح العلل ، وسرح ظهيره مسعود بن ماسي إلى
سجلماسة ، فنهض إليها في ربيع من سنة أربع وستين وسبعائة . وتلقاه الأحلاف
بجلهم وناجعتهم ، وأغذ السير ونزع الكثير من أولاد حسين للوزير مسعود . وبعث
عامر بن محمد عن عبد المؤمن من سجلماسة ، فتركها ولحق بعامر فتقبض عليه واعتقله
بداره من جبل هنتاة . ودخل الوزير مسعود إلى سجلماسة واستولى عليها . واقتلع منها
جرثومة الشقاق بافتراق دعوة أولاد ابي علي منها . وكرّ راجعاً إلى المغرب لشهرين من
حركته ، فاحتل بفاس إلى أن كان من خبر انتقاضه على عمر وفساد ذات بينهما ما
نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتقاض عامر ثم انتقاض الوزير ابن ماسي
على أثره) *

لما استقل عامر بالناحية الغربية من جبال المصامدة ومراكش وما إلى ذلك من
الأعمال واستبد بها ، ونصب لأمره أبا الفضل ابن السلطان ابي سالم واستوزر له
واستكفأ لأمره^(١) ، وصارت كأنها دولة مستقلة ، فصرف إليه النازعون من بني مرين
على الدولة وجوه مفرهم ولحقوا إليه ، فأجارهم عن الدولة واجتمع إليه منهم ملائمة .
وأشاروا إليه باستقدام عبد المؤمن وأنه أبلغ ترشيحاً من ابي الفضل بنسبه وقيامه على
أمره وصاغية بني مرين إليه ، فاستدعاه وأظهر لعمر أنه يروم بذلك مصلحته والمكر
بعبد المؤمن . ونمي ذلك كله إلى عمر فارتاب به ونزع إليه آخر السبيع بن موسى بن

(١) وفي نسخة أخرى : واستكتب .

ابراهيم الوزير . كان لعبد الحليم فكشف القناع في بطانته^(١) وتجهيز العساكر إليه . واستراب بأهل ولايته ، وعثر على كتاب من الوزير مسعود بن ماسي إليه يخالسه ويبدل له النصيحة ، فتقبض على حامله وأودعه السجن ، فتنكر مسعود وأغراه صحابته الملائون^(٢) له من بني مرين بالخروج ومنازعة عمر في الأمر . ووعدوه النصر منه ، فاضطرب معسكره بالزيتون من خارج فاس مورياً بالترهة أبان الربيع . وزخرف الأرض في شهر رجب من سنة خمس وستين وسبعائة . وبني أصحابه الفساطيط في معسكره حتى اذا استوفى جمعهم واعتزم على الخروج ، ارتحل مجاهراً بالخلاف ، وعسكر بوادي النجا بمن كان بعده الخروج معه من بني مرين . ثم ارتحل إلى مكناسة ، وكتب إلى عبد الرحمن بن علي بن يفلوسن . يستقدمه للبيعة ، وكان يجهات تادلاً قد خرج بها بعد انصرافهم من سجلماسة ، وتخلف عن أخيه عبد المؤمن . وبعث عامر إليهم بعثاً فهزموه ثم لحق ببني ونكاسن ، فبعث إليه ابن ماسي وأصحابه ، فقدم عليهم وبايعوه . وأخرج عمر سلطانه محمد بن أبي عبد الرحمن وعسكر بكدية العرائس . وبث العطاء وأزاح العلل . ثم ارتحل إلى وادي النجا ، فبيته مسعود وقومه فثبت هو ومعسكره في مراكزهم حتى إنجاب الظلام وقرؤا أمامهم ، فاتبعوا آثارهم وانفض جمعهم وبداهم ما لم يحتسبوه من اصفاق الناس على السلطان ووزيره عمر واعتصامهم بطاعته ، فاندعروا .

ولحق مسعود بن ماسي بن رحو بتادلاً ، ولحق الأمير عبد الرحمن ببلاد بني ونكاسن . ورجع عمر والسلطان إلى مكانهما من الحضرة . واستمال مشيخة بني مرين فرجعوا إليه وعفا لهم عنها واستصلحهم . وتمسك أبو بكر بن حماسة بدعوة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأقامها في نواحيه ، وبايعه عليها موسى بن سيد الناس من بني علي أهل جبل دبدو من بني ونكاسن بما كان صهراً له . وخالفه قومه إلى الوزير عمرو واعدوه بالنهوض إلى أبي بكر بن حماسة ، فنهض وغلبه على بلاده . واقتحم حصنه انكاوان^(٣) وقر هو وصهره موسى وفارقوا سلطانهم عبد الرحمن وبنذوا إليه عهده . ورجعوا إلى طاعة صاحب فاس ، فلحق هو بتلمسان ونزل على السلطان أبي حمو

(١) وفي نسخة أخرى : مطالبته .

(٢) وفي نسخة أخرى : الملائون .

(٣) وفي نسخة أخرى : ايكوان .

فاستبلغ في تكريمه ولحق وزيره مسعود بن ماسي بدبدة ونزل على أميره محمد بن زكراز^(١) صاحب ذلك الثغر. وبعث إلى الأمير عبد الرحمن من تلمسان ليطارده به لفرصة ظنّها في المغرب ينتهزها. وأبي عليه أبو حمّو من ذلك ، فركب مطية الفرار ولحق بابن ماسي وأصحابه ، فنصبوه للأمر وأجلبوا على تازي . ونهض الوزير إليهم في العساكر واحتلّ بتازي وتعرضوا للقائه ، ففضّ جموعهم وردّهم على أعقابهم إلى جبل دبّو وسعى بينهم وتزمار بن عريف ولي الدولة في قبض عنانهم عن المنازعة والتجافي عن طلب الأمر ، وأن يجيزوا إلى الأندلس للجهاد فأجاز عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره ابن ماسي من غساسة فاتح سبع وستين وسبعمائة وخلا الجو من أجلابهم وعنادهم ورجع الوزير إلى فاس واحتشد إلى مراکش كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه الى مراکش) *

لما فرغ عمر من شأن مسعود وعبد الرحمن بن أبي يفلوسن صرف نظره إلى ناحية مراکش وانتزى عامر بن محمد بها . وأجمع أمره على الحركة إليه فأفاض العطاء ونادى بالسفر إلى حرب عامر وأزاح العلل ، وارتحل إليه لرجب من سنة سبع وستين وسبعمائة وصعد عامر وسلطانه أبو الفضل إلى الجبل . فاعتصم به وأطلق عبد المؤمن من معتقله ، ونصب له الآلة وأجلسه على سرير حذاء سرير أبي الفضل يوهم أنه قد بايع له ، وانه أحكم أمره يحأجيء بذلك لبني مرين لما يعلم من صاغيتهم إليه . وخشي مغبة ذلك ، فألان له القول ولاطفه في الخطاب ، وسعى بينهما في الصلح حسون بن علي الصبّيحي فعقد له عمر من ذلك ما أرضاه وانقلب إلى فاس . ورجع عامر عبد المؤمن إلى معتقله وأمر الأحوال على ما كانت من قبل إلى أن بلغهم قتل الوزير لسلطانه ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : محمد بن زكردان وقد مر معنا في السابق .

* (الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن
وبيعة عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن) *

كان شأن هذا الوزير عمر في الاستبداد على سلطانه هذا عجباً حتى بلغ مبلغ الحجر من الصبيان . وكان جعل عليه العيون والرقباء حتى من حرمة وأهل قصره . وكان السلطان كثيراً ما يتنفس الصعداء مع ندمائه ومن يختصه بذلك من حرمة إلى أن حدث نفسه باغتيال الوزير ، وأمر بذلك طائفة من العبيد كانوا يختصون به ، فمضى القول ، وأرسل به إلى الوزير بعض الحرم كانت عيناً له عليه ، فخشي على نفسه ، وكان من الاستبداد والدولة أن الحجاب مرفوع له عن خلوات السلطان وحرمة ، ومكاشفة رتبته ، فخلص إليه في حشمة وهو معاصر لندمائه ، فطردهم عنه وتناول غطا حتى فاض وألقوه في بئر في روض الغزلان . واستدعى الخاصة فأراهم مكانه وأنه سقط عن دابته وهو ثمل في تلك البئر ، وذلك في الحرم فاتح ثمان وستين وسبعائة لست سنين من خلافته . واستدعى من حينئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن وكان في بعض الدور من القصبة بفاس تحت الرقباء والحراسة من الوزير لما كان السلطان محمد يروم الفتك به غيره منه على الملك ، لمكان ترشيحه ، فحضر بالقصر وجلس على سرير الملك . وفتحت الأبواب لبني مرين والخاصة والعامّة فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته . وكمل أمره وبادر الوزير من حينه إلى تجهيز العساكر إلى مراکش ونادى بالعطاء وفتح الديوان وكمل الأعراض وارتحل بسلطانه من فاس في شهر شعبان ، وأخذ السير إلى مراکش ونازل عامر بن محمد بمعقله من جبل هنتاة ومعه الأمير أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم وعبد المؤمن ابن السلطان أبي علي ، أطلقه من الاعتقال أيضاً وأجلسه موازي ابن عمه ، واتخذ له الآلة يمّوه به في شأنه الأول ، ثم سعى بينه وبين عمر في الصلح ، فانعقد بينهما وانكفاً راجعاً بسلطانه إلى فاس في شهر شوال ، فكان حتفه إثر ذلك ، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

* (الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبدالله واستبداد السلطان
عبد العزيز بأمره) *

كان عمر قد عظم استبداده على السلطان عبد العزيز فحجره
ومنعه من التصرف في شيء من أمره . ومنع الناس من النهوض
له في شيء من أمورهم . وكانت أمّه حذرة عليه إشفاقاً وحجاً .
وكان عمر لما ملك أمره واستبدّ عليه ، سما إلى الإصهار إليهم في بنت السلطان ابي
عنان ، واشترط لها زعموا تولية أخيها الأمير ونمي ذلك إلى السلطان ، وأن عمر مغتاله
لا محالة . وقارن ذلك أن عمر أوعز إلى السلطان بالتحول عن قصره إلى القصبه ،
فركب أسنّة الغدر لا اضطراره واعتزم على الفتك به ، وأكمن بزوايا داره جماعة من
الرجال وأعدّهم بالتوثب به . ثم استدعاه إلى بيته للمؤامرة معه على ستته ، فدخل
معه وأغلق الموالي من الخصيان باب القصر من ورائه . ثم أغلظ له السلطان بالقول
وعتبه . ودلف الرجال إليه من زوايا الدار فتناولوه بالسيوف هرباً . وصرخ ببطانته
بجيث أسمعهم فحملوا على الباب وكسروا أغلاقه فألفوه مضرّجاً بدمائه ، فولّوا الأدبار
وانفضّوا من القصر واندعروا وخرج السلطان إلى مجلسه فاقعد أريكته واستدعى
خاصته . وعقد لعمر بن مسعود بن مندبل بن حمامة من بني مرين وشُعَيْب بن
ميمون بن وَرْدَان من الجشم ويحيى بن ميمون بن المصمود من الموالي ، وكملت بيعته
منتصف ذي القعدة سنة ثمان وستين وسبعائة وتقبّض على عليّ بن الوزير عمر وأخيه
وعمه وحاشيتهم ، وسرّبهم واعتقلهم حتى أتى القتل عليهم ليلال . واستأصل المكان
شأفتهم وسكن وأمن ورد النافرين بأمانه وبسط بشره ثم تقبّض لأيام على سليمان بن
داود ومحمد السبيع ، وكانا في مخالصة عمر بمكان فاعتقلها استرابة بهما ولشيء نمي له
عنها . وأودعها السجن إلى أن هلكا واعتقل معها علال بن محمد والشريف أبا
القاسم ريبة بصحابتها . ثم امتنّ عليها بشفاعه ابن الخطيب وزير ابن الأحمر
وأقصاه . ثم أطلق عنانه في الاستبداد وقبض أيدي الخاصّة والبطانة عن التصرف في
شيء من سلطانه إلا بإذنه وعن أمره . وهلك لأشهر من استبداد الوزير شعيب بن
ميمون . ثم هلك يحيى بن ميمون على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن انتراء أبي الفضل بن المولى أبي سالم ثم نهوض
السلطان اليه ومهلكه) *

لما فتك السلطان عبد العزيز بعمر بن عبد الله المتغلب عليه ، سوّلت لأبي الفضل ابن
السلطان أبي سالم نفسه مثلها في عامر بن محمد ، لمكان استبداده عليه ، وأغراه
بذلك البطانة . وتوجس لها عامر فتمارض بداره . واستأذنه في الصعود إلى معتصمه
بالجبل ليمرضه هنالك أقاربه وحرمه ، وارتحل بجملته . ويثس أبو الفضل من
الاستمكان منه وأغراه حشمة بالراحة من عبد المؤمن . ولليال من منصرف عامر ثم
أبو الفضل ذات ليلة ، وبعث عن قائد الجند من النصارى ، فأمر بقتل عبد المؤمن
بمكان معتقله من قسبة مراکش فجاء برأسه إليه . وطار الخبر إلى عامر فارتاع
وحمدا لله إذ خلص من غائلته . وبعث ببيعته إلى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبي
الفضل ورغبه في ملك مراکش . ووعدته بالمظاهرة فأجمع السلطان أمره على النهوض
إلى مراکش . ونادى في الناس بالعطاء ، وقضى أسباب حركته وارتحل من فاس سنة
تسع وستين وسبعائة واستبدّ أبو الفضل من بعد مهلك عبد المؤمن واستوزر طلحة
النوري^(١) وجعل علامته لمحمد بن محمد بن منديل الكناني ، وجعل شوراه لمبارك بن
ابراهيم بن عطية الخلطي . ثم أشخص طلحة النوري بسعاية الكناني ، فقتله واعتمد
منازلة عامر بعساكره . ولما فصل لذلك من مراکش جاءه الخبر بحركة السلطان عبد
العزيز إليه ، فانفضّ معسكره ولحق بتادلاً ليعتصم بها في معقل بني جابر . وعاج
السلطان بعساكره عن مراکش إليها ، فنازله وأخذ بمخنقه وقاتله ، فقلّ عسكره
وداخله بعض بني جابر في الاخلال بمصافه يوم الحرب على مال يعطيه لهم ،
ففعلوا ، وانهمت عساكر أبي الفضل وجموعه ، وتقبّض على أشياعه . وسيق
مبارك بن ابراهيم إلى السلطان فاعتقله إلى أن قتله مع عامر عند مهلكه كما نذكره
وفر الكناني إلى حيث لم يعلم مسقطه . ثم لحق بعامر بن محمد ولحق أبو الفضل بقباثل
صناكة من ورائهم . وداخلهم أشياع السلطان من بني جابر وبذلوا لهم المال الدثر في
إسلامه . فأسلموه وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون ، فجاء به أسيراً

(١) وفي نسخة أخرى : السنوري .

وأحضره السلطان فوثّخه وقرّعه واعتقله بفسطاط في جواره ، ثم غطّ من الليل .
وكان مهلكه في رمضان من سنة تسع وستين وسبعائة سنين من إمارته على مراکش ،
وبعث السلطان إلى عامر يختبر طاعته بذلك فأبى عليه وجاهر بالخلاف إلى أن كان
من شأنها ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن
مصمود ومقتله) *

كان يحيى بن ميمون هذا من رجالات دولتهم وربى في دولة السلطان أبي الحسن ،
وكان عمّه علال عدوّاً له بعداوة أبيه . ولما انتزى السلطان أبو عنان على ملك أبيه ،
استخلص يحيى هذا سائر أيامه ، وهلك عمر يوم مهلكه كما ذكرناه . واستعمل
يحيى هذا ببجاية ، فلم يزل بها إلى أن تقبّض عليه الموحدون ، لما استخلصوا ببجاية من
يده . وسار إلى تونس واعتقل بها مدّة . ثم صرفوه إلى المغرب أيام عمر ، فاخصّ
به . ولما عقد له السلطان عبد العزيز على وزارته وكان قوي الشكيمة شديد الحزم
صعب العداوة مرهف الحدّ ، وكان عمّه علال بعد أن أطلقه السلطان من الاعتقال
نكبه عن إذنه^(١) وأقامه متصرفاً بين يديه ، فألقى إلى السلطان استبداد يحيى عليه
وحذره من شأنه ، ورفع إليه أنه يروم تحويل الدعوة لبعض القرابة من آل عبد الحق ،
وأنه داخل في ذلك قواد الجند من النصارى . وأصاب الوزير وجع قعد به عن مجلس
السلطان ، فاختلف الناس إلى زيارته وعكف ببابه قواد النصارى ، فاستريب بأمرهم
وتيقن الأمر بعكوفهم ، فأرسل السلطان من حشمه من تقبّض عليه وأودعه السجن .
ثم جنب إلى مصرعه من الغد وقتل قعصاً بالرماح ، وقتل المتهمون من القرابة وقواد
الجند ، واستلحموا جميعاً وصاروا مثلاً في الآخرين ، والأمر لله .

* (الخبر عن حركة السلطان إلى عامر بن محمد ومنازلته بجبله
ثم الظفر به) *

لما فرغ السلطان من شأن أبي الفضل عقد على مراکش لعليّ بن محمد بن أجّانا من
(١) وفي نسخة ثانية : مكّنه من اذنه .

صنائع دولتهم . وأوعز إليه بالتضييق على عامر والأخذ بمخنقه وإلجائه إلى الطاعة . وانقلب إلى فاس ، واعتزم على الحركة إلى تلمسان . وبينما هو في الاستنفار لذلك إذ جاءه الخبر بأن علي بن أجانا نهض إلى عامر وحاصره أياماً . وأن عامراً زحف إليه . ففضّ معسكره وتقبّض على ابن أجانا والكثير من العسكر ، فاعتقلهم ، فقام السلطان في ركائبه وقعد ، وأجمع أمره على النهوض إليه بكافة بني مرين وأهل المغرب ، فبعث في الحشود وبثّ العطاء ، وعسكر بظاهر البلد حتى استوفى الغرض وعقد على وزارته لأبي بكر بن الغازي بن يحيى بن الكاس ، لمكان فيه من محابيل الرياسة والكفاية ، وارتفع محله . وارتحل سنة سبعين وسبعمئة فاحتلّ بمراكش ، ثم خرج إلى منازل الجبل ونازله^(١) ، وكان عامر بن محمد قد نصب بعض الأعياص من آل عبد الحق من ولد أبي ثابت بن يعقوب اسمه تاشفين ، ولحق به علي بن عمر ويعلان من شيوخ بني ورتاجن كبير بني مرين ، وصاحب الشورى فيهم لعهدده ، فاشتدّ أزره به . وتوافى به كثير من الجند النازعين عن السلطان رهبة من بأسه أو سخطه لحاله ، أو رغبة فيما عند عامر فرتبهم^(٢) . وأمسك الله يده عن العطاء ، فلم تنس^(٣) بقطرة . وطال مثوى السلطان بساحته وعلى حصاره . ورتب المقاعد للمقاتلة وغاداه للقتال وراوحوه . وتغلّب على حصونه شيئاً فشيئاً إلى أن تعلق بأعلى جبل تامسكروط ، وكان لأبي بكر بن غازي غناء مذكور ، ويش أصحاب عامر وأشياعه من عطائه . وفسد ما بينه وبين علي بن عمر هذا ، فدرس إلى السلطان يطلب الأمان ، وتوثق لنفسه ثم نزع إليه . وداخله فارس بن عبد العزيز أخي عامر في القيام بدعوة السلطان والخلاف على عمّه ، لما كان يوسق به من إرهاف الحدّ وتفضيل ابنه أبي بكر عليه فبلغ خبره إلى السلطان واقتضى له وثيقة من الأمان والعهد بعث به إليه فثار بعثه . واستدعى القبائل من الجبل فأجابوه واستحث السلطان للزحف إليهم ، فزحفت العساكر والجنود واستولت على معتصم الجبل . ولما استيقن عامر أن قد أحيط به أوعز إلى ابنه أن يلحق بالسلطان مموهاً بالتزوع ، فألقى بنفسه إليه وبذل له

(١) وفي نسخة ثانية : ثم خرج إلى منازلته .

(٢) وفي نسخة ثانية : قريهم .

(٣) وفي نسخة ثانية : لم يسئل .

الأمان وألحقه بجملته . وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص إلى السوس
فردّه الثلج . وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام برداً وثلجاً حتى تراكم بالجبل
بعضه على بعض . وسدّ المسالك فاقتحمه عامر وهلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه .
وعاين الهلكة العاجلة فرجع مخفياً أثره إلى غارٍ أوى إليه مع أدلاء بذل لهم المال
يسلكون به ظهر الجبل إلى الصحراء بالسوس . وأقاموا ينتظرون إمساك الثلج . وأقام
وأغرى السلطان بالبحث عنه فدلّهم عليه بعض البربر عثروا عليه فسيق إلى السلطان
وأحضره بين يديه ووبّخه فاعتذر ونجى بالطاعة . ورغب في الإقالة واعترف بالذنب ،
فحمل إلى مضرب بني له بازاء فسطاط السلطان ، واعتقل هنالك . وتقبّض يومئذ
على محمد الكناني فاعتقل وانطلقت الأيدي على معاقل عامر ودياره ، فانتهب من
الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات والخرق ما لا عين رأت ولا خطر على
قلب أحد منهم . واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة إحدى
وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره . وعقد على هتاتة لفارس بن عبد العزيز بن
محمد ابن علي وارتحل إلى فاس واحتل بها آخر رمضان ودخلها في يوم
مشهود برز فيه الناس . وحمل عامر وسلطانه تاشفين على جملين وقد أفرغ عليهما الرث
وعبثت بهما أيدي الإهانة فكان ذلك عبرة لمن راه ولما قضى منسك الفطر أحضر عامر
فقرعه بذنوبه وأوتي بكتابه بخطه يخاطب فيه أبا حمو ويستنجده على السلطان فشهد
عليه وأمر به السلطان فامتحن ولم يزل يجلد حتى انتنّ لحمه ، وضرب بالعصي حتى
ورمت أعضاؤه ، وهلك بين يدي الوزعة ، وأحضر الكناني ففعل به مثله . وجنب
تاشفين سلطانه إلى مصرعه فقتل قعصاً بالرماح وجنب مبارك بن ابراهيم من محبسه
بعد الاعتقال ، فألحق بهم ولكل أجل كتاب وصفا الجوّ للسلطان من المنازعين .
وفرغ لغزو تلمسان كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء) *

قد تقدّم لنا ذكر تغلب الطاغية ابن الهنشة على الجزيرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة
وأنه نازل بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وهلك بالطاعون وهو محاصر
له عندما استفحل أمره واشتدّت شوكته . وكفى الله شأنه وولّى أمر الجلالقة بعده ابنه

بطرة ، وعدا على سائر إخوته . وفرّ أخوه القمط ابن حظية أبيه المسماة بلغتهم الرّيق (بهمة) إلى ققط برشلونة فأجاره وأنزله خير نزل . ولحق به من الزعماء المريكس (١) ابن خالته وغيره من اقماطهم (٢) وبعث إليه بطرة ملك قشتالة في إسلام أخيه فآبى من إخفار جواره . وحدثت بينهما بذلك الفتنة الطويلة افتتح بطرة فيها كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي أرضه ، وحاصر بلنسية قاعدة شرق الأندلس مراراً أرجف عليها بعساكره ، وملاً البحر إليها بأساطيله إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيها ملكته ، فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه فرحف إلى قرطبة . وثار على بطرة أهل إشبيلية وتيقن صاغية النصارى إليه ، وفرّ عن مملكه ولحق بملك الأفرنج وراء جليقية وفي الجوف عنها وهو صاحب انكلطرة ، واسمه ألفنس غالس . ووفد عليه صريحاً سنة سبع وستين وسبعمائة فجمع قومه وخرج في صريخه إلى أن استولى على مملكه . ورجع ملك الأفرنج فعاد النصارى إلى شأنهم مع بطرة . وغلب القمط على سائر الممالك فتحيز بطرة إلى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين . ونادى صريحاً بابن الأحمر فانتهاز فيها الفرصة . ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في أرض النصرانية ، وخرّب معاقلهم ومدنهم مثل أبدة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم . ثم رجع إلى غرناطة ، ولم تزل الفتنة قائمة بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلب عليه القمط وقتله . وفي خلال هذه الفتن بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة . وتشوّف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين . وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بما كان فيه من انتقاض أبي الفضل ابن أخيه وعامر بن محمد ، فراسل صاحب الأندلس أن يزحف إليه بعساكره على أن عليه عطاءهم وامدادته بالمال والأساطيل على أن يكون مثوبة جهاده خالصة له ، فأجاب إلى ذلك وبعث إليه أحمال المال . وأوعز إلى أساطيله بسبته فعمرت واقلعت من مرسى الجزيرة لحصارها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل ، واستعدّ الآلات للحصار ، فنازلها أياماً قلائل . ثم أيقن النصارى بالهلك لبعدهم عن الصريخ وبأسهم عن مدد ملوكهم ، وألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان إليه ، ونزلوا عن البلد وأقيمت فيها شعائر الإسلام

(١) وفي نسخة ثانية : المركش .

(٢) وفي نسخة ثانية : اقماصهم .

ومراسمه ، ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته . وكتب الله أجراها لمن أخلص في معاملته وكان ذلك سنة سبعين وسبعائة وولّى ابن الأحمر عليها من قبله . ولم تزل لنظره إلى أن تمحّض النظر عن هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها ، فهدمت أعوام ثمانين وسبعائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس . والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وعلى سائر بلادها وفرار أبي حمو عنها) *

كان عرب المعقل موطنين بصحراء المغرب من لدن السوس ودرعة وتافيلالت وملوية وصا^(١) . وكان بنو منصور منهم أولاد حسين والأحلاف مختصين بطاعة بني مرين وفي وطنهم . وكانوا مغلوبين للدولة تحت قهر من سلطانها . ولما ارتجع بنو عبد الواد ملكهم بتلمسان على يد أبي حمو ، وكان الاحلاف بالمغرب ، عاث هؤلاء المعقل وأكثروا في الوطن الفساد . ولما استقالت الدولة من عثارها تحيّرنا إلى بني عبد الواد وأقطعوهم في أوطانهم . واستقرّوا هنالك من لدن نزوع عبدالله بن مسلم العامل بدرعة إلى أبي حمو ووزارته له . وفسد ما بين سلطان المغرب وأبي حمو من جرّاء ذلك . ونهض أبو حمو سنة ست وستين وسبعائة إلى المغرب ، وعاث في نواحي دبدو ثغر المغرب فنشأت^(٢) لذلك نار العداوة بينه وبين صاحب الثغر محمد بن زكراز^(٣) فكان داعية لعداء صاحب المغرب على الأيام . ولما استبدّ السلطان عبد العزيز وهلك صاحبهم عبدالله بن مسلم ، وتردّدت الرسل بين أبي حمو وبين السلطان عبد العزيز ، كان فيما اشترط عليه التجاني عن قبول عرب المعقل عرب وطنه ، لما فيه من الاستكثار بهم عليه . وأبى عليهم أبو حمو منها لاستظهاره بهم على زغبة من أهل وطنه وغيرهم . وكثر التلاحي في ذلك وأحفظ السلطان وهمّ بالنهوض إليه سنة سبعين وسبعائة وأقصر لما أخذ بحجزته من خلاف عامر . وصاحب الثغر محمد بن زكراز أثناء ذلك يحرّضه على الحركة إلى أبي حمو ويرغبه في ملك تلمسان . ولما قضى السلطان حركة مراکش

(١) هي قلعة (زا) والـ (ز) تلفظ (صاد) عند البربر ، لذلك كتبها ابن خلدون بالصاد .

(٢) وفي نسخة ثانية : نشبت .

(٣) وفي نسخة ثانية : زكدان .

وفرع من شأن عامر ورجع إلى فاس ، ولقى^(١) بها أبو بكر بن عريف أمير سويد في قومه من بني مالك بجلهم وناجعتهم ، صريخاً على أبي حمّو لما نال منهم . وتقبّض على أخيه محمد ورؤساء بني مالك جزاء بما يعرف لهم ولسلفهم من ولاية صاحب المغرب . ووفد عليه رسل أهل الجزائر ببيعتهم يستحثون السلطان لاستنقاذهم من لهواته . وأمر السلطان بذلك وليه ونزمار ومحمد بن زكراز صاحب دبدو فزعموا له بالغناء في ذلك واعتزم على النهوض إلى تلمسان وبعث الحاشدين إلى مراکش للاحتشاد ، وتوافى الناس ببابه على طبقاتهم أيام منى من سنة إحدى وسبعين وسبعائة وأفاض العطاء وأزاح العلل ، ولما قضى منسك الأضحى اعترض العساكر ورحل إلى تلمسان ، واحتل بتازي . وبلغ خبر نهوضه إلى أبي حمّو ، فجمع من إليه من زنانة الشرق وبني عامر من عرب المعقل وزغبة . وتوافت جموعه بساحة تلمسان واضطرب هنالك معسكره واعترض جنوده واعتزم على الزحف للقاء بني مرين ثقة بمكان المعقل . وتخيّر من كان معه من عرب المعقل الأحلاف وعبيد الله إلى السلطان عبد العزيز بمداخلة وليهم ونزمار . واجتمعوا إليه وسرح معهم صنائعه فارتحلوا بين يديه وملكوا طريق الصحراء . وبلغ خبر تخيّرهم وإقبالهم إلى أبي حمّو فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر وملكوا على البطحاء . ثم ارتحلوا عنها وعاجوا على منداس ، وخرجوا إلى بلاد الديالم . ثم لحقوا بوطن رياح فزلوا على أولاد سباع بن علي بن يحيى .

وارتحل السلطان عبد العزيز من تازي وقدم بين يديه وزيره أبا بكر بن غازي ، فدخل تلمسان وملكها . ورحل السلطان على أثره واحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعائة ، فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر ابن غازي على العساكر من بني مرين والجنود والعرب من المعقل وسويد ، وسرحه في اتباعه وجعل شورا إلى وليه ونزمار وفوض إليه في ذلك . فارتحلوا من تلمسان آخر المحرم وكنت وافداً على أبي حمّو ، فلما أجفل عن تلمسان ودّعته وانصرفت إلى هُنَيْن للإجازة إلى الأندلس . ووشى بعض المفسدين إلى السلطان بأني احتملت مالاً للأندلس ، فبعث جريدة من معسكره للقبض عليّ ، ووافوني بوادي الزيتون قبل

(١) وفي نسخة ثانية : وافاه .

مدخلي إلى تلمسان فأحضرنني وسألني ، وتبين كذب الواشي فأطلقني وخلع عليّ وحملني . ولما ارتحل الوزير في اتباع أبي حمّو استدعاني وأمرني بالنهوض إلى رباح والقيام فيهم بدعوته وطاعته ، وصرفهم عن طاعة أبي حمّو وصرىخه ، فنهضت لذلك ، ولحقتُ بالوزير بالبطحاء ، وارتحلتُ معه إلى وادي ورك من بلاد العطاف ، فودّعته وذهبت لوجهي وجمعت رباح على طاعة السلطان ونكبت بهم عن طاعة أبي حمّو فنكبوا عنها . وخرج أبو زيان من محل نزوله بحُصَيْن ، فلحق بأولاد محمد ابن علي بن سبّاع من الزواودة . وارتحل أبو حمّو من المسيلة فتزل بالدوسن وتلوم بها . وأوفدت من الزواودة على الوزير ونزمار فكانوا أدلاءهم في النهوض إليه . ووافوه بمكانه من الدوسن في معسكره من زناته وحلل بني عامر ، والوزير في التعبية ، وأمّ زناته والعرب من المعقل وزغبة ورياح مخيفة^(١) به . فأجهضوه عن ماله ومعسكره ، فانتهب بأسره . واكتسحت أموال العرب الذين معه ، ونجا بدمائه إلى مصاب . وتلاحق به ولده وقومه متفرّقين على كل مفازة ، وتلوم الوزير بالدوسن أياماً . ووافاه بذلك لحاق بني مرين^(٢) وانقلب إلى المغرب . ومرّ على قصور بني عامر بالصحراء فاستباحها ، وشردهم عنها إلى قاصية القفر ومفازة العطش . ولحق بتلمسان في ربيع الثاني .

ووفدتُ أنا بالزواودة على السلطان ورئيسهم أبو دينار بن علي بن أحمد ، فبرّ السلطان مقدمه ورعى له سوابقه عند أخيه^(٣) ، وخلع عليه وحمله وخلع على الوفد كافة وانصرفوا إلى مواطنهم . وبعث السلطان عمّاله على الأمصار ، وعقد لصنائه على النواحي ، وجهّز الكتائب مع وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمّامة ، لحصار حمزة بن علي بن راشد من آل ثابت بن منديل ، كان ربّي في حجر الدولة ونشأ في جوّ نعمتها وسخط حاله لديهم . فترع إلى وطن سلفه من مغراوة . ونزل بجبل بني بوسعيد فأجاروه وباعوه على الموت دونه . وسرّح السلطان وزيره إلى الأخذ بمخنقهم ، فتزل عليهم وقاتلهم وامتنعوا في رأس شاهقهم ، فأوطن الوزير بالخميس من وادي شلف وأحجرهم بمعتصمهم . وتوافت لديه الأمداد من تلمسان ، فجهّزها

(١) وفي نسخة ثانية : محدقة به .

(٢) وفي نسخة ثانية : ووافاه هنالك اتخاف ابن مزني .

(٣) وفي نسخة ثانية : عند أبيه .

كتائب وبوأهم المقاعد للحصار ، وأقام هنالك واستولى السلطان على سائر الوطن من
الأمصار والأعمال ، وعقد عليها واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه .
والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان
إلى تيطرا واجلاب العرب بأبي حمو على تلمسان إلى أن غلبهم
السلطان جميعاً على الأمر واستوسق له الملك) *

لما خلاص أبو حمو من وقعة الدوسن هو وأحياء بني عامر أشياعه ، لحقوا بالصحراء
وأبعدوا فيها عن قصورهم قبلة جبل راشد . وجمع الوزير ونزمار بن عريف بأحياء
العرب كافة من زغبة والمعقل . وكان السلطان لما احتل بتلمسان طلب العرب منه
إطلاق أيديهم على ما أقطعهم أبو حمو إياه من الوطن على الزبون والاعتزاز عليه ،
فاستنكف من ذلك لعظم سلطانه واستبداد ملكه ، فسخطوا أحوالهم ورجوا أن
يكون لأبي حمو ظهور ينالون به من ذلك ما أمّلوه . فلما انهزم وقلت عساكره ،
وظهر السلطان ظهوراً لا كفاء له فيشوا ، أجمع رحو بن منصور أمير الخراج من
عبيد الله إحدى بطون المعقل الخروج على السلطان ، ولما خرج العرب إلى مشاتهم
لحق بأبي حمو وأحياء بني عامر وكاثروهم وقادوهم إلى العيث في الأوطان . فأجلبوا
على ممالك السلطان ونازلوا وجدة في رجب من سنة إثنين وسبعين وسبعائة وصمدت
نحوهم العساكر من تلمسان ، فأجفلوا وعاجوا إلى البطحاء فاكتمسحوا أوطانها .
ونفض إليهم الوزير في العساكر ففرّوا أمامه ، واتبع آثارهم إلى أن أصبحوا . واستنسر
خلال ذلك حمزة بن علي بن راشد ، فبيّت معسكر الوزير بمكانه من حصار شلف ،
ففضّ جموعه ولحق مفلولاً بالبطحاء وبلغ الخبر إلى حصين وكانوا راهبين من
السلطان ، لما اشتهر عنهم من الأجلاب على الدول والقيام بأمر الخوارج ، فجأجؤا
بأبي زيان الثائر كان عندهم من مكانه بأحياء أولاد يحيى بن علي بن سباع من
الزواودة ، فلحق بهم وأجلبوا على ضواحي المدينة ونازلوا عسكر السلطان بها .
واضطرم المغرب الأوسط نازلاً ، واتصل ذلك به مدة . ولما كان سنة ثلاث وسبعين

وسبعائة استمال السلطان رحو بن منصور عن أبي حمو وبذل له مالا وأقطعه ما أحب من الضواحي ، وفعل ذلك بسائرهم وملاً صدورهم ترغيباً . واعتزم على تجهيز العساكر معهم لحسم أدواء الفساد وإخراج الثوار من النواحي . واتهم وزيره عمر بن مسعود بالمداهنة في أمر المغراوي ، فسرح من دولته من تقبض عليه وأشخصه إلى حضرته مقيداً . واعتقله بفاس وجهز عساكره واعترض جنوده ، وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على حرب الثوار والخوارج ، فهض من تلمسان في رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعائة واعتمد حمزة على ابن راشد في معتصمه بجبل بني بوسعيد ، وألح عليه بالقتال فعضتهم الحرب بناها ، وداخلهم الرعب ، وأوفدوا مشيختهم على الوزير بالطاعة . ونبد العهد إلى حمزة فعقد لهم ما ابتغوه . ولحق حمزة بأبي زيان بمكانه من حصين . ثم أثنى عزمه عن ذلك ورجع إلى ضواحي شلف . وبيتته بعض الحامية فثبتوا في مراكزهم وانفض جمعهم ، وتقبض عليه وسبق إلى الوزير فاعتقله وبعث إلى السلطان في شأنه ، فأمر بقتله ، فاحتر رأسه ورؤوس أشياعه وبعث بهم إلى السلطان وعلق أشلاءهم بسور مليانة . ثم زحف إلى حصين فأحجرهم بمقلهم بتيطرا ، واجتمعت إليه أحياء زغبة كافة . فأحاط بهم من كل جانب وطاولهم الحصار وعاودوهم الحرب ، وخاطبني السلطان بمكاني من الزاب ، وأوعز إليّ بنفير رياح كافة إلى معسكر الوزير فاستترهم^(١) بأحيائهم وناجعتهم ، ونازلنا الجبل من ناحية الصحراء مما يلي ضواحي رياح ، فأصابهم الجهد وداخلهم الرعب ، وانفضوا من المعقل واندعروا في الجهات في المحرم فاتح أربع وسبعين وسبعائة ولحق أبو زيان بواركلي ، واستولى الوزير على المعقل وانتهب ما فيه ، واقتضى رهن حصين على الطاعة وقرر عليهم الوضائع والمغارم ، فأعطوها عن يد . وكان أبو حمو في خلال ذلك قد أجلب على تلمسان ينتهز الفرصة في انتباز العسكر عن السلطان . وكان وليه خالد بن عامر أمير بني عامر من زغبة مرید الطاعة ، لما اتهم أبو حمو به من ولاية رديفه عبدالله بن عسكر بن معروف دونه ، فأسخطه ذلك ، وداخل السلطان عبد العزيز في الانحراف إليه عن أبي حمو على مال حمله إليه ، فترع عنه . وجهز له السلطان عسكر الحرب أبي حمو في ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وسبعائة من

(١) وفي نسخة ثانية : فاستنفرتهم .

بني عامر وأولاد يغمور من المعقل ، وعقد عليهم محمد بن عثمان من قرابة أبي بكر بن غازي وتعرضوا للقائم ، ففضّ جمعهم ومنحوا أكتافهم وأحيط بمعسكر أبي حمو وحلّ العرب فاكسح ما فيها واستولى بنو مرين على أمواله وحرمه وولده ، فاستاقوهم إلى السلطان وأشخصهم إلى فاس فأنزلهم بقصوره . وتقبّض على مولاه عطية بن موسى صاحب شلف ، فامتّن عليه وألحقه بجملته . ونجا أبو حمو وألقى بنفسه إلى عبدالله بن صغير مستميتاً ، فامتّن عليه وبعث معه الادلاء إلى تيكورارين من بلاد القبلة ، فنزلها وكان ذلك بين يدي فتح تيطرا بليال . واستوت قدم السلطان في ملكه واستولى على المغرب الأوسط ، ودفع الثوار والخوارج عنه . واستمال كافة العرب إلى طاعته فأتوها راغبين راهبين . ووفد عليه للوزير أبو بكر بن غازي من قاصية الشرق ومعه مشيخة العرب من كل حيّ من أحيائهم فوصلهم واحتفى بقدمهم ، وركب للقاء الوزير وطلب المشيخة في الرهن على الطاعة والاستحاث لتشريد أبي حمو من تيكورارين ، وأوسع حفايتهم وبرّهم وانصرفوا إلى مشائهم معتملين في أسباب الحركة إلى تيكورارين إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن قدوم ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعا
إليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الاندلس) *

أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي فيه ساحتها المسمّى بالمرج على وادي سنجيل ، ويقال شنبيل المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال ، كان له بها سلف معروفون في وزارتها . وانتقل أبو عبدالله إلى غرناطة واستخدم لملوك بني الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ، ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتأدّب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الأدب . وأخذ عن أشياخه وامتلاً حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه . وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يجاري فيها . وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر وملاً الدولة بمدايحه وانتشرت في الآفاق قدماها ، فرقاه السلطان إلى خدمته وأثبتته في

ديوان الكتاب ببابه مؤسماً بأبي الحسن بن الحباب^(١) شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية . وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه ، عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه كما مرّ في أخبارهم . فاستبدّ ابن الحباب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعائة ، فولّى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتاب ببابه مثناة بالوزارة . ولقبه بها فاستقلّ بذلك . وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو . ثم داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشارطات ، فجمع له بها أموالاً . وبلغ به المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله . وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة مغرباً بأبيه السلطان أبي الحسن فجلى في اغراض سفارته .

ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعائة عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة ، وطعنه فأشواه وفاض لوقته ، وتعاورت سيوف الموالي المعلوجي هذا القاتل فزقوه أشلاء . وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته ، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم . واستبدّ بالدولة ، وأفراد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ، واتخذ لكتابته غيره ، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره وتشاركا في الاستبداد معاً ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة . ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمدّين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه . فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه ، تقدّم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها استأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر	علاك ما لاح في الدجى قمر
ودفعت عنك كف قدرته	ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النايات بدر دجى	لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض أندلس	لولاك ما أوطنوا ولا عمروا

(١) وفي نسخة ثانية : الحباب .

وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ وَطَنٌ فِي غَيْرِ عَيْبِكَ مَالَهُ وَطَرٌ
وَمَنْ بِهِ مَدَدٌ وَصَلَتْ حَبْلُهُمْ مَا جَحَدُوا نِعْمَةً وَلَا كَفَرُوا
وَقَدْ أَهَمَّتْهُمْ نَفْسُهُمْ فَوَجَّهُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا .

فاهتز السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس . وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع إليهم إلا بجميع عطائهم^(١) . ثم أثقل كاهلهم بالإحسان ، وردّهم بجميع ما طلبوه . وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد : لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا . ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين . ثم نازلهم^(٢) محمد الرئيس ابن عم السلطان يشاركه في جدّه الرئيس أبي سعيد . وتخيّن خروج السلطان إلى منزله خارج الحمراء . وتسوّر دارالملك المعروفة بالحمراء وكبس رضواناً في بيته ، فقتله . وذهب للملك اسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج ، لما كان صهره على شقيقته . وكان معتقلاً بالحمراء ، فأخرجه وباع له وقام بأمره مستبدّاً عليه . وأحسّ السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبيستان ، فركب بادياً إلى وادي آش وضبطها . وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب . وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس . واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه . وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مقامه بالأندلس كما مرّ . وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم ، فزيّن له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبوناً على أهل الأندلس ، ويكفّ به عادية القرابة المرشّحين هنالك متى طمحووا إلى ملك المغرب ، فقبل ذلك منه . وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه . وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني ، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب . وحل معتقله . فأطلق ، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش . وسار في ركاب السلطان . وقدموا على السلطان أبي سالم فاهتز لقدوم ابن الأحمر ، وركب في المواكب لتلقّيه ، وأجلسه أزاء كرسيه ، وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مرّ يستصرخ السلطان لنصره ، فوعده وقد

(١) وفي نسخة ثانية : طلباتهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : ثم نازلهم .

نان يوماً مشهوداً وقد مرّ ذكره . ثم أكرم مثنواه وأرغد نُزله ، ووفر أرزاق القادمين في ركابه وانتصر به . وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأقطاع . ثم استأنس واستأذن السلطان في التحول إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها ، فأذن له وكتب إلى العمّال بتحافه ، فتبادروا في ذلك وحصل منه على حظّ وعندما مرّ بسلا في قفوله من سفره ، دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على رويّ الرءاء الموصولة يرثه ويستثير به استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها :

إِنْ بَانَ مَثْرُلُهُ وَشَطَّتْ دَارُهُ قَامَتْ مَقَامَ عِيَانِهِ أَخْبَارُهُ
قَسَمَ زَمَانِكَ عِبْرَةً أَوْ غَيْرَةً^(١) هَذَا ثَرَاهُ وَهَذِهِ آثَارُهُ

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة ، فشفعوه . واستقرّ هو بسلا متبذراً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة . ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة كما مرّ في أخباره . وبعث عن مخلفه بفاس من الأهل والولد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن علي فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره . فسّر السلطان بمقدمه وردّه إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله . وكان عثمان بن يحيى عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه عندما أحسّ بالشرّ من الرئيس صاحب غرناطة . وأجاز يحيى من هنالك إلى العدوة وأقام عثمان بدار الحرب ، فصحب السلطان في مثنوى اغترابه هنالك ، وتغلب في مذهب خدمته . وانحرفوا عن الطاغية بعد ما يشسوا من الفتح على يديه ، فتحوّلوا عنه إلى ثغور بلاده . وخاطبوا عمر بن عبد الله في أن يمكّنهم من بعض الثغور الغربية التي أطاعتهم بالأندلس ، يرتقبون منها الفتح . وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك ، وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله ذمّة مرعيّة ومخالصة متأكدة ، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله . وحملته على أن يردّ عليه مدينة رندة إذ هي من تراث سلفه ، فقبل إشارتي في ذلك . وتسوّرها السلطان المخلوع ، ونزل بها وعثمان بن يحيى في جملته . وهو مقدّم في بطانته .

ثم غزوا منها مالقة ، فكانت ركاباً للفتح . وملكها السلطان واستولى بعدها على دار

^١ وفي نسخة ثانية : غيرة أو عبرة .

ملكها بفرناطة ، وعثمان بن يحيى مقدّم القوم في الدولة عريق في المخالصة ، وله على السلطان دالة واستبداد على هواه . فلما فصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده ، وأعاد السلطان إلى مكانه من الدولة من علّو يده وقبول إشارته ، فأدركته الغيرة من عثمان ، ونكر على السلطان الاستكفاء به ، والتخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه ، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق . ثم غرّبهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب الجوّ وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير المملكة ، وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحلّ والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال ، وغشي بابه الخاصّة والكافّة . وغصّت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السعاية فيه^(١) وقد صمّ السلطان عن قبولها . ونمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب ، فشمّر عن ساعده في التقويض عنهم . واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدو يومئذ في التقبّض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي . كانوا قد نصّبوه شيخاً على الغزاة في الأندلس لما أجاز من العدو بعدما جاس خلالها لطلب الملك ، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبدالله القائم حينئذ بدولة بني مرين ، فاضطرّ إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماسي ونزلوا على السلطان على المخلوع أعوام سبع وستين وسبعمائة فأكرم نزلهم ، وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة ، فقدم عبد الرحمن مكانه . وكان السلطان عبد العزيز قد استبدّ بملكه بعد قتله الوزير عمر بن عبدالله ، فغصّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك . وتوقع انتقاض أمره منهم . ووقف على مخاطبات ابن عبد الرحمن يسرّبها في بني مرين ، فجزع لذلك . وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي وراحة نفسه من شغبيهم ، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابه إلى ذلك وكتب له العهد بخطه ، على يد سفيره إلى الأندلس ، وكاتبه أبي يحيى بن أبي مدين . بني مرين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماسي فتقبّض عليهما . واعتقلها وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية . وربّما خيّل أنّ السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد

(١) وفي نسخة ثانية : فتفننوا في السعيات فيه .

أحفظوه عليه ، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب . واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية . وسار إليها في لمة من فرسانه ، ومعه ابنه عليّ الذي كان خالصة السلطان وذهب لطبنة . فلما حاذى جبل الفتح فرضة المجاز إلى العدو ، مال إليه وسرح إذنه بين يديه ، فخرج قائد الخيل لتلقيه . وقد كان السلطان عبد العزيز قد أوعز إليه بذلك ، وجّهز إليه الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سبتة وتلقاه بها بأنواع التكرمة وامثال الأوامر^(١) . ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعائة بمقامته من تلمسان ، فاهترت له الدولة . وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحلّه بمجلسه بمحل الأمن والغبطة ، ومن دولته بمكان الشرف^(٢) والعزة . وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى الأندلس في طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة . ثم لفظ المنافسون له في شأنه وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وأبدى ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالته وإحصاء عصابته^(٣) . وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه . ورفعت إلى قاضي الحضرة الحسن بن الحسن ، فاسترعاها^(٤) وسجل عليه بالزندقة . وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه . وبعث القاضي أبو الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وامضاء حكم الله فيه ، فصمّ لذلك وأنف لدمته أن تخفر ولحواره أن يردى^(٥) وقال لهم : هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارى . ثم وفر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولن جاء من فرسان الأندلس في جملته . فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعائة ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان ، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة ، فنزل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفي . واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة ثانية : المراسيم .

(٢) وفي نسخة ثانية : البنية .

(٣) وفي نسخة ثانية : مغائبه .

(٤) وفي نسخة ثانية : فاسترداها .

(٥) وفي نسخة ثانية : أن يرد .

الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد
أبي بكر بن غازي عليه ورجوع بني مرين إلى المغرب

كان السلطان منذ أول نشأته قد أزمته به الحمى بما أصابه من مرض النحول ،
ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم على احتماله مع الأبناء إلى رندة . ولما شبَّ أفاق
من مرضه وصلح بدنه . ثم عاوده وجعه في مثواه بتلمسان وتزايد نحوه . ولما كمل
الفتح واستفحل سلطانه واشتدَّ به الوجع وصابر المرض وكتمه عن الناس خشية
الارجاف ، واضطرب معسكره خارج تلمسان للحاق بالمغرب ، ولما كان ليلة الثاني
والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمئة قضى متودِّعاً بين أهله وولده
ودسَّ الخدم بالخبر إلى الوزير ، فخرج على الناس وقد احتمل محمد السعيد ابن
السلطان على كنفه فعزى الناس عن خليفتهم لسبع سنين من خلافته ، وألقى ابنه بين
أيديهم فزدحموا عليه باكين متفجِّعين ، يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة ،
وأخرجوه للمعسكر . ثم أخرج الوزير شلو السلطان على أعواده وأنزله بفساطيطه ،
وأيقظ بالليل بحراسة المعسكر . وأذن للناس بالرحيل ، فخرجوا أفواجا إلى المحلة .
ثم ارتحلوا لثلاث ، وأغذوا السير إلى المغرب واحتلوا بتازي ثم أغذوا السير إلى فاس ،
واحتلَّ ابن السلطان بدار ملكه وجلس للبيعة العامة بقصره . وتوافت وفود الأمصار
بيعتهم على العادة . واستبدَّ عليه الوزير أبو بكر بن غازي ، وحجبه بقصره وحجره
عن التصرف في شيء من سلطانه ، ولم يكن في سنِّ التصرف ، واستعمل على
الجهات وجلس بمجلس النزل ، واشتغل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً إلى أن كان ما
نذكره إن شاء الله تعالى

* (الخبر عن استيلاء أبي حمو على تلمسان
والمغرب الأوسط) *

لما فصل بنو مرين من تلمسان إثر مهلك السلطان عبد العزيز واحتلوا بتازي اجتمع
المشيخة وعقدوا على تلمسان لابراهيم ابن السلطان أبي تاشفين كان ربي في كفالة

دولتهم منذ مهلك أبيه ، فأثروه بذلك لخلوصته . وبعثوه مع رحو بن منصور أمير عبيدالله من المعقل ، وسرحوا معها من كان بالمغرب من مغراوة إلى وطن ملكهم بشلف . وعقدوا عليهم لعلي بن هرون بن مندبل بن عبد الرحمن وأخيه رحمون وانصرفوا إلى بلادهم . وكان عطية بن موسى مولى أبي حمّو قد صار إلى السلطان عبد العزيز وألحقه بجملته وبطانته ، فلما هلك السلطان خرج من القصر واختفى بالبلد حتى إذا فصل بنو مرين من معسكرهم ظاهر البلد ، خرج من مكان اختفائه ، وقام بدعوة مولاة أبي حمّو ، واجتمع إليه شيعة من أهل البلد مع من تأشب إليه من الفوغاء ، وحملوا الخاصة على البيعة لأبي حمّو ، ووصلهم ابراهيم بن أبي تاشفين مع رحو بن منصور وقومه من عبيدالله ، فنبذوه وامتنعوا عليه ، فرجع عنهم إلى المغرب ، وطير أولاد يعمر أولياء أبي حمّو من عبيدالله بالخبر إليه وهو بمثواه من تيكورارين . واتصل بابنه أبي تاشفين وهو عند يحيى بن عامر^(١) فدخل إلى تلمسان ومن معه من بني عبد الواد ، وتساقط إليه فلهم من كل جانب ، ووصل السلطان على أثرهم بعد اليأس منه ، فدخلها في جمادى من سنة أربع وسبعين وسبعمئة واستقل بملكه ، وتقبض على بطانته الذين آسفوه في اغترابه ، ونمي له عنهم السعي عليه ، فقتلهم ، ورجع ملك بني عبد الواد وسلطانهم ، ونهض إلى مغراوة أولياء بني مرين بمكانهم من شلف ، فغلبهم عليه بعد مطاولة وحروب سجال هلك فيها رحمون بن هرون ، ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره ، واستقل بالأمر حسبما ذكرناه في أخباره . واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهمم بالنهوض إليه . ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بناحية بطوية فشغله شأنه عن ذلك .

الخبر عن إجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن إلى المغرب
واجتماع بطوية إليه وقيامهم بشأنه

كان محمد المخلوع ابن الأحمر قد رجع من رندة إلى ملكه بفرناطة في جمادى من سنة

(١) وفي نسخة ثانية : وهو يحيى بن عامر .

ثلاث وستين وسبعائة وقتل له الطاغية عدوه الرئيس المنتري على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع ، واستوى على كرسيه واستقل بملكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب واستخلصه وعقد له على وزارته ، وفوض إليه في القيام بملكه فاستولى عليه وملك هواه . وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه إلى أن نزلت به آفة في رياسته ، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لابناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة على ولد عمهم السلطان أبي علي ويخشونهم على أمرهم . ولما لحق الأمير عبد الرحمن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واستخلصه لنجواه ، ورفع في الدولة رتبته وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة والمجاهدين من زناته مكان بني عمه من الأعياص ، فكانت له آثار في الاضطلاع بها ، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه ، وكان ابن الخطيب ساعياً في مرضاته عند سلطانه ، فدس إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره المطارد به مسعود بن ماسي ، وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره وحمل السلطان عليها إلى أن سطا بهما ابن الأحمر واعتقلها سائر أيام السلطان عبد العزيز سلطان المغرب سنة اثنتين وسبعين وسبعائة لما قدم من الوسائل ومهد من السوابق فقدمه السلطان وأحلّه من مجلسه محل الاصطفاء والقرب . وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه واستقر في جملة السلطان . ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر فرغب السلطان في ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا لذلك عند مرجعه من تلمسان إلى المغرب . ونمي ذلك إلى ابن الأحمر فبعث إلى السلطان بهدية لم يسمع بمثلا ، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه ، وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونكره ، ولما هلك واستبد الوزير ابن غازي بالأمر تحيز إليه ابن الخطيب وداخله وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان ، فلم يؤب^(١) واستنكف ذلك وأقبح الرد ، وانصرف رسله إليه ، وقد رهب سطوته ، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماسي ونهض إلى جبل الفتح فنازله بعساكره

(١) وفي نسخة ثانية : فلج .

ونزل عبد الرحمن ببطوية في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين وسبعمائة ، ومعه وزيره مسعود بن ماسي ، فاجتمع قبائل بطوية إليه وبايعوه على القيام بدعوته والموت دونه ، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فعقد لابن عمه محمد بن عثمان على سبته وبعثه لسد ثغورها لما خشي عليها من ابن الأحمر ، ونهض من فاس بالآلة والعساكر ونازل عبد الرحمن ببطوية ، فقاتله أياماً ثم رجع إلى تازي ثم إلى فاس ، ودخل الأمير عبد الرحمن تازي واستولى عليها ، ودخل الوزير إلى فاس وقعد بمجلس الفصل ، وهو مجمع العودة إلى تازي لتشريد عدوه إلى أن جاء الخبر ببيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم كما ذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك وما كان خلال ذلك من الأحداث

لما نزل محمد بن عثمان بالثغر من سبته لسد فروعها ، ومدافعة ما يخشى من عادية ابن الأحمر عليها ، وكان قد طاول حصار جبل الفتح وأخذ بمخنقه ، وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان بالعتاب ، فاستعجب له وقبح ما جاء به ابن عمه من الاستغلاظ له ، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه ، وداخله في البيعة للسلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الرقبة والحوطة ، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً يحوط سياجهم^(١) ويدافع عنهم ولا يتركهم فوضى وهملأ . ويجب^(٢) بيعة الصبي الذي لم تنعقد بيعته شرعاً ، واختص هذا بالسلطان من بين أولئك الأبناء وفاء بحقوق أبيه ، ووعده بالمظاهرة على ذلك ، واشترط عليه أن يتزلوا له عن الجبل إذا انعقد أمرهم ، ويشخصوا إليه بيعة الأبناء والقراية من طنجة ليكونوا في إيالته وتحت حوطته ، وأن يبعثوا إليه ابن الخطيب متى قدروا عليه ، وبعثوا إليه بقية الأبناء والقراية فقبل محمد بن عثمان شرطه كان سفيره في ذلك أحمد المرغيني^(٣) من طبقات كتاب الأشغال بسبته ، كان السلطان أبو الحسن تزوج أمه

(١) وفي نسخة ثانية : يحول بسياجهم .

(٢) جبّه : قطعه ، وهنا تعني يمنع .

(٣) وفي نسخة ثانية : الرعيني .

ليلة إجازته من واقعة طريف وافتقاد حظاياه ، حتى لحق به الحرم من فاس ، فردّها إلى أهلها ونشأ المرغني في توهم هذه الكفالة ، فانتفخ نحره لذلك ويحسبها وصلة إلى أبناء السلطان أبي الحسن ، وكان سفيراً بين محمد بن عثمان وابن الأحمر ، فأمل الرياسة في هذه الدولة ، وركب محمد بن عثمان من سبتة إلى طنجة ، وقصد مكان اعتقالهم . واستدعى أبا العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم من مكانه مع الأبناء فبايع له ، وحمل الناس على طاعته ، واستقدم أهل سبتة بكتاب للبيعة ، فقدموا وخاطب أهل الجبل فبايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم . وبعث إليه محمد بن عثمان بالتزول عن جبل الفتح ، وخاطبوا أهله بالرجوع إلى طاعته ، فارتحل من مالقة إليه ودخله واستولى عليه ، ومحا دعوة بني مرين مما وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس وحمل إليه مالا للإعانة على أمره .

وكان محمد بن عثمان عند فصوله من فاس ، وودّعه الوزير ابن عمّه فاوضه في شأن السلطان ، وأن يقدم للناس إماماً يرجعون إليه ويترك له أمرهم ، وأمره في ذلك ، ولم يفترقا على مبرم من أمرهم . فلما ارتكب هذا المرتكب وجاء بهذا الأمر ، خاطب الوزير يموه عليه بأنه فعل بمقتضى المؤامرة ، وأنه عن إذنه والله أعلم بما دار بينهما ، ولجّ الوزير في تكذيبه والبراءة للناس مما رمى به ولاطفه في نقض ذلك الأمر ، وردّ أبا العباس إلى مكانه مع الأبناء تحت الحوطة ، وأبى محمد بن عثمان من ذلك ودافعه باجتماع الناس عليه وانعقاد الأمر . وبينما الوزير يروم ذلك جاءه الخبر بأن محمد بن عثمان أشخص الأبناء المعتقلين كلهم إلى الأندلس ، وأنهم حصلوا في كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمّه وسلطانه ، ونهض إلى تازي ليفرغ من عدوّه إليهم ، فنازل الأمير عبد الرحمن وأخذ بمخنقه ، واهتبل محمد بن عثمان الغرة في ملك المغرب ، فوصله مدد السلطان ابن الأحمر وعسكره تحت رايته ، عقدها عليهم ليوسف بن سليمان بن عثمان بن أبي العلاء من مشيخة الغزاة المجاهدين ، وعسكر آخر من رجل الأندلس الناشبة يناهزون سبعائة . وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمّه السلطان أبي العباس أحمد ، ومظاهرتة على ملك سلفه بفاس واجتماعها لمنازلتها ، وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختصّ عبد الرحمن بملك سلفه فتراضيا ، وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس خالفوا إليه

الوزير وانتهوا إلى قصر ابن عبد الحلیم^(١) ، وبلغ الخبر إلى الوزير بمكانه من حصار تازى فانفضّ معسكره ورجع إلى فاس ونزل بكديّة العرائس .

وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، وصمّم نحوه بمكانه من قنّة الجبل ، فاختل مصافه وانهزمت ساقّة العسكر من ورائه ، ورجع على عقبه مفلولاً وانتهب المعسكر ودخل إلى البلد الحديد . وجأجأ بالعرب أولاد حسين أن يعسكروا له بالزيتون ظاهر فاس ، ويخرج بجموعه إلى حلهم ، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازى بمن كان معه من العرب الأحلاف وشردهم إلى الصحراء ، وشارف السلطان أبا العباس أحمد بجموعه العرب وزناته ، وبعثوا إلى وليّ سلفهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصر مرادة الذي اختطّه بملوية فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق فاجتمعوا بوادي النجا . وحضر لعقدهم واتفاقهم وحلفهم على اتصال اليد على عدوّهم ومنازلته بالبلد الحديد حتى يمكن الله منه وارتحلوا بجمعهم إلى كديّة العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وسبعائة وبرز إليهم الوزير بعساكره فدارت الحرب وحمى الوطيس واشتدّ القتال ملياً . ثم زحف إليه العسكران بساقتها وآلتها فاختلّ مصافه وانهزمت جيوشه وجموعه وأحيط به ، وخلص إلى البلد الحديد بعد غصّ الريق . وأضرب السلطان أبو العباس معسكره بكديّة العرائس ، ونزل الأمير عبد الرحمن بأزائه ، وضربوا على البلد الحديد سياجاً بالبناء للحصار وأنزلوا بها أنواع القتال والأرهاب .

ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الناشبة ، واحتكموا في ضياع ابن الخطيب بفاس ، فهدموها وعاثوا فيها . ولما كان فاتح سنة ست وسبعين وسبعائة داخل محمد بن عثمان ابن عمه أبا بكر في الترول عن البلد الحديد والبيعة للسلطان ، لما كان الحصار قد اشتدّ ويش من الصريخ ، وأعجزه المال فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي له في أعمال مراکش ، وأن يديلوه بها من سجالسة فعقدوا له على كره ، وطووا على المكر . وخرج الوزير أبو بكر للسلطان أبي العباس أحمد ، وبايعه واقتضى عهده بالأمان وتخلى سبيله من الوزارة فبذله . ودخل السلطان أبو

(١) وفي نسخة ثانية : عبد الكريم .

العباس أحمد إلى البلد الجديد سبع المحرم . وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى
مراكش واستولى عليها ، وارتحل معه علي بن عمر بن ويغلان شيخ بني مرين والوزير
ابن ماسي ، ثم نزع عنه ابن ماسي إلى فاس لعهد كان قد اقتضاه من السلطان أبي
العباس ، وأجاز البحر إلى الأندلس فاستقر بها في إيالة ابن الأحمر ، واستقل
السلطان أبو العباس ابن السلطان أبي سالم بملك المغرب ووزيره محمد بن عثمان ،
وفوض إليه شؤونه وغلب على هواه . وصار أمر الشورى إلى سليمان بن داود ، كان نزع
إليه من البلد الجديد من جملة أبي بكر بن غازي بعد أن كان أطلقه من محبسه ،
واستخلصه . وجعل إليه مرجع أمره فتركه أحوج ما كان إليه ، ولحق بالسلطان أبي
العباس بمكانه من حصار البلد الجديد . فلما استوسق ملكه ألقى الوزير محمد بن
عثمان مقاد الدولة له ، وصار إليه أمر الشورى ورياسة المشيخة . واستحكمت المودة
بينه وبين ابن الأحمر وتأكدت المداخلة . وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وإبرامهم
لمكان الأبناء المرشحين من إيالته . ولما ارتحل الأمير عبد الرحمن إلى مراكش نبذوا
إليه العهد وتعللوا عليه بأن العقد الأول له ، إنما كان على ملك سلفه ومراكش إنما
أجأهم إلى العقد عليها إجماعاً ، واعتزموا على النهوض إليه ثم أقصروا وانعقدت بينهما
السلم سنة ست وسبعين وسبعمئة وجعلوا التخم بينهما أزمو وعقدوا على ثغرها لحسان
الصيحي فلم يزل عليها إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الخبر عن مقتل ابن الخطيب) *

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين وسبعمئة
واستقلّ بسلطانه والوزير محمد بن عثمان مستبداً عليه ، وسليمان بن داود رديف له ،
وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويح بطنجة على نكبة ابن
الخطيب وإسلامه إليه لِمَا نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز لملك
الأندلس . فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير أبا بكر بن غازي
بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار ، آوى معه ابن الخطيب إلى
البلد الجديد خوفاً على نفسه ، فلما استولى السلطان على البلد الجديد أقام أياماً ، ثم
أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن ، وطَّيروا بالخبر إلى

السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد تابع السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس ، حتى أعاده الله إلى ملكه . فلما استقر له سلطانه أجاز إليه سليمان سفيراً عن عمر بن عبد الله ومقتضياً عهده من السلطان . فصدّه ابن الخطيب عن ذلك بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من آل عبد الحق ، لأنهم يعسوب زناته . فرجع سليمان آيساً^(١) وحقد ذلك لابن الخطيب . ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح ، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفس كل منها لصاحبه بما يحفظه لما كمن في صدورهما . وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله بن زمرك ، فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب بالشورى في مجلس الخاصة وأهل الشورى ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه ، فعظم عليه النكير فيها ، فوثخ ونكل وامتنحن بالعذاب بمشهد ذلك الملائم تل إلى محبسه . واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه ودسّ سليمان بن داود إليه لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر ، وقتلوه خنقاً في محبسه ، وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد على شافة قبره طريحاً وقد جمعت له أعواد واضرمت عليه ناراً ، فاحترق شعره واسودّ بشره ، وأعيد إلى حفرته ، وكان في ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعال لما يريد وكان عفى الله عنه أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت ، فيتجيش هو أتقه بالشعريبيكي نفسه (وما قال في ذلك) :

بَعُدْنَا وَإِنْ جَاوَرْتَنَا الْبُيُوتُ وَجِئْنَا بِوَعْظٍ^(٢) وَنَحْنُ صُمُوتُ
وَأَنْفَسَانَا سَكَّنَتْ دَفْعَةً كَجَهْرِ الصَّلَاتِ تَلَاهُ الْقُنُوتُ

(١) وفي نسخة ثانية : يائساً .

(٢) وفي نسخة ثانية : لوعد .

وَكُنَّا عِظَاماً فَصِرْنَا عِظَاماً وَكُنَّا عِظَاماً فَصِرْنَا عِظَاماً
 وَكُنَّا شُمُوسَ سَاءِ الْعُلَا وَكُنَّا شُمُوسَ سَاءِ الْعُلَا
 فَكَمْ جَزَلَتْ ذَا الْحُسَامَ الظُّبَا فَكَمْ جَزَلَتْ ذَا الْحُسَامَ الظُّبَا
 وَكَمْ سَيْقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ وَكَمْ سَيْقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ
 فَقُلْ لِلْعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ فَقُلْ لِلْعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ
 فَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْكُمْ لَهُ فَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْكُمْ لَهُ

* (الخبر عن اجازة سليمان بن داود الأندلس ومقامه إلى أن
 هلك بها) *

كان سليمان بن داود هذا منذ عضته الخطوب واختلفت عليه النكبات (٣) يروم الفرار
 بنفسه إلى الأندلس للمقامة مع غزاة المجاهدين من قومه . ولما استقر السلطان ابن
 الأحمر بفاس عند خلعه ووفادته على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعائة
 وداخله سليمان بن داود في تأميل الكون عنده ، فعاهده على ذلك وأن يقدمه على
 الغزاة المجاهدين من قومه . ولما عاد إلى ملكه وفد عليه سليمان بن داود بفرناطة في
 سبيل السفارة عن عمر بن عبد الله سنة ست وستين وسبعائة وأن يؤكد عقده من
 السلطان ، فحال دون ذلك ابن الخطيب ومارى (٤) السلطان عن ذلك بأن شياخة
 الغزاة مخصوصة بأعياص الملك من بني عبد الحق لمكان عصابتهم بالأندلس ، فأخفق
 أمل سليمان حينئذ وحققها على ابن الخطيب ورجع إلى مرسله ، ثم كانت نكبته أيام
 السلطان عبد العزيز فلم يخلص منها إلا بعد مهلكه ، أطلقه أبو بكر بن غازي المستبد
 بالأمر من بعده ، ليعتضد بمكانه على شأنه . فلما استبد الحصار على ابن غازي خرج
 عنه سليمان ولحق بالسلطان أبي العباس ابن المولى أبي سالم بمكانه من ظاهر البلد

(١) وفي نسخة ثانية : زغر بن فباحث علينا السموت .

(٢) وفي نسخة ثانية :

وذو البخت لم خذلته البخوت

فكم جدلس ذا الحسام الظبا

(٣) وفي نسخة ثانية : النكبات .

(٤) وفي نسخة أخرى : وثنى رأي السلطان .

الجديد ، فكان ذلك من أسباب الفتح ، ولما دخل السلطان إلى دار ملكه من البلد الجديد فاتح سنة ست وستين وسبعمائة واستوسق أمره ، رفع مجلس سليمان وأحلّه محل الشورى ، واعتضد به وزيره محمد بن عثمان واستخلصه كما ذكرناه . وكان يرجع إلى رأيه وهو في خلال ذلك يحاول اللحاق بالأندلس ، فكان من أول عمله التقرب إلى السلطان ابن الأحمر باغراء الوزير محمد بن عثمان بقتل ابن الوزير مسنويه^(١) ، فتمّ ذلك لأول الدولة . وجرت الأمور بعدها على الاعتمال في مرضاته إلى أن حاول السفارة إليه في أغراض سلطانه ، سنة ثمان وستين وسبعمائة في صحابة ونزمار بن عريف ، فتلقّاهما السلطان ابن الأحمر بما يتلقى به أمثالهما وأغرب في تكريمتهما . وأما ونزمار فأنقلب راجعاً لأول تأدية الرسالة ، يتقضى من السلطان حظه لقواد أسطوله بتسهيل الإجازة إليه متى رامها . وخرج يتصيد فلحق بمرسى مالقة ودفع أمر السلطان بخطه ، إلى قائد الأسطول ، فأجازه إلى سبتة ولحق بمكانه . وأما سليمان فاعتزم على المقام عند ابن الأحمر وأقام هنالك خالصةً ونجياً ومشاوراً ، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة .

الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه إلى مايرقة ثم رجوعه وانتقاضه بعد ذلك

لما اشتدّ الحصار بالوزير أبي بكر بن غازي وفنيت أمواله وأموال السلطان ، وظنّ أنه أحيط به ، داخله الوزير محمد بن عثمان من مكانهم بحصاره في التزول عن البلد على الأمان والابقاء فأجاب وخرج إلى السلطان أبي العباس بن أبي سالم ، فعقد له أماناً بخطه ، وتحوّل إلى داره بفاس وأسلم سلطانه المنصوب للأمر ، فتسلّمه منه الوزير محمد بن عثمان ، واشتدّ في الاحتياط عليه إلى أن بعثه إلى السلطان ابن الأحمر ، فكان في جملة الأبناء عنده ، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار ملكه واقتعد سريره ونفذت في المالك أوامره . وأقام أبو بكر بن غازي على حاله بداره والخاصة بياكرونة والنفوس منظوية على تأميلة ، فغصّ به أهل الدولة وتردّدت فيه

(١) وفي نسخة ثانية : بقتل ابن الخطيب مشنونه .

السعاية ، وتقبض عليه السلطان وأشخصه إلى غساسة ، وركب منها السفين إلى ميورقة آخر ست وسبعين وسبعمئة فأقام بها شهراً ومخاطباته مترددة إلى الوزير محمد بن عثمان . ثم عطفته عليه رحم ، فأذن له في القدوم ، إلى المغرب والمقامة بغساسة فقدمها أوائل سنة سبع وسبعين وسبعمئة واستبدّ بامارتها . وبدا له رأي في تأميل الوثبة^(١) وظهر ما كان يخفيه لابن عمّه من المنافسة ، فخاطب ابن الأحمر وراء البحر ولاطفه بالتحف والهدايا ، فكتب إلى ابن عمّه محمد بن عثمان يحضه على إعادته إلى مكانه دفعاً لغوائله ، فأبى من ذلك ، وداخله ونزمار بن عريف في بعضها كذلك ، فلع في الامتناع وحمل سلطانه على نبذ العهد لأبي بكر بن غازي ، فتنكر له وأجمع المسير إليه بعساكر العرب ، فخرج من فاس سنة تسع وسبعين وسبعمئة وبلغ الخبر إلى أبي بكر بن غازي فاستجاش بالعرب وأحثهم للوصول ، فوصل إليه الأحلاف من المعقل ، وسرّب فيهم أمواله ، وخرج من غساسة فألقى بينهم نفسه ، وعمد إلى بعض العرب الطارئين فنصبه للأمر مشبهاً ببعض أبناء السلطان أبي الحسن . وزحف إليه السلطان حتى نزل بتازي ، فأجفلت أحياء العرب أمام العساكر من بني مرين والجنّد ، ونجا ابن غازي معهم بدمائه . ثم داخله ونزمار بن عريف في الاذعان للسلطان عن شق الخلاف ، فأجاب ووصل به إلى سدّة الملك ، فبعث به السلطان محتاطاً عليه إلى فاس فاعتقل بها . ونزلت مقدّمات العساكر بوادي ملوية ، وداخل صاحب تلمسان منها رعب ، فأوفد على السلطان من قومه وكبار مجلسه ملاطفاً مدارياً ، فتقبل منه وعقد السلم ، وأصدر به كتابه وعهده بخطه ، وانكفاً راجعاً إلى حضرته بعد أن بثّ العمّال في تلك النواحي على جبايتها ، فجمعوا له منها ما رضي . ولما احتلّ بدار ملكه ، أنفذ أمره بقتل أبي بكر بن غازي فقتل بمحبسه طعناً بالرماح^(٢) وذهب مثلاً في الأيام ، واستوسق للسلطان أمره . وأحكم العقد مع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن صاحب مراکش ، وتردّدت المهاداة بينهما بعض إلى بعض ، وإلى صاحب الأندلس وإليه منها فامتلات المغرب هدنةً وأمناً ، وانبعثت الآمال بساطاً وغبطةً والحال متصلة على ذلك لهذا العهد آخر سنة إحدى وثمانين وسبعمئة أيام إشرافنا على هذا التأليف ، والله مقدر الليل والنهار .

(١) وفي نسخة ثانية : الرتبة .

(٢) وفي نسخة ثانية : طعنا بالخناجر .

الخبر عن انتفاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب
مراكش والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد
الرحمن على أزموور ومقتل عاملها حسون بن علي

كان علي بن عمر كبير بني ورتاجن وشيخ بني ويغلان منهم ، قد تحيز إلى الأمير عبد
الرحمن منذ إجازته إلى الأندلس واستيلائه على تازي ثم زحفه إلى حصار البلد الجديد
مع السلطان أبي العباس كما مرّ . فوصل في جملته إلى مراكش ، وكان صاحب
شواره وكبير دولته . وكان يظعن على خالد بن ابراهيم الهربرحي شيخ جاجة^(١) من
قبائل المصامدة ما بين مراكش وبلاد السوس ، وقد كان علي بن عمر انتفض على
ابن غازي الوزير المستبد بعد السلطان عبد العزيز ، ولحق بالسوس . ومرّ بخالد بن
ابراهيم هذا فاعترضه في طريقه وأخذ الكثير من أثقاله ورواحله . وخلص هو إلى
منجاته بالسوس ، وقد حقد ذلك لخالد . ثم حث^(٢) شيوخ المعقل عندما أجاز
الأمير عبد الرحمن من الأندلس إلى نواحي تازي يروم اللحاق بهم ، فوفدوا عليه .
وسار معهم إلى أحيائهم وأقام معهم وهو في طاعة الأمير عبد الرحمن ودعوته إلى أن
اتصل به بين يدي حصاره البلد الجديد مع السلطان أبي العباس . فلما فتح السلطان
البلد الجديد أول سنة ست وسبعين وسبعمائة واستولى على ملكهم بها ، وفصل عبد
الرحمن إلى مراكش كما كان الوفاق بينهم ، وسار علي بن عمر في جملة السلطان عبد
الرحمن إلى مراكش ، واستأذنه في قتل خالد صاحبه ، فلم يأذن له ، فأحفظه ذلك
وطوى عليه ، وبعد أيام صعد جبل وريكة في غرض من أغراض الدولة ، وتقدّم إلى
حافده عامر ابن ابنه محمد بقتل خالد ، فقتله بظاهر مراكش ، ولحق بجده علي بن
عمر بوريقة ، فتلطف له الأمير عبد الرحمن وراسله بالملاينة والاستعطاف . ثم ركب
إليه بنفسه واستصلحه ونزل به إلى مراكش فأقام معه أياماً . ثم ارتاب ولحق بأزموور
وعاملها يومئذ حسون بن علي الصبيحي فأغراه بالإجلاب على عمل مراكش ،
وزحفوا جميعاً إلى عمل صنهاجة .

(١) وفي نسخة ثانية : المبرازي شيخ حاحه . وفي نسخة أخرى المبرازي .

(٢) وفي نسخة ثانية : ثم بعث ..

وسرح الأمير عبد الرحمن لمدافعتهم كبير دولته يومئذ وابن عمه عبد الكريم بن عيسى ابن سليمان بن منصور بن أبي مالك ، وهو عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، فخرج في العساكر ومعه منصور مولى الأمير عبد الرحمن ، فلقوا علي بن عمر فهزموه وأخذوا سواده ، ولجأ إلى أزمور . ثم وفد هو وحسّون بن علي إلى السلطان بفاس . ووقعت أثناء ذلك المراسلة بين السلطانين ، وانعقد بينهما الصلح . فأقام علي بن عمر بفاس ورجع حسّون بن علي إلى مكان عمله بأزمور ، ثم انتقض ما بين السلطانين ثانياً . وكان عند الأمير عبد الرحمن أخوان من ولد محمد بن يعقوب بن حسّان الصبيحي وهما علي وأحمد ، جرثومتا بغي وفساد ، وعدا على كبيرهما علي بن يعقوب ابن علي بن حسّان فقتله ، واستعدى أخوه موسى عليه السلطان فأعداه . وأذن له في أن يثار منه بأخيه فيقتله فخرج لذلك أحمد أخو علي ، وهمّ بقتل موسى ، فاستجار موسى بيعقوب بن موسى بن سيّد الناس كبير بني ونكاسن ، وصهر الأمير عبد الرحمن . وأقام أياماً في جواره ، ثم هرب إلى أزمور فلحقه نار الفتنة . ونهض الأمير عبد الرحمن إلى أزمور فلم يطق حسّان بن علي دفاعه فملكها عليه وقتله واستباحها . وبلغ الخبر إلى السلطان بفاس فنهض في عساكره وانتهى إلى سلا . ورجع الأمير عبد الرحمن إلى مراکش ، وسار السلطان في اتباعه حتى نزل بحصن أكلميم من مراکش ، وأقام هنالك نحواً من ثلاثة أشهر والقتال يتردد بينهم . ثم سعى بين السلطانين في الصلح ، فاصطلحوا على حدود العمالات أولاً ، وانكفاً صاحب فاس إلى عمله وبلده . وبعث الحسن بن يحيى بن حسّون الصنهاجيّ عاملاً على الثغر بأزمور ، فأقام بها ، وكان أصله من صنهاجة أهل وطن أزمور ، وله سلف في خدمة بني مرين منذ أول دولتهم ، وكان أبوه يحيى في دولة السلطان أبي الحسن عاملاً في الجباية بأزمور وغيرها . وهلك في خدمته بتونس أيام مقام السلطان بها ، وترك ولده يستعمل في مثل ذلك ، ونزع الحسن هذا منهم إلى الجندية فلبس شارتها وتصرف في الولاية المناسبة لها . واتصل بخدمة السلطان أبي العباس لأول بيعته بطنجة . وكان يومئذ عاملاً بالقصر الكبير فدخل في دعوته وصار في جملته ، وشهد معه الفتح واستعمله في خطط السيف ، حتى ولّاه أزمور هذه الولاية فقام بها كما نذكره .

(وَأَمَّا الصُّبَيْحِيُّونَ) فالخبر عن أوليتهم أنّ جدّهم حسّان من قبيلة صبيح من أفاريق سويد ، جاء مع عبدالله بن كندوز الكمي من بني عبد الواد حين جاء من تونس ،

وأوفد على السلطان ابن عبد الحق ولقيه كما مرّ . وكان حسّان من رعاة إبله : فلما استقرّ عبد الله بن كندوز بناحية مراکش وأقطعه السلطان يعقوب في أعمالها ، وكان الظهر الذي يحمل عليه السلطان متفرّقا في سارية المغرب ، فجمعه وجعله لنظر عبد الله بن كندوز ، فجمع له الرعاة وكبيرهم يومئذ حسّان الصُبَيْحِيّ ، فكان يباشر السلطان في شأن ذلك الظهر ويطلعه في مهمّاته ، فحصلت له مداخلة أجلبت إليه الحظ ، حتى ارتفع وكبر . ونشئوا في ظلّ الدولة وعزّها وتصرفوا في الولايات فيها ، وانفردوا بالشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات ، وكان لحسّان من الولد علي ويعقوب وطلحة وغيرهم ، ومن حسّان هذا تفرّعت شعوبهم في ولده ، وهم لهذا العهد متصرفون في الدولة على ما كان سلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل ، ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة ، والله أعلم .

الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراکش ونهوض صاحب فاس إليه وحصاره ثم عودهما إلى الصلح

لما رجع السلطان إلى فاس على ما استقرّ من الصلح ، طلب الأمير عبد الرحمن أن يدخل عمالة صنهاجة ودكالة في أعماله ، وكتب السلطان إلى الحسن بن يحيى عامل أزموور وتلك العمالة بأن يتوجّه إليه ويسدّ المذاهب في ذلك دونه . وكان الحسن بن يحيى مضطغنا على الدولة ، فلما وصل إليه داخله في الخلاف وأن يملكه تلك العمالة ، فازداد الأمير عبد الرحمن بذلك قوّة على أمره ، وتعلّل على صاحب فاس بأن يكون حداً بين الدولتين ووادي أم ربيع . واستمرّ صاحب فاس على الاباية من ذلك ، فنهض الأمير عبد الرحمن من مراکش ، ودخل الحسن بن يحيى في طاعته فملكها ، وبعث مولاة منصورا في العساكر إلى أنفاه^(١) فاستولى عليها وصادر أعيانها وقاضيا وواليها وبلغ الخبر إلى السلطان ، فنهض من فاس في عساكره ، وانتهى إلى

(١) وفي نسخة ثانية : أنف . وفي أخرى : أنفى . ذكرها ياقوت في شعر هذيل (لأنف بلد) ولم يحدد موقعها .

سلا ، فهرب منصور من أنفء وتركها . ولحق بمولاه عبد الرحمن فأجفل من أزمور إلى مراکش ، والسلطان في أثره حتى انتهى إلى قنطرة الوادي ، على غلوة من البلد ، وأقام خمسة أشهر يحاصرها ، واتصل الخبر بالسلطان ابن الأحمر صاحب الأندلس ، فبعث خالسته الوزير أبا القاسم الحكيم الرندي ليعقد الصلح بينهما ، فعقده على أن يسترهن السلطان أولاد الأمير عبد الرحمن وحافد أبي الحسن . وانكفاً السلطان راجعاً إلى سلا . ولحق به جماعة من جملة الأمير عبد الرحمن من بني مرين وغيرهم ، نزعوا عنه ، وكان محمد بن يعقوب الصبحي لقي في طريقه مولى الأمير عبد الرحمن ، جاء به مكرهاً إلى السلطان . وكان من النازعين أيضاً يعقوب بن موسى بن سيد الناس كبير بني ونكاسن ، وأبو بكر بن رحو بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق ، ومحمد بن مسعود الإدريسي وزيان بن عمر بن علي الوطاسي وغيرهم من المشاهير . وقدموا على السلطان بسلا فتقبلهم وأحسن كرامتهم ، ورحل راجعاً إلى فاس والله أعلم .

انتقاض علي بن زكريا شيخ الهساكرة على الأمير عبد الرحمن وفتكه بمولاه منصور ومقتل الأمير عبد الرحمن

لما رجع السلطان إلى فاس وبدا من الخلل في دولة الأمير عبد الرحمن وانتقاض الناس عليه ما قدّمناه ، نزع يده من التعويل على العساكر ، وشرع في تحصين البلد . وضرب الأسوار على القصبه وحفر الخنادق وتبين بذلك اختلال أمره . وكان علي بن زكريا شيخ هسكورة وكبير المصامدة وكان في دعوته منذ دخل مراکش فتلافى أمره مع صاحب فاس ، ومدّ إليه يداً من طاعته . ثم انتقض على الأمير عبد الرحمن ودخل في دعوة السلطان ، وبعث إليه الأمير عبد الرحمن مولاه منصوراً يستألفه ، فأرصد إليه في طريقه من حاشيته من قتله ، وبعث برأسه إلى فاس ، فنهض السلطان في عساكره إلى مراکش . واعتصم الأمير عبد الرحمن بالقصبه وقد كان أفرداها عن المدينة بالأسوار . وخندق عليها فملك السلطان المدينة ورتب على القصبه المقاتلة من كل جهة ، ونصب الآلة وأدار عليها من جهة المدينة حائطاً وأقام يحاصرها تسعة^(١)

(١) وفي نسخة ثانية : سبعة أشهر .

أشهر يغاديا القتال ويراوحها . وكان أحمد بن محمد الصبيحي من الدين بووا المقاعد لقتالها ، فهم بالانتقاض وحدثته نفسه بغدرة السلطان والتوئب به . وسعى بذلك إلى السلطان ، فتقبض عليه وحبسه . وبعث السلطان بالنفير إلى أعماله ، فتوافت الأمداد من كل ناحية ، وبعث إليه صاحب الأندلس مدداً من العسكر . فلما اشتد القتال والحصار بالأمير عبد الرحمن ونفذت الأقوات ، وأيقن أصحابه بالهلكة ، وأهمتهم أنفسهم . وهرب عنه وزيره محمد بن عمر^(١) شيخ الهساكرة والمصامدة لعهد السلطان أبي الحسن وابنه ، وقد مر ذكره . فلما لحق هذا بالسلطان وعلم أنه إننا جاء مضطراً قبض عليه وحبسه . ثم انفض الناس عن الأمير عبد الرحمن ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان . وأصبح في قصبته منفرداً ، وقد بات ليلته يراوض ولديه على الاستماتة وهما : أبو عامر وسليم . وركب السلطان من الغد في التعبية وجاء إلى القصبة فافتحمها بمقدمته ، ولقيهم الأمير عبد الرحمن وولداه مباشرة إلى الميدان بين أبواب دورهم ، فجالوا معهم جولة قتل فيها ولداه ، تولى قتلهم علي بن إدريس وزيان بن عمر الوطاسي وطال ما كان زيان يمتري يدي نعمهم^(٢) ويحز ذيله خيلاء في جاههم ، فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء . والله لا يظلم مثقال ذرة . وكان ذلك خاتم جمادى الأخيرة سنة أربع وثمانين وسبعمائة لعشر سنين من إمارته على مراکش . ثم رحل السلطان منقلباً إلى فاس ، وقد استولى على سائر أعمال المغرب ، وظفر بعدوه ودفع النازعين عن ملكه . والله أعلم .

* (اجلاب العرب على المغرب في مغيب السلطان بغرية من ولد أبي علي وأبي تاشفين بن أبي حمو صاحب تلمسان ومجيء أبي حمو على أثرهم) *

كان أولاد حسين من عرب المعقل مخالفين على السلطان من قبل مسيره إلى مراکش . وكان شيخهم يوسف بن علي بن غانم قد حدثت بينه وبين الوزير القائم على الدولة

(٢) وفي نسخة ثانية : فهرب عنه وزيره نجو بن العلم من بقية بيت محمد بن عمر . وفي نسخة أخرى يجوز .

(٣) وفي نسخة ثانية : كان يمتري ثدي نعمتهم .

محمد بن عثمان منافرة وفتنة . وبعث العساكر إلى سجلماسة ، فخرّب ما كان له بها من العقار والأموال . وأقام منتقضاً بالقفر . فلما حاصر السلطان الأمير عبد الرحمن بمراكش وأخذ بمخنقه أرسل أبا العشائر ابن عمّه منصور إلى يوسف بن علي وقومه ، ليجلبوا به على المغرب ويأخذوا بحجزة السلطان عن حصاره ، فسار لذلك . ولما قدم على يوسف سار به إلى تلمسان مستجيئاً بالسلطان أبي حمّو لذلك القصد ، لما كان بينه وبين الأمير عبد الرحمن من العهد على ذلك . فبعث أبو حمّو معهم ابنه أبا تاشفين في بعض عساكره ، وسار في الباقيين على أثرهم . وسار أبو تاشفين وأبو العشائر إلى أحياء العرب ، فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها . وكان السلطان عند سفره إلى مراكش استخلف على دار ملكه بفاس علي بن مهدي العسكري في جماعة من الجند . واستنجد بونزمار بن عريف شيخ سويد وولي الدولة المقيم بأحياء ملوية ، فحالف بين عرب المعقل واستألف منهم العمارنة والمنبات وهم الأحلاف . واجتمع مع علي بن مهدي ، وساروا لمدافة العدو بنواحي مكناسة ، فصدّوهم عن مرامهم ومنعوهم من دخول البلاد فأقاموا متواقفين أياماً . وقصد أبو حمّو في عسكره مدينة تازي وحاصرها سبعا ، وخرّب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت . وبينما هم على ذلك بلغ الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمن ، فأجفلوا من كل ناحية . وخرج أولاد حسين وأبو العشائر وأبو تاشفين والعرب الأحلاف في اتباعهم ، وأجفل أبو حمّو عن تازي راجعاً إلى تلمسان ومرّ بقصر ونزمار في نواحي بطوية المسمى بمرادة ، هدمه ووصل السلطان إلى فاس وقد تمّ له الظهور والفتح إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

* (نهوض السلطان إلى تلمسان وفتحها وتخريبها) *

كان السلطان لما بلغه ما فعل العرب وأبو حمّو بالمغرب لم يشغله ذلك عن شأنه ، ونقم على أبي حمّو ما أتاه من ذلك ، وأنه نقص عهده من غير داع إلى النقص . فلما احتلّ بدار ملكه بفاس أراح أياماً ، ثم أجمع النهوض إلى تلمسان . وخرج في عساكره على عادتهم وانتهى إلى تاوريرت . وبلغ الخبر إلى أبي حمّو ، فاضطرب أمره واعتزم على الحصار ، وجمع أهل البلد عليه واستعدّوا له . ثم خرج في بعض

تلك الليالي بولده وأهله وخاصته ، وأصبح محيماً بالصفصيف^(١) وانفض أهل البلد إليه بعضهم بعياله وولده مستمسكين به ، متفادين من معرة هجوم العساكر فلم يرعه ذلك عن قصده ، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء . ثم قصد بلاد مغراوة فترل في بني بو سعيد قريباً من شلف ، وأنزل أولاده الأصاغر وأهله بحصن تاحجمومت . وجاء السلطان إلى تلمسان فللكها واستقرّ فيها أياماً . ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها ، ياغراء وليه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمّو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة . ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمّو ، ونزل على مرحلة منها . وبلغه الخبر هنالك بإجازة السلطان موسى ابن عمّه أبي عنان من الأندلس إلى المغرب وأنه خالفه إلى دار الملك ، فانكفاً راجعاً وأغذّ السير إلى المغرب كما نذكر . ورجع أبو حمّو إلى تلمسان واستقرّ في ملكه بها ، كما ذكرناه في أخباره .

إجازة السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان من الأندلس إلى المغرب واستيلائه على الملك وظفره بابن عمه السلطان أبي العباس وازعاجه إلى الأندلس *)

قد تقدم أنّ السلطان محمد بن الأحمر المخلوع ، كان له تحكّم في دولة السلطان أبي العباس بن أبي سالم صاحب المغرب بما كان من إشارته على محمد بن عثمان ببيعته وهو معتقل بطنجة ، ثم بما أمده من مدد العساكر والأموال ، حتى أمره واستولى على البلد الحديد كما قدّمناه في أوّل خبره . ثم بما كان له من الزبون عليهم بالقرابة المرشّحين الذين كانوا معتقلين بطنجة مع السلطان أبي العباس من أسباط السلطان أبي الحسن من ولد أبي عنان وأبي سالم والفضل وأبي عامر وأبي عبد الرحمن وغيرهم . وكانوا متعاهدين في معتقلهم أنّ من أتاح الله له الملك منهم يخرجهم من الاعتقال ويحيزهم إلى الأندلس . فلما بويع السلطان أبو العباس وفي لهم بهذا العهد وأجازهم إلى الأندلس ، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر أكرم نزل ، أنزلهم بقصور ملكه بالحمراء وقرب لهم المراكب ، وأفاض عليهم العطاء ووسّع لهم الجرايات والأرزاق . وأقاموا

(١) وفي نسخة ثانية : بالصفصيف .

هنالك في ظلّ ظليل من كنفه فكان لهم به وثوب على ملك المغرب وكان الوزير القائم بها محمد بن عثمان يقدر له قدر ذلك كله فيجري في أغراضه وقصوده ويحكمه في الدولة ما شاء أن يحكمه ، حتى توجّهت الوجوه إلى ابن الأحمر وراء البحر من أشياخ بني مرين والعرب ، وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس . ولما نهض السلطان إلى تلمسان خاطبوه وأوصوه بالمغرب ، وترك محمد بن عثمان بدار الملك كاتبه محمد بن الحسن ، كان مصطنعاً عنده من بقية شيع الموحدين ببجاية ، فاخصه ورقاه واستخلفه في سفره هذا على دار الملك . فلما انتهوا إلى تلمسان وحصل له من الفتح ما حصل ، كتبوا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر مع شيطان من ذرية عبّو بن قاسم المرواني^(١) كان بدارهم وهو عبد الواحد بن محمد بن عبّو كان يسمو بنفسه إلى العظام التي ليس لها بأهل ويتربص لذلك بالدولة . وكان ابن الأحمر مع كثرة تحكّمه فيهم يتنحّى لهم بعض الأوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعاة أو مخالفة في الأمر لا يجدون عنها وليجة ، فيصطنع^(٢) لهم ذلك . فلما قدم عليه عبد الواحد هذا بخبر الفتح وقصّ عليه القصص ، دسّ له أن أهل الدولة مضطربون على سلطانهم ومستبدلون به لو وجدوا ، وبلغ من ذلك ما حمل وما لم يحمل . وأشار له بجلاء المغرب من الحامية جملة وأن دار الملك ليس بها إلا كاتب حضري لا يحسن المدافعة ، وهو أعرف به ، فانتهاز الفرصة ابن الأحمر وجهّز موسى ابن السلطان أبي عنان من الأسباط المقيمين عنده . واستوزر له مسعود بن رحو بن ماسي من طبقات الوزراء من بني مرين ومن بني قودر من أحلافهم . وله في ذلك سلف وقد كان بعثه من قبل وزيراً للأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن حين أجاز إلى المغرب أيام استبداد أبي بكر بن غازي . فلم يزل معه حتى كان حصار البلد الحديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليها . وذهب عبد الرحمن إلى مراکش فاستأذنه مسعود في الإنصراف إلى الأندلس ، فأذن له ورجع عنه إلى فاس . ثم فارقه وأجاز إلى الأندلس متودّعاً ومتودّداً لكل ومعوّلاً على ابن الأحمر ، فتلقاه بالقبول وأوسع له النزول والجرابة وخلطه بنفسه وأحضره مع ندمائه . ولم يزل كذلك إلى أن جهّزه وزيراً إلى المغرب مع السلطان أبي عنان وبعث معها عسكرياً . ثم ركب السفين إلى سبتة وكانت بينه وبين

(١) وفي نسخة ثانية : المزوار .

(٢) فيصطنع : كذا في النسخة المصرية .

شرفائها ورؤساء الشورى بها مداخلة ، فقاموا بدعوة السلطان موسى وأدخلوه وقبضوا على عاملها رحو بن الزعيم المكدوني^(١) وجاؤا به إلى السلطان فملكها غرة صفر من سنة ست وثمانين وسبعمائة وسلمها إلى ابن الأحمر ، فدخلت في طاعته . وسار هو إلى فاس ، فوصلها لأيام قريبة ، وأحاط بدار الملك ، واجتمع عليه الغوغاء ، ونزل الدهش بمحمد بن الحسن فبادر بطاعته . ودخل السلطان إلى دار الملك ، وقبض عليه لوقته ، وذلك في عشر ربيع الأول من السنة . وجاء الناس بطاعته من كل جانب ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس بمكانه من نواحي تلمسان بأن السلطان موسى قد نزل بسبته ، فجهز علي بن منصور وترجمان الجند وجند النصارى ببابه مع طائفة منهم . وبعثهم حامية لدار الملك فانتهاوا إلى تازى وبلغهم خبر فتحها فأقاموا هنالك . وأغد السلطان أبو العباس السير إلى فاس ، فلقبهم خبر فتحها بتاوريرت ، فتقدم إلى ملوية وتردد في رأيه بين المسير إلى سجلماسة مع العرب أو قصد المغرب . ثم استمر عزمه ، ونزل بتازى وأقام فيها أربعاً ، وتقدم إلى الركن ، وأهل دولته خلال ذلك يخوضون في الانتفاض عليه تسلاً إلى ابن عمه السلطان موسى المتولي على فاس ، ويوم أصبح من الركن أرجفوا به . ثم انتفضوا عليه طوائف قاصدين فاس ، ورجع هو إلى تازى بعد أن انتهب معسكره وأضرمت النار في خيامه وخزائنه . ثم أصبح بتازى من ليلته فدخلها ، وعاملها يومئذ الخير من موالي السلطان أبي الحسن . وذهب محمد بن عثمان إلى ولي الدولة وتزمار بن عريف وأمراء المغرب من المعقل . ولما دخل السلطان أبو العباس إلى تازى كتب إلى ابن عمه السلطان موسى يذكره العهد بينهما ، وقد كان السلطان ابن الأحمر عهد إليه أن يبعث به إليه إن ظفر به ، فبادر السلطان موسى باستدعائه مع جماعة من وجوه بني عسكر ، أهل تلك الناحية ، وهم زكريا بن يحيى بن سليمان ومحمد بن داود بن أعراب^(٢) ، ومعهم العباس بن عمر الوسناني فجاؤا به وأنزلوه بالزاوية بغدير الحمص بظاهر فاس ، فقيّد هنالك ثم بعثه إلى الأندلس موكلاً به مع عمر بن رحو أخى الوزير مسعود بن ماسي . واستصحب ابنه أبا فارس وترك ساثرهم بفاس واجاز البحر من سبته فأنزله السلطان ابن الأحمر بقلعة ملكه الحمراء ، وفك قيوده ووكل به ، ووسّع له في الجراية فأقام هنالك

(١) وفي نسخة أخرى : المكدودي .

(٢) وفي النسخة المصرية : بن عراب .

* (نكبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله) *

أصل هذا الوزير محمد بن الكاس^(١) إحدى بطون بني ورتاجن ، وكان بنو عبد الحق عندما تأثلوا ملكهم بالمغرب يستعملون منهم في الوزارة . ورتباً وقعت بينهم هنالك وبين بني إدريس وبني عبدالله منافسة ، قتلوا فيها بعض بني الكاس منهم في دولة السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن . ثم استوزره السلطان أبو الحسن بعد مهلك وزيره يحيى بن طلحة ابن محلى بمكانه من حصار تلمسان ، وقام بوزارته أياماً^(٢) ، وحضر معه وقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبعمئة من هذه المائة ، واستشهد فيها ، ونشأ ابنه أبو بكر في ظلّ الدولة ممتعاً بحسن الكفالة وسعة الرزق ، وكانت أمّه أم ولد ، وخلفه عليها ابن عمه محمد بن عثمان هذا الوزير ، فنشأ أبو بكر في حجره . وكان أعلى رتبة منه بأولية أبيه وسلفه ، حتى اذا بلغ أشده واستوى سمى به الحال^(٣) ، وجال أمصار^(٤) الملك في اختياره وترشيحه ، حتى استوزره السلطان عبد العزيز كما قلناه . وقام بوزارته أحسن قيام ، وأصبح محمد بن عثمان هذا رديفه . وهلك السلطان عبد العزيز فنصب أبو بكر ابنه السعيد للملك صبياً لم يثغر ، وكان من انتقاض أمره وحصاره بالبلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليه ما قدمناه ، قام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العباس مستبدّاً عليه . ودفع إليه أمور ملكه ، وشغل بلداته ، فقام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العباس من أمور الدولة ما عاناه حتى كان من استيلاء السلطان موسى على دار ملكهم ما مرّ . وانفض بنو مرين عنه للسلطان أبي العباس كما ذكرناه ، ورجع إلى تازى ، فدخلها السلطان أبو العباس وفارقهم محمد بن عثمان إلى وليّ الدولة ونزمار بن عريف وهو مقيم بتازى ، وتقدم له فتجهم له ونزمار وأعرض عنه ، فسار معدّاً إلى أحياء المنيات من

(١) وفي النسخة المصرية : أصل هذا الوزير من بني الكاس .

(٢) وفي النسخة المصرية : أعواماً .

(٣) وفي النسخة المصرية : الخلال .

(٤) وفي النسخة المصرية : وجات ابصار .

عرب المعقل . كانوا هنالك قبله تازى لذمة صحابة كانت بينه وبين شيخهم أحمد ابن عبّو فتزل عليه متدمماً به ، فخادعه وبعث بخبره إلى السلطان ، فجهّز إليه عسكرياً مع المزوار عبد الواحد بن محمد بن عبّو بن قاسم بن ورزوق بن بومريط والحسن العوفي^(١) من الموالي فتبرأ منه العرب وأسلموه إليه ، فجاؤا به وأشهروه يوم دخوله إلى فاس . واعتقل أياماً وامتحن في سبيل المصادرة ثم استنصفى . ثم قتل ذبحاً بمحبسه ، والله وارث الأرض ومن عليها .

الخبر عن خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماسي اليه بالعساكر

لما استقل السلطان موسى بملك المغرب وقام مسعود بن ماسي بوزارته مستبدّاً عليه ، وكان من تغريبهم السلطان أبا العباس إلى الأندلس وقتلهم^(٢) وزيره محمد بن عثمان وافتراق أشياع الوزير محمد بن عثمان وقرابته وبطانته ، فطلبوا بطن الأرض ولحق منهم ابن أخيه العباس بن المقداد بتونس ، فوجد هنالك الحسن بن الناصر ابن السلطان أبي علي قد لحق بها من مقرّه بالأندلس في سبيل طلب الملك فتاب له رأي في الرجوع به إلى المغرب لطلب الأمر هنالك ، فخرج به من تونس وقطع المفاوز والمشاق إلى أن انتهى إلى جبل غمارة ، ونزل على أهل الصفيحة منهم ، فأكرموا مثواه وتلقّيه ، وأعلنوا بالقيام بدعوته . واستوزر العباس بن المقداد . وبلغ الخبر إلى مسعود ابن ماسي فجهّز العساكر مع أخيه مهدي بن ماسي ، فحاصره بجبل الصفيحة أياماً ، وامتنع عليهم ، فتجهّز الوزير مسعود بن ماسي بالعساكر من دار الملك وسار لحصاره . ثم رجع من طريقه لِمَا بلغه من وفاة السلطان بعده ، والله أعلم .

* (وفاة السلطان موسى والبيعة للمتصر ابن السلطان أبي العباس) *

كان السلطان موسى لما استقل بملك المغرب استنكف من استبداد ابن ماسي عليه

(١) وفي النسخة المصرية : بن ورزوق بن تومريط والحسن اوافو من الموالي .

(٢) وفي النسخة المصرية : ونكبتهم .

وداخل بطانته في الفتك به . وأكثر ما كان يفاوض في ذلك كاتبه وخالسته محمد ابن كاتب أبيه ، وخالسته محمد بن أبي عمر . وكان للسلطان موسى ندمان يظلمهم على الكثير من أموره منهم العباس بن عمر بن عثمان الوسناني ، وكان الوزير مسعود بن ماسي قد خلف أبا عمر على أمه وربى في حجره ، فكان يدلي إليه بذلك ، وبنى إليه ما يدور في مجلس السلطان في شأنه . فحصلت للوزير بذلك نفرة طلب لأجلها البعد عن السلطان . وبادر للخروج لمدافة الحسن القائم بغارة . واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن رحو بن ماسي . فلما انتهى إلى القصر الكبير لحقه الخبر بوفاة السلطان موسى ، وكانت وفاته في جمادي الآخرة طرقة المرض فهلك ليوم وليلة لثلاث سنين من خلافته . وكان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمّه ، وبادر يعيش فنصب ابن عمّه للملك ، وهو المتصر ابن السلطان أبي العباس ، وانكفاً راجعاً لوزير مسعود من القصر ، وقتل السبيع محمد بن موسى من طبقة الوزراء ، وقد مر ذكره وذكر قومه ، وكان اعتقاله أيام السلطان موسى فقتله بعد وفاته . واستمرت أمور الدولة في استقلاله والله أعلم .

* (إجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من الأندلس والبيعة له) *

كان الوزير مسعود بن ماسي لما استوحش من السلطان موسى بعث ابنه يحيى وعبد الواحد المزوار إلى السلطان ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدو . فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ، ودس للسلطان ابن الأحمر في ردّه ، وأن يبعث إليه بالواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من القرابة المقيمين عنده . ورآه أليق بالاستبداد والحجر ، فأسغفه ابن الأحمر في ذلك ، وردّ السلطان أحمد إلى مكانه بالحمر ، وجاء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده ، وفي خلال ذلك وصل جماعة من أهل الدولة وانتقضوا على الوزير مسعود ، ولحقوا بسبته ، وأجازوا إلى السلطان ابن الأحمر وهم يعيش بن علي بن فارس اليباني

وسَيُور بن يحيى بن عمر الونكاسني وأحمد بن محمد الصُبيحيّ ، فوفد^(١) إليهم
الوائق ، ورجعوا به إلى المغرب على أنهم في خدمة الوزير ، حتى اذا انتهوا إلى جبل
زرهون المطل على مكناسة أظهروا الخلاف على الوزير وصعدوا إلى قبائل زرهون
واعتصموا بجلهم . ولحق بهم من كان على مثل دينهم من الخلاف على ابن ماسي
وصاروا معهم يداً مثل طلحة بن الزبير الورتاجني وسَيُور بن يحياتن بن عمر الونكاسني
ومحمد التونسي من بني أبي الطلاق وفارح بن مهدي من معلوجي السلطان ، وأصله
من موالي بني زيان ملوك تلمسان .

وكان أحمد بن محمد الصبيحي حين جاء مع الواثق قد استطال على أصحابه وأصهر
الاستبداد بما كان من طائفة الجند المستخدمين ، فغصّ به أهل الدولة وتبرؤا منه
للسلطان الواثق ، فأظهر لهم البراءة منه ، فوثبوا به وقتلوه عند خيمة السلطان ، وتولّى
كبر ذلك يعيش بن علي بن فارس اليباني كبير بني مزين ، فذهب مثلاً في الغابرين ،
ولم تبك عليه سماء ولا أرض . وكان رزوق بن بوفريطت من موالي بني علي بن زيان
من شيوخ بني ونكاسن من أعيان الدولة ومقدمي الجند ، قد انتقض على الدولة أيام
السلطان موسى ولحق بأحياء أولاد حسين من عرب المعقل المخالفين منذ أيام السلطان
موسى . ونزل على شيخهم يوسف بن علي بن غانم لذمة صحابة بينهما من جوارهم
في المواطن . وكان معه في ذلك محمد بن يوسف بن علاّل ، كان أبوه يوسف من
صنائع السلطان أبي الحسن ، ونشأة دولته استوحشا من الوزير ، فلحقا بالعرب^(٢)
فلما جاء هذا السلطان الواثق قدما عليه ، فلقبها بالكرمة وأحلها في مقامها من
الدولة ، وخرج الوزير مسعود بن ماسي في العساكر ، ونزل قبائلهم بجبل مغيلة
وقاتلهم هنالك أياماً وداخل الدين مع الواثق واستألمهم . وبعث عسكرياً إلى مكناسة
فحاصروها ، وكان بها يومئذ عبد الحق بن الحسن بن يوسف الورتاجني ، فاستنفر له
منها وملكها ، وتردّدت المراسلات بينه وبين الواثق وأصحابه على أن ينصبوه للأمر .
ويبعث بالمتنصر المنصوب عنده إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وانعقد الأمر
بينهم على ذلك . وسار الواثق في أصحابه إلى الوزير ابن ماسي فتزل عليه . ومضى
يعيش بن علي بن فارس عنهم ذاهباً لوجهه . وسار الوزير بالواثق إلى دار الملك ،

(١) وفي نسخة ثانية : فدفع .

(٢) وفي النسخة المصرية : بالمغرب .

فبايعه في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائه بعد أن اشترط عليه لنفسه وأصحابه ما شاء . وأجاز سلطانه المنتصر إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وقبض على جماعة ممن كان مع الواصل مثل المزوار عبد الواحد ، وقتله ، وعلى فارج بن مهدي وحبيه ، وعلى الخير مولى الأمير عبد الرحمن وامتنحه ، وعلى آخرين سواهم . ثم قبض على جماعة من بطانة السلطان موسى كانوا يداخلونه في القبض والفتك به ، فحبسهم وقتل بعضهم . وعلى جند الأندلس الذين جاؤا مدداً للواصل ، وعلى قوادهم من معلوجي ابن الأحمر فأودعهم السجن . ثم قبض على كاتب السلطان موسى بن أبي الفضل بن أبي عمر مرجعه من السفارة عن سلطانه إلى الأندلس ، فاعتقله وصادره . ثم خلى سبيله . ثم بعث إلى الحسن بن الناصر الثائر بجبل الصفيحة من غمارة مع إدريس بن موسى بن يوسف اليباني ، فخادعه باستدعائه للملك والبيعة له ، فخدعه واستنزله وجاء به فاعتقله أياماً . ثم أجازته للأندلس ، واستقر الأمر على ذلك ، والله أعلم .

الفتنة بين الوزير ابن ماسي وبين السلطان ابن الأحمر واجازة السلطان أبي العباس إلى سبته لطلب ملكه واستيلائه عليها

لما بلغ الوزير ابن ماسي للواصل ورأى أنه قد استقل بالدولة ودفع عنها الشواغب ، وصرف نظره إلى ما فرط من أعمال الدولة ، وافتتح أمره بسبته . وقد كان السلطان موسى لأول إجازته أعطاها لابن الأحمر كما مر . فبعث إليه الآن الوزير ابن ماسي في ارتجاعها منه على سبيل الملاطفة ، فاستشاط لها ابن الأحمر ولجّ في الردّ ، فنشأت الفتنة لذلك ، وجهز ابن ماسي العساكر لحصار سبته مع العباس بن عمر بن عثمان الوسناني ويحيى بن علاّ بن أمصمود ، والرئيس محمد بن أحمد الأبيكم من بني الأحمر . ثم من بيت السلطان الشيخ فاتح أمرهم ومهد دولتهم ، وراسل السلطان إشبيلية والجلالقة من بني أدفونش وراء البحر ، بأن يبعث إليهم ابن عمّ السلطان ابن الأحمر محمد بن اسمعيل مع الرئيس الأبيكم ليغلبا من ناحيته على الأندلس . وجاءت عساكر الوزير إلى سبته فحاصروها ودخلوها عنوة . واعتصم حامية الأندلس الذين كانوا بها بالقصبة ، واتصلت الجولة بين الفريقين وسط البلد ، وأوفد

أهل القصبة النيران بالجبل علامة على أمرهم ليراها ابن الأحمر . وكان مقيماً
بمالقة ، فبادر بتجهيز الأسطول مشحوناً بالمقاتلة مدداً لهم . ثم استدعى السلطان أبو
العباس من مكانه بالحمراء ، وأركبه السفين إلى القصبة في غرة صفر سنة تسع وثمانين
وسبعائة وأشرف عليهم من الغد وناداهم من السور يدعوهم إلى طاعته . فلما رآوه
اضطربوا وافترقوا وخرج إليهم ، فنهب سوادهم ودخلوا في طاعته متسايلين ، ورجع
جمهور العسكر ومقدموهم إلى طنجة واستولى السلطان على مدينة سبتة . وبعث إليه
ابن الأحمر بالتزول عنها ، وردّها إليه فاستقرت في ملكه وكملت بها بيعته ، وكان
يوليه أمر الأضياف الواردين والله تعالى أعلم .

مسير السلطان أبي العباس من سبتة لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماسي لدفاعه ورجوعه منهزماً

ولما استولى السلطان أبو العباس على سبتة وتم له ملكها ، واعتزم على المسير لطلب
ملكه بفاس ، وأغراه ابن الأحمر بذلك ووعده بالمدد لما كان من مداخلة ابن ماسي
لجماعة من بطانته في أن يقتلوه ويملكوا الرئيس الأبيكم يقال : إن الذي داخله في
ذلك من بطانة ابن الأحمر يوسف بن مسعود البلنسي ، ومحمد ابن الوزير أبي
القاسم بن الحكيم الرندي وشعر بهم السلطان ابن الأحمر وهو يومئذ على جبل الفتح
يطالع أمور السلطان أبي العباس ، فقتلهم جميعاً وإخوانهم . ويقال : إن ذلك كان
بسعاية القائم على دولته مولاه خالد ، كان يفصّ بهم ويعاديهم ، فأخفى عليهم
هذه^(١) . وتمت سعائته بهم ، فاستشاط ابن الأحمر غضباً على ابن ماسي ، وبعث
إلى السلطان أبي العباس يستنفره للرحلة إلى طلب ملكه ، فاستخلف على سبتة رحو
ابن الزعيم المكرودي عاملها من قبل كما مرّ وسار إلى طنجة وعاملها من قبل الواثق
صالح بن رحو الياباني ومعه بها الرئيس الأبيكم من قبل العساكر ، فحاصرها أياماً
وامتنعت عليه فجمّر عنهم الكتاب وسار عنها إلى أصيلا ، فدخلت في دعوته
وملكها . ونهض الوزير من فاس في العساكر بعد أن استخلف أخاه يعيش على دار

(١) وفي نسخة ثانية : فاحتال عليهم بهذه .

الملك وسار. ولحقت مقدمته بأصيلا ففارقها السلطان أبو العباس ، وصعد إلى جبل
 الصفيحة ، فاعتصم به وجاء الوزير ابن ماسي فتقدم إلى حصاره بالجبل ، وجمع
 عليه رماة الرجل من الأندلسيين الذين كانوا بطنجة ، وأقام يحاصره بالصفيحة
 شهرين . وكان يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين من عرب المعقل ، مخالفاً
 على الوزير مسعود وداعية إلى السلطان أبي العباس وشيعة له . وكان يرسل ابن
 الأحمر في شأنه . فلما سمع باستيلائه على سبتة وإقباله إلى فاس ، جمع أشياعه من
 العرب ، ودخل في طاعته إلى بلاد المغرب ما بين فاس ومكناسة . وشن الغارات على
 البسائط واكتسحها ، وأرجف الرعايا وأجفلوا إلى الحصون ، وكان ونزمار بن عريف
 وليّ الدولة شيعة للسلطان ، وكان يكاتبه وهو بالأندلس ويكاتب ابن الأحمر بشأنه .
 فلما اشتد الحصار بالسلطان في الصفيحة ، بعث ابنه أبا فارس إلى ونزمار بمكانه من
 نواحي تازى . وبعث معه سيور بن يحيى بن عمر ، فقام ونزمار بدعوته ، وسار به
 إلى مدينة تازى ، وعاملها سليمان الغودودي من قرابة الوزير ابن ماسي . فلما نزل بها
 أبو فارس ابن السلطان بادر إلى طاعته وأمكنه من البلد ، فاستولى عليها واستوزر
 سليمان هذا . وسار إلى صفيروا^(١) ومعه ونزمار للاجتماع بعرب المعقل وأسف بهم إلى
 حصار فاس . وكان محمد بن الدمغة عاملاً على ورغة ، فبعث إليه السلطان عسكرياً
 مع العباس بن المقداد ابن أخت الوزير محمد بن عثمان فقتلوه وجاؤا برأسه ، ونجم
 الخلاف على يعيش بالبلد الجديد من كل جهة ، وطير الخبر بذلك كله إلى أخيه
 بمكانه من حصار السلطان بالصفيحة ، فانقضت عنه العساكر وأجفل راجعاً إلى
 فاس . وسار السلطان في اتباعه ودخل في طاعته عامل مكناسة ، وجاء الخير مولى
 الأمير عبد الرحمن ولقيه يوسف بن علي بن غانم ومن معه من أحياء العرب ، وساروا
 جميعاً إلى فاس . وكان أبو فارس ابن السلطان قد رحل من تازى إلى صفيروا للقاء
 أبيه ، فاعترضه ابن ماسي في العساكر رجاء أن يفله . ولقيه ببني بهلول فترع أهل
 المعسكر إلى أبي فارس ابن السلطان وهو بمكناسة ، فارتحل يغذ السير إلى فاس .
 وسار ابنه أبو فارس للقاءه على وادي النجا . وصبحوا البلد الجديد فنزلوا عليه
 بجمعهم وقد اعتصم به الوزير في أوليائه وبطانته ، ومعه يغمراسن بن محمد

(١) وفي النسخة المصرية : صفروي وفي نسخة أخرى : صفرون .

السالفي^(١) ومراهن بني مرين الذين استرهنهم عند مسيره للقاء السلطان بأصيلا ، والله أعلم .

* (ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراکش واستيلاء أوليائه عليها) *

كان الوزير مسعود بن ماسي قد ولى على مراکش وأعمال المصامدة أخاه عمر بن رحو وكانت منتظمة في طاعته . فلما بلغ الخبر بوصول السلطان إلى سبتة واستيلائه عليها قامت^(٢) رؤوس أوليائه إلى إظهار دعوته بتلك النواحي ، فقام بدعوته بجبل الهساكرة عليّ بن زكريا . وبعث الوزير مسعود من مكانه في حصار السلطان بالصفحة في أمداه بالعساكر من مراکش ، فزحف إليه مخلوف بن سليمان الوارثي^(٣) صاحب الأعمال ما بين مراکش والسوس ، وقعد الباقون عن نصره وتفرقوا . وصعد أبو ثابت حافد عليّ بن عمر إلى جبل الهساكرة ومعه يوسف بن يعقوب بن علي الصبيحي ، فاستمدّ عليّ بن زكريا ورجع إلى مراکش مجلباً على عليّ ابن رحو مناوشة القتال ساعة . ثم غلبه على البلد وملكها من يده ونزل بقصبة الملك . وحبس عمر بن رحو بها . وكتب للسلطان بذلك . وهو بمكناسة متوجهاً إلى فاس ، فكتب إليه بأن يصله بعساكر مراکش لحصار دار الملك فجمع العساكر واستخلف على قصبة مراکش بعض بني عمّه . ولحق بالسلطان . وأقام معه في حصار البلد الجديد . والله أعلم .

* (ولاية المنتصر ابن السلطان أبي عليّ عليّ مراکش واستقلاله بها) *

كان السلطان أبو العباس حين ملك المغرب بعث ابنه المنتصر في البحر إلى سلا .

(١) وفي النسخة المصرية : التناقلي .

(٢) وفي النسخة المصرية : تطاولت .

(٣) وفي النسخة المصرية : الوارثي وفي نسخة أخرى : الواريني .

واستوزر له عبد الحق بن يوسف الورتاجني^(١) فوصل الى سلا وأقام بها ، ومرّ به رزوق بن توفريطت راجعاً من دكالة ، حين نزول السلطان على البلد الحديد ، فتلطف في استدعائه ، ثم قبض عليه وبعث به لأبيه مقيداً فأودعه السجن وقتل بعد ذلك بمحبسه . ثم بعث السلطان إلى ابنه المنتصر بولاية مراکش وأن يسير إليها . فلما وصل إلى مراکش امتنع النائب بالقصبة ، فدسّ لعبد الحق وزير المنتصر أن النائب قد همّ بقتله ، وحينئذ يمكن المنتصر من القصبة . فأجفل بالمنتصر وصعد إلى جبل هنتاة ، وطير بالخبر إلى السلطان ، فتغير لأبي ثابت وأمره أن يكاتب نائبه بتمكين ابنه من القصبة . واستوزر له سعيد بن عبدون وبعثه بالكتاب ، وعزل عبد الحق عن وزارة ابنه ، واستدعاه لفاس ، فوصل سعيد بن عبدون إلى مراکش ، ودفع إلى النائب بالقصبة كتاب مستخلفه إلى الامتثال ، وأمكته من القصبة واعتزل عنها فدخلها . وبعث عن المنتصر ابن السلطان ، واستولوا عليها ، وقبضوا على نائب عامر الذي كان بها وسائر شيعته وبطانته ، وامتحنوهم واستصفوهم إلى أن كان ما تذكره إن شاء الله تعالى .

* (حصار البلد الحديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماسي ومقتله) *

لما نزل السلطان على البلد الحديد واجتمع إليه سائر قبيلته وأوليائه وبطانته ، داخل الوزير مسعوداً الحق على بني مرين لانتباذهم عنه . فأمر بقتل أبنائهم الذين استرهبوهم على الوفاء له ، فلاطفه يغمراسن السالني في المنع من ذلك ، فأقصر عنه ، وضيق السلطان منحنقه بالحصار ثلاثة أشهر حتى دعا إلى التزول والطاعة ، فبعث إليه ولي الدولة ونزمار بن عريف وخالسته محمد بن علاّل فعقد لهم الأمان لنفسه ولن معه على أن يستمر على الوزارة ويبعث بسلطانه الواثق إلى الأندلس ، واستحلفهم على ذلك وخرج معهم للسلطان فدخل السلطان البلد الحديد خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعائة لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه . ولحين دخوله قبض على الواثق

(١) وفي النسخة المصرية : عبد الحق بن الحسن بن يوسف .

وبعث به معتقلاً إلى طنجة وقتل بها بعد ذلك . ولما استولى على أمره قبض على الوزير ابن ماسي ليومين من دخوله . وإخوته وحاشيته . وامتحنهم جميعاً فهلكوا في العذاب . ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبر عنه . ونقم عليه ما فعله في دور بني مرين النازعين إلى السلطان . فإنه كان متى هرب عند أحد منهم يعمد إلى بيوته فينهبها ويخربها فأمر السلطان بعقابه في أطلاها . فكان يؤتى به إلى كل بيت منها . فيضرب عشرين سوطاً إلى أن قتله العذاب^(١) وتجاوز الحد . ثم أمر به فقطعت أربعته . فهلك عند قطع الثانية . فذهب مثلاً في الآخرين .

* (وزارة محمد بن علال^(٢)) *

كان أبوه يوسف بن علاّل من رؤساء الدولة^(٣) وصانعة السلطان أبي الحسن . وربّي في داره . ولما ضخّم أمره سما به إلى ولاية الأعمال . فولّاه على درعة فانتزى وانتخب أولياء الدولة . ثم ولاه السلطان أبو عنان أمر طنجة ومائدته وضيوفه واستكفى به في ذلك . وولّاه أخوه أبو سالم بعده كذلك . ثم بعثه إلى سجلماسة فعانى بها من أمور العرب مشقّة . وعزلها عنها ، وهلك بفاس . وكان له جماعة من الولد قد نشؤا في ظلّ هذه النعمة ، وحدثت النجابة بمحمد المذكور منهم . فلما استولى السلطان أبو العباس استعمله في أمور الضيوف والمائدة كما كانت لأبيه . ثم رقاه إلى المخالصة وخلطه بنفسه ، فلما خلع السلطان واستولى الوزير ابن ماسي على المغرب . وكانت بينه وبين أخيه يعيش بن ماسي إحن قديمة ، فسكن لوصولهم حتى إذا اضطربت نار الفتنة بالمغرب وأجلبت عرب المعقل الخلاف ، فاستوحش محمد هذا . فلحق بأحيائهم مع رزوق بن توفريطت كما مرّ ذكره ونزل على يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين ، وأقاما معه في خلافة . حتى إذا أجاز السلطان الواثق إلى الأندلس . ووصل مع أصحابه إلى جبل رزهون ، وأظهروا الخلاف على ابن ماسي بادر محمد هذا ورزوق إلى السلطان ، ودخلا في طاعته متبرّئين من النفاق الذي حملهم عليه

(١) وفي النسخة المصرية : إلى أن أفحش فيه العذاب .

(٢) وفي النسخة المصرية : هلال .

(٣) وفي النسخة المصرية : من نشأة الدولة .

عداوة الوزير ابن ماسي . فما كان إلا أن انعقد الصلح بين الواثق وابن ماسي وسار به وأصحابه إلى فاس ، وحصلوا في قبضة ابن ماسي فعفا لهم عما كان منهم ، واستعملهم في مهود ولايتهم . ثم جاء الخبر باجازه السلطان أبي العباس إلى سبته ، فاضطرب محمد بن يوسف وذكر مخالصة السلطان ومنافرة ابن ماسي ، فأجمع أمره ولحق بسبته ، فتلقاه السلطان بالكرامة ، وسرّ بمقدمه ودفعه إلى القيام بأمر دولته ، فلم يزل متصرفاً بين يديه إلى أن نزل إلى البلد الجديد . ولأيام من حصارها خلع عليه الوزارة ودفعه إليها ، فقام بها أحسن قيام . ثم كان الفتح وانتظم أمر الدولة ، ومحمد هذا بصرف الوزارة على أحسن أحوالها إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (ظهور محمد بن السلطان عبد الحلیم بسجلماسة) *

قد تقدّم لنا ذكر السلطان عبد الحلیم ابن السلطان أبي علي ، وكان يدعى بجلي كيف ، بايع له بنو مرين وأجلبوا به على عمر بن عبدالله سنة ثلاث وستين وسبعمائة أيام مبعثه للسلطان أبي عمر ابن السلطان أبي الحسن . وحاصروا معه البلد الجديد حتى خرج لدفاعهم وقتلهم ، فانهزموا وافترقوا . ولحق السلطان عبد الحلیم بتازي وأخوه عبد المؤمن بمكناسة ، ومعه ابن أخيها عبد الرحمن بن أبي يفلوسن . ثم بايع الوزير عمر بن عبدالله لمحمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن واستبدل به من أبي عمر لما كان بنو مرين يرمونه بالجنون والوسوسة ، فاستدعى محمد بن أبي عبد الرحمن من مطرح اغترابه بإشبيلية وبايعه وخرج في العساكر لمدافة عبد المؤمن وعبد الرحمن عن مكناسة ، فلقبها وهزمها ولحقا بالسلطان عبد الحلیم بتازي وساروا جميعاً إلى سجلماسة ، فاستقرّوا فيها والسلطان عبد الحلیم ، وقد تقدّم خبر ذلك كله في أماكنه . ثم كان الخلاف بين عرب المعقل أولاد حسين والأحلاف . وخرج عبد المؤمن للإصلاح بينهم ، فبايع له أولاد حسين ونصّبوه كرهاً للملك . وخرج السلطان عبد الحق إليهم في جموع الأحلاف فقاتلوه وهزموه ، وقتلوا كبار قومه ، كان منهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي شيخ بني ثريبغن وكبير دولة بني مرين ، أجلت المعركة عن قتله . ودخل عبد المؤمن البلد منفرداً بالملك .

وصرف السلطان أخاه عبد الحلیم إلى المشرق لقضاء فرضه برغبته في ذلك ، فسار على

طريق القفر مسلك الحاج من التكرور إلى أن وصل القاهرة ، والمستبد بها يومئذ يلبغا الخاصكي ، على الأشرف شعبان بن حسين من أسباط الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأكرم وفادته ووسّع نزله وجرايته ، وأدرّ لحاشيته الأرزاق ، ثم أعانه على طريقه للحج بالأزواد والأبنية والظهر من الكراع والخفّ . ولما انصرف من حجّه زوّده لسفر المغرب . وهلك بضروجة سنة سبع وستين وسبعمئة ورجعت حاشيته إلى المغرب بحرمة وولده . وكان ترك محمداً هذا رضيعاً ، فشبّ متقلّباً من الدولة من ملك إلى آخر ، منتبذاً عن قومه بغيرة السلطان أبي الحسن من بني عمّهم السلطان أبي عليّ . وكان أكثر ما يكون مقامه عند أبي حمّو سلطان بني عبد الواد بتلمسان لما يروم به من الأجلاب على المغرب ، ودفع عادية بني مرين عنه . فلما وقع بالمغرب من انتقاض عرب المعقل على الوزير مسعود بن ماسي سنة تسع وثمانين وسبعمئة واستمروا على الخلاف ، انتهز أبو حمّو الفرصة ، وبعث محمد بن عبد الحلّيم هذا إلى المعقل ليحلب بهم على المغرب ، ويمزقوا من الملك ما قدروا عليه ، فلدق بأحيائهم ونزل على الأحلاف الذين هم أمس رحماً بسجلماسة وأقرب موطناً إليها . وكان الوزير ابن ماسي قد ولى عليها من أقاربه عليّ بن ابراهيم بن عبّو بن ماسي ، فلما ظهر عليه السلطان أبو العباس وضيق منحنقه بالبلد الجديد ، دسّ إلى الأحلاف وإلى قريبه عليّ ابن ابراهيم أن ينصبّ محمد ابن السلطان أبي العباس عنه ، وينقّسوا من حصاره ، ففعلوا ذلك . ودخل محمد إلى سجلماسة فملكها ، وقام عليّ بن ابراهيم بوزارته حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد ، وفتك بالوزير مسعود بن ماسي وبإخوته وسائر قرابته ، اضطرب عليّ بن ابراهيم وفسد ما بينه وبين سلطانه محمد ، فخرج عن سجلماسة ودعا إلى أبي حمّو سلطان تلمسان كما كان .

ثم زادت هواجس عليّ بن ابراهيم وارتياحه فخرج عن سجلماسة وتركها ، ولحق بأحياء العرب . وسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمّنه . ونزل على السلطان أبي حمّو إلى أن هلك ، فسار إلى تونس وحضر وفاة السلطان أبي العباس بها سنة تسع وتسعين وسبعمئة ولحق محمد ابن السلطان عبد الحلّيم بعد مهلك أبي حمّو بتونس . ثم ارتحل بعد وفاة السلطان أبي العباس إلى المشرق لحجة فرضه^(٢) ، والله تعالى أعلم .

(١) وفي النسخة المصرية : بتروجه وفي نسخة أخرى : بيروجة .

(٢) وفي النسخة المصرية : إلى المشرق في سبيل جولة ووطاوعة واغتراب .

* (نكبة ابن أبي عمر ومهلكه وحركات ابن حسون) *

لما استقل السلطان بملكه واقتعد سريره ، صرف نظره إلى أولياء تلك الدولة ومن يرتاب منه . وكان محمد بن أبي عمر قد تقدم ذكره وأوليته ، من جملة خواصه وأوليائه وندمائه . وكان السلطان يقسم له من عنايته وجميل نظره ويرفعه عن نظرائه . فلما ولي السلطان موسى نزعته إليه نوازع المخالصة لأبيه من السلطان أبي عنان فقد كان أبوه أعز بطانته كما مر ، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفعته على منابر أهل الدولة . وجعل إليه كتاب علامته على المراسم السلطانية ، كما كان لأبيه . وكان يفوضه في مهماته ويرجع إليه في أموره حتى غصّ به أهل الدولة ونمي عنه للوزير مسعود بن ماسي أنه يداخل السلطان في نكبته . وربما سعى عند سلطانه في جماعة من بطانة السلطان أحمد ، فأتى عليهم النكال والقتل لكلمات^(١) كانت تجري بينهم وبينه في مجالسة المنادمة عند السلطان حقدوا لهم . فلما ظفر بالحظ من سلطانه ، سعى بهم فقتلهم . وكان القاضي أبو اسحق الزيناسني من بطانة السلطان أحمد وكان يحضر مع ندمانه فحقد له ابن أبي عامر ، وأغرى به سلطانه فضربه وأطافه ، وجاء بها شعاء غريبة في القبح . وسفر عن سلطانه إلى الأندلس ، وكان يمر بمجلس السلطان أحمد ومكان اعتقاله . وربما يلقاه فلا يلمّ إليه ولا يجيبه^(٢) ، ولا يوجب له حقاً ، فأحفظ ذلك السلطان . ولما فرغ من ابن ماسي قبض على ابن أبي عمر هذا وأودعه السجن ، ثم امتحنه بعد ذلك إلى أن هلك بالسياط ، عفا الله عنه . وحمل إلى داره ، وبينما أهله يحضرونه إلى قبره وإذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب بنواحي البلد إبلاغاً في التنكيل ، فحمل من نعشه وقد ربط حبل برجله ، وسحب في سائر أنحاء المدينة . ثم ألقى في بعض المزابل^(٣) . ثم قبض على حركات ابن حسون وكان مجلباً في الفتنة ، وكان العرب المخالفون من المعقل ، لما أجاز السلطان إلى سبته ، وحركات هذا بدلاً ، راودوه على طاعة السلطان فامتنع أولاً . ثم أكرهوه وجاؤا به

(١) وفي النسخة المصرية : لفلتات .

(٢) وفي النسخة المصرية : فلم يلم بتحيه .

(٣) وفي النسخة المصرية : ثم ألقى على بعض الكثبان من أطرافها وأصبح مثلاً في الآخرين .

إلى السلطان فطوى على ذلك حتى استقام أمره . وملك البلد الحديد فتقبّض عليه
وامتحنه ، إلى أن هلك ، والله وارث الأرض ومن عليها .

* (خلاف علي بن زكريا بجبل الهساكرة ونكبته) *

لما ملك السلطان البلد الحديد واستولى على ملكه ، وفد عليه علي بن زكريا شيخ
هسكورة مستصفاً^(١) بما قدم من سوابقه . وقد كان حضر معه حصار البلد الحديد
واستدعاه ، فجاء بقومه وعساكر المصامدة وأبلى في حصارها ، فرعى السلطان
سوابقه وولاه الولاية الكبرى على المصامدة على عادة الدولة في ذلك . ثم وفد معه
محمد بن ابراهيم الميراري^(٢) من شيوخ المصامدة وكانت له ذمة صهر مع الوزير محمد
ابن يوسف بن علاّ على أخته ، فولاه السلطان مكان علي بن زكريا فغضب لها
واستشاط وبادر إلى الانتقاض والخلاف . ونصب بعض القرابة من بني عبد الحق ،
فجهّز إليه السلطان العساكر مع محمد بن يوسف بن علاّ وصالح بن حمّو الياباني
وأمر صاحب درعة وهو يومئذ عمر بن عبد المؤمن بن عمر أن ينهض إليه بعساكر
درعة من جهة القبلة ، فساروا إليه وحاصروه في جبله . وجاولوه مرّات ينهزم في
جميعها حتى غلبوه على جبله . وسار إلى ابراهيم بن عمران الصناكي المجاور له في
جبله فاستدمّ به . وخشي ابراهيم معرّة الخلاف والغلب ، ورغبه الوزير محمد بن
يوسف بما بذل له ، فأمكنه منه ، وقبض على الوزير وجاء به إلى فاس ، فأدخله في
يوم مشهود وشهّره ، واعتقل فلم يزل في الاعتقال إلى أن هلك السلطان أبو العباس .
وارتاب به أهل الدولة بعده فقتلوه ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفادة أبي تاشفين على السلطان أبي العباس صريخا على أبيه
ومسيره بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي حمو

كان أبو تاشفين ابن السلطان أبي حمو قد وثب على أبيه آخر ثمان وثمانين وسبعائة

(١) وفي النسخة المصرية : مستصفاً

(٢) وفي نسخة ثانية : المبرازي .

بمآلته لغيره من إخوته واعتقله بوهران. وخرج بالعساكر لطلب إخوته المنتصر وأبي زيّان وعمر^(١) فامتنعوا عند حصين بجبل تيطرى فحاصروهم أياماً. ثم تذكر غائلة أبيه ، فبعث ابنه أبا زيّان في جماعة من بطانته منهم ابن الوزير عمران بن موسى وعبدالله بن جابر الخراساني ، فقتلوا بعض ولده بتلمسان ، ومضوا إليه وهو بمحبسه في وهران . فلما شعر بهم أشرف من الحصن ونادى في أهل المدينة متذمماً بهم ، فهرعوا إليه . وتدلى إليهم في عمامته وقد احتزم بها فأنزلوه وأحدقوا به وأجلسوه على سريره . وتولّى كبر ذلك خطيب البلد ابن جذورة^(٢) ولحق أبو زيّان بن أبي تاشفين ناجياً إلى تلمسان . واتبعه السلطان أبو حمّو ففرّ منها إلى أبيه . ودخل أبو حمّو تلمسان وهي طلل وأسوارها خراب ، فأقام فيها رسم دولته . وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فأجفل من تيطرى وأغذّ السير فدخلها . واعتصم أبوه بمئذنة المسجد ، فاستتره منها وتجافى عن قتله . ورغب إليه أبوه في رحلة المشرق لقضاء فرضه ، فأسعفه وأركبه السفين مع بعض تجّار النصارى إلى الإسكندرية موكلاً به . فلما حاذى مرسى بجاية لاطف النصراني في تخلية سبيله فأسعفه وملك أمره . وبعث إلى صاحب الأمر بجاية يستأذنه في النزول ، فأذن له . وسار منها إلى الجزائر ، واستخدم العرب ، واستصعب عليه أمر تلمسان ، فخرج إلى الصحراء . وجاء إلى تلمسان من جهة المغرب فهزم عساكر ابنه أبي تاشفين وملكها . وخرج أبو تاشفين هارباً منها ، فلحق بأحياء سويد في مشاتهم . ودخل أبو حمّو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعائة . وقد تقدّم شرح هذه الأخبار كلّها مستوعبة . ثم وفد أبو تاشفين مع محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العباس صريحاً على أبيه ، ومؤملاً الكرّة بإمداده . فبعث له السلطان وأجمل عليه المواعيد . وقام أبو تاشفين في انتظارها والوزير محمد بن يوسف بن علاّل يعده ويمنيه ويحلف له على الوفاء . وبعث السلطان أبو حمّو إلى ابن الأحمر لما يعلم من استطالته على دولة بني مرين كما مرّ ، يتوسّل إليه في أن يصدّهم عن صريح أبي تاشفين وإمداده عليه فجلا ابن الأحمر في ذلك وجعلها من أهمّ حاجاته . ونخاطب السلطان أبا العباس في أن يميز إليه أبا تاشفين ، فتعلّل عليه في ذلك بأنه استجار بابنه أبي فارس ، واستندم به . ولم يزل الوزير ابن علاّل يقتل لسلطانه ولا ابن الأحمر في

(١) وفي النسخة المصرية : وعمير (وهي الأصح) .

(٢) وفي النسخة المصرية : خزروت وفي نسخة أخرى : حرزورة .

الذروة والغارب ، حتى تمّ أمره وأنجز له السلطان بالنظر مواعده . وبعث ابنه الأمير أبا فارس والوزير ابن علاّ في العساكر صريخين له ، وانتهوا إلى تازي . وبلغ الخبر إلى أبي حمّو فخرج من تلمسان في عساكره ، واستألف أولياءه من عبيد الله . ونزل بالغيران من وراء جبل بني راشد المطلّ على تلمسان ، وأقام هنالك متحصّناً بالجبل ، وجاءت العيون إلى عساكر بني مرين بتازي بمكانه هو وأعرابه من الغيران ، فأجمعوا غزوه . وسار الوزير علاّ وأبو تاشفين وسلخوا القفر ودليلهم سليمان بن ناجي من الأحلاف . حتى صبّحوا أبا حمّو ومن معه من أحياء الجرحاء^(١) في مكانهم بالغيران . فجاولوهم ساعة ، ثم ولّوا منهزمين ، وكبا بالسلطان أبي حمّو فرسه فسقط ، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين فقتلوه قعصاً بالرماح ، وجاؤا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علاّ ، فبعثوا به إلى السلطان ، وجيء بابنه عمير أسيراً ، فهمّ أخوه أبو تاشفين بقتله ، ففنع بنو مرين أياماً . ثم أمكنوه منه فقتله ، ودخل تلمسان آخر إحدى وتسعين وسبعمئة وخيّم الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد ، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال . ثم قفلوا إلى المغرب وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها ، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة ، كما اشترط على نفسه . وكان أبو حمّو لما ملك تلمسان ولّى ابنه أبا زيّان على الجزائر ، فلما بلغه مقتل أبيه امتعض ولحق بأحياء حصّين ناجياً وصريخاً . وجاءه وفد بني عامر من زغبة يدعونه للملك . فسار إليهم . وقام بدعوته شيخهم المسعود بن صغير ، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة فحاصرها أياماً . ثم سرّب أبو تاشفين المال في العرب فافترقوا عن أبي زيّان ، وخرج إليه أبو تاشفين فهزّمه في شعبان من السنة . ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل ، وعاود حصار تلمسان في شوال . وبعث أبو تاشفين ابنه صريخاً إلى المغرب ، فجاءه بمدد من العساكر . ولما انتهى إلى تاوريرت ، أفرج أبو زيّان عن تلمسان وأجفل إلى الصحراء . ثم أجمع رأيه على الوفاة إلى صاحب المغرب ، فوفد عليه صريخاً فتلقاه وبرّ مقدمه ووعدته النصر من عدوّه . وأقام هنالك إلى حين مهلك أبي تاشفين ، والله أعلم .

(١) وفي نسخة ثانية : الجرحاء .

* وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان *

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، ومؤدياً الضريبة التي فرضها عليه منذ ملك ، وأخوه الأمير زيّان عند صاحب المغرب ينتظر وعده بالنصر عليه ، حتى تغير السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية ، فأجاب داعي أبي زيّان وجهّزه بالعساكر لملك تلمسان . فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعائة وانتهى إلى تازي ، وكان أبو تاشفين قد طرقة مرض أزمى به ، ثم هلك منه في رمضان من السنة . وكان القائم بدولته أحمد بن الغزّ من صنائعهم وكان يمت إليه بخولة ، فولّى بعده مكانه صبيّاً من أبنائه ، وأقام بكفالته . وكان يوسف بن أبي حمّو وهو ابن الزاوية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين ، فلما بلغه الخبر أخذ السير مع العرب فدخل تلمسان ، وقتل أحمد بن الغزّ والصبي المكفول ابن أخيه أبي تاشفين ، فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب خرج إلى تازي ، وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر وردّ أبا زيّان بن أبي حمّو إلى فاس ، ووكل به . وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها وأقام فيها دعوة أبيه . وتقدّم وزير أبيه صالح بن أبي حمّو إلى مليانة ، فملكها وما بعدها من الجزائر وتدلّس إلى حدود بجاية . واعتصم يوسف بن الزاوية بحصن تاجمعومت وأقام الوزير صالح يحاصره . وانقضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط ، والله غالب على أمره .

وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيّان بن أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازي وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها ، وأقام هو بتازي يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدّم لفتح البلاد الشرقية . وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حجّ

سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق .
وتقدّمت إلى السلطان فيه وأخبرته بمحله من قومه ، فأكرم تلقّيه وحمله بعد قضاء
حجّه هدية إلى صاحب المغرب ، يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة
الملوك . فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها وجلس في
مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها . وشرع في المكافأة عليها بمتخير الجياد والبضائع
والثياب ، حتى استكمل من ذلك ما رضىه . واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن علي
حاملها الأول . وأنه يرسله من تازى أيام مقامته تلك ، فطرقة هنالك مرض كان فيه
حتفه في محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه
بتازى وولّوه مكانه ، ورجعوا به إلى فاس . وأطلقوا أبا زيّان بن أبي حمّو من
الاعتقال ، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها ، وقائماً بدعوة السلطان أبي فارس
فيها ، فسار إليها وملكها ، وكان أخوه يوسف بن الزاوية قد اتصل بأحياء بني عامر
يروم ملك تلمسان والاجلاب عليها ، فبعث إليهم أبو زيّان عندما بلغه ذلك وبذل
لهم عطاءً جزيلاً على أن يبعثوا به إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، وأسلموه إلى ثقات أبي
زيّان . وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم ، فبادروا بقتله ،
وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيّان فسكنت أحواله وذهبت الفتنة بذهابه ، واستقامت
أمور دولته . وهم على ذلك لهذا العهد ، والله غالب على أمره ، وهو على كل شيء
قدير .

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية ، وبقي علينا خبر الرهط
الذين تميّزوا منهم إلى بني مرين من أول الدولة . وهم بنوكمي من فصائل علي بن
القاسم إخوة طاع الله بن علي ، وخبر بني كندوز أمراهم بمراكش . فلنرجع إلى
ذكر أخبارهم ، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد . والله وارث الارض ومن
عليها وهو خير الوارثين .

السلطان أبو العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق

المتصر
أبو الفضل

موسى بن أبي عنان
السعيد بن عبد العزيز
الواثق بن الفضل
عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوس بن أبي مالك عبد الواحد
أبو ثابت بن أبي عامر بن أبي يعقوب يوسف
عبد الله العجوب
محمد اجلند
عمر بن مندبل
يحيى
محمد
عثمان
اختهم ورتطين

عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوس بن أبي مالك عبد الواحد

أبو ثابت بن أبي عامر بن أبي يعقوب يوسف
عبد الله العجوب
محمد اجلند
عمر بن مندبل

عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوس بن أبي مالك عبد الواحد

أبو ثابت بن أبي عامر بن أبي يعقوب يوسف
عبد الله العجوب
محمد اجلند
عمر بن مندبل

الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق من الغزاة المجاهدين
بالأندلس الذين قاسموا ابن الأحمر في ملكه وانفردوا برياسة

جهاده

كانت الجزيرة الأندلسية وراء البحر منذ انقراض^(١) أمر بني عبد المؤمن وقيام ابن
الأحمر بأمرها ، قليلة الحامية ، ضعيفة الأحوال إلا من يلهمه الله لعمل الجهاد من
قبائل زناتة المؤملين كرهة الملك والمقتسمين بممالك المغرب ، وخصوصاً بني مرين أهل
المغرب الأقصى لاتصال عدوة الأندلس ببسائطه ولتعدد الفراض ببحر الزقاق
القريب العدوتين . وما زال أهل الزقاق على قديم الزمان لأجل ذلك فرضة دون
سواحل المغرب .

(ولما استولى) بنو مرين على ممالكه ، وضائق أحوال المسلمين بالأندلس ، وأخذ
بمخنقهم الطاغية حتى أبلأهم إلى سيف البحر واستأثر بالقوسرة^(٢) وما وراءها .
واستأثر بنو القمص أهل برشلونة وقطلوسة بشرق الأندلس . وانتشر في الأقطار ما كان
من أمر قرطبة وأضنيها إشبيلية وبلنسية ، وامتعض لذلك المسلمون وتنافسوا في الجهاد
وإمداد الأندلس بأموالهم وأنفسهم ، وسابق الناس إلى ذلك الأمير ابو زكريا بن أبي
حفص بما كان صاحب الوقت والمؤمل للكررة ، فاستنفذ الكثير من أمواله ومقرباته في
إمدادهم بعد أن كانوا آثروا القيام بدعوته ، وأوفدوا عليه المشيخة ببيعتهم . وكان
ليعقوب بن عبد الحق أمل في الجهاد وحرص عليه . فاعتزم في سلطان أخيه أبي
يحيى على الإجازة لذلك ، فمنعه ضنة به عن الاغتراب عنه . وأوعز إلى صاحب
سبته يومئذ أبي علي بن خلاص بمنعه منها ، فوعر له السبيل وسد عليه المذاهب .
ولم ينشب يعقوب بن عبد الحق أن قام بسلطان المغرب بعد أخيه أبي يحيى وشغل
بشأنه . وأهمه شأن ابن أخيه إدريس منهم في الجهاد بعد العدو ، فاغتنمها منه
وعقد له من مطوعة زناتة على ثلاثة آلاف أو يزيدون . وأجاز معه رحو ابن عمه
عبدالله بن عبد الحق . وفصلوا إلى الأندلس سنة إحدى وستين وستائة فحسنت

(١) وفي النسخة المصرية : انقضاء .

(٢) وفي الطبعة المصرية : الفرنتيرة .

آثارهم في الجهاد وكرمت مقاماتهم . ثم رجع عامر بن إدريس إلى المغرب وكثر انتفاض القراية . ونافسهم أقبال زناتة في مثلها ، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط مثل عبد الملك ويغمراسن بن زيان وعامر بن مندبل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد ابن عبد القوي فتعاقدوا على الإجازة إلى الأندلس إلى الجهاد ، وأجازوا فيمن خف معهم من قومهم سنة ست وسبعين وستائة ، فامتألت الأندلس بأقبال زناتة وأعياص الملك منهم . وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبو ابن أبي بكر بن حمارة . ومنهم سليمان وابراهيم^(١) وكانت لها آثار في الجهاد ومقامات محمودة ، وكان موسى بن رحو لما نازله السلطان وبني أبيه عبدالله بن عبد الحق بحصن علودان ونزلوا على عهده لحق بتلمسان . وكان بنو عبدالله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق عصبة من بين ساثرهم ، لأن عبدالله وإدريس كانا شقيقين لسوط النساء بنت عبد الحق ، فاقتنى أثر يعقوب بن عبد الحق بن عبدالله محمداً ابن عمه إدريس ، وخرج على السلطان بقصر كتامة سنة ثلاث وستين وستائة ، ثم استرضاه عمه واستتره . وبقي يعقوب بن عبدالله في انتفاضه يتقل في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلي من أولياء السلطان سنة ثلاث وستين وستائة بجهات سلا ، فكفى السلطان شأنه . ولما كان من عهد السلطان لابنه أبي مالك ما قدّمناه نفس عليه هؤلاء القراية هذا الشأن ، فانتفضوا ولحق ابن إدريس بحصن علودان . ولحق موسى بن رحو بن عبدالله بجبال غمارة ومعه أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق ، ونازلهم السلطان حتى نزلوا على عهده ، وأجازهم إلى الأندلس سنة سبعين وستائة ، فأقاموا بها للجهاد سوقاً ونافسهم أقبال زناتة في مثلها بتلمسان ، وأجاز منها إلى الأندلس سنة سبعين وستائة ، فولاه السلطان ابن الأحمر على جميع الغزاة المجاهدين هنالك ، لما كان كبيرهم ومحلّ شوهم^(٢) . ولم يلبث أن عاد إلى المغرب ، فولّى السلطان مكانه أخاه عبد الحق . ثم رجع عنه مغاضباً إلى تلمسان ، فولّى مكانه على الغزاة المجاهدين ابراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) وفي الطبعة المصرية : ومنهم سليمان بن ابراهيم .

(٢) وفي نسخة ثانية : فحل شوهم .

الخبر عن موسى بن رحو فاتح هذه الرياسة بالأندلس وخبر
أخيه عبد الحق من بعده وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما

لما هلك السلطان الشيخ بن الأحمر وولي ابنه السلطان الفقيه ، ووفد على السلطان
يعقوب بن عبد الحق صريحاً للمسلمين ، فأجاز إليه أول إجازته سنة ثلاث وسبعين
وستمئة وأوقع بجيوش النصرانية . وقتل الزعيم دُنَّه واستولى له الغلب على
الأندلس ، وبدا لابن الأحمر في أمره وخشي مغبته ، وتوقع أن يكون شأنه معه شأن
يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عياد . وكان بالأندلس قرابته بنو أشقيلولة قد
قاسموه في ممالكها ، وانفردوا بوادي آش ومالقة وقمارش ، حسبما ذكرناه في أخباره
مع السلطان ، وانتقض عليه أيضاً من رؤساء الأندلس ابن عبد ريل^(١) وابن
الدليل ، فكانوا يجلبون على بلاد المسلمين . وكانوا قد استنجدوا جيوش النصرانية
ونازلوا غرناطة ، وعاثوا في الجهات ، فلما استوت قدم السلطان يعقوب بن عبد الحق
بالأندلس ، وصل هؤلاء الثوار به أيديهم ، فخشيم ابن الأحمر جميعاً على نفسه .
وقلب السلطان ليوسف ظهر المجن ، واستظهر عليه بالأعياص من قرابته . وكان هؤلاء
القرابة من أولاد رحو بن عبد الله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق ، وينسبون
جميعاً إلى سوط النساء كما ذكرناه ، ومن أولاد أبي عياد بن عبد الحق لما أوجسوا
الخيفة من السلطان واستشعروا النكير منه ، لحقوا بالأندلس ثورية بالجهاد ، وانتبذوا
عن الهول^(٢) فراراً من محله . وقد كان السلطان أبو يوسف حين انتقضوا عليه
أشخصهم إلى الأندلس ، فاجتمع منهم عند ابن الأحمر عصابة من أولاد عبد الحق
كما قلناه ، وأولاد وسناف وأولاد نزول وتاشفين بن معطي كبير بني تيربين من بني
محمد . وتبعهم أولاد محلي أحوال السلطان أبي يوسف ، وكان ابن الأحمر كثيراً ما
يعقد لهم على الغزاة المجاهدين من زناتة لدار الحرب ، فعقد أولاً لموسى بن رحو سنة
ثلاث وسبعين وستمئة ولأخيه عبد الحق بعد انصرافه إلى المغرب ، ثم لابراهيم بن
عيسى بعد انصرافها معا كما قلناه . ثم رجعا فعقد لموسى بن رحو ثانية على أشياخه ،

(١) وفي نسخة ثانية : ابن عبدويل .

(٢) وفي نسخة ثانية : وانتبذوا عن الشول .

أثبت له قدماً في الرياسة ليحسن به دفاع السلطان أبي يوسف عنهم . ثم تداولت
 لامارة فيهم ما بينهم وبين عمومهم . وربما عقد قبل ذلك أزمان الفترة ليعلى بن أبي
 عياد بن عبد الحق في بعض الغزوات ، ولتاشفين بن معطي في أخرى سنة تسع
 وسبعين وستائة ومعه طلحة بن محلي ، فاعترضوا الطاغية دون حصر المسلمين وربّما
 كان لهم الظهور . ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أبي تاشفين وعقد ابن الأحمر
 في بعض حروبه معه ليعلى بن أبي عياد على زناة جميعاً ، وحاشهم إلى رايته ،
 فانفضت جموع أبي يوسف ، وظهروا عليه ، وتقبضوا في المعركة على ابنه منديل ،
 واستاقوه أسيراً إلى أن أطلقه السلطان ابن الأحمر في سلم عقده بعد مهلكه ، مع أبيه
 يوسف بن يعقوب . واستبدّ موسى بن رحو من بعدها بإمارة الغزاة بالأندلس إلى أن
 هلك ، فوليا من بعده أخوه عبد الحق إلى أن هلك سنة تسع وسبعين وستائة وكان
 مظفر الراية على عدو المسلمين . ولما هلك ولي من بعده ابنه حمّو بن عبد الحق
 فكانت هذه الامارة متصلة في بني رحو إلى أن انتقلت منهم إلى إخوانهم من بني أبي
 العلاء وغيرهم . واندرج حمّو في جملة عثمان بن أبي العلاء من بعد حسبها نذكر .
 وأمّا ابراهيم بن عيسى الوستاني فإنه رجع إلى المغرب ، ونزل على يوسف بن يعقوب
 وقتله بمكانه من حصار تلمسان بعد حين من الدهر ، وبعد أن كبر وعمي . والله
 مالك الأمور لا ربّ غيره ، وكان مهلك ابن أبي عياد سنة سبع وثمانين وستائة
 ومعطي بن أبي تاشفين سنة تسع وثمانين وستائة وطلحة بن محلي سنة ست وثمانين
 وستائة والله أعلم .

* (الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالأندلس) *

كان عبد الحق هذا من أعياص الملك المريني ويعاسيهم وهو من ولد محمد بن عبد
 الحق ثاني الأمراء على بني مرين بعد أبيهم عبد الحق . وهلك أبوه عثمان بن محمد
 بالأندلس إحدى أيام الجهاد سنة تسع وسبعين وستائة وربّي عبد الحق هذا في حجر
 السلطان يوسف بن يعقوب إلى أن كان من أمر خروجه مع الوزير رحو بن يعقوب على
 السلطان أبي الربيع ما ذكرناه في أخباره . ولحق بتلمسان وأجاز منها إلى الأندلس ،

وسلطانه يومئذ أبو الجيوش ابن السلطان الفقيه . وشيخ زناته حمّو بن عبد الحق بن رحو . وخاطبهم السلطان أبو سعيد ملك المغرب في اعتقاله ، فأجابوه وفرّ من محبسه ، ولحق بدار الحرب . ولما انتقض أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد وبايع لنفسه بمالقة ، وزحف إلى غرناطة فنازلها ، ووقعت الحرب بظاهرها بين الفريقين وأخذ في بعض حروبها^(١) حمّو بن عبد الحق أسيراً ، وسيق إلى السلطان أبي الوليد . وكان معه عمّه أبو العباس بن رحو فأبى من اسار ابن أخيه وخلّى عنه ، فرجع إلى سلطانه فارتاب به لذلك . وعقد على الغزاة مكانه لعبد الحق بن عثمان استدعاه من مكانه بدار الحرب . ثم غلبهم أبو الوليد على غرناطة . وتحوّل أبو الجيوش على وادي آش على سلم انعقد بينهم ، وسار معه عبد الحق بن عثمان على شأنه . ثم وقعت بينه وبين أبي الجيوش مفاضبة ، لحق لأجلها بالطاغية وأجاز إلى سبتة ، فاستظهر به أبو يحيى بن أبي طالب العزفي أيام حصار السلطان أبي سعيد إياه ، فكان له في حماية ثغره والدفاع عنه آثار مذكورة . ثم عقد السلطان أبو سعيد السلم ليحيى العزفي ، وأفرج عنه ، فارتحل عبد الحق بن عثمان إلى أفريقية . ونزل ببجاية سنة تسع عشرة وسبعمائة على أبي عبد الرحمن بن عمر صاحب السلطان أبي يحيى المستبد بالثغور الغربية ، فأكرم نزله ، وأوسع قراره ، وضرب له الفساطيط بالزينة^(٢) من ساحة البلد استبلاغاً في تكريمه وحمله وأصحابه على مائة وخمسين من الخيل ، ثم أقدمهم على السلطان بتونس فبرّ مقدمهم ، وخلط عبد الحق بنفسه وآثره بالخلّة والصحابة ، وأجلّه بمكان الاستظهار به وبمصابته . ولما عقد السلطان لمحمد بن سيّد الناس على حجابه سنة سبع وعشرين وسبعمائة واستقدمه لذلك من ثغر بجاية كما ذكرناه ، عظمت رياسته واستغلظ حجّابه ، وحجب عبد الحق ذات يوم عن بابه ، فسخطها وذهب مفاضباً ، وداخل أبا فارس في الخروج على أخيه ، فأجابه وخرج به من تونس ، فكان من خبرهم ومقتل أبي فارس وخلوص عبد الحق إلى تلمسان ونزوله على أبي تاشفين ، وغزوه إلى أفريقية مع عساكر بني عبد الواد سنة سبع وعشرين وسبعمائة ما ذكرناه في أخبار الدولة الحفصية .

ثم لما رجع بنو عبد الواد إلى تلمسان صمد مولانا السلطان أبو يحيى إلى تونس في

(١) وفي نسخة ثانية : في بعض أيامها .

(٢) وفي نسخة ثانية : بالرشة .

أخريات سنته . وفرّ ابن أبي عمران السلطان المنصوب بتونس من بني أبي حفص إلى أحياء العرب ، وتقبّض على أبي رزين^(١) ابن أخي عبد الحق بن عثمان في جملة من أصحابه ، فقتله قعصاً بالرماح . ورجع عبد الحق بن عثمان إلى مكانه من تلمسان ، فأقام بمثواه عند أبي تاشفين متبوّثاً من الكرامة والاعتزاز ما شاء إلى أن هلك بمهلك أبي تاشفين يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان عليهم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وقتلوا جميعاً عند قصر الملك أبو تاشفين وأبناء عثمان ومسعود وحاجبه موسى بن علي ، ونزيلة عبد الحق هذا ، وأبو ثابت ابن أخيه ، فقطعت رؤوسهم وتركت أشلائهم بساحة القصر عبرةً للمعتبرين حسبما ذكرناه في أخبار أبي تاشفين ، والله أعلم .

* (الخبر عن عثمان بن أبي العلاء من أمراء الغزاة المجاهدين
بالأندلس) *

كان أولاد سوط النساء من ولد عبد الحق ، أهل عصابة واعتزاز على قومهم ، وهم أولاد إدريس وعبدالله ابنها والشقيقين كما ذكرناه . وكان مهلك إدريس الأكبر يوم مهلك أبيه بتافريط^(٢) ومهلك عبدالله قبله . وخلف عبدالله ثلاثة من الولد تشعب فيهم نسله ، وهم : يعقوب ورحو وإدريس . واستعمل أبو يحيى بن عبد الحق يعقوباً منهم على سلا عند افتتاحه إياها سنة تسع وأربعين وستائة ثم انترى بها بعد ذلك على عمّه يعقوب سنة ثمان وخمسين وستائة ، وكان من شأن ثورة النصارى به ما ذكرناه ، واستخلصها يعقوب بن عبد الحق ولحق يعقوب بن عبدالله بعلودان من بلاد غمارة ، وامتنع بها ، وخرج على أثره ابنا عمّه إدريس وهما : عامر ومحمد ، وانتروا بالقصر الكبير ، ولحق بهم كافة أولاد سوط النساء . وطالبهم السلطان فلحقوا بجبال غمارة ونازلهم ، ثم استترهم بعد ذلك على الأمان ، وعقد لعامر على الغزو إلى الأندلس سنة ستين وستائة كما ذكرناه ، وأجاز معه رحوبن عبدالله . ورجع محمد بن عامر ومّر إلى تلمسان سنة ثمانين وستائة وأجاز منها إلى الأندلس .

(١) وفي نسخة ثانية : أبي زيان ، وفي نسخة ثانية : ابن رزين .

(٢) وفي نسخة ثانية : بتافريط .

ثم خرجوا على السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة تسع وثمانين وستمائة^(١) ومعهم ولد أبي عياد بن عبد الحق واعتصموا بعلودان ، واستترهم السلطان على اللحاق بتلمسان فلحقوا بها . وأجاز أولاد سوط النساء وأولاد أبي عياد كافة إلى الأندلس واستقروا بها يومئذ ، ورجع عامر منهم ومحمد وكان من خبره ما نذكر . وهلك يعقوب بن عبد الله سنة ثمان وستين وستمائة في اغترابه بقفوله من رباط الفتح ، قتله طلحة بن محلى . واستقر بنوه من أولاد سوط النساء بالمغرب ، وكان ابنه أبو ثابت أميراً على بلاد السوس أيام السلطان يوسف بن يعقوب وأوقع بالركبة^(٢) سنة تسع وتسعين وستمائة ولم يزل بنوه بالمغرب من يومئذ . وكان من إخوانه أبي العلاء ورحو إبننا عبد الله بن عبد الحق تشعب نسله فيها ، وأجاز رحو إلى الأندلس مع عامر ومحمد ابن عمه إدريس . ثم أجاز موسى ابنه سنة تسع وتسعين وستمائة^(٣) مع أولاد أبي عياد وأولاد سوط النساء . ثم رجع إلى محله من الدولة وفرّ ثانياً سنة خمس وسبعين وستمائة إلى تلمسان ، وأجاز منها إلى الأندلس واستقر بها . وأجاز أولاد أبي العلاء سنة خمس وثمانين وستمائة مع أولاد أبي يحيى بن عبد الحق وأولاد عثمان بن عبد الحق واستقروا بالأندلس ، وكانوا يرجعون في رياستهم لكبيرهم عبد الله بن أبي العلاء . وعقد له ابن الأحمر على الغزاة من زناته فيمن كان يعقد لهم من زناته قبل استقرار المنصب ، إلى أن هلك شهيداً في إحدى غزوات سنة ثلاث وتسعين وستمائة وعقد المخلوع ابن الأحمر لأخيه عثمان بن أبي العلاء ، على حامية مالقة وغربها من الغزاة لنظر ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر . ولما غدر الرئيس أبو سعيد بسبته سنة خمس وسبعائة وتمّت له في مثلها الحيلة ، واضطربت نار العداوة بينه وبين صاحب المغرب ، فنصبوا عثمان هذا للأمر ، وأجازوه إلى غمارة ، فثار بها ودعا لنفسه ، وتغلب على أصيلا والعرائش ، وكان ما ذكرنا إلى أن غلبه أبو الربيع سنة ثمانين وستمائة ، ورجع إلى مكانه بالأندلس ولما اعترم أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد على الخروج على أبي الجيوش صاحب غرناطة ، داخل في ذلك شيخ الغزاة بهالقة عثمان بن أبي العلاء ، فساعدته عليه ، واعتقل أباه الرئيس أبا سعيد ، وزحف

(١) وفي نسخة ثانية : تسع وستين .

(٢) وفي نسخة ثانية : يزكنة .

(٣) وفي نسخة ثانية : تسع وستين .

إلى غرناطة سنة أربع عشرة وسبعمائة فلما استولى عليها عقد لعثمان هذا على إمارة الغزاة
المجاهدين من زناته ، وصرف عنها عثمان بن عبد الحق : بن عثمان ، فلحق بوادي
آش مع أبي الجيوش . وصار حمو بن عبد الحق بن رحو في جملة بعد أن كان شيخاً
على الغزاة كما قلناه . واستمرت أيام ولاية عثمان هذا ، وبعد فيها صيته ، وغص
صاحب المغرب أبو سعيد بمكانه ، ولما استصرخه المسلمون للجهاد سنة ثمان عشرة
وسبعمائة اعتذر بمكان عثمان هذا ، واشترط عليهم القبض عليه حتى يرجع عنهم فلم
يكن ذلك ، ونازل الطاغية غرناطة وحاصرها ، وكان لعثمان وبنيه في ذلك آثار
مذكورة .

وأتاح الله للمسلمين في النصرانية على يد عثمان هذا وبنيه ما لم يخطر على قلب أحد
منهم ، فتأكد اغتباط الدولة والمسلمين بمكانهم إلى أن هلك أبو الوليد سنة خمس
وعشرين وسبعمائة ، باغتيال بعض الرؤساء من قرابته بمدخلة عثمان هذا ، زعموا في
غدره ، ونصب للأمر ابنه محمد صبيحاً لم يبلغ الحلم . وأقام بأمره وزيره محمد بن
المحروق من صنائع دولتهم ، فاستبد عليه وألقى زمام الدولة بيد عثمان في النقص
والإبرام ، فاعتز عليهم وقاسمهم في الأمر ، واستأثر في أعطيات الغزاة بكثير من أموال
الجباية ، حتى خشي الوزير على الدولة . وأدار الرأي في كبره^(١) على التغلب ،
فجمع وفسد ما بينه وبين الوزير ابن المحروق ، فانتقض عليه وخرج مغاضباً ،
فاضطربت فساطيطه بمرج غرناطة . واعصوب جماعة الغزاة من قبائل زناته
عليه ، واعتصم الوزير وأهل الدولة بالحمراء وسعى الناس بينها أياماً ، وأدار الوزير
الرأي في أن ينصب له كفواً من قرابته ، يجاذبه الجبل ويشغله بشأنه عن الدولة ،
فجأجأ بيحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق وكان في جملة عثمان وأصهر
إليه في ابته . وعقد له على الغزاة وتسايلوا إليه . وبرز^(٢) عثمان بمعسكره في عشيره
وولده ، وعقد معه السلم في أن يميز إلى المغرب . وأوفد بطانته على السلطان أبي
سعيد سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وارتحل من ساحة غرناطة في ألف فارس من ذويه
وأقاربه وحشمه . وقصد تدرش^(٣) ليجعلها فرضة لمجازه ، حتى إذا حاذى تدرش^(٤)

(١) وفي نسخة ثانية : في كبحه .

(٢) وفي نسخة ثانية : وتفرد .

(٣) وفي نسخة ثانية : وقصد المرية .

(٤) وفي نسخة ثانية : اندوس وفي نسخة أخرى : اندوجر .

وكان بينه وبين رؤسائها مداخلة ، فخرجوا إليه مؤدّين حق مبرّته ، فغدر بهم وأركب إليها فملكها وضبطها ، وأنزل بها حرمة وأثقاله . ودعا محمد ابن الرئيس أبي سعيد من شلوبانية كان منزلاً بها ، فجاء إليه ونصّبه للأمر ، وشنّ الغارات على غرناطة صباحاً ومساءً ، واضطّرت نار الفتنة . واستركب يحيى بن رحو من قدر عليه من زناتة . وطالت الحرب سنين حتى إذا فتك السلطان محمد بن الأحمر بوزيره ابن المحروق ، استدعى عثمان بن أبي العلاء ، وعقد له السلم على أن يحيز عمّه إلى المغرب ويلحق بغرناطة لشأنه من رياسة الغزاة ، فتمّ ذلك سنة تسع وعشرين وسبعمئة ورجع إلى مكانه من الدولة . وهلك إثر ذلك لسبع وثلاثين سنة من إمارته على الغزاة . والبقاء لله وحده .

* (الخبر عن رياسة ابنه أبي ثابت من بعده
ومصير أمرهم) *

لما هلك شيخ الغزاة ويعسوب زناتة عثمان بن أبي العلاء ، قام بأمره وقومه ابنه أبو ثابت عامر ، وعقد السلطان أبو عبدالله بن أبي الوليد له على الغزاة المجاهدين كما كان أبوه ، فعظم شأنه قوّة وشكيمة وكثرة عصابة ونفوذ رأي وبسالة . وكان لقومه اعتزاز على الدولة ، بما عجموا من عودها ، وكانوا أولي بأس وقوّة فيها واستبداد عليها ، وكان السلطان محمد بن أبي الوليد مستنكفاً عن الاستبداد عليه في القلّة والكثرة ، فكان كثيراً ما يخرقهم^(١) بتسفيه آرائهم والتضييق عليهم في جاههم . ولما وفد على السلطان أبي الحسن سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة صريحاً على الطاغية ، واستغذّ ابنه الأمير أبا مالك لمنازلة جبل الفتح ، اتهموه بمداخلة السلطان أبي الحسن في شأنهم ، فتنكروا وأجمعوا الفتك به ، وداخلوا في ذلك بعض صنائعه ممن كان مترّبصاً بالدولة فساعدهم . ولما افتتح الجبل وكان من شأنه ما قدّمنا ذكره ، وزحف الطاغية فأناخ عليه ، وقصد ابن الأحمر الطاغية في بنيه راغباً أن يرجع إلى الحصن ، فرجع

(١) وفي نسخة ثانية : يحقدهم .

وافترقت عساكر المسلمين ، ارتحل السلطان ابن الأحمر إلى غرناطة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة وقد قعدوا له بمرصد من طريقه . ونمي الخبر إليه ، فدعا بأسطوله لركوب البحر إلى مالقة ، واستبق إليهم الخبر بذلك ، فتبادروا إليه ولقوه بطريقه من ساحل اصطبونة ، فلاحوه وعاتبوه في شأن صنيعته عاصم من معلوجيه ، وحاجتهم عنه ، فاعتوروا عاصماً بالرماح فنكر ذلك عليهم ، فألقوه به ، وخر صريعاً عن مركوبه ، وبعثوا إلى أخيه يوسف فأعطوه بيعتهم ، وصفقة أيمانهم ، ورجعوا به إلى غرناطة وهو حذر منهم لفعالته التي فعلوا . واستمرت الحال على ذلك . ولما استكمل السلطان أبو الحسن فتح تلمسان وصرف عزائمهم إلى الجهاد داخل ابن الأحمر في إزاحتهم عن الأندلس مكان جهاده ، فصادف منه إسعافاً وقبولاً وحرصاً على ذلك ، وتقبض على أبي ثابت وإخوته إدريس ومنصور وسلطان . وفر أخوهم سليمان فلقق بالطاغية ، وكان له في يوم طريف أثر في الإيقام بالمسلمين ، ولما تقبض ابن الأحمر على أبي ثابت وإخوته ، أودعهم جميعاً المطبق أياماً ، ثم غربهم إلى أفريقية ، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى . وأوعز إليه السلطان أبو الحسن بالتوثق منهم أن يتصلوا بنواحي المغرب ، ويخالفوه إليها أيام شغله بالجهاد في الأندلس ، فاعتقلهم وأوفد أبا محمد بن تافراكين إلى سدة السلطان أبي الحسن إليه شفيعاً فيهم ، فتقبل شفاعته وأحسن نزلهم وكرامتهم ، حتى إذا احتل بسبته أيام حصار الجزيرة في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة سعى بهم عنده ، فتقبض عليهم واعتقلهم بمكناسة . ولما انتزى ابنه الأمير أبو عنان على الأمر . وهزم منصور ابن أخيه أبي مالك صاحب فاس ، ونازله بالبلد الجديد ، بعث فيهم إلى مكناسة ، فأطلقهم من الاعتقال وأفاض فيهم الإحسان ، واستظهر على شأنه . وأحلّ أبا ثابت محل الشورى من مجلسه ، وداخل إدريس أخاه في المكر بالبلد الجديد ، فترع إليها ومكر بهم ، وثار عليهم إلى أن نزلوا على حكم السلطان أبي عنان ، فعقد لأبي ثابت على سبته وبلاد الريف ليشارف منها الأندلس محل إمارته . وأطلق يده في المال والجيش ، وفصل لذلك ، فهلك بالطاعون يومئذ سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمعسكره أزاء معسكر السلطان من حصار البلد الجديد . واستقرّ إخوانه في إيالة السلطان أبي عنان بالمغرب الأقصى إلى أن كان من مفرّ أخيه إدريس وولايته على الغزاة بالأندلس ، ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن يحيى بن عمر بن رحو ومارته على الغزاة بالأندلس أولاً وثانياً ومبدأ ذلك وتصاريفه

كان رحو بن عبدالله كبير ولد عبدالله بن عبد الحق ، وكان له بنون كثيرون ، وتشعب نسله فيهم ، منهم : موسى وعبد الحق والعبّاس وعمر ومحمد وعلي ويوسف . أجازوا كلهم إلى الأندلس مع أولاد سوط النساء من تلمسان كما قدّمناه . وأقام عمر بعدهم بتلمسان مدة واتخذ بها الأهل والولد . ثم لحقهم وولى موسى إمارة الغزاة بعد ابراهيم ابن عيسى الوسناني ، وبعده أخوه عبد الحق على الغزاة أقام بها مدة وأجاز إلى سبته مع الرئيس أبي سعيد وعثمان بن أبي العلاء سنة خمس وسبعمئة وولي بعدها على الغزاة المجاهدين . ثم رجع إلى الأندلس ، ولم يلبث بها أن أجاز إلى المغرب . ونزل على السلطان أبي سعيد ، فأكرم تزله ، ثم رجع إلى الأندلس . ولما ولي إمارة الغزاة عثمان بن أبي العلاء ، وكان بينهم من المنافسة ما يكون بين فحول الشول ، أشخص بني رحو جميعاً إلى أفريقية ، فنزلوا على مولانا السلطان أبي يحيى خير نزل ، اصطفاهم واستخلصهم واستظهر جمعهم في حروبه . وهلك عمر بن رحو ببلاد الجريد وقبره ببشرى من نفزاوة معروف ، ونزع ابنه يحيى من بين إخوته عن مولانا السلطان أبي يحيى ، وصار في جملة ابن أبي عمران ، ثم لحق بزواوة وأقام في بني يترتن^(١) سنين ، ثم أجاز إلى الأندلس واستقر بمكانه من قومه . واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وأصهر إليه بابنته ، وخلطه بنفسه . ولما فسد ما بينه وبين ابن المحروق وزير السلطان بقرناطة سنة سبع وعشرين وسبعمئة واعصوب عليه الغزاة بمعسكره من مرج قرناطة دسّ إليه يومئذ ابن المحروق إلى يحيى بن عمر هذا . ودعاه إلى مكان عمله ليضبطه^(٢) بذلك ، فأجاب ونزع عن عثمان وقومه إلى ابن المحروق وسلطانه . وعقد له على الغزاة فتسايلاوا إليه عن عثمان شيخهم ، وانصرف إلى المدينة وكان من شأنه ما قصصناه في أخباره ، وأقام يحيى بن عمر في رياسته إلى أن هلك ابن المحروق بفتكة سلطانه . واستدعى عثمان بن أبي العلاء للرياسة فرجع إليها .

(١) وفي نسخة ثانية : يراتن .

(٢) وفي نسخة ثانية : إلى مكان عثمان ليغيظه .

وصرف يحيى بن عمر إلى وادي آش ، وعقد له على الغزاة بها فأقام حيناً ، ثم رجع إلى مكانه بين قومه . واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وابنه أبا ثابت لما كانت أمه بنت موسى بن رحو ، فكان يتعصب لخولته فيهم ثم هلك عثمان وكان ما قدمناه من شأن ولده وفتكهم بالسلطان المخلوع . وتقبض أخوهم أبو الحجاج عليهم ، وأشخصهم إلى أفريقية وقوض مباني رياستهم . وعقد على الغزاة مكانهم ليحيى بن عمر هذا ، فاضطلع بها أحسن اضطلاع . واستمرت حاله وحضر مشاهد أبي الحجاج مع السلطان أبي الحسن ، فظهرت كفايته وغناؤه . ولما هلك أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعائة طعيناً بمصلّى العيد ، في آخر سجدة من صلاته ، بيد عبد من عبيد اصطلبه مصاب في عقله ، أغري زعموا به ، وقتل لحينه هرباً بالسيوف . وبويع لابنه محمد ، أخذ له البيعة على الناس يومئذ مولاه رضوان من معلوجاتهم ، حاجب أبيه وعمّه . وقام بأمره واستبدّ عليه وحجره ، فقاسم يحيى بن عمر هذا في شأنه وشاركه في أمره وشدّ أزر سلطانه به ، حتى إذا ثار بالحمراء الرئيس ابن عمّهم محمد ابن اسمعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد قائماً بدعوة اسمعيل بن أبي الحجاج أخي السلطان محمد كان ساكناً بالحمراء . وتحيّنوا لذلك مغيب السلطان في منزله بروضة خارج الحمراء ، فخالفوه إليها وكبسوها ليلاً فقتلوا الحاجب المستبد رضوان . وأجلس السلطان على سرير ملكه ونادوا بالناس إلى بيعته . ولما أصبح غدا عليهم يحيى بن عمر بعد أن يشوا منه وخشوا عاديته ، فأتاهم ببيعته وأعطى عليها صفقته وانصرف إلى منزله . وبعد استيلائهم استخلصوا إدريس بن عثمان بن أبي العلاء ، كان وصل إليهم من دار الحرب بأرض برشلونة كما نذكر . وولّوه إمارة الغزاة واثمروا في التقبض على يحيى بن عمر . ونذر بذلك فركب في حاشيته يوم دار الحرب من أرض الجلالقة ، واتبعه إدريس فيمن إليه من قومه ، فقاتلهم صدر نهاره وفضّ جمعهم . ثم خلص إلى تخوم النصرانية ولحق منها بسدة ملك المغرب أثر سلطانه المخلوع محمد بن أبي الحجاج ، وخلف ابنه أبا سعيد عثمان بدار الحرب . ونزل يومئذ على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعائة فأكرم مثواه وأحله من مجلسه محل الشورى والمؤامرة ، واستقرّ في جملته إلى أن بعث ملك قشتالة في السلطان المخلوع ، بإشارة ابنه أبي سعيد وسعايته في ذلك ، ليجلب به على أهل الأندلس بما نقضوا من عهده . وجهزه السلطان أبو سالم سنة ثلاث وستين وسبعائة فصحبه

يحيى بن عمر هذا . ولقيهم ابنه أبو سعيد عثمان وقاموا بأمر سلطانهم ، واستولى على الأندلس بمظاهرتهم ، وكان لهم آثار في ذلك . ولما استولى على غرناطة سنة ثلاث وستين وسبعمئة عقد ليحيى بن عمر على إمارة الغزاة كما كان وأعلى يده . واستخلص عثمان لشوراه وخلطه ببطانته . ونافسه الوزير يومئذ محمد بن الخطيب فسعى فيهم ، وأغرى السلطان بهم ، فتقبض عليهم سنة أربع وستين وسبعمئة وأودعهم المطبق . ثم أشخص يحيى سنة ست وستين وسبعمئة إلى المشرق وركب السفن من المدينة (١) فنزل بالاسكندرية ، ورجع منها إلى المغرب ، ونزل على عمر بن عبدالله أيام استبداده واستقر في كرامة وخير مقامة ، ولم يزل بالمغرب على أعز الأحوال إلى أن هلك سنة اثنتين وثمانين وسبعمئة ثم استخلص ابنه أبا سعيد عثمان من الاعتقال سنة تسع وستين (٢) وسبعمئة إلى أفريقية ونزل ببجاية على مولانا السلطان أبي العباس حافد مولانا السلطان أبي يحيى واستقر في جملته . وحضر معه فتح تونس وأبلى فيه . وأقطع له السلطان وأسنى له الجراية ، وخلطه بنفسه واصطفاه لشوراه وخلته ، وهو لهذا العهد من عظماء مجلسه وظهرائه في مقامات حروبه ، وإخوته بالأندلس على مراكز عزمهم وفي ظلال عصبيتهم مع قومهم ، وقد ذهب مواجد السلطان بالأندلس عليهم وصار إلى جميل رأيه فيهم . والله مالك الملك ومقلب القلوب لا ربّ غيره .

* (الخبر عن ادريس بن عثمان بن أبي العلاء وإمارته
بالأندلس ومصاير أمره) *

لما هلك أبو ثابت بن عثمان بن أبي العلاء سنة خمسين وسبعمئة ، واستمر إخوته في جملة السلطان أبي عنان ملك المغرب وأقطعهم وأسنى جراياتهم ، وكان في إدريس منهم بقية الترشيح يراه الناس به . فلما نهض السلطان إلى فتح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعمئة توغل في ديار أفريقية وحام قومه عن مواقعها ، تحيلوا عليه في الرجوع به عن قصده منها . وأذنت المشيخة لمن معهم من قومهم في الانطلاق إلى المغرب حتى خفّ المعسكر من أهله وتآمروا ، زعموا في اغتيال السلطان والإدالة منه

(١) وفي نسخة ثانية : المرية .

(٢) وفي نسخة ثانية : سبع وستين .

بإدريس هذا ، ونذر بذلك فكر راجعاً كما ذكرناه في أخباره . ولما أشيع ذلك ركب إدريس ظهر الغدر وفر من العسكر ليلاً ، ولحق بتونس ، ونزل على القائم بالدولة يومئذ الحاجب أبي محمد بن تافراكين خير نزل وأبره . وركب السفين من تونس إلى العدو ، فنزل على ابن القمص صاحب برشلونة في حشمه وذويه . وأقام هنالك إلى أن كان من مهلك رضوان الحاجب المستبد بالأندلس سنة ستين وسبعائة ما قدمناه فترع إلى منبته من غرناطة . ونزل على اسمعيل ابن السلطان أبي الحجاج والقائم بدولته يومئذ الرئيس محمد ابن عمه اسمعيل بن محمد الرئيس أبي سعيد فلقوه مبرّة وتكريماً ورجوه بالإدالة به من يحيى بن عمر أمير الغزاة يومئذ ، لما كانوا يتهمونه به من ممالأة المخلوع صاحب الأمر عليهم . ولما نزع يحيى بن عمر إلى الطاغية ، ولحق بدار الحرب سنة إحدى وستين وسبعائة عقدوا لإدريس بن عثمان هذا على الغزاة مكانه . وولّوه خطة أبيه وأخيه بدولتهم ، فاضطلع بها . ومالاً الرئيس محمداً على قتل سلطانه اسمعيل بن الحجاج واستبد بالأمر ، ولستين من ولايته غلبه المخلوع أبو عبدالله على الأمر ، وزحف إليه من رندة ، كان نزل بها بعد خروجه من دار الحرب مغاضباً للطاغية . وأذن له وزير المغرب عمر بن عبدالله في نزولها فترها ، ثم زحف إلى الثائر بغرناطة على ملكهم الرئيس وحاشيته فأجفلوا . ولحق الرئيس محمد بن إدريس هذا بقشتالة ، ونزلوا في جملتهم وحاشيتهم على الطاغية ، فتقبض عليهم . وقتل الرئيس محمد وحاشيته جزاء بما أتوه من غدر رضوان . ثم غدر السلطان اسمعيل من بعده وأودع إدريس ومن معه من الغزاة السجن بإشبيلية ، فلم يزل في أسره إلى أن تحيل في الفرار بمداخلة مسلم من الأسرى^(١) أعد له فرساً أزاء معتقله ، ففك قيده ، ونقب البيت ، وامتنطى فرسه ولحق بأرض المسلمين سنة ست وستين وسبعائة واتبعوه فأعجزهم ، وجاء إلى السلطان أبي عبدالله محمد المخلوع فأكرم نزله وأحسن مبرّته ، ثم استأذنه في اللحاق بالمغرب فأذن له وأجاز إلى سبته ، وبلغ شأنه إلى صاحب الأمر بالمغرب يومئذ عمر بن عبدالله ، فأوعز إى صاحب سبته بالتقبض عليه لمكان ما يؤنس من ترشيحه . وأودعه السجن بمكناسة ، ثم نقله السلطان عبد العزيز إلى سجن الغدر^(٢) بفاس ، ثم قتلوه خنقاً سنة سبعين وسبعائة

(١) وفي طبعة بولاق المصرية : الدجن .

(٢) وفي طبعة بولاق المصرية : الغور .

* (الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين علي الغزاة بالأندلس
ومصاير أمره) *

قد ذكرنا أن موسى بن رحو بن عبدالله بن عبد الحق ، كان أجاز إلى الأندلس مع محمد وعامر ابني إدريس بن عبد الحق وقومهم ، أولاد سوط النساء سنة تسع وستين وسبعائة ثم رجع إلى المغرب وفرّ إلى تلمسان وأجاز منها إلى الأندلس . وولي إمارة الغزاة بها إلى أن هلك بعد أن أصهر إليه السلطان يوسف بن يعقوب في ابنته ، فعقد له عليها وزفها إليه سنة تسع وسبعين وسبعائة مع وفد من قومهم . وكان لموسى بن رحو من الولد جماعة أكبرهم المحمدان جمال الدين وبدر الدين ، وضع عليهما هذين اللقبين على طريقة أهل المشرق الشريف المكي الوافد على المغرب لذلك العهد من شرفاء مكة . وكان هؤلاء الأعياص من ملوكهم وأقياهم يعظمون أهل البيت النبوي ويلتمسون الدعاء والبركة منهم فيما تيسر من أحوالهم ، فحمل موسى بن رحو ولديه هذين عند وضعها إلى الشريف بجنكها ويدعوها ، فقال له الشريف خذ إليك جمال الدين ، وقال في الآخر خذ إليك بدر الدين ، فاستحب موسى دعاءهما بهذين اللقبين تبركاً بتسمية الشريف بهما ، فاشتهرا بهذين الاسمين . ولما بلغا الأشد وشاركا أباهما في حمل الرياسة وكان من مهلكه ما ذكرناه ، وانحرفت رياسة الغزاة عنها إلى عمّتها عبد الحق وابنه ، فلحق جمال الدين منها بالطاغية سنة ثلاث ثم أجاز البحر من قرطاجنة إلى السلطان يوسف بن يعقوب من معسكره من حصار تلمسان ، واستقرّ في جملته حتى إذا هلك السلطان تصدّى ابنه ابو سالم للقيام بأمره ، وكان مغلباً مضعفاً فلم يثم أمره ، وتناول الملك أبو ثابت حافد السلطان واستولى عليه . وفرّ أبو سالم عشي مهلكه ومعه من القرابة جمال الدين هذا وأعمامه العباس وعيسى وعلي بنو رحو بن عبدالله ، فتقبض عليهم في طريقهم بمدينة وسيقوا إلى السلطان أبي ثابت ، فقتل عمّه أبا سالم وجمال الدين بن موسى بن رحو ، وامتنّ على الباقيين واستحياهم ، وانصرف السلطان بعدها إلى الأندلس ، فكانت له في الجهاد آثار كما ذكرناه قبل . وأما بدر الدين فلم يزل بالأندلس مع قومه ، ومعه من الرياسة والتجلة

محلّه من النسب إلى أن هلك ، فقام بأمره من بعده ابنه علي بن بدر الدين مزاحماً لقومه في الرياسة ، مباحياً في الترشيع . وكان كثيراً ما يعقد له ملوك بني الأحمر على الغزاة من زناة المرابطين بالثغور فيما بعد عن الحضرة من قواعد الأندلس ، مثل مالقة والمرية ووادي آش ، سبيل المرشحين من أهل بيته ، وكانت إمارة الغزاة بالأندلس مستأثرة بأمر السيف والحرب ، مقاسمة للسلطان أكثر الجباية في الأعطية والأرزاق لما كانت الحاجة إليهم في مدافعة العدو ومقارعة ملك المغرب إلى ملك الأندلس ، يفضون لهم عن استطالتهم عليهم لمكان حاجتهم إلى دفاع العدو ، حتى إذا سكن ريح الطاغية بما كان من شغله بفتنة أهل دينه منذ منتصف هذه المائة ، وشغل بنو مرين أيضاً بعد مهلك السلطان أبي الحسن وتناسوا عهد الغلب على أقتالهم وجيرانهم ، وتناسوا عهد ذلك أجمع . فاعترم صاحب الأندلس علي نحو هذه الخطة من دولته . وأغراه بذلك وزيره ابن الخطيب كما ذكرناه حرصاً على خلاء الجوّله ، فتقبّض على يحيى بن عمر وبنه سنة أربع وستين وسبعائة كما ذكرناه ، وعقد على الغزاة المجاهدين لابنه وليّ عهده الأمير يوسف ، ومحا رسم الخطة لبني مرين بالجملة إلى أن توسم فناء الحامية منهم بفناء بيوت العصية الكبرى ، فراجع رأيه في ذلك . وكان علي بن بدر الدين خالصة له وكان مقدماً على الغزاة بوادي آش . ولما لحق السلطان به ناجياً من النكبة ليلة مهلك رضوان ، مانع دونه وظاهره على أمره حتى إذا ارتحل إلى المغرب ارتحل معه . ونزلوا جميعاً على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعائة كما ذكرناه . ولما رجع إلى الأندلس رجع في جملته فكان له بذلك عهد وذمة رعاها السلطان له ، وكان يستخلصه ويناجيه . فلما تفقد مكان الأمير على الغزاة ونظر من يولّيه عثر اختياره على هذا لسابقته ووسائله وما تولّاه من نصحه ووقوفه عند حدّه ، فعقد له سنة سبع وستين وسبعائة على الغزاة كما كان أولوه ، فقام بها واضطلع بأمورها ، واستمرت حاله إلى أن هلك حتف أنفه سنة ثمان وستين وسبعائة ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن السلطان
أبي علي على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره

كان أولاد السلطان أبي علي قد استوفروا بالأندلس وأجازوا إلى طلب الأمر بالمغرب .

وكان من أمرهم ما شرحناه ، إلى أن أجاز عبد الرحمن هذا مع وزيره المصادر^(١) به مسعود بن رحو بن ماسي سنة ست وستين وسبعمئة من غساسة على سلم عقده لهم وزير المغرب المستبد بأمره يومئذ عمر بن عبد الله . ونزل عبد الرحمن هذا بالمنكب ، وكان السلطان يومئذ معسكراً بها فتلقاه من البر بها يناسبه . وأكرم مثواه وأسنى الجراية له ولوزيره ولحاشيته . واستقرّوا في جملة الغزاة المجاهدين حتى إذا هلك علي بن بدر الدين سنة ثمان وستين وسبعمئة نظر السلطان فيمن يوليه أمرهم ، فعثر اختياره على عبد الرحمن هذا لما عرف به من البسالة والإقدام ولقرب الشرائح^(٢) بينه وبين ملك المغرب يومئذ ، التي هي ملاك الترشيح لهذه الخطة بالأندلس كما قدّمناه ، لِمَا كانت رشائح ولد عبد الله بن عبد الحق قد بعدت باتصال الملك في عمود نسب صاحب المغرب دون نسبهم ، فأثره صاحب الأندلس بها ، وعقد له على الغزاة المجاهدين سنة ثمان وستين وسبعمئة وأضفى عليه لبوس الكرامة والتجلة وأقعده بمجلس المؤازرة^(٣) كما كان الأمراء قبله ، واتصل الخبر بسلطان المغرب يومئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، فغصّ بمكانه ، وتوهم أنّ هذه الإمارة زيادة في ترشيحه ووسيلة لملكه ، وكانت لوزير الأندلس محمد بن الخطيب مداخلة مع صاحب المغرب ، بما أمّل أن يجعله فيئة لاعتصامه ، فأوعز إليه بالتحيّل على إفساد ما بينه وبين صاحب الأندلس ، فجهد في ذلك جهده . ونسب عليه وعلى وزيره مسعود بن ماسي إلى عطاء القبيل وبعض البطانة من أهل الدولة التحسّب^(٤) والدعوة إلى الخروج على صاحب المغرب ، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم ، فشهد عليهم وأمر بهم المغرب ، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم ، فشهد عليهم وأمر بهم فاعتقلوا في المطبق سنة سبعين وسبعمئة واسترضى صاحب المغرب بفعلته فيهم ، ونزع الوزير ابن الخطيب بعد ذلك إلى السلطان عبد العزيز ، وتبيّن للسلطان مكره واحتياله عليه في شأنهم . ولما هلك عبد العزيز وأظلم الجوّ بين صاحب الأندلس وبين

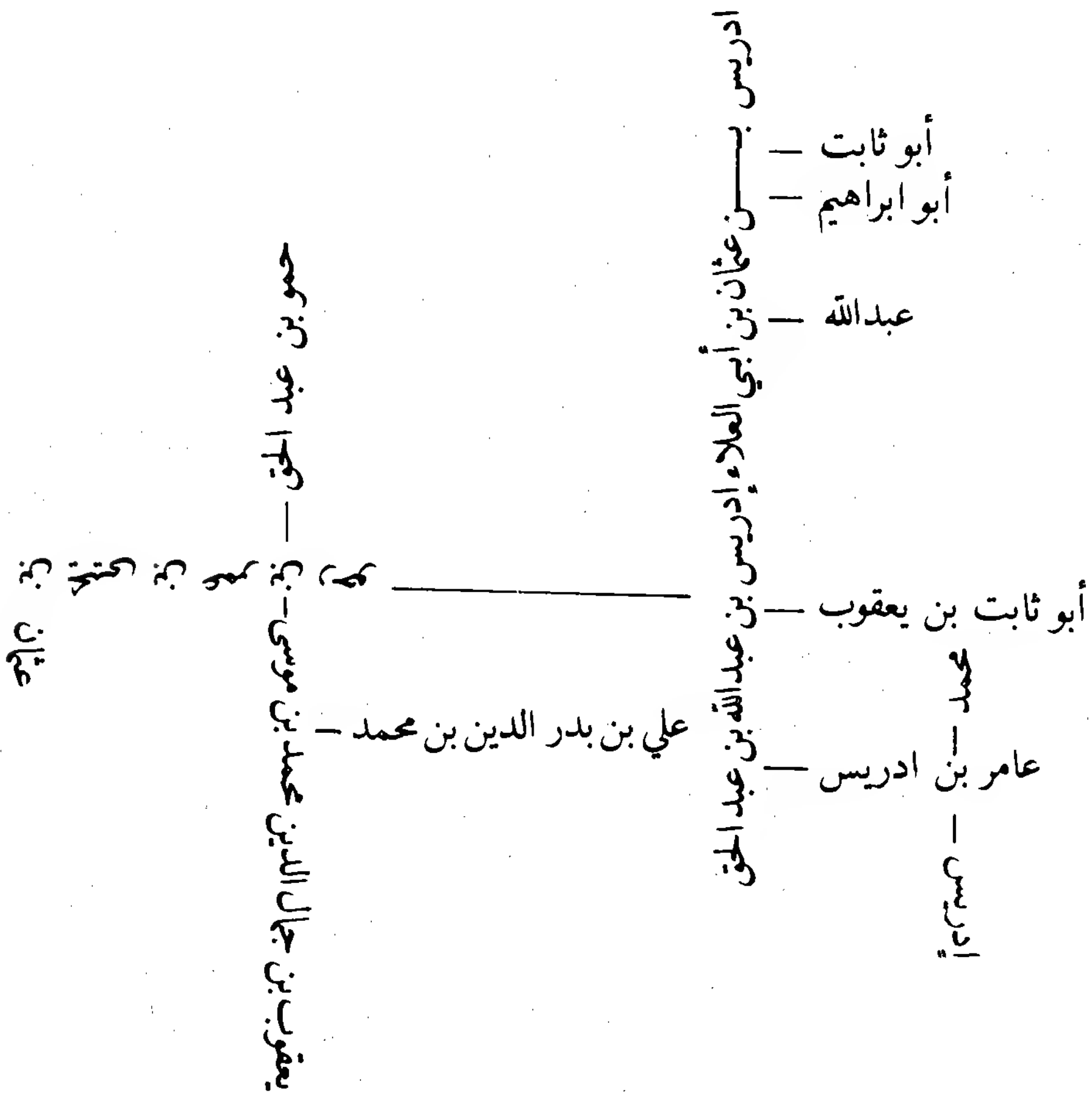
(١) وفي طبعة بولاق المصرية : المطارد به .

(٢) وفي طبعة بولاق المصرية : الوشائج .

(٣) وفي طبعة بولاق المصرية : الوزارة .

(٤) وفي طبعة بولاق المصرية : بالتحبيب .

القائم بالدولة أبي بكر بن غازي كما قدّمناه ، وامتعض ابن الأحمر للمسلمين من
 الفوضى ، أطلق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماسي من الاعتقال
 وجهّز لها الأسطول ، فأجازوا فيه إلى المغرب ونزلوا بمرسى غساسة على بطوية داعياً
 لنفسه ، فقاموا بأمره وكان من شأنه مع الوزير أبي بكر بن غازي ما قصصناه ،
 واستقرّ آخراً بمراكش وتقاسم ممالك المغرب وأعماله مع السلطان أبي العباس أحمد
 ابن أبي سالم صاحب المغرب لهذا العهد . وصار التخيم بينهما وادي ملوية . ووقف كلُّ
 واحد منهما عند حدّه ، وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها
 من ملكه . وصار أمر الغزاة المجاهدين إليه ، وباشر أحوالهم بنفسه ، وعمّمهم
 بنظره ، وخصّ القرابة المرشّحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته . والأمر على ذلك لهذا
 العهد ، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع
 الملك ممن يشاء لا ربّ غيره ولا معبود سواه .



تمّ كتاب أخبار الدول الإسلامية بالمغرب لولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن
خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي .
والحمد لله رب العالمين^(١) .

* (التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب) (٢) *

أصل هذا البيت من إشبيلية انتقل عند الجلاء وغلب ملك الجلالقة ابن أدفونش
عليها إلى تونس في أواسط المائة السابعة * (نسبه) * عبد الرحمن بن محمد بن محمد
بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن
خلدون^(٣) هذا لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هذه العشرة ، ويغلب على الظنّ
أنهم أكثر ، وأنه سقط مثلهم عدداً ، لأنّ خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس ،
فإن كان أول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنة ، فيكونون زهاء العشرين ، ثلاثة
لكل مائة ، كما تقدّم في أول الكتاب الأول . ونسبنا في حضرموت من عرب اليمن
إلى وائل بن حُجر من أقبال العرب ، معروف وله صحبة . قال أبو محمد بن حزم في
كتاب الجمهرة : هو وائل بن حُجر بن سعد بن مسروق بن وائل ، ابن النُعمان بن
ربيعة بن الحرث بن عوف بن سعد بن عوف بن عديّ بن مالك بن شُحَيْب بن
الحرث بن مالك بن مُرّة بن حَمِير بن زيد بن الحَضْرَمِيّ بن عمر بن عبد الله بن

(١) هكذا في النسخة الجزائرية تحقيق البارون دي سلان وفي طبعة بولاق المصرية وغيرها فقد اضيف الى هذا
الكتاب فصل التعريف بابن خلدون .

(٢) هكذا ختم ابن خلدون الجزء الأخير من كتابه بالتعريف عن نفسه واطاف بخطه في بعض النسخ
«ورحلته غربا وشرقاً» .

(٣) بفتح الخاء هكذا اضبطه بخط يده وكما نص عليه السخاوي في الضوء اللامع ج ٤ ص ١٤٥ .

عَوْفُ بن جُرْدُم بن جُرْسُم بن عبد شمس بن زيد بن لؤي بن ثبَّت (١) بن قُدّامة
ابن أعجب بن مالك بن مالك بن لؤي بن قحطان . وابنه عَلْقَمَة بن وائل وعبدُ
الجبار بن علقمة بن وائل .

وذكره أبو عمر بن عبد البرّ في حرف الواو من الاستيعاب . وأنه وفد على النبيّ صلى
الله عليه وسلّم ، فبسط له رداءه وأجلسه عليه ، وقال : « اللهمّ بارك في وائل بن
حُجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة » . وبعث معاوية بن أبي سفيان إلى قومه
يعلمهم الإسلام والقرآن ، فكان له بذلك صحابة مع معاوية . ووفد عليه لأوّل
خلافته فأجازه ، فردّ عليه جائزته ولم يقبلها .

ولما كانت وقعة حجر بن عدّي الكندي بالكوفة ، اجتمع رؤوس أهل اليمن ، فيهم
وائل هذا فكانوا مع زياد بن أبي سفيان (٢) عليه ، حتى أوثقوه وجاؤا به إلى معاوية
فقتله كما هو معروف .

وقال ابن حزم : ويذكر بنو خلدون الإشبيليّون من ولده ، جدّهم الداخل من
المشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانيء بن الخطّاب بن كُريت (٣) بن
معدّ يكرّب بن الحرث بن وائل بن حُجر قال : ومن عقبه كُريت بن عثمان بن
خلدون وأخوه خالد ، وكانا من أعظم ثوار الأندلس .

قال ابن حزم : وأخوه محمد ، كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن محمد بن خالد بن
محمد بن خلدون . وترك أبو العاصي محمداً وأحمد وعبدالله . قال : وأخوهم عثمان ،
له عقب ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس تلميذ مسلّمة المجرّيطي (٤) . وهو أبو
مسلم عمر بن محمد (٥) بن تقي بن عبدالله بن أبي بكر بن خالد بن عثمان بن خلدون
الداخل . وابن عمّه أحمد بن محمد بن عبدالله . قال : ولم يبق من ولد كُريت

(١) قيدها بخطه بفتح الشين وسكون الباء الموحدة بعدها مثناة فوفية .

(٢) هو زياد بن أبيه وهو الذي اعترف به معاوية بأنه أخوه .

(٣) وفي نسخة ثانية : كريب وقد قيده بخطه بضم الكاف وفتح الراء .

(٤) المجرّيطي وهو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبدالله المجرّيطي : فيلسوف ، رياض ، فلكي ، كان أمام
الرياضيين بالأندلس وأوسعهم احاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم مولده ووفاته بمجرّيط (مدرّيد)
الاعلام للزركلي/ج ٧ ص ٢٢٤ .

(٥) وفي عيون الانباء ج ٢ ص ٤١ : عمر بن أحمد بن خلدون بن بقي ، وابن خلدون هذا من اشرف
إشبيلية ، وكان فيلسوفاً مهندساً طبيياً توفي سنة ٤٤٩ هـ .

الرئيس المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبدالله بن كريت انتهى . كلام ابن حزم .

(سلفه بالأندلس) ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا إلى الأندلس ، نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت ، ونشأ بيت بنيه بها ، ثم انتقل إلى إشبيلية . وكانوا في جند اليمن ، وكان الكُريت من عقبه وأخيه خالد ، الثورة المعروفة بإشبيلية أيام الأمير عبدالله المرواني ، ثار على أبي عبدة وملكها من يده أعواماً . ثم ثار عليه عبدالله بن حجّاج بإملاء الأمير عبدالله وقتله ، وذلك في أواخر المائة الثالثة .

(وتلخيص الخبر عن ثورته^(١)) ما نقله ابن سعيد^(٢) عن الحجازي^(٣) وابن حيان^(٤) وغيرهما ، وينقلونه عن ابن الأشعث مؤرخ إشبيلية أن الأندلس لما اضطرت بالفتن أيام الأمير عبدالله ، تطاول رؤساء إشبيلية إلى الثورة والاستبداد ، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت : بيت أبي عبدة ورئيسهم يومئذ ابن عبد الغافر بن أبي عبدة ، وكان عبد الرحمن الداخل ولي إشبيلية وأعمالها أبا عبدة ، وكان حافده أمية من أعلام الدولة بقرطبة ، ويولونه المالك الضخمة . وبيت بني خلدون ورئيسهم كُريت المذكور ، ويردّفه خالد أخوه .

قال ابن حيان : وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية ، نهاية في النباهة ، ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية . ثم بيت بني حجّاج ورئيسهم يومئذ عبدالله . قال ابن حيان : هو من لخم وبيتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل نابت الفرع موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية . فلما عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين ومائتين ، وكان الأمير عبدالله قد ولي على إشبيلية أمية بن عبد الغافر ، وبعث معه ابنه محمداً وجعله في كفالته ، فاجتمع هؤلاء نفر وثاروا بمحمد بن الأمير

(١) راجع أخبار هذه الثورة في المجلد الرابع من هذا الكتاب .

(٢) هو علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي (٦١٠ — ٦٧٣) صاحب كتاب «المغرب» و«المشرق» وغيرهما . يعتمد عليه ابن خلدون كثير في النسب والتاريخ .

(٣) هو صاحب كتاب «المسهب في غرائب المغرب» ، وهو أبو محمد عبدالله ابراهيم الحجاري نسبة إلى وادي الحجارة وهو من أهل القرن السابع .

(٤) ابن حيان : هو مؤرخ الأندلس واسمه أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (٣٧٧ — ٤٦٩) له كتاب المتين في التاريخ ، والمقتبس في تاريخ الأندلس وكتاب معرفة الصحابة . (وفيات الأعيان ١ ص ٢١٠) .

عبدالله ، وبأمية صاحبهم ، وهو يمالئهم على ذلك ، ويكيد بابن الأمير عبدالله .
وحاصروه حتى طلب منهم اللحاق بأبيه فأخرجوه ، واستبدأمية بإشبيلية ، ودس على
عبدالله بن حجاج من قتله ، وأقام أخاه ابراهيم مكانه . وضبط إشبيلية واسترهن
أولاد بني خلدون وبني حجاج ثم ثاروا به ، وهم بقتل أبنائهم فراجعوا طاعته ،
وحلفوا له ، فأطلق أبنائهم فانتقضوا ثانية . وحاربوه فاستمات وقتل حرمته وعقر
خيوله ، وأحرق موجوده . وقتلهم حتى قتلوه مقبلاً غير مدبر ، وعاشت العامة في
رأسه . وكتبوا إلى الأمير عبدالله بأنه خلع فقتلوه ، فقبل منهم مداراة ، وبعث عليهم
هشام بن عبد الرحمن من قرابته ، فاستبدوا عليه وفتكوا بابنه ، وتولى كبر ذلك
كريت بن خلدون . واستقل بإمارتها .

وكان ابراهيم بن حجاج بعدما قتل أخوه عبدالله على ما ذكره ابن سعيد عن
الحجاري سمّت نفسه إلى التفرد ، فظاهر ابن حفصون^(١) أعظم ثوار الأندلس
يومئذ ، وكان بمالقة وأعمالها إلى رندة ، فكان له منه ردة . ثم انصرف إلى مداراة
كريت بن خلدون وملاسته ، فردفه في أمره ، وأشركه في سلطانه ، وكان في كريت
تحامل على الرعية وتعصب ، فكان يتجهّم لهم ويغلظ عليهم ، وابن حجاج يسلك
بهم الرفق والتلطف في الشفقة^(٢) بهم عنده ، فأنحرفوا عن كريت إلى ابراهيم . ثم
دس إلى الأمير عبدالله يطلب منه الكتاب بولاية إشبيلية ، لتسكن إليه العامة ،
فكتب إليه العهد بذلك . وأطلع عليه عرفاء البلد مع ما أشربوا من حبه ، والنفرة
عن كريت ، ثم أجمع الثورة . وهاجت العامة بكريت فقتلوه ، وبعث برأسه إلى
الأمير عبدالله ، واستقر بإمارة إشبيلية .

قال ابن حيان : وحصّن مدينة قرمونة من أعظم معاقل الأندلس ، وجعلها مرتبطاً
لخيله ، وكان ينتقل بينها وبين إشبيلية . واتخذ الجند ورتبهم طبقات ، وكان يصانع
الأمير عبدالله بالأموال والهدايا ، وبعث إليه المدد في الصوائف^(٣) . وكان مقصوداً

(١) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن ادفونش القس . وهو أول نائر
بالأندلس وهو الذي افتتح الخلافة بها ، وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ وتوفي
سنة ٣٠٦ (راجع أخبار ثورته في المجلد الرابع من هذا الكتاب .

(٢) وفي نسخة ثانية : في الشفاعة .

(٣) الصوائف : جمع صائفة : « وهي غزوات المسلمين الى بلاد الروم . سميت صوائف لأنهم كانوا
يغزّون صيفاً تقادياً من شدة البرد (تاج العروس) .

مُمدِّحاً ، قصده أهل البيوتات فوصلهم ، ومدحه الشعراء ومدحه أبو عمر بن عبد ربّه صاحب العقد^(١) وقصده من بين سائر الثّوار فعرف حقه وأعظم جائزته . ولم يزل بين بني خلدون بإشبيلية كما ذكره ابن حيّان وابن حزم وغيرهما ، سائر أيام بني أمية إلى زمان الطوائف^(٢) ، وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة . ولما غلب كعب بن عبّاد^(٣) على إشبيلية ، واستبدّ على أهلها استوزر من بني خلدون هؤلاء واستعملهم في رتب دولته ، وحضروا معه وقعة الجلالقة^(٤) كانت لابن عبّاد وليوسف بن تاشفين على ملوك الجلالقة ، فاستشهد فيها طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء ثبتوا في الجولة مع ابن عبّاد فاستلحموا في ذلك الموقف . بما كان الظهور للمسلمين ، ونصرهم الله على عدوّهم . ثم تغلّب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس ، واضمحت دولة العرب وفنيت قبائلهم .

* (سلفه بأفريقية) * ولما استولى الموحدون^(٥) على الأندلس وملكوها من يد المرابطين ، وكان ملوكهم عبد المؤمن وبنيه . وكان الشيخ أبو حفص^(٦) كبير هنتاة زعيم دولتهم . وولّوه على إشبيلية وغرب الأندلس مراراً ، ثم ولّوا ابنه عبد الواحد عليها في بعض أيامهم ، ثم ابنه أبا زكرياء كذلك ، فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم ، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمّهات ، ويعرف بالمتسبب للأمير أبي زكريا^(٧)

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم أبو عمر (٢٤٦ — ٣٢٨) الأديب الإمام صاحب العقد الفريد من أهل قرطبة (الاعلام ٢٠٧/١) وله ترجمة في وفيات الأعيان ٣٩/١ .

(٢) يتبدأ عصر ملوك الطوائف بالأندلس بنهاية الخلافة الاموية ، وينتهي بغلبة يوسف ابن تاشفين المرابطي عليهم جميعاً ، واستيلائه على الأندلس (راجع المجلد الرابع من هذا الكتاب) .

(٣) هو أبو القاسم المعتمد محمد بن المعتضد بن عبّاد (٤٣١ — ٤٨٨) أكبر ملوك الطوائف بالأندلس (راجع ترجمته في المجلد الرابع من هذا الكتاب) و(وفيات الأعيان) .

(٤) وفي نسخة ثانية : الزلاقة : وهي من المعارك المشهورة في تاريخ الأندلس بل في التاريخ الإسلامي ، وكان لها الأثر البعيد في الحياة الإسلامية في الأندلس وقد أسهب المؤرخون في ذكرها وذكر تفاصيلها .

(٥) نشأت دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت وهو المهدي . وقد ابتدأت دولتهم بالغرب سنة ٥١٤ وانتهت سنة ٦٨٨ هـ ، وامتد سلطانها الى الأندلس من سنة ٥٤٠ — ٦٠٩ هـ . راجع تاريخ أبي الفداء ٢٤٣/٢ .

(٦) هو أول التابعين لدعوة مهدي الموحدين وكان يسمى بالشيخ واسمه عمر بن يحيى بن محمد الهنتائي ولقبه أبو حفص ، واليه تنسب الدولة الحفصية بأفريقية ومنهم من يردهم الى ذرية عمر بن الخطاب وليس هذا بصحيح .

(٧) « هو الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي ، ملك جل أفريقيا . بايعه أهل الأندلس وأمله أهل =

يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم ، جارية من سبي الجلالقة ، اتخذها أم ولد ، وكان له منها ابنه أبو زكريا يحيى وليّ عهده المهالك في أيامه ، وأخواه عمر وأبو بكر ، وكانت تلقب أم الخلفاء . ثم انتقل الأمير أبو زكريا إلى ولاية أفريقية سنة عشرين وستمائة . ودعا لنفسه بها وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين وستمائة واستبدّ بأفريقية ، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس ، وثار عليهم ابن هود^(١) . ثم هلك واضطربت الأندلس وتكالب الطاغية عليها ، وتردد الغزوي إلى الفرنتيرة بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جيان . وثار ابن الأحمر من غرب الأندلس من حصن أرجونة يرجو التماسك بما بقي من رمق الأندلس . وفاوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية . وهم بنو الباجي ، وبنو الجدد ، وبنو الوزير ، وبنو سيد الناس ، وبنو خلدون . وداخلهم في الثورة على ابن هود ، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرنتيرة ، ويتمسكوا بالجبال الساحلية وأمصارها المتوعرة ، من مالقة إلى غرناطة إلى المريّة ، فلم يوافقوه على بلادهم . وكان مقدمهم أبو مروان الباجي ، فناذهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي وبايع مرة لابن هود ومرة لصاحب مراکش من بني عبد المؤمن ، ومرة للأمير أبي زكريا صاحب أفريقية . ونزل غرناطة واتخذها دار ملكه ، وبقيت الفرنتيرة وأمصارها ضاحية من ظل الملك ، فخشي بنو خلدون سوء العاقبة من الطاغية ، وارتحلوا من إشبيلية إلى العدو ، ونزلوا سبتة ، وأجلب الطاغية على تلك الثغور فملك قرطبة وإشبيلية وقرمونة وجيان وما إليها في مدة عشرين سنة . ولما نزل بنو خلدون بسبتة أصهر إليهم العزفيّ بأبنائه وبناته ، فاختلط بهم ، وكان له معهم صهرٌ مذكور . وكان جدنا الحسن بن محمد ، وهو سبط ابن المحتسب قد أجاز فيمن أجاز إليهم ، فذكروا سوابق سلفه عند الأمير أبي زكريا ، فقصده ، وقدم عليه فأكرم قدومه ، وارتحل إلى المشرق ف قضى فرضه . ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكريا على بونة ، فأكرمه واستقرّ في ظل دولته ومرعى نعمته ، وفرض له الأرزاق وأقطع الأقطاع . وهلك هنالك فدفن ببونة سنة سبع وأربعين وستمائة وولي ابنه المستنصر

شرق الأندلس لصد هجوم ملكي ارغون وقشتالة ، فأوفدوا إليه كاتب ابن مردنيش ابا عبدالله بن الابار فانشده القصيدة السينية المشهورة :

ادرك بخيلك خيل الله اندلساً ان السبيل الى منجاتها درسا

(١) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن هو الجذامي . راجع أخبار ثورته في المجلد الرابع من هذا الكتاب .

محمد ، فأجرى جدنا أبا بكر على ما كان لأبيه . ثم ضرب الدهر ضرباته ، وهلك المستنصر سنة خمس وسبعين وستائة ، وولي ابنه يحيى ، وجاء أخوه الأمير أبو اسحق من الأندلس بعد أن كان فر إليها أمام أخيه المستنصر . فخلع يحيى ، واستقل هو بملك أفريقية ، ودفع جدنا أبا بكر محمداً على عمل الأشغال في الدولة على سنن عطاء الدولة الموحدين فيها قبله ، من الانفراد بولاية العمال وعزلهم وحسابهم على الجباية ، فاضطلع بتلك الرتبة . ثم عقد السلطان أبو اسحق لابنه محمد ، وهو جدنا الأقرب على حجابة وليّ عهده ابنه أبي فارس أيام أن اقصاه إلى بجاية^(١) . ثم استغنى جدنا من ذلك فأعفاه ورجع إلى الحضرة ، ولما غلب الدعي ابن أبي عمارة^(٢) على ملكهم بتونس ، اعتقل جدنا أبا بكر محمداً ، وصادره على الأموال ثم قتله خنقاً في محبسه . وذهب ابنه محمد جدنا الأقرب مع السلطان أبي اسحق وأبنائه إلى بجاية فتقبض عليه ابنه أبو فارس ، وخرج مع العساكر هو وإخوته لمدافة الدعي ابن أبي عمارة ، وهو يشبه بالفضل بن المخلوع حتى اذا استلحموا بمرما جنة خلص جدنا محمد مع أبي حفص ابن الأمير أبي زكريا من الملحمة ، ومعها الفازازي وأبو الحسين بن سيّد الناس فلحقوا بمنجاتهم من قلعة سنان . وكان الفازازي من صنائع المولى أبي حفص ، وكان يؤثره عليهم . فأما أبو الحسين بن سيّد الناس ، فاستنكف من إيثار الفازازي عليه ، بما كان أعلى رتبة منه ببلده إشبيلية ، ولحق بالمولى أبي زكريا الأوسط بتلمسان ، وكان من شأنه ما ذكرناه . وأما محمد بن خلدون فأقام مع الأمير أبي حفص وسكن لا يثار الفازازي . ولما استولى أبو حفص على الأمور رعى له سابقته وأقطعه ، ونظّمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب ، واستكفى به في الكثير من أمر ملكه ، ورشّحه لحجابه من بعد الفازازي . وهلك فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عصيدة ، واصطفى لحجابه محمد بن ابراهيم الدبّاغ كاتب الفازازي وجعل محمد بن خلدون رديفاً له في حجابه . فكان كذلك إلى أن هلك السلطان ، وجاءت دولة الأمير خالد ، فأبقاه على حاله من التجلّة والكرامة ، ولم

(١) بجاية : وتسمى الناصرية نسبة الى بانيتها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري الصنهاجي ، بناها في حدود سنة ٤٥٧ : — تقع اليوم — على ساحل البحر الأبيض من الجزائر وكانت قاعدة المغرب الاوسط (معجم البلدان) .

(٢) هو أحمد بن روق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة (الاحاطة في تاريخ غرناطة

يستعمله ولا عقده ، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني فاصطنعه ، واستكفى به عندما تنبّضت عروق التغلب من العرب ، ودفعه إلى حماية الجزيرة من لاج^(١) إحدى بطون سليم الموطنين بنواحيها ، فكانت له في ذلك آثار مذكورة . ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج إلى الشرق وقضى سنة ثمان عشرة وأظهر التوبة والإقلاع ، وعاود الحج متنقلاً سنة ثلاث وعشرين وسبعائة ولزم كسر بيته . وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته في كثير مما كان بيده من الاقطاع والجراية ، ودعاه إلى حجابه مراراً فامتنع .

(أخبرني) محمد بن منصور بن مزني قال : لما هلك الحاجب بن محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار سنة سبع وعشرين وسبعائة ، استدعى السلطان جدك محمد بن خلدون وأراده على الحجابة ، وأن يفوض إليه أمره ، فأبى واستعفى فأعفاه وأمره فيمن يوليه حجابه ، فأثار عليه بصاحب ثغر بجاية محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لاستحقاقه ذلك بكفايته واضطلاعه ، ولقديم صحابة بين سلفها بتونس ، وإشبيلية من قبل . وقال له : هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والدين^(٢) فعمل السلطان على إشارته واستدعى ابن سيد الناس وولاه حجابه . وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدنا محمداً عليها وثوقاً بنظره واستنامة إليه إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين وسبعائة ونزع ابنه ، وهو والدي محمد بن أبي بكر عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرباط ، كما نشأ عليه في حجر أبي عبدالله الرندي^(٣) الشهير بالفقيه ، كان كبير تونس لعهدده في العلم والفتيا ، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبي حسين وعمه حسن ، الوليين الشهيرين . وكان جدنا رحمه الله قد لازمه من يوم نزوعه عن طريقه ، وألزمه ابنه وهو والدي رحمه الله فقراً وتفقه ، وكان مقدماً في صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه ، عهدي بأهل البلد يتحاكمون إليه فيه ، ويعرضون حوكهم عليه ، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعائة .

(١) وفي نسخة ثانية : دلاج .

(٢) وفي نسخة ثانية : الذوين .

(٣) وفي نسخة ثانية : الزبيدي . نسبة إلى قرية ساحل المهديّة توفي عام ٧٤٠ هـ وهو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن عبدالله القرشي الزبيدي . والرندي نسبة إلى (رندة) .

* (أما نشأتي) * فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أئفقتُ وقرأتُ القرآن العظيم على الاستاذ أبي عبدالله محمد بن سعد بن نزال^(١) الأنصاري ، أصله من جالبة الأندلس من أعمال بلنسية ، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها ، وكان إماما في القراءات لا يلحق شأوه ، وكان من أشهر شيوخه في القراءات السبع أبو العباس أحمد بن محمد بن البطوي^(٢) ومشيخته فيها ، وأسانيده معروفة . وبعد أن استظهرت القرآن العظيم عن حفظي ، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة إفراداً وجمعاً^(٣) في إحدى وعشرين ختمة ، ثم جمعها في ختمة واحدة أخرى ثم قرأت برواية يعقوب^(٤) ختمة واحدة جمعاً بين الروایتين عنه ، وعرضت عليه رحمه الله قصيدة الشاطبي^(٥) اللامية في القراءات والرائية في الرسم . وأخبرني بهما عن الاستاذ أبي عبدالله البطوي وغيره من شيوخه ، وعرضت عليه كتاب التفسير لاحاديث الموطأ لابن عبد البر حذا به حذو كتابه التمهيد على الموطأ ، مقتصراً على الأحاديث فقط .

و درست عليه كتاباً جمّة مثل كتاب التسهيل لابن مالك^(٦) ومختصر ابن الخطيب في الفقه^(٧) ولم أكملها بالحفظ ، وفي خلال ذلك تعلّمت صناعة العربية على والدي

- (١) وفي نسخة ثانية برال : بضم الباء الموحدة ، وفتح الراء المشددة ، هكذا قيده ابن خلدون بخط يده .
- (٢) وفي نسخة ثانية : البطوني : نسبة الى بطرنة من إقليم بلنسية بشرق الأندلس . وقد ضبطها ابن خلدون بخط يده : بفتح الباء والطاء المهملة وراء ساكنة بعدها نون .
- (٣) « الإفراد ان يتلى القرآن كله أو جزء منه برواية واحدة لأحد القراء السبع أو العشرة المشهورين ، والجمع أن يجمع القارئ عند قراءته للقرآن كله أو جزء منه بين روايتين فأكثر من الروايات السبع أو العشر المتواترة . ويسمى بالجمع الكبير ان استوفى القارئ سبع قراءات فأكثر . والأسموه بالجمع الصغير .
- (٤) هو يعقوب بن اسحق بن زيد بن عبدالله الحضرمي البصري (١١٧ — ٢٠٥) أحد القراء العشرة ، وله قراءة مشهورة عنه ، وهي إحدى القراءات العشر . راجع طبقات القراء (٢٨٥/١) و (٢٣٤/٢) .
- (٥) هو أبو القاسم بن خلف بن أحمد الشاطبي الرعيني ، رحل الى الشرق ودخل القاهرة ، حيث مدرسة القاضي الفاضل ، وقد نظم قصيدته اللامية المعروفة بالشاطبية أو حرز الأمان ، والرائية وتعرف بالعقيلة (طبقات القراء ٢/٢٠) .
- (٦) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي الحياي النحوي المشهور (٦٠٠ — ٦٧٢) وكتابه تسهيل الفوائد جمع قواعد النحو بإيجاز .
- (٧) وفي نسخة ثانية : ابن الحاجب وهو عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جمال الدين المصري (٥٧٠ — ٦٤٦) له مختصر في الفقه ذكره ابن خلدون في مقدمته راجع (وفيات الاعيان ٣٩٥/١) .

وعلى أستاذي تونس : منهم الشيخ أبو عبدالله محمد العربي الحَصَايري ، وكان إماماً في النحو وله شرح مستوفى على كتاب التسهيل . ومنهم أبو عبدالله محمد بن الشواش المزاوي ^(١) . ومنهم أبو العباس أحمد بن القصار ، كان ممتعاً في صناعة النحو ، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الجناب النبوي وهو حيّ لهذا العهد بتونس .

ومنهم إمام العربية والأدب بتونس أبو عبدالله محمد بن بحر ، لازمتُ مجلسه وأفدت عليه ، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان . وأشار عليّ بحفظ الشعر فحفظت كتب الأشعار الستة ، والحماسة للأعلم ^(٢) وشعر حبيب ^(٣) وطائفة من شعر المتنبي ، ومن أشعار كتاب الأغاني . ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن جابر بن سلطان القيسيّ الوادي ياشي صاحب الرحلتين ، وسمعت عليه كتاب مسلم بن الحجاج إلا فوتايسيراً من كتاب الصيد ، وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوله إلى آخره ، وبعضاً من الأمهات الخمس ، وناولني ^(٤) كتباً كثيرة في العربية والفقه وأجازني إجازة عامة ، وأخبرني عن مشايخه المذكورين أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن الغماز الخزرجي .

وأخذت الفقه بتونس من جماعة ، منهم أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحياتي ، وأبو القاسم محمد القصير ، وقرأت عليه كتاب التهذيب لأبي سعيد البرادعي ، مختصر المدونة ، وكتاب المالكية ، وتفقهت عليه . وكنت في خلال ذلك انتاب مجلس شيخنا الإمام قاضي الجماعة أبي عبدالله محمد بن عبد السلام مع أخي عمر رحمة الله عليهما ، وأفدت منه وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك ، وكانت له طرق عالية عن أبي محمد بن هرون الطائي قبل اختلاطه إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس ، وكلهم سمعت عليه ، وكتب لي وأجازني ، ثم درجوا كلهم في الطاعون الجارف .

(١) وفي نسخة ثانية : الزرزالي .

(٢) هو يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشتمري — نسبة الى شتمرية — المعروف بالأعلم (وفيات الأعيان) ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٣) الشاعر المشهور وهو حبيب بن اوس الحارث الطائي أبو تمام (١٩٠ — ٢٢٦) (وفيات الأعيان) .

(٤) المناولة حسب مصطلح الحديث تعني الإجازة لشخص بالرواية عن شخص آخر .

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك أفريقية سنة ثمان وأربعين
 جماعة من أهل العلم كان يُلزمهم شهود مَجْلِسِهِ ، ويتجمل بمكانهم فيه ، فمنهم
 شيخ الفُتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك أبو عبدالله محمد بن سليمان السطّي ، فكنت
 انتاب مجلسه وأفدت عليه . ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته التي
 توضع أسفل مكتوباته ، إمام المحدثين أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي ، لازمته
 . وأخذت عنه سماعاً وإجازة ، الأمّهات الست . وكتاب الموطأ ، والسير لابن اسحق ،
 وكتاب ابن الصلاح في الحديث ، وكتباً كثيرة سرت^(١) عن حفطي . وكانت
 بضاعته في الحديث وافرة ، ونحلته في التقييد والحفظ كاملة ، كانت له خزانة من
 الكتب تزيد على ثلاثة الاف سفر في الحديث والفقهِ والعربية والأدب والمعقول وسائر
 الفنون ، مضبوطة كلها مقابلة . ولا يخلو ديوان منها عن ضبط بخط بعض شيوخه
 المعروفين في سنده إلى مؤلفة ، حتى الفقهِ والعربية الغريبة الإسناد إلى مؤلفها في هذه
 العصور . ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب . قرأت عليه
 القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع ، من طريق أبي عمر والداني وابن
 شُريح^(٢) لم أكملها ، وسمعت عليه عدّة كتب ، وأجازني بالاجازة العامّة .

ومنهم شيخ العلوم العقلية أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الأيّلّي أصله من تلمسان وبها
 نشأ ، وقرأ كتب التعليم وحذق فيها ، وأظله الحصار الكبير بتلمسان أعوام المائة
 السابعة ، فخرج منها وحجّ ولقي أعلام المشرق يومئذ ، فلم يأخذ عنهم لأنه كان
 محتلطاً بعارض عرض في عقله . ثم رجع من المشرق وأفاق وقرأ المنطق والأصلين على
 الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام ، وكان قرأ بتونس مع أخيه أبي زيد عبد
 الرحمن على تلميذ أبي زيتون الشهير الذكر^(٣) وجاءا إلى تلمسان بعلم كثير من
 المنقول والمعقول ، فقرأ الأيّلّي على أبي موسى منها كما قلناه ، ثم خرج من تلمسان
 هارباً إلى المغرب لأن سلطانها أبا حمّو يومئذ من ولد يغمراسن بن زيّان ، كان يكرهه
 على التصرف في أعماله ، وضبط الجباية بحسابه ، ففرّ إلى المغرب ، ولحق

(١) وفي نسخة ثانية : شدت .

(٢) هو المقرئ محمد بن شريح بن أحمد بن محمد ابو عبدالله الإشبيلي (٣٨٨ — ٤٧٦) .

(٣) هو ابن زيتون أبو القاسم ، القاسم بن أبي بكر بن مسافر (٦٢١ — ٦٩١) قام برحلة الى الشرق واخذ
 عن علمائه ، ثم رجع بعدها الى تونس ما سند إليه مهمة القضاء والافتاء ، وهو أول من أظهر تأليف فخر
 الدين الرازي في تونس .

بمراكش ، ولازم العالم الشهير الذكر أبا العباس بن البناء ، فحصل عنه سائر العلوم العقلية ، وورث مقامه فيها وأرفع ، ثم صعد إلى جبل الهساكرة بعد وفاة الشيخ باستدعاء علي بن محمد بن تروميت ليقراً عليه ، فأفاده وبعد أعوام استنزله ملك المغرب ، السلطان أبو سعيد ، وأسكنه بالبلد الجديد والأبلي معه .

ثم اختصه السلطان أبو الحسن ونظمه في جملة العلماء بمجلسه ، وهو في خلال ذلك يعلم العلوم العقلية ، ويبثها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصاره . وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه . ولما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن ، لزمته ، وأخذتُ عنه العلوم العقلية^(١) ، والمنطق ، وسائر الفنون الحكيمة ، والتعليمية ، وكان رحمه الله تعالى يشهد لي بالتبريز في ذلك .

ومن قدم في جملة السلطان أبي الحسن ، صاحبنا أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان المالقي ، كان يكتب عن السلطان ويلازم خدمة أبي محمد عبد المهيمن رئيس الكتاب يومئذ ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات ، وبعضها يضعه السلطان بخطه . وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب في براعة خطه ، وكثرة علمه ، وحسن سمته ، وإجادته في فقه الوثائق ، والبلاغة في الترسيل عن السلطان ، وحوك الشعر والخطابة على المنابر ، لأنه كان كثيراً ما يُصَلِّي بالسلطان . فلما قدم علينا بتونس صحبتته ، واغتنبت به ، وإن لم أتخذه شيخاً ، لمقاربة السن ، فقد أفدت منه كما أفدت منهم . وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرحويّ شاعر تونس في قصيدة على رويّ النون يرغب منه أن يذكره^(٢) لشيخه أبي محمد عبد المهيمن في إيصال مدحه للسلطان أبي الحسن في قصيدة^(٣) على رويّ الياء ، وقد تقدّم ذكرها في أخبار السلطان . وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي هذه :

عرفتُ زمانِي حين أفكرتُ عِرْفاني
وَأَنْ لا اختيَارُ في اختيَارِ مقومِ
وأيقنتُ أن لا حظُّ في كَفِّ كيوانِ^(٤)
وَأَنْ لا قِرَاعُ بِالْقِرَانِ لأقرانِ

(١) وفي نسخة ثانية : واخذتُ عنه الاصلين .

(٢) وفي نسخة ثانية : يرغب منه تذكرة .

(٣) وفي نسخة ثانية : في قصيدته .

(٤) اسم لأحد الكواكب السيارة ويدعى زُحل .

وَأَنْ نِظَامَ الشَّكْلِ أَكْمَلَ نَظْمِهِ لِأَضْعَافٍ قَاضٍ فِي الدَّلِيلِ بُرْجَحَانَ
وَأَنْ افْتِقَارَ المَرءِ مِنْ فِقْرَاتِهِ وَمِنْ ثِقْلِهِ يُغْنِي اللَّيْبَ بِأَوْزَانِ
إِلَى آخِرِهَا ، ثُمَّ يَقُولُ فِي ذِكْرِ العُلَمَاءِ القَادِمِينَ :

هَمُّ القَوْمِ كَلَّ القَوْمَ أَمَّا حُلُومُهُمْ فَأَرْسَخُ مِنْ طَوْدِي ثَبِيرٍ وَثَهْلَانَ^(١)
فَلَا طِيشَ يعلوهم^(٢) وَأَمَّا علومهم فَأَعْلَامُهَا تَهْدِيكَ مِنْ غَيْرِ نِيرَانِ
ثُمَّ يَقُولُ فِي آخِرِهَا

وَهَامَتْ عَلَى عَبْدِ المُهَيْمِنِ تُونِسُ وَقَدْ ظَفِرَتْ مِنْهُ بِوَصْلِ وَقُرْبَانِ
وَمَا عَلِقَتْ مِنِّي الضَّمَائِرُ غَيْرُهُ وَإِنْ هَوَيْتَ كَلًّا بِحَبِّ ابْنِ رَضْوَانَ
وَكَتَبَ هَذَا الشَّاعِرُ صَاحِبِنَا الرَّحْوِيُّ يَذْكَرُ عَبْدِ المُهَيْمِنِ بِذَلِكَ .

لَهِيَ النِّفْسُ فِي اكْتِسَابِ وَسْعِي وَهُوَ العَمْرُ فِي انْتِهَابِ وَفِي
وَأَرَى النَّاسَ بَيْنَ سَاعٍ لِرُشْدٍ يَتَوَخَّى الهُتْدَى وَسَاعٍ لِغِيٍّ
وَأَرَى العِلْمَ لِلبَرِيَّةِ زِينًا فَتَرِيَّ مِنْهُ بِأَحْسَنِ زِيٍّ
وَأَرَى الفَضْلَ قَدْ تَجَمَّعَ كَلًّا فِي ابْنِ عَبْدِ المُهَيْمِنِ الحَضْرَمِيِّ
ثُمَّ يَقُولُ فِي آخِرِهَا

يَنْبَغِي القُرْبَ مِنْ مِرَاقِي الأَمَانِي وَالتَّرْقِي لِلجَنَابِ العَلَوِيِّ
فَأَنْلَهَا مَرَامَهَا مُسْتَهْلًا^(٣) كَلَّ دَانَ يَسْعَى وَكَلَّ قَصِيٍّ

ثُمَّ كَانَتْ وَاقِعَةُ العَرَبِ عَلَى السُّلْطَانِ بِالقَيْرَوَانِ فَاتَحَ تِسْعَ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةَ فَشَغَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَظْفِرْ هَذَا الرَّحْوِيُّ بِطَلْبَتِهِ . ثُمَّ جَاءَ الطَّاعُونَ الجَارِفَ فَطَوَى البَسَاطَ بِمَا فِيهِ ، وَهَلَكَ عَبْدُ المُهَيْمِنِ فِيمَنْ هَلَكَ ، وَدَفِنَ بِمَقْبَرَةِ سَلْفِنَا بِتُونِسَ ، لِخَلَّةٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللهُ أَيَّامَ قَدُومِهِمْ عَلَيْنَا .

فَلَمَّا كَانَتْ وَقِعَةُ القَيْرَوَانِ ثَارَ أَهْلُ تُونِسَ بِمَنْ كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَشْيَاعِ السُّلْطَانِ أَبِي الحَسَنِ ، فَاعْتَصَمُوا بِالقَصْبَةِ دَارَ المَلِكِ ، حَيْثُ كَانَ وَلَدُ السُّلْطَانِ وَأَهْلُهُ ، وَانْتَقَضَ عَلَيْهِ ابْنُ تَافَرَ كَيْنَ ، وَخَرَجَ مِنَ القَيْرَوَانِ إِلَى العَرَبِ ، وَهُمْ يَحَاصِرُونَ السُّلْطَانَ ، وَقَدْ

(١) ثَبِيرٌ : جَبَلٌ بِظَاهِرِ مَكَّةَ . ثَهْلَانٌ : جَبَلٌ فِي بِلَادِ بَنِي غَيْرِ (تَاجِ العُرُوسِ) .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ : يَعْرُوهُمْ .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ ثَانِيَةٍ :

فَأَنْلَهَا مَرَامَهَا نَلْتُ سَهْلًا كَلَّ دَانَ بُغِيٍّ وَكَلَّ قَصِيٍّ

اجتمعوا على أبي دبوس وبايعوا له كما مرّ في أخبار السلطان ، فبعثوا ابن تافراكين إلى تونس ، فحاصر القصبة وامتنعت عليه . وكان عبد المهيمن يوم ثورة أهل تونس ، وقد سمع الهبة (١) خرج من بيته إلى دارنا فاخفى عند أبي رحمه الله ، وأقام متخفياً عندنا نحواً من ثلاثة أشهر . ثم نجا السلطان من القيروان إلى سوسة ، وركب البحر إلى تونس ، وفرّ ابن تافراكين إلى المشرق ، وخرج عبد المهيمن من الاختفاء ، وأعاد السلطان إلى ما كان عليه من وظيفة الولاية والكتابة (٢) وكان كثيراً ما يخاطب والذي رحمه الله ويشكره على موالاته ، ومما كتب إليه وحفظته من خطّه :

محمد ذو المكارم قد ثناني (٣)
 جزى الله ابن خلدون حياة
 فكم أولى ووالى من جميل
 وراعى الحضرمية في الذي قد
 أبا بكر ثناؤك طول دهرى
 وعن عليك ما امتدت حياتى
 فميك أفدت خلاً لست دهرى
 فعال شكره أبداً عناني
 منعمة وخلداً في الجنان
 وبر بالفعال وباللسان
 جنى من وده ورد الحنان (٤)
 أردد باللسان وبالجنان
 أكافح بالحسام وباللسان
 أرى عن حبه أثنى عناني

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرحوي في شعره ، هم سباق الحلبة في مجلس السلطان أبي الحسن ، اصطفاهم لصحابته من بين أهل المغرب ، فأما ابنا الإمام منهم ، فكانا أخوين من أهل برشك من أعمال تلمسان ، واسم أكبرهم أبوزيد عبد الرحمن ، والأصغر أبو موسى عيسى . وكان أبوهما إماماً ببعض مساجد برشك ، واتهمه المتغلب يومئذ على البلد زيرم بن حماد (٥) بأنّ عنده وديعة من المال لبعض أعدائه ، فطالبه بها ، ولاذ بالامتناع ، وبيته زيرم لينتزع المال من يده ، فدافعه وقتل ، وارتحل ابناه هذان الأخوان إلى تونس في آخر المائة

(١) وفي نسخة ثانية : ووقوع الهبة .

(٢) وفي نسخة ثانية : وظيفة العلامة والكتابة .

(٣) وفي نسخة ثانية : لمحمد ذوي المكارم قد ثناني .

(٤) وفي نسخة ثانية :

وراعى الحضرمية في الذي قد جـ من وده ومن الحنان

(٥) زيري بن حماد : وقد ورد في مكان سابق من هذا الكتاب .

السابعة ، وأخذ العلم بها عن تلميذ ابن زيتون ، وتفقهها على أصحاب أبي عبدالله بن شعيب الدُّكَّالي ، وانقلبا إلى المغرب بحظّ وافر من العلم ، وأقاما بالجزائر يبتان العلم بها لامتناع برشك عليهما من أجل زيرم المتغلب عليها ، والسلطان أبو يعقوب يومئذ صاحب المغرب الأقصى من بني مرين جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور^(١) ، وبث بها جيوشه في نواحيها ، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها ، وملك عمر مغراوة بشلف ، وحصر مليانة ، بعث إليها الحسن بن أبي الطلاق من بني عسكر ، وعليّ بن محمد ابن الخير من بني ورتاجن ، ومعها لضبط الجباية واستخلاص الأموال الكاتب منديل بن محمد الكِناني ، فارتحل هذان الأخوان من الجزائر ، وأخذوا عليه^(٢) ، فحلبا بعين منديل الكِناني^(٣) ، فقرّبهما واصطفاهما ، واتخذهما لتعليم ولده محمد . فلما هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب بمكانه من حصار تلمسان سنة خمس وسبعمئة^(٤) على يد خصيٍّ من خصيائه طعنه فأشواه ، وهلك . وأقام بالملك بعده حافده أبو ثابت بعد أمور ذكرناها في أخباره ، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان من بعده يومئذ ، أبي زيّان محمد بن عثمان بن يغمراسن وأخيه أبي حمّو العهد المتأكد على الإفراج عن تلمسان ، وردّ أعمالها عليه ، فوفّى لهم بذلك وعاد إلى المغرب . وارتحل ابن أبي الطلاق من شلف ، والكِناني من مليانة راجعين إلى المغرب . ومروا بتلمسان فأوصى لها أبو حمّو وأثنى عليها حلّة بمقامها في العلم ، واغتبط بهما أبو حمّو وبني لها المدرسة المعروفة بهما بتلمسان . وأقاما عنده على مجرى أهل العلم . وسنهم . وهلك أبو حمّو ، وكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن المريني إلى تلمسان ، وملكها عنوة سنة سبع وثلاثين وسبعمئة وكانت لها شهرة في أقطار المغرب ، أسست لها عقيدة صالحة ، فاستدعاهما حين دخوله ، وأدنى مجلسها وشاد بمكرمتها ، ورفع جاهها على أهل طبقتها . وصار يحملّ بهما مجلسه متى مرّ بتلمسان ووفدا عليه في الأولى التي نفر فيها أعيان بلادها . ثم استنفرهما

(١) دام هذا الحصار حوالي ثمان سنوات وثلاث أشهر .

(٢) وفي نسخة ثانية : واحتلّا بمليانة .

(٣) وفي نسخة ثانية : الكِناني .

(٤) وفي كتاب العبر والإحاطة انه قتل سنة ٧٠٦ راجع الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٨٠ .

إلى الغزو وحضرا معه واقعة طريف ، وعادا إلى بلدهما . وتوفي أبو زيد منها إثر ذلك ، وبني أخوه موسى متبوّثاً ما شاء من ظلال تلك الكرامة .

ولما سار السلطان أبو الحسن إلى أفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كما مرّ في أخباره استصحب أبا موسى ابن الإمام معه مكرماً موقراً ، عالي المحل ، قريب المجلس منه . فلما استولى على أفريقية سرّحه إلى بلده ، فأقام بها يسيراً وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبقي أعقابها بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة موقرين فيها طبقاً على طبق إلى هذا العهد . وأمّا السطّبي ، واسمه محمد بن سليمان من قبيلة سطة ، من بطون أوربة بنواحي فاس ، فنزل أبوه سليمان مدينة فاس . ونشأ محمد فيها وأخذ العلم عن الشيخ أبي الحسن الصغير إمام المالكية بالمغرب ، والطائر الذكر وقاضي الجماعة بفاس ، وتفقه وقرأ عليه ، وكان أحفظ الناس لمذهب مالك ، وأفقههم فيه . وكان السلطان أبو الحسن لعظم همته^(١) وبعد شأوه في الفضل يتشوّف إلى تزيين مجلسه . بالعلماء ، واختار منهم جماعة لصحابه ومحالسته ، كان منهم هذا الإمام محمد بن سليمان . وقدم علينا بتونس في جملته ، وشهدنا وفور فضله^(٢) ، وكان في الفقه من بينهم لا يجارى حفظاً وفهماً ، عهدي به رحمه الله تعالى ، وأخي موسى^(٣) يقرأ عليه كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي ، وهو يصحّحه عليه من إملائه وحفظه في مجالس عديدة ، وكان هذا حاله في أكثر ما يعاني في جملة من الكتب^(٤) . وحضر مع السلطان أبي الحسن واقعة القيروان وخلص معه إلى تونس ، وأقام بها نحواً من سنتين ، وانتقض المغرب على السلطان واستقلّ به ابنه أبو عنان . ثم ركب السلطان أبو الحسن في أساطيله من تونس آخر سنة خمسين وسبعمائة ومرّ ببجاية فأدرکه الفرق في سواحلها ، ففرقت أساطيله وغرق أهله ، وأكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم ، ورمى به البحر ببعض الجزر هنالك حتى استنقذه منها بعض أساطيله ، ونجا إلى الجزائر بعد أن تلف موجوده ، وهلك الكثير من عياله وأصحابه ، وكان من أمره ما مرّ في أخباره .

(١) وفي نسخة أخرى : وكان السلطان أبو الحسن لدينه وسرواته .

(٢) وفي نسخة أخرى : فضائله .

(٣) وفي نسخة أخرى : أخي محمد .

(٤) وفي نسخة أخرى : وكذا كان حاله في أكثر ما يعاني حمله من الكتب .

وأما الأيُّلي واسمه محمد بن ابراهيم فنشؤه بتلمسان ، وأصله من جالية الأندلس من أهل أَيْلَة من بلد الجوف^(١) منها ، أجاز بأبيه وعمه أحمد ، فاستخدمهم يغمراسن ابن زيّان وولده في جندهم ، وأصهر ابراهيم منها إلى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته ، فولدت له محمداً هذا . ونشأ بتلمسان في كفالة جدّه القاضي ، فنشأ له بذلك ميل إلى انتحال العلم عن الجندیّة التي كانت متحل أبيه وعمّه . فلما أيفع وأدرك سبق إلى ذهنه محبة التعاليم ، فبرز بها واشتهر وعكف الناس عليه في تعلّمها ، وهذا في سنّ البلوغ . ثم أظل السلطان يوسف بن يعقوب وخيّم عليها يحاصرها ، وسير العساكر إلى الأعمال ، فافتتح أكثرها . وكان ابراهيم الأيُّلي قائداً بهنّين مرسى تلمسان في لجة من الجند ، فلما ملكها يوسف بن يعقوب اعتقل من وجد بها من أشياع بني عبد الواد^(٢) واعتقل ابراهيم الأيُّلي ، وشاع الخبر في تلمسان بأن يوسف ابن يعقوب يسترهن أبناءهم ويطلقهم ، فتشوّف ابنه محمد إلى اللحاق بهم من أجل ذلك . وأغراه أهله بالعزم عليه ، فتسوّر الأسوار وخرج إلى أبيه فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً . واستخدمه يوسف بن يعقوب قائداً على الجند الأندلسيين بتاوريرت ، فكره المقام على ذلك ، ونزع عن طوره ، ولبس المسوح ، وسار قاصداً إلى الحجّ . وانتهى إلى رباط العباد^(٣) مختفياً في صحبة الفقراء ، فوجد هنالك رئيساً من أهل كربلاء^(٤) من بني الحسين جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوته فيه ، وكان مغفلاً^(٥) ، فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب وشدة غلبه أيس من مرامه ونزع عن ذلك ، واعتزم على الرجوع إلى بلده ، فسار شيخنا محمد بن ابراهيم في جملته . قال رحمه الله : وبعد حين انكشف لي حاله وما جاء له ، واندرجت في جملته

(١) المراد بالجوف ، الشمال في لغة المغاربة والاندلسيين .

(٢) وفي نسخة ثانية : من شيع ابن زيّان .

(٣) رباط العباد : (مرتفع جميل خارج مدينة تلمسان ، كان مدفن الأولياء والصلحاء والعلماء . وهناك موضعان عرفا باسم « العبارة » أحدهما يسمى (العباد الفوقي والعباد السفلي) وكان بباب الجياد من أبواب تلمسان) .

(٤) كربلاء : بالمدّ : وهو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنه ، في طرف البرية عند الكوفة ، فاشتقاقه فالكربلة رخاوة في القدمين ، يقال جاء يمشي مكربلاً ، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخوة فسميت بذلك . (معجم البلدان) ويطلق هذا الاسم اليوم على لواء كامل من ألوية العراق .

(٥) وفي نسخة ثانية : وكان معقلاً .

وأصحابه وتابعيه . قال : وكان يتلقاه في كل بلد من أصحابه وأشياعه وخدمه من يأتيه بالأزواد والنفقات من بلده ، إلى أن ركبنا البحر من تونس إلى الاسكندرية . قال : واشتدت عليّ الغلّة في البحر واستحييت من كثرة الاغتسال لمكان هذا الرئيس ، فأشار عليّ بعض بطانته بشرب الكافور ، فاغترفت منه غرفة فشربتها فاختلطت . وقدم الديار المصرية على تلك الحال ، وبها يومئذ تقيّ الدين بن دقيق العيد وابن الرّفعة وصفيّ الدين الهندي ، والتبريزي وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول . فلم يكن قُصاراه إلاّ تمييز أشخاصهم إذا ذكرهم لنا ، لما كان به من الاختلاط . ثم حجّ مع ذلك الرئيس وسار في جملته إلى كربلاء فبعث به من أصحابه من أوصله إلى مأمنه ببلاد زاوة من أطراف المغرب . وقال لي شيخنا رحمه الله : كان معي دنانير كثيرة تزودتها من المغرب واستبطنتها في جبة كنت ألبسها ، فلما نزل بي ما نزل انتزعها مني ، حتى إذا بعث أصحابه يشيّعوني إلى المغرب دفعها إليهم ، حتى إذا أوصلوني إلى المأمّن أعطوني إياها ، وأشهدوا عليّ في كتاب حملوه معهم إليه كما أمرهم . ثم قارن وصول شيخنا إلى المغرب مهلك يوسف بن يعقوب وخلّاص أهل تلمسان من الحصار ، فعاد إلى تلمسان وقد أفاق من اختلاطه ، وانبعثت همّته إلى تعلّم العلم . وكان مائلاً إلى العقليات فقرأ المنطق على أبي موسى ابن الإمام ، وجملة من الأصليين ، وكان أبو حمّو صاحب تلمسان قد استفحل ملكه ، وكان ضابطاً للأمر ، وبلغه عن شيخنا تقدّمه في علم الحساب ، فدفعه إلى ضبط أمواله ومشارفة أحواله^(١) . وتفادى شيخنا من ذلك فأكرهه عليه ، فأعمل الحيلة في الخلاص منه ، ولحق بفاس أيام السلطان أبي الربيع^(٢) ، وبعث فيه أبو حمّو ، فاخفى بفاس للتعاليم من اليهودي خليفة المغيلي^(٣) ، فاستوفى عليه فنونها ، وحذق وخرج متوارياً من فاس ، فلحق بمراكش أعوام عشر وسبعمئة . ونزل على الإمام أبي العباس بن البناء شيخ المعقول والمنقول ، والمبرز في التصوّف علماً وحالاً ، فلزمه ، وأخذ عنه وتضلّع في علم المعقول

(١) وفي نسخة ثانية : مشارفة عمّاله .

(٢) ابو الربيع : وهو سليمان بن عبدالله بن أبي يعقوب بن يوسف بن عبد الحق المريني المتوفى سنة ٧١٠ هـ .

(٣) وفي نسخة ثانية : واخفى بفاس عند شيخ التعاليم من اليهود ، خلّوف المغيلي .

والتعاليم والحكمة. ثم استدعاه شيخ المسكرة علي بن محمد بن تروميت ليقرأ عليه ، وكان في طاعة السلطان ، فدخل^(١) إليه شيخنا وأقام عنده مدة ، قرأ عليه فيها وحصل . واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ ، فكثرت إفادته ، واستفادته ، وعلي ابن محمد في ذلك على محبته وتعظيمه ، وامثال إشارته ، فغلب على هواه ، وعظمت رياسته في تلك القبائل . ولما استنزل السلطان أبو سعيد علي بن تروميت من جبله ، نزل الشيخ معه ، وسكن بفاس . واثال عليه طلبة العلم من كل ناحية ، فانتشر علمه ، واشتهر ذكره ، فلما فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى ابن الإمام ، ذكره له بأطيب الذكر ، ووصفه بالتقدم في العلوم ، وكان السلطان معتياً بجمع العلماء بمجلسه كما ذكرناه . فاستدعاه من مكانه بفاس ونظمه في طبقة العلماء بمجلسه ، وعكف على التدريس والتعليم ، ولزم صحابة السلطان ، وحضر معه واقعة طريف ، وواقعة القيروان بأفريقية . وكانت قد حصلت بينه وبين والدي رحمه الله خلة^(٢) ، كانت وسيلتي إليه في القراءة عليه ، فلزمت مجلسه وأخذت عنه العلوم العقلية بالتعاليم . ثم قرأت المنطق وما بعده من الأصلين ، وعلوم الحكمة . وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب . وكان الشيخ في نزلنا وكفالتنا ، فأشرنا عليه بالمقام وثبطناه عن السفر ، فقبل وأقام . وطالبنا به السلطان أبو الحسن فأحسن له العذر ، فتجافى عنه . وكان من حديث غرقه في البحر ما قدمناه . وأقام الشيخ بتونس ، ونحن وأهل بلدنا جميعاً نتساجل في غشيان مجلسه ، والأخذ عنه ، فلما هلك السلطان أبو الحسن يجبل هنتاة وفرغ ابنه أبو عنان من شواغله ، وملك تلمسان من بني عبد الواد ، كتب فيه يطلبه من صاحب تونس وسلطانها يومئذ أبو اسحق ابراهيم ابن السلطان أبي يحيى في كفالة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين ، فأسلمه إلى سفيره . وركب معه البحر في أسطول أبي عنان الذي جاء فيه السفير ، ومرّ ببجاية ودخلها ، وأقام بها شهراً ، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول . ثم ارتحل ونزل بمرسى هنين و قدم على أبي عنان بتلمسان ، وأحلّه محل التكرمة ، ونظمه في طبقة أشياخه من العلماء . وكان يقرأ عليه ويأخذ عنه إلى أن هلك بفاس سنة سبع

(١) وفي نسخة ثانية : فصعد إليه شيخنا .

(٢) وفي نسخة ثانية : صحابة .

وخمسين وسبعائة . وأخبرني رحمه الله أن مولده بتلمسان سنة إحدى وثمانين وستائة .
(وأما عبد المهيمن) كاتب السلطان أبي الحسن ، فأصله من سبته ، وبيتهم بها
قديم ، ويعرفون ببني عبد المهيمن وكان أبوه محمد قاضيها أيام بني العزفي . ونشأ
ابنه عبد المهيمن في كفاله وأخذ عن مشيختها واختص بالأستاذ أبي اسحق
الغافقي ^(١) ، ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد صاحب الأندلس سبته ، ونقل بني
العزفي مع جملة أعيانها إلى غرناطة ، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه
عبد المهيمن ، فاستكمل قراءة العلم هنالك وقرأ على مشيختها ابن الزبير ونظرائه ^(٢) ،
وتقدم في معرفة كتاب سيويه ، وبرز في علو الإسناد ، وكثرة المشيخة . وكتب له
أهل المغرب والأندلس والمشرق ، واستكتبه رئيس الأندلس يومئذ الوزير أبو عبدالله
ابن الحكيم الرندي ، المستبد على السلطان المخلوع ابن الأحمر ^(٣) فكتب عنه ونظمه
في طبقة الفضلاء الذين كانوا يجلسه ، مثل المحدث أبي عبدالله بن سيد الفهري ^(٤)
وأبي العباس أحمد العزفي ، والعالم الصوفي المتجرد أبي عبدالله محمد بن خميس
التلمساني ، وكانا لا يجاريان في البلاغة والشعر إلى غير هؤلاء ممن كان مختصاً به ، وقد
ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة . فلما انكب الوزير الحكيم ^(٥) ، وعادت سبته
إلى طاعة بني مرين ، عاد عبد المهيمن إليها واستقر بها . ثم ولي الأمر أبو سعيد
وغلب عليه ابنه أبو علي ، واستبد بحمل الدولة . تشوف إلى استدعاء الفضلاء ،
وتجمل بمكانهم ، فاستقدم عبد المهيمن من سبته واستكتبه سنة اثني عشرة
وسبعائة . ثم خالف على أبيه سنة أربع عشرة وسبعائة ، وامتنع بالبلد الحديد ،
وخرج منها إلى سجلماسة لصلح عقده مع أبيه ، فتمسك السلطان أبو سعيد بعبد
المهيمن واتخذة كاتباً إلى أن دفعه إلى رياسة الكتاب ، ورسم علامته في الرسائل

(١) هو ابراهيم بن أحمد بن عيسى الاشبيلي ابو اسحق ، عرف بالغافقي ، دخل سبته وولي القضاء بها . توفي
سنة ٧١٦ هـ (الدرر الكامنة ١٣/١) .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأخذ عن أبي جعفر بن الزبير ونظرائه .

(٣) وفي نسخة ثانية : السلطان المخلوع من بني الأحمر وهو محمد بن محمد بن محمد بن نصر ، يكنى (أبا
عبدالله) ثالث ملوك بني الأحمر (٦٥٥ — ٧١٣) وهو الذي بنى مسجد الحمراء الأعظم بغرناطة .

(٤) وفي نسخة ثانية : المحدث أبي عبدالله بن رشيد الفهري وهو أبو عبدالله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد
الفهري السبتي ، محدث ورحالة مشهور .

(٥) الوزير ابن الحكيم أو الوزير الشاعر أبو عبدالله الرندي محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم وشهرته ابن
الحكيم . راجع : الاحاطة في تاريخ غرناطة ج ٢/٣٧٨ .

والأوامر ، فتقدّم لذلك سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، ولم يزل عليها سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن . وسار مع أبي الحسن إلى أفريقية ، وتخلّف عن واقعة القيروان بتونس ، لما كان به من علة التقرس . فلما كانت الهيعة بتونس ، ووصل خبر الواقعة ، وتخيّر أولياء السلطان إلى القصبة مع حرّمه ، تسرّب عبد المهيمن في المدينة منتبهاً عنهم ، وتوارى في بيتنا خشية أن يصاب معهم بمكروه . فلما انجلت تلك الغيابة ، ورجع السلطان من القيروان إلى سوسة وركب منها البحر إلى تونس ، أعرض عن عبد المهيمن لما سخط غيبته عن قومه بالقصبة ، وجعل العلامة لأبي الفضل ابن الرئيس عبدالله بن أبي مدين^(١) وقد كانت من قبل مقصورة على هذا البيت ، وأقام عبد المهيمن عطلاً من العمل شهراً^(٢) . ثم اعتبه السلطان ورضي عنه ، وردّ إليه العلامة كما كان ، ثم توفي لأيام قلائل بتونس بالطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة ومولده سنة خمس وسبعين وستمائة من المائة قبلها ، وقد استوعب ابن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة ، فليطالع هناك من أحبّ الوقوف عليه .

(وأما ابن رضوان) الذي ذكره الرّحويّ في قصيدته ، فهو أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان البخاري^(٣) أصله من الأندلس ، نشأ بمالقة ، وأخذ عن مشيختها ، وحذق في العربية والأدب ، وتفنّن في العلوم ونظم ونثر ، وكان مجيداً في الترسيل ، ومحسناً في كتابة الوثائق . وارتحل بعد واقعة طريف ونزل سبتة ، ولقي بها السلطان أبا الحسن^(٤) ومدحه وأجازته ، واختصّ بالقاضي ابراهيم بن يحيى^(٥) وهو يومئذ قاضي العساكر وخطيب السلطان ، وكان يستنبيه في القضاء والخطابة ، ثم نظمه في جملة الكتاب بباب السلطان . واختصّ بخدمة عبد المهيمن رئيس الكتاب

(١) هو عبدالله بن أبي مدين شبيب العثماني كان في خدمة بني مرين فاشتهر ، فقلّده الحجابة ورياسة الكتاب . ولد بقصر كتامة ونشأ بمكناسة وتعلم بها .

(٢) وفي نسخة ثانية : مدة أشهر .

(٣) او البخاري كما في نسخة أخرى .

(٤) هو السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد بن يعقوب المريني المتوفى سنة ٧٥٢ هـ (شذرات الذهب) ١٧٢/٦ .

(٥) هو ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي التازي أبو إسحق ، ويعرف بابن أبي يحيى المتوفى بعد سنة ٧٤٨ (الإحاطة في تاريخ غرناطة ٢١٧/١) .

والأخذ عنه ، إلى أن رحل السلطان إلى أفريقية ، وكانت واقعة القيروان ، وانحصر بالقصبة بتونس مع من انحصر بها من أشياعه مع أهله وحرمة . وكان السلطان قد خلف ابن رضوان في بعض خدمته ، فجلا عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات . وتولى كبر ذلك ، فقام فيه أحسن قيام إلى أن وصل السلطان من القيروان ، فرعى له حق خدمته تأنيساً وقرباً ، وكثرة استعمال إلى أن رحل من تونس في الأسطول إلى المغرب سنة خمسين وسبعائة كما مر . واستخلف بتونس ابنه أبا الفضل ، وخلف أبا القاسم بن رضوان كاتباً له ، فأقام كذلك أياماً . ثم غلبهم على تونس سلطان الموحدين الفضل ابن السلطان أبي يحيى . ونجا أبو الفضل إلى أبيه ، ولم يُطبق ابن رضوان الرحلة معه ، فأقام بتونس حولاً ، ثم ركب البحر إلى الأندلس ، وأقام بالمرية مع جملة من هنالك من أشياع السلطان أبي الحسن ، كان فيهم عامر ابن محمد بن علي شيخ هنتاة كافلاً لحرم السلطان أبي الحسن وابنه . أركبهم السفين معه من تونس عندما ارتحل ، فخلص إلى الأندلس ، ونزلوا بالمرية وأقاموا بها تحت جراية سلطان الأندلس ، فلحق بهم ابن رضوان وأقام معهم . ودعاه أبو الحجاج سلطان الأندلس^(١) إلى أن يستكتبه فامتنع ، ثم هلك السلطان أبو الحسن وارتحل مخلصه الذين كانوا بالمرية ، ووفدوا على السلطان أبي عنان ، ووفد معهم ابن رضوان ، فرعى له وسائله في خدمة أبيه ، واستكتبه واختصه بشهود مجلسه مع طلبة العلم بحضرته . وكان محمد بن أبي عمرو يومئذ رئيس الدولة ، ونجى الخلوة وصاحب العلامة ، وحسان الجباية والعساكر ، قد غلب على هوى السلطان ، واختص به ، فاستخدم له ابن رضوان حتى علق منه بدمه^(٢) ، ولاية وصحبة وانتظام في السمر ، وغشيان المجالس الخاصة ، وهو مع ذلك يدينه من السلطان . وينفق سوقه عنده ، ويستكفي به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهم ، فحلا بعين السلطان ونفقت عنده فضائله . فلما سار أبو عمرو في العساكر إلى بجاية سنة أربع وخمسين وسبعائة انفرد ابن رضوان بعلامة الكتاب عن السلطان ، ثم رجع ابن أبي عمرو وقد سخطه السلطان ، فأقصاه إلى بجاية وولاه

(١) أبو الحجاج هذا ، هو يوسف بن اسماعيل ابن الأحمر (٧١٨ — ٧٥٥) هو سابع ملوك بني الأحمر تولى الحكم سنة ٣٣٤ .

(٢) وفي نسخة ثانية : بدمه .

عليها ، وعلى سائر أعمالها ، وعلى حرب الموحدين بقسنطينة . وأفرد ابن رضوان بالكتابة ، وجعل إليه العلامة كما كانت لابن أبي عمرو ، فاستقل بها موقراً الاقطاع والإسهام والجاه . ثم سخطه آخر سبع وخمسين وسبعمائة وجعل العلامة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مدين والإنشاء والتوقيع لأبي اسحق ابراهيم بن الحاج الغرناطي ^(١) ، فلما كانت دولة السلطان أبي سالم ^(٢) جعل العلامة لعلي بن محمد بن مسعود ^(٣) صاحب ديوان العساكر والإنشاء والتوقيع والسّر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن ابن خلدون . ثم هلك أبو سالم سنة اثنتين وستين وسبعمائة واستبدّ الوزير عمر بن عبد الله علي من كفله من أبنائه ، فجعل العلامة لابن رضوان سائر أيامه ، وقتله عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، واستبدّ بملكه ، فلم يزل ابن رضوان على العلامة ، وهلك عبد العزيز ووليّ ابنه السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس وابن رضوان على حاله ، ثم غلب السلطان أحمد علي الملك وانتزعه من السعيد ، وأبي بكر بن غازي ، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس ، مستبدّاً عليه ، والعلامة لابن رضوان كما كانت إلى أن هلك بأزمور ^(٤) في حركة السلطان أحمد إلى مراکش ، لحصار عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي .

* وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كثيرة من فضلاء المغرب وأعيانه ، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس ، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق ، وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا ما قدر من آجالهم .

(فمن حضر معه بأفريقية) الفقيه أبو عبدالله محمد بن أحمد الزواوي شيخ القراء بالمغرب ، أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس ، وروى عن الرحالة أبي عبدالله بن رشيد ، وكان إماماً في فن القراءات وصاحب مملكة فيها لا يجاري . وله مع ذلك

(١) النميري أبو إسحق يعرف بابن الحاج ولد سنة ٧١٣ وهو ابراهيم بن عبدالله بن ابراهيم ... راجع (الإحاطة ١/١٩٣) .

(٢) أبو سالم هو ابراهيم ابن السلطان أبي الحسن وشقيق السلطان أبي عنان فارس .

(٣) كنيته أبو الحسن من الأندلس نشأ في بيت علم وكان فقيهاً أدبياً لغوياً ، قدم مع أبيه إلى تلمسان واسمه علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن سعود الخزاعي .

(٤) ذكرها ياقوت تحت اسم : أزمورة : ثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم والواو ساكنة وراء مهملة : بلد بالمغرب في جبال البربر (معجم البلدان) .

صوت من مزامير آل داود^(١) وكان يصلي بالسلطان التراويح ويقرأ عليه بعض الأحيان حزبه .

(ومن حضر معه) بأفريقية الفقيه أبو عبدالله محمد بن محمد بن الصبّاغ من أهل مكناسة ، كان مبرّزاً في المعقول والمنقول ، وعارفاً بالحديث وبرجاله ، وإماماً في معرفة كتاب الموطأ وإقرائه ، أخذ العلوم عن مشيخة فاس ومكناسة ، ولقي شيخنا أبا عبدالله الأيلي ، ولازمه وأخذ عنه العلوم العقلية ، فاستنفد بقية طلبه عليه ، فبرز آخرًا ، واختاره السلطان لمجلسه واستدعاه ، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول .

(ومنهم القاضي أبو عبدالله) محمد بن عبدالله بن عبد النور من أعمال ندرومة ونسبه في صنهاجة كان مبرّزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس ، تفقه فيه على الأخوين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام ، وكان من جملة^(٢) أصحابهما .
ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابني الإمام واختصهما بالشورى في بلدهما . وكان يستكثر من أهل العلم في دولته ، ويجري لهم الأرزاق ويغمرهم بمجلسه ، فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجالس ، فأشار عليه بابن عبد النور هذا ، فأدناه وقرب مجلسه ، وولاه قضاء عسكره ، ولم يزل في جملته إلى أن هلك بالطاعون بتونس سنة تسع وأربعين وسبعائة وكان قد خلف أخاه علياً رفيقه في تدريس ابن الإمام إلا أنه أقصر باعاً منه في الفقه . فلما خلع السلطان أبو عنان طاعة أبيه السلطان أبي الحسن ، ونهض إلى فاس ، استنفره في جملته وولاه قضاء مكناسة ، فلم يزل بها حتى تغلب عمر بن عبدالله على الدولة كما مرّ ، فترع إلى قضاء فرضه فسرحه . فخرج حاجاً سنة أربع وستين وسبعائة فلما قدم على مكة وكان به بقية مرض ، هلك في طواف القدوم .
وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد ، وأن يبلغ وصيته به للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ يلبغا الخاصكي^(٣) فأحسن خلافته فيه وولاه من وظائف الفقهاء ما

(١) يروى ابن أبي موسى الأشعري أنه كان يقرأ القرآن ، فسمعه النبي (صلم) فقال : اعطيت مزماراً من مزامير آل داود يعني بذلك حسن صوته (تاج العروس ٣/٣٤٠) .

(٢) وفي نسخة ثانية : جلة .

(٣) هو يلبغا بن عبدالله الخاصكي الناصري الأمير الكبير الشهير . أول ما أمره الناصر حسن مقدم الف بعد موت تنكره ثم كان يلبغا راس من قام على استاده الناصر حسن حتى قتل وتسلطن المنصور محمد بن

سدّ به خلّته ، وصان عن سؤال الناس وجهه ، وكان له عفا الله عنه كلف بعلم الكيمياء ، طالباً لمن غلط في ذلك وأمثاله^(١) . فلم يزل يعاني من ذلك ما يورّطه مع الناس في دينه وعرضه إلى أن دعت الضرورة للترحّل عن مصر، ولحق ببغداد وناله مثل ذلك . فلحق بماردين^(٢) واستقرّ عند صاحبها ، فأحسن جواره إلى أن بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه والبقاء لله وحده .

(ومنهم شيخ التعاليم) أبو عبد الله محمد بن النجّار من أهل تلمسان ، أخذ العلم ببلده عن مشيختها ، وعن شيخنا الأيّلّي وبرّز عليه . ثم ارتحل إلى المغرب فلقى بسبّته إمام التعاليم أبا عبد الله محمد بن هلال شارح المَجِسْطِيّ في الهيئة ، وأخذ بمراكش عن الإمام أبي العباس بن البناء ، وكان إماماً في علم النجامة وأحكامها ، وما يتعلّق بها ، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير ، واستخلصته الدولة . فلما هلك أبو تاشفين وملك السلطان أبو الحسن نظمه في جملته وأجرى له رزقه ، فحضر معه بأفريقية وهلك في الطاعون .

(ومنهم) أبو العباس أحمد بن شُعَيْب^(٣) من أهل فاس ، برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية ، من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها . ونظمه السلطان أبو سعيد في جملة الكتاب وأجرى عليه رزق الأطباء لتقدّمه فيه ، فكان كاتبه وطيبه ، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده ، فحضر بأفريقية وهلك بها في ذلك الطاعون . وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدّمين والمتأخّرين ، وكانت له إمامة في نقد الشعر وبصره ، وما حضرني الآن من شعره إلا قوله :

حاجي ... وعندما تسلطن الأشرف شعبان تناهت الى يلبغا الرياسة ولقب نظام الملك وصار إليه الأمر والفهي وهو السلطان في الباطن ... (شذرات الذهب ٦/٢١٢) .

(١) وفي نسخة ثانية : كلف بعمل الكيمياء ، تابعاً لمن غلط في ذلك من أمثاله .

(٢) ماردين : قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر وواراء ونصيبين وذلك الفضاء الواسع مشهورة بمدارسها وخاناتها ودورها وهي كالدرج ، كل دار فوق الأخرى وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدور ، ذكرها جرير في قوله :

يـا خـزـر تغلب إن اللؤم حـالفكم
ما دام في ماردين الزيت يعتصر . (معجم البلدان)

ويطلق هذا الاسم اليوم على إقليم واسع من تركيا .

(٣) هو أحمد بن شعيب الجزنائي التازي نزيل فاس . كتب للسلطان أبي الحسن المريني وتوفي بتونس سنة ٥٧٥٠ هـ .

أقصى أمانِي النفس من نجدٍ
 واستنَّ في قيعانها الجردِ
 مُستشْفياً بالبَّانِ والرُّندِ
 قَصْدِي وإن جاروا عن القصدِ
 مِنْهَا وزُرُقُ مِيَاهِهَا وردي
 أَحْوَى المدامع أهيفُ القَدِّ
 قُتِلَ المُحِبُّ بها على عَمْدِ
 رَبِّ الخَطوبِ وعائِرِ الجَدِّ
 عِشِي شَفَى إلا على الفقدِ (١)
 بطنُ الثري وقرارة اللحدِ
 قَذْفُ النَّوَى وتَنُوفَةُ البُعْدِ
 أَنِي جرعت حميمهم وَحَدِي (٢)
 أَخْفَيْتُ مِنْهُ فوقَ ما أُبْدِي
 من ذكره سُهْدُ على سُهْدِ
 رزئت (٣) عن الرِّفْداء والرُّفْدِ

دارُ الهوى نَجْدٌ وساكنها
 هل بَاكَرَ الوَسْمِيُّ ساحتها
 أو باتَ مِعْتَلُّ النسيمِ بها
 يتلو أحاديثَ الذين هُمُ
 أيامَ سُمُرٍ ظلالِها وطني
 ومطَارِحُ النظراتِ في رِشَاءِ
 يرنو إليك بعينِ جَارِيَةٍ
 حتى أجَدَّ بهم على عَجَلِ
 فِقِدُوا فما وأبيك بعدهم
 وغدوا دفيناً قد تضمَّنَه
 ومشرِّداً من دون رؤيتِهِ
 أجرى عليَّ العيشُ بعدهم
 لا تَلْحِنِي يا صاحِ في شَجَنِ
 بالقربِ لي سكنٌ يوؤو بني
 فَرُخَانَ قد تُرْكَأ بمضِيعَةٍ

(ومنهم) صاحبنا الخطيب أبو عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق من أهل تلمسان ، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد ، ومتوارثين خدمة تربته من لدن جدِّهم خادمه في حياته . وكان جدُّه الخامس أو السادس واسمه أبو بكر بن مرزوق معروفاً بالولاية فيهم . ولما هلك دفنه يغمراسن (٤) بن زيَّان السلطان بتلمسان من بني عبد الواد في التربة بقصره ، ليُدفن بإزائه متى قُدِّرَ بوفاته . ونشأ محمد هذا بتلمسان ، ومولده فيما أخبرني سنة عشر وسبعمئة (٥) ، وارتحل مع أبيه إلى المشرق سنة ثمان عشرة

(١) وفي نسخة ثانية : فقدوا فلا وأبيك بعدهم ما عشت لا آسي على الفقد .

(٢) وفي نسخة ثانية : اني فقدت جميعهم وحدي .

(٣) وفي نسخة ثانية : زويت .

(٤) يغمراسن بن زيَّان بن ثابت بن محمد السلطان من بني عبد الواد ، كان من اشد بني عبد الواد بأساً ، وكانت له في النفوس مهابة ، ولي الملك سنة ٧٣٣ ، ودان له المغرب الأوسط وتلمسان .

(٥) ما ذكره ابن خلدون عن مولد تاريخ ابن مرزوق يختلف عما ذكره ابن الخطيب في الإحاطة حيث يقول أنه ولد سنة ٧١١ هـ بدل ٧١٠ هـ .

وسبعائة ومربجاية فسمع بها على الشيخ أبي علي ناصر الدين ودخل الشرق . وجار
أبوه بالحرمين الشريفين ، ورجع هو إلى القاهرة وأقام بها . وقرأ على برهان الدين
الصَّفَاقُصِيّ المالكِي وأخيه . وبرع في الطلب والرواية ، وكان يجيد الخطين . ثم رجع
سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة إلى المغرب ولقي السلطان أبا الحسن بمكانه من حصار
تلمسان ، وقد شيد بالعباد مسجداً عظيماً ، وكان عمّه ابن مرزوق خطيباً به على
عادتهم في العباد . وتوفي فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمّه . وسمعه
يخطب على المنبر ويشيد بذكره والثناء عليه ، فحلا بعينه واختصه وقربه ، وهو مع
ذلك يلزم مجلس الشيخين ابني الإمام ، ويأخذ نفسه بلقاء الفضلاء والأكابر
والأخذ عنهم ، والسلطان كل يوم يزيد ترقيه^(١) ، وحضر معه واقعة طريف التي كان
فيها تمحيص المسلمين ، فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس . ثم
سفر عنه بعد أن ملك أفريقية إلى ابن أدفونش ملك قشتالة في تقرير الصلح ،
واستنقاذ ابنه أبي عمر تاشفين . كان أسر يوم طريف فغاب في تلك السفارة عن
واقعة القيروان . ورجع بتاشفين مع طائفة من زعماء النصرانية جاؤا في السفارة عن
مَلِكِهِمْ ، ولقيهم خبر واقعة القيروان بقسنطينة من بلاد أفريقية ، وبها عامل السلطان
وحاميته ، فثار أهل قسنطينة بهم جميعاً ونهبوهم ، وخطبوا للفضل ابن السلطان أبي
يحيى ، وراجعوا الموحدين ، واستدعوه فجاء إليهم وملك البلد . وانطلق ابن مرزوق
عائداً إلى المغرب مع جماعة من الأعيان ، والعمّال والسفراء عن الملوك . ووفد على
السلطان أبي عنان مع أمة حظية أبي الحسن وأثيرته . كانت راحلة إليه ، فأدركها
الخبر بقسنطينة ، وحضرت الهيعة . فوثب ابنها أبو عنان على ملك أبيه واستيلائه على
فاس ، فرجعت إليه وابن مرزوق في خدمتها . ثم طلب اللحاق بتلمسان فسرحوه
إليها ، وأقام بالعباد مكان سلفه . وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن
بن يغمراسن بن زيّان قد بايع له قبيلة بني عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس ، وابن
تافراكين يومئذ محاصر للقصة كما مرّ في أخبارهم . وانصرفوا إلى تلمسان فوجدا بها أبا
سعيد عثمان بن جرّار اقد استعمله عليها السلطان أبو عنان عند انتقاضه على أبيه ،
ومسيره إلى فاس ، وانتقض ابن جرّار من بعده ، ودعا لنفسه ، وصمد إليه عثمان بن

(١) وفي نسخة ثانية : والسلطان في كل يوم يزيد رتبة .

عبد الرحمن ومعه أخوه أبو ثابت وقومها ، فلكوا تلمسان من يد ابن جرّار وحبسوه ثم قتلوه . واستبدّ أبو سعيد بملك تلمسان وأخوه أبو ثابت يردفه ، وركب السلطان أبو الحسن البحر من تونس وغرق أسطوله ونجا هو إلى الجزائر فاحتل بها ، وأخذ في الحشد إلى تلمسان ، فرأى أبو سعيد أن يكفّ غربه عنهم ، بمواصلة تقع بينهما ، واختار لذلك الخطيب ابن مرزوق^(١) فاستدعاه وأسرّ إليه بما يليقه عند السلطان أبي الحسن ، وذهب لذلك على طريق الصحراء . وأطلّ أبو ثابت وقومه على الخبر فنكروه على أبي سعيد وعاتبوه فأنكر ، فبعثوا صغير بن عامر في اعتراض ابن مرزوق فجاء به وحبسوه أياماً . ثم أجازوه البحر إلى الأندلس فنزل على السلطان أبي الحجاج بغرناطة ، وله إليه وسيلة منذ اجتماعه به بمجلس السلطان أبي الحسن بسببة إثر واقعة طريف ، فرعى له أبو الحجاج ذمّة تلك المعرفة ، وأدناه واستعمله في الخطابة بجامعة الحمراء . فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان سنة أربع وخمسين وسبعائة بعد مهلك أبيه ، واستيلائه على تلمسان وأعمالها ، فقدم عليه ورعى له وسائله ، ونظمه في أكابر أهل مجلسه . وكان يقرأ الكتب بين يديه في مجلسه العلمي^(٢) ويدرس في نوبته مع من يدرس في مجلسه منهم . ثم بعثه إلى تونس عام مملكتها سنة ثمان وخمسين وسبعائة ليخطب له ابنه السلطان أبي يحيى ، فردّت تلك الخطبة واختفت بتونس . ووُشيَ إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها ، فسخطه لذلك ورجع السلطان من قسنطينة ، فثار أهل تونس بمن كان بها من عمّاله وحاميته . واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المهديّة ، فجاء وملك البلد . وركب القوم الأسطول ونزلوا بمراسي تلمسان . وأوعز السلطان باعتقال ابن مرزوق ، وخرج لذلك يحيى بن شعيب من مقدّمي الحجاب^(٣) ببابه ، فلقية بتاسالت فقيده هنالك . وجاء به فأحضره السلطان وقرّعه ، ثم حبسه مدّة وأطلقه بين يدي مهلكه . واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عنان ، وباع بعض بني مرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق . وحاصروا البلد الجديد ، وبها ابنه السعيد ووزيره المستبدّ عليه الحسن بن عمر ، وكان السلطان أبو سالم بالأندلس غرّبه إليها

(١) وفي نسخة ثانية : ابن مرزوي .

(٢) وفي نسخة ثانية : العلمي .

(٣) وفي نسخة ثانية : الجنادرة وهو تحريف .

اخوه السلطان أبو عنان مع بني عمّهم ولد السلطان أبي علي بعد وفاة السلطان أبي الحسن ، وحصولهم جميعاً في قبضته . فلما توفي أراد أبو سالم النهوض لملكه بالمغرب ، فنعه رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس مستبدّاً على ابن السلطان أبي الحجّاج ، فلهق هو بإشبيلية من دار الحرب ، ونزل على بطّرة^(١) ملكهم يومئذ ، فهياً له السفن وأجازه إلى العدو فترل ، يجبل الصفيحة من بلاد غمارة ، وقام بدعوته بنو مسير^(٢) وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم ، ثم أمّدوه واستولى على ملكه في خبر طويل ذكرناه في أخبار دولته . وكان ابن مرزوق يداخله وهو بالأندلس ويستخدم له ، ويفاوضه في أموره وربما كان يكاتبه ، وهو يجبل الصفيحة ، ويداخل زعماء قومه في الأخذ بدعوته . فلما ملك السلطان أبو سالم رعى له تلك الوسائل أجمع ، ورفع على الناس ، وألقى عليه محبّته وجعل زمام الأمور بيده ، فوطىء الناس عقبيه وغشى أشراف الدولة بابّه ، وصُرِفَت الوجوه إليه ، فَمَرَضَت لذلك قلوب أهل الدولة ونقموه على السلطان ، وتربّصوا به حتى وثب عبدالله بن عمر بالبلد الجديد ، وافترق الناس عن السلطان . وقتله عمر بن عبدالله آخر إثنين وستين وسبعائة وحبس ابن مرزوق وأغرى به سلطانه الذي نصبه ، محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن فامتحنه واستصفاه ، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله فنعه منهم . ولحق بتونس سنة أربع وستين وسبعائة ونزل على السلطان أبي اسحق وصاحب دولته المستبدّ عليه أبي محمد بن تافراكين ، فأكرموا نزله وولّوه الخطابة بجامع الموحّدين بتونس . وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو اسحق سنة سبعين وسبعائة وولي ابنه خالد . وزحف السلطان أبو العباس حافد السلطان أبي يحيى من مقرّه بقسنطينة إلى تونس فملكها ، وقتل خالداً سنة إثنين وسبعين وسبعائة .

وكان ابن مرزوق يستريب منه لما كان يميل وهو بفاس مع ابن عمّه محمد صاحب بجاية ، ويؤثره عند السلطان أبي سالم عليه ، فعزله السلطان أبو العباس عن الخطبة بتونس ، فوجّم لها وأجمع الرحلة إلى المشرق . وسرّحه السلطان فركب السفن ونزل بالإسكندرية ، ثم رحل إلى القاهرة ولقي أهل العلم وأمراء الدولة ، ونفقت بضائعه

(١) بطرة بطاء فوقها نقطتان : اشارة الى أن نطقها بين الطاء والتاء وهذا ما أشار اليه ابن خلدون في مقدمته .

(٢) وفي نسخة ثانية : بنو منى .

عندهم ، وأوصلوه إلى السلطان وهو يومئذ الأشرف^(١) . فكان يحضر يومئذ مجلسه وولاه الوظائف العلمية ، فكان يتتبع منها معاشه . وكان الذي وصل حبله بالسلطان أستاذ داره محمد بن آقبا آص^(٢) لقيه أول قدومه فحلا بعينه ، واستظرف جملة ، فسعى له وأنجح سعائته ، ولم يزل مقيماً بالقاهرة موثقاً بالرتبة معروفة الفضيحة ، مرشحاً لقضاء المالكية ملازماً للتدريس في وظائفه إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعائة هكذا ذكر من حضره من جملة السلطان أبي الحسن من أشياخنا وأصحابنا ، وليس موضوع الكتاب الإطالة ، فلنقتصر على هذا القدر ، ونرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف .

* (ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها إلى المغرب والكتابة على السلطان أبي عنان) *

ولم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف ، وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة ، وهلك أبواي رحمهما الله . ولزمت مجلس شيخنا أبي عبدالله الأيبي ، وعكفتُ على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن شدتُ بعض الشيء ، واستدعاه السلطان أبو عنان فارتحل إليه ، واستدعاني أبو محمد بن تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس إلى كتابة العلامة عن السلطان أبي اسحق . مذ نهض إليه من قسنطينة صاحبها أبو زيد حافد السلطان أبي يحيى في عساكره ، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استنجدوه لذلك ، فخرج ابن تافراكين وسلطانه أبو اسحق مع العرب أولاد أبي الليل ، وبث العطاء في عسكره ، وعمر له المراتب والوظائف . وتعلل عليه صاحب العائمة أبو عبدالله محمد بن علي بن عمر بالاستزادة من العطاء ، فعزله وأداني منه ، فكتبت العلامة عن السلطان ، وهي « الحمد لله والشكر لله » بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم . وخرجت

(١) السلطان الأشرف هو أبو المفاخر شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (٧٥٤ — ٧٧٨) تولى الملك سنة

٧٦٤ هـ .

(٢) هو الأمير ناصر الدين محمد بن آقبا آص المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .

معهم أول سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وقد كنت منطوياً على الرحلة من أفريقية لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي وعطلاني^(١) عن طلب العلم . فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب وانحسر تيارهم عن أفريقية ، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ ، فاعتزمت على اللحاق بهم . وصدّني عن ذلك أخي وكبير محمد رحمه الله ، فلما دُعيتُ إلى هذه الوظيفة سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب ، وكان كذلك ، فإنّا لمّا خرجنا من تونس نزلنا بلاد هوّارة ، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض بفحص مرّماً جنّة وانهزم صفنا ونجوت أنا إلى أبة ، فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوسناني^(٢) من كبراء المرابطين ، ثم تحوّلت إلى سبتة ونزلت بها على محمد بن عبدون صاحبها ، فأقمت عنده ليالي حتى هبّا لي الطريق مع رفيق من المغرب^(٣) ، وسافرت إلى قفصة ، وأقمت بها أياماً حتى قدم علينا بها الفقيه محمد ابن الرئيس منصور بن مزني ، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزاب وكان هو بتونس ، فلما حاصرها الأمير أبو زيد خرج إليه فكان معه . فلما بلغهم الخبر بأنّ السلطان أبا عنان ملك المغرب ، نهض إلى تلمسان فملكها ، وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن ، وأخاه أبا ثابت وأنه انتهى إلى المدية وملك بجاية من يد صاحبها الأمير أبي عبدالله من حفدة السلطان أبي يحيى ، وراسله عندما أطلّ على بلده ، فسار إليه ، ونزل له عنها . وصار في جملته ، وولي أبو عنان على بجاية عمر ابن علي شيخ بني وطّاس من بني الوزير شيوخهم . فلما بلغهم هذا الخبر أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه عن حصار تونس ، ومرّ بقفصة فدخل إلينا محمد بن مزني ذاهباً إلى الزاب ، فرافقته إلى بسكرة ، ودخلت إلى أخيه هنالك ، ونزل هو بعض قرى الزاب تحت جراية أخيه إلى أن انصرم الشتاء .

وكان أبو عنان لما ملك بجاية وليّ عليها عمر بن علي بن الوزير من شيوخ بني وطّاس فجاء فارح مولى الأمير أبي عبدالله لنقل حرمه وولده ، فداخل بعض السفهاء من صنهاجة في قتل عمر بن علي فقتله في مجلسه ووثب هو على البلد وأرسل إلى الأمير أبي زيد يستدعيه من قسنطينة ، فتمشّت رجالات البلد بينهم خشية من سطوة السلطان .

(١) وفي نسخة ثانية : عطلتي .

(٢) وفي نسخة ثانية : الوشتاني .

(٣) وفي نسخة ثانية : وبذرق لي مع رفيق من العرب ، والبذرة كلمة معرّبه معناها الخفارة او العصمة .

ثم ثاروا بفارح فقتلوه وأعادوا دعوة السلطان كما كانت . وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس يَحْيَا تَنْ بن عمر بن عبد المؤمن من شيوخ بني ونكاسن من بني مرين ، فلكوه قيادهم وبعثوا إلى السلطان بطاعتهم ، فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو ، واكتنف^(١) له الجند وصرف معه وجوه دولته وأعيان بطانته . وارتحلت من بسكرة وافداً على السلطان أبي عنان بتلمسان ، فلقيت ابن أبي عمرو بالبطحاء ، وتلقاني من الكرامة بما لم أحتسبه ، وردني معه إلى بجاية فشهدت الفتح ، وتسايلت وفود أفريقية إليه . فلما رجع إلى السلطان وفدت معهم فنالني من كرامته وإحسانه ما لم أحتسبه ، إذ كنت شاباً لم يطرَّ شاربني . ثم انصرفت مع الوفود ورجع ابن أبي عمرو إلى بجاية ، فأقمت عنده حتى انصرم الشتاء وأواخر أربع وخمسين وسبعائة وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه ، وجرى ذكري عنده وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس ، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني ووصفوني له ، فكتب إليّ الحاجب يستقدمني ، فقدمت عليه سنة خمس وخمسين وسبعائة ونظمني في أهل مجلسه العلمي ، وألزمي شهود الصلوات معه ، ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره مني ، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي . وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة ، وحصلت من الإفادة منهم على البُغْيَةِ .

وكان في جملته يومئذ الأستاذ أبو عبدالله محمد بن الصفّار من أهل مراکش إمام القراءات لوقته ، أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب وكبيرهم شيخ المحدثين الرحالة أبو عبدالله محمد بن رشيد الفهريّ سيّد أهل المغرب ، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع إلى أن توفي .

(ومنهم) قاضي الجماعة بفاس أبو عبدالله محمد المغربي^(٢) صاحبنا ، من أهل تلمسان ، أخذ العلم بها عن أبي عبدالله محمد السلويّ^(٣) ورَدَ عليها من المغرب خلواً من المعارف . ثم دعتهم همته إلى التحلي بالعلم ، فعكف في بيته على مُدَارسة القرآن

(١) وفي نسخة ثانية : واكتنف .
(٢) وفي نسخة ثانية : المَقْرِيّ وهو أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر المقرئ بتشديد القاف المفتوحة نسبة إلى مقرة . أو سكون الكاف والميم في الحالتين مفتوحة . (الإحاطة ١٣٦/٢) .
(٣) وفي نسخة ثانية : السلاوي نسبة إلى سلا .

فحفظه ، وقرأه بالسبع . ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية فحفظه ، ثم على مختصر ابن الحاجب في الفقه والأصول فحفظها . ثم لزم الفقيه عمران المشدّ الي من تلاميذ أبي علي ناصر الدين ، وتفقه عليه ، وبرز في العلوم إلى حيث لم تلحق غايته . وبني السلطان أبو تاشفين مدرسة بتلمسان ، فقدّمه للتدريس بها ، يضاهاي به أولاد الإمام ، وتفقه عليه بتلمسان جماعة كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبو عبد الله المغربي هذا .

ولما جاء شيخا أبو عبد الله الأيلى إلى تلمسان عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها ، وكان أبو عبد الله السلوي قد قتل يوم فتح تلمسان ، قتله بعض أشياع السلطان لذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماة قبل انتحاله العلم ، كان السلطان توعدّه عليه ، فقتل بباب المدرسة ، فلزم أبو عبد الله المغربي بعده مجلس شيخنا الأيلى ومحالس إبنى الإمام . واستبحر في العلم وتفنّن . ولما انتقض السلطان أبو عنان سنة تسع وأربعين وسبعمئة وخلع أباه ، ندبه إلى كتب البيعة فكتبها وقرأها على الناس في يوم مشهود . وارتحل مع السلطان إلى فاس ، فلما ملكها عزل قاضيها الشيخ المعمر أبا عبد الله بن عبد الرزاق وولاه مكانه ، فلم يزل قاضياً بها إلى أن أسخطه لبعض التزعات الملوكية ، فعزّله وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله القشتالي^(١) آخر سنة ست وخمسين وسبعمئة ، ثم بعثه في سفارة إلى الأندلس فامتنع من الرجوع . وقام السلطان لها في ركابه ، ونقم^(٢) على صاحب الأندلس تمسّكه به ، وبعث إليه فيه يستقدمه ، فلاذ ابن الأحمر بالشفاعة فيه ، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عنان ، وأوفده في جماعة من شيوخ العلم بقرناطة القاطنين بها^(٣) منهم : شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي شيخ الدنيا جلالة وعلماً ووقاراً ورياسةً وإمام اللسان فصاحةً وبياناً^(٤) وتقدماً في نظمه ونثره . وترسلاته . وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البلقيني^(٥) من أهل المرية شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء

(١) القشتالي : هو أبو عبد الله محمد بن أحمد القشتالي القاضي بفاس ، كان بيته معموراً بالجوهر والخير والصلاح ، وكان أبو عبد الله هذا احد اعلام المغرب (الإحاطة ١٣٣/٢) .

(٢) وفي نسخة ثانية : ونكر .

(٣) وفي نسخة ثانية : وأوفده مع الجماعة من شيوخ العلم بقرناطة ومهم القاصيان بقرناطة .

(٤) وفي نسخة ثانية : وإمام اللسان حوكاً ونقداً .

(٥) وفي نسخة ثانية : البلقيني : وهو محمد بن محمد بن إبراهيم ابن الحاج البلقيني (٧٠٨ — ٧٧٠) طبقات القراء ٢٣٥/٢ .

بالأندلس ، وسيّد أهل العلم باطلاق ، والمتفّن في أساليب المعارف ، وآداب الصحابة للملوك فنّ دونهم ، فوفدوا به على السلطان شفيعين على عظيم تشوّفه للقائهما ، فقبِلت الشفاعة وأنجحت الوسيلة .
حضرتُ بمجلس السلطان يوم وفادتها سنة سبع وخمسين وسبعمئة وكان يوماً مشهوداً . واستقرّ القاضي المغربي في مكان بباب السلطان عُطلاً من الولاية والحراية . وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان وقعت بينه وبين أقاربه ، امتنع من الحضور معهم عند القاضي الفشتالي ، فتقدّم السلطان إلى بعض أكابر الوزعة ببابه أن يسحبّه إلى مجلس القاضي حتى ينفذ فيه حكمه ، فكان الناس يعدّونها محنة ، ثم ولّاه السلطان بعد ذلك قضاء العساكر في دولته ، عند ما ارتحل إلى قسنطينة . فلما افتتحها وعاد إلى دار ملكه بفاس آخر ثمان وخمسين وسبعمئة اعتلّ القاضي المغربي في طريقه ، وهلك عند قدومه بفاس .

* (ومنهـم صاحبنا) * الإمام العالم القدوة^(١) ، فارس المعقول والمنقول ، وصاحب الفروع والأصول ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الشريف الحسني ، ويعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان ، تُسمّى العلّوين ، فكان أهل بلده لا يدافعون في نسبهم . وربما يغمز فيه بعض الفجرة ممن لا يروعه دينه ولا معرفته بالأنساب ببعض من اللغو ، لا يلتفت إليه ، نشأ هذا الرجل بتلمسان وأخذ العلم عن مشيختها ، واختص بأولاد الإمام وتفقه عليهما في الفقه والأصول والكلام ، ثم لزم شيخنا أبا عبدالله الأبي وتصلّع من معارفه ، فاستبحر وتفجّرت بناييع العلوم من مداركه . ثم ارتحل إلى تونس في بعض مذاهبه سنة أربعين وسبعمئة ولقي شيخنا القاضي أبا عبدالله ابن عبد السلام وحضر مجلسه وأفاد منه ، واستعظم رتبته في العلم . وكان ابن عبد السلام يصغي إليه ويؤثر محله ويعرف حقّه حتى لقد زعموا أنه كان يخلوبه في بيته ، فيقرأ عليه فصل التصوّف من كتاب الإشارات لابن سينا ، لما كان هو أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الأبي وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا ، ومن تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد ، ومن الحساب والهندسة والفرائض علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة ، وكانت له في كتب الخلافات يدٌ

(١) وفي نسخة ثانية : العالم الفذّ .

طولى ، وقَدَمٌ عالية ، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله وأوجب حقّه ، وانقلب إلى تلمسان ، وانتصب لتدريس العلم وبثه فملاً المغرب معارف وتلاميذ ، إلى أن اضطرب المغرب بعد واقعة القيروان . ثم هلك السلطان أبو الحسن ، وزحف أبو عنان إلى تلمسان فملكها سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة فاستخلص الشريف أبا عبد الله واختاره لمجلسه العليّ مع من اختاره من المشيخة ، وزحف به إلى فاس فبترّم الشريف من الاغتراب وردّد الشكوى وعرف السلطان ذلك^(١) وارتاب به . ثم بلغه أثناء ذلك أنّ عثمان بن عبد الرحمن سلطان تلمسان أوصاه على ولده ، وأودع له مالا عند بعض الأعيان من أهل تلمسان ، وأنّ الشريف مطلع على ذلك ، فانتزع الوديعة وسخط الشريف بذلك ونكبه ، وأقام في اعتقاله أشهراً ، ثم أطلقه أوّل ست وخمسين وسبعمئة وأقصاه ، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة وأعادته إلى مجلسه إلى أن هلك السلطان آخر تسع وخمسين وسبعمئة .

وملك أبو حمّو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين ، واستدعى الشريف من فاس فسرحه القائم بالأمر يومئذ الوزير عمر بن عبد الله فانطلق إلى تلمسان . وأطلقه^(٢) أبو حمو براحتيه ، وأصهر له في ابنته ، فزوّجها إياه ، وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمّه ، وأقام الشريف يدرس العلم إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين وسبعمئة وأخبرني رحمه الله أنّ مولده سنة عشر وسبعمئة .

* (ومنهم صاحبنا) * الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي من برجة^(٣) الأندلس . كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الإنشاء والسرّ في دولته ، وكان مختصاً به ، وأثيراً لديه . وأصله من برجة الأندلس نشأ بها واجتهد في العلم والتحصيل ، وقرأ وسمع وتفقه على مشيخة الأندلس . واستبحر في الأدب وبرز في النظم والنثر ، وكان لا يجاري في كرم الطباع وحسن المعاشرة ، ولين الجانب وبذل البشر والمعروف . وارتحل إلى بجاية في عشر الأربعين وسبعمئة ، وبها الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي يحيى منفرداً بملكها على حين أقفر من رسم الكتابة والبلاغة ،

(١) وفي نسخة ثانية : فاحفظ السلطان بذلك .

(٢) وفي نسخة ثانية : وتلقاه أبو حمو براحتيه .

(٣) برجة : مدينة بالأندلس من أعمال البيرة ، ينسب إليها أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله الجذامي المقرئ ، هو منسوب إلى برجة بلدة من أعمال المرية (معجم البلدان) .

بادرت أهل الدولة إلى اصطفاائه وإيثاره بخطة الإنشاء والكتاب عن السلطان إلى أن هلك الأمير أبو زكريا ، ونصب ابنه محمد مكانه ، فكتب عنه على رسمه ثم هلك السلطان أبو يحيى ، وزحف السلطان أبو الحسن إلى أفريقية واستولى على بجاية ، ونقل الأمير محمداً بأهله وحاشيته إلى تلمسان كما تقدم في أخباره ، فنزل أبو القاسم البرجي تلمسان ، وأقام بها واتصل خبره بأبي عنان ابن السلطان أبي الحسن وهو يومئذ أميرها ، ولقيه ، فوقع من قلبه بمكان إلى أن كانت واقعة القيروان .
ونخلع أبو عنان واستبد بالأمر فاستكتبه وحمله إلى المغرب ، ولم يسم به إلى العلامة لأنه أثر بها محمد بن أبي عمر بما كان أبوه يعلمه القرآن والعلم . وربى محمد بداره ، فولاه العلامة ، والبرجي مرادف له في رياسته إلى أن انقرضوا جميعاً . وهلك السلطان أبو عنان واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب ، وغلب ابن مرزوق على هواه كما قدمناه ، فنقل البرجي من الكتابة واستعمله في قضاء العساكر ، فلم يزل على القضاء إلى أن هلك سنة ست وثمانين وسبعائة وأخبرني رحمه الله ان مولده سنة عشر وسبعائة .

* (ومنهم شيخنا المعمر الرحالة) * أبو عبدالله محمد بن عبد الرزاق شيخ وقته جلالة وتربية وعلماً وخبرة بأهل بلده ، وعظمة فيهم . نشأ بفاس وأخذ عن مشيختها ، وارتحل إلى تونس فلقى القاضي أبا اسحق بن عبد الرفيغ ، والقاضي أبا عبدالله النفزاوي . وأهل طبقتها ، وأخذ عنهم وتفقه عليهم ، ورجع إلى المغرب ولازم سنن الأكاير والمشايخ إلى أن ولّاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس ، فأقام على ذلك إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان بعد واقعة القيروان ، ونخلعه أباه فعزله بالفقيه أبي عبدالله المغربي ، وأقام عطلا في بيته .

ولما جمع السلطان مشيخة العلم للتحليق بمجلسه ، والإفادة منهم ، واستدعى شيخنا أبا عبدالله بن عبد الرزاق ، فكان يأخذ عنه الحديث ، ويقرأ عليه القرآن برواياته في مجلس خاص إلى أن هلك رحمه الله بين يدي مهلك السلطان أبي عنان ، إلى آخرين وآخرين من أهل المغرب والأندلس ، كلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه ، وأجازني بالإجازة العامة .

* (حديث النكبة من السلطان أبي عنان) *

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان آخر سنة ست وخمسين وسبعمائة وقرّ بني وأدناي ، واستعملني في كتابته ، واختصني بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه فكثرت المنافسون وارتفعت السعايات حتى قويت عنده بعد أن كان لا يغير عن صفائه^(١) . ثم اعتلّ السلطان آخر سبع وخمسين وسبعمائة وكان قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدّين مداخلة ، أحكمها ما كان لسلي في دولتهم . وغفلت عن التحفظ من مثل ذلك ، من غيرة السلطان ، فما هو إلا أن شغل بوجعه ، حتى نمي إليه بعض الغواة أن صاحب بجاية معتمل في الفرار ليسترجع بلده ، وبها يومئذ وزيره الكبير عبدالله بن عليّ ، فانبعث السلطان لذلك ، وبادر بالقبض عليه . وكان فيما نمي إليه أني داخلته في ذلك ، فقبض عليّ وامتحنني وحسني . ثم أطلق الأمير محمداً وما زلت أنا في اعتقاله إلى أن هلك ، وخاطبته بين يدي مهلكه مستوطفاً بقصيدة أولها :

على أيّ حالٍ ليليّ أعاتبُ وأيّ صُروفٍ للزمانِ أغالبُ
كفى حزناً أني على القربِ نازحُ وأني على دعوى شهودي غائبُ
وأنّي على حكم الحوادثِ نازلُ تسالمني طوراً وطوراً تحاربُ

ومنها في التشوّق :

سَلَوْتُهُمْ إِلَّا ادِّكَارَ مَعَاهِدِ لها في الليالي الغابراتِ غرائبُ
وإنّ نسيمَ الريحِ منهم يشوقني إليهم وتصيبي البروق اللواعبُ

وهي طويلة ، نحو مائتين بيتاً ، ذهبت عن حفظي ، فكان لها منه موقع ، وهش لها . وكان بتلمسان ، فوعد بالإفراج عني عند حلوله بفاس ، ولخمس ليالٍ من حلوله طرقه الوجد ، وهلك لخمس عشرة ليلة ، في رابع وعشرين ذي الحجّة ، خاتم تسع وخمسين وسبعمائة . وبادر القائم بالدولة ، الوزير الحسن بن عمّار إلى إطلاق جماعة من المعتقلين ، كنت فيهم ، فخلع عليّ ، وحملني ، وأعادني إلى ما كنت

(١) وفي نسخة ثانية : واستعملني في كتابته ، حتى تكدر جوي عنده ، بعد ان كان لا يعبر عن صفائه .

عليه ، وطلبتُ منه الإصراف إلى بلدي ، فأبى عليّ ، وعاملني بوجوه كرامته ،
ومذاهب إحسانه ، إلى أن اضطرب أمره ، وانتقض عليه بنو مرين ، وكان ما قدّمناه
في أخبارهم .

* (الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر والانشاء) *

ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلس لطلب مُلكه ، ونزل بجبل الصفيحة من
بلاد غماره . وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس ، فبثّ دعوته سراً ، واستعان بي علي
أمره ، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبة وائتلاف ، فحملتُ الكثير منهم
على ذلك ، وأجابوني إليه ، وأنا يومئذ أكتب عن القائم بأمر بني مرين ، منصور بن
سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، وقد نصبوه للملك ،
وحاصروا الوزير الحسن بن عمر ، وسلطانه السعيد ابن أبي عنان ، بالبلد الجديد .
فقصدني ابنُ مرزوق في ذلك ، وأوصل إليّ كتاب السلطان أبي سالم . بالحض علي
ذلك ، وإجمال الوعد فيه . وألقى عليّ حملة ؛ فنهضت به ، وتقدّمت إلى شيوخ بني
مرين ، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك ، حتى أجابوا ، وبعث ابنُ مرزوق إلى
الحسن بن عمر ، يدعو إلى طاعة السلطان أبي سالم ، وقد ضجر من الحصار ؛ فبادر
إلى الإجابة ، واتفق رأي بني مرين على الانفضاض عن منصور بن سليمان ،
والدخول إلى البلد الجديد ؛ فلما تمّ عقدهم على ذلك نزلت إلى السلطان أبي سالم
في طائفة من وجوه أهل الدولة ، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس ، المستبد بعد
ذلك بمُلك المغرب على سلطانه ، وكان ذلك التزوع مبدأ حظّه ، وفاتحة رياسته ،
بسعائتي له عند السلطان ، فلما قدمتُ على السلطان بالصفيحة ، بما عندي من أخبار
الدولة ، وما أجمعوا عليه من خلع منصور بن سليمان ، وبالموعد الذي ضربوه
لذلك ، واستحثته . فارتحل ، ولقينا البشيرُ بإجفال منصور بن سليمان ، وفراره إلى
نواحي باديس ، ودخول بني مرين إلى البلد الجديد ، وإظهار الحسن بن عمر دعوة
السلطان أبي سالم . ثم لقينا ، بالقصر الكبير ، قبائل السلطان ، وعساكره ، على
راياتهم ، ووزير منصور بن سليمان ، وهو مسعود بن رحو بن ماساي ؛ فتلقاه السلطان

بالكرامة كما يجب له ، واستوزره عوضاً نائباً للحسن بن يوسف بن عليّ بن محمد الورتاجني السابق إلى وزارته ، لقيّه بسبته ، وقد غرّ به منصور بن سليمان إلى الأندلس فاستوزره واستكفاه .

ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر صعد إلى فاس ولقيه الحسن بن عمر بظاھرھا ، فأعطاه طاعته ، ودخل إلى دار ملكه وأنا في ركابه ، لخمس عشرة ليلة من نزوعي إليه ، منتصف شعبان سنة ستين وسبعائة ، فرعى لي السابقة واستعملني في كتابة سرّه ، والترسيل عنه ، والإنشاء لمخاطباته ، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن يتحل الكتابة في الأسجاع ، لضعف انتحالها ، وخفاء المعاني منها على أكثر الناس ، بخلاف غير المرسل^(١) ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة .

ثم أخذت نفسي بالشعر ، وانثال عليّ منه بحور ، توسطت بين الإجادة والقصور ، وكان مما أنشدته إياه ليلة المولد النبوي من سنة ثلاث وستين وسبعائة^(٢) .

وأطلنَ مَوْقِفَ عِبْرَتِي وَنَحِيْبِي
لِعَوَادِ^(٤) مَشْغُوفِ الْفَوَادِ كَثِيْبِ
قَلْبِي رَهِيْنَ صَبَابَةٍ وَوَجِيْبِ
فَشْرَبْتُ^(٦) بَعْدَهُمْ بِمَاءِ غُرُوبِ
رُحْمَاكَ فِي عَذْلِي وَفِي تَأْنِيْبِي
مَاءُ الْمُدَّامِ^(٧) لَدِيْ غَيْرِ شُرُوبِ
لَوْلَا تَذَكُّرُ مَتَزَلِ وَجِيْبِ
لِلْبَدْرِ مِنْهُمْ أَوْ كُنَّاسِ رِيْبِ

أَسْرَفَنَ فِي هَجْرِي وَفِي تَعْسُدِيْبِي
وَأَبَيْنُ يَوْمِ الْبَيْنِ مَوْقِفِ^(٣) سَاعَةٍ
لِلَّهِ عَهْدُ الظَّاعِنِيْنَ وَقَدْ غَدَا^(٥)
غَرَبَتْ رِكَائِبُهُمْ وَدَمَعِي سَافِحُ
يَا نَاقِعاً بِالْعَتَبِ غُلَّةَ شَوْقِهِمْ
يَسْتَعْزِبُ الصَّبُّ الْمَلَامَ وَإِنِّي
مَاهَا جَنِي طَرْبٌ وَلَا اعْتَادَ الْجَوِي
أَصْبُوا إِلَى أَطْلَالِ^(٨) كَانَتْ مَطْلَعاً

(١) وفي نسخة ثانية : بخلاف المرسل .

(٢) وفي نسخة ثانية : سنة اثنتين وستين وسبعائة .

(٣) وفي نسخة ثانية : وقفة ساعة .

(٤) وفي نسخة ثانية : لوداع .

(٥) وفي نسخة ثانية : وغادروا .

(٦) وفي نسخة ثانية : فشرقت . وماء الغروب : الدموع حين تخرج من العين .

(٧) وفي نسخة ثانية : ماء الملام .

(٨) وفي نسخة ثانية : الاطلال .

عَبَثْتُ بِهِ أَيْدِي الْبَلِي وَتَرَدَّدَتْ
تَبْلِي مَعَاهِدُهَا وَإِنَّ عَهودَهَا
وَإِذَا السَّيِّدَارُ تَعَرَّضَتْ لِمُتَيْمٍ
إِيَّاهُ عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ
لَمْ أَنْسَهَا وَالْدَهْرُ يَثْنِي صَرْفَهُ
وَالدَّارُ مُونِقَةٌ بِمَا لَبَسْتُ مِنَ الْأُ
يَا سَائِقِ الْأَطْعَانِ يَعْتَسِفُ الْفَلَاحُ
مُتَهَافِتًا عَنْ رَحْلِ كُلِّ مَدْلَلٍ
تَتَجَاذِبُ النِّفَحَاتُ فَضْلَ رِدَائِهِ
إِنْ هَامَ مِنْ ظَمِئِ الصَّبَابَةِ ضَحْبُهُ
إِنْ تَعَرَّضَ مَسْرَاهُمْ سُدْفُ الدُّجَى
فِي كُلِّ شَعْبٍ مُنِيَّةٌ مِنْ دُونِهَا
هَلَّا عَطَفْتَ صَدُورَهُنَّ إِلَى الَّتِي
فَتَوْمٌ مِنْ أَكْنَافٍ يَثْرِبُ مَأْمَنًا
حَيْثُ النُّبُوَّةُ أَيُّهَا مَجْلُوءَةٌ
سُرٌّ عَجِيبٌ لَيْسَ يَحْجِبُهُ الثَّرَى (٧)

فِي عَطْفِهَا لِلدَّهْرِ أَيُّ خَطُوبٍ
لِيَجْرَهَا (١) وَصِنِي وَحُسْنُ نَسِيبِي
هَزَّتْ لِدَكَرَاهَا أَوْلَى التَّشْيِيبِ (٢)
أَلْوَى بِسَدَيْنِ فَوَادِي الْمَنُوبِ
وَيَغُضُّ طَرْفِي حَسَادٍ وَرَقِيبِ
يَأْمُ تَجْلُوهَا بِكُلِّ قَشِيبِ (٣)
بِتَوَاصِلِ الْأَسْنَادِ وَالتَّأْوِيبِ (٤)
نَشْوَانَ مِنْ آئِنٍ وَمَسْرِ لُغُوبِ (٥)
فِي مُلْتَقَاهَا مِنْ صَبَاً وَجَنُوبِ
نَهَلُوا بِمَوْرِدِ دَمْعِهِ الْمَسْكُوبِ
صَدَعُوا الدُّجَى بِغَرَامِهِ الْمَشُوبِ
هَجَرَ الْأَمَانِي أَوْ لِقَاءِ شُعُوبِ
فِيهَا لِفَانِيَّةٌ (٦) أَعْيُنِ وَقُلُوبِ
يَكْفِيكَ مَا تَخْشَاهُ مِنْ تَثْرِيبِ
تَلُومِنِ الْأَثَارِ كُلِّ غَرِيبِ
مَا كَانَ سُرُّ اللَّهِ بِالْمَحْجُوبِ

ومنها بعد تعديد معجزاته صلى الله عليه وسلم والأطناب في مدحه :

يَا خَيْرَ مَدْعُوٍّ وَخَيْرَ مُجِيبِ
فَمَا لِدَكَرِكَ مِنْ أَرِيحِ الطَّيِّبِ
فِي مَدْحِكَ الْقُرْآنِ كُلِّ مَطِيبِ (٨)

إِنِّي دَعْوَتُكَ وَاثِقًا بِإِجَابَتِي
قَصَّرْتُ فِي مَدْحِي فَإِنَّ يَكُ طَيِّبًا
مَاذَا عَسَى يَبْغِي الْمُطِيلُ وَقَدْ حَوَى

(١) وفي نسخة ثانية : ليجدّها .

(٢) وفي نسخة ثانية : هزته ذكرها إلى التشيب .

(٣) وفي نسخة ثانية : والدار مونقة محاسها بما لبست من الايام كل قشيب

(٤) وفي نسخة ثانية : ويواصل الإسآد بالتأويب . والإسآد : سير الليل كله لا تعريس فيه . والتأويب : سير النهار لا تعريج فيه (لسان العرب) .

(٥) وفي نسخة ثانية : نشوان من اين ومسر لغوب . والأين : الاعياء واللغوب التعب .

(٦) وفي نسخة ثانية : لبانة .

(٧) وفي نسخة ثانية : سر عجب لم يحجبه الثرى .

(٨) هنا إشارة الى مدح القرآن للنبي (صلعم) « وانك لعلى خلق يحطم » آية ٦٨ من سورة الانعام .

يا هل تبُلغي الليالي زورة
أحو خطيآتي بإخلاصي بها
في فتية هجروا المنى وتعودوا
يطوي صحائفَ ليهم نوق الفلا
إن رنم الحادي بذكرك رددوا
أو غرد الركبُ الخلي بطيبة
ورثوا اعتساف اليد عن آباءهم
الظاعنون الخيل وهي عوابسُ
والواهبون المُقربَاتِ صوافناً
والمانعون الجار حتى عرضه
تحشى بوادِهم ويرجى حلمهم

تُدني إليّ الفوز بالمرغوبِ
وأحطُ أوزاري وإصر ذنوبي
إنشاء كل نجيبه ونجيب
ما شئت من خببٍ ومن تقرب
أنفاس مشتاقٍ إليك طرُوبي
حنوا لملقاهما حين النب
إرث الخلافة في بني يعقوب
يغشى مثارُ النقع كل سيب
من كل خوار العنان لعوب
في متدى الأعداء غير معيب
والغز شيمه مرتجى ومهيب

ومنها في ذكر إجازته البحر واستيلائه على ملكه :

سائل بني طامي العباب وقد سرى
تهديه شهب أسنة وعزائم
حتى انجلت ظلل الظلام^(١) بسعيه
أبني الأولى شادوا الخلافة بالتقى
جمعوا لحفظ الدين أي مناقب
لله مجدك طارفاً أو تالداً
كم رهبة أو رغبة لك في العلاء
لا زلت مسروراً بأشرف دوله
تحبي المعالي غادياً أو راثحاً

ترجيه ربح العزم ذات هبوب
يصد عن ليل الحادث المرهوب
وسطا الهدى بفريقه المغلوب
واستأثروا بتاجها المفضوب^(٢)
كرموا بها في مشهد ومغيب
فلقد شهدنا منه كل عجب
تقتاد بالترغيب والترهيب
يبدو الهدى من أفقها المرغوب
وحديد سعادك ضامن المطلب

ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هدية ملك السودان إليه ، وفيها الحيوان الغريب
المسمى بالزرافة :

قدحت يد الأشواق من زندي وهفت بقلبي زفرة الوجهد

(١) وفي نسخة أخرى : حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه .

(٢) وفي نسخة أخرى : يا بن الألى شادوا الخلافة بالتقى واستأثروك بتاجها المفضوب .

رَبِّذَتْ سُلُوَانِي عَلَى ثَقِيَّةٍ
 وَلرُبَّ وَضَلٍ كُنْتُ أَمْلُكُهُ
 لَا عَهْدَ عِنْدَ الصَّبْرِ أَطْلُبُهُ
 يَلْحَى الْعَذُولُ مَا أُعْنَفُهُ
 وَأَعَارِضُ النَفَحَاتِ أَسْأَلُهَا
 يَهْدِي الْغَرَامُ إِلَى مَسَالِكِهَا
 يَا سَائِقَ الْأَطْعَانِ مُعْتَسِفًا
 أَرِحِ الرَّكَّابَ فِي الصَّبَا نَبَاً
 وَسِلِ الرَّبِيعَ بِرَامِيَّةٍ خَبْرًا
 مَالِي يَلَامُ عَلَى الْهَوَى خَلْقِي
 لَا بَيْتُ إِلَّا الرُّشْدُ مُذْ وَضَحَتْ
 نِعْمَ الْخَلِيفَةُ فِي هَدَى وَتَقَى
 نَجَلُ السَّرَاةِ الْغُرَّ شَانَهُمْ

ومنها في ذكر خلوصي إليه وما ارتكبه فيه :

لِلَّهِ مَنِي إِذْ تَبَاوَيْتَنِي
 شَهْمٌ يَفُلُّ بِوَاتِرًا قُضِبَاً
 أَوْ رَيْتُ زَنْدَ الْعَزْمِ فِي طَلْبِي
 وَوَرَدْتُ عَنْ ظَمًا مَنَاهِلَهُ
 هِيَ جَنَّةُ الْمَاوَى لِمَنْ كَانَتْ
 لَوْ لَمْ أَعْلَلْ بَرْدٌ^(١) كَوَثْرَهَا
 مَنْ مِثْلِي غُفُومِي وَدُونَهُمْ
 أَنِي أَنْفَتُ عَلَى رَجَائِهِمْ
 وَرَقِيمَةَ الْأَعْطَافِ حَالِيَةً
 وَخَشِيَّةَ الْأَنْسَابِ مَا أَنْسَتُ

بِالْقَرَبِ فَاسْتَبَدَّتْ بِالْبُعْدِ
 فَاعْتَضَتْ مِنْهُ بِمَوْلِمِ الصَّدِّ
 إِنَّ الْغَرَامَ أَضَاعَ مِنْ عَهْدِي
 وَأَقُولُ ضَلَّ فَمَا بَتَغِي رُشْدِي
 بَرْدَ الْجَوَى فَتَرِيدُ فِي الْوَقْدِ
 لِتَعَلُّلِي بِضَعِيفِ مَا تَهْدِي
 طَيِّئِ الْفَلَاةَ لَطِيَّةَ الْوَجْدِ
 يُغْنِي عَنِ الْمُسْتَنْسَةِ الْجُرْدِ
 عَنْ سَاكِنِي نَجْدٍ وَعَنْ نَجْدِ
 وَهِيَ الَّتِي تَأْبَى سِوَى الْحَمْدِ
 بِالْمُسْتَعِينِ مَعَالِمِ الرُّشْدِ
 وَبِنَاءِ عِزِّ شَامِخِ الطَّوْدِ
 كَسَبُ الْعُلَا بِمَوَاهِبِ الْوَجْدِ

ذِكْرَاهُ وَهُوَ بِشَاهِقِي فَرْدٍ
 وَجَمُوعَ أَقْبَالِ أُولِي الْيَدِ
 وَقَضَيْتُ حَقَّ الْمَجْدِ مِنْ قَصْدِي
 فَرَوَيْتُ عَنْ عِزِّ وَمِنْ رِفْدِي
 آمَالَهُ بِمَطَالِبِ الْمَجْدِ
 مَا قَلْتُ هَذَا جَنَّةَ اللُّدِ
 قَدْ فُتُّ النُّوَى وَتُنُوفَةُ الْبُعْدِ
 وَمَلَكَتُ عِزَّ جَمِيعِهِمْ وَحَدِي
 مَوْشِيَّةَ بوشائِحِ الْبُرْدِ
 فِي مَوْحِشِ الْبَيْدَاءِ بِالْفَرْدِ^(٢)

(١) وفي نسخة ثانية : بورد .

(٢) وفي نسخة ثانية : بالقود .

شرف الصُّرُوحِ بِغَيْرِ مَا جُهْدِ
 وَلرَّيَا قَصْرَتِ عَنِ الوَهْدِ
 آسَارَهَا بِالقَهْدِ وَالوَحْدِ^(١)
 وَتَبِيتِ طَوْعِ القِنِّ وَالقِيدِ^(٢)
 طُولَ الحَيَاةِ بِعَيْشَةٍ رَغْدِ
 يَرْجُونَ غَيْرَكَ مُكْرِمَ الوَفْدِ
 أَيْدِي السُّرَى بِالغُورِ وَالنَّجْدِ
 أَوْ كَالْحُسَامِ يُسَلُّ مَنْ غِمْدِ
 مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا جَحْدِ
 فخرًا عَلَى الأَثْرَاكِ وَالهِنْدِ
 عَنِ رُتْبَةِ المَنْصُورِ وَالْمَهْدِ
 خَيْرَ الجَزَاءِ فَنِعْمَ مَنْ يُسْدِي
 فِي عِزَّةٍ أبدأً وَفِي سَعْدِ

تَسْمُو بِجَيْدِ بِالإِغِ صُعْدًا
 طَالَتْ رُؤُوسُ الشَّامِحَاتِ بِهِ
 قَطَعَتْ إِلَيْكَ تَنَائِفًا وَصَلَتْ
 تَحْدِي عَلَى اسْتِصْفَائِهَا ذُلًّا
 بِسَعُودِكَ اللَّاتِي ضَمَنْ لَهَا
 جَاءَتْكَ فِي وَفْدِ الأَحَابِشِ لَا
 وَافُوكَ انْضَاءً تُقَلِّبُهُمْ
 كَالطَّيْفِ يَسْتَقْرِي مَضَاجِعَهُ
 يَثْنُونَ بِـالحُسْنَى الَّتِي سَبَقَتْ
 وَيَرُونَ لَحْظَكَ مِنْ وَفَادَتِهِمْ
 يَا مُسْتَعِينًا جَلَّ فِي شَرَفِ
 جَازَاكَ رَبُّكَ عَنِ خَلِيقَتِهِ
 وَبَقِيَتْ لِلدُّنْيَا وَسَاكِنِهَا

وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً لم يحضرني الآن شيء منه .

ثم غلب ابن مرزوق على هواه وأفرد بخالصته وكبح الشكايم عن قربه ، فانقبضت وقصرت الخطو ، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سره وإنشاء مخاطباته ومراسمه . ولأني آخر الدولة « خطة المظالم » فوفيتها حقها ودفعت للكثير مما أرجو ثوابه . ولم يزل ابن مرزوق آخذاً في سعائته بي وبأمثالي من أهل الدولة ، غيرةً ومنافسةً إلى أن انتقض الأمر على السلطان بسببه ، وثار الوزير عمر بن عبدالله بدار الملك فصار إليه الناس ، ونبذوا السلطان وبيعته ، وكان في ذلك هلاكه على ما ذكرناه في أخبارهم .

ولما قام الوزير عمر بالأمر أقرني علي ما كنت عليه ، ووفر أقطاعي وزاد في جرايتي وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه وأدل في ذلك بسابق مودة معه ،

(١) وفي نسخة ثانية : إسادهما بالنص والوحد . والنص : التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها .

والوحد : ضرب من سير الابل ، وهو سعه المخطوف المشي (لسان العرب) .

(٢) وفي نسخة ثانية : تحدي على استصعابها ذللاً ، تحدي : تسرع ، والقن : العبد . والعد : سير يصنع من جلد غير مدبوغ .

منذ أيام السلطان أبي عَنان ، وصحابة استحکم عقدها بيني وبين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية ، فكان ثالث آثافينا ، ومصقلة فكاھتنا ، واشتدَّت غيرة السلطان لذلك كما مرّ ، وسطا بنا ، وتغافل عن عمر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بجاية ، ثم حملني الإذلال عليه أيام سلطانه ، وما ارتكبه في حقي من القصور بي عمّا أسمو إليه إلى أن هجرته ، وقعدت عن دار السلطان مغاضباً له ، فتنكر لي وأقطعني جانباً من الإعراض ، فطلبت الرحلة إلى بلدي بأفريقية . وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان والمغرب الأوسط فمنعني من ذلك أن يغتبط أبو حمّو صاحب تلمسان بمكاني ، فأقيم عنده ، وألحّ في المنع من ذلك ، وأبيت أنا إلا الرحلة ، واستجرت في ذلك برديفه وصهره الوزير مسعود بن رحّون ماسي ، ودخلت عليه يوم الفطر سنة ثلاث وستين وسبعائة فأنشدته :

وَبُشْرَى لَعِينِدِ أَنْتَ فِيهِ مُنِيلٌ
تَتَّابُوعُ أَعْوَامٍ بِهَا وَفُصُولُ
وَلَامَسَ رَبْعَاءَ فِي حَاكٍ مُحُولُ
لَهُ غُرْرٌ وَضَاحِسَةٌ وَحُجُولُ
يَحُومُ عَلَيْهِ عَالَمٌ وَجَهُولُ
فَرَسَمُ الْأُمَانِي مِنْ سَوَاكٍ مُحِيلُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي فِي ذُرَاكَ مَقِيلُ
فَمِثْلِكَ يَبُولِي رَاجِيَاءَ وَيُنِيلُ
وَلَا سَخَطَةَ لِلْعَيْشِ فَهُوَ جَزِيلُ
لَظِلُّ عَلَى هَذَا الْأَنَامِ ظَلِيلُ
شَجَاهُنَّ خَطْبٌ وَالْفِرَاقُ طَوِيلُ
وَأَنَّ فَوَادِي حَيْثُ هُنَّ حُلُولُ
وَأَنَّ اغْتِرَابِي فِي الْبِلَادِ يَطُولُ
تُخِطِّفُ أَوْ غَالَتْ رِكَابِي غُولُ
فَطَارَتْ لِقَلْبِي أَنَّهُ وَعَوِيلُ

هَنِيشًا لَصُومٍ لَا عَدَاهُ قَبُولُ
وَهُنْشَتُهُمَا مِنْ عِزَّةٍ وَسَعَادَةٍ
سَقَى اللَّهُ دَهْرًا أَنْتَ إِنْسَانٌ عَيْنِهِ
فَعَصْرُكَ مَا بَيْنَ اللَّيَالِي مَوَاسِمُ
وَجَانِبُكَ الْمَأْمُولُ لِلْجُودِ مَشْرَعُ
عَسَاكَ وَإِنْ ضَنَّ الزَّمَانُ مَنْوَلِي
أَجْرَنِي فَلَيْسَ السُّدْهُرُ لِي بِمُسَالِمُ
وَأَوْلَيْتَنِي الْحُسْنَى بِمَا أَنَا آمِلُ
وَوَاللَّهِ مَا رُمْتُ التَّرْحَلَ عَنْ قَلْبِي
وَلَا رَغْبَةَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ إِنِّي
وَلَكِنْ نَأَى بِالشَّعْبِ عَنَّا حَبَائِبُ
يَبِيحُ بَيْنَ الْوَجْدِ إِنْ نِازِحُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِنَّ الَّذِي قَدْ لَقِيْتَهُ
تَوَارَتْ بِأَبْنِي^(١) الْبِقَاعُ كَأَنِّي
ذَكَرْتُكَ يَا مَعْنَى الْأَحِبَّةِ وَالْهَوَى

(١) وفي نسخة ثانية : بأبنائي .

وحييتُ عن شوقِ رُبَاكَ كأنَّا
أحبابنا والعهدُ بيني وبينكم
إذا أنا لم تُرضِ الحمولَ مداً معي
الأمَ مَقَامِي حيثُ لم تُردِ العلاءُ
أجاذِبُ فضلَ العُمُرِ يوماً و ليلةً
ويذهبُ بي ما بين يأسٍ ومطمعٍ
تعللني منه أمانِ خوادِعٍ
أما لليالي لا تردُّ خطوبها
يروغني عن صرفها كلُّ حادثٍ
أداري على رغم العداة بريبة^(٣)
وأغدو بأشجاني عليلاً كأنَّا
وإني وإن أصبحتُ في دارِ غربَةٍ
وصدّتي الأيامُ عن خيرِ منزلٍ
لأعلمُ أنّ الخيرَ والشرَّ ينتهي
وإني عزيزٌ بابم ماساي أكثرُ

يُمثِّلُ لي في^(١) بها وطلولُ
كريمٌ وما عهدُ الكريمِ يحولُ
فلا قَرَّبْتَنِي للقاءِ حمولُ
مُرَادِي ولم تُعطِ القيادَ ذلولُ
وساءَ صباحُ بينها وأصيلُ
زمانُ بنيلِ المعلواتِ بخيلُ
ويؤنسني منه أمانِ مطول^(٢)
ففي كَبَدِي من وقَعِهِنَّ فلولُ
تكساد له صمُّ البلادِ تزولُ
يصانعُ واشٍ خوفها وعذولُ
تجود بنفسي زفرةً وغليلاً
تُحيلُ الليالي سلوتي وتُديلُ
عَهْدَتُ بِهِ أَنْ لَا يُضَامُ نزيلُ
مداهُ وَأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يَدِيلُ
وإن هان أنصارٌ وبان خليلُ

فأعاني الوزير مسعود عليه حتى أذن لي في الانطلاق على شريطة العدول عن تلمسان في أي مذهب أردت ، فاخترت الأندلس وصرفت ولدي وأمهم إلى أخوالهم ، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقسنطينة فاتح أربع وستين وسبعائة وجعلتُ أنا طريقي على الأندلس ، وكان سلطانها أبو عبدالله المخلوع ، وحين وفد على السلطان أبي سالم بفاس ، وأقام عنده ، حصلت لي معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة ، من جهة الوزير أبي عبدالله بن الخطيب ، لما كان بيني وبينه من الصحابة ، فكنت أقوم بخدمته واعتمل في قضاء حاجاته في الدولة ، ولما أجاز باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته ، خلفته فيما

(١) وفي نسخة ثانية : يمثل لي نوي

(٢) وفي نسخة ثانية :

ويؤنسني لِيَانِ مِنْهُ مطول

تعللني عنه أمانِ خوادِعِ
(٣) وفي نسخة ثانية : اداري على الرغم العدي لا لريبة

ترك من عياله وولده بفاس ، خير خلف في قضاء حاجاتهم وإدراار أرزاقهم ، من المتولين لها ، والاستخدام لهم . ثم فسد ما بين الطاغية وبينه ، قبل ظفره بملكه ، برجوعه عما اشترط له من التجافي عن حصون المسلمين التي تملكها بالإجلاب ، ففارقه إلى بلاد المسلمين باستجة^(١) وكتب إلى عمر بن عبدالله يطلب مَضراً يتزله من أمصار الأندلس الغربية التي كانت ركاباً لملوك المغرب في جهادهم . وخاطبني أنا في ذلك ، فكنت له نِعَمَ الوسيلة عند عمر ، حتى تمَّ قصده من ذلك ، وتجافى له عن رُنْدَة وأعمالها ، فترها وتملكها ، وكانت دار هجرته ، وركاب فتحه ، وملك منها الأندلس أواسط ثلاث وستين وسبعائة واستوحشت أنا من عمر إثر ذلك كما مرّ ، وارتحلت إليه معولاً على سوابقي عنده ، فقرب في المكافات كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الرحلة الى الأندلس) *

ولما أجمعت الرحلة إلى الأندلس بعثت بأهلي وولدي إلى أخوالهم بقُسْنُطِينَة ، وكتبت لهم إلى صاحبها السلطان أبي العباس من حفدة السلطان أبي يحيى ، وبأني أمر على الأندلس وأجيز عليه من هنالك . وسرتُ إلى سبتة فُرْضَة المَجَاز ، وكبيرها يومئذ الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسيني ، ذو النسب الواضح السالم من الريبة عند كافة أهل المغرب ، انتقل سلفه إلى سبتة من صقلية . وأكرمهم بنو العزفي أولاً وصاهروهم . ثم عظم صيتهم في البلد فتنكروا لهم وغرّبهم يحيى العزفي آخرهم إلى الجزيرة ، فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق^(٢) فأسروهم . وانتدب السلطان أبو سعيد إلى فديتهم رعاية لشرفهم ، فبعث إلى النصارى في ذلك فأجابوه . وفادى هذا الرجل وأباه على ثلاثة آلاف دينار ، ورجعوا إلى سبتة ، وانقرض بنو العزفي

(١) وفي نسخة أخرى اسجه . وقد سجلها ابن خلدون بخط يده بفتح الهزرة وكسر السين المخففة . وفي معجم البلدان إسْتِيجَة : بالكسر ثم السكون وكسر الثاء وجيم وهاء ، إسم لكورة بالأندلس متصلة بأعمال رية بين القبله والمغرب من قرطبة . وهي كورة قديمة واسعة الرساتيق والأراضي على نهر سنجل . وهو نهر غرناطة بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة (معجم البلدان) .

(٢) هو مضيق يقع بين طنجة وجبل طارق .

ردولتهم ، وهلك والد الشريف وصدر هو إلى رياسة الشورى . لما كانت واقعة القيروان ، وخلع أبو عنان أباه واستولى على المغرب ، وكان بسبته عبدالله بن علي الوزير والياً من قبل السلطان أبي الحسن ، فتمسك بدعوته ، ومال أهل البلد إلى السلطان أبي عنان وبث فيهم الشريف دعوته ، فثاروا بالوزير وأخرجوه ، ووفدوا على أبي عنان وأمكنوه من بلدهم ، فولّى عليها من عظماء دولته سعيد بن موسى العجيسي ، كان كافل تربيته في صغره . وأفرد هذا الشريف برياسة الشورى في سبته ، فلم يكن يقطع أمراً دونه ، ووفد على السلطان بعض الأيام فتلقاه من المبرة بما لا يشاركه فيه أحد من وفود الملوك والعظماء . ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان وبعد وفاته ، وكان معظماً وقوراً المجلس ، هشّ اللقاء ، كريم الوفادة ، متحلّياً بالعلم والأدب ، متحلّياً للشعر غاية في الكرم وحسن العهد ، وسذاجة النفس ، ولما مررت به سنة أربع وستين وسبعمائة أنزلني بيته أزاء المسجد الجامع ، ورأيت منه ما لا يقدر مثله من الملوك ، وأركبني الحراقة^(١) ليلة سفري يباشر دحرجتها إلى الماء بيده ، إغراباً في الفضل والمساهمة ، وحططت بجبل الفتح وهو يومئذ لصاحب المغرب ، ثم خرجت منه إلى غرناطة وكتبت للسلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني ، وليلة بُتُّ بقرب غرناطة على بريدٍ منها ، لقيني كتاب ابن الخطيب يهيني بالقدوم ، ويؤنسي ونصّه :

حللت حلول الغيث في البلد المحل
 يمينا بمن تعنو الوجوه لوجهه
 لقد نشأت عندي للقياك غبطة
 ووُدِّي لا يُحتاج فيه لشاهد
 أقسمت بمن حجّت قريش لبيته ، وقبر صُرفت أزيمة الأحياء لميته ونور ضربت
 الأمثال بمشكاته وزيته . لو خيرت أيها المحب الحبيب الذي زيارته الأمانة السنية ،
 والعارفة الوارفة ، واللطيفة المطيفة بين رجوع الشباب بقطر ماؤه ، ويرف نماؤه ،
 ويغازل عيون الكواكب ، فضلا عن الكواكب ، إشارة وإيماء ، بحيث لا آلوفي

(١) الحراقة : نوع من السفن الصغيرة فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو ، ومنهم من كان يستعملها للنزعة .
 (٢) وفي نسخة ثانية : المهداء .

حظ يُلمُّ بسياج لمتّه ، أو يقدح ذباله في ظلّمته ، أو يقدّم حواريه في ملمته (١) . من الأحابش وأمتّه . وزمانه روح وراح ، ومغدىّ في النعيم مراح ، وخصب صراح ، ورنى وجراح (٢) ، وانتخاب واقتراح ، وصدراً ما به إلا انشراح ، ومسرات يردفها أفراح ، وبين قدومك خليع الرسن ممتعاً ، والحمد لله باليقظة والوسن ، محكماً في نسك الجنيد أو فتك الحسن ، ممتعاً بظرف المعارف ، مالئاً ألف الصيارف ، ماحياً بأنوار البراهين شبه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه ، وأعياني ثمنه ، وأجرت سحاب دمي دمنه . فالحمد لله الذي رفاً حنوه اغترابي (٣) وملكني أزمة آرابي ، وغبطني بهالي وترابي ، ومألف أترابي ، وقد أغصني بلذيد شرابي ، ووقع على سطورهِ المعترية إضرابي . وعجّلت هذه مُغِبَّةً بمناخ المطية ، وملتقى للسعود غير البطية ، وتنهى الآمال الوثيرة الوطية ، فما شئت من نفوس عاطشة إلى ربك ، متجملة بزيتك ، عاقلة خطي سمهريك (٤) ، ومولى مكارمه ، مشيدة لأمثالك ، ومضان منالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل مجدك في التخلف عن الإصحار لا بل اللقاء من وراء البحار والسلام .

ثم أصبحت من الغد قادماً على البلد وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعائة وقد اهتر السلطان لقدومي ، وهياً لي المنزل من قصوره بفرشه وما عونه ، وأركب خاصته للقاء تحفياً وبراً ومحازاة بالحسنى . ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك ، وخلع عليّ وانصرفت . وخرج الوزير ابن الخطيب فشيّعني إلى مكان نزلي ، ثم نظمني في عليه أهل مجلسه ، واختصني بالنجاء في خلوته ، والمواكبة في ركوبه والمواكلة والمطايبة والمفاكهة في خلوات أنسه ، وأقتُ عنده ، وسفرت عنه سنة خمس وستين وسبعائة إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ ، بطرة بن الهنشة بن أدفونش لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدو بهدية فاخرة من ثياب الحرير والجياذ والمقربات بمراكب الذهب الثقيلة ، فلقيت الطاغية بإشبيلية وعانيت آثار سلفي بها ، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه ، وأظهر الاغبتاط بمكاني ، وعلم أولية

(١) وفي نسخة ثانية : ملته .

(٢) وفي نسخة ثانية : وفصف وصراح ، ودقّي وجراح .

(٣) وفي نسخة ثانية : الذي رقى جنون اغترابي .

(٤) وفي نسخة ثانية : عامله خطا مهريك .

سلفنا بإشيلية وأثنى عليّ عنده طبيبه إبراهيم ابن زرور^(١) اليهودي المقدم في الطب
والنجامة ، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان وقد استدعاه يستطبه ، وهو
يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس . ثم نزع بعد مهلك رضوان بن القائم بدولتهم إلى
الطاغية ، فأقام عنده ونظّمه في أطبائه ، فلما قدمتُ أنا عليه أثنى عليّ عنده ،
فطلب الطاغية حينئذ المقام عنده ، وأن يردّ عليّ تراث سلفي بإشيلية ، وكان بيد
زعماء دولته ، فتفاديت من ذلك بما قبله . ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفتُ
عنه ، فزوّدني وحملني^(٢) واختصني ببغلة فارهة ، بمركب ثقيل ولحام ذهبيين ،
أهديتها إلى السلطان فأقطعني قرية البيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة ، وكتب لي
بها منشوراً كان نصّه^(٣)

ثم حضرت ليلة المولد النبويّ لخامسةٍ قدومي ، وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة
وإنشاد الشعر اقتداءً بملوك المغرب ، فأنشدته ليلئذ :

<p>بواكفِ الدمع يُروها ويظمني تحملوا القلبَ في آثارهم دوني فيهم وأسألُ رسماً لا ينجيني وكيفَ والفكرُ يذنيه ويُقصيني ما زال قلبي عليها غيرُ مأمونٍ بالدمعِ وقفٌ على أطلاله الجوني^(٤)</p>	<p>حيّ المعاهدَ كانت قبلُ تحيني إنّ الألى نزحت داري ودارهمُ وقفتُ أنشدُ صبراً ضاعَ بعدهمُ أمثِلُ الرّبْعَ من شوقي فألثمهُ وينهبُ الوجدُ مني كلَ لؤلؤةٍ سقتُ جفوني مغاني الرّبْعَ بعدهمُ</p>
--	---

(١) وفي نسخة ثانية : زرور .

(٢) بمعنى اعطاني ظهراً لأركبه .

(٣) بياض بالأصل في جميع النسخ لعلّ ابن خلدون ترك هذا الفراغ عن قصد ليثبت نصّ هذا المنشور
ولكن الموت عاجله قبل إتمام عمله هذا .

(٤) الجون : السود .

قد كان للقلب عن داعي الهوى شغل
أحبابنا هل لعهد الوصل مُدكر
مالي وللطيف لا يعتاد زائرهُ
يا أهل نجد وما نجد وساكنها
أعندكم أنني ما مرّ ذكركم
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكم
يا نازحاً والمنى تدنيه من خلدي (١)
أسلى هواك فؤادي عن سواك وما
ترى الليالي أنستك ادكاري يا

لو أن قلبي إلى السلوان يدعوني
منكم وهل نسمة عنكم تحيني
وللنسيم عيلاً لا يُدأويني
حسناً سوى جنة الفردوس والعين
إلا انثيت كأن الراح تثنيني
شوقاً ولولاكم ما كان يُصيني
حتى لأحسبه قرباً يُناجيني
سواك يوماً بحالٍ عنك يُسليني
من لم تكن ذكره الأيام تُسنيني

ومنها في وصف الإيوان الذي بناه جلوسه بين قصوره :

يا مصنعا شيدت منه السعود حمي
صرح يحار لديه الطرف مفتتاً
بعداً لإيوان كسرى إن مشورك (٢)
ودع دمشق ومغناها فقصرك ذا

لا يطرق الدهر مبناه بتوهين
فما يروك من شكّل وتلوين
السامي لأعظم من تلك الأواوين
« أشهى إلى القلب من أبواب جيرون » (٣)

ومنها في التعريض بمنصرفي من العُدوة :
من مبلغ عني الصحب الألى تركوا
أني أويت من العلياً إلى حرم
وأني ظاعناً لم ألق بعدهم
لا كالتى أخفرت عهدي ليالي إذ
سقياً ورعيماً لأيامي التي ظفرت
أرتاد منها ملياً لا بما طلني
وهاك منها قوافٍ طيها حكّم

ودّي وضاع حماهم إذ أضاعوني
كادت مغانيه بالبشرى تحيني
دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكي
أقلب الطرف بين الخوف والهون
يبدأي منها بحظ غير مغبون
وعداً وأرجو كريماً لا يُعيني
مثل الأزاهر في طي الرياحين

(١) الخلد : البال .

(٢) مشورك : كلمة مغربية تعني مكان جلوس السلطان ومن دونه الحكام ولا تزال تستعمل في مثل هذا المعنى بالمغرب .

(٣) جيرون : عند باب دمشق من بناء سليمان بن داود عليه السلام . يقال إن الشياطين بنته وهي حقيقة مستطيلة على عمد وسقائف وحوها مدينة تطيف بها . يقال واسم الشيطان الذي بناه جيرون فسّمى به . . . (معجم البلدان)

تلوحُ إنْ جُلِّيتْ دراً وإنْ تَلَّيتْ
عانيتُ منها يجهدني كلُّ شاردةٍ
يُبانعُ الفكرَ عنها ما تقسَّمه
لكن بسعدِكَ ذلتُ لي شواردها
بقيتَ دهرك في أمنٍ وفي دَعَاةٍ

تثني عليك بأنفاسِ البساتينِ
لولا سعودك ما كانت تواتيني
من كلِّ حزنٍ بطيِّ الصدرِ مكنونِ
فَرُضتُ منها بتحبيرٍ وتزيينِ
ودامَ مُلكك في نصرٍ وتمكينِ

وأُنشدته سنة خمس وستين وسبعمئة في إعدار ولده ، والصنيع الذي احتفل لهم فيه ،

ودعا إليه الجفلي^(١) من نواحي الاندلس ولم يحضرنى منها إلا ما أذكره :

صحبا الشوقُ لولا عبرةٌ ونحيبُ
وقلبُ أبى إلا الوفاءَ بعهدِهِ
ولله مني بعد حادثةِ النوى
يورِّقه طيفُ الخيالِ إذا سرى
خليلي لا تستعديا قد دعا الأسي^(٢)
المَّا على الأطلالِ نقضَ حقوقها
ولا تعذُّ لاني في البكاءِ فإنها

وذكرى تجدُّ الوجدَ حين تثوب^(٢)
وإن نرحتُ دارٌ وبانَ حبيبُ
فواذُّ لتذكير^(٣) العهدِ طروبُ
وتذكي حشاه نفحةً وهبوبُ
فإني لما يدعو الأسي لمُجيبُ
من الدمعِ فيأضُ الشونِ سكوبُ
حشاشةٌ نفسي في الدموعِ تذوبُ

ومنها في تقدّم ولده للاعدار من غير نكول :

فيمم منه الحفلَ لا متقاعسُ
وراح كما راح الحسام من الوغى
شواهر^(٦) أهدتهنَّ منك شمائلُ

ولا نكس^(٥) عند اللقاء هيبُ
تروقُ حلاه والفرنَّادُ خضيبُ
وخلقُ بصفوفِ المجدِ منك مشوبُ

ومنها في الثناء على ولديه :

هما النيرانِ الطالعان على الهدى
بآياتِ فتحِ شأنهنَّ عجيبُ

(١) الجفلي : هي أن تدعو الناس الى طعامك دعوة عامة من غير اختصاص . يقال « دعي فلان في النقرى لا في الجفلي » أي في الدعوة الخاصة لا العامة (قاموس) .

(٢) النحيب : البكاء وفي النسخة الباريسية تثوب وكذلك تثوب يجمعان نفس المعنى أي ترجع وتعود .

(٣) وفي نسخة ثانية : لتذكار .

(٤) وفي نسخة ثانية : خليلي إلا تسعدا فدعا الأسي ...

(٥) وفي نسخة ثانية : لخطب ولا نكس ، والنكس : الرجل الضعيف والمقصر عن غاية النجدة والكرم .

(٦) وفي نسخة ثانية : شواهد .

شهابان في الهيجاء نعامان في الثوى (١)
يدان لبسط المكرمات نماهما

تسح المعالي منها وتصوب
إلى المجد فياض اليدين وهوب

وأشده ليلة المولد الكريم من هذه السنة :
أبى الطيف أن يعتاد إلا توهُماً
وقد كنت أستهديه لو كان ناعياً
ولكن خيال كاذب وطاعة
أياً صاحبي نجواي والحب لوعة
خذاً لفؤادي العهد من نفس الصبا
الأصنع الشوق الذي هو صانع
وإني ليد عوني السلو تَعَلُّلاً
لمن دمن أقرن إلا هواتف
عرفت بها سما الهوى وتنكرت
وذو الشوق يعتاد الربوع دوارساً
تؤوبني والليل بيني وبينه
أجدلي العهد القديم كأنه
عجبت لمرتاع الجوانح خافق
وبت أروييه كؤوس مدامعي
وصافحته عن رسم دار بذي الغضي
لعهدي بها تدني الظباء أو أنسا
أحن إليها حيث سار بي الهوى

فمن لي ألقى الخيال المسلماً
واستمطر الأجفان لو تمطر الظما (٢)
تعلل قلباً بالأمانى متيها
يبسح بشكواها الضمير المكتما
وطي النقا (٣) والبان من أجمع الحمى
فحبي مقيم أقصر الشوق أوسما
وتنهاني الأشجان أن أتقدما
تردد في أطلهن الترنما
فعجت على آياتها متوسماً
ويعرف آثار الديار توهُماً
وميض بأطراف الشايا تضرماً
أشار بتذكار العهد فأفهما
بكت له خلف الدجا وتبساً
وبات يعاطيني الحديث عن الحمى
لبست بها ثوب الشيبنة معلماً
وتطلع في آفاقها الغيد أنجماً
وأنجد رجلي في البلاد وأتتها

ولما استقر القرار ، واطمأنت الدار ، وكان من السلطان الاغتباط والاستبشار ، وكثر
الحنين إلى الأهل والتذكار ، أمر لاستقدام (٤) أهلي من مطرح اغترابهم من

(١) وفي نسخة ثانية : شهابان في الهيجا غامان في الندى .

(٢) وفي نسخة ثانية : لو تنقع الظما أي لو تروي العطشان .

(٣) وفي نسخة ثانية : ظبي النقا ، والنقا : الكتيب من الرمل .

(٤) وفي نسخة ثانية : استقدام .

سَنْطِينَةَ ، بعث إليهم من جاء بهم إلى تلمسان . وأمر قائد الأسطول بالمرية ، فسار في إجازتهم في أسطوله ، واحتلوا بالمرية . واستأذنت السلطان في تلقيهم ، وقدمت بهم على الحضرة بعد أن هيأت لهم المنزل والبستان ودمنة الفلح ، وسائر ضروريات المعاش .

وكتبت إلى الوزير ابن الخطيب عندما قاربت الحضرة ، وقد كتبت إليه أستأذنه في القدوم ، وما اعتمده في أحواله .

سيدي ، قدمت بالطير اليماني ، على البلد الأمين ، واستضفت الرفاء إلى البنين ، ومُتعت بطول السنين . وصلتني البراءة المعربة عن كتب اللقاء ، ودنو المزار ، وذهاب البعد ، وقرب الديار ، وأستفهم سيدي عما عندي في القدوم على المخدم ، وأحب أن يستقدمني سيدي إلى الباب الكريم^(١) في الوقت الذي يجد المجلس الجمهوري لم يقض حجيجه ، ولم يُصخ^(٢) بهيجه ، ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم ، واختاره اليمن قبل اختيارهم والسلام .

ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن حملوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان ، واشتماله عليّ ، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر . وشممت منه رائحة الانقلاب مع استبداده بالدولة ، وتحكمه في سائر أحوالها ، وجاءني كتب السلطان أبي عبدالله صاحب بجاية بأنه استولى عليها في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة واستدعاني إليه ، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه . وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء للمودة ، فارتعض^(٣) لذلك ، ولم يسعه إلا الاسعاف ، فودّع وزود وكتب لي مرسوماً بالتشيع من إملاء الوزير ابن الخطيب نصه :

هذا ظهير كريم ، تضمن تشييعاً وترفيحاً وإكراماً وإعظاماً ، وكان لعمل الصنيع ختاماً ، وعلى الذي أحسن تماماً ، وأشاد به للمعتمد به بالاغتباط الذي راق قساماً^(٤) ، وتوفر إقساماً ، وأعلق بالقبول أن نوى بعد القوى رجوعاً وآثر على الظعن المزمع مقاماً .

(١) وفي نسخة ثانية : والحق ان يتقدم سيدي الى الباب الكريم .

(٢) وفي نسخة ثانية : ولا صوح بهيجه .

(٣) بمعنى اشتد قلقه .

(٤) القسام : الجمال والحسن .

أمر به ، وأمضى العمل بمقتضاه ، وحبسه الأمير أبو عبدالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وأعلى ذكره ، للوليّ الجليس ، الحظيّ المكين ، المقرب الأودّ الابن الفقيه الجليل الصدر الأوحّد ، الرئيس العالم الفاضل الكامل ، الموقع الأمين الأظهر الأَرْضِيّ ، الأخلص الأصفى ، أبي زيد عبد الرحمن ابن الشيخ الجليل ، الحسيب الأصيل ، المرفع المعظم ، الصدر الأوحّد ، الأسمى الأفضل الموقر المبرور أبي يحيى ابن الشيخ الجليل الكبير ، الرفيع الماجد ، القائد الحظيّ ، المعظم الموقر ، المبرور المرحوم أبي عبدالله بن خلدون . وصله الله أسباب السعادة ، وبلغه من فضله أقصى الإرادة ، أعلن بما عنده ، أيده الله من الاعتقاد الجميل في جانبه المرفع ، وإن كان غنياً عن الإعلان ، وأعرب عن معرفة مقداره في الحسبان ، العلماء الرؤساء الأعيان ، وأشاد باتّصال رضاه عن مقاصده البرّة وشيّمه الحسان ، من لدنّ وفد على بابه ، وفادة الغرّ الراسخ البنيان ، وأقام المقام الذي عيّن له رفعة المكان ، وإجلال الشان ، إلى أن عزم على قصد وطنه ، أبلغه الله في ظلّ الأمن^(١) والأمان ، وكفالة الرحمن بعد الاغتياب المرّبي على الخير بالعيان ، والتمسك بجواره بجهد الإمكان ، ثم قبول عذره بما جبلت الأنفس عليه من الحنين إلى المعاهد والأوطان . بعد أن لم يدخر عنه كرامة رفيعة ، ولم يحجب عنه وجه صنيعه ، فولاه القيادة والسيادة^(٢) وأحلّه جليساً معتمداً بالإستشارة ، ثم أصبحه تشييعاً يشهد بالفضانة بفراقه ، ويجمع له برّ الوجاهة من جميع آفاقه ، ويجعله بيده رثيمة خنصر^(٣) ووثيقة سامع أو مُبْصِر ، فهما لوى أخدعه إلى هذه البلاد بعد قضاء وطره ، وتمّليه من نعمة سفره ، أو نزع به حسن العهد وحنين الودّ ، فصدّر العناية به مشروح ، وباب الرضا والقبول مفتوح ، وما عهد من الحظوة والبرّ ممنوح . فما كان القصد في مثله من أمجاد الأولياء التحول ، ولا الاعتقاد الكريم التبدّل ، ولا الزمن الأخير أن ينسخ الأوّل . على هذا فليطو ضميره ، وليردّ ما شاء نميره ، ومن وقف عليه من القواد والأشياخ والخدّام برّاً وبحراً على اختلاف الخطط والرتب ، وتباين الأحوال والنسب ، أن يعرفوا حق

(١) وفي نسخة ثانية : اليمن .

(٢) وفي نسخة ثانية : السفارة .

(٣) رثيمة خنصر : الخيط الذي يشد في الاصبع لتستذكر به الحاجة .

هذا الاعتقال في كلّ ما يحتاج إليه من تشييع ونزول ، وإعانة وقبول ، واعتناء
موصول إلى أن يكمل الغرض ، ويؤدي من امثال هذا الأمر الواجب المفترض بحول
الله وقوته .

وكتب في التاسع عشر من جمادي الأولى عام ست وستين وسبعائة .

وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان ، ونصّها «صح هذا» .

* (الرحلة من الأندلس الى بجاية وولاية الحجابة بها
على الاستبداد) *

كانت بجاية ثغراً لأفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين . ولما صار أمرهم
للسلطان أبي يحيى منهم ، واستقلّ بملك أفريقية ، ولّى في ثغر بجاية ابنه الأمير
أبوزكريا ، وفي ثغر قسنطينة ابنه الأمير أبا عبدالله . وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان
والمغرب الأوسط ينازعونه في أعماله ، ويحجرون الكتاب على بجاية^(١) ، ويحلبون
على قسنطينة إلى أن تمسك السلطان أبو بكر بدمّة من السلطان أبي الحسن ملك
المغرب الأوسط والأقصى من بني مرين ، وله الشفوف على سائر ملوكهم . وزحف
السلطان أبو الحسن إلى تلمسان فأخذ بمخنقتها ستين أو أزيد ، وملكها عنوة وقتل
سلطانها أبا تاشفين وذلك سنة سبع وثلاثين وسبعائة . وخفّ ما كان على الموحدين من
أمر بني عبد الواد ، واستقامت دولتهم . ثم هلك أبو عبدالله ابن السلطان أبي يحيى
بقسنطينة سنة أربعين وسبعائة ، وخلف سبعة من الأولاد ، كبيرهم أبوزيد عبد
الرحمن ، ثم أبو العباس أحمد ، فولّى الأمير أبوزيد مكان أبيه في كفالة نبيل
مولاهم . ثم توفي الأمير أبوزكريا ببجاية سنة ست وأربعين وسبعائة ، وخلف ثلاثة
من الأولاد ، كبيرهم أبو عبدالله محمد ، وبعث السلطان أبو بكر ابنه الأمير أبا حفص
عليها ، فقال أهل بجاية إلى الأمير أبي عبدالله بن زكريا ، وانحرفوا عن الأمير عمّر
وأخرجوه . وبادر السلطان فرقع هذا الخرق بولاية أبي عبدالله عليهم كما طلبوه . ثم
توفي السلطان أبو بكر منتصف سبع وأربعين وسبعائة وزحف أبو الحسن إلى أفريقية

(١) وفي نسخة ثانية : ويحجرون العساكر على بجاية .

فملكها ، ونقل الأمراء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب . وأقطع لهم هنالك إلى أن كانت حادثة القيروان ، وخلع السلطان أبو عنان أباه . وارتحل من تلمسان إلى فاس ، فنقل معه هؤلاء الأمراء أهل بجاية وقسنطينة ، وخلطهم بنفسه ، وبالغ في تكريمهم . ثم صرفهم إلى ثغورهم الأمير أبا عبدالله أولاً ، وإخوته من تلمسان ، وأبا زيد وإخوته من فاس ليستبدوا بثغورهم ، ويؤخذوا الناس عن السلطان أبي الحسن ، فوصلوا إلى بلادهم وملكوها بعد أن كان الفضل ابن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين ، فانتزعوها منه . واستقر أبو عبدالله ببجاية حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة ، وزحف أبو عنان إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة فهزم ملوكها من بني عبد الواد وأبادهم ، ونزل المدينة وأطل على بجاية ، وبادر الأمير أبو عبدالله للقائه ، وشكا إليه ما يلقاه من زيون^(١) الجند والعرب ، وقلّة الجباية . وخرج له عن ثغر بجاية فملكها ، وأنزل عمّاله بها ، ونقل الأمير أبا عبدالله معه إلى المغرب ، فلم يزل عنده في كفاية^(٢) وكرامة . ولما قدمت على السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعمئة واستخلصني منه ، نبّضت عروق السابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبدالله ، واستدعاني لصحابه ، فأسرعت وكان السلطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك . ثم كثر المنافسون ورفعوا إلى السلطان وقد طرقة مرض أرجف له الناس ، فرفعوا له أن الأمير أبا عبدالله اعترم على الفرار إلى بجاية ، وأني عاقدته على ذلك ، على أن يولّيني حجابته ، فانبعث له السلطان وسطا بنا واعتقلني نحواً من سنتين إلى أن هلك . وجاء السلطان أبو سالم واستولى على المغرب ، وولّيت كتابة سرّه ، ثم نهض إلى تلمسان وملكها من يد بني عبد الواد ، وأخرج منها أبا حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن ، ثم اعترم على الرجوع إلى فاس ، وولّى على تلمسان أبا زيّان محمد بن أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي تاشفين وأمدّه بالأموال والعساكر من أهل وطنه ليدافع أبا حمّو عن تلمسان ويكون خالصة له ، وكان الأمير أبو عبدالله صاحب بجاية كما ذكرناه ، والأمير أبو العباس صاحب قسنطينة بعد أن كان بنو مرين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواماً تباعاً .

(١) زيون : بمعنى الحرب .

(٢) وفي نسخة ثانية : حفاية والحفاية المبالغة في الإكرام .

ثم خرج لبعض مذاهبه إلى بونة ، وترك أخاه أبا العباس بها فخلعه ، واستبد بالأمر وخرج إلى العساكر المحمّرة عليها من بني مرين ، فهزمهم وأثنى فيهم . ونهض السلطان إليه من فاس سنة ثمان وخمسين وسبعمئة فتبرأ منه أهل البلد وأسلموه ، فبعثه إلى سبتة في البحر ، واعتقله بها حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين وسبعمئة أطلقه من الاعتقال وصحبه إلى دار ملكه ووعدته برده بلده عليه .

فلما ولي أبو زيان على تلمسان أشار عليه خاصته ونصحاؤه بأن يبعث هؤلاء الموحدّين إلى ثغورهم ، فبعث أبا عبدالله إلى بجاية وقد كان ملكها عمّه أبو اسحق صاحب تلمسان^(١) ، ومكفول بن تافراكين من يد بني مرين . وبعث أبا العباس إلى قسنطينة وبها زعيم من زعماء بني مرين . وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها فملكها لوقته ، وسار الأمير أبو عبدالله إلى بجاية فطال إجلاله عليها ، ومعاودته حصارها . وألح أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي اسحق . وقد كان لي المقام المحمود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم . وتولّيت كبر ذلك مع خاصّة السلطان أبي سالم وكتاب أهل مجلسه ، حتى تمّ القصد من ذلك ، وكتب لي الأمير أبو عبدالله بخطّه عهداً بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه ، ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه في ذلك أحد . وكان لي أخ صغير اسمه يحيى^(٢) ، أصغر مني ، فبعثه مع الأمير أبي عبدالله حافظاً للرسم ، ورجعت مع السلطان إلى فاس . ثم كان ما قدّمته من إنصرافي إلى الأندلس والمقام بها إلى أن تنكر الوزير ابن الخطيب وأظلم الجوّ بيني وبينه .

وبينا نحن في ذلك ، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبدالله على بجاية من يدعمه في رمضان سنة خمس وستين وسبعمئة وكتب لي الأمير أبو عبدالله يستقدمني ، فاعتزمت على ذلك ، ونكر السلطان أبو عبدالله ابن الأحمر ذلك مني ، لا لظنه سوى ذلك^(٣) ، إذ لم يطلع على ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب ، فأمضيتُ

(١) وفي نسخة ثنية : صاحب تونس وهي أصح لأنه كان على تلمسان يومئذ أبو زيان محمد بن أبي سعيد .

(٢) هو يحيى بن خلدون وقد قتل سنة ٧٨٠ بأمر من أبي تاشفين بن أبي زيان . كان مؤرخاً وأديباً ، له كتاب « بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد » .

(٣) وفي نسخة ثانية : لا يظنه لسوى ذلك .

حرم ، ووقع منه الإسعاف والبر والألطف . وركبت البحر من مرسى المريّة ،
منتصف ست وستين وسبعائة ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع ، فاحتفل السلطان
صاحب بجاية لقدمي ، وأركب للقائي ، وتهافت أهل البلد عليّ من كل أوب
يمسحون أعطافي ، ويقبلون يديّ ، وكان يوماً مشهوداً .

ثم وصلت إلى السلطان فحيّا وفديّ ، وخلع وحمل ، وأصبحت من الغد ، وقد أمر
السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي ، واستقلت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدي
في سياسة أموره وتدبير سلطانه ، وقدّمني للخطابة بجامع القصبّة وأنا مع ذلك ،
عاكفٌ بعد انصرافي من تدبير الملك غدوةً ، إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع
القصبّة ، لا أنفك عن ذلك .

ووجدتُ بينه وبين ابن عمّه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة فتنة ، أحدثها
المشاحة في حدود الأعمال من الرعايا والعمّال ، وشبّت نار هذه الفتنة بعرب أوطانهم
من الزواودة من رياح ، تنفيقاً لسوق الزبون يميرون^(١) به أموالهم ، فكانوا في أهمّ
شقة بجمع بعضهم لبعض فالتقوسنة ست وستين وسبعائة بفدحيوه^(٢) ، وانقسم
العرب عليها ، وكان يعقوب بن عليّ مع السلطان أبي العباس ، فانهزم السلطان أبو
عبدالله ورجع إلى بجاية مفلولاً بعد أن كنتُ جمعت له أموالاً كثيرة أنفق جميعها في
العرب ، ولما رجع وأعوذته النفقة ، خرجت بنفسي إلى قبائل البربر بالجبال^(٣)
المتنعين من المغارم منذ سنين ، فدخلت بلادهم واستبحت حماهم ، وأخذت رهنهم
على الطاعة ، حتى استوفيت منهم الجباية ، وكان لنا في ذلك مددٌ وإعانة . ثم بعث
صاحب تلمسان إلى السلطان يطلب منه الصّهر ، فأسغفه بذلك ليصل يده به على
ابن عمّه ، وزوجه إبنته ، ثم نهض السلطان أبو العباس سنة سبع وستين وسبعائة
وجاس أوطان بجاية ، وكاتب أهل البلد ، وكانوا وجلين من السلطان أبي عبدالله
لما كان يرهف الحدّ لهم ، ويشدّ وطأته عليهم ، فأجابوه إلى الإنحراف عنه . وخرج
الشيخ أبو عبدالله يروم مدافعته ، ونزل جبل إيزو معتصماً به ، فبيّته السلطان أبو
العبّاس في عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد من رياح بمكانه ذلك ،

(١) وفي نسخة ثانية : يمترون به أموالهم : أي يستخرجونها .

(٢) وفي نسخة ثانية : بفرجيوه .

(٣) وفي نسخة ثانية : إلى قبائل البربر بجبال بجاية .

ياغراء ابن صخر وقبائل سدويكش ، وكبسه في محيّمه وركض هارباً ، فلحقه وقتله ، وسار إلى البلد بمواعدة أهلها . وجاءني الخبر بذلك ، وأنا مقيم بقصبة السلطان بقصوره ، وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر والبيعة لبعض أبناء السلطان ، فتفاديتُ من ذلك ، وخرجت إلى السلطان أبي العباس فأكرمني وحيّاني^(١) ، وأمكنته من بلده ، وأجرى أحوالها^(٢) كلها على معهودها . وكثرت السعاية عنده فيّ والتحذير من مكاني ، وشعرت بذلك ، فطلبت الإذن في الإنصراف بعهد كان منه في ذلك ، فأذن لي بعدما أبي ، وخرجت إلى العرب ، ونزلت على يعقوب بن عليّ . ثم بدا له الشأن في أمري ، وقبض على أخي واعتقله ببونة . وكبس بيوتنا ، فظنّ بها ذخيرة وأموالاً فأخفق ظنّه . ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن عليّ وقصدت بَسْكَرَةَ^(٣) لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مَزْنِي ، وبين أبيه ، فأكرم وبرّ وساهم في الحادث بماله وجاهه والله أعلم .

* (مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان) *

كان السلطان أبو حمو قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي عبدالله صاحب بجاية بالصّهر في إبتته ، وكانت عنده بتلمسان . فلما بلغه مقتل أبيها واستيلاء السلطان أبي العباس ابن عمّه صاحب قُسْنَطِينَةَ على بجاية ، أظهر الامتعاض لذلك ، وكان أهل بجاية قد توجّسوا الخيفة من سلطانهم يارهاف حدّه ، وشدّة بطشه . وسطوته فانحرفوا عنه باطناً وكاتبوا ابن عمّه بقسنطينة كما ذكرناه . ودسّوا للسلطان أبي حمو بمثلها يرجون الخلاص من صاحبهم بأحدهما . فلما استولى السلطان أبو العباس وقتل ابن عمّه رأوا أن جرحهم قد اندمل ، وحاجتهم قد قضيت ، فاعصوبوا عليه ، وأظهر السلطان أبو حمو الامتعاض للواقعة يسرّ منها

(١) وفي نسخة ثانية : حباني .

(٢) وفي نسخة ثانية : احوالي .

(٣) بَسْكَرَةَ : بلد بالجزائر كانت قاعدة بلاد الزاب (معجم البلدان) .

حسواً في ارتقاء^(١) ، ويجعله ذريعة للاستيلاء على بجاية ، لِمَا كان يرى نفسه كفوها بعدده وعديده ، وما سلف من قومه في حصارها ، فسار من تلمسان يجرّ الشوك والمدر^(٢) ، خيم بالرشّة من ساحتها ، ومعه أحياء زغبة بجموعهم وطمعائهم من لدن تلمسان إلى بلاد حُصَيْن من بني عامر وبني يعقوب وسُوَيْد والديالم والعطاف وحُصَيْن .

وانحجر أبو العباس بالبلد في شردمة من الجند أعجله السلطان أبو حمّو عن استكمال الحشد ، ودافع أهل البلد أحسن الدفاع ، وبعث السلطان أبو العباس عن أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد عمّ أبي حمّو من قُسْطَيْنَة ، كان معتقلاً بها ، وأمر مولاه وقائد عسكره بشيراً أن يخرج معه في العساكر ، وساروا حتى نزلوا بني عبد الجبار قبالة معسكر أبي حمّو ، وكانت رجالات زغبة قد وجموا من السلطان ، وأبلغهم النذير أنّه إن ملك بجاية اعتقلهم بها ، فراسلوا أبا زيّان وركبوا إليه ، واعتقدوا معه وخرج رجل البلد بعض الأيام من أعلى الحصن ، ودفَعوا شردمة كانت بحمّرة بإزائهم ، فاقتلوا خبيّاءهم ، وأسهلوا من تلك العقبة إلى بسيط الرشّة ، وعانينهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا ، وتتابع الناس في الإنجفال حتى أفردوا السلطان في محيّمه فحمل رواحله وسار ، وغصّت الطرق بزحامهم ، وتراكم بعضهم على بعض ، فهلك منهم عوالم . وأخذهم سكّان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية ، وقد غشيم الليل ، فتركوا أزوادهم ورحالهم . وخلص السلطان ومن خلص منهم بعد غصّ الريق ، وأصبحوا على منجاة . وقذفت بهم الطرق من كل ناحية إلى تلمسان ، وكان السلطان أبو حمّو قد بلغه خبر خروجي من بجاية ، وما أحدثه السلطان بعدي في أهلي ومخلفي ، فكتب إليّ يستقدمني قبل هذه الواقعة ، وكانت الأمور قد اشتبهت ، فتفاديت بالأعدار ، وأقمت بأحياء يعقوب بن عليّ . ثم ارتحلت إلى بسكرة فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزنيّ . فلَمَّا وصل السلطان أبو حمّو إلى تلمسان وقد جزع للواقعة ، أخذ في استئلاف قبائل رياح ليجلب بهم مع عساكره على أوطان بجاية ، وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستباعتهم ، ومُلْك

(١) الأصح حسواً في ارتقاء : أي يشرب اللبن خفية ، ويتظاهر بأنه يأخذ الرغوة ، وهو مثل يضرب بمن يظهر أمراً وهو يريد غيره .

(٢) مثل عام ويعني به كثرة جيشه .

زمامهم ، ورأى أن يعول عليّ في ذلك ، واستدعاني لحجابه وعلامته ، وكتب
بخطّه مدرجة في الكتاب نصّها :

الحمد لله على ما أنعم ، والشكر لله على ما وهب ، ليعلم الفقيه المكرّم أبو زيد عبد
الرحمن بن خلدون ، حفظه الله ، انك تصل إلى مقامنا الكريم بما خصصناكم به
من الرتبة المنيعة ، والمنزلة المنيفة ، وهو قلم خلافتنا ، والانتظام في سلك أوليائنا ،
وقد أعلمناكم بذلك ، وكتب بخطّ يده عبدالله المتوكل على الله ، موسى بن يوسف
لطف الله به وخار له .

وبعده بخطّ الكاتب ما نصّه : بتاريخ السابع عشر من شهر رجب الفرد الذي من
عام تسع وستين وسبعائة ، عرفنا الله خيره . ونصّ الكتاب الذي هذه مُدرجته ، وهو
بخطّ الكاتب : « أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد ووالى رعايتكم ، إنا قد ثبت عندنا ،
وصحّ لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا ، والانقطاع إلى جنابنا ، والتشيع
قديماً وحديثاً لنا ، مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم ، ومعارف
فُقمتم فيها نظراءكم ، ورسوخ القَدَم في الفنون العلميّة والآداب العربيّة .

وكانت خطّة الحجابة بابنا العليّ أسماه الله إلى درجات أمثالكم ، وأرفع الخطط
لنظرائكم ، قُرباً منّا ، واختصاصاً بمقامنا ، وإطلاعا على خفايا أسرارنا ، آثرناكم
بها إيثاراً ، وقدّمناكم لها اصطفاً واختياراً ، فاعملوا على الوصول إلى بابنا العليّ
أسماه الله لما لكم فيه من التنويه ، والقدر النبیه ، حاجباً لعلّيّ بابنا ، ومستودعاً
لأسرارنا ، وصاحباً لكريم علامتنا ، إلى ماشاكل ذلك من الانعام العميم ، والخير
الجسيم ، والاعتناء والتكريم . لا يشارككم مشارك في ذلك ، ولا يزاكمكم أحد ،
وإن وجد من أمثالكم فأعملوه وعولوا عليه ، والله تعالى يتولّىكم ، ويصل
سراءكم ، ويوالي احتفاءكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وتأدّت إليّ هذه الكتب السلطانيّة على يد سفير من وزرائه جاء إلى أشياخ
الزواودة في هذا الغرض ، فقامت له في ذلك أحسن قيام وشايعة أحسن مشايعة ،
وحملتهم على إجابة داعي السلطان والبدار إلى خدمته . وانحرف كبراؤهم عن
السلطان أبي العباس إلى خدمته ، والاعتمال في مذاهبه ، واستقام غرضه من
ذلك ، وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ، وقدم عليّ ببسكرة ، فبعثته إلى
السلطان أبي حمّو كالثائب عنيّ في الوظيفة ، متفادياً عن تجشّم أهوالها بما كنت

نزعت عن غواية الرتب . وطالَ عليّ إغفال العلم ، فأعرضتُ عن الخوض في أحوال الملوك ، وبعثتُ الهمة على المطالعة والتدريس ، فوصل إليه الأخ فاستكفى به في ذلك ، ودفعه إليه .

ووصلني مع هذه الكتب السلطانية كتاب رسالة من الوزير أبي عبدالله بن الخطيب من غرناطة يتشوق إليّ ، وتأدى إلى تلمسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر ، فبعث إليّ من هنالك ونصه :

بنفسي وما نفسي عليّ رخيصة (١)
حبيبٌ نأى عني وصمّ لا أنثني
وقد كان همُّ الشيب لا كان كائناً (٢)
شرعتُ له من دمع عينيّ مورداً
وأرعيتُهُ من حُسنِ عهدي حمية (٣)
حلفتُ على ما عنده لي من رضى
وإني على ما نالني منه من قلى
سألت جنوبي فيه نقيباً عرسه
إذا ما دعا داعٍ من القوم بإسمه
وتالله ما أصغيتُ فيه لعاذلٍ
ولا استشعرتُ نفسي برحمة عابدٍ
ولا شعرتُ من قلبه بتشوقٍ

فِيْتَرَلَنِي عَنْهَا الْعِيَّاسُ بِأَثْمَانِ
وَرَأْسِ سِهَامِ الْبَيْنِ عَمْدًا فَأُضْنَانِي (٢)
فَقَلْدُ آدِنِي مَا تَرَحَّلَ هَمَّانِ
فَكَدَّرَ شَرْبِي بِالْفِرَاقِ وَأُظْمَانِي
فَأَجْدَبَ آمَالِي وَأَوْحَشَ أَرْمَانِي
قِيَاسًا بِمَا عِنْدِي فَأَحْنَتْ أَيْمَانِي
لَأَشْتَاقُ مِنْ لُقْيَاهُ نُبْعَةَ ظَمَّانِ
فَقِسْتُ بِحَرِّ الشُّوقِ جَنًّا سُلَيْمَانَ
وَوَثِبْتُ وَمَا اسْتَبْتِ شَيْمَةَ هَيْمَانَ
تَحَامَيْتُهُ حَتَّى ارْعَوَى وَتَحَامَانِي
تَظَلَّلُ يَوْمًا مِثْلَهُ عَبْدٌ رَحْمَنِ
تَخَلَّلَ مِنْهَا بَيْنَ رُوحٍ وَجُثْمَانِ

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج ، وأما الصبر فسل به آية درج ، بعد أن تجاوز اللوى (٥) والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج ، وأني بالصبر على إبر الزبر (٦) لا بل الضرب الهبر ، ومطاولة اليوم والشهر ، تحت حكم

(١) وفي نسخة ثانية : بهينة .

(٢) وفي نسخة ثانية : فأحمني وأحمى الصيد : رماه فقتله في مكانه .

(٣) وفي نسخة ثانية : كافياً .

(٤) وفي نسخة ثانية : جميمه .

(٥) اللوى : ما التوى من الرمل .

(٦) وفي نسخة ثانية : الدبر أي الزنانير .

القهر ، وَمَنْ لِلعين أن تسلو سلو القصر عن إنسانها المُبْصِر ، أو تذهل ذهول الزاهد
عن سرها الرائي والمشاهد ، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صَلَحَتْ ، فكيف حاله إن
رَحَلَتْ عنه أو تَرَحَّتْ ، وإذا كان الفراق هو الحِمَامُ الأوَّل ، فعلام المعول أعيتُ
مُراوِضَةُ الفراق على الرواق^(١) ، وكادت لوعة الاشتياق أن تفضي إلى السياق^(٢) .

تركتُموني بعد تشييعكم أوسعُ أمر الصبر عَصِياناً
أقرعُ سني ندماً تارة وأستمیحُ الدَّمَعَ أحياناً

وربما تعلت بغشيان المعاهد الخالية ، وجددت رسوم الأسي بمباكرة الرسوم البالية ،
أسائل نون النوى^(٣) عن أهليه ، وهيامُ المرقد المهجور عن مصطليه ، وثناء الأثافي
المثلثة من منازل الموحدين ، وأحارُ بين تلك الأطلال حيرة الملحدین . لقد ضللتُ إذا
وما أنا من المهتدين ، كَلِفْتُ لعمر الله بسائل عن جفوني المورقة ، ونائم عن
شجون^(٤) المجتمعة المتفرقة ، ظعن عن ملال ، لا متبرماً بشرحال^(٥) وكدر الوصل
بعد صفائه ، وضرَّح النَّضْلُ بعد عهد وفائه .

أقبل اشتياقاً أيها القلبُ إننا رأيتك تُصْفي الودَّ من ليس جازيا
فها أنا أبكي عليه بدم أسأله ، وأندبُ في ربع الفراق آسى له ، وأشكو إليه حال
قلبٍ صدَّعَهُ ، وأودعه من الوجد ما أودعه ، لما خدعه ، ثم قلاه وودَّعه ، وأنشِقُ
رِيَّاه أنف ارتياح قد جدعه ، واستعديه على ظلم ابتدَّعَهُ .
« خليلي فيما عشتما هـل رأيتما قتيلاً بكى من حبِّ قاتله قبلي^(٦) »

فلولا عسى الرجاء ولعله ، لا بل شفاعة المحلِّ الذي حلَّه ، لنشرت ألوية العتب ،
وبشتُ كتائبها كميناً في شعاب الكتب ، تهز من الألفات رماحاً هزَّ الأسنَّة^(٧) وتوترت
من النونات أمثال القسي المُرْتنة ، وتقود من مجموع الطرس والنقس بُلْقاً تُردي في

(١) وفي نسخة ثانية : عمل الرّاق .

(٢) السياق : بداية مفارقة الروح .

(٣) النوى : الحفير حول الخيمة يمنع عنها المسيل .

(٤) وفي نسخة ثانية : عن همومي .

(٥) وفي نسخة ثانية : لا متبرماً منا بشرّ خلال .

(٦) هذا البيت « لجميل بثينة » وهو جميل بن عبدالله بن معمر العُدري .

(٧) وفي نسخة ثانية خزر الأسنَّة .

الأعنة ، ولكنه أوى إلى الحرم الأمين ، وتفتياً ظلال الجوار المؤمن من معرة الغوار
 عن الشمال واليمين ، حرم الخلال المزنية ، والظلال اليزنية ، والهيم السنية ،
 والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنية ، حيث الرغد الممنوح ، والطير الميامن يزجر
 لها السنوح والمثوى الذي إليه مها تقارع الكرام على الضيفان ، حول جوابي الجفان ،
 فهو الجنوح .

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً
 ومن حلّ بتلك المثابة فقد اطمأن جنبه ، وتعمد بالعفو ذنبه ، (والله در القائل) :
 فوحقه لقد انتدبت لوصفه بالبخل لولا أن حمصاً داره
 بلد متى أذكره هيج^(١) لوعتي وإذا قدحت الرند طار شراره

اللهم غفراً ، وأين قراره النخيل ، من مثنوى الألف البخيل ، ومكذبة المخيل ،
 وأين نائية هجر ، من متبرء ممن الأحد وفجر^(٢)

من أنكر غيث مسودة^(٣) في الأرض ينوء بمخلفها
 فبنان بني مزن مؤن تنهل بلطف مصرفها
 مؤن مذحل بسكرة يوماً نطقت بمصحفها
 شكرت حتى ببارتها وبمعناها وبأخرفها
 ضحكت بأبي العباس من الأيام ثنايا زخرفها
 وشكرت الدنيا متى عرفت مزن فيها بمعرفها^(٤)

بل نقول لا محل للولد^(٥) ، لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حلُّ بهذا البلد ، لقد حلَّ
 بينك عرى الجلد ، وخلد الشوق بعدك يا ابن خلدون في الصميم من الخلد ، فحياً
 الله زمانا شفيت في قربك زمانته^(٦) ، واحتليت في ذروة مجدك جمانته ، ويا من
 لمشوق لم يفض من طول خلّتك لبانته^(٧) ، وأهلاً بروض أضلت شباب معارفك

(١) وفي نسخة ثانية : تهج .

(٢) وفي نسخة ثانية : وابن نائية هجر ، من متبواً من الأحد وفجر .

(٣) وفي نسخة ثانية : من أنكر غيثاً منشؤه .

(٤) وفي نسخة ثانية : وتنكرت الدنيا حتى عرفت منه بمعرفها .

(٥) وفي نسخة ثانية : يا محلّ الولد .

(٦) بمعنى العامة .

(٧) وفي نسخة ثانية : وقضيت في مرعى خلّتك لبانته .

بانته ، فحائمته بعدك تندبُ فيساعدُها الجُنْدُبُ ، ونواسمه ترقّ فتتغاشى ، وعشبانه
تتهافت وتتلاشى ، وأدواحه في ارتباك ، وحائمته في مأتم ذي اشتباك ، كأن لم تكن
قرهالات قبابه ، ولم يكن أنسك شارع بابيه ، إلى صفوة الظرف ولبابه ، ولم يسبح
إنسانُ عينك^(١) في ماء شبابه ، فلهفأ عليك من درّة اختلستها يدُ النوى ، ومطل
بردّها الدهر ولوى ، ونعق غراب بينها في ربوع الهوى ، ونطق بالزجر فما نطق عن
الهوى ، وبأيّ شيء يُعتاض منك أيتها الرّياض ، بعد أن طما نهرك الفيّاض ،
وفهقت^(٢) الحياض ، ولا كان الشانيء المشنوء والحرب المهنوء من قطع ليلٍ أغار على
الصبح فاحتمل ، وشارك في الأمر الناقة والحمل ، واستأثر جنحه بيدر النادي لمّا
كمل ، فشرّع^(٣) الشراع فراع ، وواصل الإسراع ، فكأنّا هو تمساح النيل ضايق
الأحباب في البرهة ، واختطف بهم من الشطّ نزهة العين ، وعين التزهة ، ولجّج
بها ، والعيون تنظر ، والعبر عن الاتباع^(٤) تخطر ، فلم يقدر إلا على الأسف ، والتماح
الأثر المنتسف ، والرجوع بملء العيبة من الخيبة ، ووفر الحبرة^(٥) من الحسرة ، إنّا
نشكو إلى الله البثّ والحزن ، ونستمطر منه المزن^(٦) ، وبسيف الرجاء نصول ، اذا
شرّعت لليأس أسنةً ونُصول .

ما أقدر الله أن يدني على شحطٍ من دارة الحزن من دارة صول

فإن كان كلام^(٧) الفراق رغبياً ، لمّا نويت مغيباً ، وجلّلت الوقت الهنيّ تشغيلاً ،
فلعلّ الملتقى يكون قريباً ، وحديثه يروى صحيحاً غريباً . إيه سيدي كيف حال تلك
الشمائل المزهرة المخايل ، والشيم الهامية القديم ؟ هل يمرّ ببالها من راعت بالبعد باله ،
وأخمدت بعاصف البين ذباله ؟ أو ترثي لموق^(٨) شأنها سكّب لا يفتر ، وشوق

(١) بؤبؤ العين .

(٢) امتلأت .

(٣) وفي نسخة ثانية : نشر الشراع فراع .

(٤) وفي نسخة ثانية : الغمر عن الاتباع يحظر . والغمر : الماء الكثير .

(٥) وفي نسخة ثانية : الجسرة أي الناقة .

(٦) المزن : السحاب .

(٧) وفي نسخة ثانية : كَلَّم وهو الجرح .

(٨) وفي نسخة ثانية : لشون .

يُبْتُ حبال المشوق^(١) ويُبْتُرُ وُضْنِي تَقْصُرُ عن حله الفائقة صَنْعَاءَ وَتَسْتُرُ^(٢) والأمر أعظم والله يَسْتُرُ ، وما الذي يَضِيرُكَ صير من بلفح السموم يَضِيرُكَ^(٣) ، بعد أن أَضْرَمْتَ وَأَشْعَلْتَ وَأَوْقَدْتَ ، وَجَعَلْتَ ، وَفَعَلْتَ فِعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ ، إن تترفق بدماء ، أو تَرُدُّ بِنُغْبَةِ ماء ، أَرْمَاقَ ظِمَاءَ ، وتتعاهد المعاهد بتحيّة عليها شد أنفاسك ، أو تنظر إلينا من البعد بِمُقْلَةٍ حَوْرَاءَ من بِيَاضِ قِرْطَاسِكَ وسواد أنفاسك ، فربّما قنعت الأنفس المحبّة بخيال يزور ، وتعلّلت بنوالٍ مندور ، ورضيت لما لم تصدّ العنقاء بزُرُور .

يا مَنْ تَرَحَّلَ والرياحُ لأجلِهِ تشتاقُ أن يعبقَ شَذَارِيَّاهَا^(٤)
تحيّا النفوسُ إذا بَعَثَتْ تَحِيَّةً وإذا قَرَأْتَ تَرَى وَمَنْ أَحْيَاهَا^(٥)

ولئن أحييت بها فيما سلف نفوسنا تَفْدِيكَ ، والله إلى الخير يهديك ، فنحن نقولُ مَعَشَرَ مُودِيكَ « ثنّ ولا تجعلها بيضة الدّيك^(٦) » وعذراً فإني لم أجترئ على خطابك بالفقرّة الفقيرة ، وأدلتُ لديّ محرابك برفع العقيرة ، عن نشاطٍ بعث مرسومه^(٧) ولا اغتباط بالأدب إلاّ بسياسة تسوسه ، أو في على الفترة ناموسه وإنما هو نفاق نفثة المصدور^(٨) ، وهناء الحرب المجدور ، وإن تعلّل به مُخَارِقُ ، فثمّ قِيَّاسِ فارق ، والذي هيأ هذا القدر وسيّبه ، وسهّل المكره إليّ منه وحبّبه ، ما اقتضاه الصنوّ يحيى ، أمدّ الله حياته ، وحرس من الحوادث جهاته^(٩) ، من خطاب ارتشيف لهذه القريحة العديمة بلالتها ، بعد أن رَضِي غلالتها ، ورسخ إلى الصهر الحضرميّ سلالتها ، فلم يسع إلاّ إسعافه ، بما أعافه ، فأملت مجيباً ما لا يعدّني يوم الرهان

- (١) وفي نسخة ثانية : حبال الصبر .
(٢) صنعاء : اليمن وتستر مدينة بخوزستا وقد ضبطها ابن خلدون تَسْتُرُ وقد ضبطها ياقوت الحموي تُسْتُرُ (معجم البلدان) .
(٣) وفي نسخة ثانية : صين من لَفْحِ السموم نَضِيرُكَ .
(٤) وفي نسخة ثانية : يشتاق إن هبت شذاريها .
(٥) وفي نسخة ثانية : وإذا عزمت اقرأ « ومن أحيهاها » (الآية ٣٢ من سورته المائدة) .
(٦) وفي نسخة ثانية : « ثني ولا تجعلها بيضة لَدَيْكَ » وهو عجز بيت لشاربن بروهو : قد زرتنا زوره في النوم واحدة ثني ولا تجعلها بيضة لَدَيْكَ .
(٧) وفي نسخة ثانية : مرموسة والمرموس : المدفون .
(٨) وفي نسخة ثانية : (ولا اعتباط بالأدب تغري سياسته سوسة ، وانبساط أوحى إليّ على الفترة ناموسه ، وإنما هو اتفاق جرّته نفثة المصدور) .
(٩) وفي نسخة ثانية : ذاته .

يباً ، وأسمعته وجيباً لما ساجلت بهذه الترهات سحراً عجيباً ، حتى إذا ألف القلم
العريان فسحه (١) ، وجمع برذون الغزارة فلم أطق كنبحه ، لم أفق من غمرة غلوه
وموقف شلوه (٢) ، إلا وقد تحيز إلى فثك مغترأ بل معتراً ، واستقبلها ضاحكاً
مفترأ ، وهش لها برأ ، وإن كان من الخجل مُصفرأ ، وليس بأول من هجر ، في
التماس الوصل ممن هجر ، أو بعث التمر إلى هجر (٣) ، وأي نسب بيني اليوم وبين
زخرف الكلام ، وإجالة جياذ الأقلام ، في محاورة الأعلام ، بعد أن حال الجريض
دون القريض (٤) ، وشغل المريض عن التعريض ، وغلب الشوق الكسل ،
ونشرت (٥) الشعرات البيض كأنها الأسل ، تررع برقط الحيات ، سرب الحياة ،
وتطرق بذوات الغرر ، والشباب (٦) عند البيات ، والشيب الموت العاجل ، وإذا
ابيض زرع صبَّحتهُ المناجل ، والمعتبر الآجل ، وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده ،
حكم في الظاهر بإبعاده ، وأسره في ملكة عاده ، فأغض أبقاك الله ، وأسمح لمن
قصر عن المطمح ، وبالعين الكليلة فالمح ، واغتئم لباس ثوب الثواب ، واشف
بعض الجوى بالجواب .

تولأك الله فيما استضفت وملكت ، ولا بعدت ولا هلكت ، وكان لك أية
سلكت ، ووسمك من السعادة بأوضح السمات ، وأتاح لقاءك من قبل الممات ،
والسلام الكريم يعتمد حلال (٧) ولدي وساكن خلدي ، بل أخي وإن اتقت عتبه
وسيدي ، ورحمة الله وبركاته ، من محبة المشتاق إليه محمد بن عبدالله بن الخطيب
في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني من عام سبعين وسبعائة .
وكان تقدم منه قبل هذه الرسالة كتاب آخر إليّ ، بعث به إلى تلمسان فتأخر وصوله ،
حتى بعث به أخي يحيى عند وفادته على السلطان ، ونص الكتاب .
يا سيدي إجلالاً واعتداداً ، وأخي وداً واعتقاداً ، ومحلّ ولدي شفقةً حلت مني

(١) وفي نسخة ثانية : سبَّحه والسبح : الجري .

(٢) وفي نسخة ثانية : مثلوه .

(٣) المهجز : الهندي في الكلام والمهجر الثانية الفراق ، والحجر الثالثة : بلد بالهجرين .

(٤) الجريض : الغصة بالريق ، والقريض : الشعر .

(٥) وفي نسخة ثانية : ونصلت .

(٦) وفي نسخة ثانية : الشيات والشيات ج . شية ، وهي سواد في بياض أو بياض في سواد .

(٧) حلال : ج حلة : بيت .

فؤاداً . طال عليّ انقطاع أنبائك ، واختفاء أخبارك ، فرجوت أن أبلغ المُنيّة بهذا المكتوب إليك ، وتخرق الموانع دونك ، وإن كنت في مولاتك كالعاطش الذي لا يروى ، والآكل الذي لا يشبع ، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية ، والعوائد المألوفة ، فأنا بعد إنهاء التحيّة المطلوبة الروض بماء الدموع ، وتقدير الشوق القديم اللزيم ، وشكوى البُعاد الأليم ، والابتهاال في إتاحة القرب^(١) قبل الفؤت من الله ميسر العسير ، ومقرب البعيد ، أسألُ عن أحوالك سؤال أبعده الناس مجالاً^(٢) في مجال الخلوص لك ، وأشدّهم حرصاً على اتّصال سعادتك ، وقد اتصل بي في هذه الأيام ما جرى به القدر من تنوع الحال لديك ، واستقرارك ببسكرة على الغبطة بك باللجا إلى تلك الرياسة الزكيّة ، الكريمة الأب ، الشهيرة الفضل ، المعروفة القدر على البعد ، حرسها الله ملجأ للفضلاء ، ومحيماً لرجال العلياء ، ومهباً لطيب الثناء ، بحوله وقوته ، وقاربت كلّ ساح السلامة^(٣) فاحمدوا الله على الخلاص ، وقاربوا في معاملة الآمال ، وضنوا بتلك الذات الفاضلة عن المشاق ، وأبخلوا بها عن المتالف ، فمطلوب الحريص على الدّنيا خسيس ، والموانع الحافة جمّة ، والحاصل حسرة ، وما قلّ سعيٌ يحمد حاله العاقبة^(٤) ، والعاقل لا يستنكحه الاستغراق فيما آخره الموت ، إنّا ينال منه ضروريّ ، ومثلك لا يعجزه مع الناس^(٥) العافية ، إضعاف ما يُرجى به العمر من المأكّل والمشرب ، وحسبنا الله .

وإن تشوّفت لحال المحبّ تلك السيادة الفدّة والبنوة البرّة ، فالحال حال من جعل الزّمام بيد القدر ، والسير في مهيع الغفلة ، والسبح في تيار الشواغل ، ومن وراء الأمور غيبٌ محجوبٌ ، وأجلٌ مكتوبٌ ، يؤمّل فيه عادة الستر من الله ، إلا أن الضجر الذي تعلمونه حفظه الناس لما عجزت الحيلة ، وأعوز الناصر^(٦) وسدّت المذاهب ، والشأن اليوم شأن الناس فيما يقرب من الاعتدال .

(١) وفي نسخة ثانية : سؤال إتاحة القرب .

(٢) وفي نسخة ثانية : وفي نسخة ثانية محالاً والمِحَال : التدبير . وال « مجال الاولى تكون مصدرا والمجال الثانية : مكان الجولان .

(٣) وفي نسخة ثانية : وما كل وقت تتاح فيه السلامة .

(٤) وفي نسخة ثانية : وبأقل السعي تحصل حالة العاقبة .

(٥) وفي نسخة ثانية : مع التماس العاقبة .

(٦) وفي نسخة ثانية : المناص : الملجأ .

وفيما يرجع إلى السلطان تولاه الله على إضعاف ما باشر سيدي من الأغبياء في البرّ ،
ووصل سبب الالتحام والاشتمال مع الإقبال^(١) وما يُنتجُه متعوّد الظهور ،
والحمد لله .

وفيما يرجع إلى الأحباب والأولاد فعلى ما علمت الآن الشوق يخامر القلوب ، وتصوّر
اللّقاء مما يزهد في الوطن ، وحاضر النّعم سنّي الله ذلك على أفضل حال ، ويسره قبل
الارتحال من دار المِحَال .

وفيما يرجع إلى الوطن فأحوال النائم خصباً ، وهدنة وظهوراً على العدو ، وحسبك
فافتتاح حصن آش وبرغة^(٢) القاطعة بين بلاد الإسلام ، ووبرة^(٣) والعارين
وبيغة^(٤) وحصن السّهلة في عام . ثم دخل بلد إطريرة بنت إشبيلية عنوة ،
والاستيلاء على ما يناهز خمسة آلاف من السبي من فتح دار الملك ، وبلدة
قرطبة ، ومدينة جيّان عنوة في اليوم الأغرّ المحجّل ، وقتل المقاتلة ، وسبي الذرية ،
وتعفية الآثار حتى لا يُلمّ بها العمران ، ثم افتتاح مدينة رندة التي تلف جيّان في
ملاءتها ، دار التجرّ ، والرفاهية والبنات الحافلة ، والنعم الثّرة ، نسأل الله جلّ وعلا
أن يصل عوائد نصره ، ولا يقطع عنا سيب رحمته ، وأن ينفع بما أعان عليه من
السعي في ذلك والإعانة عليه .

ولم يتريد من الحوادث إلا ما علمتم من أخذ الله لنسب^(٥) السوء ، وخبث الأرض ،
المسلوب من أثر الخير ، عمر بن عبد الله ، وتحكّم شرّ الميته في نفسه ، وإتيان النّكال
على حاشيته ، والاستئصال على نفيه^(٦) ، والاضطراب مُستولٍ على الوطن بعده ،
إلا أنّ القرب على علّاته^(٧) لا يَرَجَحُه غيره .

(١) وفي نسخة ثانية : الاستقلال .

(٢) وفي نسخة ثانية حض آش وبرغة وهو أصحّ وحصص آش (Iznajar) في الجنوب الشرقي لخص
روطة (Rute) على ضفة رافد من روافد شنيل ، وقد حرّف فكتب في بعض النسخ (أشب) أما برغه
(Burgo) فتقع بين مالقة ورندة (نفع الطيب ٣٦٧/٦ - ٣٦٨) .

(٣) وفي نسخة ثانية : وبذة وهي الأصح لأن وبرة من قرى اليمامة وهي بعيدة عن بحثنا هذا أما وبذة
فهي مدينة من أعمال شنت برية بالأندلس (معجم البلدان) .

(٤) يجمع التلمساني في نفع الطيب بيغة وباعة باسم واحد ، « وباعة مدينة بالأندلس من كورة البيرة بين
المغرب والقبلة منها » . وربما تكون بيغو : « بلد بالأندلس من أعمال جيّان » (معجم البلدان) .

(٥) وفي نسخة ثانية : لنسمة .

(٦) وفي نسخة ثانية : على ذاته .

(٧) وفي نسخة ثانية : إلا أن الغرب على علّاته .

والأندلس اليوم شيخ غزاتها عبد الرحمن بن علي ابن السلطان أبي علي ، بعد وفاة الشيخ أبي الحسن علي بن بدر الدين رحمه الله . وقد استقر بها بعد انصراف سيدي الأمير المذكور ، والوزير مسعود بن رحو ، وعمر بن عثمان بن سليمان .

والسلطان ملك النصارى بطرة قد عاد إلى ملكه بإشبيلية ، وأخوه مجلب عليه بقشتالة وقرطبة مخالفة عليه ، قائمة بطائفة من كبار النصارى الخائفين على أنفسهم ، داعين لأخيه ، والمسلمون قد اغتموا هبوب هذه الرياح . وخرق الله لهم عوائد في باب الظهور والخير ، لم تكن تخطر في الآمال . وقد تلقب السلطان أيده الله بعقب هذه المكتنفات بالغني بالله وصدرت عنه مخاطبات بمجمل الفتوح ومفصلها يعظم الحرص على إيصالها إلى تلك الفضائل لو أمكن .

وأما ما يرجع إلى ما يتشوف إليه ذلك الكمال من شغل الوقت ، فصدرت تقاييده ، وتفاصيل^(١) يقال فيها بعد ما اعتملت تلك السيادة بالانصراف يا ابراهيم ولا ابراهيم اليوم .

منها أن كتاباً رفع إلى السلطان في المحبة^(٢) من تصنيف ابن أبي حجلة من المشاركة فعارضته ، وجعلت الموضوع أشرف ، وهو محبة الله^(٣) ، فجاء كتاباً ادعى الأصحاب غرابته . وقد وجه إلى الشرق وصحبه كتاب « تاريخ غرناطة » وغيره من تأليني . وتعرف تحبسه بخانقاه سعيد السعداء من مصر ، وانتال الناس عليه ، وهو في لطافة الإعراض ، متكلف أغراض المشاركة من ملحه :

سَلَمْتُ لِمِصْرَ فِي الْهَوَى مِنْ بَلَدٍ يَهْدِيهِ هَوَاؤُهَا لَدَى اسْتِنشَاقِهِ
مَنْ يُنْكِرُ دَعْوَتِي فَقُلْ عَنِّي لَهُ تَكْنِي امْرَأَةُ الْعَزِيزِ مِنْ عُشَاقِهِ

والله يرزق الإعانة في انتساخه وتوجيهه . وصدر عني جزء سمّيته « الغيرة على أهل الحيرة » وجزء سمّيته « حمد الجمهور على السنن المشهور » . والإكباب على اختصار كتاب « التاج »^(٤) للجوهري وردّ حجمه إلى مقدار الخمس ، مع حفظ ترتيبه

(١) وفي نسخة ثانية : تصانيف .

(٢) هو ديوان الصبابة . طبع بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .

(٣) يعني كتابه « روضة التعريف بالحلب الشريف وهو من كتب التصوف قل ان نجد مثله في المكتبة الإسلامية . راجع نفع الطب ج ١١٧/٥ وما بعدها .

(٤) هو كتاب « تاج اللغة وصحاح العربية . وفي مخطوط قديم كتب سنة ٨٥١ ذكر اسمه تاج اللغة وسرّ العربية ويعرف بالصحاح أو كتاب الصحيح في اللغة (معجم المطبوعات العربية ٧٢٣/١) .

السَّهْل ، والله المعين على مشغلةٍ نَقَطُ بِهَا هذه البرهة القريبة البِدَاءَةَ من التَّئِمة ، ولا حَوْل ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السِّيَادَةِ والبنوَّة ، إذ لا يتعذَّر وجود قافل من حَجِّ ، أو لاحقٍ بتلمسان يُبعثها السَّيِّدُ الشريف منها ، فالنفس شديدة التعطُّش ، والقلوب قد بلغت من الشوق والاستطلاع الحناجر . والله أسألُ أن يصونَ في البُعْدِ وديعتي مِنْكَ لَدَيْهِ ، وَيُلْبِسَكَ العافية ، وَيَخْلَصَكَ وإياي من الورطة ، ويحْمِلْنَا أجمعين على الجادَّة . ويختم لنا بالسعادة . والسلام الكريم عَوْداً على بدءٍ ، ورحمة الله وبركاته من المحبِّ المشوقِّ الذاكر الداعي ابن الخطيب ، في الثاني من جمادى الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة انتهى .

(فأجبتة) عن هذه المخاطبات ، وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته فلم يكن شأوه يُلحقُ . ونصَّ الجواب : سيَّدي مجدداً وعلبواً ، وواحدٍ ذُخْرًا مَرَجُوجًا وَمَحَلًّا والدي برًّا وحنوًّا . ما زال الشوق مذنَّاتُ بي وبك الدار ، واستحكَم بيننا البُعَاد ، يُرْعِي سمعي أنباءك ، ويخيِّل إليَّ من أيدي الرياح تناول رسائلك ، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع ، وعهدٍ غير مُضَاع وودِّ ذي أجناس وأنواع ، فنشر بقلبي ميت السلو وحشر أنواع المسرَّات ، وقَدَحَ للقائك زنادُ الأمل ، والله أسأل الامتناع^(١) بك قبل الفوت على ما يرضيك ، ويسني أمانِيَّ وأمانيك . وحيَّته تحية الهائم ، لِمَوَاقِع الغائم ، والمُدْلَجُ للصَّباح المتبلِّج ، وأملِي على معترج الأولياء^(٢) خصوصاً فيك ، من اطمئنان الحال ، وحسن القرار ، وذهاب الهواجس ، وسكون النفرة ، وعموماً في الدولة من رسوخ القدم ، وهبوب ريح النصر ، والظهور على عدوِّ الله باسترجاع الحصون التي استنقذوها في اعتلال الدولة ، وتخريب المعامل التي هي قواعد النصرانيَّة ، غريبةٌ لا تثبت إلا في الحلم وآية من آيات الله . وإن خبيثة هذا الفتح في طيء العصور السالفة إلى هذه المدَّة الكريمة ، لدليلٌ على عناية الله بتلك الذات الشريفة ، حيث أظهر على يدها خوارق العادة ، وما تجد آخر الأيام من معجزات

(١) وفي نسخة ثانية : الامتناع .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأملِي على مقترح الأولياء .

الملة ، وكمل فيها والحمد لله بحُسنِ التدبيرِ ويُمنِ التعبية^(١) ، من حميد الأثر ،
وخالد الذكر ، طراز في حلة الخلافة النُصْرِيَّة ، وتاج في مفرق الوزارة . كتبه الله
لك فما يرضاه الله من عباده .

ووقفت عليه الأشراف من أهل هذا العصر المحروس ، وأذعته في الملاء سروراً لغز
الإسلام وإظهاراً للنعمة ، واستطراداً لذكر الدولة المولوية بما تستحقه من طيب
الثناء والتماس الدعاء ، والتحديث بنعمتها ، والإشادة بفضلها على الدول السالفة
والخالفة وتقدمها ، فانشرحت الصدور حياءً ، وامتلات القلوب إجلالاً وتعظيماً ،
وحسنت الآثار اعتقاداً ودعاءً .

وكان كتاب سيدي لشرف تلك الدولة عنواناً ، ولما عساه يستعجم من نعتي في
مناقبها ترجيحاً ، زاده الله من فضله ، وأمتع المسلمين سكون الغريب من الشوق
المزعج^(٢) ، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفاً لتجاني عُرْمِها عن الأمن^(٣)
والتقويض عن دار العزيز المولى المنعم ، والسيد الكريم ، والبلد الطيب ، والإخوان
البررة ، « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » وإن تشوّفت السيادة الكريمة
إلى الحال ، فعلى ما علمتم سيراً مع الأمل ، ومغالبةً للأيام على الحظ ، وإقطاعاً
للغفلة جانب العمر .

هل ناعني والجَدُّ في صَبَبٍ مَدَى مع الآمال في صُعْدِ

رجع الله بنا إليه ، ولعلّ في عظمتكم النافعة شفاء من هذا الداء ، العيَاء إن شاء
الله ، وأنّ لطفَ الله مصاحب من هذه الرياسة المُزْنِيَّة ، وحسبك بها عليه عصمة
وافية^(٤) ، صرفت وجه القصد إلى ذخيرتي التي كنت أعتدّها منهم كما علمتم ، حين
تفاقم الخطب ، وتلون الدهر ، والإفلات من مظانّ النكبة ، وقد رنقت^(٥) حولها
بعدها جرّته الحادثة بمهلك السلطان المرحوم على يد ابن عمّه ، قريعة في الملك
وقسيمه في النسب ، والتيات الجاه ، وتغيّر السلطان ، واعتقال الأخ المُخَلَّف ،

(١) وفي نسخة ثانية : ويمن النقية . ويقال رجل ميمون النقية أي مظفر المطالب ناجح الفعال .

(٢) وفي نسخة ثانية : وأمتع المسلمين ببقائه ، وبثته شكوى الغريب من السوق المزعج .

(٣) وفي نسخة ثانية : للتجاني عن مهاد الأمن .

(٤) وفي نسخة ثانية : وحسبك بها علمته عصمة وافية .

(٥) رنقت حولها : أي توقفت . وفي نسخة ثانية : رتعت .

والياس منه لو لا تكيف الله في نجائه ، والعيث بعده في المنزل والولد ، واغتصاب الضياع المقتناة من بقايا ما تمتع به الدولة النصرية أبقاها الله من النعمة ، فأوى إلى الوكر ، وساهم في الحادث وأشرك في الجاه والمال ، وأعان على نواب الدهر وطلب الوثر^(١) حين رأى الدهر قلاني وأمل الملوك استخلاصي ، وتجاوزوا في إتخاني والله المخلص من عقاب الآمال ، والمرشد إلى نبد هذه الحظوظ المورطة .

وأنبأني سيدي بما صدر عنه من التصانيف الغريبة في هذه الفتوحات الجليلة ، وبودّي لو وقع الإتحاف بها أو بعضها ، فلقد عاودني الندم على ما قرّطت .

وأما أخبار هذا القطر فلا زيادة على ما علمتم من استقرار السلطان أبي اسحق ابن السلطان أبي يحيى بتونس مستبداً بأمره بالحضرة بعد مهلك شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين القائم بأمره ، رحمة الله عليه مضيقاً في حياته الوطن واحكامه بالعرب ، المستظهرين بدعوته ، مُصانِعاً لهم بوفرة على أمان الرعايا والسابلة . لو أمكن حسن السياسة جهد الوقت ، ومن انتظام بحاية محل دولتنا في أمر صاحب قسنطينة وبونة خلافاً كما علمتم ، محمّلاً الدولة بصرامته وقوة شكيمته فوق طوقها ، من الاستبداد والضرب على أيدي المستقلين من الأعراب ، منتفض الطاعة أكثر أوقاته لذلك إلا ما شمل البلاد من تغلب العرب ونقص الأرض من الأطراف والوسط ، وخمود ذبال^(٢) الدول في كل جهة وكل بداية إلى تمام .

وأما أخبار المغرب الأقصى والأدنى فليدركم طلعة^(٣) . وأما المشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله ، وانتقاض سلطانه ، وانتراء الجفافة على كرسية ، وفساد المصانع والسقايات المعدة لوفد الله وحاجّ بيته ، ما يسخن العين ويطيل البث ، حتى زعموا أنّ الهيعة اتصلت بالقاهرة أياماً . وكثر الهرج في أزقتها وأسواقها لما وقع بين سندمر^(٤) المتغلب بعد يلبغا الخاصكي ، وبين سلطانه ظاهر القلعة ، من الجولة التي كانت دائرتها عليه ، أجلت عن زهاء الخمسمائة قتلى ، من حاشيته ، وموالي يلبغا ،

(١) الوثر : الثوب الذي تجلّل به الثياب فيعلوها . وفي نسخة ثانية طلب الوتر : أي الثأر .

(٢) ذبال ج ذبيلة : الفتيلة .

(٣) سرّه .

(٤) وفي نسخة ثانية : أسندمر وهو الأمير الداوادر الكبير في دولة الاشرف وكان دويداراً عن يلبغا الناصري ثم ثار عليه . مات بالاسكندرية سنة ٧٦٩ هـ .

وتقبض على الباقيين ، فأودع منهم السجن ، وصلب الكثير ، وقتل سندر في محبسه ، وألقى زمام الدولة بيد كبير من موالي السلطان فقام بها مستبدًا وقادها مستقلاً ، وبید الله تصارييف الأمور ومظاهر الغيوب جلّ وعلا .

ورغبتي من سيدي أبقاه الله أن لا يُغيبَ خطابه عني متى أمكن ، أن يصلَ منته الجمّة ، وأن يقبلَ عني أقدام تلك الذات الملوّية ، ويعرّفه بما عندي من التشيع لسلطانه ، والشكر لنعمته ، وأن ينهي عني لحاشيته وأهل اختصاصه التحية المختلصة من أنفاس الرياض ، كبيرهم وصغيرهم .

وقد تأدّى مني إلى حضرته الكريمة خطاب على يد الحاجّ نافع سلّمه الله تناوله من الأخ يحيى عند لقائه أيّاه بتلمسان بحضرة السلطان أبي حمّو أيّده الله ، فربّما يصل سيدي يوضح من ثنائي ودعائي ما عجز عنه الكتاب ، والله يبيّكم ذخراً للمسلمين وملاًذاً للآملين بفضله ، والسلام الكريم عليكم ، وعلى من لاذبكم من السادة الأولاد المناجيب ، والأهل والحاشية والأصحاب ، من المحبّ فيكم المعتدّ بكم شيعة فضلكم ابن خلدون ورحمة الله وبركاته .

عنوانه سيدي وعمادي وربّ الصائغ والأيادي والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي إمام الأمة ، علم الأئمة ، تاج الملة فخر العلماء عماد الإسلام ، مصطفى الملوك الكرام ، كافل الإمامة ، تاج الدول أثير الله ، ولي أمير المؤمنين ، الغني بالله أيّده الله ، الوزير أبو عبدالله بن الخطيب أبقاه الله ، وتولّى عن المسلمين جزاه .

(وكتب) إليّ من غرناطة : يا سيدي ووليّ وأخي ومحلّ ولدي ، كان الله لكم حيث كنتم ولا أعدمكم لطفه وعنايته ، لو كان مستقرّكم بحيث يتأني إليه ترديد رسول ، وإنفاذ مقتطع^(١) أو توجيه نائب ، لرجعتُ على نفسي بالأئمة في إغفال حقّكم ، ولكن العذر ما علمتم ، واحمدوا الله على الاستقرار في كنف ذلك الفاضل الذي وسعكم كنفه ، وشملكم فضله ، شكراً لله حسبه الذي لم يُخلف شهرته التي لم تكدر .

وإني اغتنتم سفر هذا الشيخ وأفدّ الحرمين بمجموع الفتوح^(٢) في إيصال كتابي

(١) وفي نسخة ثانية : أو إيفاء متطلع .

(٢) كانت العادة عندهم ان يبعثوا باخبار فتوحهم وتوسعاتهم التي تحصل كل سنة ، يرسلونها الى الملوك والسلاطين والى الحرم النبوي بوجه خاص ، وهذا ما اشار إليه ابن الخطيب .

هذا ، وبودّي لو وقفتم على ما لديه من البضاعة التي أنتم رأسها وصدورها ، فيكون لكم في ذلك بعض أنس ، وربما تأدى ذلك في بعضه ممّا لم يُختم عليه وظواهر الأمور نُحيلُ عليه في تعريفكم بها ، وأما البواطن فمما لا تتأق كثره وجمامة ، وأخصّ ما أظنّ تشوّفكم إليه حالي ، فاعلموا أنّي قد بلغ بي الماء الزبى^(١) واستولى عليّ سوء المزاج المنحرف ، وتوالى الأمراض ، وأعوز الشفاء^(٢) لبقاء السبب ، والعجز عن دفعه ، وهي هذه المداخلة جعل الله عاقبتها إلى خير ، ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة إلا بذلته ، فما أغنى عني شيئاً ، ولولا أنّي بعدكم شغلت الفكر بهذا التأليف مع الزهد ، وبُعد العهد ، وعدم الإلماع بمطالعة الكتب ، لم تتمش من طريق فساد الفكر إلى هذا الحدّ ، وأخر ما صدر عني كناش^(٣) سمّيته باستنزال اللطف الموجود في أسر الوجود . أمليته في هذه الأيام التي أقيم فيها رسم النيابة عن السلطان في سفره إلى الجهاد بودّي لو وقفتم عليه ، وعلى كتابي في المحبّة ، وعسى الله أن ييسر ذلك .

ومع هذا كله والله ما قصّرت في الحرّص على إيصال مكتوب إليكم إمّا من جهة أخيكم أو من جهة السيد الشريف أبي عبدالله ، حتى من المغرب إذا سمعت الركب متوجّهاً منه ، فلا أدري هل بلغكم شيء من ذلك أم لا ؛ والأحوال كلها على ما تركتموها عليه ، وأحبّابكم بخير على ما علمتم من الشوق والتشوّف . والارتماض على مفارقتكم ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

والله يحفظكم ، ويتولّى أموركم ، والسلام عليكم ورحمة الله . من المحبّ الواحش ابن الخطيب في ربيع الثاني من عام إحدى وسبعين وسبعائة .
وباطنه مدرجة نصّها :

سيدي رضي الله عنكم إستقرّ بتلمسان في سبيل تقلّب ومسارة مزاج تعرفونه . صاحبنا المقدّم في الطب أبو عبدالله الشقّوري . فإذا اتصل بكم فأعينوه على ما يقف عليه اختياره ، وهذا لا يحتاج معه إلى مثلكم .

عنوانه سيدي ومحلّ أخيه الفقيه الجليل الصدر الكبير المعظم الرئيس الحاجب العالم

(١) مثل يضرب للشيء الذي تجاوز الحد .

(٢) وفي نسخة ثانية : اعوز العلاج .

(٣) كناش : دفتر تقييد فيه الفوائد والشوارد للضبط ، يستعمله المغاربة كثيراً إلى اليوم . وقد ذكره التلمساني في نفع الطيب باسم « استنزال اللطف الموجود في سر الوجود » . تاج العروس ٤/٣٤٧ .

الفاضل الوزير ابن خلدون . وصل الله سعده وحرس مجده بمنه .
وإنما طوّلت بذكر هذه المخاطبات ، وإن كانت فيما يظهر خارجة عن غرض الكتاب
لأنّ فيها كثيراً من أخباري وشرح حالي فيستوفي ذلك منها ما يتشوّف إليه من المطالعين
للكتاب .

ثم إنّ السلطان أبا حمّو لم يزل معتملاً في الإجلاب على بجاية واستثلاف قبائل رياح
لذلك ، ومعولاً علي مشايعتي فيه ، ووصل يده مع ذلك بالسلطان أبي اسحق ابن
السلطان أبي بكر صاحب تونس من بني أبي حفص ، لما كان بينه وبين أخيه
صاحب بجاية وقسنطينة من العداوة التي تقتضيها مقاسمة النسب والملك ، فكان يوفد
رسله عليه في كل وقت ، ويمرّون بي وأنا ببسكرة فأكد الوصلة بمخاطبة كل منهما ،
وكان أبو زيان ابن عمّ السلطان أبي حمّو بعد إجماله عن بجاية واختلال معسكره قد
سار في أثره إلى تلمسان ، وأجلب على نواحيها فلم يظفر بشيء ، وعاد إلى حصين
فأقام بينهم ، واشتملوا عليه ، ونجم النفاق في سائر أعمال المغرب الأوسط . ولم يزل
يستألفهم حتى اجتمع له الكثير منهم ، فخرج في عساكره منتصف سبع وستين
وسبعائة إلى حصين وأبي زيان ، واعتصموا بجبل تيطري ، وبعث إليّ في استنفار
الزواودة للأخذ بحجزتهم من جهة الصحراء ، وكتب يستدعي أشياخهم يعقوب بن
علي كبير أولاد محمد ، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سبّاع بن يحيى . وكتب إلى ابن
مزنّي قعيذة وطنهم بامدادهم في ذلك ، فأمدّهم ، وسرنا مغربين إليه حتى نزلنا
القطفا بتل تيطري ، وقد أحاط السلطان به من جهة التل ، على أنه إذا افرغ من
شأنهم سار معنا إلى بجاية ، وبلغ الخبر إلى صاحب بجاية أبي العباس فعسكر بمن
استألف من بقايا قبائل رياح ، وعسكر بطرف ثنية القطفا المفضية إلى المسيلة . وبينما
نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زغبة ، وهم خالد بن عامر كبير بني عامر ،
وأولاد عريف كبراء سويد ، ونهضوا إلينا بمكاننا من القطفا ، فأجفلت أحياء
الزواودة ، وتأخرنا إلى المسيلة . ثم إلى الزاب ، وسارت زغبة إلى تيطري واجتمعوا مع
أبي زيان وحصين وهجموا على معسكر أبي حمّو فقلّوه ورجع منهزماً إلى تلمسان .
ولم يزل من بعد ذلك على استثلاف زغبة ورياح يؤمّل الظفر بوطنه وابن عمّه ،
والكزة على بجاية عاماً فعاماً ، وأنا على حالي في مشايعته ، وإيلاف ما بينه وبين
الزواودة ، والسلطان أبي اسحق صاحب تونس وابنه خالد من بعده . ثم دخلت

زغبة في طاعته واجتمعوا على خدمته ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين
ويجاية ، وذلك في أخريات إحدى وسبعين وسبعمئة فوفدت عليه بطائفة من الزواودة
أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لنشرف أحواله ، ونظالعه بما يرسم له في خدمته ،
فلقيناه بالبطحاء ، وضرب لنا موعداً بالجزائر ، انصرف به العرب إلى أهلهم ،
وتخلفت بعدهم لقضاء بعض الأغراض واللحاق بهم ، وصليت به عيد الفطر على
البطحاء ، وخطبت به وأنشدته عند انصرافه من المصلى تهنئة بالعيد وغرضه^(١) :

هذي الديار فحيهن صباحا وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال إن لم تروها عبرت عينك واكفاً ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقاً أن لا يُرين مع البعاد شحاحا
إيه على الحي الجميع ورباً طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا
ومنازل للظاعنين استعجمت حزناً وكانت بالسرور فصاحا

وهي طويلة ، ولم يبق في حفطي منها إلا هذا .

وبينا نحن في ذلك إذ بلغ الخبر بأن السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى من
بني مرين قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش ، وكان أخذ
بمخنقه منذ حوّل ، وساقه إلى فاس ، فقتله بالعذاب ، وأنه عازم على النهوض إلى
تلمسان لما سلف من السلطان أبي حمو إثناء حصار السلطان عبد العزيز لعامر في
جبله ، من الإجلاب على ثغور المغرب ، ولحين وصول هذا الخبر ، أضرب السلطان
أبوحمو على ذلك الذي كان فيه ، وكرّ راجعاً إلى تلمسان . وأخذ في أسباب الخروج
إلى الصحراء مع شيعة بني عامر من أحياء زغبة ، فاستألف وجمع وسدّد الرجال
وقضى عيد الأضحى ، وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس لتعذر الوجهة
إلى بلاد رياح ، وقد أظلم الجو بالفتنة ، وانقطعت السبل ، فأذن لي وحمّلي رسالة
إلى السلطان ابن الأحمر . وانصرفت إلى المرسى بهنّين ، وجاءه الخبر بتزول
صاحب المغرب تازا في عساكره ، فأجفل بعدي من تلمسان ذاهباً إلى الصحراء على
طريق البطحاء . وتعذّر عليّ ركوب البحر من هُنّين فأقصرت ، وتأدّى الخبر إلى
السلطان عبد العزيز بأني مقيم بهنّين ، وأنّ معي وديعة احتملتها إلى صاحب

(١) وفي نسخة ثانية : أهنيه بالعيد ، وأحرّضه .

الأندلس ، تخيل ذلك بعض الغواة ، وكتب به إلى السلطان عبد العزيز فأنفذ من وقته سرية من تازا تعترضني لاسترجاع تلك الوديعة ، واستمرّ هو إلى تلمسان ، ووافقتي السرية بهنئين وكشفوا الخبر ، فلم يقفوا على صحته ، وحملوني إلى السلطان فلقبته قريباً من تلمسان ، واستكشفتني عن ذلك الخبر فأعلمته بنفسه ، وعنفني على مفارقة دارهم ، فاعتذرت له لما كان من عمر بن عبد الله الممتدّ عليهم ، وشهد لي كبير مجلسه ، ووليّ أبيه وابن وليه ونزمار بن عريف ، ووزيره عمر بن مسعود بن مندبل بن حمّامة ، واحتفت الألفاف ، وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية ، وأفهمني أنه يروم تملكها ، فهوت عليه السبيل في ذلك فسربه ، وأقت تلك الليلة في الاعتقال . ثم أطلقني من الغد فعمدت إلى رباط الشيخ الوليّ أبي مدين ونزلت بجواره مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم ، لو تركت له .

* (مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني
عبد الواد) *

ولما دخل السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستولى عليها ، وبلغ خبره إلى أبي حمّو وهو بالبطحاء ، فأجفل من هنالك ، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر ذاهباً ، إلى بلاد رباح ، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه . وجمع عليه أحياء زغبة والمقل باستتلاف وليه ونزمار وتدييره . ثم أعمل السلطان نظره ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رباح لأوطي^(١) أمره ، وأحملهم على مناصرته وشفاء نفسه من عدوّه بما كان السلطان أيس^(٢) من استتباع رباح وتصريفهم فيما يريد من مذاهب الطاعة . فاستدعاني من خلوتي بالعبادة عند رباط الوليّ أبي مدين . وأنا قد أخذت في تدريس العلم واعتزمت على الانقطاع ، فآنسني وقربني ، ودعاني لما ذهب إليه من ذلك ، فلم يسعني إلا إجابته ، وخلع عليّ وحملني ، وكتب إلى شيوخ الزواودة بامثال أمري وما ألقيه إليهم من أوامره ، وكتب إلى يعقوب بن علي وابن

(١) وفي نسخة ثانية : لأوطد .

(٢) وفي نسخة ثانية : آنس .

مَزْنِي بمساعدتي على ذلك . وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمّو من بين أحياء بني عامر ، ويحوّله إلى حيّ يعقوب بن علي ، فودّعته وانصرفت في عاشوراء سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فلحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء ، ولقيته ودفعت إليه كتاب السلطان ، وتقدّمت أمامه وشيّعني ونزمار يومئذ وأوصاني بأخيه محمد ، وقد كان أبو حمّو قبض عليه عندما أحس منهم بالخلاف ، وأنهم يرومون الرحلة إلى المغرب . وأخرجه معه من تلمسان مقيداً واحتمله في معسكره ، فأكد على ونزمار في المحاولة على استخلاصه بما أمكن ، وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويد يبدروني^(١) وتقدّم إلى أحياء حصّين بإخراج أبي زيّان من بينهم ، فسرنا جميعاً وانتهينا إلى أحياء حصّين وأخبرهم فرج بن عيسى بوصيّة عمه ونزمار إليهم فنبذوا إلى أبي زيّان عهده ، وبعثوا معه من أوصله إلى بلاد رياح . ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سبّاع ، وتوغّلوا به في القفر ، واستمرّيت ذاهباً إلى بلاد رياح ، فلما انتهيت إلى المسيلة ألفت السلطان أبا حمّو وأحياء رياح مسعكرين قريباً منها في وطن أولاد سبّاع بن يحيى من الزواودة ، وقد تسابّلوا^(٢) إليه ، وبذل فيهم العطاء ليجمعوا إليه ، فلما سمعوا بمكاني من المسيلة ، جاؤا إليّ فحملتهم على طاعة السلطان عبد العزيز ، وأوفدت أعيانهم وأشياخهم على الوزير أبي بكر بن غازي ، فلقوه ببلاد الديالم عند نهر واصل ، فاتوه طاعتهم ، ودعوه إلى دخول بلادهم في اتباع عدوّه . ونهض معهم وتقدّمت أنا من المسيلة إلى بسكرة ، فلقيت بها يعقوب بن علي ، واتفق هو وابن مَزْنِي على طاعة السلطان ، وبعث ابنه محمداً للقاء أبي حمّو ، وأمر بني عامر خالد بن عامر يدعوهم إلى نزول وطنه ، والبعد به عن بلاد السلطان عبد العزيز ، فوجده متديلاً من المسيلة إلى الصحراء . ولقيه على الدّوسن وبات ليلتهم يعرض عليهم التحوّل من وطن أولاد بني سبّاع إلى وطنهم بشرفي الزاب . وأصبح يومه كذلك ، فما راعهم آخر النهار إلا انتشار العجاج خارجاً إليهم من أفواه الثّنية ، فركبوا يستشرفون ، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثّنية ، وعساكر بني مرين والمعقل وزغبة منثالة أمام الوزير أبي بكر بن غازي قد دلّ بهم الطريق

(١) البذرقة الخفارة . والمبذرق : الخفير .

(٢) تسابّل القوم : توافدوا من جهة وفي نسخة ثانية تساتلوا وتساتل القوم أي خرجوا متتابعين الواحد تلو الآخر .

وفد أولاد سباع الدين بعثهم من المسيلة ، فلما أشرفوا على المخيم أغاروا عليه مع
 غروب الشمس . فأجفل بنو عامر وانتهب مخيم السلطان أبي حمو ورحاله وأمواله .
 ونجا بنفسه تحت الليل ، وتمزق شمل ولده وحرمه حتى خلصوا إليه بعد أيام ،
 واجتمعوا بقصور مصاف من بلاد الصحراء وامتلات أيدي العساكر والعرب من
 نهاهم ، وانطلق محمد بن عريف في تلك الهبة وأطلق الموكلون به وجاء إلى الوزير
 وأخيه ونزمار وتلقوه بما يجب له ، وأقام الوزير أبو بكر بن غازي بالدوسن أياماً أراح
 فيها . وبعث إليه ابن مزن بن بطاعته وأرغد له من الزاد والعلوفة ، وارتحل راجعاً إلى
 المغرب ، وتخلت بعده أياماً عند أهلي ببسكرة ، ثم ارتحلت إلى السلطان في وفد
 عظيم من الزواودة ، يقدمهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي وجماعة من أعيانهم .
 فسابقنا الوزير إلى تلمسان وقدمنا على السلطان فوسعنا من حباته وتكرمه ، ونزله ما
 بعد العهد بمثله . ثم جاء من بعدنا الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء بعد أن مرّ
 بقصور بني عامر هنالك ، فخرّبها وكان يوم قدومه على السلطان يوماً مشهوداً ، وأذن
 بعدها لوفود الزواودة في الانصراف إلى بلادهم . وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير
 ووليه ونزمار بن عريف ، فودّعه وبالغ في الإحسان وانصرفوا إلى بلادهم . ثم أعمل
 نظره في إخراج أبي زيان من بين أحياء الزواودة لما خشي من رجوعه إلى حصين ،
 فأمرني في ذلك ، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم ، فانطلقت لذلك . وكان
 أحياء حصين قد توجّسوا الخيفة من السلطان ، وتنگروا له ، وانصرفوا إلى أهلهم
 بعد مرجعهم من غزاتهم مع الوزير ، وبادروا باستدعاء أبي زيان من مكانه عند
 أولاد يحيى بن علي ، وأنزلوه بينهم ، واشتملوا عليه ، وعادوا إلى الخلاف الذي
 كانوا عليه أيام أبي حمو واشتعل المغرب الأوسط ناراً . ونجم^(١) صبي من بيت
 الملك في مغراوة وهو حمزة بن علي بن راشد ، قر من معسكر الوزير ابن غازي أيام
 مقامه عليها ، فاستولى على شلف وبلاد قومه ، وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود
 في العساكر لمنازلته ، وأعياداً وناقطعت أنا ببسكرة ، وحال ذلك ما بيني وبين
 السلطان إلا بالكتاب والرسالة . وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفرّ الوزير ابن
 الخطيب من الأندلس وقدومه على السلطان بتلمسان حين توجّس الخيفة من

(١) نجم : ظهر

سلطانه ، بما كان له من الاستبداد عليه ، وكثرة السعاية من البطانة فيه ، فأعمل
الرحلة إلى الثغور الغربية لمطالعتها بإذن سلطانه ، فلما حاذى جبل الفتح قبل الفُرْضَة
دخل إلى الجبل وبيده عهد السلطان عبد العزيز إلى القائد بقبوله . وأجاز البحر من
حينه إلى سبته ، وسار إلى السلطان بتلمسان ، وقدم عليه بها في يوم مشهود ، وتلقاه
السلطان من الحظوة والتقريب وإدراج النعم بما لا يعهد بمثله . وكتب إليّ من تلمسان
يعرفني بخبره ، ويلمّ ببعض العتاب على ما بلغه من حديثي الأول بالأندلس ، ولم
يحضرنى الآن كتابه فكان جوابي عنه ما نصّه :

الحمد لله ولا قوة إلا بالله ، ولا رادّ لما قضى الله .

يا سيدي ونعم الذخر الأبدي ، والعروة الوثقى التي أعلقها^(١) يدي أسلم عليك سلام
القدوم على المخدم ، والخضوع للملك المتبوع ، لا بل أحييكم تحية المشوق
للمعشوق ، والمدلج للصباح المتبلج ، وأقرر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي فيه من حبي
لكم ، ومعرفتي بمقداركم ، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم ، والثناء
عليكم ، والإشادة في الآفاق بمناقبكم ديدنا^(٢) معروفاً ، وسجية راسخة يعلم الله
وكفى بالله شهيداً . وهذا كما في علمكم أسنى ما اختلف أولاً ولا آخرأ ، ولا شاهداً
ولا غائباً ، وأنتم أعلم بما تعني نفسه وأكبر شهادة بما في خفايا ضميري ، ولو كنت
ذلك فقد سلف من حقوقكم ، وجميل أخذكم ، واجتلاب الحظّ لو هيأه القدر ،
لمساعيتكم وإيثاري بالمكان من سلطانكم ودولتكم ، ما يستلين معاطف القلوب ،
ويستل سخائم الهواجس ، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة^(٣) أو إخفار وطن^(٤) ،
ولو تعلق بقلب ساق حررزور^(٥) فحاش لله أن يقدح في الخلوص لكم ، أو يرجح
سوائبكم^(٦) ، إنما هي خبيثة الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء . ووالله وجميع ما يُقسَم به ،
ما اطلع على مستكنه مني غير صديقي ، وصديقكم الملايس ، كان لي ولكم ،
الحكيم الفاضل أبي عبدالله الشُّقُوري أعزه الله . نفثة مصدر ، ومباثة خلوص ، إذ

(١) وفي نسخة ثانية : اعتقلتها .

(٢) الديدن : العادة .

(٣) بمعنى الجفوة .

(٤) وفي نسخة ثانية : أو إحقاق ظن .

(٥) وفي نسخة ثانية : ولو تعلق بقلب ساق حرّ ذرّة وذرّة . وبلغني ذرّة من خير أي قليل منه .

(٦) وفي نسخة ثانية : سوابقكم : ج سابقة ويعني : اياديكُم البيضاء التي اسديتموها إليّ .

أنا أعلم الناس بمكانه منكم ، وقد علم ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان واضمحلال أمره من إجماع الأمر على الرحلة إليكم ، والخفوق إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عدوتكم تعرّضت فيهم للتهم ، ووقفت بمجال الظنون ، حتى تورّطت في الهلكة بما ارتفع عني مما لم آت ، ولا طويت العقد عليه ، لولا حلم مولانا الخليفة ولولا حسن رأيه في وثبات بصيرته ، لكنت في الهالكين الأولين ، كل ذلك شوقاً إلى لقائكم ، وتمثلاً لأنسكم ، فلا تظنوا بي الظنون ، ولا تصدّقوا التوهّمات ، فأنا من قد عملتم صداقة وسداجة وخلوصاً ، واتفاق ظاهر وباطن ، أثبت الناس عهداً وأحفظهم غيباً ، وأعرفهم بوزان الإخوان ، ومزايا الفضلاء ، ولأمر ما تأخر كتابي من تلمسان ، فأني كنت استشعر ممن استضافني ريباً بخطاب سواه ، خصوصاً جهتكم ، لقديم ما بين الدولتين من الاتحاد والمظاهرة ، واتصال اليد مع أن الرسول تردّد إليّ وأعلمني اهتمامكم واهتمام السلطان تولاه الله باستكشاف ما أهبهم^(١) من حالي ، فلم أترك شيئاً مما أعلم تشوقكم إليه إلا وكشفت له قناعة ، وآمنته على إبلاغه ، ولم أزل بعد ايناس المولى الخليفة لدمائي وجذبه بضبعي ، سابحاً في تيار الشواغل كما علمتم القاطعة حتى عن الفكر .

وسقطت إلي محل مجد خدمتي من هذه القاصية ، أخبار خلوصكم إلى المغرب قبل فصول راحتي إلى الحضرة ، غير خلية^(٢) ولا ملتزمة ، ولم يتعين ملتي العصا ، ولا مستقر النوى ، فأرجأت الخطاب إلى استجلائها ، وأفدت من كتابكم العزيز الجاري على سنن الفضل ، ومذاهب المجد ، غريب ما كيّفه القدر من بديع^(٣) الحال لديكم ، وعجيب تأتي أملككم الشارد فيه كما كنا نستبعده عند المفاوضة ، فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول على أحسن الوجوه ، وأجمل المخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين ، العائدة بحسن المآل في المخلف ، من أهل وولد ومتاع وأثر بعد أن رضتم جموح الأيام وتوقلتم قُلل الغز^(٤) وقدتم الدنيا بحذافيرها وأخذتم بأفاق السماء على أهلها . وهنيئاً فقد نالت نفسكم التواقة أبعده أمانها ، ثم

(١) وفي نسخة ثانية : انهم والأصح استبهم .

(٢) وفي نسخة ثانية : غير جلية .

(٣) وفي نسخة ثانية : من تنويع .

(٤) أي صعدم قم الغز .

تاقت إلى ما عند الله ، وأشهد لما ألهمتم للإعراض عن الدنيا ، ونزع اليد من حطامها عند الأصحاب والأقوال ، ونهى الآمال إلا جذبا وعناية من الله وحبا ، واذا اراد الله أمرا يسر أسبابه .

واتصل بي ما كان من تحفي السيادة المولوية بكم واهتزاز الدولة لقدمكم ، ومثل هذه الخلافة ، أيدها الله من يثابر على المفاخر ، ويستأثر بالأخاير ، وليت ذلك عند إقبالكم على الحظ ، وأنسكم باجتلاء الآمال ، حتى يُحسن المتاع ، ويتجمل السرير الملوكي بمكانكم ، فالظن أن هذا الباعث الذي هزم الآمال ونبذ الحظوظ ، وهون المفارق العزيز سؤمكم الله حتى يأخذ بيدكم إلى قضاء المجاهدة ، ويستوي بكم على جدد^(١) الرياضة ، «والله يهدي للتي هي أقوم» . كأنني بالأقدام نُقلت والبصائر بإلهام الحق صُقلت والمقامات خُلقت ، بعد أن استقبلت ، والعرفان شيمة^(٢) أنواره وبوارقه ، والوصول انكشفت حقائقه لما ارتفعت عوائقه . وأما حالي والظن بكم الاهتمام بها ، والبحث عنها فغير خفية بالباب المولوي أعلاه الله ، ومظهرها في طاعته ، ومصدرها عن أمره ، وتصارينها في خدمته ، والزعم أنني قمت المقام المحمود في التشيع والإنجياش ، واستمالة الكافة إلى المناصحة ، ومخالصة القلوب للولاية ، وما يتشوقه بجدكم ، ويتطلع إليه فضلكم ، وأما اهتمامكم في خاصتها من النفس والولد ، فجهينة خبره مؤدي كتابي إليكم ، ناشيء تأديبي وثمره ترتيبي ، فسهلوا له الإذن ، وألبنوا له جانب النجوى حتى يؤدي ما عندكم وما عندي ، وخذوه بأعقاب الأحاديث إن يقف عند مبادئها ، واثمنوه على ما تُحدثون ، فليس بضنين^(٣) على السر .

وتشوقي بما يرجع به إليكم سيدي وصديقي وصديقكم المقرب في المجد والفضل ، المساهم في الشدائد ، كبير المغرب ، وظهير الدولة ، أبو يحيى بن أبي مدين ، كان

(١) وفي نسخة ثانية : على جودي : والجودي : جبل مظل على جزيرة ابن عمر ، ولعل ابن خلدون توصل قوله تعالى «واستوت على الجودي» أي رسو سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي عند الطوفان (معجم البلدان) .

(٢) شيمة : ج شيم : الخلق والطبيعة ، العادة . وفي نسخة ثانية : شيمت ، من شام ، شيماً السيف : استله . وشما وشيوما الرجل : حقق الحملة في الحرب .

(٣) وفي نسخة ثانية : بظنين : ورجل ظنين : متهم . وهو ينظر الى قوله تعالى : «وما هو على الغيب بضنين» الآية ٢٤ من سورة التكوير .

الله له في شأن الولد والمخلف تشوق الصديق لكم ، الضنين على الأيام بقلامه الظفر من ذات يديكم ، فأطلعوه^(١) طلع ذلك ، ولا يهْمُكُمْ بالفراق الواقع حسن ، فالسلطان كبير ، والأثر جميل ، والعدو الساعي قليل حقير ، والنية صالحة ، والعمل خالص ، ومن كان لله كان الله له .

واستطلاع الرياسة المرتبة^(٢) الكافلة كافاً الله يده البيضاء عني وعنكم إلى مثله من أحوالكم استطلاع من يسترجح وزانكم ، ويشكر الزمان على ولائه بمثلكم^(٣) . وقد قررت من علو^(٤) مناقبكم ، وبُعد شأوكم وغريب منحاكم ، ما شهدت به آثاركم الشائعة الخالدة في الرياسة ، المتأدية على السنة الهادى والوارد من الكافة ، من حمل الدولة ، واستقامة السياسة ، ووقفته على سلامكم ، وهو يراجعكم بالتحية ، ويساهمكم بالدعاء .

وسلامي على سيدي ، وفلذة كبدي ومحلّ ولدي ، الفقيه الزكي الصدر أبي الحسن نجلكم ، أعزه الله وقد وقع مني موقع البشرى حلولة من الدولة بالمكان العزيز والرتبة النابهة ، والله يلحفكم جميعاً رداء العافية ، والستر ويمهد لكم محل الغبطة والأمن ، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته ، ويجريكم على عوائد لطفه وعنايته ، والسلام الكريم يخصّكم من المحبّ الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم ، عبد الرحمن بن خلدون ورحمة الله وبركاته . في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبعائة .

وكان بعث إليّ مع كتابه نسخة كتابه إلى سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس عندما دخل جبل الفتح ، وصار إلى إيالة بني مرين ، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب ، فرأيت أن أثبتة هنا ، وإن لم يكن من غرض التأليف لغرابته ، ونهايته في الجودة ، وأن مثله لا يهمل من مثل هذا الكتاب ، مع ما فيه من زيادة الاطلاع على أخبار الدول في تفاصيل أحوالها ونصّ الكتاب .

بانوا فمن كان باكياً يبكي
هذي ركاب السرى بلا شك
فمن ظهور الركاب معملّة
إلى بطون الربى إلى الفلك

(١) وفي نسخة ثانية : فأطلعوني .

(٢) وفي نسخة ثانية : الرياسة المزنية .

(٣) وفي نسخة ثانية : على ولادة لمثلكم .

(٤) وفي نسخة ثانية : وقد قررت لعلومه من مناقبكم .

تصدع الشَّمْلُ مثل ما انحدرتُ إلى صُبوب جواهرُ السِّلْكِ
من النَّوى قبلُ لم أزلُ حذرًا هذا النَّوى جلَّ مالك المُلْكِ

مولاي كان الله لكم ، وتولَّى أمركم . أسلم عليكم سلام الوداع ، وأدعو الله في تيسير
اللقاء والاجتماع ، من بعد التفرُّق والانصداع ، وأقرر لديكم أنَّ الإنسان أسير
الأقدار ، مسلوب الاختيار ، متقلَّب في حكم الخواطر والأفكار ، وأن لا بدَّ لكل
أول من آخر ، وأن التفرُّق لما لزم كلَّ إثنين بموتٍ أو حياة ، ولم يكن منه بدُّ ، كان
خير أنواعه الواقعة بين الأحباب ، ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور .

ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل إليكم من المغرب بولدكم ، ومقامه لديكم بحال
قلق ، ولولا تعليلكم ووعدكم وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم ، وقطع نواحل
الأيام حريصاً على استكمال سنِّكم . ونهوض ولدكم واضطلاعكم بأمركم ، وتمكن
هدنة وطنكم ، وما تحمَّل في ذلك من ترك غرضه لغرضكم ، وما استقرَّ بيده من
عهودكم ، وأنَّ العبد الآن تسبَّب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعزِّ ، ونجح السعي
وتأتى لسنين ، كثيرة الصلح ، ومن بعد أن لم يبق لكم بالأندلس مُشغِبٌ من
القراية ، وتحركُ لمطالعة الثغور الغربية ، وقربٌ من فرضة الحجاز واتصال الأرض ببلاد
المشرق ، لطرقته الأفكار وزعزعت صبره رياح الخواطر ، وتذكرُ أشرف العمر على
التمام ، وعواقب الاستغراق ، وسيرة الفضلاء عند شمول البياض ، فغلبته حالٌ
شديدة هزمتُ التعشُّق بالشمل الجميع ، والوطن المليح ، والجاه الكبير ، والسلطان
القليل النظير ، وعمل بمقتضى قوله « موتوا قبل أن تموتوا^(١) » فإن صحَّت الحال
المرجوة من إمداد الله ، تنقلت الأقدام إلى أمام ، وقوى التعلُّق بعروة الله الوثقي ،
وإن وقع العجز ، أو افتضح العزم ، فالله يعاملنا بلطفه ، وهذا المرتكب مُرامٌ
صعبٌ ، لكن سهَّله عليَّ أمور : منها أنَّ الإنصراف لما لم يكن منه بدُّ ، لم يتعيَّن عليَّ
غير هذه الصورة ، إذ كان عندكم من باب المُحال ، ومنها أنَّ مولاي لو سمح لي
بغرض الإنصراف لم تكن لي قدرة على موقف وداعه ، لا والله ! ولكان الموت أسبق
إليَّ ، وكفى بهذه الوسيلة الحسنة التي يعرفها وسيلة . ومنها حرصي على أن يظهر صدق
دعواي فيما كنت أهتمُّ به ، وأظنُّ أني لا أُصدِّقُ ، ومنها اغتنام المفارقة في زمن

(١) يعني : موتوا اختياراً قبل ان تموتوا اضطراراً ، وذلك يترك الشهوات .

الأمان والهدنة الطويلة والاستغناء إذا كان الإنصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال . ومنها وهو أقوى الأعذار أني مهما لم أطق تمام هذا الأمر أو ضاق ذرعي به ، لعجز أو مرض أو خوف طريق ، أو نفاد زاد أو شوق غالب ، رجعت رجوع الأب الشفيق إلى الولد البر الرضي ، إذ لم أخلف ورائي مانعاً من الرجوع من قول قبيح ولا فعل ، بل خلّفت الوسائل المرعية ، والآثار الخالدة ، والسير الجميلة ، وانصرفت بقصد شريف فقت به أشياخي وكبار وطني وأهل طوري ، وتركتكم على أتم ما أرضاه ، مُثنياً عليكم داعياً لكم ، وإن فسح الله في الأمد ، وقضي الحاجة ، فأملى العودة إلى ولدي وتربتي ، وإن قطع الأجل فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله .

فإن كان تصرفي صواباً وجارياً على السداد ، فلا يلام من أصاب ، وإن كان عن حقد ، وفساد عقل ، فلا يلام من اختلّ عقله ، وفسد مزاجه ، بل يُعذر ويشفق عليه ، ويرحم ، وإن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل ، وجلبت الذنوب ، ونشرت^(١) بعدي العيوب ، فحياؤه وتناصفه يُنكر ذلك ، ويستحضر الحساب^(٢) من التربية والتعليم وخدمة السلف ، وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان ، والإرشاد إلى الأعمال الصالحة ، والمداخلة والملابسة ، لم يتخلل ذلك قط خيانة في مال ولا سر ، ولا غش في تدبير ولا تعلق به محار^(٣) ، ولا كدره نقص ، ولا حمل عليه خوف منكم ، ولا طمع فيما بيدكم ، وإن لم تكن هذه دواعي الرعي والوصلة والإبقاء ، فقيم تكون بين بني آدم ؟

وأنا قد رحلت فلا أوصيتكم بمال ، فهو عندي أهون متروك ، ولا بولد فهم رجالكم ، وخذامكم ، ومن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم ، ولا بعيال ، فهي من مزيات بيتكم ، وخواص داركم ، إنما أوصيكم بحظي العزيز ، كان علي بوطيكم ، وهو أتم ، فأنا أوصيكم بكم ، فأرعوني فيكم خاصة . أوصيكم بتقوى الله والعمل لغد ، وقبض عنان الله في موطن الحد ، والحياء من الله الذي محص وأقال ، وأعاد النعمة بعد زوالها لينظر كيف تعملون ، وأطلب منكم عوض ما وفرته

(١) وفي نسخة ثانية : حشرت .

(٢) وفي نسخة ثانية : الحسنات .

(٣) وفي نسخة ثانية : ولا تعلق به عار .

عليكم من زاد طريق ومكافأة وإعانة ، زاداً سهلاً عليكم ، وهو أن تقولوا لي : غفر
الله لك ما ضيَّعت من حقِّي خطأً أو عمداً ، وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت .
واعلموا أيضاً على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر ، وعند كل
ملك ، واعتقاده وبرّه والسؤال عنه وذكره بالجميل ، والاذن في زيارته حنانة
منكم^(١) وسعه ذرع ، ودها ، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة
نزلت ، ثم أقشعت وترك الأزاهر تفوح والمحاسن تلوح ، ومثاله معكم مثل المرضعة ،
أرضعت السياسة ، والتدبير الميمون ، ثم رفدتكم في مهد الصلح والأمان ، وغطتكم
بقناع العافية ، وانصرفت إلى الحمام تغسل اللبن والوضر ، وتعود فإن وجدت الرضيع
نائماً فحسن ، أو قد انتبه فلم تتركه إلا في حد الانقطاع . ونختم هذه الغزارة بالحلف
الأكيد أنني ما تركت لكم وجه نصيحة في دين ولا في دنيا إلا وقد وفيت لكم ، ولا
فارقتكم إلا عن عجز ، ومن ظنّ خلاف هذا فقد ظلمني وظلمكم ، والله يرشدكم
ويتولّى أمركم . ويعول^(٢) خاطرکم في ركوب البحر .

انتهت نسخة الكتاب وفي طيها هذه الأبيات :

عندما استروح الصباً من مهيبك	صَاب مَزْنُ الدَّمُوعِ مِنْ جَفَنِ صَبِّكَ
كَانَ قَبْلَ الوجودِ جُنَّ بِحُبِّكَ	كَيْفَ يَسْلُوبَا جَنَّتِي عَنْكَ وَقَدْ ^(٣)
وَح مِنْ أُنْسِكَ الشَّهْيِ وَقُرْبِكَ	ثُمَّ قُلْ كَيْفَ كَانَ قَبْلَ انْتِشَاءِ الرِّ
لِسِوَاهُ إِلَّا بَيْتَ رَبِّكَ	لَمْ يَدْعَ بَيْتَكَ الْمَنِيعَ حَمَاهُ
دُمْتُ وَالْفَضْلُ وَالرَّضَى مِنْ دَابِّكَ	أَوَّلَ عُدْرِي الرَّضَى فَمَا جِئْتُ بُدْعاً
أَيْنَ كُرْبِي وَوَحْشِي مِنْ كُرْبِكَ	وَإِذَا مَا ادَّعَيْتَ كُرْباً لِفَقْدِي
حِكِ لِحَدِي وَتُرْبِي فِي تُرْبِكَ	وَلَسْدِي فِي ذُرَاكَ وَكِرِي فِي دُو
لَيْتَنِي أَهْبَتِي أَخَذْتَ لِحَرْبِكَ	يَا زَمَانَا أَغْرَى الْفِرَاقَ بِشَمْلِي
جِئْتُ بِالْبَيْنِ وَهُوَ أَصْعَبُ صَعْبِكَ	أُرَكِّبْتَنِي صُرُوفُكَ الصَّعْبَ حَتَّى

وكتب آخر النسخة يخاطبني .

(١) وفي نسخة ثانية : نجاية منكم .

(٢) وفي نسخة ثانية : ونقول .

(٣) وفي نسخة ثانية : كيف يسلوبوا جنتي عنك ، وقد .

هذا ما تيسر ، والله وليّ الخيرة لي ولكم من هذا الخطاب (١) الذي لا نسبة بينه وبين أولى الكمال ، ردنا الله إليه ، وأخلص توكلنا عليه ، وصرف الرغبة على ما لديه . وفي طيّ النسخة مدرجة نصّها .

رضي الله عن سيادتكم ، أونسُكم بما صدر مني أثناء هذا الواقع ، مما استحضره الولد في الوقت ، وهو يسلم عليكم بما يجب لكم ، وقد حصل من حظوة هذا المقام الكريم على حظّ وافر ، وأجزل إحسانه ونوّه بجرأته ، وأثبت الفرسان خلفه ، والحمد لله .

ثم اتّصل مقامي ببسكرة والمغرب الأوسط ، مضطرباً بالفتنة المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز وحمزة بن راشد ببلاد مغراوة والوزير عمر بن مسعود في العساكر يحاصره بحصن تاجحمومت وأبو زيان العبد الوادي ببلاد حصين وهم مشتملون عليه وقائمون بدعوته .

ثم سخط السلطان وزيره عمر بن مسعود ونكر منه تقصيره في أمر حمزة وأصحابه ، فاستدعاه إلى تلمسان وقبض عليه ، وبعث به إلى فاس معتقلاً ، فحبس هنالك ، وجهز العساكر مع الوزير ابن غازي ، فهض إليه ، وحاصره ففرّ من الحصن ولحق بمليانة مجتازاً عليها ، فأنذره عاملها فتقبض عليه ، وسيق إلى الوزير في جماعة من أصحابه ، فضربت أعناقهم ، وصلبهم عظةً ومزدجر الأهل الفتنة .

ثم أوعز السلطان بالمسير إلى حصين وأبي زيّان ، فسار في العساكر واستنفر أحياء العرب من زغبة فأوعبهم ونهض إلى حصين فامتنعوا بجبل تيطري ، ونزل الوزير بعساكره ومن معه من أحياء زغبة على جبل تيطري من جهة التل ، فأخذ بمخنقهم ، وكاتب السلطان أشياخ الزواودة من رياح بالمسير إلى حصار تيطري من جهة القبلة . وكاتب أحمد بن مزني صاحب بسكرة بإمدادهم بأعطياتهم ، وكتب إليّ يأمرني بالمسير بهم لذلك ، فاجتمعوا عليّ ، وسرت بهم أول سنة أربع وسبعين وسبعائة حتى نزلنا بالقطفة (٢) ، في جماعة منهم على الوزير بمكانه من حصار تيطري ، فحدّ لهم حدود الخدمة ، وشارطهم على الجزاء . ورجعت إلى أحيائهم بالقطفة ، فاشتدوا في

(١) الخطاب : داء كالجنون .

(٢) القطفة : تقع شرقي مدينة مليانة .

حصار الجبل وأجتوهم بسواتهم وظهرهم إلى قنته ، فهلك لهم الخفّ والحافر^(١) ، وضاق ذرعهم بالحصار من كل جانب ، وراسل بعضهم في الطاعة خفية فارتاب بعضهم من بعض وانفضوا ليلاً من الجبل ، وأبوزيان معهم ذاهبين إلى الصحراء ، واستولى الوزير على الجبل بما فيه من مخلفهم ، ولما بلغوا مأمنهم من القفر نبدوا إلى أبي زيّان عهده ، فلحق بجبال غمرة ، ووفد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتلمسان ، وفاؤا إلى طاعته فتقبل طاعتهم ، وأعادهم إلى أوطانهم ، وتقدّم الوزير عن أمر السلطان بالمسير مع أولاد يحيى بن علي بن سباع للقبض على أبي زيّان في جبل غمرة ، وفاء بحق الطاعة لأنّ غمرة من رعاياهم ، ففضينا لذلك ، فلم نجده عندهم ، وأخبرونا أنه ارتحل عنهم إلى بلد واركلا من مدن الصحراء ، فترل على صاحبها أبي بكر بن سليمان ، فانصرفنا من هنالك ، ومضى أولاد يحيى بن علي إلى أحيائهم ، ورجعت أنا إلى أهلي ببسكرة ، وخطبت السلطان بما وقع في ذلك ، وأقمت منتظراً أوامره حتى جاءني استدعاؤه إلى حضرته فرحلت إليه .

* (فضل الوزير ابن الخطيب^(٢)) *

وكان الوزير ابن الخطيب آيةً من آيات الله في النظم والنثر ، والمعارف والأدب ؛ لا يُساجل مداه^(٣) ، ولا يُهتدى فيها بمثل هُدهاه .
فمِمَّا كَتَبَ عن سلطانه إلى سلطان تونس جواباً عن كتابٍ وصل إليه مضموناً بهديّة من الخيل والرقيق ، فراجعهم عنه بما نصّه إلى آخره :
الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستقلت مباني فخرها الشائع ، وعزها الذائع ، على ما أسسه الأسلاف ووجب لحقها الجازم ، وفرضها اللازم الاعتراف ، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحبية والأكناف ؛ فامتراجنا بعلامتها^(٤) المنيف ، وولاتها الشريف ، كما امترج الماء والسلاف ، وثناؤنا

(١) يعني : الجمال والخيول .

(٢) هذا الفصل غير موجود في نسختنا وقد أضفناه من نسخة بولاق المصرية ، طبعة دار الكتاب اللبناني حتى لا يفوت شيء عن القارىء من هذا الكتاب النفيس .

(٣) المدّ : مصدر المدى ، يقال بيني وبينه قدر مدّ البصر «أي مداه» .

(٤) العلاء والعلی : الرفعة والشرف .

على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرجت الرياض الافواف^(١) ، لما زارها الغمام الوكاف^(٢) ؛ ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يسموبه إلى قرع أبواب السموات العُلا الاستشرف^(٣) ، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة ، وفواضلها^(٤) العَميمة ، لا تحصره الحدود ، ولا تُدرکه الأوصاف ، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف . خلافةً وجهةً تعظيمنا إذ توجَّهت الوجوه ومن نُؤثره إذا أهمنا ما نرجوه ، ونُقديّه ونُبديّه^(٥) إذا استُمنح المحقوب واستُدفع المكروه السلطان الكذا^(٦) بن أبي إسحق بن السلطان الكذا ، أبي يحيى بن أبي بكر بن السلطان الكذا ، أبي زكرياء بن السلطان الكذا ، أبي اسحق ابن الأمير الكذا ، أبي زكرياء ابن الشيخ الكذا ، أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص ، أبقاه الله ومقامه مقام إبراهيم رزقاً وأماناً . لا يخص جلب الثمرات إليه وقتاً ولا يعين زماناً ؛ وكان على من يتخطَّفُ الناس من حوله^(٧) مؤيداً بالله مُعاناً . معظمُ قدره العالي على الاقدار ، ومُقابلُ داعي حقه بالابتدار ، المُثنى على معاليه المخلدة الآثار ، في اصونة^(٨) النُّظام والنُّثار^(٩) ، ثناء الروضة المِعطار ، على الامطار ، الداعي الى الله بطول بقائه في عصمة مُسدلة الاستار ، وعزة ثابتة المركز مستقيمة المدار ، وان يختم له بعد بلوغ غايات الحال ، ونهاية الاعمال ، بالزلني وعقبى الدار .

عبدالله الغني بالله امير المسلمين ، محمد بن مولانا أمير المسلمين ، أبي الوليد اسماعيل ابن فرج بن نصر .

(١) كذا بالاصول ؛ ولعل أصل الكلام : « الرياض بالافواف » ؛ والفوف ، بالضم : الزهر والجمع أفواف .

(٢) وكف الماء : سال .

(٣) الاستشرف : التطلع الى الشيء .

(٤) الفواضل : الايادي الجميلة .

(٥) فداه : قال له فداك ؛ ونبديه : نبرزه . ولعل المعنى : نضعه في مكان ممتاز .

(٦) ادخل ابن الخطيب « ل » على « كذا » الموضوعه للكناية عما لم يرد المتكلم ذكره وقد شاع في رسائله هذا الاستعمال .

(٧) اشارته الى الايات ٣٥ — ٣٧ من سورة ابراهيم واضحة .

(٨) جمع صوان ، وهو ما صنت به الشيء .

(٩) النثار : النثر .

سلام كريم كما حملت احاديث الازهار نسبات الاسحار ، وروت ثغور الاقاحي
والبهار ، عن مُسَلِّسات الانهار ، وتجلي على منصة الاشتهار ، وجه عروس النهار ؛
يَخْصُ خلافتكم الكريمة النجار ، العزيزة الجار ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي أخفى حكمته البالغة عن اذهان البشر ، فعجزت عن
قياسها ، وجعل الارواح « اجناداً مجنّدة » — كما ورد في الخبر^(١) — تحنُّ الى
أجناسها ، مُنْجِدُ هذه المِلَّة من أوليائه الجِلَّة بمن يروض الآمال بعد شياسها^(٢) ،
ويُسِرُّ الأغراض قبل التماسها ، ويُعنى بتجديد المودّات في ذاته وابتغاء مرضاته على
حين أخلاف لباسها ؛ الملك الحقُّ ، وأصلُ الأسباب بحوله بعد انتكاث امراسها^(٣)
ومغني النفوس بطوله ، بعد إفلاسها — حمداً يُدرُّ أخلاف^(٤) النعم بعد
إبساسها^(٥) ، وينشر رَمَمَ الأموال من أرماسها^(٦) ، ويقدِّسُ النفوس بصفات
ملائكة السموات بعد إبلاسها^(٧) .

والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسولهِ سراج الهداية ونبراسها^(٨) عند اقتناء
الأنوار واقتباسها ، مُطَهِّرُ الأرض من أوضارها^(٩) وأدناسها ، ومُصَطِّفِي اللهِ من بين
ناسها ، وسيّد الرُّسُل الكرام ما بين شيثها ولباسها ، الآتي مُهَيِّمِناً على آثارها ، في
حين فترتها^(١٠) ومن بعد نُصْرَتها واستيئاسها^(١١) ، مُرْغِمُ الضَّرَغم في أخياسها^(١٢) ،
بعد افترارها وافتراسها^(١٣) ، ومُعَفِّرُ أجرام الأصنام ومُصَمِّتُ أجراسها .

(١) يشير الى الحديث : « الارواح جنود مجنّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

(٢) شمست الدابة شماسا . شردت وجمحت .

(٣) جمع مرس ؛ وهو الحبل . وانتكث الحبل . انتقض بعد ان كان مبرما .

(٤) الاخلاف ، جمع خِلف (بالكسر) ؛ وهو الضرع .

(٥) ايس بالناقاة . دعا ولدها لتدر على حالها .

(٦) جمع رمس ؛ وهو القبر .

(٧) الإبلاس : القنوط ، وقطع الرجاء .

(٨) النبراس (بالكسر) : المصباح .

(٩) اوضارها : ج وضر : وسخ .

(١٠) الفترة : ما بين كل نبين ، أو رسولين من زمان انقطعت فيه الرسالة .

(١١) استيأس : يشس ؛ وابن الخطيب ينظر الى الآية : « حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا
جاءهم نصرنا ... الخ » .

(١٢) جمع خيس ؛ وهو موضع الأسد .

(١٣) افتراس الأسد : أبدى أسنانه ؛ يريد بعد أن كانت تفر عن أسنانها وتفرس .

والرُّضا عن آله وأصحابه وعِثرته وأحزابه ، حَمَاة شِرْعَتِهِ الْبَيْضَاءُ وَحِرَاسِيهَا ، وَمُلْقِيهَا
غِرَاسِيهَا ، لِيُوْثُ الْوُغْيَى عِنْدَ احْتِدَامِ (١) مِرَاسِيهَا (٢) ، وَرُهْبَانِ الدُّجَى تَتَكْفَلُ مُنَاجَاةَ
السَّمِيعِ الْعَلِيمِ ، فِي وَحْشَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ بِإِيْنِاسِيهَا ، وَتُفَاوِحُ نَسِيمَ الْأَسْحَارِ ، عِنْدَ
الِاسْتِغْفَارِ ، بِطِيبِ أَنْفَاسِيهَا .

وَالدُّعَاءُ لِمُخْلَافَتِكُمْ الْعَلِيَّةَ الْمُسْتَنْصِرِيَّةَ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي تُشْعِشِعُ أَيْدِي الْعِزَّةِ الْقَعْسَاءِ (٣)
مِنْ أَكْوَاسِيهَا ، وَلَا زَالَتِ الْعِصْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ كَفِيلَةً بِاحْتِرَامِهَا وَاحْتِرَاسِيهَا ، وَأَنْبَاءُ الْفَتْوحِ ،
الْمُؤَيَّدَةِ بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ، رِيحَانَ جُلَاسِيهَا وَآيَاتِ الْمَفَاخِرِ الَّتِي تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ ،
مُكْتَتَبَةَ الْأَسْطَارِ بِأَطْرَاسِيهَا ، وَمِيَادِينَ الْوُجُودِ مَجَالًا لِجِيَادُ جُودِهَا وَبَاسِيهَا ، وَالْعِزُّ
وَالْعَدْلُ مَنْسُوبَيْنِ لِفُسْطَاطِهَا (٤) وَقُسْطَاسِيهَا ، وَصَفِيحَةَ (٥) النَّصْرِ الْعَزِيزِ تَقْبِضُ
كَفُّهَا ، الْمُؤَيَّدَةَ بِاللَّهِ ، عَلَى رِيَاسِيهَا (٦) ، عِنْدَ اهْتِيَاجِ أَضْدَادِهَا ، وَشَرَّهُ (٧)
أَنْكَاسِيهَا (٨) ، لِانْتِهَابِ الْبِلَادِ وَانْتِهَاسِيهَا (٩) وَهَبُوبِ رِيَّاحِ رِيَاحِيهَا وَتَمَرْدِ
مِرْدَاسِيهَا (١٠) .

فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ — كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ كِتَابِ نَصْرِهِ أَمْدَادًا تُدْعِنُ أَعْنَاقَ الْأَنَامِ ،
لِطَاعَةِ مَلِكِكُمْ الْمَنْصُورِ الْأَعْلَامِ ، عِنْدَ إِحْسَاسِيهَا (١١) ، وَأَتَاكُمْ مِنْ آيَاتِ الْعَنَائَاتِ ،
آيَةً تَضْرِبُ الصَّخْرَةَ الصَّبَاءَ ، مِمَّنْ عَصَاهَا بَعْصَاهَا ، فَتُبَادِرُ بِأَنْبِجَاسِيهَا (١٢) ، — مِنْ

(١) الاحتدام : شدة الحر ، واحتدمت النار : التهمت .

(٢) المراس : الممارس .

(٣) عزة قعساء : ثابتة .

(٤) الفسطاط : المدينة ، ومجتمع أهل المصر حول جامعهم .

(٥) الصفيحة : السيف العريض .

(٦) رئاس السيف ، ورياسه : مقبضه ، وقامه .

(٧) الشرة : شدة الحرص ، وأسوؤه .

(٨) الأنكاس : جمع نكس ؛ وهو الرجل الضعيف .

(٩) انتهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه . والمراد الاستيلاء على الأراضي وانتقاصها من الأطراف ، فعل من
يتنقص قطعة اللحم بالأكل .

(١٠) رياح من أكثر القبائل الهلالية جمعاً ، وأوفرهم عدداً . وأبوهم : رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن
هلال بن عامر . والرياسة على رياح في عهد ابن خلدون لأبناء داود بن مرداس بن رياح ؛ وإلى داود
هذا تنتسب «الدواودة» .

(١١) الإحساس : الرؤية والعلم .

(١٢) انبجس الماء : تفجر ؛ وفي الكلام معنى الآية :

«... وأوحينا إلى موسى إذ استسقاها قومه أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا الخ»

آية ١٦٠ من سورة الأعراف .

حراءِ غرناطة ، حرسها الله ، وأيامُ الإسلام ، بعناية الملك العلام تحتفلُ وفودُ
الملائكة الكرام ، لولائمها وأعراسها ، وطّاعين الطّعان ، في عدوِّ الدين المُعان ،
تجددُ عهدَها بعامِ عمّواسها (١) .

والحمد لله حمداً مُعاداً يُقيّدُ شوارِدَ النّعم ، ويستدِرُّ مواهبَ الجودِ والكرمِ ويومِنُ
من انتكاثِ الجدود (٢) وانتكاسها (٣) ، وليّ الآمالِ ومكاسها (٤) ، وخلافتكم هي
المثابة التي يُزهِى الوجودُ بمحاسِنِ مجدِّها ، زهُو الرِياضِ بوزدِها وآسِها ، وتُستمد
أضواءُ الفضائلِ من مقباسها (٥) ، وتروِي رُواة الإفاضة ، والإجادة غريبَ
الوجادة (٦) ، عن ضحّاكها وعبّاسها (٧) . والى هذا أعلى الله معارجَ قدرِكم ، وقد
فعل ، وأنطق بحُجَجٍ فخرِكم من احتفى وانتعل ، فإنّه وصلنا كتابكم الذي
حسبناه ، على صنائعِ الله لنا ، تميمة (٨) لا تُلقع (٩) بعدها عين ، وجعلناه — على
حُلِّ مواهبه — قِلادةً لا يُحتاجُ معها زين ، ودعواناه من جيبِ الكِنانة (١٠) آيةً
بيضاءَ الكِتابة ، لم يبقَ معها شكٌّ ولا مَين ، وقرّأنا منه وثيقةً ودُّهُضِمَ فيها عن
غريمِ الزّمانِ دين ، ورأينا منه إنشَاءً ، خَدَمَ اليراعُ بينَ يديه وشَاءً ، واحتزم
بهميان (١١) عُقدته مَشَاءً ، وسُئِلَ عن معانيه الاختراعَ فقال : «إنا أنشأناهُنَّ

(١) عمّواس ، بفتح العين والميم ، وبسكون الميم مع فتح العين أو كسرهما : قرية بفلسطين بين الرملة وبيت المقدس . وفيها وقع الطاعون الذي كان في سنة ١٨ هـ ، مات فيه كثير من الناس ، ويقال انه أول طاعون كان في الإسلام . تاريخ الطبري ٤/٢٠١ — ٢٠٣ ، معجم البلدان ، تاج العروس (عمس) .

(٢) انتكث : انصرف . والجد : الحظ والبخت ، والجمع : الحدود .

(٣) أنتكس : انقلب على رأسه ، وخاب وخسر .

(٤) المكاس : المشاحة ، والمشاكسة .

(٥) أقبس فلان : أعطى ناراً ، والمقباس : ما قبست به النار .

(٦) الوجادة (بالكسر) : أن تجد بخط غيرك شيئاً ، فتقول عند الرواية : وجدت بخط فلان كذا ؛ وحينذاك يقال : «هذه رواية بالوجادة» .

وللمحدثين في كيفية التحديث عن طريق الوجادة ، ودرجة الثقة بها ، وشروطها ؛ تفصيل تجده في «فتح المغيث» للعراقي ٣/١٥ وما بعدها .

(٧) المسمون بـ «الضحاك» ، و«عباس» من المحدثين كثير ، وليس يريد ابن الخطيب أحداً منهم بعينه ، وإنما يقصد الى «الطباق» بين ضحاك ، وعباس .

(٨) التميمة : عوذة تعلق على الانسان يتعود بها .

(٩) لقعته بعينه : أصابه بها ، ويقول أبو عبيدة : ان اللقع لم يسمع الا في الإصابة بالعين .

(١٠) الكِنانة : جعبة الشهام تتخذ من جلود لا خشب فيها .

(١١) الهميان (بالكسر) : المنطقة ؛ والكلام على تشبيه القلم المتخذ من القصب ، وفي وسطه عقدة ، بالرجل قد اتخذ منطقة في وسطه .

إِنْشَاءً ، فَأَهْلًا بِهِ مِنْ عَرَبِيٍّ أَبِي يُصِفُ السَّانِحَ وَالْبَانَةَ (١) ، وَيُبَيِّنُ فَيُحْسِنُ
 الْإِبَانَةَ ، أَدَى الْأَمَانَةِ ، وَسُئِلَ عَنْ حَبِيٍّ فَاتَمَى إِلَى كِنَانَةَ (٢) ، وَأَفْصَحَ وَهُوَ لَا
 يَنْبَسُ (٣) ، وَتَهَلَّلَتْ قَسَبَاتُهُ وَلَيْلُ حَبْرِهِ يَعْبِسُ ، وَكَأَنَّ خَاتَمَهُ الْمُقْفَلَ عَلَى
 صِوَانِهِ (٤) ، الْمُتَحِفَ بِبَاكِرِ الْوَرْدِ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ ، رَعَفَ مِنْ مِسْكَ عُنْوَانِهِ ؛ وَلِلَّهِ مِنْ
 قَلَمٍ دَبَّجَ تِلْكَ الْحُلَلَ ، وَنَقَعَ بِمُجَاجِ (٥) الدَّوَاةِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ
 الْغُلَّلِ (٦) ؛ فَلَقْدَ تَخَارَقَ فِي الْجُودِ ، مُقْتَدِيًا بِالْخَلَاةِ الَّتِي خَلَدَ فَاخْرُهَا فِي الْوَجُودِ ،
 فَجَادَ بِسِرِّ الْبَيَانِ وَلُبَابِهِ ، وَسَمَحَ فِي سَبِيلِ الْكَرَمِ حَتَّى بَمَاءِ شَبَابِهِ ، وَجَمَعَ لِفَرْطِ
 بَشَاشَتِهِ وَفَهَامَتِهِ ، بَعْدَ شَهَادَةِ السَّيْفِ بِشَهَامَتِهِ ، فَمَشَى مِنَ التَّرْحِيبِ ، فِي الطَّرْسِ
 الرَّحِيبِ ، عَلَى أُمِّ هَامَتِهِ .

وَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ حَكِيمٍ ، أَفْصَحَ بِمَلْفُوزِ (٧) الْإِكْسِيرِ (٨) ، فِي اللَّفْظِ الْيَسِيرِ ، وَشَرَحَ
 بِلِسَانِ الْخَبِيرِ ، سِرَّ صِنَاعَةِ التَّدْبِيرِ (٩) ، كَأَنَّهَا خَدَمَ الْمَلِكَةَ السَّاحِرَةَ (١٠) بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،
 قَبْلَ اسْتِجَارِ الْجِلَادِ (١١) ، فَآثَرْتَهُ بِالطَّارِفِ مِنْ سِحْرِهَا وَالتَّلَادِ ، أَوْ عَثَرَ بِالْمُعَلَّقَةِ ،
 وَتِيكَ الْقَدِيمَةَ الْمُطَلَّقَةَ ، بِدَفِيَةِ دَارِ ، أَوْ كَثُرَتْ تَحْتَ جِدَارِ ، أَوْ ظَفِرَ لِبَانِي

- (١) السانح : ما أتاك من عن يمينك من ظبي أو طير ؛ وهو مما يتيمنون به . والبانة واحدة البان ؛ وهو شجر
 يسمو ويطول في استواء مثل نبات الأثل ، ويتخذ منه دهن .
 (٢) كنانة بن خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر ، أبو القبيلة ؛ وهو الجد الرابع للرسول صلى الله عليه
 وسلم .
 (٣) التبس : أقل الكلام ؛ وما نبس بكلمة : أي ما تكلم .
 (٤) الصوان : ما تصون به الشيء .
 (٥) مجاج الدواة : ما تمجه .
 (٦) نفع الماء غلته : أروي عطشه .
 (٧) كذا في الأصول . والصواب « ملغز » ، لأن فعله رباعي .
 (٨) الإكسير : الكيمياء وهي كلمة مولدة . ولأهل الصنعة في الإكسير كلام مغلق طويل فيه العجب .
 ويطلقون الإكسير أيضا على « الحجر المكرم » ؛ وهو المادة التي تلقى على المواد حال ذوبانها ، فتحولها إلى
 ذهب أو فضة بزعمهم . وانظر تاج العروس (كسر) .
 (٩) صناعة التدبير : يعني بها تحويل المعادن إلى الذهب أو الفضة ؛ وتلك كانت ، ولا تزال ، مشكلة
 المشتغلين بعلم الكيمياء القديم .
 (١٠) يعني بالملكة الساحرة الكاهنة البربرية ، من قبيلة جراوة إحدى قبائل زناتة .
 (١١) اشترج القوم : تشابكوا ، وتشاجروا بالرماح : تطاعنوا . والجلاد : الضرب بالسيف .

الحنايا^(١) ، قبل أن تقطع به عن أمانيه المنايا ، بيديعة ، أو خلف جرجير^(٢) الروم ، قبل منازلة القروم ، على وديعة ، أو أسلمه ابن أبي سرح^(٣) ، في نسب للفتح وسرح^(٤) ، أو حتم له روح بن حاتم^(٥) ببلوغ المطلب ، أو غلب الحظوظ بخدمة آل الأغلب^(٦) ، أو خصه زيادة الله بمزيد^(٧) ، أو شارك الشيعة في أمر أبي يزيد^(٨) ، أو سار على منهاج ، في مناصحة بني صنهاج ، وفضح بتخليد أمداحهم كل هاج .

وأعجب به ، وقد عزز منه مثنى البيان بثالث ، فجلب سحر الأسباع ، واسترقاق الطباع ، بين مثنى للإبداع ومثالث ، كيف اقتدر على هذا المحيد ، وناصح مع التثليث مقام التوحيد ؛ نستغفر الله ولي العون ، على الصمت والصون ، فالقلم هو الموحد قبل الكون ، والمتصف من صفات السادة ، أولي العبادة ، بضمور الجسم

(١) الحنايا : جمع حنية ، وهي القوس . ويريد بها : مجرى الماء الذي اجتلب الى «قرطاجنة» ووضع على أعمدة عالية ، عقدت بأقواس وصلت بين عدة جبال منحازة من بعض ، ثم أجرى الماء فوق هذه «الحنايا» العالية . وكانت المسافة بين قرطاجنة ، وبين منبع الماء ثلاثة أيام ؛ ولا تزال بقايا هذه موضع العبارة من مشاهديها . انظر ياقوت — (معجم البلدان) .

(٢) هو الطريق الذي كانت له الولاية على المغرب من قبل الإمبراطور البيزنطي . وقد انفصل عن بيزنطة ، واستقل بالمغرب عند الفتح الاسلامي ؛ والعرب يسمونه جرجير . وابن الخطيب يشير الي ما كان من الحوادث بين الجيش الاسلامي ، وبين جرجير أيام الفتح .

(٣) هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح ؛ كان كتاب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ، وأهدر دمه يوم فتح مكة ؛ وكان محمد بن أبي بكر الصديق يقول عنه حين ولي مصر : انه لم يعد الى الاسلام بعد رده . ابن الأثير ٥٧/٣ ، ٨٢ .

(٤) النسب : المال والعقار ؛ والسرح : المال يسام في المرعى ، يغدى به ويراح . وقد صالح أهل افريقية عبدالله بن أبي سرح على مليونين وخمسمائة ألف ديناراً ، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألفاً ، وقد أصبح هذا المبلغ مضرب المثل ، والى ذلك ينظر ابن الخطيب . انظر العبرم ٢ .

(٥) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ؛ كان من الكرماء الأجواد . ولي الكوفة ، ثم السند ، ثم البصرة أيام المهدي ؛ وولي افريقية أيام الرشيد ، وبها توفي سنة ١٧٤ . وفيات الأعيان ٢٣٥/١ .

(٦) هو الأغلب بن سالم ، أحد الذين قاموا مع أبي مسلم الخراساني بالدعوة العباسية ، وتولى الأغلب أيام المنصور ولاية القيروان ؛ وابنه ابراهيم بن الأغلب ، هو رأس دولة الأغالبة بتونس ، التي تبتدىء سنة ١٨٤ هـ ، وتنتهي سنة ٢٩٦ هـ .

(٧) زيادة الله هو ثاني ملوك بني الأغلب ، (٢٠١ — ٢٢٣) قلده الخليفة المأمون العباسي .

(٨) هو أبو يزيد : مخلد بن كيداد (أو كداد) بن سعدالله بن مغيث اليفرنى ، وقد عرف أيضا بصاحب الحمار .

وَصُفْرَةُ اللَّوْنِ ؛ إِنَّمَا هِيَ كِرَامَةٌ فَارُوقِيَّةٌ ، وَأَثَارَةٌ^(١) مِنْ حَدِيثِ سَارِيَةَ^(٢) وَبَقِيَّةٌ ؛ سَفَرٌ وَجْهٌ فِي الْأَعْقَابِ ، بَعْدَ طَوْلِ الْإِنْتِقَابِ ، وَتَدَاوُلُ الْأَحْقَابِ ؛ وَلِسَانٌ مُنَابٌ ، عَنْ كَرِيمِ جَنَابٍ ؛ وَإِصَابَةُ السَّهْمِ لِسَوَاهِ مَحْسُوبَةٍ ، وَإِلَى الرَّامِي الَّذِي سَدَّدَهُ مَنَسُوبَةٌ ؛ وَلَا تُنَكِّرُ عَلَى الْغَمَامِ بَارِقَةً ، وَلَا عَلَى الْمُتَحَقِّقِينَ بِمَقَامِ التَّوْحِيدِ كِرَامَةً خَارِقَةً ، فَمَا شَاءَهُ الْفَضْلُ مِنْ غَرَائِبٍ بَرٍّ وَجَدَّ ، وَمَحَارِبِ خُلِقَ كَرِيمٍ رَكَعَ الشُّكْرَ فِيهَا وَسَجَدَ ؛ حَدِيقَةٌ بَيَانٍ اسْتَثَارَتْ نَوَاسِمَ الْإِبْدَاعِ مِنْ مَهَبِّهَا ، وَاسْتَرَارَتْ غَنَائِمَ الطَّبَاعِ مِنْ مَصَبِّهَا ، فَآتَتْ أَكْلَهَا مَرَّتَيْنِ بِإِذْنِ رَبِّهَا ؛ لَا . بَلْ كَتَيْبَةٌ عَزُّ طَاعَنَتْ بِقِنَا^(٣) الْأَلِفَاتِ سَطُورُهَا ، فَلَا يَرُونَهَا النَّقْدُ وَلَا يَطُورُهَا^(٤) ، وَنَزَعَتْ عَنِ قِسِيِ النَّوْنَاتِ خَطُوطُهَا ، وَاصْطَفَّتْ مِنْ بِيَاضِ الطَّرْسِ^(٥) ، وَسَوَادِ النَّفْسِ ، بُلُقُ^(٥) تَحُوطُهَا .

فَمَا كَأْسُ الْمُدِيرِ ، عَلَى الْغَدِيرِ^(٦) ، بَيْنَ الْخَوْرَتِقِ^(٧) وَالسَّدِيرِ^(٨) ، تَقَامِرِ بَنَرْدِ^(٩) الْعَبَابِ ، عُقُولَ ذَوِي الْأَلْبَابِ ، وَتُغْرِقُ كِسْرَى فِي الْعُبَابِ^(١٠) ، وَتُهْدِي ، — وَهِيَ الشَّمْطَاءُ^(١١) — نَشَاطَ الشَّبَابِ ؛ وَقَدْ أَسْرَجَ ابْنُ سَرِيحٍ^(١٢) وَالْجَمَّ ، وَأَفْصَحَ

(١) الأثارة البقية .

(٢) يشير إلى قصة سارية بن زينب بن عمر بن عبد الله بن جابر الكناني أمير الجيش الإسلامي في وقعة «نهاوند» ؛ فقد كمن له العدو في جبل ، ولم يكن قد علم به ، فناداه عمر رضي الله عنه من فوق المنبر بالمدينة يحذره «يا سارية ! الجبل !» فسمع سارية صوت عمر . وهي كرامة ذكروها للفاروق رضي الله عنه . تاج العروس (سري) .

(٣) جمع قنأة ؛ وهي الرمح .

(٤) لا يطورها : لا يقرب إليها .

(٥) الطرس : الصحيفة التي محيت ثم كتبت . والنفس : الحبر . وبلق : جمع أبلق ، أو بقاء ؛ وهي الخيول التي في لونها سواد وبياض .

(٦) يشير إلى قصة امرئ القيس يوم الغدير ، وهو يوم دارة جلجل .

(٧) الخورتق : قصر النعمان بن المنذر بظاهر الحيرة .

(٨) السدير قصر للنعمان أيضاً بالحيرة ، قريب من الخورتق .

(٩) النرد : أعجمي معرب ، وورد في الحديث : «نردشير» ؛ وهو نوع مما يقامر به .

(١٠) بنى كسرى أبرويز — فوق دجلة — بناء اتخذه لمجالس أنسه ، ففاضت دجلة وأغرقت مرات ، أنقذ

كسرى فيها من الغرق — وإلى ذلك يشير ابن الخطيب . انظر الطبري ١٤٤/٢ — ١٤٥ .

(١١) امرأة شمطاء : بيضاء الشعر ؛ ويكنى بذلك عن قدم الخمر .

(١٢) أبو يحيى عبيد الله بن سريح المغني المعروف .

الفَرِيضُ^(١) بعدَ ما جَمَعَم ، وأعربَ النَّايُ^(٢) الأَعَجَم ، ووقَّعَ مَعْبَدَ^(٣) بالقضيب ، وشرَّعت في حساب العَقْد^(٤) بَنانُ الكَفِّ الخَضِيب ، وكانَ الأناملَ فوقَ مِثَالِ العُودِ ومِثانِيهِ ، وعندَ إِغراءِ الثَّقِيلِ بَثانِيَةِ^(٥) ، وإجابةِ صَدَى الغِناءِ بينَ مغانِيهِ ، المِراودُ تَشَرَّعَ في الوَشْيِ ، أو العِناكبُ تُسَرِّعُ في المَشْيِ ؛ وَمَا المُخْبِرُ بِنَيْلِ الرِّغائبِ ، أو قُدومِ الحَبِيبِ الغائبِ ؛ لا . بل إِشارةُ البَشِيرِ ، بكمِّ المُشِيرِ ، على العَشِيرِ ، بأَجَلَبَ للسرورِ ، من زائِرِهِ المِتلَقَى بالبرورِ ، وأدَّعَى للحبورِ ، من سفيرِهِ المُبهِجِ السَّفورِ ؛ فلم نَرَ مثله من كَتِيبَةِ كِتابِ تَجُنَّبُ^(٦) الجُرْدَ ، تَمَرِحُ في الأُرْسَانِ^(٧) ، وتَتَشَوَّفُ مَجالي ظُهورِها إلى عرائسِ الفُرسانِ ، وتَهزُّ مِعاظِفَ^(٨) الارتياحِ ، من صَهيلِها الصِّراحِ ، بالثَغَماتِ الحِسانِ ؛ إذا أوجَسَتِ الصَّرِيخَ نازَعَتِ أَفْئاءَ الأَعِنَّةِ ، وكاثَرَتِ بأَسِنَّةِ آذانِها مُبْشِرَةَ الأَسِنَّةِ ؛ فَإِنَّ ادَّعَى الظَّلِيمَ^(٩) أَشْكالِها فهو ظالمٌ ، أو نازَعِها الظُّبْيُ هَوادِيها^(١٠) وأَكفأها فهو هادٍ أو حالمٌ ، وإن سُئِلَ الأَصْمَعِيُّ^(١١) عن عيوبِ الغُرْرِ والأَوْضاحِ^(١٢) ، قالَ مشيراً إلى وجوهِها الصِّباحِ^(١٣) :

- (١) أبو يزيد ، وأبو مروان : عبد الملك . ولقب بالفريص لأنه كان طري الوجه غض الشباب ؛ وهو من مولدي البربر . أخذ الغناء عن ابن سريج ، وعارضه في كل أصواته .
- (٢) الناي : المزمار .
- (٣) هو معبد بن وهب المغني المعروف . غنى في دولة بني أمية ، ومات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق .
- (٤) حساب العقد ، ويسمى حساب العقود أيضا : نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين ، ويقال له حساب اليد ؛ وفي الحديث : «وعقد عقد تسعين» . وقد ألفوا فيه رسائل وأراجيز ، منها أرجوزة أبي الحسن علي الشهير بابن المغربي ، وشرحها عبد القادر بن علي بن شعبان العوفي .
- (٥) كذا في الأصول ؛ ومقتضى السياق : «الثقيل الأول بثنائه» .
- (٦) من الجنب : وهو أن تجنب فرساً عربياً عند الرهان إلى الفرس الذي تسابق عليه ، فإذا فتر المركوب ، تحولت إلى الجنوب . ويريد أن هذه الرسالة بمنزلة خيول احتياطية .
- (٧) جمع رسن ؛ وهو الحبل يتخذ زمماً للدابة وغيرها .
- (٨) المِعاظِفُ : الأردية ؛ والعرب تضع الرداء موضع البهجة ، والحسن ، والبهاء ، والنعمة .
- (٩) الظليم : فرس فضالة بن هند بن شريك الأسدي . والظلم ذكر النعام .
- (١٠) هَوادِي الخيل : أعناقها .
- (١١) عبد الملك بن قريب ، اللغوي المشهور (١٢٢ - ٢١٦) ، على خلاف في المولد والوفاة . وابن الخطيب يشير إلى ما عرف عن الأصمعي من خبرته الواسعة بالخيل ؛ وله في ذلك مع أبي عبيدة معمر بن المنذر قصة طريفة . انظرها في ترجمة الأصمعي في وفيات ابن خلكان ٣٦٢/١ .
- (١٢) جمع غرة : وهي البياض ؛ والوضح : البياض أيضاً . ويكنى به في الفرس عن البرص ، والجمع أوضاح .
- (١٣) وجه صبيح : جميل ، والجمع صباح .

« جَلْدَةٌ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ »^(١)

من كلِّ عَبلِ الشَّوَى^(٢) ، مُسَابِقٌ لِلنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، سَامِي التَّلِيلِ^(٣) ، عَرِيضٌ مَا
تَحْتَ الشَّلِيلِ^(٤) ، مَمْسُوحَةٌ أَعْطَافُهُ بِمَنْدِيلِ النَّسِيمِ الْبَلِيلِ .
من أَحْمَرَ كَالْمُدَامِ ، تُجَلِّي عَلَى النَّدَامِ^(٥) ، عَقِبَ الْفِدَامِ^(٦) ، أَتَحْفَ لَوْنُهُ بِالْوَرْدِ ،
فِي زَمَنِ الْبَرْدِ ، وَحِيَّيْ أَفْقُ مُحْيَاةٍ بِكُوكَبِ السَّعْدِ ، وَتَشَوَّفُ الْوَاصِفُونَ إِلَى عَدِّ
مَحَاسِنِهِ فَأَعَيْتُ عَلَى الْعَدِّ ؛ بَحْرٌ يُسَاجِلُ الْبَحْرَ عِنْدَ الْمَدِّ ، وَرِيحٌ تُبَارِي الرِّيحَ عِنْدَ
الشَّدِّ^(٧) ، بِالذَّرَاعِ الْأَشَدِّ^(٨) ؛ حَكَمٌ لَهُ مُدِيرٌ فَلَكِ الْكَفَلُ بِاعْتِدَالِ فَضْلِ الْقَدِّ ،
وَمِيْزُهُ قَدْرُهُ الْمَمِيْزُ عِنْدَ الْاِسْتِبَاقِ ، بِقَصَبِ السَّبَاقِ^(٩) ، عِنْدَ اعْتِبَارِ الْحَدِّ ، وَوَلَدٌ
مُخْتَطٌ غُرَّتْهُ أَشْكَالُ الْجَمَالِ ، عَلَى الْكَمَالِ ، بَيْنَ الْبِيَّاضِ وَالْحُمْرَةِ وَنَقَاءِ الْخَدِّ ؛
وَحِفْظُ رِوَايَةِ الْخَلْقِ الْوَجِيهِ^(١٠) ، عَنِ جَدِّهِ الْوَجِيهِ^(١١) ، وَلَا تُنْكَرُ الرِّوَايَةُ عَلَى الْحَافِظِ
ابْنِ الْجَدِّ^(١٢) .

(١) شطربيت قاله عبدالله بن عمر لما لامه الناس في حب ابنه سالم ، وأوله :

يديروني عن سالم وأريغهم * وجلدة الخ

وجعله لمحبه بمنزلة جلدة بين عينه وأنفه . وفي الحديث : « لا تؤذوا عمارا ، فانما عمار جلدة ما بين
عيني » .

وسالم هذا ، يكنى أبا عمر ، وأبا المذر ، من خيار الناس ، وفقهائهم . مات بالمدينة سنة ١٠٦ .
لسان العرب (سلم) .

(٢) شوى الفرس : قوائمه ؛ وعبل الشوى : غليظ القوائم .

(٣) التليل العنق .

(٤) التليل الحلس ، والكساء الذي يجعل تحت الرجل .

(٥) جمع نديم وهو الشريب الذي ينادمك .

(٦) الفدام الخرقه التي يضعها الساق من الأعاجم ، والجوس على فمه عند السقي . وكانت عاداتهم ، اذا
سقوا ، ان يقدموها افواههم . وفدام الابريق ، والكوز : المصفاة التي توضع عليه .

(٧) الشد : العدو .

(٨) الأشد الأقوى ؛ يقال حلبتها بالساعد الأشد ، أي حين لم اقدر على الرفق ، أخذت الأمر بالشدة
والقوة .

(٩) كانت الغاية التي يحددونها للسباق تدرع بالقصب ، ثم تركز القصبه في منتهى الغاية ؛ فمن سبق اقتلعها
وأخذها ، ليعلم الناس أنه السابق من غير نزاع ، ويقال حاز أو أحرز قصبه سبق . تاج (قصب) .

(١٠) الوجيه : ذوالجاه .

(١١) الوجيه : فرس من خيل العرب نجيب .

(١٢) يومي ابن الخطيب الى أبي بكر محمد بن عبدالله بن فرج الفهري المعروف بابن الحد
(٤٩٦ — ٥٨٦) . اصله من « لبله » ، واستوطن إشبيلية ، وعاصر ابن رشد الفقيه ، وأبا بكر بن
العربي .

وأشقر ، أبي الخلق ، والوجه الطلق أن يحفر ، كأنها صيغ من العسجد ، وطرف بالدر وأنعل بالزبرجد ، ووسم في الحديث بسمة اليمن والبركة (١) ، واختص بفلج (٢) الخصاص ، عند اشتجار المعركة ، وانفرد بمضاعف السهام ، المنكسرة على الهام ، في الفرائض المشتركة (٣) ؛ واتصف فلك كفه بحركتي الإرادة والطبع من أصناف الحركة ، أصغى إلى السماء بأذن ملهم ؛ وأغرى لسان الصهيل — عند التباس معاني الهمز والتسهيل — ببيان المبهم ؛ وفنت العيون من ذهب جسمه ، ولجئن نجمه ، بالدينار والدرهم ؛ فإن انقض فرجم ، أوريح لها حجم ، وإن اعترض فشفق لاح به للنجم نجم .

وأصفر قيد الأوابد الحررة ، وأمسك المحاسن وأطلق الفررة ، وسئل من أنت في قواد الكتاب ، وأولي الأخبار العجائب ؟ فقال : أنا المهلب بن أبي صفرة (٤) ؛ نرجس هذه الألوان ، في رياض الأكوان ، تحنى به وجوه الحرب العوان (٥) ؛ أغار بنخوة الصائل (٦) ، على معصفات الأصائل (٧) ، فارتداها ، وعمد إلي خيوط شعاع الشمس ، عند جانحة الأمس ، فالحم منها حلته واسداها ، واستعدت عليه تلك المحاسن فما أعداها ؛ فهو أصيل تمسك بذيل الليل عرفه وذيله ، وكوكب يطلعه من الفتام ليله ، فيحسده فرقد (٨) الأفق وسهيله (٩) .

(١) يشير إلى حديث : « ان يمن الخيل في شقرتها » ، رواه الإمام أحمد في المسند ٢٧٢/٢ .

(٢) الفلج : الظفر والفوز .

(٣) يوميء إلى المعاني التي تعارفها الفقهاء بينهم في باب « التوارث » من الفقه الإسلامي ؛ فالسهم : النصيب الذي فرضه الشارع للتوارث ، وانكسار السهام يكون حيث تضيق التركة عن استيفاء الفرائض كاملة ، ويتقرر العول .

(٤) أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي . له مع الخوارج حروب ومواقع ظهرت فيها شجاعته . وفيات الأعيان ١٩١/٢ — ١٩٥ .

(٥) الحرب العوان : الحرب التي سبقتها حرب أخرى .

(٦) النخوة : العظمة ، والكبر ؛ والصائل : المستطيل المتوثب .

(٧) الأصيل : العشي ، والجمع الأصائل .

(٨) الفرقد : واحد الفرقدين ؛ وهما كوكبان من صورة بنات نعش الصغرى ؛ ويقال الفرقد على الكوكبين معا .

(٩) سهيل : كوكب من الكواكب الجنوبية ؛ ولذلك لا يراه سكان البلدان الشمالية مثل خراسان ، وأرمينية .

وأشهبَ تَغَشَّى من لونه مُفَاضَة ، وتسربل منه لأمة فضفاضة ، قد احتفل زِينُهُ ، لَمَّا رَقِمَ بالنِّبَالِ لِحِينَهُ ، فهو الأَشْمَطُ ، الذي حقه لا يُغْمَطُ ، والدَّارِعُ^(١) المسارع ، والأعزل الدَّارِعُ^(٢) ، وراقي الهِضَابِ الفارع ، ومكتوبُ الكِتيبة البارِعُ^(٣) . وأكْرَمَ به من مُرتاض سَالِكٍ ، ومُجتهدٍ على غايات السَّابِقِينَ الأوْلِينَ مُتَهَالِكٍ ، وأشهبَ^(٤) يروي من الخليفة ، ذي الشَّيْمِ المُنِيفَةِ ، عن مالك .

وحُبَارِي^(٥) كَلَّمَا سَابَقَ وَبَارَى ، استعار جَنَاحَ الحُبَارَى ؛ فإذا أَعْمَلَتِ الحِسْبَةَ ، قيل من هُنَا جاءت النِّسْبَةُ ، طَرَدَ النَّمِرَ ، لما عَظُمَ أمره وأَمِرُ^(٦) ، فَنَسَخَ وَجُودَهُ بَعْدَهُ ، وابتزَّهُ الفَرَوَةَ مُلَطَّخَةً بِدَمِهِ ؛ وَكَأَنَّ مُضَاعَفَ الوَرْدِ نُثِرَ عَلَيْهِ من طَبَقِهِ ، أو الفَلَكِ ، لَمَّا ذَهَبَ الحَلَكُ ، مُزِجَ فِيهِ بِياضُ صَبْحِهِ بِحُمْرَةِ شَفَقِهِ

وقِرطاسي حَقَّهُ لا يُجْهَلُ ، « مَتَى ما تَرَقَّى العَيْنُ فِيهِ تَسْفَلُ »^(٧) ؛ إِنْ نُزِعَ عَنْهُ جُلُّهُ^(٨) ، فهو نَجْمٌ كُلُّهُ ؛ انْفَرَدَ بِمَادَّةِ الأَلْوَانِ ، قَبْلَ أَنْ تَشُوْبَهَا يَدُ الأَكْوَانِ ، أو تَمزِجَهَا أَقْلَامَ المَلَوَانِ^(٩) ؛ يَتَقَدَّمُ الكِتيبة مِنْهُ لِوَاءِ ناصِعٍ ، أو أبيضٍ مُنَاصِعٍ^(١٠) ؛ لَيْسَ وَقَارَ المَشِيبِ ، فِي رِيْعَانِ العُمُرِ القَشِيبِ ، وَأَنْصَتِ الأَذَانُ مِنْ صَهِيلَةِ المَطِيلِ المَطِيبِ ، لَمَّا ارْتَدَى بِالبِياضِ إِلَى نَعْمَةِ الخَطِيبِ ؛ وَإِنْ تَعَتَّبَ مِنْهُ لِلتَّأخِيرِ مُتَعَتَّبٍ ، قُلْنَا : الوَاوُلا تَرْتَبُ^(١١) ، ما بَيْنَ فَحْلٍ وَحَرَّةٍ ، وَبِهَرْمَانَةٍ^(١٢) وَدَرَّةٍ ؛ وَيَا لَلَّهِ

(١) رجل دارع : ذودرع .

(٢) ذرع : اسرع ؛ كأنه لسرعته يقيس المسافات بالذراع .

(٣) الفارع : المرتفع ، الحسن . والبارع : التام في كل فضيلة .

(٤) يوري بأشهب بن عبد العزيز المالكي أبو عمر المصري . وقد تقدم ذكره .

(٥) الحباري : لونه لون الحباري . والحباري بضم الحاء ، وفتح الباء المخففة ، وراء مفتوحة بعد ألف : طائر رماضي اللون ؛ وهو أشد الطير طيراناً ، وأبعدها شوطاً . ولذلك يقول : ان سرعة هذا الفرس تأتي من شبهه بالحباري الذي له هذه الصفة . حياة الحيوان للدميري ١/١٩٦ .

(٦) أمر : كثر .

(٧) عجز بيت لأمرىء القيس وصدرة :

ورحنا يكاد الطرف بقشر دونه متى الخ .

وفي الأصول : «..... فيه تسهل» . والمثبت رواية الديوان ، وشرحه للبطيوسي ص ٣٤ طبع التقدم

سنة ١٢٢٣ هـ .

(٨) جل الفرس ، وجاله : الغطاء الذي تلبسه إياه لتصونه .

(٩) الملوان : الليل والنهار .

(١٠) الناصع : الخالص من كل شيء ؛ والمناصع : المجالس . جمع منصع .

(١١) يشير إلى قول النحاة : ان العطف بالواو لا يفيد ترتيباً بين معطوفاتها .

(١٢) البهرمان : نبات بأرض العرب يصبغ به ، يقال له العصفور ، ولونه دون الارجوان في الحمرة .

من ابتسام غرة ، ووضوح يمن في طرة^(١) ، وبهجة للعين وقرة ؛ وإن ولع الناس بامتداح القديم ، وخصوا الحديث بفري الأديم^(٢) ، وأوجف المتعصب ، وإن أبى المنصب ، مرتبة التقديم ، وطمع إلى رتبة المخدم طرف الخديم ، وقورن المثري بالقديم ، وبخس في سوق الكسد الكيل ، ودجا الليل ، وظهره في فلك الأنصاف الميل ، لَمَا تذكرت الخيل ؛ فجيء بالوجيه^(٣) والخطار^(٤) ، والذائد^(٥) وذو الخمار^(٦) وداحس^(٧) والسكب^(٨) ، والأبجر^(٩) وزاد الركب^(١٠) ، والجموح^(١١) واليحموم^(١٢) ، والكميت^(١٣) ومكتوم^(١٤) ، والأعوج^(١٥) وحلوان ، ولأحق والغضبان ، وعفزر ، والزعفران والمحبر واللعب ، والأغر والغراب ، وشعلة والعقاب ، والفياض واليعسوب ، والمذهب واليعسوب ، والصموت والقطيب ، وهيدب والصيب ، وأهلوب وهداج ،

(١) الطرة : الناصية ، إشارة إلى الحديث : «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» .

(٢) الأديم : الجلد ؛ وفريه : قطعه . وهو يشير إلى قول ابن شرف القيرواني :

أغرى الناس بامتداح القديم
ليس إلا لأنهم حسدوا
وبذم الحديث غير القديم
الحي ورقوا على العظماء الرميم

(٣) الوجيه : فرس لغني بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان . وهو مما سمي من جياذ الفحول ، والانات المنجيات . تاج العروس (وجه) ، مخصص ١٩٥/٦ .

(٤) الخطار : فرس حذيفة بن بدر الفزاري . وله ذكر في حرب داحس والغبراء . المخصص ١٩٦/٦ ، تاج (خطر ، دحس) .

(٥) الذائد : فرس نجيب من نسل الحرون ، ومن أبنائه اشقر مروان . تاج (ذاد) .

(٦) ذو الخمار : فرس للزبير بن العوام ، ولمالك بن نويرة الشاعر . المخصص ١٩٤/٦ تاج (خمر) .

(٧) داحس : فرس قيس بن زهير بن جذيمة العبسي . له ذكر في حرب داحس والغبراء المخصص ١٩٦/٦ ، تاج (دحس) ، وانظر مجمع الأمثال : «أشأم من داحس» ٢٥٦/١ .

(٨) السكب : من أفراس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أول فرس ملكه . المخصص ١٩٣/٦ ، تاج (سكب) .

(٩) الأبجر : من خيل غطفان بن سعد ، وهو فرس عنزة بن شداد العبسي . تاج (بجر) .

(١٠) زاد الركب : فرس للأزد ، وهو من أقدم فرسان العرب .

(١١) الجموح (كصبور) : فرس مسلم بن عمرو الباهلي ، وفرس للحكم بن عرعة النميري تاج (جمع) .

(١٢) اليحموم : فرس النعمان بن المنذر ، ولذلك كان يقال للنعمان فارس اليحموم . وسمي باليحموم عدة أفراس . تاج ٢٦١/٨ .

(١٣) الكميت : ذكر في تاج العروس في (كميت) عشرة أفراس باسم الكميت ، مع أسماء أصحابها .

(١٤) مكتوم : فرس لغني بن أعصر ، من جياذ الفحول . تاج (كتم) .

(١٥) أعوج (بلا لام) : فرس لبني هلال ؛ تنسب إليه الأعوجيات ، كان لكندة فأخذته سليم ، ثم صار إلى بني هلال ، بعد أن كان لبني آكل المرار . تاج (عوج) .

والحرُّون وخراج ، وعلوى والجناح ، والأحوى ومجاح ، والعصا والنعام ، والبلقاء
والحمامة ، وسكاب والجرادة ، وخوصاء والعرادة^(١) ؛ فكم بين الشاهد والغائب ،
والفروش والرغائب^(٢) ، وفرق ما بين الأثر والعيان ، غني عن البيان ؛ وشتان بين
الصريح والمشتبة ؛ والله دُرُّ القائل :

«خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به^(٣)»

والناسخ^(٤) يختلف به الحكم ، وشرُّ الدواب عند التفضيل بين هذه الدوابِّ الصُّمُّ
البُكم^(٥) إلا ما ركبهُ نبيٌّ ، أو كان له يوم الافتخار وبرهانٌ خفي^(٦) ومُفضِّلُ ما
سَمِعَ على ما رأى غبيٌّ ؛ فلو أنصفت محاسنها التي وُصفت ، لأقضيت^(٧) حبَّ
القلوب علفاً ، وأوردت ماءَ الشَّيْبَةِ نطفاً^(٨) ؛ واتخذت لها من عُذر^(٩) الخدود
المِلاح عُذرَ موشية^(١٠) ، وعللت بصغير الحان القيان كلَّ عشية ؛ وأنعلت بالأهلة ،
وغطيت بالرياض بدَلَ الأجلة^(١١) .

إلى الرقيق^(١٢) ، الخليق بالحسن الحقيق ، يسوقه إلى مثوى الرعاية رُوقة^(١٣) الفتيان
رُعاته ، ويهدي عقيقتها من سبحة^(١٤) أشكالاً تشهد للمخترع سبحانه بإحكام
مخترعاته ، وقفت ناظر الاستحسان لا يريم^(١٥) ، لِمَا بهرته منظرها الوسيم ، وتخامل

(١) العرادة وما قبلها : أسماء أفراس لرجال مشهورين من رؤساء قبائل العرب القدامى .

(٢) الرغائب : جمع رغبة ، وهي الأمر المرغوب فيه . تاج (رغب) .

(٣) صدر بيت للمتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ؛ وعجزة عن شرح العكبري ٦٨/٢ طبع
الشرفية : «..... في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل» .

(٤) النسخ في مصطلح أهل أصول الفقه : انتهاء حكم شرعي ثبت بنص شرعي ، وإحلال حكم آخر بدله
بنص شرعي جاء دليلاً على انتهاء الحكم الأول والناسخ : هو النص الأخير الذي بمقتضاه يرتفع الحكم
الأول ، ويلغي النص السابق .

(٥) الإشارة إلى الآية ٢٢ من سورة الأنفال .

(٦) خفي : خاف ، مستور .

(٧) القضم : أكل القضم ، وهو شعر الدابة ، وأقضم الدابة : قدم لها القضم .

(٨) النطفة : الماء الصافي ؛ والجمع نطف .

(٩) العذار : خط لحية الغلام ؛ والجمع عذر .

العذار من اللجام : السيران اللذان يجتمعان عند قفا الفرس ؛ والجمع عذر .

(١١) جل الدابة : ما تغطي به ، والجمع جلال ؛ وجمع جلال : أجلة .

(١٢) الرقيق : الضعيف لا صبر له على شدة البرد ، ونحوه .

(١٣) الروقة من الغلمان الملاح منهم ؛ يقال غلمان روقة : أي حسان ، والمفرد رائق .

(١٤) السبج : خرز أسود .

(١٥) لا يريم : لا يبرح .

الظَّليم^(١) ، وتضَاوَل الرِّيم^(٢) وأُخْرَسَ مُفَوِّه^(٣) اللسان ، وهو بملكات البيان ، الحفيظ العليم ؛ وناب لسانُ الحال ، عن لسان المقال ، عند الاعتقال^(٤) ، فقال يُخاطب المقام الذي أطلعت أزهارها غنائم جوده ، واقتضت اختيارها بركات وجوده : لو علمنا أيها المَلِك الأصيل ، الذي كرم منه الاجال والتفصيل ، أن الثناء يوازيها ، لَكَلْنَا لك بِكَيْلِكَ ، أو الشُّكْر يعادها ويُجازيها ، لتعرضنا بالوشل^(٥) إلى نِيل نيلك^(٦) ، أو قلنا هي التي أشار إليها مستصرخ سلفك المستنصر بقوله : «ادرك بخيلك» ، حين شَرَق بدمعه الشَّرَق^(٧) ، وانهزم الجمع واستولى الفرق ، واتسع فيه — والحكم لله — الخرق^(٨) ورأى أن مقام التوحيد بالمظاهرة على التَّليث ، وحزبه الخبيث ، الأوَّل والأحق .

والآن قد أغنى الله بتلك النيَّة ، عن اتخاذ الطوال الردينيَّة^(٩) ، وبالُدعاء من تلك المثابة الدينيَّة إلى ربِّ المَنِيَّة^(١٠) ، وعن الجردِ العربيَّة ، في مقاود اللُّيُوث الأبية ؛ وجدَّد برسم هذه الهدية ، مراسيم العهود الوُدِّيَّة ، والذِّمِّ المُوَحِّدِيَّة ، لتكون علامة على الأصل ، ومكذبةً لدعوى الوقفِ والفصل ، وإشعاراً بالألفة التي لا تزال أَلْفُهَا أَلِفَ الوصل ، ولأُمها حراماً على النَّصل^(١١) .

وحَضَرَ بين يدينا رسولكم ، فقرَّر من فضلكم ما لا يُنكره من عَرَفَ عُلُوَّ مقداركم ، وأَصالة داركم ، وفلكَ إِبْدَارِكُمْ ، وقُطْبَ مَدَارِكُمْ ؛ وأَجَبناه عنه بجهدٍ^(١٢) ما كُنَّا

(١) الظلم : ذكر النعام ؛ وفرس فضالة بن شريك الأسدي .

(٢) الريم : الطبي الخالص البياض .

(٣) رجل مفوه : يجيد القول .

(٤) اعتقل لسانه : حبس ، ولم يقدر على الكلام .

(٥) الوشل : الماء القليل .

(٦) النيل : نهر مصر . والنيل (بالفتح) : العطاء .

(٧) يريد شرق الأندلس .

(٨) يشير الى المثل : «اتسع الخرق على الرفع» الذي يقال عند استفحال الأمر ، والعجز عن اصلاحه . تاج (خرق) .

(٩) الردينية : منسوبة إلى ردينة ، وهي امرأة السميري ؛ وكانا يقومان الرماح والقنا بخط هجر ؛ فيقال : الرماح الردينية ، والحطية ؛ نسبة الى الشخص تارة ، والى الموضع أخرى .

(١٠) البنية : الكعبة ، وكانت تسمى بنية ابراهيم ؛ وكثر قسمهم بها فيقولون : «لا ورب هذه البنية» .

(١١) اللام : جمع لامة ؛ وهي الدرع . والنصل : حديدة السهم والرمح . اللسان (نصل) .

(١٢) الجهد (بالفتح) المشقة .

لَنَقْنَعَ مِنْ جَنَاهُ ^(١) الْمُهِتَصِرَ ^(٢) ، بِالْمُقْتَضِبِ الْمُخْتَصِرِ ، وَلَا لِنُقَابِلَ طُولَ طَوْلِهِ ^(٣) بِالْقِصْرِ ، لَوْلَا طُرُوُّ الْحَصْرِ ^(٤) .

وَقَدْ كَانَ بَيْنَ الْأَسْلَافِ — رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرِضْوَانُهُ — وَدَّ أُبْرِمَتْ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ مَعَاقِدُهُ ^(٥) ، وَوُثِرَتْ لِلخُلُوصِ ^(٦) ، الْجَلِيَّ النَّصُوصِ ، مَضَاجِعُهُ الْقَارَّةَ وَمَرَاقِدُهُ ، وَتَعَاهُدًا بِالْحَمِيلِ يُوجَعُ لِفَقْدِهِ فَاقِدُهُ ، أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكُمْ الْفَضْلُ فِي تَجْدِيدِهِ ، وَالْعَطْفُ بِتَوْكِيدِهِ ؛ فَنَحْنُ الْآنَ لَا نَدْرِي أَيَّ مَكَارِمِكُمْ نَذْكُرُ ، أَوْ أَيَّ فَوَاضِلِكُمْ نَشْرَحُ أَوْ نَشْكُرُ ، أَمْفَاتِحِكُمْ الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَنَا فَتَحٌ ، أَمْ هَدْيَتِكُمْ ، وَفِي وَصْفِهَا لِلْأَقْلَامِ سَبَّحٌ ^(٧) ، وَلِعَدُوُّ الْإِسْلَامِ بِحِكْمَةِ حِكْمَتِهَا كَبَّحٌ ^(٨) ، إِنَّمَا نَكِيلُ الشُّكْرِ لِمَنْ يُؤَفِّي فِي جِزَاءِ الْأَعْمَالِ الْبِرَّةَ ، وَلَا يَبْنَحُسُ مِثْقَالَ الذَّرَّةِ وَلَا أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ الذَّرَّةِ ، ذِي الرَّحْمَةِ الثَّرَّةِ ^(٩) ، وَالْأَلطَافِ الْمُتَّصِلَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَإِنْ تَشَوَّفْتُمْ إِلَى الْأَحْوَالِ الرَّاهِنَةِ ، وَأَسْبَابِ الْكُفْرِ الْوَاهِيَةِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ — الْوَاهِنَةِ ^(١٠) ، فَنَحْنُ نُنظِرُكُمْ بِطَرْفِهَا ^(١١) ، وَنُظَلِّعُكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ بِطَرْفِهَا ؛ وَهُوَ أَنَّا لَمَّا أَعَادْنَا اللَّهَ مِنَ التَّمْحِيصِ ، إِلَى مَثَابَةِ التَّخْصِيصِ ، مِنْ بَعْدِ الْمَرَامِ الْعَوِيصِ ، كَحَلْنَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ بَصَرَ الْبَصِيرَةِ ، وَوَقَفْنَا عَلَى سَبِيلِهِ مَسَاعِي الْحَيَاةِ الْقَصِيرَةِ ، وَرَأَيْنَا كَمَا نُقِلَ إِلَيْنَا ، وَكُرِّرَ عَلَيْنَا مِنْ قَبْلُنَا وَعَلَيْنَا — أَنَّ الدُّنْيَا — وَإِنَّ غَرَّ الْغُرُورِ ^(١٢) وَأَنَامَ عَلَى سُرْرِ الْغَفْلَةِ السُّرُورِ ، فَلَمْ يَنْفَعِ الْخُطُورِ ^(١٣) عَلَى أَجْدَاثِ ^(١٤) الْأَحْبَابِ وَالْمُرُورِ ، —

(١) الجنى : ما يجتنى من الشجر وغيره .

(٢) المهتصرة المال ؛ يقال هصرت الغصن : اذا أملتته إليك .

(٣) الطول (بالضم) : خلاف العرض . والطول (بالفتح) : المن ؛ يقال طال عليه : اذا امتن .

(٤) الحصر : العي ، وعدم القدرة على الابانة .

(٥) المعاهد : العقد .

(٦) وثر الفراش (بالضم) : وطؤ ولان .

(٨) السبح : الجري .

(٩) كبح الفرس : جذبته إليه باللجام يمنعه عن الجري .

(١٠) الرحمة الثرة : الغزيرة الكثيرة .

(١١) وهي ، وهن : ضعف .

(١٢) جمع طرفة (بالضم) : الشيطان ؛ وفي القرآن : «ولا يغرنكم بالله الغرور» .

(١٣) الخطور : التبخر في المشي .

(١٤) جمع جدث : وهو القبر .

جِسْرٌ يُعْبَرُ ، وَمَتَاعٌ لَا يُغْبَطُ مِنْ حُبِّي وَلَا يُحْبَرُ^(١) ، إِنَّمَا هُوَ خَبْرٌ يُخْبَرُ ؛ وَأَنْ
الْحَسْرَةَ بِمِقْدَارِ مَا عَلَى تَرْكِهِ يُجْبَرُ ، وَأَنْ الْأَعْمَارَ أَحْلَامٌ ، وَأَنْ النَّاسَ نِيَامٌ ؛ وَرَبِّمَا
رَحَلَ الرَّاحِلُ عَنِ الْخَانِ^(٢) ، وَقَدْ جَلَّلَهُ بِالْأَذَى وَالِدُخَانٍ ، أَوْ تَرَكَ بِهِ طَيْبًا ، وَثَنَاءً
يَقُومُ بَعْدُ لِلآتِي خَطِيبًا ؛ فَجَعَلْنَا الْعَدْلَ فِي الْأُمُورِ مِلاكَ^(٣) ، وَالتَّفَقُّدَ لِلشُّغُورِ
مِسْوَاكَ ، وَضَجِيعَ الْمِهَادِ ، حَدِيثَ الْجِهَادِ ، وَأَحْكَامَهُ مَنَاطَ الْجِهَادِ ، وَقَوْلَهُ :
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ»^(٤) مِنْ حُجَجِ الْاِسْتِشْهَادِ ؛ وَبَادِرْنَا
رَمَقَ^(٥) الْحِصُونِ الْمُضَاعَةَ وَجَنَحَ^(٦) التَّقِيَّةِ^(٧) دَامَسَ^(٨) ، وَعَوَارِيهَا^(٩) لَا تَرُدُّ يَدَ
لَامِسَ^(١٠) ، وَسَاكُنَهَا بَائِسَ ، وَالْأَعْصَمَ^(١١) فِي شَعَفَاتِهَا^(١٢) مِنْ الْعِصْمَةِ يَائِسَ ؛
فَزَيْنًا بِيضَ الشُّرَفَاتِ ثَنَايَاهَا ، وَأَفْعَمْنَا بِالْعَذْبِ الْفُرَاتِ رَكَايَاهَا^(١٣) وَغَشِينَا بِالصَّفِيحِ
الْمُضَاعَفِ أَبْوَابَهَا ، وَاحْتَسَبْنَا عِنْدَ مُوفِي الْأَجُورِ ثَوَابَهَا ، وَبَيَّضْنَا بِنَاصِعِ الْكِلْسِ
أَثْوَابَهَا ؛ فَهِيَ الْيَوْمَ تُوهِمُ حَسَّ الْعِيَانِ ، أَنَّهَا قَطَعَ مِنْ بِيضِ الْعَنَانِ^(١٤) ، وَتَكَادُ
تَنَاولُ قُرْصَ الْبَدْرِ بِالْبَنَانِ ، مُتَكَفِّلَةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ فَرْعِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالْأَمَانِ ؛
وَأَقْرَضْنَا اللَّهَ قَرْضًا ، وَأَوْسَعْنَا مَدْوَنَةَ الْجَيْشِ^(١٥) عَرْضًا ، وَفَرَضْنَا إِنْصَافَهُ مَعَ الْاِهْلَةِ
فَرَضًا ؛ وَاسْتَدْنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الْغِنِيَّ الْحَمِيدَ إِلَى ظِلِّ لَوَاءٍ ، وَنَبَدْنَا إِلَى الطَّاعِيَةِ

(١) يخبرينهم ويسرويكرم .

(٢) الخان المكان الذي ينزله المسافرون ، وهو الفندق .

(٣) ملاك الأمر : ما يقوم به ذلك الأمر .

(٤) يشير الى الآيات (١٠ — ١٣) من سورة الضف .

(٥) الرمق : بقية الحياة والروح . وفي الكلام تجوز .

(٦) جنح الطريق : جانبه ، وجنح القوم : ناحيتهم .

(٧) التقية : التحفظ .

(٨) ليل دامس : مظلم .

(٩) جمع عارية ؛ وهي المتجردة من الثياب . والعورات : الخلل في الثغر وغيره ، يتخوف منه في الحروب .

(١٠) يقال للمرأة التي تزني : لا ترد يد لامس ؛ أي لا ترد من يريد بها عن نفسها .

(١١) الأعصم : الوعل ، وعصمته : بياض في رجليه .

(١٢) الشعفات ، جمع شعفة ، وهي رؤوس الجبال .

(١٣) جمع ركية وهي البئر .

(١٤) العنان : السحاب .

(١٥) يريد الجيش الرسمي الذي كان مدونا في سجلات الدولة . وفي مقدمة الإحاطة ١٩/١ ، ٣٦ وصف للجيش الأندلسي ، وسلاحه ، وأقسامه ، وذكر لمقدار ما كان يأخذه كل شهر .

عَهْدَهُ عَلَى سِوَاءٍ ^(١) وَقَلْنَا : رَبَّنَا أَنْتَ الْعَزِيزُ ، وَكُلُّ جَبَّارٍ لِعَزِّكَ ذَلِيلٌ ، وَحَزْبُكَ هُوَ الْكَثِيرُ ، وَمَا سِوَاهُ قَلِيلٌ ؛ أَنْتَ الْكَافِي ، وَوَعْدُكَ الْوَعْدُ الْوَافِي ، فَأَفْضُ ^(٢) عَلَيْنَا مَدَارِعُ ^(٣) الصَّابِرِينَ ، وَاكْتُبْنَا مِنَ الْفَائِزِينَ بِحِظْوَةِ رِضَاكَ الظَّافِرِينَ ، وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

فَتَحَرَّكْنَا أَوَّلَ الْحَرَكَاتِ ، وَفَاتِحَةَ مُصْحَفِ الْبَرَكَاتِ ، فِي خِيفَةٍ مِنَ الْحَشُودِ ، وَاقْتِصَارِ عَلَى مَا بِحَضْرَتِنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ الْمَظْفَرَةِ وَالْجُنُودِ ، إِلَى حِصْنِ آشَرَ ^(٤) الْبَازِي الْمُطَّلِّ ، وَرِكَابِ الْعَدُوِّ الضَّالِّ الْمُضِلِّ ، وَمُهْدِي نَفَثَاتِ ^(٥) الصِّلِّ ^(٦) ، عَلَى امْتِنَاعِهِ وَارْتِفَاعِهِ ، وَسُمُوفِ يَفَاعِهِ ^(٧) ، وَمَا بَدَّلَ الْعَدُوُّ فِيهِ مِنْ اسْتِعْدَادِهِ ، وَتَوْفِيرِ أَسْلِحَتِهِ وَأَزْوَادِهِ ، وَانْتِخَابِ أَنْجَادِهِ ؛ فَصَلَّيْنَا بِنَفْسِنَا نَارَهُ ، وَزَاخَمْنَا عَلَيْهِ الشَّهْدَاءَ نُصَابِرُ أَوَارِهِ ^(٨) وَنَلَقَى بِالْجَوَارِحِ الْعَزِيزَةِ سِهَامَهُ الْمَسْمُومَةَ ، وَجَلَّ مِدَّهُ الْمَلْمُومَةَ ^(٩) وَأَحْجَارَهُ ، حَتَّى فَرَعْنَا ^(١٠) بِحَوْلٍ مِنْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ — أَبْرَاجَهُ الْمَنِيْعَةَ وَأَسْوَارَهُ ، وَكَفَفْنَا عَنِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ أَضْرَارَهُ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَضَفْنَا إِلَيْهِ حِصْنَ السَّهْلَةِ جَارَهُ ؛ وَرَحَلْنَا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ شَحِنَاهُ رَابِطَةً وَحَامِيَةً ، وَأَزْوَادًا نَامِيَةً ، وَعَمِلْنَا بِيَدِنَا فِي رَمِّ مَا ثَلَمَ الْقِتَالَ ، وَبَقَرٍ مِنْ بَطُونِ مُسَابِقَةِ الرِّجَالِ ، وَاقْتَدَيْنَا بِنَبِيِّنَا — صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامِهِ — فِي الْخَنْدَقِ ^(١١) لَمَّا حَمَى ذَلِكَ الْمَجَالَ ، وَوَقَعَ الْإِرْتِجَازَ الْمَنْقُولَ حَدِيثَهُ وَالْإِرْتِجَالَ ^(١٢) ؛ وَمَا كَانَ لِيَقْرَّ لِلْإِسْلَامِ مَعَ تَرْكِهِ الْقِرَارِ ، وَقَدْ كَثَبَ الْجَوَارِ ،

(١) نَبذَ الْعَهْدَ : نَقَضَهُ ؛ وَأَلْقَاهُ إِلَى مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ . وَالتَّعْبِيرُ مَقْتَبَسٌ مِنَ الْآيَةِ ٥٨ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ .

(٢) أَفْضُ : أَفْرَغُ .

(٣) جَمْعُ مَدْرَعٍ : وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الثِّيَابِ .

(٤) حِصْنُ آشَرَ : يَقَعُ إِلَى الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ لِحِصْنِ وَرْطَةَ ، عَلَى ضِفَّةِ رَافِدٍ مِنْ رِوَادِ نَهْرِ شَنْبِيلِ .

(٥) نَفَثَتِ الْحِيَةَ السَّمَّ : إِذَا لَسَعَتْ بِأَنْفِهَا ، فَإِذَا عَضَتْ بِأُهَا قَيْلٌ : نَشَطَتْ .

(٦) الصِّلُ (بِالْكَسْرِ) : الْحِيَةُ الَّتِي لَا تَنْفَعُ فِيهَا الرِّقِيَّةُ .

(٧) الْيَفَاعُ : مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ .

(٨) الْأَوَارُ (بِالضَّمِّ) : حَرَارَةُ النَّارِ ، وَالشَّمْسُ ، وَالْعَطَشُ .

(٩) جَلَامِدَةٌ ، جَمْعُ جَلْمَدٍ ؛ وَهُوَ الصَّخْرُ . وَالْمَلْمُومَةُ : الْمُسْتَدِيرَةُ الصَّلْبَةُ .

(١٠) فَرَعْنَا : عَلَوْنَا .

(١١) كَانَتْ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ . الطَّبْرِيُّ ٤٣/٣ .

(١٢) نَقَلَ السَّهْلِيُّ فِي الرُّوضِ الْأَنْفِ عَنْ أَبِي عَثْمَانَ عِبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَلِّ الْهُدِيِّ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كَانَ يَرْتَجِزُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَيَقُولُ :

بِسْمِ الْإِلَهِ وَبِهِ بَدِنَا =

وتداعى الدَّعْرَةُ^(١) وتعاوى الشَّرَار^(٢) .

وقد كنا أغربنا من بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة بُرْغَةَ التي سدت بين القاعدتين رُنْدَةَ ومالقة الطريق ، وألبست ذُلَّ الفراق ذلك الفريق ، ومنعتها أن يُسَيِّغا الرِّيق ؛ فلا سبيل إلى الإلمام ، لطيف المنام ، إلا في الأحلام ، ولا رسالة إلا في أجنحة هُدُل^(٣) الحمام ؛ فَيَسَّرَ اللهُ فَتَحَهَا ، وَعَجَّلَ مَنَحَهَا ، بعد حَرْبٍ انبَثَّتْ فِيهَا النُّحُورُ ، وَتَرَيَنَّتِ الحُورُ . وَتَبَعَ هَذِهِ الأُمَّ بَنَاتٌ شَهيرة ، وَبُقِعَ لِلزَّرْعِ وَالضَّرْعِ خَيْرَةٌ^(٤) ، فَشُفِيَ الشَّغْرُ مِنْ بُوسِهِ ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُ الإسلامِ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ النَّاجِيَةِ بَعْدَ عَبُوسِيَّةٍ .

ثم أَعْمَلْنَا الحَرَكَةَ إلى مَدِينَةِ إِطْريرة^(٥) ، على بُعْدِ المَدَى ، وَتَغْلُغَلُهَا فِي بِلَادِ العَدَا ، وَاقْتِحَامِ هَوْلِ الفِلا وَغُولِ الرَّدَى ؛ مَدِينَةٌ تَبَنَّتْهَا حِمصٌ^(٦) فَأَوْسَعَتِ الدَّارَ ، وَأَغْلَتِ الشُّوَارَ^(٧) ، وَرَاعَتِ الاستِكَثَارَ ، وَبَسَطَتِ الاعْتِمَارَ^(٨) ؛ رَجَّعَ لَدَيْنَا قَصْدَهَا عَلَى البُعْدِ ، وَالطَّرِيقِ الجَعْدِ ، مَا أَسْفَتَ^(٩) بِهِ المُسْلِمِينَ مِنْ اسْتِصْالِ طَائِفَةٍ مِنْ أُسْرَاهِمِ ، مَرُّوا بِهَا آمِنِينَ ، وَبَطَائِرُهَا المُشْتُومِ مُتَيَمِّنِينَ ، قَدْ أَنهَكَهُم^(١٠)

= ولو عبدنا غيره شقينا
فحبنا ربنا وحب دينا

سيرة ابن هشام ٢٢٧/٣ ، ٢٢٨ .

- (١) رجل داعر (بالمهمله) : يسرق ، يزني ، ويؤذي الناس ؛ والجمع دعرة .
- (٢) تعاوت الشرار : تجمعت للفتنة ، وتعاونوا عليه : تعاونوا وتساعدوا .
- (٣) الهديل : ذكر الحمام . والجمع هدل ، كسرير وسرر .
- (٤) الخيرة : المختار من كل شيء ؛ يريد : بقاع مختارة للزرع والضرع .
- (٥) اطريرة : (Ultrera) تقع الجنوب الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٩ كلم ، وقد ضيقت بكسر الهمزة وسكون الطاء .
- (٦) يريد إشبيلية ؛ سماها حمص جند بني أمية الذي نزل بها حين جاء من حمص الشام . وقد فعلوا ذلك في كثير من مدن الأندلس . ياقوت (معجم البلدان) .
- (٧) الشوار : متاع البيت ؛ ويريد به ما تعارف عليه الفقهاء ، مما يشتري من الصداق الذي يدفعه الزوج ؛ وتجهز به الزوجة من حلى ، وغطاء ، ووظاء الخ ، ذلك لأنه جعل «حمص» أما لاطريرة قد زوجها وجهازها ، فتغالت — لما في الأم من حب لابنتها — في هذا الجهاز الخ . فجاء بالألفاظ الفقهية بمعانيها التي اصطلحوا عليها .
- (٨) يريد بالاعتمار : الاستعمار ، والاستغلال .
- (٩) أسفاه : أطاشه حلمه ، وحمله على الطيش .
- (١٠) انهكهم : أجهدهم ، وأضناهم .

الاعتقال ، والقِيُودُ الثِقَالُ ، وأضرعهم الأسار وجللهم الإنكسار ، فجدلّوهم^(١) في مَضْرَعٍ واحدٍ ، وتركوهم عِبْرَةً للرّائي والمشاهد ، وأهدوا بوقيعتهم إلى الإسلام نُكْلَ الواجد^(٢) ، وترّة الماجد^(٣) ؛ فكَبَسْنَاها كَبْسًا ، وفجأناها بإلهام مَنْ لا يَضِلُّ ولا يَنْسَى وصَبَّحَتْها الخيل ، ثم تلاحق الرَّجُلُ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ ، وحق بها الويل ؛ فأبيح منها الدَّمَارُ^(٤) ، وأخذها الدَّمَارُ ، ومُحِقَّتْ^(٥) من مصانعها البيضُ الأهلَةُ وَخَسَفَتْ الأبقارُ ، وشُفِيَتْ من دمائها أهلها الضُّلُوعُ الحَرَارُ^(٦) ، وسلّطت على هياكلها النَّارُ ، واستولى على الآلاف العديدة من سببها ، وانتهى إلى إشبيلية الشكلى المَغَارُ^(٧) فجَلَّلَ وجوهَ مَنْ بها من كبار النصرانية الصَّغار^(٨) ، واستولت الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تُقَلِّه^(٩) الأوقار^(١٠) .

وَعُدْنَا والأرضُ تَمُوجُ سَبِيًّا ، لم نَتْرُكْ بعِفرَيْنَ شِبْلًا^(١١) ولا بوجرة ظبياً^(١٢) ، والعقائلُ^(١٣) حَسْرَى ، والعُيونُ يَبْهَرُها الصُّنْعُ الأَسْرَى^(١٤) وصُبْحُ السُّرَى قد حُمِدَ من بَعْدِ المَسْرَى^(١٥) ، فسُبْحانَ الذي أَسْرَى^(١٦) ؛ وَلِسَانُ الحَمِيَّةِ يُنادِي ، في تلك الكنائسِ المُخْرَبَةِ والنَّوادي : يا لثاراتِ الأَسْرَى !

- (١) فجدلّوهم : صرعوهم .
- (٢) الشكلى : فقد المرأة ولدها ، وفقد الرجل ولده ايضاً ، والواجد : الغضبان .
- (٣) الترة : الدحل والثأر . والماجد : الكريم ، ومن له آباء متقدمون في الشرف .
- (٤) الدمار : ما وراء الرجل مما يحق له ان يحميه . والدمار (بالمهملة) : الهلاك .
- (٥) المحق : النقصان وذهاب البكة . لسان العزب (محق) .
- (٦) الضلوع الحرار : العطشى .
- (٧) المغار : مصدر ميمي بمعنى الإغارة .
- (٨) جلل وجوههم : عم وجوههم . والصغار : الذل .
- (٩) أقل الشيء : أطاق حمله .
- (١٠) الأوقار : جمع وقر ، وهو الحمل . وأكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار .
- (١١) عفرين بلد تكثر فيه الأسود . والشبل : ولد الاسود .
- (١٢) وجرة : فلاة بوسط نجد ، لا تخلو من شجر ، ومياه ، ومرعى . والوحش فيها كثير . (تاج — وجر) .
- (١٣) جمع عقيلة ؛ وهي المرأة الكريمة ، النفيسة .
- (١٤) الصنع الأسرى : الأشراف ، والأرفع .
- (١٥) ينظر الى المثل : «عند الصباح يحمد القوم السرى» ، الذي يضرب للرجل يحتمل الشقة رجاء الراحة .
أنظر الميدان ٣٠٤/٢ .
- (١٦) اقتباس من الآية ١ من سورة الإسراء . وأسرى : سار ليلياً .

ولم يكن إلا أن نُفِلت الأنفال^(١) ، ووسِّمت بالأوضحاغ^(٢) ، وتميَّزت الهوادي والأكفال^(٣) ، وكان إلى غزو مدينة جيان الاحتفال ، قدنا إليها الجرّد^(٤) تلاعب الظلال نشاطاً ، والأبطال تفتح الأخطار رضى بها عند الله واغتياباً ، والمهنددة الدلق^(٥) تسبق إلى الرقاب استللاً واختراطاً ، واستكثرنا من عدد القتال احتياطاً ، وأزحنا العلل عمن أراد جهاداً منجياً غباره من دخان جهنم ورباطاً ، وناديناهم الجهاد ! الجهاد ! يا أمة الجهاد ! راية النبي الهادي ! الجنة تحت ظلال السيوف الحداد ! ؛ فهز النداء إلى الله تعالى كل عارم وغامر^(٦) ، واثتمر الجسم من دعوى الحق إلى أمر أمر ، وأتى الناس من الفجوج^(٧) العميقة رجالاً وعلى كل ضامر^(٨) ، وكاثرت الرايات أزهار البطاح لونا وعداً ، وسدت الحشود مسالك الطريق العريضة سداً ، ومدَّ بحرهما الزاخر مداً ، فلا يجد لها الناظر ولا المناظر حداً .

وهذه المدينة هي الأم الولود ، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود ؛ وكُرسي الملك ، ومجنبة^(٩) الوسطى من السلك ؛ باءت بالمزايا العديدة ونجحت ، وعند الوزن غيرها من أمات^(١٠) البلدان ، رجحت ، غاب الأسود ، وجحر الحيات السود ، ومنصب^(١١) التماثيل الهائلة ، ومعلق النواقيس المصلصلة .

- (١) الأنفال : جمع نفل ؛ وهو الغنيمة : ونفلت : أعطيت .
(٢) الأوضحاغ ، جمع وضع ؛ وهو البياض . والاضغال : الأراضي الموات ؛ يقال ارض عفل : لا علم بها ، ولا سمه .
(٣) هو ادى كل شيء : أوائله . يريد : تميز الشجعان الذين كانوا يتصدرون المعركة ، من الاكفال (جمع كفل) : وهم الذين يكونون في مؤخر الموقعة همتهم التأخر ، والفرار .
(٤) جمع أجرد ؛ وهو الفرس القصير الشعر ، وذلك في علامات العتق والكرم .
(٥) سيف دلق : سهل الخروج من غمده ؛ والجمع : دلق .
(٦) العامر من الأرض : المستغل . والغامر : الذي يغمره الماء ؛ ويراد به الأرض التي لم تستثمر . يريد : أقبل الناس من كل جانب .
(٧) جمع فج ؛ وهو الطريق البعيد ، والواسع ، والذي بين جبلين .
(٨) الجمل الضامر : الخفيف الجسم .
(٩) المجنبة : التي تأخذ مكانها جانب الجوهرة الوسطى من العقد . يريد ان مدينة جيان تحتل المرتبة الثانية بالقياس الى حضرة الملك .
(١٠) أمات ، جمع أم ؛ ويغلب أن تأتي جمعاً لام ما لا يعقل . وانظر اللسان «أم» ، «أمه» .
(١١) منصب اسم مكان ، بمعنى الموضع الذي أقيمت فيه هذه التماثيل .

فَأَذَيْنَا إِلَيْهَا الْمَرَاحِلَ ، وَعَيْنَيْنَا بِبِحَارِ الْمُحِلَّاتِ الْمُسْتَقِلَّاتِ مِنْهَا السَّاحِلَ (١) ، وَلَمَّا
 أَكْثَبْنَا (٢) جَوَارَهَا ، وَكِدْنَا نَلْتَمِحُ (٣) نَارَهَا ، تَحَرَّكْنَا إِلَيْهَا وَوَشَّاحُ (٤) الْأَفْقِ الْمَرْقُومِ ،
 بِزُهْرِ النُّجُومِ ، قَدْ دَارَ دَائِرُهُ ، وَاللَّيْلُ مِنْ خَوْفِ الصَّبَاحِ ، عَلَى سَطْحِهِ الْمُسْتَبَاحِ ،
 قَدْ شَابَتْ غَدَائِرُهُ ، وَالنَّسْرُ (٥) يُرْفَرُ بِالْيَمَنِ طَائِرُهُ ، وَالسَّمَاءُ الرَّامِحُ (٦) يَثَارُ بِغُرِّ
 الْإِسْلَامِ ثَائِرُهُ ، وَالنَّعَائِمُ رَاعِدَةٌ (٧) فَرَائِصُ (٨) الْجَسَدِ ، مِنْ خَوْفِ الْأَسَدِ (٩) ،
 وَالْقُوسُ (١٠) يُرْسِلُ سَهْمَ السَّعَادَةِ (١١) ، بِوَتْرِ الْعَادَةِ ، إِلَى أَهْدَافِ النِّعَمِ الْمُعَادَةِ ،
 وَالْجُوزَاءُ (١٢) عَابِرَةٌ نَهْرَ الْمَجْرَةِ (١) ، وَالزُّهْرَةُ (٢) تَغَارُ مِنَ الشَّعْرِيِّ الْعُبُورِ (٣)

(١) أحل فلان أهله بمكان كذا : جعلهم يحلونه . واستقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

(٢) اكثب : قارب ، ودنا من الشيء .

(٣) التمحه : ابصره بنظر خفيف .

(٤) الوشاح : شيء ينسج عريضاً من أديم ، ويرضع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحتها .

(٥) النسران : كوكبان شاميان ؛ أحدهما واقع ، والآخر طائر . فالواقع كوكب نير ، خلفه كوكبان اصفر
 منه ، يكونان معه صورة الاتافي ؛ ويقولون : هما جناحاه وقد ضمها إليه حين وقع . أما الطائر ؛ فهو
 ازاء النسر الواقع في ناحية الشمال ، وتفصل بينهما المجرة ؛ وهو كوكب منير بين كوكبين تخيلوهما جناحيه قد
 نشرهما . وانظر كتاب «الانواء» لابن قتيبة ص ١٣٣ لسان (نسر) .

(٦) السماء الرامح : نجم نير شمالي ، خلفه كوكبان بمنزلة الرمح له . وهو نجم لا نوه له ويقابله السماء
 الأعزل ؛ وهو من منازل القمر .

(٧) النعائم : منزلة من منازل القمر ؛ وهي أربعة كواكب مربعة على طرف المجرة . وهناك نعائم واردة ،
 ونعائم صادرة ؛ فالواردة منها هي التي ترد في نهر المجرة ، والصادرة قد وردت وصدرت ، أي رجعت
 عنها . لسان العرب (نعم) .

(٨) راعدة الفرائص : فزعة ، مرتجفة ، والفرائص ، جمع فريضة ، وهي مرجع الكنف الى الخاصرة في
 وسط الجنب .

(٩) الأسد : أحد البروج الشمالية الاثني عشر . وكواكبه ٣٤ كوكبا .

(١٠) القوس ، ويسمى الرامي : أحد البروج الاثني عشر من البروج الجنوبية ؛ وهو كوكبة على صورة شخص
 نصفه الأعلى انسان ، بيده قوس يرمي به ، والنصف الأسفل منه على صورة فرس . وكواكبه
 ٣١ كوكباً ، ويقع خلف كوكبة العقرب .

(١١) السهم — في مصطلح المنجمين : عبارة عن موضع في دائرة فلك البروج ، يقع بين طولي كوكبين من
 الكواكب السيارة . ولهم في استخراجها طرق حسابية معروفة ؛ ولهذا الموضع المعين دلالة خاصة . وأقوى
 السهام : سهم السعادة ، وسهم الغيب .

(١٢) الجوزاء ، وتسمى التوأمن : برج من بروج الشمس الشمالية ؛ وهي صورة انسانين رأسها ، وسائر
 كواكبها في الشمال والمشرق عن اجرة ، وأرجلها الى الجنوب والمغرب في نفس المجرة ؛ وهما كالمتعانقين .
 كواكبها ٢٥ كوكبا .

(١) المجرة : البياض الذي يرى في السماء ، وتسمى عند العوام بسبيل التبانين ؛ وهي كواكب صفار ،
 متقاربة ، متشابكة لا تمايز حسا ، بل هي لشدة تكاثفها وصفرها صارت كأنها لطخات سحابة ؛
 والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها . عجائب المخلوقات للقزويني ٣٢/١ وما بعدها .

بالضرة ، وعطارد^(٤) يسدي في حبل الحروب ، على البلد المخروب^(٥) وتلجيه ،
 ويناظر على أشكالها الهندسية فيفجيه ، والأحمر^(٦) ينهر ، ويعلمه الأبيض يغري
 وينهر ، والمشتري يسدي في فضل الجهاد ويعيد ، ويترجم في الحلقات ، على ما
 للسعادة من الصفقات ، ويزيد^(٧) ؛ وزحل^(٨) عن الطالع^(٩) مترجل^(١٠) ، وعن
 العاشر^(١١) مترجل ، وفي زلق السعود وحل ؛ والبدر يطالع حجر المنجنيق^(١٢) ،
 كيف يهوي إلى النيق^(١٣) ، ومطلع الشمس يرقب ، وجدار الأفق يكاد بالعيون
 عنها ينقب .

ولما فشا سر الصباح ، واهترت أعطاف الرايات بتحيات مبشرات الرياح أطللنا^(١٤)
 عليها إطلال الأسود على الفرائس ، والفحول على العرائس ؛ فنظرنا منظرأ يروع بأساً
 ومنعة^(١٥) ، ويروق وضعاً وصنعة ، تلتفت^(١٦) معاقله الشم للسحاب ببرود ،

(٢) الزهرة ، كتودة : نجم أبيض مضيء من الكواكب السبعة السيارة ، ويسمى المنجمون السعد الأصفر ،
 لأنها في السعادة دون المشتري . تاج العروس (زهر) .

(٣) الشعري العبور (بكسر الشين) : كوكب نير من كوكبة الجوزاء ، في حجم الزهرة ونورها تقريباً ؛ يقال لها
 الشعري العبور ، ومرزم الشعري ، ذكرت في القرآن : «وأنه هورب الشعري» (٤٩ من سورة النجم) .
 وقد عبدها قوم من العرب في الجاهلية . وسميت العبور لأنها — فيما يزعمون — عبرت السماء عرضاً ، ولم
 يعبرها غيرها ، فلذلك عبدها . تاج العروس (شعر) .

(٤) عطارد ، ويسمى — في عرف أهل المغرب — الكاتب : كوكب من السبعة السيارة . واقترانه بزحل يدل
 على الخسف والزلازل ، وبالمريخ يدل على الشدائد .

(٥) المحروب : المسلوب المال ، المنهوب .

(٦) الأحمر وهو المريخ : دليل على الحروب وأصحابها ؛ فإذا كان في البرج الرابع من الطالع ، دل ذلك
 على كثرة القتل في الحروب ، وشدة الهول .

(٧) زحل ، والمشتري ، والمريخ ، إذا اقترنت بعضها ببعض ، أو تناظرت ؛ بأن كانت ناظرة بعضها إلى
 بعض نظر عداوة ، وذلك عند التربع والمقابلة — إذا حصل ذلك عند حلول الشمس برأس الحمل ،
 فإن ذلك يدل على وقوع حرب .

(٨) رحل ، وهو كيوان : إذا اتصل به القمر اتصال عداوة ، فإن ذلك يدل على البلايا والرزايا .

(٩) الطالع : هو البرج الذي على الافق الشرقي .

(١٠) زحل عن مكانه : زل ، وحاد .

(١١) العاشر : هو البرج الذي يقع فوق سمت الرأس .

(١٢) المنجنيق (بفتح الميم وكسرها) : آلة لرمي الحجارة على العدو في الحرب . شفاء الغليل ص ١٣٣ .

(١٣) النيق : أرفع موضع في الجبل .

(١٤) أطللنا عليها : أشرفنا عليها .

(١٥) منعة : قوة تمنع من يريده بسوء .

(١٦) تلتفت : تلحق .

ووردت من غُدر المَزْن في بُرود^(١) ، وأُشرعت لاقتطاف أزهار النجوم والذراع بين
النطاق معاصم رُود^(٢) ، وبلداً يحبي الماسح والذارع^(٣) ، وينظم المحاني
والأجارع^(٤) ؛ فقلنا : اللهم نفله أيدي عبادك ، وأرنا فيه آيةً من آيات جهادك ،
وانزلنا بساحتها العريضة المتون ، نُزول الغيث الهتون ، وتيمناً من فحصها بسورة
«التين والزيتون» ، متبرئةً من أمان الرحمان للبلد المفتون ؛ وأعجلنا الناس بحمىة
نُفوسهم النفيسة ، وسجىة شجاعتهم البثيسة^(٥) ، عن أن تبوأ^(٦) للقتال
المقاعد^(٧) ، وتُدني بأسماع شهير النفير منهم الأبعاد ، وقبل أن يلتقي الخديم
بالمخدوم ، ويركع المنجنيق ركعتي القدوم ؛ فدفعوا من أضحر إليهم من الفرسان .
وسبق إلى حومة المَيدان^(٨) ، حتى أحجروهم في البلد ، وسلبوهم لباس
الجلد^(٩) ، في موقفٍ يُذهل الوالد عن الولد ، صابت السهام فيه غماما^(١٠) ، وطار
كأسراب الحمام تُهدى حِماما^(١١) ، واضحت القنا قصدا^(١٢) ، بعد أن كانت شهاباً
رصدًا ؛ وماج بحر القَتام^(١٣) بأمواج النُصول ، وأخذ الأرض الرجفان لزلزال الصّباح
الموصول ؛ فلا ترى إلا شهيداً تظلل مصرعه الحُور^(١٤) ، وصريعاً تقذف به الى
الساحل تلك البحور ، ونواشب^(١٥) تبأى^(١٦) بها الوجوه الوجية عند الله والنحور؛

(١) البرود من الشراب : ما يبرد الغلة .

(٢) رخصة ناعمة .

(٣) مسح الأرض : قاس مساحتها . وذرعها : قاسها بالذراع .

(٤) المحاني ، جمع محنية ؛ وهي منعرج الوادي ، وما انحنى من الأرض . والاجارع ، جمع أجرع ؛ وهي
الأرض الطيبة المنبت ، والأرض فيها حزونة .

(٥) الشديدة البأس .

(٦) تبوأ : تهبأ .

(٧) المقاعد : مواقف للقتال تعين لكل واحد من المقاتلين ؛ يعني عجلنا بالهجوم قبل ان يتخذ كل مقاتل
مكاناً معيناً ، اشارة الى الآية «واذ غدوت من أهلك تبويء المؤمنين مقاعد للقتال» (١٢١ من سورة آل
عمران) .

(٨) حومة الميدان : أسد موضع فيه وقت القتال .

(٩) الجلد : القوة ، والصبر .

(١٠) صابت السهام غماما : نزلت كالغمام لكثرتها .

(١١) الحمام (بالكسر) : قضاء الموت وقدره .

(١٢) قصدا : قطعاً ؛ يقال : القنا قصد أي مكسورة .

(١٣) القتام : الغبار .

(١٤) جمع حوراء ؛ وهي التي اشتد بياض عيناها ، وسواد سوادها .

(١٥) نواشب : سهام ناشبة في وجوه المحاربين ، أو في أعناقهم .

(١٦) تبأى بها : تنشق .

فَالْمِقْضَبُ ^(١) ، فَوْدُهُ ^(٢) يُخْضَبُ ، وَالْأَسْمَرُ ، غُصْنُهُ يُسْتَشْمَرُ ، وَالْمِغْفَرُ ^(٣) ،
 حِمَاهُ يَخْفَرُ ، وَظُهُورُ الْقَيْسِيِّ تَقْصَمُ ^(٤) ، وَعِصْمُ الْجُنْدِ الْكُوفَرِ تَقْصَمُ ^(٥) ،
 وَوَرَقُ الْيَلْبِ ^(٦) فِي الْمُنْقَلَبِ يَسْقُطُ ، وَالْبَيْضُ تَكْتَبُ وَالسُّمْرُ تَنْقُطُ ^(٧) ، فَاقْتَحِمِ
 الرِّبْضُ الْأَعْظَمُ لِحِينَهُ ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ لِعَيُونِ الْمُبْصِرِينَ وَالْمُسْتَبْصِرِينَ عِزَّةَ دِينِهِ ،
 وَتَبَرَّأَ الشَّيْطَانُ مِنْ خَدِينِهِ ^(٨) ، وَنَهَبَ الْكُفَّارُ وَخَذَلُوا ، وَبِكُلِّ مَرْصَدٍ جَدَلُوا ؛ ثُمَّ
 دَخَلَ الْبَلَدُ بَعْدَهُ غِلَابًا ، وَجَلَّلَ ^(٩) قَتْلًا وَاسْتَلَابًا ؛ فَلَا تَسَلُ إِلَّا الظُّبَا ^(١٠)
 وَالْأَسْلَ ^(١١) عَنْ قِيَامِ سَاعَتِهِ ، وَهَوَّلَ يَوْمَهَا وَشَنَاعَتَهُ ، وَتَخْرِبُ الْمَبَائِتَ ^(١٢) وَالْمَبَانِي ،
 وَغَنَى الْأَيْدِي مِنْ خَزَائِنِ تِلْكَ الْمَغَانِي ، وَنَقَلَ الْوُجُودَ الْأَوَّلَ إِلَى الْوُجُودِ الثَّانِي ^(١٣) ؛
 وَتَخَارَقَ السَّيْفُ فَجَاءَ بِغَيْرِ الْمُعْتَادِ ، وَنَهَلَتْ الْقَنَا الرُّدَيْنِيَّةُ مِنَ الدِّمَاءِ ، حَتَّى
 كَادَتْ تُورِقُ كَالْأَغْصَانِ الْمُفْتَرَسَةِ وَالْأَوْتَادِ ، وَهَمَّتْ أَفْلَاكُ الْقَيْسِيِّ وَسَحَّتْ ،
 وَأَرْنَتْ حَتَّى بُحَّتْ ، وَنَفَدَتْ مَوَادُّهَا فَشَحَّتْ ، مِمَّا أَلَحَّتْ ، وَسَدَّتْ الْمَسَالِكَ
 جِثُّ الْقَتْلَى فَمَنَعَتْ الْعَابِرَ ، وَاسْتَأْصَلَ اللَّهُ مِنْ عَدُوهِ الشَّافَةَ وَقَطَعَ الدَّابِرَ ^(١٤) ،
 وَأَزْلَفَ الشَّهِيدَ وَأَحْسَبَ الصَّابِرَ ^(١٥) ، وَسَبَقَتْ رُسُلُ الْفَتْحِ الَّذِي لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ فِي

(١) سيف مقضب : قطاع .

(٢) الفود : معظم شعر اللمة مما يلي الاذن . واسناد ذلك للسيف على جهة التوسع .

(٣) المغفر : ما يلبسه الدارع على راسه من الزرد ونحوه .

(٤) تقصم : تكسر .

(٥) عصم الكوافر : جمع عصمة ، وأصل العصمة الجبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه . والكوافر جمع كافر وهو يريد هنا أن الجند جماعات ، فصح له جمع فاعل على فواعل . تقصم : تقطع وتنفصل . مقتبس من الآية : «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» .

(٦) اليب : الدروع ، والدرق .

(٧) البيض : السيوف . والسمر : الرماح .

(٨) الخدين : الصديق .

(٩) جلل قتلا : عمه القتل .

(١٠) الظبا ، جمع ظبة ؛ وهي حد السيف ، والسنان ، والنصل ، والخنجر ، ونحوها .

(١١) الأسل : عيدان طوال دقاق مستوية لا ورق لها ؛ وتسمى الرماح والقنا أسلا ، على التشبيه بها في الطول ، والاستواء ، والدقة .

(١٢) المبات ، جمع مبيت ، مكان البيوت .

(١٣) يعني بالوجود الأول : الوجود الخارجي ، وهو المرئي بالعين الملموس . أما الوجود الثاني فهو الوجود الذهني ؛ والمعنى أن هذه المدينة قد أصبحت موجودة في الأذهان صورتها بعد أن كانت موجودة العين . وانظر معيار العلم للغزالي ص ٣٧ . وشرح المقاصد للسعد ٥٧/١ (طبع استانبول سنة ١٢٧٧ هـ) .

(١٤) الشافة : الأصل ، واستأصل شافته أي أصله . وقطع الدابر : استأصل آخرهم .

(١٥) أزلف الشهيد : قربه إليه . وأحسب الصابر : اعطاه ما يرضي ، أو اعطاه حتى قال حسبي .

الزمن الغابر . تَنْقُلُ البُشْرَى من أفواه المحابر ، إلى آذان المنابر .
أقمنا بها أياماً نعقر الأشجار^(١) ، ونستأصل بالتخريب الوجار^(٢) ، ولسان الانتقام
من عبدة الأصنام ، يُنادي : يا لثارات الإسكندرية^(٣) تشفياً من الفجار^(٤) ،
ورعياً لحق الجار ؛ وقفنا وأجنحة الرايات ، بريح العنایات ، خافقة وأوفاق^(٥) ،
التوفيق ، الناشئة من خطوط الطريق ، موافقة ، وأسواق الغز بالله نافقة ، وحُملاء
الرفق مصاحبة — والحمد لله مرافقة ؛ وقد ضاقت ذُرُوع الجبال ، عن أعناق
الصَّهْب السِّبال^(٦) ، ورُفعت على الأكفال ، رُدْفاء كرائم الأنفال ، وقُلِقَت من
النواقيس أجرام الجبال ، بالهندام^(٧) والأحتيال ؛ وهلك بمهلك هذه الأمم هذه
الأمم بنات كنَّ يرتضِعْنَ ثُدْيَها الحوافل^(٨) ، ويستوثرن حجرتها الكافل ؛ شمل
التخريب أسوارها ، وعجَّلت النار بوارها .

- (١) نعقر الأشجار : نقطع رؤوسها ، فتبيس .
(٢) الوجار (بالكسر ويفتح) : جحر الضبع ، والاسد ، والشلب ، والذئب ونحوها .
(٣) يشير ابن الخطيب الى «الواقعة» التي حدثت بالاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، ومحملها ان حاكم قبرص ،
انتزغية حاكم الاسكندرية في الحجاز للحج ، فهاجم البلد في اسطول بلغت قطعه نحو ٧٠ فيما قالوا ،
وقد خرج أهل الاسكندرية للترهة غير مقدرين للخطر ، وكانت الحامية الموجودة قليلة ، والأسوار
والحصون خالية من المدافعين ، فهاجم العدو الأهالي الغز الآمنين ، ففروا الى المدينة ، وأغلقوا عليهم
الأبواب ، فأحرقها العدو واقتحم البلد عليهم .. فكانت مذابح هتكت فيها حرمت . وانظر تفصيلها في
العبرم ٥ .
(٤) شبه مهاجمة الاسكندرية الآمنة بحرب «الفجار» ، التي سميت بذلك لما استحل فيها من حرمت ،
حيث كانت في الاشهر الحرم .
(٥) أوفاق ، جمع وفق ؛ وهي مربعات تحتوي على بيوت مربعة صغيرة ، وتوضع في تلك البيوت أرقام ، أو
حروف ، على نظام بحيث لا يتكرر عدد في بيتين ، وبحيث يكون مجموع أضلاع المربع ، ومجموع
أقطارها متساوياً ؛ ويسمى الوق — بعد ذلك — بما في أحد اضلاعه من بيوت ؛ فيقال : المثلث ،
والمربع ، والمخمس الخ ؛ وقد يحتوي على مئة من البيوت فيقال : الوق المثني . ويقول أصحاب
الأق : ان للاعداد — في هذا الوضع — خواص روحانية ، وآثاراً عجيبة ، اذا اختير للعمل بها وقت
مناسب ، وساعة شريفة . وكلام ابن الخطيب على التشبيه والتجوز .
(٦) الصهب : جمع أصهب ، وهو الابيض تخالطه حمرة . والسبال : جمع سبلة ؛ وهي اللحية ، أو ما
على الشارب من شعر ؛ ويقال للاعداء عامة هم صهب السبال ؛ ذلك لأن الصهوبة في الروم ، وقد
كانوا اعداء العرب ؛ ثم قالوا لكل الاعداء : هم صهب السبال .
(٧) الهندام آلة يمتل بها على رفع أو تحريك الأشياء الثقيلة التي لا تستطيع قوى الانسان المجردة ان ترفعها ،
او تحركها . وقد وصف هذه الآلة ابن خلدون في آخر فصل البناء من مقدمته .
(٨) الحوافل : جمع حافلة ، الضرع الممتلئ لبناً .

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح ، وأرسلنا دلاء الأدلاء^(١) قبل المتح^(٢) ، فبشرت
 بالمنح ؛ وقصدنا مدينة أبدة ، وهي ثانية الجناحين ، وكبرى الأختين ، ومساهمة
 جيان في حين الحين^(٣) ؛ مدينة أخذت عرض الفضاء الأخرق^(٤) ، وتمشت فيه
 أرباضها تمشي الكتابة الجامحة في المهرق^(٥) ؛ المشتملة على المتاجر
 والمكاسب ، والوضع المتناسب ، والفلح المعيني ريعه^(٦) عمل الحاسب وكوارة^(٧)
 الدبر^(٨) الأاسب^(٩) المتعددة يعاسب^(١٠) ؛ فأناخ العفاء^(١١) برُبوعها العامرة ،
 ودارت كؤوس عقار^(١٢) الحتوف^(١٣) ، بينان السيوف ، على مُتدِيرِها المُعاقرة^(١٤) ،
 وصبحتها طلائع الفاقرة^(١٥) ، وأغرّيت ينطون أسوارها عوجُ المعاول^(١٦) ،
 الباقرة^(١٧) ؛ ودخلت مدينتها عنوة السيف ، في أسرع من خطرة الطيف ، ولا تسأل
 عن الكيف ، فلم يبلغ العفاء من مدينة حافلة ، وعقيلة في حُلل المحاسن
 رافلة^(١٨) ، ما بلغ من هذه البائسة^(١٩) التي سجدت لآلهة النيران أبراجها ،

- (١) جمع دلو ؛ وهي ما يستقى به . والأدلاء : جمع دليل ، وهو المرشد . ويريد : قدمنا قبل بدء القتال — طلائع لنكشف ما عند العدو من استعداد .
- (٢) المتح : الاستقاء .
- (٣) الحين : الهلاك .
- (٤) الأخرق : البعيد الواسع .
- (٥) المهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها .
- (٦) الريع : النماء ، والزيادة ، وارض مربعة : مخصبة ، وهذا هو المراد هنا .
- (٧) الكوار ، والكوارة : شيء يتخذ للنحل من القضبان .
- (٨) الدبر : النحل .
- (٩) لسبته النحلة ؛ لسعته .
- (١٠) يعسوب : أمير النحل . والجمع الصحيح يعاسيب .
- (١١) أناخ الجمل : برك . والعفاء : المحو ، والازالة .
- (١٢) العقار : الخمر .
- (١٣) الحتوف : جمع حتف ؛ وهو الموت .
- (١٤) معافر الخمر : مدمنها ، والجمع : معاقرة : ولعله يريد بمتدِيرِها ، ديارِها .
- (١٥) الفاقرة : الداهية الكاسرة .
- (١٦) جمع معول ؛ وهو الحديدة تنقر بها الجبال . أو هو الفأس .
- (١٧) بقر الشيء بقرأ : فتحه ، ووسعه ، وشقه .
- (١٨) امرأة رافلة : تجر ذيلها جراً جسناً إذا مشت .
- (١٩) البائسة : الفقيرة . والتي نزلت بها بلية ترحم من أجلها .

وَتَضَاعَلَ (١) بِالرَّغَامِ (٢) مِعْرَاجُهَا ، وَضَفَّتْ (٣) عَلَى أَعْطَافِهَا (٤) مَلَابِسُ الْخِذْلَانِ ،
وَأَقْفَرُ مِنْ كِنَائِسِهَا كِنَاسٌ (٥) الْغِزْلَانِ .
ثُمَّ تَأَهَّبْنَا لَغَزْوِ أُمِّ الْقُرَى الْكَافِرَةِ ، وَخِزَائِنِ الْمَزَايِنِ (٦) الْوَافِرَةِ ، وَرَبَّةِ الشُّهْرَةِ
السَّافِرَةِ (٧) ، وَالْأَنْبَاءِ الْمَسَافِرَةِ ؛ قُرْطُبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكُ مَاهِيَةَ ! ذَاتِ الْأَرْجَاءِ
الْحَالِيَةِ (٨) الْكَاسِيَةِ (٩) ، وَالْأَطْوَادِ الرَّاسِيَةِ الرَّاسِيَةِ ، وَالْمَبَانِي الْمَبَاهِيَةِ ، وَالزَّهْرَاءِ (١٠)
الزَّاهِيَةِ ، وَالْمَحَاسِنِ غَيْرِ الْمَتَنَاهِيَةِ ؛ حَيْثُ هَالَةٌ بَدْرِ السَّمَاءِ قَدْ اسْتَدَارَتْ مِنَ السُّورِ
الْمَشِيدِ الْبِنَاءِ دَاراً ، وَنَهْرِ الْمَجْرَةِ مِنْ نَهْرِهَا الْفِيَاضِ ، الْمَسْلُولِ حُسَامُهُ مِنْ غُمُودِ
الْفِيَاضِ (١١) ، قَدْ لَصِقَ بِهَا جَاراً ، وَفَلَكَ الدُّوْلَابِ ، الْمُعْتَدِلِ الْإِنْقِلَابِ ، قَدْ
اسْتَقَامَ مَدَاراً ، وَرَجَعَ الْحَنِينَ اشْتِيَاقاً إِلَى الْحَبِيبِ الْأَوَّلِ وَادِّكَاراً (١٢) حَيْثُ الطَّوْدُ
كَالْتَّاجِ ، يَزْدَانُ بُلُجَيْنِ الْعَذْبِ الْمُجَاجِ (١٣) ، فَيُزْرِي بَتَاجِ كِسْرَى وَدَارَا ؛ حَيْثُ
قِسِي الْجُسُورِ (١٤) الْمَدِيدَةِ ، كَأَنَّهَا عَوْجٌ (١٥) الْمَطْيِيِّ الْعَدِيدَةِ ، تَعْبُرُ النَّهْرَ قَطَاراً ؛

(١) تضاعل : تصاغر وذل .

(٢) الرغام (بالفتح) : التراب .

(٣) ثوب ضاف : سابغ طويل .

(٤) عطفها كل شيء : جانبها ، والجمع اعطاف .

(٥) الكناس : موضع في الشجر يستكن فيه الطيبي ويستقر ، اذا اشتد الحر .

(٦) المزائن : ما يترين به .

(٧) السافرة : الذاهبة كل مذهب .

(٨) الحالية : التي لبست حلياً .

(٩) الكاسية : المكتسية .

(١٠) الزهراء : مدينة في شمال قرطبة على بعد ثلاثة أميال منها ، تحت جبل العروس ؛ بنها الناصر المرواني أبو

المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أول سنة ٣٢٥ هـ ، وسماها باسم جارية كان يحبها ، اشتهت

أن يبني لها مدينة في جبل العروس ، ويسميا باسمها . وقد وصفها المقرئ في نفع الطيب

٣٤٤/١ - ٣٧٤ صنع ليدن .

(١١) الغيضة : مفيض ماء يجتمع ، فنبت فيه الشجر ؛ وجمعها غياض .

(١٢) يريد أن قرطبة دائماً الحنين إلى الحكم الإسلامي الذي انتظمها منذ الفتح حتى سنة ٦٣٣ هـ ، حيث

سقطت في أيدي الأسيبان .

(١٣) المجاج : العسل ، ومجاج المزن : مطرها .

(١٤) الذي نعرف أن على نهر قرطبة جسرين ، بني الأعظم منها - بأمر عمر بن عبد العزيز - السمع بن

مالك الخولاني . أو عبد الرحمن بن عبيد الله الغامقي ؛ وكانوا يسمونه قنطرة الوادي ، وكانت اقواسه

سبع عشرة قوساً ، سعة الواحدة منها خمسون شبراً . نفع الطيب ٢٢٦/١ ، ٢٤٦ بولاق .

(١٥) جمع عوجاء ؛ وهي الضامرة من الأبل . والمطي : جمع مطية ؛ وهي البعير يمتطي ظهره .

حيث آثار^(١) العامري^(٢) المجهاد^(٣) ، تعبق^(٤) بين تلك المعاهد ، شذي معطاراً ؛ حيث كرائم السحاب ، تزور عرائس الرياض الحباث ، فتحمل لها من الدر نثاراً ؛ حيث شمول الشمال^(٥) تدار على الأذواح^(٦) ، بالغدو والرواح ، فترى الغصون سكارى ، وما هي بسكارى ؛ حيث أيدي الافتتاح ، تفتض من شقائق^(٧) البطاح ، أبقاراً ؛ حيث ثغور الأقاح^(٨) الباسم ، تقبلها بالسحر زوار النواسم ، فتخفق قلوب النجوم الغياري ، حيث المصلى^(٩) العتيق ، قد رحب مجالاً وطال مناراً^(١٠) ، وأزرى ببلاط الوليد^(١١) احتقاراً ؛ حيث الظهور^(١) المثار

(١) من آثاره : المنية المعروفة بالعامرية ، والمدينة «الزاهرة» التي اتخذها مقراً لحكمه ، والزيادة التي اضافها لمسجد قرطبة في الناحية الشرقية منه . نفح الطيب ١ ٢٦٠ — ٢٧٤ — ٢٧٧ بولاق .

(٢) هو محمد بن عبدالله بن أبي عامر بن محمد بن عبدالله بن عامر المعافري ، دخل جده الاندلس مع طارق بن زياد . واستوزره الحكم المستنصر لابنه هشام ، فلما مات حجه ابن أبي عامر ، واستولى على الدولة ، وأمر بأن يحيى بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور . توفي مبطوناً بمدينة سالم ، بأقصى ثغور المسلمين سنة ٣٩٣ أو ٣٩٤ . العبر لابن خلدون م ٤ .

(٣) كان المنصور بن أبي عامر محباً للجهاد ؛ غزا بنفسه — مدة ملكه — نيفاً وخمسين غزوة ، لم تتكس له فيها راية ، ولا قل له فيها جيش . ومن شعره في ذلك .

ألم ترني بعث المقامة بالسرى ولين الحشايا بالخيل الضوامر
وبدللت بعد الزعفران وطيبه صدى السدرع من مستحكات المسامر
فلا تحسبوا أنني شغلت بلادة ولكن أطعت الله في كل كافر

وكان يأمر ان ينفض غبار ثيابه التي حضر فيها القتال ، وان يجمع ويحتفظ به ؛ فلما حضرته الوفاة أمر أن ينشر على كفته اذا وضع في قبره . رحمه الله . العبر م ٤ .

(٤) عبق الطيب : فاح وانتشر : (تاج) .

(٥) الشمول : الخمر . والشمال : الريح تهب من القطب ؛ ويقال ؛ خمر مشمولة اذا ضربتها ريح الشمال فأصبحت باردة الطعم .

(٦) جمع دوحة : وهي الشجرة العظيمة المتسعة .

(٧) يريد شقائق النعمان ، وتسمى الشقر ايضا ، وهي نور أحمر ، والنعمان اسم الدم ، فشبهت حمرتها بحمرة الدم ، وسميت شقائق النعمان ، وغلب عليها الشقائق .

(٨) جمع اقحوان ، وهو نبت طيب الريح ، له نور أصفر ، وحواليه ورق أبيض ، كأنه ثغر جارية حديثة السن ، وانظر مفردات ابن البيطار ١/٤٨ . والصواب : «الاقاح البواسم» .

(٩) يريد جامع قرطبة ، وقد وصفه الحميري في الروض المعطار وصفاً مفصلاً ص ١٥٣ — ١٥٥ ، وانظر نفح الطيب ١/٣٥٨ — ٣٦٠ طبع ليدن .

(١٠) وصف منارة جامع قرطبة وصفاً دقيقاً ، وقاسها كذلك ، الحميري في الروض المعطار ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(١١) كان الوليد بن عبد الملك من أفضل خلفاء بني أمية ؛ أعطى المخدمين ، وقال لهم لا تسألوا الناس ،

بِسِلَاحٍ (٢) الْفَلَاحِ ، تُجَبُّ عَنْ مِثْلِ أُسْنِمَةٍ (٣) الْمَهَارِي (٤) ، وَالْبُطُونُ (٥) كَأَنَّهَا لَتَدْمِيثٍ (٦) الْغَنَائِمِ ، بَطُونُ الْعَدَارِي ، وَالْأَذْوَاحِ الْعَالِيَةِ ، تُخْتَرَقُ أَعْلَامُهَا الْهَادِيَةِ ، بِالْجَدَاوِلِ الْحَيَارِي (٧) . فَمَا شَتَّ مِنْ جَوْ بَقِيلٍ (٨) ، وَمُعْرَسٍ لِلْحُسْنِ وَمَقِيلٍ ، وَمَالِكٍ لِلْعَقْلِ وَعَقِيلٍ (٩) ؛ وَخِمَائِلٍ ، كَمِ فِيهَا لِلْبَلَابِلِ ، مِنْ قَالَ وَقِيلٍ ، وَخَفِيفٍ يَجَاوِرُ بَثْقِيلٍ ؛ وَسَنَابِلَ تَكِيٍّ مِنْ فَوْقِ سُوقِهَا ، وَقَصَبٍ بِسُوقِهَا ، الْهَمْزَاتِ عَلَى الْأَلِفَاتِ ، وَالْعَصَافِيرِ الْبَدِيعَةِ الصِّفَاتِ ، فَوْقَ الْقُصْبِ الْمُؤْتَلِفَاتِ ، تَمِيلُ لِهُبُوبِ الصَّبَا وَالْجَنُوبِ ، مَالِئَةٌ الْجُبُوبِ ، بِدُرِّ الْحُبُوبِ ؛ وَبِطَاحٍ لَا تَعْرِفُ عَيْنَ الْمَحَلِّ (١٠) ، فَتَطْلُبُهُ بِالذَّحْلِ (١١) ، وَلَا تَصْرِفُ فِي خِدْمَةِ بَيْضِ قَبَابِ الْأَزْهَارِ ، عِنْدَ افْتِتَاحِ السَّوسَنِ وَالْبَهَارِ (١٢) ، غَيْرِ الْعُبْدَانِ مِنْ سُودَانَ النَّحْلِ ؛ وَبَحْرِ الْفَلَاحَةِ

وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضريبر قائداً ؛ وكان صاحب بناء واتخذ المصانع والضبياع ؛ وكان الناس في زمانه ، يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ؛ وبنى المساجد : مسجد المدينة ، ومسجد دمشق ، الذي أنفق عليه أموالاً عظيمة ، وأحضر له الصناع من بلاد الروم ومن سائر بلاد الإسلام ، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد . وانظر تاريخ الطبري ٥٨/٨ — ٩٧ وتاريخ أبي الفداء ٢١٠/١ ، مقدمة ابن خلدون ص ٦٤٠ طبع دار الكتاب اللبناني — بيروت .

- (١) الظهر من الأرض : ما غلظ وارتفع .
(٢) أثار الأرض بالسن — وهي الحديدية التي تحرث بها الأرض — إذا قلبها على الحلب بعدما فتحت مرة ، وفي القرآن : «وأثأروا الأرض» : حرثوها وزرعوها ، واستخرجوا منها بركاتها .
(٣) جب السنام : قطعه . وسنام الناقة : أعلى ظهرها ؛ والجمع أسنمة .
(٤) ابل مهيبة : منسوبة إلى مهرة بن حيدان أبي قبيلة ، وهم جي عظيم ؛ والجمع مهاري .
(٥) جمع بطن ؛ والبطن من الأرض : ما لان وسهل واطمان .
(٦) دمث الشيء : مرسه حتى لان .
(٧) الحيارى : جمع حيران ؛ وهو المتردد في الأمر ، لا يدري وجهة يهتدي إليها . ويريد ان الجداول لالتوائها ، وكثرة منعطفاتها ، تشبه في سيرها شخصاً حيران قد التبتت عليه السبل .
(٨) الجو : المنخفض من الأرض . والبقييل : المكان ذو البقل ؛ وكل نبات أخضرت به الأرض فهو بقل .
(٩) يوري بمالك وعقيل ابني فارج بن مالك ، نديمي جذيمة الأبرش ، ولها مع عمرو بن عدي خبر تجد تفصيله في تاريخ الطبري ٣٠/٢ — ٣١ .
(١٠) المحل : الجذب ؛ وهو انقطاع المطر .
(١١) الذحل : الثأر .
(١٢) البهار — عند أهل المغرب — : نبات طيب الريح ، له قضبان خضر ، في رؤوسها أقماع يخرج منها نور ينبسط منه ورق أبيض ، وفي وسط البياض دائرة صفراء من ورق صغير . وهذه هي الصفة التي اثبتها أهل المشرق للزرجس ، حيث قالوا : هو باقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فالبهار عند أهل المغرب هو الزرجس عند أهل المشرق .

الذي لا يُدرك ساحله ، ولا يَبْلُغُ الطَّيَّةَ^(١) البعيدة راحله ؛ إلى الوادي ، وسمر
النوادي^(٢) ، وقرار دُموع الغوادي^(٣) ؛ للتجاسر على تَخَطِيهِ ، عند تَمَطِّيهِ^(٤) ،
الجسر العادي ؛ والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد ، والفرا الذي في جَوْفِهِ كلُّ
صَيْدٍ^(٥) ؛ أقلُّ كرسِيَّه خِلافة الإسلام ، وأغار بالرُّصافة^(٦) والجسر دار السَّلام^(٧) ؛
وما عسى أن تُطَنَّبَ في وصفه ألسنة الأقلام أو تُعَبِّرَ به عن ذلك الكمال فنون
الكلام .

فأعمَلْنَا إليها السرى والسَّير ، وقُدْنَا إليها الخيلَ قد عقد الله في نواصيها الخير^(٨) . ولما
وقفنا بظاهرها المُبْهَتِ المُعْجَبِ ، واصطففنا بخارجها المُنبِتِ المُنْجَبِ ؛
والقلوبُ تَلْتَمِسُ الإعانةَ من مُنْعَمٍ مُجْزَلٍ ، وتستزِلُّ مدد الملائكة من مُنْجِدِ
مُنْزَلٍ ، والركائبُ واقفةٌ من خَلْفِنَا بِمَغْزَلٍ ، تتناشد في معاهد الإسلام :
« قِفَا نَبْكَ من ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزَلٍ^(٩) »

بَرَزَ من حَامِيَتِهَا المُحَامِيهِ ، ووقود النار الحاميه ، وبقيّة السيف الوافرة على الحِصَادِ
النَّامِيَةِ ، قِطْعُ الغنائم الهامية ، وأمواجُ البحور الطَّامِيَةِ ؛ واستجنت^(١٠) بظلال
أبطال المَجَالِ ، أعدادُ الرجال ، الناشِبة^(١١) والرامية ، وتصدَّى للنزال ، من

(١) الطية : الناحية .

(٢) السمر : الحديث بالليل . والنادي : المجلس ، والجمع الصحيح : أندية .

(٣) الغاد : السحابة تنشأ فتمطر غدوة . والجمع غواد .

(٤) تمطية : امتداده . كنى به عن امتلاء النهر بالمياه أيام الشتاء .

(٥) الفرا : الحمار الوحشي ؛ وهو من اعظم ما يصطاده الناس ، وفي الكلام إشارة إلى المثل : « كل الصيد في
جوف الفرا » الذي يضرب لما يفضل على غيره . ميداني ٥٥/٢ .

(٦) الرصافة : قصر بناه عبد الرحمن الداخل . في الشمال الغربي لقرطبة ، واتخذها لسكناه ، نقل اليه من
الشام كثيراً من أشجار الفاكهة والأزهار . وسماه باسم رصافة جده هشام بن عبد الملك . معجم البلدان
٢٥٧/٤ .

(٧) يريد بغداد . وسماها مدينة السلام أبو جعفر المنصور ، وكان ذلك سنة ١٤٦ هـ . أنظر تاريخ بغداد
٦٦/١ - ٦٧ .

(٨) إشارة إلى حديث البخاري : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » . الجامع الصحيح
١٨٧/٤ طبع الاستانة .

(٩) مطلع المعقة المشهورة لامرئ القيس .

(١٠) استجنت : استترت .

(١١) الناشبة : قوم يرمون بالنشاب ؛ وهي السهام .

صناديدها^(١) الصُّهْبِ السِّبَالِ ، أمثالُ الهضابِ الراسية ، تُجْنُها^(٢) جُنْ^(٣) السوابغ الكاسية ، وقواميسُها^(٤) المُفَادِيَةُ لِلصُّلْبَانِ يَوْمَ بُوسِها بِنُفوسِها المُواسِيَةِ^(٥) ، وخنازيرُها التي عَدَّتْها^(٦) عن قبول حُججِ الله ورسوله ، سَتُورِ الظُّلمِ الغاشية ، وصخورِ القلوبِ القاسية ؛ فكان بين الفريقين أمامَ جسرِها الذي فَرَّقَ البحرَ ، وحلَّى بلجِينه ، ولآليءِ زِينه ، منها النَّحرُ ، حربٌ لم تنسُجِ الأزمانَ على مِنوالِها^(٧) ، ولا أتت الأيَّامُ الحَباليِّ بمثلِ أَجَنَّةِ^(٨) أهوالِها ؛ مَنْ قاسِها بالفجَّارِ^(٩) أَفكٌ وفجَّرَ^(١٠) ؛ أو مثَلَّها بجفَرِ الهَباءَةِ^(١١) خَرَفَ وهجرَ^(١٢) ؛ وَمَنْ شَبَّها بحربِ داحِسِ والغبراءِ^(١٣) ، فما عرف الخبرَ ، فليسألَ مَنْ جَرَّبَ وخَبَرَ ؛ وَمَنْ نَظَّرَها بيومِ شِعْبِ جَبَلَةَ^(١٤) فهو ذو بَلَّةِ^(١٥) ؛ أو عادَها ببطنِ عاقِلِ^(١٦) ، فغيرُ عاقِلِ ؛ أو احتجَّ بيومِ ذي قارِ^(١٧) ، فهو إلى

(١) الصنديد : السيد الشجاع . والجمع صنديد .

(٢) تجنُّها : تسترها .

(٣) الجُنْ : جمع جنة ، وهي السترة .

(٤) القواميس ، جمع قومس (بوزن جوهر) ؛ وهو مرافق الملك ، ونديمه ، والامير .

(٥) المواسي : المعين .

(٦) عديته فتعدى : أي تجاوز الحد الذي حد له .

(٧) المنوال : المنسج تنسج عليه الثياب . يريد لم تأت الايام بمثل هذه الحروب .

(٨) حَبالي : جمع حبلى . والاجنة جمع جنين .

(٩) حروب الفجار عدة ؛ واشهرها — وهي آخرها — تلك التي كانت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن .

وقد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : كنت أنبل على أعماي يوم الفجار ، وسميت فجاراً لما

استحلوا فيها من حرمة الأشهر الحرم . العقد الفريد ٣/٣٦٨ — ٣٧١ .

(١٠) أفك : كذب . وفجَّر : مال عن الحق .

(١١) جفر الهباءة : يوم كان لعيس على ذبيان ، سمي بالموضع الذي كانت فيه موقعتهم ؛ وهو مستنقع في

ارض غطفان . العقد الفريد ٣/٣١٦ — ٣١٧ ، ياقوت (معجم البلدان) ، الميداني ٢/٢٦٩ .

(١٢) خرف : فسد عقله . هجر : خلط في كلامه وهذي .

(١٣) داحس والغبراء : يوم من اشهر ايامهم ، بلغ من بعد اثره ان اتخدوه مبدءاً من مبادئ تواريخهم في

الجاهلية ؛ ويقال انه دام اربعين سنة . وكان بين عيس وذبيان .

وداحس والغبراء : فرسان ، وسمي اليوم بهما لما انه كان يسبهما ، انظر العقد الفريد ٣/٣١٣ — ٣١٤ .

(١٤) كان يوم شعب جيلة لغامر وعيس على ذبيان ، وكان — فيما يقول أبو عبيدة — قبل الاسلام بأربعين

سنة (وشعب جيلة : هضبة حمراء بنجد) . العقد الفريد ٣/٣٠٧ — ٣١٠ ، ياقوت (معجم

البلدان) .

(١٥) البله : الغفلة .

(١٦) بطن عاقل : يوم كان لذبيان على بني عامر ، (أو كان بين بني خثعم ، وبني حنظلة) ، ذكر سببه في

العقد الفريد ٣/٣٠٥ — ٣٠٦ ، وانظر مجمع الامثال ٢/٢٦٤ .

(١٧) يوم ذي طار : يوم مشهور كان ايام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثر عنه انه قال : «انه أول يوم

المعرفة ذو افتقار ؛ أو ناضل بيوم الكديد^(١) ، فسهمه غير السديد ؛ انما كان مقاماً غير معتاد ، ومرعى نفوس لم يف بوصفه لساناً مرتاد^(٢) وزلزال جبال اوتاد^(٣) ، ومثلف^(٤) مذخور لسلطان الشيطان وَعَتَاد^(٥) ؛ أَعْلَم^(٦) فيه البطلُ الباسل^(٧) ، وتورّد الأبيض الباتر^(٨) ، وتأوّد الأسمر^(٩) العاسل^(١٠) ، ودوم الجلمد^(١١) المتكاسل ، وانبعث من حدب^(١٢) الحنية^(١٣) ، إلى هدف الرمية^(١٤) ، الناشر^(١٥) الناسل^(١٥) ، ورويت لمرسلات السهام المراسل ؛ ثم أفضى أمر الرماح إلى التشاجر والارتباك ، ونشبت الأسنّة في الدروع نشب السمك في الشباك ، ثم اختلط المرعى بالهمل^(١٦) ، وعزل الرديني عن العمل ؛ وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعد أن شقت غدر السوابغ خلجانا ؛ واتحدت جداول الدروع ، فصارت بحراً ، وكان التتائق ، فلا ترى إلا نحرأ يلزم نحرأ ، عناق وداع ، وموقف شمل ذي انصداع ، وإجابة منادٍ إلى فراق الأبد وداع ؛ واستكشفت مآل الصبر الأنفس الشفافة^(١٧) ، وهبت بريح النصر الطلائع المبشرة الهفافة^(١٨) ؛ ثم أمد السيل ذلك

- انتصفت فيه العرب من العجم . وتفصيل اخباره ، وأسبابه ، مذكورة في العقد ٣/٣٧٤ — ٣٧٨ .
- (١) كان يوم الكديد لسليم على كنانة ، وفيه قتل ربيعة بن مكرم ، فارس كنانة . وانظر العقد الفريد ٣/٣٢٦ .
- (٢) المرتاد والرائد : الذي يتقدم القوم في التماس النجمة واختيار المرعى الحسن .
- (٣) أوتاد الارض : جبالها .
- (٤) المثلف : المفازة ، والقفر ؛ سمي بذلك لانه يتلف سالكه .
- (٥) العتاد : العدة تعدها لأمر ما .
- (٦) أعلم الفارس : جعل لنفسه علامة الشجعان ، وأعلم نفسه : وسمها بسما الحرب .
- (٧) الباسل : الشجاع .
- (٨) تورّد : احمر . الأبيض الباتر : السيف القاطع .
- (٩) تأوّد : اعوج وانثنى . الأسمر : الرمح .
- (١٠) عسل الرمح : اضطرب واحترز ، ورمح عاسل : مضطرب للذن .
- (١١) دوم : تحرك ودار . والجلد : الصخر .
- (١٢) حدب الحنية : تقوسها وانعطافها .
- (١٣) الحنية : القوس ؛ فعيلة بمعنى مفعولة ؛ وأكثر ما تكون حنية عند توتيرها ، والرمي بها .
- (١٤) الرمية : الطريدة التي يرميها الصائد .
- (١٥) الناشر : المهترز ، والناسل : المسرع .
- (١٦) هو مثل والمرعى : الابل التي لها راع ، والهمل : الضوال من النعم لا راعي لها .
- (١٧) أنفس شفافة : فاضلة .
- (١٨) الهفافة : السريعة المرور في هبوبها .

العباب ، وصَقَلَ الاستبصارُ الألباب ، واستخلص الغزمُ صفوةَ اللُّباب ، وقال لسان النصر : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ فأصبحت طوائفُ الكفار ، حصائدَ مناجل الشُّفار ، فمغافِرُهُم قد رضيت حُرْمَاتُهَا بالإخفار^(١) ، ورؤوسُهُم محطُوطَةٌ في غير مقام الاستغفار ، وعلت الرّايات من فوق تلك الأبراج المستطرقة والأسوار ، ورُفرف على المدينة جناحُ البوار ، لولا الانتهاءُ إلى الحدِّ والمقدار ، والوقوفُ عند اختفاءِ سِرِّ الأقدار .

ثم عبرنا نهرها ، وشددنا بأيدي الله قهرها ، وضيّقنا حصرها ، وأدرنا بلائِء القباب البيض حصرها ؛ وأقمنا بها أياماً تحوم عقبانُ البُود على فريستها حياما^(٢) ، وترمي الأدواح ببوارها ، وتسلطُ النيرانُ على أقطارها ؛ فلولا عائقُ المَطَر ، لحصلنا من فتح ذلك الوطنِ على الوَطَر ، فرأينا أن نروضها بالاجتثاث^(٣) والانتساف^(٤) ، ونوالي على زروعها ورُبوعها كراتِ رياح الاعتساف ؛ حتى يتهاى للاسلام لوك طعمتها ، ويتهاى بفضل الله إرث نعمتها ؛ ثم كانت من موقفها الإفاضة من^(٥) بعد نحر النُحور ، وقذف جمار الدمار على العدو المدحور ، وتدافعت خلفنا السيقات^(٦) المتسقات تدافع أمواج البحور .

وبعد أن ألحنا على جناتها المصحرة^(٧) ، وكرومها المستبحرة إلحاح الغريم^(٨) ، وعوّضناها المنظرَ الكريه من المنظر الكريم ، وطافَ عليها طائفٌ من ربنا فأصبحت كالصريم^(٩) ، وأغرينا حلاق^(١٠) النارِ بجُرم الجميم^(١١) ، وراكمنا في أحواف

(١) اخفرت الرجل : اذا نقضت عهده ، وذمامه ، والهمزة فيه للازالة ؛ أي أزلت خفارته .

(٢) حام الطائر حول الماء حياما : دوم ودار .

(٣) الاجتثاث : انتزاع الشجر من أصوله .

(٤) انتساف الزرع : اقتلاعه .

(٥) الافاضة : الدفع في السير بكثرة ؛ ولا يكون الا عن تفرق جمع . وفي « الافاضة » و « البحر » ، و « رمي الجمار » ثورية واضحة بالمعاني الاسلامية المتعارفة في باب « الحج » .

(٦) السبقات : ما استافه العدو من الدواب ، ويقال لما سبق من النهب فطرد ، سبقة .

(٧) المتسعة ، يقال أصحح المكان : أي اتسع .

(٨) الغريم : الذي له الدين .

(٩) الصريم : الليل ، وأصبحت كالصريم : احترقت وصارت في مثل سواده ، والاشارة إلى الآية :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » .

(١٠) حلاق الشعر : ازالته بالموسى . والكلام على تشبيه احراق النبات بخلق شعر الرأس .

(١١) الجمم : جمع جمّة ، وهي الشعر الكثير . والجميم نبت يطول حتى يصير مثل جمّة الشعر .

أجرافها^(١) غائم الدخان ؛ يُذكر طيبه البان بيوم الغميم^(٢) ، وأرسلنا رياح الغارات
« لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم »^(٣) ؛ واستقبلنا الوادي يهول مدًا ،
ويروع سيفه الصَّقيلُ حدًا ؛ فيسره الله من بعد الأعواز ، وانطلقت على الفرصة بتلك
الفرصة أيدي الانتهاز ، وسألنا من سائله أسد بن الفرات^(٤) فأفتى برجحان الجواز ،
فعمَّ الاكتساحُ والاستباحُ جميع الأحواز^(٥) فأدبيل^(٦) المصون ، وانتهبت القرى ،
وهُدَّت الحُصون ، واجتشت الأصول ، وحطمت الغُصون ؛ ولم نرفع عنها إلى اليوم
غارة تصابحها بالبوس ، وتطلعُ عليها غررها الضاحكة باليوم العبوس ؛ فهي الآن
بحرى السوابق ومحرم العوالي^(٧) ، على التوالي ، والحشرات تتجدد في أطلالها البوالي ؛
وكان بها قد ضرعت ، وإلى الدعوة المُحمَّدية أسرع ، بقدره من لو انزل القرآن
على الجبال لخشعت من خشية الله وتصدعت^(٨) ، وعزة من أذعنت الجبابرة لعزه
وخضعت ، وعدنا والبُنود لا يعرف اللف نشرها ، والوجه المُجاهدة لا يُخالط
التقطيبُ بشرها ؛ والأيدي بالعروة الوثقى متعلقة ، والألسنُ بشكر نعم الله
منطلقة ، والسيوفُ في مضاجع الغُمود قلبه ، وسرايلُ الدروع^(٩) خلقه^(١٠) ،
والحياد من ردها إلى المرابط والأواري^(١١) ، ردَّ العواري ، حنيقة ، وبعبرات الفيظ
المكظوم مُختنقة ؛ تنظر إلينا نظر العاتب ، وتعود من ميادين الاختيال والمراح ،

(١) الأحواف ، جمع حوف وهو الناحية . والأجراف جمع جرف ؛ وهو ما أكل السيل من أسفل شق
الوادي ، وعرض الجبل . ويريد الأمكنة الغائرة ، والمطمئنة .

(٢) الغميم : موضع بين مكة والمدينة . ويوم الغميم : من الأيام التي كانت بين كنانة وخزاعة سيرة ابن هشام
. ٣٥ / ٤ - ٣٥

(٣) الرميم : البالي .

(٤) يوري بأسد بن الفرات بن سنان : أبي عبدالله الفقيه المالكي المشهور (١٤٥ - ٢١٣) على خلاف في
المولد والوفاة . وانظر ترتيب المدارك . مخطوطة دار الكتب ١١٨/١ . معالم الإيمان ٢/٢ - ١٧ . ديباج
. ٩٨

(٥) الأحواز : ضواحي المدينة وأطرافها .

(٦) أدبيل : أهين .

(٧) أجرة الرمح : طعنه به وتركه فيه يجره وألغالية : أعلى القناة ، والجمع : العوالي . ومحرم العوالي : المكان
الذي يقع فيه الإجازار والطعن .

(٨) اقتباس من الآية ٢١ من سورة الحشر .

(٩) السرايل : الدروع ، وكل ما لبس فهو سرايل .

(١٠) الخلق : البالي ، يقال ثوب خلق ، وجبة خلق بالتذكير فيها . لسان العرب .

(١١) الأواري : جمع آري ؛ وهو مربوط الدابة ومحبسها .

تحت حُللِ السَّلَاحِ ، عَوْدُ الصَّبِيَّانِ إِلَى المَكَاتِبِ ، وَالتَّطَبُّلُ بِلسَانِ العِزِّ هَادِرٌ (١) ،
وَالعِزْمُ إِلَى مُنَادِي العَوْدِ الحَمِيدِ مُبَادِرٌ (٢) ، وَوَجُودُ نَوْعِ الرَّمَاحِ ، مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
الكَفَاحِ نَادِرٌ ، وَالقَاسِمُ يُرْتَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ السَّبَبِيِّ النُّوَادِرِ ، وَوَارِدِ مَنَاهِلِ الأَجُورِ ،
غَيْرِ المُحَلَّاءِ (٣) ، وَلَا المَهْجُورِ ، غَيْرِ صَادِرٍ (٤) ، وَمُنَاطِرِ الفِضْلِ الآتِي ، عَقِبَ
أَخِيهِ الشَّاتِي ، عَلَى المَطْلُوبِ المُوَاتِي مُصَادِرٍ (٥) وَاللهُ عَلَى تَيْسِيرِ الصَّعَابِ ، وَتَخْوِيلِ
المِثْنِ الرِّغَابِ (٦) ، قَادِرٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . فَمَا أَجْمَلَ لَنَا صُنْعَهُ الحَفِي (٧) ، وَأَكْرَمَ بِنَا
لُطْفِهِ الحَفِي ، اللَّهُمَّ لَا نَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، وَلَا نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَلْتَمِسُ
خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلَّا لَدَيْكَ ، فَأَعِدْ عَلَيْنَا عَوَائِدَ نَصْرِكَ ، يَا مُبْدِيءُ يَا مُعِيدُ ، وَأَعِنَّا
مِنْ وَسَائِلِ شُكْرِكَ ، عَلَى مَا يَنْتَالُ بِهِ المَزِيدُ ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (٨) .
وَقَارَنْتِ رِسَالَتِكُمْ المِيمُونَةَ لَدِينَا حَذَقَ فَتَحَ (٩) بَعِيدَ صَبِيئِهِ (١٠) مُشْرَبٌ لَيْتُهُ (١١) ، وَفَخِرَ
مِنْ فَوْقِ النُّجُومِ العَوَاتِمِ (١٢) مَبِيئَتُهُ ، عَجَبْنَا مِنْ تَأْتِي أَمَلِهِ الشَّارِدِ ، وَقُلْنَا : البَرَكَةُ فِي
قَدَمِ الوَارِدِ ، وَهُوَ أَنَّ مَلِكَ النُّصَارَى لِأَطْفَانًا بِجُمْلَةٍ مِنَ الحِصُونِ كَانَتْ مِنْ مَمْلَكَةِ
الإِسْلَامِ قَدْ غَضِبَتْ ، وَالتَّمَائِيلُ (١٣) فِيهَا بِسُبُوتِ اللهِ قَدْ نُصِبَتْ أَدَالهَا (١٤) اللهُ —
بِمُحَاوَلَتِنَا — الطَّيِّبَ مِنَ الخَبِيثِ ، وَالتَّوْحِيدَ مِنَ التَّثْلِيثِ ، وَعَادَ إِلَيْهَا الإِسْلَامَ عَوْدَ
الأَبِ الغَائِبِ ، إِلَى البَنَاتِ الحَبَائِبِ ، يَسْأَلُ عَنْ شُؤْنِهَا ، وَيَمْسَحُ دُمُوعَ الرِّقَّةِ مِنْ

- (١) هادر : يردد صوته .
(٢) بادره الأمر : عاجله .
(٣) حلاً الماشية عن الماء : صدها وحبسها عن الورد .
(٤) الوارد الذي يرد الماء . والصادر : الذي رجع من الماء بعد الورد .
(٥) مصادر : مراجع ؛ صادرة على كذا : راجعة .
(٦) الرغبية : العطاء الكثير ، والأمر المرغوب فيه ، والجمع رعايا .
(٧) الصنع الحفي : اللطيف .
(٨) كذا في الأصل : « يا فعال لما يريد » . والمنادي هنا مما يجب فيه النصب . فلذلك الأصح : يا فعلا .
(٩) حذق الغلام القرآن حذقا : مهر فيه ؛ ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن : هذا يوم حذاق ، والعادة أن يحتفل بهذا اليوم .
(١٠) بعيد الصبيت ، مشتهر الذكري بين الناس .
(١١) اشرب : ارتفع وعلا . والليت بالكسر : صفحة العنق .
(١٢) النجوم العواتم : التي تظلم من الغبرة التي في السماء ؛ ويكون ذلك في زمن الجذب ؛ لأن نجوم الشتاء أشد اضاءة لبقاء السماء .
(١٣) التماثيل : الأصنام .
(١٤) أدالها الله : أبدلها .

جفونها ؛ وهي للروم خُطَّةٌ خَسْفٌ^(١) قَلَمًا ارتكبوها فما نَعَلَمَ من العهود ، ونادرةٌ من نوادر الوجود . والى الله علينا وعليكم عوارف^(٢) الجود ، وجعلنا في محارِبِ الشكر من الرُّكْعِ السُّجود .

عَرَّفْنَاكُمْ بِمُجْمَلَاتِ أُمُورٍ تَحْتَهَا تَفْسِيرٌ ، وَبِمَنْ مِنْ اللَّهِ وَتَيْسِيرٌ ، إِذِ اسْتِيفَاءِ الْجُزْئِيَّاتِ عَسِيرٍ لِنُسْرِكُمْ بِمَا مَنَحَ اللَّهُ دِينَكُمْ ، وَنُتَوِّجَ بِغَزِّ الْمَلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ جَبِينَكُمْ ، وَنَخْطُبَ بَعْدَهُ دُعَاءَكُمْ وَتَأْمِينَكُمْ ؛ فَإِنَّ دُعَاءَ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بظَهْرِ الْغَيْبِ سِلَاحٌ مَاضٍ ، وَكَفِيلٌ بِالْمَوَاهِبِ الْمَسْئُولَةِ مِنَ الْمُنْعِمِ الْوَهَّابِ مُتَقَاضٍ^(٣) ؛ أُولَى مَنْ سَاهَمَ فِي بَرٍّ ، وَعَامَلَ اللَّهَ بِخُلُوصٍ سِرٍّ ؛ وَأَيْنَ يَذْهَبُ الْفَضْلُ عَنْ بَيْتِكُمْ ، وَهُوَ صِفَةُ حَيْكُمِ ، وَتُرَاثُ مَيْتِكُمْ ؛ وَلَكُمْ مَزِيَّةُ الْقِدَمِ ، وَرُسُوخُ الْقَدَمِ ؛ وَالْخِلَافَةُ مَقَرُّهَا إِيوَانُكُمْ ، وَأَصْحَابُ الْإِمَامِ مَالِكٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — مُسْتَقَرُّهَا قَبْرِوَانُكُمْ ، وَهَجِيرُ الْمَنَابِرِ^(٤) ذِكْرُ إِمَامِكُمْ ، وَالتَّوْحِيدُ إِعْلَامِكُمْ ، وَالْوَقَائِعُ الشَّهِيرَةُ فِي الْكُفْرِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى أَيَّامِكُمْ ، وَالصُّحَابَةُ الْكِرَامُ فَتْحَةُ أَوْطَانِكُمْ ، وَسُلَالَةُ الْفَارُوقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَائِحُ سُلْطَانِكُمْ^(٥) ؛ وَنَحْنُ نَسْتَكْثِرُ مِنْ بَرَكَةِ خِطَابِكُمْ ، وَوُضْلَةِ جَنَابِكُمْ ؛ وَلَوْلَا الْأَعْذَارُ لَوَالَيْنَا بِالْمُتَزَيِّدَاتِ تَعْرِيفِ أَبْوَابِكُمْ .

وَاللَّهُ — عَزَّ وَجَلَّ — يَتَوَلَّى عَنَا مِنْ شُكْرِكُمْ الْمُحْتَمِمْ ، مَا قَصَرَ الْمَكْتُوبُ مِنْهُ عَنِ الْمَكْتُومِ ، وَيُبْقِيكُمْ لِإِقَامَةِ الرُّسُومِ ، وَيُحِلُّ مَحَبَّتَكُمْ مِنَ الْقُلُوبِ مَحَلَّ الْأَرْوَاحِ مِنَ الْجُسُومِ ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ سَعْدَكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدَكُمْ ، وَيُوَالِي نِعْمَهُ عِنْدَكُمْ . وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ ، الطَّيِّبُ الزَّكِيُّ الْمُبَارَكُ الْبَرُّ الْعَمِيمُ ، يَخُصُّكُمْ كَثِيرًا أَثِيرًا ، مَا أَطْلَعَ الصُّبْحُ وَجْهًا مُنِيرًا ، بَعْدَ أَنْ أُرْسِلَ النَّسِيمُ سَفِيرًا ، وَكَانَ الْوَمِيضُ^(٦) الْبَاسِمُ لِأَكْوَاسِ الْغَمَائِمِ^(٧) ، عَلَى أَزْهَارِ الْكَمَائِمِ^(٨) ، مُدِيرًا ؛ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(١) الخطة : الطريقة . والخسف : الذل ، وتحميل الإنسان ما يكره .

(٢) العوارف : جمع عارفة ، وهي العطية .

(٣) تقاضاه الدين : قبضه منه .

(٤) هجير المنابر : شأنها ودأبها .

(٥) يريد أن الحفصيين من سلالة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وقد رأى بعض المؤرخين ذلك .

(٦) الوميض : اللامع من البرق لمعاً خفياً .

(٧) شبه الفطرات من الماء تنثرها الغمام على الزهور ، بكؤوس الخمر تدار على الشاربين .

(٨) الكمائم : جمع كمامة ، وهي غطاء النور وبرعومته .

وكتب إلي يهنئني بمولود ، ويُعَاتِبُ علي تأخير الخبر بولاده عنه (١) :

هنيئاً أبا الفضل الرضا وأبا زيد وأمنت من بغى يخاف ومن كيد
 بطالع يُمن طال في السعد شأوه (٢) فما هو من عمره الرجال ولا زيد
 وقيد بشكر الله أنعمه التي أوابدها (٣) تأبى سوى الشكر من قيد
 أهلاً بدري المكاتب (٤) ، وصدري المراتب ، وعُتِبِي الزمن (٥) العاتِب (٦) وبكر
 المُشْتَرِي والكاتب (٧) ؛ ومرحباً بالطالع ، في أسعد المطالع ، والثاقِب (٨) ،
 في أجلى المراقب ؛ وسهلاً بغني البشير ، وعزّة الأهل والعشير ،
 وتاج الفخر الذي يقصر عنه كسرى وأردشير (٩) ؛ الآن
 اعتضدت الحلة الحضرمية (١٠) بالفارس ، وأمن السارح (١١) في حمى
 الحارس ، وسعدت بالمنير الكبير ، أفلاك التدوير (١٢) ، من حلقات المدارس ،
 وقرت بالجنى الكريم عين الفارس ، واحتقرت أنظار الآبلي وأبحاث ابن الدارس ؛

- (١) قدم لها ابن الخطيب في ريجانة الكتاب بقوله : ومن ذلك في مخاطبة صاحب قلم الإنشاء أبي زيد بن خلدون .
- (٢) الشاؤ : الشوط والغاية .
- (٣) جمع آبدة ، وهي في الأصل البيمة توحشت ، ونفرت من الانس .
- (٤) كوكب دري : ثاقب شديد الإنارة ، عظيم المقدار .
- (٥) أعتبه : أزال عتبه ؛ والعتبي : اسم من الإعتاب . وفي المثل : « لك العتبي ولا أعود » . أي لك مني أن أرضيك ؛ بقوله التائب المعتذر مجمع الأمثال ١٠٢/٢ .
- (٦) الزمن العاتب : الغاضب .
- (٧) كان ابن الخطيب شغوفاً بأن يوري في كتابته بمصطلحات العلوم ؛ وهو هنا ناظر الى ما اصطلح عليه المنجمون من أن القمر اذا اتصل — وهو في البروج الصاعدة — بالمشتري ، وهو كوكب سعد ، وبالكاتب — وهو عطارد في عرف أهل المغرب — دل ذلك على أن المولود ذكر ، وأن حظه من العلوم العقلية ، والنقلية كبير .
- (٨) الثاقب : المرتفع .
- (٩) هو أردشير بن بابك ؛ أول ملوك الدولة السلسانية (٢٢٦ — ٢٤١ م) . وقد ورد في بعض النسخ ، وتاريخ أبي الفداء : « أردشير » بالزاي . وهو تصحيف قديم ؛ فقد قال ابن حجر : « وسمعت من يذكره بالزاي » . تاج العروس ٢٨٨/٢ ، الطبري ٥٦/٢ .
- الحلة : البيت ؛ والجمع الحلال . والحضرمية نسبة الى حضرموت ؛ حيث ينتهي نسب ابن خلدون .
- السارح : الذي يغدو عليك ويروح .
- فلك التدوير — لكل كوكب — هو فلك صغير لا يحيط بالأرض ، وفيه يكون مسير الكوكب .

وقيل لِلْمُشْكَلَاتِ : طالما أَلْفَتِ الْخِمْرَةَ (١) ، وَأَمْضَيْتِ عَلَى الْأُذْهَانِ الْإِمْرَةَ (٢) ،
فَتَاهَبِي لِلغَارَةِ الْمُبِيحَةِ لِحِمَاكَ ، وَتَحْيِزِي إِلَى فِتْنَةِ الْبَطْلِ الْمُسْتَأْتِرِ بِرَشْفِ لِمَاكَ . وَلِلَّهِ
مِنْ نَصْبَةِ (٣) اِحْتَفَى فِيهَا الْمُشْتَرِي وَاحْتَفَلَ ، وَكَفَى سِنِيَّ تَرْبِيَّتَهَا وَكَفَلَ ، وَاحْتَالَ
عُطَارِدٌ فِي حُلِّ الْجَدَلِ لَهَا وَرَفَلَ ، وَأَتَضَّحَتِ الْحُدُودُ (٤) ، وَتَهَلَّتِ الْوُجُوهُ (٥) ،
وَتَنَافَسَتِ الْمُثَلَّثَاتُ (٦) تَوَمَّلُ الْحِظَّ وَتَرْجُوهُ ، وَنَبَّهَ الْبَيْتُ عَلَى (٧) وَاجِبِهِ ، وَأَشَارَ
لِحِظِّ الشَّرْفِ (٨) بِحَاجِبِهِ ، وَأَسْرَعَ نَيْرُ النَّوْبَةِ (٩) فِي الْأَوْبَةِ (١٠) ، قَائِمًا فِي الْإِعْتِدَارِ
مَقَامَ التَّوْبَةِ ؛ وَاسْتَأْتَرَ بِالْبُرُوجِ الْمَوْلِدَةَ بَيْتَ الْبَنِينِ (١١) ، وَتَخَطَّتْ خُطَا الْقَمَرِ رَأْسَ
الْجَوْزَهْرِ (١٢) وَذَنَبَ التَّنِينِ ؛ وَسَاوَقَ مِنْهَا حُكْمَ الْأَصْلِ ، حَدُّوكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ ،

(١) الخمرة : الاستتار ، والاختفاء .

(٢) الإمرة : الإمارة .

(٣) النصبية الفلكية : هي الهيئة التي يكون عليها الفلك حين طلب دلالاته على الحوادث .

(٤) قسم المنجمون درجات كل برج من البروج الاثني عشر ، بين الكواكب الخمسة المتحيرة ، قسمة غير

متساوية ، وجعلوا كل قسم منها يحص كوكباً من الكواكب الخمسة ، وسموه حد ذلك الكوكب .

(٥) وقسموا كذلك كل برج الى ثلاثة أقسام متساوية ، وسموا كل قسم منها وجهاً ، ثم فرقوها على الكواكب

المتحيرة ، وابتدأوا من برج الحمل ، وجعلوا لكل وجه منها كوكباً من السبعة السيارة ، سموه صاحب ذلك الوجه .

(٦) البروج الاثنا عشر تنقسم الى أربعة أقسام — بعدد الطبائع الأربع ، وكل ثلاثة بروج منها تنفق في طبعة

واحدة من الطبائع الأربع تسمى مثلثة ، فيقال : مثلثة نارية ، أو ترابية ، أو هوائية ، أو مائية ؛

ويختص بكل مثلثة ثلاثة كواكب من السيارة تسمى أربابها ؛ يكون أحدها صاحب المثلث المقدم

بالنهار ، والثاني المقدم بالليل ، والثالث شريكها في الليل والنهار . ومعنى ذلك أن الكواكب اذا كان في

واحد من هذه البروج التي تكون مثلثة ، قيل أنه في امثله ، أي أنه في وضع له فيه حظ وقوة .

(٧) بيت الكوكب : محل أمنه ، وصحته ، وسلامته ؛ ولكل من النيرين : الشمس والقمر ، بيت واحد .

أما بقية الكواكب الخمسة المتحيرة ، فكل واحد منها له بيتان .

(٨) شرف الكوكب : محل عزه ، وعلوه ، وسعاده ؛ ولكل من الكواكب السبعة برج فيه شرفه ، والبرج

كله شرف لذلك الكوكب ، إلا أن أقوى شرفه درجات معينة من ذلك البرج تنسب الى ذلك الكوكب

وتختص به ، فيقال حين يحل بها : انه في شرفه .

(٩) نير النوبة يكون في الغالب الهيلاج (دليل العمر) ، وهو بالنهار الشمس ، وبالليل القمر .

(١٠) الأوبة : الرجوع والعودة .

(١١) البيت الذي له دلالة على الأولاد : هو البرج الخامس من البيوت الاثني عشر والابتداء في العد من البرج

الطالع ، وهو الواقع على الأفق الشرقي ؛ ويزعمون أنه كلما كان الخامس أحد البروج الشمالية ، دل ذلك

على كثرة النسل .

(١٢) النقطتان اللتان يتقاطع عليهما فلك البروج مع فلك أي كوكب ، تسميان العقدتين ، ونقطة التقاطع

الشمالية منها ، يسمونها الجوزهر ، ونقطة الرأس ، والتي نقابلها تسمى النوبهر ، ونقطة الذنب . والجو

زهر الذي يقصدونه ، والذي دونوا حركته في التقاويم والأزياج ، هو جوزهر القمر خاصة .

تَحْوِيلُ السَّنِينِ ^(١) ، وَحَقَّقَ هَذَا الْمَوْلُودَ بَيْنَ الْمَوْلِيدِ نِسْبَةَ عُمُرِ الْوَالِدِ ، فَتَجَاوَزَ دَرَجَةَ الْمِثْنِ ؛ وَاقْتَرَنَ بَعَاثِرَهُ ^(٢) السَّعْدَانِ ^(٣) اقْتِرَانَ الْجَسَدِ ، وَثَبَّتَ بِدَقِيقَةٍ مَرَكَزَهُ قَلْبُ الْأَسَدِ ، وَسَرَقَ مِنْ بَيْتِ أَعْدَائِهِ ^(٤) خُرْثِيَّ ^(٥) الْغَلِّ وَالْحَسَدِ ؛ وَنُظِّفَتْ طُرُقُ التَّسْيِيرِ ^(٦) ، كَمَا نَفَعَلُ بَيْنَ يَدَيِ السَّادَةِ عِنْدَ الْمَسِيرِ ، وَسَقَطَ الشَّيْخُ الْهَرَمُ مِنَ الدَّرَجِ فِي الْبَيْرِ ، وَدُفِعَ الْمُقَاتِلُ إِلَى الْوِبَالِ ^(٧) الْكَبِيرِ .

لَمْ لَا يَنَالُ الْعَلَا أَوْ يُعْقَدُ التَّاجُ وَالْمُشْتَرِي طَالِعٌ وَالشَّمْسُ هِيْلَاجٌ ^(٨)
وَالسَّعْدُ يَرْكُضُ فِي مِيدَانِهَا مَرِحًا جَذْلَانٌ وَالْفَلَكَ الدَّوَّارُ هِمْلَاجٌ ^(٩)

كَأَنَّ بِهِ — وَاللَّهُ يَهْدِيهِ — قَدْ انْتَقَلَ مِنْ مَهْدِ التَّنْوِيمِ ، إِلَى النَّهْجِ الْقَوِيمِ ؛ وَمِنْ أَرِيكَةِ الدَّرَاعِ ، إِلَى تَصْرِيفِ الْبِرَاعِ ^(١٠) ، وَمِنْ كَتْدِ ^(١١) الدَّيَاةِ ^(١٢) ، إِلَى مَقَامِ الْهَدَايَةِ ، وَالغَايَةِ الْمُخْتَطَفَةِ ^(١٣) الْبِدَايَةِ ؛ جَعَلَ اللَّهُ وَقَايَتَهُ عَلَيْهِ عُوذَةً ^(١٤) ، وَقَسَمَ حَسَدَتَهُ قِسْمَةَ مُحَرَّمِ اللَّحْمِ ، بَيْنَ مُنْخِنَقَةٍ ^(١٥) وَنَطِيحَةٍ ^(١٦) وَمُتْرَدِيَةٍ ^(١٧)

(١) هو تحصيل الحركة الوسطى للشمس عند حلولها برأس أحد الفصول الأربعة . ولهم في ذلك طرق حسابية معروفة .

(٢) العاشر : هو بين السلطان .

(٣) السعدان : المشتري والزهرة ، واكبرهما المشتري .

(٤) بيت الأعداء : هو البيت الثاني عشر .

(٥) الخرثي (بالضم) : أثاث البيت ، أو إرداء المتاع .

(٦) التسير : أن ينظركم بين الهلاج (دليل العمر) ، وبين السعد أو النحس ، فيؤخذ لكل درجة سنة ؛ ويقال تصيبه السعادة أو النحس إلى كذا وكذا سنة .

(٧) الوبال : هو البرج المقابل لبيت الكوكب ؛ وهو البرج السابع من كل بيت ، ويسمى نظيره ، ومقابله ؛ وذلك أن يكون بينهما ستة بروج ، وهي نصف الفلك .

(٨) الهيلاج : دليل العمر ؛ والهياليج خمسة : الشمس ، والقمر ، والظالم ، وسهم السعادة ، وجزء الاجتماع والاستقبال . وإنما كانت أدلة العمر لأنها تسير إلى السعد والنحس .

(٩) الهملاج : المركب الحسن السير ، والمسرع . يقول : لم لا ينال العلا ، وقد اتخذ الفلك مركباً له .

(١٠) يعني بأريكة الذراع عهد الطفولة . والبراع : القصب ؛ ويريد الأقاليم .

(١١) الكتد : مجمع الكتفين من الإنسان ، وكاهله .

(١٢) الدياية : القابلة .

(١٣) يريد أنه سيبلغ الغاية في الفضل في الزمن القصير .

(١٤) العوذة : ما يعلق على الإنسان ليقه من العين ونحوها .

(١٥) المنخنقة : الشاة ، وغيرها ؛ تنحق بجبل أو غيره .

(١٦) النطيحة : الشاة تنطحها الأخرى بقرونها ، فعيلة بمعنى مفعولة .

(١٧) المتردية : الساقطة من جبل ، أو في بئر .

وموقوذة^(١) ؛ وحفظ هلاله في البدار^(٢) الى تيمه وبعد تيمه ، وأقر به عين أبيه وأمه . غير أنني — والله يغفر لسيدي — بيد أنني راع في سبيل الشكر وساجد ، فأنا عاتبٌ وواجد ؛ إذ كان ظني أن البريد بهذا الخبر إليّ يُعمل ، وأن اتحافني به لا يُهمل ، فانعكست القضية ، ورأبت الحال المرضية ، وفضلت الأمور الذاتية الامور العرضية ، والحكم جازم ، وأحد الفرضين لازم ؛ إما عدم السوية^(٣) ، ويُعارضه اعتناء حبله مغار^(٤) ، وعهدة سلم لم يدخلها جزية ولا صغار ؛ أو جهل بمقدار الهبة ، ويُعارضه علم بمقدار الحقوق ، ورضى مُنافٍ للعقوق ، فوقع الأشكال ؛ وربما لطف عُذر كان عليه الاتكال . وإذا لم يُبشر مثلي بمنحة الله قبل تلك الذات السرية ، الخليقة بالنعم الحرية ؛ فمن الذي يُبشر ، وعلى من يُعرض بزها^(٥) أو يُبشر ، وهي التي واصلت التفقد^(٦) ، وبهرجت^(٧) المعاملة وأبت أن تنقد ، وأنست الغربة وجرحها غير مُندمل^(٨) ، ونفست الكربة وجنحها^(٩) على الجوانح^(١٠) مُشتمل ؛ فمتى فرض نسيان الحقوق لم ينلني فرض ، ولا شهد به عليّ سماء ولا أرض ؛ وإن قصر فما يجب لسيدي عمل ، لم يُقصر رجاء ولا أمل ، ولي في شرح حمده ناقة وجمال^(١١) . ومنه جلّ وعلاً نسأل أن يُريه قرّة العين في نفسه وماله وبينه ، ويجعل أكبر عطايا الهياج أصغر سنيه ، ويُقلد عواتق^(١٢)

(١) الموقوذة . المقتولة ضرباً بالخشب او بالحجر . وكل هذه الاصناف قد حرم اكله القرآن على المسلم . وانظر

الآية رقم ٣ من سورة المائدة ، واحكام القرآن لابن العربي ١/٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) يدعوله بأن يصاحبه الحفظ في سائر أطوار نموه الى أن يكتمل .

(٣) السوية . العدل ، والنصفة .

(٤) جبل مغار : محكم القتل .

(٥) البز : الثياب .

(٦) التفقد : التعرف لاحوال الناس ، وتعهدا .

(٧) بهرج : عدل عن الطريق المسلوك .

(٨) اندمل الجرح . برىء .

(٩) الجنح : الظلمة .

(١٠) الجوانح : الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر .

(١١) هو عكس لمعنى المثل : « لا ناقتي في هذا ، ولا جملي » ، الذي يضرب للتبري من الشيء ، الميداني

١١٣/٢ ، ١١٤ .

(١٢) العواتق : جمع عاتق ؛ وهو ما بين المنكب والعتق .

الكواكب البابانية^(١) حائل أمانيه . وإن تشوف سيدي لحال وليه ، فخلوة طيبة ،
ورحمة من جانب الله صيبة ، وبرق يشام^(٢) ، فيقال : حدث ما وراءك يا
هشام . والله در شيخنا إذ يقول :

لا بـــــــارك الله في إن لم أصرف النفس في الأهم
وكثر الله في همومي إن كان غير الخلاص همي

وإن أنعم سيدي بالإلماع بحاله ، وحال الولد المبارك ، فذلك من غرر إحسانه ،
ومنزله في لحظ لحظي بمنزلة إنسانه ، والسلام .

* (العودة الى المغرب الأقصى) *

ولما كنت في الاعتمال في مشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب^(٣) ، كما ذكرت
تفاصيله ، وأنا مقيم ببسكرة في جوار صاحبها أحمد بن يوسف بن مزني ، وهو
صاحب زمام رباح ، وأكثر عطاءهم من السلطان مفترض عليه في جباية
الزاب^(٤) ، وهم يرجعون اليه في الكثير من أمورهم ؛ فلم أشعر إلا وقد حدثت
المنافسة منه في استتباع العرب ، ووغر صدره^(٥) ، وصدق في ظنونه وتوهمات ،
وطاوع الوشاة فيما يُوردون على سمعه من التَقْوَل والاختلاق ، وجاش صدره
بذلك ؛ فكتب إلى ونزمار بن عريف ، ولي السلطان ، وصاحب شواره ، يتنفس
الصعداء من ذلك ، فأنهاه إلى السلطان ؛ فاستدعاني لوقته ، وارتحلت من بسكرة

(١) الكواكب الببانيات (او البابانية) : هي التي لا تنزل الشمس بها ، ولا القمر .

(٢) شام البرق : نظر الى سحابته اين تمطر .

(٣) هو أبو فارس ؛ عبد العزيز بن أبي الحسن بن أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، ببيع سنة
٧٦٧ . وتوفي سنة ٧٧٤ . من المع ملوك بني مرين ؛ أعاد الدولة قوتها وشبابها ، وأزال عنها حجر
المستبدين ؛ والى أبي فارس هذا أهدي ابن خلدون مقدمته ، ولا تزال صيغة الإهداء محفوظة بدياجة
النسخة المطبوعة ببولاق .

(٤) بلاد الزاب : منطقة واسعة كانت تشغل المساحة الواقعة في جنوب جبال أوراس ، وتشمل بسكرة ، وما
حولها . ياقوت (معجم البلدان) .

(٥) وغر صدره : امتلاً غيظاً وحقدًا .

بالأهل والولد ، في يوم المولد الكريم سنة أربع وسبعين وسبعائة متوجها الى السلطان وكان قد طرقة المرض فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط ، لقيني هنالك خبر وفاته ، وأن ابنه أبا بكر السعيد نصّب بعده للأمر في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي وأنه ارتحل إلى المغرب الأقصى مغذاً السير إلى فاس ، وكان على مليانة يومئذ عليّ بن حسون بن أبي علي الهساطي^(١) من قواد السلطان وموالي بيته ، فارتحلت معه إلى أحياء العطاف ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم ، وبدرني بعضهم إلى حلة أولاد عريف أمراء سويد ، ثم لحق بنا بعد أيام عليّ بن حسون في عساكره وارتحلنا جميعاً إلى المغرب على طريق الصحراء ، وكان أبو حمّو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتبازه بالقفر في تيكورارين إلى تلمسان فاستولى عليها وعلى سائر أعماله ، وأوعز إلى بني يغمور من شيوخ عبيدالله في المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين^(٢) مخرج وادي صا^(٣) ، فاعترضونا هنالك فنجا من نجائنا على خيولهم إلى جبل دبدو وانتهبوا جميع ما كان معنا وأرجلوا الكثير من الفرسان ، وكنت فيهم ، وبقيت يومئذ في قفري ضاحياً عارياً إلى أن حصلت إلى العمران ولحقت بأصحابي بجبل دبدو ووقع في خلال ذلك من الألفاظ ما لا يعبر عنه ، ولا يسع الوفاء بشكره . ثم سِرنا إلى فاس ووفدت على الوزير أبي بكر وابن عمّه محمد بن عثمان بفاس في جمادي من السنة ، وكان لي معه قديم صحبة واختصاص منذ نزع معي إلى السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة ، عند إجازته من الأندلس لطلب ملكه كما مرّ في غير موضع من الكتاب ، فلقيني من برّ الوزير وكرامته وتوفير جراته وإقطاعه ، فوق ما احتسب وأقت بمكاني من دولتهم أثير المحل ، ثابت^(٤) الرتبة عظيم الجاه ، منوّة المجلس عند السلطان . ثم انصرم فصل الشتاء وحدث بين الوزير أبي بكر بن غازي وبين السلطان ابن الأحمر منافرة بسبب ابن الخطيب ، وما دعا إليه ابن الأحمر من إبعاده عنهم ، وأنف الوزير من ذلك فأظلم الجوبينها ، وأخذ الوزير في تجهيز بعض القرابة من بني الأحمر ليشغله به ونزع ابن

(١) وفي نسخة ثانية : اليناطي .

(٢) رأس العين يعرف بعين بني مطهر ، وهي منابع تقع في شرق مدينة دبدو .

(٣) وادي صا ، أوزا تقع في جنوب عين البرديل عن يمين وادي ملوية حوالي ٥١ كلم .

(٤) وفي نسخة ثانية : نابه الرتبة .

الأحمر^(١) إلى إطلاق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن من ولد السلطان أبي علي ،
والوزير مسعود بن رحو^(٢) بن ماسي كان حبسها أيام السلطان عبد العزيز وأشار بذلك
ابن الخطيب حين كان في وزارتهما بالأندلس ، فأطلقها الآن وبعثها لطلب الملك
بالمغرب ، وأجازهما في الأسطول إلى سواحل غساسة^(٣) فنزلوا بها ولحقوا بقبائل بطوية
هنالك ، فاشتملوا عليهم ، وقاموا بدعوة الأمير عبد الرحمن . ونهض ابن الأحمر من
غرناطة في عساكر الأندلس فنزل على جبل الفتح فحاصره ، وبلغت الأخبار بذلك
إلى الوزير أبي بكر بن غازي القائم بدعوة بني مرين ، فوجه لحينه ابن عمه محمد بن
عثمان بن الكاس إلى سبتة لإمداد الحامية الذين لهم بالجبل ، ونهض هو في العساكر
إلى بطوية لقتال الأمير عبد الرحمن ، فوجده قد ملك ملك تازي ، فأقام عليها
يحاصره ، وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شباباً من بني أبيه المرشحين ، فحبسهم
بطنجة . صاحبه على ما كان منه ، واشتد عدل ابن الأحمر على إخلائهم الكرسي
من كفته ، ونصبهم السعيد بن عبد العزيز صبيّاً لم يثغر ، فاستعجب له محمد ،
واستقال من ذلك ، فحمله ابن الأحمر على أن يبايع لأحد الأبناء المحبوسين
بطنجة ، وقد كان الوزير أبو بكر أوصاه أيضاً بأنه إن تضايق عليه الأمر من الأمير
عبد الرحمن ، يفرج عنه بالبيعة لأحد أولئك الأبناء .

وكان محمد بن الكاس قد استوزره السلطان أبو سالم لابنه أحمد أيام ملكه ، فبادر
من وقته إلى طنجة وأخرج السلطان أحمد ابن السلطان أبي سالم من محبسه ، وبايع
له وسار به إلى سبتة ، وكتب لابن الأحمر يعرفه بذلك ، ويطلب منه المدد على أن
يتزل له عن جبل الفتح ، فأمدّه بما شاء من المال والعسكر واستولى على جبل الفتح
وشحنه بحاميته ، وكان أحمد ابن السلطان أبي سالم قد تعاهد مع بني أبيه في
محبسهم ، على أن من صار له الملك إليه منهم ، يميز الباقيين إلى الأندلس ، فلما بويغ
له ذهب إلى الوفاء لهم بعهدهم ، وأجازهم جميعاً ، فنزلوا على السلطان ابن
الأحمر ، فأكرم نزلهم ووفر جراياتهم . وبلغ الخبر بذلك كله إلى الوزير أبي بكر
بمكانه من حصار الأمير عبد الرحمن بتازي ، فأخذه المقيم المقعد من فعلة ابن عمه ،

(١) وفي نسخة ثانية : للإجلاب على الأندلس ، فبادر ابن الأحمر .

(٢) رحو في اللغة البربرية تعني تصغير عبد الرحمن .

(٣) غساسة تقع عند مصب وادي ملوية حيث تقطن قبائل بطوية .

وكرر^(١) راجعاً إلى دار الملك ، وعسكر بكديّة العرائس من فاس^(٢) وتوعد ابن عمّه محمد بن عثمان فاعتذر بأنه امثل وصيته ، فاستشاط وتهدده واتسع الخرق بينهما ، وارتحل محمد بن عثمان بسلطانه ومدده من عسكر الأندلس إلى أن احتل جبل زرهون^(٣) المطل على مكناسة ، فعسكر به ، واشتملوا عليه ، وزحف إليهم الوزير أبو بكر وصعد الجبل فقاتلوه وهزموه ، ورجع إلى مكانه بظاهر دار الملك ، وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن والاعتضاد به ، ومساهمته في جانب من أعمال المغرب يستبدّ به لنفسه ، فراسله محمد ابن عثمان في ذلك ، واستدعاه واستمدّه وكان ونزمار بن عريف وليّ سلفهم قد أظلم الجوّ بينه وبين الوزير أبي بكر ، لأنّه سأله وهو يحاصر تازي في الصلح مع الأمير عبد الرحمن فامتنع ، واتهمه بمداخلته والميل له ، فاعتزم على التقبّض عليه ، ودسّ إليه بعض عيونيه ، فركب الليل ولحق بأحياء الأحلاف من المعقل ، وكانوا شيعة للأمير عبد الرحمن ، ومعهم علي بن عمر الويغلاني كبير بني ورتاجن ، كان انتقض على الوزير ابن غازي ولحق بالسوس^(٤) . ثم خاض القفر إلى هؤلاء الأحلاف فترل بينهم مقيماً لدعوة الأمير عبد الرحمن ، فجاءهم ونزمار مفلتاً من حباله الوزير أبي بكر وحرّضهم على ما هم فيه ، ثم بلغهم خبر السلطان أحمد بن أبي سالم ووزيره محمد ابن عثمان ، وجاءهم وافد الأمير عبد الرحمن يستدعيهم . وخرج من تازي فلقبهم ، ونزل بين أحيائهم ، ورحلوا جميعاً إلى إمداد السلطان أبي العباس حتى انتهوا إلى صفروي^(٥) . ثم اجتمعوا جميعاً على وادي النجا ، وتعاقدوا على شأنهم ، وأصبحوا غداً على التعبئة ، كلٌّ من ناحيته .

(١) وفي نسخة ثانية : وفوض راجعاً ولا معنى لها هنا حسب مقتضى السياق .

(٢) وفي نسخة ثانية : بكديّة العرائس من ظاهرها .

(٣) جبل زرهون : بقرب فاس فيه أمة لا يحصون ويقع على بعد ٣٠ كلم من مدينة مكناسة الزيتون ، وبه

مدفن المولى ادريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب ، وبالجبل تقع مدينة ويلي التاريخية .

(٤) السوس : إقليم واسع . يقع في جنوب مدينة مراكش وراء جبال أطلس ، ويتخلله واد عظيم يسمى

وادي سوس ، تتفرع منه عدة أودية ، وحول الوادي وفروعه مزارع واسعة ، بها اشجار ونخيل ، وبإقليم

السوس مدن كبيرة . منها : تارودانت وتزنيت ، وعلى ساحلي البحر المحيط حيث مصب وادي سوس تقع

مدينة اغادير .

(٥) وفي نسخة ثانية : صفروي .

وركب الوزير أبو بكر لقتالهم فلم يطق ، وولى منهزماً فأنحجر بالبلد الجديد^(١) ، وخيم القوم بكدية العرائس محاصرين له ، وذلك أيام عيد الفطر من سنة خمس وسبعين وسبعائة فحاصروها ثلاثة أشهر وأخذوا بمخنقتها إلى أن جهد الحصار الوزير ومن معه ، فأذعن للصالح على خلع الصبي المنصوب السعيد ابن السلطان عبد العزيز ، وخروجه إلى السلطان أبي العباس ابن عمه ، والبيعة له ، وكان السلطان أبو العباس والأمير عبد الرحمن قد تعاهدوا عند الاجتماع بوادي النجا على التعاون والتناصر ، على أن الملك للسلطان أبي العباس بسائر أعمال المغرب ، وأن للأمير عبد الرحمن بلد سجلماسة ودرعة^(٢) والأعمال التي كانت لجدّه السلطان أبي علي أخي السلطان أبي الحسن . ثم بدا للأمير عبد الرحمن في ذلك أيام الحصار ، واشتطّ بطلب مراکش وأعمالها فأغضوا له في ذلك ، وشارطوه على ذلك حتى يتم لهم الفتح ، فلما انعقد ما بين السلطان أبي العباس والوزير أبي بكر ، وخرج إليه من البلد الجديد ، وخلع سلطانه الصبي المنصوب ، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار الملك فاتح ست وسبعين وسبعائة وارتحل الأمير عبد الرحمن يغذ السير إلى مراکش ، وبدا للسلطان أبي العباس ووزيره محمد بن عثمان في شأنه ، فسرحوا العساكر في اتباعه ، وانتهوا خلفه إلى وادي بهت فواقفوه ساعة من نهار ، ثم أحجموا عنه ، وولّوا على راياتهم ، وسار هو إلى مراکش ، ورجع عنه وزيره مسعود بن ماسي بعد أن طلب منه الإجازة إلى الاندلس يتودّع بها ، فسرحه لذلك ، وسار إلى مراکش فملكها .

وأما أنا فكنت مقيماً بفاس في ظلّ الدولة وعنايتها ، منذ قدمت على الوزير سنة أربع وسبعين وسبعائة كما مرّ ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه ، فلما جاء السلطان أبو العباس والأمير عبد الرحمن وعسكروا بكدية العرائس ، وخرج أهل الدولة إليهم من الفقهاء والكتاب والجند ، وأذن للناس جميعاً في مباكرة أبواب السلطانين من غير نكير في ذلك ، فكنت أباكرهما معا ، وكان بيني وبين الوزير محمد بن عثمان ما مرّ

(١) البلد الجديد : تسمى أيضاً المدينة البيضاء ، وفاس الجديد ، بناها يعقوب بن عبد الحق المريني على وادي فاس سنة ٧٦٤ .

(٢) درعة : وتنطق درا وكذلك تكتب على الخرائط ، وهي مقاطعة كبيرة وراء جبال أطلس شرقي إقليم السوس ، تصل حدودها إلى البحر المحيط من مدن هذا الإقليم : ورزازت في السفح الجنوبي لجبال أطلس وسكانها مختلطين من العرب وبربر صنهاجة . وهذا الإقليم هو الموطن الأصلي لدولة السعديين بالمغرب .

ذكره قبل هذا ، فكان يُظهر لي رعاية ذلك ، ويكثر من المواعيد ، وكان الأمير عبد الرحمن يميل إليّ ويستدعيني أكثر أوقاته ، ويشاورني في أحواله ، ففصّ بذلك الوزير محمد بن عثمان وأغرى سلطانه فتقبّض عليّ . وسمع الأمير عبد الرحمن بذلك ، وعلم أنّي إنّما أتيت من جرّاه ، فحلف ليقوّضن خيامه ، وبعث وزيره مسعود بن ماسي لذلك ، فأطلقني من الغد ، ثم كان افتراقهما لثالثة . ودخل الأمير أبو العباس دار الملك ، وسار الأمير عبد الرحمن إلى مراکش ، وكنت أنا يومئذٍ مستوحشاً ، فصحبت الأمير عبد الرحمن معترماً على الإجازة إلى الأندلس من ساحل آسفي ، معولاً في ذلك على صحابة الوزير مسعود بن ماسي لهواي فيه ، فلما رجع مسعود ثني عزمي في ذلك ، ولحقنا بو نزمار بن عريف بمكانه من نواحي كرسيف ، لتقدّمه وسيلة إلى السلطان أبي العباس صاحب فاس في الجواز إلى الأندلس ، ووافينا عنده داعي السلطان فصحبناه إلى فاس ، واستأذنه في شأني ، فأذن لي بعد مطاولة وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان بن داود بن أعراب ، ورجال الدولة . وكان الأخ يحيى لما رحل السلطان أبو حمّو من تلمسان ، رجع عنه من بلاد زغبة إلى السلطان عبد العزيز ، فاستقرّ في خدمته ، وبعده في خدمة ابنه السعيد المنصوب مكانه . ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد استأذن الأخ في اللحاق بتلمسان ، فأذن له وقدم على السلطان أبي حمّو ، فأعاده لكتابة سرّه كما كان أول أمره ، وأذن لي أنا بعده فانطلقت إلى الأندلس بقصد القرار والدّعة إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الإجازة الثانية إلى الأندلس ثم إلى تلمسان واللحاق بأحياء العرب والمقامة عند أولاد عريف

ولما كان ما قصصته من تنكّر السلطان أبي العباس صاحب فاس والذهاب مع الأمير عبد الرحمن ، ثم الرجوع عنه إلى ونزمار بن عريف طلباً للوسيلة في انصرافي إلى الأندلس بقصد الفرار والانقياض ، والعكوف على قراءة العلم ، فتمّ ذلك ووقع الإسعاف به بعد الامتناع ، وأجزت إلى الأندلس في ربيع سنة ست وسبعين وسبعمائة ولقيني السلطان بالكرامة وأحسن التزل على عادته ، وكنت لقيتُ بجبل الفتح كاتب

السلطان ابن الأحمر من بعد ابن الخطيب الفقيه أبا عبدالله بن زمرّك ، ذاهباً إلى فاس في غرض التهئة ، وأجاز إلى سبتة في أسطوله ، وأوصيته بإجازة أهلي وولدي إلى غرناطة ، فلما وصل إلى فاس ، وتحدّث مع أهلي في إجازتهم ، تنكروا لذلك ، وساءهم استقرارهم بالأندلس ، واتّهموا أنّي ربّما أحمل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمن الذي اتّهموني بملاسته ، ومنعوا أهلي من اللحاق بي . وخاطبوا ابن الأحمر في أن يرجّعني إليهم ، فأبى من ذلك ، فطلبوا منه أن يجيزني إلى عدوة تلمسان ، وكان مسعود بن ماسي قد أذنوا له في اللحاق بالأندلس ، فحملوه مشافهة السلطان بذلك ، وأبدوا له أنّي كنت ساعياً في خلاص ابن الخطيب ، وكانوا قد اعتقلوه لأوّل استيلائهم على البلد الجديد وظفرهم به . وبعث إليه ^(١) ابن الخطيب مستصرخاً به ، ومتوسّلاً ، فخاطبت في شأنه أهل الدولة ، وعوّلت فيه منهم على ونزمار وابن ماسي ، فلم تنجح تلك السعاية ، وقتل ابن الخطيب بمحبسه ، فلما قدم ابن ماسي على السلطان ابن الأحمر وقد أغروه بي فألقى إلى السلطان ما كان مني في شأن ابن الخطيب ، فاستوحش من ذلك ، وأسعفهم بإجازتي إلى العدوة ، ونزلت بهنّين والجوّيني وبين السلطان أبي حمّو مظلم بما كان مني في إجلاب العرب عليه بالزاب كما مرّ . فأوعز بمقامي بهنّين ، ثم وفّد عليه محمد بن عريف فعذله في شأنني فبعث عني إلى تلمسان ، واستقررت بها بالعبّاد ، ولحق بي أهلي وولدي من فاس ، وأقاموا معي وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين وسبعائة وأخذت في بثّ العلم ، وعرض للسلطان أبي حمّو رأي في الزواودة ، وحاجة إلى استئلافهم ، فاستدعاني وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض ، فاستوحشت منه ونكرته على نفسي لِمَا آثرته من التخلي والإنقطاع ، وأجبتّه إلى ذلك ظاهراً ، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء ، فعدلت ذات اليمين إلى مندّاس ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول ^(٢) فلقوني بالتحف والكرامة ، وأقمتُ بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي بتلمسان ، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته ، وأنزلوني بأهلي في قلعة أولاد سلامة ^(٣) من بلاد بني توجين التي صارت لهم بأقطاع السلطان . فأقمتُ بها أربعة

(١) الضمير يعود إلى ابن خلدون .

(٢) جبل كزول : يقع في الجنوب الغربي لمدينة تيارت على بعد ١٠ كلم .

(٣) تسمى هذه القلعة قلعة تاوغزوت في مقاطعة وهران من بلاد الجزائر .

أعوام متخلياً عن الشواغل كلها ، وشرعت في تأليف هذا الكتاب ، وأنا مقيمٌ بها ،
وأكملت المقدمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة ،
فسألت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها ، وتآلفت
نتائجها ، وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما نذكره إن شاء الله تعالى .

* (الفيئة الى السلطان أبي العباس بتونس) *

ولما نزلت بقلعة ابن سلامة من أحياء أولاد عريف ، وسكنت بقصر أبي بكر بن
عريف الذي اختطه بها ، وكان من أحفل المساكن وأوثقها . ثم طال مقامي هنالك
وأنا مستوحشٌ من دولة المغرب وتلمسان ، وعاكفٌ على تأليف هذا الكتاب ، وقد
فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناته ، وتشوّفت إلى مطالعة الكتب
والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار ، بعد أن أمليت النكير من حفطي ، وأردت
التنقيح والتصحيح ، ثم طرقتي مرضٌ أربى على البنية لولا ما تدارك من لطف الله ،
فحدث عندي ميلٌ إلى مراجعة السلطان أبي العباس والرحلة إلى تونس ، حيث قرار
آبائي ومساكنهم ، وآثارهم وقبورهم ، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى
طاعته ، والمراجعة ، فما كان غير بعيد ، وإذا بخطابه وعهوده بالإذن والاستحاث
للقدوم ، فكان الخفوق للرحلة فظعت عن أولاد عريف مع عرب الاجص^(١) من
بادية رياح ، كانوا هنالك يتتبعون الميرة بمنداس ، وارتحلنا في رجب سنة ثمانين
وسبعمئة وسلطنا القفر إلى الدوسن من أطراف الزاب . ثم صعدت إلى التل مع حاشية
يعقوب بن علي وجدتهم بفرفار^(٢) الضيعة التي اختطها بالزاب ، فرحلت معهم^(٣)
إلى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة ، ومعه صاحبها الأمير ابراهيم ابن السلطان أبي
العباس بمخيمه ومعسكره ، فحضرت عنده وقسم لي من برّه وكرامته فوق الرضى
وأذن لي في الدخول إلى قسنطينة وإقامة أهلي في كفالة إحسانه ، ريثما أصل إلى
حضرة أبيه ، وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه أبي دينار في جماعة من قومه ،

(١) وفي نسخة ثانية : عرب الأخضر .

(٢) فرفار : واحة صغيرة تبعد ٣٣ كلم عن مدينة بسكرة إلى الجنوب الغربي .

(٣) وفي نسخة ثانية : فرحلتهم معي .

وسرتُ إلى السلطان أبي العباس وهو يومئذ قد خرج من تونس في العساكر إلى بلاد
الجرید لاستئزال شیوخها عن کراسی الفتنة التي كانوا علیها ، فوافيته بظاهر سوسة ،
فحياً وفادتي برّ مقدمي وبالغ في تأنيسي ، وشاورني في مهمّات أموره ، ثم ردّني إلى
تونس وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئه المنزل ، والكفاية من الجراية والعلوفة ،
وجزير الإحسان ، فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة ، وآويت إلى ظلّ ظليل
من عناية السلطان وحرمة ، وبعثت إلى الأهل والولد وجمعت شملهم في مرعى
تلك النعمة ، وألقيت عصا التسيار ، وطالت غيبة السلطان إلى أن افتتح أمصار
الجرید ، وذهب فلهم في النواحي ، ولحق زعيمهم يحيى بن يملول ببسكرة ، ونزل
على صهره ابن مزي ، وقسم السلطان بلاد الجرید بين ولده ، فأنزل ابنه محمداً
المنتصر بتوزر^(١) وجعل نقطة ونفزاوة من أعماله ، وأنزل ابنه أبا بكر بقفصة ، وعاد
إلى تونس مظفراً مزهراً ، فأقبل عليّ واستدناني لمجالسته ، والنجاء في خلوته ، فغصّ
بطانته من ذلك ، وأفاضوا في السعايات عند السلطان فلم تنجح ، وكانوا يعكفون
على إمام الجامع ، وشيخ الفُتيا محمد بن عرفة ، وكان في قلبه نكتة من الغيرة من
لذن اجتماعنا في المرسى بمجالسة الشيوخ ، فكثيراً ما كان يظهر شفوفي^(٢) عليه ،
وإن كان أسنّ مني فاسودّت تلك النكتة في قلبه ، ولم تفارقه ، ولما قدمت تونس
انثال عليّ طلبه العلم من أصحابه وسواهم يطلبون الإفادة والاشتغال ، وأسعفتهم
بذلك ، فعظم عليه ، وكان يُسرّ التنفير إلى الكثير منهم ، فلم يقبلوا ، واشتدّت غيرته
ووافق ذلك اجتماع البطانة إليه ، فاتفقوا على شأنهم في التأييب والسعاية بي ،
والسلطان خلال ذلك مُعرضٌ عنهم في ذلك ، وقد كلّفني بالأكباب على تأليف
هذا الكتاب لتشوّقه إلى المعارف والأخبار ، واقتناء الفضائل فأكملت منه أخبار البربر
وزناته ، وكتبتُ من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل اليّ منها ، وأكملت
منها نسخة رفعتها إلى خزائنه . وكان مما يغرون به السلطان قعودي على امتداحه ، فإني
كنتُ قد أهملتُ الشعر وانتحاله جملة ، وتفرّغت للعلم فقط ، فكانوا يقولون له إننا
ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه للملوك قبلك ، وتنسّمت ذلك عنهم من
جهة بعض الصديق من بطانتهم ، فلما رفعت له الكتاب وتوجّته باسمه أنشدت في

(١) نوزر : مدينة واقعة على الحافة الشمالية لسط الجرید بينها وبين نقطة عشرة فراسخ (معجم البلدان) .

(٢) شف عليه شفوا إذا زاد أو نقص (لسان العرب) وهنا يعني الزيادة .

ذلك اليوم هذه القصيدة امتدحه ، وأذكر سيره وفتوحاته ، واعتذر عن انتحال الشعر واستعطفه بهدية الكتاب إليه فقلت :

هل غير بابك للغريب مؤمل
هي همّة بعثت إليك على النوى
متبواً الدنيا ومنتجع المنى
حيث القصورُ الزاهرات منيفّة
حيث الخيامُ البيض ترفع للقرى
حيث الحمى للغز في ساحاته
حيث الرماح يكاد يورق عودها
حيث الكرام ينوب عن نار القرى
حيث الجياد أملن شجعان الوغى
حيث الوجوه الغر قنعها الحيا
حيث الملوك الصيد والنفر الألى
من شيعة المهدي بل من شيعة
شادوا على التقوى مباني عزم
بل شيعة الرحمن ألقى حبهم
قوم أبو حفص أب لهم وما
نسب كما اضطردت أنابيب القنا
سام على هام الزمان كأنه

(١) وفي نسخة ثانية : تعنى بها زهر النجوم وتحفل .
(٢) وفي نسخة ثانية :

حيث الخيام البيض يرفع للعلی
(٣) وفي نسخة ثانية :

حيث الجياد أملهن بنو الوغى

(٤) وفي نسخة ثانية : يفصل .

(٥) أبو حفص هو عمر بن عبدالله الصنهاجي ويعرف بأزناج وعمر ومزال ، ويذكر ابن خلدون ان نسب الحفصيين ينتهي إلى ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب ونقل ذلك عن ابن نخيل وغيره من الموحدين (راجع المجلد السادس من هذا الكتاب) .

فَضْلُ الْأَنْبَاءِ حَدِيثُهُمْ وَقَدْ يُمَهُمُ
وَبَنُوا عَلَى قُلُوبِ التَّخُومِ وَوَطَّدُوا
وَلَقَدْ أَقُولُ لِحَائِضِ بَحْرِ الْغَلَا
مَاضٍ عَلَى غَوْلِ الدَّجِيِّ لَا يَتَّقِي
مُتَقَلِّبٌ فَوْقَ الرَّمَايحِ (٢) كَأَنَّهُ
يَبْغِي مَنَالَ الْفُوزِ مِنْ طُرُقِ الْغَنَى
أَرِحِ الرِّكَّابُ فَقَدْ ظَفَرَتْ بِوَاهِبِ
لِلَّهِ مَنْ خُلِقَ كَرِيمٍ فِي النَّدَى
هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِمَامِنَا
هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ خَيْرُ خَلِيفَةِ
مُسْتَنْصَرٍ بِاللَّهِ فِي قَهْرِ الْعِدَا
سَبَقَ الْمُلُوكَ إِلَى الْعَلَا مَتَمَهَلًا
فَلَأَنْتَ أَعْلَى الْمَالِكِينَ وَإِنْ غَدُوا
قَائِسٌ قَدِيمًا مِنْهُمْ بِقَدِيمِكُمْ (٣)
دَانُوا لِقَوْمِكُمْ بِأَقْوَمِ طَاعَةٍ
سَائِلٌ تَلْمَسَانَا بِهَا وَزَنَاتَةٍ
وَأَسْأَلُ بِأَنْدَلَسِ مَدَائِنِ مُلْكِيهَا
وَأَسْأَلُ بِذِمَامِ كَشَا وَقُصُورِهَا
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْوَفِيُّ يَا ذَا الَّذِي
لِلَّهِ مِنْكَ مَوْثِدٌ عَزَمَاتِهِ
حَيْثُ الزَّمَانُ يَحْتُ أَعْظَمَ حَتِّهِ (٥)
وَالشَّمْلُ مِنْ أَنْبَاءِهِ مُتَصَدِّعٌ

وَلَأَنْتَ إِنْ نَصَّبُوا أَعْرَوا أَفْضَلُ
وَبِنَاؤِكَ الْعَالِي أَشَدُّ وَأَطْوَلُ
وَاللَّيْلُ مُدَثِّرُ الْجَوَانِبِ أَلَيْلُ (١)
مِنْهَا وَذَا بَلِّهِ ذُبَانٌ مُشَعَلُ
طَيْفٌ بِأَطْرَافِ الْمَهَادِ مُوَكَّلُ
وَيُرُودُ مَخْصِبِهَا الَّذِي لَا يَمْجَلُ
يُعْطِي عَطَاءَ الْمُنْعَمِينَ فَيَجْزِلُ
كَالرَوْضِ حَيَّاهُ نَدَى مَخْضُوضِلُ
فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِلَيْهِ الْمُوْتَلُ
شَهَدَتْ لَهُ الشِّيمُ الَّتِي لَا تُجْهَلُ
وَعَلَى إِعَانَةِ رَبِّهِ مُتَوَكَّلُ
لِلَّهِ مِنْكَ السَّابِقُ الْمَتَمَهَلُ
يَتَسَابِقُونَ إِلَى الْعَلَاءِ وَأَكْمَلُ
فَالْأَمْرُ فِيهِ وَاضِحٌ لَا يُجْهَلُ
هِيَ عُرْوَةُ الدِّينِ الَّتِي لَا تُفْصَلُ
وَمَرِينٌ قَبْلَهُمْ كَمَا قَدْ يَنْقَلُ
تَحْبِرُكَ حِينَ اسْتَأْنَسُوا وَاسْتَأْهَلُوا
فَلَقَدْ تَجِبُ رُسُومُهَا مَنْ يَسْأَلُ
مَلَأَ الْقُلُوبَ وَفَوْقَ مَا يَتَمَثَّلُ (٤)
تَمْضِي كَمَا يَمْضِي الْقَضَاءُ الْمُرْسَلُ
فَافْتَرَّ عَنْهُ وَهُوَ أَكْلَحُ أَعْضَلُ
وَعَلَا خِلَافَتَهُمْ (٦) مَضَاعٌ مُهْمَلُ

(١) وفي نسخة ثانية : والليل مزيد الجوانب أليل

(٢) وفي نسخة ثانية : الرِّحَالُ .

(٣) وفي نسخة ثانية : قَائِسٌ قَدِيمًا مِنْكُمْ بِقَدِيمِهِمْ .

(٤) وفي نسخة ثانية : يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي فِي نَعْتِهِ مَلَأَ الْقُلُوبَ وَفَوْقَ مَا يَتَمَثَّلُ

(٥) وفي نسخة ثانية : جِثَّتِ الزَّمَانُ بِحَيْثُ أَعْضَلُ خَطْبُهُ ، وَأَعْضَلُ مَكَانُ أَعْضَلُ فِي الشَّرْطِ الثَّانِي

وَالْأَعْضَلُ : الْمَعُوجُ وَالشَّدِيدُ الْإِلْتِوَاءِ . وَالْأَعْضَلُ : الْأَشَدُّ قَبْحًا .

(٦) وفي نسخة ثانية : وَجِمَى خِلَافَتَهُ .

والخلقُ قد صرّفوا إليك قلوبَهُم
فَعَجَلْتَهُ لَمَّا انْتَدَبْتَ لِأَمْرِهِ
ذَلَّتْ مِنْهُ جَاحِحًا لَا يَنْثِي
وَأَنْتَ مِنْ سَوْسِ الْعَتَاةِ وَذُدْتَهُمْ
كَانَتْ لَصَوْلَةِ صَوْلَةٍ وَلِقَوْمِهِ
وَمُهْلَهُمْ تُسْدِي وَتُلْحِمُ فِي الَّتِي

وَرَجَوْا اصْلَاحَ الْجَالِ مِنْكَ وَأَمَلُوا
بِالْبَأْسِ وَالْعَزْمِ الَّذِي لَا يُمَهِّلُ
سَهَّلْتَ وَعَرًّا كَادًا لَا يَتَسَهَّلُ
عَنْ ذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي قَدْ حَلَّلُوا
يَعْدُو ذَوِيبُ بِهَا وَتَسْطُو الْمُعْقِلُ
مَا أَحْكَمُهَا فَهِيَ بَعْدُ مُهْلَهُمْ

والمراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حمزة أولاد أبي الليل . وذؤيب هو ابن عمّه أحمد بن حمزة . والمعقل فريق من العرب من أحلافهم ، ومهلل هم بنو مهلهل بن قاسم أنظارهم وأقتالهم . ثم رجع إلى وصف العرب وأحيائهم :

عَجَبَ الْأَنَامُ لِشَأْنِهِمْ بَادُونَ قَدْ
رَفَعُوا الْقِيَابَ عَلَى الْعِمَادِ وَعِنْدَهَا
فِي كُلِّ ظَامِي الرَّبِّ مَنَعْدَ الْحِصَا (٢)
حَيٌّ شَرَابُهُمُ السَّرَابُ وَرَزَقُهُمْ
حَيٌّ حَلُولُ بَالْعِرَاءِ وَدُونَهُمْ
كَانُوا يَزُوعُونَ الْمُلُوكَ بِمَا بَدُوا
فَبَدَوَتْ لَا تَلْوِي عَلَى دَعَاةٍ وَلَا
طَوْرًا يَصَافِحُكَ الْهَجِيرُ وَتَسَارَةُ
وَإِذَا تَعَاطَى الضَّمْرُ فِي يَوْمِ الْوَغَى (٥)
مُخْشَوْنًا فِي الْعَزْمِ مُعْتَمَلًا لَهُ
تَفْرِي حَشَى الْبَيْدَاءِ لَا يَسْرِي بِهَا
وَتَجْرُ أَذْيَالُ الْكُتَابِ فَوْقَهَا

قَذَفَتْ بِجَيْهِمُ الْمَطِيَّ الذَّلَّلُ
الْجَرْدُ السَّلَاهِبُ وَالرَّمَاحُ الْعُسَلُ (١)
تَهْدِي لِلجَّتِّهِ الظَّمَاءُ فَتَهْلُ
رِيحٌ يَرُوحُ بِهِ الْكَمِيُّ وَمَنْصَلُ (٣)
قَذَفُ النَّوَى إِنْ يَظْعَنُوا أَوْ يُقْبَلُوا
وَعَدَتْ تَرْفَهُ بِالنَّعِيمِ وَتَخْضَلُ
تَأْوِي إِلَى ظِلِّ الْقُصُورِ وَتَهْزَلُ (٤)
فِيهِ بِخَفَّاقِ الْبِنُودِ تُظَلَّلُ
كَأْسُ النَّجِيعِ فَبِالصَّهِيلِ تُعَلَّلُ
فِي مِثْلِ هَذَا يَحْسُنُ الْمُسْتَعْمَلُ
رَكْبٌ وَلَا يَهْوِي إِلَيْهِ جَحْفَلُ
تَحْتَالُ فِي السَّمْرِ الطِّوَالِ وَتَرْفَلُ

(١) السلاهيب : ج سلهب . وسلاهبة : الطويل . والعسل : ذو العمل الصالح يستحلى الثناء عليه وهي جمع عاسل .

(٢) وفي نسخة ثانية : في كل ظامي الترب متقد الحصى .

(٣) وفي نسخة ثانية : جن شرابهم السراب ورزقهم رمح يروح به الكمي ومنصل

(٤) وفي نسخة ثانية : تأوي الى ظلل القصور تهذل .

(٥) وفي نسخة ثانية : واذا تعاطي خمرأ يوم الوغى .

ترميم منها بكل مُدَجِّجٍ
 وبكل أسمر غُصْنُهُ مُتَأَوِّدٌ
 حتى تفرَّق ذلك الجمعُ الألى
 ثم استمَلَّتَهُمْ بنعمتك^(١) التي
 ونزعت من أهل الجريد غواية
 خَرَّبَتْ من بُيَانِهَا ما شِيدُوا
 ونظمت من أمصاره وثغوره
 فسَدَّدَتْ مَطْلِعَ النِّفَاقِ وَأَنْتَ لَا
 بشكيمةٍ مرهوبةٍ وسياسةٍ
 عَذْبُ الزمانُ لها وَلَذَّ مَذَاقُهُ
 فضوى الأنامُ لِعِزِّ أروعِ مالِكٍ
 وتطابقت فيه القلوبُ على الرضا
 يا مالِكاً وسعَ الزمانَ وأهْلَهُ
 فالأرضُ لا يُخشى بها غولٌ ولا
 والسُّرْبُ يَحْتَابُونَ كلَّ تنوِّفةٍ
 سبحان من بعلاك قد أحيى المنى
 سبحان من بهدائك أوضح للورى
 فكأننا الدنيا عروسٌ تجتلى
 وكانَ مُطَبِّقَةَ البلادِ بَعْدَلِهِ
 وكانَ أنوار الكواكبِ ضوعفتُ
 وكانَ رُفِعَ الحجابُ لناظرٍ

ومنها في العذر عن مدحه :

مولاي غاضتُ فكري وتبلدتُ
 تسمو إلى دَرَكِ الحقائقِ همتي

شاكي السلاح إذا استعمار الأعزلُ
 وبكل أبيض شطُّه مُتَهَدِّلُ
 عصفت بهم ریحُ الجلاء فزلزلوا
 خضعوا لعزك بعدها وتذللوا
 وقطعت من أسبابها ما أوصلوا
 وقطعت من أسبابها ما أصلوا
 للملكِ عقداً بالفتوح يُفصلُ
 تنبو ظبأك ولا العزيمة تنكُلُ
 تجري كما يجري فواتٌ سلسلُ
 من بعد ما قد مر منه الحنظلُ
 سهل الخليفة ما جدُّ متفضلُ
 سيان منها الطفلُ والمتكهلُ
 عدلاً وأمناً فوق ما قد أمَلُوا
 يعدو بساحتها الهزبرُ المُشَبَّلُ
 سِرْبَ القطاما راعهنَّ الأجدلُ^(٢)
 وأعاد حلِّي الجيد وهو معطلُ
 قَصْدَ السبيلِ فأبصرَ المتأملُ
 فتميسُ في حُللِ الجمالِ وترُفلُ
 عادتُ فسيحاً ليس فيها مجهلُ
 من نورِ غرته التي هي أجملُ
 فرأى الحقيقة في الذي يتخيَّلُ

مني الطباعُ فكلُّ شيءٍ مُشكَلُ
 فأصد عن إدراكهنَّ وأعزلُ

(١) وفي نسخة ثانية : بأنعمك التي .

(٢) وفي نسخة ثانية : والسفر ، وتنوفاً : القفر من الارض دون ماء . والأجدل : الأشقر .

وأجسدُ ليلي في امتراء قريحتي (١)
 فأبيتُ يختلج (٢) الكلام بخاطري
 وإذا امتريت العفو منه جاهداً
 من بعد حول انتقيه ولم يكن
 فأصونه عن أهله متوارياً
 وهي البضاعة في القبول نفاقها
 وبنات فكري إن أتت كليله
 فلها الفخار إذا منحت قبولها

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف بخزانتة :
 وإليك من سير الزمان وأهله
 صحفا تترجم عن أحاديث الأولى
 تبدي التبابع والعالق سرها
 والقائمون بملّة الإسلام من
 لخصت كتب الأولين بجمعها
 وأنت حوشي الكلام كأنها
 وجعلته لسوار ملكك مفخراً
 والله ما أسرفت فيما قلته
 ولأنت أرسخ في المعالي رتبة
 فلاك كل فضيلة وحقيقة
 والحق عندك في الأمور مقدم

فتعود غوراً بعدما تترسل
 والنظم يشرّد والقوافي تجفل
 عاب الجهابذ صنعه واستذلوا
 في الشعر لي قول يعاب ويمهل (٣)
 أن لا يضمهم وشعري محفل
 سيان فيه الفحل والمتطفل
 زهراء (٤) تخطر في القصور وتخطل
 وأنا على ذاك البليغ المقول

عبراً يدين بفضلها من يعدل
 درجوا (٥) فتجمل عنهم وتفصل
 وتمدّ قبلهم وعاد الأول
 مضرو بربرهم إذا ما حصلوا
 وأتيت أولها بما قد أغفلوا
 سرد للغات بها لنطي ذلل
 يبهي الندي به ويزهو المحفل (٦)
 شيئاً ولا الاسراف مني يجمل
 من أن يمّوه عنده متطفل
 الناس تعرف فضلها (٧) ان بدّلوا
 أبداً فإذا يدعيه المبطل

(١) امتراء القريحة : استدرارها .

(٢) وفي نسخة ثانية : يعتلج .

(٣) وفي نسخة ثانية : في الشعر حولي يعاب ويمهل .

(٤) وفي نسخة ثانية : مرهاء ، وامرأة مرهاء أي غير مكتحلة .

(٥) وفي نسخة ثانية : غبروا .

(٦) وفي نسخة ثانية : وجعلته لصوان ملك مفخراً .

يبأي : يفخر .

(٧) وفي نسخة ثانية : تعرف وضعها .

والله أعطاك التي لافوقها
أبقاك ربك للعباد تربهم
فاحكم بما ترضى فأنت الأعدك
فالله يخلقهم ورعك يكفل

وكنت انصرفت من معسكره على سوسة إلى تونس ، بلغني وأنا مقيم بها أنه أصابه في طريقه مرض ، وعقبه براء فخاطبته بهذه القصيدة :

ضحكت وجوه الدهر بعد عبوس
وتوضحت غرر البشائر بعدما
صدعوا بها ليل الهموم كأنها
فكانتهم جنات عدن في الوري (٢)
قرت عيون الخلق منها بالتي
يتأيلون من المسرة والرضا
من راكب وافي يحيى راكباً
ومشفع لله يؤنس عنده
يعتد منها رحمة قدسية
طب بإخلاص الدعاء وإنه

وتخللتنا رحمة من بوس
انبهت فاطلعتها حداة العيس (١)
صدعوا الظلام بجذوة المقبوس
نشرت لها الآمال من مرموس
شربوا النعيم لها بغير كؤوس
ويقابلون أهلة بشموس
وجلس أنس قادة لجلس
أثر الهدى في المعهد المانوس
فيؤ للرحمن بالتقديس
يشفي من الداء العيا والبوس (٣)

والمعني به إمام الجامع الأعظم ، جامع
يا ابن الخلافة (٤) والذين بنورهم
والناصر الدين القويم بعزمه
هجر المنى فيها ولذات المنى
حاط الرياضة بالسياسة فانطوت (٧)

الزيتونة بتونس .
نهجت سبيل الحق بعد دروس
طردت إمامتها بغير عكوس (٥)
في لذة التهجير والتغليس (٦)
منه لا كرم مالك وسيوس

(١) العيس : الواحد : اعيس ، والواحدة : عيساء : الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف — كرام الإبل .

(٢) وفي نسخة ثانية : فكانهم بثوا حياة في الوري .

(٣) البؤس : أي البؤس الشقاء وفي نسخة ثانية : يشفي من الداء العياء ويوسي .

(٤) وفي نسخة ثانية : يا ابن الخلائف .

(٥) وفي نسخة ثانية : طرد استقامتها بغير عكوس .

(٦) التهجير : التكبير إلى الصلاة وفي الحديث : لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه . والتغليس : السير إلى صلاة الصبح عند ظلمة آخر الليل .

(٧) وفي نسخة ثانية : حاط الرعية بالسياسة فانضوت .

أَسَدٌ بِحَامِيٍ عَنِ حَمِيٍّ أَشْبَالِهِ
قَسَمًا بِمَوْشِيٍّ الْبَطَاحِ وَقَدْ غَدَتُ
وَالْمَائِلَاتِ مِنَ الْخَنَائِبِ جَمًّا
وَخَزَّ الْبَلِيَّ مِنْهَا الْغَوَارِبُ وَالذُّرَى
لَبَقَاكَ حِرْزٌ لِلْأَنَامِ وَعَصْمَةٌ
وَلَأَنْتَ كَافِلٌ دِينَنَا بِجَاهِيَةٍ
اللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا
تَعْنُو الْقُلُوبُ إِلَيْكَ قَبْلَ وَجْهِهَا
فَإِذَا أَقَمْتَ فَإِنَّ رُعْبَكَ رَاحِلٌ
وَإِذَا رَحَلْتَ فَالْسَعَادَةُ آيَةٌ
وَإِذَا الْأَدِلَّةُ فِي الْكِمَالِ تَطَابَقَتْ
فَسَانَعَمَ بِمَلِكِكَ دَوْلَةٌ عَادِيَّةٌ
وَالْيَكْهَهَا مِنِّي عَلَى خَجَلٍ بِهَا
عُذْرَاكَ قَدْ طَمَسَ الشَّبَابُ وَنُورُهُ
لَوْلَا عَنَّا أَيْتُكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي
وَاللَّهِ مَا أَبَقْتُ مِمَّا مَارَسَهُ النَّوَى
أُنْحِنِي الزَّمَانَ عَلَيَّ فِي الْأَدَبِ الَّذِي
فَسَطَا عَلَى فَرْعِي (٦) وَرَوَّعَ مَأْمَنِي
وَرِضَاكَ رَحْمَتِي الَّتِي أَعْتَدْتَهَا

حَتَّى ضُورُوا مِنْهُ لِأَمْنَعِ خَيْسٍ (١)
تَحْتَالُ زَهْوًا فِي ثِيَابِ عُرُوسِ
بِالْبَيْدِ مِنْ طَسْمٍ وَفَلِ جَدِيسِ
فَلْفَتْنُ حَذْرًا بِالْعَيُونِ الشُّوسِ
وَحَيَاةُ أَرْوَاحٍ لَنَا وَنُفُوسِ
لَوْلَاكَ ضَيِّعَ عَهْدُهَا وَتُنُوسِي
وَجَبَاكَ حَظًّا بِالْمُوكُوسِ (٢)
سَيَّانٍ مِنْ رَأْسٍ وَمِنْ مَرُوسِ
يُحْمِي عَلَى الْأَعْدَاءِ كُلِّ وَطِيسِ
تَقْبَادُهَا فِي مُوكَبِ وَخَمِيسِ
جَاءَتْ بِمَسْمُوعٍ لَهَا وَمَقِيسِ
تُشْتَقِي الْأَعَادِي بِالْعَذَابِ الْبِيسِ (٣)
عُذْرَاءٌ قَدْ حَلَيْتُ بِكُلِّ نَفِيسِ
وَأَضَاءُ صَبْحِ الشَّيْبِ عِنْدَ طَمُوسِ
مَا كُنْتُ أَعْنِي بَعْدَهَا بِطُرُوسِ (٤)
مَنِّي سَوَى رَسْمِ أَمْرٍ دَرِيسِ (٥)
دَارَسْتَهُ بِمَجَامِعِ وَدُرُوسِ
وَاجْتَثُّ مِنْ دَوْحِ النِّشَاطِ غُرُوسِي
تَحْيِي مَنِّي نَفْسِي وَتُذْهِبُ بُوسِي

ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعائيات ، وابن عرفة يزيد في إغرائهم متى اجتمعوا إليه ، إلى أن أغروا السلطان بسفري معه ، ولقنوا النائب بتونس القائد

(١) الخيس : ج الخيسة : موضع الأسد .

(٢) الموكوس : (مص) مكس . المنقوص .

(٣) أي بالعذاب القوي .

(٤) الطروس : الصحيفة عموماً . الصحيفة التي محيت ثم كتبت (وهنا يعني الكتب) .

(٥) وفي نسخة ثانية : سوى حرس أحمّ وريس . والمرس : الحبل والأحم : الأسود والدريس : الخلق .

(٦) وفي نسخة ثانية : فسطا على وفري .

فأرح من موالي السلطان أن يتفادى من مقامي معه خشية على أمره مني بزعمه ، وتواطؤا على أن يشهد ابن عرفة بذلك للسلطان حتى شهد به في غيلة مني ونكر السلطان عليهم ذلك ، ثم بعث إليّ وأمرني بالسفر معه ، فسارعت إلى الامتثال ، وقد شق ذلك عليّ ، إلا أنني لم أجد مَحِيصاً ، فخرجت معه وانتهيت إلى تبسة ، وسط وطن تلول أفريقية ، وكان منحدرأ في عسكره وتوابعه من العرب إلى تَوَزَّرَ لأن ابن يملول أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة واستنقذها من يد ابنه ، فسار السلطان إليه ، وشرده عنها ، وأعاد إليها ابنه وأولياءه . ولما نهض من تبسة رجعتني إلى تونس فأقمت بضبعة الرياحين من نواحيها لضمّ زراعتي^(١) بها إلى أن قفل السلطان ظافراً منصوراً فصحبته إلى تونس .

ولما كان شهر شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة أجمع السلطان الحركة إلى الزاب بما كان صاحبه ابن مَزْنِي قد آوى ابن يملول إليه ومهد له في جواره ، فخشيت أن يعود في شأني ما كان في السنة قبلها ، وكان بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية قد شحنها التجار بأمعتهم وعروضهم ، وهي مقلعة إلى الإسكندرية فتطارحت على السلطان ، وتوسلت إليه في تخلية سبيلي لقضاء فرضي ، فأذن لي في ذلك ، وخرجت إلى المرسى والناس متسايلون على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم . فودّعتهم وركبت البحر منتصف شعبان من السنة ، وقوّضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله سبحانه ، وتفرّعت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم ، والله وليّ الأمور سبحانه .

* (الرحلة الى المشرق وولاية القضاء بمصر) *

ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة أقناني البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ، ولعشر ليالٍ من جلوس الملك الظاهر على التخت ، واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون ، وكنا على ترقب ذلك ، لما كان يؤثر بقاضية البلاد من سموه لذلك ، وتمهيداً له . وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامئذٍ ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذي

(١) وفي نسخة ثانية : لضم زروعي .

العقدة فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام وكرسي المُلْك ، تلوح القصور والأواوين في جَوْه ، وتزهر الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثَّلَ بشاطيء النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء . يسقيهم العَلَل والنَّهْلَ سِيحُهُ ، ويجني إليهم الثمرات والخيرات ثَجَّهُ^(١) ومررتُ في سكك المدينة تغصُّ بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نتحدَّث بهذا البلد وبعُدِ مداه في العمران . واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عباراتُ من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجَّهم وتاجرهم في الحديث عنه ، سألت صاحبنا كبير الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبدالله المَقْرِي مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمئة فقلت له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عزَّ الإسلام .

وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كأنما انطلق أهله من السحاب^(٢) يشير إلى كثرة أمه وأمنهم العواقب .

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البُرْجِي بمجلس السلطان أبي عنان ، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية^(٣) إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمئة فسألته عن القاهرة فقال .

أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : إنَّ الذي يتخيَّله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها الاتساع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيَّل فيها . فأعجب السلطان والحاضرون لذلك .

ولما دخلتها أقمت أياماً واثال عليّ طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعوني عُذراً ، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتصال بالسلطان فأبرَّ مقامي وأنس الغربية ، ووفَّر الجراية من صدقاته شأنه

(١) الثج : الصب الكثير .

(٢) وفي نسخة ثانية الحساب وهي الأصح وبذلك يقول المقرئ في خططه : « قال شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرقوا من الحساب » الخطط ٧٩/١ طبع مصر ١٣٢٤ هـ .

(٣) الرسالة النبوية اعتادوا كتابتها في مناسبات عديدة . كان يبعثون بها إلى قبر الرسول (صلعم) بواسطة رسول خاص إلى الروضة الشريفة حيث تقرأ قرب القبر النبوي الكريم وفي نفع الطيب أمثلة عديدة لهذه الرسائل .

مع أهل العلم ، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس ، وقد صدّهم السلطان هنالك عن السفر اغتباطاً بعودي إليه فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه لتخلية سبيلهم ، فخاطبه في ذلك بما نصّه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم (٢)

عبدالله ووليّه أخوه برقوق (٣) [.....] (٤) .

السلطان الأعظم ، المالك الملك الظاهر ، السيّد الأجلّ ، العالم العادل ، المؤيّد المجاهد ، المرابط المثاغر ، المظفر ، الشاهنشاه ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، مُنصف المظلّمين من الظالمين ، وارث الملوك ، سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزمان ، مولي الإحسان ، مُملِك أصحاب التخوت والأسيرة والتيجان ، واهب الأقاليم والأقطار ، مبيد الطُغاة والبُغاة والكفار ، ملك البحريين ، مُسلك سبيل القبليين ، خادم الحرمين الشريفين ، ظلّ الله في أرضه ، القائم بسُنّته وفرضه ، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة ، سيّد الملوك والسلاطين ، قَسِيم (٥) أمير المؤمنين (٦) ، أبو سعيد برقوق ابن الشهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس (٧) . خلد الله سلطانه ، ونصر

(١) سقط نص هذه الرسالة في أكثر النسخ . وقد اضفنا من نسخة بولاق المصرية طبعة دار الكتاب اللبناني حتى لا يفوتنا شيء من هذا الكتاب .

(٢) حافظت في هذه الرسالة على الطريقة الرسمية التي كانت متبعة في ذلك العهد ، والتي يقول عنها القلقشندي في صبح الاعشى (٣٧٨/٧) ، في رسم المكاتبه الى صاحب فاس ، وغيره من ملوك المغرب :

«... وهو أن يكتب بعد البسملة ، بحيث يكون تحتها سواء ، في الجانب الايمن من غير أول السطر مسامتا للبسملة ، وهي : السلطان الاعظم الخ» .

(٣) في خطط المقرئزي ٢١١/٢ بولاق : «واما البريد ، وخلاص الحقوق والظلامات ، فانه (السلطان) يكتب ايضا اسمه ، وربما كرم المكتوب اليه ، فكتب اليه : «أخوه فلان ، او والده فلان ، وأخوه» .

(٤) هذا البياض هو بيت العلامة ، وكانت علامة الناصر محمد بن قلاوون : «الله أملي» ، وعمل ذلك الملوك بعده . خطط المقرئزي ٢١١/٢ بولاق ، والاستقصا ٧٢/٢ ، صبح الاعشى ٣٧٨/٧ .

(٥) القسيم بمعنى القاسم ؛ والمراد أنه قاسم أمير المؤمنين الملك ، وسأهمه في الأمر ، فصارا فيه مشتركين . صبح الاعشى ٦٥/٧ ، ١١٣ .

(٦) هو المتوكل على الله ، ابو عبدالله محمد بن المعصود الخليفة العباسي . ولي سنة ٧٦٣ هـ وامتدت ايامه ٤٥ سنة ، حبس فيها وخلع ؛ ومات سنة ٨٠٨ هـ . «تاريخ الخلفاء» ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٧) كذا ، وهو سيف الدين انز الجركسي العثماني سنة ٧٨٣ هـ .

جيوشه وأعوانه — يخص الحضرة السنّية السّرية ، المظفّرة الميمونة ، المنصورة المصونة ، حضرة السلطان العالم ، العادل المؤيد ، المُجاهد الأوحد ، أبي العباس ، ذخر الإسلام والمسلمين ، عدّة الدنيا والدين ، قُدوة المُوحّدين ، ناصر الغزاة والمُجاهدين ، سيف جماعة الشّاكرين ، صلاح الدُّول . لا زالت مملكته بقوّته عامرة ، ومهابته لنفوس الجبابرة قاهرة ، ومعدّلتُه تُبَوِّثُه عُرفات العزفي الدنيا والاخرة . سلامٌ صفا وردّه وضفا برده ، وثناءٌ فاح ندّه ، ولاح سعده ، ووداد زاد وجدّه ، وجاد جدّه .

أمّا بعد حمد الله الذي جعل القلوب أجناداً مجنّدة ، وأسباب الوداد على البعاد مؤكّدة ، ووسائل المحبّة بين الملوك في كلّ يوم مجدّدة ؛ والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمدٍ عبده ورسوله ، الذي نصره الله بالرّعب مسيرة شهر وأيّده^(١) وأعلى به منار الدين وشيّد به وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسؤدده ، صلاة دائمة مؤبّدة . فإننا نوضّح لعلمه الكريم ، أن الله — وله الحمد — جعل جبلتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العلم الشريف وأهله ، ورفعته شأنه ، ونشر إعلامه ، ومحبة أهله وخدّامه ، وتيسير مقاصدهم ، وتحقيق أمّلتهم ، والإحسان إليهم ، والتقرّب إلى الله بذلك في السرّ والعلانية ؛ فإن العلماء رضي الله عنهم ورثة الأنبياء وقرة عين الأولياء ، وهُداه خلق الله في أرضه ؛ لا سبّا من رزقه الله الدّراية فيما علمه من ذلك ، وهدها للدخول إليه من أحسن المسالك ، مثل من سطرنا هذه المكاتبة بسببه : المجلس^(٢) السامي ، الشّيخي ، الأجلّي ، الكبيرّي ، العالمي ، الفاضلي ، الأثيلي ، الأثيري ، الإمامي ، العلّامي القُدوة ، المُقتدي ، الفريدي ، المحقّقي ، الأصيلي ، الأوحدّي ، الماجدي ، الوكوي^(٣) ، جمال الإسلام والمسلمين ، جمال العلماء في العالمين ، أوحد الفضلاء ، قُدوة البلغاء ، علامة الأمتّة ، إمام الأئمّة ، مُفيد

(١) يشير الى حديث الصحيحين : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » . (كنوز الحقائق) للمناوي .

(٢) هذا النوع من الحلي والألقاب الخاصة بأرباب الوظائف الدينية ، يأتي في المرتبة الثالثة ؛ فالأولى : درجة «المقر» ؛ والثانية : درجة «الجناب» ، والثالثة : درجة «المجلس» ؛ ولكل من الدرجات فروع ؛ و«المجلس السامي» احد فروع درجة «المجلس» . وانظر تفصيل القول عن هذه الاستعمالات في صبح الاعشى ١٥/٧ ، ١٥٤ — ١٥٩ .

(٣) هذه النسبة الى «ولي الدين» .

الطالبين ، خالصة الملوك والسلاطين^(١) عبد الرحمن بن خلدون المالكي . أدام الله نعمته ؛ فانه أولى بالاكرام ، وأحرى ، وأحقُّ بالرعاية وأجلُّ قدراً ؛ وقد هاجر الى ممالكنا الشريفة ، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية ، لا رغبة عن بلاده ، بل تحبباً إلينا ، وتقرباً إلى خواطرننا ، بالجواهر النفيسة ، من ذاته الحسنة ، وصفاته الجميلة ؛ ووجدنا منه فوق ما في النفوس ، مما يجعل عن الوصف ويُربي على التعداد . يا له من غريبٍ وصفٍ ودار ، قد أتى عنكم بكل غريب ؛ وما برح — من حين ورد علينا — يُبالغ في شكر الحضرة العلية ، ومدح صفاتها الجميلة ، إلى أن استمال خواطرننا الشريفة إلى حبها ، وآثرنا المكاتبه إليها .

«والعين تعشق قبل الأذن أحياناً»^(٢)

وذكر لنا في أثناء ذلك ، أهله وأولاده ، في مملكة تونس تحت نظر الحضرة العلية ، وقصد إحصارهم إليه ليقيموا عنده ، ويجمع شمله بهم مدة إقامته عندنا ، فاقضت آراؤنا الشريفة ، الكتابة إلى الحضرة العلية هذين السبين الجميلين ؛ وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية بذلك ، ليكون على خاطره الكريم ، والقصد من محبته ، يُقدم أمره العالي بطلب أهل الشيخ ولي الدين المشار إليه ، وإزاحة أعدارهم ، وإزالة عوائقهم ، والوصية بهم ، وتجهيزهم إليه مُكرِّمين ، محترمين ، على أجمل الوجوه صُحبة قاصده الشيخ الصالح ، العارف السالك الأوحد ، سعد الدين مسعود المكناسي ، الواصل بهذه المكاتبه اعزه الله ؛ ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة للعية ، مع توصية من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم ورعايتهم ، والتأكيد عليهم في هذا المعنى ، وإذا وصل من بها من البحرية ، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما في أنفسهم ، ويُربي على أملهم ؛ بحيث يهتم بذلك على ما عهد من محبته ، وجميل اعتماده ، مع ما يُتحف به من مراسلاته ، ومقاصده ومكاتباته . والله تعالى يحرسه بملائكته وآياته ، بِمَنِّهِ وَيُمِّنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) اصطلاحوا على أن يلحقوا ياء النسب بآخر الألقاب المفردة للمبالغة في التعظيم ، ثم جعلوا النسبة الى نفس صاحب اللقب أرفع رتبة من النسبة الى شيء خارج عنه . ومن هنا كان «الاجلي» و «القاضي» أرفع رتبة من «الجلالي» ، و «القضائي» . صبح الاعشى ٧٨/٦ ، ١٠٠ . ثم ان هذه الألقاب دلالات متعارفة خاصة . تولى تحديدها القلقشندي في صبح الاعشى ٢٠/٧ ، ٧٣ .

(٢) عجز بيت لبشار بن برد ؛ صدره — كما في الأغاني ١٩/٣ بولاق :

يا قوم أذني لبعض الحبي عاشقة والاذن

كُتِبَ خَامِسَ عَشْرَ صَفَرِ الْمُبَارَكِ مِنْ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةَ حَسَبِ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

ثُمَّ هَلَكَ بَعْضُ الْمُدْرَسِينَ بِمَدْرَسَةِ الْقَمَحِيَّةِ (١) بِمِصْرَ ، مِنْ وَقْفِ صِلَاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ ، فَوَلَّانِي تَدْرِيسَهَا مَكَانَهُ (٢) ، وَبَيْنَا أَنَا فِي ذَلِكَ ، إِذْ سَخِطَ السُّلْطَانُ قَاضِيَ الْمَالِكِيَّةِ (٣) فِي دَوْلَتِهِ ، لِبَعْضِ النَّزَعَاتِ فَعَزَلَهُ ، وَهُوَ رَابِعُ أَرْبَعَةٍ بَعْدَ الْمَذَاهِبِ ، يُدْعَى كُلُّ مِنْهُمْ قَاضِيَ الْقَضَاةِ ، تَمَيِّزاً عَنِ الْحُكَّامِ بِالنِّيَابَةِ عَنْهُمْ ، لِاتِّسَاعِ خُطَّةِ هَذَا الْمُعْمُورِ ، وَكَثْرَةِ عَوَالِمِهِ ، وَمَا يَرْتَفِعُ مِنَ الْخِصُومَاتِ فِي جَوَانِبِهِ ، وَكَبِيرِ جَمَاعَتِهِمْ قَاضِيَ الشَّافِعِيَّةِ ، لِغُمُومِ وِلَايَتِهِ فِي الْأَعْمَالِ شَرْقاً وَغَرْباً ، وَبِالصَّعِيدِ (٤) وَالْفَيُومِ (٥) ، وَاسْتِقْلَالِهِ بِالنَّظَرِ فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْوَصَايَا ، وَلَقَدْ يُقَالُ بِأَنَّ مَبَاشِرَةَ السُّلْطَانِ قَدِيمًا بِالْوِلَايَةِ إِنَّمَا كَانَتْ تَكُونُ لَهُ .

فَلَمَّا عَزَلَ هَذَا الْقَاضِيَ الْمَالِكِيَّ سَنَةَ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةَ اخْتَصَنِي السُّلْطَانُ بِهَذِهِ الْوِلَايَةِ تَأْهِيلًا لِمَكَانِي وَتَنْوِيهًا بِذِكْرِي وَشَافَهَتِهِ بِالتَّفَادِي مِنْ ذَلِكَ ، فَأَبَى إِلَّا إِمْضَاءَهُ وَخَلَعَ عَلَيَّ بَابِوَانَهُ وَبَعَثَ مِنْ كِبَارِ الْخَاصَّةِ مِنْ أَقْعَدِنِي بِمَجْلِسِ الْحُكْمِ بِالْمَدْرَسَةِ الصَّالِحِيَّةِ بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ ، فَقَمْتُ بِمَا دَفَعَ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ وَوَفَّيْتُ جَهْدِي بِمَا آمَنِي عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ ، لَا تَأْخِذْنِي فِي اللَّهِ لَوْمَةً ، وَلَا يَرْغِبْنِي عَنْهُ جَاهٌ وَلَا سَطْوَةٌ مَسْوِيًّا بَيْنَ الْخِصْمِينَ ، آخِذًا بِحَقِّ الضَّعِيفِ مِنَ الْحَكَمِينَ ، مُعْرِضًا عَنِ الشَّفَاعَاتِ وَالْوَسَائِلِ مِنَ الْجَانِبِينَ جَانِحًا إِلَى التَّثَبُّتِ فِي سَمَاعِ الْبَيِّنَاتِ ، وَالنَّظَرِ فِي عَدَالَةِ الْمُتَنَصِّبِينَ لِتَحْمَلِ

(١) كَانَ مَوْقِعُ الْقَمَحِيَّةِ بِجَوَارِ الْعَتِيقِ (جَامِعِ عَمْرُو) بِمِصْرَ ، وَكَانَ مَوْضِعُهَا يَعْرِفُ بِدَارِ الْغَزْلِ ؛ وَهُوَ قِيسَارِيَّةٌ كَانَ يُبَاعُ فِيهَا الْغَزْلُ ، فَهَدَمَهَا صِلَاحُ الدِّينِ ، وَأَنْشَأَ مَوْضِعُهَا مَدْرَسَةً لِلْفُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ ، وَرَتَّبَ فِيهَا مُدْرَسِينَ ، وَجَعَلَ لَهَا أَوْقَافًا كَانَتْ ضَيْعَةً بِالْفَيُومِ تَغْلُ قَمَحًا كَانَ مُدْرَسُوهَا يَتَقَاسِمُونَهُ ، وَلِذَلِكَ صَارَتْ لَا تَعْرِفُ إِلَّا بِالْمَدْرَسَةِ الْقَمَحِيَّةِ . خَطَطَ الْمُقْرِيزِيُّ ٣٦٤/٢ بُولَاقَ .

(٢) فِي السُّلُوكِ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ ٧٨٦ :

« فِي ٢٥ مَحْرَمَ ، دَرَسَ شَيْخُنَا أَبُو زَيْدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُونَ ، بِالْمَدْرَسَةِ الْقَمَحِيَّةِ بِمِصْرَ ، عَوْضًا عَنْ عِلْمِ الدِّينِ سَلْمَانَ الْبِسَاطِيَّ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَحَضَرَ مَعَهُ الْأَمِيرُ الطَّنْبُغَا الْجُوبَانِي ، وَالْأَمِيرُ يُونُسُ الدَّوَادَارُ ، وَقَضَاةُ الْقَضَاةِ وَالْأَعْيَانُ » .

(٣) هُوَ جَمَالُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَلْمَانَ بْنِ خَيْرِ الْمَالِكِيِّ (٧٢١ — ٧٩١) .

(٤) كَانَ الْقَدَمَاءُ يَعْتَبِرُونَ مَبْدَأَ الصَّعِيدِ الشَّمَالِيِّ مِنْ قَرَبِ الْقَاهِرَةِ ، وَيَمْتَدُّ عَلَى ضِفْتِي الْوَادِي جَنُوبًا حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَسْوَانَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ نَهَايَةَ الصَّعِيدِ الْجَنُوبِيَّةِ ؛ وَفِيمَا بَيْنَ أَسْوَانَ ، وَإِخْمِيمَ ، كَانَ الصَّعِيدُ الْأَعْلَى ؛ وَمِنْ إِخْمِيمَ إِلَى مَدِينَةِ الْبَهْنَسَا الْوَاقِعَةُ عَلَى الضَّفَّةِ الْغَرْبِيَّةِ لَوَادِي النَّيْلِ ، كَانَ يُسَمَّى الصَّعِيدَ الْأَوْسَطَ ؛ أَمَّا الصَّعِيدُ الْأَدْنَى فَكَانَتْ بَدَايَتُهُ الْبَهْنَسَا ، وَنَهَايَتُهُ فِي الشَّمَالِ ، قَرَبِ الْفُسَطَاطِ . يَأْقُوتُ مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ .

(٥) تَقَعُ الْفَيُومُ الْمَدِينَةُ الْمَعْرُوفَةُ ، فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ لِبَحِيرَةِ قَارُونَ ، فِي الْغَرْبِ مِنْ وَادِي النَّيْلِ .

الشهادات ، فقد كان البرّ منهم مختلطاً بالفاجر ، والطيب ملتبساً بالخبيث ، والحكام مسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة فإن غالبهم مختلطون بالأمرء ، معلمون للقرآن ، وأئمة في الصلوات ، يلبسون عليهم بالعدالة ، فيظنون بهم الخير ويقسمون الحظ من الجاه في تركيتهم عند القضاء ، والتوسّل لهم ، فأعضل داؤهم ، وفشت المفاصد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلّم النيكال وتأدى لعلمي الجرح في طائفة منهم ، فمنعتهم من تحمّل الشهادة ، وكان منهم كتاب الدواوين للقضاة والتوقيع في مجالسهم ، وتدرّبوا على إملاء الدعاوي وتسجيل الحكومات^(١) ، واستخدموا للأمرء فيما يعرض لهم من العقود بإحكام كتابتها ، وتوثيق شروطها ، فصار لهم بذلك شفوف^(٢) على أهل طبقتهم ، وتمويه على القضاة بجاههم يدرعون^(٣) به مما يتوقعونه من مغبتهم ، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم ، وقد يسلط بعض قلمه ، على العقود المحكّمة فيوجد السبيل إلى حلّها بوجه فقهيّ أو كتابي ، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه أو منحة ، وخصوصاً في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر لكثرة عوالمه ، فأصبحت خافية الشهرة مجهولة الأعيان ، عرضة للبطلان ، باختلاف المذاهب المنصوبة للأحكام بالبلد ، فن اختار فيها بيعاً أو تملكاً ، شارطوه وأجابوه مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا فيه سدّ الحظر والمنع حماية عن التلاعب ، وفشا من ذلك الضرر في الأوقاف ، وطرق الغرر^(٤) في العقود والأملاك .

فعاملت الله في حسم ذلك بما آسفهم عليّ وأحقدهم ، ثم التفت إلى أهل الفتيا بالمذهب ، وكان الحكام منهم على جانب الحيرة لكثرة معارضتهم ، وتلقينهم الخصوم وفتياهم بعد نفوذ الحكم ، وإذا فيهم أصاغر ، فبينما هم يتشبهون بأذيال الطلب والعدالة ، ولا يكادون إذا بهم ظهوروا إلى مراتب الفتيا والتدريس ، فاعتدوها وتناولوها بالجزاف ، وأجازوها من غير مرتّب^(٥) ولا مستند للأهلية ، ولا مرشح ، إذ

(١) أي الأحكام .

(٢) الشفوف : الفضل .

(٣) أي يحتمون به .

(٤) هنا بمعنى الخداع .

(٥) وفي نسخة ثانية : فأحتازوها من غير مرتّب . والمثرب : اللاثم .

الكثرة فيهم بالغة ، ومن كثرة الساكن مشتقة ، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق ،
وعنانها مُرْسَلٌ ، يتجاذب كل الخصوم منها رَسَنًا ، ويتناول من حافته شِقًّا ، يروم به
الفتح (١) على خصمه ، ويستظهر به لإرغامه ، فيعطيه المُفتي من ذلك ملءَ رضاه ،
وكفاء أمنيته متبعا إياه في شغب الخلاف ، فتعارض الفتاوى وتتناقض ، وَيَعْظُمُ
الشغبُ إن وقعت بعد نفوذ الحكم ، والخلاف في المذاهب كثير ، والإنصاف متعذر
وأهلية المفتي وشهرة الإفتاء عندنا (٢) ، فلا يكاد هذا المدى ينحسم (٣) ولا
الشغب ينقطع .

فصدعت في ذلك بالحق وكبحت أعنة أهل الهوى والجهل ، ورددتهم على
أعقابهم . وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوذون بمفترق من اصطلاحات
العلوم هنا وهناك ، ولا ينتمون إلى شيخ معروف مشهود ، ولا يعرف لهم كتاب في فنّ
اتخذوا الناس هُزُواً وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض ومثابة (٤) للحرم ، فأرغمهم
ذلك مني وملاهم حسداً ، وحقدوا عليّ ، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا
المتحلين للعبادة ، ليشتروا بها الجاه ، ويجترؤا به على الله ، وربّما اضطرّ أهل الحقوق
إلى تحكيمهم ، فيحكمون بما يُلقي الشيطان على ألسنتهم ، يترخصون به الإصلاح ، لا
يزعّمهم الدين عن التعرّض لأحكام الله بالجهل ، فقطعت الحبل في أيديهم ،
وأمضيت حكم الله فيمن أجازوه ، فلم يغنوا عن الله شيئاً وأصبحت زواياهم
مهجورة ، وبثرهم التي يمتاحون منها معطلة ، وانطلقوا يواطون السفهاء من النيل في
عرضي ، وسوء الاحدوثة عني بمخترق الافك وقول الزور ، ويبثونه في الناس
ويدسّون إلى السلطان التظلم مني ، فلا يصغي إليهم ، وأنا في ذلك مُحْتَسِبٌ على
الله ، ما منيت به في هذا الأمر ، ومُعْرِضٌ فيه عن الجاهلين ، وماضٍ على سبيل
سويٍّ من الصرامة وقوة الشكيمة ، وتحريّ العدالة ، وخلص الحقوق ، والتنكب عن
خطة الباطل متى دُعيت إليها ، وصلابة العود عن الجاه والإعراض متى غمزني
لامسها ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة فنكروه مني ودعوني إلى متابعتهم فيما

(١) وفي نسخة ثانية : الفلج ومعناه الظفر والفوز .

(٢) بياض بالأصل وفي طبعة بولاق : وشهرة الفتيا ليس تمييزها للعامي .

(٣) وفي نسخة ثانية : فلا يكاد هذا المدد ينحسر .

(٤) وفي نسخة ثانية : مأبنة : وهو مكان الاتهام بالشر .

يصطلحون عليه من مرضاة الأكاير ومراعاة الأعيان ، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة ، أو دفع الخصوم إذا تعذرت ، بناءً على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره ، وهم يعلمون أن قد تماثوا عليه .

وليت شعري ما عذرهم في الصور الظاهرة إذا علموا خلافها ، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : « من قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنها أقضي له من النار » .

فأبيت من ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها ، والوفاء لها ، ولمن قلدنيها ، فأصبح الجميع عليّ البا^(١) ولمن ينادي بالتأفف مني عوناً ، وفي النكير عليّ أمة ، وأسمعوا الشهود الممنوعين أن قد قضيت فيهم بغير وجه الحق ، لاعتماد عليّ علمي في الجرح ، وهي قضية إجماع . وانطلقت الألسن ، وارتفع الصخب وأرادني بعض على الحكم بغرضهم ، فتوقفت وأغرأوا بي الخصوم ، فتنادوا بالتظلم عند السلطان ، فجمع القضاة وأهل الفتيا في مجلس جعل للنظر في ذلك ، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز ، وتبين أمرهم للسلطان ، وأمضيت فيها حكم الله تعالى إرغاماً لهم ، فغدوا على حرد قادرين ، ودسوا الأولياء السلطان وعظاء الدولة ، يقبحون لهم إهمال جاههم وردّ شفاعاتهم ، موهين بأن الحامل عليّ ذلك جهل المصطلح ، وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبونها إليّ ، تبعث الحليم وتغري الرشيد ، يستثيرون حفائظهم عليّ ويشربونهم البغضاء إليّ ، والله يجازيهم وسائلهم .

فكثرت الشغب عليّ من كل جانب ، وأظلم الجويني وبين أهل الدولة ، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفين فأصابها قاصف من الريح ففرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب ، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته خشية من نكير السلطان وسخطه ، فتوقفت بين الورد والصدور على صراط الرجاء واليأس ، وعن قريب تداركني اللطف الرباني وشملتني نعمة السلطان أيده الله في النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ، ولا عرفت كما زعموا مصطلحها ، فردّها إلى صاحبها الأول ، وأنشطني من عقابها ، فانطلقت حميد

(١) اي يجيكون المكائد له دون علمه .

الأثر مشيئاً من الكافة بالأسد والدعاء ، وحميد الثناء ، تلحظني العيون بالرحمة وتتاجى الآمال في العودة ، ورتعتُ فيما كنت راتعاً فيه قبل من مراعي نعمته وظلّ رضاه وعنايته بالعافية التي سأها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه ، عاكفاً على تدريس علم أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف ، مؤملاً من الله قطع صباة العمر^(١) في العبادة ، ومحو عائق السعادة ، بفضل الله ونعمته .

* (السفر لقضاء الحج) *

ثم مكثت بعد العزل ثلاث سنين ، واعتزمت على قضاء الفريضة ، فودّعت السلطان والأمراء وزودوا وأعانوا فوق الكفاية ، وخرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة إلى مرسى الطور^(٢) بالجانب الغربي من بحر السويس ، وركبت البحر من هنالك عاشر الفطر ، ووصلنا إلى الينبع^(٣) لشهر فوافينا المحمل ، ورافقتهم من هنالك إلى مكة ، ودخلتها ثاني ذي الحجّة ، فقضيت الفريضة في هذه السنة . ثم عدت إلى الينبع فأقمت بها خمسين ليلة حتى تهيأ لنا ركوب البحر ، ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور . فاعترضتنا الرياح فما وسعنا إلا قطع البحر إلى جانبه الشرقي ، ونزلنا بساحل القصير^(٤) ثم بذرقنا ، ثم سرنا مع أعراب تلك الناحية إلى مدينة قوص^(٥) قاعدة الصعيد . فأرحنا بها أياماً . ثم ركبنا في بحر النيل إلى مصر ، فوصلنا إليها لشهر من سفرنا . ودخلتها في جمادي سنة تسعين وسبعمائة وقضيت حقّ السلطان في لقائه . وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدعاء له ، فتقبّل ذلك بقبول حسن ، وأقمت فيما عهدت من رعايته وظلّ إحسانه .

(١) أي بغية العمر .

(٢) الطور : مدينة على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء (معجم البلدان) .

(٣) الينبع : من مدن الجزيرة العربية . تقع على الساحل الشرقي من البحر الأحمر (وما تزال تحتفظ باسمها إلى هذا اليوم) (معجم البلدان) .

(٤) القصير : تصغير قصر . وهو مرفأ على الساحل الغربي للبحر الأحمر . تؤمه السفن التجارية من الجزيرة العربية واليمن بينه وبين قسبة الصعيد خمسة أيام (معجم البلدان) .

(٥) قوص : مدينة واسعة : كانت قسبة الصعيد مصر . وكان أهلها أرباب غنى وثروة واسعة لأنها كانت محط التجار القادمين من عدن . وأكثر تجار عدن من مدينة قوص (معجم البلدان) .

وكنت لما نزلت بالينبع لقيت بها الفقيه الأديب المتفنن أبا القاسم بن محمد بن شيخ الجماعة ، وفارس الأدباء ، ومنفق سوق البلاغة ، أبي اسحق ابراهيم الساحلي المعروف جدّه بالطونجن وقد قدم حاجاً وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم كاتب سرّ السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة ، الحظيّ لديه أبي عبدالله بن زمرك ، خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوّف ويذكر بعهود الصحبة نصّه :

تَبَسَّم فاستبكي جفوني من الوجد
وسحّ به صوب الغائم من بعدي
دعوها تردّ هيماً عطاشاً على نجد
فإنّ زفير الشوق من مثلها يُعدي
حزون^(٣) على صفح من القفر ممتدّ
وما شوقها شوقي ولا وجدها وجددي
مياه بنيء الظلّ للبان والرند^(٤)
وقد لحن يوم النفر في قُضْبِ ملد^(٥)
وفي فلك الأزرار من قمر سغد
وكم ذابل قد هزّ من ناعم القد
ضعيفات كَرّ اللحظ تفتك بالأسد
يصابُ بها قلبُ البريِّ على عمد
وما ضاع غيرُ الوردِ في صفحة الخد
فرشّ بماء الوردِ روضاً من الورد
وكلُّ على كلِّ من الشوق يستعدي
محاسن من روض الجمال بلا عمد

سلوا البارق النجديّ على عمل نجدي
أجاد ربوعي باللوى ، درك^(٢) اللوى
ويا زاجر الأظعان وهي ضوامر
ولا تنشقوا الأنفاس منها مع الصبا
براهما الهوى بريّ القداح وخطها
عجبت لها أني تجاذبني الهوى
لئن شاقها بين العذيب وبارق
فما شاقني إلا بُدورُ خدورها
فكم في قباب الحيّ من شمس كلة
وكم صارم قد سلّ من لحظ أحور
خذوا الحذر من سگان رامة إنهما
سهام جفون من قسيّ حواجب
وروض جمال ضاع عرف نسيمه
ونرجس لحظ أرسل الدمع لؤلؤاً
وكم غصن قد عانت الغصن مثله
قبيح وداع قد جلا لعيوننا

(١) وفي نسخة ثانية : سلوا البارق النجديّ من علمي نجد .

(٢) وفي نسخة ثانية : بورك .

(٣) وفي نسخة ثانية : حروفا .

(٤) وفي نسخة ثانية : العذيب : ماء لبني تميم . وكذلك بارق . والبان : شجر يسمو ويطول باستقام ، ومنه

يستخرج دهن البان . والرند : شجر الغار له رائحة طيبة ويستخرج منه الدهن ايضاً .

(٥) الملد : اللين .

رعى الله ليلي لو علمتُ طريقَهَا
وما شاقني والطيفُ يرهَبُ أذمعي
وقد سُلَّ خفاقُ الذوائبِ بارقُ
وهزَّتْ مُحَلَاةٌ يَدَ الشَّوقِ في الدُّجَى
وأقلقُ خفاقُ الجوانحِ نَسْمَةَ
وهبَّ عَلَيَّ لِفَ طَيِّ بُرُودِهِ
سوى صادقٍ في الأيِّكِ لم يدر ما الهوى
فهلْ عِنْدَ لَيْلِي نَعَمَ اللهُ لَيْلَهَا
وليلةٌ إذ وافى الحجيجُ إلى مِني^(٢)
فقضيتُ منها فوق ما أحسبُ المُنَى
وليس سوى لحظٍ خفيٍّ نُجِيلُهُ
غفرتُ لِدَهْرِي بعدها كُلَّ ما جَنَى
عرَفْتُ بهذا الشيبِ فضلَ شيبتي
ومن نام في ليلِ الشبابِ ضلالةً
أما والهوى ما حُدَّتْ عن سُنَنِ الهُدَى^(٤)
تجاوزتُ حدَّ العاشقينِ الأولى مضوا^(٥)
نسيتُ وما أنسى وفائي لخلتي
إليكُ أبا زَيْدٍ شكاةً رفعتها
بعيشك خبّرني وما زلتُ مُفضِلاً
فكم ثارَ بي شوقٌ إليك مبرحُ
وصفقُ حتى الريحُ في لَمَمِ الرُّبَى
يقابلني منك الصِّباحُ بوجنةٍ

فرشتُ لأخفافِ المطيِّ بها خَدَي
وسَبَّحُ في بحرٍ من الليلِ مُزْبَدِ
كما سُلَّ لَمَاعُ الصِّقالِ من الغمَدِ
فحلَّ الذي أبرمتُ للصبرِ من عقدي
تمُّ مع الأصباحِ خافقةُ البردِ
أحاديثُ أهداها إلى الغورِ من نجد^(١)
ولكن دعا مِنِّي الشُّجونَ على وَعْدِ
بأنَّ جُفُونِي ما تَمَلُّ من السُّهْدِ
وَفَتَّ لي المُنَى منها بما شئتُ من قَصْدِ
وبردُ عفافِ صانِه الله من بُردِ
وشكوى كما أرفضُ الجبانُ من العقدِ
سوى ما جشى^(٣) وفدُ المشيبِ على فَوْدِي
وما زالَ فضلُ الضدِّ يُعرَفُ بالضدِّ
سيوقظُهُ صُبْحُ المشيبِ إلى الرُّشدِ
ولا جرَّتْ في طُرُقِ الصِّبابةِ عن قَصْدِ
وأصبحتُ في مدينِ الهوى أمةً وَحْدِي
وأقفرَ رُبْعَ القلبِ إلا من الوجدِ
وما أنتَ من عمرٍ ولديٍّ ولا زَيْدِ
أعندَكَ من شوقٍ كمثلِ الذي عِنْدِي
فظلتُ يدُ الأشواقِ تَقْدَحُ من زندي
وأشفقُ حتى الطِّفلُ في كبدِ المَهْدِ
حكى شفقاً فيه الحياءُ الذي تُبْدِي

(١) هو غور تهامة ما بين ذات عرق في البحر ، وكل ما انحدر سبه مغرباً عن تهامة فهو غور (معجم البلدان) .

(٢) الحجيج : قاصدين بيت الله للحج ، وهنى : موضع في جبل عرفة بجانب مكة .

(٣) وفي نسخة ثانية : ما حنى .

(٤) وفي نسخة ثانية : أما والهوى ما حلت عن سنن الهوى .

(٥) وفي نسخة ثانية :

تجاوزت حدَّ العاشقينِ الأولى قضا والعممة في البصرة كالعمى في البصر

وتوهمني الشمس المنيرة غرة
 محياك أجلي في العيون من الضحى
 وما أنت إلا الشمس في علو أفقها
 وفي غمة^(١) من لا ترى الشمس عينه
 من القوم صانوا المجد صون عيونهم
 إذا ازدحموا يوماً على الماء أسرة
 ومها أغاروا منجدين صريخهم
 ولم يقتنوا بعد الثناء^(٢) ذخيرة
 وما اقتسم الأنفال إلا ممدح
 أتسى ولا تنسى ليالينا التي
 ركبنا إلى اللذات في طلق الصبا
 فإن لم ندر فيها الكؤوس فإننا
 لقيتك^(٥) في غرب وأنت رئيسه
 فأنست حتى ما شكوت بغربة
 وعدت لقطري شاكرًا ما بلوته
 إلى أن أجزت البحر يا بحر نحونا
 ألد من النعمى على حال فاقه
 ولو ساء أن قوضت رحلك بالنوى
 لقد سرني أن لحت في أفق العلا
 طلعت بأفق الشرق نجم هداية

بوجهك صان الله وجهك عن رد
 وذكرك أحلى في الشفاء من الشهد
 نفذك من قرب وتلحظ من بعد
 وما نفع نور الشمس في الأعين الرمد
 كما قد أباحوا المال ينهب للرفد
 فما ازدحموا إلا على مورد المجد
 يشبون نار الحرب في الغور والنجد
 سوى الصارم المصقول والصابغ النهدي
 بلاها بأعراف المطهمة الجرد^(٣)
 خلستنا بها العينين من جنة الخلد^(٤)
 مطايا الليالي وادعين إلى حد
 وردنا بها للأنس مستغذب الورد
 وبابك للأعلام مجتمع الوفد
 وواليت حتى لم أجد مفضل الفقد
 من الخلق المحمود والحسب العدي^(٦)
 وزرت مزار الغيث في عقب الجهد
 وأشهى من الوصل الهني على صد
 وعوضت منها بالزميل وبالوخذ^(٧)
 على الطائر الميمون والطاقع السعد
 فجت مع الأنوار فيه على وعد

(١) وفي نسخة ثانية : وفي عمه .

(٢) وفي نسخة ثانية : بعد البناء .

(٣) المطهمة : البارعة الجمال والجرد : القصيرة الشعر .

(٤) وفي نسخة ثانية : خلستن بهن العيش في جنة الخلد .

(٥) آيتك .

(٦) الحسب العدي : القديم .

(٧) وإن ساءني ان قوضت رجلك النوى وعوضت

عنا بالذميل وبالوخذ

والذميل : السير اللين ، والوخذ الإسراع في المشي أوسع الخطو .

يَمِيناً بِن تَسْرِي المَطِي سِرَاهُم^(١)
إلى بيتيه كما تزور معاهداً
لأنت لنا مها دجاليل مُشْكِلِ
وحيث استقلت في ركاب لطيبة
وإني بباب الملك حيث عهدتني
أجهز بالإنشاء كل كتيبة
نلود من المولى الإمام محمد
إذا فاض من يميناه بحر سباحة
ركبنا إلى الإحسان في سفن الرجا
فمن مبلغ الأنصار عني ألوكة
بآية ما أعطى الخليفة ربه
ودونك من روض المحامد نفحة
ثناء يقول المسك إن ذاع عرفه
وما الماء في جو السحاب مروقاً
فكيف وقد حلتك أسرابها الجلا^(٥)
وما الطل^(٦) في ثغر من الزهر باسم
ولا البدر معصوماً بتاج تمامه
بقيت ابن خلدون إمام هداية

عليها سهام قد رمت هدف القصد
بأن بها جبريل عن كرم العهد
قدحت به للنور وارية الزند
فانت تحيي النفس في القرب والبعد
مذيل^(٢) ظلال الجاه مستخصف العقد
من الكتب والكتاب في عرضها جندي
بظلم على نهر الميرة ممتد
وعم به الطوفان في النجد والوهد
بحور عطاء ليس ترجر عن صد^(٣)
مغلغلة في الصدق منجزة الوعد
مفاتيح فتح ساقها سائق السعد
تفوق إذا اصطف الندي من الند
أيالك من ندي أيالك من ندي^(٤)
بأظهر ذات منك في كنف المهدي
وباهت بك الأعلام بالعلم الفرد
بأصفي وأذكي من ثنائي ومن ودي
بأنهر من ودي وأسير من حمدي
ولا زلت من دنياك في جنه الخلد

ووصلها بقوله : سيدي شيخ الأعلام ، كثر رؤساء الإسلام ، مشرف حملة السيوف
والأقلام ، جمال الخواص والظهراء ، أثير الدول ، خالصة الملوك ، مجتبي
الخلفاء ، سر العلاء^(٧) أوحد الفضلاء ، قدوة العلماء ، حجة البلغاء ، أبقاكم الله

(١) وفي نسخة ثانية : سواهما : وهي ج ساهمة وهي الناقة الضامرة .

(٢) وفي نسخة ثانية : مديد ، والمستصحف : المستحكم .

(٣) وفي نسخة ثانية : تجزر عن قد .

(٤) الند الأولى : الطيب والند الثانية : القرين ، المثل .

(٥) وفي نسخة ثانية : الحل .

(٦) الطل : الندي .

(٧) وفي نسخة ثانية : نير أفق العلاء .

بقاءً جميلاً ، يعقدُ لواءَ الفخر ، ويعلى منار الفضل ، ويرفع عماد المجد ، ويوضح معالم السيادة^(١) ، ويرسل أشعة السعادة ، ويفيض أنوار الهداية ، ويطلق السنة المحامد ، وينير^(٢) أفق المعارف ، ويُعذِبُ موردَ العناية ، ويُمتِعُ بعمر النهاية ولا نهاية .

بآي التحيات أفتحك وقدرك أعلى ، ومطلع فضلك أوضح وأجلى ، إن قلت تحية كسرى في الثناء وتبع ، فأترك لا يقتفى ولا يتبع ، تلك تحية عجماء لا تبين ولا تبين ، وزمزمة نافرهما اللسان العربي المبين ، وهذه جهالة جهلاء ، لا ينطبق على حروفها الاستعلاء ، قد محا رسومها الخفاء ، وعلى آثار دمنتها العفاء ، وإن كانت التحيتان طالما أوجف بهما الركاب وقعقع البريد ، ولكن أين يقعان مما أريد .

تحية الإسلام أصلٌ في الفخر نسباً . وأوصلُ بالشرع سبباً ، فالأولى أن نحبيك بها حياً الله في كتابه رسله وأنبياءه ، وحييت به ملائكته في جواره أوليائه ، فأقول :

السلام عليكم يُرسلُ من رحمة الله غماماً ويفتق من الطُّروس عن أزهار المحامد كماماً ، ويستصحب من البركات ما يكون على التي هي أحسن من ذلك مقاماً ، وأجدد السؤال عن الحال الحالية بالعلم والدين المستمدة من أنوارها سرج المهتدين . زاداها الله صلاحاً وعرفها نجاحاً يتبع فلاحاً ، وأقرر ما عندي من تعظيم ارتقي كل آونة شرفه ، واعتقادٍ جميلٍ يرفع عن وجه البدر كلفه ، وثناء ، أنشر بيدك البيضاء صُحفه ، وعلى ذلك أيها السيد المالك ، فقد تشعبت عليّ في مخاطبتك المسالك ، إن أخذت في تقرير فضلك العميم ، ونسبك الصميم ، فوالله ما أدري بأيّ بيعة لفخرك تدفع الظلم ، وفي أيّ بحر من ثنائك يسبح القلم ، الأمر جَلَل ، والشَّمْسُ تكبرُ على حلّي وحلّل ، وإن أخذت في شكاة الفراق ، والاستعداد على الأشواق اتسع المجال ، وحصرت الروية والارتجال ، فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها رياحُ الأشواق وأسلة البراع ، تخضبُ مفارق الطُّروس بصبيغ الحبر المراق ، وغيرك من تركض في مخاطبته جياذ البراع ، في مجال الرقاع ، مستولية على أمد الإبداع والاختراع ، فإنما هوبثُ يُبكي ، وفراقُ يُشكي ، فيعلم الله مرضي^(٣) عن أن أشافه

(١) وفي نسخة ثانية : السؤدد .

(٢) وفي نسخة ثانية : وينشر أفق المعارف .

(٣) وفي نسخة ثانية : جرحي .

من أنباتك ثغور البروق البواسم ، وأن أحملك الرسائل حتى مع سفراء النواسم ، وأن
أجتلي غرر ذلك الجبين في مُحيا الشارق^(١) ، ولح البارق .

ولقد وجهت إليك جملةً من الكتب والقصائد ، ولا كالقصيدة الفريدة في تأبين
الجواهر اللائي استأثر بهن البحر ، قدس الله أرواحهم ، وأعظم الله أجرك فيهم ،
فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتاً ، ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع ،
وغدر وصوله بُعد المسافة ، والذي يطرق في سوء الظنّ بذلك ما صدر في مقابلته
منكم . فإني على علم من كرم قصدكم ، ومن حين استغربناكم بذلك الأفق
الشرقي^(٢) لم يصلني منكم كتاب ، مع علمي بضياع إثنين منها بهذا الأفق الغربي
(اهـ) .

وفي الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر ،
ويطلب مني رفعها إلى السلطان ، وعرضها عليه بحسب الإمكان ، وهي على روي
الهمزة ومطلعها :

أَمَدَامِيعٌ مُنْهَلَةٌ أَمْ لَوْلُوْهُ لَمَّا اسْتَهَلَّ الْعَارِضُ الْمُتَلَالِيَّ
وبعث في طي الكتاب ، واعتذر بأنه استتاب في نسخها ، فكتبت همزة رويها ألفاً ،
قال وحقها أن تكتب بالواو لأنها تبدل بالواو وتسهل بين الهمزة والواو ، وحرب
الإطلاق أيضاً يسوقها ، واواً ، هذا مقتضى الصناعة ، وإن قال بعض الشيوخ
تكتب ألفاً على كل حال على لغة من لا يسهل لكنه ليس بشيء .

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط المشرقي لتسهيل قراءتها عليهم ففعلت
ذلك ، ورفعت النسخة والأصل للسلطان ، وقرأها كاتب سرّه ولم يرجع إليّ منها
شيء ، ولم أستجز أن أنسخها قبل رفعها إلى السلطان ، فصاعت من يدي .

وكان في الكتاب فصل عرفني فيه بشأن الوزير مسعود بن رحو المستبدّ بأمر المغرب
لذلك العهد ، وما جاء به من الانتقاض عليهم ، والكفران لصنيعهم ، يقول فيه :
كان مسعود بن رحو الذي أقام بالأندلس عشرين عاماً يَتَبَشَّكُ النِّعِمَ^(٣) ويقود الدنيا
ويتحيز العيش والجاه ، قد أجزى صحبة ولد عثمان كما تعرفتم من نسخة كتب انشائه

(١) الشارق : الشمس .

(٢) وفي نسخة ثانية : من كرم قصدكم وحسن عهدكم ، ومن حين استقل نيركم بذلك الأفق الشرقي .

(٣) تبشك بالنعيم : أقام به .

بجبل الفتح لأهل الحضرة ، فاستولى على المملكة ، وحصل على الدنيا ، وانفرد
برياسة دار المغرب لضعف السلطان رحمه الله . ولم يكن إلا أن كُفِرَت الحقوق ،
وحُنِظَت نخلته السحوق ، وشف على سواد جلده سواد العقوق ، وداخل من
سبته ، فانتقضت طاعة أهلها ، وظنوا أن القصبه لا تثبت لهم ، وكان قائدها الشيخ
الأبیه^(١) فلّ الحصار وجلى القتال ، ومحشّ الحرب أبو زكريا بن شعيب ، فثبت
للصدمة ونور للأندلس ، فبادره المدد من الجبل ومن مالقة ، وتوالت الأمداد وخاف
أهل البلد ، ورجع شرفاؤه ودخلوا القصبه . واستغاث أهل البلد بمن جاورهم ،
وجاءهم المدد أيضاً ، ثم دخل الصالحون في رغبة هذا المقام ، ورفّع القتال ، وفي
أثناء ذلك غدروا ثانية ، فاستدعى الحال إجازة السلطان المخلوع أبي العباس لتبادر
القصبه به ويتوجه منها إلى المغرب لرغبة بني مرين وغيرهم فيه ، وهو ولد السلطان
المرحوم أبي سالم الذي قلّدهم رياسة داره ، وأوجب لكم المزية على أوليائه
وأنصاره .

وبعده فصل آخر يطلب فيه كتباً من مصر يقول فيه :

والمرغوب من سيدي أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشياخهم على
الفاتحة ، إذ لا يمكن بعث تفسير كامل لأنني أثبت في تفسيرها ما أرجوه النفع عند
الله ، وقد علمتم أن عندي التفسير الذي أوصله عثمان النجاني من تأليف الطيبي^(٢)
والسفر الأول من تفسير أبي حيّان ، وملخص إعرابه وكتاب المغني لابن هشام ،
وسمعت عن براءة تفسير للإمام بهاء الدين ابن عقيل ووصلت إليّ براءة من كلام
أكمل الدين الأشيري رضي الله عن جميعهم ، ولكنني لم أصل إلا للبسملة ، وذكر
أبو حيّان في صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب أو أبا سليمان لا أدري الآن صنّف
كتاباً في البيان في سفرين جعله مقدّمة لكتاب تفسيره الكبير . فإن أمكن سيدي
توجيهه لا بأس انتهى .

وفي الكتاب فصول أخرى في أغراض متعدّدة لا حاجة إلى ذكرها ههنا . ثم ختم
الكتاب بالسلام ، وكتب اسمه محمد بن يوسف بن زمرك الصّريحي ، وتاريخه

(١) وفي نسخة ثانية : الشيخ البهمة .

(٢) هو الحسين بن محمد بن عبدالله شرف الدين الطيبي (توفي ٧٤٣) له حاشية قيمة على «الكشاف» في
أربع مجلدات ضخمة . وشرع بعدها في جمع كتاب في التفسير .

العشرون من محرّم سنة تسع وثمانين وسبعائة (وكتب إليّ) قاضي الجماعة بقرناطة أبو الحسن علي بن الحسن البني^(١) :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسول الله يا سيّدي وواحدي ووداً
وحباً ، ونجّي الروح بعداً وقرباً أبقاكم الله وثوب سيادتكم سابغ ، وقرّ سعادتكم كلما
أفلت الأتقار بازغ ، أسلمم بأثم عليكم ، وأقرّر بعض ما لديّ من الأشواق إليكم ،
من حضرة قرناطة مهّدها الله عن ذلك لكم يتضوّع طيبه وشكر لا يدوي وإن طال
الزمان طيبه قد كان بلغ ما جرى من تأخيركم عن الولاية التي تقلّدم أمرها ، وتحملتّم
مرّها ، فتمثّلت بما قاله شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب^(٢) عند انفصال صاحبه
الشريف أبي القاسم^(٣) عن خطّة القضاء .

لا مرحباً بالناس أنفارك^(٤) إذ جهلت رفعة مقـدارك
لو أنها قد أوتيت رشدها ما برحت تعشوا إلى نـارك

ثم تعرّفت كيفيّة انفصالكم وأنه كان عن رغبة من السلطان المؤيّد هنا لكم فرددت
وقد توهمت مشاهدتكم هذه الأبيات .

لك الله يا بدر الساحة والبشر
ولكنك استعفيت عنها تورّعاً
جريت على نهج السلامة في الذي
وحق بأن العلم ولأك خطّة
تزيد على مرّ الحديدين جدّة
ومن لاحظ الأحوال وازن بينها
لقد حزت في الاحكام منزلة الفخر
وتلك سبيل الصالحين كما تدري
تخيّرته للنشر منك وللحشر^(٥)
من العز لا تنفك عنها مدى العمر
وتسري النجوم الزاهرات ولا تسري
وكم لذوي الدنيا الدنيّة من خطر^(٦)

(١) نسبة إلى بنة (معجم البلدان) وقد ضبطها ابن خلدون بضم الباء وبكسرها .

(٢) الجيّاب : هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان القرناطي الشهير بابن الجيّاب (٦٧٣ — ٧٤٩) .

(٣) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله الحسيني السبتي المعروف بالشريف القرناطي
(٦٩٨ — ٧٦٠) .

(٤) وفي نسخة ثانية : لا مرحباً بالناشر الفارك .

(٥) وفي نسخة ثانية : تخيّرته أبشر بأمنك في الحشر .

(٦) وفي نسخة ثانية : ولم يرّ للدنيا الدنيّة من خطر .

وأسمى لأنواع الولايات نابذاً
فهنيئك يهنيك الذي أنت أهله
ولا تكثر من حاسديك فإنهم
ومن عامل الأقوام بالله مخلصاً
بقيت لرفع المجد تحمي ذمارة
فغير نكير أن يواجهه بالنكر
من الزهد فيها والتوقي من الوزر
حصي والحصي لا يرتقي مرتقى الدر^(١)
له فيهم نال الجزيل من الأجر
وخارك الرحمن في كل ما يجري^(٢)

إيه سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم ، أظنتم في كتابكم في الثناء على السلطان
الذي أنعم بالاعفاء ، والمساعدة على الانفصال عن خطة القضاء ، واستوهبتم الدعاء
له من الأولياء ولله دركم في التنبيه على الإرشاد إلى ذلكم ، فالدعاء له من الواجب
فيه استقامة الأمور وصلاح الخاصة والجمهور ، وعند ذلك ارتفعت أصوات العلماء
والصلحاء بهذا القطر له ولكم بجميل الدعاء . أجاب الله فيكم أحسنه وأجمله ،
وبلغ كل واحد منكم ما قصده وأمله . وأنتم أيضاً من أهل العلم والجلالة ، والفضل
والأصالة ، وقد بلغت هذه البلاد الغاية من التنويه ، والحظ الشريف النبيه ، لكن
أراد الله سبحانه أن يكون لمحاسنكم في تلك البلاد العظيمة ظهور ، وتحدث بعد
الأمور أمور ، وبكل اعتبار ، فالزمان بكم حيث كنتم مباح ، والمحامد مجموعة لكم
جمع ثناه . ولما وقف على مكتوبكم إليّ مولانا السلطان أبو عبدالله ، أطال الله الثناء
على مقاصدكم ، وتحقق جميل^(٣) وداذك ، وصحيح اعتقادكم ، وعمر مجلسه
يومئذ بالثناء عليكم ، والشكر لما لديكم .

ثم ختم الكتاب بالسلام من كاتبه عليّ بن عبدالله بن الحسن مؤرخاً بصفرة سنة تسعين
وسبعمائة وفي طيه مدرجة بخطه وقد قصر فيها عن الإجابة نصّها :

سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم ، وأظفركم يُمنّاكم بذوائب مناكم أعتذر لكم
عن الكتاب المدرج به هذا غير خطي فإني في ذلك الوقت بحال مرض في عيني ،
ولكم العافية الوافية ، فيسعي سَمْحُكُمْ وربّما كان لديكم تشوّف بما نزل في هذه
المدّة بالمغرب من الهرج أماطه الله ، وأمن بلاد المسلمين .

والموجب أن الحصّة الموجهة في خدمة أميرهم الواثق ظهر له ولوزيريه ومن ساعده على

(١) وفي نسخة ثانية : البدر .

(٢) وفي نسخة ثانية : ما تجزي .

(٣) وفي نسخة ثانية : صحيح وداذك وجميل اعتقادكم .

رأيه إمساكها رهينة ، وجعله في القيود إلى أن يقع الخروج لهم على مدينة سبته ، وكان القائد على هذه الحصّة العليج المدعو المهنّد ، وصاحبه الفتى المدعو نصرالله . وكثر التردّد في القضية إلى أن أبرز القدر توجيه السلطان أبي العباس تولاه الله ، صحبة فرج بن رضوان بحصّة ثانية ، وكان ما كان حسبما تلقيتم من الركبان ، هذا ما وسع الوقت من الكلام ثم دعًا وختم الكتاب .

وإنما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا الكتاب المؤلف لأنّ فيها تحقيقاً لهذه الواقعات ، وهي مذكورة في أماكنها ، فربّما يحتاج الناظر إلى تحقيقها من هذا الموضع .

وبعد قضاء الفريضة رجعت إلى القاهرة محفوفاً بستر الله ولطفه ، ولقيت السلطان ، فتلقاني أيده الله بمعهود مبرّته وعنايته وكانت فتنة الناصريّ بعدها سنة إحدى وتسعين وسبعائة . والله يعرفنا عوارف لطفه ، ويمدّ علينا ظلّ ستره ، ويختم لنا بصالح الأعمال ، وهذا آخر ما انتهيت إليه ، وقد نجز الغرض مما أردت إيرادها في هذا الكتاب ، والله الموفق برحمته للصواب ، والهادي إلى حسن المآرب ، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله والأصحاب والحمد لله رب العالمين .

* (ولاية الدروس والخوانق (١))

أهل هذه الدّولة التركيّة بمصر والشام معنيّون — على القِدَم منذ عهد مواليم ملوك بني أيّوب — بإنشاء المدارس لتدريس العلم ، والخوانق لإقامة رؤوم الفقراء في التخلّق بآداب الصّوفيّة السّنية في مطارحة الأذكار ، ونوافل الصّلوات . أخذوا ذلك عمّن قبلهم من الدّول الخِلافية ؛ فيختطّون مبانيها ويقفون الأراضي المغلّة للإنفاق منها على طلبّة العلم ، ومُتدربيّ الفقراء . وإن استفضل الرّيع شيئاً عن ذلك ، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الذّرية الضّعاف من العيلة (٢) . واقتدى بسُتّهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرّياسة والثّروة ، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة

(١) هذا القسم وما يليه. اضفناه إلى طبعتنا هذه من نسخة طبعة بولاق المصرية دار الكتاب اللبناني .
(٢) العيلة (بفتح العين) : الفقر والفاقة .

القاهرة ، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية ، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية ، وآثارها الجميلة الخالدة .

وكنت لأول قُدومي على القاهرة ، وحُصولي في كفالة السلطان ، شغرت مدرسة بمصر من إنشاء صلاح الدين بن أيوب ، وقفها على المالكية يتدارسون بها الفقه ، ووقف عليها أراضي من الفيوم تغل القمح ، فسُميت لذلك القمحية ؛ كما وقف أخرى على الشافعية هنالك ؛ وتوفي مدرّسها حينئذ ، فولاني السلطان تدرّسها ، وأعقبه بولاية قضاء المالكية سنة ست وثمانين وسبعمائة ، كما ذكرت ذلك من قبل ؛ وحضرني يوم جلوسي للتدريس فيها جماعة من أكابر الأمراء تنويهاً بذكرى ، وعناية من السلطان ومنهم بجانب ؛ وخطبت يوم جلوسي في ذلك الحفل بخطبة الممت فيها بذكر القوم بما يناسبهم ، ويوفي حقهم ، ووصفت المقام ، وكان نصّها :

الحمد لله الذي بدأ بالنعمة قبل سُؤالها ، ووفق من هداه للشكر على منالها ، وجعل جزاء المحسنين في محبته ، ففازوا بعظيم نوالها . وعلم الإنسان الأسماء والبيان ، وما لم يعلم من أمثالها ، وميزه بالعقل الذي فضله على أصناف الموجودات وأجياها ، وهداه لقبول أمانة التكليف ، وحمل أثقالها . وخلق الجن والإنس للعبادة ، ففاز منهم بالسعادة من جدّ في أمثالها ، ويسرّ كلاً لما خلق له ^(١) ، من هداية نفسه أو اضلالها ؛ وفرغ ربك من خلقها وخلقها وأرزاقها وآجالها . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد نكته الأكوان وجماها ، والحجة البالغة لله على كمالها ، الذي رقاها في أطوار الاضطفاء ، وآدم بين الطين والماء ؛ فجاء خاتم أنبيائها وأرسلها ^(٢) ؛ ونسخ الملل بشريعته البيضاء فتميز حرامها من حلالها ؛ ورَضِيَ لنا الإسلام ديناً ، فاتم علينا النعمة باكمالها ^(٣) .

والرَضَى عن آله وأصحابه غيوث رحمة المنسجمة وطلالها ^(٤) ، وليوث ملاحمه ^(٥)

(١) يشير الى الحديث : « كل ميسر لما خلق له » ، والذي رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) ورد في كلام كثير من علماء المغرب والأندلس ، جمع رسول على أرسال . ولم يرد في معاجم اللغة هذا الجمع . والأصح أن يقول ورسلا .

(٣) يشير الى الآية ٣ من سورة المائدة : « اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

(٤) الطلال جمع طلل ؛ وهو أخف المطر .

(٥) الملاحم جمع ملحمة ؛ وهي الوقعة العظيمة القتل ، وموضع القتال ، والحرب .

المشتهرة وأبطالها . وخير أمة أخرجت للناس ، في توسطها واعتدالها ، وظهور الهداية والاستقامة في أحوالها ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ صَلَاةً تَتَّصِلُ الْخَيْرَاتُ بِاتِّصَالِهَا ، وتُنَالُ الْبَرَكَاتُ مِنْ خِلَالِهَا .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمَّا أَقْرَهَ هَذِهِ الْمَلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي نِصَابِهَا ، وَشَفَّاهَا مِنْ أَدْوَانِهَا وَأَوْصَابِهَا^(١) ، وَأَوْرَثَ الْأَرْضَ عِبَادَةَ الصَّالِحِينَ مِنْ أَيْدِي غُصَابِهَا ، بَعْدَ أَنْ بَاهَلَتْ فَارِسُ بَتَاجِهَا ، وَعِصَابِهَا^(٢) ، وَخَلَّتِ الرُّومُ إِلَى تَهَائِيلِهَا وَأَنْصَابِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ حَفَظَةً وَقَوَامًا ، وَنُجُومًا يَهْتَدِي بِهَا التَّابِعُ وَأَعْلَامًا ، يَقْرَبُونَهَا لِلدِّرَايَةِ تَبْيَانًا وَإِفْهَامًا ، وَيُوسِعُونَهَا بِالتَّدْوِينِ تَرْتِيبًا وَإِحْكَامًا ، وَتَهْدِيًا لِأَصُولِهَا وَفُرُوعِهَا وَنِظَامًا . ثُمَّ اخْتَارَ لَهَا الْمُلُوكَ يَرْفَعُونَ عِمَدَهَا ، وَيُقِيمُونَ صَعَاهَا^(٣) بِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ وَأَوْدَهَا ، وَيَذْفَعُونَ بَعْزَاتِهِمْ الْمَاضِيَةَ فِي صَدْرٍ مِنْ أَرَادَهَا بِكَيْادٍ أَوْ قَصْدَهَا ؛ فَكَانَ لَهَا بِالْعُلَمَاءِ الظُّهُورُ وَالانْتِشَارُ ، وَالذِّكْرُ السِّيَّارُ ، وَالْبَرَكَاتُ الْمَخْلُودَةُ وَالْآثَارُ ؛ وَلَهَا بِالْمُلُوكِ الْعِزُّ وَالْفَخَارُ ، وَالصَّوْلَةُ الَّتِي يَلِينُ لَهَا الْجَبَّارُ ، وَيَذِلُّ لِعِزَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا الْكُفَّارُ ، وَتُجَلَّلُ وَجْهَ الشُّرْكِ مَعَهَا الصُّغَارُ ؛ وَلَمْ تَزَلْ الْأَجْيَالُ تَتَدَاوَلُ عَلَى ذَلِكَ وَالْأَعْصَارُ ، وَالذُّوْلُ تَحْتَفِلُ وَالْأَمْصَارُ ، وَاللَّيْلُ يَخْتَلِفُ وَالنَّهَارُ ، حَتَّى أَظَلَّتْ الْإِسْلَامَ دَوْلُ هَذِهِ الْعِصَابَةِ الْمَنْصُورَةِ مِنَ التُّرْكِ ، الْمَاحِينَ بِأَنْوَارِ أَسِنَّتِهِمْ ظُلْمَ الضَّلَالَةِ وَالشُّكِّ ، الْقَاطِعِينَ بِنِصَابِهِمُ الْمُرْهَفَةَ عِلَاقِ الْمَيْنِ وَالْإِفْكَ^(٤) ، الْمُصِيبِينَ بِسَهَامِهِمُ النَّافِذَةَ ثَغْرَ الْجَهَالَةِ وَالشُّرْكِ ، الْمُظْهِرِينَ سِرِّ قَوْلِهِ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي »^(٥) فِيمَا يَتَنَاوَلُونَهُ مِنَ الْأَخْذِ وَالتُّرْكِ ؛ فَفَسَحُوا خِطَّةَ الْإِسْلَامِ ، وَقَامُوا بِالدَّعْوَةِ الْخِلَافِيَّةِ أَحْسَنَ الْقِيَامِ ، وَبَثُّهَا فِي أَقْصَى التُّخُومِ مِنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ ، وَاعْتَمَدُوا فِي خِدْمَةِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مَا فَضَّلُوا بِهِ مُلُوكَ الْأَنَامِ . وَاقْتَعَدُوا كُرْسِيَّ مِصْرَ الَّذِي أَلْقَتْ لَهُ الْأَقَالِيمُ يَدَ الْإِسْتِسْلَامِ ، عَلَى قَدَمِ الْإَيَّامِ ؛ فَزَخَرَ بِهَا مِنْذُ دَوْلَتِهِمْ بَحْرُ الْعُمَرَانِ ، وَتَجَاوَبَتْ فِيهَا الْمَدَارِسُ بِتَرْجِيحِ

(١) الوصب : الوجع ، والمرض ؛ والجمع أوصاب .

(٢) العصاب : العمامة .

(٣) الصغا : من الإصغاء : أي مال إليه بسمعه .

(٤) علائق المين والإفك : أي علائق الكذب .

(٥) حديث رواه البخاري في آخر باب « علامة النبوة في الإسلام » ومسلم في بابي « الامارة » ، و« الإيمان » . شرح العيني على « صحيح » البخاري ٥٧٩/٧ ، وشرح النووي على « صحيح » مسلم ٥٥/١ ، ٢٠٦/٢ .

المثاني والقرآن وعمّرت المساجد بالصَّلوات والأذان ، تُكاثِرُ عددَ الحصى
والشُّهبان . وقامت المآذن على قدم الاستغفار والسُّبحان (١) مُعلنة بشعار الإيمان ،
وازدان جوها بالقصر فالقصر والإيوان فالإيوان . ونظّم دسّتها بالعزير ، والظاهر ،
والأمير ، والسُّلطان . فما شئتَ من ملكٍ يخفقُ العزُّ في إعلامه ، وتوقّد في ليل
المواكب نيران الكواكب من أسنّته وسهامه ؛ ومن أسرة للعلماء تتناول العلم بوعد
الصّادق ولو تعلق بأعنان السماء (٢) ، وتُنير سراجَه في جوانب الشُّبه المدلّهمة
الظلماء ؛ ومن قضاة يُباهون بالعلم والسُّودد عند الانتماء ، ويشتملون الفضائل
والمناقب اشتمال الصّماء (٣) ، ويفصلون الخصومات برأي يفرق بين اللبن والماء .

ولا كدولة السُّلطان الظاهر ، والعزير القاهر ، يعسوب (٤) العصائب والجواهر ، ومُطلع
أنواع العزّ الباهر ، ومُصرّف الكتاب تزري بالبحر الزاخر ، وتقوم بالحجة للقيسي
على الأهلة في المفاخر ؛ سيف الله المنتضى على العدو الكافر ، ورحمته المتكفلة

للعباد باللطف السّائر ؛ ربّ التيجان والأسرة والمنابر ، والأواوين العالية والقصور
الأزاهر ، والمُلك المؤيد بالبيض البواتر ، والرماح الشواجر (٥) ، والأقلام المرتضعة
أخلاف (٦) العزّ في مهود المحابر ، والفيض الرّباني الذي فاق قدرة القادر ، وسبقت
به العناية للأواخر . سيّد الملوك والسلاطين ، كافل أمير المؤمنين ، أبو سعيد أمده الله
بالنصر المُصاحب ، والسعد الموّزر ، وعرفه آثار عناية في الموارد والمصادر ،
وأراه حسن العاقبة في الأولى وسرور المنقلب في الآخر ؛ فإنه لما تناول الأمر بعزائم
وعزومه ، وآوى المُلك إلى كنفه العزيز وحزمه ، أصاب شاكلة الرأي عندما سدّد من
سهمه ، وأوقع الرعايا في ظلٍّ من أمنه ، وعدلٍ من حكمه ، وقسم البأس والجود
بين حربيه وسلّمه ؛ ثم أقام دولته بالأمراء الذين اختارهم باختيار الله لأركانها ، وشدّ

(١) السبحان : التسيح .

(٢) اعنان السماء : نواحيها ، وما اعترض من اقطارها .

(٣) اشتمال الصماء ان تجل جندك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسبتهم ؛ وهي ان يرد الكساء من قبل يمينه
على يده اليسرى ، وعاتقه الأيسر ، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى ، وعاتقه الأيمن فيغطيها
جميعاً .

(٤) يعسوب أمير النحل .

(٥) رماح شواجر : مختلفة الطعن .

(٦) أخلاف الضرع : أطرافه . والكلام على التشبيه .

بهم أزره في رفع القواعد من بُنيانها ؛ من بين مُصرفٍ لعنانها ، متقدّم القدم على أعيانها ، في بساط إيوانها ؛ وربّ مشورة تُضيء جوانب الملك بلمعانها ، ولا يذهب الصواب عن مكانها ؛ ومنفذ أحكام يُشرق الحق في بيانها ، ويضوع العدل من أردانها^(١) ونجبي^(٢) خلوة في المهّم الأعظم من شأنها ؛ وصاحب قلم يُفضي بالأسرار إلى الأسل^(٣) الجرّار ، فيشفي الغليل بإعلانها . حفظ الله جميعهم وشمل بالسعادة والخيرات المبدأة المعادة تابعهم ومتبوعهم .

ولما سبحت في اللج الأزرق ، وخطوت من أفق المغرب إلى أفق المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفح المشرق ، وشجرة الملك التي اعزبها الإسلام تهتز في دوحه المعرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غضنه المورق ، وينابيع العلوم والفضائل تمدو شلنا^(٤) من فرائه المغدق ؛ أو لوني عناية وتشريفاً ، وغمروني إحساناً ومعروفاً ، وأوسعوا بهمتي^(٥) إيضاحاً ، ونكرتي تعريفاً ؛ ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف ، من حسنات السلطان صلاح الدين أيوب ملك الجلال والجهاد ، وماحي آثار التلث والرّفص الخبيث من البلاد ، ومطهر القدس الشريف من رجس الكفر بعد أن كانت النواقيس والصلبان فيه بمكان العقود من الأجياد . وصاحب الأعمال المتقبلة يسعى نورها بين يديه في يوم التناد^(٦) ؛ فأقامني السلطان — أيده الله — لتدريس العلم بهذا المكان ، لا تقدماً على الأعيان ، ولا رغبة عن الفضلاء من أهل الشان ؛ وإني موقن بالقصور ، بين أهل العصور ، معترف بالعجز عن المضاء في هذا القضاء ؛ وأنا أرغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة الفضاء ، أن يلمحوا بعين الارتضاء ، ويتعمدوا بالصّفح والإغضاء ، والبضاعة بينهم مُزجاة^(٧) ، والاعتراف من اللوم — إن شاء الله — منجاة ؛ والحسنى من الإخوان مُرتجاة . والله تعالى يرفع لمولانا السلطان في

(١) الأردن : الأكام . وفي الكلام تجوز .

(٢) النجبي : الشخص الذي تساره ، وفلان نجى فلان ، أي يناجيه دون سواه .

(٣) الأسل : الرماح وكل حديد رهيف من سيف وسكين .

(٤) الوشل : الماء القليل .

(٥) البهمة : بهم : الخطة الشديدة .

(٦) يوم التناد : يوم ينادي « أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » . لسان العرب .

(٧) بضاعة مزجاة : قليلة .

مدارج القبول أعماله ، وبيّغهُ في الدارين آماله ، ويجعلُ للحُسنى والمقرّ الأسنى ،
منقلبه ومآله ؛ ويُديمُ على السّادة الأمراء نِعْمته ، ويحفظُ على المسلمين بانتظام
الشّمل دولتهم ودولته ، ويُمدُّ قضاة المسلمين وحكّامهم بالعون والتّسديد ، ويُسْمَعُنَا
بانفساح آجالهم إلى الأمد البعيد ، ويشملُ الحاضرين برضوانه في هذا اليوم السّعيد ،
بمنه وكرمه .

وانفضّ ذلك المجلس ، وقد شيعتني العيون بالتّجلة والوقار ، وتناجت النفوس بالأهلية
للمناصب ؛ وأقمتُ على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سَخِطَ السلطانُ قاضي
المالكية يومئذ في نزعته من النّزعات الملوكية ، فعزله ، واستدعاني للولاية في
مجلسه ، وبين أمرائه ؛ فتفاديتُ من ذلك ، وأبى إلا إمضاءه . وخلع عليّ ،
وبعث معي من أجلسني بمقعد الحكم في المدرسة الصّالحية^(١) في رَجَبِ ست
وثمانين وسبعائة ؛ فقامتُ في ذلك المقام المحمود ، ووفيتُ عهدَ الله في إقامة رُسوم
الحقّ ، وتحرّي المعدّلة ، حتّى سَخِطَني من لم تُرضيه أحكامُ الله ، ووقع من شغب
أهل الباطل والمراء ما تقدّم ذكره .

وكنتُ عند وصولي إلى مصر بعثتُ عن ولدي من تونس ؛ فمنعهم سلطان تونس من
اللّحاق بي اغتباطاً بمكاني ؛ فرغيتُ من السلطان أن يشفعَ عنده في شأنهم ،
فأجاب ، وكتب إليه بالشفاعة ؛ فركبوا البحر من تونس في السّفين ؛ فما هو إلا أن
وصلوا إلى مرسى الإسكندرية ؛ فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه ، وما
فيه ، وذهب الموجود والمولود ؛ فعظمُ الأسف ، واختلط الفكر ، وأعفاني السلطان
من هذه الوظيفة وأراحني ، وفرغتُ لشأني من الاشتغال بالعلم تدريساً وتأليفاً .
ثم فرغ السلطان من اختطاط مدرسته^(٢) بين القصرين ، وجعل فيها مدافن أهله ،
وعين لي فيها تدريسُ المالكية ؛ فأنشأتُ خطبةً أقوم بها في يوم مُفتتح التدريس على
عادتهم في ذلك ونصّها :

« الحمد لله الذي منّ على عباده ، بنعمة خلقه وإيجاده ، وصرفهم في أطوار استعباده
بين قدره ومُرادِه ، وعرفهم أسرار توحيدِه ، في مظاهر وجودِه ، وآثار لطفِه في وقائع

(١) نسبة إلى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٢) هي المدرسة الظاهرية ، وتسمى البروقية أيضاً . عهد في بنائها إلى الأمير جهر كس الخليلي ، فشرع في
بنائها سنة ٨٨٦ ، وأنهاها سنة ٨٨٨ .

عباده ، وعرضهم على أمانة التكليف لِيَبْلُوهُمْ بِصَادِقٍ وَعُدَّةٍ وَإِبَاعَدِهِ ^(١) ، وَيَسِّرَ كُلًّا لِمَا خُلِقَ لَهُ ، من هدايته أو إضلاله ، وغِيَّهَ أَوْ رَشَادِهِ ، وَاسْتَخْلَفَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُ النَّجْدَيْنِ ^(٢) لَصَلَاحِهِ أَوْ فُسَادِهِ ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، من مدارك سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَالْبَيَانَ عَمَّا فِي فُؤَادِهِ ؛ وَجَعَلَ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءَ وَمَلُوكًا يُجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَيُثَابِرُونَ عَلَى مَرْضَاتِهِ فِي اعْتِمَالِ الْعَدْلِ وَاعْتِمَادِهِ ؛ وَرَفَعَ الْبُيُوتَ الْمُقَدَّسَةَ بِسُبْحَاتِ ^(٣) الذِّكْرِ وَأُورَادِهِ .

وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْبَشَرِ مِنْ نَسْلِ آدَمَ وَأَوْلَادِهِ ، لَا . بَلِ سَيِّدِ الثَّقَلَيْنِ ^(٤) فِي الْعَالَمِ مِنْ إِنْسِهِ وَجَنَّتِهِ وَأَرْوَاحِهِ وَأَجْسَادِهِ ، لَا . بَلِ سَيِّدِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ ، الَّذِي خَتَمَ [اللَّهُ] كَمَا لَهُمْ بِكَمَالِهِ وَأَمَادِهِمْ بِأَمَادِهِ ، الَّذِي شَرَّفَ بِهِ الْأَكْوَانَ فَأَضَاءَتْ أَرْجَاءُ الْعَالَمِ لِنُورِ وِلَادِهِ ؛ وَفَصَّلَ لَهُ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ تَفْصِيلًا ، كَذَلِكَ لِيُثَبَّتَ مِنْ فُؤَادِهِ ^(٥) وَالْقَى عَلَى قَلْبِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ بِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لِيَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ لِعِبَادِهِ ^(٦) ؛ فَدَعَا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ بِصَادِقٍ جِدَالِهِ وَجَلَالِهِ ^(٧) وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ النَّصْرَ الْعَزِيزَ ، وَكَانَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ مِنْ إِمْدَادِهِ ، حَتَّى ظَهَرَ نُورُ اللَّهِ عَلَى رَغْمٍ مِنْ رَغْمٍ ^(٨) . بِإِطْفَائِهِ وَإِخْمَادِهِ ، وَكَمُلَ الدِّينُ الْحَنِيفُ فَلَا تُخْشَى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَائِلَةٌ انْقِطَاعِهِ وَلَا نَفَادَهُ ؛ ثُمَّ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْكِرَامَاتِ مَا لُعَدَّ فِي مَعَادِهِ ، وَفَضَّلَهُ بِالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَشْهَادِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ الشَّفَاعَةَ فِيمَنْ انْتَضَمَ فِي أُمَّتِهِ ، وَاعْتَصَمَ بِمَقَادِهِ .

وَالرُّضَى عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، غُيُوثِ رَحْمَتِهِ ، وَلُيُوثِ إِجْمَادِهِ ، مِنْ ذَوِي رَحْمِهِ

(١) ينظر الى الآية ٧٢ من سورة الأحزاب : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » .

(٢) النجدان : طريق الخير ، وطريق الشر .

(٣) السبحات جمع سبحة ؛ وهي التطوع في الذكر ، والصلاة .

(٤) الثقلان : الجن والإنس .

(٥) يشير الى الآية ٣٢ من سورة الفرقان : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك » .

(٦) يشير كذلك الى الآيتين ١٩٣ ، ١٩٤ من سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .

(٧) الجلال : الجهاد .

(٨) على رغم من رغم : من أساء ؛ والاشارة الى الآية ٣٢ من سورة التوبة : « يريدون أن يطفثوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره » .

الطاهرة وأهل واديه المترودين بالتقوى من خير أزواجه ، والمراغمين بسئوفهم من جاهر بمكابرة الحق وعناده ، وأراد في الدين بظلمه والحاده ، حتى استقام الميسم^(١) في دين الله وبلاديه ، وانتظمت دعوة الإسلام أقطار العالم ، وشعوب الأنام ، من عربيه وعجميه وفارسه ورومه وتركه وأكراده . صلى الله عليه وعليهم صلاة تؤذن باتصال الخير واعتياده ، وتوهل لاقتناء الثواب وزياده ، وسلم كثيراً ؛ وعن الأئمة الأربعة^(٢) ، علماء السنة المتبعة ، والفئة المحتابة المصطنعة ؛ وعن إمامنا من بينهم الذي حمل الشريعة وبينها ، وحرر مقاصدها الشريفة وعينها ، وتعرض في الآفاق منها والمطالع ، بين شهبها اللوامه ؛ فزينا . نُكِّتَةُ الهداية إذا حُقِّقَ مناطها ، وشرط التحصيل والدراية إذا رُوِّعَتْ أشراطها ، وقصد الركاب إذا ضربت في طلب العلم آباطها^(٣) ؛ عالم المدينة وإمام هذه الأمة الأمانة ، ومقبس أنوار النبوة من مشكاتها المبينة ، الإمام مالك بن أنس . ألحقه الله برضوانه ، وعرفنا بركة الاقتداء بهديه وعرفانه ؛ وعن سلف المؤمنين والمهتدين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فإن الخلق عيال الله يكتفهم بلطفه ورحمته ، ويكفلهم بفضله ونعمته ، وييسرهم لأسباب السعادة بأداب دينه وشرعته ، ويحملهم في العناية بأمورهم ، والرعاية لجمهورهم ؛ على مناهج سنته ولطائف حكمته . ولذلك اختار لهم الملوك الذين جبلهم على العدل وفطرته ، وهداهم إلى التمسك بكلمته . ثم فضلهم بما خوهم من سعة الرزق وبسطته واشتقاق التمكين في الأرض من قدرته ، فتسابقوا بالحيرات إلى جزائه ومثوبته ، وذهبوا بالدرجات العلى في وفور الأجر ومزيته .

وإن مولانا السلطان الملك الظاهر ، العزيز القاهر ، العادل الطاهر ، القائم بأمور الإسلام عندما أعيأ حملها الاكتاد^(٤) ، وقطب دائرة الملك الذي أطلع الله من

(١) الميسم : الجمال .

(٢) هم المجتهدون أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة : (مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل) .

(٣) يشير إلى الحديث : « تضرب أكباد الابل في طلب العلم ، فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة » ، وسيأتي له بعد .

(٤) جمع كتد ؛ وهو مجتمع الكتفين من الانسان . ويقال : خرجوا علينا اكتاداً وأكداداً أي فرقا وأرسالاً .

حاشيته الأبدال^(١) وأنبت الأوتاد^(٢) ، ومُنْفَق أسواق العزِّ بما بذلَ فيها من جميل نظره المدخور والعتاد ؛ رحمةُ الله الكافلةُ للخلق ، ويدهاه المبسوطتان بالأجل والرِّزق ، وظلُّه الواقِي للعباد بما اكتنَفهم من العدل والحقِّ ، قاصِمُ الجبابرة ، والمعْفِي على آثار الأعاضِم من القياصرة ، وذوي التَّيجان من التَّبايعَة والأكاسرة ، أولي الأقيال^(٣) والأساور^(٤) ؛ وحائِر قَصَب السَّبِق في المُلوك عند المناضلة والمفاخرة ، ومُفَوِّض الأمور بإخلاصه إلى وليِّ الدنيا والآخرة ؛ مُؤيِّد كلمة الموحِّدين ، ورافِع دعائم الدين ، وظهير خلافة المؤمنين ، سُلطان المسلمين أبو سعيد . صدَّق الله فيما يقتني من الله ظنونه ، وجعل النَّصرَ ظهيره ، كما جعل السَّعدَ قرينه ، والعزَّ خديته^(٥) ، وكان وليه على القيام بأمر المسلمين ومُعِينه ، وبلغ الأُمَّة في اتِّصال أيامه ، ودوام سُلطانه ، ما يرجونه من الله ويؤمِّلونه . لَمَّا قلَّده الله هذا الأمر الذي استوى له على كرسيِّ المُلِك ، وانتظمت عُقود الدُّول في لَبَّاتٍ^(٦) الأيام ، وكانت دَوْلته واسطة السِّلِك ، وجمع له الدين بولاية الحرِّمين ، والدنيا بسُلطان التُّرك . وأجرى له أنهار مصرَ من الماء والمال ؛ فكان مَجَازَه فيها بالعدل في الأخذ والتُّرك . وجمعَ عليه قلوب العباد . فشهد سرُّها بمحبَّة الله [له] شهادةً خالصةً من الرُّيب ، بريئةً من الشُّكِّ . حتى استولى من العزِّ والمُلِك على المقام الذي رَضِيَه وَحَمِدَه . ثم تَأَقَّتْ نَفْسُ إلى ما عند الله ، فصرف قصده إليه واعتمده ، وسارَعَ إلى فعل الخيرات بنفسٍ مطمئنة ، لا يَسْأَلُ عليها أجراً ولا يُكَدِّرُها بالمنة ، وأحسنَ رعاية الدين والمُلِك تشهدُ بها الأنسُ والجِنَّة ، لا ؛ بل النَّسَمُ^(٧) والأجِنَّة^(٨) . ثم آوى الخلق إلى عدله

(١) يوري بالابدال في مصطلح الصوفية ، وهم أشخاص سبعة : يسافرون بأرواحهم من مكان الى اخر ، ويتركون جسدَهم في موضعهم الأول ، بحيث لا يحس احد بسفرهم . عن «تعريفات» الجرجاني ص ٢٧ ، و«تعريفات» ابن العربي ص ٢ .

(٢) والوتاد عند الصوفية ايضاً : عبارة عن أربعة رجال ، منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب ؛ كل واحد منهم مقامه في تلك الجهة . عن الجرجاني في «التعريفات» ص ٢٧ ، وابن العربي ص ٢ . ويريد ان الدولة غنية بالرجال .

(٣) جمع قَيْل وهو ، في مملكة حمير ، بمنزلة الوزير بالنسبة للملك .

(٤) جمع أسوار ، وهو الرامي أو الفارس . وعند الفرس القائد وهنا تعني القواد .

(٥) الخدين : الحبيب والصاحب للمذكر والمؤنث .

(٦) من لَبَّاتٍ : لَبَّأَ يده : اي لواها . وهنا بمعنى اضطراب الأيام .

(٧) النسَم : نفس الروح .

(٨) الأجِنَّة : ج جنين : المستور من كل شيء . والولد ما دام في الرحم قبل أن يرى النور .

تصديقاً بأن الله يؤوه يوم القيامة إلى ظلاله المستجنة ، ونافس في اتخاذ المدارس
والربط لتعليم الكتاب والسنة ، وبناء المساجد المقدسة يبني له بها الله البيوت في
الجنة ، والله لا يضيع عمل عامل فيما أظهره أو أكنه .

وإن ما أنتجته قرائح همته وعنايته ، وأطلعت آفاق عدله وهدايته ، ووضحت شواهدُه
علي بعد مداه في الفخر وغايته ، ونجح مقاصده في الدين وسعائته ؛ هذا المصنع
الشريف ، والهيكَل الهَمَّ البشرية ترتيبه ورصفه ، لا ! بل الكلم السحرية تمثله
ووصفه وشمخ بمطاولة السحب ومناولة الشهب مارته^(١) العزيز وأنفه ، وأزدهي
بلبوس السعادة والقبول من الله عطفه ؛ إن فآخر بلاط الوليد ، كان له الفخار ؛ أو
باهي القصر والإيوان ، شهد له المخراب والمنار ؛ أو ناظر صنعاء وغمدان ، قامت
بحجته الآثار . إنما هو بهو ملؤه دين وإسلام ، وقصر عليه تحية وسلام ، وفضاء رباني
ينشأ في جوه للرحمة والسكينة ظلّة وغمام ، وكوكب شرق يضحك وجه الشمس منه
ثغر بسام ؛ دفع إلى تشييد أركانه ، ورفع القواعد من بنيانه ، سيف دولته الذي استلّه
من قراب ملكه وانتضاه ، وسهمه الذي عجم عيدان كينانته فارتضاه ، وحسام أمره
الذي صقل فرنده^(٢) : العز والعزم وأمضاه ، وحاكمه المؤيد الذي طالب غريم
الأيام ، بالأمل العزيز المرام ؛ فاستوفى دينه واقتضاه ، الأمير الأعز الأعلى
جهركس^(٣) الخليلي أمير الماخورية باسطبه المنيع . حرسه الله من خطوب الأيام ،
وقسم له من عناية السلطان أوفر الحُظوظ والسهام ؛ فقام بالخطو الوساع ، لأمره
المطاع ، وأغرى بها أيدي الاتقان والإبداع . واختصّها من أصناف الفعلة بالماهر
الصناع ، يتناظرون في إجادة الأشكال منها والأوضاع ، ويتناولون الأعمال بالهندام
إذا توارت عن قدرتهم بالامتناع ؛ فكان العبقري^(٤) ، يفري — الفري^(٥) ، أو

(١) المارن : طرف الأنف أو ما لان من طرفه .

(٢) فرنده : السيف ، جوهر السيف ووشيه وهو ما يرى فيه شبه مدبّ النمل أو شبه الغبار .

(٣) هو الأمير سيف الدين جهركس (ويكتب : جهاركس ، وجاركس) بن عبدالله اليلبغاوي الخليلي ،
الذي ينسب إليه «خان الخليلي» المعروف اليوم بالقاهرة . قتل بظاهر دمشق سنة ٨٩١ هـ في الواقعة بين
منطاش ، والظاهر برقوق . خطط المقرئ ١٥٢/٣ — ١٥٣ ، طبع مصر . وقد ضبط في «المنهل» :
«جاركس» وهو لفظ أعجمي معناه أربعة أنفس .

(٤) العبقري نسبة إلى «عبر» ، وهي قرية تسكنها الجن فيما زعموا . ويقولون إذا تعجبوا من جودة شيء أو
غرابتة . أو دقة صنعه : هو عبقرى . ثم توسعوا فسموا الرجل ، والسيد ، والكبير — عبقرياً . (لسان
العرب) .

(٥) يقال هو يفري الفري : إذا عمل عملاً فأجاده .

العقاريت ، قَدِمَت من أماريت^(١) . وكأنما حُشِرَت الجنُّ والشياطين ، أو نُشِرَت القهارمة^(٢) من الحكماء الأول والأساطين ، جابوا لها الصخر بالأذواد^(٣) لا بالواد ، واستنزلوا صمّ الأطوادِ على مطايا الأعواد ، ورفعوا سَمَكها إلى أقصى الآماد ، على بعيد المَهوى من العباد . وغشَّوها من الوشي الأزهر ، المضاعف الصدف والمرمر ، ومائع اللجين الأبيض والذهب الأحمر ، بكلِّ مُسَهَّم الحواشي حالي الأبراد ؛ وقدَّروه مساجدَ للصلوات والأذكار ، ومقاعدَ للسُّبُحات^(٤) بالعشي والإبكار ، ومحالسَ للتلاوة والاستغفار ، في الآصال والأسحار ، وزوايا للتخلِّي عن ملاحظة الأسماع والأبصار ، والتَّعَرُّضِ للفتوح الربَّانية والأنوار ؛ ومدارسَ لِقَدْحِ زناد الأفكار ، ونتاج المعارف الأبكار ، وصوغ اللجين والنُّصار ، في مَحَكِّ القرائح والأبصار . تَفَجَّرَ ينابيعُ الحكمة في رياضه وبُستانه ، وتَفَتَّحَ أبوابُ الجنة من غُرفه وإيوانه ، وتُقْتَادُ غُرُ السَّوابق من العلوم والحقائق ، في طَلْقِ^(٥) مِيدانِه ، وَيَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصَّالحُ إلى الله من نواحي أركانِه ؛ وتوفَّرُ الأجور لغاشيته مُحْتَسِبَةً عندالله في ديوانه ، راجِحَةً في ميزانه .

ثم اختارَ لها من أئمة المذاهب الأربعة أعياناً ، ومن شيوخ الحقائق الصوفية فرساناً ؛ تَصَفَّحَ لهم أهل مَمْلَكِته إنساناً إنساناً ، وأشدَّ بقدرهم عنايةً وإحساناً ، ودَفَعَهُم إلى وظائفه توسعاً في مذاهب الخير وافتناناً . وعهد إليهم بريضة المريرين ، وإفادة المستفيدين ، احتساباً لله وقرباناً ، وتَقْيِلاً^(٦) لمذاهب الملوك من قومِه واستناناً ؛ ثمَّ نظمني معهم تطولا وامتناناً ، ونعمة عظمت موقِعاً وجَلَّتْ شاناً ؛ وأنا وإن كُنْتُ لقصور البضاعة ، متأخراً عن الجماعة ، ولقعود الهمة ، عيالا على هؤلاء الأئمة ، فسَمَّحُهُم يَغْطِي وَيُلْحِفُ ، وبمواهب العفو والتجاوز يَمْنَحُ وَيُتْحِفُ . وإنما هي رحمة من مولانا السلطان — أيده الله — خَصَّتْ كما عَمَّتْ ، ووسَّمتْ أغفال النكرة والإهمال وسَمَّتْ ؛ وكَمَلَّتْ بها مواهب عَطْفِه وجَبْرِه وتمَّتْ ؛ وقد يتنظَّم الدرُّ

(١) أماريت : جمع الجمع لمرت : وهي المفازة والقفر لا نبات فيه .

(٢) القهارمة : جمع قهرمان ، الوكيل أو أمين الدخل والخرج (قاموس) .

(٣) الأذواد جمع ذود ؛ وهو الجماعة من الابل . لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقل عن الثلاث .

(٤) جمع سبحة : وهي التطوع في الدعاء والصلوة .

(٥) الطلق : الشوط الواحد في جري الخيل ، والغاية التي يجري إليها الفرس في السباق .

(٦) بمعنى من تقيل أباه : أشبهه ، وعمل عمله .

مع المَرَّجان ، وتَلْتَبَسُ العَصَائِبُ بِالتَّيجَانِ ؛ وتُرَاضُ المَسُومَةُ ^(١) العَرَابُ ^(٢) على مُسَابِقَةِ الهِجَانِ ^(٣) ؛ وَالكَلُّ فِي نَظَرِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَتَصْرِيفِهِ ، وَالأَهْلِيَّةُ بِتَأْهِيلِهِ وَالمَعْرِفَةُ بِتَعْرِيفِهِ ، وَقِيَامُ الحَيَاةِ وَالآمَالِ بِلَطَائِفِ إِحْسَانِهِ وَصُنُوفِهِ ؛ وَاللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ مَعْرُوفِهِ ، وَيُوقِّقُنَا لِلوَفَاءِ بِشَرْطِهِ فِي هَذَا الوَقْفِ وَتَكْلِيفِهِ ، وَيَحْمِي حِمَاهُ مِنْ غَيْرِ الدَّهْرِ وَصُرُوفِهِ ، وَيُنِيءُ عَلَى مَمَالِكِ الإِسْلَامِ ظِلَالَ أَعْلَامِهِ وَرِمَاحِهِ وَسُيُوفِهِ ، وَيُرِيهِ قُرَّةَ العَيْنِ فِي نَفْسِهِ وَبَيْنِهِ ، وَحَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ ، وَخَاصَّتِهِ وَلَفِيْفِهِ ، عَنِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ .

ثمَّ تَعَاوَنَ العِدَاةُ عِنْدَ أَمِيرِ المَآخُورِيَّةِ ^(٤) ، القَائِمِ لِلسُّلْطَانِ بِأُمُورِ مَدْرَسَتِهِ ، وَأَغْرَوهُ بِصَدِّيِّ عِنهَا ، وَقَطَعَ أَسْبَابِي مِنْ وِلَايَتِهَا ، وَلَمْ يُمَكِّنِ السُّلْطَانُ إِلاَّ إِسْعَافَهُ فَأَعْرَضْتُ عَنْ ذَلِكَ ، وَشَغِلْتُ بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ التَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ .

ثمَّ خَرَجْتُ عَامَ تِسْعَةٍ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ لِلحَجِّ ، وَاقْتَضَيْتُ إِذْنَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ فَاسْعَفَ ، وَزُوِّدَ هُوَ وَأَمْرَاؤُهُ بِمَا أَوْسَعَ الحَالُ وَأَرْغَدَهُ ؛ وَرَكِبْتُ بَحْرَ السُّوَيْسِ مِنَ الطُّورِ إِلَى اليَنْبُوعِ ؛ ثُمَّ صَعِدْتُ مَعَ المَحْمِلِ إِلَى مَكَّةَ ؛ فَقَضَيْتُ الفَرَضَ عَامِئِدٍ وَعُدْتُ فِي البَحْرِ ؛ فَتَزَلْتُ بِسَاحِلِ القَصِيرِ ؛ ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهُ إِلَى مَدِينَةِ قُوصٍ فِي آخِرِ الصَّعِيدِ ، وَرَكِبْتُ مِنْهَا بَحْرَ النِّيلِ إِلَى مِصْرَ ، وَلَقِيتُ السُّلْطَانَ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِدُعَائِي لَهُ فِي أَمَاكِنِ الإِجَابَةِ ، وَأَعَادَنِي إِلَى مَا عَهَدْتُ مِنْ كِرَامَتِهِ ، وَتَفَضَّلَ عَلَيَّ .

ثمَّ شَغَرْتُ وَظَيْفَةَ الحَدِيثِ بِمَدْرَسَةِ صِلَغْتَمَشٍ ^(٥) فَوَلَّانِي إِيَّاهَا بَدَلًا مِنْ مَدْرَسَتِهِ وَجَسَلْتُ لِلتَّدْرِيسِ فِيهَا فِي مُحَرَّمٍ أَحَدٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَقَمْتُ ذَلِكَ اليَوْمَ — عَلَى العَادَةِ — بِخُطْبَةٍ نَصَّهَا :

«الحمد لله إجلالاً وإعظاماً ، واعترافاً بحقوق النعم والتراماً ، واقتباساً للمزيد منها

(١) المسومة من الخيل : المرعية ، والمعلمة .

(٢) العراب من الإبل ، والخيل : التي ليس فيها عرق هجين .

(٣) الهجان : جمع هجين ؛ وهو الفرس الذي ليس بعقيق .

(٤) الماخورية : من الماخور : ج مواخر ومواخير : مجلس الفساق بيت الريبة والدعارة . وقيل ان هذه الكلمة فارسية الأصل من (خور) وقيل هي عربية من (مخرت السفينة) لتردد الناس الى المكان المسمى

بها .

(٥) كذا في الأصل : «صلغتمش» ، ولعلها كانت تنطق باللام فسجلها ابن خلدون كما سمعها . والمدرسة

الصرغتمشية هذه التي تقع بجوار جامع أحمد بن طولون ، تنسب إلى بانيها الأمير سيف الدين صرغتمش

الناصرى أمير رأس نوبة ، المتوفى سجيناً في الإسكندرية سنة ٧٥٩ ، خطط المقرئ الميرزى ٢٥٦/٤ — ٢٥٨

طبع مصر .

واغتناماً ، وشكراً على الذي أحسن وتما ، وسيع كل شيء رحمة وإنعاماً ، وأقام على توحيده من أكوانه ووجوده آيات واضحة وأعلاماً ، وصرف الكائنات في قبضة قدرته ظهوراً وخفاءً وإيجاداً وإعداداً ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هداه إلى مصالحه إلهاماً ، وأودع مقدور قضائه في مسطور كتابه ، فلا يجد محيصاً عنه ولا مراماً .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمدٍ نبي الرحمة الهامية غماماً^(١) والملحمة التي أراقت من الكفر نجيعاً وحطمت أضناماً ، والعروة الوثقى ، فاز من اتخذها عصاماً^(٢) ، أول النبيين رتبة وآخرهم ختاماً ، وسيدهم ليلة قاب قوسين إذ بات للملائكة والرسل إماماً ؛ وعلى آله وأصحابه الذين كانوا ركناً لدعوته وسناماً^(٣) وحرباً على عدوه وساماً^(٤) ، وصلوا في مظهرته جداً واعتزما ، وقطعوا في ذات الله وابتغاء مرضاته أنساباً وأرحاماً ، حتى ملأوا الأرض إيماناً وإسلاماً ، وأوسعوا الجاحد والمُعاند تبكيتاً وإرغاماً^(٥) ، فأصبح ثغر الدين بساماً ووجه الكفر والباطل عبوساً جهاماً . صلى الله عليه وعليهم ما عاقب ضياء ظلاماً ، صلاة ترجح القبول ميزاناً ، وتبوى عند الله مقاماً .

والرضى عن الأئمة الأربعة ، الهداة المتبعة ، مصابيح الأمان ومفاتيح السنة الذين أحسنوا بالعلم قياماً وكانوا للمتقين إماماً .

أما بعد فإن الله سبحانه تكفل لهذا الدين بالعلاء والظهور ، والجز الخالد على الظهور ، وانفساح خطته في آفاق المعمور ، فلم يزل دولة عظيمة الآثار ، غزيرة الأنصار ، بعيدة لصيت عالية المقدار ، جامعة — بمحاسن آدابه وعزة جنابه — معاني الفخار ، منفقة بضائع علومه في الأقطار ، مفجرة ينابيعها كالبحار ، مطلعة كواكبها المنيرة في الآفاق أضوا من النهار ؛ ولا كالدولة التي استأثرت بقبلة الإسلام ومنابره ، وفاخرت بحرّمات الله وشعائره واعتمدت بركة الإيمان وأواصره ، واعتمكت في إقامة رسوم العلم ليكون من مفاخره ، وشاهداً بالكمال لأوله وآخره .
وإن مولانا السلطان الملك الظاهر ، العزيز القاهر ، شرف الأوائل والأواخر ، ورافع

(١) همت السماء : أمطرت ، والغمام : القطر نفسه .

(٢) العصام : رباط كل شيء . من جبل ونحوه .

(٣) السنام : المرتفع من الرمل ، والجبل ، والمراد انه ملجأ .

(٤) السام : جمع سم ؛ وفي حديث عن علي رضي الله عنه : (الدنيا غذاؤها سام) .

(٥) الجهام : السحاب لا ماء فيه ، ويريد : كريبها لا خير فيه .

لواء المعالي والمفاخر ، ربّ التّيسجان والأسرة والمنابر ، والمُجَلّي في ميدان السّابقين من الملوك الأكابر ، في الزمن الغابر ، حاملُ الأُمَّة بنظره الرشيد ورأيه الظافر ، وكافلُ الرعايا في ظلّه المديد وعدله الوافر ، ومُطَلِّع أنوار العزّ والسّعادة من أفقه السّافر ؛ واسطة السّلك من هذا النّظام ، والتّاج المحلّي في مفارق الدول والأيام ، سيّد الملوك والسلاطين ، بركة الإسلام والمسلمين ، كافل أمير المؤمنين ، أبو سعيد . أعلى الله مقامه ، وكافاً عن الأُمَّة إحسانه الجزيل وأنعامه ، وأطال في السّعادة والخيرات المبدأة المُعادة لياليه وأيامه ؛ لما أوسع الدين والمُلك نظراً جميلاً من عنايته ، وأنام الخلق في حُجر كفاله ، ومهاد كفايته ، وأيقظ لتفقد الأمور ، وصلاح الخاصّة والجمهور ، عين كلاءته ، كما قلده الله رعايته^(١) وأقام حكام الشريعة والسياسة يُوسعون نطاق الحق إلى غايته ، ويُطلعون وجه العدل سافراً عن آيته . ونصب في دست النيابة من وثق بعدله وسياسته ، ورضي الدين بحُسن إيلته ، وأمنه على سُلطانه ودولته ، وهو الوفيُّ — والحمد لله — بأمانته ؛ ثم صرّف نظره إلى بيوت الله يُعنى بإنشائها وتأسيسها ، ويعمل النّظر الجميل في إشادتها وتقديسها ، ويقرضُ الله القرضَ الحسن في وقفها وتحبيسها وينصب فيها لبث العلم من يُؤهله لوظائفها ودروسها ؛ فيُضني عليه بذلك من العناية أوفر لبوسها ، حتى زهت الدولة بملكها ومصرها ، وفاخرت الأنام بزمانها الزاهر وعصرها . وخضعت الأواوين لإيوانها العالی وقصرها ؛ فابتهج العالمُ سروراً بمكانها ، واهتزت الأكوان للمفاخرة بشأنها ، وتكفّل الرحمن ، لمن اعترّ به الإيمان ، وصلح على يده الزمان ، بوفور المثوبة ورُجحانها .

وكان مما قد من به الآن تدريسُ الحديث بهذه المدرسة وقف الأمير صرغتمش من سلف أمراء التّرك ، خففَ الله حسابه وثقل في الميزان — يوم يُعرض على الرحمن — كتابه ، وأُعظّم جزاءه في هذه الصّدقة الجارية وثوابه ، عنايةً جدّدي لباسها ، وإيثاراً بالنعمة التي صحّحت قياسها ، وعرفت منه أنواعها وأجناسها ، فامتثلت المرسوم ، وانطلقت أقيم الرّسوم ، وأشكر من الله وسُلطانه الحظّ المقسوم . وأنا مع هذا مُعترفٌ بالقصور ، بين أهل العصور ، مُستعيدٌ بالله وبركة هؤلاء الحُضور ،

(١) كذا في الأصل ؛ ولعلها : «قلده الله حق رعايته» ، أو «واجب رعايته» ، أو نحو هذا .

السَّادَةُ الصُّدُورُ ، أَنْ يَجْمَعَ بِي مَرْكَبُ الْغُرُورِ ، أَوْ يَلْجَ شَيْطَانُ الدَّعْوَى وَالزُّورِ . فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْفَعُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِ ، وَيُعْرِفُهُ الْحُسْنَى وَزِيَادَةَ الْحِظِّ الْأُسْنَى فِي عَاقِبَتِهِ وَمَالِهِ ، وَيُرِيهِ فِي سُلْطَانِهِ وَبَنِيهِ وَحَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَرَضَى آمَالِهِ ، وَيَدِيمُ عَلَى السَّادَةِ الْأُمَرَاءِ مَا خَوَّلَهُمْ مِنْ رِضَاةٍ وَإِقْبَالِهِ ، وَيَحْفَظُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْأَمْرِ السَّعِيدِ بِدَوَامِهِ وَإِتِّصَالِهِ ، وَيَسِدُّ قُضَايَتَهُمْ وَحُكَامَتَهُمْ لِاعْتِمَادِ الْحَقِّ وَاعْتِمَالِهِ بِمَنْ لِيهِ الْإِفْضَالُ .

وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُقَرَّرَ لِلْقِرَاءَةِ فِي هَذَا الدَّرْسِ ، كِتَابَ الْمَوْطَأِ لِلْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ مِنْ أُصُولِ السُّنَنِ ، وَأُمَّهَاتِ الْحَدِيثِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَصْلُ مَذَهَبِنَا الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ مَسَائِلِهِ ، وَمَنَاطُ أَحْكَامِهِ ، وَإِلَى آثَارِهِ يَرْجِعُ الْكَثِيرُ مِنْ فِقْهِهِ .

فَلِنَفْتَحِ الْكَلَامَ بِالْتَّعْرِيفِ بِمُؤَلَّفِهِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَكَانِهِ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالِدِيَانَةِ ، وَمَنْزِلَةِ كِتَابِهِ «الْمَوْطَأُ» مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ . ثُمَّ نَذَكُرُ الرِّوَايَاتِ وَالطَّرِيقَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَكَيْفَ اقْتَصَرَ النَّاسُ مِنْهَا عَلَى رِوَايَةِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى ، وَنَذَكُرُ أَسَانِدِي فِيهَا ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى الْكَلَامِ عَلَى مَتْنِ الْكِتَابِ .

أَمَّا الْإِمَامُ مَالِكٌ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَهُوَ إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ ، وَشَيْخُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ غَيْرِ مُنَازَعٍ ، وَالْمَقْلَدُ الْمَتَّبِعُ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَخِصُوصًا أَهْلَ الْمَغْرِبِ . قَالَ الْبُخَارِيُّ : مَالِكُ بْنُ أَنَسِ بْنِ أَبِي عَامِرِ الْأَصْبَحِيِّ . كُنِيَّتُهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، حَلِيفُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيِّ التَّمِيمِيِّ ابْنِ أَخِي طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ . كَانَ إِمَامًا ، رَوَى عَنْهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ . انْتَهَى كَلَامُ الْبُخَارِيِّ .

وَجَدُّهُ أَبُو عَامِرِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْحَرِثِ بْنِ عَثْمَانَ وَيُقَالُ : غَمَّانُ بَغِينٍ مَعْجَمَةٌ مَفْتُوحَةٌ ، وَيَاءُ تَحْتَانِيَّةٍ سَاكِنَةٌ ، ابْنُ جُثَيْلٍ بِجِيمٍ مَضْمُومَةٌ وَثَاءٌ مِثْلَةٌ مَفْتُوحَةٌ ، وَيَاءُ تَحْتَانِيَّةٍ سَاكِنَةٌ ؛ وَيُقَالُ حُثَيْلٌ أَوْ خُثَيْلٌ بِحَاءٍ مَضْمُومَةٌ مَهْمَلَةٌ أَوْ مَعْجَمَةٌ ، عَوْضَ الْجَيْمِ ؛ وَيُقَالُ حِسْلٌ بِحَاءٍ مَهْمَلَةٌ مَكْسُورَةٌ ، وَسِينٌ مَهْمَلَةٌ سَاكِنَةٌ ، ابْنُ عَمْرٍو بْنِ الْحَرِثِ ؛ وَهُوَ ذُو أُصْبَحٍ . وَذُو أُصْبَحٍ بَطْنٌ مِنْ حِمَيْرٍ ، وَهُمْ إِخْوَةٌ يَخْصُبُ ، وَنَسَبُهُمْ مَعْرُوفٌ ؛ فَهُوَ حِمَيْرِيٌّ صَلِيْبِيٌّ ، وَقُرَشِيٌّ حِلْفًا . وُلِدَ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ ^(١) — فِيهَا

(١) فِي مَوْلِدِ مَالِكِ اقْوَالٌ أُخْرَى غَيْرَ مَا ذَكَرَ ابْنُ خَلْدُونَ تَجَدُّهَا فِي «الْإِنْسَابِ» لِلْسَّمْعَانِيِّ ، وَ«وَفِيَاتِ» ابْنِ خَلْكَانٍ ؛ وَ«الْإِنْتِقَاءُ» لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّصِ ١٠ .

قال ابن بكير^(١) . واربعة وتسعين — فيما قال محمد بن عبدالله بن عبد الحكيم^(٢) ؛
 ونشأ بالمدينة . وتفقه بها . أخذ عن ربيعة الرأي^(٣) ، وابن شهاب^(٤) وعن عمه أبي
 سهيل^(٥) . وعن جماعة ممن عاصروهم من التابعين وتابعي التابعين ؛ وجلس للفتيا
 والحديث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شاباً يناهز العشرين ، وأقام مفتياً
 بالمدينة ستين سنة . وأخذ عنه الجهم الغفير من العلماء الأعلام ، وارتحل إليه من
 الأمصار من لا يحصى كثرة ؛ وأعظم من أخذ عنه الإمام محمد بن إدريس
 الشافعي^(٦) ، وابن وهب^(٧) ، والأوزاعي^(٨) ، وسفيان الثوري^(٩) ، وابن
 المبارك^(١٠) — في أمثال لهم وأنظار . وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة باتفاق من الناقلين
 لوفاته ، وقال الواقدي^(١١) : عاش مالك تسعين سنة ، وقال سحنون^(١٢) عن ابن

(١) هو يحيى بن عبدالله بن بكير القرشي المخزومي بالولاء المصري [١٥٤ — ٢٣١] احد رواة «الموطأ» عن مالك .

(٢) ابو عبدالله محمد بن عبد الحكيم الفقيه الشافعي المصري المشهور [١٨٢ — ٢٦٨] . «وفيات» ٥٧٨/١ .

(٣) هو ابو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ مولى آل المنكدر . المعروف بريعة الرأي . فقيه مدني جليل . أدرك جماعة من الصحابة . توفي بالأنبار بمدينة «الهاشمية» سنة ١٣٦ على خلاف . «المعارف» لابن قتيبة ص ٢١٧ (وفيات) ٢٢٨/١ .

(٤) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري القرشي . من أجل فقهاء التابعين بالمدينة . أدرك جماعة من الصحابة [٥١ — ١٤٢] على خلاف في المولد والوفاة . (وفيات) ابن خلكان ٥٧١/١ — ٥٧٢ .

(٥) نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو سهيل التيمي . مات في إمارة أبي العباس . تهذيب التهذيب ٤٠٩/١٠ .

(٦) الإمام المجتهد أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ينتهي نسبه إلى عبد مناف بن قصي ، حيث يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٥٠ — ٢٠٤] «الانتقاء» لابن عبد البرص ١٢٢ — ٦٦ .

(٧) أبو محمد عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي المصري (١٢٥ — ١٩٧) ، لازم مالكا مدة طويلة .

(٨) ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي ، ونسبته اما إلى «الأوزاع» بطن من همدان ، أو من ذي كلاع من اليمن ، أو إلى «الأوزاع» قرية بدمشق نزل بها فنسب إليها أدخلته أمه «بيروت» فسكنها ، وبها مات سنة ١٥٧ ، ومولده بيبعلبك سنة ٨٨ ، أو ٩٣ . «المعارف» لابن قتيبة ص ٢١٧ ، «وفيات» ٣٤٥/١ .

(٩) أبو عبدالله سفيان بن سعيد المعروف بالثوري ، أحد الأئمة المجتهدين ، ولاء المهدي قضاء الكوفة فامتنع ، ورمى بصك الولاية في دجلة . «وفيات الاعيان» ٢٦٣/١ .

(١٠) أبو عبد الرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح المروزي مولى بني حنظلة ، أحد رواة «الموطأ» عن مالك . «وفيات» ٣١١/١ .

(١١) أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد المدني صاحب «المغازي» ؛ تولى القضاء ببغداد في أيام المأمون . ضعفه في الحديث [١٣٠ — ٢٠٧] . «وفيات» ٦٤٠/١ .

(١٢) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه المالكي المشهور . [١٦٠ — ٣٤٠] .

نافع^(١) : توفي مالك ابن سبع وثمانين سنة ، ولم يختلف أهل زمانه في أمانته ، وإتقانه ، وحفظه وتثبته وورعه ، حتى لقد قال سفيان بن عيينة^(٢) : كنا نرى في الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تضرب أكباد الإبل في طلب العلم فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة» إنه مالك بن أنس .

وقال الشافعي : إذا جاء الأثر فمالك النجم ، وقال : إذا جاءك الحديث عن مالك ، فشدّ به يدك ، وقال أحمد بن حنبل^(٣) : إذا ذكر الحديث فمالك أمير المؤمنين .

وقد ألف الناس في فضائله كتباً ، وشأنه مشهور .

وأما الذي بعثه على تصنيف «الموطأ» — فيما نقل أبو عمر بن عبد البر — فهو أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون^(٤) ، عمل كتاباً على مثال «الموطأ» ، ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة ، ولم يذكر فيه شيئاً من الحديث ، فأتى به مالك ، ووقف عليه وأعجبه ، وقال : ما أحسن ما عمل هذا ! ولو كنت أنا الذي عملتُ لبداً بالآثار ، ثم شددت ذلك بالكلام . وقال غيره : حجّ أبو جعفر المنصور^(٥) ، ولقيه مالك بالمدينة ، فأكرمه وفاوضه . وكان فيما فاوضه : يا أبا عبد الله لم يبق علي وجه الأرض أعلم مني ومنك ، وقد شغلتنى الخلافة ، فضع أنت للناس كتاباً يتفعلون به ، تجنّب فيه رخص ابن عباس^(٦) وشدائد ابن عمر^(٧) ووطئه للناس

(١) أبو محمد عبد الله بن نافع بن أبي نافع الصائغ المخزومي ، يروي عن مالك كثيراً ، ولهم في الثقة به كلام .

(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران أبو محمد المحدث المشهور (١٠٧ — ١٩٨) «وفيات» ٢٦٤/١ .

(٣) أبو عبد الله أحمد بن حنبل الإمام المجتهد المعروف ، ينتهي نسبه إلى بني شيبان (١٦٤ — ٢٤١) . «وفيات» ٢٠/١ .

(٤) عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون المتوفى سنة ١٦٤ ببغداد في خلافة المهدي . «المعارف» ص ٢٠٣ ، «تهذيب التهذيب» ٣٤٣/٦ .

(٥) أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الخليفة العباسي الثاني تولى الخلافة سنة ١٣٦ ، وتوفي سنة ١٥٨ . له ترجمة واسعة في «تاريخ الطبري» ٢٥٤/٩ — ٣٢٣ .

(٦) أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفي سنة ٦٨ على خلاف في سنة الوفاة . تاريخ الإسلام للذهبي ٣٠/٣ — ٣٧ .

(٧) أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي صاحب رسول الله ، وابن صاحبه . وفي سنة ٧٣ ، وكان عمره يوم الخندق ٢٥ سنة . تاريخ الإسلام للذهبي ٢٧٧/٣ — ٢٨٤ .

توطئة . قال مالك : فلقد علمني التأليف ؛ فكانت هذه وأمثالها من البواعث
لمالك على تصنيف هذا الكتاب ، فصنّفه وسمّاه «الموطأ» أي المُسهَّل^(١) . قال
الجوهري وَطُوِيُوْتُوُ وَطَاءَةٌ ، أي صَارَ وَطِيئًا ؛ وَوُطَّأَتْهُ تَوَطُّةٌ ؛ وَلَا يُقَالُ وَطِيئَتْهُ^(٢) .
ولما شغل بتصنيفه أخذ الناسُ بالمدينة يومئذٍ في تصنيف موطآت ، فقال لمالك
أصحابه : نراك شغلت نفسك بأمر قد شركك فيه الناسُ ؛ وأتني ببعضها فنظر
فيه ، ثم طرحه من يده وقال : لئعلمنَّ أن هذا لا يرتفعُ منه إلا ما أريد به وجهُ الله ؛
فكأنما ألقيت تلك الكتبُ في الآبار ، وما سُمِعَ لشيءٍ منها بعد ذلك ذِكر ، وأقبل
مالك على تهذيب كتابه وتوطئته ؛ فيقال إنه أكمله في أربعين سنة . وتلقّت الأمة
هذا الكتاب بالقبول في مشارق الأرض ومغاربها ، ومن لدُنْ صُنِفَ إلى هلم^(٣) .
وطال ثناء العلماء في كلِّ عصرٍ عليه ، ولم يَخْتَلَفْ في ذلك إثنان . قال الشافعي ،
وعبدُ الرحمن بن مهدي^(٤) : ما في الأرض كتابٌ بعد كتابِ الله أنفعَ ، وفي رواية
أصحَّ ، وفي رواية أكثر صواباً ، من «موطأ» مالك^(٥) . وقال يونس بن عبد
الأعلى^(٦) : ما رأيتُ كتاباً ألف في العلم أكثر صواباً من «موطأ» مالك .
وأما الطرقُ والرواياتُ التي وقعت في هذا الكتاب ، فإنه كتبه عن مالك جماعةٌ نُسِبَ
الموطأ إليهم بتلك الرواية ، وقيل موطأ فلان لراويه عنه^(٧) فمنها موطأ الإمام محمد بن

(١) ذكر الزرقاني في شرحه للموطأ ٨/١ ، نقلاً عن ابن فهد ، وجهاً آخر لتسميته بالموطأ ، قال : «....
قال مالك : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة ، فكلهم واطأني عليه ، فسميته
بالموطأ» .

(٢) انظر لسان العرب (وطأ) .

(٣) كذا في الأصلين ، وهو استعمال غريب . وقد استعمله في «مقدمته» في فصل الكيمياء ص . وانظر شرح
الشرشي على مقامات الحريري ٨٤/١ ، تاج العروس (ج) .

(٤) أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري البصري المتوفى سنة ١٩٨ . «تهذيب
التهذيب» ٢٨١/٦ ، «المعارف» ص ٢٢٤ .

(٥) بعد أن ألف البخاري ، ومسلم صحيحهما ، لم تبق للموطأ هذه المكانة ، ومن هنا أولوا قول الشافعي هذا
بأنه كان قبل وجود الصحيحين . وانظر مقدمة ابن الصلاح ص ١٤ ، تدريب الراوي ص ٢٥ ، مقدمة

شرح الزرقاني على الموطأ ٩/١ ، مقدمة موطأ محمد بن الحسن اللكنوي ص ٢٦ طبع الهند سنة ١٣٠٦ .

(٦) أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة المحدث المقرئ المصري (١٧٠ — ٢٦٤) . تهذيب
التهذيب ٤٤٠/١١ ، طبقات القراء ٤٠٦/٢ .

(٧) في «ترتيب المدارك» ٣٤/١ ظ (نسخة خاصة) ، وشرح الزرقاني على الموطأ ٦/١ — كلمة جامعة عن
الذين رووا الموطأ عن مالك ، وفي مقدمة عبد الحي اللكنوي لموطأ محمد بن الحسن : ان احد علماء =

إدريس الشافعي^(١) ، ومنها موطأ عبدالله بن وهب ، ومنها موطأ عبدالله بن مسلمة القعنبي^(٢) ، ومنها موطأ مطرف بن عبدالله اليساري^(٣) نسبة إلى سليمان بن يسار ، ومنها موطأ عبد الرحمن بن القاسم^(٤) رواه عنه سُخْنُونُ بن سعيد ؛ ومنها موطأ يحيى بن يحيى الأندلسي^(٥) . رحل إلى مالك بن أنس من الأندلس وأخذ عنه الفقه والحديث ، وَرَجَعَ بعلم كثير وحديث جَمٍّ ؛ وكان فيما أخذ عنه «الموطأ» ، وأدخله الأندلس والمغرب ؛ فأكَبَّ الناسُ عليه ، واقتَصَرُوا على روايته دون ما سواها^(٦) ، وعَوَّلُوا على نسقها وترتيبها في شرحهم لكتاب «الموطأ» وتفاسيرهم ، ويشيرون إلى الروايات الأخرى إذا عرضت في أمكنتها ، فهجرت الروايات الأخرى ، وسائر تلك الطرق ، ودرست تلك الموطآت إلا موطأ يحيى بن يحيى ، فبروايته أخذ الناس في هذا الكتاب لهذا العهد شرقاً وغرباً .

وأما سندي في هذا الكتاب المتصل بيحيى بن يحيى فعلى ما أصفه :
حدثني به جماعة من شيوخنا رحمة الله عليهم . منهم إمام المالكية ، قاضي

= «دهلي» ، أورد في كتاب له بالفارسية سماه «بستان المحدثين» القول المستفيض عن الموطأ ، ومؤلفه ، ونسخه ؛ ويتبين من الخلاصة التي عربها عن الفارسية عبد الحي اللكنوي ان صاحب «البستان» كاد ان يستقصي الموضوع .

(١) قال أحمد بن حنبل : كنت سمعت الموطأ من بضعة عشر رجلا من حفاظ اصحاب مالك ، فأعدته على الشافعي لأنه أقومهم . زرقاني ٧/١ .

(٢) أبو عبد الرحمن عبدالله بن مسلمة بن قعنب القعني الحارثي المدني المتوفى سنة ٢٢١ أو ٢٢٠ . سمع من الإمام مالك نصف الموطأ بقراءة الإمام ، وقرأ هو الصنف الباقي على الإمام .

(٣) مطرف بن عبدالله بن مطرف بن سليمان اليساري الهلالي أبو مصعب المدني ابن اخت الإمام مالك (١٣٧ — ٢١٤) ، على خلاف في وفاته . تهذيب التهذيب ١٧٥/١٠ الانتقاء ص ٥٨ .

(٤) أبو عبدالله عبد الرحمن بن القاسم بن جنادة العتقي المصري المالكي (١٢٨ — ١٩١) ، أول من نقل الموطأ إلى مصر . وكان ابو الحسن القاسمي يقدم روايته للموطأ على غيره : ويقول في ذلك انه — مع ما يتصف به من الفهم والورع — قد اختص بمالك ، ولم يكثر من النقل عن غيره ، فخلص بذلك من ان تختلط عليه الفاظ الرواة ، او تبدل الأسانيد ، وانما نقل كتابا مصنفا ، فهو وافر الحظ من السلامة في النقل .

(٥) هو ابو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاسن المصمودي البربري الليثي بالولاء . (١٥٢ — ٢٣٤) وفيات ٢٨٥/٢ — ٢٨٧ .

(٦) كان بقي بن مخلد المحدث الأندلسي يقدم على رواية يحيى هذه ، رواية أبي المصعب الزهري ، ورواية يحيى بن بكير ، وعاتبه في ذلك عبيدالله بن يحيى ، وأخوه اسحق بن يحيى ، فاحتج لفعله بأن أبا المصعب قرشي فاستحق التقديم ، وبأن يحيى بن بكير أكبر من أبيهما في السن ، وبأنه سمع الموطأ من مالك سبع عشرة مرة ، ويحيى أبوهما لم يسمعه إلا مرة واحدة .

الجماعة بتونس وشيخ الفتيا بها ، أبو عبدالله محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري ، سمعته عليه بمنزله بتونس ، من أوله إلى آخره . ومنهم شيخ المسندين بتونس ، الرحالة أبو عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادي آشي ، سمعت عليه بعضه ، وأجازني بسائره . ومنهم شيخ المحدثين بالأندلس ، وكبير القضاة بها ، أبو البركات محمد بن محمد بن محمد — ثلاثة من المحدثين — ابن ابراهيم بن الحاج البلفيقي ، لقيته بفاس سنة ست وخمسين وسبعائة من هذه المائة السابعة ، مقدّمه من السفارة بين ملك الأندلس وملك المغرب . وحضرت مجلسه بجامع القرويين من فاس ، فسمعت عليه بعضاً من هذا الكتاب ، وأجازني بسائره . ثم لقيته لقاءً أخرى سنة إثنين وستين وسبعائة ، استقدمه ملك المغرب ، السلطان أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن للأخذ عنه ؛ وكنت أنا القاريء فيما يأخذه عنه ، فقرأت عليه صديراً من كتاب «الموطأ» ، وأجازني بسائره إجازةً أخرى .

ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقلية ، ومفيد جامعهم ، أبو عبدالله محمد ابن ابراهيم الآبلي ، قرأت عليه بعضه ، وأجازني بسائره ، قالوا كلهم : حدثنا الشيخ المعمر ، أبو محمد عبدالله بن محمد بن هارون الطائي^(١) ، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي^(٢) ، عن الشيخ أبي عبدالله محمد بن عبد الحق الخزرجي^(٣) .

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو البركات ، عن إمام المالكية ببجاية ، ناصر الدين أبي علي ، منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي^(٤) ، عن الإمام شرف الدين

(١) أبو محمد عبدالله بن محمد بن هرون بن محمد بن عبد العزيز الطائي القرطبي ثم التونسي الإمام المسند . أخذ عنه الوادي آشي وغيره من مشايخ العلم والحديث (٦٠٣ — ٧٠٢) . ديباج ص ١٤٣ الدرر الكامنة ٣٠٣/٢ .

(٢) أبو القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن ... بن بقي بن مخلد (٥٣٣ — ٦٢٥) . «التكملة لكتاب الصلة» ص ١٤١ طبع الجزائر سنة ١٣٣٧ هـ ، «تكميل الديباج» ص ٧٣ .

(٣) أبو عبدالله محمد بن عبد الحق بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي . سمع من ابن الطلاع . ذكره ابن الأبار في «التكملة» ٢١٤/١ طبع مدريد سنة ١٨٨٩ م ؛ وقال انه لم يقف على وفاته .

(٤) منصور بن محمد بن أحمد بن عبد الحق الزواوي المشدالي ناصر الدين . وهو لقب لزمه من المشرق ، حيث انه رحل اليه ، وأخذ عن علمائه ؛ ويقول العبدري في «رحلته» : انه لم تكن له عناية والرواية ؛ ومشدالة قبيلة من زواوة .

مُحمَّد بن أبي الفضل المرسي ، عن أبي الحسن علي بن موسى بن النقرات (١)
 عن أبي الحسن علي بن أحمد الكِنَانِي (٢) . قال الخزرجي والكناني : حدثنا أبو
 عبدالله مُحمَّد بن فرج (٣) مولى ابن الطَّلَاع ، عن القاضي أبي الوليد يونس بن
 عبدالله بن مُغيث بن الصَّفَّار قاضي الجماعة بقرطبة .
 وحدثني به أيضا شيخنا أبو عبدالله بن جابر عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد
 ابن الغَمَّاز ، عن شيخه أبي الربيع سلیمان بن موسى بن سالم (٤) الكِلاعي ، عن
 القاضي أبي القاسم عبد الرحمن بن حُبَيْش ، وأبي عبدالله محمد بن سعيد بن
 زَرْقُون (٥) ، شارح كتاب «الموطأ» ، قال ابن زَرْقُون : حدثنا به أبو عبدالله
 الخولاني (٦) ، عن أبي عمرو عثمان بن أحمد القَيْجَاطِي (٧) ، وقال ابن حُبَيْش :
 حدثنا به القاضي أبو عبدالله بن أصْبَغ (٨) ويونس بن محمد بن مُغيث ، قالا : قرأناه
 على أبي عبدالله مُحمَّد بن الطَّلَاع (٩) . وقال ابن حُبَيْش أيضا : حدثنا به أبو

(١) علي بن موسى بن علي (ويقال ابن القاسم) بن علي الأنصاري الجبلي يعرف بابن النقرات يكنى أبا
 الحسن ، ويعرف أيضا بابن أرفع رأسه (٥١٥ — ٥٩٣) ، ويقول ابن القاضي في جذوة الاقتباس انه
 كان حيا في سنة ٥٩٣ . طبقات القراء ٥٨١/١ ، الجذوة ص ٣٠٥ ، فوات الوفيات ٩٢/٢ ، تكملة
 الصلة ٦٧٤/٢ .

(٢) علي بن أحمد بن أبي بكر الكِنَانِي ، يعرف بابن حنين ، ويكنى أبا الحسن (٤٧٦ — ٥٦٩) سمع من
 ابن الطلاع موطأ مالك . جذوة الاقتباس ص ٣٠٤ .

(٣) هو الحافظ أبو عبدالله محمد بن فرج بن الطلاء بالهمزة ، وكان أبو مروان بن سراج يقول : كان فرج
 يطلي مع سيده اللجم في الربض الشرقي عند الباب الحديد من قرطبة ، قال : ومن قال الطلاع بالعين
 فقد اخطأ ، وكذلك قال أبو الوليد بن خيرة ، وقالا أيضا : ان الطلاع بالعين هو والد مولاه محمد بن
 يحيى البكري المعروف بابن الطلاع . اما ابو بكر ابن برنجال الداني فيقول : هو بالعين لأن اياه كان يطلع
 النخل في قرطبة لاجتماعها فعرف بذلك . وقد رحل الناس الى ابن فرج من كل قطر لسماع الموطأ
 والمدنة ، وكان يحفظ الموطأ ، وله فيه سند عال . ديباج ص ٢٥٧ .

(٤) ابو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان يعرف بابن سالم الكلاعي (٥٦٥ — ٦٣٤) .

(٥) محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد العزيز زرقون (٥٠٢ — ٥٨٦) ، آخر من حدث بالإجازة
 عن الخولاني ، وكان عالي الرواية . ديباج ص ٢٨٥ .

(٦) ابو عبدالله احمد بن محمد بن عبد الرحمن بن غلبون الخولاني (٤١٨ — ٥٠٨) روى عن جماعة ، منهم
 ابو عمرو عثمان بن احمد القيشطالي (القيجاطي) . صلة ٧٦/١ .

(٧) عثمان بن احمد بن محمد بن يوسف المعافري القرطبي يكنى ابا عمرو ، ويعرف بالقيشيطالي (القيشطالي) ،
 القيجاطي ، توفي سنة ٤٣١ عن ٨٠ سنة) . صلة ٣٩٧/١ .

(٨) محمد بن اصبغ بن محمد بن اصبغ الأزدي ابو عبدالله ، سمع من ابي عبدالله محمد بن فرج ، توفي سنة
 ٥٣٦ ، وهو من ابناء الستين . صلة ٥٢٨/٢ .

(٩) محمد بن يحيى البكري المتوفى سنة ٤٩٧ . الاستقصا ١٢٩/١ .

القاسم أحمد بن محمد وزد^(١) ، عن القاضي أبي عبدالله محمد بن خلف ابن المرابط^(٢) ، عن المقرئ أبي عمر أحمد بن محمد بن عبدالله المعافري الطلمنكي^(٣) ؛ قال القاضي أبو الوليد بن مغيث ، والقبيجاطي ، والطلمنكي : حدثنا أبو عيسى يحيى بن عبدالله بن يحيى عن عم أبيه أبي مروان عبيدالله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى . وقال الطلمنكي : حدثنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن حدير البزاز ، قال حدثنا أبو محمد قاسم بن أصبغ^(٤) ، قال حدثنا أبو عبدالله محمد ابن وضاح^(٥) ، قال حدثنا يحيى بن يحيى عن مالك ، إلا ثلاثة أبواب من آخر كتاب الاعتكاف ، أولها خروج المعتكف إلى العيد فإن يحيى شك في سماعها عن مالك ، فسمعها من زياد بن عبد الرحمن الملقب شبطون^(٦) عن مالك .

ولي في هذا الكتاب طرق أخرى لم يحضرنى الآن اتصال سندي فيها .
فنها عن شيخنا أبي محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمي كاتب السلطان أبي الحسن ، لقيته بتونس عند استيلاء السلطان عليها ، وهو في جملته سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، وحضرت مجلسه ، وأخذت عنه كثيراً ، وسمعت عليه بعض «الموطأ» ، وأجازني بالاجازة العامة ، وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وعن شيخه الأستاذ أبي إسحق الغافقي ، وعن أبي القاسم القبتوري ، وجماعة من مشيخة أهل سبته ؛ ويتصل سنده فيه بالقاضي عياض ، وأبي العباس العزفي صاحب كتاب (الدر المنظم في المولد المعظم) .

(١) احمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبدالله بن ورد التيمي أبو القاسم (٤٦٥) — (٥٤٠) ، سمع الموطأ من ابي علي الغساني . احاطة ٥٧/١ .

(٢) القاضي ابو عبدالله محمد بن خلف بن سعيد المعروف بابن المرابط . اجازة ابو عمر الطلمنكي ، توفي بالمدينة بعد سنة ٤٨٠ . ديباج ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٣) احمد بن محمد بن ابي عبدالله بن ابي عيسى المعافري ابو عمر الطلمنكي ، المتوفي سنة ٤٢٩ ديباج ص ٣٩ .

(٤) قاسم بن اصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح أبو محمد البياني القرطبي (٢٤٤ — ٣٤٠) ، سمع من ابن وضاح . تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ٢٩٧/١ .

(٥) محمد بن وضاح بن بديع القرطبي ابو عبدالله (١٩٩ — ٢٨٦) ، على خلاف في مولده ، ووفاته ، سمع من يحيى بن يحيى . ديباج ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٦) زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون [بشين معجمة مفتوحة فباء موحدة ساكنة ، وبعدها طاء تليها واوساكنة فنون] ، اول من أدخل مذهب مالك الى الاندلس ، وكان اهلها قبله على مذهب الازاعي . توفي سنة ٢٠٤ على خلاف . نفع الطيب ٣٤٩/١ .

ومنها عن شيخنا أبي عبدالله الكوسي خطيب الجامع الأعظم بقرنطة ، سمعتُ عليه بعضه وأجازني بسائره وهو يروي عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير عن القاضي أبي عبدالله بن بكار ، وجماعة من مشيخة أهل الأندلس ، ويتصل سنده فيه بالقاضي أبي الوليد الباجي (١) ، والحافظ أبي عمر بن عبد البر بسندهما .

ومنها عن شيخنا المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن بُرّال الأنصاري شيخ القراءة بتونس ، ومُعَلِّمي كتاب الله ؛ قرأتُ عليه القرآن العظيم بالقِراءات السبع وعرضتُ عليه قصيدتي الشاطبية (٢) في القراءة ، وفي الرسم ، وعرضتُ عليه كتاب التَّقْصِي لابن عبد البر ، وغير ذلك ، وأجازني بالإجازة العامة ، وفي هذه بالإجازة الخاصة ، وهو يروي هذا الكتاب عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن الغمّاز ، وعن شيخه أبي العباس أحمد بن موسى البطرني بسندهما .

ومنها عن شيخنا الأستاذ أبي عبدالله محمد بن الصّفّار المرّاكشي ، شيخ القراءات بالمغرب ، سمعتُ عليه بعض هذا الكتاب بمجلس السلطان أبي عثمان ملك المغرب ، وهو يُسمعه إياه ، وأجازني بسائره ؛ وهو يروي عن شيخه مُحدِّث المغرب أبي عبدالله محمد بن رشيد الفهري السبتي (٣) عن مشيخة أهل سبتة ، وأهل الأندلس ، حسماً ذلك مذكور في كتب رواياتهم وطرق أسانيدهم ، إلا أنّها لم تحضرنني الآن ، وفيما ذكرناه كفاية والله يوفقنا أجمعين لطاعته وهذا حين ابتدئ ، وبالله أهتدي .

وانفضَّ ذلك المجلس ، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون ، واستشعرت أهليتي للمناصب القلوب ، وأخلص النجبي في ذلك الخاصة والجمهور ، وأنا أنتاب مجلس السلطان في أكثر الأحيان ، لتأدية الواجب من التّحية والمُشافهة بالدُّعاء ، الى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية ، فأبعده ، وأخره عن خِطة القضاء في رجب ست وثمانين وسبعمائة ، ودعاني للولاية في مجلسه ، وبين أمراءه فتفاديتُ من ذلك ، وأبى إلا إمضاءه ، وخلع عليّ ، وبعث الأمراء

(١) سليمان بن خلف بن سعد بن ايوب ابو الوليد القاضي . رحل الى المشرق ، وعاد الى الاندلس بعلم كثير (٤٠٣ - ٤٩٤) . ديباج ص ١٢٠ .

(٢) اللامية المسماة بحرز الاماني ، والمشهورة بالشاطبية ، والرائية ، وتسمى « عقيلة اتراب القصائد » .

(٣) هو ابو عبدالله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي (٦٥٧ - ٧٢١) .

معي إلى مقعد الحكم بمدرسة القضاء ، فقيمت في ذلك المقام المحمود ، ووفيت عهد الله وعهده في إقامة رسوم الحق ، وتحري المعدلة ، حتى سخطني من لم ترضه أحكام الله ، ووقع في ذلك ما تقدم ذكره ، وكثر شغب أهل الباطل والمراء ، فأعفاني السلطان منها لحول من يوم الولاية ، وكان تقدمها وصول الخبر بغرق السفين الواصل من تونس إلى الأسكندرية ، وتلف الموجود والمولود ، وعظم الأسف ، وحسن العزاء ، والله قادر على ما يشاء .

ثم خرجت عام تسعة وثمانين وسبعائة لقضاء الفرض ، وركبت بحر السويس من الطور إلى الينبع ، ورافقت المحمل إلى مكة ، فقضيت الحج عامئذ ، وعدت إلى مصر في البحر كما سافرت أولاً . وشغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلغتمش ، فولاني السلطان إياها بدلاً من مدرسته في محرم أحد وتسعين وسبعائة ، ومضيت على حالي من الانقباض ، والتدريس ، والتأليف ، حتى ولاني خانقاه بيبرس ، ثم عزلني عنها بعد سنة أو يزيد ، بسبب أنا أذكره الآن .

* (ولاية خانقاه بيبرس ، والغزل منها) *

لما رجعت من قضاء الفرض سنة تسعين وسبعائة ، ومضيت على حالي من التدريس والتأليف ، وتعاهد السلطان باللقاء والتحية والدعاء ، وهو ينظر إلي بعين الشفقة ، ويحسن المواعيد . وكانت بالقاهرة خانقاه سيدها السلطان بيبرس ، ثامن ملوك الترك الذي استبد على الناصر محمد بن قلاوون^(١) هو ورفيقه سلار^(٢) وأنف الناصر من استبدادهما ، وخرج للصيد ، فلما حاذى الكرك امتنع به ، وتركهم وشأنهم ، فجلس بيبرس على التخت مكانه ، وكاتب الناصر أمراء الشام من ممالك أبيه ، واستدعوه للقيام معه ، وزحف بهم إلى مصر ، وعاد إلى سلطاناه ، وقتل بيبرس

(١) هو الملك الناصر محمد بن الملك المنصور ابن قلاوون . تولى الملك ثلاث مرات كانت الأخيرة منها في سنة

٧٠٩ ، وبقي ملكاً حتى مات سنة ٧٤١ ، وعمره ٥٨ سنة . الخطط طبع مصر ٩٨/٤ — ١٠٢ .

(٢) الامير سيف الدين سلار المنصوري ، كان من أسرى التتار ، فخلص وصار مولى لعلاء الدين علي بن

المنصور بن قلاوون ، واليه ينتسب ؛ ساءت علاقته بالناصر ، فاعتقله ، واستصفي أمواله وقتله . راجع

المجلد الخامس من هذا الكتاب .

وسلار سنة ثمانٍ وسبعائة^(١) . وشيد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر^(٢) من أعظم المصانع وأحفلها ، وأوفرها ريعاً ، وأكثرها أوقافاً ، وعين مشيختها ، ونظرها لمن يستعد له بشرطه في وقفه ، فكان رزقُ النَّظَرِ فيها والمشيخة واسعاً لمن يتولاه ، وكان ناظرها يومئذ شرف الدين الأشقر إمام السلطان الظاهر . فتوفي عند منصرفي من قضاء الفرض ، فولاني السلطان مكانه توسعة عليّ ، وإحساناً إليّ ، وأقت علي ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري .

فتنة الناصري

* (وسياقه الخبر عنها بعد تقديم كلام في أحوال الدول يليق بهذا الموضع ، ويطلعك على أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدرج الى الضخامة والاستيلاء ، ثم الى الضعف والاضمحلال ، والله بالغ أمره) *

وذلك أن الدول الكليّة ، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحداً بعد واحد ، في مدة طويلة ، قائمين على ذلك بعصبيّة النسب أو الولاء ، وهذا كان الأصل في استيلائهم وتغلّبهم ، فلا يزالون كذلك إلى انقراضهم ، وغلب مستحقين آخرين يتزعونهم من أيديهم بالعصبيّة التي يقتدرون بها على ذلك ، ويحوزون الأعمال التي كانت بأيدي الدولة الأولى ؛ يفضون جبايتها بينهم على تفاضل البأس والرّجولة والكثرة في العصابة أو القلّة ؛ وهم على حالهم من الخشونة لمعانة البأس ، والإقلال من العيش لاستصحاب حال البداوة ، وعدم الثروة من قبل . ثم تنمو الثروة فيهم بنمو الجباية التي ملكوها ، ويُنزَيْن حُبُّ الشّهوات للإقتدار عليها ، فيعظم الترف في الملابس والمطاعم والمساكن والمراكب والممالك ، وسائر الأحوال ، ويتزايد شيئاً فشيئاً

(١) في المجلد الخامس من هذا الكتاب : ان ذلك كان في سنة ٧١ وهو الأشبه بالصواب ، لأن الناصر عاد الى الملك في سنة ٧٠٩ .

(٢) كذا بالأصل . ويظهر ان هنا كلمة سقطت أثناء النسخ . ومقتضى السياق :

« وشيد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر خانقاه ، وهي من أعظم المصانع واحفلها ... الخ » .

بِتَزَايِدِ النُّعْمِ وَتَتَّسِعُ الْأَحْوَالُ أَوْسَعَ مَا تَكُونُ ، وَيَقْصُرُ الدَّخْلُ عَنِ الْخَرْجِ ، وَتَضْيِقُ الْعِجَابِيَّةُ عَنِ أَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَأَحْوَالِهِمْ ، وَيَحْصُلُ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِمَّنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ، لِأَنَّ النَّاسَ تَبِعَ لِلْمُلُوكِ وَدَوْلَتِهِمْ ، وَيُرَاجِعُ كُلُّ أَحَدٍ نَظْرَهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَرْجِعُ وَرَاءَهُ ، وَيَطْلُبُ كِفَاءَ خَرْجِهِ بِدَخْلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْبَأْسَ يَقِلُّ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِمَا ذَهَبَ لَهُمْ مِنَ الْخَشُونَةِ ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ رِقَّةِ الْحَاشِيَةِ وَالتَّنْعَمِ ؛ فَيَتَطَاوَلُ مِنْ بَقِيٍّ مِنْ رُؤَسَاءِ الدَّوْلَةِ إِلَى الْإِسْتِبْدَادِ بِهَا غَيْرَةً عَلَيْهَا مِنَ الْخَلَلِ الْوَاقِعِ بِهَا . وَيَسْتَعِدُّ لِذَلِكَ بِمَا بَقِيَ عِنْدَهُ مِنَ الْخَشُونَةِ ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِقْلَاعِ عَنِ التَّرَفِّ ، وَيَسْتَأْنِفُ لِذَلِكَ الْعِصَابَةَ بِعَشِيرَةٍ أَوْ بَمَنْ يَدْعُوهُ لِذَلِكَ ؛ فَيَسْتَوْلِي عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَيَأْخُذُ فِي دَوَائِمِهَا مِنَ الْخَلَلِ الْوَاقِعِ ؛ وَهُوَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ ، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ ؛ فَيَصِيرُ الْمُلْكُ لَهُ ، وَفِي عَشِيرِهِ ؛ وَتَصِيرُ كَأَنَّهَا دَوْلَةٌ أُخْرَى ، تَمُرُّ عَلَيْهَا الْأَوْقَاتُ . وَيَقَعُ فِيهَا مَا وَقَعُ فِي الْأُولَى ؛ فَيَسْتَوْلِي آخَرٌ مِنْهُمْ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ تَنْقَرُضَ الدَّوْلَةُ بِأَسْرِهَا ، وَتَخْرُجَ عَنِ الْقَوْمِ الْأَوَّلِينَ أَجْمَعِ . وَتَأْتِي دَوْلَةٌ أُخْرَى مُبَايِنَةٌ لِعِصَابَةِ هَؤُلَاءِ فِي النَّسَبِ ، أَوْ الْوَلَاءِ . سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

وَكَانَ مَبْدَأُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الزَّرْكِيَّةِ ، أَنَّ بَنِي أَيُّوبَ لَمَّا مَلَكَوا مِصْرَ وَالشَّامَ ، كَمَا قَصَّصْنَا عَلَيْكَ فِي أَخْبَارِهِمْ وَاسْتَقْلَّ بِهَا كَبِيرُهُمْ صِلَاحُ الدِّينِ ، وَشَغِلَ بِالْجِهَادِ وَانْتَرَعَ الْقِلَاعَ وَالْحُصُونِ مِنْ أَيْدِي الْفَرَنْجِ الَّذِينَ مَلَكَوْهَا بِالسَّوَاخِلِ ، وَكَانَ قَلِيلَ الْعِصَابَةِ ، إِنَّمَا كَانَ عَشِيرُهُ مِنَ الْكُرْدِ يُعْرَفُونَ بِبَنِي هَدَّانٍ^(١) ، وَهُمْ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّمَا كَثُرَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، بِهَمَّةِ الْجِهَادِ الَّذِي كَانَ صِلَاحُ الدِّينِ يَدْعُو إِلَيْهِ ؛ فَعَظُمَتِ عِصَابَتُهُ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْمَعَ دَاعِيَهُ ، وَنَصَرَ اللَّهُ الدِّينَ عَلَى يَدِهِ . وَانْتَرَعَ السَّوَاخِلَ كُلَّهَا مِنْ أَيْدِي نَصَارَى الْفَرَنْجِ ، حَتَّى مَسْجِدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مَلَكَوهُ وَأَفْحَشُوا فِيهِ بِالْقَتْلِ وَالسَّبِيِّ ؛ فَأَذْهَبَ اللَّهُ هَذِهِ الْوَضْعَةَ عَلَى يَدِ صِلَاحِ الدِّينِ ، وَانْقَسَمَ مُلْكُ بَنِي أَيُّوبَ بَعْدَهُ بَيْنَ وَلَدِهِ وَوَلَدِ أَخِيهِ . وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ ؛ وَاقْتَسَمُوا مَدُنَ الشَّامِ ، وَمِصْرَ بَيْنَهُمْ ، إِلَى أَنْ جَاءَ آخِرُهُمُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ بْنُ الْكَامِلِ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي صِلَاحِ الدِّينِ ، وَأَرَادَ الْإِسْتِكْثَارَ مِنَ الْعِصَابَةِ لِحَمَايَةِ الدَّوْلَةِ ، وَإِقَامَةِ رِسْمِ الْمُلْكِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ بِاتِّخَاذِ الْمَالِيكَ ، وَالْإِكْثَارِ مِنْهُمْ ، كَمَا كَانَ

(١) بفتح الهاء ، والذال المعجمة ، وبعدها ألف ، ثم نون ؛ وهي قبيلة كبيرة من قبائل الأكراد وفيات

آخراً في الدولة العباسية ببغداد ؛ وأخذ التجار في جلبهم إليه ، فاشترى منهم أعداداً ، وأقام لتربيتهم أساتيداً^(١) معلمين لحرفة الجندية ، من الثقافة والرمي ، بعد تعليم الآداب الدينية والخلقية إلى أن اجتمع له منهم عددٌ جمٌ يناهز الألف ؛ وكان مقيماً بأحواز دِمياط^(٢) في حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلبين على حصنها دِمياط . وكان أبوه قد اتخذ لتزله هنالك قلعةً سماها المنصورة^(٣) ، وبها توفي رحمه الله ، فكان نجم الدين نازلاً في مُدافعة ساكني دِمياط من الفرنج ، فأصابه هنالك حدث الموت ، وكان ابنه المعظم تُوْرُنشاه نائباً في حصن كَيْفَا^(٤) من ديار بكر وراء الفُرات ، فاجتمع الجندُ على بيعته ، وبعثوا عنه ، وانتظروا . وتَقَطَّنَ الفرنج لشأنهم ، فهجموا عليهم ، واقتتلوا فنصر الله المسلمين ، وأسر ملك الفرنج رَيْدِ اِفْرَنْس ؛ فبعثوا به إلى مصر . وحُبِسَ بدار لُقْمَان ، إلى أن فادَّوهُ بِدِمياط ، كما هو مذكور في أخبار بني أيوب . ونصَّبوا — للمُلك ، ولهذا اللقاء — زوجة الصالح أيوب واسمها شَجْرُ الدُرِّ^(٥) ، فكانت تحكم بين الجند ، وتكتب على المراسيم^(٦) ، وركبت يوم لقاء الفرنج ، تحت الصَّنَاجِقِ^(٧) ، والجندُ مُخَدِّقون بها ، حتى أعزَّ الله دينه ، وأتمَّ نصره . ثم وصل تُوْرُنشاه المعظم ؛ فأقاموه في خِطَّة المُلْك مكان أبيه الصالح

(١) اساتيد وأساتذة ج استاذ : معلم .

(٢) وقد ضبطها ابن خلدون بخطه بالحركات ، بكسر الذال المعجمة ؛ وقد حكى الاعجام الزبيدي في «تاج العروس» ، والسمعاني في «الانساب» عن أبي محمد بن أبي حبيب الاندلسي قال السمعياني معقبا : «وما عرفناه الا بالذال المهملة» . (معجم البلدان) ، تاج العروس (دمط ، ذمط) .

(٣) بلدة أنشأها الملك الكامل بن العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة ، ورابط فيها في وجه الافرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة ٦١٦ ، ولم يزل بها حتى استنفذ دمياط في رجب سنة ٦١٨ . (معجم البلدان) .

(٤) حصن كيفا : قلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجيزة ابن عمر من ديار بكر . (معجم البلدان) .

(٥) بعضهم يكتبها : «شجرة الدر» ، وكان يخطب باسمها على المنابر ، ونقشت على «السكة» ، وكان نقشها : «السكة المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة المنصور خليل» ، وخليل هذا ابنها من الملك الصالح توفي في حياة أبيه ، وكانت تكتفي به . العبر ٥ ، الخطط ٢٣٧/٢ بولاق .

(٦) يعني اتخذت لها «علامة» تحتم بها على المراسيم ، وكانت علامتها — فيما يرى ابن خلدون : «أم خليل» ، أما ابن الوردي فيقول : «والدة خليل» . العبر م ٥ ، ابن الوردي ١٨٣/٢ .

(٧) جمع سنجق وهو الأصل الرمح ، وكانت تجعل في رأسه الراية ، ومن ثم أصبح معناه : الراية مباشرة . صح الاعشى ٤٥٨/٥ .

أيوب ، ووصل معه ممالك يُدُلُّون بمكانهم منه ، ولهم به اختصاص ، ومنه مكان ؛ وكان رؤساء الترك يومئذ القائمون بالدولة من عهد أبيه وجدّه . أَقْطَايَ الْجَمْدَارِ (١) وَأَيْبِكُ التُّرْكَمَانِي ، وَقَلَاوُنُ الصَّالِحِي ، فَأَنْفُوا مِنْ تَصْرِفَاتِ مَمَالِكِ تُوْرُنْشَاه ، وَاسْتَعْلَانَهُمْ بِالْحِظِّ مِنَ السُّلْطَانِ ، وَسَخَطُوهُمْ وَسَخَطُوهُ ، وَأَجْمَعُوا قَتْلَهُ . فَلَمَّا رَحَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ اغْتَالُوهُ فِي طَرِيقِهِ بِفَارْسُكُو ، وَقَتَلُوهُ ، وَنَصَبُوا لِلْأَمْرِ أَيْبِكُ التُّرْكَمَانِي مِنْهُمْ ، وَاسْتَحْدَثُوا هَذِهِ الدَّوْلَةَ التُّرْكِيَّةَ كَمَا شَرَحْنَاهُ فِي أَخْبَارِهَا ؛ وَهَلَكَ بَعْدَ أَيْبِكُ ابْنُهُ عَلِيُّ الْمَنْصُورِ ، ثُمَّ مَوْلَاهُ قُطْزٌ ، ثُمَّ الظَّاهِرُ بَيْبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِي (٢) . ثُمَّ ظَهَرَ أَمْرُ الطُّطَّرِ (٣) ، وَاسْتَفْحَلَ مَلِكُهُمْ . وَزَحَفَ هُوَلَاكُو بْنُ طُولِي بْنِ جَنْكِيْزْخَانَ مِنْ خِرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ ؛ فَمَلِكُهَا ، وَقَتَلَ الْخَلِيفَةَ الْمُسْتَعْصِمَ آخِرَ بَنِي الْعَبَّاسِ . ثُمَّ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ ؛ فَمَلِكُ مَدَنِهِ وَحَوَاضِرِهِ مِنْ أَيْدِي بَنِي أَيُوبَ ، إِلَى أَنْ اسْتَوْعَبَهَا . وَجَاءَ الْخَبْرَ بِأَنَّ بَرَكَةَ صَرَّائِي شَرِيكَهُ فِي نَسَبِ جَنْكِيْزْخَانَ ، زَحَفَ إِلَى خِرَاسَانَ ؛ فَامْتَعِضَ لِدَلِكِ ، وَكَّرَّ رَاجِعًا ، وَشُغِلَ بِالْفِتْنَةِ مَعَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ . وَخَرَجَ قُطْزٌ مِنْ مِصْرَ عِنْدَمَا شُغِلَ هُوَلَاكُو بِفِتْنَةِ بَرَكَةَ ؛ فَمَلِكُ الشَّامِ كُلِّهِ ، أَمْصَارَهُ وَمُدَنَهُ ، وَأَصَارَهُ لِلتُّرْكِ مَوَالِي بَنِي أَيُوبَ . وَاسْتَفْحَلَتْ دَوْلَةُ هُوَلَاءِ الْمَمَالِكِ ، وَاتَّصَلَتْ أَيَّامُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، كَمَا ذَكَرْنَا فِي أَخْبَارِهِمْ . ثُمَّ جَاءَ قَلَاوُنُ عِنْدَمَا مَلَكَ بَيْبَرْسُ الظَّاهِرُ مِنْهُمْ ؛ فَتَظَاهَرَ بِهِ ، وَأَضْهَرَ إِلَيْهِ ، وَالتَّرَفُ يَوْمئِذٍ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُمْ ، وَالشَّدَّةُ وَالشُّكِيمَةُ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ ، وَالْبَأْسُ وَالرَّجُولَةُ شَعَارُهُمْ ؛ وَهَلَكَ الظَّاهِرُ بَيْبَرْسُ ، وَابْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِ ، كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ . وَقَامَ قَلَاوُونُ بِالْأَمْرِ ، فَاتَّسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِ ، وَطَالَ ذِرْعُ سُلْطَانِهِ ، وَقَصُرَتْ أَيْدِي الطُّطَّرِ عَنِ الشَّامِ بِمَهْلِكِ هُوَلَاكُو ، وَوَلَايَةِ الْأَصَاغِرِ مِنْ وَلَدِهِ ؛ فَعَظُمَ مُلْكُ قَلَاوُنَ ، وَحَسُنَتْ آثَارُ سِيَاسَتِهِ ، وَأَصْبَحَ حِجَّةً عَلَى مَنْ بَعْدَهُ ؛ ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ ابْنَاهُ : خَلِيلُ الْأَشْرَفِ ، ثُمَّ مُحَمَّدُ النَّاصِرِ . وَطَالَتْ أَيَّامُهُ ، وَكَثُرَتْ عَصَابَتُهُ مِنْ مَمَالِكِهِ ،

(١) أخبار أقطاي مفصلة في العبر ٥ م . والجمدار : هو الذي يتولى الباس السلطان ، أو الأمير ثيابه ؛ وأصله جاما دار فحذف المد منه فقيل : جمدار ، وهو مركب من كلمتين فارسيتين : «جاما» . ومعناها ثوب ، و«دار» ، ومعناها : ممسك . صبح الاعشى ٥/٥٥٩ .

(٢) أنظر ترجمته في الخطط ٢/٣٠٠ ، ٢٣٨ بولاق . وخير تولى السلطنة في العبر ٥ . والبندقداري : هو الذي يحمل غرارة البندق خلف السلطان . والبندق : الذي يرمي به وأصله البندق الذي يؤكل ، وهو في العربية الجلوز ؛ صبح الاعشى ٥/٥٥٧ .

(٣) كذا بالأصل ، وهي : التتر .

حتى كَمُلَ منهم عدد لم يقع لغيره . ورتب للدولة المراتب ، وقدم منهم في كل رتبة
الأمرء ، وأوسع لهم الأقطاع والولايات ، حتى توفرت أرزاقهم واتسعت بالترف
أحوالهم . ورحل أرباب البضائع من العلماء والتجار إلى مصر ؛ فأوسعهم حياءً وبراً .
وتنافست أمراء دولته في اتخاذ المدارس والربط والخوانق ، وأصبحت دولتهم غرة في
الزمان ، وواسطة في الدول . ثم هلك الناصر بعد أربعين وسبعائة ، فطفق أمراء دولته
ينصبون بنيه للملك ، واحداً بعد آخر ، مستبدين عليهم ، متنافسين في الملك ، حتى
يغلب واحد منهم الآخر ، فيقتله ، ويقتل سلطانه من أولاد الناصر ، وينصب آخر
منهم مكانه ، إلى أن انساق الأمر لولده حسن النصر ؛ فقتل مستبدته شيخون ، وملك
أمره . وألقى زمام الدولة بيد مملوكه يلبغا ؛ فقام بها ، ونافسه أقرانه ، وأغروا به
سلطانه ؛ فأجمع قتله . ونمي إليه الخبر وهو في علوفة البرسيم عند خيله المرتبطة
لذلك ؛ فاعتزم على الامتناع ، واستعد للقاء . واستدعاه سلطانه ؛ فتأقل عن
القدوم . واستشاط السلطان ، وركب في خاصته إليه ، فركب هو لمصادمته . وهاجم
السلطان فقله ، ورجع إلى القلعة ، وهو في أتباعه ، فلم يلفه بقصره ، وأغرى به
البحث فتقبض عليه ، واستصفاه ، وقتله ؛ ونصب للملك محمد المنصور بن المظفر
حاجي بن الناصر . وقام بالدولة أحسن قيام ، وأغرى نفسه بالاستكثار من الماليك ،
وتهذيبهم بالتربية ، وتوفير النعم عندهم بالإقطاع ، والولايات ، حتى كَمُلَ منهم عدد
لم تعهده الدولة . ثم خلع المنصور بن المظفر لستين ، ونصب مكانه
للملك شعبان الأشرف بن حسين بن الناصر ؛ فأقام على التخت وهو في
كفالته ؛ وهو على أوله في إعزاز الدولة ، وإظهار الترف والثروة . حتى ظهرت مخايل
العز والنعم ، في المساكن والجياد والماليك والزينة ؛ ثم بطروا النعمة ؛ وكفروا
الحقوق ، فحنقوا عليه لما كان يتجاوز الحدود بهم في الآداب ؛ فهموا بقتله وخلصوا
نجياً لذلك في متصيدهم الشتوي ، وقد برزوا له بخيامهم وسلطانهم على عاداتهم .
ولما أحس بذلك ركب نجياً بنفسه إلى القاهرة ؛ فدخلوا على السلطان الأشرف ،
وجاءوا به على إثره ، وأجازوا البحر ؛ فقبضوا عليه عشي يومهم . ثم قتلوه في
محبسه عشاء . وانطلقت أيديهم على أهل البلد بمنعرات لم يعهدوها من أول
دولتهم ، من النهب والتخطف وطروق المنازل والحمامات للعبث بالحرم ، وإطلاق
أعنة الشهوات والبغي في كل ناحية ؛ فمرج أمر الناس ، ورفع الأمر إلى السلطان .

وَكثَرَ الدِّعَاءَ وَاللَّجَأَ إِلَى اللَّهِ . واجتمع أكابر الأمر إلى السلطان ، وفاوضوه في كفِّ عاديّتهم ؛ فأمرهم بالركوب ، ونادى في جنده ورعيته بانطلاق الأيدي عليهم ، والاحتياط بهم في قبضة القهر ؛ فلم يكن إلا كَلَمَحَ البَصَرِ ، وإذا بهم في قبضة الأسر . ثم عُمِرَت بهم السُّجُونُ ، وصُفِّدُوا وطِيفَ بهم على الجبال ينادى بهم ، إبلاغاً في الشهرة ؛ ثم وَسَّطَ (١) أكثرهم ، وتَبَعَ البقيّة بالنفي والحبس بالثغور القصية ، ثم أُطْلِقُوا بعد ذلك . وكان فيمن أطلق جماعة منهم بحبس الكرك : فيهم بَرَقُوقُ الذي ملك أمرهم بعد ذلك ، وبركة الجوباني (٢) ، والطنبغا الجوباني (٣) وجهر كس الخليلي .

وكان طشتمر (٤) ، دوادار يلبغا (٥) ، قد لطف محله عند السلطان الأشرف ، وولي الدوادارية له ، وكان يؤمل الاستبداد كما كان أستاذه يلبغا ، فكان يحتال في ذلك يجمع هؤلاء المماليك اليلبغاوية من حيث سقطوا ، يريد بذلك اجتماعهم عصبية له على هواه ، ويغري السلطان بها شفاهاً ورسالة ، إلى أن اجتمع أكثرهم بباب السلطان الأشرف ، وجعلهم في خدمة ابنه عليّ وليّ عهده . فلما كثروا ، وأخذتهم أريحية العزّ بعصبيّتهم ، صاروا يشتطون على السلطان في المطالب ، ويعتزون بعصبيّة اليلبغاوية . واعتزم السلطان الأشرف عام سبعة وسبعين وسبعمئة على قضاء الفرض ، فخرج لذلك خروجاً فخماً ، واستناب ابنه عليّاً على قلّعتيه ومملكه في كفالة قرطاي (٦) من أكابر اليلبغاوية ، وأخرج معه الخليفة والقضاة ، فلما بلغ العقبة (٧) اشتط المماليك في

(١) وسطه توسيطاً : قطعه نصفين ، ويقال قتل فلان موسطاً .

(٢) هو بركة بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي الامير زين الدين . كان أميراً شجاعاً يحب العلماء ؛ له مآثر خيرية بمكة ، والحرم ، وبطريق المدينة . قتل سنة ٨٧٢ .

(٣) علاء الدين الطنبغا بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي الأمير ؛ كان من خيار الامراء دينا ، وعقلا وشجاعاً . مات في الواقعة بين منطاش والناصرى خارج دمشق سنة ٧٩٢ هـ ، وكان صديقاً لابن خلدون ، وقد عرف به وأثنى عليه في العبرم ٥ .

(٤) طشتمر بن عبد الله العلاءي الدوادار الامير سيف الدين ، توفي في دمياط منفياً سنة ٧٨٦ . أثنى عليه ابن تغري بردي كثيراً بمقدار ما قدح في بركة ، والظاهر برقوق .

(٥) لقب للذي يمسك دواة السلطان او الأمير ، ويتولى من الأمور ما يلزم هذا المعنى ، من حكم ، أو تنفيذ أمور ، أو غير ذلك . صبح الأعشى ٤٦٢/٥ .

(٦) قرطاي (أو قرطاي) بن عبد الله المعزي الأشرفي سيف الدين ، رفيق أئبنك ، وصهره ، وكان من أصاغر الأمراء في دولة الأشرف شعبان بن حسين ، ولكنه أصبح في أيام ولده عليّ أمير مئة ، ثم مقدم ألف . وأختلف مع صديقه أئبنك ، فحبسه إلى أن مات سنة ٧٧٩ .

(٧) موقعها في النهاية الشرقية الشمالية لخليج العقبة .

طلب جريتهم من العلوقة والزاد ، واشتط الذين بمصر كذلك في طلب أرزاقهم من المتولين للجباية . وصار الذين مع السلطان إلى المكاشفة في ذلك بالأقوال والأفعال ، وطشتمر الدوادار يُغضبي عنهم يحسب وقت استبداده قد أرف ، إلى أن راغمهم السلطان بالزجر ؛ فركبوا عليه هنالك ، وركب من خيامه مع لفيف من خاصته ، فنصحوه بالنبل ، ورجع إلى خيامه ، ثم ركب الهجن مساء ، وسار فصبح القاهرة ، وعرس هو ولفيفه بقبة النصر .

وكان قرطاي كافل ابنه علي المنصور ، حدث بينه وبين ناظر الخاص المقيمي مكاملة عند مغيب السلطان أحقدته . وجاشت بها كان في نفسه ؛ فأغرى علياً المنصور بن السلطان بالتوثب على الملك ، فارتاح لذلك وأجابه ، وأصبح يوم ثورة الممالك بالعقبة ؛ وقد أجلس علياً مكفوله بباب الإسطبل ، وعقد له الراية بالنداء على جلوسه بالتخت ؛ وبينما هم في ذلك ، صبحهم الخبر بوصول السلطان الأشرف إلى قبة النصر ليئلتد ، فطاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا ؛ فوجدوا أصحابه نياماً هنالك ، وقد تسلل من بينهم هو ويئلبغا الناصري^(١) من أكابر اليئلبغاوية ؛ فقطوا رؤوسهم جميعاً ، ورجعوا بها تسيل دماً . ووجموا لفقدان الأشرف ، وتابعوا النداء عليه ، وإذا بامرأة قد دلتهم عليه في مكانٍ عرفته ؛ فتسابقوا إليه ، وجاءوا به فقتلوه لوقته بخلع أكتافه ، وانعقدت بيعة ابنه المنصور . وجاء طشتمر الدوادار من الغد بمن بقي بالعقبة من الحرّم ، ومُخلف السلطان ، واعترم على قتالهم طمعاً في الاستبداد الذي في نفسه ؛ فدافعوه وغلبوه وحصل في قبضتهم ، فخلعوا عليه بنيابة الشام ، وصرفوه لذلك ، وأقاموا في سلطانهم . وكان أئنبك أميراً آخر من اليئلبغاوية^(٢) قد ساهم قرطاي في هذا الحادث ، وأصهر إليه في بعض حرّمه ؛ فاستنام له قرطاي ، وطمع هو في الاستيلاء . وكان قرطاي مواصلاً صبوحة بغبوقه ، ويستغرق في ذلك ؛ فركب في بعض أيامه ؛ وأركب معه السلطان عليا ، واحتاز الأمر من يد قرطاي ،

(١) يلبغا بن عبدالله الناصري الاتابكي الأمير سيف الدين . وهو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر بظاهر دمشق . الدرر الكامنة ٤/٤٤٠ — ٤٤٢ .

(٢) أئنبك بن عبدالله البدري الأمير سيف الدين . كان هو وقرطاي صاحبي الحل والعقد في الدولة . استبد بالمنصور بن الأشرف . ثم تغلب عليه يلبغا الناصري وأودعه سجن الاسكندرية .

وصيره إلى صفد^(١) ، واستقلَّ بالدولة ، ثم انتقض طشتمر بالشام مع سائر أمرائه ؛ فخرج أَيْنَبَك في العساكر ، وسرَّح المقدِّمة مع جماعة من الأمراء ؛ وكان منهم بَرْقُوق وبركة المستوليان عَقِبَ ذلك ؛ وخرج هُوَ والسُلطان في السَّاقَةِ^(٢) ؛ فلما انتهوا إلى بُلْبِيس ، ثار الأمراء الذين في المقدمة عليه ، ورجع إليه أخوه مُنْهَزِماً ؛ فرجع إلى القلعة . ثم اختلف عليه الأمراء ، وطالبوه بالحرب في قُبَّةِ النَّصْر ؛ فسرح العساكر لذلك ؛ فلما فصلوا فرَّ هو هارباً ، وقبض عليه وثُقِفَ بالإسكندرية . واجتمع أمراء اليلبغاوية يقدمهم قطلقتمر العلاني ، ويُلْبِغا النَّاصري ودُمُرْدَاش اليوسفي وبركة وبرقوق ؛ فتصدى دُمُرْدَاش ويُلْبِغا وبركة وبرقوق ، إلى الاستقلال بالأمر وتغلبوا على سائر الأمراء ؛ واعتقلوهم بالإسكندرية . وفوضوا الأمر إلى يُلْبِغا النَّاصري ، وهم يرونه غير خبير ، فأشاروا باستدعاء طشتمر ، وبعثوا إليه ، وانتظروا . فلما جاءه الخبر بذلك ظنَّها مَنِيَّةَ نفسه ، وسار إلى مصر ؛ فدفعوا الأمر إليه ، وجعلوا له التولية والعزل وأخذ بَرْقُوق ، وبركة يستكثران من الماليك ، بالاستخدام والجاه ، وتوفير الاقطاع ، إكثافاً لعصبيتها ؛ فانصرفت الوجوه عن سواهما ، وارتاب طشتمر بنفسه ، وأغراه أصحابه بالتوثب ؛ ولما كان الأضحى في سنة تسع وسبعين وسبعمئة استعجل أصحابه على غير رَوِيَّة ، وركبوا وبعثوا إليه فأحجم ، وقاتلوا فانهزموا . وتقبض على طشتمر ، وحُبِسَ بالإسكندرية ، وبعث معه يُلْبِغا النَّاصري ، ونحلت الدولة للأميرين برقوق وبركة من المنازعين ، وعمروا المراتب بأصحابها . ثم كثر شغبُ التُّركُمَانِ والعربِ بنواحي الشام ، فدفعوا يُلْبِغا النَّاصري إلى النِّيابة بحلب ليستكفوا به في تلك الناحية . ثم تنافس بَرْقُوق وبركة في الاستقلال ، وأضمر كلُّ واحد منها لصاحبه ، وخشي منه ؛ فقبض برقوق على بطانة بركة من عصابته ليخصَّ بذلك جناحه ؛ فارتاع لذلك بركة ، وخرج بعصابته إلى قُبَّةِ النَّصْر ليواضع برقوقاً وأصحابه الحرب هنالك ، ورجا أن تكون الدائرة له . وأقام برقوق بمكانه من الاسطبل ، وسرَّب أصحابه في جمعهم إلى مُجَاوِلَةِ أولئك . وأقاموا كذلك أياماً يُغَادُونهم ويراوحونهم ثلاثاً ، إلى أن عَضَّتْ بركة وأصحابه الحرب ؛ فانفضوا عنه ، وجيء ببركة ، وبعث به إلى

(١) صفد : مدينة في شمالي فلسطين ، واقعة في الشمال الغربي لبحيرة طبرية ، قريبة من حدود سوريا في الجنوب الغربي ، ومن حدود لبنان في الجنوب .

(٢) ساقه الجيش : مؤخره .

الإسكندرية ، فحُجِسَ هنالك إلى أن قتله ابن عَرَّام نائب الإسكندرية . وارتفع أصحابه إلى برقوق شاكين ؛ فثارهم منه بإطلاق أيديهم في النَّصْفَةَ ؛ فانتصفوا منه بقتله في ساحة القلعة ، بعد أن سُمِّرَ ، وحُمِلَ على جَمَلٍ عقاباً له ؛ ولم يُقنعهم ذلك ، فأطلق أيديهم فيما شاءوا منه ، ففعلوا ما فعلوا . وانفرد برقوق — بعد ذلك — بحمل الدولة ينظر في أعطافها^(١) بالتهديد ، والتسديد ، والمُقَارَبَةُ^(٢) ، والحرص على مكافأة الدَّخْلِ بالخرَجِ . ونَقَّصَ ما أفاض فيه بنو قلاؤن من الإمعان في الترف ، والسرف في العوائد والنفقات ، حتى صار الكيلُ في الخرج بالمكيال الرَّاجِحِ ، وعجزت الدولة عن تمشية أحوالها ؛ وراقبَ ذلك كله برقوق ، ونظر في سدِّ خلل الدولة منه ، وإصلاحها من مفاصله ، يَعْتَدُّ ذلك ذريعةً للجلوس على التَّخْتِ ، وحياسة إسم السلطان من أولاد قلاؤن ، بما أفسد الترفُ منهم ، وأحال الدولة بسببهم ، إلى أن حصل من ذلك على البغية ، ورَضِيَ به أصحابه وعصابته ؛ فجلس على التَّخْتِ في تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعمئة ، وتلقَّب بالظاهر . ورتبَ أهل عصابته في مراتب الدولة ؛ فقام وقاموا بها أحسن قيام ، وانقلبت الدولة من آل قلاؤن إلى برقوق الظاهر وبنيه . واستمر الحال على ذلك ، ونافسه اليلبغاوية — رُفقاؤه في ولاء يلبغا — فيما صار إليه من الأمر ، وخصوصاً يلبغا نائب حلب ، فاعترم على الانتقاض . وشعر به الظاهر فبعث باستدعائه ؛ فجاء وحبسه مُدَّةً ، ثم رجَّعه إلى نيابة حلب ، وقد وغرَّ صدره من هذه المعاملة . وارتاب به الظاهر ؛ فبعث سنة تسعين وسبعمئة دواداره للقبض عليه ، ويستعين في ذلك بالحاجب . وانتقض ، واستدعى نائبَ مَلْطِيَّةِ^(٣) ، وهو منطاش من أمراء اليلبغاوية ، وكان قد انتقض قبله ، ودعا نواب الشام إلى المسير إلى مصر إلباً على الظاهر ؛ فأجابوه ، وساروا في جملته ، وتحت لوائه ؛ وبلغ الخبر إلى الظاهر برقوق ؛ فأخرج عساكره مع أمراء اليلبغاوية من أصحابه : وهم الدوادار الأكبر يونس^(٤) ،

(١) الأعطاف : الجوانب .

(٢) المقاربة : ترك الغلو في الأمور ، وقصد السداد فيها .

(٣) بفتح الميم واللام ، وسكون الطاء ، ثم ياء مفتوحة ؛ والعامية تكسر الطاء ، وتشدد الياء . تقع في الشمال الغربي لديار بكر من الجمهورية التركية . (معجم البلدان) ، تاج العروس (ملط) .

(٤) يونس بن عبدالله الأمير سيف الدين الدوادار الأكبر لفك الظاهر ، ويعرف بالنوروري (نسبة إلى معتقله الأمير جرجي النوروري) . كان من أعظم دولة الظاهر برقوق ، حارب منطاش ، والناصري ، وعاد في =

وجهرمكس الخليلي أمير الاسطبل ، والأتابكي أيتمش ، وأيدكار حاجب الحجاب^(١) وأحمد بن يلبغا استأذهم^(٢) . وخرج الناصري من حلب في عسكره ، واستنفر العرب والتركمان وأمراء الشام ، ولما تراءى الجمعان بناحية دمشق ، نزع كثير من عسكر السلطان إليهم ، وصدقوا الحملة على من بقي فانفضوا . ونجا ايتمش إلى قلعة دمشق ؛ فدخلها ، وقتل جهرمكس ، ويونس ، ودخل الناصري دمشق ؛ ثم أجمع المسير إلى مصر ، وعميت أنباؤهم حتى أطلوا على مصر .

وفي خلال ذلك أطلق السلطان الخليفة من مَحْبَسِه كان بعض الفواة أنمى عنه ، أنه داخله شيطان من شياطين الجند ، يعرف بقرط^(٣) في قتل السلطان يوم ركوبه إلى الميدان قبل ملكه بسنين ، فلما صحَّ الخبر أمر بقتله ، وحبس الخليفة سبعاً إلى تلك السنة ، فأطلقه عند هذا الواقع ؛ ولما وصل إلى قیطا اجتمعت العساكر ، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غشيَّ الليل ، ثم دخل إلى بيته وخرج متنكراً ، وتسرب في غيابات المدينة ، وباكر الناصري وأصحابه القلعة ، وأمير حاج ابن الأشرف ؛ فأعادوه إلى التخت ولقبوه المنصور . وبعثوا عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية ، وكان فيهم الطنبغا الجوباني الذي كان أمير مجلس^(٤) ، وقبض السلطان الظاهر عليه ، وحبسه أياماً ، ثم أطلقه وبعثه نائباً على دمشق ، ثم ارتفعت عنه الأقوال بأنه يروم الانتقاض ، وداخل الناصري نائب حلب في ذلك ، وأكد ذلك عند السلطان ما كان بينه وبين الناصري من المصافاة والمخالصة ، فبعث عنه . ولما جاء حبسه بالإسكندرية ؛ فلما ملك الناصري مصر ، وأجلس أمير حاج بن

= جيش منهزم إلى القاهرة ، وفي طريقه قتل سنة ٧٩١ عن نيف وستين سنة . خطط المقرئ ٤٢٦/٢ بولاق .

(١) أيدكار بن عبدالله العمري سيف الدين ، كان أحد أعيان الملك الظاهر ، وولاه حجابة الحجاب . ثم انحاز إلى حزب منطاش ، ولما عاد برقوق إلى الملك قبض عليه في سنة ٧٩٤ ، وقتله .

(٢) الأمير شهاب الدين أحمد بن يلبغا العمري الخاصكي ، كان برقوق مملوكاً لوالده ، ولذلك عفا عنه حين انحاز إلى الناصري ومنطاش . ولما مات الظاهر ، ثار ايتمش وآخرون بالشام ؛ فانضم إليهم أحمد بن يلبغا هذا ، وحاربهم فرج بن الظاهر ، فانتصر عليهم ، وقبض على أحمد بن يلبغا ، فقتله في سنة ٨٠٢ .

(٣) قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة ، وكان له اقدام وشجاعة وصل بهما إلى مرادفة الأمراء في مذاهيم . قتل سنة ٧٨٥ .

(٤) معناه صاحب الشورى في الدولة ، وهو ثاني الأتابك ، وتلورتيته . العبرم ٥ صبح الأعشى ٥٥٥/٥ .

الأشرف^(١) على التخت ، بعث عنه ليستعين به على أمره ؛ وارتابوا لغيبة الظاهر ، وبالغوا في البحث عنه ، فاستدعى الجوباني واستنام له ، واستحلفه على الأمان ؛ فحلف له ، وجاء به إلى القلعة بعد أن ساور صاحبه الناصري في المُضَيِّ إلىه وتأمينه . وحبسوه في بعض قصور الملك ، وتشاوروا في أمره ؛ فأشار أمراء اليلبغاوية كلهم بقتله ، وبالغ في ذلك منطاش ، ووصل نُعَيْرُ أمير بني مُهَنَّأ^(٢) بالشام للصحابة بينه وبين الناصري ، فحَضَّهم على قتله ، ومنع الجوباني من ذلك وفاء يمينه ، فغَلَّتْ صُدُورهم منه . واعتزُّوا على بَعَثِهِ إلى الكرك^(٣) ، ودافعوا منطاشاً بأنهم يبعثونه إلى الإسكندرية ، فيعترضه عند البحر بما شاء من رأيه . ووثق بذلك ، فقعده عند المرساة ، وخالفوا به الطريق إلى الكرك ، وولَّوا عليها نائباً وأوصوه به ؛ فأخفق مَسْعَى منطاش ، ودبَّر في اغتيال الدولة ، وتمارض في بيته . وجاءه الجوباني عائداً فقبض عليه ، وحبسه بالإسكندرية ، وركب مُتَقِضاً ، ووقف عند مدرسة الناصر حسن يُعَاَصِرُ الناصري بالقلعة . واستجاش هو بأمراء اليلبغاوية ؛ فداهنوا في إجابته ، ووقفوا بالرَّمِيْلَةِ أمام القلعة . ولم يزل ذلك بينهم أياماً حتى انفضَّ جمع النَّاصِرِي ، وخرج هارباً ؛ فاعترضه أصحاب الطريق بفارسكو ، ورَدُّوه ؛ فَحَبَسَهُ منطاش بالإسكندرية مع صاحبه ، واستقلَّ بأمر الملك . وبعث إلى الكرك بقتل الظاهر ؛ فامتنع النَّائب ، واعتذر بوقوفه على خطِّ السلطان والخليفة والقضاة . وبث الظاهر عطاءً في عامَّة أهل الكرك ؛ فانتدبت طائفة منهم لقتل البريدي الذي جاء في ذلك ، فقتلوه ؛ وأخرجوا الظاهر من محبسه فأصحروا . واستألف أفاريق من العَرَب ، واتصل به بعض مماليكه ، وسار إلى الشام . واعتزَّضه ابن باكيش^(٤) نائب

(١) الملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، يلقب بالمنصور (غير لقبه الصالح إلى المنصور) ، وخلع نفسه يوم أن عاد برقوق إلى الملك .

(٢) نُعَيْرُ بن محمد بن حيار بن مهنا بن مانع ، لبثه القدم الراسخة في الإمارة .

وفي ظفر برقوق به ، وبمنطاش ، يقول الشيخ زين الدين بن ظاهر :

الملك الظاهر في عزه أذل من ضل ومن طاشا
ورد في قبضته طائعاً نعيرا العاصي ومنطاشا

(٣) مدينة في الأردن على بعد ١٤٥ كلم من القدس عرفت قديماً باسم (كبير مؤاب) كانت حصناً للمؤابيين ، احتلها الصليبيون واستردها صلاح الدين سنة ١١٨٨ ، كانت مقر مطرانية منذ أوائل العهد المسيحي كما كانت قاعدة لدولة المماليك سنة ١٣٠٩

(٤) الحسن بن باكيش الأمير بدر الدين التركماني ، نائب غزة من قبل منطاش . قتله الظاهر بالقاهرة سنة ٧٩٣ . وكان مشهوراً بالشجاعة .

غزة^(١) ، فأوقع به الظاهر ، وسار إلى دمشق ، وأخرج منطاش العساكر مع سلطانه أمير حاج ، وسار على التعبئة ليمانع الظاهر عن دمشق . وسبقه الظاهر فنعه جتتمر نائب دمشق^(٢) ، فواقعه ، وأقام محاصراً له . ووصل إليه كمشبقا^(٣) الحموي نائب حلب ، وكان قد أظهر دعوته في عمله ، وتجهز للقائه بعسكره ، فلقيه وأزال عِله ، فأقام له أُبَّهة الملك . وبيناهم في الحصار إذ جاء الخبر بوصول منطاش بسلطانه وعساكره لقتالهم ، فلقبهم الظاهر بشقح^(٤) ، فلما تراءى الجمعان ، حمل الظاهر على السلطان أمير حاج وعساكره ففضَّهم ، وانهمز كمشبقا إلى حلب . وسار منطاش في إتباعه ، فهجم الظاهر على تعبئة أمير حاج ، ففضَّها ، واحتاز السلطان ، والخليفة والقضاة ، ووكل بهم . واختلط الفريقان ، وصاروا في عمياء من أمرهم ، وفرَّ منطاش إلى دمشق . واضطرب الظاهر أخبته^(٥) ، ونزل على دمشق محاصراً لها . وخرج إليه منطاش من الغد فهزمه ، وجمع القضاة والخليفة ، فشهدوا على أمير حاج بالخلع ، وعلى الخليفة بإعادة الظاهر إلى ملكه . ورحل إلى مصر فلقبه بالطريق خبر القلعة بمصر ، وتغلب مماليكه عليها ، وذلك أن القلعة لما خلت من السلطان ومنطاش والحامية ، وكان ممالك السلطان محبوسين هنالك في مطبق أعد لهم ، فتناجوا في التسور منه إلى ظاهره ، والتوُّب على القلعة والملك ، فخرجوا ، وهرب دوادار منطاش الذي كان هنالك بمن كان معه من الحاشية . وملك ممالك الظاهر القلعة ، ورأسهم مملوكه بَطَّا^(٦) وساس أمرهم ، وانتظر خبر سلطانه ، فلما وصل الخبر بذلك إلى الظاهر ، أغدَّ السير إلى مصر . وتلقاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره . ودخل مُنتَصَفَ صفر من سنة إحدى وتسعين وسبعائة ، وولَّى بَطَّا دواداراً ، وبعث عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية ، وأعتبهم ، وأعادهم إلى

(١) مدينة بفلسطين قرب الساحل ، بها ولد الإمام الشافعي ، ويروى له فيها شعر . (معجم البلدان)

(٢) الامير جتتمر التركماني .

(٣) كمشبقا بن عبدالله الحموي اليلغاوي الأمير سيف الدين . توفي سنة ٨٠١ .

(٤) شقح (كجعفر) : موضع قرب دمشق ، نسب إليه جماعة من المحدثين . (تاج العروس) .

(٥) كذا في الاصول ، وهي مكررة في أماكن متعددة من تاريخ العبر . وأظنها محرفة أثناء النسخ عن كلمة (ضرب) . فتصبح العبارة : «وضرب الظاهر أخبته» .

(٦) الأمير بطا الطولوتري ، خلع عليه الظاهر برقوق سنة ٧٩٢ دوادارا ، ثم نائب دمشق ، وليها من قبل استاذة في ذي القعدة سنة ٧٩٣ الى ان توفي بها سنة ٧٩٤ . وانظر تفصيل ثورة بطا ومن كان معه من المسجونين ، في «العبر» المجلد الخامس .

مراتبهم . وبعث الجوباني إلى دمشق ، والناصري إلى حلب كما كانا ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه . وولى سودون على نيابته ، وكان ناظراً بالخانقاه التي كنت فيها ، وكان ينقم عليّ أحوالاً من مُعاصاته فيما يريد من الأحكام في القضاء أزمان كنت عليه ، ومن تصرفات دواداره بالخانقاه ، وكان يستنبه عليها ؛ فوغر صدره من ذلك ؛ وكان الظاهر ينقم علينا معبشراً الفقهاء فتاوى^(١) استدعاها منا منطاش ، وأكرهنا على كتابها ؛ فكتبناها ، ووررنا فيها بما قدرنا عليه . ولم يقبل السلطان ذلك ، وعتب عليه ، وخصوصاً عليّ ؛ فصادف سودون منه إجابةً في إخراج الخانقاه عنّي ، فولّى فيها غيري وعزّلني عنها . وكتبت إلى الجوباني بآيات اعتذر عن ذلك ليطالعه بها ؛ فتغافل عنها ، وأعرض عني مُدّة ، ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه ، ونصّ الأبيات :

سَيِّدِي وَالظُّنُونُ فَيْكَ جَمِيلَةَ	وَأَيَادِيكَ بِالْأَمَانِي كَفِيلَةَ
لَا تَحُلْ عَن جَمِيلِ رَأْيِكَ إِنِّي	مَالِي الْيَوْمَ غَيْرُ رَأْيِكَ حِيلَةَ
وَاصْطَنَعَنِي كَمَا اصْطَنَعْتَ بِإِسْدَا	ءِ يَدٍ مِّنْ شَفَاعَةٍ أَوْ وَسِيلَةَ
لَا قُضِعْنِي فَلَسْتُ مِنْكَ مُضِيعاً	ذِمَّةَ الْحَبِّ ، وَالْأَيَادِي الْجَمِيلَةَ
وَأَجْرَنِي فَالْخُطْبُ عَضُّ بِنَابِيهِ	وَأَجْرِي إِلَى حَيِّ خِيُولِكُهُ

(١) في السلوك : « في ٢٥ قعدة ، احضرت نسخ الفتوى في الملك الظاهر ، وزيد فيها : « واستعان علي قتل المسلمين بالكفار ، وحضر الخليفة المتوكل ، وقضاة القضاة : بدر الدين محمد بن أبي البقاء الشافعي . وابن خلدون ، وسراج الدين عمر بن الملحق الشافعي ، وعدة دون هؤلاء ، في القصر الأبلق ، بحضرة الملك المنصور ، ومنطاش ، وقدمت اليهم الفتوى ، فكتبوا عليها باجمعهم ، وانصرفوا » . وفي تاريخ ابن الفرات :

« وفي يوم الاثنين اجتمعت الأمراء بالقصر الأبلق بقلعة الجبل ، بحضرة السلطان الملك المنصور وحاجي ، والأمير منطاش ، والخليفة محمد ، والقضاة الأربعة ، والشيخ سراج الدين البلقيني ، وولي القاضي جلال الدين عبد الرحمن قاضي العسكر ، وقاضي القضاة بدر الدين بن أبي البقاء الشافعي ، وقضاة العسكر ، ومفتون (كذا) دار العدل ، وكتبت فتاوى تتضمن : هل يجوز قتال الملك الظاهر برفوق أم لا ؟ وذكروا في الفتاوى أشياء تخالف الشرع الشريف ، ومما تضمنته الفتاوى : انه يستعين على قتال المسلمين بالنصارى ، فسألوهم (كذا) الجماعة عن ذلك ، فقيل لهم ان الملك الظاهر معه جماعة من نصارى الشوبك نحو ٦٠٠ نفس يقاتل بهم في عسكره : ولم يكن الأمر كذلك ، وإنما ارادوا التلبس على العلماء المفتين ، فعند ذلك وضعوا (كذا) المذكورون خطوطهم على الفتاوى المذكورة بجواز قتاله ، وانفصل المجلس على ذلك ونودي في بكرة هذا النهار في القاهرة لأجناد الحلقة : أن لا يتأخر أحد منهم عن العرض ، ومن لم يحضر قطع خبزه » .

كنت لي خيرَ معشرٍ وفصيلَته
 أمورَ الدُّنيا له مكفولة
 الكبرى فولاه ثم كان مُديله
 أن كان عَوْنَه ومُنيلَه
 هُرُ فخرُ الدُّنيا وعزُّ القبيلة
 كعاد زلزالُ بأسه أن يُزيلَه
 وتُفري ماذِيَه ونُصولَه^(١)
 في رضاه غُدُوَه وأصيلَه
 خلتي^(٢) يا صفيّة وخليته
 في محفِل العُلا أن يَقُولَه
 هر إذا عدل^(٣) الزمان فُصولَه
 زلتُ أرجيك للأبياد الطويلة
 ونهجتُم الى المعالي سبيلَه
 والحزن بالرضى والسهُولة
 فراقاً وما قضى مأمولَه
 ل وما كان ظنه أن يَغُولَه^(٤)
 اجتاحت عليه فروعَه وأصولَه
 كل ما شاءت العُلا أن تُنيلَه
 إليكم عيَاءه وخُمُولَه
 حاش لله أن تُرى مُستحيلَه
 وأنا من خبرتُ دهرِي وجيلَه

ولو أنني دَعَا بنُصري داعٍ
 أنه أمري الى الذي جعل الله
 وأراه في مُلكه الآيَته
 أشهدته عناية الله في التمحيص
 العزيزُ السلطان والملكُ الظّا
 ومُجيرُ الإسلام من كل خطب
 ومُديل العدو بالطَّعنة النّجلاء
 وشكور لأنعم الله يُفني
 وتلطّف في وصف حالي وشكوى
 قل له والمقالُ يكرم من مثلك
 يا خوند الملوك يا معد الدّ
 لا تقصّر في جبر كسرى فما
 أنا جارٌ لكم منعم حماه
 وغريب أنستموه على الوحشة
 وجمعتم من شملته ففضى الله
 غاله الدهرُ في البنين وفي الأهد
 ورمته النّوى^(٥) فقيداً قد
 فجدبتم بضبعه^(٦) وأنلتم
 ورفعتم من قدره قبل أن
 وفرضتم له حقيقة ودّ
 همة ما عرفتها لسواكم

(١) الطعنة النجلاء : الواسعة العريضة . وتفري : تشق . والمآذي (بالمعجمة) : كل سلاح من الحديد .

والنصول جمع نصل ؛ وهو حديدة السهم .

(٢) الحلة (بالفتح) : الحاجة ، والفقر .

(٣) عدل الحكم : اقامه ، والميزان سواه .

(٤) يشير الى غرق اهله في المركب الذي اقلهم من المغرب ، هو قد تقدم له ذكر هذا .

(٥) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . وهي مؤنثة لا غير .

(٦) الضبع : العضد .

وَالْعِدَا نَمَّقُوا أَحْسَادِيثَ إِفْكٍ
 رَوَّجُوا فِي شَأْنِي غَرَائِبَ زُورٍ
 وَرَمَوْا بِاللَّذِي أَرَادُوا مِنْ
 زَعَمُوا أَنِّي أُتَيْتُ مِنَ الْأَقْوَا
 كَيْفَ لِي أُغْمَطُ الْحَقُوقَ وَأَنْتِي
 كَيْفَ لِي أَنْكُرُ الْأَيْسَادِي الثِّي تَعِ
 إِنْ يَكُنْ ذَا فَقَدْ بَرِئْتُ مِنْ
 طَوْقُونَا أَمْرَ الْكِتَابِ فَكَانَتْ
 لَا وَرَبِّ الْكِتَابِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ
 مَا رَضِينَا بِذَلِكَ فِعْلًا وَلَا جُنَاهُ
 إِنَّمَا سَامَنَّا الْكِتَابَ ظُلُومٍ
 سَخَطُ نَسَاجِزٍ وَحِلْمٌ بَطِيءٌ
 وَدَعْوَانِي وَلَسْتُ مِنْ مَنْصِبِ الْحَكْمِ
 غَيْرَ أَنِّي وَشَى بِذِكْرِي وَاشْ
 فَكْتَبْنَا مَعُولِينَ عَلَى حَلْمِكَ
 مَا أَشْرْنَا بِهِ لِزَيْدٍ وَلَا عَمْرٍ
 إِنَّمَا يَذْكُرُونَ عَمَّنْ وَفِيْمَنْ
 وَيُظَنُّ أَنَّ ذَاكَ عَلَى مَسَا
 وَهُوَ ظَنٌّ عَنِ الصَّوَابِ بَعِيدٌ
 وَجَنَابِ السُّلْطَانِ نَزْهَهُ اللَّهُ
 وَأَجَلُ الْمُلُوكِ قَدْرًا صَفُوحٌ
 فَاقْبَلُوا الْعُذْرَ إِنَّنَا الْيَوْمَ نَرْجُو
 وَاعِينُوا عَلَى الزَّمَانِ غَرِيبًا

كلها في طرائق معلولة
 نصبوها لأمرهم أحبولة
 البهتان ظناً بأنها مقبولة
 ل ما لا يُظنُّ بي أن أقولهُ
 شكرُ نَعْمَاكُم عَلَيَّ الْجَزِيلَةُ ؟
 رِفْهَا الشَّمْسُ وَالظَّلَالُ الظَّلِيلَةُ ؟
 اللَّهُ تَعَالَى وَخُنْتُ جَهْرًا رَسُولَهُ
 لِقِدَاحِ الظُّنُونِ فِينَا مُجِيلَةُ (١)
 عَلَى قَلْبٍ مِنْ وَعَى تَتْرِيكُهُ
 طَوْعًا وَلَا اقْتِفِينَا دَلِيلَهُ
 لَا يُرْجَى دِفَاعُهُ بِالْحَبِيلَةِ
 وَسِلَاحٌ (٢) لِلْوَخْزِ فِينَا صَقِيلَةُ
 وَلَا سَاحِبًا لَدَيْهِمْ ذُبُولَهُ
 يَتَقَصَّى أَوْتَارَهُ وَذُخُولَهُ (٣)
 تَمْحُو الْأَصَارَ عَنَّا الثَّقِيلَةَ
 وَلَا عَيْنُونَا لَنَا تَفْصِيلَهُ
 مُبْهَاتٍ أَحْكَامُهَا مَنْقُولَةُ
 اضْمُرُوا مِنْ شِنَاعَةٍ أَوْ رَذِيلَةَ
 وَظِلَامٌ لَمْ يُحْسُنُوا تَسْأُولَهُ
 عَنِ الْعَابِ (٤) بِالْهُدَى وَالْفَضِيلَةَ
 يَرْتَجِي ذَنْبَ دَهْرِهِ لِقِيلَهُ
 بِحَيَاةِ السُّلْطَانِ مِنْكُمْ قُبُولَهُ
 يَشْتَكِي جَدْبَ عَيْشِهِ وَمُحُولَهُ

(١) يشير الى الفتوى السالفة الذكر عن المقرئزي وابن الفرات .

(٢) السلاح : آلة الحرب ، او حديدته ، ويؤنث .

(٣) اوتار جمع وتر ، بمعنى الذحل . والذحل : العداوة . والجمع ذحول .

(٤) العاب : العيب .

جاركم ضيفكم نزيل حاكم
جددوا عنده رسوم رضاكم
داركوه برحمة فلقدم
وانحلوه جبراً فليس يرجي
يا حميد الآثار في الدهر يا
كيف بالخانقاه ينقل عني
بل تقلدتها شغوراً بمرسو
ولقد كنت آملاً لسواها
وتوثقت للزمان عليهما
أبلغن قصتي فثلك من يق
واغنموا من ثوبتي ودعائي

لا يضيع الكريم يوماً نزيله
فرسوم الكرام غير محيلة
ست عقود اصطباره محلولة
غير احسانكم لهذي النحيلة
الطنبغايا روض العلاء ومقبله
لا لذنب أو جنحة منقولة
م شريف وخلعة مسدولة
وسواها بوعد ان ينيله
بعقود ما خلتها محلولة
صد فعل الحسنى بمن يتمي له
قربة عند ربكم مقبولة

وفي التعريض بسفره إلى الشام :

واصحب الغز ظافراً بالأمان
واعتمل في سعادة الملك الظا
وتعيد الدنيا لأحسن شمل
واطلب النصر من سعادته يصحبك
وارتقب ما يحله بالأعادي
وخذوه فالأ بحسن قبول
فلقد كان يحسن القول عند

واترك العصابة العدا مفلولة
هر أن تمحو الأذى وتزيله
حين تضحى بسعده مشمولة
دأباً في الظعن والحيلولة
في جادى او زد عليه قليله
صدق الله في الزمان مقولة
المصطفى دائماً ويرضى جميله

* (السعاية في المهادة والاتحاف بين ملوك المغرب

والملك الظاهر) *

كثيراً ما يتعاهد الملوك المتجاورون بعضهم بعضاً بالاتحاف بطرف أوطانهم ،

للمواصلَة والإعانة متى دعا إليها داع . وكان صلاح الدين بن أيوب هادي يعقوب المنصور ملك المغرب من بني عبد المؤمن ، واستجاش به بأسطوله في قطع مدد الفرنج عن سواحل الشام حين كان معنياً بإرجاعهم عنها ، وبعث في ذلك رسوله عبد الكريم بن منقذ^(١) من أمراء شيزر^(٢) ، فأكرم المنصور رسوله ، وقعد عن إجابته في الأسطول لما كان في الكتاب إليه^(٣) من العدول عن تخطيطه^(٤) بأمر المؤمنين ؛ فوجدها غصّة في صدره منعتّه من إجابته إلى سؤاله ؛ وكان المانع لصلاح الدين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم البيساني^(٥) بما كان يُشاوره في أموره ، وكان مُقيماً لدعوة الخليفة العباسي بمصر ؛ فرأى الفاضل أن الخلافة لا تنعقد لإثنين في الملة كما هو المشهور ، وإن اعتمد أهل المغرب سوى ذلك ، لما يرون أن ، الخلافة ليست لقباً فقط ، وإنما هي لصاحب العصية القائم عليها بالشدّة والحماية ؛ والخلاف في ذلك معروف بين أهل الحق . فلما انقرضت دولة الموحدين ، وجاءت دولة بني مرين من بعدهم ، وصار كبارهم ورؤسائهم يتعاهدون قضاء فرضهم لهذه البلاد الشرقية ، فيتعاهدهم ملوكها بالإحسان إليهم ، وتسهيل طريقهم ؛ فحسُن في مكارم الأخلاق انتحال البر والمواصلَة ، بالاتحاف والاستطراف والمكافأة في ذلك بالهمم الملوكية ؛ فسُنّت لذلك طرائق وأخبار مشهورة ، من حقّها أن تذكر ؛ وكان يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين ، أهدى لصاحب مصر عام سبعمائة^(٦) ، وهو يومئذ الناصر بن محمد بن قلاون ، هدية ضخمة ، أصحبها كريمة

(١) هكذا سماه ابن خلدون هنا ، وفي «المقدمة» ؛ وفي «وفيات ابن خلكان» (٤٣٣/٢) ، والروضتين لأبي شامة ١٧٣/١ ، والاستقصاء ١٧٤/١ ، ان اسمه عبد الرحمن .

وهو شمس الدين ابو الحرث (وكناه في الروضتين أبا الحزم) ، عبد الرحمن بن نجم الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد ، المتوفى سنة ٦٠٠ بالقاهرة ، والمولود بشيزر سنة ٥٢٣ .

(٢) قرية قرب المعرة بينها وبين حماة ، فتحت سنة ١٧ هجرية ، ومنها الأمراء من بني منقذ ، وأول من ملكها منهم من يد الروم علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، وذلك في سنة ٤٧٤ (معجم البلدان) ، وفيات ٤٦٤/١ ، تاريخ أبي الفداء ٣٥٢/٢ (سنة ٥٠٢) . وانظر أخبار بني منقذ في تاريخ أبي الفداء أيضاً ٣٢/٣ وما بعدها .

(٣) جاء في الروضتين (١٧٥ — ١٧٠/٢) نص الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى المنصور الموحدي ، ونص رسالة أخرى مضمونها تكليف الأمير ابن منقذ هذا بالسفارة الى الموحدين .

(٤) تحليته .

(٥) عبد الرحيم بن الأشرف بهاء الدين ... العسقلاني ، ثم المصري المعروف بالقاضي الفاضل مجير الدين (٥٢٩ — ٥٩٦) . وفيات ٣٥٧/١ وما بعدها .

(٦) أنظر العبر المجلد الخامس ، والاستقصاء ٤٠/٢ — ٤١ ، حيث تجد تفصيل الحديث عن هذه الهدية .

من كرائم داره ، احتفل فيها ما شاء من أنواع الطُرف ، وأصناف الذخائر ،
وخصوصاً الخيل والبغال .

أخبرني الفقيه أبو إسحق الحسنائي ، كاتب الموحدين بتونس ، أنه عاين تلك الهدية
عند مرورها بتونس ، قال : وعددت من صنف البغال الفارهة فيها أربعائة ،
وسكت عما سوى ذلك . وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب ، أبو الحسن التنسي
كبير أهل الفتيا بتلمسان . ثم كافأ الناصر عن هذه الهدية بأعلى منها وأحفل^(١) مع
أميرين من أمراء دولته ، أدركا يوسف بن يعقوب وهو يحاصر تلمسان ، فبعثها إلى
مراكش للتزاهة^(٢) في محاسنها ، وأدركه الموت في مغيبيها ، ورجعا من مراكش ؛
فجهزها حافظه أبو ثابت المالك بعده ، وشيئها إلى مصر ؛ فاعترضتها قبائل حصين
ونهبوها^(٣) ، ودخلا بجاية ، ثم مضيا إلى تونس ، ووصلا من هنالك إلى مصر .

ولما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان ، اقترحت عليه جارية أبيه أبي سعيد ،
وكانت لها عليه تربية ؛ فأرادت الحج في أيامه وبعنايته ؛ فأذن لها في ذلك ، وبعث
في خدمتها وليه عريف بن يحيى من أمراء سويد ، وجماعة من أمرائه وبطانته ،
واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء . وانتقى من الخيل العتاق ،
والمطايا الفره وقماش الحرير والكتان ، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة ، والأواني
المتخذة من النحاس والفخار المخصوص كل مصر من المغرب بأصناف من
صنائعها ، متشابهة الأشكال والأنواع ، حتى لقد زعموا أنه كان فيها مكيلة من
اللاليء والفصوص ، وكان ذلك وقر خمس مائة بعير ، وكانت عتاق الخيل فيها
خمس مائة فرس ، بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر ، واللجم المذهبة ، والسيوف
المحلاة بالذهب والآليء ؛ كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار ،

(١) جاء في الاستقصاء : ٤١/٢ : « ... وأما الملك الناصر ، فإنه كافأ السلطان يوسف على هديته ، بأن
جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله ، من الثياب والحيوانات ، ونحو ذلك ، مثل
القبيل والزرافة ونحوهما ، وأوفد به مع عطاء دولته سنة ٧٠٥ » .

(٢) استعمال التزاهة ، والتزهة بهذا المعنى مختلف فيه بين اللغويين . وانظر تاج العروس « نزه » ، حيث تجد
اقوالهم .

(٣) في الاستقصاء : ٤٢/٢ : « ... ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في سنة ٧٠٨ ، اعترضتهم الأعراب
بالقفر ، فانتهبوهم ، وخلصوا إلى مصر بجريفة الذقن ، فلم يعاودوا بعدها سفراً ، ولا لفتوا إليه وجهاً ،
وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ، ولا يزيدون
في ذلك كله على الخطاب شيئاً » .

وتدرّجت على الولاء إلى آخر الخمس مائة ؛ فكانت قيمته مائة دينار . تحدّث الناس بهذه الهدية دهرأ ، وعرضت بين يدي الملك الناصر ، فأشار إلى خاسكيته بانتهابها فنهب بين يديه ، وبُولغ في كرامة أولئك الضيوف ، في إنزالهم وقراءهم وإزوادهم إلى الحجاز وإلى بلادهم ؛ وبقي شأن الهدية حديثاً يتجاراه الناس في مجالسهم وأسارهم ؛ وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة . ولما فصل إرسال^(١) ملك المغرب ، وقد قضوا فرضهم ، بعث الملك الناصر معهم هدية كفاء هديتهم ، وكانت أصنافها حمل القماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية ، تُحمل كل عام إلى دار السلطان ، قيمة ذلك الحمل خمسون ألف دينار ، وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القصور ، تشتمل على بيوت للمراقد ، وأواوين للجلوس والطبخ ، وأبراج للإشراف على الطرقات ، وأبراج أحدها لجلوس السلطان للعرض ؛ وفيها تمثال مسجد بمحرابه ، وعمده ، ومأذنته ؛ حوائطها كلّها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة مفصّلة على الأشكال التي يقترحها المتخذون لها . وكان فيها خيمة أخرى مستديرة الشكل ، عالية السمك ، مخروطة الرأس ، رحبة الفناء ، تظلّ خمس مائة فارس أو أكثر ، وعشرة من عتاق الخيل بالمراكب الذهبية الصقيلة ، ولحمها كذلك ؛ ومرّت هذه الهدية بتونس ، ومعها الخدّام القائمون بنصب الأبنية ، فعرضوها على السلطان بتونس . وعاينت يومئذ أصناف تلك الهدية ، وتوجّهوا بها إلى سلطانهم ، وبقي التعجب منها دهرأ على الألسنة . وكان ملوك تونس من الموحدين ، يتعاهدون ملوك مصر بالهدية في الأوقات .

ولما وصلت إلى مصر ، واتّصلت بالملك الظاهر ، وغمرني بنعمه وكرامته ، كاتب السلطان بتونس يومئذ ، وأخبرته بما عند الملك الظاهر من التّشوف إلى جياذ الخيل ، وخصوصاً من المغرب ، لما فيها [من تحمّل] الشدّة والصبر على المتاعب ، وكان يقول لي مثل ذلك ، وأنّ خيل مصر قصّرت بها الرّاحة والتّنعّم ، عن الصبر على التّعب ؛ فحضّضت السلطان بتونس على إتحاف الملك الظاهر بما يتّقيه من الجياذ الرّائعة ، فبعث له خمسة انتقاها من مراكبه ، وحملها في البحر في السّفين الواصل بأهلي وولدي ؛ ففرقت بمرسى الإسكندرية ، ونفقت تلك الجياذ ، مع ما ضاع في

(١) فصل من البلد : خرج عنه . وقد استعمل ابن خلدون « ارسال » جمع رسول في اماكن متفرقة من كتاب العبر ، وهذا غير جائز في مختلف كتب اللغة .

ذلك السّفين ، وكلُّ شيء بقدر .

ثم وصل إلينا عام ثلاثة وتسعين وسبعائة شيخ الأعراب : المَعْقِل بالمغرب ، يوسف ابن علي بن غانم ، كبير أولاد حُسَيْن ناجياً من سَخَط السلطان أبي العباس أحمد ابن أبي سالم ، من ملوك بني مَرين بفاس ، يَروم قضاء فرضه ، ويتوسّل بذلك لرَضِي سُلطانهِ ؛ فوجد السلطان غائباً بالشام في فِتنة منطاش ؛ فعرضته لصاحب المَحْمِل . فلما عادَ من قضاء فرضه ، وكان السلطان قد عاد من الشام ، فوصلته به ، وحضر بين يديه ، وشكا بَثّه ؛ فكتب الظاهر فيه شفاعَةً لسلطان وطنه بالمغرب ، وحمله مع ذلك هدية إليه من قماش وطيب وقسيّ ، وأوصاه بانتقاء الخيل له من قطر المغرب ، وانصرف ؛ فقبل سلطانه فيه شفاعَةَ الظاهر ، وأعادَه إلى منزله . وانتقى الخيول الرائعة لمهاداة الملك الظاهر ، وأحسن في انتقاء أصناف الهدية ؛ فعاجلته المنية دون ذلك ، وولي ابنه أبو فارس ، وبقي أياماً ثم هلك ، وولي أخوه أبو عامر ، فاستكمل الهدية ، وبعثها صُحبة يوسف بن علي الوارد الأول .

وكان السلطان الملك الظاهر ، لما أبطأ عليه وصول الخيل من المغرب ، أراد أن يبعث من أمرائه من ينتقى له ما يشاء بالشراء ، فعين لذلك مملوكاً من مماليكه منسوباً إلى تربية الخليلي ، اسمه قَطْلُوبُغَا^(١) ، وبعث عني ، فحضرتُ بين يديه ، وشاورني في ذلك فوافقته ، وسألني كيف يكون طريقه ، فأشرت بالكتاب في ذلك إلى سلطان تونس من الموحدين^(٢) ، وسلطان تلمسان من بني عبد الواد ، وسلطان فاس والمغرب من بني مَرين ، وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسيّ ، وانصرف عام تسعة وتسعين وسبعائة إلى المغرب ، وشيعه كل واحد من ملوكه إلى مأمنه ، وبالغ في إكرامه بما يتعين . ووصل إلى فاس ، فوجد الهدية قد استكملت ، ويوسف بن عليّ على المسير بها عن سلطانه أبي عامر من ولد السلطان أبي العباس المخاطب أولاً . وأظلم عيد الأضحى بفاس ، وخرجوا متوجهين إلى مصر ، وقد أفاض السلطان من إحسانه وعطائه ، على الرسول قَطْلُوبُغَا ومن في جملته بما أقر عيونهم ، وأطلق بالشكر ألسنتهم ، وملاً بالثناء ضمائرهم ، ومروا بتلمسان ، وبها

(١) هو قطلوبغا بن عبدالله المتوفي سنة ٨٢١ . تولى نيابة الاسكندرية والحجابه أيام الظاهر . ونيابة

الإسكندرية أيام المؤيد . قال في المنهل : وأظنه من مماليك جاركش الخليلي أمير أخور ، والله اعلم .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص الموحدي .

يومئذ أبو زيان ، ابنُ السلطان أبي حمو من آل يغمُراسن بن زيان ، فبعث معهم هديةً أخرى من الجياد بمراكبها ، وكان يحوكُ الشعر ، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته ، ونصّها من أولها إلى آخرها :

والصَّبْرُ — إلا بعدَهـن — جَمِيلٌ
ظُنُّنٌ^(٣) يَمِيلُ القَلْبُ حَيْثُ تُمِيلُ
فالحسنُ فوقَ ظهورها مَحْمُولٌ
تنجّاب عنها للظلام سدولٌ
ولها بأستار الجُدول أفولٌ
تزعُ الدجى بجينها فيحولُ
مَتَنِي كَثِيبٍ والكثيب مَهِيْلٌ
واعتادَ قلبي زفرةٌ وغليْلٌ
نظرٌ تخالسه العيون كليْلٌ
طوراً ويغلبني الأسي فسيْلٌ
فكانها قال عليه وقيلُ
لمصون جَوهر دَمْعَهـن تَذِيْلٌ
ويروعه ظبي الحمى المكحولُ
فالحرُّ عبْدٌ والعزير ذليْلٌ
هل ساعةٌ تصغين لي فأقولُ
أرتاحُ شوقاً للحمى وأميْلُ
إن الصِّبا لصِبا بتي تعليلُ
وأزادُ عنهُ ووردهُ منهُولُ^(٥)

لمن الرّكائب سيرهن دَمِيْلٌ^(١)
يا أيها الحادي رُوَيْدَكَ^(٢) إِنِّهَا
رفقاً بمن حملته فوق ظهورها
لله آية أنجم : شَفَّافَةٌ
شُهْبٌ بآفاق الصدور طلوعها
في الهودج المَزْرُور منها غادةٌ
فكأنها قر على غُصْنِ عَلِي
ثارت مطايا فثار بي الهوى
أومت لتوديعي فغالبَ عَبرتي
دمع أغيض منه خوف رقيها
ويح المحبُ وشت به عبراته
صان الهوى وجفونه يوم النوى
وتهابه أسدُ السرى في خيسها^(٤)
تأبى النفوس الضَّيْمَ إلا في الهوى
يا بانه الوادي ويا أهلَ الحمى
مالي إذا هبَّ النسيم من الحمى
خلّوا الصِّبا يخلُصُ إليّ نسيمها
مالي أحلاً عن ورود محلّه

(١) الذميل : ضرب من سائر الإبل فوق التزويد .

(٢) رويدك : اسم فعل بمعنى أمهل .

(٣) جمع ظعينة ؛ وهي المرأة تكون في الهودج ، والهودج نفسه .

(٤) الخيس : موضع الأسد .

(٥) حلاً الإبل عن ورود الماء : منعها ، وذادها .

وابواب ليس بمرتج^(١) عن مرتج^(٢)

والظن في المولى الجميل جميل

من لي بزورة روضة الهادي الذي
هو أحمد ومحمد والمصطفى
يا خير من أهدى الهدى وأجل من
وحي من الرحمن يُلقيه على
مدحتك آيات الكتاب وبشرت
صلة الصلاة عليك تحلو في فمي
فور بعك المأهول إن بأضلعي
هل من سبيل للسرى حتى أرى
حتم تطلني الليالي وعدها
ما عاقني إلا عظيم جرائمي
أنا مغرم فتعطفوا أنا مذنب
وأنا البعيد فقرّبوا والمستجير
يا سائقاً نحو الحجاز حمولة^(٣)
لمحمد بلغ سلام سميّه
وسل الاله له اغتفار ذنوبه

ما مثله في المرسلين رسول
والمجتبى وله انتهى التفضيل
أثنى عليه الوحي والتزليل
قلب النبي محمد جبريل
بقدمك التوراة والانجيل
مهما تكرّر ذكرك المعسول
قلبا بحبك ربّعه مأهول
خير الورى فهو المنى والسؤل
إن الزمان بوغده لبخيل
إن الجرائم حملهن ثقيلا
فتحاوزوا أنا عاثر فأقبلوا
فأمنوا والمرتجى فأقبلوا
والقلب بين حمولة^(٤) محمول
فدمامه بمحمد موصول
يسمع هناك دعاؤك المقبول

وعن الملك أبي سعيد فلتنب
متحملاً لله كسوة بيتيه
سعد الملك أبي سعيد إنه
ملك يحج المغرب الأقصى به

فلكم لسه نحو الرسول رسول
يا جذاك المحمل المحمول
سيف على أعدائيه مسلول
فلهم به نحو الرسول وصول^(٥)

(١) باب مرتج : مغلّق .

(٢) من الرجاء .

(٣) الحمولة (بالفتح) : ما يحمل عليه الناس من الدواب .

(٤) الحمول جمع حمل ، وهو ما حمل على ظهر الدابة .

(٥) كانت العناية التي يلقاها الحجاج المغاربة من ملوك مصر ، مما يقدره ملوك المغرب التقدير الجميل ، وكان مما يقلقهم ان يتعرض وفد الحجاج المغاربة للمتاعب في سفره . صبح الأعشى ٢٥٠/٩ .

مَلِكٌ بِهِ نَامَ الْأَنَامُ وَأَمَّنْتُ
فَالْمُلْكُ ضَخْمٌ وَالْجَنَابُ مُؤَمَّلٌ
وَالصُّنْعُ أَجْمَلٌ وَالْفَخَارُ مُؤَثَّلٌ
يَا مَالِكَ الْبَحْرَيْنِ بُلَّغْتَ الْمُنَى
يَا خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ حُقَّ لَكَ الْهَنَا
يَا مُتَّحِنِي وَمُفَاتِحِي بَرَسَالَةِ
أَهْدَيْتَهَا حَسَنَاءَ بَكَرًا مَا لَهَا
ضَاءَ الْمِدَادُ مِنَ الْوِدَادِ بِصُحْفِهَا
جُمِعَتْ وَحَامِلُهَا بِحَضْرَتِنَا كَمَا
وَتَأَكَّدَتْ بِهَدِيَّةٍ وَدِيَّةٍ
أَطْلَعَتْ فِيهَا لِلْقِسِيِّ أَهْلَةَ
وَحُسَامَ نَصْرٍ زَاهِيًا بِنُضَارِهِ
مَاضِي الشَّبَابِ (٥) لِمَصَابِهِ تَعْنُو الظُّبَابَ
وَبَدَائِعِ الْحُلَلِ الْمَانِيَةِ الَّتِي
فَأَجَلَتْ فِيهَا نَاطِرِي فَرَأَيْتُهَا
جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا فَأَهْوَى نَحْوَهَا
يَا مُسْعِدِي وَأَخِي الْعَزِيزَ وَمُنْجِدِي
إِنْ كَانَ رَسْمُ الْوُدِّ مِنْكَ مَذْبَلًا
فَنظِيرُهُ عِنْدِي وَلَيْسَ يَضِيرُهُ
وَدٌّ «يَزِيدُ» وَ«ثَابِتٌ» شَهْدَا بِهِ
وَالْيَكْهَهُمَا تُنْبِكُ صَدَقَ مَوَدَّتِي
فَإِذَا بِذَلِكَ الْجُلْسِ السَّامِيِّ سَمَتْ

سُبُلَ الْمَخَافِ (١) فَلَا يَخَافُ سَبِيلُ
وَالْفَضْلُ جَمٌّ وَالْعَطَاءُ جَزِيلٌ
وَالْمَجْدُ أَكْمَلُ وَالْوَفَاءُ أَصِيلٌ
قَدْ عَادَ مِصْرُ عَلَى الْعِرَاقِ يَصُولُ
فَعَلَيْكَ مِنْ رَوْحِ (٢) الْإِلَهِ قَبُولُ
سَلَسَالَةٍ يُزْهِى بِهَا التَّرْسِيْلُ
غَيْرِي ، وَإِنْ كَثُرَ الرَّجَالُ ، كَفِيلُ
حَتَّى اضْمَحَلَّ عُبُوسُهُ الْمَجْبُولُ (٣)
جُمِعَتْ بُشِينَةٌ فِي الْهَوَى وَجَمِيلُ (٤)
هِيَ لِلْإِخْيَاءِ الْمُرْتَضَى تَكْمِيلُ
يَرْتَدُّ عَنْهَا الطَّرْفُ وَهُوَ كَلِيلُ
رَاقَ الْعَيْونِ فِرْنَسُهُ الْمَعْسُولُ
فِيهِ تَصُولُ عَلَى الْعِيدَا وَتَطُولُ
رَوَى مَعَاظِفَهَا بِمِصْرِ النَّيْلُ
تُحَفِّأُ بِجَوْلِ الْحَسَنِ حَيْثُ تَجُولُ
بِفَمِ الْقَبُولِ اللَّثْمُ وَالتَّقْيِيلُ
وَمِنَ الْقُلُوبِ إِلَى هَوَاهُ تَمِيلُ
بِالْبَرِّ وَهُوَ بِذَيْلِهِ مَوْصُولُ
بِمَعَارِضِ وَهْمٍ وَلَا تَخْيِيلُ
وَ«لِخَالِدٍ» بِخُلُودِهِ تَذْيِيلُ
صَحَّ السَّدِيلُ وَوَافَقَ الْمَدْلُولُ
فَلَدَيْكَ إِقْبَالٌ لَهَا وَقَبُولُ

(١) المخاف : موضع الخوف .

(٢) روح الاله : رحمته .

(٣) يعني : اضمحلَّ العبوس الطبيعي .

(٤) جميل بن عبدالله بن معمر العذري ، وبشينة صاحبه التي عشقها منذ أيام صباه .

(٥) الشبابة : حد السيف وطره ، والجمع شباب .

دام الودادُ على البعادِ موصلاً بين القلوبِ وحبلىه موصولُ
وبقيت في نعمٍ لديك مزيدها وعليك يصفو ظلها المسدولُ

ثم مروا بعدها بتونس ، فبعث سلطان تونس أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العباس من ملوك الموحدين ، هديةً ثالثةً انتقى لها جيات الخيل ، وعزز بها هدية السلطانين وراءه ، مع رسوله من كبار الموحدين أبي عبدالله بن تافراكين ، ووصلت الهدايا الثلاث إلى باب الملك الظاهر في آخر السنة ، وعرضت بين يدي السلطان ، وانتهب الخاسكية ما كان فيها من الأقمشة والسيوف والبسط ومراكب الخيل ، وحمل كثيراً منهم على كثير من تلك الجيات وارتبط الباقيات .

وكانت هديةً صاحب المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية ، والسيوف المحلاة ، وخمسة وثلاثين حملاً من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد ، متقاةً من أحسن هذه الأصناف .

وهديةً صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجيات بمراكبها المموهة ، وأجمالاً من الأقمشة .

وهديةً صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجيات مغطاةً ببرايق الثياب من غير مراكب ، وكلها أنيق في صنعه مستطرف في نوعه ، وجلس السلطان يوم عرضها جلوساً فخماً في إيوانه ، وحضر الرسل ، وأدوا ما يجب عن ملوكهم . وعاملهم السلطان بالبر والقبول ، وانصرفوا إلى منازلهم للجرايات الواسعة ، والأحوال الضخمة . ثم حضر وقت خروج الحاج ، فأستأذنوا في الحج مع محمل السلطان ، فأذن لهم ، وأرغد أزودتهم . وقضوا حجهم ، ورجعوا إلى حضرة السلطان ومعهود مبرته . ثم انصرفوا إلى مواطنهم ، وشييعهم من بر السلطان وإحسانه ، ما ملأ قلوبهم ، وأسنى ذخيرتهم ، وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكر جميل بما تناولت بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الباقية على الأبد ، فحمدت الله على ذلك .

* (ولاية القضاء الثانية بمصر) *

ما زلت ، منذ الغزل عن القضاء الأول سنة سبع وثمانين وسبعائة ، مكباً على

الاشتغال بالعلم ، تأليفاً وتدريساً ؛ والسلطان يولي في الوظيفة من يراه أهلاً متى دعاه إلى ذلك داع ، من موت القائم بالوظيفة ، أو عزله ؛ وكان يراني الأوّلَى بذلك ، لولا وجودُ الذين شَغَبُوا من قبلُ في شأني ، من أمراء دولته ، وكبار حاشيته ، حتى انقرضوا . واتفقت وفاة قاضي المالكيّة إذ ذاك ناصر الدين بن التَّنَسِي (١) ، وكنتُ مقيماً بالفيوم لضمّ زرعي هنالك ؛ فبعث عني ، وقلّدي وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة ؛ فجريتُ على السنن المعروف مني ، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادة ؛ وكان رحمه الله يَرْضَى بما يَسْمَعُ عني في ذلك . ثم أدركته الوفاة في منتصف شوال بعدها ، وأحضر الخليفة والقضاة والأمراء ، وعهد إلى كبير أبنائه فرج ، وإخوته من بعده واحداً واحداً ، وأشهدهم على وصيته بما أراد . وجعل القائم (٢) بأمر ابنه في سلطانه إلى أتاكه ايتمش (٣) ، وقضى رحمة الله عليه ، وترتبت الأمور من بعده كما عهد لهم ، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان يعرف بتم (٤) ، وسمع بالواقعات بعد السلطان فغصّ أن لم يكن هو كافل ابن الظاهر بعده ، ويكون زمام الدولة بيده . وطفق سَمَاسِرَةُ الفتن يُغَرُونَهُ بذلك ، وبينما هم في ذلك إذ وقعت فتنة الأتابك (٥) ايتمش ، وذلك أنه كان للأتابك دَوَادارٍ غرّ يتناول إلى الرئاسة ، ويرتفع على أكابر الدولة بحظه من أستاذه ، وما له من الكفالة على السلطان ؛ فنقموا حالهم مع هذا الدوادار ، وما يسومهم به من الترفّع عليهم ، والتعرض لإهمال نصائحهم ؛ فأغروا السلطان

(١) هو أحمد بن محمد بن عطاء الله بن عوض الزبيرى الاسكندري المالكي المشهور بابن التنسي (بفتح التاء والنون وكسر السين المهملة) ، ولد سنة ٧٤٠ ، وتوفي سنة ٨٠١ .

(٢) كذا بالأصل ؛ ولعلها «القيام بأمر» .

(٣) هو ايتمش بن عبدالله الأسندمري البجاسي الجرجاني الأمير سيف الدين ؛ أتابك العساكر بالديار المصرية ؛ أصله من ممالك اسندمري البجاسي الجرجاني (نسبة إلى جرجي نائب حلب) وكان ملك ايتمش قبل أن يجره الظاهر برقوق .

(٤) الأمير سيف الدين تم بن عبدالله الحسيني الظاهري ؛ اسمه الاصلى تنبك ؛ وغلب عليه «تم» ؛ كان نائب دمشق ؛ وهو من ممالك الظاهر برقوق ؛ قتل سنة ٨٠٢ بقلعة دمشق .

(٥) يطلق «أتابك» في أيام الممالك ؛ على مقدم العساكر أو القائد العام ؛ على انه أبو العساكر والامراء جميعاً . وهو مركب من كلمتين : «أنا» بمعنى «أب» ؛ و«بك» ومعناها أمير . صبح الأعشى

١٨/٤ ، ١/٦ .

بالخروج من ربه الحَجْر ، وأطاعهم في ذلك ، وأحضر القضاة بمجلسه للدعوى على الأتابك باستغناؤه عن الكافل ، بما عُلِم من قيامه بأمره وحسن تصرفاته . وشهد بذلك في المجلس أمراء أبيه كافة ، وأهلُ المراتب والوظائف منهم ، شهادةً قبلها القضاة . وأعدروا إلى الأتابك فيهم فلم يدفع في شيء من شهادتهم ، ونفذ الحكم يومئذ برفع الحَجْر عن السلطان في تصرفاته وسياسة ملكه ، وانفضَّ الجمع ، ونزل الأتابك من الإسطبل إلى بيت سُكناه . ثم عاود الكثير من الأمراء نظرهم فيما أتوه من ذلك ؛ فلم يروه صواباً ، وحملوا الأتابك على نقضه ، والقيام بما جعل له السلطان من كفالة ابنه في سلطانه . وركب ، وركبوا معه في آخر شهر المولد النبوي ، وقتلهم أولياءُ السلطان فرج عشيَّ يومهم وليلتها ؛ فهزموهم ، وساروا إلى الشام مستصرخين بالنايب تم ، وقد وقر في نفسه ما وقر من قبل ؛ فبر وفادتهم ، وأجاب صريخهم . واعتزموا على المضي إلى مصر . وكان السلطان لما انفضت جموع الأتابك ، وسار إلى الشام ، اعتمله في الحركة والسفر لخضد شوكتهم ، وتفريق جماعتهم ؛ وخرج في جُمادى حتى انتهى إلى غزّة ، فجاءه الخبر بأن نائب الشام تم ، والأتابك ، والأمراء الذين معه ، خرجوا من الشام زاحفين للقاء السلطان ، وقد احتشدوا وأوعبوا ، وانتهوا قريباً من الرملة^(١) ؛ فراسلهم السلطان مع قاضي القضاة الشافعي صدر الدين المناوي^(٢) ، وناصر الدين الرمّاح ، أحد المعلمين لثقافة الرمّاح ، يُعذّر إليهم ، ويخملهم على اجتماع الكلمة ، وترك الفتنة ، وإجابتهم إلى ما يطلبون من مصالحهم ؛ فاشتطوا في المطالب ، وصمّموا على ما هم فيه . ووصل الرسولان بخبرهم ، فركب السلطان من الغد ، وعبّى عساكره ، وصمّم لمعاجلتهم ؛ فلقيهم أثناء طريقه ، وهاجمهم فهاجموه ، ثم ولّوا الأدبار منزهين . وصرع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه ، فما غشيبهم الليل إلا وهم مصفدون في الحديد ، يقدّمهم الأمير تيم نائب الشام وأكابرهم كلهم . ونجا الأتابك أيتمش إلى القلعة بدمشق ، فأوى إليها ، واعتقله نائب القلعة . وسار السلطان إلى دمشق ؛ فدخلها على التعبئة في يوم أغرّ ، وأقام بها أياماً ، وقتل هؤلاء

(١) الرملة : مدينة بفلسطين بينها وبين القدس نحو ١٨ ميلاً ؛ كانت ذا شأن عظيم في الحروب الصليبية (معجم البلدان) .

صدر الدين محمد بن ابراهيم بن اسحق الشافعي .

الأمراء المعتقلين ، وكبيرهم الأتابك ذبحاً ، وقتل نِمْ من بينهم خنقاً ، ثم ارتحل راجعاً إلى مصر .

وكنتُ استأذنتُ في التقدُّم إلى مصر بين يَدَيِ السلطان لزيارة بيت المقدس ، فأذن لي في ذلك . ووصلتُ إلى القدس ودخلتُ المسجد ، وتبرَّكت بزيارته والصلاة فيه ، وتعففتُ عن الدخول إلى القمامة^(١) لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن ، إذ هو بناءُ أم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسي ، ونكرتُ الدخول إليه . وقضيتُ من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب ، وانصرفتُ إلى مدفن الخليل عليه السلام . ومررتُ في طريقي إليه ببيت لحم ، وهو بناءٌ عظيم على موضع ميلاد المسيح ، شيدت القياصرة عليه بناءً بساطين من العمد الصَّخُور ، مُنَجِّدَةً مضطَّفةً ، مرقوماً على رؤوسها صُورُ ملوك القياصرة ، وتواريخ دُولهم ، ميسرةً لمن يبتغي تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لأوضاعها ؛ ولقد يشهد هذا المصنَعُ بعِظَمِ مُلْكِ القياصرة وضخامة دولتهم . ثم ارتحلتُ من مدفن الخليل إلى غزّة ، وارتحلتُ منها ، فوافيتُ السلطان بظاهر مِصر ، ودخلتُ في رِكابه أواخر شهر رمضان سنة اثنين وثمانمائة . وكان بمصر فقيه من المالكية يعرف بنور الدين بن الخلال^(٢) ، ينوب أكثر أوقاته عن قضاة القضاة المالكية ؛ فحرَّضه بعض أصحابه على السعي في المنصب ، وبذل ما تيسر من مَوجوده لبعض بطانة السلطان الساعين له في ذلك ، فتمت سعيته في ذلك ، ولبسَ منتصفَ المحرم سنة ثلاث وثمانمائة ؛ ورجعتُ أنا للإشتغال بما كنتُ مشتغلاً به من تدريس العلم وتأليفه ، إلى أن كان السفر لمدافعة تمر عن الشام .

* (سفر السلطان الى الشام لمدافعة الططر عن بلاده) *

هؤلاء الططر من شعوب الترك ، وقد اتفق النسابة والمؤرخون على أن أكثر أمم العالم فرقتان ، وهما : العرب والترك ، وليس في العالم أمة أوفر منها عدداً ، هؤلاء في

(١) القمامة (بالضم) : كنيسة كبرى بيت المقدس . تاج العروس (قم) (معجم البلدان) .

(٢) علي بن يوسف بن عبدالله (او ابن مكّي) الدميري (او الزبيرى) ، المعروف بابن الخلال المالكي .

جنوب الأرض ، وهؤلاء في شمالها ، وما زالوا يتناوبون الملك في العالم ، فتارة يملك العرب ويترحلون^(١) الأعاجم إلى آخر الشمال ، وأخرى يزحلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب ، سنة الله في عباده .

فلنذكر كيف انساق الملك لهؤلاء الططر^(٢) ، واستقرت الدول الإسلامية فيهم لهذا العهد فنقول : إن الله سبحانه خلق هذا العالم واعتمره بأصناف البشر على وجه الأرض ، في وسط البقعة التي انكشفت من الماء فيه ، وهي عند أهل الجغرافيا مقدار الربع منه ، وقسموا هذا المعمور بسبعة أجزاء يسمونها الأقاليم ، مبتدأة من خط الإستواء بين المشرق والمغرب ، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤوس السكان ، إلى تمام السبعة أقاليم . وهذا الخط في جنوب المعمور ، وتنتهي السبعة الأقاليم في شماله . وليس في جنوب خط الإستواء عمارة إلى آخر الربع المنكشف ، لإفراط الحر فيه ، وهو يمنع من التكوين ؛ وكذلك ليس بعد الأقاليم السبعة في جهة الشمال عمارة ، لإفراط البرد فيها ، وهو مانع من التكوين أيضاً . ودخل الماء المحيط بالأرض من جهة الشرق فوق خط الإستواء بثلاث عشرة درجة ، في مدخل فسيح ، وانساح مع خط الاستواء مغرباً ، فمر بالصين ، والهند والسند واليمن ، في جنوبها كلها . وانتهى إلى وسط الأرض ، عند باب المندب^(٣) ، وهو البحر الهندي والصيني ، ثم انحرف من طرفه الغربي في خليج عند باب المندب ، ومر في جهة الشمال مغرباً باليمن وتهامة والحجاز ومدين^(٤) وأيلة^(٥) وفاران^(٦) ، وانتهى إلى

(١) زحل عن مكانه : زل . وبعد .

(٢) كذا بالأصل . وهي : التتر .

(٣) باب المندب : هو المضيق الواقع في النهاية الجنوبية للبحر الأحمر .

(٤) Midian : مقاطعة في شمال الحجاز تمتد على الساحل الشرقي للبحر الأحمر إلى مبدأ خليج العقبة . وفي الجهة الشرقية منها يقع جبل الصفاة .

(٥) أيلة (Aila أو Ailat) : ميناء واقع في الزاوية الشمالية الشرقية لخليج العقبة . وكان في القديم مدينة تجارية ذات أهمية كبرى . وقد ورد ذكرها في التوراة . في سفر الملوك ٩ : ٢٦ . ٢٧ . خطط القريري ٢٩٨/١ (طبع مصر) .

(٦) فاران : مدينة كانت على ساحل بحر القلزم بناحية الطور . ويقول القريري في الخطط (١/٣٠٤) طبع مصر : «... وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين إلى اليوم . وبها نخل كثير مشمر . أكلت من ثمره ، وبها نهر عظيم ، وهي خراب يمر بها العربان» .

مدينة القلزم^(١) ، ويُسمى بحر السويس ، وفي شرقه بلاد الصَّعيد إلى عَيْذاب^(٢) ، وبلاد البُجاة^(٣) ؛ وخرج من هذا البحر الهندي من وسطه خليج آخر يُسمى الخليج الأخضر^(٤) ، ومرَّ شمالاً إلى الأبله^(٥) ، ويسمى بحر فارس^(٦) ، وعليه في شرقه بلاد فارس^(٧) ، وكِرمان^(٨) ، والسِّند^(٩) ؛ ودخل الماء أيضا ، من جهة الغرب في خليج مُتضايق في الإقليم الرابع ، ويُسمى بحر الرُّقاق^(١٠) ، تكون سعته هنالك ثمانية عشر ميلاً . ويمرُّ مُشرقاً ببلاد البربر ، من المغرب الأقصى والأوسط وأرض إفريقية والإسكندرية وأرض التيه^(١١) وفلسطين والشام ؛ وعليه في الغرب بلاد الإفرنج كلها ؛ وخرج منه في الشمال خليجان : الشرقي منها خليج القُسطنطينية^(١٢) والغربي خليج البنادقة ، ويُسمى هذا البحر البحر الروسي ، والشامي .

ثم إن هذه السبعة الأقاليم المعمورة ، تنقسم من شرقها وغربها بنصفين : فنصفها

(١) القلزم بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة : بلد ساحلية بجوار السويس والطور ، واليه ينسب البحر ، فيقال بحر القلزم ، ويقول ياقوت في معجم البلدان : «... وأما اليوم فهي خراب يباب ، وصار الميناء الى مدينة قريبا يقال لها السويس» .

(٢) عيذاب : مدينة مصرية على الساحل الافريقي للبحر الأحمر ، وكانت في العصور الوسطى ميناء مهماً للحجاج الذين يقصدون مكة من الغرب ، ومحطة للسفن الهندية التي كانت تأتي من عدن ، ولتجار افريقية الوسطى ، (معجم البلدان) .

(٣) البجاة ، ويقال البجة : مجموعة من القبائل الحامية تسكن فيما بين النيل والبحر الأحمر ؛ واسمها «البجة» قديم يرجع إلى ما قبل الاسلام ، الخطط (طبع مصر ١/٣١٣ - ٣١٩) . صبح الأعشى ٥/٢٧٣ .

(٤) يريد بالخليج الأخضر خليج عمان .

(٥) ضبطها ابن خلدون بضم الهمزة والباء الموحدة ، وتشديد اللام المفتوحة ؛ وهي مدينة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة . معجم البلدان ، صبح الأعشى ٤/٣٣٦ .

(٦) يسمى بحر فارس اليوم ، الخليج الفارسي .

(٧) فارس ، أو بلاد العجم : هي التي تعرف اليوم باسم ايران اشتقاقاً من كلمة «آرية» وتدل الآن على المملكة الفارسية . (معجم البلدان) .

(٨) كرمان : احدى المدن الجبلية من مدن ايران ؛ وكانت في القديم ولاية تفصل بين فارس في الغرب ، وصحارى لوط في الشرق . (معجم البلدان) .

(٩) السند : بلاد كانت تفصل بين الهند وكرمان ، وبعضهم كان يعد من إقليم السند بلاد مكران الواقعة في جنوب فارس . (معجم البلدان) .

(١٠) هو مضيق جبل طارق الآن .

(١١) أرض التيه : هي شبه جزيرة سيناء اليوم .

(١٢) يتحدث الآن عن بحر ايجة الذي يصل البحر الأبيض عن طريق الدردنيل ، والبوسفور بالبحر الأسود .

(١٣) خليج البنادقة ؛ هو البحر الادرياتي الذي يقع في نهايته الشمالية خليج البندقية . صبح الأعشى ٥/٤٠٤ وما بعدها .

الغربي في وسطه البحر الرومي ، وفي النصف الشرقي من جانبه الجنوبي البحر الهندي ؛ وكان هذا النصف الغربي أقل عمارة من النصف الشرقي ، لأن البحر الرومي المتوسط فيه ، انفسح في انسياحه ، فغمر الكثير من أرضه . والجانب الجنوبي منه قليل العمارة لشدة الحر ؛ فالعمران فيه من جانب الشمال فقط ، والنصف الشرقي عمرانُه أكثر بكثير ، لأنه لا بحر في وسطه يُزاحم . وجانبه الجنوبي فيه البحر الهندي ، وهو مُتسع جداً ؛ فلطف الهواء فيه بمجاورة الماء ، وعدل مزاجه للتكوين ؛ فصارت أقاليمه كلها قابلة للعمارة ؛ فكثرت عمرانُه . وكان مبدأ هذا العمران في العالم ، من لدن آدم صلوات الله عليه ، وتناسل ولده أولاً في ذلك النصف الشرقي ، وبادت تلك الأمم ما بينه وبين نوح ، ولم نعلم شيئاً من أخبارها ، لأن الكتب الإلهية لم يرد علينا فيها إلا أخبار نوح وبنيه ؛ وأما ما قبل نوح فلم نعرف شيئاً من أخباره ؛ وأقدم الكتب المنزلة المتداولة بين أيدينا التوراة ، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شيء ، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالوحي ؛ وأما الأخبار فهي تدرس بدروس أهلها .

واتفق النسابون على أن النسل كله منحصر في بني نوح ، وفي ثلاثة من ولده ، وهم سَام ، وحام ، ويافث ؛ فمن سَام : العرب ، والعبرانيون ، والسبائيون^(١) ؛ ومن حَام : القبط ، والكنعانيون ، والبربر ، والسودان ؛ ومن يافث : الترك ، والروم ، والخزر^(٢) ، والفرس ، والديلم ، والجيل .

ولا أدري كيف صحّ انحصار النسب في هؤلاء الثلاثة عند النسابين ؛ أمِنَ النقل ؟ وهو بعيد كما قدمناه ، أو هو رأي تفرّع لهم من انقسام جماعة المعمور ؛ فجعلوا شعوب كل جهة لأهل نسب واحد يشتركون فيه ؛ فجعلوا الجنوب لبني سَام ، والمغرب لبني حَام ، والشمال لبني يافث . إلا أنه المتناقل بين النسابة في العالم ، كما قلناه ، فلنعتمده ونقول : أول من ملك الأرض من نسل نوح عليه السلام ، النمرود بن كنعان بن كوش بن حام ووقع ذكره في التوراة . وملك بعده عابر بن شالخ الذي يُنسب إليه

(١) كذا في الأصل . ولعلها : «السريانيون» .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الخاء والزاي ؛ وفي «تثقيف اللسان» لأبي جعفر عمر بن مكي الصقلي «... ويقولون لقبيلة من الترك الخزر بفتح الخاء والزاي والصواب الخزر بضم الخاء واسكان الزاي ، ويقال انهم سموا بذلك لخزر أعينهم» أي ضيقها .

العبرانيون ، والسريانيون ، وهم النبط ؛ وكانت لهم الدولة العظيمة ، وهم ملوك بابل ، من نبيط بن آشور بن سام ، وقيل نبيط بن ماش بن إرم ؛ وهم ملوك الأرض بعد الطوفان على ما قاله المسعودي . وغلبهم الفرس على بابل ، وما كان في أيديهم من الأرض ، وكانت يومئذ في العالم دولتان عظيمتان ، لملوك بابل هؤلاء ، وللقبط بمصر : هذه في المغرب ، والأخرى في المشرق ؛ وكانوا ينتحلون الأعمال السحرية ، ويعولون عليها في كثير من أعمالهم ، وبرابي مصر^(١) ، وفلاحة ابن وحشية ، يشهدان بذلك . فلما غلب الفرس على بابل ، استقل لهم ملك المشرق ، وجاء موسى — صلوات الله عليه — بالشرعة الأولية ، وحرّم السحر وطرقه ، وغلب الله له القبط بإغراق فرعون وقومه ؛ ثم ملك بنو إسرائيل الشام ، واختطوا بيت المقدس ، وظهر الروم في ناحية الشمال والمغرب ، فغلبوا الفرس الأولى على ملكهم . وملك ذو القرنين الإسكندر ما كان بأيديهم ؛ ثم صار ملك الفرس بالمشرق إلى ملوكهم الساسانية ، وملك بني يونان بالشام والمغرب إلى القياصرة ، كما ذكرنا ذلك كله من قبل . وأصبحت الدولتان عظيمتين ، وانتظمتا العالم بما فيه . ونازع الترك ملوك فارس في خراسان^(٢) ، وما وراء النهر^(٣) ، وكانت بينهم حروب مشهورة ، واستقر ملكهم في بني أفراسياب ؛ ثم ظهر خاتم الأنبياء محمد صلوات الله عليه ، وجمع العرب على كلمة الإسلام ، فاجتمعوا له ، « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما آلفت بين قلوبهم ولكن الله آلف بينهم »^(٤) ، وقبضه الله إليه ، وقد أمر بالجهاد ، ووعد عن الله بأن الأرض لأُمَّته ، فرحفوا إلى كسرى ، وقبض بعد سنتين من وفاته ، فانتزعوا الملك من أيديهما ، وتجاوزوا الفرس إلى الترك ، والروم إلى البربر والمغرب ، وأصبح العالم كله منتظماً في دعوة الإسلام . ثم اختلف أهل الدين من بعده في رجوعهم إلى من ينظم أمرهم ، وتشيع قوم من العرب فزعموا أنه

(١) كان القدماء يعتقدون ان الرسوم التي توجد على البرابي ، والمعابد المصرية القديمة . ليست الا طلاس . وأوفاقاً . نقشت على جدرانها ليكون لها مفعول سحري معين : خطط المقريري ٤٨/١ طبع مصر . معجم البلدان «برابي» .

(٢) تطلق خراسان اليوم على القسم الشرقي لايران . الذي يتصل بافغانستان . وقد فتحت خراسان سنة ٣١ هجرية في ايام عثمان رضي الله عنه . (معجم البلدان) .

(٣) ما وراء النهر : اقليم مشهور يقع فيما وراء نهر جيحون «وهو المراد بالنهر» . (معجم البلدان) .

(٤) الآية ٦٣ من سورة الأنفال .

أوصى بذلك لابن عمه عليّ ، وامتنع الجماعة من قبول ذلك ، وأبوا إلا الاجتهاد في تعيينه ، فمضى على ذلك السلف في دولة بني أمية التي استفحل الملك والإسلام فيها ، وتناقل التشيع بتشعب المذاهب ، في استحقاق بني عليّ ، وأيّهم يتعين له ذلك ، حتى انساق مذهب من مذاهبهم إلى محمد بن عليّ بن عبدالله بن عباس^(١) ، فظهرت شيعته بخراسان ، وملكوا تلك الأرض كلها ، والعراق بأسره . ثم غلبوا على بني أمية ، وانترعوا الملك من أيديهم ، واستفحل ملكهم ، والإسلام باستفحاله ، وتعدّد خلفائهم . ثم خامر الدولة ما يخامر الدول من الترف والراحة ؛ ففشلوا . وكثر المنازعون لهم من بني عليّ وغيرهم ؛ فظهرت دولة لبني جعفر الصادق بالمغرب ، وهم العبيديون^(٢) بنو عبيدالله المهدي بن محمد ، قام بها كتامة وقبائل البربر ، واستولوا على المغرب ومصر ؛ ودولة بني العلوي بطبرستان ، قام بها الديلم وإخوانهم الجيل ، ودولة بني أمية النائية بالأندلس ، لأن بني العباس لما غلبوهم بالمشرق ، وأكثروا القتل فيهم ، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ونجا إلى المغرب . ثم ركب البحر إلى الأندلس ؛ فاجتمع عليه من كان هنالك من العرب وموالي بني أمية ، فاستحدث هنالك ملكاً آخر لهم ، وانقسمت الملة الإسلامية بين هذه الدول الأربع إلى المائة الرابعة . ثم انقرض ملك العلوية من طبرستان^(٣) ، وانتقل إلى الديلم ، فاقسموا خراسان وفارس والعراق ، وغلبوا على بغداد ، وحجّر الخليفة بها بنو بويه منهم^(٤) . وكان بنو سامان — من أتباع بني طاهر — قد تقلدوا عمالات ما وراء النهر ، فلما فشل أمر الخلافة استبدوا بتلك النواحي ، وأصاروا لهم فيها ملكاً ضخماً^(٥) ، وكان آخرهم محمود بن سكتكين من مواليهم ، فاستبد عليهم ، وملك خراسان ، وما وراء النهر إلى الشاش ، ثم

(١) كان ذلك في سنة ١٢٩٠ هـ ، وانظر تفصيل القول في تاريخ الطبري ٨٢/٩ وما بعدها ، تاريخ أبي الفداء ٢٢٠/١ وما بعدها .

(٢) كان مبدأ دولة الفاطميين بالمغرب في سنة ٢٩٦ هـ ، ونهايتها سنة ٣٦١ هـ .

(٣) طبرستان : إقليم متسع في غربي خراسان ، ويقول ياقوت انه الذي يسمى ايضاً بهازندران . وهو إقليم واقع في شمالي مرتفعات البرز ، ويشرف على بحر قزوين . (معجم البلدان) .

(٤) بنو بويه دولة أسسها اترك من الديلم في خلافة الرازي بالله (٣٢٢ — ٤٤٧ هـ) . تاريخ أبي الفداء ٨٣/٢ ، ١٥٢ ، في المجلد الرابع وما بعدها .

(٥) ملكت دولة بني سامان هذه ما وراء النهر ، وأقامت هناك دعوة بني العباس ، ثم استقلت . وقد تحدث عنها ابن خلدون في المجلد الرابع ، أبو فداء ١٢٣/٢ ، ١٤١ ، صبح الاعشى ٤٤٦/٤ .

غَزَنَةَ^(١) ، وما وراءها جنوباً إلى الهند . وأجاز إلى بلاد الهند ، فافتتح منها كثيراً ، واستخرج من كنوزها ذخائر لم يعثر عليها أحدٌ قبله . وأقامت الملة على هذا النمط إلى انقضاء المائة الرابعة ، وكان الترك منذُ تعبدوا للعرب ، وأسلموا على ما بأيديهم وراء النهر ، من كاشغر^(٢) ، والصَّاغون إلى فرغانة^(٣) ، وولأهم الخلفاء عليها ، فاستحدثوا بها ملكاً ، وكانت بَوادي التُّرك في تلك النواحي مُتجعَّةً أمطارَ السماء ، وعُشب الأرض ، وكان الظهور فيهم لقبيلة الغز من شعوبهم ، وهم الخوز ، إلا أن استعمال العرب لها عَرَّبَ خاءها المعجمة غينا ، وأدغمت واوها في الزاي الثانية ؛ فصارت زايًا واحدة مشددة . وكانت رياسة الغز هؤلاء في بني سلجوق بن ميكائل ، وكانوا يُستخدمون لملوك التُّرك بتركيستان تارة ، ولملوك بني سامان في بخارى أخرى . وتحدُّث بينهما الفتنة ؛ فيتألفون من شاءوا منها^(٤) ؛ ولما تغلب محمود بن سُبُكْتِكِين^(٥) على بني سامان ، وأجاز من خراسان فنزل بخارى^(٦) ، واقتعد كرسيتهم ، وتقبض على كبار بني سلجوق هؤلاء ، وحبسهم بخراسان . ثم مات وقام بالأمر أخوه مسعود^(٧) ، فملك مكانه ، وانتقض عليه بنو سلجوق^(٨) هؤلاء ، وأجاز الغز إلى خراسان فلكوها ، وملكوا طبرستان من يد الديلم ، ثم إصبهان^(٩)

- (١) غزنة : مدينة من مدن افغانستان ، وكانت عاصمة الدولة التي أسسها نصر الدين محمود بن سبكتكين سنة ٣٦٦ ، والتي استمرت الى سنة ٥٧٨ هجرية . العبرم ٤ .
- (٢) كانت كاشغر قاعدة «التركيستان» وكانت تسمى ايضاً «أزدوكند» وهي اليوم في الصين «معجم البلدان» صبح الاعشى ٤/٤٤٠ .
- (٣) فرغانة كورة واسعة فيما وراء النهر ، متاخمة لبلاد تركستان . (معجم البلدان) .
- (٤) انظر كلمة موجزة عن الغز في تاريخ أبي الفداء ٢٧/٣ وما بعدها .
- (٥) هو محمود بن ناصر الدولة بن سبكتكين (٣٦١ — ٤٢١) ، يلقب سيف الدولة ، ويمين الدولة . وليمين الدولة هذا ينسب التاريخ «اليميني» الذي ألفه له ابو نصر العتبي . ترجمة يمين الدولة في «الوفيات» ١١٠/٢ — ١١٤ ، وانظر تاريخ أبي الفداء ١٦٥/٢ .
- (٦) تقع بخارى اليوم في جمهورية الاتحاد السوفياتي ، وكانت قاعدة الدولة السامانية ، فتحت فيما بين سنتي ٥٣ ، ٥٥ هـ ، في ايام معاوية . ياقوت (معجم البلدان) .
- (٧) هكذا في الأصل : «أخوه مسعود» . وهو سبق قلم ، والصواب : «ابنه مسعود» العبرم ٤ ، «تاريخ دول آل سلجوق» ص ٨ .
- (٨) ابتدأت الدولة السلجوقية في خلافة القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٣٢ ، وانتهت في سنة ٥٧٢ ، تاريخ أبي الفداء ١٧١/٢ وما بعدها ، العبر ١/٥ وما بعدها . وقد خص هذه الدولة بالتأليف العماد الأصفهاني ، وطبع مختصر لكتاب العماد بالقاهرة سنة ١٩٠٠ م .
- (٩) كذا بالأصل ، أصبهان ، وكذا في أكثر الكتب القديمة . وهي : أصفهان بفتح الهمزة وكسرهما : مدينة =

وفارس ، من أيدي بني بُويّه ، ومَلِكُهُم يَوْمئذٍ طُغْرُلْبِكُ (١) بن ميكائيل من بني سلجوق ، وغلب على بغداد (٢) من يد بني مُعز الدولة بن بُويّه المستبدين على الخليفة يَوْمئذٍ المطيع (٣) ، وحَجَرَهُ عن التصرف في أمور الخِلافة والمُلْك ، ثم تجاوز إلى عراق العرب ، فغلب على ملوكه ، وأبادهم ، ثم بلاد البحرين وعمان ، ثم على الشام ، وبلاد الروم ، واستوعب ممالك الإسلام كلها ، فأصارها في ملكه ، وانقبضت العرب راجعة إلى الحجاز ، مسلوبة من المُلْك ، كأن لهم فيه نصيب ، وذلك أعوام الأربعين والأربعمئة ؛ وخرج الإفرنج على بقايا بني أمية بالأندلس ، فانتزعوا الملك من أيديهم ، واستولوا على حواضر الأندلس وأمصارها ، وضاق النطاق على العبيديين بالقاهرة بملوك الغزّيزاحمونهم فيها من الشام ، بمحمود بن زنكي وغيره (٤) من أبنائهم ومماليكهم ، وبملوك المغرب قد اقتطعوا ما وراء الإسكندرية ، بملوك صنهاجة في إفريقية ، والملثمين المرابطين بعدهم بالمغرب الأقصى والأوسط ، والمصامدة الموحدين بعدهم كذلك ، وأمام الغزّ والسلجوقية في ملك المشرق ، وبنوهم ومواليهم من بعدهم إلى انقضاء القرن السادس ؛ وقد فشل ربح الغزّ ، واختلت دولتهم ، فظهر فيهم جنكيزخان أمير المغل من شعوب الططر (٥) ، وكان كاهناً ، وجدّه النجر كاهناً مثله . ويزعمون أنه وُلد من غير أب (٦) ؛ فغلب الغزّ في المفازة ، واستولى على ملك الططر ، وزحف إلى كرسيّ

= جبلية عظيمة في جنوب عراق العجم من بلاد فارس ، وتطلق اصفهان على الاقليم أيضا ، فتحت في سنة ٢٣ هـ في أيام عمر بن الخطاب (معجم البلدان) .

(١) أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق ، ركن الدين طغرلبك (٣٨٥ — ٤٥٥) . وفيات الأعيان ٥٩/٢ — ٦٠ .

(٢) كان دخول بغداد والعراق سنة ٤٤٧ . وفيات الأعيان ٦٠/٢ ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ .

(٣) كذا بالأصل : «المطيع» والصواب : «القائم» لأنه الذي عاصر طغرلبك . وهو أبو جعفر عبدالله بن القادر ، القائم بأمر الله . ولد سنة ٣٩١ ، وولي الخلافة سنة ٤٢٢ ، وتوفي سنة ٤٦٧ . تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٧ — ١٦٩ .

(٤) رسمه ، على قاعدته التي قررها في أول «المقدمة» بصاد وسطها زاي إشارة إلى أن الصاد تشم — عند النطق بها — زايا . وانظر أخبار تملك محمود بن زنكي ، في تاريخ ابي الفداء ٣٠/٣ — ٥٨ .

(٥) ولد جنكيزخان ويقال جنكس قان) في سنة ٥٤٩ ، وهو من قبيلة تركية تسمى ثيات من أشهر قبائل المغل ، وأكثرهم عدداً ؛ وكان اسمه — حين بلغ من العمر ١٣ سنة — تموجين ثم أصاروه : «جنكيز» ؛ و«خان» تمام الاسم ؛ وهو بمعنى الملك عندهم . العبرم ٥ .

(٦) ينتهي نسبه إلى : «بودّ نسبه إلى : «بودّ نجر بن الان قوی» ؛ وألان قوی اسم امرأة هي جدتهم ؛ كانت =

الملك بخوارزم . وهو علاء الدين خوارزم شاه ، سلفه من موالي طغرلبيك ، فغالبه على ملكه ، وفرّ أمامه ، وأتبعه إلى بحيرة طبرستان ؛ فنجا إلى جزيرة فيها ، ومريض هنالك ومات^(١) ، ورجع جنكيزخان إلى ما زندران ، من أمصار طبرستان فترها ، وأقام بها ، وبعث عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للغز ، وأنزل ابنه طولي^(٢) بكرسي خراسان ، وابنَه دوشِيخان^(٣) بصراي وبلاد الترك ، وابنَه جفطاي^(٤) بكرسي الترك فيما وراء النهر ، وهي كاشغر وتركستان ، وأقام بما زندران إلى أن مات جنكيزخان ودفن بها^(٥) ؛ ومات ابنه طولي وله ولدان ، قبلاي^(٦) وهولاكو^(٧) ، ثم هلك قبلاي ، واستقل هولاكو بملك خراسان ، وحدث بينه وبين بركة بن دوشِيخان^(٨) فتنة بالمنازعة في القانية ، تحاربوا فيها طويلاً ، ثم أقصروا ،

= متزوجة ثم مات زوجها ؛ وتأيمت وحملت وهي أيم ، فنكر عليها اقرباؤها ، فذكرت انها رأيت بعض الأيام أن نوراً دخل فرجها ثلاث مرات ، وطراً عليها الحمل بعد ذلك ، وقال ان في حملي ثلاث ذكور ، فان صدقت عند الوضع فذلك ، والا فافعلوا ما بدا لكم ؛ فوضعت ثلاث توائم في ذلك الحمل ، فظهرت براءتها ، بزعمهم ، وكان ثالث التوائم «بودنجر» جد جنكيز خان ، وكانوا يسمون التوائم الثلاث : النورانيين نسبة إلى النور المذكور ، ولذلك كانوا يقولون لجنكيز خان : ابن الشمس . العبرم ٥ .

- (١) هو السلطان علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان : كان من علماء الملوك وعظماهم ، وكانت مدة ملكه ٢١ سنة ، وتوفي عام ٦١٧ ، وانظر اخبار حروبه مع جنكيز خان في تاريخ أبي الفداء ١٣٣/٣ - ١٣٤ ، ١٥٤ - ١٥٨ .
- (٢) هو الابن الاصغر لجنكيز خان ، وكان عاقلاً كيساً ، ولذلك أمره أبوه أن يرأس اخويه : جوجي ، وجفتاي في حرب قلعة الطالقان التي استعصى عليها الاستيلاء عليها . وطاؤه تنطق بين التاء والطاء ، ويقال في اسمه ايضاً : «تولوي» . وانظر العبرم ٥ .
- (٣) ويقال طوشي خان (بين التاء والطاء) ، ويقال جوجي خان .
- (٤) جفطاي ، ويقال «جفتاي» ، ويسمى ايضاً كداي ، وجداي .
- (٥) كانت وفاته في سنة ٦٢٥ ؛ وهناك رأي غير ما ذكره ابن خلدون في مكان وفاة جنكيزخان ، تجده في السلوك ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
- (٦) قبلاي بن تلوي خان المتوفى سنة ٦٩٥ . وقد ضبطه ابن خلدون بالحركات - بضم القاف ، وسكون الباء الموحدة ، ولام مفتوحة مخففة ، ثم ياء ساكنة .
- (٧) يكتبه ابن خلدون : «هولاوو» بواوين أحياناً ، وأحياناً أخرى يكتبه : «هولاكو» بنقطة تحت الكاف إشارة الى أن الكاف تنطق كافاً فارسية . وقد ابتداء أمر هولاكو في الظهور في سنة ٦٥٤ ، وتوفي سنة ٦٠٣ . وانظر السلوك ص ٥٤١ .
- (٨) ويقال ايضاً : بركة بن توشي بن جنكيز خان . وقد توفي سنة ٦٦٥ . كان مسلماً يعظم اهل العلم ، وكان يميل الى الملك الظاهر بيبرس .

وصرف هولاء وجهه إلى بلاد أصبهان ، وفارس ، ثم إلى الخلفاء المستبدين ببغداد ، وعراق العرب ، فاستولى على تلك النواحي ، واقتحم بغداد^(١) على الخليفة المستعصم ، آخربني العباس^(٢) وقتله ، وأعظم فيها العيث والفساد ، وهو يومئذ على دينه من المجوسية ؛ ثم تخطاه إلى الشام ؛ فملك أمصاره وحواضره إلى القدس ، وملوك مصر يومئذ من موالي بني أيوب قد استحاشوا ببركة صاحب صراي ؛ فزحف إلى خراسان ليأخذ بحجزه هولاء عن الشام ومصر . وبلغ خبره إلى هولاء فحرد^(٣) لذلك ، لما بينهما من المنافسة والعداوة ، وكرّ راجعاً إلى العراق ، ثم إلى خراسان ، لمدافعة بركة . وطالت الفتنة بينهما إلى أن هلك هولاء سنة ثلاث وستين من المائة السابعة ، وزحف أمراء مصر من موالي بني أيوب ، وكبيرهم يومئذ قطز ، وهو سلطانهم فاستولى على أمصار الشام التي كان هولاء انتزعها من أيدي بني أيوب ، واحدة واحدة ، واستضاف الشام إلى مصر في ملكه . ثم هدى الله أبغا بن هولاء إلى الإسلام ، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمه صاحب التخت بصراي من بني دوشي خان على يد مُريدٍ من أصحاب شمس الدين كُبرى^(٤) ، فتواطأ هو وأبغا بن هولاء على الإسلام . ثم أسلم بعد ذلك بنو جقاي وراء النهر ؛ فانتظمت ممالك الإسلام في أيدي ولد جنكيزخان من المغل ، ثم من الططر ، ولم يخرج عن ملكهم منها إلا المغرب والأندلس ومصر والحجاز ، وأصبحوا ، وكانهم في تلك الممالك خلف من السلجوقية والغز . واستمر الأمر على ذلك لهذا العهد ، وانقرض ملك بني هولاء بموت أبي سعيد آخرهم سنة أربعين من المائة الثامنة^(٥) . وافترت دولتهم بين عمال الدولة وقرباتها من المغل ؛ فملك عراق العرب ، وأذربيجان^(٦)

(١) دخل هولاء بغداد في سنة ٦٥٦ هـ .

(٢) هو ابو احمد عبدالله بن المنتصر ، ولد سنة ٦٠٩ ، وقتل سنة ٦٥٦ .

(٣) حرد : اغتاض وغضب .

(٤) هو ابو الجناح أحمد بن عمر بن نجم الخيوي شيخ خوارزم . عرف به السبكي في طبقاته ١١/٥ ، ١٢ ، ولم يذكر مولده ولا وفاته ؛ ووصفه في تاريخ جنكيز خان بأنه : «شيخ المشايخ ، وقطب الأوتاد ، نجم الدين الكبرى» ، وذكر انه مات في حصار مدينة خوارزم . وقد ضبطه ابن خلدون . بضم الكاف وسكون الباء ، وفي طبقات الشافعية : «الكبرى على صيغة فعلى كعظمي» .

(٥) هو ابو سعيد بن خربند بن ارغون بن ابغا بن هولاء . وانصر اخباره في العبرم ٥ .

(٦) آذربيجان ، واسمها القديم أثروباتان : اقليم يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين (بحر الخزر) ويحده في الشمال اقليم داغستان ، واطليم جورجيا ، ومن المغرب ، والجنوب الغربي مقاطعة ارمينية . (معجم البلدان) .

وتوريز^(١) ، الشيخ حسن سبّط هولكو^(٢) ، واتصل مُلكُها في بَنيهِ لهذا العهد ؛ ومَلِكُ خُرَاسان وطَبْرِستان شاه وليّ من تابعة بني هولكو ؛ ومَلِكُ أَصْبَهان ، وفارس ، بنو مُظفَّر البردي^(٣) من عُمَّالهم أيضاً ؛ وأقاموا بنو دُوشي خان في مملكة صَرَاي وآخِرُهُم بها طقطمش بن بُردِي بك^(٤) ؛ ثم سَمّا لبني جَقَطاي وراء النهر ، وملوكِهِم أَمَلٌ في التغلُّب على أعمال بني هولكو ، وبني دُوشي خان ، بما استفحل ملكهم هنالك ، لعدم التَّرف والتَّنعيم ، فبقُوا على البَدَاوة ؛ وكان لهم مَلِكٌ اسمه ساطلمش^(٥) هَلَك لهذا العهد ، وأجلَسوا إبْنَه على التَّخت مكانه ، وأمراءُ بني جَقَطاي جميعاً في خدمته ، وكبيرُهُم تيمور المعروف بتمر بن طرغاي^(٦) فقام بأمر هذا الصبي وكفله ، وتزوَّج أمّه ، ومدَّ يده إلى ممالك بني دُوشي خان التي كانت على دعوتهم وراء النهر ، مثل سمرقند^(٧) ، وبُخارى ، وخوارزم ، وأجاز إلى طَبْرِستان وخراسان فملكها . ثم ملك أَصْبَهان ، وزحفَ إلى بغداد ؛ فملكها من يد أحمد بن أُويس . وفرَّ أحمد مستجيراً بملك مصر ، وهو المَلِك الظاهر برقوق ، وقد تقدّم ذكره ؛ فأجاره ، ووعدَه النَّصر من عدوّه . وبعث الأمير تمر رُسلًا إلى صاحب مصر ، يقررون معه الولاية والاتِّحاد ، وحُسْنَ الجوار ؛ فوصلوا إلى الرَّحبة ؛ فلقبهم عاملها ، يودار بينهم الكلام فأوحشوه في الخطاب ، وأنزلهم ، فبَيَّت جميعهم ، وقتلهم . وخرج الظاهر برقوق من مصر ، وجمع العرب والتركمان ، وأناخ على الفرات ، وصَرَخ بطقطمش من كرسيه بصَرَاي ؛ فحشد ووصل إلى الأبواب^(٨) . ثم زحف تمر إلى الشام سنة سِتِّ وتسعين وسبعائة وبلغ الرُّها^(٩) ، والظاهر يومئذ على

(١) توريز (تبريز) : إحدى مدن إيران الشمالية ، وكانت في القديم تشملها مقاطعة آذربيجان (معجم البلدان) .

(٢) يسمى أيضاً الشيخ حسن الصغير .

(٣) ورد في العبر ٥ : «اليزدي» .

(٤) ضبطه ابن خلدون بالحركات بفتح الباء وضمها ، وسكون الراء بعدها دال ثم ياء مثناة تحتيه ساكنة ، ثم باء موحدة مفتوحة .

(٥) كذا في الأصل ، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : «سيورغتمش» وكتب فوقها كلمة : «أصح» .

(٦) في نسخة : «طرغان» ، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : «ترغاي» وكتب فوقها كلمة «أصح» .

(٧) مدينة مشهورة ، تقع اليوم في جمهورية الاتحاد السوفيتي ، وكانت في القديم عاصمة بلاد الصغد (معجم البلدان) .

(٨) يريد بالأبواب المضائق والمرات التي في الجبال الفاصلة بين إقليم مازندران والعراق العجمي .

(٩) بلدة مشهورة في شمال حران ، وتقع اليوم في الجمهورية التركية ، وتسمى أورفة .

الفرات ، فخام^(١) تمر عن لقائه . وسار إلى محاربة طقتمش ؛ فاستولى على أعماله كلها ، ورجعت قبائل المغل إلى تمر ؛ وساروا تحت رايته . وذهب طقتمش في ناحية الشمال ، وراء بلغار ، متدماً بقبائل أروس من شعوب الترك في الجبال . وسارت عصابات الترك كلها تحت رايات تمر ؛ ثم اضطرب ملوك الهند ، واستصرخ خارج منهم بالأمير تمر ؛ فسار إليهم في عساكر المغل ، وملك دلي^(٢) ، وفر صاحبها إلى كنباية^(٣) مرسى بحر الهند ، وعاثوا في نواحي بلاد الهند . ثم بلغه هناك مهلك الظاهر برقوق بمصر ؛ فرجع إلى البلاد ، ومر على العراق ، ثم على أرمينية^(٤) وأرزنكان^(٥) ، حتى وصل سيواس^(٦) فخرّبها ، وعاث في نواحيها ، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التاسعة . ونازل قلعة الروم^(٧) ، فامتنت ، وتجاوزها إلى حلب ؛ فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها ؛ ففضّهم ، واقتحم المغل المدينة من كل ناحية . ووقع فيها من العيث والنهب والمصادرة واستباحة الحرم ، ما لم يعهد الناس مثله ؛ ووصل الخبر إلى مصر ، فتجهز السلطان فرج ابن الملك الظاهر^(٨) إلى المدافعة عن الشام ، وخرج في عساكره من الترك مسابقا المغل وملكهم تمر أن يصدّهم عنها .

* (لقاء الأمير تمر سلطان المغل والطر) *

لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر^(٩) ملك بلاد الروم ، وخرّب سيواس ، ورجع

(١) خام عنه : نكص ، وجين .

(٢) هي دهي اليوم . صبح الأعشى ٦٨/٥ — ٦٩ .

(٣) كباية ، أو كبايت ، ضبطها ابن خلدون بالحركات بفتح الكاف وسكون النون ، وباء مفتوحة بعدها الف ثم ياء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث . وفي صبح الأعشى ٧١/٥ : أنه ينسب إليها فيقال أنباتي وعلى ذلك فاسمها «أنبايت» بابدال الكاف همزة . وهي مدينة على ساحل بحر الهند .

(٤) أرمينية : إقليم واقع في غرب آذربيجان ، وفي شماله الغربي يقع إقليم جورجيا . صبح الأعشى ٣٥٣/٤ ، (معجم البلدان) .

(٥) أرزنكان ، ويقال أرزنجان : بلدة كانت تعد قديماً من بلاد أرمينية ، وهي الآن من بلاد الجمهورية التركية . صبح الأعشى ٣٥٤/٤ .

(٦) سيواس : مدينة في تركيا ، تبعد ستين ميلاً نحو الشرق من «قيسارية» السلوك ص ٣١٣ .

(٧) هي قلعة حصينة واقعة في غربي الفرات مقابل «البيرة» . (معجم البلدان) .

(٨) هو الملك الناصر زين الدين أبو السادات فرج بن الملك الظاهر . المقرئ ٣٩٢/٣ — ٣٩٣ طبع مصر .

(٩) في عجائب المقدور ص ٥ ، ٦ : «... اسمه تيموربتاء مثناة مكسورة ساكنة ، فثناة تحت ، وواو ساكنة =

إلى الشام ، جمع السلطان عساكره ، وفتح ديوان العطاء ، ونادى في الجند بالرحيل إلى الشام ، وكنتُ أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة^(١) ؛ فاستدعاني دوا داره يشبك^(٢) وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان ؛ فتجافيتُ عن ذلك . ثم أظهر العزم عليّ بلين القول ، وجزيل الانعام فأصخيتُ ، وسافرت معهم مُتتصفاً شهر المولد الكريم من سنة ثلاث وثمانمائة ؛ فوصلنا إلى غزة ، فأرحنا بها أياماً نترقب الأخبار ؛ ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الططر إلى أن نزلنا شقحب^(٣) ، وأسرينا فصبَّحنا دمشق ، والأمير تمرُّ في عساكره قد رحل من بعلبك^(٤) قاصداً دمشق ، فضرب السلطان خيامه وأبنتيه بساحة قبة يلبغا . ويشس الأمير تمرُّ من مهاجمة البلد ، فأقام بمرقب على قبة يلبغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر ، تجاول العسكران في هذه الأيام مراتٍ ثلاثاً أو أربعاً ، فكانت حربهم سجالاً ؛ ثم نُمي الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه ، أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يُحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها ؛ فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشيةً من انتقاض الناس وراءهم ، واختلال الدولة

= بين ميم مضمومة وراء مهملة ، هذه طريقة املائه ... لكن كرة الألفاظ الأعجمية إذا تداولها صولحان اللغة العربية خرطها في الدوران على بناء اوزانها ... فقالوا تارة تمر ، وأخرى تمرلك . وضبطه البدر العيني في «عقد الجمان» بخطه بالحركات بفتح التاء وضم الميم بعد راء ساكنة ، ثم لام مفتوحة ، فنون ساكنة ، فكاف .

(١) في عقد الجمان ، في حوادث سنة ٨٠٣ ، وتاريخ ابن قاضي شعبة كذلك : «... خرج السلطان الملك الناصر فرج ، ومعه الخليفة المتوكل على الله ، والقضاة الثلاثة ، وهم صدر الدين المناوي الشافعي ، والقاضي نور الدين علي بن الحلال المالكي ، والقاضي موفق الدين بن الحنبلي ، وأما القاضي جمال الدين الملطي الحنفي فإنه سار لكونه ضعيفاً ، وشار معهم القاضي ولي الدين ابن خلدون المالكي ، وهو معزول» .

(٢) هو الأمير يشبك الشعباني كان من أمراء الملك الظاهر ، تقلب في مناصب مختلفة ، وجعل له الملك الظاهر الوصية على أولاده ؛ وفي أيام الملك فرج ، تولى وظيفة دوا دار كبير ، ومشير المملكة تاريخ ابن اياس ٣٠٨/٢ ، ٣١٤ ، ٣٣٧ . وقد ضبطه البدر العيني بخطه في «عقد الجمان» بكسر الباء ، وسكون الشين ، وفتح الباء .

(٣) بفتح الشين والحاء المهملة ، وسكون القاف بينهما (كجعفر) ، ويقول المقرئ في الخطط ٣٩٩/٣ (طبع مصر) : «... انها بظاهر دمشق» ؛ وزاد في السلوك ص ٩٣٢ : «تحت جبل غباغب» ؛ فهي — باء على هذا — في جنوب دمشق . وانظر تاج العروس (شقب) .

(٤) بعلبك : إحدى مدن لبنان المشهورة ، وهي واقعة في الشمال الشرقي لمدينة زحلة . (معجم البلدان) .

بذلك ، فأَسْرُوا ليلة الجمعة من شهر [.....] ^(١) وركبوا جَبَل الصَّالِحِيَّة ، ثم انْحَطُّوا في شِعَابِهِ ، وساروا على شَاقَةِ البحر إلى غَزَّة ، وركب الناس ليلًا يعتقدون أن السلطان سَارَ على الطريق الأعظم إلى مصر ؛ فساروا عصبًا وجماعات على شَقْحَب إلى أن وصلوا إلى مصر ، وأصبح أهل دمشق مُتَحَيِّرِينَ قد عميت عليهم الأنباء .

وجاءني القضاة والفقهاء ، واجتمعت بمدرسة العادلِيَّة ، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تَمُرُ على بيوتهم وحرَمهم ، وشاوروا في ذلك نائب القلعة ، فأبى عليهم ذلك ونكَّره ؛ فلم يوافقوه . وخرج القاضي بُرْهَانُ الدِّينِ بن مفلح الحنبلي ^(٢) ومعه شيخ الفقهاء بزَاوِيَّة [.....] ^(٣) فأجابهم إلى التأمين ، وردَّهم باستدعاء الوجوه والقضاة ، فخرجوا إليه متدلِّين من السور بما صَبَّحهم من التقدمة ، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان ، وردَّهم على أحسن الآمال ، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد ، وتصرَّف الناس في المعاملات ، ودخول أمير يتزل بمحل الإمارة منها ، ويملك أمرهم بغير ولايته .

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني ، وهل سافرتُ مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة ، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت ، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه ؛ فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع ، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى القول . وبلغني الخبر من جوف الليل ؛ فخشيت البادرة على نفسي ، وبكرت سَحْرًا إلى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج أو التدلِّي من السور ، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر ؛ فأبوا عليَّ أولاً ، ثم أصحَّخوا لي ، ودلَّوني من السور ؛ فوجدت بطانته عند الباب ، ونائبه الذي عينه للولاية على دمشق ، واسمه شاه ملك ، من بني جَقَطَايِ أهل عصابته ، فحَيَّيتهم وحيَّوني ، وفدَّيت وفدَّوني ، وقدم لي شاه ملك ، مركوباً ، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلي إليه . فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجلاسي في خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه ، ثم زيد في التعريف بإسمي أنني القاضي المالكي المغربي ، فاستدعاني ،

(١) بياض بالأصل ، ولعله يريد (شهر جمادى الآخرة) . وانظر تاريخ ابن اياس ٣٢٩/١ .

(٢) هو برهان الدين ابراهيم بن محمد بن مفلح (٧٤٩ — ٨٠٣) ، وكان يحسن اللغتين : التركية ، والفارسية ، ولعلمهم . لذلك — اختاروه للسفارة . وانظر ابن اياس ٣٣٦/١ .

(٣) بياض في الأصل ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم هذه الزاوية .

ودخلتُ عليه بخيمة جلوسه ، مُتَكِنًا على مرفقه ، وصِحَافُ الطَّعامِ تَمُرُّ بين يديه ، يُشيرُ بها إلى عَصَبِ المِغْلِ جُلُوسًا أمامَ خيمته ، حَلَقًا حَلَقًا . فلما دخلتُ عليه فاتحتُ بالسلام ، وأوميتُ إيماءة الخضوع ، فرَفَعَ رأسه ، ومدَّ يده إليّ فقبَلْتُها ، وأشار بالجلوس فجلستُ حيثُ انتهيت . ثم استدعى من بطانته الفقيهَ عبدَ الجبارِ بنِ النُّعمانِ من فقهاء الحنَفِيَّةِ بخوارزم^(١) ، فأقعدَه يترجم ما بيننا ، وسألني من أين جئتُ من المغرب ؟ ولِمَا^(٢) جئتُ ؟ فقلتُ : جئتُ من بلادِ لِقْضاءِ الفَرَضِ رَكِبْتُ إليها^(٣) البحر ، ووافيتُ مرسى الإسكندرية يوم الفِطْرِ سنة أربعٍ وثمانين من هذه المائة الثامنة ، والمفرحاتُ بأسوارهم لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددِها . فقال لي : وما فَعَلَ مَعَكَ ؟ قلتُ كل خير ، برَّ مَقْدَمي ، وأرغد قِراي ، وزودني للحجِّ ، ولما رَجَعْتُ وفرَّ جِرايتي ، وأقمتُ في ظلِّه ونعمته ؛ رحمه الله وجزاه . فقال : وكيف كانت توليته إياك القضاء ؟ فقلتُ : مات قاضي المالكية قبل موته بشهر ، وكان يظنُّ بي المقام المحمودَ في القيام بالوظيفة ، وتحري المعدلة والحق ، والإعراض عن الجاه ، فولَّاني مكانه ، ومات لشهر بعدها ، فلم يرَضَ أهلُ الدَّولةِ بمكاني ، فأدالوني منها بغيري جزاهم الله . فقال لي : وأين ولدُك ؟ فقلتُ : بالمغرب الجَوَّاني كاتب^(٤) للملك الأعظم هنالك . فقال وما معنى الجَوَّاني في وصف المغرب ؟ فقلتُ هو عرف خطابهم معناه الدَّاخلي ، أي الأبعد ، لأن المغرب كلُّه على ساحل البحر الشامي من جنوبه ؛ فالأقربُ إلى هنا بَرَقَّةٌ ؛ وإفريقية^(٥) ؛ والمغرب الأوسط^(٦) : تلمسان وبلاد زناتة ؛ والأقصى : فاس ومراكش ، وهو معنى

(١) هو : (عبد الجبار بن النعمان المعتزلي ، أحد خواص تيمور الذين طافوا معه البلاد ، وأهلكوا العباد ، وأظهروا الظلم والفساد) . ذكره علاء الدين في (تاريخ حلب) وقال : اجتمعت به ، فوجدته ذكيًا فاضلًا ، وسألته عن مولده ، فقال : يكون لي نحو الأربعين . ورأيت شرح الهداية لأكمل الدين ، وقد طالعه عبد الجبار المذكور ، وعلم على مواضع منه ، ذكر أنها غلط . وذكره ابن المبرد في (الرياض) وقال : (كان له معرفة بالفقه ، والعلوم العقلية ، وكان يمتحن العلماء ويناظرهم بين يدي الملك . وهو من قلة الدين على جانب كبير . توفي سنة ٨٠٨ هـ) .

(٢) كذا في الأصل بإثبات الف (ما) المحرورة عند الاستفهام ؛ وهي لغة حكوها عن الأنخس .

(٣) كذا بالأصل .

(٤) كذا في الأصل .

(٥) هي المملكة التونسية اليوم .

(٦) مكانه اليوم بلاد (الجزائر) .

الجَوَّاني . فقال لي : وأين مكانُ طنجةَ من ذلك المغرب ؟ فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط ، والخليج المسمَّى بالزُّقاق ، وهو خليج البحر الشَّامي ؟ فقال : وسبَّته ؟ فقلت : على مسافة من طنجة على ساحل الزُّقاق ، ومنها التَّعدية إلى الأندلس ، لقرب مسافته ، لأنها هناك نحو العشرين ميلاً . فقال : وفاس ؟ فقلت : ليست على البحر ، وهي في وسط التُّلول ، وكُرسيُّ ملوك المغرب من بني مَرين . فقال : وسجِّلماسة ؟ قلت : في الحدِّ ما بين الأرياف والرُّمال من جهة الجنوب . فقال : لا يُقْنيني هذا ، وأُحِبُّ أن تكتب لي بلادَ المغرب كُلِّها ، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره ، حتى كأني أشاهده . فقلت : يحصل ذلك بِسعادتك ؛ وكتبتُ له بعدَ انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك ، وأوعبتُ الغرضَ فيه في مختصرٍ وجيزٍ يكون قدرُ اثنتي عشرة من الكراريس المنضَّفة القطع . ثم أشار إلى خدِّمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشته ، ويُحكِّمونه على أبلغ ما يمكن ؛ فأحضرت الأواني منه ، وأشار بعرضها عليّ ، فثَلْتُ قائماً وتناولتها وشربتُ واستطبت ؛ ووقع ذلك منه أحسنَ المواقع ؛ ثم جلستُ وسكنتنا ، وقد غلَّبني الوجَلُ بما وقع من نكبة قاضي القضاة الشافعية ، صدر الدين المناوي ، أسره التَّابعون لعسكر مِصرَ . بشقِّحَب ، وردَّوه ؛ فحُجِسَ عندهم في طلب الفدية منه ؛ فأصابنا من ذلك وجَلٌ ؛ فزوّرتُ في نفسي كلاماً أخاطبه به ، وأتلفه بتعظيم أحواله ، ومُلْكِهِ . وكنت قبل ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدِّثان في ظهوره ، وكان المنجِّمون المتكلِّمون في قرانات العلويين^(١) يترقبون القرآن العاشر في المثلثة الهوائية^(٢) ، وكان يُترقب عام ستة وستين من المائة السابعة . فلقيت ذات يوم من عام أحدٍ وستين وسبعمئة بجامع القرويين من فاس ، الخطيبَ أبا عليّ بن باديس خطيب قسنطينة ، وكان ماهراً في ذلك الفن ، فسألته عن هذا القرآن المتوقَّع ، وما هي آثاره ؟ فقال لي : يدلُّ على ثائر عظيم في الجانب الشمالي الشرقي ، من أمة بادية

(١) الكوكبان العلويان : زحل ، والمشتري ؛ والمراد بالقران — عند الإطلاق — اجتماع المشتري ، وزحل خاصة (مفاتيح العلوم ص ٢٣٢) .

(٢) المثلثة : كل ثلاثة بروج تكون متفقة في طبيعة واحدة من الطبائع الأربع . (مفاتيح العلوم ص ٢٢٦) . ولعل ابن خلدون كان يعرف أن تيمورلنك (كان يعتمد على أقوال الأطباء والمنجمين ، ويقرِّبهم ويدنيههم ، حتى أنه كان لا يتحرك الا باختيار فلكي) ، فحدثه بهذا الحديث .

أهل خيام ، تتغلب على الممالك ، وتقلب الدول ، وتستولي على أكثر المعمور .
فقلت : ومتى زمنه ؟ فقال : عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره . وكتب لي بمثل ذلك
الطبيب ابن زرزور اليهودي ، طبيب ملك الأفرنج ابن أذفونش ومنجمه . وكان
شيخي رحمه الله إمام المعقولات محمد بن إبراهيم الآبلي متى فاضته في ذلك ، أو
سأيلته عنه يقول : أمره قريب ، ولا بد لك إن عشت أن تراه .

وأما المتصوفة فكنا نسمع عنهم بالمغرب ترقبهم لهذا الكائن ، ويرون أن القائم به هو
الفاطمي المشار إليه في الأحاديث النبوية^(١) من الشيعة وغيرهم ؛ فأخبرني يحيى بن
عبدالله حافد الشيخ أبي يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب ، أن الشيخ قال لهم
ذات يوم ، وقد انفتل من صلاة الغداة : إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمي ،
وكان ذلك في عشر الأربعين من المائة الثامنة ؛ فكان في نفسي من ذلك كله ترقب
له .

فوقع في نفسي لأجل الوجل الذي كنت فيه أن أفأوضه في شيء من ذلك يستريح
إليه ، ويأنس به مني ، ففاتحته وقلت : أيديك الله ! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة
أتمنى لقاءك . فقال لي الترجمان عبد الجبار : وما سبب ذلك ؟ فقلت : أمران ،
الأول أنك سلطان العالم ، ومليك الدنيا ، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا
العهد ملك مثلك ، ولست ممن يقول في الأمور بالجُزاف ، فإني من أهل العلم ،
وأبين ذلك فأقول :

إن الملك إنما يكون بالعصبية ، وعلى كثرتها يكون قدر الملك ؛ واتفق أهل العلم
من قبل ومن بعد ، أن أكثر أمم البشر فرقتان : العرب والترك ، وأنتم تعلمون ملك
العرب كيف كان لما اجتمعوا في دينهم على نبيهم ، وأما الترك ففي مزاحمتهم لملوك
الفرس ، وانتزاع ملكهم أفراسياب خراسان من أيديهم شاهد بنصابتهم من الملك .
ولا يساويهم في عصبيتهم أحد من ملوك الأرض من كسرى ، أو قيصر ، أو
الأسكندر ، أو بختنصر ، أما كسرى فكبير الفرس ومليكنهم ؛ وأين الفرس من
الترك ؟ وأما قيصر والإسكندر فملوك الروم ، وأين الروم من الترك ؟ وأما بختنصر فكبير
أهل بابل ، والنبط . وأين هؤلاء من الترك ؟ وهذا برهان ظاهر على ما ادعيت في هذا

(١) ذكر هذه الأحاديث في المقدمة .

الملك .

وأما الأمر الثاني مما يحملني على تمنّي لقائه ، فهو ما كنت أسمعه من أهل الحدّثان بالمغرب ، والأولياء ، وذكرت ما قصصته من ذلك قبل . فقال لي : وأراك قد ذكرت بُخْتَنْصَرَ مع كِسْرَى ، وقِيصَرَ ، والإِسْكَندَر ، ولم يكن في عِدَادِهِمْ ، لأنهم ملوك أكابر . وبُخْتَنْصَرَ قائد من قواد الفرس ، كما أنا نائب من نواب صاحب التّخت ، وهو هذا ، وأشار إلى الصفّ القائمين وراءه ، وكان واقفاً معهم ؛ وهو ربيّه الذي تقدّم لنا أنّه تزوج أمّه بعد أبيه ساطلمش ، فلم يُلفه هناك ، وذكر له القائمون في ذلك الصفّ أنه خرج عنهم .

فرجع إليّ فقال : ومن أي الطوائف هو بُخْتَنْصَرَ ؟ فقلت : بين الناس فيه خلاف ، فقليل من النبط بقية ملوك بابل ، وقيل من الفرس الأولى ، فقال : يعني من ولد مَنْوُشَهْر^(١) . قلت نعم هكذا ذكروا ، فقال : وَمَنْوُشَهْر له علينا ولادة من قبل الأمهات . ثم أفضت مع الترجمان في تعظيم هذا القول منه ، وقلت له : وهذا ممّا يجعلني على بني لقائه .

فقال الملك : وأي القولين أرجح عندك فيه ؟ فقلت إنّ من عقبه ملوك بابل ، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر . فقلت : يعكّر تملينا رأي الطبري ، فإنه مؤرّخ الأمة ومحدّثهم ، ولا يَرْجُحُه غيره ، فقال : وما علينا من الطبري ؟ نُحْضِرُ كُتُبَ التاريخ للعرب والعجم ، ونناظرُك . فقلت : وأنا أيضا أناظرُ على رأي الطبري ، وانتهى بنا القول ، فسكت ، وجاءه الخبر بفتح باب المدينة ، وخروج القضاة وفاء بما زعموا من الطاعة التي بذل لهم فيها الأمان ، فرُفِعَ من بين أيدينا ، لما في ركبته من الداء ، وحُمِلَ على فرسه فقُبِضَ شكائمه ، واستوى في مركبه . وضربت الآلات حِفافيه حتى ارتجّ لها الجوّ . وسار نحو دمشق ، ونزل في تربة منجك عند باب الجابية ؛ فجلس هناك ، ودخل إليه القضاة وأعيان البلد ، ودخلت في جملتهم ؛ فأشار إليهم بالانصراف ، وإلى شاه ملك نائبه أن يخلع عليهم في وظائفهم ؛ وأشار إليّ بالجلوس ، فجلست بين يديه . ثم استدعى أمراء دولته القائمين على أمر البناء ؛

(١) كذا بالأصل وهو : منوَجهر بالجم المتوسطة بينها وبين الشين اسم ملك من الفرس . الأول ومعناه فضي الطلعة ، وذلك لبهائه ؛ فان مينو بالفارسية : الضضة . فاقصروا على حذف الياء وقالوا منو . وجهر : الطلعة .

فأحضروا عرفاء البنيان المهندسين، وتناظروا في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة، لعلهم يعثرون بالصناعة على منفذه؛ فتناظروا في مجلسه طويلاً، ثم انصرفوا، وانصرفت إلى بيتي داخل المدينة بعد أن استأذنته في ذلك، فأذن فيه. وأقيمت في كسر البيت، واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب؛ فكتبته في أيام قليلة، ورفعته إليه فأخذه من يدي، وأمر موقعه بترجمته إلى اللسان المغلي. ثم اشتد في حصار القلعة، ونصب عليها الآلات من المجانيق، والنُّفوط، والعرادات، والنقب؛ فنصبوا لأيام قليلة ستين منجنيقاً إلى ما يُشاكلها من الآلات الأخرى، وضاق الحصار بأهل القلعة، وتهدم بناؤها من كل جهة، فطلبوا الأمان.

وكان بها جماعة من خدام السلطان ومخلفه، فأمنهم السلطان تمر، وحضروا عنده. وخرّب القلعة وطمس معالمها، وصادر أهل البلد على قناطير من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلفه صاحب مصر هنالك، من الأموال والظهور والخيام. ثم أطلق أيدي النهابة على بيوت أهل المدينة؛ فاستوعبوا أناسيها؛ وأمتعتها، وأضرموا النّار فيما بقي من سقط الأقمشة والخرثي؛ فاتصلت النار بجيطان الدور المدعمة بالخشب؛ فلم تزل تتوقد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم، وارتفعت إلى سقفه؛ فسال رصاصه، وتهدمت سقفه وحوائطه، وكان أمراً بلغ مبالغته في الشناعة والقبح. وتصاريف الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد، ويحكم في ملكه ما يشاء.

وكان أيام مقامي عند السلطان تمر، خرج إليه من القلعة يوم آمن أهلها رجل من أعقاب الخلفاء بمصر، من ذرية الحاكم العباسي^(١) الذي نصبه الظاهر بيبرس؛ فوقف إلى السلطان تمر يسأله النصفة في أمره؛ ويطلب منه منصب الخلافة كما كان لسلفه، فقال له السلطان تمر: أنا أحضر لك الفقهاء والقضاة، فإن حكّموا لك بشيء أنصفتك فيه. واستدعى الفقهاء والقضاة، واستدعاني فيهم؛ فحضرنا عنده وحضر هذا الرجل الذي يسأل منصب الخلافة، فقال له عبد الجبار: هذا مجلس النصفة فتكلم. فقال: إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا، وإن الحديث^(٢) صح بأن

(١) هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القطبي المتوفى سنة ٧٠١.

(٢) في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٠، ١٠١ بعض الآثار التي تمسك بها العباسيون في خلافتهم.

الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا ، يعني أمر الخلافة . وإني أحقُّ من صاحب المنصب الآن بمصر ، لأن آبائي الذين ورثتهم كانوا قد استحقَّوه ، وصار إلى هذا بغير مستند ، فاستدعى عبدُ الجبار كلاً منّا في أمره ، فسكتنا برهة ، ثم قال : ما تقولون في هذا الحديث ؟ فقال برهان الدين بن مُفلح : الحديث ليس بصحيح . واستدعى ما عندي في ذلك فقلت : الأمر كما قلت من أنه غير صحيح ، فقال السلطان تمر : فما الذي أصرَّ الخلافة لبني العباس إلى هذا العهد في الإسلام ؟ وشافهني بالقول ، فقلت : أيُّدك الله ! اختلف المسلمون من لدن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، هل يجب على المسلمين ولاية رجل منهم يقوم بأموورهم في دينهم ودنياهم ، أم لا يجب ذلك ؟ فذهبت طائفة إلى أنه لا يجب ، ومنهم الخوارج ، وذهب الجماعة إلى وجوبه ، واختلفوا في مُستند ذلك الوجوب ؛ فذهب الشيعة كلهم إلى حديث الوصية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بذلك لعليّ ، واختلفوا في تنقلها عنه إلى عقبه إلى مذاهب كثيرة تشدُّ عن الحصر . وأجمع أهل السنة على إنكار هذه الوصية ، وأن مستند الوجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد ، يعنون أن المسلمين يجتهدون في اختيار رجل من أهل الحقِّ والفقهِ والعدل ، يُفوضون إليه النظر في أمورهم .

ولما تعددت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بني الحنفية إلى بني العباس ، أوصى بها أبو هاشم بن محمد بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وبثَّ دُعواته بخراسان . وقام أبو مسلم^(١) بهذه الدعوة ؛ فملك خراسان والعراق ، ونزل شيعتهم الكوفة ، واختاروا للأمر أبا العباس السفاح^(٢) ابن صاحب هذه الدعوة ؛ ثم أرادوا أن تكون بيعته على إجماع من أهل السنة والشيعة ، فكاتبوا كبار الأمة يومئذ ، وأهل الحلِّ والعقد ، بالحجاز والعراق ، يشاورونهم في أمره ؛ فوقع اختيارهم كلهم على الرضى به ، فبايع له شيعته بالكوفة بيعة إجماع وإصفاق . ثم عهد بها إلى أخيه المنصور^(٣) ، وعهد بها المنصور إلى بنيه ؛ فلم تزل مُتناقلة فيهم ، إما

(١) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني . له ترجمة واسعة في وفيات ابن خلكان ٣٥٢/١ - ٣٥٦ .

(٢) أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (١٠٤ - ١٣٦) . وأنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (٩٥ - ١٥٨) . تاريخ الخلفاء ١٠١ -

بِعَهْدٍ او باختيار أهل العصر ، إلى أن كان المستعصم آخرهم ببغداد . فلما استولى عليها هولاء كوقته ، افترق قرابته ، ولحق بعضهم بمصر ، وهو أحمد الحاكم من عقب الراشد ، فنصبه الظاهر بيبرس بمصر ، بمالأة أهل الحل والعقد من الجند والفقهاء . وانتقل الأمر في بيته إلى هذا الذي بمصر ، لا يُعلم خلاف ذلك . فقال لهذا الرَّافِع : قد سمعتَ مقال القضاة ، وأهل الفتيا ، وظهر أنه ليس لك حقّ تطلبه عندي . فانصرف راشداً .

* (الرجوع عن هذا الامير تمر الى مصر) *

كنت لما لقيته ، وتدليتُ إليه من السور كما مرّ أشار عليّ بعض الصّحاب ممن يخبر أحوالهم بما تقدّمتُ له من المعرفة بهم ؛ فأشار بأن أطرفه ببعض هديّة ، وإن كانت نزرّة فهي عندهم متأكّدة في لقاء ملوكهم ، فانتقيت من سوق الكتب مُصحفاً رائعاً حسناً في جزء محدو ، وسجّادة أنيقة ، ونسخة من قصيدة البردة المشهورة للأبوصيري^(١) في مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة . وجئت بذلك فدخلت عليه ، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه ؛ فلما رأيته مقبلاً مثل قائماً وأشار إليّ عن يمينه ؛ فجلستُ وأكابر من الحقطيّة حفافيّة ؛ فجلستُ قليلاً ، ثم استدرت بين يديه ، وأشرت إلى الهدية التي ذكرتها ، وهي بيد خدامي ؛ فوضعتها ، واستقبلني ؛ ففتحتُ المُصحف فلما رآه وعرفه ، قام مُبادراً فوضعه على رأسه . ثم ناولته البردة ، فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها . ثم ناولته السجّادة ، فتناولها وقبلها . ثم وضعتُ علب الحلوى بين يديه ، وتناولتُ منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك . ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه ، وتقبّل ذلك كله ، وأشعر بالرّضى به . ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي ، وشأن أصحاب لي هنالك . فقلت أيدك الله ! لي كلام أذكره بين يديك ، فقال : قل . فقلت أنا غريب بهذه البلاد غربتين ، واحدة من

(١) هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد الدلاصي البوصيري الصنهاجي (٦٠٨ - ٦٩٤) على خلاف في تاريخ الوفاة . له ترجمة في فوات الوفيات ٢/٢٠٥ - ٢٠٩ ، حسن المحاضرة ١/٣٦٠ .

المغرب الذي هو وطني ومنشأني وأخرى من مصر وأهل جيلي بها ، وقد حصلت في ظلك ، وأنا أرجو رأيك لي فيما يُؤنسني في غربتي ، فقال : قل الذي تريد أفعله لك ، فقلت : حال الغربة أنستني ما أريد ، وعساك — أيديك الله — أن تعرف لي ما أريد . فقال : انتقل من المدينة إلى الأردن^(١) عندي ، وأنا إن شاء الله أو في كونه قصدك . فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك ، فأشار إليه بامضاء ذلك ، فشكرت ودعوت وقلت : وبقيت لي أخرى . فقال : وما هي ؟ فقلت هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر . من القراء ، والموقعين ، والدواوين^(٢) ، والعمال ، صاروا إلى إيالتك والمملك لا يُغفل مثل هؤلاء فسُلطانكم كبير ، وعمالاتكم متسعة ، وحاجة مملكتكم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم ، فقال وما تريد لهم ؟ قلت : مكتوب أمان يستنيمون إليه ، ويعولون في أحوالهم عليه . فقال لكاتبه : اكتب لهم بذلك^(٣) ، فشكرت ودعوت . وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان ، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان ، وانصرفت إلى منزلي . ولما قرب سفره واعتزم على الرحيل عن الشام ، دخلت عليه ذات يوم ، فلما قضينا المعتاد ، التفت إلي وقال : عندك بغلة هنا ؟ قلت نعم ، قال حسنة ؟ قلت نعم ، قال وتبيعهما ؟ فأنا اشتريها منك ، فقلت أيديك الله ! مثلي لا يبيع من مثلك ، إنما أنا أخذتك بها ، وبأمثالها لو كانت لي ، فقال : أنا أردت أن أكافئك عنها بالإحسان ، فقلت : وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به ، اصطنعتني ، وأحللتني من مجلسك محل خواصك ، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله ، وسكت وسكت وحملت البغلة — وأنا معه في المجلس — إليه ، ولم أرها بعد .

ثم دخلت عليه يوماً آخر فقال لي : أتسافر إلى مصر؟ فقلت أيديك الله ، رغبتني إنما هي أنت ، وأنت قد آويت وكفلت ، فإن كان السفر إلى مصر في خدمتك فنعم ، وإلا فلا بُغية لي فيه ، فقال لا ، بل تسافر إلى عيالك وأهلك ، فالتفت إلى ابنه ، وكان مسافراً إلى شقحب لمربع دوابه ، واشتغل بحادثه ، فقال لي الفقيه عبد الجبار الذي كان يترجم بيننا : إن السلطان يُوصي ابنه بك ، فدعوت له ، ثم رأيت أن

(١) الأردن : المعسكر (تركية) .

(٢) كذا في الاصل . ولعلها : (بالدواوين) أو (وأصحاب الدواوين) .

(٣) ذكر هذه الشفاعة المقريري في السلوك في حوادث سنة ٨٠٣ .

السفر مع ابنه غير مُستبين الوجهة ، والسفرُ إلى صَفَدَ أَقْرَبِ السواحلِ إلينا أملكُ لأمرِي ، فقلتُ له ذلك ؛ فَأَجابَ إليهِ ، وَأوصِي بي قاصداً كان عنده من حاجبِ صَفَدَ ابنِ الدَّاوِيْدَاري^(١) ، فودَعته وانصرفت ، واختلفت الطريق مع ذلك القاصد ، فذهب عني ، وذهبتُ عنه ، وسأفرتُ في جمع أصحابي ؛ فاعتَرَضتُنَا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق ، ونهبوا ما معنا ، ونجونا إلى قرية هنالك عرايا . واتَّصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصُّبَيْية فخلَفْنَا بعضَ الملبوس ، وأجزنا إلى صَفَدَ ، فأقمنا بها أياماً . ثم مر بنا مركب من مراكب ابن عُثْمَانَ سلطان بلاد الروم ، وصل فيه رسولٌ كان سفر إليه عن سلطان مصر ، ورجع بجوار رسالته ؛ فركبتُ معهم البحرَ إلى غَزَّةَ ، ونزلتُ بها ، وسأفرتُ منها إلى مصر ، فوصلتُها في شعبان من هذه السنة ، وهي سنة ثلاث وثمانمئة ؛ وكان السلطان صاحب مصر ، قد بعث من بابه سفيراً إلى الأميرِ تَمْرٍ إجابةً إلى الصلح الذي طلب منه ؛ فأعقبني إليه . فلما قضى رسالته رجع ، وكان وصوله بعد وصولي ؛ فبعث إليَّ مع بعض أصحابه يقول لي : إنَّ الأميرِ تَمْرٍ قد بعثَ معي إليك ثمن البَغْلة التي ابتاع منك ، وهي هذه فخذها ، فإنَّه عَزَمَ علينا من خلاص ذمته من مالك هذا . فقلت لا أقبله إلا بعد إذن من السلطان الذي بعثك إليه ، وأما دون ذلك فلا . ومضيتُ إلى صاحب الدولة فأخبرته الخبرَ فقال وما عليك ؟ فقلت : إنَّ ذلك لا يَجْمَلُ بي أن أفعله دون إطلاعكم عليه ، فأغضى عن ذلك ، وبعثوا إليَّ بذلك المَبْلُغ بعد مدَّة ، واعتذر الحامل عن نقصه بأنَّه أعطيه كذلك ، وحمدت الله على الخلاص .

وكتبتُ حينئذُ كتاباً إلى صاحب المغرب ، عرَّفته بما دار بيني وبين سلطان الطُّطْرِ تَمْرٍ ، وكيف كانت واقعة معنا بالشَّام ، وضمَّنت ذلك في فصل من الكتاب نصه :

«وإن تفضَّلتم بالسؤال عن حال المملوك ، فهي بخير والحمد لله ، وكنت في العام الفارط توجَّهتُ صُحبةَ الركاب السلطاني إلى الشَّام عندما زحفَ الطُّطْرُ إليه من بلاد الروم والعراق ، مع ملكهم تَمْرٍ ، واستولى على حلب وحماة وحمص وبعْلَبَك ،

(١) كذا بالأصل وفي عجائب المقدور ص ١١٣ : «... وكان في صفد تاجر من أهل البلاد أحد الرؤساء والتجار ، يدعى علاء الدين ، وينسب إلى دوادار ، كان تقدمت له خدمة على السلطان فولاه حجابة ذلك المكان» .

وخرَّبها جميعاً ، وعاشت عساكره فيها بما لم يُسمع أشنع منه . ونهَضَ السلطان في عساكره لاستنقاذها ، وسبق إلى دِمَشق ، وأقام في مقابلته نحواً من شهر ، ثم قفل راجعاً إلى مصر ، وتخلَّف الكثير من أمرائه وقضاته ، وكنْتُ في المخلفين . وسمعت أن سلطانهم تمرَّسأل عني ؛ فلم يسع إلا لقاءه فخرجتُ إليه من دِمَشق ، وحضرتُ مجلسه ، وقابلني بخير ، واقتضيتُ منه الأمان لأهل دِمَشق ، وأقمتُ عنده خمساً وثلاثين يوماً ، أباكره واراوجه . ثمَّ صرفني ، وودَّعني على أحسن حال ، ورجعتُ إلى مصر . وكان طلبَ منِّي بَغلة كنت أركبها فأعطيته إياها ، وسألني البيع فتأففتُ منه ، لما كان يُعامل به من الجميل ، فبعدَ انصرافي إلى مصر بعث إليَّ بشمنا مع رسول كان من جهة السلطان هنالك ، وحمدتُ الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا .

وهؤلاء الطَّطَر هم الذين خرجوا من المفازة وراء النهر ، بينه وبين الصين ، أعوام^(١) عشرين وستائة مع ملكهم الشهير جنكزخان وملك المشرق كله من أيدي السلجوقية ومواليهم إلى عراق العرب ، وقسم الملك بين ثلاثة من بنيه وهم جَفطاي ، وطولي ، ودوشي خان :

فَجَفطاي كبيرهم ، وكان في قسمته تُركستان وكاشغر ، والصَّاغون ، والشَّاش وفرغانة ، وسائر ما وراء النهر من البلاد .

وطولي كان في قسمته أعمال خراسان ، وعراق العجم ، والرِّيَّ إلى عراق العرب وبلاد فارس وسجستان والسند . وكان أبناؤه : قبلاي ، وهولاكو .

ودوشي خان كان في قسمته بلاد قَبجق ، ومنها صرَّاي ، وبلاد الترك إلى خوارزم . وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي كبيرهم ، ويسمونه الخان ، ومعناه صاحب التَّخت ، وهو بمثابة الخليفة في مُلك الإسلام . وانقرض عقبه ، وانتقلت الخانيَّة إلى قبلاي ، ثم إلى بني دوشي خان ، أصحاب صرَّاي . واستمرَّ مُلك الططر في هذه الدول الثلاث ، ومُلك هولاكو بَغداد ، وعراق العرب ، إلى ديار بكر ونهر الفرات . ثم زحف إلى الشام وملكها ، ورجع عنها ، وزحف إليها بنوه مراراً ، وملوك مصر من الترك يُدافعونهم عنها ، إلى أن انقرض مُلك بني هولاكو أعوام أربعين وسبعائة ،

(١) كذا بالأصل ، وهو تعبير مألوف في أسلوب ابن خلدون . ورد كثيراً في أماكن متفرقة من كتابه .

وملك بعدهم الشيخ حسن النون بنونوه . وافترق ملكهم في طوائف من أهل دولتهم ، وارتفعت نقيمتهم عن ملوك الشام ومصر . ثم في أعوام السبعين أو الثمانين وسبعمائة ، ظهر في بني جفطاي وراء النهر أمير اسمه تيمور ، وشهرته عند الناس تمر ، وهو كافل لصبي متصل النسب معه إلى جفطاي في آباء كلهم ملوك ، وهذا تمر بن طرغاي هو ابن عمهم ، كفل صاحب التخت منهم اسمه محمود ، وتزوج أم صرغتمش ، ومدَّ يده إلى ممالك التتر كلها ؛ فاستولى عليها إلى ديار بكر ، ثم جال في بلاد الروم والهند ، وعاشت عساكره في نواحيها ، وخرَّب حصونها ومدنها ، في أخبار يطول شرحها . ثم زحف بعد ذلك إلى الشام ، ففعل به ما فعل ، والله غالب على أمره . ثم رجع آخرًا إلى بلاده ، والأخبار تتصل بأنه قصد سمرقند ، وهي كرسية .

والقوم في عدد لا يسعه الإحصاء ، إن قدرت ألف ألف فغير كثير ، ولا تقول أنقص ، وإن خيموا في الأرض ملأوا السَّاح ، وإن سارت كتائبهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء ؛ وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران ، وابتلائهم بأنواع العذاب ، على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب ، وعلى عادة بوادي الأعراب .

وهذا الملك تمر من زعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس ينسبونه إلى العلم ، وآخرون إلى اعتقاد الرِّفض ، لما يرون من تفضيله لأهل البيت ، وآخرون إلى انتحال السِّحر ؛ وليس من ذلك كله في شيء ؛ إنما هو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم ، عمره بين الستين والسبعين ، وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني ، فيجرها في قريب المشي ، ويتناولها الرجال على الأيدي عند طول المسافة ، وهو مصنوع له ؛ والملك لله يؤتية من يشاء من عباده .

* (ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر) *

كنت — لما أقمت عند السلطان نمر تلك الأيام التي أقمت — طال مغيبني عن

مِصر ، وشيئت الأخبار عني بالهلاك ، فقدم للوظيفة من يقوم بها من فضلاء
المالكية ، وهو جمال الدين الأقفهسي^(١) ، غزير الحفظ والذكاء ، عفيف النفس
عن التصدي لحاجات الناس ، ورع في دينه ، فقلدوه منتصف جمادى الآخرة من
السنة .

فلما رجعت إلى مصر ، عدلوا عن ذلك الرأي ، وبداهم في أمري ، فولوني في أواخر
شعبان من السنة . واستمرت على الحال التي كنت عليها من القيام بالحق ،
والإعراض عن الأغراض ، والإنصاف من المطالب ، ووقع الإنكار علي ممن لا
يدين للحق ، ولا يُعطي النصفة من نفسه ، فسعوا عند السلطان في ولاية شخص
من المالكية يُعرف بجمال الدين البساطي^(٢) ، بذل في ذلك لسعاة داخلوه ، قطعة
من ماله ، ووجوهاً من الأغراض في قضائه . قاتل الله جميعهم ، فخلعوا عليه أواخر
رجب ، سنة أربع وثمانمائة . ثم راجع السلطان بصيرته ، وانتقد رأيه ، ورجع إليّ
الوظيفة خاتم سنة أربع وثمانمائة ، فأجريت الحال على ما كان . وبقي الأمر كذلك
سنة وبعض الأخرى . وأعادوا البساطي الى ما كان ، وبما كان ، وعلى ما كان ،
وخلعوا عليه سادس ربيع الأول سنة ست وثمانمائة^(٣) ، ثم أعادوني عاشر شعبان
سنة سبع وثمانمائة^(٤) ، ثم أدالوا به مني أواخر ذي القعدة^(٥) من السنة وبهد الله
تصاريف الأمور .

تم الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون وبتامه اكتمل للمؤرخ ديوان المبتدأ والخبر
من عرب وعجم وبربر وبلية الجزء الثامن وهو فهرس عامة للتاريخ المذكور وضع
باشراف دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت .

وكان الفراغ من طبعة في الرابع والعشرين من شعبان عام ١٤٠١ هـ الموافق ٢٦
حزيران ١٩٨١ م والحمد لله رب العالمين .

(١) هو عبدالله بن مقداد بن اسماعيل بن عبدالله الأقفهسي ، جمال الدين المالكي المتوفي سنة ٧٢٣ هـ .

(٢) يوسف بن خالد بن نعيم بن نعيم بن محمد بن حسن بن علي بن محمد بن علي ، جمال الدين .

(٣) انظر «عقد الجمان» للعبيني ، في حوادث سنة ٨٠٦ .

(٤) في صبح الأعشى ١٨٩/١١ نص «التقليد» الذي تولى به البساطي القضاء بعد ابن خلدون .

(٥) الذي في «عقد الجمان» للعبيني في حوادث سنة ٨٠٧ . أن الذي خلف ابن خلدون هو جمال الدين
الأقفهسي . ولعل ابن خلدون أعرف بمن ولي بدله .

فهرس الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون

- الخبر عن زناته من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من الغز والظهور وما
تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة ٣
- الخبر عن نسبة زناته مذكر الخلاف الواقع فيه وتعدد شعوبهم ٤
- فصل في تسمية زناته ومبنى هذه الكلمة ١٠
- فصل في أولية هذا الجيل وطبقاته ١١
- الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناته وشأنهم مع المسلمين عند الفتح ١٢
- الخبر عن مبتدأ دول زناته في الإسلام ومصير الملك اليهم بالمغرب وأفريقية ١٣
- الطبقة الاولى من زناته ونبدأ بالخبر عن بني يفرن وانسابهم وشعوبهم وما كان
لهم من الدول بأفريقية والمغرب ١٥
- الخبر عن أبي قره وما كان لقومه من الملك بتلمسان ومبدأ ذلك ومصائره ١٧
- الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار من بني يفرن ومبدأ أمره مع
الشيعة ومصائره ١٨
- الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب الاوسط والاقصى ومبادئ
أموالهم ومصايرها ٢٤
- الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلا من المغرب الاقصى وأولية ذلك
وتصاريفه ٢٥
- الخبر عن أبي نور بن أبي قرّة وما كان له من الملك بالاندلس ايام الطوائف ٣٢
- الخبر عن مرنجيسة من بطون بني يفرن وشرح احوالهم ٣٢
- الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الاولى من زناته وما كان لهم من الدول
بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه ٣٣
- الخبر عن آل زيري بن عطية ملوك فاس وأعمالها من الطبقة الأولى من مغراوة
وما كان لهم بالمغرب الاقصى من الملك والدولة ومبادئ ذلك وتصاريفه ٣٩

- الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة الأولى من مغراوة وأولية ملكهم ومصائره ٥٠
- الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون بن فلفول من الطبقة الأولى وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم ٥٣
- الخبر عن بن يعلى ملوك تلمسان من آل خزر من أهل الطبقة الأولى والامام ببعض دولهم ومصائرها ٦٠
- الخبر عن أمراء أغمات من مغراوة ٦٢
- الخبر عن بني سنجاس وريغة والاغواط وبني ورا من قبائل مغراوة من أهل الطبقة الأولى وتصاريف أحوالهم ٦٣
- الخبر عن بني يرينان اخوة مغراوة وتصاريف أحوالهم ٦٦
- الخبر عن وجديجن وأوغمرت من قبائل زناتة ومبادئ أحوالهم وتصاريفهم ٦٧
- الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة والمصر المنسوب اليهم بصحراء أفريقية وتصاريف أحوالهم ٦٩
- الخبر عن دمر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالاندلس وأوليه ذلك ومصائره ٧١
- الخبر عن بني برزال احدى بطون دمر وما كان لهم من الحال بقرمونة وأعمالهم من الاندلس ايام الطوائف وأولية ذلك ومصائره ٧٢
- الخبر عن بني وماتوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من زناتة ٧٤
- اخبار الطبقة الثانية من زناتة وذكر انسابهم ذشعوبهم وأوليته مصائر ذلك الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت تصاريف أحوالهم إلى ان غلبوا على الملك والدول ٨٣
- الخبر عن أولاد مندبل من الطبقة الثانية وما اعادوا لقومهم مغراوة من الملك بموطنهم الاول من شلب وما إليه من نواحي المغرب الأوسط ٨٥
- الخبر عن بني عبد الواد من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم بتلمسان وبلاد المغرب الاوسط من الملك والسلطان وكيف كان مبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم ٩٧
- الخبر عن تلمسان وما تأدى اليها من أحوالها من الفتح إلى ان تأثرت بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم ١٠٢
- الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك والدولة بتلمسان وما إليها وكيف

- ١٠٥ مهد الأمر لقومه وأصاره تراثا لبنيه
- ١٠٦ الخبر عن استيلاء الامير أبي زكريا على تلمسان ودخول يغمراسن في دعوته
- ١٠٩ الخبر عن تهوض السعيد صاحب مراکش ومنازلته يغمراسن بجبل تامز ردكت ومهلكه هناك
- ١١١ الخبر عما كان بينه وبين بني مرين من الاحداث سائر ايامه
- ١١٣ الخبر عن كائنه النصرى وايقاع يغمراسن بهم
- ١١٤ الخبر عن تغلب يغمراسن على سجلماسة ثم مصيرها بعد إلى ايالة بني مرين
- ١١٥ الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبد الحق
- ١١٦ الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وما كان بينهم من الأحداث
- ١١٨ الخبر عن انتزاع الزعيم بن مكن ببلد مستغانم
- ١١٩ الخبر عن شأن يغمراسن في معاقبته مع ابن الاحمر والطاغية على فتنة يعقوب بن عبد الحق والأخذ بحجزته
- ١٢٠ الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني أبي حفص الذي كان يقيم بتلمسان دعوتهم ويأخذ قومه بطاعتهم
- الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان وما كان من دولته من الاحداث
- ١٢٢
- ١٢٣ الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وغلبه على معاقلهم والكثير من اعمالهم
- ١٢٥ الخبر عن منازلة بجاية وما دعا اليها
- ١٢٥ الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وشأن تلمسان في الحصار الطويل
- الخبر عن مهلك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي زيان وانتهاء الحصار من بعده إلى غايته
- ١٢٧
- ١٣٠ الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار إلى حين مهلكه
- ١٣١ الخبر عن محو الدعوة الحفصية من منابر تلمسان
- ١٣٢ الخبر عن دولة أبي حمو الاوسط وما كان فيها من الاحداث
- ١٣٣ الخبر عن استئصال زيرم بن حماد من ثغر برشك وما كان قبله
- ١٣٤ الخبر عن طاعة الجزائر واستئصال ابن علان منها وذكر أوليته

- ١٣٥ الخبر عن حركة صاحب المغرب الى تلمسان وأولية ذلك
- ١٣٦ الخبر عن مبدأ حصار بجاية وشرح الداعية إليه
- ١٣٨ الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني توجين وحروب السلطان معه
- ١٣٩ الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية ابنه أبي تاشفين من بعده
- ١٤٢ الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين لمحمد بن يوسف بجبل وانشريس واستيلائه عليه
- ١٤٣ الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدين التي كان فيها حتفه وذهاب سلطانه وانقراض الأمر عن قومه برهة من الدهر
- ١٤٦ الخبر عن معاودة الفتنة بين بني مرين وحصارهم تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين ومصائر ذلك
- ١٤٩ الخبر عن رجال دولته وهم موسى بن علي ويحيى بن موسى ومولاه هلال وأوليتهم ومصاير أمورهم واختصاصهم بالذكر لما صار من شهرتهم وارتفاع صيتهم
- ١٥٣ الخبر عن انتزاع عثمان بن جرار على ملك تلمسان بعد نكبة السلطان أبي الحسن بالقيراون وعود الملك بذلك لبني زيان
- ١٥٤ الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من آل يغمراسن وما فيها من الأحداث
- ١٥٦ الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن السلطان أبي الحسن وفتح وهران بعدها
- ١٥٨ الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من الحروب ولحوقه بعد الهزيمة بالمغرب
- ١٥٩ الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت على بلادهم ثم على الجزائر ومقتل علي بن راشد بتنس على أثر ذلك
- ١٦١ الخبر عن استيلاء السلطان أبي عنان على تلمسان وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية
- ١٦٢ الخبر عن دولة السلطان أبي حمو الأخير مدبل الدولة بتلمسان في الكرة الثالثة لقومه وشرح ما كان فيها من الاحداث لهذا العهد

- ١٦٤ الخبر عن اجفال أبي حمو عن تلمسان أمام عساكر المغرب ثم عوده اليها
- ١٦٥ الخبر عن مقدم عبدالله بن مسلم من مكان عمله بدرعه ونزوله من ايالة بني مرين الى أبي حمو وتقليده اياه الوزارة وذكر أوليته ومصاير أموره
- ١٦٦ الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان ورجوعه الى المغرب بعد أن ولي عليها أبو زيان حافد السلطان أبي تاشفين وما آل أمره
- ١٦٧ الخبر عن قدوم أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله
- ١٦٩ الخبر عن قدوم أبي زيان حاقدا السلطان أبي تاشفين ثانية من المغرب الى تلمسان لطلب ملكها وما كان من أحواله
- ١٧٠ الخبر عن حركة السلطان أبي حمو على ثغور المغرب
- ١٧١ الخبر عن حركة السلطان أبي حمو إلى بجاية ونكته عليها
- ١٧٣ الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من بلاد حصين وتغلبه على المرية والجزائر ومليانة وما كان من الحروب معه
- ١٧٦ الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز على تلمسان واستيلائه عليها ونكته أبي حمو وبني عامر بالدوس من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من تطري الى أحياء رياح
- ١٧٨ الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان الى تطري واجلاب أبي حمو على تلمسان ثم انهزامها وتشريدتها على سائر النواحي
- ١٧٩ الخبر عن عود السلطان أبي حمو الأخير الى تلمسان الكرة الثالثة لبني عبد الواد في الملك
- ١٨٠ الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الى بلاد حصين ثم خروجه عنها
- ١٨١ الخبر عن اجلاب عبدالله بن صغير وانتقاض أبي بكر بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان ورجوع أبي بكر الى الطاعة
- ١٨٢ الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب والحرب التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين هلك فيها عبدالله بن صغير وأخوانه
- الخبر عن انتقاض سالم بن ابراهيم ومظاهرتة خالد بن عامر على الخلاف

- وبيعتها للأمير أبي زيان ثم مهلك خالد ومراجعة سالم الطاعة وخروج أبي
 ١٨٣ زيان الى بلاد الجريد
- ١٨٦ قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم من التنافس
- ١٨٧ وثبة أبي تاشفين بجيحي بن خلدون كاتب أبيه
- ١٨٨ حركة أبي حمو على ثغور المغرب الأوسط ودخول ابنه أبي تاشفين الى
 جهات مكناسة
- ١٨٩ نهوض السلطان أبي العباس صاحب المغرب الى تلمسان واستيلاؤه عليها
 واعتصام أبي حمو بجبل تاحجموت
- ١٩٠ رجوع السلطان أبي العباس الى المغرب واختلال دولته ورجوع السلطان
 أبي حمو الى ملكه بتلمسان
- ١٩١ تجدد المنافسة بين اولاد السلطان أبي حمو ومجاهرة أبي تاشفين بذلك لهم
 ولأبيه
- ١٩١ خلع السلطان أبي حمو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالملك واعتقاله اياه
- ١٩٢ خروج السلطان أبي حمو من الاعتقال ثم القبض عليه وتغريبه الى المشرق
 نزول السلطان أبي حمو ببجاية من السفين واستيلاؤه على تلمسان ولحق أبي
 تاشفين بالمغرب
- ١٩٣ نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مرين ومقتل السلطان أبي حمو
- ١٩٤ مسير أبي زيان بن أبي حمو لحصار تلمسان ثم اجفاله عنها وحلاقه
 بصاحب المغرب
- ١٩٦ وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان
- ١٩٦ وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على
 تلمسان والمغرب الاوسط
- ١٩٧ الخبر عن بني كمي احد بطون بني القاسم بن عبد الواد وكيف نزعوا الى بني
 مرين وما صار لهم بنواحي مراکش وأرض السوس من الرياسة
- ٢٠٠ الخبر عن بني راشد بن محمد بن يادين وذكر أوليتهم وتصاريق أحوالهم
- ٢٠٣ الخبر عن بني توجين من شعوب بني يادين من أهل هذه الطبقة الثالثة من
 زناتة وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك ومصايره
- ٢٠٥

- الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت رؤوساء بني يدلتن من بطون
توجين من هذه الطبقة الثانية وأوليتهم ومصايرهم ٢١٦
- الخبر عن بني يرنا تن احدى بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم
من التقلب والامارة وذكر اوليتهم ومصايره ٢١٨
- الخبر عن بني مرين وانسابهم وشعوبهم ٢٢١
- الخبر عن امارة عبد الحق بن محيو المستقرة في بنيه وامارة ابنه عثمان من بعده ٢٢٤
- الخبر عن دولة الامير أبي يحيى بن عبد الحق مديل الأمر لقومه بني مرين ٢٢٧
- الخبر عن انتقاض أهل فاس على أبي يحيى بن عبد الحق وظفره بهم بعد
ايقاعه بيغمراسن وقومه بايسلي ٢٣٠
- الخبر عن تغلب الامير أبي يحيى على مدينة سلا وارتجاعها من يده وهزيمة
المرتضى بعدها ٢٣٢
- الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك من الأحداث ٢٣٣
- الخبر عن مهلك أبي يحيى وما كان أثر ذلك من الاحداث التي تمحضت
عن استبداد أخيه يعقوب بن عبد الحق بالأمر ٢٣٤
- الخبر عن فجأة العدو بمدينة سلا واستنقاذها من ايديهم ٢٣٥
- الخبر عن منازلة السلطان أبي يوسف حضرة مراکش دار الخلافة ٢٣٧
- الخبر عن وقعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان
باغراء أبي دبوس وتضريبه ٢٣٨
- الخبر عن السفارة والمهاوأة التي وقعت بين السلطان يعقوب بن عبد الحق
وبين المستنصر الخليفة بتونس من آل أبي حفص ٢٣٩
- الخبر عن فتح مراکش ومهلك أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين من
المغرب ٢٤١
- الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك وما كان عقب ذلك من خروج
القرابة عليه اولاد اخيه ادريس واجازتهم الى الاندلس ٢٤٢
- الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف الى تلمسان وواقعيته على يغمراسن
وقومه بايسلي ٢٤٣
- الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة أهل سبتة وفرض الاتاوة عليهم وما

- ٢٤٥ قارن ذلك من الاحداث
- الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها عنوة على بني عبد الواد والمنبات من
- ٢٤٨ عرب المعقل
- الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف على النصارى وقتل
- ٢٥٠ زعيمهم ذننه وما قارن ذلك
- ٢٥٦ الخبر عن اختطاط ابيد بسيد بفاس وما كان على بقية ذلك من الأحداث
- ٢٥٩ الخبر عن اجازة امير المسلمين ثانية وما كان فيها من الغزوات
- ٢٦١ الخبر عن تملك السلطان مدينة مالقة من يد ابن اسقيلولة
- الخبر عن تظاهر ابن الاحمر والطاغية على منع السلطان ابي يوسف من
- ٢٦٢ اجازة ابن الاحمر واصفاق يغمراسن بن زيان معهم
- الخبر عن اجازة السلطان أبي يوسف صريخا للطاغية لخروج ابنه شانجة
- ٢٧٠ عليه وافتراق كلمة النصرانية وما كان في هذه الاخبار من الغزوات
- الخبر عن شأن السلم مع ابن الاحمر وتجافي السلطان له عن مالقة ثم تجدد
- ٢٧١ الغزو بعد ذلك
- الخبر عن اجازة السلطان أبي يوسف الرابعة ومحاصرة شريش وما تخلل ذلك
- ٢٧٣ من الغزوات
- ٢٧٦ الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد السلم ومهلك السلطان على تفيئة ذلك
- الخبر عن دولة السلطان وما كان فيها من الاحداث وشأن الخوارج لأول
- ٢٧٨ دولته
- الخبر عن دخول واوي آش في طاعة السلطان ثم رجوعها الى طاعة ابن
- ٢٨٠ الأحمر
- ٢٨١ الخبر عن خروج الأمير أبي عامر ونزوعه الى مراکش ثم فيئته الى الطاعة
- الخبر عن تجدد الفتنة مع عثمان بن يغمراسن وغزو السلطان مدينة تلمسان
- ٢٨٢ ومنازلته اياها
- ٢٨٤ الخبر عن انتفاض الطاغية واجازة السلطان لغزوه
- الخبر عن انتفاض ابن الاحمر ومظاهرتة للطاغية على طريف اعادها الله
- ٢٨٥ للمسلمين

- ٢٨٦ الخبر عن وفادة ابن الاحمر على السلطان والتقاءهما بطنجة
- ٢٨٧ الخبر عن انتزاع الوزير الوساطي بحض تازوطا من جهات الريف واستنزال السلطان اياه
- ٢٨٨ الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان الى بلاد الريف وجهات غمارة
- ٢٨٩ الخبر عن حصار تلمسان الكبير وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٢٩١ الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك من الأحداث
- ٢٩٣ الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٢٩٥ الخبر عن افتتاح بلاد توجين وما تخلل ذلك
- ٢٩٦ الخبر عن مراسلة الموحدين ملوك افريقية بتونس وبجاية لزناة وأحوالهم معهم
- ٢٩٨ الخبر عن مراسلة ملوك المشرق الاقصى ومهاداتهم ووقادة امراء الترك على السلطان وما تخلل ذلك
- ٣٠١ الخبر عن انتفاض ابن الاحمر واستيلاء الرئيس سعيد على سبتة وخروج عثمان بن العلاء في غمارة
- ٣٠٣ الخبر عن انتفاض بني كمي من بني عبد الواد وخروجهم بأرض السوس
- ٣٠٥ الخبر عن مهلك المشيخة من المصامدة تبليس أبي الملياني
- ٣٠٧ الخبر عن رياسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم
- ٣٠٧ الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب
- ٣٠٨ الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت واستلحامه المرشحين وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٣١١ الخبر انتزاع يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلب السلطان عليه
- ٣١٢ الخبر عن غزاة السلطان لمدافة عثمان بن أبي العلاء ببلاد الهبط ومهلكه بطنجة بعد ظهوره
- ٣١٤ الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع وما كان فيها من الاحداث
- ٣١٥ الخبر عن مقتل عبدالله بن أبي مدين
- ٣١٦ الخبر ثورة أهل سبتة بالاندلسيين ومراجعتهم طاعة السلطان
- ٣١٨ الخبر عن بيعه عبد الحق بن عثمان بمالأة الوزير والمشيخة وظهور السلطان عليهم ثم مهلكه باثر ذلك

- ٣١٩ الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد وما كان فيها من الاحداث
- ٣٢٠ الخبر عن حركة السلطان أبي سعيد الى تلمسان أولى حركاته اليها
- ٣٢١ الخبر عن انتفاض الأمير أبي علي وما كان بينه وبين أبيه من الوقعات
- ٣٢٤ الخبر عن نكبة منديل الكتاني ومقتله
- الخبر عن انتفاض العزفي بسبته ومنازلته ثم مصيرها الى طاعة السلطان بعد مهلكه
- ٣٢٦
- ٣٢٨ الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة
- ٣٢٩ الخبر عن صريخ أهل الأندلس ومهلك بطرة على غرناطة
- الخبر عن صهر الموحدين والحركة الى تلمسان على أثره وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٣٣١
- الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد عفا الله عنه وولاية السلطان أبي الحسن وما تخلل ذلك من الاحداث
- ٣٣٤
- الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن الى سجلماسة وانكفائه عنها الى تلمسان بعد الصلح مع أخيه والاتفاق
- ٣٣٥
- الخبر عن انتفاض الأمير أبي علي ونهوض السلطان أبي الحسن اليه وظفره به
- ٣٣٦
- ٣٣٧ الخبر عن منازله جبل الفتح واستئثار الأمير أبي مالك والمسلمين به
- الخبر عن حصار تلمسان وتغلب السلطان أبي الحسن عليها وانقراض أمر بني عبد الواد بمهلك أبي تاشفين
- ٣٣٩
- الخبر عن نكبة الأمير عبد الرحمن بمتيجة وتقبض السلطان عليه ثم مهلكه اخرا
- ٣٤٢
- ٣٤٣ الخبر عن خروج ابن هيدور وتلبسية بأبي عبد الرحمن
- ٣٤٤ الخبر عن شأن الجهاد واغراء السلطان ابنه الأمير ابا مالك واستشهاده
- ٣٤٥ الخبر عن واقعة الملند والظفر به وظهور اساطيل المسلمين على اسطول النصارى
- ٣٤٦
- الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين
- ٣٤٧ الخبر عن منازلة الطاغية الجزيرة ، ثم تغلبه عليها بعد ان غلب على القلعة ثغور ابن الأحمر

- ٣٤٩ الخبر عن شفاعة صاحب تونس في اولاد أبي العلاء ووصولهم الى السلطان
الخبر عن هدية السلطان الى المشرق وبعثه بنسخ المصحف من خطه الى
الحرمين والقدس
- ٣٥٠
- ٣٥٢ الخبر عن هدية السلطان الى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب
- ٣٥٣ الخبر عن اصهار السلطان الى صاحب تونس
- ٣٥٤ الخبر عن حركة السلطان الى افريقية واستيلائه عليها
- الخبر عن واقعة المغرب مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما تخللها من
الاحداث
- ٣٦١
- ٣٦٦ الخبر عن انتفاض الثغور الغربية ورجوعها الى دعوة الموحدين
- الخبر عن انتراء اولاد السلطان بالمغرب الاوسط والاقصى ثم استقلال أبي
عنان بملك المغرب
- ٣٦٨
- الخبر عن انتفاض النواحي وانتراء بني عبد الواد بتلمسان ومغراوة بشلف
وتوجين بالمرية
- ٣٧١
- ٣٧٣ الخبر عن رجوع الثغور الغربية لأمرأ الموحدين ببجاية وقسنطينة
- الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان وولية عريف بن يحيى من تونس الى
المغرب الاوسط
- ٣٧٤
- الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن الى المغرب وتغلب المولى الفضل على
تونس وما دعا الى ذلك من الاحوال
- ٣٧٥
- الخبر عن استيلاء السلطان على سجلماسة ثم فرارة عنها امام ابنه الى مراکش
واستيلائه عليها وما تخلل ذلك
- ٣٧٨
- الخبر عن استيلاء السلطان على مراکش ثم انهزامة امام الامير أبي عنان
ومهلكه بجبل هنتاة عفا الله عنه
- ٣٧٩
- الخبر عن حركة السلطان أبي عنان الى تلمسان وايقاعه ببني عبد الواد
بانكاد ومهلك سلطانهم سعيد
- ٣٨١
- الخبر عن شأن أبي ثابت وايقاع بني مرين به بوادي شلف وتقبض الموحدين
عليه ببجاية
- ٣٨٢
- ٣٨٣ الخبر عن تملك السلطان أبي عنان ببجاية وانتقال صاحبها الى المغرب

- ٣٨٣ الخبر عن ثورة أهل بجاية ونهوض الحاجب اليها في العساكر
- الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو وما عقد له السلطان على ثغر بجاية وعلى
- ٣٨٦ منازلة قسنطينة ونهوضه لذلك
- الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن يجبل السكسيوي
- ٣٨٨ ومكر عامل درعة به ومهلكه
- ٣٩٠ الخبر عن انتفاض عيسى بن الحسن يجبل الفتح ومهلكه
- ٣٩٢ الخبر عن نهوض السلطان الى فتح قسنطينة وفتحها ثم فتح تونس عقبها
- ٣٩٥ الخبر عن وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر الى افريقية
- الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان ونصب السعيد للأمر باستبداد الوزير
- ٣٩٦ حسن بن عمر في ذلك
- الخبر عن تجهيز العساكر الى مراکش ونهوض الوزير سليمان بن داود لمحاربة
- ٣٩٧ عامر بن محمد
- الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان وتجهيز العساكر لمدافعته ، ثم
- ٣٩٨ تغلبه وما تخلل ذلك من الاحداث
- الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماسي الى تلمسان وتغلبه عليها ثم انتفاضه
- ٤٠٠ ونصبه سليمان بن منصور للامر
- الخبر عن نزول المولى أبي سالم يجبال غمارة واستيلائه على ملك المغرب
- ٤٠٢ ومقتل منصور بن سليمان
- الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على
- ٤٠٥ السلطان
- الخبر عن انتفاض الحسن بن عمر وخروجه بتادلا وتغلب السلطان عليه
- ٤١٠ ومهلكه
- ٤١١ الخبر عن وفد السودان وهديتهم واغرابهم فيها بالزرافة
- الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وايثار أبي زيان حافد
- ٤١٢ أبي تاشفين بملكها وما كان من ذلك من صرف امراء الموحدين الى بلادهم
- الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم واستيلاء عمر بن عبد الله على ملك
- ٤١٣ المغرب ونصبه للملوك واحداً بعد واحد الى ان هلك

- الخبر عن الفتك بابن أنطول قائد العسكر من النصارى ثم خروج يحيى بن
٤١٦ رحو وبني مرين عن الطاعة
- الخبر عن وصول عبد الحلیم ابن السلطان من تلمسان وحصار البلد الحديد
٤١٨ الخبر عن قدوم الأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن وبيعته بالبلد الحديد في
٤٢٠ كفالة عمر بن عبدالله
- الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحلیم واخوته الى سجلماسة بعد الواقعة عليهم
٤٢١ بمكناسة
- الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماسي من مراکش وما كان من
٤٢٢ وزارة ابن ماسي واستبداد عامر بمراكش
- الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبدالله الى سجلماسة
٤٢٣
- الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحلیم الى المشرق
٤٢٤ الخبر عن نهوض ابن ماسي بالعساكر الى سجلماسة واستيلائه عليها ولحاق
٤٢٥ عبد المؤمن بمراكش
- الخبر عن انتفاض عامر ثم انتفاض الوزير ابن ماسي على اثره
٤٢٥
- الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه الى مراکش
٤٢٧
- الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن وبيعة عبد العزيز ابن
٤٢٨ السلطان أبي الحسن
- الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبدالله واستبداد السلطان عبد العزيز بأمره
٤٢٩ الخبر عن انتزاع أبي الفضل بن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان اليه
٤٣٠ ومهلكه
- الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن مصمود ومقتله
٤٣١
- الخبر عن حركة السلطان الى عامر بن محمد ومنازلته بجبله ثم الظفر به
٤٣١
- الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء
٤٣٣
- الخبر عن حركة السلطان الى تلمسان واستيلائه عليها وعلى سائر بلادها وفرار
٤٣٥ أبي حمو عنها
- الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان الى تيطرا واجلاب
العرب بأبي حمو على تلمسان الى أن غلبهم السلطان جميعاً على الأمر

واستوسق له الملك

- ٤٤٠ الخبر عن قدوم ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعاً اليه عن سلطانه
ابن الأحمر صاحب الاندلس
- ٤٤٦ الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد أبي بكر
بن غازي عليه ورجوع بني مرين الى المغرب
- ٤٤٦ الخبر عن استيلاء أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط
- ٤٤٧ الخبر عن اجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن الى المغرب واجتماع
بطوية إليه وقيامهم بشأنه
- ٤٤٩ الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك
وما كان خلال ذلك من الأحداث
- ٤٥٢ الخبر عن مثل ابن الخطيب
- ٤٥٤ الخبر عن اجازة سليمان ب داود الأندلس ومقامه الى أن هلك بها
الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه الى ما يرقه ثم
رجوعه وانتقاضه بعد ذلك
- ٤٥٥ الخبر عن انتقاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب مراکش
والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد الرحمن على أزموور
ومقتل عاملها حشون بن علي
- ٤٥٧ الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراکش ونهوض فاس اليه
وحصاره ثم عودهما الى الصلح
- ٤٥٩ انتقاض علي بن زكريا شيخ الهاكرة على الأمير عبد الرحمن وفتكه بمولاه
منصور ومقتل الأمير عبد الرحمن
- ٤٦٠ اجلاب العرب على المغرب في مغيب السلطان بغرية من ولد أبي علي وأبي
تاشفين بن أبي حمو صاحب تلمسان ومحيء أبي حمو على أثرهم
- ٤٦٢ نهوض السلطان الى تلمسان وفتحها وتخريبها
- ٤٦٣ اجازة السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان من الأندلس الى المغرب
واستيلاؤه على الملك وظفره بابن عمه السلطان أبي العباس وارعاجه الى
الاندلس

- ٤٦٦ كبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله
- الخبر عن خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماسي اليه
- ٤٦٧ بالعساكر
- ٤٦٧ وفاة السلطان موسى والبيعة للمتصر ابن السلطان أبي العباس
- اجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من الاندلس
- ٤٦٨ والبيعة له
- الفتنة بين الوزير ابن ماسي وبين السلطان ابن الأحمر واجازة السلطان أبي
- ٤٧٠ العباس الى سبته لطلب ملكه واستيلائه عليها
- مسير السلطان أبي العباس من سبته لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماسي
- ٤٧١ لدفاعه ورجوعه منهزماً
- ٤٧٣ ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراکش واستيلاء اوليائه عليها
- ٤٧٣ ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي على مراکش واستقلاله بها
- ٤٧٤ حصار البلد الحديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماسي ومقتله
- ٤٧٥ وزارة محمد بن علال
- ٤٧٦ ظهور محمد ابن السلطان عبد الحلیم بسجلماة
- ٤٧٨ نكبة ابن أبي عمر ومهلكه وحركات ابن حسون
- ٤٧٩ خلاف علي بن زكريا بجبل الهساكرة ونكبته
- وفادة أبي تاشفين على السلطان أبي العباس صريحاً على أبيه ومسيره
- ٤٧٩ بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي حمو
- ٤٨٢ وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان
- وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على
- ٤٨٢ تلمسان والمغرب الأوسط
- الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق من الغزاة المجاهدين بالاندلس
- ٤٨٥ الذين قاسموا ابن الأحمر في ملكه وانفردوا برياسة جهاده
- الخبر عن موسى بن رحو فاتح هذه الرياسة بالاندلس وخبر أخيه عبد الحق
- ٤٨٧ من بعده وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما
- ٤٨٨ الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالاندلس

- ٤٩٠ الخبر عن عثمان بن أبي العلاء من أمراء الغزاة المجاهدين بالأندلس
- ٤٩٣ الخبر عن رياسة ابنه أبي ثابت من بعده ومصير أمرهم
- الخبر عن يحيى بن عمر بن رحو ومارته على الغزاة بالأندلس أولاً وثانياً
- ٤٩٥ ومبدأ ذلك وتصاريفه
- ٤٩٧ الخبر عن ادريس بن عثمان بن أبي العلاء ومارته بالأندلس ومصاير أمره
- ٤٩٩ الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره
- الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي
- ٥٠٠ على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره
- ٥٠٣ التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب
- ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها الى المغرب والكتابة على السلطان أبي
- عنان
- ٥٣٩ حديث النكبة من السلطان أبي عنان
- ٥٤٠ الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر والانشاء
- ٥٤٨ الرحلة الى الأندلس
- ٥٥٧ الرحلة من الأندلس الى بجاية وولاية الحجاية بها على الاستبداد
- ٥٦١ مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان
- ٥٨٠ مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني عبد الواد
- ٥٩١ فضل الوزير ابن الخطيب
- ٦٣٢ العودة الى المغرب الأقصى
- الاجازة الثانية الى الأندلس ثم الى تلمسان واللحاق بأحياء العرب والمقامة
- ٦٣٧ عند اولاد عريف
- ٦٣٩ الفيئة الى السلطان أبي العباس بتونس
- ٦٤٨ الرحلة الى المشرق وولاية القضاء بمصر
- ٦٥٧ السفر لقضاء الحج
- ٦٦٧ ولاية الدروس والخوانق
- ٦٩٠ ولاية خانقاه بيبرس ، والغزل منها
- فتنة الناصري وسياقه الخبر عنها بعد تقديم كلام في احوال الدول يليق بهذا

- الموضع — ويطلعك على أسرار في تنقل احوال الدول بالتدرج الى
الضخامة والاستيلاء ، ثم الى الضعف والاضمحلال ، والله بالغ أمره
٦٩١ السعاية في المهاداة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر
٧٠٦ ولاية القضاء الثانية بمصر
٧١٤ سفر السلطان الى الشام لمدافة الططر عن بلاده
٧١٧ لقاء الامير تمر سلطان المغل والططر
٧٢٨ الرجوع عن هذا الامير تمر الى مصر
٧٣٧ ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر
٧٤١ يقول المتوكل على من وصف نعمه بالاسباغ الفقير الى الله تعالى محمد الصبّاغ
٧٤٢ مصحح دار الطباعة الخديوية ببولاق مصر المعزية
٧٤٥ الفهرس

المصادر والمراجع القديمة

- ١ — ابن الاثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيناني الملقب بعز الدين ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م) .
* الكامل في التاريخ — دار صادر ١٩٦٥ .
- ٢ — الاصطخري (الشيخ أبي اسحق الفارسي) .
* كتاب الاقاليم — مكتبة المثنى — بغداد .
- ٣ — الاصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسن بن محمد القرشي الاموي الكاتب ت ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م) .
* الاغانى — الطبعة المصورة عن طبعة بولاق المصرية — دار الفكر — بيروت ١٩٧٠ .
- ٤ — ابن أبي أصيبعة الخزرجي السعدي (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم) .
* عيون الانباء في طبقات الاطباء — اعتناء الاستاذ مد . كونسبرج ١٨٨٤ م المطبعة الوهية ١٣٠٠ هـ .
- ٥ — البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر ٢٧٩ هـ — ٨٩٢ م) .
* فتوح البلدان — عني بنشره رضوان محمد رضوان — المطبعة المصرية — الازهر ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م .
- ٦ — البلخي (أبو زيد بن سهل ت ٣٢٣ هـ) .
* البدء والتاريخ « ينسب الى مطهر بن طاهر المقدسي » .
- ٧ — البيروني (أبو الريخان محمد بن أحمد ت ٤٤٠ هـ) .
* الاثار الباقية عن القرون الخالية — طبعة ليزج ١٨٧٨ م .
- ٨ — البغدادي السويدي (أبو الفوز محمد أمين) .
* سياتك الذهب في معرفة قبائل العرب — مكتبة المثنى — بغداد .
- ٩ — لتلمساني (الشيخ أحمد بن محمد المقرئ) .
* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — دار صادر — بيروت ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م تحقيق الدكتور احسان عباس .
- ١٠ — الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ٢٥٥ هـ) .
* البيان والتبيين (تحقيق المحامي فوزي عطوي — مكتبة الطلاب — بيروت) .
* التاج في اخبار الملوك (تحقيق أحمد زكي باشا — المطبعة الاميرية القاهرة ١٣٢٣ هـ — ١٩١٤ م) .
- ١١ — الخزري (عز الدين بن الاثير) .
* اللباب في تهذيب الانساب (دار المثنى — بغداد) .
- ١٢ — ابل حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي) .
* جبهة انساب العرب — تحقيق عبد السلام محمد هارون (دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م — ١٣٨٢ هـ) .
- ١٣ — الحسيني الزبيدي (محمد مرتضى) .
* رح نعروس من جواهر القدموس (تحقيق عبد العليم الصحاوي ومراجعة عبد الكريم العزباوي وعبد الستار أحمد فرج) مطبعة الكويت ١٩٧٤ .

- ١٤ — الحموي (شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت ت ٦٣٦ هـ) .
* معجم البلدان — دار صادر .
- ١٥ — ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر ٦٠٨ هـ — ٦٨١ هـ) .
* وفيات الأعيان وأبناء الزمان — تحقيق الدكتور إحسان عباس — دار صادر .
- ١٦ — الدينوري (أبي حنيفة أحمد بن داود ت ٢٨٢ هـ) .
* الأخبار الطوال — تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة جمال الدين الشيبان — دار احياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٦٠ الطبعة الاولى .
- ١٧ — ابن أبي زرع الفارسي (الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر ت ٧٢٦ هـ) .
* الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس طبع بفاس ١٣٠٣ هـ .
- ١٨ — السمعاني (أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التيمي ت ٥٦٢ هـ) .
* كتاب الانساب — لندن ١٩١٢ .
- ١٩ — السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ) .
* تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد — مطبعة المدني — الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢٠ — الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة . ت ٥٩٩ هـ) .
* بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الاندلس — طبع في مدينة مجريط بمطبع روخس سنة ١٨٨٣ م .
- ٢١ — الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ) .
* تاريخ الامم والملوك — دار صادر — بيروت .
- ٢٢ — ابن عربشاه الدمشقي ٧٩١ — ٨٥٤ هـ .
* عجائب المقدور في أخبار نواب تيمود — ليدن ١٦٣٦ م .
- ٢٣ — ابن العماد الحنبلي (أبي الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩ م) .
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب — دار الآفاق الجديدة — بيروت .
- ٢٤ — العيني (بدر الدين ٧٦٣ — ٨٥٥ هـ) .
* عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان .
- ٢٥ — أبو الفداء (اسماعيل بن علي بن محمد ت ٧٣٢ هـ) .
* المختصر في أخبار البشر — المطبعة الحسينية المصرية — الطبعة الاولى .
- ٢٦ — القلقشندي (أحمد بن علي) .
* صبح الأعشى في كتابة الانشا — دار الكتب المصرية ١٣٣٨ هـ — ١٩٢٠ م .
- ٢٧ — الكندي المصري (أبي عمر محمد بن يوسف) .
* كتاب الولاة وكتاب القضاة — مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ ، اعادت طبعة بالأوفست مكتبة المثني — بغداد .
- ٢٨ — لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ — ٧٧٦ هـ) .
* الاحاطة في أخبار غرناطة — شركة طبع الكتب العربية — مصر — ١٣١٩ هـ .
- ٢٩ — ابن ماكولات ٤٧٥ هـ — ١٠٨٢ م .
* الاكمال في رفع الارياب عن المؤلف والمختلف في الاسماء والكنى والانساب . اعنتي بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني — مطبعة مجلس دائرة المعارف

- العثمانية — حيدرآباد — الطبعة الثانية .
- ٣٠ — المقرئزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ) .
* كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ (الخطط المقرئزية) — دار صادر بيروت .
- ٣١ — ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ) .
* لسان العرب — دار صادر — ١٩٦٨ .

المراجع الحديثة

- ١ — (الأمير شكيب) أرسلان .
* الحلل السندسية .
- ٢ — (كارل) بروكلمان .
* تاريخ الشعوب الإسلامية — ترجمة نبيه امين فارس — منير بعلبكي دار العلم للملايين بيروت — الطبعة الخامسة .
- ٣ — (فرانز) روزنشال .
* علم التاريخ عند المسلمين — نشر بالمشاركة مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بغداد — نيويورك (مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٣) ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي . مراجعة محمد توفيق حسين .
- ٤ — زامباور .
* معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي — أخرجه الدكتور زكي محمد حسن بك وحافظ أحمد حمدي وأحمد ممدوح حمدي — (مطبعة فؤاد الأول ١٩٥١) .
- ٥ — الزركلي (خير الدين) .
* العلام « قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين » (دار العلم للملايين الطبعة الرابعة ١٩٧٩) .
- ٦ — سركيس (يوسف) .
* معجم المطبوعات العربية والمعربة — مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م .
- ٧ — ابن عبد الله (عبد العزيز) .
* الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية — مطبعة فضالة — المغرب ١٩٧٦ .
* المعجم التاريخي (مكتبة السلام — مكتبة المعارف المغرب) .
- ٨ — ابن العربي (الصديق) .
* كتاب المغرب (مطبعة الامنية الرباط — ١٩٥٦ الطبعة الثانية) .
- ٩ — ابن منصور (عبد الوهاب) .
* قبائل المغرب (المطبعة الملكية — الرباط — ١٩٦٨ الجزء الاول) .
- ١٠ — نقاش (زكي) .
* العلاقات الاجتماعية — دار الكتاب اللبناني .
- ١١ — البينة — مجلة الرسالة الخالدة والثقافة المتحررة — العدد الثالث — ١٩٦٢ م — ١٣٨٢ هـ .